

سيد المرسلين

_ صلى الله عليه وآله وسلم _

تأليف

الاستاذ المحقق الشيخ جعفر السبحاني الجزء الأول

نشر

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرسين بقم المشرفة _ ايران _

(2)

(3)

بسم الله الرحمن الرحيم

لم تنزل السيرة المحمدية العطرة في جميع أبعادها موضع اهتمام الأمة الاسلامية من لدن بزوغ فجر الإسلام العظيم، ومنذ الأيام الأولى من البعثة النبوية الشريفة.

ولا غرو فقد كان الرسول الأكرم محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وآله وسلم - يجسد بسيرته المثلى قيم الدين ويمثل بأخلاقه السامية أخلاق القرآن، ويعكس بمواقفه الرشيدة وإبدايته الحكيمة لشؤون الأمة طريقة الإسلام في إدارة دفة الحياة.

هذا مضافاً إلى أنه كان القدوة التي أمر الله تعالى المسلمين بالافتداء بها، واقتفاء أثرها، كما أنه كان الظاهرة الفريدة الباهرة في الأدب الرفيع والإنسانية الشفافة والعاطفة الصادقة والرحمة والطف، وغيرها مما كانت تفتقر بيئة ظهور الإسلام الأولى إليه وتتعطش إلى مثله.

من هنا أخذ المسلمون يهتَمون بكل حركات الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وسكناته، ويتأملون في جميع أعماله وتصرفاته فاذا رأوا منه خُلُقاً بادرُوا إلى تكراره في سلوكهم، وإذا شاهدوا منه عملاً أسرعوا إلى فعله في حياتهم، وعمدوا في المآل إلى تسجيل كل صغيرة وكبيرة في هذا المجال، وضبط كل دقيقة وجلييلة في هذا الصعيد.

وفعلا كانت هذه السيرة الطيبة العطرة المقدسة هي المنهج العملي للمسلمين، وهي سرّ تقدّمهم، وهي رمز عظمتهم وسموّهم، وعلوّ شأنهم وشأوهم.

(4)

و لا تزال هذه السيرة المشرفة اليوم قادرة على أن تكون ضوء المسيرة، ومشعل الطريق، ومنهج العمل ومفتاح الانتصار في معرّكتنا ضدّ قوى الشرّ والطغيان.

وحيث إن أموراً اقحمت في هذه السيرة، كما أنّ تطور الزمن وكيفية الدراسات اقتضيا إخراج دراسات في مجال السيرة تتناول البعد الذاتي والرسالي والسياسي والقيادي والعسكري لسيد المرسلين - صلى الله عليه وآله وسلم - بالتحقيق والتحليل، وتتناسب مع حاجة العصر ولغته، لهذا رأت مؤسسة النشر الإسلامي أن تقدّم للجبل الحاضر خاصة وللمسلمين عامة هذه الدراسة القيمة في سيرة خاتم الأنبياء محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - لا تسامها بكثير من هذه المواصفات.

والدراسة هي مجموعة محاضرات للاستاذ المحقق الشيخ جعفر السبحاني الذي عرف في الأوساط الإسلامية بتحقيقاته العميقة في الكتاب والسنة والعقيدة والتاريخ.

وفي الوقت الذي تقوم به المؤسسة - ولله الحمد - بطبع هذه الدراسة القيمة ونشرها بعد مقابلتها تقدّم جليل شكرها وامتنانها لسماحة الاستاذ الألمي الشيخ جعفر الهادي لما بذله من جهود وافرة من تعريبها واستخراج النصوص من مصادر سائلة الله سبحانه له ولسماحة الشيخ المحاضر ولها المزيد من التوفيق، كما وتدعو المولى عزّ وعلا أن يتقبّل منا جميعاً وأن تشملنا شفاعة الرسول الأعظم وآله الأطهار - عليهم السلام - في يوم الحشر إنه خير موفق ومعين.

مؤسسة النشر الإسلامي

التابعة لجماعة المدرّسين بقم المشرفة

(5)

السيرة المحمّدية مدرسة الأجيال

(لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)

القرآن الكريم

النبيُّ الأكرم «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - أسوةٌ للمسلمين... أسوةٌ يقتدون بها في جميع مناحي حياتهم: الفردية والاجتماعية، والسياسية... أسوةٌ إلى الأبد... في كل زمان و مكان، في كل عصر و مصر، لجميع المسلمين من كل لون ولغة.

ولكن كيف يتأسى المسلمون - في مختلف الأجيال والأدوار - برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكيف يقتدون بسيرته المثلى، ويهتدون بهديه العظيم؟

إنّ هذا لا يتسنى إلا إذا كانت حياة رسول الإسلام بجميع خصوصياتها، وتفصيلها، وفي جميع مجالاتها ونواحيها، مدوّنة مسجّلة، بل ومحلّلة تحليلاً دقيقاً وعميقاً.

من هنا فإن الضرورة تقضي بوجود تاريخ مدوّن، مشفوع بالتحليل الدقيق، والدراسة الموضوعية لشخصية وسيرة سيد المرسلين صلى الله عليه وآله في كافة مجالاتها الشخصية والرسالية والسياسية والعسكرية.

حقاً إن في حياة رسول الإسلام العظيم «محمّد بن عبد الله» - صلى الله عليه وآله وسلم - - كما هو واضح لمن تتبّع وتصفح - أموراً دقيقة، ولكن بالغة العظمة في مداليلها ومعانيها، بالغة الأهمية في معطياتها ودروسها.

(6)

فرسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - هو خاتم الأنبياء، ورسالته وشريعته خاتمة الرسالات والشرائع ونهضته هي النهضة الكبرى التي مهّدها الأنبياء السابقون، وقد فتحت هذه النهضة الالهية صفحة جديدة في حياة البشرية، وغيّرت مسار التاريخ الإنساني تغييراً جذرياً، وأسست حضارة كبرى لا تزال أمواجها - رغم مرور أربعة عشر قرناً - حية نابضة، فاعلة، تهزّ الضمائر، وتتفاعل مع العقول.

ولهذا فإنّ السيرة المحمّدية مشحونةٌ بالمناهج والدروس، زاخرةٌ بالبصائر والعبر، بقدر ما هي مليئةٌ بالدقائق والحقائق، واللطائف والأسرار.

حقاً إن حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بحاجة إلى تعمق جديد كلما تجدد الزمن، وكلما تقدمت العلوم والمعارف، وتطورت الحياة، وانفتحت أمام البشرية آفاق جديدة في شتى الأصعدة والمجالات.

ولا شك أنّ هذه المهمة ليست عملاً بسيطاً ومهمّة سهلة، وخاصة مع ما عليه الكثير من المصادر التاريخية الأولى من تصحيف أو تحريف أو تشويه للحقائق، أو تغيير للأمر.

فإن هذه المهمة تحتاج - في ما تحتاج إليه - إلى ثلاثة أشياء أساسية:

1- عقلية متفتحة، متدبرة، نافذة متأنية.

2- جهود كبيرة، وتتبع واسع، وتمييز للصحيح عن السقيم، والدخيل عن الاصيل.

3- معرفة بجوانب تتصل بالسيرة المحمّدية اتصالاً وثيقاً كالمعرفة بمكانة سيّد المرسلين - صلى الله عليه وآله وسلم - في القرآن الكريم.

فمع توفّر هذه الشروط يمكن الحصول على صورة نقيّة، ومفيدة للسيرة المحمّدية المباركة، صورة تتفق مع روح القرآن، وتلتقي مع الواقع، وتصلح للاتساء، والافتداء، والاهتداء والافتقاء.

ولقد توفرت هذه الشروط - ولله الحمد - في استاذنا العلامة الحجّة المحقّق سماحة الشيخ جعفر السبحاني، حفظه الله.

(7)

فهو المعروف بسلسلته القرآنية «مفاهيم القرآن» التي تكشف عن إحاطة كبيرة بكتاب الله العزيز، وإمام قليل النظر بمفاهيمه.

ولهذا كان خير من قام في عصرنا الحاضر بدراسة السيرة المحمّدية الطاهرة العبقة، فكان هذا العمل التاريخي المبارك الذي توفّرت فيه المستلزمات الثلاثة الأنفة الذكر: العقلية المتفتحة، والمعرفة الواسعة بالقرآن الكريم وخاصة في ما يتصل بالرّسول الأكرم، إلى جانب التتبع الواسع والاستقصاء الكبير لمواقع العبرة والاسوة في حياة خاتم الأنبياء وسيّد المرسلين.

ولا أجدني - في هذا التقديم العابر - بحاجة إلى ذكر نقاط القوة الكثيرة في هذه الدراسة المستوعبة لشخصية وحياة رسول الإسلام، بل أرى أن يحاول القارئ الكريم بنفسه الاطلاع على ذلك حتّى لا يفوته شيء ممّا لا يفوت، وسيقف بنفسه أيضاً على جسامته ما بذل في هذه الدراسة من جهد، وروعة ما ضُمّنت من تحليل، وأهمية ما احتوته من حقائق.

وفي الختام أسأل الله العليّ القدير ان يتقبل منا جميعاً هذا الجهد، ويجعله ذخراً ليوم لا ينفع فيه مال ولا بنون، انه خير معين.

قم

جعفر الهادي

30 شعبان 1409 هجرية

(8)

(9)

مقدمة المحاضر

التاريخ في أعظم حماساته

*مُختبرُ «الحياة» العظيم.

«لقد غُمرتْ مع أولهم إلى آخرهم.»!

*حياة العظماء، والخالدين.

*عندما يلتقي العالم الحاضر بالعالم الغابر.

*التاريخ بين التسجيل.

*أخطاء المستشرقين العجيبة.

يُحاولُ الإنسان دائماً أن ينظر إلى كل قضية من القضايا من نافذة الحس، وإن يدرسها من خلال المنظار الحسي المادي، لأنَّ أوثَقَ المعلومات لديه هي تلك التي تتألف من هذه «المعلومات الحسية» ولهذا فإنَّ المسائل التي تحظى بأدلة حسية أكثر تكسب في العادة قسطاً أكبر من ثقة الإنسان وتصديقه.

وعلى هذا الأساس عمَدَ العالم اليوم إلى تأسيس آلاف المختبرات الضخمة للتحقيق في شتى القضايا العلمية، ويعكف العلماء في هذه المختبرات على دراسة وتحليل الامور المتنوعة بأسلوب خاص وطريقة معينة.

ولكن هل يمكن - تُرى - أن تدخل المسائل والقضايا الاجتماعية في نطاق التجربة المختبرية، وتخضع للمجهر والميكروسكوب، ليتمكن الحكم في هذه المجالات من خلال ذلك؟!!

فمثلاً؛ هل يمكن أن نعرف عن طريق التجارب المختبرية ما يؤدي إليه

(10)

الاختلاف والتشردم في المجتمع الواحد، وما يصيب شعباً من الشعوب أو أمة من الأمم من هذا الطريق؟

أم هل يمكن تقييم ما تنتهي إليه جهود المستعمرين، أو ما يؤول إليه الظلم والحيث، من خلال تجربة حسية؟

أم هل يمكن الوقوف على نتائج «الاختلاف الطبقي»، «والتمييز العنصري» في المجتمع عن طريق التجربة المختبرية؟

في الاجابة على كل هذه الاسئلة يجب أن نقول: كلامع الاسف.

وذلك لأنه لا توجد للقضايا الاجتماعية - رغم أهميتها القصى - مثل هذه المختبرات، وحتى لو أمكن توفير مثل هذه المختبرات المناسبة لتحليل وتقييم ودراسة القضايا الاجتماعية، فإن إنشاءها وإيجادها يكلف نفقات باهضة، وتستدعي جهوداً عظيمة.

ولكن الأمر الذي في مقدوره أن يقلل من حجم هذا النقص إلى حد كبير هو أننا نملك اليوم شيئاً يسمى بـ: «تاريخ الماضين» والذي يشرح لنا ما كان عليه البشر - أفراداً وجماعات - طوال آلاف السنين من الحياة على هذه الارض، كما ويعكس مختلف الذكريات والخواطر عنهم، من إنتصارات وهزائم، ونجاحات وانتكاسات، ويوقفنا بالتالي على كل ما وقع في حياة الأمم والشعوب من حوادث مرة أو حلوة.

إنّ التاريخ يذكر لنا: كيف وُجِدَت الحضارات المشرقة والمدنيات العظمى في العالم، وكيف سلكت - بعد مدة - طريق السقوط والانقراض، حتى أنها قد مُحيت عن صفحة الوجود بالمرّة، واصبحت خبراً بعد أثر، وبالتالي ما هي العوامل التي كانت وراء سيادة الشعوب ثم اندحارها.

إنّ حياة الماضين وتاريخهم يحتفظ لنا في صفحاته بقسط كبير ومهم جداً من هذه الحوادث، ولهذا صحّ أن يقال: «التاريخ مختبر الحياة العظيم»، فبمعونة التاريخ يمكن تقييم مختلف القضايا الاجتماعية، ودراستها واستخلاص النتائج والعبر المفيدة منها.

(11)

وإنّ من حُسن الحظ أننا لم نكن أول من حطّ قدمه على هذا الكوكب، فهذه الارضُ بسهولة وشعابها العريضة، وتلك السماء بنجومها وكواكبها الساهرة شهدت ملايين الملايين من البشر الذين سكنوا الارض من قبلنا، وشهدنا افراحهم واتراحهم، همومهم وغمومهم،

وحرورهم، ومصالحاتهم، وكل ما رافق واكتنف حياتهم من حبّ وبغض وظلمات وأنوار، وارتقاء وهبوط، إلى غير ذلك من شؤون وشجون الحياة البشرية التي يزخر بها تاريخ الشعوب والاقوام والامم.

صحيح أنهم قد اختلفوا مع الكثير من أسرار حياتهم، وغابوا جميعاً - أشخاصاً وأسراً - في بحر من النسيان وانسدل عليهم الستار، إلا أن قسطاً مُلفتاً للنظر وجملة يُعتمد بها من تلك الامور إما أنها قد دُونت بأيدي أصحابها، أو لا تزال طبقات الارض وبطن التلال تحتفظ بها في ثناياها وطياتها، كما ولا تزال ذات الاطلال الصامتة - في ظاهرها - تشكل أضخم متحف، واغنى معرض، واكبر مختبر، يعيد لنا شريط التاريخ ويحكي وقائعه وأحداثه، ويشرّح رموزه وأسراه.

إنّ مُطالعة تلك الصفحات من تاريخ الامم الغابرة في الكتب، أوفي الاطلال العظيمة، أو في ما يعثر عليه المنقّبون في بطون التلال، وثنايا الارض تعلمنا أموراً كثيرة، وتضيف إلى عُمرنا عُمرأً جديداً وزمناً اضافياً، لا يُستهان به وذلك بما تقدّم لنا من الخبرة والعبرة، والهدى والبصيرة.

أليست حصيلة العمر ما هي إلا ما استفاده المرء من تجارب؟ ألا يجعل التاريخ خلاصة أفضل التجارب تحت تصرفنا؟

ولقد اشار الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - في وصية لولده إلى هذه الحقيقة حيث قال:

«أَيُّ بُنَى! إِنِّي وَإِنْ لَمْ أَكُنْ عَمَرْتُ عَمَرَ مَنْ كَانَ قَبْلِي، فَقَدْ نَظَرْتُ فِي أَعْمَالِهِمْ وَفَكَّرْتُ فِي أَخْبَارِهِمْ وَسَرْتُ فِي آثَارِهِمْ حَتَّى عُدْتُ كَأَحَدِهِمْ بَلْ كَأَنِّي بِمَا انْتَهَى إِلَيْهِ مِنْ أُمُورِهِمْ قَدْ عَمَرْتُ مَعَهُمْ إِلَى آخِرِهِمْ.»⁽¹⁾

- إنهج البلاغة، قسم الرسائل، رقم ٣١.

(12)

ولكنّ المؤسف أن كُنُوب التاريخ الموجودة الآن تعاني من نقص كبير من حيث الاشارة إلى العبر والدروس الاجتماعية المفيدة، لأن هذه المصنفات لم تدوّن لأجل هذا الغرض، ولهذا أُغفلَ فيها - في الاغلب - كل ما هو مؤثّر في كشف الحقائق التاريخية، وإبراز العلل الكامنة وراء الحوادث المتنوعة والوقائع المختلفة، وبالتالي فقد تجاهلت تلك الكتب والدراسات ما هو المفتاح الطبيعي لحلّ الرُumuz الكبرى في مسيرة التاريخ البشري، واعتنت - بدلا عن ذلك - بالقضايا التافهة.

لقد تصدّى كثيرٌ من المؤرّخين لتدوين وتسجيل القضايا التاريخية، تارة بهدف التسلية وأخرى بدافع إبراز الفضل لأقوامهم أو طوائفهم، واطهار تفوقها على الاقوام والطوائف الأخرى، وثالثة بدافع الحب والبغض، او التعصب لهذا أو ذاك ولهذا عجزت هذه المؤلفات والكتب عن حل أية مشكلة، وتبديد أية حيرة، بل هي تزيد المرء ضلالاً إلى ضلال، وحيرة إلى حيرة!

ولكن رغم كل هذا يستطيع أولو النباهة والبصيرة، واصحاب الفهم والتحقيق ان يتوصلوا - من خلال مطالعة هذه المؤلفات التاريخية على ما فيها من عيوب ونقائص، ومع ما فيها من أساطير عن الشعوب المختلفة - إلى ما يساعدهم على كشف الكثير من اسرار وخلفيات القضايا والامور المتعلقة بالشعوب الماضية، تماماً كما يفعل الطبيبُ الحاذق، أو القاضي البارغ الذي يمكنهما من خلال الوقوف على القرائن الجزئية المتفرقة، التوصل إلى اكتشاف نوع «المرض» أو حالة «المتهم» الحقيقية، وما يعاني منه في واقعه النفسي.

* * *

إنَّ أعظم صفحات التاريخ قيمة هي تلك التي تعكس لنا حياة العظماء وسيرة الرجال الخالدين، وتبحث عنها بصدق وامانة وموضوعية.

إنَّ لحياتهم أمواجاً خاصة، كما أنها زاخرة بانواع الحوادث.

لقد كانوا عظماء حقاً، وكذلك كان كل ما يرتبط بهم، ومن ذلك تاريخهم، إنه شيء عظيم يستحق التأمل والتدبر، فهو يتسمُ بلمعان يلفت الأنظار، ويخلب

(13)

الالباب وإنه غني بالعظات والعبر، زاخرٌ بالبصائر والدروس وإلى درجة لا توصف.

إنهم معجزَةُ الخليفة بلا ريب، وإن حياتهم لهي - في الحقيقة - ملحمة التاريخ الكبرى، وساحة البطولات الخالدة، ومسرح الحماسات العظمى، الحية النابضة على مر العصور، والايام.

لقد كان أولئك العظماء يعيشون في الاغلب على خط الثورات والتغييرات الاجتماعية الاول (وبعبارة أصح) كانت الثورات والتحويلات الاجتماعية تجد مصداقيتها في حياتهم وتتجسد في مواقفهم، ولهذا كانوا يشكلون - في واقع الأمر - حلقة الاتصال بين الدنيوات المختلفة المتناقضة، وكانت حياتهم الحافلة بالاحداث شاهدة للألوان المختلفة والمشاهد المثيرة المتنوعة.

* * *

وعلى رأس أولئك الرجال التاريخيين والعظماء الخالدين رسول الإسلام العظيم محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - فإنه لم تتسم حياة أحد - من حيث وفرة الاحداث، وعظمة الأمواج، كما اتسمت به حياته - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا اتصفت شخصية بمثل ما اتصف به ذلك النبي العظيم.

فلم يستطع أحدٌ سواه أن يؤثّر في بيئته، ثم في جميع العالم، وينفذ إلى أعماق الاعماق بمثل السرعة والسعة التي حصلت له صلى الله عليه وآله.

ولم يوجد أيُّ واحد منهم قط من مجتمعه المنحطّ المتخلف، حضارة بتلك العظمة والشموخ، كما فعله رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - وتلك حقيقة يقربها كل مؤرخي الشرق والغرب.

إنّ مطالعة عميقة لسيرة وحياة هذا الإنسان العظيم، قادرة على أن تعلمنا الكثير الكثير، وأن توقفنا على مشاهد متنوّعة في غاية النفع ومنتهى الفائدة.

إن مشاهد عجيبة مثل الأيام الأولى من بناء الكعبة المعظمة، واستيطان اسلاف النبي الكريم «مكة» وهجوم عسكر الفيل الفاشل لهدم بيت الله المعظم، والاحداث والملابسات المرافقة لمولد النبي صلى الله عليه وآله.

(14)

كما وإن مشاهد محزنة مثل وفاة «عبدالله» و «أمنة» والذي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في مطلع حياته الشريفة بتلك الكيفية المؤلمة.

ومشاهد عظيمة ومهيبة وحافلة بالاسرار مثل الايام الاولى من نزول الوحي، وما جرى في جبل «حراء» وما تبعه من مواقف الاستقامة والمقاومة التي ابداهها واتخذها رسول الله واصحابه المعدودون طيلة ثلاثة عشر عاماً، في سبيل نشر الدين الاسلامي في مكة، ومكافحة الوثنية والجاهلية.

وكذامشاهد مثيرة وساخنة وحماسية مثل وقائع السنة الأولى من الهجرة المباركة وما عقبها من حوادث ومواقف.

* * *

وقد ألّفت حول حياة رسول الإسلام أعظم قادة البشرية على الاطلاق كتبٌ ورسائلٌ ودراساتٌ كثيرة بحيث لو اتّيح لنا أن نجعلها في مكان واحد لشكلت مكتبة عظيمة وضخمة.

ويمكن القول - بشكل قاطع - بأنه ليس ثمة من عظيم استقطب اهتمام التاريخ والمؤرخين والمفكرين العالميين الكبار، كما ليس ثمة شخصيّة من شخصيّات العالم كتب حولها المؤلفون والباحثون هذا القدر الهائل من المؤلفات والمصنفات، والرسائل والكتب، كما حصل لرسول الإسلام محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

إلا أن أكثر هذه الكتب والمؤلفات تعاني من أحد إشكاليين: إما أن الكتاب جاء على نسق التسجيل المجرد للحوادث، أو النصوص التاريخية، من دون أن يتصدى فيه مؤلفه لتحليلها، ودراسة خلفياتها ونتائجها، وإصدار الحكم اللازم فيها، بل إن البعض قد تجنب عن بيان علل الوقائع الإسلامية وأسبابها، وثمارها ومعطياتها كذلك.

أو أن المؤلف - في بعضها الآخر - عمد إلى طائفة من الآراء الحدية، والاجتهادات الباطلة، العارية عن الدليل واثبتتها في مؤلفه على أنها الحكم الحق،

(15)

وخلط هذه الاحكام مع بيان الحوادث، ومن ثم اخرج كتابه ذاك إلى الجمهور المتعطش إلى تاريخ الإسلام، على أنه التاريخ المحقق، المُمخَّص.

إن الإشكال الذي يردُّ على الطائفة الأولى هو: أن الهدف من التاريخ ليس هو مجرد تسجيل الحوادث التاريخية وضبطها وتدوينها، إنما هو كتابة صفحات التاريخ، وقضاياها وأحداثه من المصادر الصحيحة الموثوق بها، وإبراز عللها وأسبابها، وثمارها ونتائجها، والتاريخ بهذا الشكل أعظم كنز تركه الأقدمون لنا، ومثل هذا النوع من الدراسة التاريخية لم تُدوَّن - أو أنه قلما دُوِّنت - حول أعظم قادة البشر، محمَّد - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد تجنب أكثر كتاب السيرة النبوية عن اظهار الرأي في الحوادث، أو القيام باي تحليل للوقائع، بحجة الحفاظ على أصول الحوادث ونصوصها.

في حين أنَّ هذه العُذر، وهذه الحجة غير كافية لتبرير هذا الموقف، لأنه كان في مقدور اولئك المؤرخين - للحفاظ على ما ذكروه - أن يؤلفوا نوعين من الكتب، نوعاً يختص بسرد الوقائع والنصوص التاريخية على ما هي عليه من دون ابداء رأي، أو تحليل ودراسة، ونوعاً آخر يعتني بذكر الحوادث والقضايا التاريخية مع تحليلها ودراستها بصورة موضوعية صحيحة أو ان يتم كلا الأمرين في كتاب واحد بأن تفرز الحوادث التاريخية عن التحليل والرأي.

على كل حال قلما نجد بين قدماء الكُتَّاب المسلمين من تصدى للسيرة النبوية المحمَّدية الطاهرة بهذه الصورة، وقلما يوجد هناك كتابٌ يتناول حياة خاتم الانبياء وسيّد المرسلين بالتحليل المذكور.

بل لا بدَّ من القول بان السيرة النبوية الطاهرة ليست هي وحدها التي حُرمت من مثل هذا النمط من التأليف والكتابة، بل شمل هذا الحرمان أكثر الحوادث التاريخية التي وقعت على مر العصور الإسلامية فهي أُدرجت في الكتب من دون دراسة موضوعية وتقييم دقيق.

نعم إن أول من فتح هذا الطريق بوجه عامة المؤلفين والكتاب هو:

العلامة المغربي «ابن خلدون⁽¹⁾» فقد أسس في مقدمته المعروفة باسم مقدمة ابن خلدون نمط التاريخ التحليلي بنحو من الانحاء.

وأما الطائفة الثانية من تلك الكتب فهي وإن ألفت على نمط التاريخ التحليلي واتسمت بصفة التحقيق والدراسة ولكن حيث ان بعضهم لم يتجشم عناء التتبع والاستقصاء، أو أنه اعتمد في تحليله للحوادث على المصادر غير المتقنة وغير الصحيحة، فقد تورط في أخطاء فضيعة محيرة، وأكثر مولفات المستشرقين - التي لم تكتب في الأغلب بهدف التوصل إلى الحقيقة - من هذا النمط، ومن هذه القماشة.

ولقد دأب في هذه الدراسة - بعد ملاحظة هذه الاشكالات - على ان يقدم إلى القراء جهد امكانه كتاباً يخلو عن عيوب ونقائص كلتا الطائفتين.

* * *

مزايا هذا الكتاب:

قد لا يكون من الضروري بيان مزايا هذا الكتاب، واستعراض امتيازاته في مقدمته، فذلك أمرٌ ينبغي أن يقف عليه القارئ الكريم بنفسه ضمن مطالعته لهذه الدراسة، إلا أنه إلفاتاً لنظر القارئ نشير إلى مزيتين هامتين هما:

أولاً: أننا عمدنا - في هذا الكتاب - إلى تناول وبيان الحوادث والوقائع المهمة التي تنطوي على قدر، اكبر من الفائدة، والعبرة، وأعرضنا صفحاً عن ذكر الاحداث الجزئية، والوقائع الصغيرة مثل الكثير من السرايا.

ثم أننا أخذنا الحوادث التاريخية هذه من المصادر الأصلية، والأولية، التي دُوّنت في القرون الإسلامية المشرفة الاولى، فقد استخلصنا الحادثة من مجموعة تلك المصادر، ثم أشرنا إلى مصدر أو مصدرين من المصادر التي ذكرت الحادثة

- [هو القاضي عبدالرحمان بن محمّد الحضرمي المالكي المتوفى عام ٨٠٨ هـ ، ومقدمته وتاريخه - على ما فيهما من أخطاء فضيعة في التحليل - معدودان من الكتب الجيدة المفيدة، وهما مبتكران في نوعهما.

وربما يظن بعضُ القراء الكرام أننا اكتفينا في نقل الحوادث والوقائع بمراجعة مصدر أو مصدرين ممَّا ذكرناه في أقصى الصفحة (أي الهامش) في حين أن الواقع هو غير هذا، فنحن قد راجعنا حتَّى في نقل الحوادث الصغيرة مهما صغرت، أكثر المصادر الأصلية المعروفة، وبعد التحقق والتشبيث منها لخصناها وذكرناها في هذا الكتاب.

ولو أننا أشرنا - في جميع الحوادث والوقائع - إلى جميع المصادر التي مررنا بها لاستأثر جدول المصادر بقسم كبير من صفحات هذا الكتاب، وهو أمرٌ من شأنه أن يبعث على الملل عند القراء، فلكي لا يحس القراء بأى تعب أو ملل من جانب، ولأجل أن نحافظ على وثاقبة الكتاب وأصاله أبحاثه وإتقانها من طرف آخر اكتفينا بذكر القدر اللازم من المصادر وتجنبنا تحشيدنا بتلك الصورة المملة.

وأما المزية الثانية: فإننا أشرنا - ضمن الدراسات اللازمة - إلى الاعتراضات والشكالات، بل وأحيانا إلى مواطن الاساءة التي قام بها المستشرقون المغرضون وأجبننا على جميع الانتقادات والاعتراضات غير المبررة وغير الصحيحة بأجوبة مقتنة وقاطعة وصحيحة، وجرّدناهم من الأسلحة التي شهروها في وجه الإسلام ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما يقول المثل، وتلك حقيقة يقف عليها القارئ الكريم بنحو أجلى في محلها.

وعلى هذا الأساس عمدنا إلى ذكر رأي المؤلفين الشيعة (في المسائل المختلف فيها بين المؤرخين الشيعة والمؤرخين السنة) مع ذكر المصادر والشواهد التاريخية الواضحة والمبرهنة عليه، وأزحنا كل ما يدور حول ذلك الرأي من شبهة أو إشكال، ويستهدف إنكار صحته وحقانيته.

إننا إذ نقدّم هذه الدراسة التحليلية لشخصية وحياة خاتم الأنبياء محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى القراء الكرام نأمل أن يهتم بها عامّة المسلمين وخاصة المثقفين والشباب منهم بوجه خاص، ويتناولوا هذه السيرة العطرة بالمطالعة المتأنية والتأمل

(18)

والتدبير، ونأمل أن يستطيع شبابنا المؤمن المتحمّس من أن يرسم خريطة حياته وحياة مجتمعه في ضوء ما يستلهمه ويستوحيه من سيرة وحياة رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه الحقبة البالغة الخطورة. والله وليّ التوفيق.

جعفر السبحاني

26 جمادى الآخرة / 1392

(19)

سيد المرسلين في ضوء القرآن الكريم

لقد سلط القرآن الكريم الضوء على رسول الإسلام محمد بن عبدالله - صلى الله عليه وآله وسلم - في آيات كثيرة تناولت بيان أسمائه ونشأته وصفاته وخصاله، وبشارات الانبياء السابقين به وعصمته وأميته ورسالته وخاتمته وجهوده العظيمة التي بذلها في سبيل ابلاغ مهمته، والخطابات الخاصة الالهية الموجهة إليه وما يتوجب على المؤمنين تجاهه في حياته وبعد وفاته، وما يتوجب عليهم تجاه أهل بيته وعترته، ولكي تكون هذه الرؤية القرآنية الشاملة الدقيقة هي القاعدة الاساسية في دراسة الشخصية والسيرة المحمدية العظيمة اثرنا ادراج طائفة منها

(20)

في مقدمة هذا الكتاب.

*وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ). آل عمران / ١٤٤)

*مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ). الفتح / ٢٩)

*وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدٌ). الصف / ٦).

*مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى وَ لِلآخِرَةِ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى وَ لَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى وَ وَجَدَكَ عَانِلًا فَأَغْنَى). الضحى / ٤ - ٨).

*أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَ وَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ وَ رَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ). الانشراح / ١ - ٤).

*وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْنَكُم مِّنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْتَصِرُنَّهُ قَالُوا أَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالُوا فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ). آل عمران / ٨١).

*الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ). الأعراف / ١٥٧).

*الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ). البقرة / ١٤٦ .)

*الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ). الأنعام / ٢٠ .)

*فَأْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيُّ الْأُمِّيَّ الَّذِينَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوا هُدًى وَكَفَّ اللَّهُ عَنْكُمْ لَهْمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

*هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ

مُبِينٍ وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ). الجمعة / ٢ .)

*وَ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا). النساء / ١١٣ .)

*وَ مَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَ لَا تَخْطُهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلْرَتَابِ الْمُبْطِلُونَ). العنكبوت / ٤٨ .)

(21)

*إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ). العلق / ١ - ٥ .)
مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَ مَا غَوَى وَ مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى وَ هُوَ بِالْأَفْقِ
الْأَعْلَى ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى أَوْ فَتْمَارُونَهِ عَلَى مَا يَرَى وَلَقَدْ
رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى إِذْ يَخْشَى السِّدْرَةَ مَا يَخْشَى مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَ مَا طَغَى لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ
رَبِّهِ الْكُبْرَى). النجم / ٢ - ١٧ .)

*وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقْوَابِ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ). الحاقة / ٤٤ - ٤٧ .)

*وَ مَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَ مَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَ قُرْآنٌ مُبِينٌ). يس / ٦٩ .)

*وَ يَقُولُونَ أَنَّنَا لَمَشَاعِرُ لِمَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ). الصافات / ٣٦ - ٣٧ .)

*إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ وَ مَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ). الحاقة / ٤٠ .)

*وَ مَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ). التكوير / ٢٤ .)

*سَتُنْفِئُكَ فَلَا تَنْسَى). الاعلى / ٦ .)

*فَسَيَعْلَمُكُمُ اللَّهُ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ). البقرة / ١٣٧ .)

*وَ اللَّهُ يَعْلَمُكُم مِمَّنِ النَّاسِ). المائدة / ٦٧ .)

*وَ هَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا). التوبة / ٧٤ .

*إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ). الحجر / ٩٥ .

*وَ إِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ لَتَفْتَرِي عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَ إِذَا لَاتَخَذُوكَ خَلِيلًا وَ لَوْلَا أَن تَبَتْنَاكَ لَغَدَّ بَدَنُكَ لَتَرَكُنُ الْيَهُودَ شِيئًا قَلِيلًا). الاسراء / ٧٣ - ٧٤ .

*أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ). الزمر / ٣٦ .

*وَ أَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا). الطور / ٤٨ .

*تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَنْزُلُهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَ مَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ). آل عمران / ١٠٨ .

*إِنَّمَا مَا أَوْحَى إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ). العنكبوت / ٤٥ .

*وَ اتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ). الاحزاب / ٢ .

*وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ). الشعراء / ٢١٤ .

(22)

*فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ). الحجر / ٩٤ .

*قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ). الحج / ٤٩ .

*وَ إِنَّكَ لَتَنذِرُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ). المؤمنون / ٧٣ .

*تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا). الفرقان / ١ .

*وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَ نَذِيرًا). الفرقان / ٥٦ .

*وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَ أَنْتَ فِيهِمْ). الأنفال / ٣٣ .

*لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ). التوبة / ١٢٨ .

*بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ). التوبة / ١٢٨ .

*وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ). الأنبياء / ١٠٧ .)

*إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ). الحج / ٦٧ .)

*نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ). الشعراء / ١٩٣ .)

*إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ). البقرة / ١١٩ .)

*كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ). البقرة / ١٥١ .)

*لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ). آل عمران / ١٦٤ .)

*هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا. مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ). الفتح / ٢٨ - ٢٩ .)

يا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا). الأحزاب / ٤٦ .)

*وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا). سبأ / ٢٨ .)

*قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَشْئِيًّا وَفِرَادَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جَنَّةٍ إِنَّهُ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لِّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابِ شَدِيدٍ). سبأ / ٤٦ .)

*فَقَرِّبُوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ). الذاريات / ٥٠ .)

*وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا). النساء / ٧٨ .)

*وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا). النساء / ١١٣ .)

(23)

*إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ). النساء / ١٦٣ .)

*لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا). النساء / ١٦٦ .)

*مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ (الاحزاب / ٤٠) .

*قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا (الاعراف / ١٥٨) .

*وَلَا يَخْزَنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (يونس / ٦٥) .

*فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضٌ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ كِتَابٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكَ إِنَّمَا أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (هود / ١٢) .

*وَكَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (هود / ١٢٠) .

*وَلَقَدْ اسْتَهْزَىٰ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَاذْنَبْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْنَاهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (الرعد / ٣٢) .

*لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ (الحجر / ٨٨) .

*وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ (الحجر / ٩٩) .

*وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ (النحل / ١٢٨) .

*فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا (الكهف / ٦) .

*فَأَصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ (طه / ١٣٠) .

*وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ قَبْلَهُمْ قَوْمَ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُمُ الْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (الحج / ٤٢ - ٤٤) .

*وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا (الفرقان / ٣١) .

*لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ (الشعراء / ٣) .

*وَ لَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ (النحل / ١٢٧) .

*فَأَصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفُّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (الروم / ٦٠) .

*وَ مَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنُكَ كُفْرُهُ) .لقمان / ٢٣ .)

*وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .فاطر / ٤ .)

*سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) .الأسراء / ١ .)

*فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ) .فاطر / ٨ .)

*وَ إِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَ بِالزُّبُرِ وَ بِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ) .فاطر / ٢٥ .)

(24)

*فَلَا يَحْزُنُكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسْرُونَ وَ مَا يُعْلِنُونَ) .يس / ٧٦ .)

*وَ لَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ) .الصفافات / ١٧١ - ١٧٢ .)

*وَ إِنْ جُنَدْنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَ ابْصُرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) .الصفافات/ ١٧٣-١٧٥ .)

*وَ تَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حِينٍ وَ ابْصُرْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ) .الصفافات / ١٧٨ - ١٧٩ .)

*إِصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ) .ص / ١٧ .)

*أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَ يَخُوفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ) .الزمر / ٣٦ .)

*فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ) .المؤمن / ٥٥ .)

*وَ لَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَ مَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ) .الانعام / ٥٢ .)

*وَ اصْبِرْ نَفْسُكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَ لَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَ لَا تُطِعْ مَنْ اغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَ اتَّبَعَ هَوِيَهُ وَ كَانَ أَمْرُهُ فُرْطًا) .الكهف / ٢٨ .)

*إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَىٰ أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّىٰ يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَ رَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِيَعْصَ شَأْنَهُمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَ اسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ لَا تَجْعَلُوا

دُعَاءِ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ). النور / ٦٢ - ٦٣ .

*يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذْ دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْسِنِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَجِى مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَجِى مِنْ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ

(25)

حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا زُوجَاهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا). الاحزاب / ٥٣ .

*يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ إِنَّ الَّذِينَ يَغْضُونَ أَسْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). الحجرات / ١ - ٥ .

*وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ). الحجرات / ٧ .

*وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ). القلم / ٤ .

*وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ). الحجر / ٨٨ .

*وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ). الشعراء / ٢١٥ .

*لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ). التوبة / ١٢٩ .

*فِيمَا رَحْمَةً مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ). آل عمران / ١٥٩ .

*لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا). الاحزاب / ٢١ .

*قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ). آل عمران / ٣١ .

*فَلَا وَ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً) النساء / ٦٥ (

*إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً) الاحزاب / ٥٦ . (

*إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوفِرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ) الكوثر / ١ - ٣ . (

(26)

*إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً) الاحزاب / ٣٣(1) . (

- [ولقد بحث سماحة الاستاذ العلامة المحقق الشيخ جعفر السبحاني صاحب هذه المحاضرات حول جميع هذه الآيات ونظائر ها في دراسة عميقة وشاملة في الجزء السابع من موسوعته «مفاهيم القرآن. »

(27)

١ شبه الجزيرة العربية أو مهد الحضارة الإسلامية

الجزيرة العربية هي في الحقيقة شبه جزيرة كبيرة وتقع في الجنوب الغربي من اسيا، وتبلغ مساحتها ثلاثة ملايين كيلومتر مربع، أي ضعف مساحة إيران، وستة أضعاف فرنسا، وعشرة أضعاف إيطاليا، وثمانين ضعف سويسرة.

ويحد شبه الجزيرة - هذا الذي هو اشبه ما يكون بمستطيل غير متوازي الاضلاع - من الشمال فلسطين وصحراء الشام، ومن المشرق الحيرة ودجلة والفرات والخليج الفارسي، ومن الجنوب المحيط الهندي وخليج عمان، ومن المغرب البحر الأحمر.

وعلى هذا يحاصر هذه الجزيرة من المغرب والجنوب البحر، ومن الشمال والشرق الصحراء، والخليج.

وقد جرت العادة بتقسيم هذه المنطقة من القديم إلى ثلاثة اقسام:

1- القسم الشمالي والغربي ويسمى بالحجاز.

2- القسم المركزي والشرقي ويسمى بصحراء العرب.

3- القسم الجنوبي ويسمى باليمن.

وتشكّل داخلَ شبه الجزيرة هذا صحاري كبيرة، ومناطق شاسعة رملية حارة، وغير قابلة للسكنى تقريباً، ومن جملة هذه الصحاري صحراء «بادية

(28)

ساوة» التي تسمى اليوم بصحراء «النفوذ» وصحراء أخرى واسعة الاطراف تمتد إلى الخليج الفارسي يُطلق عليها اليوم إسم «الربع الخالي» وقد كان يسمى قسّم من هذه الصحاري سابقاً بالأحقاف، ويسمى القسم الآخر بالدهناء.

وعلى أثر هذه الصحاري تشكل ثلث مساحة شبه الجزيرة هذا أراضي خالية من الماء والعشب وغير قابلة للسكنى، اللهم إلا بعض ما يحصل من المياه بسبب تساقط الامطار، في قلب الصحاري فيتجمع حولها بعض القبائل العربية بعض الوقت، ويرعون فيها ابلهم وانعامهم رداً قليلاً من الزمن.

وأما حالة المناخ في شبه الجزيرة العربية، فالهواء في الصحاري والأراضي المركزية (الوسطى) حارٌ وجافٌ جداً، وفي السواحل مرطوبٌ، وفي بعض النقاط معتدلٌ، وبسبب رداءة الطقس هذه لا يتجاوز عدد سكانه خمسة عشر مليون نسمة.

وتوجد في هذه الجزيرة سلسلة جبال تمتد من الجنوب إلى الشمال، ويقارب ارتفاع أعلى قممها ٢٤٧٠ متراً.

وقد كانت معادن الذهب والفضة والاحجار الكريمة تشكل مصادر الثروة في شبه الجزيرة هذا منذ القديم، وكان سكانها يعتنون - من بين الانعام والحيوانات - بتربية الابل والفرس اكثر من غيرهما، ومن بين الطيور بالحمام والنعام اكثر من الطيور الأخرى.

بيد أن اكبر مصدر للثروة في الجزيرة العربية اليوم يأتي عن طريق استخراج النفط.

وتعتبر مدينة «الظهران» الذي يسميه الاوربيون بالدهران المركز النفطي الرئيسي في هذه الجزيرة، ويقع هذا البلد في ناحية الاحساء التي تقع في المنطقة الشرقية من الجزيرة العربية على حدود الخليج الفارسي.

ولكي يتعرف القارئ الكريم على الأوضاع في شبه الجزيرة العربية هذا بنحو اكثر تفصيلاً فاننا نعمد إلى شرح الاقسام الثلاثة المذكورة:

« 1-الحجاز» وهي المنطقة التي تشكل القسم الشمالي والغربي من الجزيرة

(29)

العربية وتمتد أراضيها على ساحل البحر الاحمر ابتداء من فلسطين وحتى حدود اليمن.

والحجاز بعد هذا منطقة جبلية، وذات صحار قاحلة، وارض حجرية، وصخرية، يكثر فيها الحصى.

ولقد كانت هذه المنطقة - في التاريخ - اكثر شهرة من غيرها، ومن المعلوم أنّ هذه الشهرة جاءت بسبب جملة من العوامل المعنوية والدينية، فهي الآن تضمّ بين جوانحها بيت الله الحرام «الكعبة المعظمة»، قبلة ملايين المسلمين، ومهوى افئدتهم.

وقد كانت البقعة التي تقوم عليها بنية «الكعبة المعظمة» تحظى منذ سنوات مديدة قبل بزوغ الإسلام باحترام العرب وغيرهم، ولهذا حرّموا القتال حول الكعبة تعظيماً لها، حتى إذا جاء الإسلام أقرّ للكعبة ولما حولها، مثل ذلك الاحترام، والتعظيم أيضاً.

ومن أهمّ مُدُن الحجاز: «مكة» و «المدينة» و «الطائف»، وكان للحجاز منذ القديم ميناءان هما: ميناء «جدة» الذي يستخدمه أهل مكة، وميناء «ينبع» الذي يستخدمه أهل المدينة، في سدّ الكثير من إحتياجاتهم ويقع هذان الميناءان على ساحل «البحر الاحمر».

مكة المعظمة:

وهي من أشهر مُدُن العالم وأكثر المُدُن الحجازية سُكناً، وترتفع عن سطح البحر بما يقارب ٣٠٠ متراً.

وإذ تقع مدينة «مكة» بين سلسلتين من الجبال لذلك فانها لا تُرى من بعيد، ويقطنها اليوم حوالي (١٥٠) ألفاً من السكان.

تاريخ مكة:

يبدأ تاريخ «مكة المكرمة» من زمن النبي إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، فقد

(30)

أسكن هذا النبيّ ولده «اسماعيل» مع أمه «هاجر» في ارض مكة، فنشأ اسماعيل هناك، وتزوج من القبائل التي سكنت على مقربة من تلك المنطقة.

ثم إن إبراهيم - عليه السلام - بنى وبأمر من الله تعالى البيت الحرام «الكعبة» .»

وتقول بعض الروايات الصحيحة إن الكعبة بنيت على يد النبيّ نوح - عليه السلام - وأن ابراهيم - عليه السلام - جدّد بناءها.

وهكذا نشأت وبعد هذا تأسست مدينة مكة.

وتتكون نواحي «مكة» من اراض سبخة شديدة الملوحة بحيث لا تكون قابلة للزراعة اصلاً، حتى أن بعض المستشرقين يذهب إلى أنه لا يوجد أية منطقة في العالم في رداءة أوضاعها الجغرافية والمحيطية والطبيعية مثل هذه المنطقة.

المدينة المنورة:

وهي مدينة تقع في شمال مكة وتبعد عنها بـ : ٩٠ فرسخاً تقريباً، وتحيط بها بساتين ومزارع ونخيل وافرة، وأرضها أكثر صلاحية لغرس الأشجار والزرع.

وكانت المدينة المنورة تسمى قبل الإسلام بـ «يثرب»، وبعد أن هاجر إليها رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - سُميت بمدينة الرسول، ثم أُطلقت عليها لفظة «المدينة» مجردة تخفيفاً.

ويحدثنا التاريخ أن العمالة كانوا أول من سكن هذه الديار، ثم خلف العمالة طائفة اليهود، والأوس والخزرج الذين سُمي المسلمون منهم بالأنصار في ما بعد.

هذا وقد سلمت الحجاز - على عكس سائر المناطق - من طمع الطامعين وغزو الغزاة والفاثحين، ولم نشاهد فيها أي شيء من آثار حضارة الامبراطوريتين العظيمتين انذاك قبل الإسلام: الروم والفرس، وذلك لأنها إذ كانت تتألف من أراض قاحلة مجذبة غير قابلة للسكنى والعيش لم تحظ باهتمام أحد من أولئك الفاثحين حتى يفكر في تسيير العساكر، وتجيش الجيوش لفتحها ليعود بعد تحمّل آلاف المشاكل التي تستلزمها عملية الاستيلاء على أراضي تلك المنطقة

(31)

خالي الوفاض صفر اليدين.

وللوقوف على هذه الحقيقة اقرأ القصة التالية التي نقلها «ديودرس». »

عندما دخل ديمتريوس القائد اليوناني الكبير «بطرا» (وهي مدينة قديمة من مدن الحجاز) بهدف فتح جزيرة العرب خاطبهُ سكانُ تلك المدينة قائلين:

لماذا تحاربنا أيها الملك ديمتريوس ونحن من سُكان الصحارى التي لا تُسدُّ فيها حلّة، ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية. إقبل هدايانا، وارجع إلى حيث كنت، سنكون من أوفى الاصدقاء لك، ولكنك إذا رغبت في حصرنا حرمت كل هناة، ورأيت عجزك عن اكرهنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا، وإذا قدرت على اسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها.

هناك رأى ديمتريوس أن يقبل هديتهم وان يرضى بالمآب. (1)

2- المنطقة الوسطى والشرقية، التي تسمى بـ «صحراء العرب» ومنطقة «نجد» التي هي جزء من هذه المنطقة أرض مرتفعة يقوم فيها بضع قرى صغيرة معدودة.

ولقد أصبحت الرياض التي اتخذها السعوديون عاصمة لهم بعد استيلائهم من المراكز المهمة في هذه الناحية من الجزيرة.

3- المنطقة الجنوبية الغربية من الجزيرة العربية، والتي تسمى بـ «اليمن» وتمتد طولاً من الشمال إلى الجنوب حوالي (٧٥٠) كيلومتراً ومن الغرب إلى الشرق حوالي (٤٠٠) كيلومتراً.

وتقدر مساحة هذا البلد بستين الف ميل مربع تقريباً، ولكنها كانت - قبل ذلك - أوسع من هذا القدر، وقد كان قسم منها (وهو عدن) خلال النصف الأول من القرن الأخير تحت الانتداب البريطاني، ومن هنا ينتهي شمالاً إلى نجد، وجنوباً إلى عدن، وغرباً إلى البحر الأحمر وشرقاً إلى صحراء الربع

- [حضارة العرب: تأليف غوستاف لوبون ص ٩١ - ٠٢ ترجمة عادل رتميتير.

(32)

الخالى. (1)

ومن مُنُ اليمن المعروفة مدينة «صنعاء» التاريخية العريقة، ومن موانئها المشهورة ميناء «الحديدة» التي تقع على الحبر الأحمر

ومنطقة اليمن من أكثر مناطق الجزيرة العربية خصوبة وبركة، ولها تاريخ مشرقٌ و عريق في المدنية والحضارة، فقد كانت اليمن مقراً لملوك تبع، الذين حكموا اليمن سنيناً مديدة وكانت اليمن قبل الإسلام مركزاً تجارياً مهماً، وكانت في الحقيقة ملتقى طرق الحجاز، اشتهرت في العصور القديمة بمعادن الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، وكانت تصدر إلى خارج البلاد.

ولا تزال اثار الحضارة اليمنية القديمة باقية إلى الآن.

ولقد قام أهل اليمن الاذكياء باقامة ابنية و عمارات عالية وجميلة بهمهمم العالية في عصور كان البشر يفقد فيها الوسائل الثقيلة، والاجهزة المعقدة.

كان ملوك اليمن يحكمون البلاد دون أي منازع، إلا أنهم رغم ذلك لم يكونوا يمتنعون عن تنفيذ مارسمه حكماء اليمن ورجالهم من أنظمة وقوانين للحكم وادارة البلاد آنذاك.

ولقد سبقوا الآخرين في الزراعة والفلاحة، وقد نظموا لإحياء الأراضي وزراعتها، نظاماً دقيقاً للرئى طبقوا بنوده بدقة، ولهذا كانت بلادهم تعدّ - آنذاك - من البلدان الراقية المتقدمة من هذه الناحية.

فها هو «غوستاف لوبون» المؤرخ الفرنسي المعروف يكتب حول اليمن قائلاً: إنّ بلاد العرب السعيدة من أغنى بقاع العالم. (2)

ويكتب الادريسيّ المؤرخ المعروف الذي كان يعيش في القرن الثاني عشر حول «صنعاء» قائلاً: كانت صنعاء مقر ملوك اليمن، وعاصمة جزيرة العرب، وانه كان لملوكها قصر متين شهير وكانت تشتمل على بيوت مصنوعة من الحجارة

- [لقد انقسمت اليمن مؤخراً إلى يمن شمالية وأخرى جنوبية لكل واحد منها نظام حكم خاصّ وحكومة خاصة.
- 2 حضارة العرب: ص ٩٤.

(33)

المنحوتة. (1)

هذه الآثار العجيبة التي عثر عليها المستشرقون وعلماء الآثار في تنقيباتهم الأخيرة تثبت حضارة عجيبة لليمن في عصورها القديمة وذلك في مختلف نواحيها مثل «مأرب» و «صنعاء» و «بليقيس». »

ففي مدينة مأرب (وهي مدينة سبأ المعروفة) كانت تقوم قصور ضخمة وصروح عالية ذوات أبواب وسقوف مزينة بالذهب، وكانت تحتوي على أوان وصحون من الذهب والفضة، وأسرة كثيرة مصنوعة من المعدن والفلز. (2)

ومن آثار «مأرب» التاريخية السدّ المعروف باسم ذلك البلد والذي لا تزال اطلاله باقية، وهو السدّ الذي تهدّم بسبب السيل الذي وصفه القرآن الكريم بالعَرم.

فقد جاء في سورة سبأ الآية ١٥ - ١٩ قوله تعالى:

(لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ. فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرْمِ يَذُلُّنَاهُمْ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلِ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ. ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نَجَازِي الْكَافِرِينَ. وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْفُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا فُرى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سَيْرُوا فِيهَا لَيْالِيًا وَأَيَّامًا آمِنِينَ. فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرَّقٍ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ. (3)

- [نزهة المشتاق في اختراق الآفاق على ما في حضارة العرب، ص ٥٥.
- 2 حضارة العرب: ص ٩٤.
- 3 للوقوف على المزيد من المعلومات عن اليمن قديماً وحديثاً، راجع الكتب المؤلفة حول جغرافية العالم الإسلامي.

العرب قبل الإسلام

لمعرفة أوضاع العرب قبل الإسلام يمكن الرجوع إلى المصادر التالية:

1- التوراة على ما فيها من تحريفات.

2- كتابات اليونانيين والروميين في القرون الوسطى.

3- الكتابات التاريخية التي كتبها علماء الإسلام ومؤلفوه.

4- الآثار القديمة التي عثر عليها المستشرقون في تنقيباتهم والتي استطاعت من أن تكشف النقاب عن طائفة لا يُستهان بها من الحقائق في هذا الصعيد.

إلا أنه مع وجود كل هذه المصادر والمراجع لا تزال هناك نقاط كثيرة عن تاريخ العرب في القرون البعيدة تعاني من الغموض.

ولكن حيث أنّ دراسة أوضاع العرب قبل الإسلام هي من باب المقدمة في هذا الكتاب، والهدف الاساسي إنما هو دراسة السيرة النبوية الطاهرة، من هنا نكتفي في هذا الفصل باستعراض النقاط الخاصة والواضحة من حياة العرب قبيل الإسلام على اننا يمكننا أن نقف على وصف دقيق لحالة العرب خاصة قبيل بزوغ الإسلام من خلال مصدرين اسلاميين اساسيين هما:

1- القرآن الكريم.

2- ماورد عن الامام علي - عليه السلام - في نهج البلاغة.

فقد وردت في هذين المصدرين تصريحاتٌ ونصوصٌ صريحة تكشف عن ما كان عليه العرب في الجاهلية من سوء الأحوال والاضاع والاخلاق في جميع الاصعدة والابعاد، وستشير إلى ابرز هذه النصوص ونقف عندها بعض الشيء، ولكننا نستعرض قبل ذلك شيئاً من تاريخ العرب في القرون البعيدة فنقول:

إن من المسلم أن شبه الجزيرة العربية كان منذ أقدم العصور موطناً لقبائل كثيرة انقرض بعضها بمرور الأيام، وفي ثنايا الأحداث، بيد ان هناك ثلاث قبائل قد تشعبت عنها أفخاذٌ وفروعٌ تحظى بشهرة أكثر من بين من سكنوا هذه المنطقة.

وهذه القبائل الأُم هي:

1-العرب البائدة :وإنما سُميت بالبائدة لأنها أبيدت بالعذاب الالهي السماويّ أو الأرضيّ بسبب عصيانها وتمردها، وهلكت شيئاً فشيئاً، ولم يبق على وجه الارض من نسلهم أحد!

ولعلمهم كانوا هم المعنيون بقوم «عاد» و «ثمود» الذين جاء ذكرهم في القرآن الكريم مراراً.

2-القحطانيون :وهم أبناء يعرب بن قحطان الذين كانوا يقطنون في «اليمن» وسائر المناطق الجنوبية من الجزيرة العربية ويُسمون بالعرب الأصلاء، وهم اليمينون اليوم، ومنهم قبائل الأوس والخزرج وهما قبيلتان كبيرتان كانتا تقطنان المدينة المنورة إبان ظهور الإسلام.

وقد كان للقحطانيين حكومات كثيرة، كما كانت لهم جهودٌ كبرى في تعمير ارض اليمن واحيائها، وقد تركوا من ورائهم حضارات ومدنيّات لا يستهان بها.

وتوجد الآن كتابات تُقرأ بصورة علمية توضحُ إلى حدّ كبير تاريخ القحطانيين وكلّ ما يقال عن مدنيّة العرب وحضارتهم قبل الإسلام تعود في الحقيقة إلى هذه الطائفة وخاصة من سكنَ منهم ارضَ اليمن.

3-العدنانيون :وهم أبناء اسماعيل بن ابراهيم الخليل - عليه السلام - ،

(37)

وسوف يأتي ذكر جذور هذه الطبقة في الابحاث القادمة. وخالصة ذلك: أن إبراهيم الخليل - عليه السلام - أمر أن يسكن ولده الرضيع اسماعيل مع زوجته «هاجر» ام اسماعيل في ارض مكة، فخرج بهما ابراهيم - عليه السلام - من «فلسطين» وهبط بهما في ذلك الوادي العميق الخالي عن الماء والعشب «مكة» ثم ان يد العناية الالهية امتدت إلى تلك العائلة المهاجرة، وجادت عليها بعين «زمزم» الذي جلب الرواء والحياة إلى تلك المنطقة القاحلة الضامئة.

ثم تزوج اسماعيل من قبيلة «جُرهُم» التي خيمت بالقرب من مكة، واصاب من هذا الزواج عدداً كبيراً من الابناء، والاحفاد، وأحفاد الاحفاد كان من جملتهم «عدنان» الذي ينتهي نسبه إلى النبي اسماعيل عبر عدد من الآباء والجدود.

ثم تشعبت ذرية إسماعيل إلى بطون وأفخاذ، وعشائر وقبائل عديدة، كان من بينها قبيلة قريش التي حظيت بشهرة أكبر، ومنها عشيرة بني هاشم التي انحدر منها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما ستعرف ذلك بالتفصيل، عما قريب.

أخلاق العرب وتقاليدهم العامة:

والمراد منها هو الأخلاق والآداب الاجتماعية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع، وقد سادت بعض هذه الاخلاق والعادات والتقاليد في المجتمع العربي عامة.

ويمكن تلخيص ما كان العرب يتمتعون به من أخلاق وصفات حسنة عامة في ما يلي:

لقد كان العرب زمن الجاهلية وبخاصة ولد «عدنان» أسخياء بالطبع، يكرمون الضيف، ولما يخونون في الامانة، لا يفتخرون نقض العهود، ولا يتهاونون مع من يتنكر للمواثيق، يضحون في سبيل المعتقد، ويتحلون بالصراحة الكاملة، وربما وجد فيهم من تمتع بذكاء لامع، وذاكرة خارقة يحفظ بها الأشعار والقصائد الطوال، والخطب المفصلة.

(38)

هذا إلى جانب براعتهم في فن الشعر والخطابة بحيث لم يسبقهم في ذلك غيرهم وإلى جانب انهم كانوا مضرب المثل في الشجاعة والجرأة، والمهارة في الفروسية والرمي.

يرون الفرار والادبار في الحرب عاراً لازماً، وصفة ذميمة يلام صاحبها بسببها اشد اللوم.

ولكن في مقابل ذلك كله كانوا يعانون من مفاصد أخلاقية تغطي على كل كمال عندهم، وتنسي كل فضيلة.

ولولا تلك الكوة المباركة التي فتحت عليهم من عالم الغيب، لطويت صفحة حياتهم الإنسانية على القطع واليقين.

يعني لو لم تبرز شمس الإسلام في أواسط القرن السادس الميلادي، ولم تسطع اشعتها الباعثة على الحياة، على عقولهم وقلوبهم لما رأيت اليوم من العرب العدنانيين اي اثر، ولتكررت مقولة العرب البائدة مرة أخرى!

لقد حوّل فقدان القيادة الرشيدة، وغياب الثقافة الصحيحة حياة العرب، من جانب، وانتشار الفساد والفحشاء من جانب آخر إلى حياة حيوانية مزرية حتى أن صفحات التاريخ تروي لنا أخباراً وقصصاً مفصلة عن حروب دام بعضها خمسين عاماً، وبعضها الآخر مائة عام قد نشبت بين الاطراف العربية لأسباب طفيفة ودوافع تافهة جدا.

لقد أدى عدم سيادة النظام والقانون على الحياة العربية، وعدم وجود حكومة قوية مسيطرة على الأوضاع، توقف البغاة والمتمردين عند حدودهم، إلى أن يعيش العرب - آنذاك - في صورة القبائل الرُحَّل، ويرحلوا في كل سنة إلى منطقة معينة من الصحراء التماساً للعشب والماء لانفسهم ولانعامهم، فاذا عثروا على ماء وعُشب أو شيء من آثار الحياة نزلوا عنده، وأنزلوا رحالهم بجواره، فاذا سمعوا عن وجود مكان أفضل استأنفوا رحلتهم الصحراوية التماساً لحياة أكثر بركة، وعطاء، وأوفر خصباً وأمناً.

هذه الحيرة وهذا الضياع وعدم الاستقرار كان ناتجاً من أمرين:

(39)

الأول: سوء الأوضاع الجغرافية ورداءة الأحوال الطبيعية للجزيرة العربية، وخاصة من حيث الماء والمناخ والمراعي.
والآخر: الحروب والمصادمات الدموية الكثيرة، واضطراب الأحوال الاجتماعية، التي كانت تُلجئ جماعات كثيرة إلى التنقل الدائم والرحيل عن الأوطان ومغادرتها، وعدم الاستقرار في منطقة معينة.

هل كان للعرب حضارة قبل الإسلام؟

يستنتج مؤلف كتاب «حضارة العرب» من دراسته لأوضاع العرب الجاهلية أن العرب كانوا أصحاب حضارة عريقة سبقت الإسلام بقرون.

فالقصور الضخمة التي أقاموها في مختلف نقاط ومناطق الجزيرة العربية، والعلاقات التجارية التي كانت لهم مع أرقى شعوب الأرض، شواهد قوية على تمدنهم وحضارتهم الغابرة، لأن قوماً أنشأوا المدن العظيمة - قبل الرومان بقرون كثيرة - وكانت علاقاتهم بأرقى واكبر شعوب الأرض وثيقة، لا يمكن عدهم همجاً، وشعباً بلا حضارة.

ثم إنه يستدل - في موضع آخر من كتابه - على حضارة العرب الغابرة بادابهم ووحدة وكمال لغتهم إذ يقول:

«ولو كان التاريخ صامتاً إزاء حضارة لقطعنا - مع ذلك - بوجودها قبل ظهور «محمد» بزمان طويل، ويكفي لتمثلها أن نذكر أنه كان للعرب آداب ناضجة ولغة راقية.

والحق أن الآداب واللغة من الأمور التي لا تأتي عفواً، وهي تتخذ دليلاً على ماضٍ طويل، وينشأ عن إتصال أمة بأرقى الأمم اقتباسها لما عند هذه الأمم الراقية من التمدن إذا كانت أهلاً لذلك. »

وقد خصَّصَ المؤلفُ المذكور صفحات عديدة في كتابه لإثبات حضارة عريقة وعظيمة للعرب قبل الإسلام معتمداً في ذلك على ثلاث أمور:

2-وجود علاقات مع الامم الراقية.

3-وجود قصور وأبنية ضخمة، وفخمة في اليمن كما يصفها المؤرخان المسيحيان المعروفان «هيردوتس» و «ارتميدور» اللذان كانا يعيشان قبل المسيح بقرون، وقدامى المؤرخين المسلمين كالمسعودي. (1)

لا كلام في أنه كانت هناك في بعض مناطق الجزيرة العربية بعض حضارات، ولكن الأدلة التي استند اليها المؤلف المذكور لا يمكن ان تكون شاهداً ودليلاً على وجود الحضارة في جميع نقاط الجزيرة العربية أبداً.

صحيح أن تكامل اللغة يسير جنباً إلى جنب مع غيره من مظاهر المدنية، ولكن لا يمكن ان نعتبر اللغة العربية لغة مستقلة وغير مرتبطة باللغات الأخرى اي العبرانية والسريانية والآشورية والكلدانية، لأن جميع هذه اللغات - حسب ما يؤيده ويؤكد المتخصصون في علم اللغات - كانت ذات يوم - متحدة الأصل، وقد تشعبت من لغة واحدة، وفي هذه الحالة يحتمل أن تكون اللغة العربية قد حققت تكاملها عبر اللغة العبرانية أو الآشورية، وبعد تكاملها أصبحت لغة مستقلة، أي ان الآخرين أسهموا في تكميلها.

كما أنه لا شك أن وجود علاقات تجارية مع الأمم والشعوب الراقية هو الآخر دليل على الحضارة والمدنية إلا أنه هل كانت جميع مناطق الجزيرة العربية تملك مثل هذه العلاقات، أم إن أكثرها كانت محرومة من ذلك؟

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فان وجود علاقات بين حكومتين في الحجاز وهما: «الحيرة و غسان» وبين حكومتي «الفرس» و «الروم» لا يدل أبداً على وجود حضارة في المنطقتين الحجازيتين إذ أن جميع هذه الحكومات كانت متصفة بالعمالة، فان الكثير من البلاد الافريقية هي اليوم من مستعمرات الدول الاوربية ومع ذلك لا توجد فيها اية مؤشرات ولا اية مظاهر من الحضارة الغربية الواقعية.

طبعاً لا يمكن إنكار حضارة «سبأ ومأرب اليمن» العجيبة لأنه مضافاً إلى ما جاء حول هذه الحضارة في التوراة، وما نُقِلَ عن «هيردوتس» وغيره، كتب المؤرخ المعروف «المسعودي» عن مأرب يقول: إن ارض سبأ كانت من أخصب أراضي اليمن وأثرها

وأغدقها، واكثرها جناناً وغيطاناً وأفسحها مُروجاً، بين بُنيان وجسد مقيم وشجر موصوف ومساكب للماء متكاثفة، وأنهار متفرقة، وكانت مسيرة اكثر من شهر للراكب المجد على هذه الحال، وفي العرض مثل ذلك، وانَّ الراكب أو المار كان يسير في تلك الجنان من أولها إلى أن ينتهي إلى آخرها لا يرى جهة الشمس، ولا يفارقه الظلُّ لاستتار الارض بالعمارة والشجر واستيلائها عليها واحاطتها بها، فكان أهلها في اطيب عيش وارفيه، وأهنا حال وارغده، وفي نهاية الخصب وطيب الهواء وصفاء الفضاء، وتدفق المياه وقوة الشوكة، واجتماع الكلمة، ونهاية المملكة... فذلت لهم البلاد، واذعن لطاعتهم العباد فصاروا تاج الارض.⁽¹⁾

وخلاصة القول أن هذه الدلائل لا تدل على وجود حضارة في كل مناطق الجزيرة العربية وخاصة منطقة الحجاز التي لم تذق طعم الحضارة أبداً، حتّى أن «غوستاف لوبون» نفسه يعترف بهذه الحقيقة إذ يقول: «ان جزيرة العرب نجت من غزو الأجنبي خلا ما أصاب حدودها الشمالية، وإن عظماء الفاتحين من مصريين وأغارقة ورومان وفرس وغيرهم ممن انتهبوا العالم لم ينالوا شيئاً من جزيرة العرب التي أوصدت دونهم أبوابها.⁽²⁾»

وعلى فرض صحة كل ما قيل عن وجود حضارة شاملة في جميع مناطق الجزيرة العربية فانه يجب القول بان القدر المسلّم في هذا المجال هو انه لم يبق أي اثر من هذه الحضارات في منطقة الحجاز، إبان طلوع الإسلام، وبزوغ شمسها، وهي حقيقة يصرح بها القرآن الكريم إذ يقول تعالى): **وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا.**⁽³⁾

-
- 1مروج الذهب: ج ٢، ص ١٦١ و ١٦٢.
 - 2حضارة العرب: ص ٩٣.
 - 3آل عمران: ١٠٣.

(42)

ويُبغى هنا أن نقف عند القرآن الكريم قليلاً - كما وعدنا بذلك - فانه خير مرآة تعكس أحوال العرب وأوضاعهم بدقة متناهية وبشمولية ماوراءها شمولية.

ملامح المجتمع الجاهلي العربي في منظور القرآن:

إن القرآن يكشف إجمالاً عن أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بُعث إلى قوم لم يبعث اليها احد قبله إذ يقول): **وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ.**⁽¹⁾

ويقول في آية أخرى): **أَمْ يَقُولُونَ افتراه بل هو الحق من ربك لتُنذِرَ قَوْمًا مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ.**⁽²⁾

ومن المعلوم أن المقصود في هاتين الايتين ونظائرهما هم قريش والقبايل القريبة اليها.

على أن أشمل وصف قرآنيّ لأوضاع المجتمع العربي الجاهلي وأحواله هو قول الله تعالى: **وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعاً وَلا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْداءً فَأَلْفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.** (3)

فإنّ هذه الآية تصوّر حياة العرب تصويراً مرعباً، إذ تُصوّرُهُمُ اولا وكأنهم قد سقطوا في قعر بئر الجاهلية، والضلال والشقاء فلا ينفذهم شيء من قعر التردّي والسقوط إلا التمسك بحبل الله، حبل الإيمان والقرآن.

وتصوّرُهُمُ ثانياً وكأنهم على شفير جهنم يوشكون أن يسقطوا فيه ويهروا في نيرانه، وليست تلك النار إلا نيران العداوات والحروب التي لو لم يقض عليها الإسلام بتعاليمه لأحرقت حياة العرب جميعاً.

هذه هي صورةٌ سريعةٌ عما كان عليه العرب في الجاهلية من جهل وسقوط.

وأما تفصيل ذلك فيمكن الوقوف عليه بمراجعة الآيات الأخرى التي

-
- 1 القصص: ٤٦ .
 - 2 السجده: ٣ .
 - 3 آل عمران: ١٠٣ .

(43)

تعرضت لذكر عادات العرب وأخلاقهم، وأفعالهم وتقاليدهم، بصورة مفصلة، وها نحن نشير هنا إلى تلك العادات والاخلاق الفاسدة على ضوء تلك الآيات على نحو الاختصار تاركين التوسع في ذلك إلى مجال آخر.

لقد اتصف المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام وشاعت فيه أخلاق وعادات من أبرزها مايلي:

-1 الشريك في العبادة:

صحيح أن العرب في الجاهلية كانت - كما يكشف القرآن ذلك لنا - موجدة في جملة من الامور والمجالات كالخالقية والتدبير والذات (1) إلا أنهم كانوا - في الأكثر - مشركين في العبادة، بل قد ذهبوا في هذا السبيل الباطل إلى أخطأ المستويات في إتخاذ المعبودات والوثنية.

وإلى ذلك يشير قوله تعالى: **وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبحانه و تعالى عما يصفون.** (2)

وقوله تعالى: **أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعزى وَ مَنَاةَ الثالثة الأخرى.** (3)

وغير ذلك من الآيات التي تشير إلى ما كان يعبده الجاهليون من أوثان وأصنام ومبلغ ما وصلوا إليه من انحطاط، واسفاف وانحراف في هذا المجال.

-2- إنكار المعاد:

كان المشركون والجاهليون يرفضون الاعتراف بالمعاد الذي يعني عودة الإنسان إلى الحياة في عالم آخر للحساب والجزاء، ويصفون من يخبر عن ذلك

- [إنهم يُستفاد من آية واحدة أنه كان هناك اتجاهٌ نادرٌ بين العرب في الجاهلية ينسب الظواهر الطبيعية إلى الطبيعة والدهر يقول الله تعالى: «وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ» (الجن: ٢٤).
- 12 الأنعام: ١٠٠.
- 3 النجم: ١٩ و ٢٠.

(44)

اليوم بالجنون أو الكذب على الله!!

يقول تعالى: **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نُنَادِيكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مُنْتَبِئٍ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ، وَأَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ.**⁽¹⁾

-3- هيمنة الخرافات:

لقد كانت حياة العرب الجاهلية مليئة بالخرافات التي كان منها تحريمهم الأكل من أنواع أربعة ذكرها القرآن مندداً بهذه البدعة إذ قال: **مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ.**⁽²⁾

أما (البحيرة) بوزن فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق، فهي الناقة إذا نتجت خمسة أبطن آخرها أنثى - وقيل ذكر - بحروا لأنها وشقوها ليكون ذلك علامة وتركوها ترعى، ولا يستعملها أحد في شيء.

وأما (السائبة) على وزن فاعلة بمعناها أو بمعنى مفعولة فهي الناقة إذا نتجت اثني عشر بطناً - وقيل عشرة - فهي تُهمل ولا تُركب. ولا تمنع عن ماء، ولا يشرب لبنها الاضيف.

وأما (الوصيلة) بوزن فعيلة بمعنى فاعلة أو بمعنى مفعولة فهي الشاة تنتج سبعة أبطن أو تنتج عناقين.

وأما (الحامي) بوزن فاعل من الحمى بمعنى المنع فهو الفحل من الإبل الذي يستخدم للقاح الأنثى، فاذا وُلد من ظهره عشرة أبطن قالوا: **حُمي ظهره فلا يحمل عليه، ولا يُمنع من ماء ومرعى.**⁽³⁾

والظاهر ان هذا المذهب تجاه هذه الانواع من الانعام كان بدافع الاحترام

- 1سبأ: ٧ و ٨.
- 2المائدة: ١٠٣.
- 3راجع مجمع البيان: ج ٣، ص ٢٥٢ و ٢٥٣ في تفسير الآية.

(45)

والشكر لما وهب أصحابها من النعم والبركات، غير ان هذا العمل - كان في حقيقته - نوعاً من الإيذاء والإضرار بهذه الحيوانات، لأنهم كانوا يهملونها ويحرمونها من العناية اللازمة فكانت تشقى بقية حياتها، وتقاسي من الحرمان، مضافاً إلى ما كان يصيبها من التلف والضياع، وما يلحق ثروتهم والنعم التي وهبها الله لهم من هذا الطريق من الضرر والخسارة.

والأسوأ من كل ذلك أنهم - كما يُستفاد من ذيل الآية - كانوا ينسبون هذه المبتدعات المنكرات وهذا المنع والحظر إلى الله سبحانه وتعالى، إذ يقول سبحانه: **وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ** (وقد أعلم الله في مطلع الآية أنه لم يحرم من هذه الاشياء شيئاً، وأنهم ليكذبون على الله بادّعاءهم أن هذه الأشياء من فعل الله أو أمره.

وقد أشار القرآن إلى هذه الخرافات التي كانت تُكَبَّل عقول الناس في ذلك المجتمع إذ يقول: **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي**

كَانَتْ عَلَيْهِمْ.⁽¹⁾

-4- الفساد الاخلاقي:

كان المجتمع الجاهلي العربي يعاني من فساد ذريع في الاخلاق وقد أشار القرآن الكريم إلى اثنين من أبرز وسائل الفساد ومظاهره هما: القمار (الذي كانوا يسمونه بالميسر وانما اشتق من اليسر لأنه اخذ مال الرجل ببسر وسهولة من غير كد ولا تعب) والخمر.

وقد بلغ شغفهم بالخمر أنهم أعرضوا عن قبول الإسلام واعتناقه لأنه يحرم تناول الخمر وشربه، كما نقرأ ذلك في قصة الاعشى عما قريب.

يقول القرآن في هذا الصعيد: **يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا**.⁽²⁾

وقد استطاع القرآن الكريم عبر مراحل أربع أن يستأصل هذه العادة البغيضة

- 1الأعراف: ١٥٧ و راجع المحبر: ص ٣٣٠ - ٣٣٢.
- 2البقرة: ٢١٩.

(46)

التي كانت قد تجذرت بشكل عجيب في نفوس اولئك القوم، حتى أصبحت السمة البارزة لحياتهم واصبح التعتي بالخمرة، ووصفها الطابع الغالب لأدبهم، واللون البارز الذي يصبغ قصائدهم وأشعارهم.

على أن الفساد الأخلاقي في المجتمع الجاهلي العربي قبل الإسلام لم يكن ليقصر على معاقرة الخمر، ومزاولة الميسر بل تعدى إلى ألوان أخرى ذكرها القرآن الكريم في ثلاثة عشر موضعاً، حيث عدّ منها الزنا، واللوط، والقذف، وإكراه الفتيات على البغاء وماشا كل ذلك. (1)

-5- وَأُدُّ الْبَنَاتُ وَإِقْبَارُ هُنَّ:

ويشير القرآن الكريم أيضاً إلى عادة جاهلية سيئة أخرى كانت راجعة بين قبائل العرب الجاهلية قاطبة وهي دفن البنات حياً. فقد شجب القرآن الكريم هذه العادة البغيضة وهذا العمل اللانساني ونهى عنه بشدة في اربعة مواضع، إذ قال تعالى: **وَ إِذَا الْمَوْؤُودَةُ سُئِلَتْ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ. (2) (وقال تعالى): وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا. (3)**

وقد اتى جدُّ «الفرزدق» «صعصعة بن ناجية بن عقال» رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعدّ من اعماله الصالحة في الجاهلية أنه فدى مائتين وثمانين مؤودة في الجاهلية، وأنقذهنَّ من الموت المحتمَّ باشترائهنَّ من آبائهن بأمواله.

وقد افتخر «الفرزدق» بإحياء جدّه للمؤودات في كثير من شعره إذ قال:

ومنا الذي منع الواندات وأحيا الوئيد فلم يُؤاد (4)

-
- 1 راجع للوقوف على ذلك سورة النساء: ١٥ و ١٦. وسورة النور: ٢ و ٣ وغيرها. وراجع المحبر: ص ٣٤٠.
 - 2 التكوير: ٨ و ٩.
 - 3 الإسراء: ٣١.
 - 4 بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٥ و ٤٦.

(47)

-6- تصوراتهم الخرافية حول الملائكة:

ومما اشار إليه القرآن الكريم تصورات العرب الجاهلية حول الملائكة، فقد كانوا يعتقدون أن الملائكة من الإناث وأنهن بنات الله، إذ يقول تعالى:

(فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ. أَمْ خَلَقْنَا الْمَلَائِكَةَ إِنَاثًا وَهُمْ شَاهِدُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ مِنْ أَفْئِدَتِهِمْ لَيَقُولُونَ وَ لَدَّ اللَّهُ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ
أصطفى البنات على البنين. ما لكم كيف تحكمون. (1)

-7- كيفية الانتفاع من الانعام:

إذا كانت العربُ الجاهلية تمتنع من تناول لحوم الأنعام الأربعة المذكورة آنفاً وتجتنب عن استعمال ألبانها وشعورها وأصوافها إلا أنها كانت في المقابل تتناول الدم، والميتة والخنزير، وتأكل من الحيوانات والأنعام التي تقتلها بصورة قاسية، وبالتعذيب والأذى، وربما كانت تعتبر ذلك نوعاً من العبادة، ويُعرف ذلك من الآية التالية التي نزلت تنهى بشدة عن أكل هذه اللحوم، وتحرم تناولها، إذ يقول سبحانه: **حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ**.⁽²⁾

فقد حرم الله في هذه الآية اكل:

1- الميتة.

2- الدم.

3- لحم الخنزير.

4- ما ذكر اسم غير الله عليه.

5- التي تموت خنقاً، وهي المنخنقة.

1 - الصلوات: ١٤٩ - ١٥٤.

2 - المائدة: ٣.

(48)

6- التي تضرب حتى تموت، وهي الموقوذة.

7- التي تقع من مكان عال فتموت وهي المتردية.

8- التي تموت نطحاً من حيوان آخر وهي النطيحة.

9- ما افترسه سبع إلا إذا ذُكي قبل موته.

10- وما ذُبح أمام الاصنام.

8- الاستقسام بالأزلام:

فقد كان تقسيم لحم الذبيحة يتم عن طريق الأضلام، والأضلام جمع (زلم) بوزن (شَرَف) وهي عيدان وسهام تستخدم في ما يشبه القرعة لتقسيم لحم الذبيحة.

فقد كان يشتري عشرة أنفار بغيراً ثم يذبحونه، ثم يكتبون على سبعة منها اسماً مختلفة من الواحد إلى السبعة ولا يكتبون على ثلاثة منها شيئاً، ثم يجعلونها في كيس ثم يستخرجونها واحدة بعد أخرى، كلُّ واحدة باسم أحدهم فيأخذ كل واحد منهم من الذبيحة ما خرج له من السهم، وهكذا يقتسمون الذبيحة بينهم⁽¹⁾، فنهاهم الله عن ذلك بقوله: **وَأَنْ تَسْتَفْسِمُوا بِالْأضْلَامِ ذَلِكَمْ فَسَقٌ** (لأنَّه ضربٌ من القمار الذي ينطوي على مفساد الميسر والقمار).

-9النسيء:

كان العرب الجاهليون يعتقدون حرمة الأشهر الحرم (وهي اربعة المحرم ورجب وذوالقعدة وذوالحجة) فكانوا يتخرجون فيها من القتال، وجرت عادة العرب على هذا من زمن إبراهيم واسماعيل - عليهما السلام - .

الآن سَدَنَةُ الكعبة أو رؤساء العرب كانوا يعمدُون أحياناً، ولقاء مبالغ يأخذونها، أو جرياً مع أهوائهم، إلى تأخير الأشهر الحرم، وهو الأمر الذي عبّر

- [راجع للوقوف على تفصيل هذه الطريقة بلوغ الأرب: ج ٣، ص ٦٢ و ٦٣، والمحرر: ص ٣٣٢ و ٣٣٥.

(49)

عنه القرآن الكريم بالنسيء ثم نهى عنه وعده كفراً إذ قال: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَ يَحْرِمُونَهُ عَاماً لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيَحِلُّنَا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زَيْنَ لَهُمْ سِوَأَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**.⁽¹⁾

وقد ذكرت كُتُبُ التاريخ والسير كيفية النسيء وتأخير الأشهر الحرم، الذي كان يتم بصورة مختلفة منها: أن جماعة ما لو كانت ترغب في استمرار الغارة والقتال ولم تطق تأخير النضال مدة الأشهر الحرم كانت تطلب من سدنة الكعبة، لقاء ما تقدمه لهم من هدايا واموال، تجويز الغارة والقتال في شهر محرم، وتحرم القتال في شهر صفر بدله ليتم عدد الأشهر الحرم (وهي اربعة). وهذا هو معنى قوله تعالى: **لِيُؤَاطِنُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ** (وكانوا إذا أحلوا القتال والغارة في المحرم من سنة حرّمه في المحرم من السنة التالية، وهذا هو معنى قوله تعالى): **يُحِلُّونَهُ عَاماً، وَيُحْرِمُونَهُ عَاماً**.)

-10الربا:

ومما يشير إليه القرآن الكريم من المفساد الشائعة، والأعمال المنكرة في المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام: «الربا» الذي كان يشكل العمود الفقري في اقتصاد ذلك المجتمع.

وقد حاربَ القرآنُ الكريمُ هذه العادة المقيتة، وهذا الفسادَ الاقتصادي حرباً شعواء، إذ قال تعالى: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ. فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتِغُوا فَلَئِمَّ رُؤُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ.** (2)

والعجيب أنهم كانوا يبررونَ هذا العمل اللإنساني بقولهم **(إنما البيعُ مثلُ الربَا)** (3) فاذا كان البيعُ حلالاً وهو اخذ وعطاء فليكن الربَا كذلك حلالاً، فإنه أخذٌ وعطاء أيضاً، مع أن «الربَا» من ابشع صور الاستغلال، وقد ردَّ

-
- 1 التوبة: ٣٧.
 - 2 البقرة: ٢٧٨ و ٢٧٩.
 - 3 البقرة: ٢٧٥.

(50)

سبحانه على هذه المقالة بقوله تعالى: **«وَأَحَلَّ اللَّهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا»** (1) «ففي البيع والشراء يتساوى الطرفان في تحمل الضرر المحتمل، بينما لا يتضرر المرابي في النظام الربوي أبداً وإنما يلحق الضرر بمعطي الربا دائماً، ولهذا تنمو المؤسسات الربوية، ويعظم رصيدها، وثروتها يوماً بعد يوم فيما يزداد الطرف الآخر بؤساً وفقراً، ولا يحصل من جهوده المضنية إلا على ما يسدُّ جوعته، وقيم اوده، لا أكثر، كلُّ ذلك نتيجة لهذا الاسلوب الاقتصادي غير العادل.

صورٌ من الوضع الجاهلي

ما قدمناه كان أبرز المفاصد الاخلاقية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي اشار اليها القرآن الكريم، وأما التاريخ فمليء بالصور والقصص التي تحكي عن تردي حالة العرب الجاهلية وسقوطها الفضيح في قعر الفساد في جميع المناحي والجهات.

واليك في ما يلي نماذج وصور معدودة تكفي للوقوف على الحالة العامة في ذلك المجتمع نقتبسها لك من أصح المصادر واثقها:

وها نحن نقدم قصة «أسعد بن زرارة» التي تسلط الضوء على ما كان عليه الوضع الجاهلي في اكثر مناطق الحجاز، فقد قدم «أسعد بن زرارة» و «ذكوان بن عبد قيس» - وهما من الأوس وكان بين الأوس والخزرج حرب قد بقوا فيها دهرأ طويلاً، وكانوا لا يضعون السلاح لا بالليل ولا بالنهار، وكان آخر حرب بينهم «يوم بُعاش» وقد انتصر فيها الأوس على الخزرج - مكة في عمرة رجب يسألون الحلف على الأوس، وكان اسعد بن زرارة صديقاً لعتبة بن ربيعة، فنزل عليه فقال: انه كان بيننا وبين قومنا حربٌ وقد جئناك نطلب الحلف عليهم، فقال له عتبة: إن لنا شغلا لا نتفرغ لشيء. قال سعد: وما شغلكم وأنتم في حرمكم وأمنكم؟ قال له عتبة: خرج فينا رجلٌ يدعي أنه رسول الله سقّه أحلامنا، وسب آلِهتنا وأفسد

ثُبَانَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، فَقَالَ لَهُ أَسْعَدُ: مَنْ هُوَ مِنْكُمْ؟ قَالَ: ابْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ مِنْ أَوْسَطِنَا شَرَفَاءَ، وَأَعْظَمْنَا بَيْتًا. وَكَانَ أَسْعَدُ وَذَكَوَانُ، وَجَمِيعُ الْاَوْسِ وَالْخَزْرَجِ يَسْمَعُونَ مِنَ الْيَهُودِ الَّذِينَ كَانُوا بَيْنَهُمْ: النَّضِيرَ وَقَرِيظَةَ وَقَيْنِقَاعَ، أَنَّ هَذَا أَوْانُ نَبِيٍّ يَخْرُجُ بِمَكَّةَ يَكُونُ مَهَاجِرَهُ بِالْمَدِينَةِ لِنَقْتَلِنَكُمْ بِهِ يَا مَعْشَرَ الْعَرَبِ، فَلَمَّا سَمِعَ ذَلِكَ أَسْعَدُ وَقَعَ فِي قَلْبِهِ مَا كَانَ سَمِعَ مِنَ الْيَهُودِ، قَالَ: فَأَيْنَ هُوَ؟ قَالَ: جَالِسٌ فِي الْحَجْرِ، وَإِنَّهُمْ لَا يَخْرُجُونَ مِنْ شَعْبِهِمْ إِلَّا فِي الْمَوْسَمِ، فَلَا تَسْمَعُ مِنْهُ وَلَا تَكَلِّمُهُ فَانْهَ سَاحِرٌ يَسْحَرُكَ بِكَلَامِهِ، وَكَانَ هَذَا فِي وَقْتِ مُحَاصِرَةِ بَنِي هَاشِمٍ فِي شَعْبِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ لَهُ «أَسْعَدُ»: فَكَيْفَ أَصْنَعُ وَأَنَا مَعْتَمِرٌ لِأَبَدٍ لِي أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ؟ قَالَ: ضَعُ فِي أَدْنِيكَ الْقَطْنَ، فَدَخَلَ «أَسْعَدُ» الْمَسْجِدَ وَقَدْ حَشَا أَدْنِيَهُ بِالْقَطَنِ، فَطَافَ بِالْبَيْتِ وَرَسُولُ اللَّهِ جَالِسٌ فِي الْحَجْرِ مَعَ قَوْمٍ مِنْ بَنِي هَاشِمٍ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ نَظْرَةً فَجَازَهُ، فَلَمَّا كَانَ فِي الشُّوْطِ الثَّانِي قَالَ فِي نَفْسِهِ: مَا أَجْدُ أَجْهَلَ مِنِّي؟ أَيْكُونُ مِثْلَ هَذَا الْحَدِيثِ بِمَكَّةَ فَلَا اتَعَرَّفَهُ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى قَوْمِي فَاخْبِرْهُمْ، ثُمَّ أَخَذَ الْقَطْنَ مِنْ أَدْنِيهِ وَرَمَى بِهِ وَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ: أَنْعَمَ صَبَاحًا، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - رَأْسَهُ إِلَيْهِ وَقَالَ: قَدْ أَبَدْنَا اللَّهُ بِهِ مَا هُوَ أَحْسَنُ مِنْ هَذَا، تَحِيَّةَ أَهْلِ الْجَنَّةِ: السَّلَامُ عَلَيْكُمْ، قَالَ لَهُ أَسْعَدُ: (إِنَّ عَهْدَكَ بِهَذَا لَقَرِيبٍ، إِلَى مَا تَدْعُو يَا مُحَمَّدُ؟ قَالَ: إِلَى شَهَادَةِ الْإِلَهِ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ، وَ أَدْعُوكُمْ إِلَى: «أَلَّا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَ بِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَ لَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرِزُقُكُمْ وَإِيَاهُمْ وَ لَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَ لَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ»، وَ لَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِأَتْيِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَ أَوْفُوا الْكَيْلَ وَ الْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَأَنْكِفُ نَفْسًا إِلَّا وَسَعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَ لَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَ بَعْدُ اللَّهُ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ. (1)»

فلما سمع «أَسْعَدُ» هذا قال له: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنت رسول الله، يا رسول الله بأبي أنت وأمي. (1)...

إن الامعان في مفاد هاتين الآيتين يغنيان عن دراسة شاملة وواسعة لآوضاع العرب الجاهلية لأن هاتين الآيتين تكشفان عن الأمراض الاخلاقية التي كانت تكتنف حياة العرب الجاهلية. ولهذا تلا رسول الله الآيات التي تشير إلى هذه الادواء والامراض ليلفت نظر «أَسْعَدُ» إلى أهداف رسالته الكبرى.

العقيدة والدين في الجزيرة العربية:

عند ما رفع «إبراهيم الخليل» لواء التوحيد في البيئة الحجازية، واعد بناء الكعبة المعظمة ورفع قواعدها بمعونة ابنه «اسماعيل»، تبعه في ذلك طائفة من الناس ممن أنار الله به قلوبهم، إلا أنه من غير المعلوم إلى أي مدى استطاع ذلك النبي العظيم أن يعتمد دين التوحيد ويبسط لواءه على الجميع، ويؤلف صفوفاً مترابطة، وجبهة عريضة قوية من الموحدين، غير أن من المعلوم أنه أصبحت تلك المنطقة مسرحاً للوثنية ولعبادة الأشياء المختلفة مع الأيام فقد كانت الطبقة المثقفة من العرب تعبد الكواكب والقمر، فهذا هو المؤرخ العربي الشهير الكلبي الذي توفي عام ٢٠٦ هجرية يكتب في هذا الصدد قائلاً كان «بنومليح» من خزاعة يعبدون الجن وكانت «حمير» تعبد الشمس، و «كنانة» تعبد القمر، و «تميم» الدبران، و «لخم» و «جذام» المشتري، و «طي» سُهَيْلا، و «قيس» الشعري، و «أسد» عطارداً.

أما الدهماء والذين كانوا يشكلون أغلبية سكان الجزيرة فقد كانوا يعبدون - مضافاً إلى الصنم الخاص بالقبيلة أو العائلة - ثلاثمائة وستين صنماً، وكانوا ينسبون أحداث كل يوم من أيام السنة إلى واحد منها.

وقد دخلت عبادة الأصنام والأوثان في مكة بعد «إبراهيم الخليل» - عليه السلام -

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٨ و ٩، اعلام الوري: ص ٣٥ - ٤٠.

(53)

على يد «عمر بن لحي»، ولكنها لم تكن في بداية أمرها بتلك الصورة التي وصلت إليها في ما بعد فقد كانوا يعتبرونها في بداية الأمر شفعاء إلى الله ووسطاء بينه وبينهم، ولكنهم تجاوزوا هذا الحد في ما بعد حتى صاروا يعتقدون شيئاً فشيئاً بأنها أصحاب قدرة ذاتية مستقلة، وأنها بالتالي آلهة وأرباب.

وكانت الأصنام المنصوبة حول الكعبة تحظى باحترام جميع الطوائف العربية، ولكن الأصنام الخاصة بالقبائل فقد كانت موضع احترام جماعة خاصة فقط، ولأجل أن تبقى حرمة هذه الأصنام والأوثان الخاصة محفوظة لا يمسه أحد بسوء كانوا ينشؤون لها أماكن وبيوت خاصة، وكانت سدانة هذه البيوت والمعابد تنتقل من جيل إلى آخر بالوراثة.

أما الأصنام العائلية فقد كانت العوائل تقنيتها للعبادة كل يوم وليلة، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنعه في منزله هو أن يتمسح به أيضاً.

وكان الرجل إذا سافر فنزل منزلاً أخذ أربعة أحجار فنظر إلى أحسنها، واتخذة رباً وجعل ثلاثة أئافى لقره، وإذا ارتحل تركه.

وكان من شَغَف أهل مكة وَحُبِّهم للكعبة والحرم أنه كان لا يسافر منهم أحدٌ إلا حَمَلَ معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم، وحباً له فحيثما حلّوا نصبوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة صباية بها، ويمكن أن تكون هذه هي «الأنصاب» التي فُسرَت بالاحجار العادية غير المنحوتة وتقابلها الأوثان، وهي الاحجار المنحوتة على هيئة خاصة، وأما «الأصنام» فهي المعمولة من خَشَب أو ذهب أو فضة على صورة انسان.

لقد بلغ خضوع العرب أمام الاصنام والأوثان حداً عجيبياً جداً، فقد كانوا يعتقدون بأنهم يستطيعون كسب رضاها بتقديم القرابين اليها، وكانوا بعد نحر الهدايا يلبطخون وجوه الاصنام ورؤوسها بدماء تلك الهدايا، وكانوا يستشيرونها في مهام امورهم، وجلائل شؤونهم، فاذا ارادوا الوقوف على مستقبل الأمر الذي تصدّوا له ومعرفة عاقبته أخيراً هو أم شرٌ استقسم لهم أمين القداح بقدحي

(54)

(الأمر والنهي) وهي قطع كُتِبَ على بعضها (أفعل) وعلى بعضها الآخر (لا تفعل) فيمدُّ أمين القداح يده ويجيل القداح ويخرج واحداً فان طلّع الأمر فعل أو الناهي ترك.

وخلاصة القول، ان الوثنيّة كانت العقيدة الرائجة في الجزيرة العربية، وقد تفتشت فيهم في مظاهر متنوعة ومتعددة، وكانت الكعبة المعظمة - في الحقيقة - محطاً أصنام العرب الجاهلية وآلهتهم المنحوتة، فقد كان لكل قبيلة في هذا البيت صنم، وبلغ عدد الاصنام الموضوعه في ذلك المكان المقدس (٣٦٠) صنماً في مختلف الاشكال والهيئات والصور، بل كان النصارى أيضاً قد نقشوا على جدران البيت وأعمدته صوراً لمريم والمسيح والملائكة، وقصة ابراهيم.

وكان من جملة تلك الأصنام: «اللات» و «العزى» و «مناة» التي كانت تعتبرها قريش بنات الله ويختص عبادتها بقريش.

وكانت «اللات» تعتبر أمّ الالهة، وكان موضعها بالقرب من «الطائف» وكانت من الحجر الابيض، و أما «مناة» فكانت في عقيدتهم إلهة المصير وريّة الموت والاجل وكان موضعها بين «مكة» و «المدينة».

ولقد اصطحب «ابوسفیان» معه يوم «أحد»: «اللات» و «العزى».

ويروى انه مرض ذات يوم «أبو أحيحة» وهو رجل من بني أمية، مرضه الذي مات فيه، فدخل عليه ابولهب يعوده، فوجده يبكي، فقال: ما يبكيك يا با احيحة؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه؟ قال: لا ولكني اخاف ان لا تُعَبِّد العزى بعدي! قال ابولهب: والله ما عُبدت حياتك (اي لا جلك) ولا تُترك عبادتها بعدك لموتك!! فقال أبو أحيحة: الآن علمت ان لي خليفة. (1)

ولم تكن هذه هي كل الأصنام التي كانت تعظّمها وتعبّدُها العرب بل كانت لقريش اصنام في جوف الكعبة وحولها وكان اعظمها «هُبَل»، كما انه لم يكن لكل قبيلة صنم خاص فحسب بل كانت كل عائلة تعبد صنماً خاصاً بها

مضافاً إلى صنم القبيلة وكانت المعبودات تتراوح بين الكواكب، والشمس، والقمر، والحجر، والخشب، والتراب، والتمر، والتمائيل المنحوتة المختلفة في الشكل، والهيكل، والاسم، المنصوبة في الكعبة أو في سائر المعابد.

لقد كانت الاصنام جميعها أو أغلبها معظمة عند العرب، يتقربون عندها بالذبائح ويقربون لها القرابين، وجرت عادة بعض القبائل انذاك أن تختار من بين أفرادها كل سنة شخصاً في مراسيم خاصة ثم تذبحه عند أقدام اصنامها، وتقبر جسده على مقربة من المذبح .

هذا العرض المختصر يكشف لنا كيف أن ارض الجزيرة العربية برمتها كانت قد اصبحت مسرحاً للاصنام ومستودعاً ضخماً للاوثان، وكيف تحولت هذه البقعة من العالم ببيوتها وازقتها وصحاريها وحتى بيت الله المحرم كانت قد تحولت إلى مخزن للنصب المؤلّهة، والتمائيل المعبودة، ويتجلى هذا الأمر من قول شاعرهم الذي اسلم وراح يستنكر ما كان عليه من عبادة الاصنام المتعددة الخارجة عن الاحصاء والعدّ، إذ قال:

أَرَبًا وَاِجْدًا أَمْ أَلْفَ رَبِّ * أَدِينُ إِذَا تَقَسَّمَتِ الْأُمُورُ

عَزَلْتُ اللَّاتَ وَالْعَزَى جَمِيعًا * كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجِلْدُ الصَّبُورُ

فَلَا عَزَى أَدِينُ وَلَا ابْنَتِيهَا * وَلَا صَنَمِي بَنِي عَمْرٍو أُرُورُ

وَلَا غَنَمًا أُرُورُ وَكَانَ رَبًّا * لَنَا فِي الدَّهْرِ إِذْ حَلَمِي يَسِيرُ

وَلَكِنْ أَعْبُدُ الرَّحْمَانَ رَبِّي * لِيَغْفِرَ ذَنْبِي الرَّبُّ الْغَفُورُ⁽¹⁾

وقد حدثت بسبب الاختلاف والتعددية في عبادة الاصنام والاثان المؤلّهة السخيفة الباطلة، تناقضات، وصراعات، وحروب ومناحرات، قد جرّت بالتالي ويلات ومأس وخسائر مادية ومعنوية كبرى على تلك الجماعة المتوحشة، الضالة.

* * *

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت:

وعن مصير الإنسان وحالته ما بعد الموت هذه المشكلة الفلسفية العويصة كانت رؤية العرب ونظرتهم تتلخص في ما يلي:

عند ما يموت الإنسان تخرج روحه من جسده على هيئة طائر شبيه باليوم يسمى عندهم بـ «الهامة والصدى» ثم يبقى هذا الطائر قريباً من جسد الميت بنوحاً مقرحاً وموحشاً، وعند ما يوارى الميت يبقى هذا الطائر مقيماً عند قبره إلى الابد!

وربما وقفت على جدار منزل الميت أحياناً لتسقط أخبار عائلته والاطلاع على أحوالهم!!

قال شاعرهم في ذلك:

سَلِّطَ المَوْتُ والمنونُ عليهم * فَلهم في صدَى المقابر هَامُ

وإذا كان المرء قدمات بموتة غير طبيعية كما لو قُتِلَ - مثلاً - فإن ذلك الحيوان ينادي باستمرار: «اسقوني... اسقوني» اي اسقوني بسفك دم القاتل وارقته؛ ولا يسكن عن هذا النواح والنداء الخاص الابلعد الانتقام والثأر من قاتله.

قال احدهم في ذلك:

فياربَ إنْ أهْلَكَ ولم تُروها متي * بليلي أمتُ لا قَبْرَ أعطشَ من قَبْرِي⁽¹⁾

من هنا بالضبط تتجلى الحقيقة للقارئ ويعلم جيداً كيف أن تاريخ العرب ما قبل الإسلام وتاريخهم ما بعد الإسلام ما هو الأتاريخان على طرفي نقيض:

فذلك تاريخ جاهلية، وثنية وإجرام، وهذا تاريخ علم ووحداية وانسانية وايمان، وشتان ما بين وأد البنات، وبين رعاية الايتام، وبين السلب والنهب والاغارة وبين المواساة والايثار، وبين عبادة الاوثان والاصنام الصماء العمياء

- [بلوغ الارب: ج ٢، ص ٣١١ و ٣١٢.

والتقرب إلى الله الواحد القادر.

الآداب مرآة آداب الشعوب ونفسياتها:

المخلفات الفكرية والثقافية، وما يتركه أي شعب من الشعوب من قصص وحكايات افضل وسيلة للتعرف على خلفياته النفسية والأخلاقية، ذلك لأن الآداب بما فيها الشعرُ والقصةُ، والخطبةُ والحكايةُ، والمثلُ والكنايةُ مرآةٌ صادقةٌ تعكس المستوى الفكري لأية جماعة، وتعتبرُ خير مقياس لتمدنها، وحضاراتها، وأفكارها ونفسياتها، تماماً كما تحكي اللوحاتُ الفنيةُ عن حياة عائلة، أو منظر طبيعي جميل، أو اجتماعات صاحبة، أو مشاهد قتالية.

إنّ القصائد والأمثال العربية التي كانت رائجة آنذاك تستطيع - قبل كل شيء - أن تكشف عن الوجه الحقيقي لتاريخهم ونمط حياتهم وسلوكهم، ولهذا السبب لا يجوز لأي مؤرخ واقعي يسعى إلى الحصول على صورة كاملة عن تاريخ شعب من الشعوب أن يتجاهل التركة الفكرية والأدبية والثقافية لذلك الشعب سواء أكان شعراً أم نثراً، أمثالاً أم حكماً، قصصاً أم أساطير.

ومن حسن الحظ أنّ مؤرخي الإسلام اثبتوا وسجلوا باتقان ما أُثِر من العرب ممّا يرتبط بأدابهم في العصر الجاهلي بقدر ما أُتيح لهم ذلك.

وقد كان ابو تمام «حبيب بن اويس» (المتوفى عام ٢٣١ هجرية) والذي يُعتبر من كبار أدباء الشيعة، وله قصائد رائعة في مدح آل الرسول، ممن اعتنى عناية بالغة بهذه الناحية، حيث جَمع في كتاب واحد طائفة كبيرة جداً من الشعر الجاهلي مفصلة في عشرة أبواب هي:

1- الحماسة.

2- المرثي.

3- الادب.

4- النسيب.

5- الهجاء.

6- الاضافات.

7- الصفات.

8- السير.

9-المُلح.

10-مذمة النساء.

وقد تناولَ هذا الديوان التاريخيُّ القيمَ عددٌ كبيرٌ من أدباء المسلمين وعلمائهم بشرح أبياته، وتفسير غوامضها، وبيان اغراضها، ومقاصدها.

كما ترجم أصل الديوان إلى لغات اجنبية عديدة جاء ذكر طائفة منها في كتاب «معجم المطبوعات»⁽¹⁾.

مكانة المرأة عند العرب الجاهلية:

إن الباب العاشر من هذا الديوان خير وسيلة لمعرفة ما كانت عليه المرأة في العصر الجاهلي من الحرمان، وأقوى دليل على أنها كانت تعيش - في ظل ذلك العهد - في أسوأ الحالات وأشد الظروف واتعسها.

هذا مضافاً إلى أن الآيات القرآنية التي تنزلت وهي تشجب بعنف معاملة الجاهلين للعنصر النسائي، وقسوتهم على الأنثى، هي الأخرى افضل شاهد على مدى الانحطاط الاخلاقي والتدهور السلوكي الذي انحدروا إليه في هذا المجال.

إن القرآن الكريم يصف عادة وأد البنات بقوله: **وإذا الموءودة سئلت**⁽²⁾ (أي ليسئل يوم القيامة عن البنات اللاتي وُدن وهنّ أحياء.

إن القرآن الكريم بهذه العبارة الموحية إنما يتحدث - في الحقيقة - عن عادة وأد البنات بمرارة، ويشجبها بشدة حتى أنه يعتبرها جريمة نكراء لا تمر - في الآخرة - بدون حساب شديد، وسؤال خاص.

- [معجم المطبوعات: ص ٢٩٧، وقد اشتهر هذا الديوان ببابه الأول: «الحماسة» فسمي ديوان الحماسة.
- 2التكوير: ٨.

(59)

حقاً انه لأمرٌ يكشف عن مدى القسوة التي كان عليها قلوبُ الجماعة.

إنها قسوة تغشى كل عواطف المرء فلا يعود يسمع معها نداء الضمير، ولا يحسُّ معها بوخز الوجدان، انه لا يعود يسمع معها حتى صراخ بنته الجميلة البريئة، واستغاثاتها المؤلمة وهي ترى بأمر عينها حفيرتها، وتحس بيدي والدها القاسي، وهو يدفعها إلى تلك الحفرة ويدفنها حية!

إنها قسوة تكشف عن أسوأ وأحط درجات الانحطاط الخلقى، والتقهقر الإنساني.

وبنو تميم هي أول قبيلة اقدمت على هذه الجريمة النكراء، وكان السبب أن «بني تميم» أمتنعوا من دفع ضريبة الاتاوة التي كانت عليهم إلى الملك، فجرّد اليهم النعمان بن المنذر حاكم العراق آنذاك جيشاً كبيراً لضرب هذا التمرد، وانتصر على «بني تميم» في المال وغنم منهم الغنائم وسبى منهم الفتيات والنساء، فوفدت وفود «بني تميم» على النعمان بن المنذر وكلموه في الذراري والنساء، فحكم النعمان بان يجعل الخيار في ذلك إلى النساء، فأية امرأة اختارت زوجها ردت عليه، فاختلّفن في الخيار، فاخترت بعضهنّ العودة إلى الالاهل والاباء، واختارت بنتٌ لقيس بن عاصم سابيتها على زوجها مما أثار هذا الموقف والاختيار غيظ والدها العجوز «قيس بن عاصم» فنذر من ذلك الحين أن يدس كل بنت تُولد له. وهكذا سنّ لقومه الوأد، واخذت بقية القبائل بهذه العادة البغيضة الوحشية إرضاءً لغيرتهم وظلّوا يمارسونها اعواماً متمادية. (1)

واليك واحدة من القصص المأساوية في هذا المجال:

قيل لما وفد «قيس بن عاصم» على رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سأله بعض الانصار عما يتحدث به في المؤدات، فاخبر انه ما ولدت له بنت إلا وأدها، قال: كنتُ اخاف العار وما رحمتُ منهنّ إلا بُنيّة كانت ولدتها أمها وأنا في سفر، فدفعتها إلى أخواتها، وقدمت أنا من سفري فسألتها عن الحمل، فأخبرت أنها

- [بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٢ و ٤٣.

(60)

ولدت ولداً ميتاً، وكتمتُ حالها، حتّى مضت على ذلك سنون، وكبرت الصبية، وينعت، فزارت أمها ذات يوم، فدخلتُ فرأيتها وقد ضفرت شعرها وجعلت في قرونها جداداً ونظمت عليها ودعأ، والبستها قلادة من جزع فقلت لها: من هذه الصبية؟ وقد اعجبني جمالها فبكت أمها، وقالت: هذه ابنتك، فامسكث عنها حتّى غفلتُ أمها ثم اخرجتها يوماً فحفرتُ لها حفرة وجعلتها فيها وهي تقول: يا ابت ما تصنع؟ أخبرني بحقك!! وجعلتُ أقلب عليها التراب، وهي تقول: أنت مغط علىّ بهذا التراب، أنت تاركي وحدي، ومنصرف عني، وجعلتُ اقفف عليها حتّى وارتبها، وانقطع صوتها، فتلك حسرتها في قلبي، فدَمَعْتُ عينا رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وقال: «إن هذه لقسوة، ومن لا يرحم لا يرحم». (1)»

وقد ذكر ابن الاثير في كتابه «أسد الغابة» في مادة: قيس: ان النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - سأل قيساً عن عدد البنات اللاتي وأدهنّ في الجاهلية: فاجاب قيس بانها وأد اثنتي عشرة بنتاً له. (2)

وَرُوي عن ابن عباس أنه قال: كانت الحامل إذا قُربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة، فاذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة وإذا ولدت ولداً حبسته. (3)

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب:

كانت المرأة عندهم تباع و تُشتري كالمَتاع، وكانت محرومة من جميع الحقوق الاجتماعية والفردية، حتّى حق الارث.

وقد كان المثقفون من العرب يُعدّون النساء من الحيوانات، ولهذا كانوا يعتبرونهن جزءاً من أثاث البيت ويعاملونهن معاملة الرياش

والفراش حتّى سار

-
- [حياة محمّد: تأليف محمّد علي سالمين، ص ٢٤ و ٢٥.
 - 2 راجع اسد الغابة: ج ٤، ص ٢٢٠، وجاء في بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٤٣ أنه وأد بضع عشرة بنتاً.
 - 3 بلوغ الارب: ج ٣، ص ٤٣.
-

(61)

فيهم المثلّ المعروف: «وانما امّهات الناس او عية.»

كما أنهم غالباً ما كانوا يقتلون بناتهم في اليوم الاول من ميلادهن خشية الفقر تارة، ودفعاً للعار والشنآن تارة أخرى.

وقد كان هذا القتل يُنمّ إما بذبحهن أو إلقاءهن من شاهق، أو إغراقهن في الماء أو الدفن وهن أحياء كما سبق.

وقد تعرض القرآن الكريم - الذي يعدّ من وجهة نظر المستشرقين الكتاب والمصدر التاريخي العلمي الوحيد الذي لم تنله يد التحريف

- تعرّض لذكر قصة من هذا النوع ضمن آيات من سورة النحل حيث قال: **وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ**

يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيَسْكُتُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ. (1)

هذا والمؤسف أكثر هو ما كان عليه وضع الزواج في الجاهلية، حيث لم يكن يستند إلى أي قانون، ولم يخضع لأى واحد من النظم

المعقولة، بل كان وضعاً عديم النظر في ذلك الزمان، فلم يكن لعدد الزوجات - مثلاً - حد معلوم، أو قاعدة ثابتة.

كما انه كلما أرادوا التخلص من مهر الزوجة عمدوا إلى ايداءها بقسوة، حتّى تتخلى هي بنفسها عن حقها، وكان اقترافها لأى عمل

مناف للعفة هو الآخر سبباً لسقوط حقها في المهر بالمرّة.

ولطالما استغلّ بعض الاشخاص هذا القانون الجائر للتخلص من مهور زوجاتهم فاتهموهن بالخيانة الزوجية!!

ومن قبيح ما كانوا يفعلون ان يتزوج الرجل بزوجة أبيه بعد تطليقها، أو وفاته وربما تناوب الأبناء على امرأة أبيهم واحداً بعد واحد،

فقد كان الرجل من العرب الجاهلية إذا مات عن المرأة أو طلقها قام أكبر بنيه، فان كان يحبُّ أن يتزوجها طرح ثوبه عليها، وإن لم

يكن يريد التزوج بها تزوّج بها بعضُ اخوته بمهر

(62)

جديد. (1)

وقد ابطل الإسلام هذه العادة الفاسدة حيث قال الله تعالى: **وَلَا تَتَّخِذُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا.** (2)

وقد ذكرت كتب التاريخ والسيرة طائفة ممن فعلوا هذا نعرض عن ذكر أسماءهم.

كما ذكرت تلك الكتب أنواعاً أخرى من المناكح الفاسدة الشنيعة التي أبطلها الإسلام. (3)

ثم إن المطلقة لم يكن لها الحق - في زمن الجاهلية - في أن تتزوج برجل آخر بعد انقضاء عتقها إلا إذا اذن لها الزوج الأول الذي كان غالباً ما يأخذ مهرها في الزواج الثاني في قبائل الأذن.

وربما منع أولياؤها من أن تتزوج بزوجها الأول الذي طلقها، ثم خطبها بعد انقضاء العدة إذا رضيت به ورغبت فيه، أو أن تتزوج بمن أرادت واحبت - بعد انقضاء العدة - أصلاً، حمية جاهلية.

وكان الرجل يرث امرأة ذي قرابته إذا مات عنها، تماماً كما يرث ما خلف من أمتعة المنزل، زاعماً بأنه أحقُّ بها من غيره، فيعطلها (يمنعها من الزواج) أو تزد إليه صداقها، وفي رواية؛ إن كانت جميلة تزوجها، وإن كانت دميمة حبسها حتى تموت فيرثها، وقد نهى الله تعالى عن ذلك، وأبطل تلك العادات إذ قال تعالى: **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَمْ آزَكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.** (4)

- [المحبر: ص ٣٢٦ و ٣٢٧.
- 2 النساء: ٢٢، و كانوا يُسمون من يتزوج زوجة أبيه الضيزن، وكان هذا الزواج يسمى في الجاهلية «نكاح المقت» ويُسمى الولد منه: مقتي. (راجع بلوغ الأرب: ج ٢، ص ٥٣ ومجمع البيان للطبرسي: ج ٣، ص ٢٦).
- 3 المحبر: ٣٣٧ - ٣٤٠.
- 4 البقرة: ٢٣٢.

(63)

وقال سبحانه: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرَاهًا وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ.** (1)

وقال تعالى: **وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَّغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لَتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ.** (2)

وخلص القول؛ إن المرأة كانت في العهد الجاهليّ بشرّ حال، ويكفي لتلخيص ما قلناه أنه لما خطب احدهم إلى رجل ابنته، وذكر له المهر والصدّاق قال: إنّي وإن سيقَ إلى المهر ألف وعبدان (أي عبيد ومماليك) ودؤد (وهو من الابل من الثلاث إلى العشر) عَشْرُ، أحبُّ أصهاري إلى القَبْرِ وقال شاعرهم، في ذلك.

لِكُلِّ أَبِي بِنْتِ يُرَاعِي شُؤْنَهَا * ثَلَاثَةُ أَصْهَارِ إِذَا حَمَدَ الصَّهْرُ

فَبَعْلٍ يِرَاعِيهَا وَخَدْرَ يَكْنُهَا * وَقَبْرٍ يُورِيهَا وَأَفْضَلُهَا الْقَبْرُ⁽³⁾

كما ان العرب كانت مصففة ومتففة على توريث البنين دون البنات.⁽⁴⁾

مقارنة بسيطة:

ولو لاحظت أيها القارئ الحقوق التي قررها الإسلام في مجال (المرأة) لاذعنت - حقاً - بأن هذه الاحكام والمقررات وهذه الخطوات المؤثرة التي خطاها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في سبيل اصلاح حقوق المرأة، وتحسين اوضاعها، هي بذاتها شاهدٌ حق، ودليل صدق على حقانيته، وصدق ارتباطه بعالم الوحي.

فاية رعاية ولطف بالمرأة وحقوقها وأي اهتمام بشأنها وكرامتها أعلى واكثر من ان يوصي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مضافاً إلى ما جاء في آيات واحاديث كثيرة تؤكد على حقوق المرأة وتوصي أتباع هذا الدين بالرحمة بهن واحترامهن في

-
- [النساء: ١٩ .
 - البقرة: ٢٣١ .
 - بلوغ الارب: ج ٢، ص ٩ .
 - المحبر: ص ٢٣٦ .

(64)

خطبته الشهيرة في (حجة الوداع) بالمرأة، ويؤكد على ذلك اشد تأكيد إذ يقول - صلى الله عليه وآله وسلم - :

(ايها الناس إن نساءكم عليكم حقاً، ولكم عليهن حقاً... فاتقوا الله في النساء وأستوصوا بهنّ خيراً، فانهنّ عندكم عيوانٌ...)

أطعموهنّ ممّا تاكلون، وألبسوهنّ ممّا تلبسون.⁽¹⁾

العربُ والروح القتالية:

من الناحية النفسية يمكن القول بان عرب الجاهلية كانوا النموذج الكامل للإنسان الحريص، الموصوف بالطمّع الشديد، القوى التعلق بالماديات.

لقد كانوا ينظرون الى كل شيء من زاوية منافعه ومردوداته المادية، كما أنهم كانوا دائماً يرون لأنفسهم فضيلة وميزة على الآخرين

كانوا يحبون الحرية حباً شديداً، ولذلك كانوا يكرهون كل شيء يقيد حريتهم.

يقول ابن خلدون عنهم: «إنهم (اي العرب الجاهلية) بطبيعة التوحش الذي فيهم اهلُ انتهاب وغيث، ينتهبون ما قدروا عليه... وكان

ذلك عندهم ملذوذاً لما فيه من الخروج عن ربة الحكم، وعدم الإنقياد للسياسة وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له. »

ويضيف قائلاً: «فطبيعتهم انتهاب ما في أيدي الناس، وان رزقهم في ضلال رماحهم وليس عندهم في أخذ اموال الناس حدٌ ينتهون

إليه بل كلما امتدت أعينهم إلى مال أو متاع أو ماعون انتهبوه. (2)»

لقد كانت الاغارة وكان النهب والقتال من العادات المستحكمة عند القوم، ومن الطبائع الثانوية في نفوسهم، وقد بلغ ولعهم وشغفهم

بكل ذلك ونزوعهم

- [وردت هذه العبارات في مصادر مختلفة مع شيء طفيف من الاختلاف، راجع تحف العقول: ص ٣٣ و ٣٤.
- 2مقدمة ابن خلدون: ص ١٤٩.

(65)

الشديد إليه أن أحدهم - كما يقال - سأل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد أن سمع منه وصف الجنة وما فيها من نعيم: وهل فيها

قتال؟

ولما سمع الجواب بالنفي قال: اذن لا خير فيها!!

اجل لقد سجل التاريخ للعرب ما يقرب من (١٧٠٠) وقعة وحرباً، امتد أمد بعضها إلى مائة سنة أو أكثر، يعني أن أجيالاً كثيرة

كانت تتوارث الحرب، وتستمر في قتال الخصم، وربَّ حرب دامية طويلة الأمد إندلعت بسبب قضية تافهة. (1)

لقد كان العربي في العهد الجاهلي يعتقد بأن الدم لا يغسله الا الدم، وقضية «الشنفري» التي هي اشبه بالأساطير لغرابتها يمكن أن

تعكس مدى «العصبية الجاهلية» التي كانت سائدة آنذاك.

فالشنفري يُهان على يد رجل من «بني سلامان» فيعزم على الانتقام منه، وذلك بأن يقتل مائة من تلك القبيلة، وبعد التربُّص الطويل

يغتال تسعاً وتسعين، ويبقى مشرداً حتى تغتال جماعة من اللصوص عند بئر فتفعل جمجمته - بعد مقتله - فعلتها، اذ تنسبُ بعد

مرور سنين - في قتل رجل من قبيلة - «بني سلامان» وبذلك يكتمل العدد الذي حلف على قتلهم من تلك القبيلة، وذلك عندما يمر

رجل من «بني سلامان» على تلك المنطقة فيهب طوفان شديد يلقي بجمجمة «شنفرة» على ذلك الرجل فتصيبه في رجله بشدة، فيموت بما لحقه من ألم وجراحة. (2)

- [العرب قبل الإسلام: ص ٣١٩ و ٣٢٠، هذا وتعتبر حرب داحس والغبراء، من أيام العرب التاريخية قبل الإسلام، وقد نشأت بسبب سباق بين فرسين هما داحس والغبراء (وهو فرسين لقيس بن زهير من بني عيس) وفرسين آخرين (لحذيفة الغدر) انتهى إلى التنازع في السباق وازداد التنافر بين المتسابقين وانجر إلى طعن أحدهما الآخر، وأن تنهياً على اثر ذلك مقدمات حرب طويلة بين قبيلتي الرجلين وحلفائهما استمرت من عام ٥٦٨ م إلى عام ٦٠٨ م وموت كثيرين.
(راجع تاريخ العرب وأدبهم ص ٤٧ و الكامل لابن الأثير: ج ١، ص ٢٠٤.)
- 2 تاريخ العرب: ج ١، ص ١١١، وراجع أيضاً بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج ٢، ص ١٤٥ و ١٤٦.

(66)

ولقد بلغ أنس العرب الجاهلية بالقتال وسفك الدماء أن جعلوا القتل والسفك للدماء من مفاخر الرجال!!

ويبدو ذلك جلياً لمن يقرأ قصائدهم الملحمية التي تفوح منها رائحة الدم، ويخيم عليها شبح الموت، تلك القصائد التي يمدح فيها الشاعر نفسه أو قبيلته بما أرقوه من دماء!!، وما ازهقوه من ارواح وما سبوه من نساء!!، وأيتموه من أطفال!!

ونجد في البيت الشعري التالي مدى انزعاج الشاعر العربي الجاهلي لما اصاب قبيلته من نكسة وذل وهزيمة في ميدان القتال، إذ يقول:

قَلَيْتَ لِي بِهِمُ قَوْمًا إِذَا رَكَبُوا * سَنُّوا الإِغَارَةَ رُكْبَانًا وَفُرْسَانَا

ويعرف القرآن الكريم هذه الحالة بقوله: **وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا.** (1)

الاخلاق العامة في المجتمع الجاهلي العربي:

ومهما يكن من امر فان عوامل مختلفة كالجهل وضيق ذات اليد، وجشوبة العيش، وعدم وجود قانون صحيح يحكم الحياة الاجتماعية، وحالة البداوة الموجبة للتوحش، والكسل والبطالة وغير ذلك من الرذائل الاخلاقية كانت قد حولت جو الجزيرة العربية إلى جو فاسد قاتم، حتى أن أموراً يندى لها الجبين قد اخذت طريقها إلى حياة تلك الجماعة وراحت تتخذ شيئاً فشيئاً صفة العادات المتعارفة!!

لقد كانت الغارات وعمليات النهب، والقمار، والربا، والاسر، والسبي من الأعمال والممارسات الرائجة في حياة العرب الجاهلية، وكان شرب الخمر ومعاقرتها بلا حدود هو الآخر من الأعمال القبيحة الشائعة لديهم، ولقد ترسخت هذه العادة القبيحة في حياتهم إلى درجة انها صارت جزء من طبيعتهم، وحتى أن

شعراءهم خصّصوا مساحات كبيرة في قصائدهم لامتداح الخمرة ووصفها وكانت الحانات مفتوحة في وجه الناس طيلة الوقت تستقبل الزبائن، وقد نُصِبَت عليها رايات.

فها هو شاعرهم يقول:

إذا متُّ فادفني إلى جنبِ كَرَمَةٍ * تُرَوِّي عِظامي بَعْدَ مَوْتِي عُرُوقُهَا

ولا تدفني في الفلاة فإبني * أخاف إذا مامتُ أن لا أدوقها(1)

لقد بلغت معارفُ الخمر من الرواج في الحياة العربية الجاهلية بحيث أصبحت لفظه «التجارة» تعادل في عرفهم بيع الخمر، والاتجار بها.

ولقد كانت الأخلاق تفسر عند العرب الجاهلية بنحو آخر عجيب، فانهم مثلاً كانوا يمدحون الشجاعة والمروءة والغيرة، ولكنهم كانوا يقصدون من «الشجاعة» القدرة على الإغارة وسفك الدماء، وكثرة عدد القتلى في الحروب!!

كما أن الغيرة كانت تعني عندهم وأد البنات حتى أن هذا العمل الوحشي كان يُعدّ عندهم من أعلى مظاهر الغيرة، وكانوا يرون الوفاء والوحدة في نصرته الحليف حقاً أو باطلاً، وهكذا فإن أكثر القصص التي نُقلت عن شجاعتهم وشغفهم بالحرية كانت الشجاعة والشغف بالحرية فيها تتلخص وتتجسد في الإغارة والانتقام.

انهم كانوا يعشقون - في حياتهم - المرأة والخمرة والحرب ليس غير.

النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع الجاهلي:

ولقد بيّن القرآن الكريم أهداف البعثة المحمدية المقدسة بعبارة موجزة، ومما يلفت النظر - أكثر من أي شيء - ما ذكره تعالى في

الكتاب العزيز حول أهم هذه الأهداف والغايات العليا إذ قال: **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.**(2)

- [تفسير مفاتيح الغيب: ج ٢، ص ٢٦٢، طبعة مصر: ١٣٠٥.
- الأعراف: ١٥٧.

فلا بد أن نعرف ماذا كانت تلك الأغلال والسلاسل التي كانت غربُ الجاهلية ترزخ تحتها حتى قبيل بزوغ فجر الإسلام؟

لا ريبَ أنَّها لم تكن من جنس الأغالل والسلاسل الحديدية، ولم يكن المقصودُ منها ذلك أبداً، فماذا كانت إذن يا ترى؟

أجل إنَّ المقصودَ من هذه الاغالل هي الأوهام والخرافات التي كانت تقيّد العقلَ العربي عن الحركة، وتعيقه عن النمو والتقدم، ولا شك أن مثل هذه السلاسل والأغالل التي تقيّد الفكر البشري وتمنعه من التحليق والتسامي، أثقل بكثير من الاغالل والقيود الحديدية واضرّ على الإنسان منها بدرجات ومراتب، لأنَّ الأغاللَ الحديديّة توضع عن الأيدي والأرجل بعد مضي زمان، ويتحرر الإنسان منها، بعد حين، ليدخل معترك الحياة بعقلية سليمة مبرّاة من الأوهام والخرافات، وقد زالت عنه ما تركته تلك الحدائد من جروح وآلام.

أما السلاسل والاعلال الفكرية (ونعني بها الاوهام والاباطيل والخرافات) التي قد تهيمن على عقل الإنسان وتكبّل شعوره فانها طالما رافقت الإنسان إلى لحظة وفاته، واعاقته عن المسير والانطلاق، دون ان يستطيع التحرر منها، والتخلص من آثارها، وتبعاتها، اللهم إذا استعان على ذلك بالتفكير السليم، والهداية الصحيحة.

فبالتفكير السليم وفي ضوء العقل البعيد عن أيّ وهم وخيال يمكنه التخلص من تلك الاغالل والقيود الثقيلة، وأما بدون ذلك فإن أيّ سعي للإنسان في هذا السبيل سيبيء بالفشل.

إن من أكبر مفاخر نبي الإسلام أنه كافح الخرافات، وأعلن حرباً شعواء على الأساطير، ودعا إلى تطهير العقل من أدران الأوهام والتخيلات، وقال: لقد جنّت لاخذ بساعد العقل البشري، وأشدّ عضده، وأحارب الخرافه مهما كان مصدرها. وكيفما كان لونها وأياً كانت غايتها، حتّى لو خدّمت أهدافي، وساعدت على تحقيق مقاصدي المقدسة.

إنّ ساسة العالم الذين لاتهمهم إلا إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على

(69)

الشعوب لا يتورعون عن التوسل بأية وسيلة، والاستفادة من اية واقعة في سبيل تحقيق مآربهم حتّى أنهم لا يتأخرون عن التذرع بترويج الخرافات والأساطير القديمة بين الشعوب للوصول إلى سدة الحكم، أو البقاء فيها ما يمكنهم ذلك. ولو اتفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فانهم في هذه الحالة دافعوا عن تلك الخرافات والأوهام والاساطير التي لا تنسجم مع اي مقياس عقلي بحجة الحفاظ على التراث القومي، أو احترام رأي اكثرية الشعب، أو ما شابه ذلك من الحجج المرفوضة.

ولكنّ رسول الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافية التي كانت تلحق الضرر به، وبمجتمعه، بل كان يكافح ويحارب بجميع قواه كل أسطورة أو خرافة شعبية أو فكرة فاسدة باطلة، تخدم غرضه، وتساعد على تحقيق التقدم في دعوته ويسعى إلى أن يجعل

الناس يعشقون الحقيقة لا ان يعبدوا الخرافات، ويكونوا ضحايا الاساطير والأوهام، واليك واحداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر.

لمامات إبراهيم بن رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - وهو ابنه الوحيد، حزن عليه النبي حزناً شديداً فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار، واتفق ان انكسفت الشمس في ذلك اليوم أيضاً، فذهب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمة المصاب به فقالوا: انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله، فصعد رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - المنبر وقال: «أيتها الناس ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بأمره، ومطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا انكسفا، أو أحدهما صلوا. »
ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف وهي ما تسمى بصلاة الايات. (1)

- [بحار الأنوار: ج ٩١، ص ١٥٥.

(70)

ان فكرة انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرسالة وان كان من شأنها ان تقوي من موقع النبي في قلوب الناس، وتخدم بالتالي غرضه، وتساعد على انتشار دعوته، وتقدمها، إلا أنه - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - رفض ان يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس من هذا الطريق.

على أن محاربة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - للخرافات والاساطير التي كانت نموذجاً بارزاً من محاربه للوثنية، وتأليه المخلوقات وعبادتها، لم تكن من سيرته في عهد الرسالة بل كان ذلك دأبه في جميع أدوار حياته، حتى يوم كان صبياً يدرج، فانه كان يحارب الاوهام والخرافات، ويعارضها في ذلك السن أيضاً.

تقول حليمة السعدية مرضعة النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - : لما تم له (اي لمحمد) ثلاث سنين قال لي يوماً: «يا أمأه مالي لا أرى أخوئاً بالنهار»؟

قلت له: يا بني إنهما يرعيان غنيمات، قال: «فمالي لا أخرج معهما»؟ قلت له: تحب ذلك؟ قال: نعم.

فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية (وهي من التمام الباطلة كانت تعلق على الشخص في أيام الجاهلية

لدفع الأفات عنه)، فنزعتها، وقال لي: «مهلاً يا أمأه فإن معي من يحفظني. (1)»

الخرافات في عقائد العرب الجاهلية:

كانت عقائد جميع الامم والشعوب العالمية يوم بزوغ شمس الإسلام ممزوجة بألوان من الخرافات والأساطير.

فالاساطير اليونانية والساسانية كانت تخيم على افكار الشعوب التي كانت تعد في ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات.

على انه لا تزال خرافات كثيرة تسود وإلى الآن في المجتمعات الشرقية المتقدمة، ولم تستطع الحضارة الراهنة أن تزيلها من حياة الناس ومعتقداتهم.

- [بحار الانوار: ج ١٥، ص ٣٩٢.

(71)

إن تنامي الخرافة «يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمي والثقافي في كل مجتمع، فيقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحية الثقافية والعلمية تزداد نسبة وجود الخرافة ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم.

لقد سجل التاريخ عن سُكَّان شبه الجزيرة العربية طائفة هائلة وكبيرة من الاوهام والخرافات، وقد جمع السيد محمود الألوسي أكثرها في كتابه «بلوغ الارب في معرفة احوال العرب»، مُرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعرية وغيرها.⁽¹⁾

ومن يتصفح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات التي كانت تملأ العقل العربي الجاهل آنذاك وتعشعش في نفوسهم، وقد كانت هذه السلسلة الرهيبة من الأوهام هي السبب في تخلف هذا الشعب عن بقية الشعوب والأمم الأخرى.

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوة الإسلامية، ولهذا أجتهد النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بكل طاقاته في محو وازالة آثار الجاهلية التي لم تكن سوى تلك الأوهام والاساطير والخرافات.

فعندما وجَّه «معاذ بن جبل» إلى اليمن اوصاه بقوله:

«وامتُ أمرُ الجاهليَّةِ إلَّا ما سنَّه الإسلامُ و أظهرُ أمرُ الإسلامِ كلُّه صغيرةٌ وكبيرةٌ.»⁽²⁾

لقد وقف رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمام جماهير كبيرة من العرب الذين كانت عقولهم ترزخ تحت الافكار والمعتقدات الخرافية ردحاً طويلاً من الزمن يعلن عن نهاية عهد الافكار والاهام الجاهلية إذ قال: «كُلُّ مَأْتِرَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي.»⁽³⁾

- [بلوغ الارب في معرفة احوال العرب: ج ٢، ص ٢٨٦ - ٣٦٩.

- 2تحف العقول: ص ٢٥.

- 3السيرة النبوية: ج ٣، ص ٤١٢.

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي:

وللوقوف على مدى أهمية التعاليم الإسلامية وقيمتها نلقت نظر القارئ الكريم إلى نماذج من هذه الخرافات، ومن أراد التوسع راجع المصدر المذكور.

1- الاستسقاء بأشعال النيران:

كانت العرب إذا أجدبت، وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا عَمَدُوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سريعة الاشتعال) فحزموهما، وعقدوهما في أذناب البقر، وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وَعَر، واتبعوها يدعون الله تعالى، ويستسقونه، وإنما يضرمون النيران في أذناب البقر تفاولا للبرق بالنار... وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الأخرى، وكانت هذه الثيران والأبقار إذا صاحت من وجع الاحتراق ظنّت العرب بان ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم في ذلك:

يا (كحل) قَدْ أَثْقَلْتَ أَذْنَابَ الْبَقْرِ * بَسْلَعُ يُعَقَّدُ فِيهَا وَعُشْرُ

فَهَلْ تُجُودِينَ بِبِرْقٍ أَوْ مَطَرٍ؟

2- ضرب الثور إذا عافت البقر:

كانوا إذا أوردوا البقر فتمتتع من شرب الماء، ضربوا الثور ليقتحم الماء، بعده ويقولون: إن الجنّ تصدّ البقر عن الماء، وأن الشيطان يركبُ قرني الثور، ولا يدع البقر تشرب الماء، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال في هذا شاعرهم:

كذاك الثور يضربُ بالهراوى * إذا ما عافت البقر الظمأ

وقال آخر:

فإني إذا كالتور يضرب جنبه * إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيبه⁽¹⁾

- 1 عافت أي كرهت شرب الماء.

وقال ثالث:

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها * يُكسِر ضرباً وهو للورد طائغ

وما ذنبه إن لم ترد بقراته * وقد فاجأها عند ذلك الشرائع

-3- صحیح الإبل ليبراً السقيم:

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح في مشافرها واطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكوّوا مشفره وعضده وفخذة يرون أن ذلك إن فعلوه ذهب الغر والقرح والمرض عن إبلهم السقيمة، ولا يعرف سبب ذلك.

وقد احتمل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقاية للصحاح من الإصابة بالغر الذي أصاب غيرها، أو أنه نوع من المعالجة العلمية، ولكن لماذا ترى كأثوا يعمنون إلى بعير واحد من بين كل تلك الإبل، فلا بد من القول بأن هذا الفعل كان ضرباً من الاعمال الخرافية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك:

وكلفتني ذنب امرىء وتركته * كدى الغزيكوى غيره وهو راع

وقال آخر:

كمن يكوي الصحيح يروم براء * به من كل جرباء الإهاب

وقال ثالث:

فالزمنّي ذنباً وغيري جرّه * حنانيل لا تكو الصحيح بأجربا

4- حبس ناقة عند القبر اذامات كريم:

إذا مات منهم كريم عقلوا ناقته أوبعيره عند القبر الذي دُفِنَ فيه ذلك الكريم، فعكسوا عنقها، وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملىء جلدُها ثماماً، وكانوا يزعمون أن من مات ولم يُبَلَّ عليه (أي لم تعقل ناقة عند قبره هكذا)

وقد قال أحدهم في هذا الصدد:

إذا مِتُّ فادفني بحراء مابها * سوى الأصرخين أو يفوز ركبُ

فإن أنت لم تُعقرْ عليّ مطيّي * فلا قام في مال لك الدهر حالبُ

وقال آخر وهو يوصي ولده بان يفعلوا له ذلك:

أبني لا تنسَ البليّةَ إنها * لأبيك يومَ نُشوره مركوبُ

-5- عقرُ الإبل على القُبور:

كانوا إذا مات أحدُهم ضربوا قوائم بعير بالسيف عند قبره، وقيل انهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت المضيف على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للاضياف.

وقد اطلقت الشريعة المقدسة هذه العادة الباطلة في ما أبطلته فقد جاء في الحديث «لا عقر في الإسلام.»

وقد قال أحدهم حول العقر هذا:

قُلْ للقوافل والغزاة إذا عَزّوا * والباكرين وللمجدّ الرائح

إن الشجاعة والسماحة ضُمنا * قبراً يمرّ على الطريق الواضح

فإذا مررت بقبره فاعقرّ به * كَوْمَ الجلاذ وكل طرف سابع

وأنضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكونُ آخا دم وذباح

-6- نهيق الرجل إذا اراد دخول القرية (التعشير):

ومن خرافاتهم أن الرجل منهم كان إذا اراد دخول قرية فخاف وباءها أو جنّها وقف على بابها قبل ان يدخلها فنهيق نهيق الحمار، ثم علّق عليه كعب أرنب كأنّ ذلك عوذة له، ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير.

قال شاعرهم:

ولا ينفع التعشير أن حُمّ واقع * ولا زعزع يُغني ولا كعب أرنب

وقال الآخر:

لعمري إن عثرتُ من خيفة الردى * نهاق حمير أنني لجزوغ

7- تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدي:

فقد كان الرجلُ منهم إذا ضلّ في فلاة قلب قميصه وصفق ببديه، كأنه يومئ بهما إلى انسان مهتدي.

قال أعرابي في ذلك:

قلبتُ ثيابي والظنونُ تجولُ بي * ويرمي برجلي نحو كلّ سبيل

فلأياً بلائي ما عرفت حليلتي * وأبصرتُ قصداً لم يُصَبْ بدليل

8-الرتم:

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمَد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أوفي ساقها فاذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإن وجدته بحاله

علم ان زوجته لم تخنه وان لم يجده أو وجدته محلولا قال: قد خاننتي. وذلك العقد يسمى «الرتم.»

قال شاعرهم في ذلك:

خانته لما رأثُ شئياً بمفرقه * وغرّه جلفها والعقدُ للرتم

وقال الآخر:

لا تحسبنَ رثانما عقدتها * تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال ثالث:

يعلل عمروُ بالرتائم قلبه * وفي الحى ظبئُ قد أحلت محارقه

فما نفعَتْ تلك الوصايا ولا جنّت * عليه سوى ما لا يحبُّ رثانمه

9-وطي المرأة القتيل الشريف لبقاء ولدها:

فقد كانت العرب تقول: ان المرأة المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولدٌ، إذا وطئت القتيل الشريف عاش ولدُها.

قال احدهم:

تظَلّ مقلّبت النساء يطأنه * يَفْلُنْ أَلَا يلقى على المرء منزر

-10 طَرْحُ السِّنِّ نَحْوِ الشَّمْسِ إِذَا سَقَطَتْ:

ومن تخيلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم إذا سَقَطَتْ له سنٌ أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها وقال: يا شمس ابدليني بسنّ احسن منها ولتجر في ظلمها آياتك، أو تقول أياؤك، وهما جميعاً شعاع الشمس.

قال احدهم وهو يصف ثغر معشوقته:

سفته اياة الشمس إلا لثاته * أسفّ ولم تكرم عليه بائمه

أي كأن شعاع الشمس اعارته ضوءها.

هذا وقد أشار شاعرهم إلى هذا الخيال (أوقل الخرافة المذكورة) إذ قال:

شادنٌ يحلو إذا ما ابتسمت * عن أقاح كقاح الرمل غر

بدلته الشمس من منيته * بَرَدَا أبيض مصقول الاثر

-11 تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون:

ومن تخيلات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون، وتعرض الارواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الاقدار كخرقة الحبيص وعظام الموتى قالوا: وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامت عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك. وانتشروا في ذلك:

فلو أن عندي جارئين وراقياً * وعَلَقَ أنجاساً عَلَي المعلق

وقالت امرأة وقد نجست وأدها فلم ينفعه ذلك ومات:

نجسئهُ لا ينفع التنجيس * والموت لا تفوئهُ النفوس

-12 دم الرئيس يشفي:

فقد كانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضة الكلب الكلب.

قال الشاعر:

بناة مكارم وأساءة جرح * دماؤهم من الكلب الشفاء

وقال آخر:

أحلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكلب

-13 شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل:

ومن أو هامهم وتخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا احب امرأة واحبته فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام، فان لم يفعل ذلك فسد حبهما، قال في ذلك احدهم:

وكم شققنا من رداء محبر * و من برقع عن طفلة غير عانس

إذا شق برد شق بالبرد برقع * دواليك حتى كلنا غير لابس

نروم بهذا الفعل بقاء على الهوى * والى الهوى يُعوى بهذي الوسواس

-14 معالجة المرضى بالأمور العجيبة:

ومن مذاهبهم الخرافية في معالجة المرضى إذا بثرت شفة الصبي حمل منخلاً على رأسه ونادى بين بيوت الحي: الحلاً الحلاً، الطعام الطعام، فتلقى له النساء كسرة الخبز، واقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يلقي ذلك للكلاب فتأكله، فيبرأ من المرض فان أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمر أو لقمة أو لحمة بثرته شفته.

فقد رويت عن امرأة أنها انشدت:

ألا حلاً في شفة مشقوقه * فقد قضى منخلنا حقوقه

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مسأ من الجن لانه قتل حية، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملاؤها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فاذا اصبحوا نظروا إلى تلك

الجمال الطين فاذا رأوا انها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وان رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدفت.

قال بعضهم:

قالوا وقد طالَ عنائي والسقمُ * إحملُ إلى الجنِ جمالاتِ وضَمَّ

فَقَدَ فَعَلْتُ والسقام لم يرم * فبالذي يملك برئي اعتصم

وقال آخر:

فياليت أن الجن جازوا حمالتي * ورحزح عني ما عناني من السقم

أعلل قلبي بالذي يزعمونه فياليتي عُوفيت في ذلك الزعم

ومن مذاهبهم في هذا المجال أن الرجل منهم كان إذا ظهرت فيه القوباء (وهو مرض جلدي) عالجها بالريق.

قال احدهم:

يا عجباً لهذه الفليقة * هل تُذهبن القوباء الريقة

15-خرافات في مجال الغائب:

كانوا إذا غمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يعرفوا له خبراً جاؤوا إلى بئرٍ عادية (أي مظلمة بعيدة القعر) أو جاؤوا إلى حصن قديم ونادوا فيه: يا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرات)، ويزعمون انه إن كان ميتاً لم يسمَعوا صوتاً، وإن كان حياً سمَعوا صوتاً ربّما توهموه وهماءً، أو سمعوه من الصدى فبنّوا عليه عقيدتهم، قال بعضهم في ذلك:

دَعوتُ ابا المغوار في الحُفَرِ دعوة * فما أضَ صوتي بالذي كنت داعياً⁽¹⁾

أظنُّ أبا المغوار في قصر مظلم * تجرُّ عليه الذارياتُ السوافيا

وقال آخر:

وكم ناديتُهُ والليلُ ساج * بعاديّ البئار فما أجابا

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أحبه) فأن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربه، وقال أحدهم:

إذا اختلجت عيني أقول لعلها * فتاة بني عمرو بها العين تلمع

وقال آخر:

إذا اختلجت عيني تيقنت إنني * أراك وإن كان المزار بعيدا

وكانوا إذا لا يجوبون لمسافر أن يعود إليهم أوقدوا ناراً خلفه ويقولون في دعائهم «أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً إثره» قال بعضهم:

صحوث وأوقدت للجهل ناراً * ورد عليك الصبا ما استعارا

-16 عقاندهم العجيبة في الجن وتأثيره:

كانت العرب في الجاهلية تعتقد في الجن وتأثير هذا الكائن في شتى مجالات حياتهم اعتقادات عجيبة وفي غاية الغرابة.

فتارة تستعيذ بالجن، وقد استعاد رجل منهم و معه ولد فاكله الأسد فقال:

قد استعنا بعظيم الوادي * من شر ما فيه من الأعادي

فلم يجرنا من هزبر عادي

وعن الاستعانة بالجن قال الله سبحانه في القرآن: **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا.** (1)

ومن ذلك إعتقادهم بهتاف الجن. ولهم في هذا المجال أساطير خرافية مذكورة في محلها.

ومن هذا القبيل إعتقادهم بالغول، فقد كانت تزعم العرب في الجاهلية أن الغيلان في الفلوات (وهي من جنس الشياطين) تتراءى

للناس، وتغول تغولا اي تتلون تلوناً فتضلهم عن الطريق، وتهلكهم، ومن هذا القبيل أيضاً إعتقادهم بالسعال!!

وقد قال أحدهم في ذلك:

وساحرة عيني لو أن عينيها * رأت ما ألقىه من الهول جنت

أبيث وسعلاة وغول بقفرة * إذا الليل وأرى الجن فيه أرنت

17- تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والأشياء:

ومن مذاهبهم الخرافية تشاؤمهم بأشياء كثيرة وحالات عديدة:

فمن ذلك؛ تشاؤمهم بالعطاس.

وتشاؤمهم بالغراب حتى قالوا: فلان أشام من غراب البين، ولهم في هذا المجال أبيات شعرية كثيرة منها قول أحدهم:

ليت الغراب غداة ينعب دانياً * كان الغراب مقطّع الأوداج

وكذا تشاؤمهم وتطيرهم بالثور المكسور القرن والتعلب. إلى غير ذلك من التخيلات والأوهام والخرافات والاساطير، والاعتقادات العجيبة، والتصورات الغريبة التي تزخر بها كتب التاريخ المخصصة لبيان أحوال العرب قبل الإسلام وحتى إبان قيام الحضارة الإسلامية.

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات:

ولقد كافح الإسلام جميع هذه الخرافات بطرق مختلفة، واساليب متنوعة.

أما بالنسبة إلى ما كانوا يفعلونه بالحيوانات فمضافاً إلى أن أي شيء من هذه الأعمال لا ينسجم مع العقل والمنطق والعلم لأن المطر والغيث لا ينزل من السماء باسعال النيران، وضرب الثيران لا يؤثر في البقر، كما لا ينفع كئ البعير الصحيح في شفاء الإبل السقيمة، وتعتبر هذه الاعمال نوعاً من تعذيب الحيوانات وقد نهى الإسلام بشدة عن تعذيب الحيوانات وايدائها، بأي شكل كان.

فقد روي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «للدابة على صاحبها ست خصال:

- [يبدأ بعلفها إذا نزل.

3- ولا يضرب وجهها فإنها تسبح بحمد ربها.

4- ولا يقف على ظهرها إلا في سبيل الله عز وجل.

5- ولا يحتملها فوق طاقتها.

6- ولا يكلفها من المشي إلا ما تطيق⁽¹⁾.

كما روي أنه نهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن أن توسم البهائم في وجهها، وأن تضرب في وجوهها فإنها تسبح بحمد ربها.

ومن هنا ندرك ان التعاليم في مجال الرفق بالحيوان، وحمائته، على النقيض من العادات الجاهلية السائدة في البيئة العربية آنذاك.

واما بالنسبة إلى التمام والأشياء التي كانت تعلقها العرب على أعناق وصدور رجالها، وأولادها، من الأحجار والخرز، و عظام الموتى، ومعالجة المرضى والمصابين وغيرهم بها أحياناً فقد حاربها الإسلام، بعد أن ابطالها كما ابطال الافاعيل التي سبق أن ذكرناها قبل هذا.

فلما جاءت جماعات من الأعراب إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسأله عن الرقى والفلاذ التي كانوا يتداونون بها أو يسترقونها بدلا عن التداوي بالعقاقير والأدوية قائلين يا رسول الله: انتداوى؟

قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء. (2)»

بل نجد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يأمر سعد بن أبي وقاص عندما أصيب بمرض في فؤاده أن يعالج نفسه عند طبيب إذ قال له لما عادته وعرف بحاله: «إنك رجل مفود، إنت الحارث بن كعدة أخوا ثقيف فإنه رجل يتطبب. (3)»

- 1 من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٨٦، وراجع للوقوف على أحاديث حقوق الحيوان كتاب الشؤون الاقتصادية: ص ١٣٠ - ١٥٩ أيضاً.

- 2 التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ١٧٨.

- 3 التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ١٧٩.

هذا مضافاً إلى أنه وردت أحاديث كثيرة تصرح ببطلان التمام السحرية التي لا تنفع ولا تضر أبداً، وها نحن نشير في ما يلي إلى نموذجين من هذه الأحاديث:

1-يقول أحدُهُم: دخلتُ على النبيّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - بابين لي قد علقت عليه من الغُدرة (وهي قلادة سحرية جاهلية) فقال:

علام تدغرن أولادكُنْ بهذا العِلاق، عليكَنْ بهذا العُود الهُنديّ» وكان - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - يقصد عصاره هذا العود. (1)

2- رُوي عن الإمام جعفر بن محمّد الصادق - عليه السلام - أنه قال: «إنَّ كثيرًا من التمانم شيركٌ. (2)»

هذا مضافاً إلى أن النبيّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - وأوصيائه الكرام - بارشادهم الناس إلى ما ينبغي أن يتداووا به من العقاقير والأدوية وما أعطوه من تعاليم قيمة كثيرة في هذا المجال ممّا جمعه المحدثون الكبار تحت عنوان: «طبّ النبيّ» و «طبّ الرضا» ... وقد وجهوا ضربة قوية أخرى إلى تلك الأوهام والتخيّلات، والخرافات والاساطير التي كان يعاني منها المجتمع العربي

الجاهلي قبل الإسلام. (3)

وأما الغول، والطيرة، والتشاؤم، والهامة والنوء فقد حاربها النبي بصراحة إذ قال -: صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - «لا هامة ولا نوء

ولا طيرة، ولا غول. (4)»

وقال - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - : «العيافة والطيرة والطرق من الجبت. (5)»

1 التاج الجامع للأصول: ج 3، ص 184.

2 سفينة البحار: ج 1، مادة رقي.

3 وقد فتح المحدثون من الفريقين أبواباً خاصة لأحاديث الطبّ النبويّ في كتب الحديث أيضاً.

4 التاج الجامع للأصول: ج 3، ص 196 و 197 الفصل الرابع باب نفي مزاعم الجاهلية، قال مؤلف التاج: الهامة طائر أو اليوم إذ سقط في مكان تشاءم أهله، أو دابة تخرج من راس القتل أو من دمه فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بثاره، والنوء نجم يأتي بالمطر وآخر يأتي بالريح (حسب عقيدة الجاهلية)!!

5 التاج الجامع للأصول: ج 3 ص 201. قال مؤلف التاج العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها كالتفاؤل بالعقاب على العقاب، وبالغراب على الغرابة، وبالهُدُ على الهدى، وكذا بافعالها، وكيفية طيرانها فكانت العرب تزجر الطير وتثيره فما أخذ منها ذات اليمين تبركوا به وتيمّنوا وما تياسر منها تشاءموا به (كما في بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج 3، ص 212 تحت عنوان كيفية الزجر عند العرب).

و«الطرق»: الضرب بالحصى (للاستدلال على أمور غيبية باعتقاد الجاهليين). والجبت هو الباطل.

وعن النبيّ - صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلّم - أيضاً أنه قال: «إنَّ الرقي والتمانم والتولة شركٌ. (1)»

وعن أحدهم قال: قلتُ يا رسولَ الله اموراً كنّا نصنعها في الجاهلية، كنّا نأتي الكهان، قال: فلا تأتوا الكهان، قلت: كنّا نتطير قال:

ذلك شيء بجدّه أحدكُم في نفسه فلا يصدّنكُم. »

إن وجود النهي الشديد والمكّرر في الأحاديث الكثيرة عن الطيرة والتشاؤم، والزجر والعيافة والتمانم والتولة والهامة والنوء والغول، والكهانة، وايداء الحيوانات وكيهنّ، وتعذيبهن، ومماشابه ذلك يدل بوضوح وقوة على مدى رسوخ هذه العادات الباطلة في الحياة

العربية الجاهلية، يكشف عن مبلغ اعتقادهم بها، ونزوعهم إليها وهو بالتالي يكشف عن مغزى قوله تعالى: **ويضع عنهم إصرهم**

والأغلال التي كانت عليهم⁽²⁾ (فأية سلاسل وأغلال أثقل وأساء عاقبة وأشدّ وطئته، من هذه الأغلال... أغلال الخرافة والوهم،

وسلاسل التخيلات والاساطير!!؟

أوضاع العرب الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام:

إن أولى خطوة خطاها البشر باتجاه النمط الإجتماعي كانت عندما أُقبل على تأسيس وإقامة الحياة القبلية، فالقبيلة تتكون من إجتماع عدة عوائل وأسر مترابطة فيما بينها بوشائج القربى والنسب تحت زعامة شيخ القبيلة، وبهذا يتحقق

- [التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ٢٠٣. قال مؤلف الجامع: «التولة»: نوع من السحر يحبب الرجل إلى زوجته، وهو من عمل المشركين (أي في الجاهلية).
- 2سورة الاعراف: ١٥٧.

(84)

أبسط نمط من أنماط الحياة الإجتماعية.

وقد كانت الحياة العربية - آنذاك - من هذا القبيل، فكل مجموعة من العوائل المترابطة نسبياً تتجمع في شكل قبيلة، وتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيلة وزعيمها، ولقد كان الجامع بين افراد القبيلة هو الرابطة القومية، والشيجة النسبية، وكانت هذه القبائل تختلف في عاداتها ورسومها، وتقاليدها وأعرافها، اختلافاً كبيراً، وإذ كانت كل قبيلة تعتبر القبائل الأخرى غريبة عنها لذلك كانت لا تقيم للأخرين وزناً ولا قيمة، ولا تعترف لهم باي حق أو حرمة.

ولهذا كانت ترى الإغارة على الأخرين وقتلهم، ونهب أموالهم، وسلب ممتلكاتهم وسبي نساءهم من حقوقها القانونية المشروعة، اللهم إلا أن يكون بين القبيلة، والقبيلة الأخرى حلف أو معاهدة.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت القبيلة التي تتعرض للإغارة من جانب قبيلة أخرى ترى من حقها أن تردّ الصاع صاعين، تقتل كل أفراد القبيلة المغيرة، لأنّ الدم - في نظرهم - لا يغسله إلا الدم!!!

ولقد تبدلت أخلاقيّة العرب هذه بعد انضوائهم تحت لواء الإسلام الحنيف، بل تحوّلت من نمط الحكومة القبلية المتخلفة والنظام العشائري الضيق هذا، إلى حكومة عالميّة، واستطاع رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلّم - ان يولّف من القبائل العربية المتفرقة أمة واحدة.

ولا شك أن تأليف أمة واحدة من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديدة من التاريخ على التنافر والتنازع، والتخاصم والتقاتل، والتهاجم والإغارة في ما بينها، واستمرت سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وذلك في مدة قصيرة، عملٌ عظيم جداً، ومعجزة اجتماعية لا نظير لها، لأن مثل هذا التحول العظيم إذا أُريدَ لهُ أن يتمَّ عبر التحولات والتطورات العادية لاحتاج إلى تربية طويلة الأمد، ووسائل لا تحصى كثرة.

(85)

يقول «توماس كارليل» في هذا الصدد: لقد أخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحى به منها أمة خاملة لا يُسمع لها صوتٌ ولا يُحسُّ فيها حركة، حتَّى صار الخمولُ شهرةً والغموض نباهةً والضعفة رفعةً والضعف قوةً، والشرارة حريقاً، وشمل نوره الأثناء وعمَّ ضوءه الأرجاء ما هو إلا قرنٌ بعد إعلان هذا الدين حتَّى أصبح للعرب (المسلمين) قدمٌ في الهند وأخرى في الإندلس. (1)

وإلى هذه الحقيقة يشير أيضاً مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير «رينان» قائلاً: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجيء الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مُبدعة ولم يكن لجزيرة العرب شأنٌ في القرون الأولى من الميلاد، حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ. (2)»

أجل إن هذه القبائل العربية الجاهلية المختلفة المتناحرة لم تكن تعيش أية حضارة، ولم تمتلك أية تعاليم وقوانين، وأنظمة وآداب قبل مجيء الإسلام، لقد كانت محرومة من جميع المقومات الاجتماعية التي توجب التقدم والرفق، ولهذا لم يكن من المتوقع أبداً أن تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع، وأفق الحضارة الريحب بمثل هذه السرعة التي وصلت إليه والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

إنَّ مثل الشعوب والأمم البشرية مثل المباني والعمارات تماماً.

فكما أن البناء القوي الراسخ يحتاج إلى مواد انشائية قوية معدةً باتقان ومحضرةً باحكام حتَّى يستطيع البناء المصنوع من هذه المواد، والمؤسس بعناية وهندسة متقنة من الوقوف في وجه الأعاصير، والأمطار الغزيرة كذلك يحتاج كيان كل أمة رشيدة من الأمم إلى أسس وقواعد محكمة (وهي الأصول والآداب الكاملة، والأخلاق الإنسانية العالية) لتستطيع من البقاء والتقدم.

- [الخطط الاستعمارية لمكافحة الإسلام: ص ٣٨، والإسلام والعلم الحديث: ص ٣٣.
- 2 حضارة العرب: ص ٨٧.

(86)

ولهذا السبب لا بد من التأمل في أمرٍ وسرّ هذه الظاهرة العجيبة ولا بد أن نتساءل:

كيف تحقق ذلك التطور العظيم، وذلك التحول العميق للعرب الجاهلية، ومن أين نشأ؟؟

كيف امكن ان تتحول جماعة متشنتة، متعادية، متناحرة، متباغضة، في ما بينها، بعيدة عن النظم الإجتماعية، بمثل هذه السرعة إلى أمة متألّفة متاخية متعاونة متسالمة متحابية، وتشكل دولة قوية كياناً سياسياً شامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه، وتطيعها، وتحترم مبادئها وأخلاقها وأدابها آنذاك.

حقاً لو كان في مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدم الهائل بفعل عامل ذاتي فلماذا لم تستطع عربُ اليمن الذين كانوا يمتلكون شيئاً كبيراً من الثقافة والحضارة، والذين عاشوا الانظمة الملكية سنيماً عديدة، بل وربّت في احضانها ملوكاً وقادة كباراً، أن تصل إلى مثل هذه النهضة العظيمة الشاملة، وتقيم مثل هذه الحضارة العريضة الخالدة.

لماذا لم تستطع العربُ الغساسنة الذين كانوا يجاورون بلاد الشام المتحضرة، ويعيشون تحت ظلّ حضارة «الروم» أن يصلوا إلى هذه الدرجة من الرشد؟

لماذا لم تستطع عربُ الحيرة الذين كانوا - وإلى الامس القريب - يعيشون في ظلّ الامبراطورية الفارسية أن ينالوا مثل هذا الرقي والتقدم؟ وحتى لو وصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم وحققوا هذه القفزة فانه لم يكن أمراً يثير العجب لأنهم كانوا يعيشون في أحضان مدنيات كبرى، ويتغذون منها، ولكن الذي يثير الدهشة، والعجب هو أن تستطع عرب الحجاز من تحقيق هذه النهضة الباهرة، ويرثوا الحضارة الإسلامية العظمى وهم الذين كانوا يفتقرون إلى أبسط مقومات الحضارة الذاتية، ولم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل كانوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوهم والتخيل، ويسيروا في ظلمات الخرافات والأساطير.

* * *

(87)

دُول الحيرة و غسان:

على العموم كانت المناطق ذات المناخ الجيّد من الجزيرة العربية حتى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطرة ثلاث دول كبرى هي: «إيران»، «الروم»، «والحبشة».

فالشرق والشمال الشرقي من هذه المنطقة كانت تحت حماية «إيران».

والشمال الغربي كان تابعاً للروم.

والمناطق المركزية والجنوب كانت تحت نفوذ «الحبشة». »

وعلى أثر مجاورة هذه المناطق للدول المتحضرة المذكورة، وما كان بينها من نزاع وتنافس دائمين ظهرت في المناطق الحدودية للجزيرة العربية دول شبه متحضرة، وشبه مستقلة كان كل واحد منها تابعة في حضاراتها لدولة متمدنة عظمى تجاورها.

وقد كانت دول «غسان»، و «الحيرة» «وكنده» من هذه الدول شبه المستقلة وشبه المتمدنة، وكانت كل واحدة منها تابعة لاحدى الدول العظمى آنذاك: «ايران»، «الروم»، «الحبشة». »

الحيرة: يتبين من الآثار والأخبار أنه هاجرت - في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد - بعض الطوائف العربية، وذلك في نهايات الحكم الأشكنازي، إلى الأراضي المجاورة للفرات، وسيطروا على قسم من أراضي العراق، وقد وجدت هذه الجماعة المهاجرة القرى والقلاع هناك، شيئاً فشيئاً، وأحدثت المدن التي من أهمها: «الحيرة» التي كانت تقع على حافة صحراء بالقرب من مدينة الكوفة الحالية.

وقد كانت هذه المدينة - وكما يظهر من اسمها - في بداية أمرها قلعة (لأن الحيرة تعني في اللغة السريانية: الدبر وما يشبهه) يسكنها العرب ثم تطورت شيئاً فشيئاً إلى مدينة.

وقد ساعد مناخها الجميل، والمياه الوفيرة التي تأتي إليها من الفرات، وجودة

(88)

الأحوال الطبيعية الأخرى إلى أن تجذب إليها أصحاب الصحراء، وسكان البوادي، والفقار، كما استطاعت هذه المدينة وبفضل مجاورتها للحضارة الفارسية إن تكتسب من ثقافتها ومدنيتها ما أفاض عليها لونهاً من الحضارة والمدنية، وقد بُنيت بالقرب من «الحيرة» قصورٌ مثل «الخورنق» الذي اُضيف إلى هذه المدينة جمالاً وبهاء خاصين، وقد تعرّف العرب الساكنون في هذه المنطقة على الخط والكتابة، ويمكن ان تكون الكتابة والقراءة قد سرتا منها إلى بقية مناطق الحجاز ومُدُنِها. (1)

ولقد كان ملوك «الحيرة» وأمرؤها من اللخمييين العرب يؤيدون من قِبَل الدولة الإيرانية بقوة، وسبب هذا التأييد، والحماية الإيرانية لأمرء الحيرة وملوكها كان يكمن في أن ملوك إيران - آنذاك - كانوا يريدون أن تكون الحيرة سداً، وحاجزاً بينهم وبين عرب البادية، يدفعون بهم خطر الغزاة من أهل الصحارى على الحدود الإيرانية.

ولقد سجّل التاريخ أسماء هؤلاء الأمراء؛ وقد نظم «حمزة الاصفهاني» فهرساً بأسمائهم، وجدولاً بأعمارهم ومُدَد حكوماتهم، ومن

كان يعاصرهم من ملوك بني ساسان الإيرانيين. (2)

ومهما يكن الأمر فإن دولة اللخمين العرب كانت من أكبر الحكومات العربية شبه المتحضرة في منطقة الحيرة، وكان آخر ملوك هذه السلسلة هو «النعمان بن المنذر» صاحب القصة التاريخية التي تتضمن خلعه من الحكم، وقتله بواسطة الملك الإيراني: «خسرو برونيز». (3)»

عُسان: في أوائل القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الميلادي هبط جماعة من المهاجرين اليمانيين في الشمال الغربي - أقصى نقاط الجزيرة العربية - وفي جوار الإمبراطورية الرومية، وأسسوا دولة الغساسنة، وقد كانت هذه الدولة

-
- [فتوح البلدان للبلاذري: ص ٤٥٧.
 - 2سني ملوك الأرض: ص ٧٣ - ٧٦.
 - 3الأخبار الطوال: ص ١٠٩.

(89)

تحت حماية الروم، وكان ملوكها يُنصبون من جانب إمبراطوريات «قسطنطينية» مباشرة، تماماً كما كان ملوك «الحيرة» يُنصبون من جانب ملوك إيران.

ولقد كانت دولة الغساسنة متحضرة نوعاً ما، وحيث أن مراكز حكمها كانت قريبة من ناحية إلى «دمشق» ومجاورة لـ: «بُصرى» مركز القسم الرومي من الجزيرة العربية من ناحية أخرى، لذلك تأثرت بحضارة الروم تأثراً كبيراً وبالغاً.

ولقد كان الغساسنة متحالفين مع الروميين بسبب ما كان بينهم وبين ملوك الحيرة اللخمين العرب والاييرانيين من الاختلاف والنزاع، ولقد حكم في دولة الغساسنة تسعة أو عشرة من الأمراء والملوك تبعاً.

الدين في أرض الحجاز:

لقد كان الدينُ الرائج في الحجاز هو الوثنية، وعبادة الأصنام.

نعم كانت هناك أقلبيات دينية يهودية تقطن في يثرب (المدينة فيما بعد) وخيبر، كما انه كان هناك من يتبع المسيحية وهم سكان نجران، البلد الحدودي لليمن والحجاز.

وكان الدين الرائج في المناطق الشمالية من الحجاز (إي الشام حالياً) هو المسيحية بسبب مجاورة هذه المناطق للروم وخوضها للسيادة الرومية.

ولو أننا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحساسة الثلاث لما وجدنا في بقية مناطق الحجاز إلا الوثنية في أشكال مختلفة، واعتقادات متنوعة، اللهم إلا بضع افراد كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممن يُسمون بالاحناف كانوا على دين التوحيد، وكان عددهم بالنسبة إلى الاكثرية الساحقة من العرب الوثنيين قليلاً جداً. (1)

فمنذ زمن النبي «إبراهيم» الخليل وابنه «اسماعيل» -عليهما السلام - دخل

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٢٢ و ١٢٣].

(90)

التوحيد، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقية والدينية إلى أرض الحجاز، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراماً للكعبة الشريفة هو أحد هذه التعاليم والسنن التي دخلت مع «الخليل» إلى هذه المنطقة، ثم إن رجلاً من قبيلة «خزاعة» يسمى «عمرو بن لحي» الذي كانت زعامته مكة قد عهدت إليه، أدخل عبادة الاوثان في مكة في ما بعد، وذلك عندما سافر هذا الخزاعي إلى بلاد الشام فوجد قوماً من العمالقة يعكفون على تماثيل جميلة النقش والمنظر يعبدونها، ويؤهلونها، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي اراكم تعبدون؟؟ قالوا له: هذه اصنامٌ نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فاسير به إلى ارض العرب فيعبدوه؟؟ فأعطوه صنماً، وهكذا استحبه عملهم، وجلب معه إلى مكة صنماً جميلاً النقش والنحت يدعى «هبل» فنصبه ودعا الناس إلى عبادته، وتعظيمه.

وهكذا دخلت الوثنية إلى «مكة» المكرمة، واصبحت عبادة الاوثان والاصنام عبادة رائجة في تلك الديار. (1)

واشهر اصنام العرب هي:

1- هبل وكانت أعظم اصنام العرب التي في جوف الكعبة.

2- اساف.

3- نانلة وكانت هي واساف على موضع زمزم ينحرون عندهما.

4- اللات وكانت لتقيف بالطائف.

5- العزى وكانت بنخلة الشامية، وكانت لقريش وبنو كنانة.

6- مناة وكانت للاوس والخزرج ومن ذهب مذهبيهم من أهل يثرب.

7- عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.

8- سعد.

1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٧٨ - ٨١، والعمالقة هم طائفة من العرب عاشوا وسادوا ثم بادوا قبل الإسلام.

(91)

9-ذو الخلفة وكانت لدوس وختعم وبجيلة.

10-مناف. (1)

ولقد كانت هذه هي أشهر أصنام العرب علاوة على الأصنام الأخرى غير المعروفة التي كانت تختص بطائفة دون أخرى، أو بعائلة دون عائلة.

العلم والثقافة في الحجاز:

كان أهل الحجاز يوصفون بالأميين، والامى هو من لم يتعلم القراءة والكتابة فهو كمن ولدته أمه، أو هو باق في عدم العلم بالقراءة والكتابة على الحالة التي وُلد فيها من أمه.

ولأجل أن نعرف مدى ما كان عليه العلم والثقافة عند العرب من القيمة يكفي أن نعلم بأن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين قريش إلى ما قبل ظهور الإسلام لم يكن يتجاوز (١٧) شخصاً في مكة و (١١) نفرأ فقط من بين الأوس والخزرج في المدينة. (2) إذا لاحظنا هذا التخلف والانحطاط في مجال العلم والثقافة في البيئة العربية الجاهلية يتضح لنا مدى تأثير الإسلام، وادركنا عظمة التعاليم الإسلامية في جميع الحقول الاعتقادية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية، ولا بد في تقييم الحضارات أن نطالع وندرس الحلقة السابقة، ثم نقيم الحلقة التالية في ضوء ذلك، وفي هذه الصورة نقف على عظمة تلك الحضارة الحقيقية. (3)

1- راجع الأصنام للكلمي، والمحبر: ص ٣١٥ - ٣١٩.

2- فتوح البلدان: ص ٤٥٧ - ٤٥٩.

3- للوقوف على معلومات أوسع وأكثر حول عقائد مختلف طوائف المجتمع العربي الجاهلي، وثقافتها وتقاليدها راجع الكتابين التاليين: ألف: «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» تأليف السيد محمود الألوسي المتوفى عام ١٢٧٠ هجري قمرى. باء: «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف الأستاذ جواد علي، وهذا الكتاب أخرج في (١٠) مجلدات، وقد بُحث فيها كل ما يرتبط بحياة العرب في العهد الجاهلي.

(92)

الإمام على يصف العهد الجاهلي:

وقد وصف الإمام عليّ أمير المؤمنين - عليه السلام - تلك الحالة في خطبه، وحيث أنه عاصر ذروة ذلك الوضع الأساوي ووصفه وصفاً دقيقاً لذلك ينبغي أن نقف عند كلامه قليلاً ليتبين لنا جيداً ما كان عليه العربُ إبان عهد الرسالة الإسلامية المباركة:

قال - عليه السلام - في الخطبة (الثانية) من نهج البلاغة:

«... وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَرْسَلَهُ بِالدِّينِ الْمَشْهُورِ وَالْعِلْمِ الْمَثُورِ وَالكِتَابِ الْمَسْتُورِ وَالنُّورِ السَّاطِعِ، وَالضِّيَاءِ اللَّامِعِ، وَالْأَمْرِ الصَّادِعِ إِزَاحَةً لِلشُّبُهَاتِ وَاحْتِجَاجًا بِالْبَيِّنَاتِ وَتَحْذِيرًا بِالْآيَاتِ، وَتَخَوُّفًا بِالْمَثَلَاتِ (1) وَالنَّاسُ فِي فِتْنٍ أَنْجَذِمَ (2) فِيهَا حَبْلُ الدِّينِ، وَتَزَعَزَعَتْ سَوَارِي (3) الْبِقِيْنِ وَأَخْتَلَفَ النَّجْرُ (4)، وَتَشَتَّتَ الْأَمْرُ وَضَاقَ الْمَخْرَجُ، وَعَمِيَ الْمَصْنَدُ فَالْهُدَى خَامِلٌ، وَالْعَمَى شَامِلٌ، عُصِي الرَّحْمَانُ وَنَصِرَ الشَّيْطَانُ وَخُذِلَ الْإِيمَانُ فَأَنْهَارَتْ دَعَائِمُهُ، وَتَنَكَّرَتْ مَعَالِمُهُ وَدَرَسَتْ (5) سُبُلُهُ وَعَفَّتْ شُرَكَهُ (6) أَطَاعُوا الشَّيْطَانَ فَسَلَكُوا مَسَالِكَهُ، وَوَرَدُوا مَنَاهِلَهُ (7) بِهِمْ سَارَتْ أَعْلَامُهُ، وَقَامَ لِيَاوُهُ فِي فِتْنٍ دَاسَتْهُمْ بِأَخْفَافِهَا (8) وَوَطَّنَتْهُمْ بِأُظْلَافِهَا (9) وَقَامَتْ عَلَى سَنَابِكِهَا (10) فَهَمُّ فِيهَا تَنْهَوْنَ حَائِرُونَ جَاهِلُونَ مَفْتُونُونَ فِي خَيْرِ دَارٍ وَشَرِّ جِيرَانٍ نُومُهُمْ سُهْوٌ وَكُحْلُهُمْ دُمُوعٌ بَارِضٌ عَالِمُهَا مُلْجَمٌ وَجَاهِلُهَا مُكَرَّمٌ.

وقال في الخطبة (التاسعة والثمانين) أيضاً:

«أَرْسَلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى جِبِينَ قَنْزَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وَطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأَمَمِ وَاعْتِزَامِ (11) مِنَ الْفِتَنِ وَانْتِشَارِ مِنَ الْأُمُورِ وَتَلَطُّ (12) مِنَ الْحُرُوبِ وَالذُّنُوبِ

-
- 1 المثلثات: العقوبات.
 - 2 انجذم: انقطع.
 - 3 السواري: الدعائم.
 - 4 النجر: الأصل.
 - 5 درست: انطمست.
 - 6 الشرك: الطرق.
 - 7 المنهل: مورد النهر.
 - 8 الخف: هو للبعير كالقدم للإنسان.
 - 9 الظلف: للبقير والشاة كالخف للبعير والقدم للإنسان.
 - 10 السنايك: طرف الحافر.
 - 11 اعتزم الفرس: إذا مرّ جامحاً.
 - 12 تلطّ: تلّهّب.

كاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ عَلَى حِينِ أَصْفِرَارِ مَنَ وَرَقِهَا وَأَيَّاسٍ مِنْ تَمَرِهَا وَأُغُورَارِ (1) مِنْ مَائِهَا قَدْ دَرَسَتْ مَنَارُ الْهُدَى وَظَهَرَتْ
أَعْلَامُ الرَّدَى فِيهَا مُتَجَهِّمَةٌ (2) لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا تَمُرُهَا الْفِتْنَةُ وَطَعَامُهَا الْجَبْقَةُ (3) وَشَعَارُهَا الْخَوْفُ وَدِنَارُهَا السَّيْفُ. »

وَ قَالَ فِي الْخُطْبَةِ (السَّادِسَةُ وَالْعِشْرِينَ): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى النَّزْرِيلِ وَأَنْتُمْ مَعْشَرُ الْعَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَ فِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ (4) بَيْنَ حِجَارَةِ خَشْنٍ (5) وَحَيَاتِ صُحْمٍ (6) تَشْرَبُونَ الْكِدْرَ وَتَأْكُلُونَ الْجَشِيبَ (7) وَتَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَتَقْطَعُونَ أَرْحَامَكُمْ الْأَصْنَامُ فِيكُمْ مَنْصُوبَةٌ وَ الْإِثَامُ بِكُمْ مَعْصُوبَةٌ.» (8)

وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْخُطْبَةِ (الثَّلَاثَةُ وَالثَّلَاثِينَ): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَأَيِسَ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ يَقْرَأُ كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبُوَةَ فَسَاقِ النَّاسِ حَتَّى يَبْرَأَهُمْ مَحَلَّتُهُمْ (9) وَ يَلْعَهُمْ مِنْجَاتُهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ (10) وَاطْمَأَنَّتْ صِفَاتُهُمْ.»

وَقَالَ فِي الْخُطْبَةِ (الخامسة والتسعين) أيضاً:

«...بَعَثَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالنَّاسُ ضَلَالًا فِي حَيْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِتْنَةٍ قَدْ اسْتَهْوَتْهُمْ الْأَهْوَاءُ وَاسْتَنْزَلَتْهُمْ الْكِبْرِيَاءُ وَاسْتَحَفَّتْهُمْ (11) الْجَاهِلِيَّةُ الْجَهْلَاءُ خِيَارِي فِي زَلْزَالٍ مِنَ الْأَمْرِ وَ بَلَاءٍ مِنَ الْجَهْلِ فَبَالَغَ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فِي النَّصِيحَةِ وَ مَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ وَ دَعَا إِلَى الْحِكْمَةِ وَ الْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ.»

وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْخُطْبَةِ (السَّادِسَةُ وَالتَّسْعِينَ) أيضاً:

«...مُسْتَفْرَءُ خَيْرٍ مُسْتَقَرٍّ وَ مُنْبِئُهُ أَشْرَفُ مُنْبِتٍ فِي مَعَادِنِ الْكِرَامَةِ وَ مَمَاهِدِ (12) السَّلَامَةِ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوُهُ أَفْنَدَةُ الْأَبْرَارِ وَ تُنْبِئُ إِلَيْهِ أَرْمَةُ الْأَبْصَارِ دَقْنَ

-
- 1 - اغورار الماء: ذهابه.
 - 2 - تجهمه: استقبله بوجه كرهيه.
 - 3 - إشارة إلى أكل العرب للميتة من شدة الاضطراب.
 - 4 - منيخون: مقيمون.
 - 5 - الخشن: جمع خشناء من الخشونة.
 - 6 - الصم: التي لا تسمع لعدم انزجارها بالاصوات.
 - 7 - الجشيب: الطعام الغليظ.
 - 8 - معصوبة: مشدودة.
 - 9 - يبرأهم محلهم: أنزلهم منزلتهم.
 - 10 - القناة: العود كناية عن القوة.
 - 11 - استخفتهم: طيبتهم.
 - 12 - الممهّد: ما يُبسط فيه الفراش.

اللَّهُ بِهِ الضَّعَائِنُ وَ أَطْفَاءُ بِهِ التَّوَانِرَ (1) أَلْفَ بِهِ إِخْوَانًا وَ فَرَّقَ بِهِ أَفْرَانًا أَعْرَبَ بِهِ الدَّلَّةَ وَ أَذَلَّ بِهِ الْعِرَّةَ كَلَامُهُ بَيَانٌ وَ صَمْتُهُ لِسَانٌ.»

وَقَالَ - عَلَيْهِ السَّلَامُ - فِي الْخُطْبَةِ (١٥١) أيضاً:

«...أَضَاءَتْ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - الْبِلَادَ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ وَ الْجَهَالَةِ الْغَالِبَةِ وَ الْجَفْوَةِ الْجَافِيَةِ وَ النَّاسُ يَسْتَجْلُونَ الْحَرِيمَ وَ يَسْتَنْدِلُونَ الْحَكِيمَ يَحْيُونَ عَلَى فِتْرَةٍ (2) وَ يَمُوتُونَ عَلَى كُفْرَةٍ.»

وقال في الخطبة (١٩٨):

«نَمْ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِالْحَقِّ حِينَ دَنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ وَ أَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعُ (3) وَ أَظْلَمَتْ بِهَجَّتِهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ وَ حَسُنَ مِنْهَا مِهَادٌ (4) وَ أَزْفَتْ (5) مِنْهَا قِيَادًا فِي انْقِطَاعِ مِنْ مَدَّتِهَا وَ أَقْتَرَابِ مِنْ أَشْرَاطِهَا (6) وَ تَصَرُّمٍ (7) مِنْ أَهْلِهَا وَ انْفِصَامِ (8) مِنْ حَلْقَتِهَا وَ انْتِشَارِ (9) مِنْ سَبَبِهَا وَ عَفَاءِ (10) مِنْ أَعْلَامِهَا وَ تَكْشُفِ مِنْ عَوْرَاتِهَا وَ قِصَرِ مِنْ طُولِهَا. »

وقال - عليه السلام - في الخطبة (٢١٣):

«أَرْسَلَهُ بِالصِّبْيَاءِ وَ قَدَّمَهُ فِي الْأَصْطِفَاءِ فَرْتَقَى (11) بِهِ الْمَفَاتِقَ (12) وَ سَاوَرَ (13) بِهِ الْمُغَالِبَ وَ دَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ وَ سَهَّلَ بِهِ الْحَزُونََ (14) حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنْ يَمِينِ وَ شِمَالِ. »

وقال في الخطبة (١٩١):

«وَ اشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ ابْتَعَيْهِ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي عَمْرَةٍ (15) وَ يَمْوَجُونَ فِي حَيْرَةٍ فَدَقَادَتُهُمْ أَرْمَهُ الْحَيْنَ (16) وَ اسْتَعْلَقَتْ عَلَى أُنْدَتِهِمْ أَفْقَالُ الرَّيْنِ. (17) »

-
- 1 - الثائرة: العدو.
 - 2 - على فترة: على خلو من الشرائع.
 - 3 - الإطْلَاع: الإتيان.
 - 4 - خشونة المهاد: كناية عن شدة آلام الدنيا.
 - 5 - ازف: قرب.
 - 6 - الشرط: العلامة.
 - 7 - التصرم: التقطع.
 - 8 - الانفصام: الانقطاع.
 - 9 - انتشار الأسباب: تبددها حتى لا تُضبط.
 - 10 - عفاء الأعلام: اندراسها.
 - 11 - رتق: سد به الفتق.
 - 12 - المفاتيح: مواضع الفتق.
 - 13 - ساور: نأوب.
 - 14 - الحزونة: غلظ في الارض.
 - 15 - العمرة: الماء الكثير.
 - 16 - الحين: الهلاك.
 - 17 - الرين: التغطية.

فاطمة الزهراء تصف الوضع الجاهلي:

وقد وصفت السيدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - العهد الجاهلي بمثل ذلك إذ قالت في خطبتها أمام

أبي بكر والمسلمين: (1)

«فَبَلَّغَ (اي رسول الله) بالرسالة صادعاً بالندارة (2) مائلاً على مدرجة المشركين ضارباً تَبَجَّهُمْ (3) آخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة يكسِر الأَصْنَامَ و يَتَكْتَبُ الهَامَ (4) حتى انهزم الجمع و ولوا الدبر حتى تفرى الليل عن صبجه و أسفر الحق عن مخظه (5) و نطق زعيم الدين و حرس شقاسق (6) الشياطين وأطاح و شيط (7) النفاق و انحلت عقد الكفر و الشقاق و فهتم بكلمة الإخلاص في نفر من البيض الخماص و كئثم على شفا حفرة من النار مذقة (8) الشارب و نُهْزَة (9) الطامع و قبسة العجلان (10) و موطىء الأقدام تشربون الطرق (11) و تفتنون القيد (12) و الورق أدلة خاسنين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تعالى بمحمد بعد النبيا و التي بعد أن منى بهم (13) الرجال و ذوبان العرب و مرده أهل الكتاب (14) كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، أو نجم (15) قرن الشيطان أو فغرت (16) فاغرة من المشركين، فذفت أخاه في لهواتها (17) فلا ينكفيء (18) حتى يطأ صماخها بأخمصه. »

-
- 1 شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وبلاغات النساء وغيرهما.
 - 2 النذار: الأذار.
 - 3 الشج: الكاهل.
 - 4 الهامة: الرأس.
 - 5 المحض: الخالص.
 - 6 الشقيقة: شيء يشبه الرئة يخرج من فم البعير إذا هاج.
 - 7 الوشيط: الأتباع والخدم.
 - 8 المذقة: شربة من اللبن الممزوج بالماء.
 - 9 النهزة: الفرصة.
 - 10 قبسة العجلان: الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل.
 - 11 الطرق: الماء الذي خوضته الابل وبولت فيه.
 - 12 القد: قطعة جلد غير مدبوغ.
 - 13 البهمة: الشجاع الذي لا يهتدي من أن يوتى.
 - 14 المارد: العاتي.
 - 15 نجم: طلع.
 - 16 فغرت: فتحت.
 - 17 اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.
 - 18 ينكفيء: يرجع.

جعفر بن ابي طالب يصف العهد الجاهلي:

ويشهد بذلك أيضاً ما قاله جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة عندما اراد مبعوثاً قريش استعادتهما إلى مكة:

أيها الملك، كُنَّا قوماً أهل جاهليّة، نعبدُ الأصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوارِ ويأكلُ القويُّ مِنَّا الضعيف، فكُنَّا على ذلك، حتَّى بعث الله إلينا رسولا مَنَّا نعرفُ نسبَه وصدقَه وأمانتَه وعفاقَه، فدعانا إلى الله لنوحِّده ونعبده، ونخلعُ ما كُنَّا نعبدُ نحنُ وأبائنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مالِ اليتيم، وقذفِ المحصنات، وأمرنا أن نعبُد اللهَ وحدَه لا نشركُ بِهِ شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قالت: فعَدَدَ عليه أمور الإسلام حتَّى قال: وصدقناه، وأمَّنَّا به واتَّبَعناه على ما جاء به من

اللّٰه فعبدنا اللّٰه وحدّه فلم نشرك به شيئاً وحرّمنا ما حرّم علّينا وأحللنا ما أحلّ لنا، فعدا علينا قومنا فعدّونا وفتنونا عن ديننا ليردّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة اللّٰه تعالى، وأنّ نستجّل ما كنا نستجّل من الخبائث. (1)

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٥ و ٣٣٦. والحديث عن أمّ سلمة.

(97)

٣

إمبراطوريّتا الرّوم وإيران إبان عهد الرّسالة

للوقوف على أهمية النهضة الإسلامية المباركة التي تحققت على يدي النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد إرساله من جانب الله تعالى وقيمتها، تكتسب دراسة بيئتين إجتماعيتين أهمية قصوى، وتأتي البيئتان هما:

- 1 بيئة نزول القرآن الكريم، أي البيئة التي ظهر فيها الإسلام، وترعرع ونما.

- 2 البيئة العالمية (خارج الجزيرة العربية)، ويعرف ذلك بدراسة عقائد الناس وافكارهم في اكثر مناطق العالم - يومذاك - مدنية وحضارة، ومطالعة آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأعرافهم، ومدنيّاتهم التي كانت تعتبر أفضل الأفكار والمدنيّات، وأرقى الحضارات، والأوضاع آنذاك.

ولقد كانت بيئتا: الامبراطورية الرومانية، والامبراطورية الإيرانية ألمع نقطة في ذلك اليوم - كما يدلنا التاريخ على ذلك. ولا بدّ أستكمالاً لهذا البحث من دراسة الأوضاع في هاتين الإمبراطوريتين، في مناطقها، ومن نواحيها المختلفة، لنقف من هذا الطريق على قيمة الحضارة التي أتى بها الإسلام، ونعرف ذلك بوجه أفضل.

* * *

(98)

أوضاع الرّوم ابان عهد الرّسالة:

ان أوضاع الروم لم تكن بأقل سوءً من أوضاع منافستها «ايران» فالحروب الداخلية من جانب والمعارك الخارجية المستمرة مع «ايران» وصراعها الدائم المستمر مع الاخيرة على منطقة «ارمينية» وغيرها كل ذلك كان يهيء الناس في تلك البلاد للقبول بثورة جديدة يضع حداً لمآسيهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفية والمذهبية النصيب الاكبر والأوفر في توسيع رقعة هذه الاختلافات، والمنازعات.

فالحرب لم تتوقف أبداً بين الوثنيين والمسيحيين ولم تنطفئ شرارتها يوماً ابداً.

فكان إذا غلب رجال الكنيسة على دست الحكم وأخذوا بمقاليده مارسوا أشد أنواع الضغط والأضطهاد بحق خصومهم ومناقسيهم الأمر الذي كان يساعد على إيجاد أقلية ناقمة من جهة، كما ويمكن اعتبار ذلك عاملاً مساعداً من جهة أخرى على تهيئة الشعب الروماني لاحتضان الدعوة الإسلامية، وتقبلها.

لقد كان حرمان طوائف كثيرة ومختلفة ناشئاً من ممارسات رجال الكنيسة الخشنة ومواقفهم المتزمتة.

هذا مضافاً إلى أن اختلاف القساوسة والرهبان النصارى فيما بينهم من جهة، وتعدد المذاهب من جهة أخرى كان يعمل على التقليل من هيبة الامبراطورية الرومانية وجرّها إلى الضعف والوهن المتزايد يوماً بعد يوم.

هذا بغض النظر عن أن البيض والصفر من سكان الشمال والمشرق كانوا يفكرون في السيطرة على المناطق الغنية من أوربة، وربما ألحق أحدهما بالآخر خسائر فادحة وباهضة في الصرعات والمصادمات التي كانت تقع بينهما. وكان هذا هو نفسه السبب في أن تنقسم الامبراطورية الرومية إلى معسكرين: المعسكر (أو القسم الشرقي) والمعسكر (أو القسم الغربي).

ويعتقد المؤرخون أن أوضاع الروم السياسية، والاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس كانت مضطربة، ومتدهورة جداً، حتى أنهم لا يرون في غلبة

(99)

الروم وتفوقها على إيران شاهداً على قدرتها العسكرية، وتفوقها النظامي، بل يرون أن هزيمة إيران كانت بسبب الفوضى التي كان سائدة انذاك في جهاز الحكم الايراني.

إن هاتين الدولتين اللتين كانتا تتربعان على عرش السيادة والسياسة العالمية في مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حالة سيئة من الفوضى، والهرج والمرج، ومن البديهي أن مثل هذه الأوضاع كان من شأنها أن توجد حالة من التهيؤ الكبير والظمأ الشديد إلى دين صحيح يضع حداً ونهاية لتلك الحالة، ويعيد تنظيم حياتهم.

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي:

المتعارف أن يعمد جماعة من البطالين والفسقة إلى طرح سلسلة من القضايا والمسائل الخاوية والنقاش حولها بهدف التوصل إلى أغراض فاسدة، فيستهلكون بذلك أوقات الناس، ويهدرون أعمارهم على منحر الجدل العقيم.

وهي حالة لها مصاديق كثيرة وشواهد عديدة في كثير من بلاد المشرق، ولسنا بصدد التوسع فيه فعلاً.

وقد كانت «الروم» تعاني يومئذ من مثل هذه الحالة أكثر من أي مكان آخر.

فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسة تبعاً لمذاهب دينية كنسيّة يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعتين ومشيئتين، ولكن طائفة أخرى من النصارى وهم «اليعقوبية» كانوا يقولون بانه: ذو طبيعة ومشيئة واحدة.

وقد وجهت هذه المسألة الباطلة نفسها، والجدل الواهي حولها ضربة شديدة إلى وحدة الروم ومن ثم استقلالها، وحدثت في صفوفها انشاقاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمة تضطر إلى الدفاع عن معتقداتها، ولذلك كانت تضطهد معارضيها، وتلاحقهم وهذا الاضطهاد والضغط الروحي سبب في لجوء البعض إلى الدولة الإيرانية، كما كان هؤلاء هم الذين تركوا المقاومة عند

(100)

مواجهة الجيش الإسلامي، وألقوا السلاح، واستقبلوا جنود الإسلام بالاحضان.

كانت الروم تمرُّ آنذاك بظروف اشبه ما تكون بظروف القرون الأوربية الوسطى التي ينقل عنها «فلا ماريون» الفلكي الشهير القضايا التالية التي تدل على المستوى الفكري والثقافي لأوربية في القرون الوسطى:

لقد كان كتاب «المجموعة اللاهوتية» المظهر الكامل للفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، وقد بقي هذا الكتاب يُدرّس في أوربية خلال أربعمئة سنة ككتاب رسمي ومعترف به.

وقد كان من الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب البحث حول عدد الملائكة التي يمكنها ان تستقر على راس إبرة؟! أو عدد الفراخ بين العين اليسرى واليمينى للاب الخالد؟! إلى غير ذلك من القضايا التافهة!!

إن الامبراطورية الرومية السيئة الحظ فيما كانت تعاني من الحروب الخارجية الكثيرة، كانت تعاني كذلك من النزاعات والاختلافات الداخلية - التي كانت - على الاغلب - تتصف بالصبغة المذهبية والطائفية - وكانت تدفع بالبلاد إلى حافة الهاوية، وتزيدها قرباً إليها يوماً بعد يوم.

ولما رأى اليهود (وهي الزمرة الشريرة المتأمرة على الشعوب دائماً) تصاعد الاضطهاد والضغط الذي يمارسه الامبراطور المسيحي الرومي حطّطت لاسقاط ذلك النظام، فاحتلت مدينة انطاكية ذات مرة، ومثلت بأسقف أنطاكية الاكبر فصلموا أذنه، وجدعوا أنفه، فانتمت حكومة الروم لهذه الجناية بعد مدة، وقتلت اليهود في انطاكية في مذبحه عامة.

وقد تكرّرت هذه الجرائم الفضيحة وهذه المذابح، والمذابح الانتقامية المضادة بين اليهود والنصارى عدة مرات، وربما سرت موجة الروح الانتقامية أحياناً إلى خارج البلاد، فمثلاً اشترى اليهود من ايران ذات مرة ثمانين الف مسيحي ثم حزوا رؤوسهم انتقاماً وتشفيماً.

من هذا يستطيع القارئ الكريم أن يقف على الصورة القاتمة للوضع السيء والمتردي الذي كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام، ويذعن - مع

(101)

المذعنين - بأن التعاليم الإسلامية الرفيعة التي انقذت العالم من ذلك الوضع المأساوي لم تكن أبداً وليدة الفكر البشري وان نسيم الوحدة، الناعشة، ونعمة السلام التي يهدف إليه الإسلام ويسعى إلى تحقيقه واقتراره في الحياة البشرية ليس لها من مصدر إلا الغيب، إذ كيف يمكن القول بان الإسلام الذي يعترف حتى للحيوانات بحق العيش والحياة نابع من تلك البيئة المغرقة في القسوة والوحشية، وناشيء من ذلك المحيط المفحم بروح الانتقام والتشفي.

لقد أبطل الإسلام جميع تلك المجادلات العقيمة والمناقشات التافهة حول مشيئة عيسى وشخصيته، وقال في نعتة ووصفه:

(مَا الْمَسِيحُ بِنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ).⁽¹⁾

إن هذه الآية انتهت الكثير من أبحاث رجال الكنيسة الباطلة الخاوية حول «الروح» و «المسيح» ودمه، وشخصيته، وحقيقته، كما ان الإسلام بفضل التعاليم الرفيعة، واحياء السجايا والملكات الفاضلة انقذ البشرية من المنازعات، الفارغة، والمذابح الفضيحة.

أوضاع إيران إبان عهد الرسالة:

إن ما دفعنا إلى دراسة أوضاع الإمبراطورية الرومية هو نفسه يحتم علينا أيضاً دراسة أوضاع إيران يومذاك.

لقد صادف ظهور الإسلام وبعثة الرسول الكريم محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - (٦١١ ميلادية) عهد السلطان الإيراني خسرو بروبز (٥٩٠ - ٦٢٨ م)، وفي عهد «خسرو بروبز» هذا هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من مكة إلى المدينة (الجمعة ١٦ جولاي ٦٢٢)، وصارت هذه الواقعة مبدء للتاريخ الإسلامي.

في هذه الأيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشرقية وإيران

- [المائدة: ٧٥.

(102)

الساسانية) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضر، ولم تزل هاتان الدولتان في نزاع مستمر وصراع دائم على مناطق النفوذ حتى بعد ظهور الإسلام.

فقد بدأت حروب إيران والروم الطويلة من عهد السلطان الإيراني أنوشيروان (٥٣١ - ٥٨٩ م) واستمرت إلى عهد الملك «خسرو برويذ»، واستغرقت أربعاً وعشرين عاماً من الزمان. (1)

وقد سبب تحمل «إيران» و «الروم» للخسائر الكبرى، في الأرواح والثروات خلال هذه المعارك الطويلة في إضعاف تينك الدولتين، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلاّ شبح دولتين لا أكثر.

ولكي نفق على الوضع العام في إيران آنذاك من جهاته المختلفة، وإبعاده المتنوعة وبصورة أفضل، يجب ان نلقي نظرة فاحصة على وضع الحكومات التي توالى على سدة القيادة الإيرانية بعد حكم «أنوشيروان» وحتى بداية دخول المسلمين.

البذخ والترف في البلاط الساساني:

كانت حياة الملوك الساسانيين تنسم عموماً بالبذخ والترف، والتشريفات الطويلة العريضة، وكان البلاط الساساني الفخم جداً يخلب ببريقه، بريق العيون، ويسحر الافئدة والعقول.

وكان للايرانيين في عهد الساسانيين لواء يُعرف بـ «درفش كاوياني» اي العلم الكاوياني نسبة إلى كاوه وهو بطل قومي إيراني أسطوري، وقد كانوا يحملونه معهم في الحروب، أو ينصبونه فوق قصورهم اثناء إحتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزيناً بأعلى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديرية - حسب قول بعض الكتاب: «٠٠٠ / ٢٠٠ / ١» درهماً (أو ما يعادل

- [تاريخ علوم وادبيات در ايران ص ٣ و ٤ و ايران در زمان ساسانيان ص ٢٦٧ (باللغة الفارسية).

(103)

) 30 / 000 پوند.

وقد بلغت مجموعة المجوهرات والأشياء الثمينة والتصاوير والرسوم المحيرة للعقول التي كانت تكتضئ بها قصور الساسانيين من حيث الأهمية والقيمة حداً سحرت العيون وخلبت الألباب.

ولو أننا أردنا أن نقف على عجائب ما في تلك القصور، وما كانت تحتوي عليه من غرائب الأشياء لكفانا أن نلقي نظرة واحدة إلى السجادة البيضاء والكبيرة التي كانت مفروشة في إحدى صالات بعض تلك القصور، وهي السجادة التي كانت تدعى بالفارسية بـ «بهارستان كسرى» وهو بساط كانوا يُعدونه للشتاء إذا ذهب الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطي الخمر فرشوه، وشربوا عليه فكانهم في رياض وكان هذا البساط ستيماً في ستين أرضه بذهب ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر وورقه بحرير!!⁽¹⁾»

وقيل أيضاً أن هذا البساط كان مئة وخمسين ذراعاً في سبعين ذراعاً وكان منسوجاً من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية جداً!!

وقد كان «خسرو برويز» أكثر الملوك الساسانيين ميلاً إلى الترف، والبذخ، واتخاذ الزينة، وقد بلغت عدداً نسانه وجواريه عدة الآف.

يقول حمزة الاصفهاني في كتاب «سنى ملوك الارض» واصفاً حالة الترف والبذخ التي كان يعيشها كسرى برويز: ثلاثة آلاف امرأة، واثنى عشر.

وجاء في تاريخ الطبري: أن «كسرى⁽²⁾ برويز» كان قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحد من الملوك، وكان أرغب الناس في الجواهر والأواني.⁽³⁾

- [تاريخ الطبري ج ٢، ص ١٣٠.
وجاء في تاريخ الطبري: كانت هذه السجادة ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب فيه طرق كالصور، وفصوص كالأنهار وخلال ذلك كالدَّير وفي حافته كالأرض المرزوعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة!!
- 2 سنى ملوك الارض والأنبياء: ص ٤٢٠.
- 3 تاريخ الطبري: ج ١، ص ٦١٦.

الوضع الاجتماعي في إيران:

لم يكن الوضع الاجتماعي في عهد الساسانيين بأفضل من الوضع السياسي آنذاك أبداً، فقد بلغ الاختلاف الطبقي الذي كان سائداً في إيران منذ زمن بعيد أشده وأقوى درجاته، وأسوء حالاته في العهد الاختلاف الساساني.

فطبقة النبلاء والكهنة كانت تتميز على بقية الطبقات تميزاً كاملاً، فهم يختصون بجميع المناصب الاجتماعية الحساسة والعليا، بينما حُرِمَ الكسبة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية، ولم يكن لهم من واجب ودور في النظام إلا دفع الضرائب الثقيلة والمشاركة في الحروب.

يكتب أحدُ الكتّاب الإيرانيين وهو الاستاذ سعيد نفيسي في هذا الصعيد قائلاً:

ان ما كان يثير روح النفاق بين الايرانيين اكثر هو سياسة التمايز الطبقي القاسي جداً الذي كان الساسانيون يتبعونها في التعامل مع الشعب، وكان لها جذورٌ في العهود والحضارات السابقة، ولكنها بلغت ذورتها في العهد الساساني بالذات!!

ففي الدرجة الأولى كان للعائلات السبع من النبلاء، ثم للطبقات الخمس إمتيازات خاصة حُرِمَتْ منها عامة أبناء الشعب. فالملكية كانت محصورة -تقريباً في تلك العائلات السبع مع العلم أن الشعب في العهد الساساني كان يقاربُ عدد نفوسه مائة وأربعين مليوناً في حين لا يبلغ عددُ كل واحد من تلك العائلات الممتازة والمتميّزة في شؤونها مائة ألف شخص، فيكون مجموعُها سبع مائة ألف. (1)

وإذا افترضنا أن حراسَ الحدود وأمراءهم والمُلاك الذين كانوا يتمتعون هم الآخرون بشيء من حق الملكية كان يبلغ عددهم أيضاً سبع مائة ألف أيضاً فيكون حق التملك والمالكية حينئذٍ خاصاً بمليون ونصف من مجموع مائة

- [تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ٦ - ٢٤ (باللغة الفارسية)].

(105)

واربعين مليوناً، فقد كانت تلك الزمرة القليلة هي التي تملك، وأما الآخرون وهم الاكثرية الساحقة فقد كانوا محرومين من هذا الحق الطبيعي الموهوب لهم من جانب الله أساساً وأصلاً.

لقد كان الكسبة والفلاحون الذين كانوا محرومين من جميع الحقوق، والإمتيازات ولكنهم كانوا يتحمّلون نفقات حياة البذخ والرفاهية التي كان يرفل فيها النبلاء والأشراف والطبقات العليا، لا يأملون خيراً وراء استمرار هذه الاوضاع، ودوامها، ولهذا كثيراً ما كان المزارعون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغادرون أعمالهم، ومزارعهم ويلجأون إلى الأديرة فراراً من الضرائب الباهضة والاتاوات القاصمة للظهور، المبددة للثروات. (1)

يقول مؤلف كتاب «ايران في عهد الملوك الساسانيين» (2) »

إن حروب إيران - الروم الطويلة بدأت من عهد حكومة الملك الإيراني انوشيروان (٥٣١ - ٥٨٩ م).

وخلاصة القول أنه كان في الامبراطورية الساسانية يملك أقلية صغيرة تقلّ نسبتها عن ١/٥ % (واحد ونصف بالمائة) من مجموع

الشعب كل شيء بينما كان أكثر من (٨٩ %) من الشعب الإيراني محرومين من حق الحياة تماماً كالعبيد.

حَقُّ التعلُّم خاصُّ بالطبقات الممتازة:!!

في العهد الساساني كان ابناء الاغنياء والبيوتات الرفيعة هم وحدهم الذين يتمتعون بحق التعليم، بينما كان عامة جماهير الشعب،

والطبقات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها.

وقد كانت هذه المنقصة بادية وواضحة في عصور ايران التاريخية جداً بحيث ذكرها الشعراء الكبار في ملاحمهم ودواوينهم الملكية

المعروفة بالرغم من ان

- [ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٠ و ٧١.

- 2 إيران في عهد الساسانيين: ص ٤٢٤.

(106)

الهدف من تلك الملاحم والدواوين كان هو الحماسة، والتفاخر بالبُطولات وتجييش العواطف، بعد مدح الملوك والامراء.

فيها هو «الفردوسي»⁽¹⁾ «الشاعر الملحمي الفارسي المعروف، بل أشهر شعراء ايران قد ذكر في شاهنامته (وهي الملحمة الشعرية

التي يذكر فيها أمجاد ملوك الفرس في قرابة ستين ألف بيت) قصة في هذا الصدد تعتبر أفضل شاهد على ما قلناه.

وقد وقعت هذه القصة في زمن «أنوشيروان»، أي في الوقت الذي كانت الامبراطورية الساسانية تمرُّ فيه بعهداها الذهبي.

وهذه القصة تشهد بأن اكثرية الشعب في عهد هذا الملك أيضاً كانت محرومة من حق التعلم، وممنوعة عن اكتساب الثقافة.

يقول الفردوسي: لقد أبدى حداء استعداده لتحمل نفقات الجيش الإيراني - في حربه مع الروم - بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضة

ومع أن السلطة في عهد «انوشيروان» كانت بحاجة ماسة إلى مساعدات مالية كبيرة إذ كان يتعين عليها أن تجهز ما يقرب من

ثلاثمائة الف مقاتل قد اصيبوا بالمجاعة وقلة العتاد، بحيث أدى ذلك إلى وقوع بعض الاعتراضات، وإلى ظهور الفوضى في

الجنود، مما أدى بدوره إلى قلق الملك الإيراني «أنوشيروان. »

والتخوف من مضاعفات هذه الحالة، وأثاره السيئة في قتاله للروم، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المحنك «بزرجمهر» للتشاور معه في المخلص من ذلك الوضع المخرج، ثم امره بالتوجه إلى منطقة «مازندران» وجمع الاموال اللازمة من سكانها.

ولكن «بزرجمهر» حذّر الملك من مغبة هذا العمل، وأضاف بأن هذا من شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الاموال اللازمة عن طريق القروض الشعبية فاستحسن «انوشيروان» اقتراحه وأمره باتخاذ الترتيبات اللازمة على

- [راجع للتعرف السريع على شخصية هذا الشاعر: الموسوعة العربية الميسرة: ص ١٢٨٦.

(107)

التوفير للوزير مندوبين له إلى المدن الإيرانية ليكلم التجار واصحاب الثروة في الامر.

فبيدئ الحذاء المذكور استعداداً لتحمل كل نفقات الجيش لوحده إلا انه اشترط ذلك بان يسمحوا لولده الوحيد الراغب في تحصيل العلم جداً ان يتعلم.

فاستحقر الوزير شرطه ووعده بالانجاز، والسماح لولده بالتعلم وتحصيل العلم، ثم عرض الامر على الملك انوشيروان وهو يأمل في ان يتجاوب الملك مع رغبة الحذاء وطلبه الصغير إذا ما قيس بما سيعطيه من اموال طائلة في تلك الاوضاع الحرجة.

ولكن الملك استشاط غضباً لهذا الطلب، ونهر الوزير قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، ان هذا لا يمكن ان يكون، لان ابن الحذاء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتبع، فينفرط بذلك عقد الدولة، ويكون ضرر هذا المال علينا أكثر من نفعه، وشره أكثر من خيره.

ثم إن الفردوسي يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلي حكاية عن لسان انوشيروان إذ يقول ناظماً ذلك في ابیات: (1)

وإذا أصبح ابن الحذاء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند الحكم والسلطنة واحتاج إلى كاتب، فانه سيضطر إلى الاستعانة بابن ذلك الحذاء - الكاتب - (وهو من عامة الشعب ومن ابناء الطبقة الدنيا وفي حين جرت عادتنا إلى الآن على أن نستعين بابناء الاشراف والنبلاء لا أبناء الطبقة الدنيا)!!!

وإذا حصل ابن الحذاء وبائع الاحذية على العلم والمعرفة أعاره العلم والمعرفة حينئذ عيوناً بصيرة، وأذاناً سمعية فيرى حينئذ ما يجب أن لا يراه،

چو بازارگان بچه گردد دبیر * هنرمند و با دانش و یاد گیر
چو فرزند ما برنشدند به تخت * دبیری بیایدش پیروز بخت
هنر باید از مرد موزه فروش * سپارد بدو چشم بینا و گوش
بدست خردمند مرد نژاد * نماند جز از حسرت و سرد باد

(108)

ويسمع ما يجب أن لا يسمعه، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوك إلا الحسرة والتأسف. (1)
وهكذا يعيد الملك دراهم الحذاء المسكين إليه رافضاً طلبه ويعود الحذاء خائباً وهو يتوسل بما يتوسل به المستضعفون والمحرومون
المظلومون وهو الدعاء والضراعة إلى الله في الليل وفي هذا قال الفردوسي: عاد مبعوث الملك بدراهم الحذاء إليه فاصيب الحذاء
لذلك بغم شديد ثم لما جن الليل تضرع الحذاء إلى الله وشكا إليه الملك طالباً عدالته. (2)

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعدل وهو الذي لم يعالج أسوأ مشكلة في المجتمع الإيراني أيام حكمه وسلطانه وهي
المشكلة الثقافية، بل تسبب في أن يصاب الشعب الإيراني بالمزيد من المشاكل الاجتماعية وغيرها.

فقد وأد دفن في القبور احياء ما يقرب من ثمانين الف انسان (اومائة الف كما قيل) في حادثه واحده، وهي فتنه مزدك، حتى أنه
ظن أنه قد قضى على جذور تلك الفتنه وهو لا يعلم أنها لم تستأصل لأن مثل هذه الأساليب القمعية انما تقضي فقط على المسبب
دون السبب وتكافح المجرم لا الجرم.

لقد كان السبب الحقيقي وراء تلك الفتنه هو الظلم الاجتماعي، والاختلاف الطبقي، واحتكار الثروة، والمنصب على أيدي طبقة
خاصة وحرمان الاكثريه الساحقة من الشعب وغير ذلك من المفاصد وكان عليه لو أراد الاصلاح أن يعالج هذه الأمور ليأتي على
المشكلة من أساسها، ولكنه بدل ذلك كان يريد - بالقهر والقمع وفي ظل الحراب والسياسه - أن يظهر الناس انفسهم بمظهر الراضي
وعن السلطة، الموافق على تصرفاتها، وأحوالها وأوضاعها السيئة!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروي عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

الَّذِي قَالَ فِيهِ: (وُلِدْتُ فِي زَمَنِ الْمَلِكِ الْعَادِلِ) وَيَقْصِدُ بِهِ انوشيروان. (1)

صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز:

ومن جرائم الملك خسروبرويز ومظالمه المنكرة ما فعله بوزيره الشهير «بزرجمهر» الذي خدم البلاط الشاهنشاهي الايراني ثلاثة عشر عاماً وكان ذلك موجباً لشهرته في البلاد وحسن صيته بين الناس.

فقد عمّد هذا الملك إلى سجن الوزير المذكور، والنكاية به، وقد كتب إلى الوزير المسجون رسالة يقول فيها: إِنَّ حَظَّكَ مِنَ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ أَنَّهُ عَرَضَكَ لِلْقَتْلِ!!

فاجابه «بزرجمهر» بقوله: «فقد انتفعت بعلمي مادام قد حالفني الحظ، وحيث عاكسني الآن، فأني اصبر وأنتفع بصبري، فإذا فاتني فعلٌ خير كثير فإني سعيدٌ لأنني لم أرتكب كذلك شراً كثيراً وإذا ما سلّمني منصب الوزارة فإني في الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس، فلا ابالي بما أنا فيه.»

ولما بلغت هذه الرسالة إلى الملك «برويز» استشاط غضباً، وأمر بقطع شفّتي الوزير، وجذّع أنفه، وعندما عرف الوزير بهذا الأمر الظالم قال: أجل أن شفّتي تستحقان أكثر من هذا.

فسأله خسروبرويز: ولماذا؟ فقال: لأنهما وصفّتاك عند العامة والخاصة بما لا تستحق من الأوصاف، واعطّتاك ما ليس فيك من الخصال، فمالتا إليك القلوب، ورغبتا فيك النفوس، والافندة، وأشاعتا عنك أمجاداً لم تستحقها، يا أسوأ الملوك وأظلم الحكام، تقتلني الآن بسوء الظن بعد أن كنت على يقين من وفائي، وصدقي، وإخلاصي، وسلامتي، فمن بعد هذا يأمل في عدلك، ومن بعد هذا يثق بقولك؟!!

- [راجع في هذا المجال: تذكرة الموضوعات لابن الجوزي، اللّالي المصوغة في الاحاديث الموضوعية للسيوطي، وكذا مجمع الزوائد للهيثمى].

فازداد «خسروبرويز» لسماع هذه الكلمات الساخنة غضباً على غضب، وأمر من فوره بقتل الوزير، فضرب عنقه في التوّ. (1)

وتلك هي معاملة ذلك الملك الموصوف زوراً بالعدل مع اقرب مقربيه، واكثر معاونيه إخلاصاً، ووفاء له فكيف كانت تُرى معاملته مع سائر أفراد الرعية وبقية أفراد الشعب؟؟

حكم التاريخ في الملوك الساسانيين:

لقد اتخذ الحكام الساسانيون في عهودهم وحكوماتهم سياسة خشنة قاسية، وقد أخضعوا الناس بسلطانهم بالسيف والعنف.

كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيلة وأتاوات باهضة قاصمة للظهور، ولهذا السبب كان عامة الشعب الايراني غير راضين على حكمهم وسيرتهم، ولكنهم خوفاً على نفوسهم، ما كانوا يتمكنون من الاعلان من استيائهم هذا بل لم يكن لأرباب الفكر والرأي والعارفين بالامور شأن ولا قيمة في البلاط الشاهنشاهي.

لقد بلغ الاستبدادي لدى الحكام الساسانيين حداً لم يستطع معه أحدٌ من إظهار رأيه، ولم يجرأ احد على إبداء أية ملاحظة في شأن من الشؤون.

لقد بلغت القوة بخسروبرويز حداً عجبياً وصفه الثعالبي بقوله:

قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلانا الوالي فتباطأ عن الامتثال، فأمر الملك من فوره قاتلاً ان كان يصعب عليه مجيئه ببذنه كله، فاننا يكفيننا شيء منه، فليؤتى براسه فحسب. (2)

- [يذكر الفردوسي الشاعر الملحمي هذه القصة في شاهنامته المعروفة عند ذكر وقائع انوشيروان اثناء حربه مع الروم (ج ٦، ص ٢٥٧ - ٢٦٠).
- 2/ايران در عهد ساسانيان: ص ٣١٨.

الفوضى في الحكومة الساسانية:

ومما يجب ان لا نغفل عن ذكره هو ما تعرضت له الحكومة الساسانية في اواخر عهدها من الفوضى الادراية، وتفاقم الهرج والمرج في جهازها الحكومي.

فقد دب الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الامراء، والاعيان وقاده الجيش في ذلك العهد وذهب كل فريق يختار أميراً من أبناء العائلة المالكة، ويقوم بتصفية الطائفة الأخرى التي اختارت أميراً آخر.

وعندما فكّر العرب المسلمون في فتح إيران كانت العائلة الساسانية المالكة قد بلغت ذروة الضعف والانقسام.

ومما يدل على ذلك تعاقب ما يقرب من (١٤) ملكاً على مسند الحكم والسلطان خلال مدة اربعة اعوام من مقتل الملك «خسرو ورويز» وجلوس شيرويه مجلسه وحتى آخر ملك من ملوك بني ساسان.

وهذا يعني أن حكومة إيران انتقلت خلال مدة لا تتجاوز اربعة اعوام من يد إلى يد أخرى (١٤ مرة)!! ومن الواضح ما يلحق بآية دولة ومملكة تتعرض لـ (١٤) انقلاب يُقتل فيه ملك، ويحل محله ملك آخر في مثل هذه المدة القصيرة.

فقد كان كل حاكم يتسلم زمام الحكم ويستولي على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كل من كان يطمع في العرش، ولا يتورع في سبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كل ما يراه ضرورياً، فكان الأب يقتل ابنه، والابن يقتل أباه، وربما يقتل الاخ إخوانه، والزوجة زوجها وهكذا...

فقد قتل «شيرويه» أباه⁽¹⁾ للحصول على مقعد الحكم والسلطان، كما أباد اربعين شخصاً من أبناء الملك «خسرو ورويز» اي إخوانه.⁽²⁾!!

وكان «شهر براز» يقتل كل من لا يثق به، وقد أدى هذا إلى أن يقضي على كل أبناء سلالته من الامراء الساسانيين ممن كان قد تسلم عرش السلطان

- 1 الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٢٩٦.
- 2 تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ١٥ - ١٩.

والملوكية قبله، رجلا كان ذلك أم امرأة، صغيراً كان ام كبيراً، لكيلا يبقى في الوجود من يطمع في السلطان أو يدّعيه!!

وصفوة القول: أن الفوضى السياسية بلغت في أواخر العهد الساساني حداً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على اريكة الحكم، ثم يثرون عليهم ويقتلونهم بعد ايام أو أشهر ويحلون محلهم أشخاصاً آخرين!!

وعلى هذا فإن الدولة الساسانية رغم قوتها الظاهرية كانت آخذة في الانحطاط والانحلال وسائرة نحو التمزق والفناء.

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين:

لقد كان أهم عامل للفوضى التي كانت تعاني منها الاوضاع في العهد الساساني هو الاختلاف في المعتقدات الدينية التي كانت سائدة آنذاك.

فحيث أن «اردشير بن بابك» مؤسس السلسلة الساسانية كان ابن مؤيد (وهو رجل دين زردشتي) وقِيماً على بيت نار وقد تمكن من السلطان بفضل الموادة فإنه اجتهد في الترويج لدين آبائه في إيران.

وفي عهد الساسانيين كان الدين الرسمي والشائع في أوساط الشعب الإيراني هو الدين الزرادشتي، ولما كانت السلالة الساسانية قد توصلت إلى الحكم بواسطة الموادة - كما أسلفنا - لذلك كان الموادة والقيمون على بيوت النار (ونعني بهم رجال الدين الزرادشتي) يحظون بمكانة كبرى لدى البلاط الساساني إلى درجة أنهم أصبحوا يشكّلون في أواخر العهد الساساني أقوى طبقة، وأشدّ الاجنحة نفوذاً في المجتمع الإيراني آنذاك.

ولقد كان الحكام الساسانيون دائماً ممّن رشحهم للحكم الموادة ورجال الدين الزردشتي المجوسي، ولذلك كان الحكام يأتَمرون بأوامرهم، ولو أن أحداً منهم خالف الموادة عارضوه أشدّ المعارضة، وسحبوا عنه تأييدهم ودَعَمهم، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون في كسب رضا الموادة، والعناية بهم أكثر من غيرهم من الطبقات، وقد تسبّبت عناية أولئك الملوك بالموادة وحمائيتهم لهم في تزايد

(113)

عددهم، يوماً بعد يوم.

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلال لتثبيت قواعد حكمهم، وتقوية مواقعهم في السلطان ولذلك أقاموا في مختلف مناطق القطر الإيراني العريض بيوت النار، (وهي معابد المجوس) جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلة كبيرة من الموادة كسدنة.

فقد كتب المؤرخون يقولون: ان «خسرو برويز» شيد بيتاً للنار عظيماً ووكّل به (١٢ الف) هيريد (وهو منصب خاص ورتبة خاصة في نظام القيادة الدينية المجوسية) لينشدوا فيه الاناشيد الدينية، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسية. (1)!!

وعلى هذا الأساس كان الدين المجوسي دين البلاط، وكان رجاله في خدمة الملوك.

هذا وقد اجتهد الموادة - بكل ما في وسعهم - في إبقاء الطبقات الكادحة والمحرومة من ابناء الشعب الإيراني في حالة من الركود والجمود وحالة عدم الاحساس بالألام والرضا بالأمر الواقع.

ولقد تسببت الصلاحيات الواسعة والحريات المطلقة المخولة إلى الموادة في ابتعاد الناس عن الدين المجوسي والنفور منه، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير ما يتدين به الأشراف من عقيدة ودين.

يقول مؤلف كتاب «تاريخ اجتماعي ايران» وقد سعى الشعب الإيراني - في المآل - إلى ان يتخلص من ضغوط الاشراف والموابدة واضطهادهم، ولهذا ظهر بيت الزردشتيين في قبال الدين الرسمي «المزديّة الزردشتية» الذي كان دين البلاط كما عرفنا، وكان يدعى: بهدين (اي الدين الافضل) مذهبان آخران. (2)

اجل وبسبب ضغوط الاشراف وتشددات الموابدة في العهد الساساني ظهرت في ايران مذاهب مختلفة الواحد تلو الآخر، وقد حاول «مزدك» ومن قبله «ماني» ان يوجدان بأنفسهما تحولا في الاوضاع الدينية وفي العقائد والمؤسسات،

- 1 تاريخ تمدن ساساني: ج ١، ص ١ (بالفارسية).
- 2 تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ٢٠.

(114)

ألا أنهما منيا بالفشل في هذا السبيل. (1)

فحوالي سنة (٤٩٧ ميلادية) قام «مزدك»، وألغى الملكية الانحصارية (الخاصة)، ونسخ عادة تعدد الزوجات، ونظام الحریم وكان ذلك في مقدمة برامجه الاصلاحية، وقد لقيت أفكاره هذه تأييداً قوياً من قبل الطبقات المحرومة المسحوقة التي فجرت بقيادة «مزدك» ثورة كبرى، وانقلاباً هائلاً في المجتمع الإيراني.

ولقد كانت هذه الثورات والانتفاضات الشعبية لأجل أن يتوصل الناس إلى حقوقهم المشروعة، الممنوحة لهم من قبل الله خالقهم وبارئهم.

ولقد قوبل مذهب «مزدك» باعتراض شديد من قبل الموابدة، وامراء الجيش، وجزّ إلى فتنة كبيرة، وإلى تردي الاوضاع في ايران آنذاك.

كما ان المذهب الزردشتي قد فقد - في أواخر العهد الساساني - حقيقته بصورة كاملة، ووصل الأمر بعبادة النار وتقديسها إلى درجة أنهم كانوا يحرمون الدقّ على حديدة محماة اكتسبت لون النار ولهيبها بمجاورتها لها.

وبكلمة واحدة؛ لقد كانت اكثر المعتقدات الزردشتية المجوسية تتألف من الخرافات والأساطير، وقد أعطت حقائق هذا الدين - في هذا العهد - مكانها لحفنة من الشعائر الجوفاء، والطقوس الفارغة، التي أضاف إليها الموابدة سلسلة من التشريعات الطويلة العريضة تثبيناً لمواقعهم، ودعماً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ.

لقد بلغت سيطرة الخرافات والاساطير البعيدة عن العقل والمنطق على هذه العقيدة، ورسوخها في هذا الدين حدّاً أفلق حتّى رجال الدين الزردشتي انفسهم أيضاً، وقد كان بين الموابدة انفسهم من أدرك منذ البداية تفاهة الطقوس والشعائر الزردشتية الجوفاء فتخلّى عنها.

- [المذهب المانوي هو المذهب الزردشتي الخليط بالمسيحية، فقد اخترع ماني من مسلك قومي وآخر اجنبي مذهباً جديداً ثالثاً.

(115)

هذا من جانب

ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيراني منذ أيام الملك «أنوشيروان» فما بعد طريق التفكير، والتأمل، والتحقيق، ومما قد قوى هذا الامر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتية والمعتقدات المسيحية وغيرها من العقائد والاديان وما تحقق من تلاحق بينها نتيجة تسلل الثقافة اليونانية والهندية، وغيرها إلى الوسط الإيراني، وتسبب كل ذلك في يقظة الشعب الإيراني، ولذلك اصبح يعاني من هذه الخرافات والاساطير التي كانت الديانة الزردشتية تعج بها أكثر من أي وقت مضى.

وعلى أية حال فان الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزردشت، وتطرق الخرافات والاساطير الواهية الكثيرة إلى المعتقدات الزردشتية تسبّب في حصول مزيد من التشتت والاختلاف والتشردم في آراء الشعب الإيراني وعقيدته.

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر إنتشار المذاهب المتنوعة ظهر روح الشك والتردد لدى الطبقة المفكرة والمتفكّة، وسرت منهم إلى بقية الاصناف والفئات ممّا أدى ذلك إلى أن يفقد جماهير الشعب ثقفتها وایمانها القطعي، واعتقادها الكامل السابق بتلك المعتقدات

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمّت الفوضى واللا دينية كل مناطق إيران والمجتمع الإيراني، كما رسم «برزويه» الطبيب الشهير في العهد الساساني حيث صوّر نموذجاً كاملاً عن الاختلاف الاعتقادي والتشردم الفكري، وبالتالي اضطراب الأوضاع الإيرانية في العهد الساساني، في مقدمة «كائلة ودمنة.»

الحروب الإيرانية الرومية:

لقد انقذ «برزجمهر» - الوزير الإيراني الشهير الذي كان يحتل مكان الصدارة في حكومة «أنوشيروان» وكان موصوفاً بالتبدير والكفاءة العالية - إيران من الاخطار التي احذقت بها في اكثر الاحيين، ولكن علاقته بالسلطان

(انوشيروان) كانت تتأثر احياناً بسعاية الساعين ووشاية الوشاة الذين كانوا يوغرون صدر الملك ضدّه فيستصدرون منه قراراً بحبسه وسجنه.

وقد أوغرّ هؤلاء السعاة والواشون أنفسهم صدرَ «انوشيروان» ضد امبراطور الروم، وألبوه عليه، وشجّعوه على توسيع رقعة نفوذّه، وتوسيع حدود بلاده واضعاف سيطرة منافسه الخطير، متجاهلاً وثيقة «الصلح الخالد» التي عقدها مع الروم واتفق فيها الجانبان على عدم التعرض لبعضهم لبعض.

وأدى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمة الروم، واشتعلت على اثرها نيران الحرب، واستطاع جنود ايران ان يفتحوا سورية (وقد كانت مستعمرة رومية) في مدة قصيرة تقريباً، وحرقت انطاكية ونهب آسيا الصغرى.

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدماء، والكّر والفر بين الروم وايران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في تلك المعارك الطاحنة، وبعد الخسائر العظيمة التي تحمّلها الطرفان إضطرّاً إلى عقد وثيقة الصلح مرة ثانية، وحددوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السابق شريطة أن تدفع دولة الروم كل عام ما يعادل (عشرين الف) دينار إلى دولة ايران.

ومن الواضح أنّي لا يخفى ولا يحتاج إلى البيان أن حروباً طويلة الامد تدور رحاها بعيداً عن مركز الدولة من شأنها ان تأتي بالنتائج السيئة والتبعات الثقيلة على اقتصاد الشعب المحارب، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قوية، لا تزول آثارها إلا بعد زمان طويل خاصة مع ملاحظة الوسائل والأدوات في تلك العصور.

ومهما يكن فان هذه الحروب، وهذه الحملات المكلفة هيأت المقدمات الموجبة لسقوط الحكومة الإيرانية الحتمي.

فان آثار هذه المعارك لم تزل بعد إلا وقد نشبت حرب أخرى دامت سبعة اعوام فان «تي باربوس» امبراطور الروم بعد ان تسنم عرش السلطان هدد بحملاته الكبيرة استقلال الدولة الإيرانية بدافع الانتقام.

وفي الأثناء - وقبل ان يتضح موقف الطرفين وموقعهما في تلك المعارك من

الهيمنة أو الانتصار - مات «انوشيروان» وخلفه في إدارة البلاد ابنه «خسروبرويز» .»

وقد حمل هذا الأخير على الروم ايضاً، وذلك عام (٦١٤) بحجج معينة، وفتح في أول حملة من حملاته: بلاد الشام وفلسطين وأفريقية ونهب اورشليم، وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح - عليه السلام - وهدم المدن، ودمرها.

وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين الف من النصارى لصالح الإبرانيين.

في مثل هذه المرحلة التي كان فيها العالم المتحضر آنذاك يحترق - في نيران الحروب والظلم، يُعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة الإسلامية، وبلغ نداؤه المحيي للنفوس والعقول سمع البشرية، وقام يدعو الناس إلى الصلح والسلم، وإلى النظم والامن.

ولقد أدى انهزام الروميين المتدينين، المؤمنين بالله على أيدي المجوس الكفار، عبدة النار، إلى ان يتفاعل اهل مكة الوثنيون بهذا الحدث، ويحدثوا (ويمتوا) أنفسهم بالانتصار على المسلمين المؤمنين بالله عما قريب، وانطلقوا يرددون هذه الأمنية أمام المسلمين وهم يحاولون بها إضعاف معنوياتهم، وزعزعة إيمانهم، الامر الذي أقلق المسلمين.

ولم يتخذ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - موقفاً تجاه هذه الظاهرة انتظاراً لما سينزل به عليه الوحي إلى ان نزلت آيات في هذا المجال هي الآيات الأولى من سورة الروم التي تقول: **الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَ مِنْ بَعْدِ وَ يُؤْمِنُذُ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.**⁽¹⁾

وقد تحققت نبوءة القرآن هذه حول الروم في عام (٦٢٧ ميلادية) حيث

- 1 الروم: ١ - ٦.

(118)

استولى «هرقل» على «نينوى» في حملة واحدة.

وعلى أية حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الدقائق والساعات الأخيرة من حياتهما فيما تستعدان من ناحية اخرى لتجميع القوى، والتهيؤ لشن حملات جديدة، وخوض حروب ومعارك أخرى ولكن حيث أن الارادة الالهية كانت قد تعلقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نور التوحيد وتنتعش نفوس الروميين والفرس الذابلة الميتة بنسائم الإسلام الناعشة، واشعته الهادية، لذلك لم يلبث أن قُبل «خسرو برويز» على يدي ابنه «شبرويه» الذي لم يُذم سلطانه بعد اغتياله لأبيه أكثر من ثمانية أشهر، ثم سادت ايران بعد «شبرويه» فوضى شاملة خلال اربعة اشهر، حيث تناوب على مسند الحكم حُكَّامٌ وامراء عديدون أربعة منهم من النساء، إلى أن

أنهى الجيش الإسلامي حملاته الناجحة هذه الاوضاع، ووضع نهاية لهذا الصراع السياسي الحاد الذي استمرّ خمسين عاماً والذي ساعد بدوره على تقدم الفتوحات الإسلامية.

(119)

٤

أسلاف رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم -

1- أبطل التوحيد: إبراهيم الخليل - عليه السلام -

إن الهدف من استعراض حياة النبي العظيم إبراهيم الخليل - عليه السلام - هو التعريف بأجداد النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وأسلافه، لانتهاء نسبه الشريف إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ، وحيث ان لهاتين الشخصيتين العظيمتين وبعض أسلاف النبي العظيم نصيباً هاماً في تاريخ العرب والإسلام، لهذا ينبغي الحديث عن أحوالهم بصورة مختصرة، خاصة أنّ حوادث التاريخ الإسلامي ترتبط ارتباطاً كاملاً - كحلقات سلسلة واحدة - بالحوادث السابقة، أوالمقارنة ليزوغ الإسلام.

فعلى سبيل المثال تُعتبر كفاية «عبدالمطلب» لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحمائنه له، وجهود «ابي طالب» ودفاعه الطويل عن النبي، وعظمة الهاشميين وسمو مقامهم واخلاقهم، وجذور معاداة الأمويين لهم، الاسس والقواعد الموضوعية لحوادث التاريخ الإسلامي، ولهذا كان لابد من تخصيص فصل كامل في التاريخ الإسلامي لهذه الابحاث.

إنّ في حياة حامل راية التوحيد النبي «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - نقاطاً مشرقة وبارزة جداً.

فجهاده العظيم في سبيل ارساء قواعد التوحيد واقتلاع جذور الوثنية ممّا

(120)

لا ينسى.

وهكذا حوار اللطيف والزاخر بالمعاني مع عبدة النجوم والكواكب في عصره والذي ذكره القرآن الكريم لمعرفتنا، افضل واسمى درس توحدي لطلاب الحقيقة وبغاة الحق.

مولد إبراهيم:

لقد ولد بطل التوحيد في بيئة مظلمة كانت تسربلها ظلمات الوثنية، وعبادة البشر... في بيئة كان الإنسان فيها يخضع لأصنام نحتها بيديه، كما يخضع لكواكب ونجوم.

لقد وُلد حامل لواء التوحيد «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - في «بابل» الذي يعدّها المؤرخون إحدى عجائب الدنيا السبع، ويذكرون حولها قصصاً واموراً كثيرة تنبئ عن عظمتها وأهميتها حضارتها، فيقول «هيردوتس» المؤرخ المعروف - مثلاً - : لقد كانت بابل بنية بشكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه الأربعة (١٢٠ فرسخاً) ومحيطه (٤٨٠ فرسخاً).^(١)

إنّ هذا الكلام مهما كان مبالغاً فيه إلا أنه على كل حال يكشف عن حقيقة لا تقبل الإنكار، إذا ما ضُمنَّ إلى ما كتبه الآخرون عن تلك المدينة التاريخية.

غير اننا لا نرى من تلك المدينة اليوم ومن مناظرها الجميلة، وقصورها الرائعة، إلا تلاً من التراب في منطقة بين «دجلة» و «الفرات»، فالموت يخيّم على كل تلك المنطقة، اللهم الا عندما يكسر علماء الآثار بتنقيباتهم جدار الصمت أحياناً، بحثاً عن آثار تلك المدينة، ويستخرجون بقاياها الموقوفة على معالم من حضارة اصحابها وسكانها.

لقد فتح رائد التوحيد ومُرسى اركانه «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - عينيه

- إقاموس الكتاب المقدس، مادة بابل.

(121)

في دولة «نمرود بن كنعان.»

وكان نمرود هذا رغم أنه يعبدُ الصنم يدعي الألوهية ويأمر الناس بعبادته.

وقد يبدو هذا الامر عجيبياً جداً فكيف يمكن ان يكون الشخص عابد صنم ومع ذلك يدعي الألوهية في الوقت نفسه، إلا أن القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسألة في شان «فرعون مصر»، وذلك عندما هزّ النبي موسى بن عمران - عليه السلام - قواعد العرش الفرعوني بمنطقة القوى، وحبته الصاعقة، فاعترض أنصار فرعون وملاؤه على هذا الأمر، وخاطبوا فرعون بلهجة معترضة قائلين: **أَتَذُرُّ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ.**^(١)

ومن الواضح جداً أن «فرعون» كان يدعي الألوهية فهو الذي كان يقول: **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى**^(٢) (وهو القائل): **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهٍ غَيْرِي**^(٣) (ولكنه كان في الوقت نفسه عابد صنم ووثنيّاً).

بيد أنّ هذه الازدواجية ليست بأمر غريب عند الوثنيين، ولا يمنع مانع في منطقتهم أن يكون الشخص نفسه وثنيّاً يعبد الصنم، ومع ذلك يدعي أنه اله ويدعو الناس إلى عبادته فيكون الهأ معبوداً، يعبد الهأ أعلى منه، لأن المقصود من المعبود والاله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوق على الآخرين بنحو من أنحاء التفوق ويتملك زمام حياتهم بشكل من الأشكال.

هذا والتاريخ يحدثنا أن العوائد في بلاد الروم كانت تعبد كبارها ومع ذلك كان أولئك الكبار المعبودين انفسهم يتخذون لأنفسهم معبوداً أو معبودات أخرى.

إن أكبر وسيلة توسّل بها «نمرود» في هذا السبيل هو استقطاب جماعة من الكهنة والمنجمين الذين كانوا يُعتون الطبقة العاملة والمتقّفة في ذلك العصر.

فقد كان خضوع هذه الطبقة يمهّد لاستعمار الطبقة المنحطة وغير الواعية من الناس.

هذا مضافاً إلى أنه كان يُناصر «نمرود» بعض من ينتسب إلى «الخليل»

- [الأعراف: ١٢٧.

- 2النازعات: ٢٤.

- 3القصص: ٣٨.

(122)

- عليه السلام - بوشيجة القربى مثل «أزر» الذي كان يصنع التماثيل، وكان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً، وكان هذا هو الآخر أحد العراقيين التي كانت تمنع الخليل من انجاح مهمته، لأنه مضافاً إلى مخالفة الرأي العام له، كان يواجه مخالفة أقاربه أيضاً.

لقد كان نمرود غارقاً في عالم خيالي عندما دق المنجمون فجأة أول ناقوس للخطر وقالوا له: سوف تنهار حكومتك، ويتهاوى عرشك وسلطانك على يد رجل يولد في تلك البيئته، الأمر الذي أيقظ أفكاره النائمة، فتساءل من فوره، وهل وُلد هذا الرجل؟ فقيل له: لا، انه لم يولد بعد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك في الليلة التي انعقدت فيها نطفة ابراهيم الخليل - عليه السلام - عدو نمرود، وهادم ملكه، ومزيل سلطانه وهي الليلة التي حددها وتكهن بها المنجمون والكهنة من انصار نمرود) ومع ذلك كان جلاوزة «نمرود» يقتلون كل وليد ذكر، وكان على القوابل ان يسجلن اسماء المواليد في مكتبه الخاص.

ولقد اتفق أن انعقدت نطفة «الخليل» في نفس الليلة التي منع فيها اي لقاء جنسي بين الرجال، وازواجهم.

لقد حملت أم ابراهيم به كما حملت أم موسى به، وامضت فترة حملها في خفاء وتستر، ثم لجأت بعد وضع وليدها العزيز إلى غار بجبل على مقربة من المدينة حفاظاً عليه، وراحت تتفقد بين حين وآخر من الليل والنهار، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الاسلوبُ الظالم «نمروداً» وأراح باله بمرور الزمن، إذ أيقن بانته قد قضى به على عدو عرشه، وهادم سلطانه، وتخلص منه.

لقد قضى «إبراهيم» - عليه السلام - ثلاثة عشر عاماً في ذلك الغار الذي كان يتصل بالعالم الخارجي عبر باب ضيق، ثم أخرجته أمه من ذلك الغار بعد ثلاثة عشر عاماً، ودخل «إبراهيم» في المجتمع، فاستغرب المجتمع النمرودي وجوده وانكروه. (1)

- [تفسير البرهان: ج ١، ص ٥٣٥.

(123)

لقد خرج «إبراهيم» من الغار، مؤمناً بالله بفطرته، وقوى توحيده الفطري، بمشاهدة الأرض والسماء، والنظر في سطوع الكواكب والنجوم والتأمل في ما يجري في عالم النبات من نمو و حركة إلى غير ذلك مما يجري في عالم الطبيعة العجيب.

لقد واجه إبراهيم - عليه السلام - بعد خروجه من الغار جماعة من الناس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمة أمرها، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظاهرة، كما رأى جماعة أخرى أخطأ فكرياً من سابقتها يعبدون اصناماً منحوتة، بل واجه ما هو اسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالة إذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغبائهم ويدعي الألوهية ويفرض عليهم عبادته والخضوع له!!

لقد كان إبراهيم - عليه السلام - يرى أنَّ عليه أن يهييء نفسه لخوض المعركة في هذه الجهات الثلاث المختلفة، وقد نقل القرآن الكريم قصة نضال النبي «إبراهيم» - عليه السلام - في هذه الاصعدة والجهات الثلاث وسنقل لك في ما يأتي وباختصار ما ذكره القرآن في هذا المجال.

إبراهيم ومكافحته للوثنية:

كانت ظلمات الوثنية قد خيَّمت على منطقة بابل (موضع ولادة الخليل) برمتها.

فالآلهة المدعاة، والمعبودات (السماوية والارضية) الباطلة قد سحرت عقول مختلف فئات الشعب، فبعضها في نظرهم هي أرباب القدرة والسلطة، وبعضها الآخر وسيلة الزلفى والتقرب إلى الله إلى غير ذلك من التصورات السخيفة في هذا الصعيد.

وحيث أن طريقة الأنبياء في هداية البشرية وارشادهم هي الاستدلال بالبراهين، والاحتجاج بالمنطق، لانهم إنما يتعاملون مع قلوب الناس وعقولهم، ويبتغون ايجاد حكومة تقوم على أساس الإيمان واليقين، ومثل هذه الحكومة لا يمكن اقامتها بالسيف أو بالنار والحديد. لهذا يبدأون حركتهم بالتوعية الفكرية.

إن علينا أن نفرق بين الحكومات التي يريد الأنبياء تأسيسها، وحكومة

(124)

ان هدف الطائفة الثانية هو: الرناسة والزعامة، والحفاظ عليها بكل وسيلة ممكنة في حياتهم، وان تلاشت وتهاوت من بعدهم.

ولكن الانبياء والرسل يريدون حكومة تبقى قائمة في جميع الحالات ومائلة في جميع الاوقات، في الخلوة والجلوة، في وقت الضعف، وفي وقت القوة، في حياتهم وبعد مماتهم... انهم يريدون أن يحكموا على القلوب لا على الابدان، وهذا الهدف لا يتحقق ابداً عن طريق القوة واستخدام العنف والقهر!! انما يتحقق عن طريق الحجة والبرهان.

لقد بدأ النبي «إبراهيم» عمله بمكافحة ما كان عليه أقبائؤه الذين كان في طبيعتهم وعلى رأسهم «أزر» وهو الوثنية وعبادة الاصنام، ولكنه لم ينته من هذه المعركة ولم يحرز إنتصاراً كاملاً في هذه الجبهة بعد إلا وواجه - عليه السلام - جبهة أخرى، وكانت هذه الجماعة أعلى مستوى من افراد الجماعة السابقة في الفهم والثقافة. لان هذه الجماعة - على خلاف أقباء إبراهيم - قد نبذت عبادة الأوثان والأصنام⁽¹⁾، والمعبودات الارضية الحقيرة، وتوجهت بعبادتها وتقديسها إلى الكواكب والنجوم والاجرام السماوية.

ولقد بيّن «الخليل» - عليه السلام - في حوارهِ العقائدي مع عبّاد الاجرام السماوية، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسدة، سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية التي لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك، وذلك ببيان بسيط مدعوم بأدلة لا تزال إلى اليوم موضع اعجاب كبار العلماء، ورواد الفلسفة والكلام.

والأهم من ذلك - في هذا المجال - أن القرآن الكريم نقل أدلة «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - باهتمام خاص وعناية بالغة ولهذا ينبغي لنا أن نتوقف عندها قليلاً، وهذا ما سنفعله في هذه الصفحات.

- [ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره - عليه السلام - مع الوثنيين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبدة الأجرام السماوية.

حوار الخليل مع عبدة الكواكب:

ذات ليلة وقف إبراهيم - عليه السلام - عند ابتداء مغيب الشمس يتطلع في السماء - وهو ينوي هداية الناس - وبقي ينظر إلى النجوم والكواكب من أول الغروب من تلك الليلة إلى الغروب من الليلة التالية، وخلال هذه الساعات الاربع والعشرين حاور وجدل ثلاث فرق، من عبدة النجوم وابطل عقيدة كل فرقة منها بأدلة محكمة، وبراهين متقنة قوية.

فعندما أقبل الليلُ وخيم الظلام على كل مكان وهو يخفي كل مظاهر الوجود ومعالمه في عالم الطبيعة ظهر كوكبُ «الزُّهرة» من جانب الأفق وهو يتلألأ.

فقال إبراهيم لِعِبَادِ هَذَا الْكَوْكَبِ - وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لهم، ومقدمة للدخول معهم في حوار - : «هذا ربي. »

وعندما افل ذلك الكوكب وغاب عن الانظار قال: «لا احب الأفلين. »

ويمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيدة عبدة الزهرة، واطهر خواءها وفسادها.

ثم إنه - عليه السلام - نظر إلى كوكب القمر المنير الذي يسحر القلوب بنوره وضوئه، فقال - متظاهراً بموافقة عبدة القمر - : «هذا ربي» ثم ردّ بأسلوب منطقي محكم تلك العقيدة أيضاً، عندما امتدت يد القدرة المطلقة ولمت أشعة القمر من عالم الطبيعة، وعندها إتخذ إبراهيم - عليه السلام - هيئة الباحث عن الحقيقة ومن دون أن يصدم تلك الفرق المشركة ويجرح مشاعرهم إذ قال: **يَهْدِينِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**⁽¹⁾ (لأن القمر قد أفل أيضاً كما أفل سابقه فهو كغيره أسير نظام غلوي لا يتخلف، وما كان كذلك لا يمكن ان يُعَدَّ رباً يُعْبَد، ويتوجه إليه بالتقديس والتضرع.

ولما ولى الليل وأدبر، واكتسحت الشمس الوضاء بأشعتها حجب

- [الأنعام: ٧٧.

(126)

الظلام، وبثت خيوطها الذهبية على الوهاد والسهول، والتفت عبدة الشمس إلى معبودهم، تظاهر إبراهيم بالاقرار بربوبيتها اتباعاً لقواعد الجدل والمناظرة ولكن افول الشمس وغروبها اثبت هو الآخر بطلان عبادتها ايضاً بعد أن اثبت خضوعها للنظام الكوني العام، فتبرأ «الخليل» - عليه السلام - من عبادتها بصراحة.

وعندئذ أعرض - عليه السلام - عن تلك الطوائف الثلاث وقال: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**.⁽¹⁾

لقد كان المخاطبين في كلام إبراهيم - عليه السلام - هم الذين يعتقدون بأن تدبير الكائنات الارضية، ومنها الإنسان قد انيطت إلى الاجرام السماوية وفوضت اليها!!

وهذا الكلام يفيد أن الخليل - عليه السلام - لم يقصد المطالب الثلاث التالية:

-1 اثبات الصانع (الخالق).

-2 توحيد الذات وأنه واحد غير متعدد.

3-التوحيد في الخالقية، وأنه لا خالق سواه.

بل كان تركيزه - عليه السلام - على التوحيد في «الربوبية» و «التدبير» وادارة الكون، وانه لا مدبّر ولا مربّي للموجودات الأرضية إلا الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فانه - عليه السلام - فور إبطاله لربوبية الاجرام السماوية قال: **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** (...وهو يعني ان خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبرها وربّها، وانه لم يفوّض أي شيء من تدبير الكون، - لا كله ولا بعضه - إلى الاجرام السماوية، فتكون النتيجة: أن الخالق والمدبر واحد لا أن الخالق هو الله والمدبر شيء آخر.

ولقد وقع المفسرون، والباحثون في معارف القرآن في خطأ، والتباس عند التعرض لمنطق «إبراهيم» - عليه السلام - وشرح حوارهِ هذا، حيث تصوروا أن الخليل - عليه السلام - قصد نفي «ألوهية» هذه الأجرام بعني الالوهية التي تعتقد بها

- [1] الأنعام: ٧٩.

(127)

جميع شعوب الأرض ويكون هذا الكون الصاخب آية وجوده.

بينما تصوّر فريق آخر ان «إبراهيم» كان يقصد نفي «الخالقية» عن هذه الأجرام السماوية، لأنه من الممكن ان يخلق إله العالم كائناً كامل الوجود والصفات ثم يفوض إليه مقام الخالقية في حين أن هذين التفسيرين غير صحيحين، بل كان هدف الخليل - عليه السلام - بعد التسليم بوجود اله واجب الوجود، وتوحيده، ووحداية الخالق - البحث في قسم آخر من التوحيد، الا وهو التوحيد «الربوبي»، وبالتالي اثبات أن خالق الكون هو نفسه مدبر ذلك الكون أيضاً، وعبارة «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ...» أفضل شاهد على هذا النوع من التفسير.

من هنا كان التركيز الأكبر في بحث إبراهيم على مسألة «الرب» و «الربوبية» في صعيد الاجرام كالقمر والزهرة والشمس. (1)

هذا واستكمالاً للبحث الحاضر لايدّ من توضيح برهان النبي «إبراهيم» - عليه السلام - .

لقد استدلت «إبراهيم» في جميع المراحل الثلاث بأقول هذه الاجرام على أنها لا تليق بتدبير الظواهر الارضية وبخاصة الإنسان.

وهنا ينطرح سؤال: لماذا يُعتبر أقول هذه الاجرام شاهداً على عدم مدبّريتها؟

إن هذا الموضوع يمكن بياؤه بصور مختلفة، كل واحدة منها تناسب طائفة معينة من الناس.

ان تفسير منطق «الخليل» - عليه السلام - واسلوبه في إبطال مدبّرية الاجرام السماوية وربوبيّتها بأشكال وصور مختلفة أفضل شاهد على أن للقرآن الكريم أبعاداً مختلفة وأن كل بُعد منها يناسب طائفة من الناس.

- [لقد بيّنا مراتب التوحيد من وجهة نظر القرآن الكريم في كتابنا «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وأثبتنا هناك أنّ التوحيد في الذات غير التوحيد في الخالقية، وأن هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد في الربوبية، وهي غير المراتب الأخرى للتوحيد، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقة.

(128)

واليك في ما يلي التفاسير المختلفة لهذا الاستدلال:

الف: إن الهدف من اتخاذ الربّ هو أن يستطيع الكائن الضعيف في ظل قدرة ذلك الرب من الوصول إلى مرحلة الكمال ولا بدّ ان يكون لمثل هذا الربّ ارتباطاً قريباً مع الموجودات المراد تربيتها بحيث يكون واقفاً على أحوالها، غير منفصل عنها، ولا غريب عليها.

ولكن كيف يستطيع الكائن الذي يغيب ساعات كثيرة عن الفرد المحتاج إليه في التربية ويحرم ذلك الفرد من فيضه وبركته، ان يكون رباً للموجودات الأرضية ومدبراً لها؟!!

من هنا يكون أقول النجم، وغروبه، الذي هو علامة غربته وانقطاعه عن الموجودات الارضية خير شاهد على أن للموجودات الأرضية رباً آخر، منزهاً عن تلك النقيصة عارياً عن ذلك العيب.

باء: إنّ طلوع الأجرام السماوية وغروبها وحركتها المنظمة دليل على أنها جميعاً خاضعة لمشئنة فوقها، وانها في قبضة القوانين الحاكمة عليها، والخضوع لقوانين منظمة هو بذاته دليل على ضعف تلك الموجودات، ومثل هذه الموجودات الضعيفة لا يمكن أن تكون حاكمة على الكون، أو شيء من الظواهر الطبيعية، وأما استفادة الموجودات الارضية من نور تلك الاجرام وضوئها فلا يدل أبداً على ربوبية تلك الأجرام، بل هو دليل على أن تلك الأجرام تؤدّي وظيفة تجاه الموجودات الأرضية بأمر من موجود أعلى.

وبعبارة أخرى: إن هذا الأمر دليل على التناسق الكوني، وارتباط الكائنات بعضها ببعض.

جيم: ما هو الهدف من حركة هذه الموجودات؟ هل الهدف هو أن تسير من النقص إلى الكمال أو بالعكس؟

وحيث أن الصورة الثانية غير معقولة، وعلى فرض تصورها لا معنى لأن يسير المرَبّي والمدبر للكون من مرحلة الكمال إلى النقص والفناء، يبقى الفرضُ الاول وهو بنفسه دليل على وجود مرَبٍّ آخر يوصل هذه الموجودات القوية في ظاهرها

من مرحلة إلى مرحلة، هو - في الحقيقة - الربُّ الذي يبلغ بهذه الموجودات وما دونها إلى الكمال.

طريقة الأنبياء في الحوار والجدال:

لقد اسلفنا في ما سبق أن «ابراهيم» - بعد خروجه من الغار - واجه صنفين منحرفين عن جادة التوحيد هما:

1- الوثنيون.

2- عبدة الاجرام السماوية.

ولقد سمعنا حوار «ابراهيم» - عليه السلام - وجداله مع الفريق الثاني، وعلينا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبدة الاصنام؟ إن تاريخ الانبياء والرسول يكشف لنا عن أنهم كانوا يبدأون دعوتهم من انذار الاقربين ثم يوسعون دائرة الدعوة لتشمل عامة الناس كما فعل رسول الإسلام في بدء دعوته حيث بدأ بانذار عشيرته الاقربين لما امره الله تعالى بذلك إذ قال: **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**.⁽¹⁾ (وبذلك أسس دعوته على إصلاح اقربائه وعشيرته.

ولقد سلك «الخليل» - عليه السلام - نفس هذا المسلك أيضاً إذ بدأ عمله الاصلاحى باصلاح اقربائه.

ولقد كان لأزر بين قومه مكانة اجتماعية عليا فهو - مضافاً إلى معلوماته في الصناعة وغيرها - كان منجماً ماهراً، وذا كلمة مسموعة ورأي مقبول في بلاط «نمرود» في كل ما يخبر به من أخبار النجوم، وكل ما يستخرجه وما يستنبطه من الامور الفلكية ويذكره من تكهنات.

لقد ادرك «ابراهيم» انه بجلبه لأزار (عمه) يستطيع أن يسيطر على اوساط الوثنيين، ويجردهم من ركيزة هامة من كبريات ركاتهم، ولهذا بادر إلى منع

- [الشعراء: ٢١٤].

عمه أزر - وبافضل الاساليب - عن عبادة الاوثان، بيد أن بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل «أزر» بنصائح «ابراهيم» - عليه

السلام - ، والمهم لنا في هذا المجال هو ان نتعرف على كيفية دعوة الخليل وعلى اسلوب حوارهم مع «أزر». »

ان الامعان في الآيات التي تنقل حوار «ابراهيم» -« عليه السلام - مع «أزر» توضح لنا أدب الانبياء، واسلوبهم الرائع في الدعوة والارشاد، ولنقف عند حوار ابراهيم ودعوته، ليتضح لنا ذلك.

يقول القرآن الكريم عن ذلك: **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جِئْتُكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً.**

فاجابه «أزر» قائلاً: **أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجُمَنَّكَ وَ أَهْجُرُنِي مَلِيّاً.** ()

ولكن «ابراهيم» بسعة صدره وعظمة روحه تجاهل ردّ «أزر» العنيف ذلك وأجابه قائلاً: **سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.** (1)

وأى جواب افضل من هذا البيان وأى لغة ألين من هذه اللغة واحب إلى القلب، وأكثر رحمة ولطفاً.

هل كان أزر والد إبراهيم؟

ان الظاهر من الآيات المذكورة وكذا الآية (١١٥) من سورة «التوبة» والآية (١٤) من سورة الممتحنة هو: أن «أزر» كان والد إبراهيم - عليه السلام - .

وقد كان إبراهيم يسميه أباً في حين كان «أزر» وثنياً، فكيف يصح ذلك وقد اتفقت كلمة علماء الشيعة عامة على كون والد النبي الكريم «محمّد»

- [مريم: ٤٢ - ٤٧].

(131)

- صلى الله عليه وآله وسلم - وجميع الأنبياء مؤمنين بالله سبحانه موحدين إياه تعالى.

ولقد ذكر الشيخ المفيد رضوان الله عليه في كتابه القيم «أوائل المقالات»⁽¹⁾ «ان هذا الامر هو موضع اتفاق علماء الشيعة الامامية كافة بل وافقهم في ذلك كثير من علماء السنة ايضاً.

وفي هذه الصورة ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكورة التي تفيد أبوة «أزر» لإبراهيم، وما هو الحل الصحيح لهذه المشكلة؟؟

يذهب أكثر المفسرين إلى أن لفظة «الأب» وان كانت تُستعمل عادة في لغة العرب في «الوالد»، إلا أن مورد استعمالها لا ينحصر في ذلك.

بل ربما استعملت - في لغة العرب وكذا في مصطلح القرآن الكريم - في: (العمّ) أيضاً. كما وقع ذلك في الآية التالية التي استعملت فيها لفظة الأب بمعنى العم إذ يقول سبحانه:

(إِذْ قَالَ لَيْتَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.)⁽²⁾

فإنّ ممّا لا ريب فيه أن «اسماعيل» كان عمّاً ليعقوب لا والداً له، فيعقوب هو ابن اسحاق، واسحاق هو أخو اسماعيل.

ومع ذلك سمّى أولادُ يعقوب «اسماعيل» الذي كان (عمّهم) أباً.

ومع وجود هذين الاستعمالين (استعمال الاب في الوالد تارة، وفي العم تارة أخرى) يصبح احتمال كون المراد بالاب في الآيات المرتبطة بهداية «أزر» هو العمّ أمراً وارداً، وبخاصة إذا ضمّمنا إلى ذلك قرينة قوية في المقام وهي: اجماع العلماء الذي نقله المفيد رحمه الله على طهارة آباء الانبياء واجدادهم من رجس الشرك والوثنية.

ولعل السبب في تسمية النبي «ابراهيم» عمّه بالاب هو أنه كان الكافل

- 1 أوائل المقالات: ص ١٢، باب القول في آباء رسول الله صلى الله عليه وآله.
- 2 البقرة: ١٣٣.

لابراهيم رداً من الزمن، ومن هنا كان «ابراهيم» ينظر إليه بنظر الأب، وينزله منزلة الوالد.

القرآن ينفي أبوة «أزر» لإبراهيم:

ولكي نعرف رأي القرآن الكريم في مسألة العلاقة بين «أزر» و «ابراهيم» - عليه السلام - نلقت نظر القارئ الكريم إلى توضيح آيتين:

- [لقد أشرقت منطقة الحجاز بنور الايمان والإسلام بفضل جهود النبي «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - وتضحياته الكبرى، وآمن أكثر الناس به عن رغبة ورضا، وعلموا بأن عاقبة الشرك، وعبادة الاوثان والاصنام هو الجحيم والعذاب الاليم.

إلا أنهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وفّقوا له من إيمان وهداية، كانت ذكريات آباءهم وأمّهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنية تزج خواطرهم وتثير شفقتهم، واسفهم.

وكان سماع الآيات التي تشرح أحوال المشركين في يوم القيامة يحزنهم ويؤلمهم، وبغية ازالة هذا الالم الروحي المجهد طلبوا من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يستغفر لابائهم وأمهاتهم كما فعل «إبراهيم» في شأن «آزر» فنزلت الآية في مقام الرد على طلبهم ذاك، إذ قال سبحانه:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَّهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ. (1))

إنَّ ثمة قرائن كثيرة تدل على أنَّ محادثة النبي «إبراهيم» وحواره مع «آزر» ووعده بطلب المغفرة له من الله سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات،

- [التوبة: ١١٣ و ١١٤.

(133)

والتبري منه في عهد فتوة «إبراهيم»، وشبابه، اى عندما كان «إبراهيم» لا يزال في مسقط رأسه «بابل» ولم يتوجه بعد إلى فلسطين ومصر وأرض الحجاز.

إننا نستنتج من هذه الآية أن «إبراهيم» قطع علاقته مع «آزر» - في أيام شبابه - بعد ما أصر «آزر» على كفره، ووثنيته، ولم يعد يذكره إلى آخر حياته.

2- لقد دعا «إبراهيم» - عليه السلام - في أخريات حياته - أي في عهد شيخوخته - وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمته الكبرى (تعمير الكعبة) واسكان ذريته في أرض مكة القاحلة، دعا بكل اخلاص وصدق جماعة منهم والداه، وطلب من الله إجابة دعائه، إذ قال في حين الدعاء:

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ. (1))

إنَّ هذه الآية تفيد بصراحة - أن الدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبة المعظمة، وتشبيدها، يوم كان إبراهيم يمر بفترة الشيخوخة، فاذا كان مقصوده من الوالد في الدعاء المذكور هو «آزر» وانه المراد له المغفرة الالهية كان معنى ذلك أن «إبراهيم» كان لم يزل على صلة ب «آزر» حتَّى أنه كان يستغفر له في حين أن الآية التي نزلت رداً على طلب المشركين أوضحت بأن «إبراهيم» كان قد قطع علاقاته ب «آزر» في أيام شبابه، وتبرأ منه، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات.

إن صَمَّ هاتين الآيتين بعضهما إلى بعض يكشف عن أن الذي تبرأ منه «إبراهيم» في أيام شبابه، وقطع علاقاته معه، واتخذوه عدواً هو غير الشخص الذي بقي يذكره، ويستغفر له إلى أخريات حياته. (2)

إبراهيم محطّم الأصنام:

لقد حلَّ موسم العيد، وخرج أهلُ بابل المغفلين الجهلة إلى الصحراء للاستجمام، ولقضاء فترة العيد، وإجراء مراسيمه، وقد أخلوا المدينة.

- 1 إبراهيم: ٤١.
- 2 مجمع البيان: ج ٣، ص ٣٢١، والميزان: ج ٧، ص ١٧٠.

(134)

ولقد كانت سوابق «إبراهيم»، وتحامله على الأصنام، واستهزأه بها قد أوحدت قلقاً وشكاً لدى أهل بابل، ولهذا طلبوا منه - وهم الذين يساورهم القلق من موقفه تجاه اصنامهم - الخروج معهم إلى الصحراء، والمشاركة في تلك المراسيم، ولكن اقتراحهم هذا بل إصرارهم واجه رفض إبراهيم الذي رد على طلبهم بحجة المرض إذ قال: «إني سقيم» وهكذا لم يشترك في عيدهم، وخرجهم وبقي في المدينة.

حقاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحد والمشارك، وأما للمشركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به، واقامة مراسيمه وتجديد ما كان عليه الآباء والاسلاف إلى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمراع الجميلة.

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك، عيداً لم يسبق له مثيل، عيداً طال انتظاره، وافرح حضوره وحلوله، فهي هو إبراهيم يجد المدينة فارغة من الاغيار، والفرصة مناسبة للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنية، وحدث هذا فعلاً.

فعندما خرج آخر فريق من اهل بابل من المدينة، إغتنم «إبراهيم» تلك الفرصة ودخل وهو ممتلئ ايماناً و يقيناً بالله في معبدهم حيث الأصنام والأوثان المنحوتة الخاوية، وأمامها الأطعمة الكثيرة التي احضرها الوثنيون هناك بقصد التبرك بها، وقد لفتت هذه الأطعمة نظر «الخليل» - عليه السلام - ، فأخذ بيده منها كسرة خبز، وقدمها مستهزء إلى تلك الاصنام قائلاً: لماذا لا تأكلون من هذه الاطعمة؟

ومن المعلوم أن معبودات المشركين الجوفاء هذه لم تكن قادرة على فعل اي شيء أو حركة مطلقاً فكيف بالاكل.

لقد كان يخيم على جو ذلك المعبد الكبير سحابة من الصمت القاتل ولكنه سرعان ما اخترقته اصوات المعول الذي اخذ «إبراهيم»
يهوي به على رؤوس تلك التماثيل الجامدة الواقفة بلا حراك، وايديها.

لقد حطم «الخليل» - عليه السلام - جميع الاصنام وتركها ركاماً من الاعواد المهشمة، والمعدن المتحطم، وإذا بتلك الاصنام المنصوبة
في اطراف ذلك الهيكل

(135)

قد تحولت إلى تلة في وسط المعبد.

غير ان «إبراهيم» ترك الصنم الأكبر من دون ان يمسه بسوء، ووضع المعول على عاتقه، وهو يريد بذلك ان يظهر للقوم بأن
محطم تلك الأصنام هو ذلك الصنم الكبير، إلا أن هدفه الحقيقي من وراء ذلك كان امراً آخرأ سنبينه في ما بعد.

لقد كان «إبراهيم» - عليه السلام - يعلم بأن المشركين بعد عودتهم من الصحراء، ومن عيدهم سيزورون المعبد، وسوف يبحثون
عن علة هذه الحادثة، وأنهم بالتالي سوف يرون ان وراء هذه الظاهرة واقعاً آخر، إذ ليس من المعقول ان يكون صاحب تلك
الضربات القاضية هو هذا الصنم الكبير الذي لا يقدر اساساً على فعل شيء على الاطلاق.

وفي هذه الحالة سوف يستطيع «إبراهيم» - عليه السلام - أن يستفيد من هذه الفرصة في عمله التبليغي ويستغل اعتراضهم بأن هذا
الصنم الكبير لا يقدر على شيء أبداً، لتوجيه السؤال التالي اليهم: ان كيف تعبدونه!!؟

فمنذ أن اخذت الشمس تدنو إلى المغيب ويقترُب موعد غروبها، وتتقلص اشعتها وتنكمش من الرّوابي والسهول، أخذ الناس يؤوبون
إلى المدينة أفواجاً أفواجاً.

وعند ما أن موعد العبادة، وتوجّهوا إلى حيث اصنامهم، واجهوا منظرأ فضيعاً وامراً عجيباً لم يكونوا ليتوقّعونه!!

لقد كان المشهد يحكي عن ذلة الآلهة وحقارتها، وهو أمرٌ لفت نظر الجميع شيباً وشباناً، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظة لحظة ثقيلة الوطأة على الجميع بلا استثناء.

فقد خبم سكوت قاتل مصحوب بحنق ومضض على فضاء ذلك المعبد المنكود الحظ.

إلا أن أحدهم خرق ذلك الصمت الرهيب وقال: من الذي ارتكب هذه الجريمة، ومن فعل هذا بالهتنا؟!!

ولقد كانت آراء «إبراهيم» ومواقفه السلبية السابقة ضد الاصنام وتحامله الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأن «إبراهيم» وليس سواه هو الذي صنع ما صنع بالهتمة واصنامهم.

ولأجل ذلك تشكلت فوراً محكمة يرأسها «نمرود» نفسه وأخذوا يحاكمون «إبراهيم» وأمه!!

ولم يكن لأمه من ذنب إلا أنها أخفت ابنها، ولم تُعلم السلطات بوجوده ليقضوا عليه، شأنه شأن غيره من المواليدين الذين قضت تلك السلطة الظالمة عليهم حفاظاً على نفسها وكيانها.

ولقد أجابت أم إبراهيم على هذا السؤال بقولها: أيها الملك فعلت هذا نظراً مني لرعيّتك، فقد رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل فقلت: إن كان هذا الذي يطلبه دفعته إليه ليقته ويكف عن قتل أولاد الناس، وإن لم يكن ذلك فبقي لنا ولدنا.

ثم جاء دور مسائلة إبراهيم - عليه السلام - فسأله قائل: **مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْمِ يَا إِبْرَاهِيمَ (فقال إبراهيم): فَعَلَهُ كَيْبُرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ.**

وقد كان «إبراهيم» - عليه السلام - يهدف من هذه الاجابة اللامبالية المصحوبة بالسخرية والازدراء هدفاً آخر، وهو ان «إبراهيم» - عليه السلام - كان على يقين بأنهم سيقولون في معرض الاجابة على كلامه هذا: إنك تعلم يا إبراهيم ان هذه الأصنام لا تقدر على النطق، وفي هذه الصورة يستطيع «إبراهيم» أن يلفت نظر السلطات التي تحاكمه إلى نقطة اساسية.

وقد حدث فعلاً ما كان يتوقعه «إبراهيم» - عليه السلام - لما قالوا له وقد نكسوا على رؤوسهم: «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» فقال إبراهيم رداً على كلامهم هذا الذي كان يعكس حقارة تلك الاصنام والأوثان وتفاهة شأنها: **أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَ لَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.** ()

إلا أن تلك الزمرة المعاندة التي ران على قلوبها الجهل والتقليد الأعمى لم

يجدوا جواباً لأبراهيم الذي افحمهم بمنطقه الرصين إلا أن يحكموا باعدامه حرقاً، فأوقدوا ناراً كبيرة وألقوا بإبراهيم - عليه السلام - فيها إلا أن العناية الالهية شملت إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، وحفظته من اذى تلك النار، وحولت ذلك الجحيم الذي اوجده

البشر، إلى جُنبنة خضراء نضرة إذ قال: **يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ.**⁽¹⁾

العبر القيمة في هذه القصة:

مع ان اليهود يعتبرون أنفسهم في مقدمة الموحدين، لم ترد هذه القصة في ثوراتهم الحاضرة رغم كونها معروفة بينهم، بل تفرّد القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بذكرها لأهميتها.

من هنا فإننا نذكرُ بعض النقاط المفيدة، والدروس المهمة في هذه القصة التي يهدف القرآن من ذكرها وذكر أمثالها من قصص الأنبياء والرسل.

- [وقد ذكر تفاصيل هذه القصة في الآيات ٥١ إلى ٧٠ من سورة الانبياء وها نحن ندرج كل هذه الآيات هنا:
(وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاقِبُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. قَالُوا اجْتِنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبِّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُمْ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَ تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتَىٰ يَدُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا: فَأَتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ فَارْجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَحَسُوا عَلَىٰ رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءُ يَنْطَفُونَ. قَالَ: أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ. أَفَلَا تَحْقِرُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الْهَيْتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ. وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ.)
وللوقوف على تفاصيل وخصوصيات ولادة إبراهيم عليه السَّلام وتحطيمه للأصنام راجع كتاب لابن الأثير: ج ١، ص ٥٣ - ٦٢، وبحار الأنوار: ج ١٢، ص ١٤ - ٥٥.

(138)

-[1] هذه القصة خير شاهد على شجاعة «إبراهيم الخليل» عليه السلام - وبطولته الفائقة.

فعزم إبراهيم على تحطيم الأصنام، ومحق وهدم كل مظاهر الشرك والوثنية المقيتة لم يكن امراً خافياً على النمروديين لانه - عليه السلام - كان قد أظهر شجبه لها، واعلن عن استنكاره لعبادتها وتقديسها من خلال كلماته القادرة فيها، واستهزائه بها، فقد كان - عليه السلام - يقول لهم بكل صراحة بانه سيتخذ من تلك الأصنام موقفاً ما إذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها، فقد قال لهم يوم ارادوا ان يخرجوا إلى الصحراء لمراسيم العيد: (و تَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ.)⁽¹⁾

ولقد كان موقف الخليل - عليه السلام - ينم عن شجاعة كبرى فقد قال الإمام الصادق - عليه السلام - في هذا الصدد:

«ومنها (اي ومما تحلّى به النبي إبراهيم) الشجاعة وقد كشفت (قضية) الأصنام عنه، ومقاومة الرجل الواحد ألوفاً من أعداء الله عزّوجلّ تمام الشجاعة.»⁽²⁾

2- ان ضربات «إبراهيم» القاضية وان كانت في ظاهرها حرباً مسلحة، وعنيفة ضد الأصنام إلا أن حقيقة هذه النهضة - كما يُستفاد من ردود «إبراهيم» على أسئلة الذين حاكموه، واستجويوه - كانت ذات صبغة تبليغية دعائية.

فان «إبراهيم» لم يجد وسيلة لا يقاظ عقول قومه الغافية، وتنبيه فطرهم الغافلة، إلا تحطيم جميع الأصنام، وترك كبيرها وقد علق القدم على عاتقه ليدفع بقومه إلى التفكير في القضية من اساسها وحيث أن العمل لم يكن اكثر من مسرحية إذ لا يمكن أن يصدق

أحدهم بأن تلك الضربات القاضية كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله حينئذ يستطیع إبراهيم أن يستنمر فعله هذا في دعوته، ويقول أن هذا الصنم الكبير لا يقدر - وباعترا فكم - على فعل أئ شيء

- [الأنبياء: ٥٧].
- 2بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٦٧.

(139)

مهما كان صغيراً وحقيراً فكيف تعبدونه انن؟!!

ولقد استفاد «إبراهيم» من هذه العملية فعلا، وتوصل إلى النتيجة التي كان يتوخاها، فقد ثابوا إلى نفوسهم بعد ان سمعوا كلمات «إبراهيم» - عليه السلام - ، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا انفسهم بالظلم بعد أن تبين لهم الحق وبطل ما كانوا يعبدون إذ قال تعالى: **فَرَجِعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَفَالُوا إِنَّكُمْ لَأنتُم الظَّالِمُونَ** ⁽¹⁾ وهذا بنفسه يفيد بأن سلاح الانبياء القاطع في بدء عملهم الرسالي كان هو: سلاح المنطق والاستدلال ليس إلا، غاية الأمر أن هذا كان يؤدي في كل دورة بما يناسبها من الوسائل، وإلا فما قيمة تحطيم عدد من الأصنام الخشبية بالقياس إلى مخاطرة النبي «إبراهيم الخليل» بنفسه وحياته، وبالقياس إلى الاخطار التي كانت تتوجه إليه نتيجة هذا العمل الصارخ.

إن فلان ان يكون وراء هذه العملية الخطيرة هدفت كبيراً وخدمة عظمى تستحق المخاطرة بالنفس، ويستحق المرء امتداح العقل له إذا عرّض حياته للخطر في سبيلها.

3- لقد كان إبراهيم يعلم بأن هذا العمل سيؤدي بحياته، وسيكون فيه حتفه، فكانت القاعدة تقتضي أن يسيطر عليه قلق واضطراب شديدان، فيتوارى عن أعين الناس، أو يترك المزاح، والسخرية بالأصنام على الأقل، ولكنه كان على العكس من ذلك رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابت القدم، فهو عندما دخل في المعبد الذي كانت فيه الأصنام تقدم بقطعة من الخبز إلى الاصنام ودعاها ساخرأ بها، إلى الاكل، وتم ترك الأصنام بعد اليأس منها تلاً من الخشب المهشم، واعتبر هذا الامر مسألة عادية لا تستأهل الوجع والخوف، وكأنه لم يفعل ما يستتبع الموت المحقق ويستوجب الاعدام المحتم.

فهو عندما يأخذ مكانه امام هيئة القضاة يقول معرضاً بالأصنام: فعله كبير الأصنام فاسئلوه ولا شك أن هذا التعريض والسخرية بالأصنام إنما هو موقف من

- [الأنبياء: ٦٤].

لا يوجس خيفة، ولا يشعر بوجل من عمله، بل هو فعل من قد هيأ نفسه لكل الاخطار المحتملة، واستعد لكل النتائج مهما كانت خطيرة.

بل الأعجب من هذا كله دراسة وضع «إبراهيم» نفسه حينما كان في المنجنيق وقد تيقن أنه سيكون وسط أسنة اللهب بعد هنيئة، وتلتهمه النار المستعرة تلك النار التي جمع اهل «بابل» لها الحطب الكثير تقرباً إلى آلهتهم، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدساً... تلك النار التي كان لهيبها من القوة بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربة منها.

في هذه اللحظة الخطيرة الحساسة جاءه جبرئيل وعلن عن استعداده لانقاذه وتخليصه من تلك المهلكة الرهيبة قائلاً له: هل لك إلى من حاجة؟

فقال «إبراهيم»: أما إليك فلا، وأما إلى رب العالمين فنعم.⁽¹⁾

ان هذا الجواب يجسدُ ايمان «إبراهيم» العظيم، وروحه الكبرى.

لقد كان «نمرود» الذي جلس يراقب تلك النار من عدة فراسخ، ينتظر بفارغ الصبر لحظة الانتقام، وكان يحب ان يرى كيف تلتهم أسنة النار «إبراهيم». فما أرب تلك اللحظات!

لقد اشتغل المنجنيق، وبهزة واحدة ألقى بإبراهيم - عليه السلام - في وسط النار غير أن مشيئة الله، وارادته النافذة تدخلت فوراً لتخلص خليل الله ونبيه العظيم، فحوّلت تلك النار المحرقة التي أوقدتها يدُ البشر إلى روضة خضراء وجنية زاهرة ادهشت الجميع حتى أنّ «إبراهيم» التفت إلى «أزر» وقال - من دون ارادته - : «يا أزر ما اكرم إبراهيم على ربّه.⁽²⁾»

إن انقلاب تلك النار الهائلة إلى روضة خضراء لإبراهيم قد تمّ بأمر الله المسبب للإسباب والمعتل لها متى شاء، المعطي لها آثارها، والسالب عنها ذلك، متى اراد.

- 1 عيون أخبار الرضا: ص ١٣٦، وأمالى الصدوق: ص ٢٧٤، وبحار الأنوار: ج ١٢، ص ٣٥.
- 2 تفسير البرهان: ج ٣، ص ٦٤.

اجل إن الله الذي منح الحرارة للنار والاضاءة للقمر، والاشعاع للشمس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريدها، ولهذا صحَّ وصفه بمسبب الاسباب، ومعتلها.

غير ان جميع هذه الحوادث الخارقة والآيات الباهرة لم تستطع ان توفر لابراهيم الحرية الكاملة في الدعوة والتبليغ، فقد قررت السلطة الحاكمة وبعد مشاورات ومداولات إبعاد «إبراهيم» ونفيه، وقد فتح هذا الأمر صفحة جديدة في حياة ذلك النبي العظيم، وتهيأت بذلك اسباب رحلته إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر وارض الحجاز.

هجرة الخليل

- عليه السلام - :

لقد حكمت محكمة «بابل» على «إبراهيم» بالنفي والإبعاد من وطنه، ولهذا اضطرّ - عليه السلام - ان يغادر مسقط رأسه، ويتوجه صوب فلسطين ومصر، وهناك واجه استقبال العمالقة الذين كانوا يحكمون تلك البقاع وترحيبهم الحار به ونعم بهداياهم التي كان من جملتها جارية تدعى «هاجر». »

وكانت زوجته «سارة» لم تُرزق بولد إلى ذلك الحين، فحركت هذه الحادثة عواطفها ومشاعرها تجاه زوجها الكريم إبراهيم ولذلك حثته على نكاح تلك الجارية عليه يُرزق منها بولد، تقرّ به عينه وتزدهر به حياته.

فكان ذلك، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولداً ذكراً سمي باسماعيل، ولم يمض شيء من الزمان حتى حبلت سارة هي أيضاً وولدت - بفضل الله ولطفه - ولداً سمي باسحاق. (1)

وبعد مدة من الزمان أمر الله تعالى «إبراهيم» بان يذهب بإسماعيل وأمه «هاجر» إلى جنوب الشام «أي ارض مكة» ويُسكنهما هناك في واد غير معروف إلى ذلك الحين... واد لم يسكنه أحدٌ بل كانت تنزل فيه القوافل التجارية

- [بحار الأنوار: ج ١٢، ص ١١٨ و ١١٩.

(142)

الذاهبة من الشام إلى اليمن، والعائدة منها إلى الشام، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً، وأما في بقية أوقات السنة فكانت كغيرها من أراضي الحجاز صحراء شديدة الحرارة، خالية عن أي ساكن مقيم.

لقد كانت الإقامة في مثل تلك الصحراء الموحشة عملية لا تطاق بالنسبة لأمراة عاشت في ديار العمالقة والفت حياتهم وحضارتهم، وترفهم وبذخهم.

فالحرارة اللاهية والرياح الحارقة في تلك الصحراء كانت تجسّد شبح الموت الرهيب امام ابصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد انتابته كذلك حالة من التفكير والدهشة لهذا الامر، ولهذا فإنه فيما كان عازماً على ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ذلك الواد قال لزوجته «هاجر» وعيناه تدمعان: «إن الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو الذي يكفيكم. »

ثم قال في ضراعة خاصة: **رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ.** (1)

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت إليهما وقال داعياً: **رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ.** (2)

إن هذا السفر والهجرة وإن كانت في ظاهرها امرأ صعباً، وعملية لا تطاق، إلا أن نتائجها الكبرى التي ظهرت في ما بعد أوضحت وبيّنت أهمية هذا العمل، لأنّ بناء الكعبة، وتأسيس تلك القاعدة العظيمة لأهل التوحيد، ورفع راية التوحيد في تلك الربوع، وخلق نواة نهضة، عميقة، دينية، انبثقت على يد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وشعّت من تلك الديار إلى أنحاء العالم، كل ذلك كان من ثمار تلك الهجرة.

- 1 البقرة: 126.

- 2 إبراهيم: 37.

عين زمزم كيف ظهرت؟

لقد غادر «إبراهيم» - عليه السلام - أرض مكة تاركاً زوجته وولده «إسماعيل» بعيون دامعة، وقلب يملأه الرضا بقضاء الله والامل بلطفه وعنايته.

فلم تمض مدة إلا ونفذ ما ترك عندهما من طعام وشراب، وجف اللبن في ثديي «هاجر»، وتدهورت أحوال الرضيع «إسماعيل»، وكانت دموع الام الحزينة تنحدر على حجره، وهي تشاهد حال وليدها الذي قد أخذ العطش والجوع منه مأخذاً.

فانطلقت من مكانها فجأة تبحث عن الماء حتّى وصلت إلى جبل «الصفا» فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل «مروة»، فأسرعت إليه مهرولة، غير ان الذي رأتة وظننته ماء لم يكن الا السراب الخادع، فزادها ذلك حزناً على وليدها ممّا جعلها تكرر الذهاب والاياب إلى الصفا والمروة أملاً في أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعي المتكرر، والذهاب والاياب المتعدد بين الصفا والمروة عادت إلى وليدها قانطةً يائسةً.

كانت أنفاس الرضيع الضامى ودقات قلبه الصغير قد تباطأت بل واشرفت على النهاية، ولم يعد ذلك الرضيع الضامى قادراً على البكاء ولا حتّى على الانين.

ولكن في مثل هذه اللحظة الحرجة الصعبة استجاب الله دعاء خليله و حبيبه «إبراهيم»، إذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبع من تحت اقدام «إسماعيل». »

فسرت تلك الام المضطربة - التي كانت تلاحظ وليدها وهو يقضي اللحظات الاخيرة من حياته، وكانت على يقين بانه سرعان ما يموت عطشاً، وجهداً - سروراً عظيماً بمنظر الماء، وبرق في عينيها بريق الحياة، بعد ان اظلمت الدنيا في عينيها قبل دقائق، فشربت من ذلك الماء العذب، وسقت منه رضيعها الظامىء، وتقشعت بلطف الله وعنايته وبما بعثه من نسيم الرحمة الربانية كل غيوم اليأس، وسُحِب القنوط التي تلبدت وخيمت على حياتها.

(144)

ولقد ادى ظهور هذه العين التي تدعى بزمرم في ان تتجمع الطيور في تلك المنطقة و تحلق فوق تلك البقعة التي لم يُعهد أن حَلَّت عليها الطيور، وارتادتها الحمايم، وهذا هو ما دفع بجرهم وهي قبيلة كانت تقطن في منطقة بعيدة عن هذه البقعة ان تنتبه إلى ظهور ماء فيها لمارأت تساقط الطيور وتحليقها، فأرسلت و اردن ليتقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقة الأمر، وبعد بحث طويل وكثير، انتهيا إلى حيث حلت الرحمة الالهية، وعندما اقتربا إلى «هاجر» وشاهدا بام عينيها «امرأة» و «طفلا» عند عين من الماء الزلال الذي لم يعدها من قبل عادا من فورهما من حيث أتيا، وأخبرا كبار القبيلة بما شاهداه، فاخذت الجماعة تلو الجماعة من تلك القبيلة الكبيرة تقد إلى البقعة المباركة، وتخيم عند تلك العين لتطرد عن «هاجر» وولدها مرارة الغربية، ووحشة الوحدة، وقد سبب نمو ذلك الوليد المبارك ورشده في رحاب تلك القبيلة في ان يتزوج إسماعيل هذا من تلك القبيلة، ويصاهرهم، وبذلك يحظى بحمايتهم له، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له. فانه لم يمض زمانٌ حتى أختار «إسماعيل» زوجة من هذه القبيلة، ولهذا ينتمي ابناء «إسماعيل» إلى هذه القبيلة من جهة الأم.

تجديد اللقاء:

كان إبراهيم - عليه السلام - بعد أن ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ارض «مكة» بأمر الله، يتردد على ولده بين فينة وأخرى.

وفي احدى سفراته ولعلها السفر الأول دخل «مكة» فلم يجد ولده «إسماعيل» في بيته، وكان ولده الذي أصبح رجلا قويا، قد تزوج بامرأة من جرهم.

فسأل «إبراهيم» زوجته قائلاً: ابن زوجك؟ فقالت: خرج بتصيدٍ، فقال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي شيء وما عندي أحد، فقال لها إبراهيم: «إذا جاء زوجك فأقرنيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابيه.»

وذهب إبراهيم - عليه السلام - منزحاً من معاملة زوجة ابنه «إسماعيل» له وقد قال لها ما قال.

ولما جاء إسماعيل - عليه السلام - وجد ربح ابني فقال لامرأته: هل جاءك احد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه،

قال: فماذا قال لك: قالت: قال لي أقرني زوجك السلام وقولي له: فليغير عتبة بابي!!

فطلقها وتزوج أخرى، لأن مثل هذه المرأة لا تصلح ان تكون زوجة وشريكة حياة. (1)

وقد يتساءل أحد: لماذا لم يمكث إبراهيم - عليه السلام - هناك قليلاً ليرى ولده إسماعيل بعد عودته من الصيد، وقد قطع تلك المسافة

الطويلة، وكيف سمح لنفسه بان يعود بعد تلك الرحلة الشاقة من دون ان يحظى برؤية ابنه العزيز!؟

يجيب ارباب التاريخ على ذلك بان إبراهيم انما استعجل في العودة من حيث اتى لوعده اعطاه لزوجته سارة بأن يعود اليها سريعاً،

ففعل ذلك حتى لا يخلف. وهذا من اخلاق الانبياء.

ثم إن «إبراهيم» سافر مرة أخرى إلى أرض مكة بأمر الله، وليبني الكعبة التي تهدمت في طوفان «نوح»، ليوجه قلوب المؤمنين

الموحدين إلى تلك النقطة.

إن القرآن الكريم يشهد بأن أرض «مكة» قد تحولت إلى مدينة بعد بناء الكعبة قبيل وفاة إبراهيم - عليه السلام - ، لأن إبراهيم دعا

بُعَيْد فراغه من بناء الكعبة قائلاً:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ) (2) على حين دعا عند نزوله مع زوجته، وابنه إسماعيل في تلك الأرض

قائلاً:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا. (3))

وهذا يكشف عن ان مكة تحولت إلى مدينة عامرة في حياة الخليل

- [بحار الأنوار: ج ١٢، ص ١١٢ نقلاً عن قصص الأنبياء.

- 2 إبراهيم: ٣٥.

- 3 البقرة: ١٢٦.

- عليه السلام - ، بعد ان كانت صحراء قاحلة، وواد غير ذي زرع.

* * *

ولقد كان من المُستحسن استكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفية بناء الكعبة المعظمة، ونستعرض التاريخ الاجمالي لذلك، بيد أننا لكي لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب اعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز واشهر أجداد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في التاريخ.

-2- قُصَى بْنُ كِلَابٍ:

إن أسلاف الرسول العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - هم على التوالي: عَبْدُ اللَّهِ، عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هَاشِمٌ، عَبْدُ مَنَافٍ، قُصَى بْنُ كِلَابٍ، مُرَّةٌ، كَعْبٌ، لُؤَيٌّ، غَالِبٌ، فَهْرٌ، مَالِكٌ، النَّضْرُ، كِنَانَةُ، حُزَيْمَةُ، مَدْرِكَةُ، إِبْرَاهِيمُ، مُضَرٌّ، نَزَارٌ، مَعَدٌ، عَدْنَانٌ. (1)

من المسلم أن نسب النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عدنان هو ما ذُكر، فلا خلاف فيه، إنما وقع الخلاف في عدد، وهاسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل - عليه السلام - ، ولذلك لم يجز التجاوز عنه لحديث رواه ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ قال: «إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا» (2) «هذا مضافاً إلى أن النبي نفسه كان إذا عدَّ أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك، ونهى عن ذكر من بعده إلى إسماعيل، وقد روي عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: كَذِبَ النَّسَابُونَ.»

ولهذا فإننا نكتفي بذكر من أتفق عليه، ونعمد إلى الحديث عن حياة كل واحد منهم.

ولقد كان كل من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين، ومشهورين في تاريخ

- 1 التاريخ الكامل: ج ٢، ص ٢ - ٢١.
- 2 بحار الأنوار: ج ١٥، ص ١٠٥ عن مناقب ابن شهر آشوب، وكشف الغمّة: ج ١، ص ١٥.

(147)

العرب، بيد أن حياة طائفة منهم ترتبط بتاريخ الإسلام، ولهذا فاننا نقف عند حياة «قُصَى» ومن لحقه إلى والد النبي «عبدالله» ونعرض عن ذكر حياة غيرهم من أجداده وأسلافه - صلى الله عليه وآله وسلم - ممن لا علاقة له بهذه الدراسة. (1)

أما «قُصَى» وهو الجد الرابع لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأمة «فاطمة» التي تزوجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولدين هما: «زهره» و «قُصَى» إلا أن زوج فاطمة قد توفي، وهذا الاخير لم يزل في المهدي، فتزوجت بزوج آخر يدعى ربيعة، وسافرت معه إلى الشام، وبقي «قُصَى» يحظى برعاية أبوية من ربيعة حتى وقع خلاف بين قُصَى وقوم ربيعة، واشتد ذلك الخلاف حتى انتهى إلى طرده من قبيلتهم، مما أحرز ذلك أمه، واضطرت إلى إرجاعه إلى «مكة.»

وهكذا اتت به يد القدر إلى «مكة»، وسببت قابلياته الكامنة التي برزت في تلك المدينة في تفوقه على أهل مكة وبخاصة قريش.

وسرعان ما احتلّ قصي هذه المقامات العالية، وشغل المناصب الرفيعة، مثل حكومة «مكة» وزعامة قريش، وسدانة الكعبة المعظمة، وصار رئيس تلك الديار دون منازع.

ولقد ترك (قصي) من بعده آثاراً كثيرة وعديدة منها تشجيع الناس على بناء المساكن والبيوت حول الكعبة المعظمة، وتأسيس مكان للشورى ليجتمع فيه رؤساء القبائل العربية من أجل التداول في الأمور وحل المشاكل يدعى بدار الندوة.

وقد توفي «قصي» في القرن الخامس الميلادي وخلف من بعده ولدين هما:

«عبد الدار» و «عبد مناف.»

-3- عبد مناف:

وهو الجدّ الثالث لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واسمه «المغيرة» ولقبه

- [لقد بحث ابن الأثير في الكامل حول حياتهم فراجع: ج ٢، ص ١٥ - ٢١.]

(148)

«قمر البطحاء»، وكان أصغر من أخيه «عبد الدار» إلا أنه كان يحظى بمكانة خاصة عند الناس دون أخيه، وكان شعاره التقوى، ودعوة الناس إلى حسن السيرة وصلّة الرحم، بيد أنه مع ما كان له من المكانة القوية لم ينافس أخاه «عبد الدار» في المناصب العالية التي كان يشغلها.

فقد كانت الزعامة لآخيه عبد الدار حسب وصية أبيهما «قصي.»

ولكن بعد وفاة هذين الأخوين وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب، وانتهى ذلك بالصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامات، وتقرر ان يتولى أبناء عبد الدار سدانة الكعبة، وزعامة دار الندوة، ويتولى أبناء عبد مناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

وقد بقي هذا التقسيم المتفق عليه ساري المفعول إلى زمن ظهور الإسلام. (1)

-4- هاشم:

وهو الجدُّ الثاني لنبي الإسلام واسمه «عَمْرُو» ولقبه «العلاء» وهو الَّذي وُلِدَ مع «عبد شمس» توأمين، وأخواه الاخران هما:
«المطلب» و «نوفل» .»

هذا وثمة خلاف بين ارباب السير وكتاب التاريخ في أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين، وأن هاشماً ولد واصبغ واحدة من اصابع قدمه ملصقة بجبهة «عبد شمس» وقد نزلت بسيلان دم، فتشامم الناس لذلك (2) يقول الحلبي في سيرته: فكانوا يقولون: سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما اي بين بني العباس

- [لم تكن هناك مناصب للكعبة يوم أسست ورُفِعَ قواعدها بل حدث كل ذلك تدريجاً بحكم مقتضيات والتطورات، وكانت هذه المناصب التي استمرت إلى زمن ظهور الإسلام عبارة عن:

- 1- سدانة الكعبة.
 - 2- سقاية الحجيج.
 - 3- رفاتهم وضيافتهم.
 - 4- زعامة المكيين وقيادة جيشهم. ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغة دينية.
- 2تاريخ الطبري: ج ٢، ص ١٣.

(149)

(وهم من اولاد هاشم) وبين بني امية (وهم من اولاد عبد شمس). (1)

وكأن كاتب السيرة قد تجاهل الحوادث المحزنة والمؤسفة التي وقعت بين بني امية وابناء علي - عليه السلام - في حين أن تلك الحوادث الدامية التي تسببها بنو امية وأهرقت فيها دماء ذرية رسول الله وعترته الطاهرة، اقوى شاهد على تلك العداوة بين هاتين الطائفتين، ولكننا لا ندري لماذا تجاهل ذكرها مؤلف السيرة الحلبية ولم يشر اليها مطلقاً!

ثم ان من خصوصيات أبناء «عبد مناف» حسبما يُستفاد من الأدب الجاهلي، وما جاء فيه من أشعار، أنهم توفوا في مناطق مختلفة

فهاشم - مثلاً - توفي في «غزة» وعبد شمس مات في مكة، ونوفل في ارض العراق، والمطلب في ارض اليمن. (2)

وكان من سجايا هاشم و اخلاقه الفاضلة أنه كان كلما هلَّ هلال شهر ذي الحجة قام صبيحته، وأسند ظهره إلى الكعبة المشرفة، وخطب قائلاً:

«يا معشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهاً، وأعظمها احلاماً (اي عقولا) وأوسط العرب (أي أشرفها) أنساباً، واقرب العرب بالعرب أرحاماً.

يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى اكرمكمُ الله تعالى بولايته، وخصكم بجواره، دون بني إسماعيل، وانه يأتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من اكرم أضياف الله انتم، فاكرموا ضيفه وزواره، فانهم يأتون شعناً غيراً من كل بلد على ضوامر

كالقذاح، فآكرموا ضيفه وزوار بيته، فورب هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام، فمن شاء منكم ان يفعل مثل ذلك فعل، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً. (3)»

-
- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤.
 - 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٥.
 - 3 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦.
-

(150)

ولقد كانت زعامه «هاشم» وقيادته نافعة للمكئين من جميع النواحي، وكان لها تأثير كبير في تحسين أوضاعهم.

ولقد سبب كرمه وما قام به من إطعام واسع في سنوات الجذب القاسية في تخفيف شدة الوطأة عن أهل مكة، وبالتالي أدى إلى عدم احساسهم بالقطط، وأثار الجذب.

كما أن من خطواته البارزة واعماله النافعة جداً لتحسين الحالة التجارية للمكئين هو ما عقده مع أمير «غسان» من المعاهدة، الأمر الذي دفع بأخيه «عبد شمس» إلى أن يعاهد أمير الحبشة، وبأخويه الآخرين «المطلب» و «نوفل» إلى ان يعاهدا أمير اليمن وملك ايران تكون القوافل التجارية بموجب تلك المعاهدات للجانبين في أمان، من العدوان والتعرض.

وقد أزالته هذه المعاهدات الكثير من المشاكل، وكانت وراء ازدهار التجارة في «مكة المكرمة» حتى عهد بزوغ شمس الإسلام.

ثم ان من أعمال «هاشم» وخطواته النافعة تأسيسه لرحلتي قريش اللتين يتحدث عنهما القرآن الكريم إذ يقول: «رحلة الشتاء والصيف» وهما رحلة إلى الشام، وكانت في الصيف، ورحلة إلى اليمن، وكانت في الشتاء، وقد استمرت هذه السيرة حتى ما بعد ظهور الإسلام ايضاً.

أمية بن عبد شمس يحسد هاشماً:

ولقد حسد «أمية بن عبد شمس» ابن أخي هاشم عمه «هاشماً» على ما حظي به من المكانة والعظمة، والنفوذ إلى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب خدماته وإياديه، وما كان يقوم به من بذل وانفاق، وحاول جاهداً ان يقلده ويتشبه بهاشم في سلوكه ولكنه رغم كل ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به و يتخذ سيرته، وكما لم يستطع بايقاعه وطعنه به ان يقلل من شأنه بل زاده رفعة وعظمة.

لقد كان لهيب الحسد في قلب «أمية» يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، حتى

(151)

دفع به إلى ان يدعو عمّه «هاشماً» للذهاب إلى كاهن من كهنة العرب للمنافرة عنده فتكون الرئاسة والزعامة لمن يمدحه ذلك الكاهن، وكانت عظمة «هاشم» وسموّ مقامه تمنع من منافرة ابن اخيه (أمية) إلا أنه رضي بالمنافرة هذه تحت اصرار (أمية) بشرطين:

- [أن يعطي المغلوب خمسين من النياق سود الحدق تتحرر بمكة.

-2جلاء المغلوب عن مكة عشر سنين.

ومن حسن الحظ أن ذلك الكاهن نطق بمدح «هاشم» بمجرد أن وقعت عيناه عليه فقال: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر... لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر» إلى آخر كلامه. وهكذا قضى لهاشم بالغلبة فأخذ الابل فنحرها وأطعمها واضطر أمية إلى الجلاء عن مكة والعيش بالشام عشر سنين. (1)

وقد استمرت آثار هذا الحسد التاريخي إلى ١٣٠ عاماً بعد ظهور الإسلام، وتسببت في جرائم وفجائع كبرى عديمة النظير في التاريخ.

ثم ان القصة السابقة مضافاً إلى انها تبين مبدأ العداوة بين الأمويين والهاشميين تبين أيضاً علل نفوذ الأمويين في البيئة الشامية، ويتبين أن علاقات الأمويين العريقة بأهل هذه المنطقة هي التي مهّدت لقيام الحكومة الأموية في تلك الديار.

هاشم ينزّوج...

كانت «سلمى» بنت «عمرو الخزرجي» امرأة شريفة في قومها، قد فارقت زوجها بطلاق، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد، ولدى عودة «هاشم» من بعض أسفاره نزل في يثرب أياماً فخطبها إلى والدها، فرغبت سلمى فيه لشرفه في قريش، ولنبله وكرمها، ورضيت بالزواج منه بشرطين: أحدهما أن لا تلد ولدها

- [الكامل لابن الاثير: ج ٢، ص ١٠، والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٤.

(152)

إلا في اهلها، وحسب هذا الاتفاق بقيت «سلمى» مع زوجها «هاشم» في مكة بعض الوقت حتى إذا ظهر عليها آثار الحمل رجعت إلى: «يثرب» وهناك وضعت ولداً سموه «شيبه». وقد اشتهر في ما بعد بـ «عبدالمطلب.»

وكتب المؤرخون في علة تسميته بهذا الاسم بأن هاشماً لما أحسّ بقرب انصرام حياته قال لآخيه «المطلب»: يا أخي أدرك عبدك شيبه. ولذلك سُمِّي شيبه بن هاشم: «عبدالمطلب.»

وقيل أن أحد المكيين مرّ على غلمان يلعبون في زقاق من ازقة يثرب، وينتقلون بالسهام، ولما سبق أحدهم الآخرين في الرمي قال مقتخراً: «أنا ابنُ سيّد البطحاء» فسأله الرجل عن نسبه وابه فقال: أنا شيبه بن هاشم بن عبدمناف، فلما قدم الرجل مكة اخبر «المطلب» أخي «هاشم» بما سمعه وراه، فاشتاق «المطلب» إلى ابن أخيه فذهب إلى المدينة، ولما وقعت عيناه على ابن أخيه «شيبه» عرف شبه أخيه هاشم، وتوسّم فيه ملامحه، ففاضت عيناه بالدموع، وتبادلاً قُبُلات الشوق، والمحبة، وأراد أن يأخذه معه إلى «مكة» وكانت أمه تمنع من ذلك، ولكن ممانعتها كانت تزيد من عزم العمّ على أخذه إلى «مكة» واخيراً تحققت أمنية العم فقد استطاع «المطلب» أن يحصل على اذن أمه، فاردفه خلفه وتوجّه حذب «مكة» تدفعه رغبة طافحة إلى إيصاله إلى والده هاشم. وفعلت شمسُ الحجاز واشعتها الحارقة فعلتها في هذه الرحلة فقد غيّرت لون وجه شيبه وأبليت ثيابه، ولهذا ظنّ أهل «مكة» دخوله مع عمه «مكة» أنه غلام اقتناه «المطلب» فكان يقول بعضهم لبعض: هذا عبدالمطلب، وكان المطلب ينفى هذا الامر، ويقول: إنما هو ابن أخي هاشم وما هو بعبدي، ولكن ذلك الظن هو الآخر فعل فعلته، وعُرف «شيبه» بعبد المطلب. (1)

وربما يقال: أن سبب شهرته بهذا الاسم هو انه تربي وترعرع في حجر عمّه

- [الكامل لابن الاثير: ج ٢، ص ٦، وتاريخ الطبري: ج ٢، ص ٨ و ٩، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦.

«المطلب» وكانت العربُ تسمي من يترعرع في حجر أحد وينشأ تحت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتتميناً لرعايته

5- عبدُ المطلب:

عبدُ المطلب بن هاشم وهو الجدّ الأول للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان رئيس قريش وزعيمها المعروف، وكانت له مواقف بارزة، وأعمال عظيمة في حياته، وحيث أن ما وقع من الحوادث في ايام حكمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسة بعض تلك الحوادث والوقائع.

لا شك أن المرء مهما تمتع بنفسية قوية فإنه سيتأثر - في المآل - ببيئته وعاداتها، وتقاليدها، التي تصبغ فكره، بصبغة خاصة، وتطبع عقله بطابع معين.

بيد أن هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئية بمنتهى الشجاعة، ويصون نفسه من التلوث بشيء من أدائها وأقذارها.

وبطل حديثنا هنا هو احد النماذج الصادقة لاولئك الرجال العظماء لان في حياته صفحات مشرقة عظيمة، وسطوراً لا معة تنبئ عن نفسيته القوية، وشخصيته الشامخة.

فان الذي يعيش ثمانين عاماً في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنية، ومعاقرة الخمر، والربا، وقتل الأنفس البريئة، والفحشاء حتى ان هذه الامور كانت من العادات والتقاليد الشائعة، ولكنه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم، والطواف بالبيت المعظم عرباناً، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، واداء النذر بلغ الامر ما بلغ، لهو - حقاً - نموذج صادق من الرجال الذين بندر وجودهم، ويقل نظيرهم في المجتمعات.

أجل ان شخصية اودعت يد المشيئة الربانية بين حناياها نور النبي الاكرم اعظم قائد عالمي، يجب ان يكون إنساناً طاهر السلوك، نقي الجيب منزهاً عن أي نوع من أنواع الانحطاط، والفساد.

(154)

هذا ويستفاد من بعض قصصه وكلماته القصار أنه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر في تلك البيئة المظلمة، وكان يردد دائماً: «لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة... والله ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب فيها المسيء باسائه»⁽¹⁾ «اي ان الظلم شأنه في الدنيا أن تصيبه عقوبة، فاذا خرج ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة.

ولقد كان «حرب بن أمية» من أقربائه، وكان من اعيان قريش ووجوهها أيضاً، وكان يجاور يهودياً فاتفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع في بعض اسواق تهامة، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحة، وانتهى ذلك إلى مقتل اليهودي بتحريك من «حرب»، ولما علم «عبدالمطلب» بذلك قطع علاقته بحرب، وسعى في أستحصال دية اليهودي المقتول من «حرب» ودفعها إلى اولياء القتل، وهذه القصة تكشف عن حب عبدالمطلب للمستضعفين والمظلومين وحبه للحق والعدل.

حَفَرُ زَمْرَم:

منذ أن ظهرت عين زمزم نزلت عندها قبيلة جرهم التي كانت بيدها رئاسة مكة طوال سنين مديدة، وكانت تستفيد من مياه تلك العين، ولكن مع ازدهار أمر التجارة في «مكة»، واقبال الناس على الشهوات والمفاسد آل الأمر إلى جفاف تلك العين، ونضوب مائها بالمرّة. (2)

ويقال: أن قبيلة «جرهم» لما واجهت تهديداً من جانب قبيلة خزاعة

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤.
- لا ريب أنّ تفشي الذنوب والمعاصي بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث ولا يبعد أن تكون الأعمال المخزية من موجبات الجذب والقحط والمجاعات، وهذه الحقيقة مضافاً إلى انطباقها على القواعد الفلسفية ممّا صرح به القرآن الكريم والسنة الشريفة، راجع سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

(155)

واضطرت إلى مغادرة تلك الديار، وايقن زعيمها «مضامن بن عمرو» بأنه سرعان ما يفقد زعامته، ويؤول حكمه وسلطانه بفعل هجوم العدو، امر بان يلقى الغزالان الذهبيان، والسيوف الغالية الثمن التي كانت قد أهديت إلى الكعبة، في قعر بئر زمزم، ثم يملأ البئر بالتراب ويعفى اثره إعفاء كاملاً حتى لا يهتدي خصومه إلى مكانه ابداً، حتى إذا عادت إليه زعامته وعاد إلى مكة استخرج ذلك الكنز الدفين، واستفاد منه. ثم نشب القتال بين «جرهم» و «خزاعة» واضطرت «جرهم» وكثير من ابناء اسماعيل إلى مغادرة «مكة المكرمة»، والتوجه إلى ارض اليمن، ولم يرجع أحدٌ منهم إلى «مكة» ابداً.

ووقعت زعامه مكة منذ هذا التاريخ بيد «خزاعة» حتى بزغ نجم قريش في سماء مكة بوصول قصي بن كلاب (الجد الرابع لنبي الإسلام) إلى سدة الزعامه والرئاسة، ثم بعد مدة انتهى امر الزعامه إلى «عبدالمطلب» فعزم على أن يحفر بئر «زمزم» من جديد، ولكنه لم يعرف بموقع البئر معرفة كاملة حتى إذا عثر عليه بعد بحث طويل قرّر ان يهيء هو و ولده «حارث» مقدمات ذلك.

وحيث أنه «يوجد في المجتمع دائماً من يتحجج ويجادل - بسبب سلبينه - ليمنع من أي عمل ايجابي مفيد، انبرى منافسوا «عبدالمطلب» إلى الاعتراض على قراره هذا وبالتالي التفرد باعادة حفر بئر زمزم، لكيلا يذهب بفخر هذا العمل العظيم، وقالوا له: إنها بئر أبينا اسماعيل، وان لنا فيها حقاً فاشركنا معك» ولكن «عبدالمطلب» رفض هذا الطلب لبعض الاسباب، فقد كان «عبدالمطلب» يريد ان يتفرد بحفر زمزم، ويسبّل ماءها ليسقي منها جميع الحجيج دون مانع ولا منازع، ويحول بذلك دون المتاجرة به ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا إذا قام بحفر زمزم بوحده دون مشاركة من قريش.

وقد آل هذا الأمر إلى النزاع الشديد فتقرر أن يتحاكموا إلى كاهن من كهنة العرب وعقلائهم والقبول بما يقضي به، فتوجه «عبدالمطلب» ومناقسوه إلى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحلة بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق أصابهم جهدٌ وعطش شديدان، ولَمَّا تَيَقَّنُوا بالهلاك، وقرب الوفاة اخذوا

(156)

يفكرون في كيفية الدفن إذا هلكوا وماتوا، فاقترح «عبدالمطلب» ان يبادر كلُّ واحد إلى حفر حفرة حتى إذا أدركه الموت دفنه الآخرون فيها، فإذا استمر بهم العطش وهلكوا يكون الجميع (ماعدًا من بقي منهم على قيد الحياة) قد أقبروا، ولم تغد ابدانهم طعمة للوحوش والطيور فأيد الجميع هذا الاقتراح⁽¹⁾، واحتقر كل واحد منهم حفرة لنفسه، وجلسوا ينتظرون الموت بوجوه واجمة، وعيون ذابلة، وفجأة صاح عبدالمطلب: «والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضربُ في الأرض ونبغى لأنفسنا لعجزاً» وحثهم على البحث عن الماء في تلك الصحراء بصورة جماعية عسى ان يجدوا ما ينقذهم من الموت، فركب عبدالمطلب وركب مرافقه، واخذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدقين، ولم يمض شيء حتى ظهرت لهم عين ماء عذبة انقذتهم من الموت المحتم، وعادوا من حيث جاؤوا وهم يقولون لعبدالمطلب: «قد والله قضى لك علينا يا عبدالمطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً وتنازلوا له لينفرد بحفر زمزم ويكون إليه أمره دون منازع، ولا شريك.⁽²⁾»

فعمد «عبدالمطلب» وولده الوحيد الحارث إلى حفر البئر، ونشأ من ذلك تلٌّ هائلٌ من التراب حول البئر، وفجأة عثر «عبدالمطلب» على الغزالين المصاعين من الذهب، والسيوف المرصعة المهداة إلى الكعبة، فشبَّ نزاع آخر بين «قريش» وبين «عبدالمطلب» على هذه الأشياء، واعتبرت «قريش» نفسها شريكة في هذا الكنز، وتقرر ان يلجأوا إلى القرعة لحل هذا المشكلة، فخرجت القرعة باسم «عبدالمطلب»، وصار جميع ذلك الكنز إليه دون «قريش»، ولكن عبدالمطلب خصَّ بتلك الأشياء الكعبة فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلق الغزالين الذهبيين فيها.

- [ولعلَّ احجام الآخرين من الاداء بالاقتراح وهو اليأس المطلق من تحصيل الماء.
- 2تاريخ اليعقوبي: ج ١، ص ٢٠٦، والسيرة النبوية: ج ١، ص ١٤٢ - ١٤٧.

(157)

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر:

رغم ان العرب الجاهليين كانوا غارقين في الفساد الأخلاقي فانهم كانوا يتحلون ببعض الصفات الحسنة، والخصال المحببة.

وللمثال كان نقض العهود من أقيح الأفعال في نظرهم، فاذا عقدوا عهداً مع القبائل العربية أو تقوها بالإيمان، المغلظة المؤكدة، والتزموا بها إلى الأخرى، وربما نذروا النذور الثقيلة واجتهدوا في اداءها مهما كلف ذلك من مشقة وئمن.

ولقد أحسَّ «عبدالمطلب» عند حفر بئر زمزم بالضعف في قريش لقلّة اولاده، ولهذا نذر إذا رزقه الله تعالى عشرة بنين أن يقدم أحدهم قرباناً للكعبة ولم يُطِيع أحداً على نذره هذا.

ولم يمض زمان إلاّ وبلغ عدّدُ ابنائه عشرة، وبذلك حان أوان وفائه بنذره الذي نذر، وهو ان يذبح احدهم قرباناً للكعبة. ولا شك ان تصور مسألة كهذه فضلاً عن تنفيذها كان امراً في غاية الصعوبة على عبدالمطلب، ولكنه كان في نفس الوقت يخشى ان يعجز عن تحقيق هذا الامر فيكون من الناقضين للعهد، التاركين لاداء النذر، ومن هنا قرّر أن يشاور ابنائه في هذا الامر، وبعد ان يكسب رضاهم وموافقهم يختار احدهم للذبح بالقرعة. (1)

وتمت عملية القرعة، فاصابت «عبدالله» والد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاخذ عبدالمطلب بيد ابنه، وتوجّه من فوره إلى حيث يذبحه فيه.

ولما علمت قريش رجالها ونساؤها بقصة النذر المذكور وما آلت إليه عملية القرعة حزنَ الناس والشباب خاصة لذلك حزنا شديداً وبكوا وضجوا، وقال أحدهم لبيّتي ذبحت مكان هذا الشاب.

- [هذه القضية ذكرها كثير من المؤرخين وكتّاب السيرة، وهذه القصة إنما هي جديرة بالاهتمام من جهة أنها تجسّد مدى إيمان «عبدالمطلب» وقوة عزمه، وصلابة إرادته، وتبين جيّداً كم كان مصراً على الوفاء بعهوده والتزاماته.

(158)

فاقترحت قريشٌ على عبدالمطلب بان يفدي «عبدالله»، واطهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز ذلك، فتحير «عبدالمطلب» تجاه تلك المشاعر الساخنة، والاعتراضات القوية، وراح يفكر في عدم الوفاء بنذره، ويفكر في نفس الوقت في الحصول على مخلص معقول من هذه المشكلة، فقال له أحدهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً.

فوافق «عبدالمطلب» واكابر قريش على هذا الاقتراح، وتوجهوا بأجمعهم نحو «يثرب» قاصدين ذلك الكاهن، ولما قدموا عليه سألوه في ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً، ولما كان اليوم الثاني دخلوا عليه فقال لهم: كم دية المرء عنكم؟ قالوا: عشرٌ من الابل.

فقال: إرجعوا إلى بلادكم، وقربوا عشراً من الابل واضربوا عليها وعلى صاحبكم «أي عبدالله» القداح فان خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا عشراً، حتّى يرضى ربكم، وإن خرجت على الابل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء.

فهذا اقتراح الكاهن لهيب المشاعر الملتهبة لدى الناس، لأن نحر مئات الإبل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شاباً مثل «عبدالله» يتسحط في دمه.

ولهذا فانهم فور عودتهم إلى «مكة» بادروا إلى اجراء القرعة في مجمع كبير من الناس وزادوا عشراً عشراً حتى إذا بلغ عدد الإبل مائة خرجت القداح على الإبل، ونجا «عبدالله» من الذبح، فأحدث ذلك فرحة كبيرة لدى الناس، بيد أن «عبدالمطلب» طلب أن تُعاد عملية القرعة قائلاً: «لا والله حتى أضرب ثلاثاً»، وإنما أراد ذلك ليستيقن ان ربه قد رضي عنه، ولكن في كل مرة كانت القداح تخرج على الإبل المائة فنحرت الإبل ثم تركت لا يمنع عنها انسانٌ ولا سبع. (1)

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٥٣، وبحار الانوار: ج ١٦، ص ٧٤، وقد نُقلَ عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» يقصدُ بالأول جدّه إسماعيل - عليه السلام - والثاني أباه «عبدالله» الذي كاد أن ينحر ولكنه نجا من الذبح كما نجا جدّه إسماعيل - عليه السلام - .

(159)

حادثة عام الفيل:

عندما يحدثُ أمرٌ عظيمٌ في أمةٍ من الأمم وخاصة إذا كان ذا جذور دينية أو ذا مدلولات قومية أو سياسية فإنه سرعان ما يتحول - بفعل اعجاب الناس عامة به - إلى مبدأ للتاريخ.

فقيام النبي موسى يُعتبرُ مبدأً للتاريخ عند اليهود، ومولد السيد المسيح يُعتبرُ مبدأً للتاريخ عند النصارى، والهجرة النبوية الشريفة تُعتبرُ مبدأً للتاريخ عند المسلمين.

وهذا يعني أن كل أمة من الأمم تقيس حوادثها من حيث الزمان بذلك الحدث الذي تعتبره بداية تاريخها.

وأحياناً تتخذُ الأمم والشعوب بعض الحوادث مبدأً للتاريخ مع انها تملك مبدأً سياسياً للتاريخ، كما نلاحظ ذلك في بلاد الغرب وشعوبه، فقد اتخذت الثورة الفرنسية، وثورة اكتوبر الشيوعية مبدأً للتاريخ في فرنسا، والاتحاد السوفياتي، بحيث أصبح يقاس بهما كل ما وقع من الحوادث بعدهما.

ولكن الشعوب غير المتحضرة التي لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسية والدينية كان من الطبيعي أن تتخذ الحوادث الخارقة للعادة مبدأً لتاريخها بدلاً من الثورات والتحوّلات الاجتماعية، وهذا ما حدث عند العرب وقبل الإسلام.

فانهم - بسبب حرمانهم من حضارة صحيحة - اتخذوا من بعض الوقائع المفجعة والمرة - كالحرب والزلازل، والمجاعة والقحط أو الحوادث غير الطبيعية، الخارقة للعادة مبدأً لتاريخهم.

ولهذا نجد مبادئ متعددة للتاريخ عند العرب، آخرها: ضجة عام الفيل و هجوم «أبرهة» على «مكة» بهدف الكعبة المشرفة، التي صارت في ما بعد مبدأ للتاريخ تُوْرخ - بقية الحوادث والوقائع اللاحقة.

ونظراً لأهمية هذا الحدث التاريخي العظيم الذي وقع عام ٥٧٠م وأتفقت فيه

(160)

ولادة النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - فاننا نتناول هذه القصة بالعرض والتحليل:

ماهي عوامل هذه الحادثة؟

لقد ذكرت قصة أصحاب الفيل في القرآن بصورة مختصرة، وسوف ننقل - هنا - الآيات التي نزلت حول هذه القصة بعد حوادثها. يكتب المؤرخون عن علة هذه الحادثة ان ملك اليمن «نُبان أسعد» والد ذي نواس بعد ان أرسى قواعد حكمه مر في احدى رحلاته على يثرب (المدينة)، وقد كانت لـ «يثرب» في ذلك الوقت مكانةً دينيةً مرموقةً فقد قطنها جماعة من اليهود⁽¹⁾، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهيكل، فأكرم اليهودُ مقدم ملك اليمن، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا في ظل حكمه حماية أنفسهم من أذى المسيحيين الروميين، والمشركين العرب.

ولقد تركت دعوتهم وما رافقها من اساليب مؤثرة اثرها في نفس ذلك الامير واختار اليهودية، واجتهد في بثها ونشرها. ثم ملك من بعده ابنه «ذونواس» الذي جدّ في بث اليهودية والتحق به جماعة خوفاً.

بيد أن اهل نجران الذين كانوا قد دانوا بالمسيحية قبل ذلك امتنعوا من تغيير دينهم وترك المسيحية واعتناق اليهودية، وقاوموا «ذي نواس» مقاومة شديدة، فشق ذلك على ملك اليمن، واغضبه فتوجه احد قادته إلى نجران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها فعكس هذا الجيش على مشارف نجران، واحتقر قائدة خندقاً كبيراً، واوقد فيه ناراً عظيمة، وهدد المتمردين بالاحراق بالنار.

ولكن أهل نجران الذين احبوا المسيحية واعتنقوها برغبة كبيرة اظهروا شجاعة كبرى، واستقبلوا الموت حرقاً، وغدوا طعمة للنيران.

يقول المؤرخ الإسلامي «ابن الأثير الجزري» بعد ذكر هذه القصة: لما قتل

- [وفاء الوفا: ج ١، ص ١٥٧، والسيرة النبوية: ج ١، ص ٢١ و ٢٢.

«ذونواس» من قتل في الأخدود لاجل العود عن النصرانية أفلت منهم رجلٌ يقال له «دوس» فقدم على «قيصر» فاستنصره على «ذي نواس» وجنوده واخبره بما فعل بهم، فقال له قيصر: بعدت بلادك عنا، ولكن ساكتبُ إلى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم، فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره، فأرسل معه ملكُ الحبشة سبعين الفاً، وأمر عليهم رجلاً يقال له «أرباط» وفي جنوده «ابرهة الأشرم» فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن، وجمع «ذونواس» جنوده فاجتمعوا وكتب إلى زعماء قومه من أهل اليمن يدعوهم إلى الاجتماع لمقاتلة عدوهم، فلم يجيبوه، فانهارت حكومته أمام حملة جيش الحبشة، وسيطر الاحباش على أرض اليمن، وجعل «أبرهة» اميراً عليها من قبيل «النجاشي» بعد مقتل «أرباط» على يد «أبرهة» في صراع السلطة. (1)

وهذه القصة هي التي تعرف في القرآن الكريم بقصة «اصحاب الأخدود» وقد جاء ذكرها في سورة البروج إذ يقول الله تعالى: **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.** (2)

وقد ذكر المفسرون هذه القصة في شأن نزول هذه الآيات بصورة مختلفة. (3)

ثم ان «ابرهة» الذي أسكره الانتصار والغلبة على منافسه، وتمادى في الشهوات بنى في صنعاء كنيسة عظيمة تقرباً إلى ملك الحبشة، وارضاه له ثم كتب كتاباً إلى «النجاشي» ملك الحبشة يقول فيه: «إني قد بنيتُ لك ابها الملك كنيسة لم يُبْنِ مثلها لملك كان قبلك، ولست بمُنْتَهى حتى اصرف اليها حج العرب.»

- 1 الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٢٦٠ - ٢٦٣، والسيرة النبوية: ج ١، ص ٣١ - ٣٧.
- 2 البروج: ٤ - ٩.
- 3 راجع مجمع البيان: ج ٥، ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

وقد أدى معرفة العرب بما جاء في هذا الكتاب إلى ردة فعل شديدة لديهم، إلى درجة أن امرأة من قبيلة «بني اقم» تسللت ذات ليلة إلى تلك الكنيسة وحدثت فيها، فآثار هذا العمل الذي كان يدل على مدى ازدياد العرب بكنيسة «أبرهة» واحتقارهم لها، غضب «أبرهة»، هذا من جانب ومن جانب آخر كان «ابرهة» كلما زاد في تزيين تلك الكنيسة زاد ذلك من حقد العرب، وحقهم عليه، واحتقارهم لكنيسته، فتسبب كل ذلك في أن يحلف أبرهة على السير إلى الكعبة وهدمها، فسير لذلك جيشاً عظيماً، وقدم أمامه القبيلة المقاتلة، وخرج متوجهاً صوب مكة وهو يعتزم هدم الكعبة بيت الله الحرام!!

فلما عرف زعماء العرب بغايته، وادركوا خطورة ذلك العمل وابتقنوا بان استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط، لم يمنعم ما عهدوه من قوة «ابرهة» وانتصاراته بل خرج بعضهم إلى حربه فقاتلوه بكل شجاعة وبسالة مدفوعين بدافع الغيرة والحفاظ على الشرف المهْدَّ بالخطر.

فقد خرج «ذونفر» وهو من أشرف أهل اليمن وملوكهم، ودعا قومَه ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب «أبرهه» ولكن سرعان ما تغلب «ابرهه» عليه بجيشه الكبير، ثم خرج له بعد ذلك «نفيل بن حبيب» وبقي يقاتله مدة طويلة فهزمه «ابرهه» وأخذ له اسيراً، فطلب «نفيل» العفو منه فاشترط عليه أن يدلّه على طريق مكة ليعفو عنه، فدله نفيل حتّى الطائف، واكل الدلالة على بقية الطريق إلى شخص آخر يدعى «ابورغال» فدله أبورغال على الطريق حتّى أرض «المغمّس» وهي منطقة قريبة من «مكة» فنزل «أبرهه» وجيشه بالمغمّس، فارسل أبرهه رجلا من الحبشة - على عادته - إلى ضواحي «مكة» فاستولى على أموال قريش من الإبل والغنم فساق إليه في جملة ذلك مائتي بعير لعبد المطلب، ثم امر رجلا آخر يدعى «خناطه» ليدخل «مكة» ويبلغ أهلها عنه ما جاء من أجله، وهو هدم البيت المحرّم الكعبة المعظمة، وقال له: سل عن سيد اهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: ان الملك يقول لك: «إني لم أت لحربكم، انما جئتُ لهدم هذا البيت، فان تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجة لي في

(163)

دمائكم»، فان هو لم يرد حربي فاتني به.

فدخل «خناطه» مكة ولما سأل عن سيد قريش و شريفها، وقد كانت قبائل قريش المختلفة قد تجمعت في اطراف البلد جماعات جماعات تتذاكر في امر «ابرهه» وما يجب اتخاذه من موقف تجاهه.

فدلوه على بيت «عبدالمطلب»، ولما دخل على «عبدالمطلب» أبلغه مقالة «أبرهه» فقال له عبدالمطلب: «والله ما نُريدُ حربَه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام - ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وان يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه؟»

فسرّ «خناطه» رسول ابرهه بمنطق عبدالمطلب ومقالته التي كانت تحكي عن قوة ايمانه، وعن روحه المسالمة فطلب منه أن يصحبه إلى «أبرهه»، قائلا: فانطلق معي إليه فانه قد امرني أن آتيه بك.

عَبْدُالمَطْلَبِ يَذْهَبُ إِلَى مُعَسْكَرِ أْبْرَهَةَ:

فتوجه عبدالمطلب هو وجماعة من ولده إلى معسكر ابرهة، فاعجب «أبرهة» بوقار رئيس قريش وهيئته إعجاباً شديداً، وبهر به حتى أنه نزل له من تخته اجلالاً، واخذ بيده، واجلسه إلى جنبه، فسأله عن طريق مترجمه متأدباً: ما الذي أتى به وماذا يريد؟ فأجابه عبدالمطلب قائلاً: حاجتي أن يرده الملك على مائتي بغير أصابها لي.

فقال «أبرهة» لترجمانه: قل له: قد كنت اعجبتي حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بغير أصبئها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين أبائك قد جنثُ لهدمه، لا تكلمني فيه!؟

فقال له عبدالمطلب: إني أنارُبُ الإبل، وان للبيت رباً سيمنعه، فقال «أبرهة» مغتراً بنفسه: ما كان ليمنع مني.

ثم أمر بان ترد الإبل إلى أصحابها.

* * *

(164)

إنتظار قريش:

ولقد انتظرت قريش عودة «عبدالمطلب» من معسكر «أبرهة» بفارغ الصبر لتعرفت نتيجة ما دار بينه وبين أبرهة، وعندما عاد «عبدالمطلب» اخبرهم الخبر، وامرهم بالخروج معه من مكة، والتحرز في رؤوس الجبال من معرة الجيش فخرجوا إلى الشعاب، والجبال، ثم لما كان الليل نزل عبدالمطلب مع جماعة من قريش إلى الكعبة واخذ بحلقة بابها يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة و جنده وقال «عبدالمطلب» مناجياً الله سبحانه: **اللَّهُمَّ أَنْتَ أَنْيْسُ الْمَسْتَوْحِشِينَ وَلَا وَحْشَةَ مَعَكَ فَالْبَيْتِ، بَيْتِكَ وَالْحَرَمُ حَرَمُكَ وَالِدَارُ دَارُكَ وَنَحْنُ جِيرَانُكَ تَمْنَعُ عَنْهُ مَا تَشَاءُ وَرَبُّ الدَّارِ أَوْلَىٰ بِالدَّارِ** (ثم قال:

لاهم إن العبد يمنع رَحَد * له فامنع جلالك⁽²⁾

لا يغلبن صليبيهم * ومحالهم عدواً محالك⁽³⁾

وقال ايضاً:

يا رب لا أرجولهم سواكا * يا رب فامنع منهمو جماكا

إن عدو النبيت من عادكا * إمنعهم أن يخربوا فناكا

ثم انه ترك حلقة الباب، ولجأ إلى الجبل لينظروا ما سيجري.

وفي الصباح وعندما كان «أبرهة» وجنده يستعدون للتوجه إلى «مكة»، وإذا بأسراب من الطيور تظهر من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، حجر في منقاره، وحجرين في رجليه، فاطلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق رؤوس الجند، وتركت تلك الاحجار الصغيرة الحقيرة في ظاهرها اثرها العجيب فقد رجمت تلك الطيور جنود «ابرهة» بتلك الاحجار بامر الله، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلا تحطم رأسه، وتمزق لحم بدنه، وهوى صريعاً،

-
- 1 لاهم أصلها: اللهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفي بما بقي.
 - 2 الحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت.
 - 3 المحال: القوة والشدة.

(165)

وهلك من توه، فاصابت واحدة من تلك الاحجار راس «ابرهة» نفسه فارتعدت فرائصه وايقن بغضب الله وسخطه عليه، فنظر إلى جنوده وهم اشلاء ميثوثون هنا وهناك على الأرض كورق الشجر في فصل الخريف، فصاح بمن لم يزل على قيد الحياة من جنده بامرهم بأن يتهيأوا للعودة إلى اليمن، من حيث أتوا، فاخذ بقية الجند طريق اليمن هاربين، غير أن هذه البقية قد هلكت شيئاً فشيئاً في اثناء الطريق حتى أن ابرهة نفسه بعد أن لم يصل إلى صنعاء إلا بعد ان تفرق لحم بدنه، وسقطت اعضاؤه وجوارخه ومات بصورة عجيبة.

وقد دَوَّى صوتُ هذه الواقعة العجيبة والرهيبية في العالم آنذاك، وقد ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل إذ يقول تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.**)

وما ذكرناه هنا - في هذه الصفحات - ليس هو في الحقيقة إلا خلاصة ما ورد في كتب التاريخ الإسلامي، وصرح به القرآن الكريم. (1)

واستكمالاً لهذا البحث نعلم هنا إلى دراسة نظرية المفسر المصري الكبير الشيخ «محمد عبده» والعلامة المعروف الدكتور «هيكل» وزير الثقافة المصري السابق في هذا المجال.

كلمة حول المعجزة:

لقد أوجدَ التقدم العلمي الأخير في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والفضائية، وما استلزم ذلك من تهافت طائفة كثيرة من الفرضيات، ضجة عجيبة في الغرب، فمع أن جميع تلك التطورات كانت مجرد تطورات علمية تجري في مجال المسائل الطبيعية أو الفلكية،

ولم يكن لها اية صلة بالمعتقدات الدينية

(166)

فإنّ هذا التحول والتطور وتلك الكشوف أوجدت شكاً عجبياً لدى بعض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينية الموروثة على وجه الإطلاق!

والسرّ في ذلك هو أن العلماء رأوا بأن الفرضيات القديمة، التي بقيت تسيطر على الأوساط العلمية لمدة طويلة من الزمان، قد أصبحت اليوم عرضةً للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربة وبواسطة الاختبارات العلميّة، والتحقيقات المخبرية، فلم يُعد - بعد هذا - مجالاً للقول بفرضية الافلاك التسعة التي طُلِعَ بها «بطلميوس»، ولا بفرضية مركزية الارض، ولا غيرها من عشرات الفرضيات، فقالوا في أنفسهم: ومن أين ترى لا تكون بقية المعلومات والمعارف الدينية من هذا القبيل!؟

وقد تفاقم هذا النوع من الشك في قلوب جماعة من العلماء بالنسبة إلى جميع المعتقدات والمعارف الدينية ونمى بشكل قوئ في فترة قصيرة، وعمّ الأوساط العلمية كائى مرض!!

هذا مضافاً إلى أنّ محاكم التفتيش وتشدّد الكنيسة وأربابها كان لها النصيب الاكبر في ظهور هذه الحالة بل في نموّها، واطرادها، لأن الكنيسة كانت تقضي على العلماء الذين نجحوا في اكتشاف القوانين العلمية تحت التعذيب والاضطهاد القاسي بحجة أنها تخالف الكتاب المقدس، وتعارض مقرّرات الكنيسة!!

ومما لا يخفى أنّ مثل هذه الضُغُوط، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كان ليمرّ من دون حدوث ردة فعل، وقد كان من المتوقّع منذ البداية أن العلماء في الغرب لو اتاحت لهم الفرصة لانتقموا من الدين، بسبب سوء تصرف الكنيسة، وسوء معاملتهم لهم خاصة، وللناس عامة.

وقد حدث هذا فعلاً فكلّما تقدم العلمُ خطوةً، واطلّع العلماء على العلاقات السائدة بين الكائنات الطبيعية، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونية، والعلل الطبيعية لكثير من الحوادث والظواهر المادية، وكذا علل الامراض، قلّ اعتناؤهم بالقضايا الميتافيزيقية، وما يدور حول المبدأ والمعاد والافعال الخارقة للعادة

(167)

كمعاجز الانبياء، وازداد عدد المنكرين لها والشاكين فيها، والمترددين في قبولها يوماً بعد يوم!!

لقد تسبب الغرورُ العلمىُّ الذي أُصيب به العلماء في الغرب في ان ينظر بعض اولئك العلماء إلى جميع القضايا الدينية بعين الازدراء والتحقير، وأن يمتنعوا حتى عن التحدث في المعاجز التي يخبر بها التوراة والانجيل، ويعتبروا عصا موسى - عليه السلام - التي كانت تشفي المرضى وتحيي الموتى من الأساطير، وراحوا يتسائلون - في عجب واستنكار - : وهل يمكن أن تتحول قطعة من الخشب اليابس إلى افعى، أو ثعبان، أو هل يمكن ان تعود الحياة إلى ميتت بكلمات من الدعاء؟

لقد تصور العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلمية، انهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنات الطبيعية والظواهر الكونية، ومن هنا تصوّروا أنه لا توجد اية علاقة بين قطعة الخشب والثعبان، أو بين جملة من الدعاء والتفاته من بشر وعودة الروح إلى الموتى، ولهذا أخذوا ينظرون إلى هذه الامور بعين الشك والترديد، وربما بعين الانكار والرفض المطلق!!

وقد سرى هذا النوع من التفكير إلى اوساط بعض العلماء المصريين الذين تأثروا بهذا الاتجاه اكثر من غيرهم، مع بعض التعديل في ذلك الموقف، وشيء من الاختلاف في النظرة المذكورة، ولهذا اتبعوا تلك السيرة في تحليل الوقائع والحوادث التاريخية والعلمية من هذا النوع، والسير في تأثر بعض علماء مصر بهذه النظرة قبل واكثر من غيرهم هو احتكاك هذه الجماعة بالأفكار الواردة من الغرب قبل غيرهم، ومن هذه المنطقة سرت بعض النظريات والآراء الغربية إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصاً فصّدوا به الحفاظ على حرمة الكتاب العزيز، والاحاديث القطعية ومكانتها من جهة، وكسب نظر العلماء الماديين الطبيعيين إلى انفسهم من جهة أخرى، أو ارادوا ان لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلمية الطبيعية وتطبيقه عليها.

(168)

لقد وجد هؤلاء من جهة أن القرآن الكريم يخبر عن سلسلة من المعجزات والخوارق التي لا يمكن تفسيرها بالعلوم العادية المتعارفة، لأن العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقة بين العصا الخشبية اليابسة والثعبان، ومن جهة أخرى كان القبول بالنظريات التي لا يمكن إثباتها بالحس والتجربة أمراً في غاية الصعوبة لهم.

ولهذا السبب، وفي خضم الصراع بين هذين العاملين: العلم والعقيدة، اختار هؤلاء الكتاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهاية لهذا الصراع، والتنازع، فيحافظون على ظواهر القرآن والاحاديث من جانب، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر، ويتلخص هذا النهج في تفسير جميع المعاجز و جميع خوارق العادة التي جرت على ايدي الأنبياء بالموازين العلمية الحاضرة

الرائجة في هذا العصر بصورة تبدو وكأنها أمورٌ طبيعية، وبهذا يكونون قد حافظوا على مكانة القرآن الكريم والاحاديث القطعية المسلمة، ولم يتفوهوا بما يخالف العلم الحديث ويتعارض مع معانيه.

ونحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال: التفسير الذي ذكره العلامة المصري المعروف «محمد عبده» لقصة اصحاب الفيل وما جرى لهم:

فهو يقول عند تفسيره لسورة الفيل:

«فيجوز لك ان تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بارجل هذه الحيوانات، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه فآثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسم وتساقط لحمه، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعذ من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالميكروب - لا يخرج عنها.⁽¹⁾»

- [راجع تفسير في ظلال القرآن: ج ٣٠، ص ٢٥١.

(169)

وقال أحد الكتاب مؤيداً هذا الاتجاه بقوله: «إن الطير المستعمل في الكتاب العزيز يراد منه مطلق ما يطير، ويشمل الذباب والبعوض ايضاً.»

ولابد - قبل دراسة هذه الأقوال - أن نستعرض مرة أخرى الآيات النازلة في اصحاب «الفيل.»

يقول الله تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ لَكُمْ فِيهِمْ أَنْبِيَاءَ وَرُسُلًا يُرْسِلُونَا * وَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ فَجَعَلْنَاهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.** ()

إن ظاهر هذه الآيات يفيد أن جيش ابرهة أصيب بالغضب والسخط الالهي، وان هلكه وفناءه كان بهذه الأحجار التي حملتها تلك الطيور، والقث بها على رؤوس الجند وأبدانهم.

إن الإمعان في مفاد هذه الآيات يعطي أن موتهم كان بسبب هذه الاسلحة غير الطبيعية (الصغيرة الحقيرة في ظاهرها، القوية الهدامة بفعالها وأثرها).

وعلى هذا فإن أي تفسير يخالف ظاهر هذه الآيات لا يمكن الذهاب إليه وحمل الآيات عليه ما لم يقم على صحته دليل قطعي.

نقاط تقتضي التأمل في التفسير المذكور:

1- إنَّ التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أن يجعل كل تفاصيل هذه الحادثة أمراً طبيعياً، بل هناك جوانب في تلك الواقعة التاريخية العجيبة لا بد من تفسيرها بالعوامل والاسباب الغيبية، لأنه مع فرض أن هلاك الجند وتلاشي أجسادهم تم بواسطة ميكروب: «الحصبة» و «الجذري»، ولكن من الذي ارشد تلك الطيور إلى تلك الاحجار الصغيرة الملوثة بميكروب الحصبة والجذري، فتوجهت بصورة مجتمعة إلى تلك الاحجار الخاصة بدل التوجه إلى الحَبّ والطعام، ثم كيف بعد حمل تلك الأحجار بمناقيرها وأرجلها حلقت فوق معسكر «أبرهة» ورجمت جنده كما لو أنها جيشٌ منظمٌ موجهٌ؟؟

هل يمكن اعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً؟

(170)

ترى لو أننا فسّرنا طرفاً من هذه الحادثة العظيمة والعجيبة بالعوامل الغيبية، وبارادة الله النافذة فهل تبقى مع ذلك أية حاجة إلى أن نفسّر جانباً من هذه الحادثة بتفسير طبيعي مألوف، ونركض وراء التوجيهات الباردة، لنجعلها أمراً مقبولاً.

2- إنَّ الكائنات الدقيقة، أو ما يسمى الآن بـ «الميكروب» لا شك انها عدوة لمطلق الإنسان، وليس بصديقة لهذا أو ذاك، ومع ذلك كيف توجهت إلى جنود «ابرهة» وقتلتهم دون غيرهم، وكيف نسيت المكّين بالمرّة!؟

إنَّ التاريخ المدوّن يثبت لنا أن جميع الضحايا في هذه الواقعة العظيمة كانوا من جند «ابرهة» ولم يلحق فيها: أئى أذى - إطلاقاً - بقريش، وغيرهم من سُكان الجزيرة العربية، في حين أن الحصبة والجذريّ من الأمراض المعدية، التي تنقلها العوامل الطبيعية كالرياح وغيرها من منطقة إلى أخرى، ورُبّما تُهلك اهل قطر باجمعهم.

فهل مع هذا يمكن أن نعدّ هذه الحادثة حدثاً طبيعياً عادياً!؟

3- إنَّ اختلاف هذا الفريق في تحديد نوعية الميكروب، يضيف على هذا الادعاء مزيداً من الإبهام، ويجعله اقرب الى البطلان. فتارة يقولون: أنّه ميكروب الوباء وتارة أخرى يقولون: أنّه داء الحصبة والجذري، في حين اننا لم نجد مستنداً صحيحاً لهذا الخلاف، ومبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف، اللهم إلا ما احتمله «عكرمة» من بين المفسرين، وعكرمة هو نفسه موضع نقاش بين العلماء والآ لما ذهب «ابن الاثير». من بين المؤرخين وارباب السير إلى ذكر هذا الرأي في صورة الاحتمال الضعيف، والقيل، ثم عاد فردّ هذا

القول فوراً. (1)

والأعجب من الجميع ما أعطاه مؤلف كتاب «حياة محمّد» الدكتور هيكل وزير المعارف المصري السابق من تفسير، عند ذكر قصة الفيل.

- [الكامل: ج ١، ص ٢٦٣.

(171)

فهو بعد ذكر تلك القصة سرد آيات سورة الفيل، ومع أنه اتى بقول الله تعالى «وأرسل عليهم طيراً أبابيل» قال عن هلاك جنود أبرهة: «ولعلّ جرائم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدو أبرهة نفسه⁽¹⁾» فإذا كان الذي جاء بهذا الميكروب هو الريح، فلماذا حلقت طيورُ الأبابيل على رؤوس جيش أبرهة، والقَت بالأحجار الصغيرة على رؤوسهم ودون غيرهم، وأي أثر كان لهذه الاحجار في هلاك أولئك الجنود وموتهم؟

فالحق هو: أن لا يُتبع هذا النمط من التفكير، وأن لا نسعى لتفسير معجزات الأنبياء - الكبرى بمثل هذه التأويلات والتفسيرات، بل إن طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعية التي تتحدد دائرتها بمعرفة العلاقات العادية بين الظواهر الطبيعية، ولهذا يجب علينا أن لا نعمد - ارضاء لهوى جماعة ممن لا يمتلكون اية معلومات دينية، وليست لديهم أية معرفة بهذا النوع من القضايا - إلى التنازع عن أسسنا الدينية المسلّمة، في حين لا توجد أية حاجة مُلزمة إلى مثل ذلك التنازل والاعتذار!

نقطتان هامتان:

وهنا لا بد من أن نذكر بنقطتين هنا:

الأولى: يجب ان لا يظن أحدٌ - خطأ - أننا بما قلناه هنا نريد تصحيح كل ما تلوّكه ألسُنُ الناس، وتنسبه إلى الانبياء العظام، أو إلى عباد الله الكرام، من دون أن يكون له أي سند صحيح أو وجه معقول بل وربما اتّسم بطابع الخرافة في بعض الاحيان والموارد.

بل مقصودنا هو: أن نثبت - وطبقاً للمصادر الصحيحة والقطعية المتوفرة - ان الأنبياء كانوا يقومون - لا ثبات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعة - بأعمال خارقة للعادة، خارجة عن الناموس الطبيعيّ المألوف، تعجز العلوم الطبيعية الرائجة عن

- [حياة محمّد لمحمّد حسين هيكل: ص ١٠٢ و ١٠٣.

(172)

إدراك عللها، وأسبابها.

فهذهنا هو الدفاع عن هذه الطائفة من المعاجز.

الثانية: إننا لا نقول مطلقاً: أنّ وجود المعجزة هو تخصيص لقانون العلية العام، بل اننا في الوقت الذي نحترم فيه هذا القانون المسلم نعتقد بأن لجميع حوادث هذا العالم علا خاصة واسباباً معينة، وانه من المستحيل أن يوجد شيء بعد عدمه من دون علة، بيد أننا نقول ان لهذه الطائفة من الظواهر والوقائع (أي المعاجز) علا غير طبيعية، وان هذه العلال ميسرة ومتاحة لأنبياء الله ورسله والرجال الإلهيين خاصة، وليس في مقدور أحد - لم يستطع لا عن طريق الحس ولا عن طريق التجربة أن يكتشف هذه العلال - أن يتنكر لها، وينكرها، بل ان جميع الاعمال الخارقة التي يقوم بها أنبياء الله ناشئة عن علل لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية المألوفة، ولو أنها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجزة، ولم يصدق في حقها عنوان الاعجاز.

ولكي نقف على حقيقة هذا الامر، ونعرف مدى بطلان المذهب المذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادي والمألوف المحض) ينبغي أن نتبسط قليلاً في شرح مسألة الاعجاز ونبحث في مدى علاقتها بقانون العلية العام.

بحث علمي حول المعجزة في خمس نقاط:

إن الحديث العلمي عن المعجزة لا بد أن يتركز على عدة نقاط أساسية هي:

1- ماهي المعجزة وما هو تعريفها؟

2- هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

3- هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير عادية فقط؟

4- كيف تدل المعجزة على صدق ادعاء النبوة؟

5- كيف وبماذا نميز المعجزة عن الخوارق الأخرى؟

إن الإجابة على هذه الأسئلة كفيلة بتوضيح حقيقة المعجزة، وبيان مدى بطلان الاتجاه المذكور نعتي: تفسير المعاجز بالتفسير المادي الطبيعي.

على أننا - نظراً لضيق المجال - سنختصر الجواب على هذه الأسئلة، وعلى من أراد التوسع أن يرجع إلى كتب الكلام والعقيدة.

1- ماهي المعجزة وما هو تعريفها؟

لقد عرّف علماء العقيدة المعجزة بتعاريف مختلفة أتقنها وأكملها هو: أنّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقررٌ بالدعوى، والتحدّي، مع عدم المعارضة، ومطابقة الدعوى.⁽¹⁾

ويعني الشرط الأول (أي كون المعجزة أمراً خارقاً للعادة) أنّ كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية الحادثة مرتبطة بعلة حتماً، فلا يمكن صدورها من دون علة، وهذا الكون مشحون بالعلل التي يكتشفها البشر شيئاً فشيئاً وتدرجاً عبر وسائله العادية أو العلمية، ولكنّ المعجزة مع كونها ظاهرة واقعية ولهذا فهي كغيرها مرتبطة بعلة، بيد أنها تختلف عن غيرها من الظواهر في أنّ من غير الممكن كشف عللها من الطريق العادية أو بواسطة التجارب والتحقيقات العلمية، ولا يمكن تفسيرها وتبريرها بالعلل العادية أو بما يكتشفه العلم من العلل لمثل هذه الحوادث، والمقصود من خرق العادة هو أنّ تقع المعجزة على خلاف ما عهدناه وتعودنا عليه في الظواهر الأخرى وعللها، مثل إشفاء المرضى من دون علاج ودواء كما هو المعهود، وإخراج الماء من صخرة صماء من دون حفر أو تنقيب كما هو المألوف، وتحويل العصا إلى افعى من دون تبييض وتفريخ وتوالد وتناسل، بل بمسح من يد، أو بعبارة من لسان، أو بضرب من عصا!!

من هنا نكتشف أنّ كل ظاهرة يقف الناس العاديون بالطرق العادية أو العلماء خاصة بالطرق العلمية على عللها وأسبابها لا تكون معجزة لأنّه في هذه

- [راجع للوقوف على هذا التعريف: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلّي شرحاً والمحقق نصير الدين الطوسي متنأ: ص ٢١٨، وأيضاً شرح تجريد الاعتقاد للعلامة القوشجي: ص ٤٦٥.

(174)

الصورة لم يقع أي شيء على خلاف العادة، والمألوف ليدل على مزية في الانبياء.

فان مثل هذه الظاهرة التي يكون لها علةٌ عاديةٌ يعرفها جميعُ الناس، أو سببٌ علمي خاصٌ يعرفها علماء ومتخصصوا ذلك العلم يمكن أن يقوم بإيجاد أمثالها جميعُ الناس، فلا يكون حينئذ معجزة.

ولا يعني هذا - وكما اسلفنا - أنّ المعجزة لا تنتهي إلى اية علة، اصلاً، بل هي تستند إلى علة غير متعارفة وغير عادية، ولمزيد التوضيح سنبحث في هذا المجال عند الاجابة على السؤال الثالث.

ويُصَد من الشرط الثاني (أي كون الاعجاز مقروناً بالدعوى) أنّ يدعي صاحب المعجزة النبوة والسفارة من جانب الله تعالى، ويأتي بالمعجزة دليلاً على صحة دعواه هذه، إذ في غير هذه الصورة لا يكون الأمر الخارق للعادة معجزةً بل يُطلق عليه في

الاصطلاح الديني لفظ «الكرامة» كما كان لمريم بنت عمران التي كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً فاذا سألتها من أين لها ذلك؟

قالت: هو من عند الله. (1)

ويعني الشرط الثالث أن يكون الاعجاز مقروناً بدعوة الناس إلى الإتيان بمثله، وعجز الناس عن هذه المعارضة، وعدم قدرتهم على الإتيان بمثله مطلقاً إذ في هذه الصورة يتضح أن النبي يعتمد على قوة الهية غير متناهية، قوة خارجة عن حوزة البشر العادي.

واما الشرط الرابع فيعني أن الامر الخارق للعادة إنما يكون عملاً إجازياً، ويستحق وصف المعجزة الدالة على ارتباط الآتي بها بالمقام الإلهي، إذا وافق الامر الواقع ما يدعي أنه قادر على الأتيان به.

فلو قال: سأجعل هذا البئر الجاف الفارغ من الماء، يفيض بالماء بإشارة اعجازية، ثم يقع ما قاله كان هذا الأمر معجزة حقاً، وأما إذا قال: سأجعل هذا

- [راجع سورة آل عمران: ٣٧.

(175)

الماء القليل الموجود في البئر يفيض ماء، بالإعجاز، ولكن جفت ذلك البئر على عكس ما قال، لم يكن ذلك إعجازاً، بل كان تكذيباً لمدعيها.

هذا هو خلاصة ما يمكن أن يُقال حول تعريف المعجزة والاعجاز وهو يساعد على فهم طبيعة العمل الإعجازي.

2- هل الاعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

وبهذا يتضح جواب السؤال المطروح في هذا المجال وهو أن يقال: إن قانون العلية (أي: ارتباط كل معلول حادث بعلته) مما ارتكز عليه ذهن البشر وقبلة العلم والفلسفة، ولذلك فاننا نلاحظ: كلما وقف الإنسان على ظاهرة مهما كانت - بحثاً عن علتها فوراً فاذا رأى حية - مثلاً - عرف بان علتها الطبيعية هي أن تبيض حية، ثم خروج حية من البيض بعد سلسلة من التفاعلات فكيف يمكن القبول بالمعجز مع أنها لا تنشأ عن مثل هذه العلل ولا تمرُّ بمثل هذه المقدمات والمراحل والتفاعلات الطبيعية، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب.

أليس هذا هدمٌ، أو تخصيصٌ لذلك القانون العقلي المسلم العام؟

فان الجواب على هذا السؤال هو ان مثل هذا السؤال لا يطرحه إلا الَّذِينَ يَحْصِرُونَ العِللَ والعلاقات بين الاشياء في العِللَ والعلاقات المادية الطبيعية.

ولكن الحق هو أنَّ أَيْةَ ظاهرة مادية يمكن أن يكون لها نوعان من العِللَ:

1- العلةُ العاديةُ التي تخضع للتجربة.

2- العلةُ غير العاديةُ التي لا يعرفها الناس ولم تكن متعارفة ولا تخضع للتجربة العلمية.

وهذا يعني أنه لا توجد أية ظاهرة في هذا العالم بدون علة.

وتوضيحُ هذا أن اصل وجود الحية ونبوع الماء من الصخرة وتكلم الطفل - مثلاً - أمرٌ ممكنٌ، ولا يُعدُّ من المحالات، لأنها لو كانت من المحالات لما تحققت وجودها أبداً.

(176)

نعم أنها بحاجة إلى علة لكي تتحقق، والعلة - سواء في المعجز أو غيرها - يمكن أن تكون إحدى الامور التالية:

أ - العلة الطبيعية العادية وهي ما الفناها وأعتدنا عليها مثل ظهور شجرة من نواة بعد سلسلة من التفاعلات.

ب - العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة وهذا يعني أنه قد يكون لظاهرة معينة نوعان من العِللَ، وطريقان للتحقق والوجود أحدهما معروف ومعلوم، والآخر مجهول غير معلوم، والانبيااء بحكم اتصالهم بالعلم والقدرة الالهية، يمكن أن يقفوا على هذا النوع من العِللَ - عن طريق الوحي - ويوجدوا الظاهرة.

ج - تأثير النفوس والارواح:

فإنَّ بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئة من تأثير أرواح الأنبياء ونفوسهم القوية، كما نلاحظ ذلك في مجال المرتاضين الهنود الذين يبلغون درجة يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفراد العاديون، وذلك بفضل الرياضات النفسية التي يخضعون لها. وهو ما يسمى باليوجا أحياناً، وقد كتبت حوله كتب ودراسات.⁽¹⁾

وقد أشار إلى هذا جملة من علماء الإسلام وفلاسفته منهم الفيلسوف الإسلامي الشهير صدر الدين الشيرازي حيث يقول:

«لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوةً الهيئة تكون بقوتها كأنها نفسُ العالم فيطبعها العنصرُ طاعةً بدنها لها، فكأما ازدادت النفسُ - تجرداً وتشبهاً بالمبادئ القصوى ازدادت قوةً وتأثيراً في ما دونها.

وإذا صار مجردُ التصوّر والتوهم سبباً لحدوث هذه التغيّرات في هيولىّ البدن لأجل علاقة طبيعِيّة، وتعلّق جبليّ لها إليه، لكان ينبغي أن تؤثر في بدن الغير وفي هيولىّ العالم مثل هذا التأثير، لأجل مزيد قوة شوقية، واهتزاز علويّ للنفس

- [راجع كتاب الطاقة الإنسانية لأحمد حسين.

(177)

ومحبة الهية لها، فيؤثر نفسه في إصلاحها، وإهلاك ما يضرّها ويفسدها. (1)»

د - العللُ المجردة عن المادة:

فيمكن ان تكون للظواهر عللٌ مجردة عن المادة كالملائكة، بان تقوم الملائكة بأمر من الله سبحانه بتدمير قرية، أو تقوم بمعجزة بعد طلب النبيّ منها ذلك.

والملائكة مظاهرُ القدرة الالهية في الكون، وهي التي تدبّر أمور الكون بأمر الله تعالى كما يقول القرآن الكريم: **فَالْمُدَبِّرَاتِ**

أَمْرًا (2) (وهي بالتالي جنودالله في السماوات والأرض) **وَاللَّهُ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ**. (3)

فلا بد من ارجاع الظواهر الطبيعية الواقعة إلى أحد هذه العوامل الاربعة، ولا يمكن أبداً حصر العلة في العلة الطبيعية العادية المعروفة كما تصور منكروا الاعجاز، بل يمكن أن تكون كلُّ واحدة من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهرة الطبيعية، فاذا لم نشاهد علة ظاهرة من الظواهر لم يجز لنا أن نُبادر - فوراً - إلى تصوّر أنها ناشئة من غير علة.

ويجب ارجاع معاجز الأنبياء إلى إحدى الطرق الاخيرة، والقول بأن الانبياء استخدموا - في ايقاع الخوارق والمعاجز - إما العلل المادية غير المعروفة للعُرف، والعلم، وأما نفوسهم القوية التي حصلت لهم بفعل الجهاد الرُوحِيّ العظيم والرياضات النفسية الشديدة فهي علة تلك الأفعال الخارقة للعادة.

كما ويمكن ان تكون جميع تلك الافعال العجيبة ناشئة عن جملة من العلل والعوامل الغيبية المدبّرة للكون بامر الله ومشِيئة.

إنّ فلا تتحقق المعجزة بدون علة كما يُتصوّر، ولا يهدم الاعجاز القوانين العقلية المسلمة.

- [راجع المبدأ والمعاد: ص ٣٥٥ و ٣٥٦ لصدر المتألهين المشهور بصدر الدين الشيرازي، وشرح المنظومة للحكيم السبزواري: ص ٣٢٧ قال السبزواري ناظماً:

يطيعه العنصرُ طاعة الجسد * للنفس فالكلُّ كجسمه يُعدّ

3- هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟

قد يتصور البعض أن المعاجز تصدر عن علل مجردة عن المادة فقط نافين أن تكون لها إية علل مادية معروفة أو غير معروفة، في حين لا يصح هذا السلب الكلي، إذ ما أكثر الخوارق التي تنشأ عن أمور عادية وعبر سلسلة من التفاعلات الطبيعية.

فعندما يرقُد مرتاض هندي ليمرّ عليه تراكتور من دون أن تحدث في جسمه اية جراحات أو إصابات فإن هناك أموراً مادية كثيرة دخلت في هذا الامر الخارق مثل: وقوع هذا الحدث في اطار الزمان الخاص، والمكان الخاص، ومثل جسم المرتاض، وما كنة الحرائة.

فان جميع هذه الاشياء المادية اثرت في ظهور هذا العمل الخارق.

وهكذا عندما تنقلب عصا الكليم - عليه السلام - إلى حية على نحو الاعجاز فان العصا شيء مادي وهكذا الحال في غيره من الموارد

ولهذا لا يمكن ان نتجاهل تأثير العوامل والامور المادية في ظهور الأمور غير العادية، وننكر دخلتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هي اكثر النظريات اعتدالا في هذا المجال.

وفي مقابل ذلك التفريط⁽¹⁾ أفرط آخرون إذ قالوا: ان جميع المعاجز والخوارق ناشئة من علل مادية غير معروفة.

وحتى ما يقوم به المرتاضون يعود إلى هذه العوامل الطبيعية التي لا يعرفها ولا يقف عليها حتى النوابع من الناس فضلا عن العاديين، لأن العوامل الطبيعية على نوعين: المعروفة وغير المعروفة، والناس يستفيدون في حياتهم اليومية - في الأغلب - من القسم الاول، بينما يستخدم الانبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعية غير المعروفة التي وقفوا عليها وادركوها دون غيرهم.

- [1] أي حصر علل الخوارق والمعاجز في العوامل المجردة ونفي تأثير العلل المادية على نحو الاطلاق.

والسبب في وصفنا هذه النظرية بالافراط والتطرف هو عدم وجود دليل لا ثباته، بل يمكن ان يقال ان مثل هذا الموقف ناشيء عن الانهزامية تجاه العالم المادي، أو انه لارضاء الماديين، والنافين لما يدخل في اطار العالم المادي فان الماديين يرفضون أي عالم

آخر غير الطبيعية وآثارها وعلاقتها وخواصها، وحيث أن ارجاع المعجزات إلى العلل المجردة عن المادة يخالف منطق الماديين، ويضاد اتجاههم وتصورهم لهذا عمد أصحاب هذه النظرية (نظرية ارجاع المعاجز والخورق إلى علل طبيعية غير معروفة وغير عادية) إلى مثل هذا التفسير إقناعاً للماديين، وارضاء لهم فقالوا: ان جميع الخوارق والمعاجز ناشئة من علل طبيعية ومادية على الإطلاق، غاية ما في الأمر أنها علل غير معروفة، شأنها شأن كثير من العوامل الطبيعية المجهولة.

ونحن بدورنا نترك هذه النظرية في دائرة الاجمال وبقعة الإمكان، لعدم الدليل لا على طبقها ولا على خلافها.

4- كيف تدلّ المعجزة على صحة ادعاء النبوة؟

إن صفحات التاريخ مليئة بذكر من ادّعوا النبوة خداعاً وكذباً، واستتماراً للناس، مستغلّين سذاجة الاغلبية الساحقة من جانب، وانجذابهم الفطري إلى قضايا التوحيد والايمن من جانب آخر.

فكيف وبماذا يُميّز النبيّ الصادق عن مدّعي النبوة؟؟

إن المعجزة هي إحدى الطرق التي تدل على صحة ادعاء النبوة.

وإنما تدلّ المعجزة على صدق ادعاء النبوة، وارتباط النبيّ بالمقام الربوبي لأن الله الحكيم لا يمكن أن يزوّد الكاذب في دعوى النبوة بالمعجزة، لأن في تزويد الكاذب تغريماً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الأتي بها بالمقام الربوبي.

وإلى هذا أشار الامام جعفر الصادق - عليه السلام - بقوله في جواب من سأله عن علة اعطاء الله المعجزة لانبيائه ورسله:

(180)

«لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَتَى بِهِ، وَالْمَعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءَهُ وَرَسُولُهُ، وَحُجَّتُهُ، لِيَعْرِفَ بِهِ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ.»⁽¹⁾

5- بماذا نميز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟

لا شكّ في أنّ السحرة والمرتاظين يقومون بأفعال خارقة للعادة مثيرة للعجب والدهشة حتّى ان البسطاء ربما يذهب بهم الاندهاش إلى حدّ الاعتقاد بأن القائمين بهذه الخوارق مزوّدون بقوى غامضة غيبية لا يتوصل إليها البشر.

فكيف يمكن انن أن نُميّز بين المعاجز وتلك الخوارق والعجائب؟

إن التمييز بين هذه وتلك يمكن أن يتم إذا لاحظنا العلامات الفارقة بين المعجزة وغير المعجزة من الاعمال الخارقة للعادة، كاعمال السحرة والمرتاظين (اصحاب اليوجا) ونظائرهم.

وهذه الفوارق هي عبارة عن الامور التالية:

1- إن القوة الغامضة الحاصلة لدى المرتاضين والسحرة ناشئة بصورة مباشرة من التعلم والتحصيل عند اساتذة تلك العلوم، وذلك طيلة سنين عديدة من الزمان.

بينما لا يرتبط الاعجاز بالتعلم والتلمذ أبداً، والتاريخ خير شاهد على هذا الكلام.

2- إن أفعال السحرة والمرتاضين العجيبة قابلة للمعارضة والمقابلة بأمثالها، وربما بما هو اقوى منها، على عكس الإعجاز، فالمعجزات غير قابلة لأن تعارض وتقابل بمثلها ابداً.

3- المرتاضون والسحرة لا يتحدون أحداً بأفعالهم ولا يطلبون معارضة أحد لهم وإلا لاقتضوا وكتبوا.

بينما يتحدى الانبياء والرسل بمعجزهم جميع الناس ويدعونهم لمعارضتهم

- 1 علل الشرائع: ج ١، ص ١٢٢.

(181)

والايتان يمثل معجزهم لوقدروا، واستطاعوا.

فهذا هو القرآن الكريم ينادي بأعلى صوته على مر العصور: **قُلْ لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بغضهم لبعض ظهيراً.** (1)

وذلك لأن أفعال السحرة الخارقة مما كانت فانها تستند إلى الطاقة البشرية المحدودة، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الانبياء والرسل العنصر الغيبي، والإرادة الألهية.

4- إن أفعال السحرة والمرتاضين الخارقة للعادة أمور محدودة ومقتصرة على ما تعلموها وتمرنوا عليها، بينما لا تكون معجز الانبياء والرسل مقتصرة على أمور خاصة، فهم لا يعجزون عن الايتان بكل ما يطلبه الناس منهم، طبعاً حسب شرائط خاصة مذكورة في محلها في أبحاث الاعجاز. (2)

فتلك معجز موسى المتعددة الابتدائية، والمقترحة، ومعجز المسيح - عليه السلام - المتنوعة خير مثال على هذا الأمر.

5- إن اصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائماً دعوة الناس إلى أهداف إنسانية عالية وغايات الهيبة سامية وبالتالي هداية المجتمع البشري إلى المبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضلة فيما لا يهدف المرتاضون والسحرة إلا تحقيق مآرب دنيوية حقيرة، ونيل مكاسب مادية رخيصة.

هذا مضافاً إلى أن الأنبياء والرسل أنفسهم يختلفون عن السحرة والمرتاضين

- [الاسراء: ٨٨].

2- مثل أن لا يكون ما يطلبه الناس محالاً عقلياً كرؤية الله، ومثل أن لا يكون ما سيأتي لهم به دليلاً على ارتباطه بالمقام الربوبي، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنة من نخيل وأعناب وبيت من ذهب، لأن هذه الأمور لا تكون دليلاً على النبوة إذ نلاحظ أن كثيراً من الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء. وأن لا يكون المقترحون من ذوي اللجاج والعناد الذين لا يقصدون من طلب المعاجز إلا الهزل والاستهزاء والتنزه. وأن لا تكون نتيجة المعجزة هلاكهم كما لو طلبوا أن ينزل عليهم ناراً من السماء تحرقهم لأن في ذلك نقضاً للغرض.

(182)

في نفسيتهم العالية، وأخلاقهم الفاضلة وتاريخهم المشرق، وصفاتهم النبيلة على العكس من السحرة والمرتاضين.

هذه هي أهمُّ العلامات الفارقة بين المعاجز التي تدل على نبوة الانبياء والخرارق التي يقوم بها المرتاضون والسحرة.

وبعد أن تبين كل هذا اتضح أن الخوارق الالهية التي هي من مقولة المعاجز أيضاً تختلف عن الأمور العادية في أن عللها لا تنحصر في العلل المادية غير المعروفة فضلاً عن الأمور المادية المعروفة، بل ربما تكون مستندة إلى العلل المجردة، فليس من الصحيح ان نسعى لتفسير الخوارق الالهية مثل: «قصة الفيل» التي أهلك الله تعالى فيها جيش «أبرهة» العظيم بأحجار صغيرة من سجل رمتها طيور الأبايل بالعلل المادية المعروفة كما فعل من اشرنا إلى أسمائهم في مطلع هذا البحث. (1)

ولهذا عدل «سيد قطب» عن رؤية الذي كان قد أبداه في ما سبق في أمثال هذه الأمور، إذ قال:

ان الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره أن ينفُض الإنسان من ذهنه كل تصور سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقررات تصوّرية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفى شيئاً يثبت به القرآن ولا يؤوله، ولا يثبت شيئاً ينفى به القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته.

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن... وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة

في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود. (2)

- [أي الاستاذ الشيخ محمد عبده والاستاذ محمد حسين هيكل.
- 2وهنا قال سيد قطب في هامش هذا الكلام مانصه «وما أبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلفاتي وفي الأجزاء الأولى من هذا الضلال قد انسقت إلى شيء من هذا وارجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله.»

(183)

فاما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها فهم مضحكون حقاً! فالعلم لا يعلم اسرار الموجودات الظاهرة بين يديه والتي يستخدمها في تجاربه، وهذا لا ينفي وجودها طبعاً! فضلا عن العلماء الحقيقيين اخذت جماعة كبيرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون، لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريق العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين ايديهم مما كانوا يحسبون انهم فرغوا من الاحاطة بعلمه فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليس فيه سمة الادعاء، ولا طابع التناول على المجهول كما يتناول مدعو العلم، ومدعو التفكير العلمي، ممن يُنكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول.⁽¹⁾

ثم يقول في موضع آخر من تفسيره ناقداً لموقف الاستاذ عبده من قصة الفيل التي هي احدى الخوارق حيث حفظ الله تعالى بيته المعظم على نحو خارق للعادة:

ويرى الذين يميلون إلى تضيق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة اقرب و اولى، وان الطير تكون هي: الذباب والبعوض تحمل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير.

ثم ينقل كلام الاستاذ «عبده» الذي ذكرناه بنصه مع قوله: هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل ان صحت روايته، ومما تعظم به القدرة ان يُؤخذ من استعز بالفيل - وهو اضخم حيوان من ذوات الاربع جسماً - ويُهلك بحيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا اكبر و اعجب وأبهر.

- [في ضلال القرآن: ج ٢٩، ص ١٥١ - ١٥٣.

(184)

ثم يقول: ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الامام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أدل على قدرة، ولا اولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة على قدرة الله، وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت، فأهلكت قوماً أراد الله اهلاكهم، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، و غير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره ذاك.

ثم يقول: لقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت (1) أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمناً وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة في ارض حرة طليقة لا يهيمن عليها أحدٌ من خارجها ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الانظار في جميع الأجيال، ليضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها.

فمما يتناسق مع جو هذه الملابس كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود بكل مقوماته وبكل اجزائه، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملايساته مفردٌ فذٌ.

وبخاصة ان المألوف في الجدري والحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده فإن الجدري أو الحصبة لا يُسقطُ الجسم عُضواً عُضواً، وأنملة أنملة، ولا يشق الصدر عن القلب!!

ثم ان «سيد قطب» يشير إلى علل تفسير هذه الحادثة الخارقة للعادة بالتفسير المادي العادي الطبيعي، والمدرسة العقلية التي كان الاستاذ «عبد» على رأسها، وضغط الفتنة بالعلم التي تركت آثارها في تلك المدرسة، ونحن نكتفي بهذا القدر بالمناسبة، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيه مثل هذا الاتجاه على مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراته عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية

- 1 أئ الكعبة المشرفة.

(185)

والغيبية. (1)

هذا و يجدر بنا ان ننقل هنا ما قاله صاحب تفسير مجمع البيان في هذا الصدد في شأن حادثة الفيل استكمالاً لهذا البحث وتأكيداً لمعجزة هذا الحدث.

قال صاحب المجمع: وكان هذا من اعظم المعجزات القاهرة، والآيات الباهرات في ذلك الزمان، اظهره الله تعالى ليدل على وجوب معرفته، وفيه ارهاص لنبوة نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه ولد في ذلك العام، وفيه حجة لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحدين المنكرين للآيات الخارقة للعادات فانه لا يمكن نسبة شيء مما ذكره الله تعالى من أمر اصحاب الفيل إلى طبع وغيره كما نسبوا الصيحة والريح العقيم والخسف وغيرهما مما أهلك الله تعالى به الامم الخالية، إذ لا يمكنهم أن يروا في اسرار الطبيعة ارسال جماعات من الطير معها احجارٌ معدة مهية لهلاك أقوام معينين قاصدات إيأهم دون من سواهم فترميهم بها حتى تهلكهم، وتدمر عليهم، لا يتعدى ذلك إلى غيرهم ولا يشك من له مسكة عن عقل ولب ان هذا لا يكون الا من فعل الله تعالى مسبب

الاسباب ومذلل الصعاب، وليس لأحد أن ينكر هذا لأن نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك بل اقرؤا به وصدقوه مع شدة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالرّد عليه وكانوا قريبي عهد بأصحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقة وأصل لأنكروه، وجدوه، وأنهم قد أرخوا بذلك كما أرخوا ببناء الكعبة، وموت قصي بن كعب وغير ذلك.

وقد اكثر الشعراء ذكر الفيل ونظموه ونقلته الرواة عنهم فمن ذلك ما قاله (أمية) بن ابي الصلت:

إن آيات ربنا بينات * ما يُماري فيهنّ إلا الكفورُ

حبس الفيل بالمغمس حتى * ظلّ يجبو كأنه معفورُ

- [في ظلال القرآن: ج ٣٠، ص ٢٥١ - ٢٥٥.

(186)

وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم:

أنت الجليل ربنا لم تُدّيس * أنت حبست الفيل بالمغمس

من بعد ما همّ بشيء مبلّس * حبستّه في هيئة المكرس⁽¹⁾

وقال ابن قيس الرقيات في قصيدة:

وَاسْتَهَلَّتْ عَلَيْهِمُ الطَّيْرُ بَا * لجنْدِلَ حَتَّى كَانَتْهُ مَرْجُومُ⁽²⁾

ماذا بعد هزيمة الأحباش؟

لقد استوجب مقتل أبرهة وتحطم جيشه وهلاكهم، وبالتالي هزيمة أعداء الكعبة المشرفة، وأعداء قريش، أن يتعاضم شأن المكّيين، وشأن الكعبة الشريفة في نظر العرب، فلا يجرأ أحدٌ - بعد ذلك - في أن يحدث نفسه بغزو مكة، والإغارة على قريش، أو أن يفكر في التناول على الكعبة المعظمة صرح التوحيد الشامخ، فقد اخذ الناس يقولون في انفسهم: إن الله أهلك أعداء بيته المعظم بمثل ذلك الإهلاك إحتراماً لبيته وتعظيماً لشأن قريش، ولما كان يتصور أحد أن ما وقع كان لاجل المحافظة على الكعبة فقط، أي من دون أن يكون لمكانة قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل في ذلك، ويشهد بذلك أن قريشاً تعرضت مراراً لحملات متكررة من غزاة ذلك العصر دون أن يُصابوا بمثل ما أصيب به جنْدُ «أبرهة» الذي قصد الكعبة بالذات ويواجهوا ما واجهه، من الردع والكتب.

إنَّ هذا الفتح والظفر الذي نالته قريش من دون تعب ونصب، ومن دون إراقة أية دماء من أبنائها، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وحميتهم، وعنجهيتهم، واعتزازهم بعنصرهم، فأخذوا يفكرون في تحديد شؤون الآخرين، والتقليل من وزنهم، اعتقاداً منهم بانهم الطبقة الممتازة من العرب دون سواهم. كما أنها دفعتهم إلى أن يتصوّروا أنهم وحدهم موضع عناية الأصنام (الثلاثمائة والستين) فهم وحدهم الذين تحبُّهم

- 1 المنكس.
- 2 تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج ١٠، ص ٥٤٣ في تفسير سورة الفيل.

(187)

تلك الاصنام، وتحميمهم وتدافع عنهم!!

ولأجل هذا تمادوا في لهوهم، ولعبهم، وتوسعوا في ممارسة اللذة والترف حتى أنهم أظهروا ولعاً شديداً بالخمير، فكانوا يحتسونها في كل مناسبة، وربما مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، واقاموا مجالس سمرهم وأنسهم إلى جانب أصنامهم الخشبية، والحجرية، التي كان لكل قبيلة من العرب بينها صنمٌ أو أكثر، ويقضون فيها أسعدَ لحظات حياتهم - حسب تصوّرهم، و هم يتناقلون فيها كل ما سمعوه من أخبار وقصص حول «مناذرة» الحيرة و «غساسنة» الشام وقبائل اليمن، وهم يتصوّرون أن هذه الحياة الحلوة اللذيذة هي من بركة تلك الاصنام والاثان، فهي التي جعلت عامة العرب تخضع لقريش، وجعلت قريشاً أفضل من جميع العرب!!

أوهام قريش تتفاقم!!

إنَّ أخطرَ ما يمرُّ به إنسانٌ في حياته هو أن يصفو عيشه من المشاكل، رداً من الزمن ويحس لنفسه بنوع من الحصانة الوهمية، فعندها تجده يخص الحياة بنفسه ويستأثر بكل شيء في الوجود ولا يرى لغيره من ابناء نوعه وجنسه من البشر اي حق في الحياة، ولا اى شأن وقيمة تذكر، وذلك هو ما يصطلح عليه بالاستكبار والاستعلاء، والاحساس بالتفوق، والغطرسة.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيش «ابرهة» وهلاكه، وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عزمت قريش منذ ذلك اليوم - وبهدف إثبات تفوقها وعظمتها للآخرين -، على أن تلغي أي احترام لأهل الحلّ لانهم كانوا يقولون:

ان جميع العرب محتاجون إلى معبدنا، وقد رأى العرب عامة كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة، خاصة، وكيف حمتنا من الاعداء!!

ومن هنا بدأت قريش تضيق على كل من يدخل مكة من أهل الحل للعمرة أو الحج، وتتعامل معهم بخشونة بالغة، وديكتاتورية شديدة

ففرضت على

كل من يريد دخول مكة للحج أو العمرة أن لا يصطحب معه طعاماً من خارج الحرم، ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم، ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكة التقليدية القومية، أو يطوف عرياناً بالكعبة إن لم يكن في مقدوره شراؤها واقتناؤها، ومن كان يرفُض الخضوع لهذا الأمر، من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه - بعد انتهائه من الطواف - ويلقيها جانباً، ولا يحق لأحد أن يمسه أبداً لا صاحبها ولا غيره. (1)

أما النساء فكان يجب عليهن إذا أردن الطواف أن يُطفنَ عراة على كل حال، وإن يضعن خرقة على رؤوسهن و يُرِدْنَ البيت التالي في أثناء الطواف:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه * وبعدَ هذا اليوم لا أجله

ثم إنه لم يكن يحق لأى يهودي أو مسيحي - بعد هزيمة «ابرهة» الذي كان هو أيضاً مسيحياً - أن يدخل مكة إلا أن يكون أجيراً لمكي، وحتى في هذه الصورة كان يجب عليه أن لا يتحدث في شيء من أمر دينه ومن أمر كتابه.

لقد بلغت نخوة والعصبية بقريش حداً جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج التي كان يجب الإتيان بها خارج الحرم!! لقد أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة (2) كما يفعل بقية الناس فتركوا الوقوف بعرفة، والافاضة منها مع أن آباءهم (من ولد إسماعيل) كانوا يُقرون أنها من المشاعر والحج، وكانت هيبة قريش وعظمتها الظاهرية رهناً - برمتها - بوجود الكعبة بين ظهرانيها، وبوظائف الحج ومناسكه هذه، إذ كان يجب على الناس في كل عام أن يأتوا إلى هذا الوادي الخالي عن الزرع وهذه الصحراء اليابسة لأداء المناسك، إذ لو لم يكن في هذه النقطة من الأرض أئ مطاف أو مشعر لما رغب احد حتى في العبور بها فضلاً عن المكث فيها عدة ايام وليال.

- [وكانت تسمى عندهم «اللقى». »
- 2 الكامل في التاريخ: ج 1، ص 266.

لقد كان ظهور مثل هذا الفساد الاخلاقي وهذا الموقف المتعصب من الآخرين أمراً لا بد منه بحسب المحاسبات الاجتماعية.

فالبيئة المكيّة لا بد أن تغرق في الفساد والانحراف حتى يتهيأ العالم لانقلاب أساسى ونهضة جذرية.

إن كل ذلك الانفلات الاخلاقي والترف والانحراف كان يهيء الارضية ويعدّها لظهور مصلح عالمي، أكثر فاكتر.

ولهذا لم يكن غريباً أن يغضب «أبوسفيان» فرعون مكة وطاغيتها على «ورقة بن نوفل» حكيم العرب الذي تنصر في أخريات حياته واطلع على ما في الانجيل، كلما تحدّث عن الله والانبياء ويقول له: «لا حاجة إلى مثل هذا الاله وهذا النبي، تكفينا عناية اصنامنا!!»

عَبْدُ اللَّهِ وَالذُّ النَّبِيِّ:

يوم فدى «عبدالمطلب» ولده «عبدالله» بمائة من الابل نحرها، وأطعم الناس في سبيل الله، لم يكن يمض من عمر «عبدالله» اكثر من اربعة عشر ربيعاً، وقد تسببت هذه الواقعة في أن يكتسب «عبدالله» شهرة خاصة بين عشيرته مضافاً إلى شهرته الكبرى بين قريش، وأن يحظى بمكانة كبيرة عند أبيه: «عبدالمطلب» بنحو خاص، لأن ما يكلف الإنسان غالباً، ويتحمل في سبيله عناء اكثر لا بد أن يحظى لديه بمكانة اكبر، ويحبّه محبة تفوق المتعارف.

ومن هنا كان «عبدالله» يتمتع باحترام يفوق الوصف بين أبناء عشيرته وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إن «عبدالله» يوم كان يتوجه برفقة والده إلى المذبح كان يعاني من مشاعر وأحاسيس متناقضة ومتضادة، فهو من جانب كان يُكِنّ لوالده احتراماً كبيراً وحباً شديداً، ولهذا لم يكن يجدُ بدأً من طاعته، والانصياع لمطلبه، بينما كان من جانب آخر يعاني من قلق، واضطراب شديدين على حياته التي كان يرى كيف تعبت بها يدُ القدر، وتكاد تقضي عليها كما يقضي الخريف على

أوراق الشجر.

كما أن «عبدالمطلب» نفسه كان هو الآخر تتجاذبه قوتان متضادتان: قوة الايمان والعقيدة من جانب، وقوة العاطفة والمحبة الأبوية من جانب آخر، وقد أوجدت هذه الواقعة في نفسي هاتين الشخصيتين آثاراً مُرّة يصعب زوالها، بيد أن تلك المشكلة حيث عولجت بالطريقة التي ذكرناها ونجا «عبدالله» من الموت المحقق فكر «عبدالمطلب» فوراً في ان يغسل عن قلب «عبدالله» تلك المرارة القاسية بزواج «عبدالله» بأمنة، وبذلك يقوي من عرى حياته التي بلغت درجة الانصرام، بأقوى السبل، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجه «عبدالمطلب» إلى بيت «وهب بن عبدمناف» - فور رُجوعه من المذبح آخذاً بيد ولده عبدالله - وعقد لولده على «أمنة بنت وهب» التي كانت تُعرفُ بالعبقة، والطهر، والنجابة، والكمال.

كما أنه عقد لنفسه - في ذات المجلس - على «دلالة» ابنة عم أمّنة، ورُزق منها «حمزة» عم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والمشابه له في السن. (1)

غير أن الأستاذ المؤرخ «عبد الوهاب النجار» المدرس بقسم التخصص في الازهر الذي صحح «التاريخ الكامل» لابن الاثير، وعلق عليه بملاحظات وهوامش مفيدة شكك في صحة هذه الرواية، واستغربها، وقال: لأظن أنه يصح شيء في هذه الرواية، إذ المعقول أن يتريث «عبدالمطلب» بعد ذلك المجهود المضني حتى يريح نفسه ثم يذهب ليخطب لابنه. (2)

ولكننا نعتقد بأن المؤرخ المذكور لو نظر إلى المسألة من غير هذه الزاوية لسهل عليه التصديق بهذه الرواية.

ثم أن «عبدالمطلب» عيّن موعداً للزفاف، وعند حلول ذلك الموعد تمت مراسم الزفاف في بيت «أمنة» طبقاً لما كان متعارفاً عليه في قریش، ولبث

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧ والمذكور في هذا المصدر «هالة» -
- 2 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤، قسم الهامش.

(191)

«عبدالله» مع «أمنة» ردحاً من الزمن حتى سافر إلى الشام للتجارة، وعند عودته توفي أثناء الطريق كما ستعرف.

دور الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام:

لا شك أن التاريخ سجّل في صفحاته كل ما يتعلق بالشعوب والاقوام من نقاط مضيئة أو مظلمة، كقصص للعبرة والعظة.

ولكن الحب والبغض تارة والتساهل والبدعة تارة أخرى وحب اظهار المقدرة وابرار القوة الأدبية تارة ثالثة وغير ذلك من العوامل والاسباب عملت عملها فتدخلت - في جميع الأدوار والعصور - في صياغة التاريخ، وخأطت الغث بالسمين والحقيقة بالخرافة، وتلك هي مشكلة كبرى تقع في طريق المؤرخ الذي يريد عرض حوادث التاريخ في أمانة وإستقامة، ولذلك يجب عليه أن يميز الحق عن الباطل، والصدق عن الكذب من خلال الأخذ بالموازين العلمية، والممارسة الكاملة للتاريخ. ولقد كان للعوامل المذكورة تأثير أيضاً في تدوين التاريخ الإسلامي، فالأيادي المريبة المشبوهة عملت على تحريف الحقائق في هذا المجال، بل وربما عمد بعض الاصدقاء - بهدف تعظيم شأن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى نسبة بعض الأمور التي يظهر عليها آثار الاختلاق والإفتعال إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو منها بُراء.

فقد جاء في التاريخ أن نور النبوة كان يسطع في جبين «عبدالله» والد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - دائماً⁽¹⁾، كما نقرأ أن «عبدالمطلب» كان يأخذ بيد ولده «عبدالله» في سنين الجذب والقحط، ويصعد الجبل ويستسقي متوسلاً إلى الله بالنور الذي كان بيّناً في جبين «عبدالله»⁽²⁾، فهذا هو ما كتبه وسجّله كثير من علماء الشيعة والسنة في مؤلفاتهم، ونحن لا نملك اي دليل على عدم صحته.

ولكن هذه القصة وقعت أساساً لبعض الاساطير التي لا يمكن ان نقبل بها مطلقاً

- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٩.
- 2 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤.

(192)

واليك فيما يأتي ما الجقّ بهذه القضية التاريخية الثابتة.

قِصَّةُ فَاطِمَةَ الْخَنْعِمِيَّةِ:

و «فاطمة» هذه هي أختُ «ورقة بن نوفل» الذي كان من حكماء العرب وكُهانهم، وكان له معرفة كبيرة بالإنجيل. وقد ضبط التاريخ حديثه مع خديجة في بدء بعثة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسوف نشير إليه في محله من هذا الكتاب.

وكانت «فاطمة» اخت «ورقة» قد سمعت من أخيها عن نبوة رجل من احفاد «اسماعيل»، ولهذا ظلت تنتظر، وتبحث.

و ذات يوم وعندما كان «عبدالمطلب» متوجها إلى بيت آمنة بنت وهب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد «عبدالله»، شاهدت «فاطمة الخنعمية» - التي كانت تقف على مقربة من منزلها - النور الساطع من جبين «عبدالله»، والذي كانت تنتظره مدة طويلة وتبحث عنه بشوق، فقالت: اين تذهب يا عبدالله؟ لك مثلُ الإبل التي نجزت عنك، وقع على الآن.

فقال: أنا مع أبي ولا استطيع خلافه وفراقه. (1)!!

ثم تزوج «عبدالله» بأمنة في نفس ذلك اليوم، وقضى معها ليلة واحدة.

ثم في الغد من ذلك اليوم أتى المرأة «الخنعمية» التي عرضت نفسها عليه، وأبدى استعداده لتنفيذ رغبتها، ولكن «الخنعمية» قالت له: ليس لي بك اليوم حاجة، فلقد فارقك النور الذي كان معك أمس. (2)!!

وقيل: إنه لما عرضت تلك المرأة «الخنعمية» على «عبدالله» ما عرضت أجابها «عبدالله» بالبداهة ببيتين من الشعر هما:

أَمَا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهُ * وَالْجُلُّ لَاحِلٌ فَاسْتَبِينَهُ

فكيف بالأمر الذي تبغينه * يحمي الكريمُ عرضَه ودينَهُ

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٥٦ النصّ والهامش.

ولكن لم تمر ثلاثة من زواجه بأمنة، واقامته عندها حتى دعتة نفسه إلى ان يأتي الخثعمية، وعرض نفسه عليها قائلاً: هل لك فيما كنت اردت؟ فقالت: لقد رأيت في وجهك نوراً فأردت ان يكون لي فابى الله الأ أن يجعله حيث اراد فما صنعت بعدي؟

قال: زوّجني أبي «أمنة بنت وهب. (1)!!»

علام الإختلاق في هذه القصة!

لقد غفل مختلق هذه القصة عن أمور كثيرة عند صياغته لها، ولم يستطع اخفاء آثار الإختلاق عنها.

فلو كان يكتفي بالقول - مثلاً - بان «فاطمة» صادفت «عبدالله» ذات يوم في زقاق من الأزقة، أو سوق من الاسواق، وشاهدت نور النبي ساطعاً من طلعه ففكرت في الزواج به رغبة في ذلك النور لكان من الممكن التصديق بهذه القصة، بيد أن نصّ القصة جاء بصورة لا يمكن القبول بها للأسباب التالية:

1- ان هذه القصة تفيد أن المرأة «الخثعمية» عند ما عرضت نفسها على «عبدالله»، كانت يد «عبدالله» في يد والده «عبدالمطلب»، كيف يمكن ان تعرض تلك الفتاة نفسها عليه وتبين مطلوبها له ويدور بينهما ما يدور، ولا يحسن عليهما عبدالمطلب؟!

ثم الم تستح من عظيم قريش «عبدالمطلب» الذي لم يثنه عن طاعة الله تعالى شيء حتى مقتل ولده وذبحه.

ولو قلنا أن مطلبها كان حلالاً مشروعاً فان ذلك لا ينسجم مع البيتين من الشعر اللذين ردّ بهما «عبدالله» طلبها.

2- والأصعب من ذلك قصة عبدالله نفسه. فان ولدأ مثل «عبدالله» يحترم والده إلى درجة الاستعداد لأن يُذبحَ فاءً لنذر والده، كيف يمكن أن يتفوّه في

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧، والكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤.

حضرة والده بما نُقِلَ عنه؟!

ترى أيمن لشاب نجا لتوه من السيف والذبح، ولا يزال يعاني من آثار الصدمة الروحية أن يستجيب لرغبات امرأة، أو يبدي استعداداً ورضاه القلبى لذلك لولا وجود والده معه؟! ترى هل كانت تلك المرأة جاهلة بالظروف، لا تقدر الاحوال، ولا تعرف الوقت المناسب لطرح مطلبها، أو أنّ مختلق هذه القصة غفل عن نقاط الضعف البارزة هذه!!

ثم إن مما يوضح هذه القصة ويُظهر بطلانها ما جاء في الصورة الثانية لها، فان عبد الله - كما لا حظنا جابه طلب تلك المرأة ببينين من الشعر وقال ما حصله بأن الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الذي يأتي على دين الرجل وشرفه، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسة لتلك الأهواء، والرغبات الرخيصة الفاسدة، والحال انه لم ينقض من زواجه أكثر من ثلاث ليال، وتدفعه غريزته الجنسية إلى ان يبادر إلى بيت المرأة الختامية.

إنَّ ماجابته به «عبدالله» دعوة تلك المرأة، وما جاء في ذينك البيتين من الشعر اللذين يطفحان بالغيرة، والإباء، لخير دليل على طهارة «عبدالله» وعتقه، وتقواه، وترفعه عن الأثام والادران، وابتعاده عن الانجاس والادناس.

وقد علّق الاستاذ العلامة «النجار» على هذه الاسطورة بقوله: «ليس من المعقول أن يذهب عبدالله بيعي الزنا في الساعة التي تزوج فيها، ودخل فيها على امرأته.»

ولكن الاستاذ «النجار» أخطأ في تشكيكه في النور النبويّ الساطع في جبين «عبدالله» حيث قال معقّباً على كلامه السابق: «ولكنها مسألة النور في وجهه يريدون إثباتها ورسول الله غني عن هذا كله.»⁽¹⁾

فان ذلك ممّا رواه جميع المؤرخين بلا استثناء، فلا داعى ولا وجه للتشكيك فيه!

- 1 هامش الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤.

(195)

طهارة النبيّ من دنس الآباء وعهر الأمهات:

وينبغي هنا - وبالمناسبة - ان نشير إلى مسألة مهمة في تاريخ النبيّ الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ألا وهي طهارة النسب النبوي من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الأمهات وفسادهن فلا يكون في اجداده وجدّاته سفاح، وزنا.

وهذا ممّا اتفق عليه المسلمون، بعد ان دلّ عليه العقل إذ لو لم يكن النبيّ منزها عن دناءة الآباء وعهر الأمهات لتنفّر عنه الطباع ولم يرغب احد في متابعته، والانقياد لاوامره ونواهيته.

ولقد صرح رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - بذلك في احاديث رواها السنة والشريعة.

فقد جاء عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال:

«نقلت من الاصلاب الطاهرة إلى الارحام الطاهرة نكاحاً لا سفاحاً.»⁽¹⁾

وجاء ايضاً انه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال:

«لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسينية إلى الأرحام الطاهرة. (2)»

وقال الإمام امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - :

«وأشهد أنّ محمّداً عبده ورسوله وسيّد عباده كلما نسخّ الله الخلقَ فرقتين جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهرٌ، ولا ضربَ فيه

فاجرٌ. (3)»

وقال الإمام الصادق - عليه السلام - في هذا الصدد عند تفسير قول الله تعالى: **وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**(4):

«في أصلاب النبيّين، نبي بعد نبي، حتّى اخرجته من صلب ابيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم. (5)»

وقد صرح علماء الإسلام من الفريقين بهذا الأمر، واشترطوه في النبيّ.

-
- 1 كنز الفوائد: ج ١، ص ١٦٤.
 - 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤٣.
 - 3 نهج البلاغة: الخطبة ٢١٥، طبعة عبده.
 - 4 الشعراء: ٢١٩.
 - 5 تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية.

(196)

قال المحقق نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد: ويجب في النبيّ العصمة... وعدم السهو، وكل ما ينقُرُ عنه من دناءة الآباء

وعهر الأمّهات. (1)...

وقد وافقه على هذا العلامة القوشجي الاشعري في شرح التجريد. (2)

وقال العلامة المتكلم المقداد السيوري في اللوامع الالهية: ويجب أن لا يكون مولوداً من الزنا ولا في آبائه دنى ولا عاهر. (3)

وفاة عبد الله في «يثرب»:»

لقد بدأ «عبدالله» بالزواج فصلاً جديداً في حياته، وأضاء ربوعها بوجود شريكة للحياة في غاية العفة والكمال هي زوجته الطاهرة

«أمنة» وبعد مدة من هذا الزواج المبارك توجه في رحلة تجارية - وبصحبة قافلة - إلى الشام بهدف التجارة.

دفعت أجراس الرحيل، وتحركت القافلة التجارية وفيها عبدالله، وبدأت رحلتها من «مكة» صوب الشام، وهي مشدودة بمئات القلوب

والأفئدة.

وكانت «أمنة» تمر في هذه الايام بفترة الحمل، فقد حملت من زوجها «عبدالله». »

وبعد مُضَى بضعة أشهر طلعت على مشارف مكة بوادر القافلة التجارية وهي عائدة من رحلتها، وخرج جمع كبير من أهل مكة لاستقبال ذويهم المسافرين العائدين. ها هو والد «عبدالله» ينتظر - في المنتظرين - ابنه «عبدالله»، كما ان عيون عروسة ولده «أمنة» هي الأخرى تدور هنا وهناك تتصفح الوجوه وتبحث عن زوجها الحبيب «عبدالله» في شوق لا يوصف.

- [كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٣٤٩ تحقيق الشيخ حسن زاده الأملی.
- 2راجع: شرح القوشجي لتجريد الاعتقاد: ص ٣٥٩.
- 3اللوامع الألهية: ص ٣١١.

(197)

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثراً من «عبدالله» بين رجال القافلة!!

وبعد التحقيق يتبين أن «عبدالله» قد تمرّض أثناء عودته في يثرب، فتوقف هناك بين اخواله لكي يستريح قليلاً، فاذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله في «مكة».

وكان من الطبيعي أن يغتم هذان المنتظران «عبدالمطلب وأمنة» لهذا النبأ، وتعلو وجهيهما آثار الحزن، والقلق وتحدّر من عيونهما دموع الأسى والاسف.

فأمّر «عبدالمطلب» اكبر ولده: «الحارث» إلى أن يتوجّه إلى «يثرب»، ويصطحب معه «عبدالله» إلى مكة. ولكنه عند ما دخل يثرب عرف بأن أخاه: «عبدالله» قد توفي بعد مفارقة القافلة له بشهر واحد، فعاد الحارث إلى مكة، فاخبر والده «عبدالمطلب»، وكذا زوجته العزيزة «أمنة» بذلك، ولم يخلف «عبدالله» من المال سوى خمسة من الأبل، وقطيع من الغنم، وجارية تدعى «أم أيمن» صارت فيما بعد مربية النبيّ الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧ و ٨، والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٥٠.

(198)

(199)

٥
مَوْلِدُ رَسُوْلِ اللّٰهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

كانت سُحُبُ الجاهلية الداكنة تُعْطِي سماء الجزيرة العربية، وتمحي الاعمالُ القبيحةُ والممارساتُ الظالمة، والحروبُ الداميةُ، والنهبُ والسلبُ، ووأدُ البنات، وقتلُ الاولاد، كلُ فضيلة أخلاقية. في البيئَة العربية وكان المجتمع العربي قد اصبح في منحدر عجيب من الشقاء، ليس بينهم وبين الموت الأ غشاء رقيق ومسافة قصيرة!!

في هذا الوقت بالذات طلع عليهم شمس السعادة والحياة فاضاءت محيط الجزيرة الغارق في الظلام الدامس، وذلك عندما اشرفت بيئَة الحجاز بمولد النبي المبارك «محمّد»- صلى الله عليه وآله وسلم - وبهذا تهيأت المقدمات اللازمة لهضة شعب متخلف طال رزوخه تحت ظلام الجهل، والتخلف، وطالت معاناته لمرارة الشقاء. فانه لم يمض زمن طويل الأ وملاً نور هذا الوليد المبارك ارجاء العالم واسس حضارة انسانية عظمي في كل المعمورة.

فترة الطفولة في حياة العظماء:

ان جميع الفصول في حياة العظماء جديرة بالتأمل، وقمينة بالمطالعة، وربما تبلغ العظمة في شخصية ادهم من السعة، والسمو بحيث تشمل جميع فصول حياته

(200)

بدء من الطفولة، بل وفترة الرضاع فتكون حياته وشخصيته برمتها سلسلة متواصلة من حلقات العظمة.

ان جميع الأدوار، والفترات في حياة العظماء، والنوابع وقادة المجتمعات البشرية، ورواد الحضارات الإنسانية وبناتها تنطوي في الأ غلب على نقاط مثيرة وحساسة وعلى مواطن توجب الاعجاب.

ان صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظة التي تتعقد فيها نطفهم في أرحام الأمهات، وحتى آخر لحظة من أعمارهم مليئة بالاسرار، زاخرة بالعجائب.

فنحن كثيراً ما نقرأ عن أولئك العظماء في أدوار طفولتهم أنهما كانت تقارن سلسلة من الامور العجيبة، والمعجزة.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الامر في شأن الرجال العاديين من عظماء العالم لكان تصديقنا بأمثالها في شأن الانبياء والرسل اسهل من ذلك بكثير، وكثير.

ان القرآن الكريم ذكر فترة الطفولة في حياة النبي موسى - عليه السلام - في صورة محفوفة بكثير من الأسرار، فهو يقول ما خلاصته: ان منات من الاطفال قُتلوا ودُبحوا بامر من فرعون ذلك العصر منعاً من ولادة موسى ونشوءه.

ولكن ارادة الله شاءت ان يُولد الكليم، وظلت هذه المشيئة تحفظه من كيد الكائدين ولهذا لم يعجز اعداؤه عن القضاء عليه أو الحاق الاذى به فحسب، بل تربي في بيت فرعون أعدى اعدائه.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: **وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِيفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْهِمِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَ أَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَ لِتُصْنَعَ عَلَيَّ عَيْنِي.)**
ثم يقول: **إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَ لَا تَحْزَنَ. (1)**

- [طه: ٣٧ - ٤٠.

(201)

ثم إن القرآن الكريم يذكر قصة ولادة المسيح، ويصور طفولته ونشأته بشكل أعجب إذ يقول:

(وَ اذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَّتْ مِنْ أهلكها مكاناً شَرْفِيّاً. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيّاً. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيّاً قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيّاً. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَ لَمْ أَكُ بَغِيّاً. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ لَنَجْعَلَنَّ آيَةً لِلنَّاسِ وَ رَحْمَةً مِنَّا وَ كَانَ أَمراً مَقْضِيّاً. فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً. فَأَجاءها المَخاضُ إلى جُدْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَ كُنْتُ نَسِيّاً مَنْسِيّاً. فَنادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيّاً. وَ هَزِي إِلَيْكَ بِجُدْعِ النَّخْلَةِ تَساقِطُ عَلَيْكَ رَطْباً جَنِيّاً. فَكُلِي وَ اشْرَبِي وَ قَرِي عَيْناً فإِذَا تَرِيَنَّ مِنَ البَشَرِ أَحداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْماً فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيّاً. فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئاً فَرِيّاً. يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امراً سَوْءاً وَ ما كَانَتْ أُمَّكَ بَغِيّاً. فَأشارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي المَهْدِ صَبِيّاً. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتابَ وَ جَعَلَنِي نَبِيّاً. وَ جَعَلَنِي مُبارِكاً أينَ ما كُنْتُ وَ أوصاني بالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ ما دُمْتُ حَيّاً. وَ بَرّاً بِوالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً. (1)

فإذا كان أتباع القرآن والتوراة والانجيل يشهدون بصحة هذه المطالب حول ولادة هذين النبيين العظيمين من اولي العزم لموسى وعيسى - عليهما السلام - ، ويقرون بصدقها، فلا يصح في هذه الصورة أن نستغرب وقوع أمثالها في شأن رسول الإسلام، ونتعجب من الحوادث العجيبة التي سبقت أو رافقت ميلاده المبارك، ونعتبرها أموراً سطحية لا تدل على شيء.

فنحن نقرأ في الكتب التاريخية وفي كتب الحديث عن وقوع حوادث عجيبة

- [مريم: ١٦ - ٣٣.

يوم ولادة النبيّ الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - مثل: ارتجاس أيوان كسرى، وسقوط اربع عشرة شرفة منه، وانخامد نار فارس التي كانت تُعبد، وانجفاف بحيرة ساوة، وتساقط الاصنام المنصوبة في الكعبة على وجوهها، وخروج نور معه - صلى الله عليه وآله وسلم - اضاء مساحة واسعة من الجزيرة، والرؤيا المخيفة التي رآها انوشيروان ومؤبدوه، وولادة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - مختوناً مقطوع السرة، وهو يقول: «اللّه اكبر، والحمد لله كثيرأ، سُبْحان الله بكرة وأصيلا. »

وقد وردت جميع هذه الامور في المصادر التاريخية الأولى، والجوامع الحديثية المعتمدة. (1)

ومع ملاحظة ما ورد في حق موسى وعيسى ونقلنا بعضه هنا، لا يبقى أى مجال للشك في صحة هذه الحوادث.

نعم ينبغي أن نسأل هنا: ماذا كانت تهدف هذه الحوادث غير العادية؟

وفي الاجابة على هذا السؤال يجب ان نقول:

إن هذه الحوادث الخارقة والعجيبة كانت تهدف إلى أمرين:

الأول: أن تدفع بالجبابرة، والوثنيين وعبدة الاصنام إلى التفكير فيما هم فيه فيسألوا أنفسهم: لماذا انطفت نيرانهم التي طالما بقيت مشتعلة تحرسها اعيان السدنة والكهنة؟

لماذا سببت هزة خفيفة في ارتجاس ايوان كسرى العظيم المحكم البنين، ولم يحدث لبيت عجوز في نفس ذلك البلد شيء؟

لماذا تهاوت الاصنام المنصوبة في الكعبة وحولها، وانكبت على وجوها بينما بقيت غيرها من الاشياء على حالها لم يصبها شيء ابدأ؟

لو كانوا يفكرون في تلك الحوادث لعرفوا أن تلك الحوادث كانت تبشّر بعصر جديد... عصر انتهاء فترة الوثنية وزوال مظاهر السلطة الشيطانية

- [تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٥، بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٤٨ - ٣٣١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦٧ - ٧٨ وغيرها.

الثاني: ان هذه الحوادث جاءت لتبرهن على شأن الوليد العظيم، وانه ليس وليداً عادياً، فهو كغيره من الانبياء العظام الذين رافقت موالدهم أمثال تلك الحوادث العجيبة، والوقائع الغريبة، كما يخبر بذلك القرآن الكريم فيما يحدثه عن حياة الانبياء - كما عرفت - وتخبر بها تواريخ الشعوب والملل المسيحية واليهودية.

واساساً لا يلزم ان تكون تلك الحوادث سبباً للغيرة ووسيلة للا تعاض يوم وقوعها، بل يكفي ان تقع حادثة في احدى السنين، ثم يعتبر بها الناس بعد أعوام عديدة، وقد كانت حوادث الميلاد النبوي من هذه المقولة، لأن الهدف منها كان هو ايجاد هزة في ضمائر أولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا في احوال الوثنية، والظلم، والانحراف الاخلاقي حتى قمة رؤوسهم، وعشعشت الجهالة والغفلة في اعماقهم حتى النخاع.

إن الذين عاشوا في عصر الرسالة، أو من اتى من بعدهم عندما يسمعون نداء رجل نهض - بكل قواه - ضد الوثنية، والظلم، ثم يطالعون سوابقه، ويلاحظون إلى جانب ذلك ما وقع ليلة ميلاده من الحوادث العظيمة التي تتلاءم مع دعوته، فانهم ولا شك سيقتربون تقارن هذين النوعين من الحوادث دليلاً على صحة دعواه، وصدق مقاله فيصدقونه، وينضون تحت لوائه.

إن وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الانبياء مثل «إبراهيم» و «موسى» و «المسيح» و «محمد» صلى الله عليه وعليهم اجمعين لا يقل اهمية عن وقوعها في عصر رسالتهم ونبوتهم، فهي جميعاً تنبع من اللطف الالهي، وتتحقق لهداية البشرية، وجذبها إلى دعوة سفرائه ورسله.

في أي يوم وُلِدَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - ؟

لقد اتفق عامة كتّاب السيرة على أن ولادة النبي الكريم كانت في عام الفيل سنة ٥٧٠ ميلادية.

لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - رحل إلى ربه عام (٦٣٢) ميلادية عن (٦٢) سنة.

(204)

أو (٦٣) عاماً، وعلى هذا الأساس تكون ولادته المباركة قد وقعت في سنة (٥٧٠) ميلادية تقريباً.

كما أنّ أكثر المحدثين والمؤرخين يتفقون على أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وُلِدَ في شهر ربيع الأول.

انما وقع الخلاف في يوم ميلاده، والمشهور بين محدثي الشيعة أنه كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر.

والمشهور بين أهل السنة أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وُلِدَ في يوم الاثنين الثاني عشر من ذلك الشهر. (1)

أى هذين القولين هو الصحيح؟

ان من المؤسف جداً أن يعاني التقويم الدقيق لميلاد رسول الإسلام العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - ووفاته بل مواليده ووفيات اكثر قاداتنا وائمنا لمتل هذا الارتباك، وان لا تكون اوقاتها وتواريخها محددة معلومة على وجه التحقيق واليقين!

ولقد تسبب هذا الارتباك في أن لا تستند اكثر احتفالاتنا ومآتمنا إلى تاريخ قطعي، في حين نجد أن علماء الإسلام كانوا يهتمون - عادة بتسجيل الوقائع التي حدثت على مدار القرون الإسلامية في نظم خاص وعناية كبيرة، ولكننا لا ندري ما الذي منع من تسجيل مواليده هذه الشخصيات العظيمة ووفياتهم على نحو دقيق، وصورة قطعية؟!

على أن مثل هذه المشكلة يمكن حلها بدرجة كبيرة بالرجوع إلى أهل البيت - عليهم السلام - ، فان اي مؤرخ لو أراد ان يكتب عن حياة شخصية من الشخصيات و اراد أن يُلم بكل تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بان يفعل ذلك من دون ان يراجع ابناء واقرباء تلك الشخصية التي يزعم ترجمتها والكتابة عنها.

- [وقد ذكر المقرئ في «الامتاع» ص ٣ جميع الاقوال المذكورة في يوم ميلاد النبي وشهره وعامه، فراجع.

(205)

ولقد مضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخلف من بعده ذرية وقربى وهم الذين يطلق عليهم اهل البيت. واهل بيته يقولون: لو كان صحيحاً وحقا ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أبونا وجدنا، وقد نشأنا في بيته وترعرعنا في حجره فاننا نقول انه قد ولد يوم كذا وتوفي يوم كذا فهل يبقى بعد ذلك مجال لأن نتجاهل قولهم ورأيهم، ونختار ما يقوله الآخرون من الأبعدين، وقديماً قالوا: أهل البيت ادري بما في البيت؟⁽¹⁾

فَتْرَةُ الْحَمْلِ:

المعروف أن النور النبوي الشريف استقر في رحم أمّنة - الطاهر في ايام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة⁽²⁾، ولكن هذا الامر لا ينسجم مع الرأي المشهور بين عامة المؤرخين من كون ولادة النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في شهر ربيع الأول، إذ في هذه الصورة يجب ان نعتبر مدة حمل «أمّنة» به - صلى الله عليه وآله وسلم - إما ثلاثة أشهر واما سنة وثلاثة أشهر، وكلا الامرين خارجان عن الموازين العادية في الحمل، كما أنه لم يعد أحد من خصائص النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .⁽³⁾

ولقد عالج المحقق الكبير الشهيد الثاني (٩١١ - ٩٦٦ هـ) هذا الإشكال بالنحو التالي إذ قال:

إن ذلك مبنَى على النسئ الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وقد نهى الله تعالى عنه، وقال: «إِنَّمَا النَّسئُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ.»

وتوضيح هذا هو أن أبناء «إسماعيل» كانوا تبعاً لاسلافهم يؤدون مناسك الحج في شهر ذي الحجة، ولكنهم رأوا - في ما بعد - أن

يجزوا في كل شهر عامين

- 1 ومن هنا لابد من الاعتراف بان ما ينقله ويكتبه الامامية من تفاصيل تتعلق بحياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هي اقرب من غيرها إلى الحقيقة لأنها مأخوذة عن اقربائه وابنائهم - عليهم السلام - .
- 2 الكافي: ج ١، ص ٤٣٩ أبواب التاريخ باب مولد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ووفاته.
- 3 ذكر الطريحي فقط في مجمع البحرين في مادة شرق قولاً بهذا لم يُسم قائله.

(206)

يعنى ان يجزوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين وفي صفر عامين وهكذا.

وهذا يعني أن الحج يعود كل اربعة وعشرين سنة في موضعه الطبيعي (اي شهر ذي الحجة).

وقد جرى العربُ المشركونَ على هذه الطريقة حتى صادفت أيام الحج شهر ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فحج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك السنة حجة الوداع، فنهى في خطبة له عن هذه الفعلة (التي تسمى بالنسيء بمعنى تأخير الحج عن موضعه وموعده) فقال: «أَلَا وَ إِنَّ الزَّمانَ قد اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ السَّنَةَ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ: ثَلَاثٌ مَتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ، وَمَحْرَمٌ، وَرَجَبٌ الَّذِي بَيْنَ جَمَادِي وَشَعْبَانَ.»⁽¹⁾

وقد أراد - صلى الله عليه وآله وسلم - بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحج إلى ذي الحجة وبطل النسيء.

ونزل في هذه المناسبة قولُ الله تعالى: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلِّثُونَهُ عَامًا وَيَحْرِمُونَهُ عَامًا.**⁽²⁾

من هنا تنتقل أيام التشريق كل سنتين من مواضعها، على ما عرفت، وحينئذ لا منافاة بين القول بأن نور النبي انتقل إلى رحم أمه «أمنة بنت وهب» في أيام التشريق، وبين ما اجمع عليه عامة المؤرخين من أنه وُلد في شهر ربيع الأول. وانما تكون المنافاة بين هذين الامرين إذا كان المراد من أيام التشريق هو اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من شهر ذي الحجة خاصة، ولكن قلنا ان أيام التشريق كانت تنتقل من شهر إلى آخر باستمرار، فيلزم أن يكون عام حمل أمه به، وعام ولادته أيام الحج الواقعة في شهر جمادي الاولى، وحيث أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وُلد في شهر ربيع الأول فتكون مدة حمل «أمنة» به عشرة أشهر تقريباً.

- 1 مجمع البيان: ج ٥، ص ٢٩.
- 2 التوبة: ٣٧.

مُؤَاخَذَاتٌ وَإِشْكَالَاتٌ عَلَى هَذَا الْبَيَانِ:

إن النتيجة التي توصل إليها المرحوم «الشهيد الثاني» ليست صحيحة، كما أن المعنى الذي ذكره للنسيء لم يقل به من بين المفسرين إلا مجاهد، واما الآخرون فقد فسروه بنحو آخر فلا يكون التفسير الذي مرَّ قوياً، وذلك:

أولاً: لأن «مكة» كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً، ولا يخفى أن تغيير الحج في كل سنتين مرة واحدة من شأنه أن يسبب الالتباس لدى الناس ويوقعهم في الخطأ والاشتباه، وبالتالي يتعرض ذلك الاجتماع العظيم، وتلك العبادة الجماعية إلى خطر الزوال.

ولهذا يُستبعد ان ترضى قريش والمكيون بان يخضع ما هو وسيلة لعزتهم وافتخارهم للتغيير والتبدل الذي من عواقبه ان يتعرض وقته وموعده للنسيان، فيذهب ذلك الاجتماع، ويزول من الاساس.

ثانياً: إذا أخضعنا ما قاله «الشهيد الثاني» لمحاسبة دقيقة فان كلامه يستلزم ان تكون ايام التشريق والحج في السنة التاسعة من الهجرة واقعة في شهر ذي القعدة لا جمادي الاولى في حين أن امير المؤمنين علياً - عليه السلام - كُلف في هذه السنة بالذات بأن يقرأ سورة البراءة على المشركين في ايام الحج، والمفسرون والمحدثون متفقون على أنه - عليه السلام - تلاها عليهم في العاشر من شهر ذي الحجة ثم امهلم اربعة اشهر ابتداء من شهر ذي الحجة لا ذي القعدة. (1)

ثالثاً: ان النسيء يعني أن العرب حيث لم يكن لديهم مصدر صحيح للرزق بل كانوا يعيشون في الاغلب، على النهب والغارة لهذا كان من الصعب عليهم ترك الحرب، في الاشهر الحرم الثلاث (وهي ذوالقعدة وذوالحجة، والمحرم) لهذا ربما طلبوا من سدنة الكعبة بأن يسمحوا لهم بالقتال في شهر المحرم، ثم يتركون

- [ولقد قام العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٥٣ بهذه المحاسبة، وان لم يشر إلى الإشكال الذي أوردناه فليراجع.

الحرب في شهر صفر، وهذا هو معنى النسيء فلم يكن نسيء وتأخير للشهر الحرام في غير شهر محرم، وفي الآية نفسها إشارة إلى هذا المطلب: «يُجِلُّونَهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُونَهُ عَاماً.»

والذي نراه في حل هذه المشكلة هو: أن العرب كانوا يحجون في وقتين: أحدهما شهر ذي الحجة، والثاني شهر رجب، وقد كانوا يؤدون كل مناسك الحج في هذين الوقتين على السواء، فيمكن أن يكون المقصود من حمل «أمنة» برسول الله - صلى الله عليه وآله

وسلم - في ايام التشريق هو شهر رجب فإذا اعتبرنا يوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربيع الاول كانت مدة حمل «أمنة» به ثمانية أشهر وایاماً.

الاحتفال بذكرى المولد النبوي:

وينبغي ان يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وقيموا المهرجانات الكبرى في هذه المناسبة الشريفة التي كانت مبدأ الخير والبركة، ومنشأ السعادة والكرامة للبشرية جمعاء، وأية مناسبة اخرى بالاحتفال والاحتفاء من هذه المناسبة؟

على ان اقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو امر مطلوب ومحجوب في الشريعة المقدسة.

فقد قال الله تعالى:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (1))

وعزَّر بمعنى كَرَّم وبجَل كما في اللغة (2) وهو لا يختص بزمان دون زمان، فعلى المسلمين في كل وقت وزمان ان يعظّموا شأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويكرّمونه، سواء في حياته أو بعد مماته، لما له من فضل عظيم على الناس، ولما

- [الأعراف: ١٥٧].
- 2راجع مفردات الراغب: مادة عزر.

(209)

له من منزلة عندالله تعالى.

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والاشادة بشرفه وفضله وهي أمور مدحه القرآن الكريم بها إذ قال سبحانه: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ (1)** (وقال تعالى أيضاً) **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (2)** (وغير ذلك من الآيات المادحة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فان الاحتفال بميلاد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي يتحقق بذكر صفاته وأخلاقه والاشادة به خير مصداق لرفع ذكره، الذي فعله الله بنحوماً.

ولو كان رفع ذكر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أمراً غير جائز ولا صحيح، بل فعلاً قبيحاً لما فعله الله، فيكفي في حسنه وصحته بل ومشروعيته ومطلوبيته ان الله تعالى فعله بالنسبة لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وهل يكون الاحتفال بمولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، واطهار السرور والشكر لله تعالى بمقدم نبيه المبارك عبادة للنبي كما يزعم البعض إذ يقول:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم.»⁽³⁾

والحال ان العبادة في مفهومها الاصطلاحي الموجب للشرك والكفر ليس إلا الخضوع لمن يُعْتَقَدُ بالوهيته وتعظيمه بهذه النية⁽⁴⁾ واين هذا من ذكر فضائل النبي في يوم مولده والابتهاج بمقدمه والشكر لله على ولادته.

ثم ان تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينطلق من كونه عبداً مطيعاً لله تعالى، ادى رسالته بصدق واخلاص، وجسّد بسلوكه وسيرته كل مكارم الاخلاق اصدق تجسيد فالاحتفال بمولده الكريم احتفال بالقيم السامية، وشكر لله على منّه، واطهار للحب الكامن في النفوس ليس إلا.

والزعم بانه محرّم لكونه بدعة، أو لأنه لا يخلو عن اشتماله على منكرات

-
- [1] القلم: ٤ .
- [2] الانشراح: ٤ .
- [3] فتح المجيد: ص ١٥٤ ، ثم نقل عن كتاب قرة العيون ما يشابه هذا المضمون .
- [4] راجع مفاهيم القرآن في معالم التوحيد: ص ٤٠٤ - ٤٤٠ .

(210)

ومحرمات كالرقص والغناء فهو مرفوض، مردود لان الكلام انما هو حول اصل الاحتفال مجرداً عن المحرمات والمنكرات.

ان الاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انما هو تكريم لمن كرمه الله تعالى، وامر بتكريمه، وحث على احترامه وحبّه، ومودته، وانه بالتالي اداء شكر لله تعالى على تلك الموهبة العظيمة، وتلك العطية المباركة حيث منّ سبحانه على البشرية عامة وعلى المسلمين خاصة بأن شرف الارض بمولد عظيم نعمت الارض ببركة شخصيته وخلقه، واشرفت بنور رسالته ودعوته، فاية نعمة ترى اولى بالشكر من هذه، واي شكر اجمل وافضل من الأحتفاء بمولد هذا النبي العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وذكر فضائله، ومناقبه، للتعرف عليها، والافتداء بها، وتشديد الحب له بسببها، والابتهاج إلى الله في يوم ميلاده، وطلب التوفيق الالهي لمتابعته، والسير على نهجه، والدفاع عن رسالته، والذبّ دون دينه، بعد الشكر لله تعالى على موهبته

هذه؟؟

هذا ولقد درج المسلمون في العصور الإسلامية الأولى على الاحتفال بذكرى المولد النبوي وأنشأوا القصائد الرائعة في مدحه، وذكر خصاله ومكارم أخلاقه، وظهروا السرور بمولده والشكر لله تعالى بلطفه، وتفضله به - صلى الله عليه وآله وسلم - على البشرية.

قال الإمام الديار بكري في تاريخ الخميس في هذا الصدد:

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده - عليه السلام - ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بانواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. (1)

اجل ينبغي على المسلمين ان يحتفلوا بمقدم نبيهم الكريم ولا يعابوا بما قاله البعض حيث قال: «الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من

- 1 تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ج 1، ص 223 نقلا عن المواهب اللدنية: ج 1، ص 27 للقسطلاني.

(211)

العبادة لهم وتعظيمهم. (1)»

فهذا القول مغالطة صريحة، ان لم يكن نابغاً عن الغفلة والجهل بعد ان تبين حقيقة الاحتفال واقامة الذكريات احتفاء بالمولد النبوي. (2)

مراسم تسمية النبي صلى الله عليه وآله:

حلَّ اليوم السابع من الميلاذ المبارك، فعقَّ عبدالمطلب عن النبي بكبش شكراً لله تعالى ودعا جماعة ليشاركوا في الاحتفال الذي حضره عامة قريش لتسمية النبي، وسمَّاه «محمّداً»، وعندما سألوه عما حمّله على أن يسمى هذا الوليد المبارك «محمّداً» وهو اسم لم يعرفه العرب الانادراً أجاب قائلاً: أردتُ أن يحمد في السماء والأرض. (3)

والى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله:

فَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِجَلَّةُ فَدُفَاءَ وَالْعَرْشُ مَحْمُودٌ وَ هَذَا مُحَمَّدٌ (4)

ومن المسلم أن هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخالة للإلهام الالهي، لأن اسم «محمّد» وإن كان موجوداً عند العرب إلا أنه قلّ من كان قد تسمى بهذا الاسم، فحسب ما استقصاه بعض المؤرخين لم يتسم به إلى ذلك اليوم من العرب الاثنته عشر شخصاً كما يقول شاعرهم:

إِنَّ الَّذِينَ سَمُّوا بِاسْمِ مُحَمَّدٍ مِنْ قَبْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ ضِعْفِ ثَمَانٍ (5)

ولا يخفى أن نُدرة المصاديق لأي لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء من شأنها أن تقلل فرص الاشتباه فيه، وحيث أن الكتب السماوية كانت قد أُخبرَتْ عن إسم النبي الخاتم - صلى الله عليه وآله وسلم - وصفاته، وعلائمه الرُوحية والجسمية، لذلك يجب أن تكون علائمه - صلى الله عليه وآله وسلم - واضحةً جداً

-
- 1 هوامش الفتح المجيد.
 - 2 راجع للتوسع: معالم التوحيد في القرآن الكريم.
 - 3 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٧٨ و ٧٩.
 - 4 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٢٠، والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٧٨ و ٧٩.
 - 5 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٢ ثم يذكر صاحب السيرة اولئك الأشخاص في بيئتين آخرين.

(212)

حتى لا يتطرق إليها التباسٌ أو اشتباه، وقد كان من علائمه - صلى الله عليه وآله وسلم - اسمه الشريف، فيجب أن تكون مصاديقها قليلة جداً حتى يزيل ذلك أي عروض للشك والترديد في تشخيص النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - خاصة إذا ضُمَّت إليه بقية أوصافه وعلائمه، وخصوصياته.

خطأ المُستشرقين:

لقد ذكر القرآن الكريم اسمين أو عدة أسماء للنبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ففي سورة آل عمران ومحمد والأحزاب والفتح في الآيات ١٤٤ و ٢ و ٤٠ و ٢٩ (1) سماه «محمداً» (2)»
وفي سورة الصف الآية ٦ (3) دعاه «أحمد» .»

والعلة في تسميته بهذين الاسمين أن امه «أمنة» سمته «أحمداً» قبل أن يسميه جده، كما هو مذكور في التاريخ.

وعلى هذا فإن ما ذكره بعض المستشرقين - في معرض الاعتراض - بأن الإنجيل - حسب تصريح القرآن الكريم في سورة الصف الآية ٦ - بشر بنبي اسمه «أحمد» لا «محمد» كلامٌ لا اساس له ولا مبرر، لأن القرآن الكريم الذي سمي نبيّاً بـ «أحمد» سماه في عدة مواضع بـ «محمد» فإذا كان المصدر في تعيين اسم النبي هو: القرآن الكريم، فإن القرآن سماه بكلا الاسمين، في موضع باسم

-
- [يعتقد البعض أن هذا ليس اسماً للنبي صلى الله عليه وآله بل هو من الحروف المقطعة في القرآن.
 - 2 قال تعالى: **وَ مَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ .** (وقال تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَ آمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَي مُحَمَّدٍ .**) وقال سبحانه: **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ .**) وقال عز وجل: **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ .**)
 - 3 إذ قال سبحانه: **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ .**)

«محمّد»، وفي موضع آخر باسم «أحمد». »

«أحمد» كان من أسماء النبي المشهورة:

كلُّ من كان له ادنى إمام بتاريخ النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - عَلِمَ أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يُدعى بإسمين في الناس منذ صغره أحدهما: «محمّد» الذي سَمَّاه به جدّه «عبدالمطلب»، والآخر «أحمد» الذي سمته به أمه «أمّة». »
وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الإسلامي، وقد روى المؤرخون هذا الأمر، ويمكن للقارئ الكريم أن يقرأه في السيرة الحلبية. (1)
ولقد أنشأ عمّه «أبو طالب»، الذي أنيطت إليه كفالتة بعد وفاة عبدالمطلب، فبقي يقوم بهذه المهمة طوال اثنين وأربعين عاماً بكل حرص ورغبة، ولم يمتنع في هذا السبيل عن بذل كل ما استطاع من غال ورخيص أنشأ في ابن أخيه أبياتاً سَمَّاه في بعضها «محمّد» وفي بعضها الآخر «أحمد»، وهذا يكشف عن انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان معروفاً آنذاك بكلا الاسمين.

واليك فيما يأتي بعض هذه الأبيات التي سَمَى فيها «أبو طالب» النبي باسم احمد:

1- إنْ يُكُنْ ما أتى به أحمدُ اليومَ * سنَاءٌ وكانَ في الحشرِ ديناً

2- وقولُهُ لأحمد أنتَ امرءٌ * خلُوفُ الحديثِ ضعيفُ النسبِ

3- وإن كانَ أحمدُ قد جاءهم * بحقٍ ولم يأتهمُ بالكذبِ

4- أرادوا قتلَ أحمدِ ظالموه * وليس بقتلهم فيهم زعيم

5- ألا إنَّ خيرَ الناسِ نفساً والداً * إذا عدَّ ساداتُ البريةِ أحمدُ

6- فلنسنا وبيتُ الله نسلمُ أحمداً * لِعزّاءٍ من عض الزمان ولا كرب(2)

وقد سَمَى «أبو طالب» النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ابیات اخرى بأحمد

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٢ و ٨٣.
- 2ديوان أبي طالب عليه السلام.

أيضاً قد ذكرها كبار المحققين من المؤرخين والمحدثين ونسبوا إلى أبي طالب ولكنها غير موجودة في ديوانه. (1)

كما وأنه قد سَمَاهُ غيرُ ابي طالب في أبياته بأحمد مما يدل على أنه كان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان، وتلك الابيات كثيرة تفوق حدّ الحصر والاحصاء لكننا ننقل نماذج منها هنا:

قال حسان بن ثابت في رثائه للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

مفجعةً قد شقها ففدُ أحمد * فظلت لآلاء الرسول تُعدُّ

أطالت ووقفاً تذرِف العيْنَ جُهدِها * على طَلل القبرِ الَّذي فيه أحمدُ(2)

وقال في رثائه أيضاً:

صَلَّى الإلهُ وَمَنْ يُحِيقُ بِعرشِهِ * وَالطَّيْبُونَ عَلَى المَبَارِكِ احمدِ(3)

وقال في رثاء جعفر بن أبي طالب الطيَّار:

فمن كان أو يكون كأحمد * نظام الحق أونكال لملحد(4)

وقال حَسَّان وهو يذكر معجزة من معاجز النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

ففي كَفِّ أَحْمَدَ قد سَبَّحَتْ * عُيُونٌ مِنَ المَاءِ يومَ الظمِّ(5)

وقال كَعْبُ بن مالك:

فهذا نَبِيُّ اللَّهِ أَحْمَدُ سَبَّحَتْ * صِغَارُ الحصى في كَفِّهِ بالترنم(6)

وقال «ورقة بن نوفل» يومَ أخبرتُهُ خديجةُ بنزول الوحي على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

- [مثل قوله:

لعمري لقد كلفْتُ وَجُداً بأحمد * وَأَحْبَبْتُهُ حُبَّ الحبيبِ المواصل

زعمتُ قريشٌ أن أحمدَ ساحرٌ * كَذِبَتْ وَرَبَّ الراقصاتِ إلى الحَرَمِ
راجع ديوان أبي طالب، وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٧٢، وشرح النهج لابن ابي الحديد: ج ١٤، ص ٧٩ وغيرها.
(2) و (٣) ابن هشام في سيرته: ج ٢، ص ٦٦٧ و ٦٦٦، وابن سعد في طبقاته: ج ٢، ص ٣٢٣.
4-شاعر عهد الرسالة: تحقيق محمَّد عزت نصر الله.
(5) و (٦) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٤١٣ و ٤١٥.

وقالت عاتكة بنت عبدالمطلب ترثي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

يا عين جودي ما بقيت بعبرة * سخاً على خير البرية أحمد⁽²⁾

وقال العباس في مناسبة تزويج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بخديجة:

أحمد سَيِّدُ الْوَرَى * خير مائس و رايك⁽³⁾

فترّة الرّضاع في حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

:

لم يرتضع وليدُ قریش المبارك «محمّد» من أمّه سوى ثلاثة أيام، ثم حظّبت بفخر إرضاعه - بعد ذلك - امرأتان هما:

« - 1 ثويبة «مولاة» «أبي لهب»، وقد أرضعته أربعة أشهر فقط، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وزوجته الوفية: «خديجة

بنت خويلد» يقدّران هذا العمل لها حتّى آخر لحظات حياتها. ⁽⁴⁾

و «ثويبة» هذه كانت قد أرضعت قبل ذلك «حمزة» عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - و «ابا سلمة بن عبد الله المخزومي»

أيضاً فكانوا إخوة من الرضاعة. ⁽⁵⁾

وقد بعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد مبعثه، من يشتريها من «أبي لهب» ليعتقها فابى. ⁽⁶⁾

وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يكرمها كلما دخلت عليه، وكان يبعث إليها بالصّلّة إلى أن بلغه خبر وفاتها عند منصرفه

من وقعة «خيبر» فسأل عن ابنها فقيل: مات قبلها، فسأل عن قرابتها، فقيل: لم يبق منهم أحد. ⁽⁷⁾

« - 2 حليلة السعدية «بنت ابي ذؤيب التي كانت من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن، وكان أولادها عبارة عن: «عبدالله»، «أنيسة»،

«شيماء»، وقد

- 1 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٥.

- 2 الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣٢٦.

- 3 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٧٢.

- 4 تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس: ج ١، ص ٢٢٢.

- 5 السيرة النبوية: ج ٣، ص ٩٦.

- 6 الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٢٧١.

- 7 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ نقلا عن سيرة مغلطاي وغيره.

وقد كان من عادة العرب يومذاك هو أن يدفعوا أولادهم الرضعاء إلى المراضع اللاتي كُنَّ يَعِشْنَ في البوادي لينشأوا في تلك البيئات المعروفة بطيب هوائها، وقلة رطوبتها، وعذوبة مائها ببنية قوية، هذا مضافاً إلى صيانتهم عن خطر الوباء الذي كان يهدد الأطفال في «مكة»، ولأن ذلك كان له مدخلٌ عظيم، وتأثيرٌ بليغ في فصاحة المولود لسلامة لغة أهل القبائل الساكنة في البوادي آنذاك.

وكانت مراضع بني سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب، فقد كانت نساء هذه القبيلة التي كانت تسكن حوالي «مكة» ونواحي الحرم يأتين «مكة» في كل عام في موسم خاص يلتمسن الرضعاء ويذهبن بهم إلى بلادهن حتى تتم الرضاعة.

وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تجاوز شهره الرابع لما قدمت نساء من بني سعد «مكة» يلتمسن الرضعاء في سنة جذب وقحط، ولهذا كُنَّ بحاجة شديدة إلى مساعدة أشرف «مكة» واعيانها.

ويقول بعض المؤرخين: إنه لم تقبل أية واحدة من تلك المراضع أن تأخذ «محمداً» بسبب يتمه، وقد كان أغلبهن يُردن أن يأخذن من يكون له أبٌ حيٌّ حتى يُغدق عليهنَّ بالمساعدات والصلوات، وحتى «حليمة» هي الأخرى أبت أخذهُ، ولكنها أيضاً لم تحصل على طفل لهزال جسمها، فاضطرت إلى أن تأخذ حفيد «عبدالمطلب» وقالت لزوجها: والله لأذهبن إلى ذلك اليتيم فلاخذنهُ، فقال لها زوجها: لا عليك ان تفعلي، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة.

ولقد اصاب الزوجان في ظنهما هذا، فمنذ أن أبدت «حليمة» استعدادها لخدمة ذلك اليتيم شملت اللطاف الالهية كل مجالات حياتها. (1)

إن القسم الأول من هذه القصة ليس سوى اسطورة، لأن مكانة البيت

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٦٢ و ١٦٣.

الهاشمي الرفيعة، وشخصية رجل عُرفت بِكمال الجود والاحسان، وبعون المحتاجين والمحرومين كانت سبباً في أن لا تعرض المراضعات عن اخذ «محمداً» فحسب، بل يتنازع عن على اخذه ولهذا لا يكون هذا القسم من التاريخ سوى اسطورة تكذبها الحقائق. واما علة عدم اعطائه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى غير «حليمة» من المراضعات فهي: أن وليد قريش لم يقبل أى ثدي من أئداء تلكم المراضعات، ولم يزل كذلك حتى قبل ثدي «حليمة السعدية»، فسر بذلك «عبدالمطلب» وأهله سروراً عظيماً، بعد أن حزنهم امتناعه عنهم قبل ذلك. (1)

قالت «حليمة»: استقباني عبدالمطلب فقال: من انت، فقلت: أنا امرأة من بني سعد، قال: ما أسمك؟ قلت: حليمة، فتبسّم «عبدالمطلب»

وقال: بَخَ بَخَ سَعْدٌ وَحَلْمٌ، خصلتان فيهما خيرُ الدهر، وعز الأبد.(2)

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع:

وهنا ينبغي بالمناسبة أن نشير إلى نظرة الإسلام في تأثير الرضاع في شخصيّة الإنسان.

فقد سبق الإسلام العلم الحديث في الكشف عن آثار اللبن في تكوين الإنسان الخُلقي والنفسى والعضوي سلباً وإيجاباً.

ولهذا حثَّ الإسلام على استرضاع الام، كما حث على اختيار المرضعات الصالحات ونهى عن استرضاع اليهودية والمجوسية والنصرانية والمجنونة منعاً من انتقال طباعهنَّ إلى الطفل عن طريق اللبن.

واستكمالاً لهذا البحث نورد جملة من الأحاديث التي تصرح بهذه الحقيقة العلمية الهامة:

- [قال امير المؤمنين علي - عليه السلام - :

- [بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٣٤٢ و ٣٤٣.
- 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٩.

(218)

«تَخَيَّرُوا لِلرَّضَاعِ كَمَا تَخَيَّرُونَ لِلنِّكَاحِ فَإِنَّ الرَّضَاعَ يُغَيِّرُ الطَّبَاعَ.»(1)

2- وعنه - عليه السلام - ايضاً:

«أَنْظَرُوا مَنْ يَرْضَعُ أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَتَشَبَّهُ عَلَيْهِ.»(2)

3- عن الإمام ابي جعفر الباقر - عليه السلام - انه قال:

«لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُعْدِي، وَإِنَّ الْعُلَامَ يَنْزِعُ إِلَى اللَّيْنِ.»(3)...

4- وعنه - عليه السلام - ايضاً:

«اسْتَرْضِعْ لَوْلَدِكَ بِلَبَنِ الْجِسَانِ وَإِيَّاكَ وَ الْقِبَاخُ فَإِنَّ اللَّبْنَ قَدْ يُعْدِي.»(4)

5- وعن علي - عليه السلام - انه قال:

«مَا مِنْ لَبْنٍ يَرْضَعُ بِهِ الصَّبِيُّ أَعْظَمَ بَرَكَتَهُ عَلَيْهِ مِنْ لَبْنِ أُمِّهِ.»(5)

-
- 1قرب الأسناد: ص ٤٥ .
 - 2فروع الكافي ج ٢، ص ٩٣ .
 - 3وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ١٨٨ .
 - 4التهذيب: ج ٢، ص ٢٨٠ .
 - 5روضة المتقين: ج ٨، ص ٥٥٤ .

(219)

٦

فَترَةُ الطُّفُولَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - .

إن صفحات التاريخ تشهد بأن حياة رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - من بداية طفولته وأوان صباه وإلى يوم بعثه بالرسالة كانت مشحونة بسلسلة من الحوادث العجيبة التي تعدُّ بأجمعها من كراماته - صلى الله عليه وآله وسلم - وتدل على أن حياة النبي لم تكن حياة عادية.

وينقسم المؤلفون في تفسير هذه الحوادث إلى طائفتين:

- [الماديون، وجماعة من المستشرقين: فإن العلماء الماديين الذين يحصرّون الوجود في نطاق المادة، ويعتبرون جميع الظواهر ظواهر مادية، وينحتون لكل واحدة منها علة طبيعية، لا يهتمون بهذه الحوادث ولا يُعبرونها أية أهمية، لامتناع واستحالة وقوع أمثال هذه الظواهر حسب النظرة المادية، ولهذا فكل ما يصادفونه في ثنايا التاريخ من هذا الباب يعتبرونه من ولائد الخيال، ومما نسجته أوهامُ التابعين لذلك الدين، أو الطريقة.

وقد تبعهم في هذا الموقف جماعة من المستشرقين فرغم أنهم يعتبرون انفسهم - حسب الظاهر - في عداد الموحدين، والمؤمنين بالله، وبما بعد الطبيعة من عوالم الغيب، إلا أنهم - لضعف إيمانهم وبسبب غرورهم العلمي، وغلبة النزعة المادية على أفكارهم وأذهانهم - اتبعوا - لدى تحليلهم لهذه الحوادث - المنهج الماديّ، فنحن

(220)

نقرأ في كتاباتهم مراراً وتكراراً زعمهم بأن النبوة ماهي إلا نبوغٌ بشريّ، وأن النبي مجرد نابغة اجتماعية استطاع تغيير مسار الحياة البشرية بإفكاره النيرة!!

ولا شك أن مثل هذا التصوّر ينبع من طريقة التفكير المادي الذي يعتبر جميع الأديان من ولائد الفكر البشري وافرزات الذهن الانساني، في حين ان علماء العقيدة اثبتوا في: مباحث «النبوة العامة» انّ النبوة عطية الهيبة، وموهبة ربّانية هي في الحقيقة منشأ

جميع الالهامات والارتباطات المعنوية، ومصدر لمناهج الانبياء وبرايمهم، ليست ابدأ وليدة نبوغهم الإنساني، ولا نسيجة فكرهم البشري، وليس لها مصدر إلا الإلهام من الغيب، ولكن عندما ينظر المستشرق المسيحي إلى هذه القضايا من زاوية الفكر المادي ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأسس العلمية التي كشفت عنها التجربة ينتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الاعجازي، وربما انكرها من الاساس.

2-المؤمنون بالله: الذين يعتقدون بأن العالم المادي بجميع خصوصياته وخواصه يخضع لتدبير عالم آخر، وأن ذلك العالم (اي عالم التجرد وماوراء الطبيعة) هو المنظم لهذه الطبيعة، وهو المدبر لهذا الكون المادي.

وبعبارة أخرى إن عالم المادة ليس عالمًا مسيبيًا، مستقلا عن غيره، وان جميع الانظمة والقوانين الطبيعية والعلمية مسببة عن تأثيرات موجودات عليا، وبخاصة ناشئة عن إرادة الله الخالق، الذي اعطى للمادة وجودها، وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحة بين أجزائها، وبنى بقاءها على سلسلة من النواميس الطبيعية.

إن هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلمية، واذعانهم الصادق بما قاله العلماء في صعيد العلاقات، والروابط القائمة بين القوانين مما أثبتته العلم وأكده، يعتقدون بأن مثل هذه القوانين الطبيعية ليست أموراً لا تقبل التغيير، والتبدل.

فهم يعتقدون بأن العالم الاعلى يمكنه - إذا أراد - أن يُغيّر تلك القوانين لغايات خاصة، وليس في مقدوره ذلك فقط، بل فعل ذلك في جملة من الموارد

(221)

لأهداف عليا.

وبعبارة أخرى: إن الافعال الخارقة للعادة ليست ظواهر عارية عن العلل، بل إن علتها غير طبيعية، وافتقاد العلة الطبيعية (وخاصة العلة الطبيعية غير المعروفة) ليس دليلا على افتقاد مطلق العلة.

والخلاصة؛ إن قوانين الخلقه ليست بحيث لا يمكن تبدلها، وتغيرها بارادة بارئها وخالقها.

إنهم يقولون: إن جميع خوارق العادة، وجميع أفعال الأنبياء العجيبة التي تتصف بصفة الاعجاز، والخارجة عن اطار القوانين الطبيعية، تتحقق من هذه الزاوية.

إنَّ هذا الفريق من الناس لا يسمَّحون لأنفسهم بان يرفضوا الأعمال الخارقة للعادة، والكرامات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، والاحاديث، أو وردت في المصادر التاريخية الصحيحة المعتمدة، أو يكشفوا فيها بحجة أنها لا توافق الموازين الطبيعية، والقوانين العلمية.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا في فترة الطفولة من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومع اخذ ما قلناه بنظر الاعتبار لا يبقى أي مجال للترديد، أو الاستبعاد:

- [لقد نقلَ المؤرخون عن «حليمة السعدية» قولها بأنها لما تكفلت إرضاع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أرادت أن ترضعه في محضر أمها، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، وأخذت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فوضعت في حجرها، ووضعت ثديها في فمه، فترك النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ثديها، ومالَ إلى ثديها الأيمن، فاخذت «حليمة» ثديها الأيمن من يد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ووضعت ثديها الأيسر في فمه وذلك أنَّ ثديها الأيمن كان جهاماً (أي خالياً من اللبن ولم يكن يدرُّ به)، وخافت (حليمة) أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا مصَّ الثدي لم يجد فيه شيئاً لا يأخذ - بعده - الأيسر. ولكن النبيَّ أصرَّ على أخذ الثدي الأيمن، فلما مصَّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الأيمن امتلأ فانفتح حتى ملى شديقه

(222)

فادهش الجميع ذلك. (1)

-2وتقول «حليمة» أيضاً: إن البوادي أجدبت وحملنا الجُهد على دخول البلد، فدخلت مكة مع نساء بني سعد فأخذت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا ورياضنا حتى أثربنا، وكثرت مواشينا، وأموالنا. (2)

إنَّ مَنْ المسلم أنَّ حكم الماديين، أو من يحذو حذوهم ويتبع منهجهم في هذه المسائل يختلف عن حكم المؤمنين بالله.

فان أتباع المنهج المادي إذ عجزوا عن تفسير هذا النوع من القضايا من زاوية العلوم الطبيعية، نجدهم يبادرون إلى اعتبار هذه الحوادث من نسج الخيال، ومن ولائد الأوهام، واما إذا كانوا أكثر تأدباً لقالوا: إن رسول الإسلام ليس بحاجة إلى امثال هذه المعاجز:

ونحن نقول: لا نقاش في أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - غني عن هذه المعاجز إلا أن عدم الحاجة شيء، والحكم بصحة هذه الأمور أو بطلانها شيء آخر.

وأما المؤمن بالله الذي يردُّ النظام الطبيعي، إلى مشيئة الله خالق الكون وارادته العليا، ويعتقد بأن كل الحركات والظواهر في العالم الطبيعي من اصغر اجزائه (الذرة) إلى اكبر موجوداته (المجرة) يجري تحت تدبيره، ونظراته، فانه بعد التحقق من مصادر هذه

الحوادث والتأكد من وقوعها ينظر إليها بنظر الاحترام، وأما إذا لم يطمئن إليها لم يرفضها رفضاً قاطعاً.

ولقد ورد في القرآن الكريم نظائر عديدة لهذه القصة حول «مريم» أم عيسى فالقرآن يخبرنا عن تساقط الرطب الجنى من جذع النخلة اليابسة كرامة لوالدة المسيح عندما لجأت إليه مريم عند المخاض إذ يقول:

(...)**الْأَتَحْرَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَ هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا.**(3)

- [بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٣٤٥ و ٣٤٦.
- 2 المناقب لابن شهر آشوب: ج ١، ص ٢٤.
- 3 مريم: ٢٤ و ٢٥.

(223)

إنه وإن كان الفرق بين «مريم» و «حليمة» شاسعاً وكبيراً من حيث الملكات الفاضلة والمكانة، والمنزلة، إلا أن منزلة «مريم» - عليها السلام - لو استوجبت مثل هذا اللطف الالهي، ففي المقام استوجب نفس مقام الوليد العظيم، ومكانته عند الله تعالى أن تشمله العناية الالهية.

كما انه قد جاء في القرآن الكريم حول مريم - عليها السلام - امور أخرى مشابهة.

ان عصمة هذه المرأة الطاهرة، وتقاهها وطهرها البالغ كانت بحيث أن «زكريا» كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فاذا سألها: من أين لك هذا قالت: هو من عند الله؟ (1)

و على هذا الأساس يجب أن لا نتردد ولا نسمح لانفسنا بأن نشك في مثل هذه الكرامات، أو نستبعداها.

خَمْسَةُ أَعْوَامٍ فِي الصَّحْرَاءِ:

أمضى وليد «عبدالمطلب» في قبيلة «بني سعد» مدة خمسة أعوام، بلغ فيها أشده.

وخلال هذه المدة اخذته «حليمة» إلى أمه مرتين أو ثلاث، وقد سلمته إلى أمه في آخر مرة.

وكانت المرة الأولى من تلك المرات عند فطامه، ولهذا السبب اتت به - صلى الله عليه وآله وسلم - «حليمة» إلى مكة ولكنها عادت به إلى الصحراء باصرار منها، وكان السبب وراء هذا الاصرار على اصطحابه معها إلى البادية هو أن هذا الوليد قد اصبح مبعث خير ورخاء، وبركة في منطقتها، وقد دفع شيوخ مرض الوباء في «مكة» إلى أن تقبل أمه الكريمة بهذا الطلب. (2)

وأما المرة الثانية من تلك المرات فكانت عندما قدم جماعة من نصارى

«... - 1 وَ كَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدَ اللَّهِ» (آل عمران: 37).
- 2 بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٤٠١.

(224)

الحبشة إلى الحجاز، فوقع نظرهم على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - في «بني سعد»، ووجدوا فيه جميع العلامات المذكورة في الكتب السماوية للنبي الذي سيأتي بعد عيسى المسيح - عليه السلام -، ولهذا عزموا على أخذه غيلة إلى بلادهم لما عرفوا ان له شأنًا عظيمًا، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره. (1)

ولا مجال لاستبعاد هذه القضية لأن علامات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذُكرت في الإنجيل حسب تصريح القرآن الكريم، فلا يبعد أن علماء النصارى قد تعرّفوا في ذلك الوقت على النبي من العلامات التي قرأوها ودرسوها في كتبهم.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

(وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. (2)

ثم إن في هذا الصعيد آيات أخر صرّحت بجلاء بأن علامات رسول الإسلام في الكتب السماوية الماضية في وضوح، ومن غير إبهام، وأن الامم السابقة كانت على علم بهذا الأمر. (3)

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٦٧.
- 2 الصف: ٦.
- 3 - الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) (الأعراف: ١٥٧).

(225)

٧

العودة

إلى أحضان العائلة

لقد خلقت يد القدرة الإلهية كل فرد من أفراد النوع الانساني لأمر معين، فهناك من خلق لاكتساب العلم والمعرفة، وهناك من خلق للاختراع والاكتشاف، وثالث خلق للسعي والعمل، وبعض للتدبير والسياسة وفريق للتدريس والتربية وهكذا.

وإن المربين المخلصين الذين بهمهم تقدم الأفراد أو رقي مجتمعاتهم لا يعمدون إلى نصب أحد في عمل من الاعمال ولا يعهدون إليه مسؤولية من المسؤوليات إلا بعد اختبار سليلته ومواهبه، بغية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، إذ في غير هذه الحالة

يتعرّض المجتمع لضررين كبيرين: أحدهما: أن لا يوكل إلى الفرد ما يستطيع القيام به، والثاني: ان يبقى العمل الذي قام به ناقصاً، مبتوراً.

وقد قيل في المثل: لكل انسان موهبة، والسعيد هو من اكتشف تلك المواهب، واصابها.

وقد ذكروا أن استاذاً كان ينصح تلميذاً له كسولاً، ويعدّد له مضارّ الكسل والتواني، ويصف له حال من ترك الاشتغال بالعلم، وضيع ربيع حياته في البطالة والغفلة.

وبيّنا الاستاذ ينصح تلميذه - وهو يسمع مواعظ أستاذه - رأى تلميذه يرسم

(226)

بقطعة من الجص صورة على المنضدة، فادرك من فوره أن هذا الصبي لم يُخلق للدرس وتحصيل العلم، بل خلقته يد القدرة للرسم، فطلب منه أن يصطحب اياه إلى المدرسة في اليوم القادم، ثم قال لوالد الصبي: إذا كان ولدك هذا كسولاً في التعلم، والتحصيل فانه يمتلك ذوقاً رفيعاً في الرسم، ورغبة كبيرة في التصوير.

وقبل الوالد نصيحة المعلم هذه ولم يمض زمانٌ طويل إلا وبرع الصبي وغدى قمة في هذا الفن، بعد أن تابع هوايته بشغف وأكثر من ممارستها.

إن فترة الطفولة والصبا في حياة الأشخاص خير فرصة لأولياء الأطفال بأن يختبروا مواهب أبنائهم، ويتعرفوا عليها من خلال تصرفاتهم، وأفكارهم وردودهم، لأن حركات الطفل وأقواله الجميلة والحلوة خير مرآة لما ينطوي عليه من مواهب وقابليات وصفات لتوفرت لها ظروف التربية الصحيحة لأمكن الاستفادة منها على أفضل صورة، وأحسن وجه.

إن مطالعة فاحصة لحياة النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأقواله وأفعاله إلى وقت البعثة المباركة تُوقنا على صورة كاملة لشخصيته - صلى الله عليه وآله وسلم - وتوضح لنا أهدافه العليا، على أن مطالعة صفحات الطفولة في حياته - صلى الله عليه وآله وسلم - فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق، بل ان دراسة الصورة الاجمالية لحياته وتاريخه إلى يوم مبعثه الشريف، وإعلانه عن نبوّته وقيادته للمجتمع، تخبرنا عن ذلك المستقبل العظيم، وبالتالي عن هذه الحقيقة وهي ان هذه الشخصية خُلقت لأى عمل، وأن إدعاء الرسالة والقيادة له هل ينسجم مع سوابقه التاريخية أم لا؟؟

هل تُؤيّد تفاصيل حياته خلال أربعين سنة قبل الرسالة، وهل تُؤيّد أفعاله وأقواله، وبالتالي: سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويلة مع

الأخرين رسالته أم لا؟؟

من هنا نعلم إلى عرض بعض الصفحات من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أيامها وسنواتها الأولى.

(227)

لقد حافظت مرضعةُ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عليه خمس سنوات، وقامت في هذه المدة برعاية شؤونه خير قيام، وبالغث في كفالته والعناية به، وفي خلال هذه المدة تعلم النبي لغة العرب على احسن ما يكون، حتى انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يفخر بذلك في ما بعد إذ كان يقول:

أنا أعربكم (اي أفصحكم)... وارضعت في بني سعد. (1)»

ثم ان «حليمة» جاءت به إلى «مكة»، وبقي عند أمه الحنون رداً من الزمن، وفي كفالة جده العظيم: «عبدالمطلب» رداً آخر منه، وكان هو السلوة الوحيدة لأقاربه والبقية الباقية من ابيه: «عبدالله». (2)»

سفرة إلى يثرب:

منذ أن فقدت كثة «عبدالمطلب» وعروس ابنه: «أمنة» زوجها الشاب الكريم: «عبدالله» باتت تترقب الفرص لتذهب إلى «يثرب» وتزور قبر زوجها الحبيب الفقيده عن كئيب، وتزور اقاربها في يثرب في نفس الوقت.

وذات مرة فكرت بأن تلك الفرصة قد سنحت، وأن ولدها «محمدًا» قد كبر، ويمكنه أن يشاركها في حزنها، فتهيأت هي وأم ايمن للسفر، واتجهت نحو يثرب برفقه «محمد»، ولبثت هناك شهراً.

ولقد انطوت (وبالاحرى حملت) هذه السفرة على بعض الألام الروحية لوليد قريش «محمد» لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - رأى فيها ولأول مرة البيت الذي توفي فيه والده العزيز، ودفن (3) وكانت والدته قد حدثته بامور عن والده إلى ذلك الحين.

وكانت لا تزال سحابة الحزن تخيم على روحه الشريفة إذ فوجيء بحادثة مقرحة أخرى، وغشيه موج آخر من الحزن لأنه عند عودته إلى مكة فقد أمه

- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٩.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٦٧.
- 3 كان البيت الذي يضم قبر «عبدالله» عليه السلام لا يزال موجوداً حتى قبيل توسعة الدائرة حول المسجد النبوي الطاهر، ولكنه أزيل بحجة إيجاد تلك التوسعة.

(228)

العزيزة في اثناء الطريق في منطقة تدعى بـ «الابواء». (1)»

إن هذه الحادثة قد عززت مكانة الرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - في عشيرته أكثر فأكثر، وجعلته يتمتع بمحبة أزيد منهم، فهو الزهرة الوحيدة من تلك الجنية المباركة، كما انه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعناية أكبر من قبل جده «عبدالمطلب» ولهذا كان يحبه أكثر من أبنائه، بل ويؤثره عليهم جميعاً.

ومن ذلك أنه كان يُمدُّ في فناء الكعبة المعظمة بساطاً لزعم قريش «عبدالمطلب» فيجلس هو عليه ويتحلَّق حوله وجوه قريش وساداتها وأولاده فإذا وقعت عيناه على بقية عبدالله «محمد» أمر بأن يُفْرَجَ له حتى يتقدم نحوه ثم يُجْلِسُهُ إلى جنبه على ذلك البساط المخصوص به. (2)

ان القرآن الكريم يُذَكِّرُ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بفترة يتمه ويقول: «ألم يجدك يتيماً فأوى.»

إن الحكمة ورايتم وليد قريش ليست واضحة لنا تمام الوضوح، ولكننا نعلم إجمالاً بأن سيل هذه الحوادث المؤلمة أحياناً، والمزعجة أحياناً أخرى لم يك خالياً عن حكمة معقولة ومصلحة رشيدة، بيد أننا مع كل هذا يمكن لنا الحدس بأن الله تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشري ومعلمه، وإمام الإنسانية وهاديها - وقبل ان يتسلم مهامه، ويزاول مسؤولياته العظمى ويبدأ قيادته - خلو الحياة ومرها، ويجرب سراء العيش وضراءه، حتى تنهياً لديه تلك الروح الكبرى الصبورة الصامدة، ويذخر من تلك الحوادث الصعبة تجارب ودروساً، ويعدّ نفسه لمواجهة مسلسل الشدائد والمصاعب، والمشاق والمتاعب التي كانت تنتظره في المستقبل.

و ربما أراد الله تعالى أن لا تكون في عنق نبيّه طاعة لأحد، ولهذا انشأه حراً خلياً من كل قيد، منذ الايام الأولى من حياته، يصنع نفسه بنفسه ويقبض لها موجبات الرشد، واسباب الرقي ليتضح أن نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٠٥ .

- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ١٦٨ .

وانه لم يكن لوالديه اي دخل فيه وفي مصيره، وبالتالي فان عظمتها الباهرة نابعة من مصدر الوحي، وليست من العوامل العادية والاسباب المألوسة المتعارفة.

وفاة عبدالمطلب:

لقد جرت عادة الحياة ان تتعرض للمرء باستمرار، وتستهدف سفينة حياته كالأمواج المتلاحقة موجهة ضرباتها القوية لروحه، ونفسه.

أجل هذه هي طبيعة الحياة وستنتها مع أفراد النوع الانساني من دون استثناء.

ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمعزل عن هذه السنة المعروفة وهذه القاعدة الحياتية العامة.

فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لوفاة والديه بعد حتى فاجأته مصيبة كبرى.

إنه لم يكن يمض من عمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أكثر من ثمان سنوات إلا وفقد جدّه العظيم «عبدالمطلب»، وقد

اعتصرت وفاة «عبدالمطلب» قلب رسول الله ألاماً وحنناً، وكان لها وقع شديد على نفسه المباركة، حتى أنه بكى لفقدته بكاء شديداً

وظلّت دموعه تجري من أجله إلى أن وري في لحده، ولم ينس ذكره أبداً. (1)!!

كفالة أبي طالب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

سيكون لنا حديث مفصّل حول شخصيّة أبي طالب في فصل خاص (2) و سنثبت هناك إيمانه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم

- بالوثائق والأدلة القاطعة، ولكنّ من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطة بفترة كفالاته للنبي

- إكتب البيهقي في تاريخه: ج ٢، ص ١٠ و ١١ من تاريخه حول سيرة عبدالمطلب، وأنه كان موجّداً لاوثنيّاً، وذكر أن الإسلام أمضى الكثير من سننه.
- 2 في حوادث السنة العاشرة.

(230)

- صلى الله عليه وآله وسلم - .

لقد تكفّل أبو طالب - ولأسباب خاصة - رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتقبل تحمّل هذه المسؤولية بفخر واعتزاز، ولأنّ

أباطال - مضافاً إلى العلل المشار إليها - كان أخاً لوالد النبي من أمّ واحدة أيضاً (1) كما أنّه كان معروفاً بجوده وكرمه، ومن هنا

أوكل «عبدالمطلب» أمر كفالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حفيده، إليه، وسوف نقص عليك تدريجاً سطوراً ذهبية من تاريخه،

تمثل شاهد صدق على خدماته القيمة، وأيديه الجليّة.

يقولون: إن النبي شارك وهو في العاشرة من عمره جنباً إلى جنب مع عمّه في حرب من الحروب (2) وحيث أن هذه الحرب وقعت

في الأشهر الحرم لذلك سُميت بحرب «الفجار» وقد وردت تفاصيل حروب «الفجار» في التاريخ بشكل مسهب.

سفرة إلى الشام:

لقد جرت العادة ان يسافر تجار قريش إلى الشام كل سنة مرة واحدة.

فعمز «أبو طالب» على أن يشارك في رحلة قريش السنوية هذه ذات مرة، وعالج مشكلة ابن اخيه «محمّد» الذي ما كان يقدر على

مفارقتة بأنه قرر أن يتركه في مكة في حراسة جماعة من الرجال، ولكنه ساعة الرحيل واجه من ابن اخيه العزيز ما غير بسببه

قراره المذكور فقد شاهد «محمّداً» وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق كفيله الحميم «أبي طالب»، فحدثت ملامح «محمّداً» الكئيبة طوفاناً من المشاعر العاطفية في قلب «أبي طالب» بحيث اضطرتّه إلى أن يرضى

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٧٩، وأمهما هي فاطمة المخزومية].
- [2] لقد كتب اليعقوبي في تاريخه: ج ١، ص ١٥ طبعة النجف أنّ أبا طالب لم يشترك في هذه الحرب قط، كما لم يسمح لبني هاشم بالمشاركة فيها أيضاً، لأنه كان ظملاً وعدواناً وقطيعة رحم واستحلالاً للشهر الحرام.

(231)

بمشقة اصطحاب «محمّداً» في تلك الرحلة. (1)

لقد كانت سفرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه التي قام بها بصحبة عمّه وكافله «أبي طالب» في الثانية عشرة من عمره، من اجمل وأطرف اسفاره - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - غير فيها على: «مدين» و «وادي القرى» و «ديار ثمود» وأطلع على مشاهد الشام الطبيعية الجميلة.

ولم تكن قافلة قريش التجارية قد وصلت إلى مقصدها حتّى حدثت في منطقة تدعى «بصرى» قضية غيرت برنامج «أبي طالب» وتسببت في عدوله عن المضي به في تلك الرحلة والقول إلى مكة.

واليك فيما يلي مجمل هذه القضية:

كان يسكن في «بصرى» من نواحي الشام راهبٌ مسيحي يدعى «بحيرا» يتعبّد في صومعته، يحترمه النصارى في تلك الديار.

وكانت القوافل التجارية إذا مرت على صومعته توقفت عندها بعض الوقت وتيركت بالحضور عنده.

وقد اتفق أن التقى هذا الراهب قافلة قريش التي كان فيها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلفت نظره شخصيّة «محمّداً»، وراح يحذق في ملامحه، وكانت نظراته هذه تحمل سرّاً عميقاً ينطوي عليه قلبه منذ زمن بعيد وبعد دقائق من

- [ويذكر «أبو طالب» في ابیات له قصّة هذه السفرة وما جرى فيها من البدء إلى الختام نقتطف منها بعض الأبيات:

إنّ ابنَ أمانة النبي محمّداً * عندي يفوقُ منازل الأولاد

لما تعلّق بالزمام رحمته * والعيسُ قد قلّصنَ بالازواد

فأرضن من عيني دمع ذارفت * مثل الجمان مُفرّق الأفراد

راعيثُ فيه قرابة موصولة * وحفظت فيه وصية الأجداد
وأمرته بالسير بين عمومة * بيض الوجوه مصالحت أنجاد
حتى إذا ما القومُ بصرى عابنوا * لاقوا على شرك من المرصاد

حبراً فاخبرهم حديثاً صادقاً * عنه وردّ معاشر الخُساد

(تاريخ ابن عساکر: ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ و ديوان أبي طالب: ص ٣٣ - ٣٥.)

(232)

النظرات الفاحصة، والتحديق في وجه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خرج عن صمته وانبرى سائلاً: أنشدكم بالله أيكم وليه؟

فاشار جماعة منهم إلى «أبي طالب» وقالوا: هذا وليه.

فقال «ابوطالب»: إنه ابن أخي، سلني عما بدا لك.

فقال «بحيرا»: إنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ، نجده في كتبنا وماروينا عن آبائنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسول رب العالمين،

يبعثه رحمة للعالمين. إحدز عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليقتصدن قتله. (1)

هذا وقد اتفق أكثر المؤرخين على أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يتعدّ تلك المنطقة، وليس من الواضح أن عمه «أبا

طالب» بعثه إلى مكة مع أحد، (ويُستبعد أن يكون عمه قد رضي بمفارقتة منذ أن سمع تلك التحذيرات من الراهب بحيرا)، أم أنه

اصطحبه بنفسه إلى مكة، وانتثى عن مواصلة سفره إلى الشام. (2)

وربما قيل أنه تابع - بحذر شديد - سفره إلى الشام مع ابن أخيه «محمّد». »

أَكْذُوبَةُ الْمُسْتَشْرِقِينَ:

لقد آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب ان نشير إلى أخطاء المستشرقين وغلطاتهم بل وربما أكاذيبهم، واتهاماتهم الباطلة، وشبههم

الواهية ليتضح للقراء الكرام الى أي مدى يحاول هذا الفريق إرباك أذهان البسطاء من الناس، وبلبله عقولهم حول قضايا الإسلام!!

إن قضية اللقاء الذي تم - في بصرى - بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والراهب «بحيرا» لم تكن سوى قضية بسيطة، وحادثة

عابرة وقصيرة، إلا أنها وقعت في ما بعد ذريعة بأيدي هذه الزمرة (المستشرقون) فراحوا يصرون أشدّ اصرار على أنّ

- [1] روى تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٣٢ و ٣٣، والسيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٠ - ١٨٣ هذه القصة بتفصيل أكبر وقد اختصرناها هنا تمثيلاً مع حجم هذا الكتاب.

- [2] السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٢ و ١٨٣.

ما أظهره رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من تعاليم رفيعة سامية بعد ٢٨ عاماً، واستطاع بها أن يُحيي بها تلك الأمة الميّتة قد تلقاها من الراهب «بحيرا» في هذه السفرة. ويقولون: إن «محمّداً» بما تمتع به من قوة ذاكرة، وصفاء نفس ودقة فكر، وعظمة روح وهيته اياها يد القدر، أخذ من الراهب «بحيرا» في لقائه به، قصص الانبياء السالفين والاقوام البائدة مثل عاد وثمود، وكثيراً من تعاليمه الحيوية.

ولا ريب في أن هذا الكلام ليس سوى تصور خيالي لا يتلاءم ولا ينسجم مع حياته - صلى الله عليه وآله وسلم - بل وتكذبه الموازين العقلية، واليك بعض الشواهد على هذا:

- [لقد كان «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - باجماع المؤرخين أمياً، لم يتعلم القراءة والكتابة، وكان عند سفره إلى الشام، ولقائه بـ «بحيرا» لم يتجاوز ربيعته الثاني عشر بعد، فهل يصدق العقل - والحال هذه - أن يستطيع صبي لم يدرس ولم يتعلم القراءة والكتابة ولم يتجاوز ربيعته الثاني عشر ان يستوعب تلك الحقائق من «التوراة» و «الإنجيل»، ثم يعرضها - في سن الاربعين - على الناس بعنوان الوحي الالهى والشريعة السماوية؟!]

إن مثل هذا الأمر خارج عن الموازين العادية، بل ربما يكون من الأمور المستحيلة لو أخذنا بنظر الاعتبار حجم الإستعداد البشري

2- إن مدة هذا اللقاء كان اقل بكثير من أن يستطيع محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - في مثل تلك الفترة الزمنية القصيرة أن يستوعب «التوراة» و «الانجيل»، لأن هذه الرحلة كانت رحلة تجارية ولم يستغرق الذهاب والاياب والاقامة اكثر من أربعة أشهر، لأن قريشاً كانت تقوم في كل سنة برحلتين، في الصيف إلى «الشام»، وفي الشتاء إلى «اليمن»، ومع هذا لا يُظنّ أن تكون الرحلة برمتها قد استغرقت اكثر من اربعة أشهر، ولا يستطيع اكبر علماء العالم واذكاهم من أن يستوعب في مثل هذه المدة القصيرة جداً محتويات دينك الكتابين، فضلا عن صبي لم يدرس، ولم يتعلم القراءة والكتابة من احد.

هذا مضافاً إلى أنه لم يكن يصاحب - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك الراهب كل تلك الاشهر الاربعة بل ان اللقاء الذي وقع إتفاقاً في أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عدة ساعات لا اكثر.

3- إن النص التاريخي يشهد بأن «باطالب» كان ينوي اصطحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الشام، ولم يكن مقصده الأصلي «بصرى» بل إن «بصرى» كان منزلاً في أثناء الطريق تستريح عنده القوافل التجارية أحياناً، ولفترة جداً قصيرة.

فكيف يمكن في مثل هذه الصورة ان يمكث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك المنطقة، ويشغل بتحصيل علوم «التوراة» و «الانجيل» ومعارفهما؟ سواء قلنا بأن «اباطالب» أخذ معه إلى الشام، أو عاد به من تلك المنطقة إلى مكة أو أعاده بصحبة أحد إلى مكة؟!

وعلى كل حال فان مقصد القافلة ومقصد «ابي طالب» لم يكن «بصرى» ليقال: ان القافلة اشتغلت فيها بتجارتها، بينما اغتتم «محمّد» الفرصة واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

4- إذا كان محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تلقى أموراً ومعارف من الراهب المذكور اذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً، ولتتناقل الجميع خبر ذلك بعد العودة إلى مكة.

هذا مضافاً إلى أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه ما كان يتسطيع أن يدعي امام قومه في ما بعد بأنه أمي لم يدرس كتاباً، ولا تلمذ على أحد، في حين أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - افتتح رسالته بهذا العنوان، ولم يقل أحد، يا محمّد كيف تدعي بأنك لم تقرأ ولم تدرس عند احد وقد درست عند راهب «بصرى» وتلقيت منه هذه الحقائق الناصعة وانت في الثانية عشرة من عمرك؟

لقد وجّه مشركوا مكة جميع انواع الإتهام إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وبالغوا في البحث عن آية نقطة ضعف في قرآنه يمكن أن يتذرعوا بها لتفنيد دعوته، حتى أنهم عندما شاهدوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات مرة عند

(235)

«مروة» يجالس غلاماً نصرانياً استغلوا تلك الفرصة وقالوا: لقد أخذ «محمّد» كلامه من هذا الغلام، ويروي القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ) (1)

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لذكر هذه الفرية قط كما أن قريشاً المجادلين المعاندين لم يتذرعوا بها أبداً، وهذا هو بعينه دليل قاطع وقوي على أن هذه الفرية من افتراءات المستشرقين في عصرنا هذا، ومن نسج خيالهم!!

5- إن قصص الانبياء والرسل التي جاءت في القرآن الكريم على وجه التفصيل تتعارض وتتنافى مع ما جاء في التوراة والانجيل

فقد ذكّرت قصص الأنبياء واحوالهم في هذين الكتابين بصورة مشينة جداً، وطُرحت بشكل لا يتفق مع المعايير العلمية والعقلية مطلقاً، وان مقايسة عاجلة بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانب آخر تثبت بأن قضايا القرآن الكريم ومعارفه

لم تتخذ من ذينك الكاتبين بحال، ولو أن النبي محمّداً - صلى الله عليه وآله وسلم - قد اكتسب معارفه ومعلوماته حول الانبياء والرسل من العهدين لجاؤا كلاً من مزيجاً بالخرافات والأوهام. (2)

6- إذا كان راهب «بصري» يمتلك كل هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فلماذا لم يحض هو بأي شيء من الشهرة، ولماذا ترى لم يُربِّ غير «محمّد» في حين أن معبده كان مزار الناس ومقصد القوافل؟!

7- يعتبر الكتاب المسيحيون «محمّداً» - صلى الله عليه وآله وسلم - رجلاً أميناً صادقاً، والآيات القرآنية تصرح بأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن على علم مسبق

- [النحل: ١٠٣].
- 2 تتجلى هذه الحقيقة أكثر فاكثراً إذا ما قارنا بين مواضع القرآن الكريم، وبين ما جاء في نصوص العهدين (التوراة والإنجيل) وقد تصدى بعض الكتاب الإسلاميين لمثل هذه المقارنة، وقد تعرضنا لها أيضاً في بعض دراساتنا.

(236)

أصلاً بقصص الأنبياء والأمم السابقين، وأن معلوماته في هذا الصعيد لم تحصل لديه إلا عن طريق الوحي.

فقد جاء في سورة «القصص» الآية (٤٤) هكذا: **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْعَرَبِ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ .** ()

وجاء في سورة «هود» الآية (٤٩) بعد نقل قصة نوح: **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا .** ()

إن هذه الآيات توضح أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن على علم أبداً بهذه الحوادث، والوقائع.

وهكذا جاء في الآية (٤٤) من سورة «آل عمران»: **«ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَهْمُ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ، وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ .** ()

إن هذه الآية وغيرها من الآيات العديدة تصرح بأن هذه الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق الوحي فقط، وهو لم يكن على علم بها مطلقاً.

نظرة إجمالية إلى التوراة الحاضرة:

إنَّ هذا الكتاب السَّمَوِيُّ تورَّط في تناقضات عجيبة في بيان قصص الأنبياء والمرسلين لا يمكن نسبتها إلى الوحي مطلقاً، وها نحن نأتي هنا بنماذج في هذا المجال من التوراة ليتضح لنا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لو كان قد أخذ قضايا القرآن الكريم من ذلك الراهب فلماذا لا يحتوي هذا الكتاب العظيم على تلك الأضاليل التي انطوى عليها «التوراة» و «الانجيل». »
واليك بعض ما جاء حول الأنبياء والمرسلين في «التوراة» و «الانجيل» ونقارن ذلك بما جاء في القرآن الكريم ليتضح مدى الفرق بين الكتابين (العهدين، والقرآن).

* * *

(237)

-[داود - عليه السلام - :

جاء في التوراة: «إن داود رأى من على السطح امرأة تستحمّ، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فارسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: إنها امرأة أورثيا فأرسل داود رسلا وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فارسلت وأخبرت داود وقالت: إني خُبلت، فارسل داود إلى يواب يقول: اجعلوا أورثيا في وجه الحرب الشديدة(1)، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت... فلما سمعت امرأة أورثيا أنه قدمات أورثيا رجئها نذبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضمها إلى بيته وصارت له امرأة، وولدت له ابناً، وأما الأمر الذي فعله داود ففحيح في عيني الرب. (2)!!»

هكذا تصف التوراة النبي الكريم داود، وترميه بالزنا، واکراه امرأة محصنة على خيانة زوجها!!

بينما يصف القرآن الكريم النبي داود - عليه السلام - بافضل الاوصاف إذ يقول (في الآية ١٥ و ١٦ من سورة النمل):

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَ

أوتينا من كل شيء إن هذا فهو الفضل المبين.)

2- النبي سليمان - عليه السلام - :

تقول «التوراة» عن النبي العظيم سليمان - عليه السلام - :

1- «وداود الملك ولد سليمان من التي لأورثيا. (3)»

أي ان سليمان النبي الكريم - والعياذ بالله - هو ابن زنا!!

- 1 أي في مقدمة الجيش المحارب.
- 2 العهد القديم (التوراة): صموئيل، الثاني الاصحاح الحادي عشر 3 إلى 27.
- 3 إنجيل متى: الاصحاح الأول 6.

(238)

2- و أَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ نِسَاءَ غَرِيبَةٍ... مِنْ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لِأَنَّهُمْ يُمِيلُونَ قُلُوبَكُمْ وَرَاءَ آلِهَتِهِمْ، فَالْتَصِقْ سُلَيْمَانُ بِهَوْلَاءَ بِالْمَحَبَّةِ، وَكَانَتْ لَهُ سَبْعُ مِئَةِ مِنَ النِّسَاءِ السِّدَاتِ، وَثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ السَّرَارِيِّ فَأَمَالَتْ نِسَاؤَهُ قَلْبَهُ وَكَانَ فِي زَمَانِ شَيْخُوخَةِ سُلَيْمَانَ أَنْ نِسَاءَهُ أَمَلْنَ قَلْبَهُ وَرَاءَ آلِهَةٍ أُخْرَى، وَلَمْ يَكُنْ قَلْبُهُ كَامِلاً مَعَ الرَّبِّ إِلَهِهِ كَقَلْبِ دَاوُدَ أَبِيهِ، فَذَهَبَ سُلَيْمَانُ وَرَاءَ عَشْتُورَتِ إِلهَةِ الصَّيْدِ وَنِينَ، وَمَلِكُومَ رَجَسِ الْعُمُونِيِّينَ، وَعَمَلَ سُلَيْمَانُ الشَّرَّ فِي عَيْنِي الرَّبِّ، وَلَمْ يَتَّبِعِ الرَّبَّ تَمَاماً كَدَاوُدَ أَبِيهِ، فَغَضِبَ الرَّبُّ عَلَى سُلَيْمَانَ لِأَنَّ قَلْبَهُ مَالَ عَنِ الرَّبِّ إِلَهِ إِسْرَائِيلَ. (1)!!!»

إن سليمان - حسب هذه التعبيرات التوراتية - يعشق النساء الاجنبيات، ويتقرب اليهن بصنع أصنام لهن. ويعبدها معهن، ويرتكب الشرور التي أغضبت الرب!!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان - عليه السلام - (وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْماً. (2)

ويقول: (وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. (3)

إنه نبي عظيم اختاره الله تعالى لوجيه، وأصطفاه لأداء رسالاته.

3- يعقوب - عليه السلام - :

إن «التوراة» تصف النبي العظيم يعقوب - عليه السلام - بأنه رجل كذاب مخادع، أخذ النبوة من أبيه بالمكر والخداع، «فبعد ما شاخ إسحاق وكنت عيناه عن النظر دعا عيسو ابنه الأكبر، وطلب منه أن يصطادله صيداً، ويصنع له طعاماً جيداً حتى يباركه، ويعطيه النبوة، ولكن يعقوب (ابن إسحاق من رفقة

- 1 التوراة: الملوك الأول الاصحاح: 11، العبارات 1: 11.

- 2 النمل: 16.

- 3 الأنبياء: 81.

(239)

زوجته الأخرى) بادر إلى صنع طعام لذيذ لأبيه وتظاهر بأنه عيسو، لابساً ثياب عيسو، وقطعاً من جلود جذبي المعزى على عنقه لأن عيسو كان مشعراً وكان يعقوب امس الجسد، فبارك إسحاق ابنه يعقوب ومنحه النبوة، وبعد ذلك قدم عيسو من الصيد، فعرف

اسحاقُ بانه خُدع، وأن يعقوب أخذ منه النبوة بالمكر، فارتعد اسحاقُ ارتعاداً عظيماً جداً وقال ليعيسو متأسفاً: قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك. (1)!!»

هذا هو حال يعقوب في لسان «التوراة» المحرفة!!

وأما القرآن الكريم فانه يقول عن هذا النبيّ الطاهر:

(وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ. (2))

ويقول تعالى أيضاً:

(وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ. إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ. (3))

-4 إبراهيم - عليه السلام - :

تقول «التوراة» عن إبراهيم - عليه السلام - إنه لما اراد أن يدخل مصر قال لزوجته سارة: إنني قد علمتُ أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني، ويستبقونك، قولي إنك أختي، ليكون لي خيرٌ بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

وكذلك فعلتُ سارة و أخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى إبرام خيراً

- [سفر التكوين: الاصحاح السابع والعشرون: ١ إلى ٤٦، وقد ذكرنا هذه القصة من التوراة بتلخيص.
- 2 الأنعام: ٨٤.
- 3سورة ص: ٤٥ - ٤٧.

بسببها، وصار له غنم، وبقر، وحمير، وعبيد، وإماء، وأتن، وجمال، ولما عرف فرعون - في ما بعد - ان سارة زوجة ابراهيم، وليس أخته عاتبه قاتلاً: لماذا لم تخبرني إنها امرأتك، لماذا قلت: هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي والآن هو ذا امرأتك، خذها واذهب. (1)»

إن ابراهيم الخليل - عليه السلام - في وصف التوراة رجلاً كذاباً، يكذب ويحتال.

أما القرآن الكريم فيصف هذا النبي الجليل بأعظم الأوصاف، ويعتبره أعظم الأنبياء إذ يقول عنه انه:

1- حنيف موحِّدٌ لله: **وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا** (آل عمران: ٦٧).

2- إمام الناس: **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** (البقرة: ١٣٤).

3- مُسَلِّمٌ: **وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسَلِّمًا** (آل عمران: ٦٧).

4- خَلِيمٌ: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** (التوبة: ٨٤).

5- أمة كاملة بمفرده: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً** (النحل: ١٢٠).

6- أواهٌ يخشى الله: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ** (التوبة: ٨٤).

7- مصطفى: **لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنِ الْأَخْيَارِ** (ص: ٤٨).

8- ذو قلب سليم: **إِذْ جَاء رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (الصافات: ٤٨).

5- المسيح - عليه السلام - :

إن عيسى - حسب رواية الإنجيل - يحتقر أمه، ويزدري بها، فذات يوم جاء إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وارسلوا يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له «هو ذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك، فأجابهم قائلاً: من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي، لأنَّ مَنْ يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمِّي(2)!!»

- [1] سفر التكوين: الاصحاح الثاني عشر ١ - ٢٠.

- [2] إنجيل مرقس: الاصحاح الثالث: ٣١ - ٣٥.

إنه يقول هذا الكلام عن أمه التي وصفها القرآن الكريم بأن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين. (1)

إنه يفضِّل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به في قلوبهم ذرة من خردل، والذين خذلوه ليلة الهجوم عليه من جانب اليهود (2)- كما يقول الإنجيل - على أمه الصديقة.

كما إن الإنجيل يقول: إن المسيح حوّل الماء إلى الخمر في عرس (3) بل يقول إنه - عليه السلام - شرب الخمر (4)، والحال أن

الإنجيل يصرِّح بحرمة الخمر في مواضع عديدة.

هذا هو «عيسى» النبي الطاهر وحواريوه حسب رواية الانجيل. (5)!!

أما القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله: «الانجيل» وإليك بعض ما جاء في الكتاب العزيز حول «المسيح» - عليه السلام - .

قال الله تعالى: **وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.** (6)

وقال تعالى أيضاً: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ.** (7)

ويكفي في عظمة المسيح - عليه السلام - وعلو شأنه أنه - عليه السلام - كَلَّمَ الناس في المهد صبياً وقال: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابُ**

وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا. وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي

-
- 1 آل عمران: ٤٢.
 - 2 انجيل متى: الاصحاح السابع والشعرون ١ - ٦ انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطي وهو أحد الحواريين مع المتآمريين ضد المسيح، وأيضاً راجع نفس السفر: الاصحاح السادس والعشرين: وراجع انجيل متى: الاصحاح العاشر أيضاً.
 - 3 انجيل يوحنا: الاصحاح الثاني: ١ - ١١.
 - 4 انجيل لوقا: الاصحاح الأول ١٥ وغيره.
 - 5 على أن خرافات التوراة والانجيل لا تنحصر في ما ذكرناه هنا، وللتوسع راجع: أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام، والهدى إلى دين المصطفى للعلامة البلاغي.
 - 6 البقرة: ٧٨.
 - 7 النساء: ١٧١.

(242)

جَبَّارًا شَقِيًّا. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتٍ وَ يَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. (1)

هذه هي مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وتلك هي مواقف «التوراة» و «الانجيل» المشينة، المسيئة إلى

شخصية سفراء الله مبلغي رسالاته، فكيف يُعقل ان يكون القرآن الكريم مقتبساً من تلك الكتب وبينهما بُعد المشرقين؟!

ثم لو أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد اطلع على هذه القضايا والقصص قبل إخباره بنبوته فلماذا لم يرشح منها شيء

في أحاديثه قبل الرسالة وقد عاش بين قومه طويلاً.

قال الله سبحانه في معرض الردّ والجواب على اقتراح المشركين على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن يأتي لهم بقرآن غير

الذي جاء به:

(قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. (2)

فالآية تؤكد على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان لابثاً في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آياً من آياته،

فكل ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد ان بعثه بالرسالة. (3)

- 1مریم: ۳۰ - ۳۴.
- 2یونس: ۱۶.
- 3للتوسع راجع مفاهيم القرآن: ج ۳، ص ۳۲۱ - ۳۲۳.

(243)

٨ فَترَة الشَّبَاب في حياة النبي الأكرم

يجب ان يكون قادة المجتمع أقوياء شجعان، لا يرهيون أحداً، ولا يخافون شيئاً، يمتلكون قوة روحية كبرى، ويتمتعون بصبر عظيم. وإرادة قوية، صلبة.

فكيف يستطيع الضعفاء والجنباء والمترددون، وضعاف النفوس قيادة المجتمع، والخروج به من المازق والمشاكل، وكيف يستطيعون أن يقاوموا اعداءهم ويحفظوا كياناتهم وشخصيتهم من عدوان هذا أو ذاك!؟

إن لعظمة القائد الروحية، ولقواه البدنية والنفسية تأثيراً عظيماً وعجيباً في أتباعه وأنصاره، فعند ما اختار الإمام أمير المؤمنين - عليه السلام - أحد أصحابه المخلصين لولاية «مصر» كتب إلى أهل «مصر» المظلومين الذين ذاقوا الأمرين على ايدي ولاتهم السابقين كتاباً ذكر فيه شجاعة هذا الوالي الجديد، الروحية وقدرته النفسية الفائقة، وإليك فيما يلي بعض الفقرات من ذلك الكتاب الذي يعكس الشروط والمواصفات الواقعية في القائد:

«أما بعدُ فقد بعثتُ اليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف، ولا ينكُل عن الأعداء ساعات الروح، أشدَّ على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مزحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابَقَ الحق، فإنه سيُفِّ من

(244)

سُيوف الله، لا كليل الطَّبَّة، ولا نابي الضريبة.⁽¹⁾»

رسولُ الله وقدرتهُ الروحيَّة:

لقد كانت آثار الشجاعة، والقوة باديةً في جبين عزيز قريش منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره الشريف شارك في حرب هاجت بين قريش من جهة، وقبيلة هوازن من جهة أخرى، وتدعى «حرب الفجار»، وقد كان في هذه الحرب يناول أعمامه النبل.

فها هو «ابن هشام» ينقل عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «كُنْتُ أَنْبُلُ عَلَى أَعْمَامِي.⁽²⁾»

إن مشاركته - صلى الله عليه وآله وسلم - في العمليات الحربية في مثل هذه السن تكشف عن شجاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - وقدرته الروحية الكبرى وتساعدنا على أن ندرك مغزى ما قاله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - عليه السلام - في حق النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - «: كُنَّا إِذَا أَحْمَرُ الْبَاسُ إِتَّقَيْنَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ»⁽³⁾»

وسوف نشير - وبعون الله عند ذكر جهاد المسلمين للكفار والمشركين - إلى نظام العسكرية الإسلامية وكيفية جهاد المسلمين وقتالهم لأعدائهم التي تمت بأجمعها بتوجيه من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وهو في نفسه من الابحاث الشيقة في تاريخ الإسلام.

خُروبُ الفِجارِ:

إنَّ الحديثَ بتفصيل هذه الوقائع وعن تكتيكات هذه الحوادث التاريخية

- إنهج البلاغة: قسم الرسائل، الرقم ٣٨.
- السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٦، وقد قال ابن الأثير في النهاية بعد نقل هذا الحديث وضبط الكلمة «انبل» مشددة «أنبل»: «إذا ناولته النبل يرمي» راجع مادة نبل.
- إنهج البلاغة: فصل في غريب كلامه الرقم ٩.

(245)

خارج عن إطار هذه الدراسة، بيد أننا - مع ذلك - نعمد إلى بيان أسباب هذه الحروب التي شارك في إحداها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بناء على رواية بعض المؤرخين وحوادثها على نحو الاجمال بغية اطلاع القارىء الكريم.

كانت العرب تقضي عامها كله بالقتال والاغارة، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال حياتهم، واضطراب أمورهم، ولأجل هذا كانوا يحرمون القتال ويتوقفون عنه في أربعة أشهر من كل عام (هي شهر رجب، ذوالقعدة، ذوالحجة، محرم) ليتسنى لهم - في هذه المدة - أن يقيموا أسواقهم، ويستغلواها بالكسب والتجارة والبيع والشراء.⁽¹⁾

ولهذا كانت أسواق «عكاظ» و «مجنة» و «ذوالمجاز» تشهد طوال هذه الأشهر الحرام اجتماعات كبرى وتجمعات حافلة وحاشدة، كان يلتقي فيها العدو والصديق جنباً إلى جنب، يتبايعون، ويتفاخرون.

فقد كان شعراء العرب المشهورون يلقون قصائدهم في هذه الاجتماعات الكبرى، كما يلقي كبارُ خطباء العرب وفصحاؤهم خطاباً قوية، وأحاديث في غاية الفصاحة والبلاغة، وكان اليهود والنصارى والوثنيون يعرضون معتقداتهم في هذه المناسبات من دون خوف أو وجل.

ولكن هذه الحرمة قد هُتكت أربع مرات في تاريخ العرب، وتقاتلت القبائل العربية فيما بينها في هذه الأشهر الحرم، ولهذا سُميت تلك الحروب بحروب «الفجار»، وفي مايلي نشير إليها على نحو الاجمال:

الفِجَارُ الأوَّل:

ووقعت الحربُ فيها بينَ قبيلتي «كنانة» و «هوازن» وجاء في سبب نشوب

- إِيستفاد من قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبة: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» أن تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة كان ذا جذور دينية، وكانت العرب الجاهلية تحترم هذه الأشهر اتباعاً لسنة «إبراهيم الخليل» عليه السلام.

(246)

هذه الحرب أن رجلا يدعى «بدر بن معشر» كان قد أعد لنفسه مكاناً في سوق «عكاظ» يحضر فيه، ويذكر للناس مفاخره فوقف ذات مرة شاهراً سيفه يقول: أنا والله أعزُّ العرب فمن زعم أنه أعزُّ مني فليضربها بالسيف.

فقام رجلٌ من قبيلة أخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها، فاختم الناس وتنازعت القبيلتان، ولكنهما اصطلحتا من دون أن يُقتل

أحدٌ. (١)

الفِجَارُ الثَّانِي:

وكان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من «بني عامر» وهي جميلة، عليها برقع، فقالوا لها: إسفري لنا ننظر إلى وجهك، فلم تفعل، فقام غلامٌ منهم، فجمع ذيل ثوبها إلى مافوقه بشوكة فلما قامت انكشف جسمها، فضحكوا، فصاحت المرأة قومها، فأتاها الناس، واشتجروا حتى كاد ان يكون قتالٌ، ثم اصطلحوا، وانفضوا بسلام.

الفِجَارُ الثَّالِث:

وسببه أن رجلا من «كنانة» كان عليه دئبٌ لرجل من «بني عامر»، وكان الكناني يماطل، فوقع شجارٌ بين الرجل، واستعدى كل واحد منهما قبيلته، فاجتمع الناس، وتجاوزوا حتى كاد يكون بينهم القتال، ثم اصطلحوا.

الفِجَارُ الرَّابِع:

وهي الحرب التي - قيل أنه - شارك فيها النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد ادعى البعض انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يومذاك في الخامسة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمره.

(247)

وقال بعضٌ: انه كان في العشرين من عمره وحيث أن هذه الحرب قد استمرت أربع سنوات. لهذا يمكن أن تكون جميع هذه الأقوال صحيحة. (1)

وقيل في سببه: أن «النعمان بن المنذر» ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق «عكاظ» في كل عام بضاعة في جوار رجل شريف من أشرف العرب، يُجيرها له حتى تباع هناك ويشتري بثمنها من أقمشة «الطائف» الجميلة المزركشة مما يحتاج إليه، فأجارها «عروة الرجال الهوازني» في تلك السنة، ولكن «البراض بن قيس الكناني» انزعج لمبادرة «عروة» إلى ذلك، فشكاه عند «النعمان بن المنذر» ولم يجد اعتراضه وشكواه، فحسد على «عروة» حسداً شديداً، فتربص به حتى غدر به في اثناء الطريق، وبذلك لطمح يده بدم هوازني.

وكانت قريش يومذاك حليف كنانة، وقد اتفق وقوع هذا الأمر يوم كانت العرب مشغولة بالكسب والتجارة في سوق عكاظ، فأخبر رجل قريشاً بمقتل الهوازني على يد الكناني، ولهذا عرفت قريش وحليفتها بنوكنانة بالأمر قبل هوازن، وأسرعوا في الخروج من «عكاظ» وتوجهوا نحو الحرم (والحرم هو اربعة فراسخ من كل جانب من مكة، وكانت العرب تحرم القتال في هذه المنطقة) ولكن هوازن علمت بذلك فلاحقت قريش ٣ وحليفتها فوراً، وادركتهم قبل الدخول في الحرم فوقع بينهم قتال، ولما جن الليل كفوا عن الحرب فاغتنمت «قريش» وحليفتها فرصة الليل، وواصلت حركتها باتجاه الحرم المكي وبذلك نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلك اليوم كانت تخرج قريش وحليفتها من الحرم بين الفينة والاخرى وتقاتل هوازن، وقد شارك النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في بعض تلك الأيام مع أعمامه على النحو الذي مرّ ببيانه.

وقد استمر الامر على هذه الحال مدة أربع سنوات، حتى ان وُضعت نهاية

- [التاريخ الكامل: ج ١، ص ٣٥٨ و ٣٥٩، السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٤ الهامش، تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٥٩.

(248)

لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن دية القتلى الذين كانوا يزيدون على قتلى قريش على يد هوازن. (1)

وقد أسلفنا أن تحريم القتال في الأشهر الحرم كانت له جذورٌ دينية، وحيث أن حرب «الفجار» استمرت أربع سنوات فيمكن أن يكون لمشاركة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيها وجهاً وجيهاً وهو الدفاع، خاصة انه لما سئل - صلى الله عليه وآله وسلم -

- عن مشهده يومئذ فقال: «ما سَرَنِي أَنِّي أَشْهَدُهُ، إِنَّهُمْ تَعَدَّوْا عَلَيَّ قَوْمِي عَرَضُوا (اي قريش) عَلَيَّهِمْ (اي على هوازن) أَنْ يَدْفَعُوا
إِلَيْهِمُ الْبِرَاضَ صَاحِبَهُمْ (اي الذي قتل عروة) فَأَبَوْا. (2)»

ويحتمل أن تكون مشاركته - صلى الله عليه وآله وسلم - في غير الأشهر الحرم بناء على استمرار هذه الحروب مدة أربعة اعوام،
وإنما سميت مع ذلك بالفجار لأن بدايتها وافقت الأشهر الحرم لا أنها وقعت بتمامها في الأشهر الحرم.

وبذلك لا يبقى مجال لأن تُسْتَبْعَد مشاركة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في بعض أيام تلك الحرب.

حَلْفُ الْفُضُولِ:

لقد كان في ما مضى ميثاقٌ وحلفٌ بين الجرهميين يدعى بحلف «الفضول»، وكان هذا الحلف يهدف الى الدفاع عن حقوق
المظلومين، وكان المؤسسون لهذا الحلف هم جماعة كانت اسماءهم برمتها مشتقة من لفظة الفضل، واسماؤهم - كما نقلها المؤرخ
المعروف «عمادالدين ابن كثير» - هي عبارة عن: «فضل بن فضالة»، و «فضل بن الحارث»، و «فضل بن وداعة(3)»، وحيث
أن الحلف الذي عقده جماعة من قريش فيما بينها كان متحداً في الهدف (وهو الدفاع عن حقوق المظلومين) مع حلف «الفضول»
لذلك سمّي هذا الاتفاق

- [سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٨٤ - ١٨٧، الأغاني: ج ٢٢، ص ٥٦ - ٧٥.
- ١2 الأغاني: ج ٢٢، ص ٧٣.
- 3 البداية والنهاية: ج ١، ص ٢٩٠.

(249)

وهذا الحلف بحلف «الفضول» أيضاً.

فقبل البيعة النبوية الشريفة بعشرين عاماً دخل رجلٌ من «زبيد في مكة في شهر ذي القعدة، وعرض بضاعة له للبيع فاشتراها منه
«العاص بن وائل»، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيديّ قريشاً، وطلب منهم أن ينصروه على العاص، وقريش آنذاك في
انديتهم حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته * بطن مكة نائي الدار والنقر

ومحرم أشعث لم يقض عُمرته * يا للرجال ويبن الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت كرامته * ولا حرام لثوب الفاجر القذر

فاتارت هذه الأبيات العاطفية مشاعر رجال من قريش، وهيجت غيرتهم، فقام «الزبير بن عبدالمطلب» وعزم على نصرته، وأيده في ذلك آخرون، فاجتمعوا في دار «عبدالله بن جدعان» وتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى إليه حقه ما أمكنهم ذلك ثم مشوا إلى «العاص بن وائل» فانتز عوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

وقد أنشد الزبير بن عبدالمطلب في ذلك شعراً فقال:

إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقدُوا وَتَحَالَفُوا * أَلَا يَقِيمُ بِبَطْنِ مَكَّةَ ظَالِمٌ

أَمْرٌ عَلَيْهِ تَعَاقدُوا وَتَوَاتَفُوا * فَالْجَارُ وَالْمُعْتَرُ فِيهِمْ سَالِمٌ

وقال أيضاً:

حَلَفْتُ أَنْعَقِدَنَّ حَلْفًا عَلَيْهِمْ * وَإِنْ كُنَّا جَمِيعًا أَهْلَ دَارِ

نَسَمِيهِ «الْفُضُولَ» إِذَا عَقَدْنَا * يَعْرُبُهُ الْغَرِيبُ لِذِي الْجَوَارِ

وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالِي الْبَيْتِ أَنَا * أباة الصَّيِّمِ نَمْنَعُ كُلَّ عَارٍ⁽¹⁾

وقد شارك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، في هذا الحلف الذي ضمن حقوق المظلومين وحياتهم، وقد نُقلت عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - عبارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف ويعتزُّ فيها بمشاركته فيه وها نحن ننقل حديثين منها في

- [البداية والنهاية: ج ١، ص ٢٩٠.

(250)

هذا المقام.

قال - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«لقد شهنت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً لو دُعيتُ به في الإسلام لأجبتُ. »

كما أن ابن هشام نقل في سيرته أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يقول في ما بعد عن هذا الحلف: «ما أحبُّ أن لي به حُمُرَ

النَّعَمِ. »

ولقد بقي هذا الحلف يحظى بمكانة واحترام قويين في المجتمع العربي والإسلامي حتى أن الأجيال القادمة كانت ترى من واجبها الحفاظ عليه والعمل بموجبه، ويدل على هذا قضية وقعت في عهد إمارة «الوليد بن عتبة» الأموي (1) على المدينة.

فقد وقعت بين الإمام الحسين بن علي - عليه السلام - وبين أمير المدينة هذا منازعة في مال متعلق بالحسين - عليه السلام - ، ويبدو أن «الوليد» تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الإمام السبط الذي لم يرضخ لحيف قط، ولم يسكت على ظلم أبداً: «أخلف بالله لتنصفتي من حقي، أو لأخذن سيفي ثم لأقومن في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم لأدغون بحلف الفضول» (2).

فاستجاب للحسين فريق من الناس منهم «عبدالله بن الزبير»، وكرّر هذه العبارة وأضاف قائلاً: وأنا أخلف بالله لئن دعا به لأخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى ينصف من حقه أو نموت جميعاً. وبلغت كلمة الحسين السبط - عليه السلام - هذه إلى رجال آخرين ك «المسورة بن مخزومة بن نوفل الزهري» و «عبدالرحمان بن عثمان» فقالا مثل ما قال «ابن الزبير»، فلما بلغ ذلك «الوليد بن عتبة» أنصف الحسين - عليه السلام - من حقه حتى رضي. (3)

- [من قبل عمه معاوية].
- 2 السيرة الحلبية: ج 1، ص 132.
- 3 البداية والنهاية: ج 2، ص 293.

(251)

٩ من فترة الشباب إلى مزاولة التجارة

يحمل القادة الالهيون العظماء وأصحاب الرسالات السماوية على كواهلهم مسؤوليات كبرى، ومهام عظيمة تلازم - في الأغلب - التعرض للمتاعب والمصاعب، والعذاب، وتحمل الأذى، بل وربما التعرض للقتل والاعتقال، وكلما كبرت الاهداف، عظمت المشاكل، والمتاعب.

وعلى هذا الاساس، فإن نجاح القادة الرساليين يتوقف على مدى صبرهم واستقامتهم في وجه الاتهامات والمضايقات، وفي وجه الأذى والعذاب، لأن الصبر والتحمل في جميع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الاساسي للوصول إلى المقصود، وإلى تحقيق الهدف المنشود والغاية المطلوبة.

من هنا ليس لقائد حقيقي أن يخشى كثرة العدو، وليس له ان ينسحب، أو يضعف لقلة الاتباع والمؤيدين وبالتالي ليس له أن يقلق للنواب فتخور عزيمته، وأترخو إرادته، مهما عظمت حلق البلاء واشتدت، ومهما تزايدت، أو تواترت.

إننا نقرأ في تاريخ الأنبياء وقصصهم أموراً يعسر على الإنسان العاديّ هضمها، ويصعب تصوُّرها.

فعن نوح النبيّ - عليه السلام - نقرأ أنه دعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ولم تنتج هذه الدعوة الطويلة المضيئة سوى قلة من المؤمنين والمؤيدين الذين لم

(252)

يتجاوز عددهم الواحد والثمانين، وهذا يعني أنه لم يوفق في كل اثني عشر عاماً الإلهادية شخص واحد.

إنّ إرادة الصبر، وقوّة التحمّل، والتصبر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً، فلا بدّ أن تتلاحق حوادثٌ صعبةٌ، ولا بدّ أن يمرّ المرء بنواب مزجة حتى تأنس روحه بالأمور الثقيلة، والقضايا الصعبة.

لقد قضى رسولٌ - صلى الله عليه وآله وسلم - شطراً من حياته قبل البعثة في رعي الغنم في الصحاري والقفار، ليكون بذلك صبوراً في تربية الناس الذين سيكلف بقيادتهم وهدايتهم، وليستسهل كل صعب في هذا المجال.

إن ادارة المجتمع البشريّ من أصعب الأمور التي تواجه القادة، ورجال الإصلاح. والمقدرة على الإدارة هذه لا تسنح ولا تنهياً لأحد إلا بعد مزاولة الأمور الصعبة، وممارسة الأعمال الشاقة، وربما يكون قيام النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - برعي الغنم من هذا الباب، ولهذا جاء في الحديث.

«ما بعث الله نبيّاً قطّ حتى يستزّعه الغنم ليعلمه بذلك رعيّة الناس.»⁽¹⁾

لقد قضى النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - شطراً من عمره الشريف في هذا المجال، وينقل كثيرٌ من ارباب السير والمؤرخين هذه العبارة عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«ما من نبيّ إلا وقد رعى الغنم» قيل: وَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فقال: «أنا رعيّتها لأهل مكّة بالقرظ.»⁽²⁾

إن شخصية عظيمة يفترض فيها أن تواجه - في المستقبل - أشخاصاً عنودين كأبي جهل وأبي لهب، وأن تصنع ممن انحطت أفكارهم حتى أنهم سجدوا لكل حجر ومدّر، أفراداً لا يخضعون لأي شيء سوى إرادة الحق ومشيئته، لا بدّ أن تتسلح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتتجهز بأداة التحمل، وتترود مسبقاً بقدرة الاستقامة على طريق الهدف، وهذا لا يكون إلا بتعويد النفس على هذه

الصفات، وحملها على مشاق الاعمال:

سبب آخر لرعي الغنم:

ويمكن أن نذكر هنا سبباً آخر أيضاً وهو ان رجلا حرّ النفس والعقل كرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تجري في شرايينه وعروقه دماء الغيرة والشجاعة كان يشق عليه ان يشاهد كل ذلك الظلم والحيف الذي كان يمارسه طغاة مكة، وعتاة قريش وزعماءها الظالمون القساة بحق الضعفاء، والمحرومين، وكذا كان يشق عليه ان يرى تظاهرهم بالعصيان والفسوق في حرم الله، وعند بيته المعظم.

إن اعراض سُكّان مكة عن عبادة الله الواحد الحق، وطوافهم حول تلك الأصنام الخاوية هي - بلا ريب - أسوأ واقبح ما يكون في نظر الرجل الفاهم، والعامل العالم، واثقل ما يكون عليه.

من هنا رأى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يقضي رداً من الزمن في الصحاري والقفار وعند سفوح الجبال التي كانت يومئذ بعيدة بطبيعة الحال عن تلك المجتمعات الفاسدة وأحوالها وأوضاعها، ليسترىح (أو يتخلص) بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة من رؤية تلك الأوضاع المزرية، والأحوال المشينة.

على أنّ هذا الأمر لا يعني أن للرجل المتقي أن يسكت على الفساد والظلم، ويقرّ عليهما.

ويفرّق بين حياته وحياة الآخرين ويعتزل عنهم ويتخذ موقف اللامبالاة تجاه الأوضاع المنحرفة، والاحوال الشاذة، بل ان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما كان مأموراً من جانب الله سبحانه بالسكوت والانتظار، لانه لم تكن ظروف «البعثة» والهداية قد توفرت وتهيأت بعد لذلك اتخذ - صلى الله عليه وآله وسلم - مثل هذا الموقف.

ولقد كان هذا العمل (أي الاشتغال برعي الاغنام في البراري والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصة جيدة لأن يتمكن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من النظر في خلق السماوات والتطلع في النجوم والكواكب وأحوالها وأوضاعها، وبالتالي الامعان في الآيات الأنفسية والأفاقية التي هي جميعاً من آيات وجود الله تعالى، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

ان قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنها منورَةٌ بمصابيح المعرفة المشرقة ومضاءة بأنوار الايمان والتوحيد منذ بدء فطرتها، وخلقتها، ولكنهم مع ذلك لا يرون انفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق، والتفكر في الآيات الالهية، إذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الايمان، ويبلغون اسمى درجات اليقين، وبالتالي يتمكنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

إقتراح أبي طاب:

لقد دفع وضع (محمّد) المعيشي الصعب «أبا طالب» سيد قريش وزعيمها الذي كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامة، وعلو الطبع، وإيائه النفس إلى ان يفكر في عمل لابن أخيه، كيما يخفف عنه وطأة ذلك الوضع.

ومن هنا اقترح على ابنه أخيه «محمّد» العمل والتجارة بأموال «خديجة بنت خويلد» التي كانت امرأة تاجرة، ذات شرف عظيم، ومال كثير، تستأجر الرجال في مالها أو تضاربههم إياه بشيء تجعله لهم منه.

فقد قال أبو طالب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يا ابن أخي هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر الناس وهي تبحث عن رجل أمين، فلو جنتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك، وفضلتلك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك.

ولكن إباء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلو طبعه، منعه من الإقدام

(255)

بنفسه على هذه الأمر من دون سابق عهد، ولهذا قال - صلى الله عليه وآله وسلم - لعمّاه: فلعلها أن ترسل إليّ في ذلك، لأنّها تعرف بأنه المعروف بالأمين بين الناس.

فبلغ «خديجة» بنت خويلد، ما دار بين النبي وعمه «أبي طالب»، فبعثت إليه فوراً تقول له: إنّي دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا اعطيتك ضعف ما أعطى رجلا من قومك وابعثت معك غلامين يأميران بأمرك في السفر.

فاخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمّه بذلك فقال له أبو طالب: «إنّ هذا رزق ساقه الله إليك.»⁽¹⁾

هل عمل النبي أجيراً لخديجة؟

وهنا لابدّ من التذكير بنقطة في هذا المجال وهي:

هل عمل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أجيراً في أموال خديجة، أم أنه قد عمل في تجارتها بصورة أخرى كالمضاربة، وذلك

بأن تعاقف النبي مع خديجة على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها في ارباح تلك التجارة؟

إن مكانة البيت الهاشمي، وإباء النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - ومناعة طبعه، كل تلك الأمور والخصال توجب أن يكون

عمل النبي في أموال خديجة قد تمّ بالصورة الثانية (أي العمل في تجارتها على نحو المضاربة لا الإجارة)، وتؤيد هذا المطلب أمور

هي:

أولاً: إنه لا يوجد في اقتراح أبي طالب أية إشارة ولا أي كلام عن الإجارة، بل قد تحاور أبوطالب مع إخوته (أعمام النبي) في هذه

المسألة من قبل وقال: «امضوا بنا إلى دار خديجة بنت خويلد حتى نسألها ان تعطي محمّداً ما لا يتجر به.»⁽²⁾

- 1بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٢، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٢ و ١٣٣، الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٢٤.
- 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٢.

(256)

ثانياً: إن المؤرخ الأقدم المعروف باليعقوبي كتب في تاريخه: ان النبي ما كان أجيراً لأحد قط.⁽¹⁾

ثالثاً: إن الجنازدي صرّح في كتابه «معالم العترة»، بأن «خديجة» كانت تضاربُ الرجال في مالها، بشيء تجعله لهم منه (أي من

ذلك المال أو من ربحه).⁽²⁾

* * *

تهيأت قافلة قريش التجارية للسفر إلى الشام، وفيها أموال «خديجة» أيضاً، في هذه الاثناء جعلت «خديجة» بعيراً قوياً وشيئاً من

البضاعة الثمينة تحت تصرّف وكيلها (أي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -) وامرت غلاميها (ميسرة وناصح) اللذين قررت ان

يرافقه - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يمثلا أوامراه، ويطيعاه، ويتعاملا معه بأدب طوال تلك الرحلة، ولا يخالفاه في شيء.⁽³⁾

وأخيراً وصلت القافلة إلى مقصدها واستفاد الجميع في هذه الرحلة التجارية أرباحاً، إلا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ربح

أكثر من الجميع، كما أنه ابتاع أشياء من الشام لبيعها في سوق «تهامة.»

ثم عادت تلك القافلة التجارية إلى «مكة» بعد ذلك المكسب الكبير، والحصول على الربح الوفير.

ولقد نسئ لفتى قريش «محمّد» أن يمرّ - للمرة الثانية في هذه السفرة - على ديار عاد وثمود.

وقد حملته الصمثة الكبير الذي كان يخيم على ديار واطلال تلك الجماعة العاصية المتمردة في نقلة روحانية إلى العوالم الأخرى أكثر فاكثر، هذا مضافاً إلى أن هذه الرحلة جددت خواطره وذكرياته في السفارة الأولى، فقد تذكر يوم طوى مع عمه «ابي طالب» هذه الصحاري نفسها وهذه القفار ذاتها، وما كان يحظى

- [تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢١.
- 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٩ نقلا عن معالم العترة.
- 3قالت خديجة لهما: إعلما أنني قد أرسلت اليكما أميناً على أموالي وأنه أمير قريش وسيدها، فلا يدُ على يده، فإن باع لا يُمنع وإن ترك لا يؤمر وليكن كلاكما له بلطف وأدب ولا يعلو كلاكما على كلامه. (بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٩).

(257)

فيها من عمه من الحذب والعناية.

وعند ما اقتربت قافلة قريش إلى «مكة»، وصارت عند مشارفها، التفت «ميسرة» غلام خديجة، إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: «يا محمد لقد ربحنا في هذه السفارة ببركتك ما لم نربح في اربعين سنة، فاستقبل بخديجة وابشرها بربحنا» فأخذ النبي باقتراح ميسرة، وسبق القافلة العائدة في الدخول إلى مكة، وتوجه نحو بيت «خديجة» بينما كانت خديجة جالسة في غرفتها، فلما رأت النبي مقبلاً عليها، نزلت من منظرتها وركضت نحوه واستقبلته، وأدخلته في غرفتها، فخبّرها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بما ربحوا، ببيان جميل، وكلام بليغ، فسرت «خديجة» بذلك سروراً عظيماً، ثم قدم «ميسرة» في الأثر، ودخل عليها، وأخبرها بكل ما رآه وشاهده من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك السفارة من الكرامة والخير، والخلق العظيم، والخصال الكريمة، ومن الأمور التي كانت برمتها تدل على عظمة شخصيته - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وسمو خصاله⁽¹⁾، ومن جملة ما حدثها به ميسرة هو أنه لما وقع بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين رجل تلاح وجدال في بيع قال له ذلك الرجل: إحلف باللات والغزى، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما حلفتُ بهما قط، وإني لأمرٌ فاعرضُ عنهما. ⁽²⁾

وحدثها أيضاً بأنه لما مرّ ببصرى نزلا في ظل شجرة ليستريحها فقال راهبٌ كان يعيش هناك لما رأى النبي يستريح في ظل تلك الشجرة: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي» سأل عن اسمه، فأخبره ميسرة باسمه فقال: «هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنه هو هو ومُنزّل الانجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيرة. ⁽³⁾»

- [الخرايج: ص ١٨٦، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٥.
- 2الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٣٠ وفي بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٨: انه صلى الله عليه وآله قال: إليك عني ثلثتك أمك فما تكلمت العرب بكلمة اتقل على من هذه الكلمة.
- 3بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٨، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٣٠، الكامل لابن الأثير: ج ٢، ص ٢٤ و ٢٥.

(258)

خديجة زوجة الرسول الأولى:

حتى قبل ذلك اليوم لم تكن حالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الاقتصادية ووضعته المالي يُحسدُ عليه، فقد كان بحاجة إلى مساعدة عمه «أبي طالب» المالية، ولم يكن شغله على النحو الذي يكفي لضمان نفقاته، من جانب، وتمكينه من اختيار زوجة وشريكة حياة وتكوين عائلة، من جانب آخر.

ولكن هذه السفارة إلى الشام وبخاصة على نحو الوكالة والمضاربة في أموال امرأة جلييلة، معروفة في قريش (أعني خديجة) ساعدت وإلى حد كبير على تثبيت وضعه الاقتصادي وتقوية بنيته المالية.

ولقد اعجبت «خديجة» بعظمة فتى قريش وسمو أخلاقه، ومقدرته التجارية حتى أنها أرادت أن تعطيه زيادة على ما تعاقدا عليه، تقديراً له، واعجاباً به، ولكنه اكتفى بأخذ ما تقرر في البداية ثم توجه إلى بيت عمه «أبي طالب» وقدم كل ما أخذه من «خديجة» إلى عمه «أبي طالب» ليوسع به على أهله.

ففرح «أبو طالب» بما عين من ابن أخيه، وبقية أبيه «عبدالمطلب»، وأخيه «عبدالله» وأغرورقت عيناه بالدموع، وسرّ بما حقق من نجاح وما حصل عليه من ربح من تلك التجارة سروراً كبيراً، واستعد أن يعطيه بعيرين يسافر عليهما ويتاجر، وراحتين يُصلح بهما شأنه، ليتسنى له بأن يحصل على ثروة ومال يعطيه لعمه ليختار له زوجة.

في مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عزماً قاطعاً على أن يتخذ لنفسه شريكة حياة ويكون أسرة، ولكن كيف وقع الاختيار على «خديجة» التي سبق لها أن رفضت كل طلبات الزواج التي تقدم بها كبار الاثرياء والشخصيات القرشية مثل «عقبة بن أبي معيط»، و «أبوجهل» و «أبوسفيان» للزواج بها؟؟؟!، وماذا كانت العلة التي جمعت هذين الشخصين غير المتشابهين، من حيث مستوى الحياة، والثراء؟ وكيف ظهرت تلك الرابطة القوية، وتلك العلاقة المعنوية العميقة، والألفة والمحبة بينهما إلى درجة أن

(259)

«خديجة» سلام الله عليها وهبت كل ثروتها للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لينفقها في نشر الإسلام، وإعلاء كلمة الحق، وإرساء قواعد التوحيد، وبث الدين الجديد، وأصبحت تلك الدار المفخمة التي كانت تزينها الكراسي المرصعة، والستر المطرزة، المصنوعة من أعلى الأقمشة الهندية، والإيرانية، ملجأ للمسلمين، وملتقى لانصار الرسالة!!؟

لابد من البحث عن جذور هذه الحوادث في تاريخ حياة «خديجة» نفسها، فان من المسلم والبديهي أن هذا النوع من الفداء، والتفاني والإيثار لم يكن ثابتاً ليتحقق ما لم يكن لها جذور معنوية وطارهرة.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأن هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان «خديجة» بتقوى عزيز قريش وفتاها الامين «محمّد» وطهره، وحبها الشديد لعفته وكرم أخلاقه، ولهذا قال النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في حقها:

«أفضل نساء الجنة أربع: خديجة. (1)»...

إنها أول امرأة آمنّت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقد قال علي أمير المؤمنين - عليه السلام - : في خطبته التي يشير فيها إلى غربة الإسلام في مبدأ البعثة النبوية الشريفة:

«لَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يُؤْمَنُ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ وَ خَدِجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. (2)»

ويكتب «ابن الأثير» قائلاً: إن عفيف الكندي كان إمرأً تاجرأ قدم مكة أيام الحج فرأى رجلاً قام تجاه الكعبة يصلي ثم خرجت امرأة تصلي معه، ثم خرج غلام فقام يصلي معه، فمضى يسأل العباس عمّ النبي عن هؤلاء، وعن هذا الدين، فقال العباس:

- إخصال الصدوق: ج ١، ص ٩٦ وغيره.
- 2الكامل: ج ٢، ص ٣٧، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي الشافعي: ج ١٣، ص ١٩٧ - ٢٠١.

(260)

هذا محمّد بن عبد الله ابن أخي زعم أن الله ارسله، وهذه امرأته خديجة آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وأيّم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة. (1)

وينبغي هنا أن نعطي لمحة عن مكانة خديجة في الإسلام تكميلاً لهذه الدراسة.

خديجة في أحاديث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم -

:

لقد اكتسبت «خديجة» بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية، وتفانيها في سبيل الإسلام وبسبب حرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة وسلامته، وعملها المخلص على انجاح مهمته، ومشاركتها الفعالة، في دفع عجلة الدعوة إلى الامام، ومشاطرتها للنبي في اكثر ما تحمله من محن واذى بصبر واستقامة وحب ورغبة.

لقد اكتسبت خديجة بفضل كل هذا وغيره مكانة سامية في الإسلام، حتّى ان النبي ذكرها في أحاديث كثيرة وأشاد بفضلها، ومكانتها وشرفها على غيرها من النساء المسلمات المؤمنات، وذلك ولا شك ينطوي على اكثر من هدف.

فمن جملة الأهداف التي ربما توخاها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من الإشادة بخديجة - عليها السلام - الفات نظر المرأة المسلمة إلى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والأبعاد، والظروف، والحالات.

هذا مضافاً إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة وهي نصف المجتمع (إن لم تكن أكثره أحياناً) من دعم جدّي للرسالة، مادياً كان أو معنوياً .

وفيما يلي نأتي ببعض الأحاديث الشريفة التي تعكس مكانة خديجة، ومقامها، ومدى إسهامها في نصرته الإسلام ودعم دعوته، وإرساء قواعده.

1- عن أبي زرعة عن أبي هريرة يقول قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

- [شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(261)

«أتاني جبرئيل - عليه السلام - فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها آتية فيها ادم أو طعام أو شراب، فاذا هي أنتك فاقراً - عليها السلام - من ربها ومنّي، وبئسها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.»⁽¹⁾

2- عن عائشة قالت: ما غرث على امرأة ما غرث على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت اسمعه يذكرها، ولقد أمره ربّه عزّوجلّ ان يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلاتها (أي خليلاتها وصديقاتها).⁽²⁾

3- وعن عائشة أيضاً قالت ما غرث على نساء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا على خديجة، واني لم أدركها، (قالت): وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا ذبح الشاة فيقول: أرسلوا بها إلى اصدقاء خديجة قالت: «أي عائشة» فاعضبته يوماً فقلت: خديجة!! فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «اني قد رزقت حبها.»⁽³⁾

4- ومن هذا القبيل ما كان يقوم به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع صاحبات خديجة من الاحترام لهن والاحتفاء بهن:

فقد وقف - صلى الله عليه وآله وسلم - على عجز فجعل يسألها، ويتحفها، وقال:

«ان حسن العهد من الايمان، انها كانت تأتينا ايام خديجة.»⁽⁴⁾

5- وروي عن انس قال كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا أتى بهدية قال: «إذهبوا بها إلى بيت فلانة فانها كانت صديقة لخديجة إنها كانت تحب خديجة.»⁽⁵⁾

- [صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٣، مستدرک الحاكم: ج ٣، ص ١٨٤ و ١٨٥ بطرق متعددة صحيحة على شرط الشيخين.
(2) و (٣) صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٤، ومثلها في صحيح البخاري: ج ٥، ص ٣٨ و ٣٩.
- 4 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٨، ص ١٠٨.
- 5 سفينة البحار: ج ١، ص ٣٨٠ (خدج).

(262)

6- روى مجاهد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يكاد يخرج من البيت حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الايام فادركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتى أهتز مقدم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمننتُ بي إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبتني الناس وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة فقلت في نفسي: لا أذكرها بسينة ابداً. (1)

7- عن يعلى بن المغيرة عن ابن ابي رواد قال: دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على خديجة في مرضها الذي ماتت فيه، فقال لها:

«يا خديجة أتكرهين ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله تعالى زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلثم أخت موسى وأسية امرأة فرعون. (2)»...

8- عن عكرمة عن ابن عباس قال خطب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أربع خطب في الأرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -: «أفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون. (3)»

9- عن أنس جاء جبرئيل إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وعنده خديجة فقال: إن الله يقرىء خديجة السلام فقالت: إن الله هو السلام، وعليك السلام، ورحمة الله وبركاته. (4)

10- عن أبي الحسن الأول (الكاظم) - عليه السلام - قال قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

- [إسد الغابة: ج ٥، ص ٤٣٨، ورواها مسلم أيضاً: ج ٧، ص ١٣٤، وكذا البخاري: ج ٥، ص ٣٩ وقد حذف آخرها من: فغضب حتى... إلى آخر الرواية.
- 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٧، وأسد الغابة: ج ٥، ص ٤٣٩.
- 3 الخصال للصدوق: ج ١، ص ٩٦، كما في بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢.
- 4 المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٨١٦.

(263)

«إن الله اختار من النساء أربعاً: مريم و أسية وخديجة وفاطمة. (1)»

11- عن ابي اليقظان عمران بن عبدالله عن ربيعة السعدي قال أتيت حذيفة بن اليمان وهو في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فسمعته يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«خديجة بنت خويلد سابقة نساء العالمين إلى الايمان بالله وبمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - . (2)»

12- عن عروة قال قالت عائشة لفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ألا ابشرك أني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول:

«سيدات نساء أهل الجنة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وخديجة بنت خويلد و آسية (3)»

13- عن أبي عبدالله (الصادق) - عليه السلام - قال: دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منزله، فاذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة، ماترين إلا أن لأملك علينا فضلا، وأى فضل كان لها علينا؟! قال:

ماهي إلا كبعضنا، فسمع - صلى الله عليه وآله وسلم - مقالتها لفاطمة، فلما رأت فاطمة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بكت، فقال: ما يبكيك يا بنت محمد؟! قالت: ذكرت أمي فتتقصتها فبكيته، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . ثم قال:

«مَهْ يا حميراء، فان الله تبارك وتعالى بارك في الودود الولود، وأن خديجة رحمها الله ولدت مني طاهراً، وهو عبدُ الله وهو المطهرَ وولدت مني القاسم، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وزينب، وأنت ممن أعقم الله رحمه فلم تلدي

- [الخصال: ج ١، ص ٩٦، كما في البحار: ج ١٦، ص ٢. (2) و (3) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٨٤ - ١٨٦ ووردت روايات بمضمون ذيل الحديث في صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٣.

شيئاً (1)»

أجل هذه هي «خديجة بنت خويلد» شرفٌ وعقلٌ، وحبٌ عميق لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ووفاء وإخلاص، وتضحية بالغالي والرخيص في سبيل الإسلام الحنيف.

هذه هي «خديجة» أول من آمنت بالله ورسوله، وصدقت محمداً فيما جاء به عن ربه، من النساء، وأزره، فكان - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من ردّ عليه، وتكذيب له إلا فرّج الله عنه بخديجة التي كانت تخفف عنه (2)، وتهوّن

عليه ما يلقي من قومه، بما تمنحه من لطفها، وعطفها، وعنايتها به - صلى الله عليه وآله وسلم - ، في غاية الاخلاص والودّ والتفاني

ولهذا كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يحبها حباً شديداً ويجلبها ويقدرها حق قدرها(3)، ولم يفتأ يذكرها، ولم يتزوج عليها غيرها حتى رحلت وفاء لها، واحتراماً لشخصها ومشاعرها، وكان يغضب إذا ذكرها أحدٌ بسوء، كيف وهي التي آمنت به إذ كفر به الناس، وصدقته إذ كذبها الناس، وواسته في مالها إذ حرّمه الناس.

ولهذا أيضاً كانت وفاتها مصيبة عظيمة أزنّت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودفعته إلى أن يسمّي ذلك العام الذي توفي فيه نصره وحاميه، ورفيقاً ألامه (زوجته هذه: خديجة بنت خويلد، وعمه المؤمن الصامد الصابر ابوطالب - عليهما السلام -) بعام الحداد، أو عام الحزن(4) وان يلزم بيته ويقلّ الخروج(5)،

-
- 1 الخصال: ج ٢، ص ٣٧ و ٣٨، كما في بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٣.
2 اعلام النساء لعمر رضا كحالة: ج ١، ص ٣٢٨.
3 اعلام النساء: ج ١، ص ٣٣٠.
4 تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٥، وقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال بهذه المناسبة: «اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشدّ جزعاً» المصدر نفسه، وراجع تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠١ نقلاً عن سيرة مغلطاي.
5 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٧، المواهب اللدنية حسب نقل تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠٢ وفيه إضافة: ونالت قريش منه ما لم تكن تتال.

(265)

وأن ينزل - صلى الله عليه وآله وسلم - عند دفنها في حفرتها، ويدخلها القبر بيده، في الحجون. (1)

عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمة الزهراء - عليها السلام - بعلي - عليه السلام - اجتمعت نساء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكان يومئذ في بيت عائشة ليسألته أن يُدخل الزهراء على (علي) - عليه السلام - فاحدقن به وقلن: قديناك بأبائنا وأمهاتنا يا رسول الله قد اجتمعنا لأمر لو أنّ «خديجة» في الأحياء لقرت بذلك عينها.

قالت أم سلمة: فلما ذكرنا «خديجة» بكى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال: «خديجة وابن مثل خديجة، صدقتني حين كذّبتني الناس ووازرتني على دين الله وأعانتي عليه بمالها، إنّ الله عزّوجلّ أمرني أن ابشر خديجة ببيت في الجنة من قصب (الزمرّد) لا صحّب فيه ولا نصّب. (2)»

لقد كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، واحسنهنّ جمالاً وأقواهنّ عقلاً وفهماً وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها(3) ويقال لها: سيدة قريش(4)، وكان لها من المكانة والمنزلة بحيث كان كل قومها وسراة أبناء جلدتها حريصين على الاقتران بها(5)، وقد خطبها - كما يحدثنا التاريخ - عطاء قريش وبذلوا لها الأموال، وممن خطبها «عقبة بن ابي معيط» و «الصلت بن ابي يهاب» و «ابوجهل» و «ابوسفیان» فرفضتهم جميعاً، وأختارت رسول الله - وهي في سن الأربعين

وهو - صلى الله عليه وآله وسلم - في الخامسة والعشرين - وهي تمتلك تلك الثروة الطائلة، وهو - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يمتلك من حطام الدنيا إلا الشيء اليسير اليسير، رغبة في الاقتران به ولما عرفت فيه من كرم الاخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة والصفات العالية، وهي ما كانت تبحث عنه في حياتها وتتعشقه وإذا بتلك المرأة الغنية الثرية العائشة في

1- السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٦.
2- بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ١٣١ نقلا عن كشف اليقين.
3- (٤) و (٥) السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٧.

(266)

أفضل عيش تصيح في بيت زوجها الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك الزوجة المطيعة الخاضعة، الوفية المخلصة، وتسارع إلى قبول دعوته، واعتناق دينه بوعي وبصيرة واردة منها واختيار، وهي تعلم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر ومتاعب، وتجعل كل ثروتها في خدمة العقيدة والمبدأ، وتشاطر زوجها آلامه، ومتاعبه، وترضى بأن تذوق مرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات وفي سنّ الرابعة أو الخامسة والستين. وهي مع ذلك تواجه كل ذلك بصبر وثبات⁽¹⁾، ودون أن يذكر عنها تبرؤ أو توجع.

هذا مضافاً إلى أنها كانت تعامل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأدب تامّ يليق بمقام الرسالة والنبوة، على العكس من غيرها من بعض نساء النبيّ اللائي كنّ ربما يثرن سخطه وغضبه، ويؤذينه في نفسه وأهله.

واليك فيما يأتي بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات، والمؤرخين ممّا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً، قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - :

«كنت أول من أسلم، فمكثنا بذلك ثلاث حجج وما على الأرض خلُق يُصلي ويشهد لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بما أتاه غيري، وغير ابنة خويلد رحمها الله وقد فعل.⁽²⁾»

وقال محمد بن اسحاق: كانت خديجة أول من آمن بالله ورسوله وصدقت بما جاء من الله، ووازرته على أمره فخفف الله بذلك عن رسول الله، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرج الله ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بها إذا رجع إليها تتيّبته، وتخفّف عنه، وتهوّن

- [شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٤، ص ٥٩ قال: خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله صلى الله عليه وآله محاصرة في الشعب.
- 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢ ومثله في روايات متعددة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٤، ص ١١٩ و ١٢٠.

(267)

عليه امر الناس حتى ماتت رحمها الله. (1)

وعنه أيضاً: أن «خديجة بنت خويلد» و «اباطالب» ماتا في عام واحد، فتتابع على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هلاك

خديجة وابي طالب وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكن اليها. (2)

وقال أبو امامة ابن النقاش: ان سبق خديجة وتأثيرها في اول الإسلام ومؤازرتها ونصرتها وقيامها لله بمالها ونفسها لم يشركها فيه

احدٌ لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين. (3)

وقد جاء في المنتقى: ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عند ما أمر بأن يصدع بالرسالة صعد على الصفا، وأخبر الناس

بما أمره الله به فرماه أبو جهل قبحه الله بحجر فشخ بين عينيه، وتبعه المشركون بالحجارة فهرب حتى أتى الجبل، فسمع على و

خديجةً بذلك فراحا يلتمسانه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو جائع عطشان مرهق، ومضت خديجة تبحث عنه في كل مكان في

الوادي وهي تناديه بحرقة وألم، وتبكي وتنحب، فنظر جبرئيل إلى خديجة تجول في الوادي فقال: يا رسول الله الاترى إلى خديجة

فقد أبكت لبيكاتها ملائكة السماء؟ أدعها اليك فاقرأها مني السلام وقل لها: ان الله يقرئك السلام، ويبشركا أن لها في الجنة بيتاً من

قصب لا نصب فيه ولا صخب فدعاها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والدماء تسيل من وجهه على الارض وهو يمسخها

ويردّها، وبقي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وعلي وخديجة هناك حتى جنّ الليل فأنصرفوا جميعاً ودخلت به خديجة

منزلها، فأفعدته على الموضع الذي فيه الصخرة واطلته بصخرة من فوق رأسه، وقامت في وجهه تستره ببردها وأقبل المشركون

يرمونها بالحجارة، فاذا جاءت من فوق رأسه صخرة وقته الصخرة، وإذا رموه من تحته وقتة الجدران الخيط، وإذا رمى من بين

يديه وقتة خديجة رضي الله عنها بنفسها، وجعلت تنادي يا معشر قريش ترمى الخرّة

- [بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٠ - ١٢.

- 2 نفس المصدر.

- 3 تاريخ الخمس في أحوال أنفس نفيس: ج ١، ص ٢٦٦.

(268)

في منزلها؟ فلما سمعوا ذلك انصرفوا عنه، وأصبح رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وغدا إلى المسجد يُصلي. (1)

ولقد بلغ من خضوعها لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحبها له أنها بعد أن تم عقد زواجها برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - قالت له - صلى الله عليه وآله وسلم - : «إلى بيتك، فبيتي بيتك، وأنا جاريتك.» (2)

وجاء في السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ولسبقها إلى الإسلام وحسن المعروف جزاها الله سبحانه فبعث جبرئيل إلى النبي -

صلى الله عليه وآله وسلم - وهو بغار حراء وقال له: اقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب

فيه ولا نصب؛ فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته، وهذا من

وفور فقها رضي الله عنها حيث جعلت مكان ردّ السلام على الله الثناء عليه ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره، قال ابن هشام والقصب هنا الوألو المجوف، وابدى السهيلي لنفي النصب لطيفة هي انه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما دعاها إلى الايمان أجابت طوعاً ولم تحوجه لرفع صوت ولا منازعة ولا نصب بل ازالته عنه كل تعب، وأنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير فناسب ان تكون منزلتها التي بشرها بها ربها بالصفة المقابلة لفعالها وصورة حالها رضي الله عنها واقراء السلام من ربها خصوصية لم تكن لسواها، وتميزت أيضاً بأنها لم تسؤه - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم تغاضبه قط، وقد جازاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قط من زوجاته.(3)

افتخار اهل البيت بخديجة - عليها السلام -

:

وما يدل على سمو مقامها وعلو منزلتها أن اهل البيت - عليهم السلام - طالما

-
- 1بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٤٣.
 - 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٤ نقلا عن الخرائج والجرايح: ص ١٨٦ و ١٨٧.
 - 3السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٦٩ الهامش.

(269)

افتخروا بأن خديجة منهم، وانهم من خديجة وقد كانوا يعترفون بها، ويشيدون بمكانتها:

فقد خطب معاوية بالكوفة حين دخلها والحسن والحسين - عليهما السلام - جالسا تحت المنبر فذكر علياً - عليه السلام - فقال منه ثم نال من الحسن فقام الحسين - عليه السلام - ليردّ عليه فأخذه الحسن بيده وأجلسه ثم قام فقال:

«أيها الذاكِرُ علياً أنا الحسن وأبي عليّ وأنت معاوية وأبوك صخرٌ وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله أحملاً ذكراً والأمناً حسباً وشرّاً قديماً وحديثاً. فقال طوائف من أهل المسجد: آمين. (1)

وقيل: ان «الحسين - عليه السلام - سائر «أنس بن مالك» فأتى قبر خديجة فبكى ثم قال: إذهب عني قال «أنس»؛ فاستخفيت عنه فلما طال وقوفه في الصلاة سمعته يقول:

يا رَبِّ يا رَبِّ أَنْتَ مَوْلَاهُ * فَأَرْحَمَ غَيْبِداً إِلَيْكَ مُلْجِاهُ

يا ذا المَعالي عَلَيكَ مُعْتَمِدي * طُوبى لِمَنْ كُنْتَ أَنْتَ مَوْلَاهُ

طُوبى لِمَنْ كانَ خادِماً أَرْقا * يَشْكُو إلى ذِي الجَلالِ بُلْواهُ

إلى آخر الآيات. (2)

هكذا كان اهل البيت النبوي - اقتداءً برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يحترمون خديجة ويكرمونها لما كان لها من شخصية عظيمة ولما اسدته إلى الإسلام وإلى رسول الإسلام من خدمات لا تنسى على مرّ الدهور.

ان بيان ونقل الاحاديث والروايات، وكذا الاقوال التي وردت في شأن خديجة والحديث عن شخصيتها ومكانتها ومدى إسهامها في انجاح ونصرة الدعوة المحمدية خارج عن امكانية هذه الدراسة، ونطاقها، لذلك نكتفي بهذه الاماعة

- 1 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٦، ص ٤٦ و ٤٧.
- 2 بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ١٩٣ نقلاً عن عيون المحاسن.

(270)

العابرة تاركين الكلام باسهاب حولها إلى مجال آخر.

ولنعدّ إلى تبيين الأسباب الظاهرية والباطنية لزوجها من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

إن الإنسان المادى الذي ينظر إلى كل ما يحيط به من خلال المنظار المادى، ويفسره تفسيراً مادياً قد يتصور (وبالاحرى يظن) أن «خديجة» كانت امرأة تاجرة تهتمها تجارتها، وتنمية ثروتها، ولأنها كانت بحاجة ماسة إلى رجل أمين قبل اي شيء، لذلك وجدت ضالتها في محمّد الصادق الامين - صلى الله عليه وآله وسلم - فتزوجت منه، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الآخر حيث انه كان يعلم بغناها و ثروتها، قبل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق في السن كبير.

ولكن التاريخ يثبت أن ثمة أسباباً وعللاً معنوية لا مادية هي التي دفعت بخديجة للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر.

واليك في ما يأتي شواهدنا على هذا الامر:

1- عند ما سألت «خديجة» ميسرة عما رآه في رحلته من فتى قريش «محمّد» فخبّرها ميسرة بما شاهد ورأى من «محمّد» في تلك السفرة، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحسّت «خديجة» في نفسها بشوق عظيم ورغبة شديدة نحوه كانت نابعة من اعجابها بمعنوية محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - وكريم خصاله، وعظيم أخلاقه، فقالت من دون إرادتها: «حسبك يا ميسرة؛ لقد زدنتي شوقاً إلى محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، إذ هبُّ فانت حرٌّ لوجه الله، وزوجتك وأولادك ولك عندي مائتا درهم وراحتان» ثم

خلعت عليه خلعة سنية. (1)

ثم إنها ذكرت ما سمعته من «ميسرة» لورقة بن نوفل وكان من حكماء

- إبحار الأنوار: ج ١٦، ص ٥٢.

(271)

العرب: فقال ورقة: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً لنبى هذه الأمة»⁽¹⁾»

2- مرّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يوماً بمنزل «خديجة بنت خويلد» وهي جالسة في ملامن نساءها وجواربها وخدمها وكان عندها حبرٌ من أحبار اليهود، فلما مرّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نظر إليه ذلك الحبر وقال: يا خديجة مري من يأتي بهذا الشاب، فارسلت إليه من أتى به، ودخل منزل «خديجة»، فقال له الحبر: إكشفت عن ظهرك فلما كشف له قال الحبر: هذا والله خاتم النبوة فقالت له خديجة: لو رآك عمه وأنت تفتشه لحلت عليك منه نازلة البلاء وان أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر: ومن يقدر على «محمّد» هذا بسوء، هذا وحق الكليم رسول الملك العظيم في آخر الزمان، فطوبى لمن يكون له بعلا، وتكون له زوجة وأهلا فقد حازت شرف الدنيا والآخرة.

فتعجبت «خديجة»، وانصرف «محمّد» وقد اشتغل قلب «خديجة» بنت خويلد بحبه فقالت: أيها الحبر بم عرفت محمداً انه نبى؟ قال: وجدت صفاته في التوراة انه المبعوث آخر الزمان يموت أبوه وأمّه، ويكفله جدّه وعمه، وسوف يتزوج بامرأة من قريش سيدة قومها وأميرة عشيرتها، وأشار بيده إلى خديجة فلما سمعت «خديجة» ما نطق به الحبر تعلق قلبها بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فلما خرج من عندها قال: إجتهدى ان لا يفوتك «محمّد» فهو الشرف في الدنيا والآخرة.⁽²⁾

3- لقد كان ورقة بن نوفل (وهو عم خديجة وكان من كهّان قريش وقد قرأ صحف «شيث» - عليه السلام - وصحف «إبراهيم» - عليه السلام - وقرأ التوراة والانجيل وزبور «داود» - عليه السلام - (يقول دائماً: سيُبعثُ رجلٌ من قريش في آخر

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٩١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٦.
- 2 إبحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٠ و ٢١ نقلا عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكري.

(272)

الزمان ينزج بامرأة من قريش تسود قومها (أو تكون سيدة قومها، وأميرة عشيرتها)، ولهذا كان يقول لها: «يا خديجة سوف تتصلين برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء»⁽¹⁾»

هذه قضايا ذكرها بعض المؤرخين، وهي منقولة ومثبتة في طائفة كبيرة من الكتب التاريخية، وهي بمجموعها تدل على العلل الحقيقية والباطنية لرغبة خديجة في الزواج برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وإن هذه الرغبة كانت ناشئة من اعجاب «خديجة» بأخلاق فتى قريش الأمين، ونبله، وطهارته، وعظيم سجاياه وخصاله وحبها لهذه الأمور، وليس هناك أي اثر في علل هذا الزواج لامانة «محمّد» وكونه أصلح من غيره لهذا السبب للقيام بتجارة «خديجة». »

كيف تمّت خطبة خديجة؟

من المسلم به أن اقتراح الزواج جاء من جانب «خديجة» نفسها أولاً، حتّى أن ابن هشام⁽²⁾ نقل في سيرته: ان «خديجة» لما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقالت له: «يا ابن عمّ أبي قد رغبتُ فيك لقرابتك وسطنك [أي شرفك ومكانتك] في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك» ثم اقترحت عليه أن تتزوج به.

ويعتقد أكثر المؤرخين أن «نفيسة بنت عليّة» بلّغت رسالة «خديجة» إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على النحو التالي:

قالت لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : « يا محمّد ما يمنعك أن تتزوج... ولو دُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة إلا تجيب ؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : فمن هي؟

فقالت: خديجة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : وكيف لي بذلك، فقالت: علىّ فذهبت إلى خديجة فأخبرتها، فأرسلت خديجة إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٩ و ١٩٠.

بوكيلها «عمرو بن اسد»⁽¹⁾ «لتحديد ساعة من اجل مراسم الخطبة في محضر من الاقارب. (2)

فشاور النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أعمامه وفي مقدمتهم «أبو طالب»، ثم عقدوا مجلساً فخماً حضره كبار وجوه قريش، ورؤساؤها فخطب «أبو طالب»، وبعد ان حمد الله واثنى عليه وصف ابن أخيه محمّداً بقوله:

«ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبدالله لا يوزنُ به رجلٌ إلا رجح به شرفاً وتبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال فإنَّ المالَ ظلُّ زائلٌ، وأمرٌ حائلٌ وعاريةٌ مُسترجعةٌ، ولهُ في خديجة رغبةٌ ولها فيه رغبةٌ، والصدّاق ما سألتُم عاجله وأجله من مالي، ومحمدٌ من قد عرَفْتُم قرابته.»

وحيث أن «اباطالب» تعرّض في خطبته لذكر قريش، وبنو هاشم وفضيلتهم، ومنزلتهم بين العرب، لذلك تكلم «ورقة بن نوفل بن اسد» الذي كان من أقارب خديجة⁽³⁾ وقال في خطبة له: «لا تتكُرُ العشيرة فضلُكم، ولا يَزُدُ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم وقد رغينا في الإتصال بحبلكم وشرفكم.»⁽⁴⁾

ثم أجري عقد النكاح ومهرها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أربعمائة دينار وقيل أصدقها عشرين بكرة.⁽⁵⁾

-
- 1 المعروف أنّ والد خديجة توفي في حرب الفجار ولهذا قام بالإيجاب من قبلها عمها عمرو بن اسد ولهذا لا يصحّ ما ذكره بعض المؤرخين من أنّ خويلد (والد خديجة) امتنع من تزويجها لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في بداية الأمر، ثم رضي بذلك نزولاً عند رغبة خديجة.
- 2 تاريخ الخميس: ج 1، ص 264.
- 3 المعروف أنّ ورقة كان عمّاً لخديجة ولكن هذا موضع نقاش لأنّ «خديجة بنت خويلد بن اسد» وورقة بن نوفل بن اسد فيكونان اولاد عمومة أي أنه ابن عم خديجة وهي بنت عمه. ولذلك جاء في بعض المصادر وصفه بـ «ابن عمّها» (تاريخ الخميس: ج 1، ص 282) وراجع قبله السيرة النبوية لابن هشام: ج 1، ص 203.
- 4 بحار الأنوار: ج 16، ص 16، مناقب آل أبي طالب: ج 1، ص 30، السيرة الحلبية: ج 1، ص 139، تاريخ الخميس: ج 1، ص 264.
- 5 السيرة الحلبية: ج 1، ص 139.

(274)

عمر خديجة عند زواجها بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

المعروف المشهور أن خديجة - عليها السلام - تزوجت من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي في سنّ الأربعين وأنها وُلدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً.

وذكر البعض أقلّ من ذلك أيضاً.

وذكر أنها تزوجت قبل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - برجلين أولهما «عتيق بن عائذ» ثم من بعده ابوهالة التميمي اللذين توفي كلٌ منهما بُعيد زواجه بخديجة.⁽¹⁾

-
- 1 ربما يُشكك في أن تكون خديجة - عليها السلام - قد تزوجت قبل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأحد وهي التي امتنعت عن كل من خطبها ورام تزويجها من سادات قريش وأشرافها. راجع الاستغاثة: ج 1، ص 70.

(275)

١٠ من الزواج إلى البعثة

تُعتبر فترة الشباب من أهم وأخطر الفترات في حياة الإنسان ففي هذه الفترة تبلغ الغريزة الجنسية نضجها وكمالها، وتصبح النفس البشرية لعبة في أيدي الأهواء ويغلب طوفان الشهوة على فضاء العقل، ويغطي الظلام سماء التفكير، وتشدت حاكمية الغرائز المادية، وتتضاءل شعلة العقل، وتترأى أمام عيون الشباب بين الحين والآخر، وصباح مساء صروح عظيمة من الآمال الخيالية.

ولو ملك الإنسان - في مثل هذه الفترة - شيئاً من الثروة، لتحوّلت حياته إلى مسألة في غاية الخطورة فالغرائز الحيوانية، وصحة المزاج من جهة والامكانيات المادية والمالية من جهة أخرى تتعاضدان وتغرقان المرء في بحر من الشهوات، والنزوات، وتهيئان له عالماً بعيداً عن التفكير في المستقبل.

ومن هنا يصف المربون العلماء تلك الفترة الحساسة بأنها الحدّ الفاصل بين الشقاء والسعادة، والفترة التي قلما يستطيع شاب أن يرسم لنفسه فيها مساراً معقولاً، ويختار لنفسه طريقاً واضحاً على أمل الحصول على الملكات الفاضلة، والنفسية الرفيعة الطاهرة التي تحفظه عن أي خطر متوقّع. (1) حقاً إن كبح جماح

- وإلى هذه الحقيقة أشار الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - بقوله:

إنّ الفراغ والشباب والجدّة * مفسدة للمرء اي مفسدة

(276)

النفس، وزمّها وحفظها من الإنزلاق في مهاري الشهوات، والنزوات في مثل هذه الفترة لهو أمر جدّ عسير، ولو أن الإنسان حُرّم من تربية عائلية صحيحة مستقيمة كان عليه أن ينتظر مصيراً سيئاً، ومستقبلاً في غاية البؤس والشقاء.

فَترَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ رَسولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

:

ليس من شك في ان فتى قريش «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يتمتع في أيام شبابه بصحة جيدة، وقوة بدنية عالية، وكان شجاعاً قوياً، لأنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تربي في بيئة حرة بعيدة عن ضوضاء الحياة، وفتح عينيه في عائلة اتصف جميع أفرادها وعضائها بالشجاعة والفروسية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يمتلك ثروة «خديجة» الطائفة فكانت ظروف الترف، والعيش الشهواني متوفرة له بشكل كامل، ولكن كيف ترى استفاد من هذه الامكانيات المادية هل مدّ موائد العيش واللذة وشارك في

مجالس السهر والسمر واللهو واللعب. واطلق العنان لشهوته، وفكر في إشباع غرائزه الجنسية كغيره من شباب ذلك العصر، وتلك البيئة الفاسدة.

أم أنه اختار لنفسه منهجاً آخر في حياته، واستفاد من كل تلك الإمكانيات في سبيل تحقيق حياة زاخرة بالمعنوية، الأمر الذي تبدو ملامحه بجلاء لمن تتبع تلك الفترة الحساسة من تاريخه.

ان التاريخ ليشهد بأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعيش كما يعيش أي رجل، رجل عاقل لبيب وفاضل رشيد، وأنه طوى تلك السنوات الحساسة من حياته كأحسن ما يكون، بعيداً عن العبث والترف والضياع والانزلاق إلى الشهوات والانسياق وراء التوافه

بل ان التاريخ ليشهد بأنه كان اشد ما يكون نفوراً من اللهو، والعبث، والترف والمجون فقد كانت تلوح على محياه دائماً آثار التفكر والتأمل، وكثيراً ما كان يلجأ إلى سفوح الجبال أو الكهوف والمغارات للابتعاد عن الجوّ الإجتماعي الموبوء في مكة، يلبث هناك أياماً يتأمل فيها في آثار القدرة الالهية ،

(277)

وفي عظمة الصنع الالهي، الرائع البديع.

احاسيسه ومشاعره الإنسانية في فترة الشباب:

ولقد وقعت في احدى أسواق مكة ذات يوم حادثة هيّجت مشاعره الإنسانية وحركت عواطفه واحاسيسه، فقد رأى مقامراً قد خسر بغيره وبيته، بل بلغ الأمر به أن استرقه منافسه عشرة أعوام.

وقد آلمت هذه القصة المأساوية فتى قريش «محمّد» بشدة، إلى درجة أنه لم يعد يحتمل البقاء في «مكة» ذلك اليوم فغادرها من فورهِ وذهب إلى الجبال المحيطة بمكة ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينزعج بشدة لهذه المشاهد المحزنة والاضاع المأساوية، وكان يتعجب من ضعف عقول قومه، وانحطاط مداركهم.

ولقد كان بيت «خديجة» قبل زواج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بها ملاذاً للفقراء وكعبة لأمال المساكين والمحرومين، وبعد أن تزوج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بها لم يطراً على وضع ذلك البيت أي تغيير من جهة الانفاق والبدل.

ففي سنين الجذب والقحط التي كانت تضرب مكة وضواحيها بين الحين والآخر ربما قدمت «حليمة السعدية» مكة لتزور ولداها الرضاعي «محمّد» فكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يكرمها ويحترمها، ويفرش رداءه تحت أقدامها، ويصغي لكلامها بعناية ولطف، وفاء لجميلها، وعرفاناً لعواطفها وأمومتها.

فقد روي أن «حليمة» قدمت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مكة بعد تزوجه خديجة، فشكت إليه جذب البلاد وهلاك المواشي فكلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «خديجة» فأعطتها بعيراً وأربعين شاة، وانصرفت إلى أهلها موفورة، مسرورة.

وروي أيضاً انه استأذنت «حليمة» عليه ذات مرة فلما دخلت عليه قال: «أمي أمي» وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه. (1)

- 1 السيرة الحلبية: ج 1، ص 103.

(278)

أولاد خديجة:

لا ريب في أنّ وجودَ الأولاد في الحياة العائليّة ممّا يقوّي أواصر الوشيجة الزوجية، ويعمّق جذورها، ويمنح الجوّ العائليّ بهاء، وروّفاً، وجمالاً خاصاً.

ولقد أنجبت «خديجة» لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ستة من الأولاد اثنين من الذكور، أكبرهما «القاسم» ثم «عبدالله» اللذان كانا يُدعيان بـ: «الطاهر» و «الطيب» وأربعة من الإناث.

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد: أكبر بناته رُقِيّة ثم زَيْنَب ثم أمّ كلثوم، ثم فاطمة.

فأما الذكور من أولاده - صلى الله عليه وآله وسلم - فماتوا قبل البعثة، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام. (1)

ورغم أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد عُرفَ بصبره وجلده في الحوادث والنوائب فربما انعكست احزانه القلبية في قطرات دموعه الساخنة المنحدرة على خَدَيْهِ الشريفين في موت أولاده.

ولقد بلغ به الحزنُ والغمُّ لموت ولده «إبراهيم» من زوجته ماريّة القبطية حدّاً لم يحدثْ لغيره من أولاده، إلاّ أنّه رغم ذلك الحزن الأخذ من قلبه مأخذاً لم يفتر لسانه عن حمدالله وشكره حتّى أن اعرابياً اعترض عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما وجده يبكي على ولده قائلاً: أولم تكن نهيت عن البكاء اجابه بقوله:

«انما هذا رحمة، ومن لا يرحم لا يُرحم.» (2)

حَدْسٌ لا أساس له من الواقع!!

لقد كتبَ الدكتور هيكَل في كتابه: «حياة محمَّد» يقول: «لا ريب أن

- [مناقب ابن شهر آشوب: ج ١، ص ١٤٠، قرب الأسناد: ٦ و ٧، الخصال: ج ٢، ص ٣٧، بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٥ - ١٥٢. وقد ذكر البعض للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أكثر من ولدين، يراجع تاريخ الطبري ج ٢، ص ٣٥، بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٦٦.
- 2بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٥١.

(279)

خديجة عند موت كل واحد منهما (اي ولدي النبي: القاسم وعبدالله) في الجاهلية توجَّهت إلى آلهتها الاصنام تسألها ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها. (1)»

إنَّ هذا الكلام لا يستند إلى أي دليل تاريخي، وليس هو بالتالي إلا حدْسٌ باطل، وإدعاء فارغ ليس له من منشأ إلا أن أغلبية أهل ذلك العصر كانوا عبدة أوثان، فلا بُدَّ أن خديجة كانت على منوالهم!!

في حين أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يبغض الأصنام والأوثان من بداية شبابه، وقد اتضح موقفه منها أكثر في سفرته إلى الشام في أموال خديجة يوم قال لمن استحلَّفه باللات والعزى: «البيك عني، فما تكلمت العربُ بكلمة أثقل عليَّ من هذه»

مع ذلك كيف يمكنُ القولُ بأنَّ امرأةً لبيبة عاقلة لم يكن شدةً حبها وشغفها بزوجها موضع شك، أن تتوجَّه عند موت ولديها إلى الاصنام التي كانت ابغض الأشياء عند زوجها، وخاصة أن حبها لزوجها «محمَّد» وبل إقدامها على الزواج منه إنما كان بسبب ما كان يتحلَّى به من إيمان ومعنوية، وصفات فاضلة، وملكات اخلاقية عالية، فهي قد سمعت عنه بأنه آخر نبيٍّ، وأنه خاتم المرسلين، فكيف والحال هذه يمكن أن يحتمل احد انها - مع هذا الاعتقاد - بثت شكواها وحرزنها إلى الاوثان والاصنام!!!

دَعَى رسول الله: زيد بن حارثة:

عند الحَجَر الاسود أعلن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن تبنيه له... ذلك هو زيد بن حارثة.

وكان «زيد» ممَّن سبأه العرب من حدود الشام، وباعوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء «خديجة» يُدعى «حكيم بن حزام»، ولكن لا يُعرف كيف انتقل إلى «خديجة» في ما بعد؟

يقول هيكل في كتابه «حياة محمّد» في هذا الصدد «لقد ترك موثٌ ولذئ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفس النبي

اثراً عميقاً حتّى إذا جيء بزيد بن حارثة يُباغ طلب إلى «خديجة» أن تبتاعه ففعلت ثم اعتقه وتبناه. (1)»

ولكن أكثر المؤرخين يقولون: ان «حكيم بن حزام» قد اشتراه لعمته «خديجة بنت خويلد»، وقد أحبّه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - لذكائه وطهره، فوهبته «خديجة» له عند زواجه - صلى الله عليه وآله وسلم - منها.

ففتش عنه والدّه «حارثة» حتّى عرف بمكانه في مكة، فقدمها، ودخل على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يأذن لزيد ليبرحل

معه إلى موطنه، فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخيّره بين المقام معه - صلى الله عليه وآله وسلم - والرحيل إلى

موطنه مع أبيه، فاختر المقام مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما وجد من خلقه، وحنانه، ولطفه العظيم فلما رأى رسول

الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك اخرجّه إلى الحجر واعتقه ثم تبناه على مرأى من الناس ومسمع قانلاً: «يا من حضر اشهدوا

أن زيدا ابني. (2)»

بداية الخلاف بين الوثنيين:

لقد أوجدت البعثة النبويّة خلافاً واختلافاً كبيراً في أوساط قريش وفرقت صفوفهم، غير أنّ هذا الاختلاف قد وُجدت أسبابه وعوامله،

وظهرت بوادره وعلائمه قبل البعثة المباركة.

فقد أبدى جماعة من الناس في الجزيرة العربية استياءهم من دين العرب وانكروا عقائدهم الباطلة، وطالما كانوا يتحدثون عن قرب

ظهور النبي العربي الذي يتّم على يديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعدون أهل الاصنام بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويقولون:

- [حياة محمّد: ص ١٢٨.
- 12 الاصابة: ج ١، ص ٥٤٥ و ٤٥٦، أسد الغابة: ج ٢، ص ٢٢٥ و ٢٢٦.

ليخرجنّ نبيّ فليكسرن أصنامكم. (1)

وكتب ابن هشام يقول: كان اليهود يقولون للعرب: إنه قد تقارب زمان نبيّ يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وارم.

وكتب يقول أيضاً: وكانت الاحبار من اليهود، والرهبان من النصارى والكهّان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل مبعثه.

هذه الكلمات تُصوّر انقضاء عهد الوثنية في نظرهم إلى درجة أن بعض القبائل أجابت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما بُعث، ودعاهم الله، بينما احجمت اليهود عن الايمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودها لنبوته التي طالما بشرت بها. وقد نزل فيهم قوله تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ).⁽²⁾⁽³⁾

أعمدة الوثنية تهتز:

ولقد شهد أحد أعياد قريش حادثاً غريباً كان في نظر العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب منهم بمثابة جرس إنذار اذن باقتراب سقوط دولة الوثنيين، وإنهيار صروح الوثنية وعبادة الأصنام، وانقراضها.

فقد اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، فتحنى أربعة ممن عرفوا بالعلم ناحية، وأخذوا يتحدثون سراً، وأخذوا ينتقدون عبادة الأوثان والأصنام، وما عليه قومهم من فساد العقيدة.

فقال بعضهم لبعض: والله ما قومكم على شيء، لقد اخطأوا دين أبيهم

-
- 1بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٣١.
 - 2البقرة: ٨٩.
 - 3السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٢١.

(282)

إبراهيم!! ما حجرٌ تُطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع، يا قوم التمسوا لأنفسكم ديناً...

وكان هؤلاء الأربعة هم:

« 1- ورقة بن نوفل» الذي اختار النصرانية بعد أن طالع كُتُبها، واتصل بأهلها.

« 2- عبيدالله بن جحش» الذي أسلم عند ظهور الإسلام، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة.

3- «عثمان بن الحويرث» الذي قدم على قيصر ملك الروم، فتنصّر.

4- «زيد بن عمرو بن نفيل» الذي اعتزل الأوثان، وقال: اعبُد رب إبراهيم. (1)

إن ظهور مثل هذا الاستنكار والجحد للأوثان والوثنية لا يعني أبداً أنّ دعوة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كانت تعقيباً لدعوة هذه الجماعة، واستمراراً لها!!

كيف يمكن أن نعتبر دعوة رسول الله العالمية مع مانطوت عليه من أهداف كبرى، واستندت إليه من معارف وأحكام لا تُحصى، ردة فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود؟

إن الحنيفية وهي سُنّة إبراهيم ودينه لم تكن قد مُجيت كلياً في الحجاز بعد أيام بعثة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بل كان هناك لا يزال بعض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم - عليه السلام -) منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية، إلا أن ذلك لا يعني أنّهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس، أو قيادة حركة، أو تربية أفراد على نهجهم، أو أن توجّهاتهم التوحيدية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لشخصيّة مثل رسول الإسلام «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فلم يُنقل عن هؤلاء سوى بعض الإعتقادات المعدودة المحدودة مثل الاعتقاد

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٢٥.

(283)

بالمعاد واليوم الآخر، وشيء بسيط من البرامج الأخلاقية، وحتّى ما نقل عنهم من آيات توحيدية لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم، وأن لم يمكن نفي ذلك أيضاً. (1)

فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافة الإسلامية العظيمة، والمعارف العقلية العالية، والقوانين والتشريعات المفصلة، والانظمة الأخلاقية والسياسية والإقتصادية الإسلامية، الشاملة الكاملة، كنتيجة لمتابعة أولئك نفر المحدود من «الأحناف» الموحدين المنتشرين في أنحاء مختلفة من بلاد الحجاز الذين كانت جُلّ عقائدهم تتألف من مجرد الاعتقاد بوجود الله، واليوم الآخر وقضية أو قضيتين من قضايا الأخلاق؟!

نموذج آخر عن ضعف قريش:

لم يكن يمض على عُمر فتى قريش أكثر من خمس وثلاثين عاماً يومَ واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، فأزال بحكمته ذلك التخاصم، ولقد كشفت هذه الحادثة عن مدى الإحترام الذي كان فتى قريش «محمّد» يحظى به لدى قريش، كما وتكشف عن قوة اعتقادهم بصدقه وأمانته.

واليك تفصيل هذه الحادثة:

إنحدر سيلٌ رهيب من جبال مكة المرتفعة نحو بيت الله المعظم «الكعبة المقدسة» فلم يسلم من هذا السيل بيت في مكة حتّى الكعبة المعظمة، التي تصدّعتْ جدرانها تصدّعاً كبيراً بفعل ذلك السيل.

فعرزت قريش على تجديد تلك البنية المعظمة، ولكنها تهيبّت ذلك، وترددت في هدم الكعبة، فأقدم «الوليد بن المغيرة» وهدم ركنين منها على شيء من الخوف، فانتظر أهل مكة أن يحل به أمرٌ، ولكنهم لما رأوا «الوليد» لم يصبه

- [ولقد نقل ابن هشام في كتابه: السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٢٣ طائفة من الأبيات والقصائد التوحيدية هذه؛ والتي جاء في مطلع إحداها ما أنشده زيد بن عمرو بن نفيل:

أزباً واجداً أم ألف ربّ * أدين إذا تُسّمت الأمور؟

عزلت اللات والعزى جميعاً * كذلك يفعل الجُد الصبور (البصير)

(284)

غضب من الآلهة، اطمأنوا إلى أنه لم يرتكب قبيحاً، وأنه عمل ما فيه رضى آلهتهم، فاقدموا جميعاً على هدم ما تبقى من الكعبة، واتفق أن تحطمت سفينة قادمة من «مصر» في تجارة لرومى عند ميناء «جدة» بفعل الرياح والعواصف، فعلمت بذلك قريش، وأرسلت رجالاً يبتاعون أخشابها ليستخدموها في بناء الكعبة المعظمة، وأكلوا أمر نجارتها إلى نجار قبطى محترف كان يقطن مكة.»

ولما ارتفعت جدران الكعبة إلى قامة الرجل، وأن الأوان لوضع الحجر الأسود في محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش، وتنازعوا في من يتولى وضع الحجر الاسود في مكانه.

وتحالفت قبيلة «بني عبدالدار» مع «بني عدى» على أن يمنعوا من أن ينال هذا الفخار غيرهم، وعمدوا إلى اناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق.

من هنا تأخرت عملية البناء وتوقفت خمسة أيام بلياليها، وكاد أن تنشب بينهم حربٌ دامية، وربما طويلة، فقد اجتمعت طوائف مختلفة من قريش في المسجد الحرام وهي تنتظر حادثة خطيرة، فعمد - في الأخير - شيخ من شيوخ قريش يدعى «أبو أمية بن مغيرة المخزومي» من زعماء قريش وقال: يا معشر قريش، إجلعوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ⁽¹⁾ يقضي بينكم فيه» فقبلوا براهه اجمع، فكان أول داخل عليه فتى قريش «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - فلما رآه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - :هلم الی ثوباً، فأخذ الحجر ووضعته فيه ثم قال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً»

ف فعلوا حتى إذا بغوا به موضعه من الركن وضعه - صلى الله عليه وآله وسلم - هو بيده مكانه، وبهذا حال دون وقوع حوادث دامية كادت أن تقع بسبب تنازع قريش، واختلافها، وحلّ الوفاق محل الشقاق بعد أن رضي الكلّ بحكمه.

- [وفي رواية: أول من يدخل باب الصفا.

(285)

والى قضية التحكيم هذه يشير «هبيرة بن أبي وهب» في أبيات صوّرت هذه الحادثة التاريخية الكبرى، إذ قال:

تساجرت الأحياء في فصل خطة * جرت بينهم بالنحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبعض بعد مودة * وأوقد ناراً بينهم شر موقد

فلما رأينا الأمر قد جدّ جدّه * ولم يبق شيء غير سلّ المهند

رضينا وقلنا العدل أول طالع * يجيء من البطحاء من غير موعد

ففا جأنا هذا الامين محمد * فقلنا رضينا بالأمين محمد

بخير قريش كلها أمس شيمة * وفي اليوم مع ما يحدث الله في غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثله * أعمّ وارضى في العواقب والبدي

وتلك يدُّ منه علينا عظمة * يروبو لها هذا الزمان ويعتدي⁽¹⁾

أَمِينٌ قَرِيشٌ يَكْفُلُ عَلِيًّا:

أجدبت مكة وضواحيها سنة من السنين، وقل فيها الماء، وأصابت الناس أزمة شديدة، وكان أبوطالب - عليه السلام - كثير العيال، فعزم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أن يساعد عمه أباطالب، ويخفف عنه عبء العيال، فانطلق إلى عمه العباس وقال له: «إن أخاك أباطالب كثير العيال وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا.»

فكفل العباس جعفرًا، وكفل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليا - عليه السلام - .

يقول أبو الفرج الأصفهاني المؤرخ المعروف في هذا الصدد:

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٩٢ - ١٩٩ وفروع الكافي: ج ٤، ص ٢١٧ و ٢١٨، والجدير بالذكر أنهم قالوا عند تجديد بناء الكعبة: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد للناس» (البداية والنهاية: ج ٢، ص ٣٠١) ولا شك أن هذه من بقايا تعاليم الأنبياء التي بقيت بينهم ولم تمح بالمرّة.

(286)

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - آخذ «عليًا» من أبيه وهو صغير في سنة اصابت قريشاً وقحط نالهم، وأخذ حمزة جعفرًا وأخذ العباس طالباً ليكفوا اباهم مؤنتهم ويخففوا عنهم ثقلهم، وأخذ هو (أي ابوطالب) عقيلاً لميله كان إليه فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«اخترت من اختار الله لي عليكم: علياً.»⁽¹⁾

إن هذه الحادثة وإن كانت في ظاهرها تعني ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اقدم على هذا الأمر ليساعد عمه أباطالب في تلك الازمة، لكن الهدف الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أن: يتربى علي - عليه السلام - في حجر النبي، ويغتذي من مكارم اخلاقه ويتبعه في كريم افعاله.

ولقد اشار الإمام علي - عليه السلام - نفسه إلى هذا الموضوع بقوله:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَ الْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَ أَنَا وَ لَدَ بَضْمُنِي إِلَى صَدْرِهِ وَ يَكْفُنِي فِي فِرَاشِهِ... وَ لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرِ أُمَّهِ بَرَفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَ يَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ.»⁽²⁾

إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام:

تدلُّ الدلائل التاريخية، القوية، فضلاً عن الأدلة العقلية والمنطقية على أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يعبد غير الله تعالى منذ وُلِدَ من أُمَّة، والى أن رحل إلى ربه، بل وكان كفلاًؤه مثل عبدالمطلب وأبي طالب مؤمنون موحدون هم أيضاً

إيمان جده عبدالمطلب:

وأما عبدالمطلب كفيل النبيِّ الأوَّل فلا ننسى أنه عند ما قصد «أبرهة» هدم

- [مقاتل الطالبين: ص ٢٦، الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٣٧، السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ باب (ذكر أن علي بن ابي طالب رضي الله عنه اول ذكر أسلم).
- 2 نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

(287)

الكعبة في جيش الفيل، نزل في جوف الليل إلى الكعبة وأخذ بحلقة بابها يدعوا الله ويقول مناجياً الله سبحانه.

«اللهم أنيس المستوحشين، ولا وحشة معك فالبيت بيئتكم، والحرم حرمك والدار دارك، ونحن جيرانك، انك تمنع عنه ما نشاء، ورب الدار أولى بالدار.»

ثم أنشأ يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا * يارب فأمع منهمو جماكا

إن عدو البيت من عاداكا * إمنعهمو إن يخربوا فناكا⁽¹⁾

وهذا يكشف بوضوح عن إيمان عبدالمطلب بالله تعالى، وتوكله عليه سبحانه، وأنه كان الرجل الموحد الذي لا يلتجئ في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله، ولا يعرف إلا باب الله على عكس ما كانت الوثنية عليه فان قومه كانوا يستغيثون بالأصنام المنصوبة حول الكعبة.

ومما يدل على إيمانه أيضاً توسله لكشف غمته بالله سبحانه فقد تتابعت على قريش سنون جذب ذهبت بالأموال، واشرفت الانفس واجتمعت قريش لعبدالمطلب، وعلوا جبل ابي قبيس ومعهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - محمّد وهو غلام فتقدم عبدالمطلب وقال: لاهم (اي اللهم) هؤلاء عبيدك واماؤك وبنو امانك، وقد نزل بنا ماترى، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف

والحافر، فاشرفت على الانفس فأذهب عنا الجذب، وانتنا بالحياء والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية، وفي هذه الحالة تقول رقيقة:

بشبية الحمد اسقى الله بلدتنا * وقد عدنا الحيا وا جلوذ المطر

إلى أن تقول:

مبارك الأم يستسقى الغمام به * ما في الانام له عدل ولا خطر

- [راجع القصة ومصادرها في ص ١٦١ من هذا الكتاب، ولعبدالمطلب مواقف أخرى مشابهة، وعديدة، راجع بصدها مفاهيم القرآن: ج ٥، ص ١٣٦ - ١٤٠.

(288)

وإلى هذه الواقعة يشير ابوطالب في قصيدة أولها:

ابونا شفيح الناس حين سقوا به * من الغيث رجاس العشير بكور
ونحن - سنين المحل - قام شفيحنا * بمكة يدعو والمياه تغور⁽¹⁾

وقد نقل الشهرستاني هذه الواقعة في كتابه «الملل والنحل» قال: ومما يدل على معرفته (أي عبدالمطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة ان اهل مكة لما أصابهم ذلك الجذب العظيم، وامسك السحاب عنهم سنتين أمر اباطالب ابنه، ان يُحضر المصطفى محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - فاحضره ابوطالب، وهو رضيع في قماط، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة، ورماه إلى السماء، وقال: يا رب بحق هذا الغلام، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول: بحق هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً دائماً هطلا، فلم يلبث ساعة أن السحاب وجه السماء وأمطر، حتى خافوا على المسجد، وقال ايضاً: وببركة ذلك النور كان عبدالمطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الاخلاق، وينهاهم عن دنيايات الأمور.

وكان يقول في وصاياه: «انه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة»، إلى ان هلك رجل ظلوم حتف انفه لم تصبه عقوبة، فقيل لعبدالمطلب في ذلك، ففكر وقال: ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ويعاقب فيها المسيء باساءته.⁽²⁾

ان توسل عبدالمطلب بالله سبحانه وتوليه عن الاصنام والاوثنان، والتجاءه إلى رب الارباب آية توحيده الخالص، وايمانه بالله وعرفانه بالرسالة الخاتمة، وقداسة صاحبها، فلو لم يكن له إلا هذه الوقائع لكفت في البرهنة على ايمانه بالله، وتوحيده له.

وقد اعترف المؤرخون لعبدالمطلب بهذا فقد قال اليعقوبي: «ورفض عبدالمطلب عبادة الاوثان والاصنام، ووحّد الله عزّوجلّ ووفى بالنذر، وسنّ سنناً نزل القرآن باكثرها، وجاءت السنة الشريفة من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣١ - ١٣٣.
- 2 الملل والنحل: ج ٢، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

(289)

بها، وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الابل في الدية، وان لا تتكح ذاتُ محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليه، والقرعة، وان لا يطوف احد بالبيت عرياناً، واطافة الضيف وان لا ينفقوا إذا حجوا الا من طيب اموالهم، وتعظيم الاشهر الحُرْم، ونفي ذوات

الرايات. (1)

هذا وعن أم أيمن «رضي الله عنها» قالت: كنتُ أحضن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (اي اقوم بتربيته وحفظه)، فغفلت عنه يوماً فلم ادر الا بعبدالمطلب قائماً على رأسي يقول «يا بركة.»

قلت: لبيك.

قال: أتدرين اين وجدْتُ إبني؟

قلت: لا ادري.

قال: وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، لا تغفلي عن ابني، فان أهل الكتاب يزعمون انه نبيّ هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم. (2)

وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً الا يقول على بابني (اي احضروه) ويجلسه بجانبه، وربما اقعده على فخذه، ويؤثره بأطيب طعامه

ثم انه لما بلغ أجله اوصى إلى ابي طالب برسول الله وقال له: قد خلفت في ايديكم الشرف العظيم الذي تطؤون، به رقاب الناس وقال له أيضاً:

أوصيك يا عبد مناف بعدي * بمفرد بعد ابيه فرد

فارقة وهو ضجيع المهدي * فكنت كالأم له في الوجد

تدنيه من أحشائها والكبد * فانت من أرجى بنيي بعدي

لدفع ضميم أو لشدّ عقد⁽³⁾

هذا هو عبدالمطلب، وتعوذه ببيت الله الحرام، ومواقفه بين قومه، وكلماته في

-
- [تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٩ في بعض ماعدّه المؤرخ المذكور نظر.
- 2سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦٤.
- 3تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٠.

(290)

المبدأ والمعاد وعطفه وحنانه على رسول الإسلام، واهتمامه برسالة خاتم النبيين، وهي بمجموعها من أقوى الشواهد على توحيده، وإيمانه بالله، واعترافه برسالة الرسول الكريم.

إيمان كفيله وعمه أبي طالب:

وهكذا كان حال كفيّل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الثاني ابوطالب - عليه السلام - ، فان له مواقف بارزة وكثيرة قبل البعثة النبوية، وبعدها تكشف عن عمق إيمان شيخ الاباطح، وتوحيده.

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في صباه:

فقد اصاب مكة قحطٌ شديدٌ في سنة من السنين فطلبت قريش من «أبي طالب» أن يستسقي لها فخرج ومعه غلامٌ - وهو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . - كأنه شمسٌ دجن تجلّت عنها سحابة قتماء وحوله أغيلمٌ، فأخذه «أبوطالب» فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام باصبعه (أي أشار بها إلى السماء) وما في السماء فزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، وأغدق وانفجر له الوادي، واخصب البادي والنادي.

ففي ذلك يقول ابوطالب - في مدح رسول الله -:

وابيضُّ يُسْتَسْقَى الغمامُ بوجهه * ثمالُ اليتامى عصمةٌ للأراملِ

يُلَوِّدُ بِهِ الهلاكُ من آلِ هاشمٍ * فَهُمُ عِنْدَهُ في نعمةٍ وفواضِلِ

وميزانُ عدلٍ لا يُخيسُ شعيره * ووَزَانُ صدقٍ وزنه غير هائل⁽¹⁾

وكل هذا يعرب عن توحيد كفيلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الخالص، وإيمانها بالله تعالى، ولو لم يكن لهما إلا هذين الموقفين لكفياهما دليلاً وبرهاناً على كونهما مؤمنين موحدين.

- [شرح البخاري للقسطاني: ج ٢، ص ٢٢٧، المواهب اللدنية: ج ١، ص ٤٨، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٢٥، وللتوسع راجع الغدير: ج ٧، ص ٣٤٥ و ٣٤٦، وقد ذكرنا مواقف ابي طالب الايمانية عند البحث عن شخصيته فراجع.

(291)

كما ان ذلك يدل ايضاً على أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نشأ وترعرع ونما في بيت كانت الديانة السائدة فيه هي توحيد الله، وعبادته وحده ورفض الاصنام والوثان.

إيمان والدي النبي الاكرم:

لقد نقلت عن عبدالله والد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلمات وبيات تدل على ايمانه ومن ذلك ما نقله اهل السير عندما عرضت فاطمة الخثعمية نفسها عليه فقال رداً عليها:

أما الحرام فالمماتُ دونهُ * والجلّ لاجلّ فاستبيئهُ

يحمي الكريمُ عرضَه ودينَه * فكيف بالأمر الذي تبغيغنه⁽¹⁾

وقد روي عن النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال: «لم أزلُ أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أحرام الطاهرات» ولعل فيه ايعازاً إلى طهارة آبائه وامهاته من كل دنس وشرك⁽²⁾

واما الوالدة فيكفي في اثبات ايمانها ما رواه الحفاظ عنها عند وفاتها فانها (رضي الله عنها) خَرَجَتْ مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ابن خمس سنين ونزلت بالمدينة تزور أحوال جده وهم بنو عدي بن النجار ومعها ام ايمن «بركة» الحبشية، فاقامت عندهم، وكان الرسول بعد الهجرة يذكر اموراً حدثت في مقامه ويقول: «ان أمي نزلت في تلك الدار، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إلى فنظر إلى رجلٍ من اليهود فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقلت: أحمد، فنظر إلى ظهري، وسمعتَه يقول: هذا نبي هذه الأمة، ثم راح إلى اخوانه فاخبرهم فخافت أمي عليّ فخرجنا من المدينة، فلما كانت بالابواء توفيت ودُفنت فيها.

وروى ابو نعيم في دلائل النبوة عن اسماء بنت رهم قالت: شهدت أمة أم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في علتها التي ماتت بها، ومحمّد - عليه السلام - غلام يقع

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤٦.
- 2سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٥٨.

(اي يافع) له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه وخاطبته بقولها:

إن صحَّ ما أبصرتُ في المنام * فانت مبعوثٌ إلى الانام

فألله انهاك عن الاصنام * ان لا تواليها مع الاقوام

ثم قالت: كل حي ميت وكل جديد بال، وكل كبير يفتى، وانا ميتة وذكرى باق وولدت طهراً.

وقال الزرقاني في شرح المواهب نقلاً عن جلال الدين السيوطي تعليقا على قولها: وهذا القول منها صريح في انها كانت موحدة إذ ذكرت دين ابراهيم - عليه السلام - ، وبشرت ابنها بالاسلام من عندالله، وهل التوحيد شيء غير هذا، فان التوحيد هو الاعتراف بالله وانه لا شريك له، والبراءة من عبادة الاصنام. (1)

ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى ما قاله المرحوم الشيخ المفيد في كتابه «اوائل المقالات» في هذا الصدد:

اتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبدالله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجلّ موحدون له، واحتجوا في ذلك بالقرآن والاحبار قال الله عزوجلّ: «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين.» (2)

ثم إن هنا سؤالين هما:

1- هل كان - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة موحداً؟

2- بماذا وبأي دين كان يتعبد - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة؟

واليك الحديث في هاتين الجهتين:

إيمان النبي بالله وتوحيده قبل البعثة:

إن الدلائل التاريخية - بالاضافة إلى البراهين العقلية والكلامية - تدل على انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قبل ان يبعثه الله بالإسلام، مؤمناً بالله، موحداً إياه، لم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنم أبداً، وان ذلك من المسلمات.

- [الاتحاف للشبراوي: ص ١٤٤؛ سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٥٧.

- 2اوائل المقالات: ص ١٢ و ١٣.

وهذا الامر وان كان أمراً مسلماً وواضحاً كوضوح الشمس إلا اننا نذكر بعض ما جاء في التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتفاق بأصح الدلائل التاريخية:

اما بغضه للأصنام وتجنبه للوثان وما يكون من هذا القبيل فإليك بعض ما ذكره التاريخ الصحيح في هذا المجال:

1- جاء في حديث طويل: انّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما تم له ثلاث سنين قال يوماً لوالدته (لمرضعته) حليلة السعدية:

مالي لا أرى أخوئاً بالنهار، قالت له: يا بُنَيَّ انّهما يرعيان عُثِمَات.

قال: فمالي لا أخرج معهما، قالت له: أتحبُّ ذلك؟ قال: نعم، فلما اصبحَ محمَّدٌ دهنته (تقول حليلة) وكحلته وعققت في عنقه خيطاً فيه جزعٌ يمانئ، فنزعه ثم قال لأمه:

«مَهْلًا يَا أُمَّاهُ فَإِنَّ مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِي.»⁽¹⁾

2- روي ان «بحيرا» الراهب قال للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في سفرته الاولى مع عمه أبي طالب إلى الشام: يا غلام اسألك

بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما اسألك، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما ابغضتُ شيئاً بغضَهُما» قال الراهب: بالله الا أخبرتني عما أسالك عنه، قال - صلى الله عليه

وآله وسلم - :سألني عما بدالك. (2)

3- روي أنه قد وقع بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين رجل تلاح في سفرته الثانية إلى الشام للتجارة بأموال خديجة مع

غلامها «ميسرة» بعد أن باع - صلى الله عليه وآله وسلم - سلعته، فقال له الرجل: إحلِفْ باللات والعزى، فقال رسول الله - صلى

الله عليه وآله وسلم - :

- 1 المنقوي، الباب الثاني من القسم الثاني - للكارزوني كما في البحار: ج ١٥، ص ٣٩٢.
- 2 الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٥٤، السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٢.

«ما حلقتُ بهما قط، وإني لأمرُّ فأعرضُ عنهما.»

وفي رواية أخرى:

«إليك عني ثكلتك أمك فما تكلمت العربُ بكلمة انقلَّ عليَّ من هذه الكلمة.»

فقال الرجل: القولُ قولك. ثم قال لميسرة: هذا والله نبيُّ. (1)

واما عبادته لله تعالى فقد أجمع المؤرخون على أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يخلو بحراء كل عام شهراً يعبد فيه الله تعالى

وقد قال الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - في هذا المجال:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ، فَرَاهُ وَ لَا يَرَاهُ غَيْرِي. (2)»

حتَّى أن جبرئيل وافاه بالرسالة في ذلك المكان، وفي تلك الحال.

وقد صرَّح بهذا أصحابُ الصحاح الستة أيضاً إذ قالوا:

«وَ كَانَ يَخْلُو بَحْرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعْبِدُ فِي اللَّيَالِي نَوَاتِ الْعَدَدِ. (3)»

كما ان الإمام امير المؤمنين - عليه السلام - وصف هذا المقطع من حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله:

«وَلَقَدْ قَرَنَ اللَّهُ بِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - لَدُنْ أَنْ كَانَ فَطِيماً أَعْظَمَ مَلَكٍ مِنْ مَلَائِكَتِهِ يَسْلُكُ بِهِ طَرِيقَ الْمَكَارِمِ، وَمَحَاسِنَ أَخْلَاقِ

العالم، ليله ونهاره. (4)»

وجاء في الأخبار أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حجَّ قبل البعثة حجات عديدة وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح

بعيداً عن أعين قريش.

قال الإمام الصادق - عليه السلام - في حديث ابن ابي يعفور:

«حَجَّ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَشْرَ حَجَّاتٍ مُسْتَتِراً فِي كُلِّهَا. (5)»

وفي رواية: عشرين حجة. (6)

1 الطبقات الكبرى: ج 1، ص 156، بحار الأنوار: ج 16، ص 18.

2 نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة 192.

3 صحيح البخاري: ج 1، ص 2، صحيح مسلم باب الايمان، مسند أحمد: ج 6، الحديث 233.

4 نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة رقم 192.

5(5) و (6) - وسائل الشيعة: ج 8، ص 88 أبواب وجوب الحج.

والسبب في هذا الاستتار هو أن قريش كانت قد اسقطت بعض مناسك الحج، والعمرة، فكانت تؤدّي الحج بصورة غير صحيحة وربما غيرت أشهر الحج أحياناً لبعض الاعتبارات السياسية والمادية، وهو ما سمي بالنسيء وقد مرّ بيانه. (1)

ان هذه الوقائع وغيرها - وهي ليست بقليلة اصدق دليل على إيمانه - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتوحيده، إذ كيف يمكن أن يتنكّب مثل هذه الشخصية التي نشأت وترعرعت في ذلك البيت الطاهر، وقرن الله به ملكاً يتولاه بالتربية والهداية عن جادة التوحيد.

ثم أن ممّا لا ريب فيه أن الرسول الخاتم - صلى الله عليه وآله وسلم - هو افضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنص القرآن الكريم

وقد صرح القرآن بان بعض الانبياء بلغوا درجة النبوة في الصغر، أو الصبا، ونزلت عليهم الكتب في تلك الفترات.

فمثلاً يقول القرآن الكريم عن يحيى بن زكريا: **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً.** (2)

ثم يقول عن «عيسى بن مريم» عندما كان في المهد وكان وجوه القوم من بني اسرائيل قد استنكروا ولادته من غير اب، وطلبوا من «مريم البتول» ان توضح لهم الامر، وتبين لهم كيف حملت بعيسى؟! فاشارت إلى المسيح - عليه السلام - أن كَلِمَوه وهو أنذاك في المهد لم يمض على ولادته سوى ايام معدودات؛ فنطق المسيح بفصاحة كبيرة وقال:

(إني عبدُ الله أتاني الكتابُ وجعلني نبياً. وجعلني مباركاً أين ما كنتُ وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمتُ حي.) (3)

لقد بيّن وليد «مريم» للناس أصول دينه وفُروعه في فترة الطفولة والرضاعة، وأعلن لهم عن توحيده وإيمانه بالله سبحانه.

- [راجع الصفحة ٨٣ و ٨٤ من هذا الكتاب.

- 2مريم: ١٢.

- 3مريم: ٣٠ و ٣١.

فهو يرضى ضميرك أيها القارئ الكريم أن يكون «يحيى» و «المسيح» -عليهما السلام - مؤمنين معلنين عن توحيدهما، وإيمانهما منذ طفولتهما، وصباهما، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين إلى سبب الأربعين على غير إيمان، وتوحيد،

مع أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان مشتغلاً بالتعبّد في جبل «حراء» عند نزول ملاك الوحي عليه لأول مرة؟

واليك بعض ما قاله المؤرخون، والعلماء في هذا المجال استكمالاً لهذا المبحث: قال ابن هشام: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جواره

من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوفُ به سبعمائة أو ما شاء الله من ذلك، ثم

يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى «حراء» كما كان يخرج لجواره ومعه اهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمها الله فيها برسالاته ورحم العباد بها جاءه جبرئيل - عليه السلام - بأمر الله تعالى. (1)

وقال العلامة المجلسي: قد ورد في أخبار كثيرة انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يطوف، وأنه كان يعبد الله في حراء وأنه كان يراعي الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الأكل وغيره، وكيف يجوز ذو مسكة من العقل على الله تعالى ان يهمل افضل انبيائه اربعين سنة بغير عبادة؟ والمكابرة في ذلك سفسطة. (2)

فايمان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتوحيده قبل البعثة، اذن، أمر مسلم لا شبهة فيه، ولا غبار عليه.

ولكن بعض الكتاب من المسيحيين ومن تبعهم، من المستشرقين وغيرهم، أبوا إلا أن ينتقصوا النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - فادعوا ضلالة قبل البعثة،

- 1 السيرة النبوية: ج 1، ص 236.
- 2 بحار الأنوار: ج 18، ص 280.

(297)

وإنه كان على غير إيمان، أو توحيد، واستدلوا لزعمهم الباطل هذا بما توهموا أنه يدل على دعواهم من الآيات القرآنية، وأبرزها الآيات التالية:

(1) - 1 ألم يجدك يتيماً فآوى. وَ وَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. (1)

(2) - 2 وَثِيَابَكَ فَطَهَّر. وَالرُّجْزَ فَاهْجُر. (2)

(3) - 3 وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيم. (3)

(4) - 4 قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. (4)

(5) - 5 وَ مَا كُنْتُ تَرَجُّو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. (5)

لقد استدلت المستشرقون ومن لفت لفهم ومن سبقهم أولحقتهم من المخطئة بهذه الآيات على ضلال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة، وسلب الإيمان عنه، ولكنها لا تدل على ما يريدون، ولاجل تسليط الضوء على مقاصدهم نبحت عنها واحدة واحدة.

الاية الأولى: الهداية بعد الضلالة:

ذكر المفسرون لقوله تعالى: «وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» الذي يشعر بهداية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد الضلالة احتمالات عديدة، في معرض الاجابة على استدلال من استدل به لاثبات ضلال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة ولكن الحق ان يقال: أن الضال يُستعمل في عرف اللغة في موارد:

1- الضالّ: من الضلالة ضدّ الهداية والرشاد.

2- الضالّ: من ضلّ البعير إذا لم يعرف مكانه.

-
- 1 الضحى: ٦ و ٧.
 - 2 المدثر: ٤ و ٥.
 - 3 الشورى: ٥٢.
 - 4 يونس: ١٦.
 - 5 القصص: ٨٦.

(298)

3- الضالّ: من ضلّ الشيء إذا ضلّ وخفى ذكره.

وتفسير الآية بائٍ واحدة من هذه المعاني لا يثبت ما يدعيه الذين يتمسكون بها لأثبات ضلال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة.

أما المعنى الأول فهو المقصود في كثير من الآيات قال سبحانه: **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَ لَا الضَّالِّينَ.** (1)

لكن الضلالة على نوعين:

النوع الأول ما تكون الضلالة فيه أمراً وجودياً في النفس يوجب ظلمة النفس ومنقصتها، مثل الكفر والشرك والنفاق، والضلالة بهذا المعنى قابلة للزيادة والنقصان قال سبحانه: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ.** (2)

النوع الثاني ما تكون الضلالة فيه أمراً عديمياً، وذلك عندما تكون النفس فاقدة للرشاد، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنه غير واجد للهداية من عند نفسه، وذلك كالطفل الذي اشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير والشر، ويميز بين الصلاح والفساد فهو آنذاك ضالٌّ بمعنى أنه غير واجد للنور الذي يهتدي به في سبل الحياة لا بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق في نفسه وروحه.

والمراد من الضالّ في قوله تعالى «وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» لو كان ما يضادد الهداية فهو يهدف إلى النوع الثاني، فيكون المعنى أنك في ابان عمرك كنت غير واجد للهداية من عند نفسك فهذاك الله إلى اسباب السعادة وعرفك عوامل الشقاء، وهو اشارة إلى قانون

الهي عام في حياة البشر انبياء واناساً ماديين، وهو ان هداية كل إنسان بل كل ممكن مكتسبة من الله قال سبحانه: **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.** (3)

وعلى هذا الاساس فالآية تهدف إلى ذكر النعم التي انعم الله بها على نبيه الحبيب منذ ان استعد لها فأراه بعد ما صار يتيماً، وافاض عليه الهداية بعد ما كان

- [الفاتحة: ٧.
- 2التوبة: ٣٧.
- 3طه: ٥٠، وراجع الآيات: ٢ و ٣ من سورة الأعلى و ٤٣ من سورة الأعراف و ٧٨ من سورة الشعراء وغيرها.

(299)

فاقداً لها بحسب ذاته، وبحكم طبيعته، ويعود زمن هذه العناية الربانية بنبيه إلى مطلع حياته، واوليات عمره وايام صباه بقرينة ذكر ذلك بعد الايواء الذي تحقق باليتم، وتم بجده عبدالمطلب فوقع في كفالته إلى ثمانية سنين، ويؤيد ذلك قول امام المتقين علي بن ابي طالب - عليه السلام - «: و لقد قرّن الله به - صلى الله عليه وآله وسلم - من لدن أن كانَ فطيماً أعظمَ ملك من ملائكته يسلك به طريقَ المكارم، ومحاسنَ أخلاق العالم ليله ونهاره. (1)»

وصفوة القول أن المراد بكونه ضالاً هو أن لازم كون النبي ممكناً بالذات هو كونه فاقداً في ذاته لكل كمال وجمال، مفاضاً عليه كل جميل من جانب الله تعالى وهذا هو اشارة إلى مقتضى التوحيد الافرغالي وابن هذا من الضلالة المساوقة للكفر أو الشرك أو الفسق والعصيان؟!

ثم ان من المحتمل ان تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء إذا لم يُعرف مكانه» وفي الحديث «الحكمة ضالة المؤمن» اي مفقودته، لاضد الهداية والرشاد، فيكون الضالّ بهذا المعنى منطبقاً على ما نقله أهل السير والتواريخ عن ماجرى للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ايام صباه يوم ضلّ في شعاب مكة، وهو صغير فمنّ الله عليه إذ رده إلى جده، وقصته معروفة في كتب السير والتاريخ(2) ولولا رحمة الله سبحانه لادركه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً فشملتة العناية الالهية.

أو أن تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضلّ الشيء إذا خفي وغاب عن الأعين» فالإنسان الضال هو الإنسان المخفي ذكره، المسنّى اسمه لا يعرفه إلا القليل من الناس، ولا يهتدي كثير منهم إليه.

ولو كان هذا هو المقصود، كان معناه حينئذ انه سبحانه رفع ذكره، وعرفه

- [نهج البلاغة: من الخطبة ١٧٨ و المسماة بالقاصعة: ص ١٨٢.

2- لاحظ السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣١ وغيره، وفي هذه القصة يروي عن حيدة بن معاوية العامري سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول:

يارب رَدِّ رَاكِبِي مُحَمَّدًا * أَرَدَدَهُ رَبِّي وَاصْطَنَعْتُ عِنْدِي يَدَا

(300)

للناس بعد ما كان خاملاً ذكره منسياً اسمه.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتحليل ما ورد في سورة الضحى قاتلاً:

(الْمِ نَشْرَحُ لَكَ صَدْرَكَ. وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ. الَّذِي أَنْقَضَ ظَهْرَكَ. وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ.)⁽¹⁾

فرفع ذكره في العالم عبارة عن هداية الناس إليه ورفع الحواجز بينه، وبينهم وعلى هذا فالمقصود من «الهداية» هو هداية الناس إليه لا هدايته بعد ضلال، فكأنه قال: فوجدك ضالاً، أي خاملاً ذكرك، باهتاً اسمك، فهدى الناس اليك، وسيّر ذكرك في البلاد. وإلى ذلك يشير الإمام الرضا - عليه السلام - على ما في خبر ابن الجهم بقوله: «قال الله عز وجل لنبيه محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - : ألم يجدك يتيماً فأوى (يقول «ألم يجدك» وحيداً فأوى إليك الناس) (وَوَجَدَكَ ضَالًّا) يعني عند قومك «فهدى» أي هدايتهم إلى معرفتك.⁽²⁾ قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في هذا المجال:

لقد بُعِثْتُ إليه (أي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -) (الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسنُ الخليفة، وما جاء في الكتاب من قوله: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم حاش لله، إن ذلك لهو الإفك المبين.⁽³⁾

الآية الثانية: الامر بهجر الرجز

استدلوا بقول الله تعالى «وَالرُّجْزَ فَاهْجُرُوا» على وجود ارضية لعبادة الصنم

- 1 الإنشراح: ١ - ٤.
- 2 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٤٢.
- 3 رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده: ص ١٣٥ و ١٣٦.

(301)

والوثن في شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك بتفسير الرجز بالصنم، والوثن، ويتضح بطلان هذا الادعاء والاستنباط إذا معنا في معاني واستعمالات هذه اللفظة في الكتاب العزيز.

ان الرجز استعمل في القرآن الكريم في معان ثلاثة: العذاب، القذارة، الصنم.

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) في تسع موارد في القرآن الكريم، وقد أريد منه في جميعها العذاب إلا في مورد واحد: وهي: البقرة - ٥٩، والاعراف - ١٣٤ (وجاءت اللفظة فيها مرتين) و ١٣٥ و ١٦٢ والانفال - ١١ وسبأ - ٥ والجنات - ١١ والعنكبوت - ٣٤.

وجاء الرجز - بضم الراء - مرة واحدة وهي الآية التي نحن بصددنا هنا. (1)

وهذه الآية لا تدل على ما ذهب إليه الذين يزعمون بان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان على غير التوحيد قبل البعثة. واليك بيان هذا الموضوع مفصلاً:

1- ان الرجز لو كان بمعنى «العذاب» دلت الآية على هجر ما يستلزم العذاب، فيكون الخطاب حينئذ مسوقاً من باب التعليم، ومن باب «اياك أعني واسمعي يا جاره»، فيكون ظاهر الأمر هو مخاطبة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ونهيه عما يستلزم العذاب، واردة تعليم الأمة مثل قول الله تعالى في خطابه للنبي (فلا تكونن ظهيراً للكافرين). (2) (وقوله تعالى): **لئن أشركت ليحبطن عملك** (3) فكما لا تدل الآية على وجود أرضية الشرك في شخصية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كذلك لا تدل الآية على وجود أرضية التعرض للعذاب في شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

2- إن الرجز لو كان بمعنى (القذارة) وهي تنقسم إلى مادية ومعنوية فيحتمل ان يكون المراد بناء على المعنى الأول اشارة إلى ما ورد في الروايات من

1 المدثر: ٥ .

2 القصص: ٨٦ .

3 الزمر: ٦٥ .

ويحتمل ان تكون الآية دعوة إلى اجتناب الصفات الذميمة بناء على ارادة المعنى الثاني الفظة الرُجز فتكون الآية تعليماً للناس على النمط السابق، فلا تدل على اتصاف النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بها.

3- الرُجز بمعنى الصنم، لنفترض أن المقصود منه في الآية هو الصنم، لكن لا بمعنى أنه وضع لذاك المعنى، وإنما وضع اللفظ لمعنى جامع يعمُّ الصنم والخمر والازلام لاشارك الجميع في كونها رجزاً، ولأجل ذلك وصف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال تعالى: **إِنَّمَا الخَمْرُ وَالمَيْسِرُ وَالأَنْصَابُ وَالأَزْلامُ رَجِسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ.** (1)

ولكن يجب عن هذا أيضاً بأن النبي يوم نزلت الآية لم يكن عبداً للوثن بل كان مشمراً عن ساعد الجدّ لتحطيم الاصنام ومكافحة عبديتها، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنه بهجر الاصنام إلا على السبيل الذي أشرنا إليه وهو توجيه الخطاب إلى النبي وإرادة الأمة به لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ في التأثير، لأنه سبحانه إذا خاطب أعزّ الناس إليه بهذا الخطاب فغيره أولى به.

الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والايمن

قوله سبحانه: **وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرنا ما كُنْتَ تَدْرِي ما الْكِتابُ وَ لا الْإِيْمانُ وَ لَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نُهْدِي بِهِ مَنْ نُشاءُ مِنْ عِبادنا وَ إِنَّكَ لَتَهْدِي إِلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ.** (2)

زعم جماعة دلالة هذه الآية - والعياذ بالله - على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان فاقداً للإيمان قبل الإيحاء إليه.

لكن حياته الشريفة المشرقة بالإيمان، والتوحيد، تفنّد تلك المقالة، فالتاريخ

- [المائدة: ٩٠ -
- 2 الشورى: ٥٢.

(303)

يشهد على انه - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ بداية عمره إلى أن لاقى ربه مؤمناً موحداً وذلك امرٌ لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، وقد اجمع على ذلك أهل السير والتاريخ، وحتى أن الاحبار والرهبان كانوا معترفين بانه نبيُّ هذه الأمة، وخاتم النبيين، وكان يسمع تلك الشهادات منهم في فترات خاصة في «مكة» و «يثرب» و «بصرى» و «الشام» (1) وغيرها، فكيف والحال هذه يمكن ان يكون غافلاً عن الكتاب الذي ينزل إليه أو يكون مجانباً للإيمان بوجوده سبحانه، و توحده، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكّد على عدم صدق ذلك الاستظهار من الآية الحاضرة.

فلا بدّ إذن من الإمعان في مفاد الآية كما لا بدّ - في تفسيرها - من الاستعانة بالآيات الواردة في ذلك المساق.

بعث النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لهداية قومه أولاً، وهداية جميع الناس ثانياً، بالآيات والبيّنات، ونخصّ بالذكر منها: القرآن الكريم (معجزته الكبرى الخالدة) الذي بفصاحته أحرس فرسان الفصاحة، وقادة الخطابة، وببلاغته قهر ارباب البلاغة وملوك البيان، وخب عقولهم، وقد دعاهم إلى التحدي والمقابلة، فلم يكن الجواب منهم إلا اثاره الشكوك والتهم حوله، وحول ما جاء به، وعدم المعارضة بمثل القرآن قط.

فتارة قالوا: بانه يعلمه بشر، وأخرى بأنه إفك افتراه، واعانه عليه قوم آخرون وثالثة: بأنه أساطير الاولين، قد اكتتبتها فهي تُملى عليه بكرة واصبلا، قال سبحانه رداً على هذه التهم التي أشرنا إليها: **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ** (2) وقال سبحانه **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ**

- 1 راجع السيرة النبوية والسيرة الحلبية وبحار الأنوار.
- 2 النحل: ١٠٢ و ١٠٣.

(304)

قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَ قَالُوا أُسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَ أُصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً (1)

والآية المبحوثة بصدد بيان هذا الأمر، وانه وحي سماوي لا افك افتراه، ولهذا بدأ كلامه بلفظة: «وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ» أي كما أنه سبحانه أوحى إلى سائر الانبياء باحدى الطرق الثلاثة التي بينها في الآية المتقدمة، أوحى إليك أيضاً روحاً من امره، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كلام ربك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام في الآية ولاجل رفع النقاب عن مرماها تقدّم اموراً تسلط الضوء على الآية:

الأول: ان المراد من الروح في الآية هو القرآن وسمي روحاً لانه قوام الحياة الأخروية، كما ان الروح في الإنسان قوام الحياة الدنيوية، ويؤيد ذلك امورٌ:

أ - ان محور البحث الأصلي في سورة الشورى هو: الوحي والآيات الواردة فيها البالغ عددها (٥٣) آية تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة أوغيرها.

ب - الآية التي تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التي يكلم بها سبحانه انبياءه ويقول: **وَ مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِي بآذنه ما يشاء إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** (2)

ج - انه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بلفظة: «وكذلك» أي كما أوحينا إلى من تقدم من الانبياء كذلك أوحينا اليك باحدى تلك الطرق «روحاً من أمرنا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين هو الوحي المتجلي في نبينا بالقرآن وفي غيره بوجه آخر.

كل ذلك يؤيد ان المراد من الروح في الآية المبحوثة هو القرآن الملقى إليه.

نعم وردت في بعض الروايات ان المراد منه هو روح القدس، ولكنه لا ينطبق على ظاهر الآية، لان الروح بحكم كونه مفعولاً لـ «أوحينا» يجب ان

- 1 الفرقان: ٤ - ٦ .
- 2 الشورى: ٥١ .

(305)

يكون شيئاً قابلاً للوحي حتى يكون موحى، وروح القدس ليس موحى بل هو الموحى (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً لـ «أوحينا»، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صحّت اسنادها.

الثاني: إن هيئة «ما كنت» أو «ما كان» تُستعمل في نفي الإمكان والشأن قال سبحانه: **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ** (1) (وقال عزّ اسمه) **مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً** (2).

وعلى ضوء هذا الاصل يكون مفاد قوله «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان» أنه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدري الكتاب ولا الايمان، فان وقفت عليهما فأنما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث: أن ظاهر الآية هو أن النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - كان فاقداً للعلم بالكتاب، والدراية بالكتاب، وانما حصلت الدراية بهما في ظل الوحي وفضله فيجب إمعان النظر في الدراية التي كان النبي فاقداً لها قبل الوحي وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدراية وذاك العلم؟

فهو المراد هو العلم بنزول الكتاب إليه اجمالاً والايمان بوجوده وتوحيده سبحانه، أو المراد العلم بتفاصيل ما في الكتاب، والاذعان بها كذلك؟

لا شك انه لا سبيل إلى الأول لأن علمه - اجمالاً - بانه ينزل إليه الكتاب، أو ايمانه بوجود الله سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي إليه ولم يكن العلم بهما مما يتوقف على الوحي، فان الأحبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب إليه في المستقبل إجمالاً، وقد سمع منهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في فترات مختلفة: أنه النبي الموعود في الكتب السماوية، وانه

خاتم الرسالات والشرائع، فهل يصحّ أن يقال أن علمه - صلى الله عليه وآله وسلم - بنزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نزول الوحي، أو انه كان متقدماً عليه و على بعثته، ومثله الإيمان بالله سبحانه، وتوحيده، إذ لم يكن الإيمان بالله امراً

- آل عمران: ١٤٥ .
- التوبة: ١٢٢ .

(306)

مشكلاً متوقفاً على الوحي، وقد كان الاحناف في الجزيرة العربية ومن جملتهم رجال البيت الهاشمي موحدّين مؤمنين مع عدم نزول الوحي اليهم.

فيتعين الاحتمال الثاني وهو أن العلم التفصيلي بمضامين الكتاب وما فيه من الاصول والتعاليم ثم الايمان والاذعان بتلك التفاصيل كانا متوقفين على نزول الوحي، ولولاه لما كان هناك علمٌ بها، ولا ايمان.

وبعبارة أخرى: إنّ العلم والإيمان بالامور السمعية التي لا سبيل للعقل إليها مثل المعارف والاحكام والقصص ومجادلات الانبياء مع المشركين والكفار، وما نزل بساحة أعدائهم من إهلاك وتدمير، لا يحصلان إلا من طريق الوحي حتى قصص الامم السالفة وحكاياتهم لتطرق الوضع والدس إلى كتب القصّاصين، والصحف السماوية النازلة قبل القرآن.

* * *

تفسير الآية بأية أخرى:

إن الرجوع إلى ما ورد في هذا المضمار من الآيات يوضح المراد من عدم درايته بالكتاب أولاً، والإيمان ثانياً. أما الأول: فيقول سبحانه: **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** (١) (فالآية صريحة في أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن عالماً بتفاصيل الأنبياء، وقد وقف عليها من جانب الوحي، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هذه الآية بقوله: «ما كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ» وفي تلك الآية بقوله: «ما كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ» والفرق هو ان «الكتاب» أعم من «أنبياء الغيب» والأول يشتمل على الانبياء وغيرها، وأما «الانبياء» فانها مختصة بالقصص، والكل مشتركان في عدم العلم بهما قبل الوحي والعلم بهما بعده.

- [هود: ٤٩ .

واما الثاني فقولہ سبحانہ): **أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ**⁽¹⁾ (فقوله: «أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ» صريحٌ في أن متعلق الإيمان الحاصل بعد الوحي، هو الايمان «بما أنزل إليه» أعني تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة، لا الإيمان بالله وتوحيده وعندئذ يرتفع الابهام في الآية التي تمسكت بها المخطئة ومن ينسبون عدم الإيمان بالله وتوحيده إلى النبي قبل البعثة، ويتبين أن متعلق الإيمان المنفَى في قوله: «ولا الإيمان» هو «ما أنزل» لا الايمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل إن هنا شيئاً واحداً هو: «الايمان بما أنزل من المعارف والاحكام والانباء» فقد نفى عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناطرةً إلى فترة ما قبل البعثة، واثبت له في الآية الأخرى لكونها ناطرة إلى ما بعد البعثة.

قال الطبرسي: «ما كُنْتُ تدري ما الكتاب» ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الايمان. (2)

وقال الفخر الرازي: المراد من الايمان هو الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وانه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفاً بالله... ثم قال: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما تمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا تمكن معرفته الا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة. (3)

وقال العلامة الطباطبائي في الميزان: ان الآية مسوقة لبيان ان ما عنده - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي يدعو إليه انما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه، وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب هو عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية، فان ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي، والمراد من عدم درايته الإيمان عدم تلبسه

- [البقرة: ٢٨٥.

- 2 مجمع البيان: ج ٣، ص ٨٨ و ٨٩.

- 3 مفاتيح الغيب: ج ٧، ص ٤١٠.

بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة، وقد سمى العمل ايماناً في قوله تعالى): **وَ مَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيْمَانَكُمْ**⁽¹⁾ (والمراد الصلوات التي اتى بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ وتحويل القبلة، والمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح علم الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً به ما انت متلبس به بعد الوحي من الالتزام التفصيلي والاعتقادي وهذا لا ينافي كونه مؤمناً بالله، موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله، فان الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً، لا نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله، والخضوع للحق. (2)

الآية الرابعة: عدم رجائه إلقاء الكتاب إليه

قال تعالى: **وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ**. (3)

استدلوا بأن ظاهر الآية نفى علمه بإلقاء الكتاب إليه، فلم يكن النبي راجياً لذلك واقفاً عليه.

أقول: ان توضيح مفاد هذه الآية يتوقف على إمعان النظر في الجملة الاستثنائية اعني قوله: «الآ رحمة من ربك» حتى يتضح المقصود، وقد ذكر المفسرون في توضيحها وجوها ثلاثة تأتي بها:

1- إن «الآ» استدراكية، وليست استثنائية فهي بمعنى «لكن» لاستدراك ما بقي من المقصود، وحاصل معنى الآية: «ما كنت يا محمّد ترجو فيما مضى أن يوحى الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك، إلا أن ربك رحمك، وانهم به عليك واران بك الخير» نظير قوله سبحانه: **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ** (4) اي ولكن رحمة من ربك خصصك به وهذا هو المنقول

- البقرة: ١٤٣.
- الميزان: ج ١٨ ص ٨٠.
- القصص: ٨٦.
- القصص: ٤٦.

(309)

عن الفراء. (1)

وعلى هذا لم يكن للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اي رجاء لالقاء الكتاب إليه، وانما فاجاه الالقاء لأجل رحمة ربه.

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلا إذا امتنع كون الاستثناء متصلاً لكون الانقطاع على خلاف الظاهر.

2- ان يكون «الآ» للاستثناء لا للاستدراك وهو متصل لا منقطع، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام، وهو كما في الكشاف: «وما لقي اليك الكتاب إلا رحمة من ربك» (2) اي لم يكن لالقاؤه عليك وجة إلا رحمة ربك، وعلى هذا الوجه ايضاً لا يُعلم انه كان للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رجاء لالقاء الكتاب عليه وان كان الاستثناء متصلاً.

وهذا الوجه بعيد ايضاً لكون المستثنى منه، محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر وانما يصار إليه إذا لم يصح ارجاعه إلى نفس الجملة الواردة في نفس الآية كما سيبيّن في الوجه الثالث.

3- أن يكون «الآ» استثناء من الجملة السابقة عليه اعني قوله: «وما كنت ترجو» ويكون معناه: ما كنت ترجو إلقاء الكتاب عليك إلا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك، فتكون النتيجة: ما كنت ترجو إلا على هذا. (3)

فيكون هنا رجاء منفيًا، ورجاء مثبتًا، أما الأول فهو رجاؤه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية، فلم يكن ذلك الرجاء موجوداً.

وأما رجاؤه به عن طريق الرحمة الإلهية فكان موجوداً فنفي أحد الرجائين لا يستلزم نفي الآخر، بل المنفي هو الأول، والثابت هو الثاني وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية.

وقد سبق منّا أن جملة «ما كنت» وما أشبهه تستعمل في نفي الامكان،

-
- 1 مجمع البيان: ج ٤، ص ٢٩٦، مفاتيح الغيب: ج ٦، ص ٤٠٨.
 - 2 الكشاف: ج ٢، ص ٤٨٧ و ٤٨٨.
 - 3 مفاتيح الغيب: ج ٦، ص ٤٩٨.

(310)

والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجملة: لم تكن راجياً لأن يلقى إليك الكتاب، وتكون طرفاً للوحي، والخطاب الأ من جهة خاصة، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته، فيختارك طرفاً لويحيه، ومخاطباً لكلامه، فالنبي بما هو انسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحي، ويلقى إليه الكتاب، وبما انه صار مشمولاً لرحمته وعنايته، وصار انساناً مثالياً، قابلاً لتحمل المسؤولية، وتربية الأمة، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنفي والاثبات غير واردين على موضع واحد.

وبهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إنساناً مؤمناً موحداً عابداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية مجتنباً عن المحرمات عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً وراجياً لنزوله إليه إلى أن بعث لانقاذ البشرية عن الجهل، وسوقها إلى الكمال.

الآية الخامسة: لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه: **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**⁽¹⁾، والآية تؤكد أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان لا يبتأ في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آية من آياته وليس هذا شيء ينكره القائلون بالعصمة، فقد اتفقت كلمتهم على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقف على ما وقف عليه من أي الذكر الحكيم من جانب الوحي، ولم يكن قبله عالماً به واين هذا من قول المخطئة من نفي الايمان منه قبلها.

وان اردت الاسهاب في تفسيرها فلاحظ الآية المتقدمة، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد اجاب القرآن عن أحدهما في الآية المتقدمة وعن الآخر في نفس هذه الآية واليك نصّها): **قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ فَلَنْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ**

أَبْدَلُهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ.⁽²⁾

اقترح المشركون على النبي أحد الأمرين:

1- الإتيان بقرآن غير هذا مع التحفظ على فصاحته وبلاغته.

2- تبديل بعض آياته مما فيه سبٌ لآلهتهم وتنديدٌ بعبادتهم للوثان والاصنام.

فأجاب عن الثاني في نفس الآية بان التبديل عصيان لله، وانه يخاف من مخالفة ربه، ولا محيص له إلا إتباع الوحي من دون أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

واجاب عن الأول في الآية المبحوث عنها بان ذلك أمر غير ممكن لأن القرآن ليس من صناعي وكلامي حتى أذهب به وأتي بآخر، بل هو كلام الله سبحانه وقد تعلقت مشيئته بتلاوتي، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا ادراككم به، والدليل على ذلك أنني كنت لا بشأ فيكم عُمرأ من قبل فما تكلمت بسورة أو بآية من آياته، ولو كان القرآن كلامي لبادرت إلى التكلم به، ايام معاشرتي السابقة معكم في المدة الطويلة، المديدة.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: إن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي، فانما أنا رسول ولو شاء الله ان ينزل قرآناً غير هذا لأنزل، أو لم يشأ تلاوة هذا القرآنُ تلوته عليكم، ولا أدراكم به فاني مكثت عُمرأ من قبل نزوله، ولو كان ذلك الی وببيدي لبادرتُ إليه قبل ذلك وبدت من ذلك آثار ولاحت لواتحه. (1)

فكيف يمكن والحال هذه أن يكون مجانباً للإيمان بالله وتوحيده، لا هياً عن عبادته وتقديسه.

هذا وفي هذا المجال حديث واسع اكتفينا منه بهذا القدر، ومن أراد التوسع أن يراجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن ص ١٣٥ - ١٩١.

وأما الكلام في الجهة الثانية وهي: أنه بماذا وبأي دين كان يتعبد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة، فقد وقع ذلك محطاً للبحث بين العلماء، وحيث انه لا ينطوي على فائدة كبرى، بعد أن تبين أنه كان قبل البعثة

مؤمناً، موخداً، يعُبدُ الله، فإنه يكفي أن نعرف أنه كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتزم بما ثبت له أنه شرع الله تعالى... وبما يؤدّي إليه عقله الفطري السليم، وأنه بالتالي كان مؤيداً مسدداً، وأنه كان أفضل الخلق واكملهم خلقاً، وخلقاً، وعقلاً، وانه كان يعمل حسب ما يُلهمّ سواء اكان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً وأن هاديه وقائده منذ صباه إلى ان بعث هو نفس هاديه بعد البعثة. (1)

- 1 وللتوسّع والوقوف على الآراء المختلفة في هذا المجال راجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن: ص ١٣٥ - ١٩١.

١١ بدء الوحي

أنّ التاريخ الإسلامي يبدأ في الحقيقة من يوم بعثة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة، والتي وقعت على أثره حوادث خاصة.

ويوم بُعث النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لهداية الناس، ودوى في سمعه الشريف نداء «إنك لرسول الله» الصادر عن ملاك الوحي ألقيت على كاهله مسؤولية كبرى وثقيلة جداً، على نمط الوظيفة الهامة التي ألقيت على كاهل من سبقه من الانبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

منذ ذلك اليوم اتضح هدف أمين قريش، أكثر فأكثر، وتجلت خطته أكثر فأكثر.

ونحن نرى من اللازم قبل شرح الحوادث الأولى الواقعة عند البعثة ان نعطي بعض الايضاحات حول مسألتين:

1- وجوب بعث الانبياء.

2- دور الانبياء في اصلاح المجتمع.

لقد أودع الله تعالى في كيان كل كائن من الكائنات أدوات تكامله، وجّهه - لسلوك هذا الطريق - بالوسائل المتنوعة، والأجهزة المختلفة اللازمة.

ولنأخذ مثلاً: نبته صغيرة، فان ثمة عوامل كثيرة تتفاعل في ما بينها وتعمل

لتحقيق التكامل فيها.

ان جذور كل نبتة تعمل اكبر قدر ممكن لامتصاص العناصر الغذائية، وتلبية احتياجات النبتة، وتوصل العروق والقنوات المختلفة، عصارة ما تأخذ من الارض إلى جميع الاغصان والاوراق.

إننا لو درسنا جهاز (وردة) لرأيناها اكثر مدعاة للاعجاب وأشد اثاره للتعجب من تركيب بقية النباتات.

فلكأس وظيفة توفير الغطاء اللازم للاوراق الناعمة اللطيفة في الوردة.

وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية الأجهزة في (الوردة) مما أنيط إليها مسؤولية الحفاظ على كائن حي، وضمان رشد ونموه، فإنها جميعاً تقوم بوظائفها المخلوقة لها بأحسن شكل، وأفضل صورة.

ولو أننا خطونا خطوات اكثر وتقدّمنا بعض الشيء لدراسة الأجهزة العجيبة في عالم الأحياء، لرأينا أنها جميعاً وبدون استثناء مزوّد بما يضمن بلوغها إلى مرحلة الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنا أن نصبّ هذا الموضوع في قالب علمي لوجب أن نقول: إنّ الهداية التكوينية، التي هي النعمة المتجلية في عالم الطبيعة، تشمل كل موجودات هذا العالم من نبات، وحيوان وانسان.

ويبين القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية الشاملة بقوله:

(رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ نَمْ هُدَى. (1))

فإنه يصرّح بأن كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة ينعم بهذا الفيض العام، وإنّ الله تعالى بعد أن قدّر كل موجود وكائن، بيّن له طريق تكامله، ورقيّه، وهياً لكل كائن من تلك الكائنات ما يحتاج إليه في تربيته ونموه، وهذه هي (الهداية التكوينية العامة) الساندة على كل ارجاء الخليقة دونما استثناء.

بكل تأكيد: لا.

لأن للإنسان حياة أخرى غير الحياة المادية، تشكل اساس حياته الواقعية، ولو كان للإنسان حياة مادية جافة فقط مثلما لعالم النباتات، والحيوانات، لكفت العوامل والعناصر المادية في تكامله، والحال أن للإنسان نوعين من الحياة، يكمن في تكاملهما معاً رمز سعادة الإنسان ورقبته.

ان الإنسان الأول، ونعني به انسان الكهوف والحياة البسيطة والقطرة السليمة التي لم يطرأ على جبلته اي إعوجاج لم يكن بحاجة إلى ما يحتاج إليه الإنسان الإجتماعي من التربية والهداية.

ولكن عندما خطى الإنسان خطوات أبعد من ذلك، وبدأ الحياة الاجتماعية، وسادت على حياته فكرة التعاون والعمل الجماعي برزت في روحه ونفسيته سلسلة من الانحرافات نتيجة للاحتكاك الاجتماعي، وغيّرت الخصال القبيحة والافكار الخاطئة صفاته الفطرية، وبالتالي اخرج المجتمع من حالة التوازن!

إن هذه الانحرافات حملت خالق الكون على أن يرسل إلى البشرية رجالاً أفاضاً صالحين يتولون تربية البشر، وليقوموا بتنظيم برنامج المجتمع، والتخفيف من المفسد الناشئة - بصورة مباشرة - عن النزعة الاجتماعية لدى الإنسان، وليضيئوا - بمشاعل الوحي المشعة المنيرة - طريق السعادة والخير للإنسانية في جميع المجالات والابعاد.

إذ لا نقاش في أن الحياة الاجتماعية والعيش بصورة جماعية مع كونه مفيداً، ينطوي على مفسد لا تُنكر، ويجرّ إلى انحرافات كثيرة لا تقبل التردد.

ولهذا بعث الله سبحانه رجلاً مصلحين، وهداة مرشدين يعملون - قدر الامكان - على الحدّ من الانحرافات والمفسد، ويضعون عجلة المجتمع - بتنظيم القوانين الواضحة والانظمة الحكيمة - على الطريق الصحيح، ويضمنون دورانها

(316)

وحركتها في المسار المستقيم.

وقد يُستفاد هذا الامر - بوضوح - من قوله تعالى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَ مُنذِرِينَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ. (1))

دور الانبياء في اصلاح المجتمع:

ان الذي يتصوره الناس عادة هو أنّ الانبياء مجرد معلمين إلهيين بعثوا لتعليم البشرية.

فكما يتعلم الطفل خلال حركته التعليمية ابتداء من الابتدائية ومروراً بالمتوسطة وانتهاء بالجامعة دروساً معينة ومواضيع خاصة على ايدي الاساتذة والمعلمين، كذلك يتعلم الناس في مدرسة الانبياء أموراً خاصة، ويكتسبون معارف معينة، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعية جنباً إلى جنب مع اكتسابهم المعرفة والعلم على أيدي الأنبياء والمرسلين.

ولكننا نتصور ان مهمة الانبياء ووظيفتهم الاسياسية هي (تربية) المجتمعات البشرية لا تعليمها، وان اساس شريعتهم لا ينطوي على كلام جديد، وانه مالم تتحرف الفطرة البشرية عن مسارها الصحيح، وما لم تلقها غشاوات الجهل والغفلة لعرفت وادركت خلاصة الدين الألهي، وعصارتها، في غير ابهام، ولا خفاء.

على أن هذه الحقيقة قد أشار إليها قادة الإسلام العظماء.

فقد قال امير المؤمنين - عليه السلام - في نهج البلاغة عن هدف الانبياء:

«أخذَ عَلَى الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم... لِيَسْتَأْذِنُوا ميثاقَ فِطْرَتِهِ، وَ يُذَكِّرُوهُمْ مَنَسَى نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُوا عَلَيْهِم بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثْبِتُوا لَهُم دِفَائِنَ العُقُولِ.»⁽²⁾

- [البقرة: ٢١٣].

- 2 نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة رقم ١.

(317)

مثال واضح في المقام:

إذا قلنا: ان وظيفة الانبياء في تربية الناس واصلاح نفوسهم هي وظيفة البستاني في تربية شجيرة من الشجرات، أو قلنا: أن مثل الأنبياء في قيادة التوجّهات الفطرية البشرية وهدايتها، مثل المهندس الذي يستخرج المعادن الثمينة من بطون الاودية والجبال، لم نكن في هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك ان النبتة، أو الشجيرة الصغيرة تحمل من بداية انعقاد حبثها الأولى كل قابليات النمو، والرشد، فاذا توفر لها الجو المناسب للنمو، دبّت الحياة والحركة في كل أجزائها، واستطاعت بفعل جذورها القوية واجهزتها المتنوعة وفي الهواء الطلق، والضوء اللازم، من أن تقطع أشواطاً كبيرة من التكامل، والنمو.

فمسؤولية البستاني في هذه الحالة تتركز في امرين:

1- توفير الظروف اللازمة لتوقية جذور تلك النبتة لكي تظهر القوى المودعة في تلك النبتة أو الشجيرة، وتخرج من حين القوة إلى مرحلة الفعلية، والتحقق.

2- الحيلولة دون تعرض تلك الشجرة أو النبتة للانحرافات والأفات، وذلك عندما تتجه القوى الباطنية صوب الوجهة المخالفة لسعادتها، وتسلك طريقاً ينافي تكاملها.

ومن هنا فان مسؤولية البستاني ووظيفته ليست هي (الإنماء) بل هي (المراقبة) وتوفير الظروف اللازمة ليتها لتلك الشجرة والنبتة أن تبرز كمالها الباطني.

لقد خلق الله سبحانه البشر وأودع في كيانه طاقات متنوعة، وغرائز كثيرة، وعجن فطرته وجبلته بالتوحيد، وحب معرفة الله، وحب الحق والخير، والعدل والانصاف، كما وأودع فيه غريزة السعي والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الامور وبذورها الصالحة المودعة بالعمل والتفاعل في كيان الإنسان تتعرض في الجو الاجتماعي لبعض الانحرافات بصورة قهرية ،

(318)

فغريزة العمل والسعي تتخذ شيئاً فشيئاً صفة الحرص والطمع، وغريزة حب السعادة والبقاء تتخذ صورة الانانية، وحب الجاه والمنصب، ويتجلى نور التوحيد والإيمان في لباس الوثنية وعبادة الأصنام.

في هذه الحالة يعمل سفراء الله إلى البشرية: (الانبياء والرسل) على توفير ظروف الرشد والنمو الصحيح لتلك الغرائز وتلك القوى والطاقات في ضوء الوحي، والبرامج الصحيحة المستلهمة من ذلك المنبع الالهي الهادي، ويقومون بالتالي بتعديل انحرافات الغرائز، والوقوف دون تجاوزها حدودها المعقولة المطلوبة.

ولقد قال امير المؤمنين في مامر من كلامه: إن الله أخذ - في مبدأ الخلق - ميثاقاً يدعى «ميثاق الفطرة». »

فما هو تروى المقصود من ميثاق الفطرة هذا؟

إن المقصود من هذا الميثاق هو: أن الله تعالى بخلقه وابداعه الغرائز المفيدة في الكيان الإنساني، وبمزج الفطرة البشرية بعشرات الأخلاق الطيبة والسجايا الصالحة يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبع خصال الخير، ويأخذ بالغرائز الطيبة الصالحة.

فإذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من اخذ الميثاق من الإنسان بان يتجنب المزالق، ولا يقع في البئر، فكذاك ابداع حسن التدبير، وغريزة الانجذاب إلى الله، وحب العدل، في كيانه هو الآخر نوع من اخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً بالله، موخداً إياه، عادلاً، منصفاً محباً للخير والحق.

وإن وظيفة الأنبياء هي أن يحملوا الناس على العمل بمقتضي ميثاق الفطرة، وبالتالي فإن مهمتهم الأساسية الحقيقية هو تمزيق اغشية الجهل وتبديد سحب الغفلة التي قدترين على جوهره الفطرة المطعمة بنور الايمان، فتمنعها من الاشرار على وجود الإنسان، وتحرم الإنسان من هدايتها.

ومن هنا قالوا: إن اساس الشرائع الالهية يتالف من الامور الفطرية، التي فطر الإنسان عليها.

(319)

وكان صرح الكيان الإنساني (جِبَلٌ) اختفت بين ثنايا صخوره وفي بطونه احجار كريمة كثيرة ومعادن ذهبية ثمينة، فالوجود الإنساني هو الآخر قد أودعت فيه فضائل وعلوم، ومعارف وخصال، واخلاق متنوعة.

فعندما يغورُ الانبياء والمهندسون الروحانيون في أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيداً أن نفوسنا معجونة بطائفة من الصفات والسجايا النبيلة والمشاعر والاحاسيس الطيبة، ويعملون على اعادة نفوسنا - بتعاليم الدين وبرامجه - إلى جادة الفطرة المستقيمة السليمة فانهم في الحقيقة يدكرونا بأحكام فطرتنا، ويُسمعوننا نداء ضمائرنا، ويلفتونها إلى الصفات، وإلى الشخصية المودوعة فيها.

تلك هي رسالة الانبياء، وذلك هو عملهم الاساسي، وهذا هو دورهم في اصلاح النوع الإنساني، أفراداً وجماعات.

أمين قريش في غار حراء:

يقع جبل «حراء» في شمال «مكة» ويستغرق الصعود إلى غار حراء مدة نصف ساعة من الزمان.

ويتالف ظاهر هذا الجبل من قطع صخرية سوداء، لا يُرى فيها أي أثر للحياة أبداً.

ويوجد في النقطة الشمالية من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل إليه ولكن عبر تلك الصخور، ويرتفع سقف هذا الغار قامة رجل، وببينا تضيء الشمس قسماً منه، تغرق نواح أخرى منه في ظلمة دائمة.

ولكن هذا الغار يحمل في رحابه ذكريات كثيرة عن صاحب له طالما تردّد عليه، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهرات في رحابه... ذكريات يتشوق الناس - وحتى هذه الساعة - إلى سماعها من ذلك الغار، ولذلك تجدهم يسارعون إلى لقائه كلما زاروا تلك الديار،

متحلمين في هذا السبيل كل عناء، للوصول إلى رحابه، لكي يستفسرونه عما جرى فيه عند وقوع حادثة: «الوحي» العظيمة
وليسألونه عن ما تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانية الأكبر مما جرت

(320)

حوادثه في ذلك المكان التاريخي، العجيب.

ويتحدث ذلك الغار هو الآخر اليهم بلسان الحال ويقول: هاهنا المكان الذي كان يتعبد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الامين.

وهاهنا قضى ليالي وأياماً عديدة وطويلة قبل ان يبلغ مرتبة الرسالة، في عبادة الله، والتأمل في الكون، وفي آثار قدرة الله وعظمته

أجل، لقد اختار محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك المكان البعيد عن ضجيج الحياة، للعبادة والتحنّث، فكان يمضي جميع الايام
من شهر رمضان فيه، وربما لجا إليه في غير هذا الشهر أحياناً اخرى، إلى درجة أنّ زوجته الوفية كانت إذا لم يرجع إلى منزلها،
تعرف أنّها قد ذهب إلى «غار حراء» وأنه هناك مشغول بالعبادة والتحنّث والاعتكاف، وكانت كلما أرسلت إليه أحداً وجده في ذلك
المكان مستغرقاً في التأمل والتفكير، أو مشغولاً بالعبادة والتحنّث.

لقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يبلغ مقام النبوة، ويُبْعَث بالرسالة بفكر - أكثر شيء في أمرين:

1- كان يفكر في ملكوت السموات والارض، ويرى في ملامح كل واحد من الكائنات التي يشاهدها نور الخالق العظيم، وقدرته،
وعظمته وعلمه، وقد كانت تفتح عليه من هذا السبيل نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الالهي المقدس.

2- كان يفكر في المسؤولية الثقيلة التي ستوضع على كاهله.

إن اصلاح المجتمع في ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض، لم يكن في نظره وتقديره بالامر المحال
الممتنع. ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الاصلاحى لم يكن في نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل، من هنا كان يفكر طويلاً
في الفساد في حياة المجتمع المكّي وما يراه من ترف قريش، وكيفية رفع كل ذلك واصلاحه.

لقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - حزيناً لما يرى من قومه من فساد العقيدة المتمثل في الخضوع للأوثان الميتة، والعبادة للأصنام
الخواوية الباطلة، ولطالما

(321)

شوهدت آثار ذلك الحزن على محيّاه، وملامح وجه الشريف، ولكن لما لم يكن مأذوناً بالانفصاح بالحقائق، لذلك كان يتجنب ردع الناس عن تلك المفاسد، ومنعهم عن تلك الانحرافات.

بدء الوحي:

لقد امر الله ملكاً من ملائكته بأن ينزل على امين قريش وهو في غار حراء ويتلو على مسمعه بضع آيات كبداية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تنويجه بالنبوة، ونصبه لمقام الرسالة.

كان ذلك المَلَكُ «جبرئيل»، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوي الشريف الذي سنتحدث عن تاريخه في المستقبل.

ولا ريب أن ملاقاته المَلَكُ ومواجهته أمرٌ كان يحتاج إلى تهيؤ خاص، وما لم يكن محمّداً - صلى الله عليه وآله وسلم - يمتلك روحاً عظيمة، ونفسية قوية لم يكن قادراً قط على تحمّل ثقل النبوة، وملاقاته ذلك الملك العظيم.

أجل لقد كان «أمين قريش» يمتلك تلك الروح الكبرى، وتلك النفس العظيمة وقد اكتسبها عن طريق العبادات الطويلة، والتأمل العميق الدائم، إلى جانب العناية الالهية.

ولقد روى أصحاب السير والتاريخ انه رأى رؤى عديدة قبل البعثة كانت تكشف عن واقع بيّن واضح وضوح النهار. (1)

ولقد كانت الّدّ الساعات وأحبها عنده بعد كل فترة، تلك الساعات التي يخلو فيها بنفسه، ويتعبّد فيها بعيداً عن الناس.

ولقد قضى على هذا الحال مدة طويلة حتّى أتاه - في يوم معين - ملك عظيم بلوح نصّبهُ أمامه وقال له: «اقرأ»، وحيث أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان أمياً لم يدرس أجاب المَلَكُ بقوله: «ما أنا بقارئ». »

- [صحيح البخاري: ج ١ كتاب العلم ص ٢٢، بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٤.

(322)

فاحتضنه ذلك المَلَكُ، وعصره عصرة شديدة، ثم طلب منه أن يقرأ فأجابه بالجواب الأول.

فعصره المَلَكُ ثانية عصرة شديدة وتكرّر هذا العمل مرات ثلاث احس بعدها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفسه أنه قادر على قراءة ما في ذلك اللوح، فقرأ ساعتها تلك الآيات التي تشكل - في الحقيقة - ديباجة كتاب السعادة البشرية، واساس رقيها

لقد قرأ - صلى الله عليه وآله وسلم - قوله تعالى:

(إِقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ.)⁽¹⁾

وبعد أن انتهى جبرئيل من أداء مهمته التي كُلف بها من جانب الله تعالى، وبلغ إلى النبي تلكم الآيات الخمس، انحدر رسول الله -

صلى الله عليه وآله وسلم - من جبل حراء، وتوجه نحو منزل خديجة.⁽²⁾

ولقد أوضحت الآيات المذكورة برنامج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اجمالاً، وبيّنت وبشكل واضح ان اساس الدين يقوم على

القراءة والكتابة، والعلم والمعرفة، واستخدام القلم.

ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين:

لقد تسبب التقدم العظيم والمتزايد الذي تحقق في ميدان العلوم الطبيعية في سلب الكثير من العلماء القدرة على فهم وادراك القضايا

المعنوية والخارجة عن اطار العلوم الطبيعية والتالي أدى إلى تحديد وتضييق آفاق الفكر عندهم.

فاذا بهم اصبحوا يتصورون أن الوجود يتلخص في هذا الكون المادي، وانه ليس في الوجود من شيء سوى المادة وان كل ما لا

يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادية فهو أمر باطل، ومن نسج الخيال!!

- [العلق: ١ - ٥ .

- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٣٦ و ٢٣٧ .

(323)

إن هذا الفريق - لتسرع في اصدار الحكم في الأمور المتعلقة - بالغيب وقضايا ماوراء الطبيعة، وحصر أدوات المعرفة بالحس

والتجربة - انكروا عالم الوحي، بحجة أن الحس والتجربة لا يقودانهم إلى ذلك العالم، ولا يخبرانهم عن مثل تلك الموجودات، فكونها

بالتالي لا تخضع لمبضع التشريح، ومجهر الإختبار أنكروها بالمرّة، وكانت النتيجة أن أدوات المعرفة المعروفة (الحس والتجربة)

حيث انها لا تهدي إلى عالم ماوراء المادة فاذن لا وجود خارجي لذلك العالم ولحقاقه أبداً!

إنّ هذا النمط من التفكير نمط جدّ ضيق ومحدود، مضافاً إلى انه يتسم بالغرور والغطرسة، فهو من باب «استنتاج عدم الوجود من

عدم الوجدان» في خطوة متعجلة فجّة!!

فمادامت هذه الحقائق التي يعتقد بها الالهيون المؤمنون بالله لا يمكن التوصل اليها عن طريق الادوات الفعلية المتعارفة بينهم

للادراك والمعرفة فهي اذن لا اساس لها من الواقع!!

ان الذي لا شك فيه هو: ان الماديين لم يدركوا مقالة العلماء الالهييين حتى في مسألة اثبات الصانع الخالق فكيف بالعالم الأخرى لما فوق الطبيعة، ولو أنّ الفريقين تحاورا في جو علمي مناسب، بعيداً عن الأغراض والعصبيات، لكان من المتوقع ان تزول الفواصل بين الماديين والالهييين في اقرب وقت، وأين يرتفع هذا الاختلاف الذي قسّم العلماء إلى فريقين على طرفي نقبض.

لقد اقام المؤمنون الموحّدون عشرات الأدلة والبراهين القاطعة على وجود الله تعالى، واثبتوا بأنّ هذه العلوم الطبيعية هي نفسها تقودنا إلى الخالق العالم القادر، وان هذا النظام العجيب السائد في ظواهر الكائنات الطبيعيّة وبواطنها لدليل قاطع، وبرهان ساطع على وجود مبدع هذا النظام، وأن جميع أجزاء هذا الكون المادى، من ذراته إلى مجراته، يسير وفق قوانين دقيقة متقنة، ولا تستطيع الطبيعة الصماء العمياء ابداً أن تكون مبتكرة لهذا النظام البديع، ومبدعة لهذا الترتيب الدقيق.

(324)

وهذا هو بنفسه برهان «نظام الوجود» أو (برهان النظم) الذي ألف العلماء الالهييون الموحدون حوله عشرات الكتب والدراسات. وحيث ان (برهان النظم) هذا ممّا يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومداركهم، لذلك ركزت عليها الكتب الاعتقادية دون سواها، وسلك كل واحد من العلماء طريقاً معيناً وخاصاً لتقريره، وبيانه، كما درست الأدلة والبراهين الأخرى التي لا تتسم بمثل هذه الشمولية، في الكتب، والمؤلفات الفلسفية والكلامية بصورة مفصلة ومبسطة.

إنّ للعلماء الالهييين بيانات وأدلة في مجال (الروح المجردة)، وعوالم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) تشير إلى بعضها هنا:

الروح المجردة:

إن الاعتقاد بالروح من القضايا الشائكة الطبيعة التي استقطبت اهتمام العلماء وشغلت بالهم بشدة.

فهناك فريق - ممّن اعتاد أن يُخضع كل شيء لمبضع التشريح - ينكر وجود (الروح)، ويكتفي بالاعتقاد بالنفس ذات الطابع المادي، والعاملة ضمن نطاق القوانين الطبيعية فقط.

ووجود «الروح» والنفس غير المادية (اي المجردة المستقلة عن المادة) من القضايا التي عُولجت ودُورست من قِبَل المؤمنين بالله، والمعتمدين بالعام الروحاني، بصورة دقيقة، وعميقة.

فهم أقاموا شواهد عديدة على وجود هذا الكائن (غير المادى) وهي أدلة وبراهين لو تمّ التعرّف عليها والنقاش حولها في جو علمي هادى مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يقوم عليه منطق الالهييين - في هذا المجال - من قواعد وأسس، لأدى ذلك إلى التصديق الكامل بها.

على أن ما يقوله الإلهيون في مجالات أخرى مشابهة مثل (الملائكة) و (الوحي) و (الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس الذي شيده ومهدوه وبرهنوا

(325)

عليه قبل ذلك بالأدلة المحكمة، المتقنة. (1)

ظاهرة الوحي عند الماديين:

يُعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات، والأديان السماوية، وتقوم هذه الظاهرة (ظاهرة الوحي) على أن الذي يوحى إليه يمتلك روحاً قوية تقدر على تلقي المعارف الإلهية من دون واسطة، أو بواسطة ملك من الملائكة.

ويلخص العلماء المختصون تعريفهم للوحي على النحو التالي: «الوحي تعليمه تعالى من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقة خفية غير معتادة للبشر.»

ولكن الماديين - كما قلنا - لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقة، وادراك هذه الظاهرة على حالها، وصورتها الغيبية بسبب ما ذكرناه من منهجهم ونظرتهم إلى الأمور والكائنات فذهبوا في تفسير ظاهرة الوحي - التي هي كما اسلفنا من قضايا الغيب ومن عوالم ما فوق الطبيعة - مذاهب مختلفة ترجع برمتها إلى الرؤية المادية للوجود.

واليك أبرز هذه التفسيرات المادية لظاهرة الوحي الغيبية:

أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحي:

- [قالوا: الوحي هي القدرة الفكرية، والنفسية والعقلية التي تحصل للإنسان بسبب التمرينات والرياضات الروحية التي على اثرها تنفتح عليه أبواب من الغيب، فيخبر عن امور طالما تتفق مع الواقع على نحو ما يحصل للمرتاضين الهنود. (2)

فالانبياء بسبب اعتزالهم للمجتمع - على غرار ما يفعل المرتاضون - وإقبالهم

- [ولقد جاء تفصيل هذه البراهين والأدلة في الكتب الفلسفية مثل: «الإشارات» و «الأسفار». ولقد اشرنا إلى بعض هذه الأدلة في كتاب (الله خالق الكون) فراجع.
- 2 وهم الذي يمارسون علمية اليوجا.

(326)

على الرياضة الروحية تحصل لهم المقدره على الإخبار بالغائبات، والكائنات الخفية على غيرهم.

والجواب على هذه النظرية هو: أن دراسة حالات المرتاضين تكشف لنا عن أنهم طالما يخطأون في إخباراتهم أخطاء فاضحة، بينما لم يُعهد من نبي أنه أخطأ في إخباراته، وإنباءاته.

هذا اولاً

وثانياً: إن ما يفعله المرتاضون لا ينطوي على أية أهداف اصلاحية عليا للمجتمع البشري، بل غاية همهم هو: عرض الافعال العجيبة على الناس وربما تسليية المتفرجين، بينما يهدف الأنبياء إلى إصلاح المجتمعات البشرية وقيادتها إلى ذرى الكمال والتقدم

وثالثاً: إن المرتاضين لا يثقون بما يخبرون به، كما لم يُعرف إلى الآن أن أحداً منهم طلع على المجتمع البشري ببرنامج كامل وشامل للحياة البشرية الفردية والاجتماعية، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أمروا به وهم على إيمان كامل، ويقين ثابت منه، هذا إلى جانب أنهم يحملون إلى البشرية برامج اجتماعية وحيوية جامعة الاطراف، كاملة الأبعاد، رفيعة الأهداف، عميقة الغايات، ترجع إليها كل فضيلة وكل خير تعرفه المجتمعات إلى الآن.

ورابعاً: إن أعمال المرتاضيين وما تحصل لهم من قوى ويفتح عليهم من آفاق، محدودة، بينما لا تفتق طاقات الانبياء وآفاق علومهم، وأبعاد أعمالهم عند حد.

فلا يمكن ابدأ تفسير وتعليل ظاهرة (الوحي) وما يحصل للرسل والانبياء على اثره من أموره تتخطى حدود العالم المادي المحدود، بالرياضة الروحية التي يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على أثرها من امور.

2- قالوا: إنَّ (الوحي) نوعٌ من النبوغ، أو أنه ناشئ من النبوغ، وأن الانبياء هم نوابغ اجتماعيون لا أكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين: بأن نظام الخليفة قد ربي في أحضانه نوابغ

(327)

صالحين، اهدتوا بفعل نبوغهم الفكري الرفيع إلى أفكار وقيم رفيعة ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها، والسير على هديها، لتحقيق الخير والعدالة، فكان لهم بذلك اكبر نصيب في إرشاد البشرية إلى سعادتها، فكل ما طرحوه من أفكار، وكل ما عرضوه على تلك المجتمعات باسم الدين أو القانون ليست - في الحقيقة - سوى نتيجة ما تمتعوا به من نبوغ، وفكر خارق، ولا علاقة له بعالم آخر غير هذا العالم المادي المؤلف.

وقالوا: وإن ممّا يساعد على تقوية هذا النبوغ أمور ابرزها:

الحب، التعرض للظلم الطويل، الطفولة وما يكتنفها من ضعف وعجز، الوحدة، السكوت، التربية الأولى، والعيش في صورة الأقلية وما يرافقها من ظروف إجتماعية غير مواتية.

فان جميع هذه الأمور أو بعضها تدفع بالشخص إلى الأنطوائية، والتفكير والتأمل، للاهتداء إلى مخرج من المشاكل والصعوبات، ومخلص من الظروف الصعبة، والأحوال الشاقة.

ويُجاب على هذه النظرية بأن أصحاب هذه النظرية حكموا على هذه القضية على أساس موقف اتخذوه سلفاً فهم حَصَرُوا الأشياء في المادة والامور المادية ثم فسروا ما يرتبط بعالم الغيب بذلك، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهرة الغيبية تفسيراً مادياً، غفلة منهم عن ان مثل هذا التفسير والتعليل لا يليق بظاهرة (الوحي) التي تجسد أعلى قضية في سلم الحقائق العلمية والفلسفية، ويرجع اليها أعظم القوانين والبرامج للسعادة البشرية.

نحن لا ننكر أن لما ذكره من العوامل تأثيراً في تقوية عملية «التفكير» لدى الإنسان إلى درجة ايجاد ما يسمى بظاهرة التوابع لديه، إلا أنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الامر نبياً خضعت جميع النبواغ البشرية لعظمة تعاليمه التي أتى بها طوال أربعة عشر قرناً

نبياً لم يزل ما جاء به من معارف عقلية وفلسفية، وقوانين ترتبط بعالم الطبيعة وبالنظام الاجتماعي وآداب السلوك تحافظ على قوتها، وعمقها وأصالتها ولمعناها

(328)

كل المحافظة رغم كل ما احرزه البشر في ضوء نشاطه الفكري والعقلي من تقدم، في المعارف والعلوم.

هذا مضافاً إلى أن نسبة هؤلاء الأنبياء جميع ما عرضه على المجتمعات البشرية إلى العالم الآخر واصرارهم على أنها من جانب الله تعالى وليست من نسيج افكارهم يناقض نظرية هذه الطائفة، التي تفسر النبوة بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآية التي يقول الله تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - :

(إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ).⁽¹⁾

أو يقول سبحانه:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ).⁽²⁾

-3يقولون: إن الوحي هو ظهور الشخصية الكامنة في النبي وواجهها لما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له، إليه.

وربما قالوا: إنَّ معلومات «محمَّد» وافكاره وأماله وأدبُ لديه إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى المَلَك ماثلاً له وهو يتلو على سمعه ما حدَّث به بعد ذلك.

وتوضيح هذه النظرية هو: ان لكل إنسان شخصيتين:

1- الشخصية الظاهرة العادية وهي التي تخضع للحواس الخمس وتعمل بها.

2- الشخصية الباطنية وهي التي تعمل عندما تتعطل الحواس، ويتعطل الشعور الظاهري:

وهذه الشخصية هي التي تحرك جميع أعضاء الجسم الانساني التي لا تخضع لارادته كالكبد والقلب، والمعدة وغيرها، كما انها هي مصدر الكثير من الإلهامات الطيبة في الظروف الحرجة.

ثم قالوا: وهذه الشخصية الباطنية قد اصبحت مدركة بالحس، فان المنوم

- [1] الأنعام: ٥٠.

- [2] النجم: ٤.

(329)

مغناطيسياً يظهر بمظهر العقل الراجح، والفكر الثاقب والنظر البعيد، ويقوم بما لا يقوم به في حالته العادية.

وقد انتهى هؤلاء الماديون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى: ان شخصية الإنسان الباطنية ارقى من شخصيته العادية، وإن ما يتوصّل إليه الإنسان من أفكار عالية رفيعة جداً، وما قد يتمتع به من روح قوية هو من مظاهر هذه الشخصية وفعاليتها.

فقالوا: وان هذه الشخصية هي التي تنفت في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء!!!

فالوحي عند هؤلاء الباحثين في الروح على الاسلوب التجريبي لا يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن الله بل يكون في تجلي روح الإنسان عليه بواسطة شخصيته الباطنة فتعلمه ما لم يكن يعلم، وتهديه إلى خير الطرق لهداية نفسه وترقية أمته. (1)

ولكن هذه النظرية هي الأخرى تتبع من الغرور العلمي الذي اصاب هذا النمط من العلماء الذين يحاولون تفسير كل ظواهر هذا العالم بالتفسير المادي، وهو لا شك ينشأ من علمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إننا لا نشك في وجود ما يسمى بالشخصية الباطنية لدى الإنسان فهو ممّا سبق إلى كشفه والتنويه به الفلاسفة الإسلاميون من قبل ولكن كيف وعلى أى أساس حقّ لهؤلاء ان يفسروا ظاهرة (الوحي الالهيّ) والنبوة بهذا الامر؟

هذا أولاً

وثانياً: إنّ تجلي الشخصية قلماً يحدث في الأشخاص الأصحاء، بل هو يحدث في الاغلب عند المتعبين القلقين، والسكران، والمصابين بالهزيمة والنكسة، لأن نافذة (اللاوعي) عند غيرهم من الاصحاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياة اليومية وهمومها، ولا يبقى للشخصية الباطنية مجال للنشاط والفعالية، كما

- [دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي: ج ١٠، مادة وحي.

(330)

هو العكس عند المتعبين والسكران والمرضى الذين يقل اهتمامهم بالحياة اليومية فيترك (الوعي) مكانه لللاوعي، وتترك الشخصية الظاهرية المعطّلة مكانها للشخصية الباطنية.

ولذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكرين مفكراً أو عالماً واحد اتفق له في بداية عمره أن اهتدى بصورة لا شعورية إلى فكرة خاصة أو نظرية معينة من دون سابق تفكير أو استدلال قائم على الشعور.

وخلاصة القول أن تجلي الشخصية الباطنية في الحياة الإنسانية قضية نادرة جداً، وهي لا تحدث إلا في ظروف خاصة مثل: المنامات والاحلام وغيرها من التحولات الحياتية التي تقلل من توجه الإنسان إلى العالم الخارجيّ وتصرف التفاته وتوجّهه إلى الشخصية الباطنية.

ولكن هذه الحالة وهذه الشرائط (أي الغفلة عن هموم الحياة اليومية الخارجية) لم تحصل للانبياء قط.

فالنبي الأكرم محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - كان طوال (٢٣ سنة) وهي أعوام الرسالة، مشتغلاً كل الاشتغال بقضايا الحياة اليومية، فالنشاطات السياسية، والتبليغية وقضايا الدعوة والقيادة كانت تهيمن على كل توجهه واهتمامه وتملاً، عقله وروحه ونفسه

فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد، وهذا يعني انه كان مشغولاً بروحه وعقله كله إلى تلك الأمور.

وثالثاً: أنّ هذه النظرية يمكن أن تصدق على نبوة الانبياء لو كان هؤلاء الأنبياء أفراداً متعبين، منهزمين، منتكسين، مرضى، معتزلين عن الحياة ليقال حينئذ ان هذه الحالات والظروف مهّدت لانقطاعهم - عليهم السلام - عن هموم الحياة، وقضاياها، وبالتالي مهّدت لفعالية الشخصية الباطنية وعملها.

ولكن تاريخ الأنبياء يشهد بوضوح لا إبهام فيه، بانهم كانوا - طيلة حياتهم الرسالية - رجالاً مجاهدين، لا يهتمهم إلا إصلاح المجتمعات وقيادة الجماعات وحل المشكلات الاجتماعية، ورفع مستويات الناس معنوياً وفكرياً وكانوا

(331)

يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار، بلا سأم ولا ملل، ولا تعب ولا نصب.

فكيف يمكن القول والحال هذه بان الشخصية الباطنية تجلّت لديهم واوحت اليهم بحقائق وقيم وافكار؟

إن تفسير (الوحي الالهي) الذي يُلقى إلى الانبياء ويكشف لهم عن أدق الحقائق وارفعها، وأعظم المناهج واكملها، بتجلي الشخصية الباطنية، ناشيء من اعتقاد هذا الفريق من العلماء بأصالة المادة، أو بعبارة اخرى: حصر الوجود في المادة، ومن هنا حاولوا إلباس كل شيء حتّى الامور المعنوية والغيبية: اللباس المادى، واغلقوا على أنفسهم باب عوالم الغيب، وعمدوا إلى التفتيش عن علة مادية حتّى لظاهرة (الوحي) التي لا تُقاس بمقاييس العالم المادى.

هذا مضافاً إلى أن تفسير (الوحي الالهي) عن طريق نظرية تجلّي الشخصية الباطنية، وخاصة في شأن رسول الإسلام «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - يواجه اشكالات ومؤاخذات اخرى تجعل هذه النظرية في عداد الاساطير!!

وإن ابرز هذه الاشكالات الواردة على هذه النظرية في مجال رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - هي: أنّ هذه النظرية ليست رأياً جديداً وتهمة جديدة توجه إلى نبوة رسول الإسلام.

فان نظرية «الشخصية الباطنية، والوحي النفسى الذاتى» هي نظرية متبلورة ومتقدمة لتهمة (الجنون والصّرع) التي كان يرمى بها العربُ الجاهليّون رسولَ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - !!

فقد كان المشركون في بدء الدعوة يقولون: ان ما يقوله «محمّد» وما يتكلم به ليس إلا افكاره المضطربة الناشئة عن خياله، وإن القرآن هي تلك الأفكار المضطربة التي تسربت إلى فضاء عقله من دون ارادة منه ولا اختيار!!

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتهام:

(يَلْ قَالُوا اضْغَاثٌ أَحْلَام. ⁽¹⁾)

ولكن القرآن الكريم يردّ على هذه المزعمة الواهية بقوله:

(وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَبْقَىٰ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنَّ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ).⁽¹⁾

ان القرآن الكريم يشجب في هذه الآيات المنتظمة انتظاماً رائعاً وبديعاً هذه المزعمة (أي مقولة أن القرآن وليدُ الخيال لدى محمّد)، ويردُّ الأمر إلى الوحي الالهي، والتوجيه الربانيّ العلويّ.

إن نظرية الوحي النفسيّ وتجلّي الشخصية الباطنية التي طلع بها الماديون في عصرنا ما هي في الحقيقة لإغطاء لمزعمة المشركين وتهمة الجنون والخيال، التي سبق أن رمى بها أعداء الرسالة الإسلامية ومعارضوها النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك التهمة التي يذكرها القرآن الكريم بقوله:

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ).⁽²⁾

وهي تهمة كان يوجهها المعارضون دائماً إلى المصلحين وأصحاب الرسالات⁽³⁾ وقد اتخذت هذه التهمة صبغة علمية جديدة، وتبلورت في نظرية: «الوحي النفسيّ، وتجلّي الشخصية الباطنية». ان القرآن الكريم يرد على هذه المزاعم والتصورات الباطلة حول عملية الوحي ومسألة النبوة ويرد على نسبة الكهانة وماشابه ذلك كالخبر المنقول عن اهل السير بمحاولة لقاء النبي نفسه من شاهر في بداية الوحي الذي يشبه نسبة الجنون إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ يقول تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَقَدْ رَأَىٰ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيْنَ

- 1 النجم: ١ - ٥ .

- 2 الحجر: ٦، وايضاً راجع الآيات التالية: سبأ: ٨، الصافات: ٣٦، الدخان: ١٤، الطور: ٢٩، القلم: ٢، التكوثر: ٢٢ .

- 3 إذ يقول القرآن في هذا الصدد: «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» (الذاريات: ٥٢ و ٥٣).

تَدْهَبُونَ إِنَّ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ).⁽¹⁾

بهذا البيان تبين بطلان هذا التفسير وجميع التفاسير الأخرى التي تحاول إعطاء (الوحي) طابعاً مادياً مألوفاً، شأنه شأن غيره من الظواهر الغيبية، ونحن استكمالا لهذا البحث نشير إلى ما هو الحق في هذا المجال، مما يؤيد الواقع والعقل والدين:

ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين:

لا شك أن حياة كل فرد من افراد الإنسان تبدأ من «الجهل» ثم يأخذ الإنسان بالدخول في مجال العلم شيئاً فشيئاً، إلى ان تنفتح عليه بالتدرج نوافذ على الواقع الخارج عن ذهنه.

فيبدأ الإنسان بالتعرف على الحقائق عن طريق الحواس الظاهرية، ثم على أثر التكامل في جهازه العقلي والفكري يهتدي إلى الحقائق الخارجة عن مجال الحس واللمس، فيغدو عقلياً استدلالياً، ويقف على طائفة من الحقائق الكلية والقوانين العلمية.

وربما يظهر بين أفراد النوع الإنساني أصحاب نفوس عالية يقفون عن طريق الالهام ومن خلال بصيرة خاصة على حقائق وأمور لا يهتدى إليها حتى عن طريق الاستدلال والبرهنة!

ومن هنا قسم العلماء ادراك البشر إلى ثلاثة أنواع: «ادراك العامة» «ادراك المفكرين وأرباب الاستدلال» «ادراك العرفاء واصحاب البصائر والنفوس الكبرى.»

وكأن أصحاب الظاهر يستعينون على اكتشاف الحقيقة بالحس، والمفكرين يستعينون بالاستدلال والبرهنة، وأصحاب البصائر والمعرفة بالالهام والاشراق وبالفيض عليهم من العالم الأعلى.

- [التكوير: ٢٠ - ٢٨].

(334)

ان النوايع في مجال الأخلاق، وان عقول العلماء الخلافة، وأفكار الفلاسفة العظيمة كلها تؤيد وتشهد بأن ما يحصلون عليه، وما يطلعون به على المجتمع البشري مما لم يعرفوه من قبل ما هي الا شرارات مضيئة وملهمة تخطر لهم، ثم يعمدون إلى تنميتها وبلورتها بالتجربة، أو بالاستدلال والبرهنة والتأمل.

قنوات المعرفة الثلاث:

من هذا الكلام نستنتج أن أمام بني البشر ثلاث طرق للوصول إلى مقاصدهم؛ فالطريق الأول يستفيد منه جماهير الناس غالباً، بينما يستفيد طائفة خاصة منهم من الطريق الثاني، ولا يستفيد من الطريق الثالث إلا أفراد معدودون قلة تكاملت عقولهم، وتسامت أرواحهم. وهي كالتالي:

1- الطريق التجريبي والجسي، والمقصود منه ذلك القسم من الإدراكات والمعلومات الواردة إلى محيط ذهن البشري عن طريق الحواس الظاهرية كالمرئيات، والمشموومات والمطعمومات وغيرها مما يستقر في محيط إدراكنا بواسطة الأجهزة المختصة بها.

وقد استطاع البشر اليوم، وبفضل اختراع التلسكوبات والميكروسكوبات وأجهزة التلفاز والراديو ان يقدم خدمة كبرى للبشرية في مجال الإدراكات الحسية ويمهد لمزيد من سيطرتها على البعيد والقريب.

2- الطريقُ التعقُّلي الإستدلالي: فان المفكرين يتوصلون إلى كشف طائفة من القوانين الكلية الخارجة عن الحس عن طريق عملية التفكير والتأمل وتشغيل جهاز العقل، وإقامة سلسلة من المقدمات البديهية الواضحة، وبذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفة والكمال العلمي.

إنَّ انكشاف القوانين العلميَّة الكليَّة، والمسائل الفلسفية، والمعارف المرتبطة بصفات الله وأفعاله سبحانه والقضايا المطروحة في علم العقيدة والأديان ناشيء برمته من جهاز العقل، وحركته، وناتج من عملية التفكير، والإستدلال المذكورة.

3- طريق الإلهام: وهذا هو الطريق الثالث لمعرفة الحقائق، وهو فوق نطاق

(335)

الحس والتعقل.

إنه نوعٌ جديدٌ من المعرفة ونمط متميز من إدراك الحقائق، ليس محالاً من وجهة نظر العلم وان كان يصعب على أصحاب الاتجاه الماديّ القبول به لكونه طريقاً غير حسي ولا تعقُّلي.

وأما من جهة الأصول العلمية فلا مجال لإنكاره، ولا مبرر لعدّه من المحالات.

ان طريق التعرُّف على حقائق الكون الخارج عن الذهن - في منهج الماديين، وأصحاب النزعة المادية - ينحصر في قناتين لا أكثر، وهما اللذان سبق ذكرهما، في حين أنّ هناك - حسب نظرة الأديان والشرائع الكبرى وحسب نظرة الفلاسفة والعرفاء الإلهيين - قناة ثالثة أيضاً.

بل إنّ هذا الطريق الثالث - كما أسلفنا في مسألة الوحي - أكثر واقعية، وأقوى أسساً، وأوسع أفقاً عند من يدعون الرسالة، والنبوة من جانب الله سبحانه، وإن نفوس أولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطلاوة بفضل هذا الطريق، وفي ضوء هذه القناة.

وكأما حصل إرتباط بين الله، وبين فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو خاص ألقيت الحقائق في وجوده من دون توسط الحواس الظاهرية، وإعمال الفكر، واستخدام جهاز العقل.

وهذا النوع من الإلقاء يسمى حيناً بالالهام، وبالاشراق حيناً آخر.

ولكن كلما نتج من إرتباط الإنسان بما وراء الطبيعة سلسلة من التعاليم العامّة والأنظمة والبرامج الشاملة أطلق على هذا النوع من الإلقاء عنوان (الوحي)، وسمّي الآتي بها (ملك الوحي) والأخذ لها (نبيّاً).

هذا وقد يوجب الإلهام الثقة والاطمئنان للملهم إليه، ولكنّه لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقة عند الآخرين.⁽¹⁾

- [وانما قلنا «قد» أي يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نقطع بذلك لأنّ مصدر هذه الإلهامات ليست معلومة وواضحة، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبية والفجائية التي لا تستند إلى أصول معلومة. وبعبارة أخرى: يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانية والالقاءات الشيطانية بواسطة الموازين العقلية والشرعية.

(336)

من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطريق المطمئنة الوحيدة إلى المعرفة العامة... الوحي الذي ينزل على الانبياء الذين ثبتت نبوتهم بالدلائل القاطعة، من المعجزة وغيرها.

أنواع الوحي واصنافه:

إن في مقدور الروح الإنسانية بسبب ما تملك من كمالات أن تتصل بالعوالم الروحانية من الطرق المختلفة، ونحن هنا نشير إلى هذه الطرق التي جاء ذكرها في أحاديث قادة الإسلام وائمته، باختصار:

1- تارة يتلقى الحقائق السماوية العليا على نحو الالهام، فيتخذ ما يتم إلقاءه في النفس عبر هذا الطريق حكم (العلوم البديهية) التي لا يتطرق إليها أي ريب وشك.

2- وقد يسمع عبارات وكلمات من جسم معين (كالجبل والشجرة) كسماع موسى - عليه السلام - كلام الله من الشجرة.

3- وربما تنكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشف النهار.

4- وقد ينزل عليه ملكٌ من جانب الله بكلام خاص.

وقد نزل القرآن الكريم على النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - من هذا الطريق، وقد صرح القرآن الكريم نفسه بهذا عند

قوله تعالى: **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.** (1)

أساطير مختلفة:

لقد كتب المؤرخون والكتاب عن حياة كثير من الشخصيات العالمية، وضبطوا كل

- [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥، وقد أُشير في سورة الشورى الآية ٥١ إلى هذه الطرق الأربع جميعها.

(337)

ما جلّ أودق في هذا المجال، وربما تحمّلوا عناء الرحلات الطويلة والأسفار الشاقة لتكميل دراساتهم، وكتاباتهم.

غير أن التاريخ لا يعرف شخصية مثل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ضبطت تفاصيل سيرته الدقيقة، واهتم اتباعه وأصحابه ومحبيه بكل شاردة وواردة في حياته الشريفة.

إنّ هذا الولع الشديد بتسجيل كل شيء - مهما صغر - من حياة النبيّ الاعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرته العطرة كما ساعد على ضبط جميع الجزئيات والتفاصيل في هذا المجال، تسبب في بعض الموارد في إلصاق بعض الزوائد بحياة النبي الاكرم وشخصيته العظيمة، الطاهرة.

ومثل هذا لا يبعد عن المحيّن الجهلاء فكيف بالأعداء الألداء العارفين.

من هنا يتعيّن على كل مؤلف يكتب عن سيرة شخصية من الشخصيات أن لا يغفل عن مبدأ (الحذر والإحتياط) في تحليله لحوادثها، وقضاياها، فلا يغفل عن تقييم كل ما جاء حولها من روايات وقصص في ضوء الموازين التاريخية الدقيقة.

واليك بقية ما جرى في واقعة نزول (الوحي) في حراء:

بقية حادثة نزول الوحي:

استنارت نفس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وروحه الكبرى بنور «الوحي» المبارك، وتعلّم كل ما ألقى عليه ملك الوحي في ذلك اللقاء العظيم، وانتشيت تلك الآيات الشريفة في صدره حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة.

وقد خاطبه نفس ذلك الملك بعد تلاوه تلكم الآيات بقوله:

يا محمّد... أنت رسول الله... وأنا جبرئيل.

وقيل: انه - صلى الله عليه وآله وسلم - سمع هذا النداء عند نزوله من غار حراء وقد اضطرب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لهذين الحدتين، اضطرب لعظمة المسؤولية الكبرى التي أُلقيت على كاهله.

(338)

وكان هذا الاضطراب طبيعياً بعض الشيء، وهو لا ينافي بالمرّة يقينه - صلى الله عليه وآله وسلم - وإيمانه بصدق ما أنزل عليه لأن الروح مهما بلغت من العظمة والسّمو والقوة والصلابة، ومهما كانت قوة ارتباطها بعالم الغيب، وبالعالم الرُّوحانية الغلّيا فإنّها عندما تواجه لأول مرّة ملكاً لم تره من قبل، وذلك في مثل المكان الذي التقى النبي (فوق الجبل) لا بُدَّ أن يحصل لها مثل هذا الاضطراب، ولهذا زال ذلك الاضطراب عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ما بعد.

ثم إن الاضطراب والتعب الشديد قد تسببا في أن يتوجه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بيت «خديجة» - عليها السلام - ، وعندما دخل بيتها وجدت على ملامحه آثار الاضطراب والتفكير سألته عن ما جرى له، فحدّثها بكل ما سمع وراى وقصّ عليها ما كان من أمر جبرئيل معها، فعظمت «خديجة» - عليها السلام - أمره، ودعت له، وقالت: إيشر فولله لا يخزيك الله أبداً.

ثم إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يشعر بالجهد والتعب قال لزوجته الوفيّة «خديجة»: دثّريني... دثّريني.

فدثّرتّه، فنام بعض الشيء.

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل:

لقد تحدثنا في الصفحات الماضية عن «ورقة» وقلنا أنّه كان ممن تتصّرّ قرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وكان ابن عم خديجة.

فعند ما سمعت «خديجة» زوجة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سمعته منه انطلقت إلى «ورقة» لتخبره بما سمعته من زوجها الكريم، وشرحت له كلّ شيء مما جرى له مع جبرئيل.

فقال «ورقة» في جواب ابنة عمه: إن ابن عمك لصادق... وإن هذا لبدء النبوة، وانه ليأتيه ناموس الاكبر (أي الرسالة والنبوة).⁽¹⁾

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٩٥.

(339)

إن ما ذكرناه إلى هنا هو في الحقيقة ملخّص الروايات التاريخية المتواترة التي وصلت إليها، والتي دُوّنت في جميع الكتب.

بيدانا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادثة أموراً لا تتفق مع ما نعرفه من أنبياء الله ورُسُلِهِ العظام، كما أنها لا تتفق مع ما قرأناه إلى الآن عن حياة هذا النبي العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إما يجب اعتباره من قبيل الاساطير التاريخية، أو أنّ علينا تأويله بنوع من التأويل.

وانا لنعجب قبل كل شيء من المفكر المصري الدكتور «هيكل» كيف سمح لنفسه وهو الذي تحدث في مقدمة كتابه عن مشكلة تسرب الاساطير إلى التاريخ النبوي، وقال: بأنّ هناك من دسّ في السيرة النبوية، عن عداوة أو جهل، بعض الاكاذيب.

ولكنه مع ذلك ينقل هنا أموراً لا أساس لها من الصحة أبداً، في حين اعطى فريقاً من علماء الشيعة - كالمرحوم الطبرسي - ملاحظات مفيدة في هذا الصعيد.

واليك في ما يلي بعض هذه الاساطير والقضايا المختلفة، على أنها لم تكن جديرة بالاشارة ابداً لولا أن بعض المحيئين الجهلاء، والأعداء الأذكياء ذكروها في كتبهم، وكرروها في دراساتهم.

- [قالوا: إنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عند ما دخل منزل خديجة، كان يفكر في نفسه: لعلّ بصره خدعته، أو انه كاهن، أوفيه جنون!!

ولكن لما قالت له خديجة: «إنّ الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله، إنك تصدق الحديث، وتؤدّي الأمانة، وتصلّ «الرحم» اطمأنّ، وزال عنه الشكّ والتردد، والقى على «خديجة» نظراً شكر ومودة، ثم طلب أن يُرْمَل، فرْمَل فنام. (1)!!

- [الطبقات الكبرى: ج 1، ص 195، حياة محمّد: ص 134.

(340)

2-يقول الطبري وغيره من مؤرخي السيرة: ان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما سمع نداء يقول: «يا محمّد أنت رسول الله» أصابه خوفٌ شديدٌ حتّى أنه همّ بان يطرح نفسه من أعلى الجبل، فتبدى له (ملك الوحي) ومنعه عن ذلك!!!

3- ثم إنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذهب ليطوف بالكعبة بعد ذلك اليوم، فرأى «ورقة بن نوفل» وشرح لورقة ما جرى له مع جبرئيل، فقال له ورقة:

«والذي نفسي بيده، إنّك لنبيّ هذه الأمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتُكذّبته، ولتؤدّبته، ولتخرجنّه ولتقاتلنه» فأحس

«محمّد» بأن ورقة يصدّقه، فاطمأن. (1)

بُطْلانُ هذه المزاعم:

إن الذي نتصوره هو أن جميع هذه القصص مختلفة من الأساس، وقد دُست في التاريخ والتفسير عن قصد وهدف، أو دخلت فيهما عن غير ذلك.

وذلك:

أولاً: لأننا لتقييم هذه المزاعم يجب ان نلقي نظرة فاحصة إلى تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم.

إن القرآن الكريم قصَّ علينا قضاياهم، وسيرهم، وقد وردت في هذا المجال روايات وأخبار كثيرة.

وإننا لا نجد أي أثر لمثل هذه القصص المشينة في حياة أي واحد منهم.

إن القرآن الكريم يقص علينا قصة بدء نزول (الوحي) على «موسى» بشكل كامل وبيِّن جميع التفاصيل في قصته - عليه السلام - ولا يذكر أي شيء من الخوف، والارتعاش، والوحشة والفرع، بحيث يحدث نفسه بالانتحار على أثر سماع الوحي!! مع أن أرضية الخوف والفرع في مجال «موسى» كانت متوفرة

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٣٨.

(341)

أكثر، لأنه سمع في ليلة ظلماء وهو في صحراء خالية نداء من الشجرة يخبره بأنه نبي مرسل.

ولكن موسى - كما يصرح القرآن الكريم، بهذه الحقيقة - حافظ على هدوئه، وسكونه، وعندما خاطبه الله تعالى بقوله: «أن ألق عصاك» القاها من فوره، وكان خوفه من ناحية العصى التي تبدلت إلى ثعبان مخيف، لا من جهة الإيحاء إليه.

فهل يمكن، أو يجوز لنا أن نقول: كان «موسى» لحظة الوحي إليه مطمئناً هادئاً ساكناً، ولكن أفضل الانبياء والمرسلين اضطرب عند سماع كلام الملك، وفرع إلى درجة فُكّر في طرح نفسه من أعلى الجبل؟! هل هذا كلام معقول!؟

لا ريب أن روح محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ما لم تكن مهياًة من جميع الجهات وبصورة كاملة لتلقي السرّ الالهيّ (النبوة) لا يمكن أن يمن عليه الربّ الحكيم بمنصب النبوة، ويختاره لمقام الرسالة، لأن الهدف الجوهرى من ابتعاث الرُّسل، وارسال الانبياء هو هداية الناس وارشادهم.

ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهذه المرتبة بحيث يحدث نفسه بالانتحار خوفاً⁽¹⁾ وفرعاً كيف يمكن ان ينفذ

إلى نفوس الناس ويؤثر فيهم!؟

ثانياً: كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الإلهي إلى أنه صادرٌ من جانب الله، فطلب من ربه من فوره أن يجعل أخاه هارون وزيراً له لأنه أفصح منه قولاً (2) بينما لا يطمئن سيد المرسلين وخاتمهم؟! ثالثاً: لقد كان «ورقة» مسيحياً حتماً، ولكنه عند ما أراد أن يزيل عن «محمد» الشك والاضطراب ذكر نبوة «موسى» - عليه السلام - وقال: قد جاءك الناموس الذي جاء موسى. (3)

- 1 كما نقل هيكيل في كتابه: «حياة محمد». »
- 2 طه: ٢٩.
- 3 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٣٨ وقد نقل المرحوم المجلسي هذه العبارة عن المنتقى ولكنه بلفظة «عيسى» أيضاً ولكن لا وجود لذلك في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام اللذين هما الأساس لهذه الأمور.

(342)

ألا يدلُّ هذا على أنَّ ثمة يداً اسرائيليَّة وراء هذه الحكمة هي التي صاغت هذه القصة واختلقتها في غفلة عما كان يدين به «ورقة» بطلُّ القصة؟!!

كل هذا بغصَّ النظر عن أن مثل هذه الأمور تتنافى والعظمة التي نعهد لها من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولا تتسجم معها أبداً، ويبدو أن كاتب «حياة محمد» أدرك إلى درجة ما خرافية هذه القصة ولذلك نجده ينقل بعض مواضيعها بعد جملة: «كما يقولون. »

وقد حارب ائمة الشيعة هذه الاساطير بكل قوة، وأبطلوها برمتها.

فعندما يسأل زرارة الإمام الصادق - عليه السلام - مثلاً: كيف لم يخف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يأتيه من قبل الله ان يكون ممّا ينزغ به الشيطان:

قال الإمام - عليه السلام - : « إنَّ الله إذا اتخذ عبداً ورسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبل الله عزَّ وجلَّ مثل الذي يراه بعينه. (1) »

ويقول العلامة الشيعي الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيره، في هذا الصدد:

«إنَّ الله لا يوحى الى رسوله إلا بالبراهين النيرة والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع، ولا يُفَرَّق. (2) »

- 1 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٦٢ وفي الكافي: ج ١، ص ٢٧١ نظيره.
- 2 مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٨٤.

متى نزل الوحي أولاً؟

لقد تعرّضَ يوم مبعث رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - للاختلاف من حيث التعيين والتحديد فهو مثل يوم ولادته ويوم وفاته - صلى الله عليه وآله وسلم - غير مقطوع به، من وجهة نظر المؤرخين وكُتّاب السيرة النبويّة.

فلقد اتفق علماء الشيعة على القول بان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بُعثَ بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأن نزول الوحي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسه.

بينما اشتهر عند علماء السنّة أن رسول الإسلام قد أُوتي هذا المقام العظيم في شهر رمضان المبارك.

ففي ذلك الشهر الفضيل كُلف «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - من جانب الله تعالى بهداية الناس، وُبعثَ بالرسالة.

ولما كانت الشيعة تشايح عترة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وأهل بيته الصادقين، وتعتقد بصحة ما يروونه ويقولون به اتباعاً لقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيهم، في حديث الثقلين: «إنهما لن يفترقا» فانهم اتبعوا - في تحديد يوم المبعث النبوي الشريف - القول المأثور - بنقل صحيح - عن عترة النبي المطهرين في

هذا المجال.

فقد روي عن أبناء الرسول وعترة الطاهرة أن عظيم هذا البيت و سيّده (أي النبيّ) قد بُعثَ في السابع والعشرين من شهر رجب، وهم في ذلك حجة.

ولهذا لا يمكن الشك والتردد في صحة هذا القول وثبوته. (1)

نعم غاية ما يمكن الاستدلال به على القول الآخر هو تصريح القرآن الكريم نفسه بأن آيات القرآن نزلت في شهر رمضان، وحيث أن يومَ بعثة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - كان هو بنفسه يوم بدء نزول الوحي، والقرآن عليه، لهذا يجب القول بان يوم البعثة الشريفة انما كان في نفس الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم: اي شهر رمضان المبارك.

واليك فيما يأتي الآيات التي تدل على أن القرآن الكريم نزل في شهر رمضان:

(1- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ. (2)

(2- حم. وَالكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ (3) وتلك الليلة هي ليلة القدر التي قال عنها سبحانه): إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ

الْقَدْرِ) (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. (4)

ما أجاب به علماء الشيعة:

ولقد أجاب محدثو الشيعة ومفسروهم عن هذا الاستدلال بطرق مختلفة نذكر طائفة منها هنا:

الجواب الأول:

إن الآيات المذكورة إنما تدل على أن القرآن نزل في شهر رمضان وبالذات في ليلة مباركة منه هي «ليلة القدر»، ولكنها لا تعرض

لذكر محل نزول هذه

- 1 راجع بحار الأنوار: ج 18، ص 189.

- 2 البقرة: 185.

- 3 الدخان: 1 - 3.

- 4 القدر: 1 و 3.

(345)

الآيات، وأنها أين نزلت؟ وهي بالتالي لا تدل أبداً ومطلقاً على أنها نزلت في تلك الليلة على قلب رسول الله؟

فيحتمل أن يكون القرآن نزولات متعددة إحداها نزول القرآن على رسول الله تدريجاً.

والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور. (4)

وعلى هذا فما المانع من ان تكون بعض آيات القرآن (من سورة العلق) قد نزلت على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في السابع

والعشرين من شهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعية الكاملة في شهر رمضان من مكان معين أسماه القرآن باللوحة المحفوظة،

إلى موضع آخر عُبر عنه في بعض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى في سورة الدخان): إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ (فإن هذه الآية - بحكم رجوع الضمير فيها إلى

الكتاب - تصرح بأن الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليلة مباركة (في شهر رمضان)، ولا بد أن يكون هذا النزول

غير ذلك النزول الذي تحقق في يوم المبعث الشريف، لأن في يوم المبعث لم تنزل سوى آيات معدودة لا أكثر.

وخلاصة الكلام هي ان الآيات التي تصرح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة مباركة (ليلة القدر) لا يمكن أن تدل على أن يوم المبعث الذي نزلت فيه بضغ آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه، لأن الآيات المذكورة تدل على أن مجموع القرآن لا بعضه قد نزل في ذلك الشهر، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة كما نعلم.

وفي هذه الصورة يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعي للقرآن هو نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من «اللوح المحفوظ» إلى «البيت المعمور».

وقد روى علماء الشيعة والسنة روايات وأخباراً بهذا المضمون، وبخاصة

- [لتتعرف على معنى اللوح المحفوظ راجع كتب التفسير.

(346)

الاستاذ الأزهرى محمد عبدالعظيم الزرقاني الذي أورد روايات عديدة في هذا الصدد في كتابه. (1)

الجواب الثاني:

وهو أمتن الاجوبة والردود على هذا القول.

فقد بذل الاستاذ الطباطبائي جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه في كتابه القيم؛ واليك خلاصته:

يقول العلامة الطباطبائي: إن قول الله تعالى إنا أنزلناه في شهر رمضان، المقصود منه هو نزول حقيقة القرآن على قلب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، لأن للقرآن مضافاً إلى وجوده التدريجي، واقعية اطلع الله تعالى نبيه العظيم عليها في ليلة معينة من ليالي شهر رمضان المبارك. (2)

وحيث أن النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآية تأمره بان لا يعجل بقراءته حتى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً إذ يقول تعالى: **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ.** (3)

وخلاصة هذا الجواب هي: أن للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الذي نزل على الرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - مرة واحدة في شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في يوم المبعث، واستمرّ تنزله إلى آخر حياته الشريفة على نحو التدرج.

الجواب الثالث: التفكيك بين نزول القرآن والبعثة

إن للوحي - كما أوضحنا ذلك في مبحث أنواع الوحي اجمالاً - مراتب

-
- 1 مناهل العرفان في علوم القرآن: ج ١، ص ٣٧.
- 2 الميزان: ج ٢، ص ١٤ - ١٦.
- 3 طه: ١١٤.

(347)

ومراحل، يتمثل أول مراتبه في الرؤيا الصادقة التي رآها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

والمرتبة الأخرى تمثلت في سماعه للنداء الغيبيّ الإلهي من دون وساطة ملك.

وأخر تلك المراتب هو أن يسمع النبيّ كلام الله من ملك يبصره ويراه، ويتعرف عن طريقه على حقائق العوالم الأخرى.

وحيث أن النفس الإنسانية لا تستطيع في الوهلة الأولى تحمّل مراتب (الوحي) جميعها دفعة واحدة بل لابدّ أن يتحمّلها تدريجاً، لهذا يجب القول بأنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قد سمع يوم المبعث (اليوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماويّ الذي يخبره بأنه رسول الله، فقط ولم تنزل في مثل هذا اليوم آية آية قط، وقد استمر الأمر على هذا المنوال مدة من الزمان. ثم بعد مدة بدأ نزول القرآن الكريم على نحو التدرّج ابتداء من شهر رمضان.

وخلاصة هذا الجواب هي أن ابتعاث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة في شهر رجب لا يلازم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً.

وعلى هذا الأساس ما المانع من ان يُبعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في شهر رجب، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العام؟

ان هذه الاجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصوص التاريخية (لأن كثيراً من المؤرخين صرّحوا بأنّ الآيات الخمس من سورة العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلا أن هناك - مع ذلك - روايات ذكرت قصة البعثة بسماع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للنداء الغيبيّ، ولم تذكر شيئاً عن نزول قرآن أو آيات، بل هي تشرح الواقعة على النحو التالي إذ تقول:

في ذلك اليوم سمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ملكاً يقول له: يا محمّد إنّك لرسول الله، وجاء في بعض الأخبار أنه سمع هذا النداء، فقط، ولم تذكر شيئاً عن مشاهدة الملك.

وللمزيد من التوضيح، والتوسع يُراجع «البحار» في هذا المجال. (1)

- [بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٨٤ و ١٩٠ و ١٩٣ و ٢٥٣، الكافي: ج ٢، ص ٤٦٠، تفسير العياشي: ج ١، ص ٨٠ وهذا الجواب لا ينسجم مع ما رواه البخاري من أنّ بعثة النبي رافقت نزول آيات من سورة العلق عليه.

(348)

على أنّ هذه الاجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأن مبعث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان في شهر رجب، وكان نزول القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوة السرية التي استغرقت ثلاثة أعوام.

الانبياء والبشارة برسول الله:

وينبغي - استكمالاً لهذا الفصل من التاريخ النبوي - ان نلفت نظر القارئ الكريم إلى ان الرسالة المحمدية المباركة، ممّا بشر به جميع الانبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الانبياء والمرسلين محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك إذ قال الله تعالى:

(وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. (1))

وهذه الآية وإن كانت تكشف عن أصل عام وكلي وهو: وجوب تصديق إتيان النبي السابق للنبي اللاحق، إلا أن المصداق الأتم لها هو رسول الإسلام الكريم.

فيظهر من هذه الآية أن الله تعالى أخذ الميثاق المؤكد من جميع الانبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برسالة محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه واتباعه ونصرته.

روى الفخر الرازي عن امير المؤمنين علي - عليه السلام - :

«إن الله تعالى ما بعث آدم - عليه السلام - و مؤمن بعده من الانبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بُعث محمّد وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه. (2)»

ومما يؤيد هذا ان القرآن دعا اهل الكتاب إلى بيان ما قرأوه ووجدوه في

- 1 آل عمران: ٨١.
- 2 مفاتيح الغيب: ج ٢، ص ٥٠٧.

(349)

كتبهم حول رسول الإسلام للناس من دون كتمان، واليك فيما ياتي طائفة من الآيات المصرحة بهذا الأمر:

-[قال الله تعالى:

(وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّنَّ مَا يَشْتَرُونَ. (1)

2-قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَ يَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ، وَ لَا يَكْلِمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَ لَا يُزَكِّيهِمْ وَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (2)

3- وقال تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَ إِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَ هُمْ يَعْلَمُونَ. (3)

4- وقال سبحانه:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَ الْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَ يَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَ يَحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَ يَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَ الْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّزُوهُ وَ نَصَرُوهُ وَ اتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (4)

ان القرآن الكريم يصرح بجلاء ان السيد المسيح - عليه السلام - اخبر عن رسول الإسلام ورسالته إذ يقول تعالى:

(وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مَبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنَ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

- آل عمران: ١٨٧.

- البقرة: ١٧٤.

- البقرة: ١٤٦.

- الاعراف: ١٥٧.

كما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين تنكروا لرسالة النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما بُعث وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبون النصر به على اعدائهم إذ قال سبحانه:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. (2))

بل ويخبرنا القرآن الكريم بأن إبراهيم - عليه السلام - يوم أحل زوجته وولده اسماعيل بارض مكة دعا قاتلا:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. (3))

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ يصفه القرآن الكريم بقوله:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. (4))

محمد خاتم الانبياء:

واستكمالاً لهذا البحث ينبغي أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحية في رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - ونبوته وهي مسألة الخاتمية.

فان القرآن الكريم صرح في آيات عديدة بكون رسول الله محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - خاتم النبيين، وشريعته خاتمة الشرائع، فلا نبي بعده، ولا رسالة بعد رسالته.

-
- [الصف: ٦.
 - [البقرة: ٨٩.
 - [البقرة: ١٢٩.
 - [آل عمران: ١٦٤.

(351)

وها نحن ندرج ابرز الآيات الواردة في هذا المجال:

- [قال تعالى:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. (1))

- [قال سبحانه:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. (2))

3- وقال سبحانه:

(وَ أَوْحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ. (3))

4- وقال تعالى:

(وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. (4))

والآيات الثلاث الأخيرة تفيد بأن رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - عامة وعالمية وأبدية لأنه في غير هذه الحالة وفي

غير هذه الصورة لن يكون نبياً للناس كافة، وللعالمين جميعاً. ولن يكون نذيراً لقومه ولمن بلغه نداؤه.

هذا وقد صرح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه في أحاديث كثيرة بهذا الموضوع وهو الصادق المصدّق.

فعن ابي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«أرسلت إلى الناس كافة وبي خُتم النبيون. (5)»

- 1الأحزاب: ٤٠ .

- 2الفرقان: ١ .

- 3الانعام: ١٩ .

- 4سبأ: ٢٨ .

- 5الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٢٨ .

(352)

(353)

١٣

ما سَبَقْتِي أَحَدٌ

أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ:

لقد انتشر الإسلام في العالم بصورة تدريجية، ويوصف الذين بادروا إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية والمساعدة على نشرها قبل

غيرهم بـ «السابقين». »

وقد كان السبق إلى الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في صدر الإسلام معياراً للفضل ولهذا يجب أن ندرس هذا الموضوع في ضوء المصادر الصحيحة، ونتعرف على من سبق إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية من الرجال، ومن النساء.

مِنَ النِّسَاءِ: «خَدِجَةُ»

إن من المسلم به تاريخياً أن «خديجة» كانت أول امرأة آمنت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولم يخالف في هذا أحدٌ،⁽¹⁾ ونحن هنا ننقل مستنداً تاريخياً مهماً واحداً ذكره المؤرخون نقلاً عن إحدى زوجات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، مكتفين به رعاية للاختصار.

تقول عائشة: ما غربت على نساء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا على «خديجة» وإني لم أدركها، وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يكاد يخرج

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٠].

(354)

من البيت حتى يذكر «خديجة» فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الأيام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال:

«لا والله ما ابتلني الله خيراً منها، آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبتني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها اولاداً إذ حرمني اولاد الناس.»⁽¹⁾

ومما يدل أيضاً على سبق خديجة في الإيمان برسول الله كل نساء العالم جمعاء ما جرى في قضية بدء الوحي، ونزول القرآن، لأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما انحدر من غار «حراء» واخبر زوجته «خديجة» بما جرى له واجه - رأساً - إيمان زوجته به وقبولها لكلامه، وتصديقها برسالته، تصريحاً وتلويحاً.

هذا مضافاً إلى أنها كانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلق بنبوته ومستقبل رسالته من كهنة العرب وأهل الكتاب، وهذه الأخبار وامانة فتى قريش وصدقه الذي اشتهر به هي التي دفعت بها إلى أن تتزوج بالفتى الهاشمي (محمد).

أَقْدَمُ الرِّجَالِ اسْلَاماً: «عَلِيٌّ»

إن المشهور المقارب للمتفق عليه بين المؤرخين، سنة وشيعة، هو أن «علياً» كان اول من آمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الرجال.

ونرى في مقابل هذا القول المشهور أقوالاً أخرى نادرة قد نقلنا بعضها ما يخالفها أيضاً:

فمثلاً يقال: إنَّ زيد بن حارثة ربيب رسول الله وابنه بالتبني، أو أبوبكر كان أول من أسلم، ولكن دلائل عديدة (نذكر بعضها هنا على سبيل الاختصار) تشهد على خلاف هذين القولين.

- [صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٤، صحيح البخاري: ج ٥، ص ٣٩، اسدالغابة لابن الأثير الجزري: ج ٥، ص ٤٢٨، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٨.

(355)

واليك بعض هذه الدلائل:

1- عليّ تربي في حجر النبيّ

لقد تلقى عليّ - عليه السلام - تربيته في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ونشأ وترعرع في بيته منذ طفولته، وكان النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يجتهد في تربيته والعناية به كالوالد الرحيم.

قال عامة المؤرخين وكتّاب السيرة بالاتفاق: إنَّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة (قبل بعثة النبي) وكان أبوطالب ذاعياً كثيراً، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - للعباس عمّه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أباطالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، أخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتّى اتيا أباطالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه (إلى أن قال): فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرأ فضمّه إليه فلم يزل عليّ مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتّى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً فاتبعه علي رضي الله عنه وأمن به وصدقته. (1)

في هذا الصورة يجب أن نقول بأنّ علياً - عليه السلام - انتقل إلى بيت النبيّ وهو دون الثامنة، لأنّ الغرض من أخذ النبيّ إياه من أبيه «أبي طالب» هو التخفيف عن كاهل زعيم مكة (أبي طالب)، ومن الواضح أنّ صبيّاً في مثل هذا السنّ (دون الثامنة) مضافاً إلى أنّ فصله عن والديه أمرٌ في غاية الصعوبة، لن يكون لأخذه وتكفّله أيُّ أثر هامّ في وضع أبيه (أبي طالب) المعيشي.

وعلى هذا يجب أن نفترض له - عليه السلام - عمراً يكون لأخذه فيه من قبل النبيّ تأثيراً معتدلاً به في وضع أبيه الإقتصادي والمعيشي.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٦، البداية والنهاية: ج ٢، ص ٢٥.

فكيف يمكن القول - والحال هذه - أن اباعد عن البيت النبوي مثل «زيد بن حارثة» وغيره اطلعوا على أسرار الوحي، بينما جهل ابن عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واقرب الناس إليه والذي كان معه في اكثر الأوقات بما أتى به - صلى الله عليه وآله وسلم - وما نزل عليه.

إنَّ غرض النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من تربية الإمام عليّ وتكفله إياه كان إلى حدّ كبير هو أداء ما أسدى إليه أبوطالب من خدمات، ولم يكن ثمة شيء أحبّ إلى رسول الله من أن يهديّ أحداً إلى الصراط المستقيم، فكيف يمكن أن يقال - والحال هذه - أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حرم ابن عمه الذي كان يتمتع بذكاء باهر وضمير يقظ، من هذه النعمة الكبرى.

إنَّ من الأفضل أن نسمّع هذا الأمر من لسان «علي» نفسه، فقد بيّن - عليه السلام - في الخطبة القاصعة منزلته من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقربه إليه هكذا:

«وَأَقْدُ عَلِمْتُ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةَ الْخَصِيصَةَ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ، يَضْمُنُنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتَفِينِي فِي فِرَاشِهِ، وَيَمْسُئُنِي جَسَدِهِ، وَيُسْمُنُنِي عِرْفَهُ (عرفه)... ولقد كنتُ أتبعه اتباع الفصيل إثر أمه، يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالإقتداء به، ولقد كان يجاورني في كل سنة بحراء فاراه ولا يراه غيري، ولم يجمع بيتاً واحداً يومئذ في الإسلام غير رسول الله، وخديجة وأنا ثالثهما أرى نورَ الوحي والرّسالة وأشمُّ ريحَ النبوة. (1)»

وجاء في تاريخ الطبري عن ابن اسحاق قال: كان اول ذكر آمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصلّى معه وصدّق بما جاءه من عند الله «علي بن ابي طالب» - عليه السلام - وهو يومئذ ابن عشر سنين، وكان ممّا انعم الله به على عليّ بن ابي طالب - عليه السلام - انه كان في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٨٢، وفي هذه الخطبة نفسها يقول: اللهمّ اني أول من أناب وسمعَ و أجابَ لم يسبقني إلا رسول الله بالصلاة.]

قبل الإسلام. (1)

-2- عليّ وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي:

ينقل ابن الاثير في «أسد الغابة»، وابن حجر في «الإصابة» عند ترجمة «عفيف الكندي» وكثير من علماء التاريخ القصة التالية عنه، بأنه قال:

كنت إمراً تاجراً فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرء تاجراً فأتيته أبتاع منه وابعه، قال: فبينما نحن إذ خرج رجلٌ من خباء يصليّ فقام تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصليّ، وخرج غلام يصليّ معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين، إن هذا الدين ما ندري به؟ فقال: هذا محمّد بن عبدالله يزعم أنّ الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر سئفتح عليه، وهذه امرأته «خديجة بنت خويلد» أمنت به وهذا الغلام ابن عمه «علي بن ابي طالب» آمن به قال عفيف: فليتنى كنت رابعهم. (2)

وهذه الواقعة ينقلها ويرويها حتى الذين يقصرون في رواية فضائل الإمام عليّ وكتابتها، وفي امكان القارىء الكريم ان يقف على هذه القصة في المصادر التالية على وجه التفصيل.

-3 أنا الصديق الأكبر:

تلاحظ هذه العبارة ونظائرُها كثيراً، في خطب الإمام عليّ - عليه السلام - وكلماته فهو يكرّر العبارات التالية بكثرة:

«أنا عبدُالله، وأخو رسول الله، وأنا الصديقُ الأكبر، لا يقولها بعدي الا كاذب مفتر، ولقد صليتُ مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أول من

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٧.
- 2 الاصابة: ج ٢، ص ٤٨٠، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٧. الكامل: ج ٢، ص ٣٧ و ٣٨. اعلام الورى: ص ٢٥، اسدالغابة: ج ٣، ص ٤١٤.

صلى معه. (1)»

-4 أولكم إسلاماً: عليّ

ولقد وردت أحاديث متواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبتعابير متنوعة قال فيها:

«أولكم واردة على الحوض، أولكم إسلاماً عليّ بن ابي طالب. (2)»

وعند ما يدرس المنصف المحايذ هذه الاحاديث، يقطع بأسبقية الإمام عليّ إلى الإسلام، وتقدّمه على غيره في الإيمان بالدعوة المحمّدية، ولا يختار القولين الآخرين اللذين لا يذهب إليهما إلا الأقلية.

فإن ما يناهز السنين شخصاً من الصحابة والتابعين يؤيدون القول الأول (أي أن علياً أول القوم إسلاماً وأقدمهم أيماناً) وحتى الطبري نفسه الذي شكك في هذا القول، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيد، روى في ج ٢، ص ٦٠ بأن «ابن سعد» سال اباه قائلاً: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً، فقال: لا ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين.

ومن غريب الأمر ان مؤرخاً كبيراً كابن كثير يتنكر لهذه الحقيقة الساطعة فقد ذكر في ج ٧، ص ٣٣٤ من كتابه «البدائية والنهاية» حديثاً صحيحاً بإسناد الإمام أحمد الترمذي في إسلام أمير المؤمنين وأنه أول من أسلم وصلى ثم أردفه بقوله: وهذا لا يصح من اي وجه كان روي عنه، وقد ورد في أنه أول من أسلم من هذه الأمة أحاديث كثيرة لا يصح منها شيء... إلخ.

وقد تصدى العلامة المحقق الاميني رحمه الله للرد على هذا المقال بالتفصيل ونظراً لأهمية ما كتبه العلامة الاميني وما احتوى عليه من نصوص تاريخية نسرده هنا مع ما فيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه.

- إخصائص النسائي: ص ٣ و سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ١، ص ١١٢، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٦ وغيرها.
- 2مراجع مصادر هذا الحديث في الغدير: ج ٣، ص ٢٢٠.

(359)

يقول العلامة الاميني:

نُسائل هذا الرَّجُل لِمَ لا يصحُّ شيء منها من أئِّ وجه كان؟! والطرق صحيحة، والرَّجال ثقات، والحفاظ حكموا بصحَّته، وأرباب السير أطقوا عليه، وكان من المتسالم عليه بين الصَّحابة الأوَّلِين والتابعين لهم بإحسان.

ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه بحسبها القارىء دعوى مجردة لدة دعوى ابن كثير (أعاذنا الله عن مثلها) وتخفى عليه جليَّة الحال فيهمنا ذكرُ نزر ممَّا يدلُّ على المدَّعى وإن لم يسعنا ايراد كثير منه روماً للاختصار.

النصوص النبوية:

- [قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : أولكم وارداً - وروداً - على الحوض أولكم إسلاماً على بن أبي طالب.

أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١٣٦ وصحَّحه م - والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ و يوجد في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧ . شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨.

وفي لفظ: أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلاماً على بن أبي طالب، رضي الله عنه. السيرة الحليَّة ١ ص ٢٨٥. سيرة زيني دحلان ١ ص ١٨٨ هامش الحليَّة.

وفي لفظ: أول الناس وروداً على الحوض أولهم إسلاماً على بن أبي طالب مناقب الفقيه ابن المغازلي. مناقب الخوارزمي.

-2[قال - صلى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة: زوّجتك خير أمتي أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً. راجع ما مرَّ ص ٩٥.

3- قال - صلى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة: إنَّه لأوَّل أصحابي: إسلاماً. أو: أقدم أمَّتي سلماً. حديث صحيح راجع ص ٩٥.

4- أخذ - صلى الله عليه وآله وسلم - بيد عليّ، فقال: إنَّ هذا أوَّل من آمن بي، وهذا أوَّل من يُصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر. راجع الجزء الثاني

(360)

ص ٣١٣، ٣١٤.

5- عن أبي ايوب قال قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لقد صلَّت الملائكة عليّ وعلى علي سبعة سنين لأننا كنَّا نصليّ وليس معنا أحدٌ يُصليّ غيرنا.

مناقب الفقيه ابن المغازلي باسنادين م - أسد الغابة ٤ : ١٨ ومناقب الخوارزمي وفيه: ولمْ ذلك يا رسول الله؟ قال: لم يكن معي من الرجال غيره.

كتاب الفردوس للدليمي. شرح ابن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي ٣ ص ٢٥٨. فرائد السمطين الباب ٤٧.

6- ابن عباس قال قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : إنَّ أوَّل من صلَّى معي عليّ. فرائد السمطين الباب ٤٧ بأربع طرق.

7- معاذ بن جبل قال قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : يا عليّ! اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع ولا يُجاحدك فيه أحدٌ من قريش، أنت أوَّلهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

8- أبوسعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - وضرب بين كتفيه - : يا عليّ لك سبع خصال لا يُحاحك فيهنَّ أحدٌ يوم القيامة؛ أنت أوَّل المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

9- من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند الشعبي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال لعليّ - عليه السلام - : هذا أوَّل من آمن بي وصدقني وصلَّى معي. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

10- إنَّ ابا بكر وعمر خطبا فاطمة فردَّهما رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: لم أؤمر بذلك. فخطبها عليّ فرَّوجه إياها وقال لها: زوّجتك أقدم الأُمَّة إسلاماً. روى هذا الحديث جماعةٌ من الصحابة منهم: أسماء بنت عميس وأمّ أيمن وابن عباس و جابر بن عبد الله. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٧.

كلمات امير المؤمنين - عليه السلام -

:

1- قال - عليه السلام - :أنا عبدالله، وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفترى، ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه.

إسناده من طريق ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجة والحاكم والطبري⁽¹⁾ صحيح رجاله ثقات، راجع الجزء الثاني من كتابنا ٣١٤

2- قال - عليه السلام - :أنا أوّل رجل أسلم مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

أخرجه أبو داود بإسناده الصحيح كما في شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨.

3- قال - عليه السلام - :أنا أوّل من أسلم مع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - .

أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤، ص ٢٣٣.

4- قال - عليه السلام - أنا أوّل من صلّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

أخرجه أحمد، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رجاله رجال الصحيح غير حبة العرنبي وقد وثق. وأخرجه أبو عمرو في الإستيعاب ٢، ص ٤٥٨.

وابن قتيبة في «المعارف» ص ٧٤ من طريق أبي داود عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن حبة عنه - عليه السلام - . والإسناد صحيح رجاله ثقات.

5- قال - عليه السلام - أسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين. الرّياض النضرة ٢ ص ١٥٨.

6- قال - عليه السلام - :عبدت الله مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سبع سنين قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة. مستدرک الحاكم ٣ ص ١١٢.

7- قال - عليه السلام - : عن حكيم مولى زاذان قال: سمعت علياً يقول: صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجدو لا نركع، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر، شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨.

8- قال - عليه السلام - : عبدت الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين. الإستيعاب ٢، ص ٤٤٨ . الرياض النضرة ٢، ص ١٥٨ . السيرة الحلبية ١، ص ٢٨٨.

9- قال - عليه السلام - : آمنت قبل الناس سبع سنين. خصائص النسائي ص ٣.

10- قال - عليه السلام - : ما أعرف أحداً من هذه الأمة عبَدَ الله بعد نبينا غيري، عبدتُ الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة تسع سنين. خصائص النسائي ص ٣.

11- من خطبة له - عليه السلام - يوم صَفِين: وابن عمِّ نبيِّكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى طاعة ربِّكم، ويعمل بسنة نبيِّكم - صلى الله عليه وآله وسلم - فلا سواء من صلى قبل كلِّ ذكرٍ لم يسبقني بصلاتي مع رسول الله. كتاب نصر ص ٣٥٥. شرح ابن أبي الحديد ١، ص ٥٠٣.

12- قال - عليه السلام - : اللهم لا أعرف عبداً من هذا الأمة عبدك قبلي غير نبيك [قاله ثلاث مرّات] ثم قال: لقد صلّيت قبل أن يُصلّي الناس. وفي لفظ: قبل أن يُصلّي أحدٌ. أخرجه أحمد، أبويعلی، البرزاز، الطبراني، الهيثمي في المجمع ٩، ص ١٠٢. وقال: إسناده حسنٌ. شيخ الإسلام الجويني في الفرائد الباب ٤٨.

13- من كتاب له - عليه السلام - كتبه إلى معاوية: إنَّ أولى النَّاسِ بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من رسول الله، وأعلمها بالكتاب، وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً. كتاب صفين لابن مزاحم ص ١٦٨ ط مصر.

14- في حديث عنه - عليه السلام - : لا والله إن كنت أول من صدّق به فلا أكون أول من كذب عليه. المحاسن والمساوي ١، ص ٣٦. تاريخ القرماني هامش الكامل لابن الأثير ١، ص ٢١٨.

15- قال - عليه السلام - : بُعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء.

مجمع الزوائد ٩، ص ١٠٢. تاريخ القرماني ١، ص ٢١٥. الصواعق ٧٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي ١١٢. إسعاف الراغبين ١٤٨.

16- من كتاب كتبه - عليه السلام - إلى معاوية: أن محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أول من آمن به؟ وصدق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرمة (أي كاملة) وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا. كتاب صقين لابن مزاحم ص ١٠٠.

17- قال - عليه السلام - : يوم صقين مخاطباً أصحاب معاوية: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه. كتاب نصر ٥٦١.

18- قالت معاذة بنت عبدالله العدوية: سمعت علي بن أبي طالب على منبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: أنا الصديق الأكبر أمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر. راجع الجزء الثاني ص ٣١٤.

19- قال - عليه السلام - : في خطبة خطبها في معسكر صقين: أتعلمون أن الله فضل في كتابه السابق على المسبوق، وأنه لم يسبقني الله ورسوله أحد من الأمة؟! قالوا: نعم. راجع الجزء الأول ص ١٩٥.

20- قال - عليه السلام - : صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاث سنين قبل أن يُصلي مع أحد من الناس. أخرجه أحمد باسنادين.

21- قال - عليه السلام - : يوم الشورى في حديث أسلفناه: أمنكم أحدٌ وخد الله قبلي؟ قالوا: لا. أمنكم أحدٌ صلى القبلتين غيري؟ قالوا: لا. راجع ج ١ ص ١٩٥-١٦٣، وهذه الفقرة من الحديث عدّها ابن أبي الحديد ممّا استفاضت به الروايات.

22- مرّ في الجزء الثاني ص ٢٥ في أبيات له - عليه السلام - كتبها إلى معاوية:

سبقتكم إلى الإسلام طراً * غلاماً ما بلغت أو ان حلمي

23- ذكر ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤل ص ١١ له - عليه السلام - :

أنا أخو المصطفى لا شك في نسبي * به ربيت وسبطاه هما ولدي

صدفته وجميع الناس في بهم * من الضلالة والإشراك والنكد

قال: قال جابر: سمعت علياً يُنشد بهذا ورسول الله يسمع: فتبسّم رسول الله وقال: صدقت يا علي؟

كلمة الإمام السبط الحسن - عليه السلام -

:

24- من خطبة للامام الحسن - عليه السلام - في مجلس معاوية قوله: أنشدكم الله أيها الرّهط! أتعلمون أنّ الذي شتمتموه منذ اليوم صلى القبلتين ككثيرهما؟

وأنت يا معاوية بهما كافرٌ، تراها ضلالة، وتعد اللات والعزى غواية؛ وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه بايع البيعتين ككثيرهما: بيعة الفتح وبيعة الرضوان؟ وأنت يا معاوية بإحداهما كافرٌ، وبأخرى ناكثٌ. وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه أوّل الناس ايماناً؟! وإنّك يا معاوية وأباك من المؤلّفة قلوبهم. شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ١٠١.

25- وفي خطبة له - عليه السلام - مرّت في ج ١، ص ١٩٨: فلما بعث الله محمّد للنبوّة، واختاره للرّسالة، وأنزل عليه كتابه ثمّ أمره بالدعاء إلى الله، فكان أبي أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: «أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه» فجدي الذي على بيّنة من ربه، وأبي الذي يتلوه وهو شاهدٌ منه.

رأي الصحابة والتابعين في أوّل من أسلم

1- أنس بن مالك قال: نُئىء (بُعِث) النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الإثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء. وفي لفظ له: بُعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وصلى علىّ يوم الثلاثاء.

أخرجه الترمذي في جامعه ٢، ص ٢١٤. الطبراني. الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢. ابن عبد البرّ في الإستيعاب ٣ ص ٣٢. ابن الأثير في جامع الأصول كما في تلخيصه تيسير الوصول ٣ ص ٢٧١. الجويني في فرائد السمطين الباب

(365)

47- وأوعز إليه العراقي في التقريب ١، ص ٨٥. ويوجد في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨. تذكرة السبط ٦٣. السراج المنير شرح الجامع الصغير ٢ ص ٤٢٤. شرح المواهب ١ ص ٢٤١.

2- بُريدة الأسلمي قال: أوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وصلى علىّ يوم الثلاثاء. أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢ وصحّحه هو وأقرّه الذهبي.

3- زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله علىّ بن أبي طالب.

تاريخ الطبري بإسنادين صحيحين رجالهما ثقات. مسند أحمد ٤، ص ٣٦٨.

مستدرك الحاكم ٤، ص ٣٣٦ وصحَّحه هو وأقرَّه الذهبي. الكامل لابن الأثير ٢، ص ٢٢.

4- يزيد بن أرقم قال: أوَّل من صلَّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليٌّ.

أخرجه أحمد والطبراني كما في مجمع الهيثمي ٩ ص ١٠٣ وقال: رجال أحمد رجال الصحيحين. أبو عمرو في الإستيعاب ٢، ص ٤٥٩.

5- يزيد بن أرقم قال: أوَّل من آمن بالله بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليٌّ بن أبي طالب. الإستيعاب ٢، ص ٤٥٩.

6- عبدالله بن عباس قال: أوَّل من صلَّى عليٌّ.

جامع الترمذي ٢، ص ٢١٥. تاريخ الطبري ٢، ص ٢٤١ بإسناد صحيح. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

7- عبدالله بن عباس قال: لعليٍّ أربع خصال ليست لأحد: هو أوَّل عربيٍّ وأعجميٍّ صلَّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . مستدرك الحاكم ٣، ص ١١١، الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧.

8- عبدالله بن عباس قال مجاهد: إنَّه قال: أوَّل من ركع مع النبيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عليٌّ بن أبي طالب فنزلت فيه هذه الآية: وأقيموا الصَّلَاة وآتوا الزَّكَاة واركعوا مع الراكعين. تذكرة السبط ٨.

(366)

9- عبدالله بن عباس قال في خطبة له: إنَّ ابن أكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على عليٍّ بن أبي طالب ابن عمِّ رسول الله وصهره وأوَّل ذكر صلَّى معه.

كتاب صفين لابن مزاحم ٣٦٠. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٥٠٤. جمهرة الخطب ١ ص ١٧٥.

10- عبدالله بن عباس قال: فرض الله تعالى الإستغفار لعلي في القرآن على كلِّ مسلم بقوله تعالى: «رَبَّنَا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان». فكلُّ من أسلم بعد عليٍّ فهو يستغفر لعليٍّ. شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٦.

11- عبدالله بن عباس قال: أوَّل من أسلم عليٌّ بن أبي طالب.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢.

12- عبدالله بن عباس قال: كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة رضي الله عنهما.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧ وقال: قال أبو عمرو رضي الله عنه: هذا إسنادٌ لامطعن فيه لأحد لصحّته وثقة نقلته. وصحّحه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢.

13- كان ابن عباس بمكّة يُحدّث على شفير زمزم ونحن عنده فلما قضى حديثه قام إليه رجلٌ فقال: يا ابن عباس؟ إني امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنهم يتبرّون من عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه. فقال: بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً. ألبعد قرابته من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -؟ وإنه لم يكن أوّل ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله؟ وأوّل من صلّى وركع وعمل بأعمال البرّ؟ قال الشامي: إنهم والله ما يُنكرون قرابته وسابقتها غير أنّهم يزعمون أنّه قتل الناس. الحديث. المحاسن والمساوىء للبيهقي ١، ص ٣٠.

14- عفيف قال: جئت في الجاهليّة إلى مكّة وأنا أريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبدالمطلب وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالسٌ

(367)

حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شابٌ فرمى ببصره إلى السماء ثمّ قام مستقبلاً الكعبة ثمّ لم البث إلا يسيراً حتّى جاء غلامٌ فقام على يمينه، ثمّ لم يلبث إلا يسيراً حتّى جاءت امرأةٌ فقامت خلفهما، فرجع الشابٌ فرجع الغلام والمرأة، فرجع الشابٌ فرجع الغلام والمرأة، فسجد الشابٌ فسجد الغلام والمرأة فقلت: يا عباس؟ أمرٌ عظيمٌ. قال العباس: أمرٌ عظيمٌ، أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا. قال: هذا محمّد بن عبدالله ابن أخي. أتدري من هذا الغلام؟ هذا عليّ ابن أخي. أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، إنّ ابن أخي هذا أخبرني أنّ ربّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، والله ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

خصائص النسائي ٣. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١. الرّياض النضرة ٢ ص ١٥٨. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩. عيون الأثر ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

15- سلمان الفارسي قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ وقال: رجاله ثقاتٌ. وعدّ الإسكافي في رسالته على العثمانيّة. وأبو عمرو في الإستيعاب. والعراقى في شرح التقرّيب ١ ص ٨٥. والقسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥ ممّن روى أنّ عليّاً أوّل من أسلم.

16- أبو رافع قال: صَلَّى النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أوَّل يوم الاثنين وصَلَّت خديجةُ آخره وصَلَّى عليَّ يوم الثلاثاء من الغد

أخرجه الطبراني كما في شرح المواهب ١ ص ٢٤٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢.

وتجده وسابقه في الرِّياض النضرة ٢ ص ١٥٨. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

17- أبو رافع قال: مكثَ عليٌّ يصَلِّي مستخفياً سبع سنين وأشهرًا قبل أن يصَلِّي أحدًا. أخرجه الطبراني. الهيثمي في المجمع ٩ ص

١٠٣. الجويني في

(368)

الفرائد ب ٤٧.

18- أبوذر الغفاري، عدَّ ممَّن روى أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. التقريب وشرحه ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

19- خباب بن الأرت قال: رايت عليًّا يُصَلِّي قبل الناس مع النبيِّ وهو يومئذ بالغٌ مستحکم البلوغ. رسالة الإسكافي. وعدَّ ممَّن روى

أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والمواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

20- المقداد بن عمرو الكندي، ممَّن روى أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم كما في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والتقريب وشرحه ١ ص ٨٥.

والمواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

21- جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: بُعث النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وصَلَّى عليَّ يوم الثلاثاء. الطبري ٢

ص ٢١١. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨، وعدَّ أبو عمرو والعراقيُّ والقسطلاني ممَّن روى أنَّ

عليًّا أوَّل من أسلم.

22- أبو سعيد الخدري روى أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. شرح التقريب ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

23- حذيفة بن اليمان قال: كنا نعبد الحجاره ونشرب الخمر وعلئ من أبناء أربع عشر سنة قائمٌ يصلي مع النبي ليلا ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما يذبُّ عنه إلا عليّ. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

24- عمر بن الخطاب قال عبدالله بن عباس: سمعت عمرو عنده جماعةً فنذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر: أما علي فسمعت رسول الله: يقول فيه ثلاث خصال، لو ددت أن تكون لي واحدة منهن، كانت أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من أصحابه إذ ضرب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على منكب علي رضي الله عنه فقال له: يا علي؟ أنت أوّل

(369)

المؤمنين إيماناً، وأوّل المسلمين إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى.

رسالة الإسكافي. مناقب الخوارزمي. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

25- عبدالله بن مسعود قال: أوّل حديث علمته من أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أني قدمت مكة مع عمومة لي (وذكر مثل حديث عفيف المذكور ص ٢٢٦) رسالة الإسكافي.

26- أبو أيوب الأنصاري، أخرج الطبراني عنه أنه قال: أوّل الناس إسلاماً عليّ بن أبي طالب. شرح التقريب ١ ص ٨٥. شرح الزرقاني ١ ص ٢٤٢.

27- أبو مرزم يعلى بن مرّة، عدّه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممن قال: إنّ عليّاً أوّل الناس إسلاماً.

28- هاشم بن عتبة المرقال قال: أنت يا أمير المؤمنين! أقرب الناس من رسول الله رحماً، وأفضل الناس سابقه وقدماً. كتاب نصر ١٢٥. جمهرة الخطب ١ ص ١٥١.

29- في كلام لهاشم بن عتبة يوم صفين: إنّ صاحبنا هو أوّل من صلى مع رسول الله، وأفقهه في دين الله، وأولاه برسول الله.

كتاب نصر ٤٠٣. تاريخ الطبري ٦ ص ٢٤. الكامل لابن الأثير ٣ ص ١٣٥. وقال هاشم يوم صفين:

مع ابن عمّ أحمد المعلى * فيه الرسول بالهدى استهلا

أوّل من صدّقه وصلى * فجاهد الكفار حتّى أبلى⁽¹⁾

30-مالك بن الحارث الأشر قال في خطبة له: معنا ابن عم نبيّنا وسيف من سيوف الله على بن ابي طالب، صلى مع رسول الله لم يسبقه إلى الصلاة ذكر، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه في دين الله، عالم بحدود الله.

كتاب نصر ٢٦٨. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٨٤. جمهرة الخطب ١

- [كتاب صفين لابن مزاحم: ٣٧١ ط مصر.

(370)

ص ١٨٣.

31-عدي بن حاتم قال في خطبة له مخاطباً معاوية: ندعوك إلى أفضل الأمة سابقة، وأحسنها في الإسلام آثاراً.

كتاب نصر ٢٢١. تاريخ الطبري ٦ ص ٢. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٣٤٤. وفي لفظ ابن الأثير في الكامل ٣ ص ١٢٤: إن ابن عمك سيد المسلمين أفضلها سابقاً.

32- عدي بن حاتم قال في خطبة أخرى له: إن كان له «لعلّي» عليكم فضلاً فليس لكم مثله فسلموا وإلا فنازعوا عليه، والله لئن كان إلى العلم بالكتاب والسنة؟ أنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام؟ إنّه لأخو نبي الله والرأس في الإسلام. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣.

33-محمد بن الحنفية قال سالم بن ابي الجعد قلت له: أبوبكر كان أولهم إسلاماً؟ قال: لا. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٨. إذا ثبت أن أبابكر لم يكن أول الناس إسلاماً فعليّ - عليه السلام - هو المتعین سبق إسلامه.

34- طارق بن شهاب الأحمسي في كلام له: ثم قلت: ادع عليّاً وهو أول المؤمنين إيماناً بالله وابن عم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ووصيّه، هذا أعظم، الحديث. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٧٦.

35-عبدالله بن هاشم المرقال قال في خطبة له: يا أيها الناس! إن هاشماً جاهد في طاعة ابن عم رسول الله، وأول من آمن به؛ وأفقههم في دين الله. كتاب نصر ٤٠٥.

36-عبدالله بن حجل قال: يا أمير المؤمنين! أنت أولنا إيماناً، وآخرنا بنبي الله عهداً. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣، كتاب نصر.

37- أبو عمرة بشير بن محسن قال في جمع من أصحاب علي ومعاوية: إنَّ صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله. كتاب نصر ٢١٠.

38- عبدالله بن خباب بن الارت قال ابن قتيبة: إنَّ الخارجة التي خرجت

(371)

على عليّ بينما هم يسبرون فإذا هم برجل يسوق امرأته على حمار له فعبروا إليه الفرات فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا رجلٌ مؤمنٌ، قالوا: فما تقول في عليّ بن أبي طالب؟ قال: أقول: إنَّه أمير المؤمنين وأوّل المسلمين ايماناً بالله ورسوله. قالوا: فما اسمك؟ قال: وأنا عبدالله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . الإمامة والسياسة ١ ص ١٢٢ .

39- عبدالله بن بُريدة قال: أوّل الرجال إسلاماً عليُّ بن أبي طالب ثمّ الرهط الثلاث: أبوذر وبُرَيْدة وابن عمّ لأبي ذرّ. أخرجه محمّد بن إسحق المدني في الجزء الأوّل من المغازي.

40- محمّد بن أبي بكر كتب إلى معاوية كتاباً منه: فكان أوّل من أجاب وأنا، وصدّق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه عليُّ بن أبي طالب - إلى أن قال - : أوّل الناس إسلاماً، وصدق الناس نيّة - إلى قوله - بالك الويل! تعدل نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ووصيّه وابو ولده، وأوّل الناس له أتباعاً، وآخرهم، به عهداً، يُخبره بسره، ويشركه في أمره. نصر في كتاب صفين ١٣٣ .

41- عمرو بن الحمق قال لعليّ: أحببتك لخصال خمس: أنّك ابن عمّ رسول الله، وأوّل من آمن به. وفي لفظ: وأسبق الناس إلى الإسلام، أبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد.

كتاب صفين ١١٥ . جمهرة الخطب ١ ص ١٤٩ .

42- سعيد بن قيس الهمداني يرتجز في صفين بقوله: (1)

هذا عليّ وابن عمّ المصطفى * أوّل من أجابه ممّن دعا

هذا الإمام لا يُبالي من غوى

43- عبدالله بن أبي سفيان قال مجيباً الوليد (2)

وإنّ وليّ الأمر بعد محمّد * عليّ و في كلّ المواطن صاحبه

- 1 شرح النهج لابن ابي الحديد: ج ١٣ ص ٢٣٢ وفيه «أول من أجابه فيما روى. »
- 2 رسالة الإسكافي، وذكرهما الحافظ الكنجي في الكفاية ص ٤٨ للفضل بن العباس.

(372)

وصيُّ رسول الله حقاً وصنوه * وأول من صلى ومن لان جانبه

44- خزيمة بن ثابت الأنصاري عدّه العراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥، والزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال

بأنّ عليّاً أول الناس إسلاماً.

وقال: أنشد المرزبان له في عليّ:

أليس أول من صلى لقبيلتكم * وأعلم الناس بالقران والسنن؟؟

وذكر له الإسكافي في رسالته كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩:

وصيُّ رسول الله من دون أهله * وفارسه مذكان في سالف الزمّ

وأول من صلى من الناس كلّهم * سوى خيرة النسوان والله ذو المنن

وذكرهما له الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٤، وذكر قبلهما:

إذا نحن بابعنا عليّاً فحسبنا * أبو حسن ممّا نخاف من الفتن

وجدناه أولى الناس بالناس أنّه * أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن⁽¹⁾

45- كعب بن زهير، ذكر الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢. من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين - عليه السلام - :

إنّ عليّاً لميمون نقيته * بالصالحات من الأفعال مشهور

صهر النبي وخير الناس كلّهم * فكلّ من رامه بالفخر مفخور

صلى الصلاة مع الأمي أولهم * قبل العباد وربّ الناس مكفور⁽²⁾

46- ربّيع بن الحارث بن عبدالمطلب، ذكر جمع من الأعلام له أبيات وذكرها آخرون لغيره وهي:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف * عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبيلتهم؟! * وأعلم الناس بالآيات والسنن؟!!

وآخر الناس عهداً بالنبوي؟ * ومن جبريل عون له في الغسل والكفن؟

- 1 ولهذه الايات بقية توجد في الفصول المختارة ٢ ص ٦٧ .
- 2 في النسخة تصحيف ذكرناها صحيحة.

(373)

من فيه ما فيهم ما تمترون به؟! * وليس في القوم ما فيه من الحسن

ماذا الذي ردكم عنه؟! فنعلمه * ها إن بيعتكم من أول الفتن

وذكر الإسكافي في رسالته البيتين الأولين منها ونسبهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس حين بويع أبوبكر. شرح
ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩.

47-الفضل بن أبي لهب قال ردأ على قصيدة الوليد بن عقبة:

ألا إن خير الناس بعد محمد * مهيمنه التاليه في العرف والنكر

وخيرته في خبير ورسوله * بنذ عهود الشرك فوق أبي بكر

وأول من صلى صنو نبيّه * وأول من أردى الغواة لدى بدر

فذاك على الخير من ذا يفوقه؟! * أبو حسن حلف القرابة والصهر

48-مالك بن عبادة الغافي حليف حمزة بن عبدالمطلب قال:

رأيت علياً لا يلبث قرنه * إذا ما دعاه حاسراً أو مسربلا

فهذا وفي الإسلام أول مسلم * وأول من صلى وصام وهللا

49-أبو الأسود الدؤلي يهذ طلحة والزبير بقوله:

وإن علياً لكم مصحراً * يماثله الأسد الأسود

أما أَنَّهُ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * بِمَكَّةَ وَاللَّهِ لَا يُعْبَدُ⁽¹⁾

50- جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله:

هَذَا عَلِيٌّ وَالْهَدَى حَقًّا مَعَهُ * يَا رَبِّ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَضَيِّعْهُ

فإِنَّهُ يَخْشَاكَ رَبِّي فَارْفَعَهُ * نَحْنُ نَصْرُنَاهُ عَلِيٌّ مَنْ نَازَعَهُ

صَهْرَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى قَدْ طَاوَعَهُ * أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ وَتَابَعَهُ⁽²⁾

51- زفر بن يزيد⁽³⁾ بن حذيفة الأسدي قال:

فحَاطُوا عَلِيًّا فَنَصَرُوهُ فَإِنَّهُ * وَصِيٌّ وَفِي الْإِسْلَامِ أَوَّلُ أَوَّلٍ

- 1 رسالة الاسكافي كما شرح ابن ابي الحديد: ٢ ص ٢٥٩.

- 2 كتاب نصر بن مزاحم: ٤٥٣.

- 3 في بعض المصادر: زفير بن زيد.

(374)

وإن تَخْذَلُوهُ وَالْحَوَادِثُ جَمَّةٌ * فَلَيْسَ لَكُمْ عَنْ أَرْضِكُمْ مَتَحَوَّلٌ⁽¹⁾

52- النجاشي بن الحارث بن كعب قال:

فَقُلْ لِلْمُضَلَّلِ مِنْ وَاثِلٍ * وَمَنْ جَعَلَ الْغَنَى يَوْمًا سَمِينًا

جَعَلْتَ ابْنَ هِنْدٍ وَأَشْيَاعَهُ * نَظِيرَ عَلِيٍّ أَمَا تَسْتَحُونَا؟!

إِلَى أَوَّلِ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ * أَجَابَ النَّبِيَّ مِنَ الْعَالَمِينَا

وَصَهْرَ الرَّسُولِ وَمَنْ مِثْلَهُ * إِذَا كَانَ يَوْمَ يَشْتِيبُ الْقُرُونَا؟!⁽²⁾

53- جرير بن عبدالله البجلي قال:

فَصَلَّى إِلَهَهُ عَلَى أَحْمَدٍ * رَسُولَ الْمَلِكِ تَمَامَ النِّعَمِ

وَصَلَّى عَلَى الطَّهْرِ مِنْ بَعْدِهِ * خَلِيفَتَنَا الْقَائِمَ الْمَدْعَمِ

علياً عنيت وصيَّ النبي * يجالد عنه غواة الأمم

له الفضل والسبق والمكرما * ت وبيت النبوة لا المهتمضم

54-عبدالله بن حكيم التميمي قال:

دعانا الزبير إلى بيعة * وطلحة من بعد أن أثقلا

فقلنا: صفقنا بايماننا * فإن شئتما فخذوا الأشملا

نكتنم علياً على بيعة * وإسلامه فيكم أولاً

55-عبدالرحمن بن حنبل [جعل] [الجمحي حليف بني الجمح قال:

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة * على الدين معروف العفاف موقفاً

عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجداً * صدوقاً وللجبار قدماً مصدقاً

أبا حسن فارضوا به وتبايعوا * فليس كمن فيه يرى العيب منطفاً

عليٌ وصيُّ المصطفى ووزيره * وأول من صلى لذي العرش وأتقى⁽³⁾

56-أبو عمرو عامر الشعبي الكوفي قال: أول من أسلم من الرجال عليُّ بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين. رسالة الإسكافي كما

في شرح ابن أبي

- [رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد: ٣ ص ٢٥٩.

- 2كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ٦٦.

- 3كفاية الطالب الحافظ الكنجي: ٤٨.

57-أبو سعيد الحسن البصري قال: عليُّ أول من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد عن عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عنه. ورواه

الإسكافي في رسالته عن عبدالرزاق كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

وقال الحجاج للحسن وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب: ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول؟ هو: أول من صلى إلى القبلة، وأجاب دعوة رسول الله. وإنّ لعلّي منزلة من ربّه وقربة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردها أحدٌ. فغضب الحجاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت.

وقال رجل للحسن: مالنا لا نراك تثني على عليّ وتقرّظه؟ قال كيف؟! وسيف الحجاج يقطر دماً، أنّه أول من أسلم، وحسبكم بذلك. رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

58- الإمام محمّد بن عليّ الباقر قال: أول من آمن بالله عليّ بن أبي طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

59- قتادة بن دعامة الأكمة البصري قال: عليّ أول من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد كما سمعت، والقسطلاني عدّه ممّن قال به في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢.

60- محمّد بن مسلم المعروف بابن شهاب⁽¹⁾ عدّه القسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢ من الفاتلين بأنّ عليّاً أول من أسلم.

61- أبو عبدالله محمّد بن المكندر المدني قال: عليّ أول من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

62- أبو حازم سلمة بن دينار المدني قال: عليّ أول من أسلم. تاريخ الطبري ١ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

- [نسبة إلى جد جده.

(376)

63- أبو عثمان ربيعة بن أبي عبدالرحمن المدني قال: عليّ أول من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

64- أبو النضر محمّد بن السائب الكلبي قال: عليّ أول من أسلم، أسلم وهو ابن تسع سنين. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

65- محمّد بن اسحاق قال: كان أول ذكر آمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصلى معه وصدقّه بما جاءه من عند الله عليّ بن أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين⁽¹⁾ وكان ممّا أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب أنّه كان في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل الإسلام.

وقال: وذكر بعض أهل العلم أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه عليّ بن ابي طالب، مستخفياً من عمّه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا، ثمّ إنّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان فقال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :يا بن أخي ما هذا الدين؟ الحديث.

تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. سيرة ابن هشام ١ ص ٢٦٤، ٢٦٥. سيرة ابن سيّد الناس ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٤ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠. السيرة الحليّة ١ ص ٢٨٧.

66-جُنَيْد بن عبد الرحمن قال: أتيت من حوران إلى دمشق لأخذ عطائي فصليت الجمعة ثمّ خرجت من باب الدرج فإذا عليه شيخٌ يقال له: ابو شيبه القاصّ يقصّ على الناس، فرغّب فرغبنا، وخوّف فبكيننا، فلمّا انقضى حديثه قال: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب. فلعنوا أبا تراب - عليه السلام - فالتفت إليّ من على يميني فقلت له: فمن أبو تراب؟ فقال: عليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله، وزوج إبنته، وأولّ الناس إسلاماً، وأبو الحسن والحسين. فقلت: ما أصاب هذا القاصّ؟! فقلت إليه وكان ذا وفرة فأخذت وفرته بيدي وجعلت أطم وجهه

- [في الكامل لابن الأثير: ٢ ص ٣٢. احدى عشرة سنة. نقلا عن ابن اسحاق.

(377)

وأبطح براسه الحائط، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا رداي في رقبتي وساقوني حتّى دخلوني على هشام بن عبد الملك وابو شيبه يقدمني فصاح يا أمير المؤمنين؟ قاصّك وقاصّ آبائك وأجدادك أتى إليه اليوم أمرٌ عظيمٌ. قال: من فعل لك؟ فقال: هذا. فالتفت إليّ هشام وعنده أشراف الناس فقال: يا أبا يحيى؟ متى قدمت؟ فقلت: أمس وأنا على المصير إلى أمير المؤمنين فادركتني صلاة الجمعة فصليت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائمٌ يقصّ فجلست إليه فقرأ فسمعنا، فرغّب من رغّب، وخوّف من خوّف؛ ودعا فأمننا، وقال في آخر كلامه: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب، فسالت من أبو تراب؟

فقيل: عليّ بن ابي طالب، أولّ الناس إسلاماً، وابن عم رسول الله، وأبو الحسن والحسين، وزوج بنت رسول الله. فوالله يا أمير المؤمنين؟ لوذكر هذا قرابة لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحلت به الذي أحلت، فكيف لا أغضب لصهر رسول الله وزوج إبنته؟! فقال هشام: بنس ما صنع. تاريخ ابن عساكر ٣ ص ٤٠٧.

هذه جملةٌ من النصوص النبويَّة، والكلم المأثورة عن أمير المؤمنين والصحابة والتابعين في أنَّ علياً أوَّل مَنْ أسلم: وهي تريبو على مائة كلمة، أضف إليها ما مرَّ ج ٢ ص ٢٧٦ من أنَّ أمير المؤمنين سبق هذه الأُمَّة. واشفع الجميع بما أسلفناه ج ٢ ص ٣٠٦ من أنَّه صلوات الله عليه صديق هذه الأُمَّة، وهو الصديق الأكبر.

فهل تجد عندئذ مساعداً لمكابرة ابن كثير تجاه هذه الحقيقة الراهنة وقوله: وقد ورد في أنَّه أوَّل من أسلم. إلخ؟!؟! فإذا لا يصحُّ مثل هذه فما الذي يصحُّ؟ وإن كان لا يصحُّ شيء منها فما قيمة تلك الكتب المشحونة بها؟! كلا، إنَّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيّف هذه الكلم والنصوص الكثيرة الصحيحة بحكم الحقاظ الأثبات بكلمة واحدة قارصة، ويعتمد في إثبات أيِّ أمر يروقه في تاريخه على المراسيل والمقاطع والأحاد، ونقل المجاهيل وأفناء الناس.⁽¹⁾

- [الغدِير: ج ٣ ص ٢١٩ - ٢٣٩.

(378)

مناظرة بين المأمون وإسحاق:

ولقد دار بين المأمون العباسي وإسحاق وهو من العلماء المشهورين حوار طريف في هذا المجال ينقله ابن عبد ربّه في كتابه «العقد الفريد» نذكر هنا خلاصته:

قال المأمون: يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

ابن إسحاق: الإخلاص بالشهادة.

المأمون: أليس سبق إلى الإسلام؟

ابن إسحاق: نعم.

المأمون: اقرأ ذلك في كتاب الله يقول: «والسابقون السابقون أولئك المقربون» إنَّما عُني من سبق إلى الإسلام، فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟

ابن إسحاق: إنَّ علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمون بزمام الكلام وقال:

أخبرني عن إسلام عليّ حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من الله؟

قال إسحاق: بل دعاه رسول الله إلى الإسلام.

قال المأمون: يا إسحاق هل يخلو رسول الله حين دعاه إلى الإسلام من ان يكون دعاه بأمر من الله أو تكلف ذلك من نفسه؟

ثم قال: يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى تكلف فإن الله يقول: «وما أنا من المتكافئين.»

فإذا دعاه بأمر الله وليس من صفة الجبار - جلّ ذكره - أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم، أفتراه في قياس قولك يا إسحاق؟ أن علياً أسلم صبياً لا يجوز عليه الحكم قد تكلف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من دعاء

(379)

الصبيان ما لا يطيقون. (1)

وعلى هذا الأساس يجب اعتبار إيمان علي - عليه السلام - إيماناً صحيحاً ثابتاً لم يقل عن إيمان الآخرين أهميةً وقيمةً بل هو أفضل مصداق لقوله تعالى:

(والسابقون السابقون أولئك المقربون)، هو الإمام علي بن أبي طالب.

قضية «انقطاع الوحي»:

لقد أضاءت روح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ونفسه الشريفة واستنارت بنور الوحي، ودفعه ذلك إلى التأمل والتفكير في الوظيفة الكبرى والثقيلة التي جعلها الله على كاهله، وخاصة عندما خاطبه الله تعالى بقوله:

(يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. (2))

وهنا طرح المؤرخون وبخاصة الطبري الذي لا يخلو تاريخه من الاساطير الاسرائيلية قضية باسم «انقطاع الوحي» فقالوا: إن رسول الله بعد أن رأى ذلك الملك وسمع منه الآيات الأولى من القرآن الكريم بقي ينتظر نزول خطاب آخر من جانب الله تعالى، ولكن دون جدوى، فهو لم ير ذلك الملك الجميل بعد ذلك، ولا أنه سمع النداء الغيبي مرة أخرى على غرار ما رأى وسمع في بدء نزول الوحي.

ولو كان لأنقطاع الوحي في بداية عهد الرسالة (الذي ادّعاه هؤلاء) حقيقة فما هو سوى النزول التدريجي للقرآن ليس إلا.

وقد تعلقت المشيئة الالهية اساساً بأن ينزل الوحي على رسول الله تدريجاً، لا دفعةً واحدةً وذلك لمصالح معينة، وحيث أن الأمر في بدء الوحي كان على أوله وفي بدايته، لذلك لم ينزل الوحي الالهي بعد المرة الأولى فوراً، ولكن حُمِلَ هذا على «انقطاع الوحي» ولم يكن لا انقطاع الوحي ولا أية مسألة أخرى من

- [العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٥٢ طبعة بيروت دار الكتب العلمية و ج ٥ ص ٩٤ طبعة لجنة التأليف القاهرة.
- 2 المدثر ١ - ٣.

(380)

هذا القبيل.

وحيث أن هذه المسألة قد تذرّع بها الكتابُ المغرضون لذلك ينبغي أن نعطيها بعض الاهتمام ليتضح أن ما ادّعى من انقطاع الوحي، قضية فارغة عن الحقيقة ولذلك لا صحة لتطبيق الآيات القرآنية عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نصّ ما كتبه الطبري ونقله في تاريخه، ثم نعد بعد ذلك إلى نقده.

يكتب الطبري في هذا الصدد قائلاً لما أبطأ جبرئيل على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وجزع جزعاً شديداً قالت له خديجة: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فانزل الله عزوجلّ قوله: **وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى. وَللآخِرَةِ خَيْرٌ لكَ مِنَ الْأُولَى. وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَ وَجَدَكَ عَانِلًا فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.** (1)

ولقد أوجد نزولُ هذه الآيات سروراً عظيماً لدى خديجة - عليها السلام - ، وعلمت بأن ما قالته حول رسول الله لا أساس له من الصحة. (2)

أسطورة وليس تاريخاً!

إنّ ذاكرة التاريخ تحفظ وتتذكر جيّداً تاريخ حياة السيدة خديجة.

إن خديجة التي كانت أخلاق محمّد الفاضلة وخصاله المجيدة، وافعاله الحميدة ماثلة امام عينيها والتي كانت تؤمن بعدل ربّها كيف يجوز ان تسيء الظن بالله تعالى وبنبيه الكريم، العظيم الشأن؟

إنّ مقام النبوة ومنصب الرسالة، والسفارة الالهية لا يُعطى إلا لمن يملك طائفةً من الصفات النبيلة والخصال الرفيعة، وما لم يتصف شخصُ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الصفات العليا، وما لم تتوفر فيه مثل هذه الشرائط الخاصة

(381)

والمواصفات المعينة لم يُمنح له ذلك المنصب قط. وتقع العصمة والسكينة القلبية، والاعتماد والتوكل في طبيعة هذه الخصال والمواصفات، ومع هذه الأوصاف والخصال يستحيل أن يدور في خذه مثل تلك التصورات الخاطئة.

ولقد قال العلماء: إنَّ المسيرة التكاملية عند الانبياء تبدأ من فترة الطفولة والصباء، فإن العشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحدة تلو الأخرى منذ ذلك الوقت، ويستمر ذلك حتى تصل الاحاطة العلمية لديهم حدَّ الكمال فلا يشكّون في شيء يروونه أو يسمعونه أبداً، ومن حاز هذه المراتب لا يمكن أن يتطرق الشك والحيرة والتردد إلى قلبه وعقله مطلقاً.

إنَّ آيات سورة «الضحى» وخاصة عبارة «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى» تفيد فقط بأن هناك من قال مثل هذه العبارة للنبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأما مَنْ هو قائلها؟ وكم تركت هذه العبارة من تأثير في نفسية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وروحانيته فهي ساكنة عن كل ذلك؟

وذهب بعضُ المفسرين إلى أن قائلها هم بعضُ المشركين، ولهذا الاحتمال لا تكون جميع الآيات مرتبطة ببدء الوحي، لأنه لا أحد غير «علي» و «خديجة» كان يعرف في بدء البعثة بنزول الوحي، ليتسنى له أن يعترض على رسول الله، ويعيره بانقطاعه عنه بعد ذلك، فإن أمر المبعث والرسالة - كما سنقول ذلك فيما بعد - بقي خافياً على أكثر المشركين لمدة ثلاثة اعوام تماماً، فهو لم يكن مكلفاً بابلاغ رسالته إلى عامة الناس، إلى أن نزل قوله تعالى: «فاصدغ بما تؤمر» الذي أمره الله فيه بالجهر بأمر رسالته لعامة الناس بلا استثناء.

إختلاف المؤرخين في مسألة «انقطاع الوحي»:

لم يرد في القرآن الكريم أي ذكر مطلقاً لمسألة (انقطاع الوحي) بل لم ترد به إشارة أيضاً، إنما نلاحظها في كتب السيرة والتفسير فقط، ويختلف كُتّاب السيرة والمؤرخون في علة (انقطاع الوحي) هذا، ومدته اختلافاً كبيراً يجعلنا لا نعتد على أي واحد منها، وها نحن نشير إليها بشكل ما:

(382)

- [ان اليهود سألوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن اصحاب الكهف، وعن الروح، وعن قصة ذي القرنين فقال عليه

الصلاة والسلام: سأخبركم غداً، ولم يستثن، فاحتبس عنه الوحي. (1)

بناء على هذا لا يمكن ان نربط هذه المسألة ببدء الوحي ومطلع عهد الرسالة لان اتصال علماء اليهود واحبارهم مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق قريش وسؤالهم اياه حول هذه الأمور الثلاثة، وقع في حدود السنة السابعة من البعثة يوم توجه وفد من قريش إلى المدينة ليسألوا علماء اليهود عن صحة ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فاقترح اليهود عليهم ان يسألوا النبي عن تلك الأمور الثلاثة. (2)

2- قالت خولة وهي امرأة كانت تخدم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن جرّواً دخل البيت فدخلت تحت السرير فماتت، فمكثت نبي الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أياماً لا ينزل عليه الوحي، فلمّا خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من البيت كنست خولة تحت السرير فاذا جرّوٌ ميّت فأخذته وقتته خلف الجدار فأنزّل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبرئيل سأله النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن التأخر فقال: **أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.** (3)

3- إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم»؟ (4) فنزل جبرئيل بهذه السورة.

4- اهدى عثمان إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عنقود عنب وقيل عنق تمر فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقده إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - ثانياً ثم عاد السائل فأعطاه وهكذا ثلاث مرات فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - :ملاطفاً لا غضبان: أسألك أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخر الوحي أياماً فاستوحش فنزلت

- 1روح المعاني: ج ٣٠، ص ١٥٧، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣١٠ و ٣١١.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٠٠ و ٣٠١.
- 3تفسير القرطبي: ج ١٠، ص ٨٣ و ٧١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٩.
- 4نفس المصدر.

السورة. (1)

5- إن جرّواً لأحد نساء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو أحد أقربائه حال دون نزول الوحي عليه. (2)

6- إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سأل جبرئيل عن تأخر الوحي قال جبرئيل، لا املك من نفسي شيئاً إنّما أنا عبدٌ مأمورٌ. (3)

ثم ان هناك أقوالاً أخرى يمكن الحصول عليها من مراجعة التفاسير. (4)

ولكن الطيرى نَقَلَ وجهاً آخر تمسك به المغرضون والمرضى من الكتاب واعتبروه دليلاً على طرود الشك على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو أنّ الوحي انقطع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد حادثة (حراء) فقالت خديجة للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما أرى ربك إلا قد فلاك!!

فنزل الوحي يقول:

(**ما ودّعك ربك وما قلى.**)⁽⁵⁾

ومما يدل على أهداف هذا النوع من الكتاب، المريضة، أو عدم تتبّعهم واستقصائهم، أنهم تمسكوا من بين جميع الأقوال بهذا الاحتمال، واستندوا إليه للحكم على شخصية كرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي لم ير في حياته أي أثر للشك والحيرة مطلقاً.

وإننا مع ملاحظة النقاط التالية يمكننا أن نقف على بطلان هذا الاحتمال وتفاهته:

- [لقد كانت السيدة خديجة من النساء اللواتي أحبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حباً صادقاً وعميقاً، فهي التي وفّت لزوجها حتى النفس الأخير،

-
- [تفسير روح المعاني: ج ٣٠، ص ١٥٧.
 - 2 غرائب القرآن في هامش تفسير الطبري: ج ٣٠، ص ١٠٨.
 - 3 تفسير ابو الفتوح الرازي: ج ١٢، ص ١٠٨.
 - 4 مجمع البيان: ج ١٠، تفسير سورة الضحى.
 - 5 تفسير الطبري: ج ٣٠، ص ١٤٨.

(384)

ووقفت ثروتها الطائلة لتحقيق أهدافه، وكانت في عام البعثة قد قضيت خمسة عشر عاماً من حياتها الزوجية، ولم تر خديجة طوال هذه الفترة من زوجها إلا التقوى والطهر ولم تلمس منه إلا كرم الصفات ونبيل الاخلاق فقد كانت من المصدقين له - صلى الله عليه وآله وسلم - من أول يوم وكانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه وعشرتها اياه - صلى الله عليه وآله وسلم - فكيف تتكلم مثل هذه المرأة المؤمنة الوفية، مع زوجها بغليظ القول، وتوجه له مثل هذه الكلمة غير المهذّبة، بل والجارحة؟؟!

-2[إن آية: «ما ودّعك ربك وما قلى» لا تدل على أن «خديجة» قالت مثل هذا الكلام لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بل غاية ما تفيد هذه الآية هي أنّ مثل هذا الكلام قد وُجّه إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأما من هو القائل، ولماذا قال هذا الكلام؟ فليس ذلك معلوماً.

3- إن ناقل هذه الرواية يصف «خديجة» تارة بأنها طمأنت النبيّ، وسكّنت من روعه إلى درجة أنها منعتة عن الإنتحار، ولكنه يصفها تارة أخرى بأنها قالت له: بأن الله عاداه وقلأه، ألا ينبغي هنا أن نقول: «كن ذكوراً ثم أكذب»؟!«

4- إذا كان الوحي قد انقطع بعد حادثة جبل (حراء) ونزول بضع آيات من سورة «العلق» إلى أن نزلت سورة «الضحى»، يتوجب - في هذه الصورة - ان تكون سورة «الضحى» ثاني سورة من حيث الترتيب التاريخي لنزول السور في حين أنّ تاريخ نزول الآيات و السور القرآنية يفيد أنها السورة الحادية عشرة من سور القرآن الكريم. لأن فهرس السور القرآنية حسب نزولها هو كالتالي:

1-العلق.

2-القلم.

3- المزمّل.

4- المدثر.

5- تَبَّتْ (المسند).

(385)

6- التكوير.

7- الاعلى.

8- الانشراح.

9- والعصر.

10- والفجر.

11- والضحى. (1)

نعم إنفرد اليعقوبي من بين المؤلفين باعتبار سورة الضحى - في تاريخه (2) - السورة الثالثة من حيث تاريخ النزول، وحتّى هذا الرأي لا ينسجم مع القصة المذكورة (انقطاع الوحي).

الإختلاف في مدة انقطاع الوحي:

لقد تعرّض تحديد مدة انقطاع الوحي بشكله المزعوم لإبهام كبير، فقد ذكر ذلك بصور مختلفة في التفاسير والأقوال التالية هي:

4-أيام.

12-يوماً.

15-يوماً.

19-يوماً.

25-يوماً.

40-يوماً.

ولكن بعد دراسة فلسفة النزول التدريجي للقرآن الكريم سنرى أنّ انقطاع الوحي وتوقفه لم يكن حدثاً إستثنائياً، لأنّ القرآن الكريم أعلن منذ أول يوم أن المشيئة الإلهية تعلّقت بأن ينزل القرآن بصورة تدريجية، منجّمة إذ يقول تعالى:

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ مَثَلٍ (3))

-
- 1 تاريخ القرآن للزنجاني: ص ٥٨.
- 2 تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٣.
- 3 الاسراء: ١٠٦.

(386)

ويكشف القرآن النقاب - في موضع آخر - عن سرّ نزول القرآن تدريجاً إذ قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً. (1))

ومع ملاحظة طريقة نزول الآيات والسور القرآنية هذه يجب أن لا يُتوقع نزول الآيات كل يوم وكلّ ساعة، وأن ينزل جبرئيل على النبيّ على الدوام، ويأتي إليه بالآيات دون انقطاع، بل إنّ الآيات القرآنية كانت تنزل على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في فواصل زمنية مختلفة وفقاً للاحتياجات، وبحسب الأسئلة المطروحة على النبي، ولأسرار أخرى في النزول التدريجي شرحها علماء الإسلام. (2)

وفي الحقيقة لم يكن هناك ما يُسمى بانقطاع الوحي، بل كل ما كان في الأمر هو أنّه لم يكن ثمّة ما يوجب النزول الفوري، والمتلاحق للوحي.

(387)

١٤

الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ وَدَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ

إستمرَّ النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يدعو إلى دينه سراً مدة ثلاثة أعوام. فهو في هذه السنوات عمَد إلى بناء الكوادر واعدادها بدل توجيه الدعوة إلى عامَّة الناس، فإنَّ اعتبارات معيَّنة في ذلك الوقت كانت توجبُ أن لا يجهر بدعوته ولا يُعلنَ عن رسالته، ويكتفي بالاتصالات الفردية السريَّة ويدعو اشخاصاً معيَّنين إلى دينه.

وقد كانت هذه الدعوة السريَّة هي السبب في أن يجذب إلى الدين الإسلامي جماعة من الناس، وتواجه دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - منهم بالقبول، وقد سجَّل التاريخ أسماء هؤلاء السابقين الذين آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، في هذه الفترة من عهد الرسالة، وتاريخ الإسلام، واليك بعضهم:

1- السيدة خديجة بنت خويلد (زوجة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .)

2- علي بن أبي طالب - عليه السلام - .

3- زيد بن حارثة.

4- الزبير بن العوام.

5- عبدالرحمان بن عوف.

6- سعد بن أبي وقاص.

(388)

7- طلحة بن عبيدالله.

8- أبو عبيدة الجراح.

9- أبو سلمة.

10-الأرقم بن أبي الأرقم.

11- عثمان بن مظعون.

12- قدامة بن مظعون.

13- عبدالله بن مظعون.

14- عبيدة بن الحارث.

15- سعيد بن زيد.

16- خباب بن الأرت.

17- أبوبكر بن أبي قحافة.

18- عثمان بن عفان.

وغيرهم من الذين قبلوا دعوة النبي، وآمنوا بنبوته في هذه الفترة. (1)

ولقد كان أقطاب قريش و أسياها منهمكين - طيلة هذه الاعوام الثلاثة - في لهوهم ومجونهم، ومع أنهم كانوا قد عرفوا بعض الشيء عن دعوة النبي السرية إلا أنهم لم يظهروا أية ردة فعل تجاهها، ولم يقوموا بشيء ضدها.

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه السنوات التي تعتبر فترة صياغة الفرد يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش.

واتفق أن رآهم بعض المشركين في ما كانوا يُصلون في شعب من شعاب مكة، واستنكروا عملهم هذا، وأدى ذلك إلى منازعة عابرة بينهم وبين المشركين جرح على أثرها أحد المشركين على يدي «سعد بن أبي وقاص» أحد المسلمين، ومن هنا قرّر رسول الله -

صلى الله عليه وآله وسلم - اتخاذ بيّت «الأرقم بن أبي الأرقم» محلاً

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٥ و ٢٦٢.

ولقد كان «عمّار بن ياسر» و «صهيب بن سنان» الرومىّ مَن آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ذلك البيت. (2)

دَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ:

يشرع العقلاء من الناس من اصحاب البرامج الواسعة والمشاريع الكبرى اعمالهم الكبرى - عادة - من بدايات صغيرة ونقاط محددة، فإذا حقّقوا نجاحاً في هذه البدايات بادروا إلى توسيع نطاق نشاطهم فوراً، وهكذا جنباً إلى جنب مع النجاحات التي يحقّقونها في كل خطوة يوسعون دائرة العمل، ويجتهدون في تحقيق المزيد من النجاح، والتكامل لما هم بصدد.

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيماً في دولة كبيرة من الدول الكبرى المعاصرة: ما هو سرّ نجاحكم في الاعمال الإجتماعية وما هو الأمر الذي يساعدكم على النجاح في مشاريعكم ؟

فأجابته ذلك الزعيم قائلاً: ان طريقة عملنا نحن الغربيين تختلف عن طريقكم انتم أهل الشرق، فنحن دائماً نخطّط لمشاريع كبرى و نبدأ من مكان صغير، وبعد إحرار النجاح نعمل إلى توسيع نطاق العمل، وإذا اكتشفنا في منتصف الطريق خطأ برنامجنا غيرنا أسلوب عملنا، وعدلنا إلى طريقة أخرى، وبدأنا بعمل آخر.

أما أنتم الشرقيون فتدخلون ساحة العمل في برامجكم الكبرى من مكان كبير، وتبدأون من نقطة واسعة، وتحاولون تطبيق مشروعكم جملة واحدة، فاذا واجهتم في خلال العمل طريقاً مسدوداً لم يكن في إمكانكم ان ترجعوا من

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦١.
- 2 هذا البيت كان عند جبل الصفا، وكان معروفاً إلى مدة بـ «دار الخيزران» أسد الغابة: ج ٤، ص ٤٤، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٩٢، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٨٣.

منتصف الطريق إلا بتحمل خسائر كبرى فادحة.

هذا مضافاً إلى ان أنفسكم كأنها قد عُجنت بالعجلة ولذلك تؤدّون قطف ثمار جهودكم ونتيجة عملكم في الحال دونما صبر وترقّب وانتظار، وهذه هي بنفسها طريقة تفكير إجتماعية خاطئة، من شأنها أن تجعل الإنسان أمام طرق مسدودة كثيرة وغريبة.

هذا ما قاله ذلك الغربىّ.

ولكن الذي نتصوره ونعتقد نحن هو: أن هذه الطريقة من التفكير لا ترتبط لا بالشرق ولا بالغرب، بل هي ميزة العقلاء الاذكياء من الناس، فانهم يعتمدون هذا الأسلوب لا نجاح مهامهم، وتحقيق مقاصدهم.

ولقد اتبع قائد الإسلام الاكبر الرسول الاعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الطريقة في عمله الرسالي فركّز جهده على الدعوة السريّة إلى دينه مدة ثلاثة أعوام من دون تعجّل، وكان يعرضُ دينه على كل من وجده أهلاً للدعوة، ومستعدّاً من الناحية الفكرية للتبليغ.

فرغم أنّه كان يهدف إلى تشكيل دولة عالمية كبرى ينضوي تحت لوائها (لواء التوحيد) جميع أفراد البشرية، إلا أنه لم يعمد إلى الدعوة العامة طيلة هذه الأعوام الثلاثة، بل لم يوجّه الدعوة الخاصة حتّى إلى أقاربه، إنّما اكتفى بالاتصال الشخصي بمن وجده مؤهلاً وصالحاً للدعوة، ومستعدّاً لقبول الدّين، حتّى أنّه استطاع في هذه الأعوام الثلاثة أن يكسب فريقاً من الأتباع من الذين اهتدوا إلى دينه وقبّلوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش - كما أسلفنا - منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثة في اللذة والهوى وكان فرعون «مكة» وطاعيتها: «أبوسفيان» وجماعته كلما سمعوا بالدعوة اطلقوا ضحكة استهزاء وقالوا لانفسهم: إنّها أيام وتنطفئ بعدها شعلة الدعوة هذه فوراً تماماً كما انطفأت من قبل دعوة «ورقة» و «أميّة» (اللذين أخذوا يحبّذان إلى العرب التوجه نحو المسيحية ونبذ الوثنية بعد أن قرء الانجيل والتوراة) وبالتالي لن يمرّ زمانٌ حتّى يُنسى هذا الأمر، ويغدو خبراً بعد أثر، بل

(391)

لا شيء يُذكر.

بهذا التصوّر، وبهذه العقلية واجهت زعامة «مكة» دعوة النبي في البداية، ولهذا لم يقم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بايّ عمل عدائيّ ضدّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بل ظلّوا ينظرون إليه بنظر الإحترام، ويُراعون معه قواعد الأدب والسلوك، وكان النبيّ هو أيضاً لا يتعرض لأصنامهم وآلهتهم في هذه الأعوام الثلاثة بسوء ولا يتناولها بالنقد والاعتراض بصورة علنية، بل كان مركزاً جهده على الاتصال الشخصي بذوي البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الحنيف.

ولكن منذ أن بدأ النبيّ دعوة الأقربين وأخذ ينتقد وثنيّتهم، ويذكر أوثانهم بسوء ويعترض على تصرفاتهم اللإنسانية أصبح حديث الألسن. ومنذ ذلك اليوم أيضاً بدأت يقظة قريش، وعرفوا أمر محمّد يختلف عن أمر «ورقة» و «أميّة» اختلافاً بيناً وانه لبين الدعوتين فرقا كبيراً، ولهذا بدأت المعارضة والمخالفة السريّة والعلنية، لدعوة النبيّ.

وقد بدأ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بكسر جدار الصمت بدعوة أقربائه إلى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوة الناس أجمعين.

على أنه ما من شك في أنّ الإصلاحات العميقة التي يراد لها ان تترك أثراً في جميع شؤون الناس وكل مناحي حياتهم، وتغيّر مسير المجتمع تحتاج قبل أيّ شيء إلى قوتين:

1- قوة البيان، بأن يستطيع الداعية والمصلح بيان الحقائق التي جاء بها من أفكاره الخاصة، أو ما تلقاه عن طريق آخر إلى الناس بأسلوب جذاب، يأسر القلوب، ويسحر العقول.

2- القوة الدفاعية التي يستطيع تشكيل خط دفاعي منها عند التعرض لهجوم الأعداء والخصوم، وفي غير هذه الصورة ستتطفيء شعلة الدعوة ويفشل المصلح في خطاه الأولى.

ولقد كان البيان لدى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أعلى مرتبة من

(392)

الكمال فكان قادراً كأقوى خطيب على بيان تعاليم دينه للناس في غاية الفصاحة والبلاغة. ولكنه كان يفتقر في الأيام الأولى من دعوته إلى عنصر (القوة الثانية)، أي (القوة الدفاعية)، الرادعة الحامية، لأنه استطاع في السنوات الثلاث الأولى من رسالته أن يضم إلى دعوته قرابة أربعين شخصاً، وذلك في الظروف السرية الشديدة، ولا ريب ان تلك القلة القليلة من الاتباع لم تكن قادرة على أن تتولى مسؤولية الدفاع عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وحماية رسالته.

من هنا عمّد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبهدف تحصيل القوة الدفاعية المطلوبة وتشكيل النواة المركزية إلى دعوة أقربائه إلى دينه قبل التوجه بالدعوة إلى عامة الناس، ليتمكن من هذا الطريق، أن يزيل النقص من جهة عدم وجود القوة الثانية، ويكون منهم سياجاً قوياً يحفظه، ويحفظ رسالته من الأخطار المحتملة.

على أن فائدة هذه الدعوة كانت على الأقل دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القربى والرحم على فرض أنهم لم يؤمنوا برسالته، ولم يقبلوا دعوته.

هذا مضافاً إلى انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعتقد ان أي إصلاح وتغيير لابد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، فما لم يستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر في الأجانب والأبعدين، لأن المناوئين سيعترضون عليه لدعوته في هذه الحالة، ويشيرون إلى أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً:

(وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. (1))

كما أنه خاطبه بصدد دعوة الناس عامة بقوله:

(فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِنِينَ. (2))

كيفية دعوة الأقرابين:

كانت طريقة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في دعوة عشيرته الأقرابين طريقة جميلة وذكية جداً، فقد تجلّت في ذلك حقيقة أوضحت اسرار هذه الدعوة في ما بعد أكثر فأكثر.

فإن المفسرين كتبوا عند قوله تعالى: **وانذر عشيرتك الأقرابين** (وكذا الأغلبية القريبة للاجماع من المؤرخين أن الله أمر نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن ينذر عشيرته الأقرابين ويدعوهم إلى دينه ورسالته فأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علي بن أبي طالب الذي كان آنذاك في ربيعه الثالث عشر أو الخامس عشر بأن يعدّ طعاماً ولبناً، ثم دعا - صلى الله عليه وآله وسلم - خمساً وأربعين رجلاً من سراة بني هاشم ووجوههم، وعزم على أن ييوح لضيوفه ويكشف لهم من امر رسالته في خلال تلك الضيافة إلا أنه - وللأسف - ما أن أنتهوا من الطعام حتّى بادر أبو لهب فنكّم بكلمات سخيفة قبل أن يتحدّث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ممّا جعل الجوّ غير مناسب لأن يطرح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - موضوع رسالته عليهم، فانفض المجلس دون تحقيق هذا الغرض.

ولما كان من غد أمر النبي علياً - عليه السلام - باعداد الطعام واللبن ثانية، وكرّر دعوة تلك الجماعة، إلى ضيافة أخرى، وبعد أن فرغوا من الطعام تكلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال:

«إنّ الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة والله لتموتنّ كما تنامون ولتبعثنّ كما تستيقظون ولتحاسبنّ بما تعملون وإنها الجنة أبدأ والنار أبدأ.»

ثم قال:

«يا بني عبد المطلب اني و الله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومهُ بأفضل ممّا جئتكم به، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة و قد أمرني الله عزوجل أن ادعوكم إليه فأيتكم يؤمن بي ويؤازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي و

ولما بلغ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى هذه النقطة - وبينما أمسك القوم وسكثوا عن آخرهم إذ كان كل واحد منهم يفكر في ما يؤول إليه هذا الامر العظيم، وما يكتنفه من أخطار - قام «على» - عليه السلام - فجأة، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره، وقال وهو يكسر بكلماته الشجاعة - جدار الصمت والذهول :-

أنا يا رسول الله أكونُ وزيرك على ما بعثك الله. »

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :إجلس، ثم كرر دعوته ثانية وثالثة وفي كل مرة يحجم القوم عن تلبية مطلبه، ويقوم «على» ويعلن عن استعداداه لموازرة النبي، ويأمره رسول الله بالجلوس حتى إذا كان في المرة الثالثة أخذ رسول الله بيده والتفت إلى الحاضرين من عشرين من اقربيه الاقربين وقال:

«إن هذا أخي وَ وصيي وَ خليفتي فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له، وَ أطيعوا. »

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب «قد أمرك أن تسمع لا تنك وتطيع وجعله عليك أميراً. (1)»

إن ما كتبناه هو - في الحقيقة - خلاصةً لحديث مفصّل رواه اكثر المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، ولم يشكك في صحته أحد، بل اعتبروه من مسلمّات التاريخ، الا «ابن تيمية» الذي اتخذ موقفاً خاص من أهل بيت النبي صلى الله عليه و عليهم أجمعين.

خيانة تاريخية و جنائية أدبية!!

إن تحريف الحقائق وقلبها، أو إخفاء الوقائع لهو حقاً من أوضح مصاديق

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٢ و ٦٣، تاريخ الكامل: ج ٢ ص ٤٠ و ٤١، مسند أحمد: ج ١، ص ١١١، وشرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٣ ص ٢١٠ و ٢١١.

الخيانة والجنائية.

ولقد سلك فريق من الكُتّاب المتعصبين عبر التاريخ للاسف مثل هذا الطريق المقبوح، وأسقطوا مؤلفاتهم العلمية والتاريخية بارتكابهم خطيئة التحريف في جملة من الحقائق، من الاعتبار، وهم يخالون ان عملهم قادر على ان يبقي الحقائق في هالة الإهمال والغموض

إلا أنّ أمر هؤلاء قد انكشف مع انقضاء الزّمن، وتكامل العُلم، ودفع بفريق من أهل التحقيق والإنصاف إلى أن يمزقوا بأطراف اقلامهم حجب الزيف والتحريف ويُظهروا الوقائع والحقائق على حقيقتها.

واليك في ما يأتي بعض هذا الخيانات:

- [لقد ذكر محمّد بن جرير الطبري (المتوفى عام ٣١٠ هـ) في تاريخه حادثة دعوة الأقربين بشكل مفصل وعلى النحو الذي مرّ على القارئ الكريم.

بيد أنه حرّف في تفسيره⁽¹⁾ وكتّم، فهو عند تفسير قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» يذكر كل ما ذكره في تاريخه، ولكنه يغيّر ويبدّل في قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث يقول: «على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي»، فهو يكتب في تفسيره هكذا: «على أن يكون كذا وكذا.»

ولا ريب أنّ في تغيير عبارة «أخي ووصيي وخليفتي عليكم (أو فيكم) إلى: «كذا وكذا» غرضاً مريضاً، وهو بالتالي خيانة تاريخية فاضحة.

على أن الطبري لم يكتف بهذا القدر من التغيير في الكلام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بل غيّر حتّى في الجملة التي تعقبها وهي قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد أن قام على - عليه السلام - للمرة الثالثة وأعلن عن استعداده لمؤازرة النبي بعد إجماع القوم وسكوتهم: «إن هذا أخي ووصيي و خليفتي» حيث أبدلها بعبارة: «إنّ هذا أخي وكذا وكذا!!!»

إن على المؤرخ أن يكون حراً وشهماً في كتابة الحقائق وروايتها، فيثبتها

- [تفسير الطبري: ج ١٩، ص ٧٤.

(396)

ويروها كما هي، بكل شجاعة، وصلابة.

ولا ريب ان الذي دفع بالطبري إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغيير هو تعصّبه المذهبي، فهو لا يعتبر الإمام عليّاً خليفة رسول الله بلا فصل، وحيث أن تبنك الكلمتين: «خَليفتي ووصيي» تصرّحان بخلافة «علي» للنبي ووصايته بلا فصل لذلك يغيّر ويبدّل حتّى ينتصر لمذهبه بالتحريف في شأن نزول هذه الآية أيضاً.

2- ولقد فعل ابن كثير (المتوفى عام ٧٣٢ هـ) نظير هذا في تاريخه⁽¹⁾ وكذا في تفسيره (ج ٣ ص ٣٥١) وسلك نفس الطريق الذي

سلكه - من قبل - سلفه الطبري ضارباً عرض الجدار مبدأ أمانة النقل!!!

ونحن لا نعدر ابن كثير في عمله هذا أبداً، لأنه قد اعتمد - في رواياته التاريخية، في تاريخه وتفسيره معاً - تاريخ الطبري، لا تفسيره ولا شك أنه قد مرَّ على هذه القصة في تاريخ الطبري، ولكنَّه مع ذلك حاد عن الطريق السويِّ فأعرض عن نقل رواية التاريخ - في هذه الحادثة - وعمد - بصورة غير متوقعة - إلى نقل رواية التفسير!!!

3- والأغرب من تبنك الخيانتين ما ارتكبه - في عصرنا الحاضر - وزير المعارف المصرية الأسبق الدكتور «هيكل» في كتابه «حياة محمَّد»، وفتح بعمله باب التحريف في وجه الجيل الحاضر.

والعجب ان «هيكل» هاجم - في مقدمته - جماعة المستشرقين بشدة وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخية، واختلاقهم لبعض الوقائع في حين لم يقصر عنهم في هذا السبيل فهو:

أولاً: نقل الواقعة المذكورة (دعوة الاقربين المعروفة بحادثة يوم الدار أو حديث بدء الدعوة) في الطبعة الأولى من كتابه المذكور بصورة مبتورة ومقتضبة جداً واكتفى من الجملتين الحساستين بذكر واحدة منهما فقط وهي: قول النبي مخاطباً

- [البداية والنهاية: ج ٢، ص ٤٠.

(397)

الحضور في ذلك اليوم: «مَنْ يُؤازرني يكونُ أخي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي» بينما حذف بالمرّة الجملة التي قالها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلي بعد أن قام للمرة الثانية وأعلن موازرتة للنبي وهي قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي!!!»

ثانياً: أنه خطى في الطبعات الثانية والثالثة والرابعة، خطوة أبعد حيث حذف كلتا الجملتين معاً وبهذا قد وجّه ضربة كبرى إلى قيمته ككاتب. وقيمة كتابه، كدراسة تاريخية!!

النبوة والإمامة توأمان:

إن الاعلان عن وصاية عليّ - عليه السلام - وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة يفيد - بقوة ووضوح - أنّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين، ففي اليوم الذي يعلن فيه رسول الله عن رسالته ونبوّته، يعيّن خليفته ووصيّه من بعده، وهذا يشهد - بجلاء - بأن النبوة والإمامة يشكّلان قاعدة واحدة، وأن هذين المنصبين إن هما إلا كحلقتين متصلتين لا يفصل بينهما شيء.

كما أن هذه الحادثة تكشف - من جانب آخر عن مدى الشجاعة الروحية التي كان يتحلّى بها الإمام امير المؤمنين «علي بن أبي طالب» - عليه السلام - ، حيث قام - في مجلس أحجم فيه الشيوخ الدهاة والسادة المجربون عن قبول دعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - خوفاً وتهيئاً - وأعلن بكل شجاعة مؤازرته للنبي، واستعداده للتضحية في سبيل دينه ورسالته وهو آنذاك غلامٌ في ربيعهِ الثالث أو الخامس عشر، وما حابى أعداء الرسالة ولا ماشاهم كما فعل المصلحون من الساسة والزعماء المتخوِّفون على مصالحهم ومراكزهم آنذاك!!!

صحيح ان «علياً» - عليه السلام - كان في ذلك اليوم أصغر الحاضرين سناً إلا أن معاشرته الطويلة للنبي قد هيأت قلبه لتقبُّل الحقائق التي تردّد شيوخ القوم في قبولها، بل عجزوا عن دركها وفهمها!!

ولقد اعطى ابو جعفر الإسكافي حق الكلام في هذا المجال إذ قال:

(398)

فهل يُكَلِّف عملُ الطعام، ودعاء القوم صغيرٌ غير مميّز، و غير عاقل، وهل يؤتمن على سرّ النبوة طفلاً... وهل يُدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب، وهل يضع رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يده في يده، ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية، والخلافة، الا وهو أهل لذلك، بالغ حدّ التكليف، محتمل لولاية الله، و عداوة أعدائه، وما بال هذا الطفل لم يأنس باقرانه ولم يلصق بأشكاله، ولم يُرمع الصبيان في ملاعبهم بعد اسلامه، وهو كأحدهم في طبقتهم كبعضهم في معرفته، وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته بل ما رأيناه الا ماضياً على اسلامه، مصمماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدّق اسلامه بعفاه وزده، ولصق برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من بين جميع من حضرته فهو أمينه واليفه في دنياه و آخرته. (1)

- [شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٣، ص ٢١٥ و ٢٩٥.

(399)

الدعوة العامة

كان قد انقضى ثلاث سنوات على بدء البعثة يوم عمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى دعوة الناس عامة بعد دعوة عشيرته الاقربين.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة أن يهدي - من خلال الاتصالات السرية - مجموعة من الاشخاص إلى الإسلام ولكنّه دعا هذه المرّة وبصوت عال عامة الناس إلى دين التوحيد.

فقد وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا ونادى بصوت عال: يا صباحاه (وهي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحسّت بخطر، أو بلغها نبأ مُرعب فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر)⁽¹⁾ فلفت نداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا نظر الناس فاجتمع حوله جماعة من أبناء القبائل المختلفة وقالوا: له ما لك؟

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : أرأيتم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مُصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدّقونني؟

- إقال الجزري في النهاية: ج ٢، ص ٢٧١: سعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على الصفا وقال: يا صباحاه؛ هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة لانهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمّون يوم الغارة يوم الصباح، فكان القائل: يا صباحاه يقول: قد غشينا العدو.

(400)

قالوا: بلى.

قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

ثم قال: إنما مثلي ومثلكم مثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى اهله فجعل يهتف: واصباحاه. (1)

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء، قبل هذا ولكنها تملّكها الخوف هذه المرة، وهي تسمع ذلك الانذار القويّ فبادر أحد قادة الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً إذ قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : تَبّاً لك، ألهذا دعوتنا؟، وتفرّق على أثرها الناس.

الثبات والإستقامة على طريق الهدف:

إن نجاح أي شخص مرهونٌ بأمرين:

الأول: الايمان بالهدف.

والثاني: الاستقامة والثبات والسعي الدائب لتحقيق ذلك.

إنّ الإيـمان هو المحرك الباطني والقوة الخفية التي تجر الإنسان شاء أم لم يشأ نحو الغاية التي يتوخاها، وتسهّل عليه الصعاب، وتدعوه إلى العمل الدائب لتحقيق مقصوده، لأن شخصاً كهذا يعتقد اعتقاداً قوياً بأن سعادته، ومجده يتوقّفان على ذلك.

وبعبارة أخرى: إذا آمن انسان بأن سعادته ومجده يتوقّفان على تحقيق هدف معيّن فإنه سيندفع بقوة الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف، متجاوزاً كل الصعاب، ومتحدياً كل المشكلات في ذلك السبيل.

فالمريض الذي يرى شفاؤه في شرب دواء مرّ مثلاً سيستسهل شربه.

والعَوَاصِ الذي يعتقد إعتقاداً جازماً بأن ثَمّة درراً غالية الثمن تحت أمواج البحر سيلقي بنفسه في قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل، ليخرج منها بعد

- [السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٩٤].

(401)

دقائق ظافراً بأعلى الجواهر.

بينما إذا كان المريض أو العَوَاصِ يشكُّ في عمله، أو يعتقد بعدم فائدته، فأنه لن يُقدّم عليه قط واذما أقدم فان عمله سيكون حينئذ مقروناً بالجهد والعناء.

فقوة الإيمان اذن هي التي تدلّل كل مُشكّل، وتسهّل كلّ صعب.

غير أنه لا ريب في أنّ الوصول إلى الهدف لا يخلو من مشكلات و موانع، فلا بدّ من السعي لرفع تلك الموانع، وإزالة تلك المشكلات

وقد قيل قديماً: أنّ مع كل وردة أشواك، فكيف يمكن قطف وردة دون أن تُدْمى أنامل القاطف بالأشواك المحيطة بها؟؟

هذا وقد بيّن القرآن الكريم هذه المسألة (وهي ان رمز السعادة هو: الإيمان بالهدف والثبات في طريق تحقيقه) في جملة قصيرة إذ قال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنْ لَا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. (1))

ثَبَاتُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَ صَبْرُهُ:

لقد أدّت إتصالاتُ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الخاصّة. قَبْلَ الدعوة العامّة، وجهودُهُ الكبرى بعد الجهر بالدعوة، إلى ظهور و تكوين صفٍّ مرصوص من المسلمين في وجه صفوف الكفر، والوثنية.

فالأذنين دخلوا سرّاً في حوزة الإسلام والإيمان قبل الدعوة العامّة تعرّفوا على المسلمين الجدد الذين لبّوا داعي الإسلام بعد إعلان الرسالة، وشكّل القدامى والجديد جماعة قوية متعاطفة متحاببة، وكان ذلك بمثابة إنذار لأوساط الكفر والشرك والوثنية، أربكها وجعلها تشعر بالخطر.

على أنّ ضرب نهضة ناشئة والقضاء عليها كان أمراً سهلاً لقريش، ولكنّ الذي أربع قريشاً ومنعها من توجيه مثل هذه الضربة هي أنّ أفراد هذه

- إِفْصَلَتْ: ٣٠.

(402)

الجماعة، وعناصر هذه النهضة لم يكونوا من قبيلة واحدة، ليتمكن مواجهتها وضربها بكلّ قوة، بل إنتمى من كل قبيلة إلى الإسلام، عددٌ من الأفراد، ومن هنا لم يكن إتخاذ أيّ قرار حاسم بحقهم أمراً سهلاً وبسيطاً.

من هنا قرّر سادة قريش وكبرائها - بعد تداول الأمر في ما بينهم - أن يبدأوا بالقضاء على أساس هذه الجماعة، ومحرك هذا الحزب، والداعي إلى هذه العقيدة بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالأغراء والتطميع تارة ويمنعوا من انتشار دينه بالتهديد والايذاء تارة أخرى.

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوة طيلة عشر سنوات وهي المدة المتبقية من سنوات البعثة من الفترة المكية، إلى أن قررت بالتالي قتله، ولكنه استطاع ان يبطل مؤامرتهم بالهجرة إلى المدينة قبل أن يتمكنوا من القضاء عليه.

ولقد كان «أبو طالب» آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسها المطلق، وكان رجلاً طاهر القلب عالي الهمة، شجاعاً كريماً، وكان بيته ملجأً دافئاً للمحرومين والمستضعفين، وملاذئاً أميناً للفقراء والأيتام، وكان يتمتع في المجتمع العربي - علاوة على رئاسة مكة و بعض مناصب الكعبة - بمكانة كبرى و منزلة عظيمة، وحيث أنّه كان كفيلاً لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد وفاة جدّه «عبدالمطلب»، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية (1) عنده وقالوا له:

«يا أبا طالب إن ابن أخيك قدسب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا وضللّ آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تخلي بيننا وبينه.»

ولكن «أبا طالب» قال لهم قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً حكيماً، فانصرفوا عنه.

بيد أنّ نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار، وكانت جانبيّة الدين المحمّدي، وبيان القرآن البليغ يساعدان على ذلك، فيترك اثره في الناس،

(403)

وخاصة في الأشهر الحرم حيث تدف الحجاج على مكة من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعرض دينه عليهم، فكانت أحاديثه الجذابة، وكلماته البليغة، ودينه المحبب تؤثر في قلوب كثير منهم، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوة الرسول.

وهنا أدرك طغاة مكة وفراعنتها أن «محمداً» قد بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، واصبح له انصارٌ واتباعٌ في كثير منها، مما دفعهم مرة أخرى إلى الحضور عند «أبي طالب» حاميه الوحيد، وتذكيره بالإشارة والتصريح بالاحطار المحدقة باستقلال المكيين وعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع:

يا أباطالب، إن لك سناً، وشرفاً، ومنزلة فينا، وإننا قد استنهيناك من ابن اخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم أبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

فأدرك حامي الرسول الوحيد - بذكائه وفطنته - أن عليه أن يصبر أمام جماعة ترى وجودها، ومصالحها في خطر، من هنا عمد إلى مسالمتهم وملاطفتهم، ووعد بأن يبلغ ابن اخيه «محمداً» كلامهم. وقد كان هذا محاولة من «أبي طالب» لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضبة وإطفاء نائرتهم، وتهدئة خواطرم، ليتم معالجة هذه المشكلة - بعد ذلك - بطريقة أصح وأفضل.

ولهذا أقبل - بعد خروج تلك الجماعة من عنده - على ابن اخيه، وذكر له ما قال له القوم، وهو يريد - بذلك ضمناً - إختبار إيمان «محمداً» بهدفة، فكان الرد العظيم، والجواب الخالد الذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الاكبر «محمداً» رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، حيث قال لعمه بعد أن سمع مقالة قريش:

«يا عم، والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو اهلك فيه، ما تركته»

ثم اغرورقت عيناه الشريقتان بدموع الشوق والحب للهدف، وقام وذهب

(404)

من عند عمه.

وكان لتلك الكلمات الصادقة النافذة أثرٌ عجيب في نفس زعيم مكة وسيدها الوقور بحيث نادى ابن أخيه، وأظهر له استعدادَه الكامل للوقوف إلى جانبه، والحدب عليه رغم كل المخاطر، والمتاعب التي كانت تكمن له إذ قال:

«إذْهَبْ يَا بَيْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتُ قَوْلَ اللَّهِ لَا أَسْلَمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا.»

قريش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة:

لقد أفلق انتشار الإسلام المتزايد قريشاً، ودفعها إلى التفكير في حيلة، فاجتمع أشرفها وسادتها للتشاور مرة أخرى وقالوا:

لعل كفالة أبي طالب لمحمد هي التي تدفعه إلى الدفاع عنه وحمائته والوقوف إلى جانبه في دعوته، فكيف لو مشوا إليه بأجمل فتیان مكة، وطلبوا منه أن يأخذه بدل «محمد» ويسلمه اليهم ليروا فيه رأيهم، ولهذا مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له:

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذة فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي فرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فقتله، فانما هو رجل برجل!!

فأجابهم أبوطالب وهو مستاء من هذه المساومة الظالمة:

«هذا والله لبئس ما تسوموني! أتعطوني إبنكم أغدو لكم، واعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً.»

فقال «المطعم بن عدي بن نوفل»: «والله يا أباطالب لقد أنصفك قومك، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فأجابه أبوطالب قاتلاً: «والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك.»⁽¹⁾

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٧ و ٦٨، السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٢٦٦ و ٢٦٧.

قريش تحاول تطميع رسول الله!

ولما علمت قريش بأنه لا يمكن ارضاء «أبي طالب» بخذلان ابن أخيه «محمد»، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام، إلا أنهم يكفون لابن أخيه، وُدّاً عميقاً، ومحبة كبرى من هنا قرروا بأن يتركوا مفاوضة، إلا أنهم فكروا في خطة أخرى وهي أن يحاولوا إنشاء النبي عن المضي في دعوته بتطميعة بالمناصب، والهدايا، والأموال والفتيات الجميلات، ولهذا مشوا إلى بيت «أبي طالب» ودخلوا عليه ومحمد جالس إلى جنبه فتكلموا متكلمهم وقال: يا محمد انا بعثنا اليك إنكلمك، فانا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومك ما

ادخلت على قومه لقد شتمت الآباء، وعيبت الدين، وسببت الآلهة، وسفهت الاحلام، وفرقت الجماعة ولم يبق امر قبيح الا أتيته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثر مالا، وان كنت انما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وان كان هذا الذي ياتيك تابعاً من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبعك.

فقال ابوطالب لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون انك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟

فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا عم أريدهم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية.

ففرعوا لكلمته، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة: نعم وأبيك عشرأ.

قالوا: فما هي، فقال ابوطالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟

قال: «لا اله الا الله.»

فكان هذا الرد مفاجئة قوية لذلك الفريق الذي يأمل في صرف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن هدفه، ولهذا قاموا فرعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون): **أَجْعَلُ الآلهةَ إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب.** (1)

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٠٣، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٥ و ٦٦.

(406)

نماذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين:

يوم صدع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بما أمر، وجهر بدعوته للناس وأيس سادة قريش من قبوله لأى اقتراح من إقترحاتهم بعد ما سمعوه يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونه ما تركته» بدأ في الحقيقة واحداً من أشد فصول حياته، وأكثرها متاعب ومصاعب، لأن قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعي حرمة وتحترمه، وتسيطر على أعصابها، ولكنها عند ما فشلت في خطتها لجره إلى مساومتها اضطرت إلى تغيير نهجها وأسلوبها معه لتقف دون إنتشار دينه مهما كلف من الثمن مستفيدة في هذا السبيل من كل الوسائل الممكنة.

من هنا قرّر سادة قريش بالاجماع أن يتوسلوا بسلاح الاستهزاء والسخرية، والإيذاء والتهديد، بهدف صرفه عن المضى في

دعوته. (1)

ولا يخفى أن المصلح الذي يفكر في هداية العالم البشريّ كله يجب ان يتزود بقدر كبير من الصبر والتحمل، أمام جميع المشكلات والمتاعب، والمكاره والشدائد ليتغلب عليها شيئاً فشيئاً، كما كان دأب كل المصلحين الآخرين.

ونحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول الله وأتباعه ليتضح مدى صبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وثباته، واستقامته على طريق الدعوة.

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتمتع - مضافاً إلى العامل الروحي والمعنوي الباطني الذي كان يساعده من الداخل أعني الإيمان والصبر والإستقامة والثبات - بعامل خارجي تولى حراسته وحمايته وذلك حماية بني هاشم، وعلى رأسهم أبوطالب له - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه عند ما عرف «أبوطالب» بعزم قريش القاطع على إيذاء ابن أخيه (محمد) دعا بني هاشم عامة، وطلب منهم جميعاً حماية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والقيام دونه، فلبوا نداء سيدهم، وأجابوه

- 1 راجع لمعرفة ابرز من كان يؤذي النبي والمسلمين المحبر: ص ١٥٧ و ١٦١ .

(407)

إلى ما دعاهم من حماية رسول الله وحراسته بعضُ بدافع الايمان وآخر بدافع الرّحم، الأ «أبولهب» ورجلان آخران انضموا إلى اعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكن هذا السياج الدفاعي لم يقدر - مع ذلك - على صيانته - صلى الله عليه وآله وسلم - من بعض الحوادث المرّة، لأنّ قريشاً ألحقت به الأذى، وأنزلت به مكروهاً، كلما وجدته وحيداً بعيداً عن أعين حُماته.

وإليك فيما يأتي بعض النماذج من ذلك الأذى:

- [1مَرَّ «أبوجهل» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يُكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزة بن عبدالمطلب» رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدّث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشدّ شكيمه.

فلما مرّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة (وتلك هي كنيته) لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدَ أنفأ من أبي الحكم بن هشام (وتعني أبا جهل): وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبّه، وبلغ منه ما يُكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمدٌ - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فغضب «حمزة»، لذلك، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فاقبل نحوه، حتّى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشقَّه شقَّةً منكراً، ثم قال:

«أشمته وأنا على دينه أقول ما يقول. فردَّ ذلك علىَّ أن استطعت.»

فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى «حمزة» لينصروا «أباهل» فقال أبو جهل:

(408)

دعوا أبا عمارة فاني قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً.⁽¹⁾ وبهذا منع «أبو جهل» الذي كان ممن يدرك خطورة مثل هذه المواقف من وقوع شجار وقتال.

إنَّ التاريخ الثابت والمسلم يشهد بأنَّ وجودَ رجال ذوي بأس وقوة بين صفوف المسلمين مثل «حمزة» الذي أصبح في ما بعد من كبار قادة الإسلام، قد كان له أثرٌ كبيرٌ في حفظ الإسلام، والحفاظ على حياة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ودعم جماعة المسلمين، وتقوية جناحهم، فهذا ابن الأثير⁽²⁾ يقول عن حمزة: لما اسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد عزَّ وامتنع فكفوا عما كانوا يتناولون منه.

من هنا أخذت قريش تفكّر في إعداد خطط أخرى لمواجهة قضية الإسلام والمسلمين، سنذكرها في المستقبل.

هذا ويرى بعضُ المؤرّخين مثل ابن كثير الشامي⁽³⁾ على أن رُود فعل إسلام «أبي بكر» و «عمر» واثرهما لم تكن بأقلّ من تأثير إسلام «حمزة»، وأنَّ الدين قوى جانبه بإسلام هذين الرجلين، وكسبَ المسلمون بذلك القوة والحريّة في العمل والتحرك، والحقيقة انه لا شك في انه لكل فرد تأثيره في تقوية ودعم الإسلام، إلا أنه لا يمكن - القول بحال بأن تأثير إسلام الشيخين كان يعدل تأثير إسلام «حمزة»، فإن «حمزة» ما أن سمع بأن قريشاً أساءت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا وتوجه، من دون أن يُعزج على أحد، إلى المسيء وانتقم منه في الحال أشدّ انتقام، ولم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه ومنع المسيء منه، ومن غضبه وانتقامه، بينما يكتب ابن هشام في سيرته عن «أبي بكر» امرأ يكشف عن أن «أبابكر» يوم دخل في صفوف المسلمين لم يكن قادراً على حماية نفسه، ولا على الدفاع عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . واليك نصُّ الواقعة:

مرَّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم على جماعة من قريش وهم جلوسٌ عند الحجر، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول:

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٩١ و ٢٩٢، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧٢.

- 2 الكامل لابن الأثير: ج ٢، ص ٥٦.

- 3 البداية والنهاية: ج ٢، ص ٢٦ و ٣٢.

كذا و كذا، لما كان يقول من عيب ألتهم ودينهم فيقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :نعم أنا الذي اقول ذلك، فأخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه (وهم يقصدون قتله) فقام «أبوبكر» دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً يقول ربِّي الله؟ فانصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه)، فرجع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى منزله، ورجع «أبوبكر» يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه. (1)

إن هذه الرواية التاريخية إذا دلت على مشاعر الخليفة تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا أنها تدل قبل أي شيء على عجزه وضعفه.

إنه يدلُّ على أنه لم يملك ذلك اليوم لا أية مقدرة بدنية وروحية، ولا اية مكانة اجتماعية تُرهَب، وحيث أن إلحاق الأذى بشخص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان ينطوي في نظر قريش ذلك على عواقب لا تحمد - لذلك تركوا رسول الله، وَوَجَّهُوا ضربتهم إلى رفيقه وصدعوا فرق رأسه.

ولو أنك قارنت بين هاتين الحادثتين وقايست بين موقف «حمزة» الشجاع وموقف الخليفة الأول هذا لاستطعت أن تقضي بسهولة بأن عزة الإسلام وقوة المسلمين، وتعزيز موقفهم، وخوف الكفار كان يعود إلى الإسلام أجمع واحد من دينك الرجلين؟

هذا وستقرأ في القريب العاجل كيفية إسلام «عمر». وسترى بأنَّ إسلامه - كإسلام صديقه - لم يزد هو الآخر من قدرة المسلمين الدفاعية، وأنهم بالتالي لم يعتزوا بإسلامه.

فيوم أسلم «عمر» كاد أن يُقتل لولا «العاص بن وائل السهمي» لأنه هو الذي خاطب الذين قصدوا قتل «عمر» قائلاً: رَجُلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون منه؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، خلوا عن الرجل. (2)»

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٨٩ و ٢٩٠، وقد ذكر الطبري في تاريخه: ج ٢، ص ٧٢ قصة صدع رأس أبي بكر بالتفصيل فراجع.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٤٩.

إن هذه العبارة التي قالها «العاص» لانقاذ الخليفة الثاني من أيدي الذين اجتمعوا على قتله تفيد - بوضوح - أن الخوف من قبيلة «عمر» هو الذي كان وراء تركهم إياه وعدم قتله، وقد كان دفاغ القبائل عن أبنائها سنة فطرية وعادة متعارفة يومذاك وكان يتساوى فيها الكبير والصغير، والشريف والوضيع.

أجل إن بني هاشم هم كانوا - في الواقع - الحصن الحقيقي للمسلمين، وقد كان القسط الأكبر من هذا الأمر يتحملة «أبو طالب» وذووه، وإلا فإنّ الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينضمّون إلى صفوف المسلمين لم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم، فكيف بالدفاع عن الإسلام وجماعة المسلمين ليقال بأن المسلمين اعتزوا بهم؟

أبوجهل يكمن لرسول الله:

لقد أغضب تقدّم الإسلام المطرد قريشاً بشدة فلم يمرّ يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش إلى صفوف المسلمين ولأجل هذا راح مرّجّل الغضب والحنق على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يغلي في نفوسهم، فهذا فرعون مكة «أبوجهل قال لقريش في مجلس من مجالسهم: يا معشر قريش إن محمّداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتّم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتّم أهلنا، واني أعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه.

فلما كان من غد أخذ «أبوجهل» حجراً كما وصّف ثم جلس لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينتظره، وغدا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على عادته ووقف للصلاة بين الركن اليمانيّ والحجر الأسود، وغدت تلك الجماعة من قريش فجلست في انديتها تنتظر ما أبوجهل فاعلّ، فلما سجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أحتمل «أبوجهل» الحجر، ثم أقبل نحوه، حتّى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه، مرّ عوباً وقذف الحجر من يده، فقامت إليه رجال قريش وقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال بصوت ضعيف يطفح بالخوف والرعب: قمت إليه

(411)

لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوتُ منه عرضَ لي دونه ما لا رأيتُ مثله حياتي، فتركتُه. (1)!!

إنه ليس من شك في أنّ قوة غيبية أدركت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأمر الله تعالى في تلك اللحظة، وصوّرت ذلك المنظر الرهيب وحفظت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما وعده تعالى وعداً لا خلف فيه إذ قال: **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ.** (2)

وهناك نماذج كثيرة من أذى قريش لشخص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سجّلها التاريخ في صفحاته، وقد عقد «ابن الأثير (3)» فصلاً خاصاً لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الألداء، في مكة، وبيّن أنواع ما كانوا يؤذون به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وما قد مرّ ذكره في الصفحات السابقة ما هو إلا أمثلة على ذلك، فقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى، والمضايقة.

فقد روي أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يطوف ذات يوم فشتّمه «عقبة بن أبي معيط» وألقى عمامته في عنقه، وجّره من المسجد، فأخذوه من يده، خوفاً من بني هاشم. (4)

أبولهب يؤذي رسول الله:

ولقد تعرّض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأذى لا مثيل له من جانب عمه «أبي لهب» وزوجته «أم جميل» وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يجاورهم، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه فكم من مرّة ومرة ألقيا الرماد

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٩٨ و ٢٩٩.
- 2 الحجر: ٩٥.
- 3 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٧ كما وعقد المجلسي رحمه الله في البحار: ج ١٨ باباً خاصاً بعنوان: «باب المبعث وأظهار الدعوة ومالقي صلى الله عليه وآله من القوم» راجع من صفحة ١٤٨ إلى صفحة ٢٤٣.
- 4 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٩٣ نظيره.

(412)

والتراب على رأسه الشريف وثيابه. وكم من مرّة نشرت أم جميل الشوك على طريقه، أو جمعته باب بيته لتؤذيه عند الخروج. ولا شك ان معارضة انساب النبي واقربائه لدعوته المباركة، واذاؤهم اياه كان اكثر ايلاماً لنفسه الشريفة، واشد وقعاً عليها، حتّى اننا نجد القرآن يخص أبا لهب باللعن ويسميه بصورة خاصة مما يكشف عن هذه الحقيقة إذ يقول:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ.)⁽¹⁾

صبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واستقامته:

ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يواجه كل ذلك الأذى وماشابهه من التحججات التي سنشير إليها بصبر عظيم، وثبات تتعجب منه الجبال السماء، وذلك او لا إيماناً منه برسالته.

إيذاء المسلمين وتعذيبهم!

يرجع تقدم الإسلام في مطلع عهد الرسالة إلى عوامل منها: ثبات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه، وثبات أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرّفنا - في ما سبق - على أمثلة ونماذج من ثبات قائد الإسلام الاكبر وصبره، واستقامته في ما لقي من أذى ومضايقة.

على أن ثبات أنصاره واتباعه الذين آمنوا في مكة (مركز الحكومة الوثنية آنذاك) هو الآخر ممّا يدعو إلى الإعجاب ويستحق الاحترام. وسنذكر صمودهم وثباتهم في حوادث ما بعد الهجرة في محله.

وأما هنا فنسلط الضوء على حياة عدد من أتباع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - القدامى الذين تحملوا أشد أنواع العذاب وكانوا يعيشون في المحيط المكي

- [المسد: ١ - ٥].

(413)

حيث لم يكن ملجأ لهم يلجؤون إليه وهاجروا منه لأغراض الدعوة والتبليغ بعد أن تحملوا شيئاً كثيراً من الإيذاء والتعذيب على أيدي المشركين والوثنيين القساء.

- 1 بلال الحبشي:

كان أبواهُ مَمَّنَ أسروا في الجاهلية وحيء بهم من الحبشة إلى جزيرة العرب ثم إلى مكة.

وأما بلال الذي أصبح في ما بعد مؤذن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد كان غلاماً لـ «أمية بن خلف» الذي كان من أشد أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وحيث أنّ عشيرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تولّت الدفاع عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وحمائمه ولم يمكن لأمية إلحاق الأذى برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمد إلى تعذيب غلامه بلال الذي أسلم، أمام الناس، بأشد أنواع الأذى والتعذيب إنتقاماً، وتشفيماً.

فقد كان يطرح بلالا عارياً على الأحجار والصخور الملتهبة في الهاجرة، ويضع صخرة على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى

تموت أو تكفر بمحمد، وتعبد الآلات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء والمحنة الشديدة: **أَحَدُ أَحَدٍ.** (1)

ولقد أثار ثبات هذا الغلام الأسود وجلدة وصبره على أذى سيده، إعجاب الآخرين، حتى أن «ورقة بن نوفل» مرّ عليه وهو يعذب بذلك وهو يقول: **أَحَدُ أَحَدٍ، اقبل على «أمية» ومن يصنع به ذلك من «بني جمح» فيقول: احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه**

حناناً (أي لأجعلن قبره متبركاً ومزاراً). (2)

وربما زاد «أمية» من تعذيبه لبلال فربط حبلاً بعنقه وترك الصبيان يديرون به في الازقة والسكك. (3)

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣١٧ و ٣١٨.

- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣١٨.

- 3 الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٣، ص ٢٣٣.

وقد أسير «أمية» وابنه في معركة «بدر» وكانا أول من أسيرا من المشركين، ولم يوافق بعض المسلمين على قتلها ولكن بلالا قال: «رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا». وأدى أصرا بلال على قتلها إلى قتل أمية وابنه جزاء أعمالهما الظالمة.

-2 آل ياسر رمز الصمود والمقاومة!

كان «عمار» ووالداه من السابقين إلى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتقي بأصحابه ويدعو إلى الإسلام في بيت «الارقم بن أبي الارقم»، وعند ما عرف المشركون بانضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيذائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهداً في ذلك أبداً.

فقد كان المشركون يخرجون «عماراً» واباه «ياسر» وأمه «سميه» في وقت الظهيرة إلى رمضاء مكة ليقتضوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة، وفوق الرمال الملتهبة والصخور المتقدة كأنها الجمرات.

وقد تكرّر هذا العذاب مرّات عديدة حتى أودى بحياة «ياسر» ففضى نحيبه على تلك الحال.

وقد خاشنت زوجته «سُميّة» أبا جهل وكلمته في زوجها بغليظ القول، فطعنها اللعين برمح في قلبها فقضت - هي الأخرى - نحبها، وكانا أول شهيدين في الإسلام.⁽¹⁾

وقد ألم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما شاهده من حالهما وهما يعذبان بأشد أنواع العذاب فقال لهما ولولدهما «عمار» وهو يصبرهم، والدموع تنحدر على خديه:

«صَبِرْ أَلْ يَاسِرَ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ.»⁽²⁾

- 1 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٤١ والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة.
- 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٣٩.

ويعد أن قضى والدا «عمار» نحبهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساة في تعذيب «عمار» وإيذائه والتنكيل به، وأخذوا يعذبونه على نحو ما كانوا يعذبون به بلالا، وهم يقصدون قتله، وإحاقه بأبويه!! أو يتبرأ من دين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فاضطر إلى أن يعطيهم ما يريدون ويظهر الرجوع عن الإسلام، إبقاء على نفسه، وتقية منهم فتركوه، وانصرفوا عن قتله، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بتبرك الإسلام وتآلم من ذلك فجاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يبكي، فقال له

النبي: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالايمن قال: ان عادوا فعد، فنزلت الآية التالية في ايمان عمّار: **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.** (1)(2)

هذا وروي أنّ أبا جهل حينما قصد تعذيب «آل ياسر» وكانوا أضعف من بمكة أمر بسوط ونار ثم سحبوا عماراً وأبويه على الأرض، فكان يكوئ بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعلة ابدانهم، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً.

وقد تكرر هذا العمل القاسي كثيراً حتى استشهد «ياسر» وزوجته «سُمَيَّة» على أثر ذلك التعذيب المرير، ولكن دون أن يفتنا حتى النفس الأخير عن مدح رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والإشادة بدينه.

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا - رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين في بغض الرسول - على تخليص «عمار» الجريح المنهك عذاباً من برائن «أبي جهل» ليتمكن من مواصلة أبويه الشهيدين.

-3- عبد الله بن مسعود:

تتوار المسلمون في ما بينهم في مقرهم السري في من يجهر بالقرآن على مسامع قريش، في المسجد الحرام لأنها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا: والله ما سمعنا قريشاً

- 1 النحل: ١٠٥ و ١٠٦ .
- 2 الدر المنثور: ج ٤، ص ١٣٢ عند تفسير الآيتين المذكورتين.

(416)

هذا القرآن يجهر لها قط فمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ؟

فأبدي «ابن مسعود» استعدادَه للقيام بهذه العملية الجريئة، وتلاوة القرآن على مسامع قريش في المسجد الحرام بصوت عال.

فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

ثم غدا «ابن مسعود» حتى أتى المقام في وقت الضحى وقريش في انديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» رافعاً بها صوته، «الرحمان علم القرآن» وهكذا استمر يقرأ بقية آيات تلك السورة المباركة.

فارعبت عبارات القرآن الفصاحة القوية قلوب سراه قريش؁ ولكي يمنعوا من تأثير هذا النداء الالهى العظيم قاموا إليه جميعاً وجعلوا يضرّبونه في وجهه؁ وجعل هو يقرأ حتى بلّغ منها ماشاء الله أن يبلغ ثم عاد إلى اصحابه وقد أذمى وجهه وجسمه؁ وهو مسرورٌ لإسماع قريش كتاب الله تعالى وآياته المباركة. (1)

إنّ الذين صمّدوا في أشد الأيام وأصعبها في مطلع عهد البعثة من المسلمين الأوائل لا شك أكثر ممّن ذكرنا أسماءهم إلا أننا اكتفينا بهذا القدر رعاية للاختصار.

4-أبوذر: أول المجاهرين بالإسلام

كان «أبوذر» رابع أو خامس من أسلم(2)؁ وعلى هذا فهو من الذين أسلموا في الأيام الأولى من بزوغ شمس الإسلام وطلع فجره؁ فإذن هو من السابقين إلى الإسلام.

وقد صرح القرآن الكريم بأنّ للذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله في بدء

- [السيرة النبوية: ج ١؁ ص ٣١٤.
- 2أسد الغابة: ج ١؁ ص ٣٠١؁ الإصابة: ج ٤؁ ص ٦٤؁ الإستيعاب: ج ٤؁ ص ٦٢.

(417)

بعثته وبالتالي فإنّ للسابقين عندالله تعالى مكانة عظيمة؁ ومقاماً لا يضاهاى إذ قال تعالى:

(السابقُونَ السابِقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. (1)

وقال تعالى فيهم أيضاً.

(وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَ الْأَنْصَارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. (2)

وقال تعالى كذلك في من آمن قبل فتح مكة وفضلهم؁ ومكانتهم المعنوية المتفوقة على من أسلم بعداً إعتزاز الإسلام؁ واشتداد أمره؁ وقيام دولته يعني أنّهم ليسوا سواء.

(لَا يَسْتَوِي مَنْكُم مَّنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا. (3)...

أجل هذه هي مكانة السابقين في الإسلام وكان «أبوذر» منهم.

هذا مضافاً إلى أنّه يعدّ أول من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفي الملأ من قريش.

فيوم اسلم «أبوذر» كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً، ولم تهيأ بعدُ ظروفُ الجَهْر بالدعوة إلى هذا الدين، فإنَّ أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددهم في ذلك اليوم عددَ الأصابع هم: النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وخمسة ممن آمنوا به، وقبلوا دعوته، ومع ملاحظة هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بدّ حسب الظاهر - من أن يُخفي «أبوذر» إسلامه، ويعودَ إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحدٌ في مكة.

ولكنَّ روحَ «أبي ذر» الطافحة بالإيمان والحماس أبت ذلك، وكأنه قد خُلِقَ لينهض في كل زمان ومكان ضدَّ الظلم والطغيان، ويرفع عقيدته في وجه

-
- 1 الواقعة: ١٠ - ١١ .
 - 2 التوبة: ١٠٠ .
 - 3 الحديد: ١٠ .

(418)

الباطل وأهله، ويكافح الانحراف والاعوجاج أيّاً كان مصدره، وصاحبه. وأئُّ باطل اكبر من أن يُطأطئء الناسُ أمامَ أصنام مصنوعة من الحجر، ويخضعوا أمام أوثان منحوتة من الخشب لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ويسجدوا لها ويتخذوها آلهة دون الله الخالق الكبير المتعال؟؟

إنه ليس في وسع «أبي ذر» أن يتحمّل هذا المشهد البغيض المقرء!!

من هنا قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد أن مكث في مكة قليلاً وقرأ شيئاً من القرآن: يا نبيّ الله ما تأمرني؟

قال: ترجعْ إلى قومك حتّى يبلغك أمري.

فقال له: والذي نفسي بيده لا أرجع حتّى أصرخ بالإسلام في المسجد.

قال: اني اخاف عليك أن تقتل.

قال: لا بد منه وإن قُتِلْتُ.

ثم دخل المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسوله. (1)

إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن هذا النداء كان أول نداء تحدّى جبروت قريش وشركها، وقد اطلقتها حنجرة رجل غريب لا حامى له في مكة ولا نصير، ولا قوم ولا قريب.

وقد وقع ما توقَّعه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فما أن دوى صوت ابي ذر في المسجد حتَّى قام إليه رجال قريش، وهاجموا عليه من كل جانب وضربوه بشدة حتَّى صرع فأناه العباس بن عبدالمطلب فأكبَّ عليه في محاولة لانقاذه من الموت - بطريقة لطيفة - وقال: قتلتم الرجل يا معشر قريش! انتم تجار وطريقكم على غفار، فتريدون ان يقطع الطريق، فامسكوا عنه. ونجحت محاولة «العباس» الانقاذية، وكفَّت قريش عن ابي ذر.

- [حلية الأولياء: ج ١، ص ١٥٨ و ١٥٩، الطبقات الكبرى: ج ٤، ص ٢٢٥، الاستيعاب: ج ٤، ص ٦٣، الاصابة: ج ٤، ص ٦٤، الدرجات الرفيعة: ص ٢٢٨].

(419)

ولكن أبانر الشاب الشجاع، والطافح بالحيوية والحماس عاد اليوم الثاني فصنع مثل ما صنعه في اليوم الاول فضربوه حتَّى صرع، فأكب عليه العباس، وقال لهم مثل ما قال في أول مرة فأمسكوا عنه.

ولا شك في انه لو لم يكن العباس لما نجى أبونذر من مخالف المشركين في اغلب الظن، ولكن أبانر لم يكن بذلك الرجل الذي يترجع عن هدفه بسرعة، ولهذا بدأ جهاده من جديد.

ففي يوم رأى امرأة تطوف بالبيت، وتدعو ساف و نائلة (وهما صنمان لقريش) وتسالهما ان يقضيا لها حاجاتها، فانزعج أبونذر من جهل تلك المرأة، ولكي يفهمها بانها تدعو صنمين لا يضران ولا ينفعان بل ولا يشعران قال: أنكحي أحدهما الآخر. فغضبت المرأة لقول ابي ذر في الصنمين، وتعلقت به وقالت: انت صابئ، فجاء فتية من قريش فضربوه وجاء ناس من بني بكر فانقذوه منهم. (١)

قبيلة غفار تعتنق الإسلام:

لقد أدرك رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - قابليات تلميذه وناصره الجديد، وصلابته الخارقة في مكافحة الباطل، ولكن حيث ان الوقت لم يكن يحنُ بعد للدخول في مواجهة ساخنة مع المشركين لهذا أمره رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يلحق بقومه، ويدعوهم إلى الإسلام، قائلاً له: «الحق بقومك فاذا بلغك ظهوري فأتني. »

فعاد ابونذر إلى قومه، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ويكلمهم عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويدعوهم إلى نبذ الاصنام وعبادة الله الواحد، والتخلق بالاخلاق الرغيبية.

فاسلم أبواه، أولاً، ثم اسلم نصف رجال قبيلته «غفار» ثم اختار البقية الإسلام بعد هجرة النبي إلى المدينة، ثم تبعها قبيلة «أسلم» حيث وفدوا على

(420)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واعتنقوا الإسلام.

ثم التحق ابوذر بعد معركة بدر وأحد برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في المدينة وأقام فيها. (1)

وربما كان إيذاء المشركين للمسلمين برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتخذ طابع التهديد والترهيب وممارسة الضغط النفسي والاقتصادي والاجتماعي.

فقد كان ابوجهل إذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لتسبهن حلمك، ولنفلن رأيك، ولنضعن شرفك.

وإن كان تاجراً قال له: لنكسدن تجارتك، ولنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربته، وأغرى به. (2)

وروي أيضاً أن «خبّاب بن الارت» صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قيناً بمكة يعمل السيوف وكان قد باع من «العاص بن وائل» سيوفاً صنعها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال يا خبّاب: أليس يزعم «محمّد» صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة أو ثياب أو خدم، قال خبّاب: بلى، قال: فأنظرنني إلى يوم القيامة يا خبّاب حتى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك فوالله لا تكون وصاحبك يا خبّاب اشتر عند الله مني. (3)!!

أعداء النبي الألداء:

إن للتعرف على أعداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخصومه الالذاء، ومواقفهم دوراً هاماً في تحليل جملة من حوادث التاريخ الإسلامي التي وقعت

- [الطبقات الكبرى: ج ٤، ص ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٦، الدرجات الرفيعة: ص ٢٢٥ و ٢٢٦ و ص ٢٢٩ و ٢٣٠.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٢٠.
- 3السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٧.

(421)

بعد الهجرة النبوية.

ونحن نكتفي هنا بادراج اسماء طائفة منهم ونذكر شيئاً من خصوصياتهم.

«-1 أبلهه»: عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وقد كان جاراً له - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو الذي لم يفنألحظة واحدة عن تكذيب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وايداء المسلمين.

2- «الاسود بن عبد يغوث» وكان أحد المستهزئين وكان إذا وجد مسلماً فقيراً لا يحميه أحد قال مستهزئاً: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى. (1)!!

ولم يمهله أجله ليرى بأمر عينيه كيف ورث المسلمون أرض كسرى وقيصر، ووطأوا عرشهما.

3- «الوليد بن المغيرة» شيخ قريش وحكيمها الذي كان يملك ثروة هائلة، وسوف نتحدث عنه وعن موقفه من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الفصل القادم.

4- «أمية» و «أبي» ابنا خلف، وقد مشى «أبي» هذا بعظم رميم إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم ففتته في يده ثم نفخه نحو النبي وقال: أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد ماترى (أو بعد ما رم)؟ فنزل قول الله تعالى: **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ.** (2)

وقد قتل ابنا خلف هذان في بدر.

5- «أبو الحكم بن هشام» الذي سماه المسلمون لعناده وتعصبه الجاهل ضد الإسلام بأبي جهل، وقد قتل هو الآخر في بدر أيضاً.

6- «العاص بن وائل» وهو والد «عمر بن العاص»، وهو الذي وصف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالأبتر.

- 1 السيرة الحلبية: ج 1، ص 318.
- 2 بحار الأنوار: ج 18، ص 202، السيرة النبوية: ج 1، ص 361 و 362.

«-7 عقبة بن أبي معيط» الذي كان من ألد أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأشد خصومه بغضاً له - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكان لا يألو جهداً في مضايقة المسلمين ولا يترك فرصة تمرّ دون إيذائهم. (1)!

هؤلاء هم بعض أعداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المبالغين في معاداته، وهناك غيرهم كأبي سفيان ممن ذكر المؤرخون خصوصياتهم كاملة في مؤلفاتهم، وقد أعرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعاية للاختصار.

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام:

لقد كان إسلام كل واحد من الذين أجابوا دعوة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - نابعاً من سبب معيّن.

فربّما أدّت حادثة صغيرة إلى أن يعتنق فردٌ أو فريقٌ الإسلام، وينضمّوا إلى صفوف المسلمين.

وقد اتّسم السبب الذي آل إلى إسلام عمر - من بين جميع تلكم الاسباب والعلل - بطرافة تقتضي التوقف عنده في هذه الدراسة التاريخية التحليلية.

على أن التسلسل التاريخي، والتنظيم الوقائي لاحداث الإسلام وان كان يقتضي منا ان نأتي على ذكر هذه الحادثة بعد هجرة صحابة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الحبشة، إلا أن الحديث حيث دار هنا حول صحابة النبي وكيفية اسلامهم ومواقفهم ناسب أن نشير هنا إلى كيفية إسلام الخليفة الثاني.

يقول ابن هشام: كان اسلام عمر - في ما بلغني - أن أخته بنت الخطاب وكانت عند «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» وكانت قد أسلمت وأسلم بعلمها «سعيد بن زيد»، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر (وهؤلاء هم كل من أسلم من آل الخطاب) وكان خطاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن.

- [الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٧ و ٥١، وراجع أيضاً أسد الغابة، والاصابة والاستيعاب وغيرها.

(423)

وكان «عمر» الذي كانت بينه وبين المسلمين علاقات جداً سيئة⁽¹⁾ قد أزعجه ما أصاب المجتمع المكي من تشتت وفرقة، وما لحق بقريش من المتاعب أثر ظهور الإسلام، من هنا عزم على أن يقضي على علة هذا الأمر باغتيال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والفتك به.

فخرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ورهطاً من أصحابه وقد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمّه «حمزة» بن عبدالمطلب و «ابوبكر» و «علي بن ابي طالب» في رجال من المسلمين يحفظونه ويحرسونه.

يقول «نعيم بن عبدالله» وقد كان صديقاً حميماً لعمر: لقيت عمراً وهو متوشح سيفاً ويريد مكاناً فقلت له: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً هذا الصابى الذي فرّق في أمر قریش، وسقّه أحلامها وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرّتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمّداً أفلا ترجع إلى اهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأيّ اهل بيتي؟

قال: خنتك وابن عمك «سعيد بن زيد» واختك «فاطمة بنت الخطاب» فقد والله أسلما، وتابعا محمّداً على دينه فعليك بهما.

فأغضب هذا النبأ عمر بشدة فانصرف عن الهدف الذي كان يرمي إليه وعاد من توه إلى بيت أخته، فدخل على أخته وختته وعندهما «خبّاب بن الأرت» معه صحيفة فيها سورة «طه» يقرّئهما إياها، فلما سمعوا حسّ «عمر» تغيب «خبّاب» في مخدع لهم، أوفي بعض البيت، واخفت «فاطمة بنت

- [راجع السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٤٢ - ٣٤٦.

(424)

الخطاب» الصحيفة، وكان «عمر» قد سمع حين دنا إلى البيت قراءة «خبّاب» عليهما، فلما دخل قال: «ما هذه الهيئمة (1) التي سمعت؟

قالا له: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمّداً على دينه.

وبطش بختته «سعيد بن زيد» فقامت إليه اخته «فاطمة بنت الخطاب» لتكفّه عن زوجها فضرّبها فشجّها.

فلما فعل ذلك قالت له اخته وختته: نعم قد اسلمنا وأمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى «عمر» ما بأخته من الدّم ندّم على ما صنع، فارعوى ورجع، وقال لأخته: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرّون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمّداً؟

فلما قال ذلك قالت له اخته: إننا نخشاك عليها. قال: لا تخافي وحلف لها بالهتة ليردّنها إذا قرأها، إليها.

فلما قال ذلك طمعت في اسلامه، فقالت: يا أخي، إنك نجس على شركك وأنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام «عمر» فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها آيات من سورة «طه» هي:

(طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكراً لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض و السماوات العلى * الرحمن على العرش
أستوى * له ما في السماوات و ما في الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و أخفى. (2))

ولقد تركت هذه الآيات المحكمة الفصيحة البليغة تأثيراً شديداً في نفس عمر فقال: ما احسن هذا الكلام؟

وقرر الرجل، الذي كان قبل ثوان عدو الإسلام الأول، أن يغيّر موقفه،

- [الهينمة صوت كلام لا يفهم.
- 2طه: ١ - ٨.

(425)

فتوجه من توه إلى البيت الذي ذكر له أن فيه رسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وجماعة من أصحابه وهو متوشح سيفه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فنظر من خلل الباب فراه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو فزع وأخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بما رأى، فقال حمزة: فائذن له، فان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إئذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بمجمع ردائه ثم جبده جبدة شديدة، وقال: ما جاء بك يابن الخطاب فوالله ما أرى تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة!؟

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لاؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.

وهكذا اسلم «عمر» عند رسول الله وأصحابه وانضوى إلى صفوف المسلمين.

ثم ان ابن هشام روى رواية أخرى في كيفية اسلام عمر من أراد الوقوف عليها راجعها في السيرة النبوية. (1)

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٤٣ - ٣٤٦.

(426)

(427)

١٦ رأي قريش في القرآن

ان البحث حول حقيقة الاعجاز القرآني أمرٌ خارج عن اطار هدفنا في هذا الكتاب فذلك متروكٌ إلى الكتب الإعتقادية والكلامية. ولكن الأبحاث التاريخية تهدينا إلى أن القرآن الكريم كان من أكبر وأقوى اسلحة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بحيث خضع أمام فصاحته البالغة وحلاوة كلماته وقوة آياته، وعباراته، اساتذة الفصاحة والبلاغة وأمراء البيان والكلام، وعمالقة الكتابة والخطابة، واعترفوا برمتهم، وقضتهم وقضيتهم بأن القرآن الذي جاء به محمدٌ يحتل أعلى مكان في الفصاحة والبلاغة، وأن مثل هذا الحديث لم يعرفه البشر ولم يعهد له التاريخ الانساني نظيراً.

فلقد كانت جاذبيّة «القرآن الكريم» وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند استماع آياته فرائص أعدى أعدائه، وربما انهارت قواه، بقي مدة طويلة، لا يقوى على جراك، ولا يملك فعل شيء.

وفيما يلي نذكر بعض النماذج في هذا المجال:

حُكْمُ الْوَلِيدِ فِي الْقُرْآنِ:

كان «الوليد بن المغيرة» ممن يرجع إليه العربُ لحل الكثير من مشاكلها ،

(428)

وكان داسين، وثروة كبيرة فيهم.

وعندما واجهت قريش مشكلة ظهور الإسلام وانتشاره في القبائل مشى فريقٌ منهم إلى الوليد يلتمسون منه حلاً لهذا الأمر الذي بات يهدد كيان الزعامة المكيّة الجاهلية، وطلبوا منه أن يبيّن رأيه في القرآن الكريم وقالوا: هل هو سحر أم كهانة أم حديث قد حاكه بنفسه.

فاستنظرهم «الوليد» ليعطي رأيه فيه بعد أن يسمع شيئاً من القرآن، فأتى إلى الحجر حيث كان يجلس النبي، وابتلو القرآن، فقال: يا محمد أنشدني شعرك.

فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث انبياءه ورسله.

فقال: أنلّ علىّ منه، فقرأ عليه رسول الله:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.»

فلما سمع: الرحمان، استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى بالرحمان؟

قال: لا، ولكني أدعو إلى الله وهو الرحمان الرحيم ثم افتتح سورة «حم السجدة»، فلما بلغ إلى قوله تعالى:

(فَأَنْعَزُوا فَأَنْ أُنذِرُكُمْ صَاعِقَةٌ مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودٍ.)

وسمعه الوليد، فاقشعر جلده، وقامت كل شعرة في راسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقال قريش: يا ابا الحكم صبا ابو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع الينا وقد قيل قوله، ومضى إلى منزله.

فاغتمت قريش من ذلك غماً شديداً وغدا عليه ابوجهل فقال: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا ابن أخي؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوت واني على دين قومي وأبائي، ولكني سمعت كلاماً صعباً

(429)

تقشعر منه الجلود فقال أبوجهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هي؟

قال: لا وان الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، لا يشبه بعضه بعضاً، له طلاوة.

قال: فكأنه هي؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعني افكر فيه.

فلما كان من الغد، قالوا: يا ابا عبد شمس ما تقول؟ قال: قولوا: هو سحر فانه أخذ بقلوب الناس فأنزل الله سبحانه فيه:

(ذُرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَيْنَ شُهُوداً) (إلى قوله): عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ. (1)(2)

* * *

نموذج آخر:

كان «عتبة بن ربيعة» من كبراء قريش واشرافها، ويوم أسلم «حمزة» وأصبح أصحاب رسول الله يزيدون ويكثران اغتمت قريش كلها، وخشي زعماء المشركين ان ينتشر الإسلام اكثر من هذا فقال عتبة وهو جالس في نادي قريش يوماً، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى «محمّد» فالكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

- [المدرج: ١١ - ٣٠].
- 2بحار الأنوار: ج ١٧، ص ٢١١ و ٢١٢، إعلام الوري بأعلام الوري: ص ٤١ و ٤٢.

(430)

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه.

فقام إليه «عتبة» حتّى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقال: يابن أخي إنك منّا حيث ما قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قل يا أبا الوليد اسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جنت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتّى لانقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً (وهو ما يتراءى للناس من الجنّ) تراه لا تستطيع ردهً عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبدّلنا فيه أموالنا حتّى نُبرئك منه فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتّى يداوي منه، حتّى إذا فرغ «عتبة»، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع منّي؛ قال: إفعل، قال:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. (1))

ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه «عتبة» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه وبقي على هذه مدة من الزمن صامتاً وكأنه قد سلب قدرة النطق، ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى السجدة فسجد ثم قال:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.»

- [فصلت: ١ - ٥.

(431)

فقام «عتبة» إلى أصحابه وقد تغيرت ملامحه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي اني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله هذا الذي سمعت منه نبأ عظيم، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجت قريش من مقالة «عتبة» هذا وسخرت به وقالت: سحرك والله يا ابا الوليد بلسانه!!

قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم. (1)

هذان نموذجان من رأي كبار فصحاء العرب في العهد الجاهلي، في القرآن الكريم.

على أن هناك أمثلة ونماذج أخرى كثيرة في هذا المجال.

تحججات قريش العجيبة:

اجتمع «عتبة بن ربيعة»، و «شيبه بن ربيعة» و «أبوسفيان بن حرب» و «النضر بن الحارث»، و «أبو البخترى»، و «الوليد بن المغيرة»، و «ابوجهل» و «العاص بن وائل» وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: إبعثوا إلى

«محمّد» فكلموه، وخاصموه حتّى تعذروا فيه، فيعثوا إليه؛ فجاءهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدء وانهم قد غيّروا مواقفهم، وكان يحبّ رشدهم وهدايتهم حتّى جلس إليهم.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٩٣ و ٢٩٤.

(432)

فقالوا له: يا محمّد إنّنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وأنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثلاً ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة... ومضوا يعددون أموراً من هذا القبيل ثم اقترحوا عليه أموراً نكرها الله تعالى بتمامها في الآية ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

-[تفجر لنا من الأرض ينبوعاً.

-2أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً.

-3أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً.

-4أو تأتي بالله و الملائكة قبيلاً.

-5أو يكون لك بيت من زخرف.

-6أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرؤيتك حتّى تنزل علينا كتاباً نقرؤه!!)

* * *

وحيث أنّ مضمون هذه الآيات هو عدم تلبية النبي لمطالب قريش حيث قال: **قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا** (قد تذر به المستشرقون للايقاع بالرسالة المحمّدية لذلك نعد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقية لعدم تلبية النبي مطالب قريش ومقترحاتهم.

الجواب: إنّ الأنبياء لا يأتون بالمعجز في كل ظرف و زمان، فإن للاعجاز شروطاً خاصة لم تتوفر في هذه الاقتراحات، وهذه الشروط هي:

أولاً: أن لا تكون المعجزة من الأمور المستحيلة التي لا يمكن تحققها، فإنّ مثل هذه الأمور خارجة عن إطار القدرة، ولا تتعلق بها مشيئة الله تعالى ولا مشيئة أى صاحب إرادة مطلقاً.

وعلى هذا الأساس إذا طلب الناس من النبيّ أمراً محالاً، فقبول طلبهم بعدم الاهتمام من قبل النبيّ لم يكن ذلك دليلاً على إنكار صدور المعجزة على أيدي الأنبياء قط.

(433)

هذا الشرط لم يكن متوفراً في بعض مقترحات المشركين المذكورة (المقترح الرابع) فانهم طلبوا من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يأتي لهم بالله سبحانه وتعالى ليقابلوه وجهاً لوجه، ويروه جهرة ومن قريب، ورؤية الله تعالى امر محال، لأن رؤيته تستلزم أن يكون سبحانه محدوداً بالزمان والمكان، وأن يكون جسماً وذا لون وصورة وهو تعالى منزّه عن المادة ولوازم المادية. بل حتّى مقترحهم الثالث لو كان المقصود منه أن تسقط السماء عليهم (لا أن تسقط قطعة من الصخر على رؤوسهم و تقتلهم) فان ذلك هو أيضاً من المحالات إذ أن المشيئة الالهية تعلّقت بان يفعل الله هذا في نهاية العالم، والنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد أخبر المشركين بهذا الأمر أيضاً كما يدل عليه قولهم: «كما زعمت.»

إنّ إنهدام المنظومة الشمسيّة وتبعثر النجوم وتساقطها وإن لم يكن في حد ذاته بالأمر المحال، ولكنّه - حسب المشيئة الإلهية الحكيمة وإرادته النافذة الفاضية بأن يستمر النوع البشري، ويصل إلى مرحلة الكمال - يعدّ محالاً، ولا يمكن أن يفعل حكيماً خلاف ما يقتضيه هدفه وغايته.

ثانياً: حيث أنّ الغاية المنشودة من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستدلّ به على صدق دعوى النبيّ، وصحة انتسابه إلى الله، وبالتالي يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بعالم ما فوق الطبيعة، لذلك فإنّ أى اقتراح ومطالبة بالمعجزة لا تتوفر فيها هذه الصفة يعني على فرض أن يلبى النبيّ طلبهم ويأتي لهم بالمعجزة لا يكون ذلك دليلاً على ارتباطه بعالم الغيب، فحينئذ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبيّ بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكورة من هذا النوع، وذلك مثل تجيير ينبوع من الأرض، أو أن تكون له جنة من نخيل وعنب، أو أن يكون له بيتٌ من زخرف وذهب، فإنّ مثل هذه الأمور لا تدل على نبوة من يمتلكها إذ ما اكثر الذين يمتلكون واحدة من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء، بل ربما يملكون اكثر من ذلك، ومع ذلك لا يشم فيهم رائحة الايمان فضلا عن النبوة.

(434)

فاذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوة، ولا تكون دليلاً على صدق من يدعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوة، وجئت عنه منزلة الأنبياء.

وقد يقال: إن هذه الأشياء⁽¹⁾ لا تدل على صدق دعوى النبي إذا حصلت عن طريق الأسباب العادية، ولكنها لو حصلت بصورة غير عادية ولا متعارفة كانت ولا شك من المعجزات الإلهية، ودلت على صدق النبي وصحة دعواه.

ولكن الظاهر أن هذه فكرة باطلة لأن المشركين كانوا يهدفون من اقتراحاتهم هذه أن يكون النبي صاحب مال و ثروة، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبي الله ورسوله فقيراً لا يملك شيئاً من الثروة والمال، وكانوا يعتقدون أن الوحي الإلهي يجب أن ينزل على رجل غني ذي طول وحول، ولذلك قالوا مستعربين ومستنكرين:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)⁽²⁾!!؟

أي لماذا لم ينزل هذا القرآن على رجل ثري من مكة أو الطائف.

ومما يدل على أن الهدف كان هو أن يملك النبي مثل هذه الأمور بأي طريق كان، ولو بالطريق العادي أنهم كانوا يريدون هذه الأشياء للنبي نفسه إذ قالوا:

(أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ)⁽³⁾

وبعبارة أخرى: كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً من ذهب فاننا لن نؤمن لك!!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطة القدرة الغيبية لم يكن وجه حينئذ لقولهم: ما لم يكن «لك» بيت من زخرف، فاننا نؤمن بك بل كان يكفي أن يقولوا: إذا لم تحدث وتوجد بيتاً وجنة فاننا لن نؤمن لك.

- 1 أي الامور الثلاثة المقترحة الينبوع والجنة والبيت من ذهب.

- 2 الزخرف: ٣١.

- 3 الاسراء: ٩٣.

أما قولهم في مطلع اقتراحاتهم: «تُفَجَّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنْبِئُ عَلًا» فان مقصودهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالاعجاز ينبوعاً لينتفعوا به، بل يفعل ذلك لكي يؤمنوا به.

ثالثاً: إن المقصود من المعجزة هو الاهتداء في ضوئها إلى صحة دعوى النبيّ وصدق مقاله، والإيمان بمنصبه، والإعتقاد بمقامه، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزة من يكون الاتيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبيّ، فحينئذ كان الاتيان بالمعجزة وتلبية اقتراحه أمراً مستحسناً، وغير مقبوح عقلاً.

أما إذا كان المقترحون، يقترحون عناداً ولجاجاً، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً وتسليةً كما يفعل الناس مع السحرة والمرتاضين فإن منزلة الأنبياء أجل - حينئذ - من أن يليّ مثل هذه المقترحات، ويستجيب لمثل هذه المطالب، وقد كانت بعض إقتراحات المشركين من هذا النمط.

فإن مطالبتهم بأن يصعدَ النبيُّ إلى السماء، أو أن يُنزل من السماء كتاباً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقة لأنهم لو كانوا ممن يهدف الوصول إلى الحقيقة فلماذا لم يكتفوا بمجرد صعوده إلى السماء بل كانوا يصرون على أن يضمّ أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزل معه كتاباً)!!

ثم أنه يُستفاد من آيات أخرى، غير هاتين الآيتين أيضاً، أنهم كانوا سيعاندون، ويصرون على كفرهم حتّى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرح بذلك قوله تعالى:

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ⁽¹⁾)

فمن غير المستبعد أن يكون الكتاب المنزل في قرطاس إشارة إلى إقتراح المشركين الذي جاء ضمن آيات سورة الاسراء أي قولهم: **أَوْ تَرَفَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكِ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهِ**⁽²⁾ (فقال الله سبحانه: حَتَّى لَوْ

- [الانعام: ٧].
- [الأسراء: ٩٣].

فعلنا لهم ذلك لكفروا، واحجموا عن الإيمان.

رابعاً: إن طلب المعجزة إنّما هو لأجل أن يستتبع الاتيان بها الإيمان بالرسالة والانضمام إلى صفوف المؤمنين، فإذا كانت نتيجة المعجزة هي إباء المقترحين استلزم ذلك نقض الغرض المنشود من المعجزة، وانتفاء فائدتها.

فإذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم، هو نزول الصخور السماوية لآبادتهم فإن هذا الطلب لا يتفق أبداً مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض.

وبالتالي ينبغي أن نذكر بنقطة وهي: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على خلاف ما تصوّر المستدلون بهذه الآية على نفي اية معجزة لرسول الإسلام - لم يصف نفسه بالعجز وعدم القدرة على الاتيان بالمعجزة بل أفاد بقوله) **سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بِشْرًا رَسُولًا** (1) (أمرين):

1- تنزيه الله، فهو بقوله) **سُبْحَانَ رَبِّي** (نزّه الله تعالى عن كل عجز ونقص كما نزّهه عن الرؤية ووصفه بالقدرة على كل شيء ممكن.

2- محدودية قدرة النبي، إذ بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -) **هَلْ كُنْتُ إِلَّا بِشْرًا رَسُولًا** (أفاد بأنه امرئ مأمور لا أكثر وأنه مطيع لأمر الله وإرادته فهو يأتي بما يريد ربّه، والأمر إلى الله كله، وليس للنبي أن يُلبي أي طلب واقتراح بإرادته.

وبعبارة أخرى: ان الآية ركّزت في مقام الجواب على طلبهم بعد تنزيه الله عن العجز والرؤية على كلمتي: «البشر والرسول» والهدف هو انه: إذا أنتم قد طلبتم هذه الأمور منّي من جهة إنني بشر، كان طلبكم هذا طلباً غير صحيح، لأن هذه الأمور تحتاج إلى قدرة الهيئة.

وإن طلبتموها منّي من جهة اني نبيّ رسول فإن النبي والرسول ما هو إلا امرئ مأمورٌ يفعل ما يذن به الله، وليس له ان يفعل ما يشاء هو دون إرادة الله تعالى.

- [الأسراء: ٩٣ .

(437)

وبهذا اتضح أن هذه الآيات لا تدلّ على ما استدل به النافون لمعاجز النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وكان ممّا تحججت به قريش على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنهم قالوا:

لَوْ كَانَ مُحَمَّدًا نَبِيًّا لَشَغَلْتَهُ النُّبُوَّةُ عَنِ النِّسَاءِ وَلَأَمَكْنَهُ جَمْعُ الْآيَاتِ (اي لأنته الآيات دفعة واحدة) ولأمكنه منع الموت عن اقاربه ولما مات أبوطالب وخديجة فنزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ. يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ. وَإِنْ مَا نَرِيكَ بِعِضِ الدِّبْرِ نَعُدُّهُمْ أَوْ نَتُوفِينِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَ عَلَيْنَا الْحِسَابُ.)

وبذلك ردّ عليهم. (2)(1)

الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم:

هذا القسم هو احدى النقاط الجديرة بالدراسة في تاريخ الإسلام، لأن المرء قد يسائل نفسه، لماذا ترى كانت قريش تعارض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أشدّ المعارضة رغم أنها كانت تعتبره الصادق الأمين ولم تعهد منه انحرافاً أو خطأ قط وكانت تسمع كلامه الفصيح البليغ الذي يأسر القلوب، وربما شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعادة، الخارجة عن حدود القوانين الطبيعية على يديه.

إن لهذا التمرد والمعارضة يعود إلى علة أو علل عديدة هي:

1- حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - :

لقد عارض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخالفه فريقٌ ممن عارضه بسبب

- [الرعد: ٣٨ - ٤٠ .
- 2بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٧ عن المناقب.

(438)

حسد هم له، فقد كانوا يَتَمَنُّونَ أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب، وصاحب هذه المنزلة.

فقد قال المفسِّرونَ عند قوله تعالى: **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (1) «أن «الوليد بن المغيرة» قال: أُيُنزَّلُ على محمَّد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك «ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي» سيد ثقيف ونحن عظيمي القريتين فأنزل الله تعالى فيه الآية. (2)

وروى انه قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكننُ أولى بها منك لأنني اكبرُ منك سنأ وأكثر منك مالا. (3)

وكان «أمية بن أبي الصلت» من الذين كانوا يقولون هذا الكلام حول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكان يتمنى كثيراً أن ينال هو هذا المقام ويحظى بهذا المنصب العظيم، ولم يتبع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى آخر حياته، وكان يؤلب الناس عليه.

وقد سأل «الاحنس بن شريق» - وهو من أعداء رسول الله - أبا جهل يوماً يا ابا الحكم ما رأيك فيما سمعت من «محمَّد» ؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجادبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منأ نبيُّ يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك مثل هذه، والله لا نؤمنُ به أبداً ولا نصدِّقه. (4)

هذه النماذج تُظهرُ الحسد الذي كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتياع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتصديقه، فَعَبُوا على الله وتركوا أمره عياناً، ولجّوا فيما هم عليه من الكفر، وهناك نماذج وأمثلة أخرى سجلتها صفحات التاريخ أعرضنا عن إدراجها هنا.

-
- [الزخرف: ٣١].
 - 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦١.
 - 3بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٣٥.
 - 4السيرة النبوية: ج ١، ص ٣١٥ و ٣١٦.

(439)

-2معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم:

وكان لهذا العامل الأثر الأكبر في عتو قريش و معارضتها لدعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنهم كانوا أصحاب لهو ولعب، وفسق ومجون، ومثل هؤلاء الذين أمضوا سنوات عديدة على هذا النحو، دون ان يقيدهم شيء من الحدود والقيود، وجدوا دعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تخالف عاداتهم القديمة، وكان ترك مثل تلك العادة التي تتفق معها أهوائهم ورغباتهم النفسية أمراً يلازم النصب والعناء والجهد.

-3الْخَوْفُ مِنْ عُقُوبَاتِ الْيَوْمِ الْآخِرِ:

إن سماع آيات العذاب التي تنذر الفسقة والظالمين وتوعدهم بالعقوبات الثقيلة ارعب قلوبهم، وأقلق نفوسهم بشدة.

فعند ما كان رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتلو الآيات المتعلقة بيوم القيامة وأوضاعه، وقضاياها في الاجتماعات والاماكن العامة، كان يحدث بذلك ضجةً كبرى في أوساطهم، فيهدم مجالس لهوهم، وأنسهم.

إنَّ العربيَّ الَّذِي كان يسلِّخُ نفسه بكل ما استطاع من سلاح ليدفع عن نفسه أى خطر محتمل، ويعمد إلى ممارسة القرعة ويتعاطى الانصاف والازلام ليحصل على لقمة عيشه، ويتفأل بالاحجار، ويتطيّر ويتشاءم بالطيور ويستدلُّ بحالاتها على حوادث وقَعَت أو تَقَعُ، لم يكن على استعداد لأن يهدأ من دون ان يحصل على ضمان بعدم التعرض لما يخبر عنه «محمّد» من عذاب وعقاب!!

من هنا كانوا يحاربون النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويخالفونه حتّى لا يسمعوا وعده ووعيد.

واليك بعض الآيات التي كانت تقلق بشدة نفوس المترفين من قريش:

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ أَمْرٍءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. (1))

(440)

وبينما كانوا يمدّون موائد اللّهُو والشراب في ظلال الكعبة ويحتسون كؤوس الخمر كانوا فجأة يسمعون هذه الآية:

(كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ).⁽¹⁾

فتلقوا في نفوسهم رعباً عجبياً، وينتابهم الاضطراب الشديد حتّى أنهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانباً ويتملكهم خوف شديد لم يعرفوا له مثيلاً.

4-الخَوْفُ مِنَ الْقَبَائِلِ الْعَرَبِيَّةِ الْمَشْرِكَةِ:

قال «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : انا لنعلم أنّ قولك حقّ ولكن يمئنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (إن تركنا الوثنية التي تدين بها ويعتبروننا سدنة لأوثانها) ولا طاقة لنا بها. فنزل قوله تعالى يرد عليهم:

(وَ قَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمْكِنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا. (3)(2))

وهكذا كان تخوّف قريش من العرب إن هي تركت ما كان عليه العرب من الوثنية والشرك أحد الأسباب لعتوهم وإعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية.

طائفة من اعتراضات المشركين:

وربما اعترض المشركون على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قائلين: إن هذه الارض ليست بأرض الانبياء، وإنما ارض الأنبياء الشام فأت الشام.⁽⁴⁾

وكان اكثر المشركين يقولون - وذلك بوحى من اليهود - لماذا لا ينزل القرآن على «محمّد» دفعة واحدة كالالتوراة والانجيل فحكى القرآن الكريم إعتراضهم

- 1 النساء: ٥٦.

- 2 القصص: ٥٧.

- 3 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٣٦.

- 4 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٨.

(441)

هذا بنصه إذ قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً.)

ثم قال تعالى ردّاً على إعتراضهم هذا:

(كَذَلِكَ لِنُنَبِّئَ بِهِ قُلُوبَكَ. (1))

إن القرآن يهتم بهذا الإعتراض، ويوضح مسألة «النزول التدريجي» للقرآن الكريم و يقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حذى حذوهم، بمنطقه المحكم، وبيانه القوي.

وها نحن نعد هنا إلى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسألة أيضاً:

القرآن و النزول التدريجي:

إن التاريخ القطعي لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سوره تشهد بأن آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجاً.

فبمراجعة فاحصة لأوضاع مكة، والمدينة يمكن تمييز المكّي من هذه الآيات عن مدنيّتها.

فالآيات التي تتحدث عن مكافحة الشرك والوثنية ودعوة الناس إلى الله الواحد، والإيمان باليوم الآخر مكّيّة، بينما تكون الآيات التي تدور حول الأحكام وتحت على الجهاد والقتال مدنيّة، ذلك لأنّ الخطاب في البيئّة المكّيّة كان موجّهاً إلى المشركين عبدة الاوثان الذين كانوا ينكرون توحيد الله، واليوم الآخر، فهنا تكون الآيات التي تتحدث حول هذا الموضوع قد نزلت في هذه البيئّة.

في حين كان الخطاب في المدينة المنورة موجّهاً إلى المؤمنين بالله، وإلى جماعة اليهود والنصارى، وكان الجهاد والقتال في سبيل إعلاء كلمة الله هو الأعمال المهمّة التي بدأها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وواصلها في هذه البيئّة، من هنا تكون الآيات التي تتضمن الحديث حول الاحكام والفروع والقوانين، ويدور

- [الفرقان: ٣٢].

(442)

الحديث فيها أيضاً حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمن الحنث - كذلك - على الجهاد والقتال والتضحية في سبيل اعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، آيات مدنيّة.

إن كثيراً من الآيات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وهذه الحوادث هي التي تشكل ما يسمى بشأن أو أسباب النزول التي يكون الوقوف عليها مُوجباً لفهم مفاد الآية، وإيضاح مفادها، فان وقوع هذه الحوادث كان سبباً لنزول آيات فيها بالمناسبة.

على أن بعض الآيات الأخرى نزلت جواباً على أسئلة الناس، ولرفع حاجاتهم في المجالات المختلفة.

والبعض الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الإلهية.

ولهذه الأسباب يمكن القول بان القرآن الكريم نزل على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تدريجاً لتدرج موجبات النزول.

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الامر أيضاً في بعض المواضع إذ قال:

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ. (1))

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تنزل آيات القرآن كلها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جملة واحدة، ودفعة واحدة كما حدث ذلك للتوراة والإنجيل من قبل؟!

إن هذا السؤال لم يكن جديداً بل طرحه أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعارضوه في عصر الرسالة في صورة الاعتراض أيضاً حيث كانوا يقولون:

(لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً. (2))

ويمكن تقرير و شرح هذا الاعتراض على نحوين:

- [1] إذا كان الإسلام ديناً إلهياً، وكان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب الله على رسوله، فلا بد أن يكون ديناً كاملاً، ومثل هذا الدين

الكامل

- [1] الاسراء: ١٠٦ .

- [2] الفرقان: ٣٢ .

يجب أن ينزل بواسطة ملائكة الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جملة واحدة من دون تدرّج ولا توقف في نزول الآيات، إذا لا مبرّر ولا داعي لأن ينزل ديناً كاملاً من جميع الجهات، مكتمل من حيث الأصول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن، على نحو التدرّج في ٢٣ عاماً، ولمناسبات مختلفة.

وحيث أن القرآن نزل منجّماً، وبصورة متفرقة متناثرة، وعقيب طائفة من الأسئلة، أو وقوع حوادث و طرء حاجات في أزمنة مختلفة يمكن الحدس بان هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأصول والفروع، وهو يتدرّج في التكامل ومثل هذا الدين الناقص الذي يسير نحو كماله خطوة خطوة وبالتدرّج لا يصح أن يوصف بالدين الالهيّ.

-2إن آيات القرآن والتاريخ القطعي والمسلم للتوراة والإنجيل والزبور تحكي جميعها عن أن هذه الكتب السماوية أعطيت إلى المرسلين بها في ألواح مكتوبة مدوّنة، فلما لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغرار، كأن ينزل القرآن على «محمّد» في لوح مكتوب كما نزل التوراة في ألواح مكتوبة؟!!

وحيث أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بهذه الكتب السماوية قط، ولم يكن لهم على علم مسبق بكيفية نزولها، لذا يمكن القول بان مقصودهم من هذا الاعتراض كان هو الشكل الأول من هذا التوضيح، والذي يتلخص في أنه لماذا لم ينزل ملائكة الوحي آيات القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جملة واحدة، بل نزلت هذه الآيات عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - في فواصل زمنية متفاوتة، وبمناسبات وحسب وقائع مختلفة متدرّجة؟!!

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن:

ولقد كشف القرآن القناع - في معرض الردّ على إعتراض المشركين هذا - عن حكّم وأسرار النزول التدريجي للقرآن الكريم.

واليك توضيح هذا القسم الذي اشار إليه الكتاب العزيز بعبارة مقتضبة قصيرة:

(444)

-1إن الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - يتحمّل مسؤوليات كبرى، وان شخصية كهذه من الطبيعي ان يواجه مشاكل ومتاعب باهضة وصعبة، ولا ريب أن تلك المشاكل والمتاعب توجب الكلال، وانخفاض مستوى النشاط مهما كانت الروح التي يتمتع بها الشخص عظيمة، وقويّة، في مثل هذه الحالة يكون تجديد الارتباط بالعالم الأعلى، وتكزّر نزول الملك من جانب الله تعالى باعثاً على تجدد النشاط، وعاملاً قوياً في بثّ القوة والحماس والمعنوية الفاعلة في نفس النبيّ وروحه، وبالتالي فان العناية والمحبة الالهية الممتدة لنبيّه ورسوله إنما تتجدد بتكرّر نزول الوحي عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - من جانبه تعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة النفسية الكبرى إذ قال:

(كذلك يُنْتَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ. (1))

-ويمكن ان تكون الجملة المذكورة ناظرة إلى جهة أخرى وهي: انّ المصالح التربوية والتعليمية تقتضي أن ينزل القرآن الكريم على نحو التدرّج ويُلقى إلى الناس على هذا الشكل ايضاً وذلك لان النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - معلّم الأمة، وطبيبها الروحيّ الَّذِي يُبْعَثُ إلى الناس بالوصفات الالهية لتعليمهم، وهدايتهم ومعالجة أمراضهم وأدوائهم الاجتماعية والخلقيّة، والفكرية، وكُلِّفَ بأن يُطبّقَ هذه الوصفات في حياتهم العملية، ومثل هذا يتطلب التدرّج لينفع الدواء - حينئذٍ - وتنجع المعالجة.

إن أفضل وأجح أساليب التربية هو أن يمتزج الجانب العمليّ بالجانب النظري في أيّة محاولة تربوية، وأن يطبق كل ما يدرسه الاستاذ بصورة عملية تطبيقية، ويعطي لما يلقيه من معلومات، صبغة تحقيقية، ويتجنّب بشدّة إتصاف أفكاره وآراءه بالطابع النظريّ البحت.

فلو أن الاستاذ المتخصّص في الطبّ اكتفى بالقاء جملة من المعلومات الكليّة والأسس العامة من الطبّ على طلابه في الصف حُرْمَ النتائج المتوخّاة والغايات

- [الفرقان: ٣٢].

(445)

المطلوبة من تعليم الطبّ، بشكل كامل.

أما إذا قرّن الاستاذ درسه النظري بالإرشاد العمليّ وطبّق ما ألقاه وبيّنه من أفكار ومعلومات في هذا المجال على جسم مريض راقداً أمام الطلبة فانه سيحصل على نتائج أحسن، ويساعد الطلبة على فهم افضل للمواد التي درسوها في هذا المجال.

فلو أنّ الآيات القرآنية الكريمة قد نزلت جملةً واحدة (والحال أن المجتمع الإسلامي لم يكن يحتاج إلى كثير منها) كان القرآن - حينئذٍ - فاقداً لهذه المزبة التربوية الهامة التي أشرنا إليها قريباً في مثال تدريس الطب.

ان بيان الآيات التي يشعر الناس في انفسهم بعدم الحاجة إلى اخذها وتعلّمها، لا يترك التأثير الباهر في القلوب، بينما إذا نزل ملائكة الوحي بآيات القرآن حسب حاجات الناس التي يشعرون فيها بضرورة تعلّمها لتضمّنّها الأحكام والأصول والفروع التي يحتاجون إليها فانه لا شكّ يكون لها في هذه الحالة تأثير أحسن وأقوى في قلوب الناس. كما سيكون لها ترسّخ أكبر في نفوسهم، وسيظهر الناس من انفسهم إستعداداً أكبر لاخذ ألفاظها ومعانيها، وفوق كل ذلك سيشعرون بنتائج هذه التعاليم عند تعليم النبيّ إياها لهم، وعندئذٍ

تتحقق المقولة التربوية التي اشرنا إليها في ما سبق وهي اقتران كلام المرّي بالنتيجة لأن النظريات إتخذت طابعاً عملياً، ولم تكن مجرد نظريات لا ترتبط بالواقع.

ولكن يبقى هنا سؤال آخر وهو: إذا كان نزول القرآن قد تحقّق على نحو التدرّج وتبعاً للاحتياجات والحوادث المختلفة، فإن ذلك يستلزم انقسام العلاقات والروابط بين الآيات والسور، وهذا ينتج أن لا يهتم الفكر البشري بتعلّم وحفظ معارفها لتبعثرها، وتباعده أزمنتها وغياب علاقاتها، ولكن لو نزل القرآن جملة واحدة وتلاه ملائكة الوحي على رسول الله دفعة واحدة لزوَعِيَت الروابط والعلاقات بين قضايا الوحي ولتضاعفَت رغبة الناس واستعدادهم لأخذها وحفظها؟

(446)

ولقد أجاب القرآن الكريم أيضاً على هذا السؤال إذ قال: صحيح أن آيات القرآن الكريم نزلت على نحو التدرّج تبعاً لطائفة من المقترضات والموجبات إلا أن هذا النزول التدرّجي لا يمنع أبداً من ترابط مطالبه، وارتباط مواضعه بعضها ببعض، فإن الله تعالى أفاض على هذه الآيات إنسجاماً وترابطاً خاصاً يمكن الإنسان من تعلمها وضبطها وحفظها إذا أعطى الموضوع قليلاً من الإهتمام إذ قال تعالى:

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا) ⁽¹⁾

أي إننا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً.

أسرارٌ أخرى لنزول القرآن تدرّجاً:

-3 لقد واجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في فترة رسالته ونبوّته فئات مختلفة من الناس: كاليونانيين، واليهود والمسيحيين الذين كان لكل فئة منهم ديناً خاصاً، وعقائد وتصورات خاصة حول المبدأ والمعاد، وغيرهما من المعارف العقلية.

وقد كانت اللقاءات المختلفة هذه توجب أن يعمد الوحي الإلهي إلى توضيح وبيان عقائد هذه الفئات (وإن لم يكن مطلوباً ومقترحاً من قبلهم) ويقم الأدلة والبراهين على بطلانها، وزيفها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت هذه اللقاءات في أزمنة متفاوتة، وأوقات مختلفة، لهذا لم يكن بدّ من أن ينزل الوحي الإلهي تدرّجاً، وفي الأوقات المختلفة، ويتصدى لبيان بطلان تلك العقائد والتصورات ويجب على شبهات المخالفين واعتراضاتهم.

وربما كانت توجب هذه المواجهات العقائدية إلى أن يطرحوا على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعض الاسئلة إمتحاناً واختباراً له وكان على النبي أن

(447)

يجيب عليها، وحيث أن هذه الاسئلة كانت تطرح في اوقات مختلفة، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحي الالهي في الأوقات والأزمنة المختلفة، وعلى نحو التدريج.

هذا مضافاً إلى أن حياة النبي نفسه كان حياة ثورة، ووقائع، وكان النبي يواجه باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها، وبيان المنهج فيها من جانب الوحي الالهي.

وربما كان الناس أنفسهم يواجهون في حياتهم اليومية حوادثاً وأموراً يرجعون فيها إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يطلبون منه الحكم الالهي فيها ويسألونه عما يجب إتخاذه من الموقف الشرعي في تلك الحوادث وما يشابهها.

وحيث أن هذه الحوادث، وما يترتب عليها من تساؤلات كانت تقع في اوقات مختلفة، وبمرور الزمن، لذلك لم يكن بد ايضاً من ان ينزل الوحي الالهي بالتدريج ليجيب على هذه الأسئلة أولاً بأول.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقاط، وإلى نقاط أخرى غيرها في قوله تعالى:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا.)⁽¹⁾

4- إن للنزول التدريجي للقرآن الكريم وراء كل ذلك سرّاً آخر، وعلّة أخرى غفلوا عنها، ألا وهي: هداية الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب، وأن القرآن ليس الأ كتاباً سماوياً، ووحياً الهياً لا غير، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشري، لأن القرآن نزل خلال (٢٣ عاماً) عبر طريق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسرة والمحنة، المقرونة بالنصر والهزيمة، والنجاح والإخفاق، ولا شك أن هذه الحالات المختلفة، والاحاسيس والمشاعر المتنوعة المتباينة، تترك أثراً عميقاً في نفس الإنسان، وروحه وعقله، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلم بكلام من نوع واحد، وبنبرة واحدة، في حالتين

(448)

نفسيتين متضادتين، فالكلام الصادر في حال الفرح والابتهاج والمسرة من اللسان أو القلم، يختلف من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال اللفظ وعمق المعنى اختلافاً بارزاً عن الكلام الصادر في حال الحزن والتعب، والإخفاق، والهزيمة.

بينما لا يوجد أي شيء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعاني بين آيات القرآن الكريم مع أنها نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يمر بحالات مختلفة من الحزن والسرور والافئاق والانتصار والسرء والضراء، والعسر والرخاء والجهد والنشاط، بل نجد تلك الآيات على نمط ونسق واحد من القوة والفصاحة والبلاغة، وجمال اللفظ وعمق المعنى بحيث يستحيل على أي بشر بلغ ما بلغ أن يعارض آية من آياته أو سورة من سورته، وكأنَّ القرآن الكريم كمية من الفضة المائعة خرجت من الأتون جملة واحدة لا يوجد بين آياتها أي شيء من التفاوت والاختلاف، أو كأنه جوهرة واحدة أولها كآخرها وآخرها كأولها.

ولعلَّ الآية التالية التي تنفي أي نوع من أنواع الاختلاف في القرآن إذ تقول:

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ إِخْتِلَافًا كَثِيرًا⁽¹⁾) (إشارة إلى هذا السر).

إنَّ المفسرين اعتبروا هذه الآية ناظرة إلى نفي الاختلاف والتناقض بين مفاهيم الآيات ومفادتها، ومقاصدها، في حين لا تنفي هذه الآية مجرد هذا النوع من الاختلاف بل تقدس القرآن المجيد وتنزهه من جميع أنواع الاختلاف والتناقض الذي هو من لوازم العمل والانتاج البشري.

- [النساء: ٨٢].

(449)

١٧ إلى الحبشة

الهجرة الاولى

تُعتبر هجرة فريق من المسلمين إلى أرض الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم واخلاصهم العميق لدينهم، ولربهم وذلك لأن فريقاً من الرجال والنساء يقررون - وبهدف الحفاظ على عقيدتهم والتخلص من أذى قريش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائهم بحرية ويعبدون الله الواحد - مغادرة (مكة)، العربية التي ترزح تحت ظلام الوثنية، فلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً في اية نقطة من نقاطها، ولا يمكنهم إقامة احكام الدين الحنيف فيها من دون خوف أووجل، وبعيداً عن الارهاب، ويفكرون، ويفكرون، وأخيراً يقررون التفكير إلى أن يفتحوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بهذه المسألة، ويطلبوا في ذلك رأي النبي الذي يقوم دينه على مبدأ): (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاي فَاعْبُدُون.⁽¹⁾)

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعرف أوضاع المسلمين المؤلمة جيداً، فقد كان هو يحظى بحماية بني هاشم، وكان الفتيان الهاشميون يحمونه ويحفظونه

(450)

من كل اذى، ولكن الذين آمنوا به من الإماء والعبيد، ومن ليست لهم حماية من الأحرار المستضعفين الذين كانوا يشكلون عدداً كبيراً من المسلمين السابقين كان يتعرضون لشتى صنوف العذاب والايذاء والمضايقة من قريش التي لم تال جهداً، ولم تدخر وسعاً، ولم تفوت فرصة ولا وسيلةً للاحاق العنت والأذى بالمؤمنين برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولا يستطيع - صلى الله عليه وآله وسلم - منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كل قبيلة يعمدون - للمنع من نشوب أئ صدام بين القبائل - إلى تعذيب من اسلم من ابناء قبيلتهم، وايدائه والتنكيل به، وقد مرت عليك نماذج وامثلة من أذى قريش وتعذيبها القاسي للمسلمين.

لهذه الأسباب عند ما طلب أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رأيه في الهجرة من مكة قال في جوابهم:

«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظَلِّمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٌ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. (1)»

أجل ان مجتمعا صالحا يتسلم زمام الأمر فيه رجل صالح عادل نموذج مصغر من جنة عدن بالنسبة إلى المسلمين المضطهدين في بلدهم بسبب عقيدتهم، وهو ما كان يريده ويتمناه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليتمكنوا من القيام بشعائر دينهم فيه في جو من الطمأنينة والامن.

ولقد كان لكلام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أثر قوي في نفوسهم تلك الثقة المؤمنة الباحثة عن ارض تعبد فيها الله في أمان، بحيث لم يمض زمان إلا وقد شدت رحالها وغادرت مكة ليلا في غفلة من الاجانب (المشركين) مشاة وركباناً، متجهة نحو جدة، للسفر عبر مينائها إلى ارض الحبشة.

وكان هذا الفريق يتألف من عشر أو خمسة عشر شخصاً بينهم أربعة من

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٢١، تاريخ الطبري ج ٢، ص ٧٠، وبحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤١٢ نقلا عن مجمع البيان للطبرسي.

(451)

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - للمسلمين مناطقَ أخرى للهجرة إليها، وإنما ذكر الحبشة فقط.

إن سر هذا الاختيار هذا يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك.

إن الهجرة إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبة كان أمراً محفوفاً بالخطر، فإن المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاءً وتعصباً لدين الأباء (الوثنية).

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيون أو اليهود، من الجزيرة العربية لم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأخرى لأن تبنك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراعٍ مذهبيٍّ وطائفيٍّ، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرفٌ ثالثٌ في حلبة الصراع، هذا مضافاً إلى أن ذنك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربيَّ أساساً، فكيف يمكن الهجرة إلى مناطقهم والتعايش معهم؟!

أما «اليمن» فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيراني الملكيِّ، ولم تكن السلطاتُ الإيرانيةُ آنذاك لتسمح بإقامة المسلمين في ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقيمتها فيما بعد على الدعوة الإسلامية إلى درجة أنه لما وصلت رسالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى «خسروبرويز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إلى هذا الذي يذكر أنه نبيٌّ، وبدأ اسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني!!»⁽²⁾

وكذلك كانت «الحيرة» تحت الاستعمار والنقوذ الإيراني كاليمين.

وأما «الشام» فقد كانت بعيدة عن «مكة المكرمة»، هذا مضافاً إلى أن «اليمن» و «الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربط قريش بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة، فإذا كان المسلمون يلجأون إليها أخرجوا منهما

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧٠.
- 2 بحار الأنوار: ج ٢٠، ص ٣٨٢.

بطلب من قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب، ولكنه رفض طلبهم.

وقد كانت الرحلة البحرية - في تلك الأونة - وبخاصة برفقة النساء والأطفال رحلة شاقة جداً، من هنا كانت هذه الهجرة، وترك الحياة والمعيشة في الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أولئك المهاجرين لدينهم وعمق إيمانهم به، وصدقه.

ولقد كان ميناء «جدة» آنذاك ميناء تجارياً عامراً كما هو عليه الآن، ومن حسن التوفيق أن هذه التلة المهاجرة قد وصلت إلى هذا الميناء في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبة الاقلاع، والتوجه نحو الحبشة، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلغو خشية لحاق قريش بهم والقبض عليهم، لقاء نصف دينار عن كل راكب.

وكان ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله. (1)

ولما عرف المشركون بهجرة بعض المسلمين أمروا جماعة من رجالهم بملاحقة اولئك المهاجرين واعدتهم إلى مكة فوراً، ولكن المسلمين المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ «جدة» قبل أن يدركهم الطلب. (2)

ومن الواضح أن ملاحقة مثل هذه التلة التي لم تلجأ إلى أرض الغير إلا لأجل الحفاظ على عقيدتها والفرار من الفتنة لنموذج بارز من عتو قريش وعنادها.

فالولئك المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن، واغمضوا الطرف عن المال، والتجارة، وخرجوا يطلبون أرضاً نائية يمارسون فيها شعائرهم بحرية، ومع ذلك لا يكف عنهم زعماء مكة وجبايرتها وطغاتها!!

اجل ان رؤساء «دار الندوة» بمكة واقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه

- 1بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤١٢ نقلا عن مجمع البيان للطبرسي.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٢١ - ٣٢٣.

(453)

الهجرة وأثارها من خلال بعض القرائن، والمؤشرات ولذلك كانوا يرددون فيما بينهم أموراً سنذكرها في ما بعد.

هذا والجدير بالذكر أن اعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا من قبيلة واحدة بل كان كل واحد من هؤلاء العشرة ينتمي إلى قبيلة خاصة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

ثم انه وقعت بعد هذه الهجرة هجرة أخرى، وكان في مقدمة المهاجرين هذه المرة «جعفر بن أبي طالب». ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد تمت الهجرة الثانية في منتهى الحرية، لأن المسلمين المهاجرين استطاعوا في هذه الهجرة ان يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم، بحيث بلغ عدد المسلمين في أرض الحبشة هذه المرة (٨٣) .

هذا إذا لم نحص من وُلد في أرض الحبشة لهم، والأكثر عددُ أكثر من هذا الرقم.

ولقد وَجَدَ المسلمون المهاجرون أرضَ الحبشة كما وصفها رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لهم: منطقة عامرة، وبيئة آمنة حرّة، تصلح لأن يُعبد فيها الله تعالى بحرية وأمان.

تقول «أم سلمة» التي تشرفت بالزواج من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ما بعد، عن تلك الأرض: لما نزلنا أرضَ الحبشة جاؤرنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدا لله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه.

كما أنه يُستفاد مما قاله بعض أولئك المهاجرين من الشعر في الحبشة، انهم آمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً.

ونحن نكتفي هنا بادراج بعض الأبيات من قصيدة مطوّلة أنشأها «عبدالله بن الحارث» في هذا الصدد:

(454)

يا راكباً يَلْعَن عَنِّي مُغْلَغَلَةً * ⁽¹⁾مَنْ كَانَ يَرْجُو بِلَاغَ اللَّهِ وَالدِّينِ

كَلَّ امْرِيءٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مُضْطَهَدٍ * بِيَطْنِ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمَقْتُونِ

أَنَا وَجَدْنَا بِلَادَ اللَّهِ وَاسِعَةً * تُتَجِي مِنَ الدُّنَى وَالْمَخْزَاةِ وَالْهَوْنِ

فَلَا تُقِيمُوا عَلَى دُنَى الْحَيَاةِ وَخَزْ * ي فِي الْمَمَاتِ وَعَيْبِ غَيْرِ مَأْمُونِ ⁽²⁾

ويقول ابن الاثير: وكان مسيرهم (إلى الحبشة) في رجب سنة خمس من النبوة وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فاقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس من النبوة، وكان سبب قدومهم إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - انه بلغهم ان قريشاً أسلمت فعاد منهم قومٌ وتخأف قومٌ. ⁽³⁾

هذا ويمكن للقارىء الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسم في السيرة النبوية لابن هشام. ⁽⁴⁾

قريش توفد رجالا لاسترداد المسلمين:

عندما بلغ قريشاً وزعماء «مكة» ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرية، وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمأنينة والراحة في أرض الحبشة ثارت ثائرة الحسد والغیظ في قلوبهم، وتوجسوا خيفة من نفوذ المسلمين في الحبشة لأن أرض الحبشة قد أصبحت قاعدة قوية للمسلمين، وكانت الزعامة المكية تتخوف من أن يجد أنصار الإسلام واتباعه منفذاً إلى بلاط النجاشي زعيم

الاحباش وملِكهم، ويُملِأوا قلبه نحو الإسلام، ويكسبوا تاييده للمسلمين، فيؤول الامر إلى أن يعبىء جيشاً كبيراً للفضاء على حكومة المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية، وعندها تكون الكارثة.

فاجتمع أقطابُ «دار الندوة» مرة أخرى للتشاور في الأمر، فأستقر رأيهم على أن يبعثوا إلى البلاط الحبشي من يقدم إلى النجاشي ووزرائه وقواده هدايا

-
- 1 المُلغلة: الرسالة ترسل من بلد إلى بلد.
 - 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥١ - ٣٥٣.
 - 3 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٥٢ و ٥٣.
 - 4 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٤ - ٣٦٢.

(455)

مناسبة يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشي ثم يتسنى لهم بعد ذلك ان يقنعوه بضرورة إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه أن يتهمونهم عنده بالسفاهة والجهل، وابتداع دين جديد منكر، والإرتداد عن دين الآباء والاجداد!!

ولكي تتحقق خطتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى افضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين مكرين اصبح احدهما في ما بعد من دهاقنة السياسة وهما: «عمرؤ بن العاص»، و «عبدالله بن ابي ربيعة» وقال لهما كبير المؤتمرين في ذلك الدار: إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرج موقدا قريش حتى قدما على النجاشي بعد أن تلقيا هذه التعليمات.

وهناك في الحبشة دُفعا إلى كل بطريق من بطارقة النجاشي وقادة جيشه ووزرائه هديته، وقالوا لكل بطريق منهم:

إنه قد ضوى ⁽¹⁾ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجأؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا إلى الملك لنكلمه في أمرهم أشراف قومهم ليردّهم اليهم فاذا كَلّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فان قومهم أبصر بهم، واعلم بما عابوا عليهم.

فابدى أولئك البطارقة والقادة والوزراء الطامعون الجهلة استعدادهم لمساعدة الرجلين في إنجاح مهمتهم.

ولما كان من غد دخلا على النجاشي وقدما هداياهما إليه فقبلها منهما ثم كَلّماه فقالا له:

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم

(456)

يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أبصر بهم واعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وما أن انتهى موفدا قريش من الكلام إلا وقالت بطارقتة حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي وكان رجلا حكيما عادلا وقال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاؤروني، وتزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أدعّوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم فان كانوا كما يقولان أسلمتُهم إليهما، ورددتُهم إلى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنتُ جوازهم ما جاوروني.

ثم ارسل إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المهاجرين إلى الحبشة فدعاهم من غير أن يعلمهم بما يريد منهم، فحضروا عنده، وكانوا قد قرّروا أن يكون متكلمهم وخطيبهم: «جعفر بن أبي طالب» وقد قلق بعض المسلمين لما قد سيقوله «جعفر» عند الملك، وبماذا سيكلمه ويجيبه، فسأله عن ذلك فقال لهم جعفر: أقول والله ما علمنا، وما امرنا به نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - كائناً في ذلك ما هو كائن.

فالتفت النجاشي إلى «جعفر» وسأله قائلاً:

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تندخلوا (به) في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر بن أبي طالب:

«أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبدّه، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من

(457)

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة

والصيام فصَدَّقناه وأَمَّنَّا به، واتَّبَعناه على ما جاء به من اللّٰه، فَعَبَدنا اللّٰه وحده فلمْ نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنَا، فعَدَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليرُدُّونا إلى عبادة الاوثان من عبادة اللّٰه تعالى، وان نستحل ما كُنَّا نستحل من الخبائث، فلَمَّا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا أن لا نَظلم عندك ايها الملك. »

فَأَثَرَت كلمات جعفر البليغة، وحديثه العذب تأثيراً عجبياً في نفس النجاشي بحيث اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: لجعفر هل معك ممَّا جاء به عن اللّٰه من شيء؟

فقال جعفر: نعم فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه جعفر آيات من مطلع سورة مريم، واستمرَّ في قراءته، وبذلك بيّن نظرة الإسلام إلى «مريم» - عليها السلام - وطهارة جيبها، وإلى مكانة المسيح - عليه السلام - ، وعظمة شأنه، وجليل مقامه، فبكى النجاشي حتّى اخضلت لحيته بالدموع وبكت اسقافته⁽¹⁾ حتّى بلّوا مصاحفهم بها حين ما سمعوا ما تلاه جعفر عليهم حول مريم والمسيح - عليهما السلام - .

وبعد صمت قصير ساد ذلك المجلس قال النجاشي:

«إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة» وهو يقصد أن القرآن والإنجيل كلام اللّٰه وأنهما شيء واحد.

ثم التفت إلى موفدي قريش وقال لهما بنبرة قوية: انطلقا فلا واللّٰه لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون، فخرجا من عنده.

- [الاساقفة؛ جمع اسقف: علماء النصارى.

(458)

وعند المساء تكلم «عمرو بن العاص» - وكان امرء خذاعاً ما كرا - مع رفيقه «عبدالله بن ربيعة» في الامر، وقال له: واللّٰه لا أتيتنَّ غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم (وهو يعني أنه سيأتي بحيلة تقضي على جنود المهاجرين بالمرّة) ولأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. (أي على خلاف ما يعتقد النصارى في المسيح).

فنهاه «عبدالله» عن ذلك وقال: لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً، وان كانوا خالفونا، ولم ينفع نهي عبدالله له.

ولمّا كان من الغد دخلا على النجاشي مرة أخرى فقال له «عمرو» متظاهراً هذه المرة بالدفاع عن عقيدة النصارى وهي دين الملك واهله، ومنتقداً رأي المسلمين.

أيها الملك، إنهم يقولون في «عيسى بن مريم» قولا عظيماً. فارسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فارسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه، وهو الملك المحنك الذي لا يأخذ الأمور على ظواهرها، ومن غير تحقيق ودراسة، فأدرك المسلمون بفطنتهم أنه سيسألهم هذه المرة عن موقفهم من المسيح - عليه السلام - فاتفقوا أن يكون «جعفر» متكلمهم وخطيبهم وعندما سأله عما سيجيب به الملك قال: أقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا.

فلما دخلوا على النجاشي قال لجعفر بن ابي طالب: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول.

فسر النجاشي لكلام جعفر ورضي به وقال: هذا والله هو الحق، والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت.

ولكن حاشيته لم ترض بهذا الكلام ولم تقبل بما قاله الملك، ولكنه لم يعبا بهم، وأيد مقالة المسلمين، ومنحهم الحرية الكاملة، والأمان الكامل قائلًا لهم:

(459)

اذهبوا فانتم آمنون في أرضي من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وإني أذيت رجال منكم.

ورد على موفدي قريش هداياهما قائلًا لهما: «ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.»

فخرج مبعوثا قريش مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به يجزان اذيان الخيبة. (1)

* * *

وينبغي ان نسجل هنا موقفاً آخر من مواقف ابي طالب في تأييد المسلمين، ونصرة الدين الحنيف.

فقد أرسل «ابوطالب» أبياتاً للنجاشي يحثه على الدفع عن المهاجرين وحسن جوارهم وتلك الايات هي:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر * وعمرؤ واعداء العدو: الأقراب؟

وهل نالت افعال (2) النجاشي جعفرأ * وأصحابه أو عاق ذلك شاغب؟

تَعَلَّم، ابَيْتَ اللَعْنَ، انك ماجدٌ * كريمٌ فلا يشقى أديك المجانبُ

تَعَلَّم بَانَ اللّهُ زادك بسطةً * واسبابَ خير كلّها بك لازب

وأنتَ فيضٌ نوسجال غزيرة * يتألّ الأعداي نفعها والاقارب(3)

العودة من الحبشة:

قلنا في ما مضى أنّ المجموعة الأولى من المهاجرين رجعت من الحبشة إلى مكة لأنباء بلغتها عن إسلام قريش عامة وانصوائها تحت راية الإسلام. حتّى إذا دنوا من «مكة» بلغهم أنّهم كانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً،

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٨، إمتاع الاسماع: ص ٢١، بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤١٤ و ٤١٥.
- 2 إحصان.
- 3 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٣ و ٣٣٤.
-

(460)

فلم يدخل منهم إلى «مكة» إلا قليل دخلوها مستخفين أو في جوار بعض الشخصيات القرشية بينما عاد الأكثرون من حيث جاؤوا. وكان ممن دخل «مكة» بجوار، «عثمان بن مظعون» الذي دخلها بجوار «الوليد بن المغيرة»⁽¹⁾ ولكنه كان يشاهد ما فيه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من البلاء، والعذاب وهو يغدو ويروح في امان فتألّم لذلك ولم تطق نفسه تحمّل هذا الفرق وقال: واللّه إن غدوي ورواحي أمنأ بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي فمشى إلى «الوليد بن المغيرة» وردّ عليه جواره ليواسي المسلمين ويشاركهم في آلامهم ومتاعبهم وقال: يا أبا عبد شمس وفنت ذمتك، قد ردّدت إليك جوارك.

قال: لم يابن أخي؟ لعلّه أذاك أحد من قومي؟

قال: لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

فقال الوليد له: إذن فارد على جوارى علانية كما أجرئك علانية.

فانطلقا فخرجا حتّى أتيا المسجد، فقال «الوليد» مخاطباً من حضر من قريش: هذا عثمان قد جاء يردّ على جوارى.

قال: صدق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار ولكنّي قد احببتُ أن لا استجير بغير الله، فقد ردّدت عليه جواره. (2)

ثم لم يمض شيء من الوقت حتى دخل المسجد «لبيد» وكان شاعراً متكلماً بارزاً من شعراء العرب ومتكلمياً ووقف في مجلس من قريش ينشدهم و «عثمان بن مظعون» جالس معهم فقال من جملة ما قال شعراً:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ

فقال عثمان بن مظعون: صدقتَ فقال: لبيد:

1- السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦٩.
2- السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٧٠.

(461)

وكلُّ نعيم لا محالة زائلٌ

قال عثمان: كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول فاستنقل «لبيد» تكذيب عثمان وتحديهِ له في ذلك الجمع فقال: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جلسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟؟

فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله.

فردَّ عليه «عثمان» حتى تفاقم الأمر بينهما فقام إليه ذلك الرجلُ فلطم عينه فحضرها (وإصابها)، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عمًا أصابها لغنيّة لقد كنت في ذمة منيعة (وهو يريد أنك لو بقيت في ذمتي وجواري لما أصابك ما أصابك).

فقال عثمان راداً عليه: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرةٌ إلى مثل ما أصاب أختها في الله، واني لفي جوار من هو أعزُّ منك، واقدُر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلمَّ يا ابن أخي إن شئت فعد إلى جوارك، فقال ابنُ مظعون: لا. (1)

وكانت هذه صورةً رائعةً من صور كثيرة لضمود المسلمين، وتفانيهم في سبيل العقيدة، وإصرارهم على النهج الذي اختاروه، ومواساة بعضهم لبعض في أشدَّ فترة من فترات التاريخ الإسلامي.

وفد مسيحي لتقصي الحقائق يدخل مكة:

قدمَ على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، مبعوثين من قِبَل أساقفتها لتقصي الحقائق بمكة، والتعرف على الإسلام. فوجدوا رسول الله في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه عن مسائل، ورجالاً من قريش فيهم «أبوجهل» في أنديةهم حول الكعبة.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٧٠ و ٣٧١].

(462)

فلما فرغوا من مسألة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عما أرادوا دعاهم - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الله عز وجل وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، فكان لها من التأثير البالغ في نفوسهم بحيث عندما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له و آمنوا به وصدقوه، بعد ما عرفوا منه ما كان يوصف في كتابهم (الانجيل) من أمره.

فلما قاموا عنه، ورأت قريش ما نتج عنه ذلك اللقاء استنقله «أبوجهل» فقال للنصارى الذين اسلموا معترضاً وموياً: خبيكم الله من ركب بعثكم من وراءكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم.

فأجابه اولئك بقولهم: سلام عليكم لا نجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. (1)

وبذلك الكلام الرفيق الجميل ردوا على فرعون مكة الذي كان يبغى - كسحابة داكنة - حجب أشعة الشمس المشرقة، وحالوا دون وقوع صدام.

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق:

لقد ايقظ وفد نصارى الحبشة إلى مكة وما نجم عن لقائهم برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قريشاً ودفعم إلى تكوين وفد يتألف من «النضر بن الحارث» و «عقبة بن ابي معيط» وغيرهما وإرسالهم إلى أحوار يهود المدينة ليسألونهم عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودينه.

فقال أحوار اليهود لمبعوثي قريش: سلوا محمداً عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل منقول، فروا فيه رأيكم، سلوه:

- [عن فتية ذهبوا في الدهر الأول (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٩٠ و ٣٩٣ وقد نزلت في هذا الشأن الآيات ٥٢ إلى ٥٥ من سورة القصص.

(463)

من امرهم، فإنه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ.

2- وعن رجل طَوَّافٍ (يعنون به ذا القرنين) قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وخبره؟

2- وعن الروح ماهي؟

فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبيٌّ، وان لم يفعل، فهو رَجُلٌ متَقَوِّلٌ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فعادَ وفد قريش إلى «مكة» ولما قدموها قالوا لقريش ما سمعوه من أحبار اليهود.

فجاؤوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وطرحوا عليه الاسئلة الثلاثة السالفة. فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : انتظر في ذلك وحيًا⁽¹⁾.

ثم نزل الوحيُّ يحملُ إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الأجوبة المطلوبة على تلك الاسئلة.

وقد وردَ الجواب عن السؤال عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

وأجيبَ على السؤالين الآخرين عن أصحاب «الكهف» وذي القرنين بتفصيل في سورة «الكهف» ضمن الآيات ٩ - ٢٨ و الآيات ٧٣ - ٩٣.

وقد وردت تفصيلاتُ هذه الإجابات التي أجابَ بها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أسئلتهم في كتب التفسير.

ولابدَّ هنا من أن تُذكرَ القارئ الكريم بنقطة مفيدة وهي أنّ المراد من «الروح» في سؤال القوم ليس هو الروح الإنسانية بل كان المراد هو جبرئيل الأمين، (بقرينة أنّ المقترحين الاصليين لهذه الأسئلة: هم اليهود وكانوا يكرهون الروح الامين، ويعادونه)، وهو أمرٌ مبحوثٌ في محلّه من كتب التفسير.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

(464)

(465)

١٨ الأسلحة الصديئة والاساليب الفاشلة

نظّم أسياذ قريش صفوفهم لمكافحة عقيدة التوحيد، بعد أن أدركوا عقم المواقف المبعثرة من هذا الدين وأهله.

فقد حاولوا في بداية الأمر أن يئنثوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن المضي في مواصلة دعوته، وذلك بتطميعة بالمال والجاه وماشابه ذلك، ولكن لم يحصلوا من ذلك على شيء، فقد خيب ذلك الرجل المجاهدُ ظنونهم فيه، وبدد آمالهم في اثناؤه عن هدفه بكلمته الخالدة المدوية: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما فعلت» وهو يعني ان تملكه العالم كله لا يثنيه عن هدفه ولا يصرفه عن تحقيق ما نُدب إليه وارسل به.

فعمدوا إلى سلاح آخر هو التهديد والأذى، والتتكيل به وباصحابه وانصاره، ولكنهم واجهوا صموده وصمود أنصاره واصحابه، وثباتهم الذي ادى إلى انتصار المؤمنين في هذا الميدان، وخيبة المشركين وهزيمتهم.

وقد بلغ من ثبات المسلمين على الطريق أنهم أقدموا على مغادرة الوطن، وترك الأهل والعيال، والهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم إلى الله، وسعيًا وراء نشره وبثه في غير الجزيرة من الأفاق.

ولكن رغم إخفاق أسياذ قريش المشركين في جميع هذه الجهات والميادين

(466)

وعجزهم عن استئصال شجرة التوحيد الفتية، وفشل جميع الأسلحة التي استخدموها للقضاء على الدين الجديد وأهله، لم تنته محاولاتهم الإجهاضية بل عمدوا هذه المرة إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه.

وهذا السلاح هو سلاح الدعاية ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، لانه صحيح أن ايداء وتعذيب جماعة المؤمنين في «مكة» تمنع غيرهم من سكران «مكة» من الإنضواء إلى الإسلام إلا ان الحجيج الذين كانوا يسافرون إلى مكة في الأشهر الحرم وكانوا يلتقون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في جو من الأمن والطمأنينة خلال تلك المواسم كانوا يتأثرون بدعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبتزعم اعتقادهم بالأوثان على الأقل، ان لم يؤمنوا بدينه، ولم يستجيبوا لدعوته، ثم إنهم كانوا ينقلون رسالة الإسلام وانباء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى مواطنهم، ومناطقهم وكان ينتشر بذلك اسم رسول الله، وانباء دينه في

شَتَّى مناطق الجزيرة العربية، وكان هذا هو بنفسه ضربة قوية توجَّه إلى صرح الوثنية في مكة، وعاملاً قوياً في انتشار عقيدة التوحيد، وسطوع أمره.

من هنا اتخذ سادة قريش أسلوباً آخر، قاصدين بذلك الحيلولة دون انتشار الإسلام، واتساع رقعته، وقطع علاقة المجتمع العربي به

واليك فيما يأتي بيان تفاصيل هذا الاسلوب، وهذه الخطة:

-1- الاتِّهَامَاتُ الباطِلة:

يمكن التعرف على شخصية أي واحد وتقييمها من خلال ما يرميه به اعداؤه من شتائم وسباب، وما يكيلون له من اتهامات ونسب، فإن العدو يسعى دائماً إلى أن يتهم خصمه بنوع من أنواع التهم لِيُضِلَّ الناس، ويصرفهم عنه، وليتمكن بما يحوِّكُه حوله من أراجيف وأباطيل الحط من شأنه في المجتمع واسقاطه من الانظار والأعين.

ان العدو الذكيّ يسعى دائماً إلى أن ينسب إلى منافسه ما يُصدِّقُه ولو فئة خاصة من الناس على الأقل، ويوجبُ شكَّهم في صدقه، ويتجنب تلك النسب

(467)

التي لا تصدِّق في شأنه، ولا تناسبُ اخلاقه وافعاله المعروفة عنه، ولا تمسه بشكل من الأشكال، لأنه سوف لا يجني في هذه الحالة إلا عكس ما يقصد، وخلاف ما يريد.

ومن هنا يستطيع المؤرِّخُ المحقِّقُ أن يتعرف على الشخصية الواقعية لمن يدرسه، وعلى مكانته الإجتماعية، وأخلاقه وسجاياه ولو من خلال ما ينسبُه الأعداء إليه، وما يكيلون له من أكاذيب وإفتراءات، ونسب باطلة واتهامات، لأنَّ العدو الذي لا يخاف أحداً لا يقصُرُ في كيل كلِّ تهمة تنفعُه وتخدمُ غرضه إلى الطرف الآخر، ويستخدم هذا السلاح (أي سلاح الدعاية) ما استطاع، وما ساعدته معرفته بالظروف، ودرابته بالفرص.

فاذا لم ينسب إليه أيُّ شيء من تلك النسب الباطلة فإن ذلك إنما هو لأجل طهارة جيبه، ونقاء صفحته، وتنزُّه شخصيته عن تلك النسب، ولأنَّ المجتمع لم يكن ليعبأ بها ولم يصدِّقها في شأنه.

ولو أننا تصفحنا اوراق التاريخ الإسلامي لرأينا أن قريشاً مع ما كانت تكن من عداء، وتجلُّ من جِدِّ على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكانت تسعى بكل جهدها أن تهدم صرح الإسلام الجديد الظهور، وأن تحطَّ من شأن مؤسسه وبانيه لم تستطع مع ذلك أن تستفيد من هذا السلاح، وتستخدمه كاملاً.

فقد كانت تفكّر في نفسها: ماذا تقول في حق رسول الله؟ وماذا ترى تنسب إليه؟؟

هل تتهمه بالخيانة المالية وها هم جماعة منهم قد انتموه على أموالهم؟ (1) كما أن حياته الشريفة طوال الاربعين سنة الماضية جسدت امانته امام الجميع، فهو الامين بلا منازع؟

هل تتهمه بالجري والانسياق وراء الشهوة واللذة؟ وكيف تقول في حقه مثل هذا الكلام مع أنه بدأ حياته الشبابية بالتزويج بزوجة كبيرة السن إلى درجة

- 1بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٦٢.

(468)

ماء، وبقي معها حتّى لحظة انعقاد هذه الشورى في «دار الندوة» بهدف الدعاية ضدّه، ولم يُعهد منه زلّة قدم في هذا السبيل قط؟! وبالتالي بماذا تتهم محمّداً الصادق الأمين، الطاهر العفيف، وأية تهمة ترى يمكن أن تُصدّق في حقه، أو يحتمل الناس صدقها في شأنه ولو بنسبة واحد في المائة؟

لقد تحيّر سادة «دار الندوة» وأقطابها في كيفية استخدام هذا السلاح، سلاح الدعاية ضدّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقرّروا في نهاية الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صنديد من صنديد قريش ويطلبوا رأيه فيه، وهو «الوليد بن المغيرة» وكان ذا سنّ فيهم، ومكانة، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذبُ بعضكم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهَّانَ فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: ساحر.

فقال: ما هو بساحر لقد رأينا السحَّارَ وسحرهم فما هو بنفثهم ولا عقدهم.

وهكذا تحيَّروا في ما ينسبون إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وأخيراً اتفقوا على أن يقولوا: أنه ساحر جاء بقول هو سحرٌ يفرق به بين المرء وبيته وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

ويدلُّ عليه ما أوجده من الخلاف والإنشاق والتفرُّق بين أهل مكة الذين

(469)

كان يضرب بهم المثل في الوحدة والاتفاق. (1)

وقد ذكر المفسِّرون في تفسير سورة «المدثر» هذه القصة بنحو آخر فقالوا: لما أنزل على رسول الله (حم تنزيل الكتاب) (...قام إلى المسجد و «الوليد بن المغيرة» قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية، فتركت الآية في نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلى منزله، ولم يخرج منه أياماً، فسخرت منه قريشٌ وقالت: صبا - والله - الوليدُ ثم مشى رجال من قريش إليه وسألوه رأيه في قرآن محمَّد، واقترح كل واحد منهم أمراً، ولكنه رد عليها بالنفي جميعاً فقالت قريش إذن ما هو؟ فتفكر «الوليد» في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر. (2)

ويرى المفسرون أن الآيات التالية في شأنه إذ يقول الله تعالى:

(ذُرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَتِينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً. سَأَاهُفُّهُ صَعُوداً. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ... (إلى قوله:)) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذِكْرِ مُعْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ. (3)

* * *

الإصرار في نسبة الجنون إليه - صلى الله عليه وآله وسلم -

:

يعتبر إتصاف النبيّ الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - واشتهاره بين الناس بالصدق والامانة وغيرها من مكارم الأخلاق منذ شبابه من مسلمات التاريخ.

وهو بالتالي أمرٌ اعترف به حتى أعداؤه اللذءاء، فقد دانوا بفضلها، وأقرُّوا

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٠.
 - 2 مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٨٦ و ٣٨٧.
 - 3 المدثر: من ١١ - ٥١.

(470)

بأخلاقه الكريمة و سجاياه النبيلة، دون تلكؤ، ولا إبطاء.

وقد كان من أوصافه الحسنة البارزة ان جميع الناس كانوا يدعونه «الصادق» «الامين» وكانوا يتقون بأمانته ثقة كبرى (1) حتى أن المشركين كانوا يودعون ما غلى من أموالهم عنده، واستمر هذا الأمر حتى عشرة أعوام بعد دعوته العلنية.

وحيث أن دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - قد ثقلت على المعاندين فاجتهدوا في أن يصرفوا عنه الناس بما ينسبون إليه من بعض النسب التي توجب سوء الظنّ به، ومن ثم إفسال دعوته، وحيث أنهم كانوا يعلمون أن النسب الأخرى مما لا يقيم لها المشركون وزناً، لأنها امور بسيطة في نظرهم، من هنا رأوا بأن يتهمونه بالجنون، والزعم بان ما يقوله و يقروه ما هو إلا من نسج الخيال، ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد، والأمانة، وذلك تكذيباً لدعوته.

ثم عملت قريش على إشاعة هذه النسبة، واتخذت وسائل عديدة وما كره لترويجها وبثها بين الناس.

ومن شدة مكرهم ومرءاتهم أنهم كانوا يتخذون موقف المتسائل المحايد فيطرحون هذه التهمة في قالب الشك، والترديد إذ يقولون:

(أفترى على الله كذباً أم به جنّة). (2)

وهذه هي بعينها الحيلة الشيطانية التي يتوسل بها ويتستر وراءها أعداء الحقيقة دائماً عند ما يريدون تكذيب المصلحين العظام، واسقاط خطواتهم وافكارهم من الاعتبار، والحط من شأنها وأهميتها.

ويشير القرآن أيضاً إلى أنّ هذا الأسلوب الماكر الذمير لم يكن مختصاً بالمعارضين في عهد الرسالة المحمّدية، بل كان المعارضون في العصر الغابرة أيضاً يتوسلون بهذا السلاح لتكذيب الرسل، والانبياؤ إذ يقول عنهم:

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٦٢ عن عبيدالله بن ابي رافع: كانت قريش تدعو محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - في الجاهلية الامين وكانت تستودعه وتحتفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك كلُّ من كان يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك. - 2سبأ: ٨.

(471)

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون. (1)

وتحدّث الاناجيل الحاضرة هي الأخرى عن ان المسيح - عليه السلام - عندما وعظ اليهود قالوا: إنّ فيه شيطاناً، فهو يهذي فلماذا تسمعون إليه؟ (2)!

ومن المسلم والبيهي أنّ قريشاً لو كان في مقدورها أن تنتهم رسول الله الصادق الأمين - صلى الله عليه وآله وسلم - بغير هذا الاتهام وتنسب إليه غير هذه النسبة لما تأخرت عن ذلك، ولكن حياة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - المشرقة خلال الاربعين سنة الماضية، وسوابقه اللامعة في المجتمع المكيّ وغير المكي كانت تحول دون أن ينسبوا إليه شيئاً من تلك النسب القبيحة، الذميمة.

لقد كانت «قريش» مستعدة لأن تستخدم أي شيء - مهما صغر - ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فمثلاً عند ما وجده أعداء الرسالة يجلس إلى غلام مسيحيّ يدعى «جبر» عند المروة، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضده - صلى الله عليه وآله وسلم - فوراً فقالوا: والله ما يُعلم محمّداً كثيراً ممّا يأتي به الا «جبر» النصراني.

فردّ عليهم القرآن الكريم بقوله:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مُبِينٌ. (3)

(وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ. (4)

القرآن يرد على جميع الاتهامات:

وربما نسبوا إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - الكهانة، والكاهن هو من يتصل بعناصر من الجن (5) أو الشياطين ويتلقى منهم اخباراً حول الماضي والمستقبل،

- [الذاريات: ٥٢ و ٥٣.

- 2 انجيل يوحنا: الفصل ١٠، الفقرة: ٢٠، والفصل ٧، الفقرة ٤٨ و ٥٢.

- 3 النحل: ١٠٣.

4-الدخان: ١٣ و ١٤ .
5-الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات الله تعالى وقد اخبر به القرآن الكريم في مواضع عديدة كما سميت احدى السور باسم الجن.

(472)

وكان هذا موجوداً قبل الإسلام كما ترويه كتب السير والتواريخ. (1)

وقد رد القرآن الكريم على هذه المقالة و هذا الزعم إذ قال تعالى:

(وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلًا مَا تَدْكُرُونَ) (2) (كما ردّ أيضاً تهمة السحر، والكذب والافتراء والشعر إذ قال تعالى وهو يصف المتهمين تارة بالكفر وأخرى بالظلم:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ). (3)

وقال تعالى: (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا). (4)

وقال سبحانه متعجباً منهم) :قالوا إنما أنت من المسحورين. (5)

وقال تعالى: (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ). (6)

وقال سبحانه: (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ). (7)

وقال عز وجل: (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ). (8)

وقال تعالى: (قالوا إنما أنت مفتّر بل أكثرهم لا يعلمون). (9)

وقال تعالى: (أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله. (10)

وقال سبحانه: (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً و زوراً. (11)

وقال سبحانه: (افتري على الله كذباً أم به جنة. (12)

وقال تعالى: (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون. (13)

وقال تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقران مبين. (14)

وربما وصفوا القرآن بأنه اضغاث احلام فردهم سبحانه بقوله.

(بَلْ قَالُوا اضْغَاثٌ أَحْلَامٌ بَلِ افْتِرَاءُ بَلِّ هُوَ شَاعِرٌ). (15)

1-راجع: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٢٦٩ باب علم الكهانة والعرافة.

2-الحاقة: ٤٢.

3-ص: ٤.

4-الفرقان: ٨.

5-الشعراء: ١٥٣.

- 6 الحجر: ٦.
- 7 التكوير: ٢٢.
- 8 الطور: ٢٩.
- 9 النحل: ١٠١.
- 10 هود: ١٣.
- 11 الفرقان: ٤.
- 12 سبأ: ٨.
- 13 الطور: ٣٠.
- 14 يس: ٦٩.
- 15 الانبياء: ٥.

(473)

وهكذا نجدهم ذهبوا في استخدام سلاح الاتهام والتشويش على الشخصية المحمّدية والرسالة الإسلامية كل مذهب، فمرة وصفوه بأنه كاهن وأخرى بأنه ساحر وثالثة بأنه مسحور، ورابعة بأنه مجنون وخامسة بأنه معلّم وسادسة بأنه كذاب وسابعة بأنه مفترى وثامنة بأنه مفترى أو مجنون على سبيل الترييد وتاسعة بأنه شاعر وعاشرة بان ما يقوله ما هو إلا أضغاث احلام.

-2- فكرة معارضة القرآن:

لم يُجدِ استخدام سلاح الاتهام ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفعاً، ولم يأت بالثمار التي كان يتوخاها المشركون منه، لأن الناس كانوا يُدركون بفطنتهم وفراستهم أن للقرآن جاذبية غريبة، وأنهم لم يسمعوا كلاماً حلواً، وحديثاً عذباً مثله.

ان لكلماته من العمق والعذوبة بحيث يتقبلها كل قلب، وتسكن إليها كل نفس.

من هنا لم ينفع اتهام قريش لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالجنون وبأن ما يقوله إن هو إلا من نسج الخيال، ونتائج الجنون، شيئاً، فقررت أن تخطّ لتدبير آخر ظناً منهم بأن تنفيذه سيصرف الناس عنه، وعن الاستماع إلى كتابه، ألا وهو: معارضة القرآن الكريم.

فعمدت إلى «النضر بن الحارث» وكان من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وينصب له العداوة، وكان قد قضى شطراً من حياته في الحيرة بالعراق وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس واحاديث «رُستم» و «إسفنديار» وقصصهم، وحكاياتهم، وأساطيرهم، وطلبوا منه أن يجمع الناس ويقص عليهم من تلكم الأساطير والحكايات يلهي بها الناس عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ويصرفهم عن الإصغاء إلى القرآن الكريم!!

فكان إذا جلس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مجلساً فذكر الناس فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه «النضر» في مجلسه

(474)

إذا قام - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلّم إليّ، فأنا أحديتكم أحسن من حديثه.

ثم يحدثهم عن ملوك الفرس و «رستم» و «اسفنديار» ثم يقول:

بماذا محمّد أحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها؟⁽¹⁾

وقد كانت هذه الخطة حمقاء جداً إلى درجة أنها لم تدم إلا عدة أيام لا أكثر حتى أن قريشاً سأمت من أحاديث «النضر» وسرعان ما تفرقت عنه.

وقد نزل في هذا الشأن آيات هي:

(وَقَالُوا أُسَاطِيرَ الْأُولِينَ اكَتْتَبَهَا فَهِيَ تَمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.)⁽²⁾

* * *

تحججات صيبانية و جاهلية:

وربما جسّدوا معارضتهم للدعوة المحمّدية في صورة تحججات ومجادلات جاهلية ومأخذ سخيفة اخذوها على رسول الله ورسالته، تنم عن تكبر وجهل، وعناد ولجاج طبعوا عليه.

وها نحن نذكر ابرزها:

أ - لماذا لم ينزل القرآن على ثرى من اثرياء مكة أو الطائف؟!

قال تعالى حاكياً قولهم:

(لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.)⁽³⁾

ب - لماذا لم يرسل اليهم ملائكة ولماذا هو بشر؟!

قال تعالى عنهم:

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٠٠ و ٣٥٨.

- 2 الفرقان: ٥ و ٦.

- 3 الزخرف: ٣١.

رَسُولًا. (1)

وقال تعالى حاكياً عنهم أيضاً:

(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ. (2)

ج - أنه يدعو إلى خلاف ما كان عليه الآباء، من الدين والعقيدة والسلوك؟

يقول عنهم سبحانه:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا

يَهْتَدُونَ. (3)

د - تبديل الآلهة باله واحد.

قال الله عنهم:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ. (4)

هـ - القول بحشر الاجساد وتجدد الحياة في يوم القيامة.

قال تعالى عنهم:

(وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. (5)

و - لماذا ليس عنده مثل ماكان لدى موسى من المعجزات كالثعبان المنقلب من العصا، وقد توصل المشركون إلى

هذا النمط من الاعتراض بسبب اتصالهم بأحبار اليهود.

يقول الله عنهم:

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلُ مَا أُوتِيَ مُوسَى. (6)

ز - لماذا ليس معه ملك يُرى ويشاهد ويحضر معه في كل مقام ومشهد.

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ. (7)

- [الاسراء: ٩٤ .
- 2الفرقان: ٧ .
- 3المائدة: ١٠٤ .
- 4ص: ٤ و ٥ .
- 5السجدة: ١٠ .
- 6القصص: ٤٨ .
- 7الانعام: ٨ .

(476)

مقترحات عجيبة ومطالب غريبة:

وكان المشركون إذا نفذت تحججاتهم واعتراضاتهم الواهية، وقبولوا بردود قوية وقاطعة عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيقة على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في سياق معارضتهم لدعوته ونورد هنا ابرز تلك الاقتراحات ليعرف القارىء الكريم مدى معاناة النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - من قومه:

لقد اقترحوا عليه:

- [ان يعبد اصنامهم سنة ويعبدوا إلهه سنة أخرى وجعلوا ذلك شرطا لايمانهم بدعوته!!

فأنزل الله تعالى في ردهم بسورة «الكافرون»: »

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ.)

2-تبدیل القرآن، فقد دفع نقد القرآن الكريم للوثنية، والازاء على الاصنام، دفعهم إلى ان يطلبوا من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يأتي لهم بقرآن آخر لا يحتوي على شجب عبادة الاوثان والازدراء بالاصنام، وابطالها.

قال الله تعالى عن فعلهم هذا:

(وَ إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ. (1))

فرد الله عليهم بقوله:

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءِ نَفْسِي إِنْ اتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ. (2))

3-مطالب مادية عجيبة!!

وقد عمدوا - بسبب عنادهم وعتوهم - إلى المطالبة بأمر لا ترتبط بهداية الناس، مثل مطالبته بان يفجر لهم ينابيع، أو يُسقط السماء على رؤوسهم قطعاً، أو يصعد إلى السماء، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى، أو غير ذلك من الاقتراحات والمطالب التي كانت إما مستحيلة في نفسها أو تناقض غرض الدعوة!!

قال الله حاكياً عنهم ذلك:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تَأْتِيَ

بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ. (1))

صبر النبي واستقامته وثباته:

ولقد قابل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كل هذه التحججات الايدائية وما طرح من الاقتراحات المستحيلة بصبر عظيم وثبات هائل، ايماناً منه بدعوته، وحرصاً على ابلاغ رسالته، وبفعل التأييد الالهي من جانب.

يقول الله تعالى في هذا الصدد:

(1-فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ. (2))

(2-وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. (3))

(3-وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ. (4))

(4-وَاصْبِرْ نَفْسُكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ. (5))

(5-)فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ. (6))

(6-وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً. (7))

* * *

- 1الاسراء: ٩٠ - ٩٣ .

- 2الاحقاف: ٣٥ .

- 3يونس: ١٠٩ .

- 4النحل: ١٢٧ .

- 5الكهف: ٢٨ .

- 6القلم: ٤٨ .

- 7المزمل: ١٠ .

معاجز النبي لم تنحصر في القرآن:

وبالمناسبة لا بد أن نذكر أن المشركين ومن حذى حذوهم من الكفار والمعارضين للرسالة الإسلامية كانوا يطالبون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمعاجز وديات لا بدافع الرغبة في الإيمان بدعوته بل بدافع اللجاج والعناد، وإلا فإن معاجز النبي لم تنحصر في الكتاب العزيز، فقد أتى رسول الله بأيات ومعاجز كثيرة أخرى غير القرآن، كان كل واحد منها يكفي للاقتناع برسالته، والإيمان بصحة دعواه.

فالقرآن نفسه يشير إلى أبرز هذه المعاجز وهي:

1- شق القمر

فقد طلب المشركون من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يشق لهم القمر نصفين حتى يؤمنوا به، فلما على ذلك لهم بانن الله كفروا به وقالوا انه سحر!!

يقول الله تعالى:

(إفتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر⁽¹⁾.)

2- المعراج

ان العروج برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والذي سيأتي مفصلاً هو الآخر معجزة من معاجزه القوية، وقد نطق بها القرآن بقوله:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ⁽²⁾.)

- 1 القمر: ١ و ٢.

- 2 الإسراء: ١.

3- مباهلة أهل الباطل

ان تقدم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع من خرج بهم إلى المباهلة، واحجام النصارى عن مباهلتهم، معجزة أخرى من معاجزه - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد تحدت القرآن الكريم عن هذه القضية إذ قال:

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِنْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. (1))

وستأتي قصة المباحلة على نحو التفصيل في حوادث السنة العاشرة من الهجرة.

-4- الاخبار بالمغيبات

فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يخبر عن أمور غائبة كما يقول الله سبحانه حاكياً عنه:

(وَأَنْبِئَكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْجُرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ. (2))

هذا وقد أخبرت الاخبار والاحاديث عن معاجز كثيرة لرسول الله غير القرآن الكريم.

- آل عمران: ٦١.
- آل عمران: ٤٩، وقد اشار القرآن الكريم إلى موارد أخرى من هذه القبيل.
فقد اخبر عن غلبة الروم بعد سنين: قال تعالى:
(إِذْ غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ مَا كَانُوا يَكْفُرُونَ * اللَّهُ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ) (الروم: ١ - ٤).
واخبر عن هلاك ابي لهب قال تعالى:
(تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ... الخ.)
وأخبر عن هزيمة المشركين في بدر قال سبحانه:
(سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدَّبْرَ) (القمر: ٤٥).)

(480)

ومن هذه المعاجز ما ذكره الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب - كما في نهج البلاغة - حول سؤال المشركين من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قلع شجرة بعروقتها وجذورها ولما فعل ذلك وقال: «يا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ ان كُنْتَ تَؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرْوَتِكَ حَتَّى تَقْفِي بَيْنَ يَدَيْ بَانِئِ اللَّهِ. »

فانقلعت بعروقتها ولها دوي عجب ووقفت بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكنهم كذبوا وقالوا ساحر كذاب، علواً واستكباراً.

وقد صرح الامام في كلامه هذا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أخبرهم بانهم لا يؤمنون وان ظهرت لهم المعجزة التي طلبوها، وان فيهم من يطرح في القليب (في معركة بدر) وان منهم من يحزب الأحزاب (لمعركة الخندق). (1)

اصرار النبي على هداية قريش:

بل كان النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يحرص على هدايتهم وارشادهم وابقاظهم. فقد كان زعيم المسلمين وقائدهم يعلم جيداً بأن اعتقاد أغلبية الناس بالأوثان ما هو إلا أمر نابع من تقليد الآباء، والجدود، أو اتباع أسياد القبيلة وكبرائها، وهو بالتالي لا يستند إلى جذور في أعماق الناس وأسس في عقولهم ونفوسهم.

من هنا فإنَّ أيَّ انقلاب يحصل ويحدث في اوساط السادة والكبراء بان يؤمن أحدهم مثلاً كان كفيلاً بأن يحلَّ الكثير من المشاكل.

من هنا كان ثمة إصرار كبير على جرّ «الوليد بن المغيرة» الذي أصبح ابنه «خالد» في ما بعد من قادة الجيش الاسلامي والمشاركين في الفتوح الإسلامية إلى صف المؤمنين بالرسالة المحمّدية، لأنّه كان أسنَّ من في قريش وأكثرهم نفوذاً، وأعلامهم مكانة، وأقوامهم شخصية، وكان يُدعى حكيم العرب، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت في أمر.

- إنهج البلاغة: قسم الخطب الرقم ١٩٢.

(481)

وقد كلّمه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم في ذلك وقد طمع في اسلامه، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به «ابن أم مكتوم»، فكلّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وجعل يستقرئه القرآن فشقَّ ذلك منه على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتّى اضجره، وذلك أنه شغله عمّا كان فيه من أمر «الوليد». وما طمع فيه من اسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى:

(عَبَسَ وَ تَوَلَّى. اِنْ جَاءَهُ اَلْاَعْمَى. وَ مَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَى. اَوْ يَذَّكُرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى. اَمَّا مَنْ اسْتَعْنَى. فَاَنْتَ لَهٗ تَصَدَّى. وَ مَا عَلَيْكَ اِلَّا يَرْكَى. وَ اَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَ هُوَ يَخْشَى فَاَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلَّا اِنَّهَا لَتَذْكِرَةٌ. (1) (2))

وقد فنّد علماء الشيعة ومحققوهم هذه الرواية التاريخية، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي امتدحه ربُّ العالمين بالخلق العظيم، ووصفه بالرفقة بالمؤمنين، وقالوا: ليس في الآيات ما يدل على أن الذي عبس وتولى هو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وقد روي عن الامام الصادق - عليه السلام - أنّ المراد رجلٌ من بني أمية، فإنّه عبس وتولى عند ما حضر «ابن أم مكتوم» الأعمى عند رسول الله فنزلت هذه الآيات توبيخاً له. (3)

* * *

3-تحریم استماع القرآن

كانت البرامج الواسعة التي دبرها الوثنيون في «مكة» لمكافحة الإسلام والحيلولة دون انتشاره بين القبائل والجماعات، تُنفذ الواحدة تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، ودون ان يكسب أصحابها من ورائها أي نجاح، وإية نتائج على

(1) السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

- 2 عبس: ١ - ١١.

- 3 مجمع البيان: ج ١٠، ص ٤٣٧، وقد شرح العلامة الطباطبائي في المجلد ٢٠ من تفسير الميزان عند تفسير سورة عبس شأن نزول هذه الآيات بصورة رائعة، وشكل بديع، واثبت بان فاعل عبس ليس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولا ينافي ذلك توجه الخطاب في «وما يدريك» إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(482)

المستوى المطلوب، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل في كل مرة، ولا يجني المشركون منها سوى الخيبة والفشل، وسوى النتائج المعكوسة في أغلب الأحيان.

فقد مارسوا الدعاية ضد رسول الله فترة من الزمن ولكن لم يحالفهم التوفيق الكامل في ذلك، فقد وجدوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اكثر ثباتاً واستقامة في طريقه وأشد إصراراً على هدفه، وكانوا يرون بأعينهم بأن عقيدة التوحيد في انتشار مستمر ومتزايد، يوماً بعد يوم.

ولهذا قرّر سادة قريش وزعماء «مكة» المشركون أن يمنعوا الناس عن سماع القرآن. ولكي تتحقق خطتهم هذه وتلبس ثوب الوجود بنوا جواسيسهم في كل انحاء مكة ومداخلها ليمنعوا من يفتد إليها للحج أو التجارة من الاتصال بمحمد، ومنعه بكل صورة ممكنة، عن الاستماع إلى القرآن، وأعلن مناديتهم ما ذكره القرآن عند قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ).⁽¹⁾

لقد كان القرآن اقوى أسلحة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقد القى رعباً عجبياً في نفوس الاعداء واقض مضاجعهم.

وكان اشرف قريش وأسيادها يرون بأعينهم كيف أن أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (وهو أبوجهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به، ويسخر منه، ما ان سمع آيات من القرآن، إلا وفقد السيطرة على نفسه، ولان قلبه، وأصبح من أصحابه ومؤيديه الأقوياء، ولهذا لم يكن أمام أولئك الاسياد إلا أن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتاً، ويحرموا التحدث إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تحريماً قاطعاً.⁽²⁾

ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلي استرق

السمع دونهم فرقاً منهم، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشيةً إذا هم فلم يستمع.⁽³⁾

واضعوا القرار ينقضون قرارهم!!

ولكن من الطريف العجيب أن نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشدة عن الاستماع إلى القرآن، وكانوا يعدون كل من يتجاهل قرار (تحريم الاستماع إلى القرآن) مخالفاً يتعرض للملاحقة والعقاب، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضموا إلى صفوف المخالفين له في الخفاء.

فاذا بالذين يمنعون من سماع القرآن في العلن، يستمعون إليه في الخفاء!

واليك بعض ما جرى في هذا الصعيد:

خرج «أبوسفيان» و «أبو جهل» و «الخنس» ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي من الليل في بيته، فاخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعت الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعت الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة اخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعت الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرقوا. (1)

* * *

4- منع الأشخاص من الايمان برسول الله

بعد خطة (تحريم الاستماع إلى القرآن) بدأوا بتنفيذ خطة أخرى وهي منع كل قريب وبعيد ممن رغبوا في الإسلام وقدموا إلى مكة ليتعرفوا على النبي، وعلى ما أتى به من كتاب ودين، من الاتصال بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فبثت قريش جواسيسها في الطرق المؤدية إلى مكة ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا إلى منعه من الاتصال برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والايمان برسالته، بشتى الحيل والاساليب.

واليك نموذجين حيين من هذا الامر.

«-1 الاعشى:»

وكان من شعراء العهد الجاهلي البارزين، وكانت قصائده تتناقلها مجالس السمر القرشية، وتتغنى بها محافل انسهم.

وقد بلغ «الاعشى» في كبره نبأ ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من التوحيد ومن تعاليم الإسلام العظيمة، وكان يعيش في منطقة نائية عن مكة، حيث لم تصل اليها أشعة الرسالة الإسلامية على وجه التفصيل بعد، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الإسلام على نحو الاجمال قد اوجد في نفسه هياجاً خاصاً وحرك مشاعره فأنشأ قصيدة مطولة يمدح فيها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم خرج إلى مكة ليهديها إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو في نفس الوقت يريد الإسلام.

ورغم ان تلكم القصيدة لا تتجاوز أبياتها ٢٤ بيتاً، ولكنها تعد من أفضل وافصح ما قيل من الشعر في الإسلام، وفي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في العهد النبوي ويوجد نصّها الكامل في «ديوان الأعشى» وقد قال فيها وهو يذكر بعض تعاليم الإسلام:

نبيّاً يرى ما لا يرون وذكره * أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

فاياك والميتات لا تقربنها * ولا تاخذن سَهماً حديداً لتقصدا

وذا النُصب المنسوب لا تُسكَّنه * ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

ولا تقربن خرة كان سرُّها * عليك حراماً فانكحن او تأبداً

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه * لعاقبة، ولا الاسير المقيدا

وسيح على حين العشبات والضحى * ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

(485)

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه جواسيس قريش و رجالها فسألوه عن أمره وقصده فاخبرهم بانه جاء يريد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليلسّم، وحيث أنهم كانوا يعرفون بأن «الاعشى» رجل يحب النساء والخمر حباً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفروه من الإسلام فقالوا له: يا أبا بصير (وهي كنية الاعشى) إنه يحرم الزنا.

فقال الاعشى: والله ذلك لأمرٌ ما لي فيه من ارب.

فقالوا له: يا أبا بصير فأنه يحرم الخمر.

فقال الاعشى - وقد صُدِمَ بهذا الخبر - أما هذه فوالله في النفس منها لعلالات، ولكني منصرفٌ فاترؤى منها عامي هذا، ثم أتية

فأسلم!! فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يُعَدُّ إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

-2- الطفيل بن عمرو الدوسي:

وهو الشاعر العربي الحكيم العذب اللسان، صاحب النفوذ والكلمة المسموعة في قبيلته.

يروى انه قدم «مكة» ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بها، وكانت قريش تخشى ان يتصل بالنبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فيسلم.

ومن البديهي أن اسلام رجل مثله كان ممّا يشق على قريش جداً ولهذا مشى إليه رجالٌ منهم وقالوا له - محذرين إياه من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجلُ الذي بين أظهرنا قد اضلّ بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين ابيه، وبين الرجل وبين اخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه، ولا تسمعنّ منه شيئاً.

فعلت تحذيرات قريش فعلتها في نفس الطفيل وهم يكرّرونها عليه بقوة

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٨٦ - ٣٨٨.

(486)

وإصرار، حتى انه قرر ان لا يسمع من النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - شيئاً، ولا يكلمه، وحشى أذنه - حين غدى إلى المسجد

للطواف - قطناً، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو لا يريد ان يسمعه!!!

يقول الطفيل: فغدوت إلى المسجد فاذا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قائمٌ يصلي عند الكعبة، فقمْتُ منه قريباً فسمعتُ

كلاماً حسناً من غير اختيار مني فقلت في نفسي: واتكل أُمي، والله اني لرجل لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى على الحسنُ من القبيح، فما

يمنعني أن اسمع من هذا الرجل ما يقول، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وان كان قبيحاً تركته؟

فمكثت حتى انصرف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سردت أذني بكسرف لنلا اسمع قولك ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك فسمعتُه قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الإسلام وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق. ثم قلت: يا الله نبيّ إني امرؤ مطاغ في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيتهم إلى الإسلام.

ثم يكتب ابن هشام قائلًا: إن الطفيل لم يزل بارض «دوس» يدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة ومضى «بدر» و «أحد» و «الخنق» فقدم على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون أو ثمانون بيتاً ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخبير فلحقوا جميعاً برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخبير، وبقي مع النبيّ حتى قُبِضَ - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم سار مع المسلمين - في زمن الخلفاء إلى «اليمامة» وشارك في معركتها وقُتِلَ فيها. (1)

- 1 السيرة النبوية: ج 1، ص 382 - 385.

(487)

١٩

اسطورة الغرائق

قد يكون بين القراء من يودّ التعرف على اسطورة «الغرائق» التي رواها بعض مؤرخي السنّة ومعرفة جذورها كما يودّ التعرف على الأيدي الخفية التي كانت وراء اختلاق هذه الاسطورة، وأمثالها من الأكاذيب، والمفتريات.

كان اليهودُ وبخاصّة أخبارهم ولا يزالون العدو رقم واحد للإسلام.

وقد عمد فريقٌ منهم - مثل «كعب الاحبار» وغيره - ممّن تظاهروا باعتناق الإسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعل الأخبار المفتراة على لسان الانبياء. (1)

ولقد أدرج بعضُ المؤلفين المسلمين بعض هذه المفتريات في مؤلفاتهم وجعلوها في عداد الحديث والتاريخ الصحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها، ثقة بكل من أظهر الإسلام وتظاهر بالإيمان، وانضم إلى صفوف المسلمين!!

ولكنّ اليوم حيث يجد العلماء فرصة اكبر للتحقيق في هذا النوع من الأحاديث والاحبار، والمنقولات والنصوص وبخاصة بعد أن توفّرت لديهم، بفضل جهود طائفة من المحققين المسلمين القواعد والضوابط الكفيلة بتمييز

- اوهي آتي يُطَلَق عليها الاسرائيليات وقد أَلَفَت في هذا المجال بعض الكتب.

(488)

الحسن عن القبيح، والصحيح عن السقيم، وفرز الحقائق التاريخية عن القصص الخيالية، والروايات الاسطورية.

من هنا لا ينبغي لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كل ما يراه في مصنف تاريخي أو غير تاريخي متقدّم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته، ويرويه في كتابه من دون دراسة وتحقيق، وتمحيص وتقييم.

ماهي أسطورة الغرائق؟!!

يقولون: إن «الأسود بن المطلب» و «الوليد بن المغيرة» و «أمية بن خلف» و «العاص بن وائل» وهم من زعماء قريش و اسياها قالو لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

يا محمّد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وانت في الأمر!!

وقالوا ذلك رفاً للاختلاف، وتضييقاً لشقّة الخلاف فأنزل الله سبحانه سورة الكافرين التي امر فيها نبيّه أن يقول في جوابهم:

(لا أعبد ما تعبدون. و لا أنتم عابدون ما أعبد.)

ومع ذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يرغب في أن يساوم قريشاً ويجار بهم وكان يقول في نفسه: ليت نزل في ذلك أمر يقربنا من قريش.

و ذات يوم وبينما كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يتلو القرآن عند الكعبة ويقرأ سورة «النجم» فلما بلغ قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ. (1))

أجرى الشيطان على لسانه الجملتين التاليتين:

«بَلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَىٰ مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْتَجَىٰ. »

فقرأهما من دون إختيار، وقرأ ما بعدها من الآيات، ولمّا بلغ آية السجدة سجد هو ومن حضر في المسجد من المسلمين والمشركين أمام الاصنام، إلّا

(489)

«الوليد» الذي عاقه كبر سنه عن السجود!!

وفرح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون: لقد ذكر «محمّد» آلهتنا بخير.

وانتشر نبأ هذه المصالحة والتقارب بين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والمشركين، المهاجرين إلى الحبشة، فعاد على أثرها جماعة منهم إلى مكة، ولكنهم ما أن كانوا على مشارف «مكة» إلا وعرفوا بأن الأمر تغير ثانية، وأن ملك الوحي نزل على النبيّ وأمره مرة أخرى بمخالفة الاصنام ومجاهدة الكفار والمشركين، وأخبره بأن الشيطان هو الذي أجرى تينك الجملتين على لسانه، وانه لم يقله وأنه ليس من «الوحي» في شيء أبداً.

وعندئذ نزلت الآيات (٥٢ - ٥٤) من سورة «الحج» التي يقول الله تعالى فيها:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.)

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبِهِمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.)

هذه هي خلاصة أسطورة «الغرائيق» التي أوردها «الطبري» في تاريخه⁽¹⁾ ويذكرها ويرددها المستشرقون المغرضون بشيء كبير من التطويل والتفصيل!!

محاسبة بسيطة لهذه الاسطورة

لنفترض أن «محمّد» لم يكن نبياً مرسلًا ولكن هل يمكن لأحد أن ينكر ذكاه وحنكته، وفطنته وعقله.

فهل لعاقل فطن، محدك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا ؟

ان الذكيّ اللبيب الذي يجد انصاره يتكاثرون ويتزايدون يوماً بعد يوم

وتقوى صفوفهم أكثر فأكثر بينما تتفرق صفوف أعدائه ومناوئيه ويتناقص معارضوه وخصومه، هل يقدم في مثل هذه الحالة على عمل يوجب ان يسيء الجميع ظنهم به، ويشك الصديق والعدو في أمره؟!

هل تصدق أنت أيها القاريء الكريم أن رجلا ترك جميع الأموال والمناصب التي عرضتها قریش عليه، في سبيل دينه الحنيف، وعقيدة التوحيد أن يصبح مرة أخرى من دعاة الشرك، ومرّوجي الوثنية؟؟!

إننا لن نصدّق بمثل هذا الاحتمال في حق مصلح أو سياسي عادي من الساسة والمصلحين فكيف برسول الله ونبّيه العظيم.

رأي العقل في هذه القصة:

1- إن العقل يحكم بان المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى إلى البشرية لهدايتها وارشادها، وتزكيتها وتعليمها مصونون عن أي خطأ وزلل بقوة (العصمة) التي أوتوها، إذ لو تعرض مثل هؤلاء إلى الخطأ والزلل في أمور الدين لزال ثقة الناس بهم وبكلامهم.

يجب علينا ان نقارن بين أمثال هذه القصص، وبين هذا الأصل العقائدي المنطقي ونعالج بواسطة معتقداتنا القوية المبرهنة متشابهات التاريخ ومعضلاته.

إنّ من المسلّم أن عصمة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كانت تمنعه وتحفظه من أي نوع من هذه الحوادث في تبليغ رسالته السماوية.

2- إن هذه الاسطورة تقوم أساساً على أن النبيّ قد تعب من أداء مهمته التي ألقاها الله سبحانه عليه، وقد شقّ عليه ابتعاد الوثنيين عنه، فكان يبحث عن مخلص من هذا الوضع المتعب، يكون طريقاً - حسب تصوره - إلى إصلاح وضعهم!!

ولكن العقل يقضي بأن على الانبياء أن يكونوا صابرين حلماء أكثر ممّا يتصور، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع في ذلك، فلا يُحدثوا أنفسهم بالتهرب من المسؤولية وترك الساحة مطلقاً، مهما اشتدّت الظروف، وتأزّمت

الأحوال.

بينما لو صحّت هذه الرواية - الاسطورة - لكانت دليلاً على أنّ بطل حديثنا قد فقدّ عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامة وانه بالتالي تعب وملّ، وضني وكلّ، وهو أمرٌ لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليم في حق الأنبياء، كما لا يتفق كذلك مع ما عهدناه من سوابق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن مستقبله أبداً.

إن مخلق هذه الاسطورة لم يمرّ بخاطره وباله أن القرآن الكريم شهد ببطلان هذه القصة، إذ يعد الله تعالى نبيه الكريم، بأن لا يتسرّب إلى القرآن أي شيء من الباطل إذ قال:

(لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. (1))

كما وعده أيضاً بأن يصونه عبر جميع أدوار البشرية من أي حادث سيء إذ قال سبحانه:

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. (2))

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو الله أن ينتصر على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً، ويصبح القرآن الذي تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداة الوثنية ومحاربتها داعياً إلى الوثنية؟؟!!

إنه لأمر عجيب جداً أن يفترى مخلق هذه الاسطورة أمراً ضدّ التوحيد في موضع قد كذّبه القرآن قبل هذا المكان بقليل إذ قال الله تعالى:

(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ. إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ. (3))

فكيف يترك الله نبيه - وقد وعده بهذا الوعد - من دون حفيظ، ويسمح للشيطان بأن يتصرف في قلبه وعقله ولسانه؟؟ إن هذه الأدلة العقلية إنما تفيد من يكون مؤمناً بنبوّة محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ورسالته.

- [فصلت: ٤٢ .
- 2 الحجر: ٩ .
- 3 النجم: ٣ و ٤ .

(492)

وأما المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته، ويعمدون إلى شرح ونقل وترديد أمثال هذه الأساطير للحطّ من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهم هذه الدلائل، فلا بدّ أن ندخل معهم في البحث من باب آخر.

تكذيب القصة من طريق آخر

إنّ النصّ التاريخي يقول: إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قرأ هذه السورة، وكبار قريش واكثرهم من عمالقة الكلام، وأبطال الفصاحة والبلاغة العربية حضور في المسجد ومنهم «الوليد بن المغيرة»، متكلم العرب ومنطيقها المفوّه المعروف بينهم بالذكاء وحصافة العقل والنباهة، وقد سمعوا جميعاً هذه السورة إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجنتها.

فكيف اكتفى هذا الجمع المؤسس للفصاحة والبلاغة الذين كانوا ينقدون كل ما يعرض عليهم نقداً دقيقاً؟

كيف اكتفوا بتبنيك الجملتين اللتين امتدحتنا آلهتهم، وقد تضمنت الآيات السابقة عليهما، واللاحقة لهما على شتم آلهتم وتفنيدها، والازدراء بها بصورة صارخة و صريحة؟!

كيف تصور مختلق هذه الاكذوبة الفاضحة، تلك الجماعة أصحاب اللغة العربية وآبائها ونقاد الكلام المعدودين عند العرب كلها من عمالقة الفصاحة والبلاغة بلا منازع، والذين كانوا أعرف من غيرهم بإشارات تلك اللغة، وكنياتها (فضلاً عن تصريحاتها).

كيف اكتفى هؤلاء بتبنيك العبارتين في امتداح آلهتهم، وغفلوا عما سبقها ولحقها من الذم لها والظعن الصارخ فيها؟

إنه لا يمكن قط أن نخدع العاديين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتين بكلام مطوّل يذم عقائدهم وسلوكهم فكيف بمن عُرف باللب، والحصافة، والحكمة والذكاء؟

وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلقة بالمقام ونترك أصفاً (وفاغاً) في مكان

(493)

الجملتين اللتين أدعي اضافتهما، ثم نترك للقاريء نفسه أن يقيم بنفسه هل لتبنيك الجملتين مكانٌ بين هذه الآيات (التي وردت في ذم الاصنام والقدح فيها): وإليك هذه الآيات:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (1)...أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَ لَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. (2))

ثم هل يسمع إنسانٌ عادياً لنفسه أن يكف عن معاداة نبيِّ هاجم عقائده طيلة عشرة اعوام، وهدر إستقلاله وكيانه، وجرَّ عليه الشقاء بتسفيه أحلامه، وشم آلهته، لعبارات متناقضة وكلام خليط من الذم الكبير والمدح العابر.

دليلٌ لغويٌّ على تفنيد هذه الاسطورة

يقول العلامة الجليلُ الشيخ محمد عبده: لم يُستعمل لفظ الغرائيق في الآلهة أبداً لا في اللغة ولا في الشعر العربي. (3)

و «غرنوق» و «غرنيق» اللذان جاءا في اللغة استعمالاً في نوع من طيور الماء أو الشاب الجميل، ولا يتطبق أى واحد من هذه المعاني على الآلهة.

وقد اعتبر احدُ المستشرقين يدعى «السيروليم موبير» قصة «الغرائيق» هذه من مسلمات التاريخ واستدل لها بقوله: لم يكن يمض على هجرة المهاجرين الاول إلى الحبشة اكثر من ثلاثة أشهر يوم صالح محمد قريشاً فعادوا إلى مكة.

إن المسلمين الذين هاجروا إلى تلك الأرض وكانوا يعيشون في أمن وطمأنينة في جوار النجاشي إذا لم يكونوا يبلغهم نبأ مصالحة النبي لقريش لما عادوا إلى مكة للقاء بنوهم.

فإذن لا بد أن «محمداً» قد تذرّع بشيء لمصالحة قريش، والتقرب إليها،

-
- 1مكان الجملتين المزعومتين: تلك الغرائق... إلى آخرها.
 - 2النجم: ١٩ - ٢٣.
 - 3نقله عنه القاسمي في تفسيره: ج ١٢، ص ٥٥ - ٥٦.

(494)

وهذا الشيء هو قصة الغرائق. (1)!!»

ولكن يجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم:

أولاً: لماذا يجب أن تكون عودة المهاجرين ناشئة عن نبأ صحيح حتماً.

إن النفعيين وذوي الأهواء والأغراض يسعون دائماً إلى بثّ عشرات بل مئات الأخبار الكاذبة بين جماعتهم لتحقيق مآرب خاصة لهم، فما الذي يمنع من أن نحتمل أن هناك من افتعل خبر مصالحة النبي لقريش بهدف إرجاع المهاجرين من الحبشة إلى «مكة». وقد صدق بعض أولئك المهاجرين هذا الخبر الكاذب فعادوا إلى أرض الوطن، بينما لم ينخدع الآخرون بها وبقوا في الحبشة ولم يعودوا إلى مكة؟؟؟

ثانياً: لنفترض أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يريد أن يصلح قريشاً، فهل يكون الطريق إلى السلام والمصالحة منحصراً في افتعال هاتين الجملتين.

ألم يكن إعطاء مجرّد وعد مناسب أو مجرّد السكوت عن عقابهم كافياً لتهدئة خواطرهم، واجتذاب قلوبهم نحوه؟

وعلى كلّ حال فإن عودة المهاجرين لا يكون دليلاً على صحة هذه الأسطورة كما أن المصالحة، والتقارب غير متوقفين على النطق بهاتين الجملتين.

والأعجب من هذا أن البعض تصوّر الآيات (٥٢ - ٥٤ من سورة الحج) قد نزلت في قصة الغرائق.

وحيث أن هذه الآيات قد وقعت ذريعة بأيدي المستشرقين ومرتكبي جريمة التحريف في التاريخ، فإننا نعمدُها إلى توضيح مفاد هذه الآيات، ونبين للقارئ بأنها تنظر إلى امر آخر، ولا ترتبط بهذه القصة بتاتاً.

وها هو نصُّ الآيات المشار إليها:
(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ * إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ *)

- [راجع حياة محمَّد: ص ١٦٥ و ١٦٦ .

(495)

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ .)

والآن يجب أن نبين مفاد الآيات ولنبدأ بالآية الأولى:

إن الآية الأولى تنكِّرُ بثلاثة أمور هي:

1- [إن الأنبياء والرسل يتمنون.

2- [إن الشيطان يتدخل في تمنياتهم.

3- [إن الله يمحي آثار ذلك التدخل.

وبتوضيح هذه النقاط الثلاث يتضح مفاد الآية والمراد منها.

واليك توضيح تلكم النقاط الثلاث:

1- ما هو المقصود من تمنى الانبياء والرسل

لقد كان الأنبياء والرسل يجيئون هداية أممهم، ونشر دينهم وتعاليمهم فيها، وكانوا يدبرون أموراً ويخططون خطأً لتحقيق أهدافهم هذه، كما كانوا يتحملون في هذا السبيل كل المتاعب والمصاعب، ويثبتون في جميع المشكلات والمحن.

ولم يكن رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - مستثنى عن هذه القاعدة، فقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يخطط لتحقيق أهدافه كثيراً، ويهييء مقدمات ويبين القرآن هذه الحقيقة بقوله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى.)

فأتضح إلى هنا المراد من لفظ تمنى ولنشرح الآن النقطة الثانية.

-2 ما هو المقصود من تدخل الشيطان؟

إن تدخل الشيطان يمكن أن يتم على نحوين:

1- أن يوجد الشك والترديد في عزم الانبياء، ويوحى إليهم بأن هناك

(496)

عوائق كثيرة تحول بينهم وبين أهدافهم، ولذلك لن يحرزوا نجاحاً في تحقيق تلك الأهداف.

2- بأن الأنبياء كلما مهّدوا لأمر وهياؤوا له مقدماته، وظهرت منهم أمارات تدلّ على أنهم مقدمون على تنفيذه فعلا أقام الشيطان ومن تبعه من شياطين الانس العراقل والموانع في طريقهم، ليمنعواهم من الوصول إلى غاياتهم.

أما الاحتمال الأول فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنية الأخرى ولا مع الآية اللاحقة.

أما من جهة الآيات الأخرى فلأن القرآن ينفي بصراحة لا صراحة فوقها أنه لا سلطان للشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين (ولو بأن يصوّروا لهم بأنهم لن يقدرُوا على تحقيق آمالهم، وأهدافهم) إذ يقول:

(إِنْ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ. ⁽¹⁾) (ويقول أيضاً:

(إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ. ⁽²⁾)

إن هذه الآيات، والآيات الأخرى التي تنفي سلطان الشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين، وتأثيره في قلوبهم ونفوسهم لخير شاهد وأفضل دليل على أنّ المقصود من تدخل الشيطان في تمنيات الأنبياء ليس بمعنى إضعاف عزيمتهم، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقل في نظرهم.

أما من جهة الآيات المبحوثة فإن الآية الثانية والثالثة تفسّر وتشرح علّة التدخل على النحو الآتي:

إننا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس: الفريق الأول: الذين في قلوبهم مرض، والفريق الثاني: الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.

يعني أنّ تدخّل الشيطان في أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضدّهم وضدّ أهدافهم يوجب مخالفة الفريق الأوّل ومعارضتهم للأنبياء في حين يكون الأمر على العكس من ذلك في الفريق الثاني فإنه يزيد من ثباتهم وصدورهم.

- [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥].
- 2 النحل: ٩٩.

(497)

وان بيان أن لتدخّل الشيطان في تمنيات الانبياء، مثل هذين الاثرين المختلفين (أي يحمل فريقاً على المخالفة وفريقاً آخر على الثبات والصدور) يفيد أن المراد بالتدخّل هنا هو المعنى الثاني، يعني ان التدخّل يحصل عن طريق تحريك الناس ضدّهم، وإلقاء الوسوس في قلوب أعدائهم، وخلق الموانع والعراقيل في طريقهم لا أنهم يتصرفون في نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضعفون ارادتهم وعزمهم.

إلى هنا اتضح معنى تدخّل الشيطان في تمنيات الانبياء والرسل.

والآن حان الحين لتوضيح المطلب الآخر يعني محو آثار هذا التدخّل.

-3- ما هو المقصود من محو آثار التدخّل؟

إذا كان معنى تدخّل الشيطان هو تحريك الناس وتآليبهم ضد الانبياء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقدم في أهدافهم، فإن محو آثار التدخّل الشيطاني من قبل الله - حينئذ - يكون بمعنى ان الله يدفع عن أنبيائه ورسله كيد الشيطان ليتضح الحقّ للمؤمنين، ويكون إختياراً لمرضى القلوب كما يقول تعالى في آية أخرى.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَ الَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ^(١))

وخلاصة القول: أن القرآن يخبر - في هذه الآيات - عن سنة لله قديمة في مجال الأنبياء وهي:

إن تمّني التقدم في الأهداف وتمّني التوفيق في هداية الناس هو فعل الانبياء دائماً.

ثم يأتي الدور لتدخّل الشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجنّ، وذلك بايجاد الموانع والعقبات في طريق الأنبياء والرسل.

ثم يأتي من بعد ذلك حلول المدد الالهي الغيبي بمحو وفسخ كلّ التدابير الشيطانية المضادّة لأهداف الانبياء المعرّفة لتحقيق أمانتهم

وهذه هي إحدى السنن الالهية الثابتة التي جرت في جميع الأمم السالفة.

(498)

إن تاريخ الأنبياء والرسل وقصصهم من نوح وإبراهيم وأنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى - عليهما السلام - ، و تاريخ حياة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - خير شاهد على هذا المطلب .

وينبغي إستكمالاً لهذا البحث أن نقول: ولأجل ما ورد على هذه القصة الأسطوية من مؤاخذات رفضها وفندها بعض المحققين من أهل السنة إذ قال بعد ذكرها على النحو الذي ادرجها الطبري في تاريخه وأرسله ارسال المسلمات:

وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة.

ومن صححه قال فيه أقوالاً:

منها: ان الشيطان قال ذلك وأداعه والرسول عليه الصلاة والسلام لم ينطق به.

(وذكر وجوهاً أخرى ثم قال:) والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته. (1)

- [راجع هوامش السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦٤ .

(499)

٢٠

الحصار الاقتصادي والاجتماعي

إن أبسط وسيلة وأسهلها لضرب الأقليات في أي مجتمع، والقضاء عليها هو ما يسمى بالمكافحة السلبية التي تقوم أساساً على اتحاد الأكثرية واتفاقها على مقاطعة الأقلية المتمردة.

إن عكس هذا يحتاج إلى أدوات متعددة مختلفة، لأنه يتطلب مثلاً ان يحمل جماعة من المقاتلين السلاح، وتتوجه نحو الاهداف المطلوبة عبر التضحية بقدر كبير من الأنفس والأموال، وازالة العشرات من الموانع والسواتر، وهو أمر لا يُقدم عليه القادة المحنكون إلا بعد توفر كل مستلزمات المواجهة واتخاذ جميع التدابير اللازمة، والاستعداد الكامل، وبالتالي لا يقدمون على هذه الخطوة ما لم تدعو الضرورة اليها، وتنحصر الحيلة في القتال.

ولكن المكافحة السلبية لا تتوقف على مثل هذه الأمور، بل تحتاج إلى أمر واحد وهو اتفاق الاكثرية.

يعني أن يتفق من يعينهم الأمرُ ولهم عقيدة واحدة ويتحالفوا في ما بينهم بصدق على أن يقطعوا كلَّ صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلية المعارضة، فيحرّموا التعامل التجاريّ معهم ويوقفوا الاتصال العائليّ بهم، ولا يشركونهم في اعمالهم الاجتماعية ولا يتعاونوا معهم في أمورهم الشخصيةً أيضاً.

(500)

في مثل هذه الحالة تضيق الأرض على الأقلية بما رحبت وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير، ويصيرون عُرضة للانهياب والسقوط بأقلّ قدر ممكن من الضغط عليها.

إن الاقلية المخالفة المتمردة ربما تستسلم - في هذه الحالة - وتؤوب من منتصف الطريق، وتطيع إرادة الأكثرية.

ولكن أقلية كهذه لا بد أن تكون ممّن لا تعود مخالفتها للأكثرية إلى أمر عقائديّ ولا يكون لانفصالها عن الأكثرية طابعٌ أصوليّ مبدئيّ، كما لو كان خلافها مع الأكثرية مثلاً على تحصيل ثروة أو منصب مهمّ أو ما شاكل ذلك.

فان مثل هذه الاقلية إذا أسست بخطر جدّي، أو واجهت العذاب والسجن والحصار ستراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعة الأكثرية مؤثرة اللذة العابرة المؤقتة على اللذة الإحتمالية، لأنها لم تنطلق من دوافع ايمانية اصيلة، ولم يكن المحرك لها محركاً روحياً معنوياً .

ولكن الجماعة التي يقوم خلافها للأكثرية على أساس الإيمان بهدف مقدس، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط، ولن تنتهي أمام هذه الرياح والعواصف، ولا يزيدها ضغط الحصار الأصلاية وقوة، وإصراراً وعناداً، وتردُّ جميع ضربات العدو بالصبر والإستقامة .

إن صفحات التاريخ البشريّ تشهد بأن أقوى العوامل لثبات كل أقلية وصمودها في وجه الأكثرية هو: قوة الإيمان، وعاملُ الاعتقاد، الذي ربما يؤدي رسالة الثبات والمقاومة ببذل آخر قطرة دم في ساحة المواجهة.

ولنا على هذا عشرات بل ومئات الأمثلة من التاريخ الغابر والحاضر.

قريشٌ تحاصر النبيّ والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقَّ على قريش انتشار الإسلام المتر ايد وأزعجها نفوذه العجيب في القبائل العربية في مدة غير طويلة بالنسبة إلى عمر الدعوة ولهذا كانت تفكر باستمرار في حلّ لهذه المشكلة.

فان اسلام شخصيات ذات أهمية ومكانة كبرى مثل حمزة، وكذا رغبة فتية قريش المتفتحين في الإسلام، وحرية العمل والتحرك التي اكتسبها المسلمون على اثر الهجرة إلى أرض الحبشة، كل ذلك زاد من حيرة، واضطراب الزعامة الجاهلية في مكة، التي زادها حيرة، وانزعاجاً، فشل جميع مخططاتها الاجهازية ضد الإسلام والمسلمين، وعدم حصولها على أية نتائج تذكر!!

من هنا فكرت في خطة جديدة، وهي ان تفرض حصاراً اقتصادياً قوياً على النبيّ والمسلمين تقطع به كل الشرايين الحيوية للمسلمين، وبذلك تحدّ من سرعة انتشار الإسلام وتقف دون نفوذه، وبالتالي تخنق بين كمشاة هذا الحصار مؤسس هذه العقيدة التوحيدية، وأنصاره.

ولهذا اجتمع زعماء قريش في «دار الندوة» ووقعوا ميثاقاً كتبته «منصور بن عكرمة» وعلقوه في جوف الكعبة، وتحالفوا بان تلتزم قريش ببئوده حتى الموت.

ونصّ هذا العقد على الأمور التالية:

1- أن لا يبتاعوا من أنصار النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا يبيعوهم شيئاً.

2- ان لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم.

3- أن لا يؤاكلوهم ولا يكلموهم.

4- ان يكونوا بدأ واحدة على «محمّد» وأنصاره.

وقد وقعت على هذه الصحيفة الظالمة القاطعة كلّ الشخصيات البارزة في قريش إلا «مطعم بن عدي» وأعلنت عن سريان مفعوله بكل قوة وإصرار.

فلما علم حامي النبي الاكبر أبوطالب - عليه السلام - بذلك جمع بني هاشم و بني المطلب وحملهم مسؤولية الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالخروج من مكة وبدخول شعب كائن بين جبال مكة كان يعرف بشعب أبي طالب فيه بعض البيوت العادية، والسقائف البسيطة جداً، والسكنى في ذلك الشعب بعيداً عن المجتمع المكّي المشرك.

وعمد إلى بث رجال منهم في نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسباً لأي

هجوم مباغت تقوم به قريش. (1)

وقد استمر هذا الحصار ثلاثة أعوام كاملة، وبلغ الجهدُ بالمحاصرين في الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساة مكة إلا أنها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون على ثمرة واحدة طوال اليوم، وربما تتأصف اثنان ثمرة واحدة، ولم يمكنهم الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث إلا في الأشهر الحرم حيث يسود الأمنُ كل أنحاء الجزيرة العربية.

فاذا حلَّ الموسمُ كانت بنو هاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلى الشعب إلى الموسم الثاني.

وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يستغلُّ هو أيضاً تلك المواسم في نشر دينه، والدعوة إلى ما أتى به.

وكانت عناصر قريش تحاول مضايقة النبي وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادي عليهم بشكل من الأشكال حتى في هذه المواسم، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء فاذا وجدوا مسلماً يريد أن يبتاع شيئاً اشتروه بثمن أعلى ليمنعوا المسلم منه!!

وكان «أبو لهب» أكثر الناس اصراراً على هذا العمل، فقد كان ينادي في الأسواق: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فانا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الرجل المسلم إلى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما

- [السيرة النبوية: ج ١، ص 350، وتاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧٨، وقد كتبت هذه الصحيفة الظالمة في الليلة الأولى من السنة السابعة للبعثة وعندما عرف ابوطالب بأمرها أنشد قصيدة في ذمهم مطلعها:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً * نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب

(503)

اشتروا من الطعام واللباس. (1)!!

وكان «الوليد بن المغيرة» ينادي: أيما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتره فزيدوا عليه فكانت قريش تباكرهم إلى الأسواق فيشترونها فيغنونها عليهم.

وضع بني هاشم المأساوي في الشعب

لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصرين في الشعب حدّاً جعلهم يأكلون كل ما تقع عليه أيديهم من الخبط وورق السمر حتّى أن «سعد بن أبي وقاص» يقول: لقد جعلت حتّى أني وطنئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعتة في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن. (2)

هذا وقد بنّت قريش جواسيسها على الطرق المؤدّية إلى الشعب ليمنعوا من إيصال الطعام إلى من فيه فلا يصل إليهم شيء إلا سرّاً و مستخفياً به ممّن أراد صلّتهم من قريش.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» (ابن اخ خديجة) و «أبو العاص بن الربيع» و «هشام بن عمرو» كانوا يسرّبون إلى «بني هاشم» في الشعب سرّاً وفي أواسط الليل تحت جناح الظلام، فكان الواحد منهم يحمل قمحاً وتمراً على بعير ويأتي به إلى باب الشعب ثم يصيحُ بها فتدخلُ الشعب ويأكله بنو هاشم.

وربما صادفهم بعض جواسيس قريش، فهُمّوا بقتله، أو سبّوا له بعض المتاعب.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» خرج يوماً ومعه انسان يحمل طعاماً إلى عمته خديجة بنت خويلد (زوجة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكانت معه في الشعب طيلة أعوام الحصار) إذ لقيه «أبو جهل» فقال له: تذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت ولا طعامك حتّى أفضحك عند قريش بمكة.

(1) و (2) السيرة النبوية: ج 1، ص 337 الهوامش.

فقال له أبو البخترى - وكان من أعداء الإسلام هو أيضاً - : تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده؟

فأبى «أبو جهل» أن يدعه إلا أن يأخذه إلى قريش، فقام إليه «أبو البخترى» بساق بعير فضربه ووطأه وطناً شديداً. (1)»

وخلاصة القول؛ أن قريشاً بالغت في تضيق الحصار على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن تبعه حتّى أن من كان يدخل «مكة» من العرب. كان لا يجسر على أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان «أبو جهل»، و «العاص بن ائيل» و «النضر بن الحارث بن كلة»، و «عقبة بن أبي معيط» يخرجون إلى الطرقات التي تدخل «مكة» فمن رأوه معه ميرة وطعام نهوه ان يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذرون إن باع شيئاً منهم نهبوا ماله.

كما وعدوا على من أسلم فارتقوهم وأذوهم واشتدّ البلاء عليهم، وأبدت قريش لبني عبدالمطلب الجفاء.

ولكن لم يستطع كل ذلك أن يفتت في عضد النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ويقلل من إصراره وثباته على الطريق، ولا من إصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم.

وأخيراً تركت صرخات أطفال بني هاشم في الشعب من الجوع والعري والجهد والضرر، وأوضاعهم المأساوية أثرها في نفوس بعض المشركين الموقعين على تلك الصحيفة الظالمة، وذلك الميثاق المشؤوم، فندموا على إمضائهم لتلك المقاطعة بشدة وصاروا يفكرون في نفضها بشكل من الأشكال.

فمشى «هشام بن عمرو» إلى «زهير بن أبي أمية» (وكان من أحفاد عبدالمطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثه على نقض الصحيفة: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأحوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يُنكحون ولا يُنكح إليهم؟

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٤، هذا ويشكك أحد المحققين في نوايا حكيم بن حزام في هذا العمل، وفي أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجة القرى، بل كان بدافع الربح الاكثر لما ثبت - حسب قوله - من انه كان يحتكر الطعام على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(505)

أما إنني أحلف بالله أن لو كانوا أخوال أبي الحكم (أي أبي جهل) ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً؟

فقال زهير: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمْتُ في نفضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً.

قال فمن هو؟ قال: أنا.

قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدي» فقال له يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً؟

قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ.

قال: قد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟ قال: أنا.

قال: أبغنا ثالثاً.

قال: قد فعلتُ.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية.

قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى «البخترى بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين علي هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: «زهير بن أبي أمية» و «المطعم بن عدي» وأنا معك.

فقال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعة بن الأسود بن المطلب» فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

(506)

قال: نعم... ثم سمى له القوم الذين وعدوه بالمساعدة على نقض تلك الصحيفة القاطعة الظالمة.

فاتفقوا على أن يحضروا في أندية قريش في المسجد ويُعلِّقوا مخالفتهم لتلك الصحيفة.

فلما أصبحوا غدوا إلى مجلس قريش في المسجد الحرام فأقبل «زهير بن أبي أمية» على الناس وقال:

يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ واللّه لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبت واللّه لا تشقّ.

فانتصر زمعة لزهير وردّ على أبي جهل قائلاً: أنت واللّه أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

وقال أبوالبختري من ناحية مؤيداً موقف زميله: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرّ به.

وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فأحسن أبو جهل بأن ذلك كان أمراً مبيّناً مدبراً من قبل فقال:

هذا أمرٌ فُصِي بليلى، تُشور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب - حسب بعض الروايات التاريخية - جالساً ذلك اليوم في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد

(الإرضة)⁽¹⁾ قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم» التي صُدّرت بها تلك الصحيفة وهي جملة كانت قريش تبدأ بها عهودها ورسائلها.

فلما رأى «أبو طالب» ذلك رجع إلى الشعب وأخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [وهي دودة بيضاء شبه النملة وهي آفة كل شيء من خشب أو نبات راجع لسان العرب مادة: ارض].

(507)

بما جرى، وعاد المحاصرون في الشعب إلى منازلهم مرة أخرى بعد المشورة مع «أبي طالب».

ويروي طائفة من المؤرخين أنّ «خديجة» و «أبا طالب» أنفقا أموالهما برمتها خلال سنوات المحاصرة.

وفجأة نزل ملك الوحي «جبرئيل» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الشعب، وأخبره بان الله قد بعث على صحيفة

المشركين القاطعة دابة الأرض فلحست (أو اكلت) جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت جملة «باسمك اللهم» فأخبر رسول الله

أباطال بذلك قائلاً يا عم إن ربّي الله قد سلط «الإرضة» على صحيفة قريش فلم تدع فيها إسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها

الظلم والقطيعة والبهتان.

فقال أبو طالب: إذن لا يدخل عليك أحدٌ. (1)

ثم قام ولبس ثيابه، ومشى هو ورسول الله وشخص آخر حتّى دخلوا المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه، فلما دنا أبو طالب منهم

قاموا إليه وعظّموه، وتباشروا وظنوا أن الحصر والبلاء حمل أباطال على التخلّي عن موقفه، فقالوا له: قد آن لك أن تطيب نفسك

عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم (أو قد آن لك أن تسلّم إلينا ابن أخيك).

فقال أبو طالب: واللّٰه ما جئت لهذا، ولكنّ ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أنّ اللّٰه تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابةً فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم اللّٰه، فهلم صحيفتكم فإن كان حقاً فاتقوا اللّٰه وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرّحم.

وإن كان باطلا دفعته إليكم فإن شتمت قتلتموه، وإن شتمت استحيتموه.

فقالوا: رضينا، وتعاقدوا على ذلك.

- [وإنما اتخذ مثل هذا الاجراء حتّى لا يفشوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة ويكذبوا بذلك خبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(508)

ثم بعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة، وعليها أربعون خاتماً.

فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه، ثم فكوها فاذا ليس فيها حرفٌ واحدٌ إلا «باسمك اللّٰهم»، كما أخبرهم بذلك رسول اللّٰه - صلى الله عليه وآله وسلم - .

غير أنّ هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شراً وعناداً ورجع بنو هاشم مرّة أخرى إلى الشعب ويقوا محاصرين فيه مدّة من الزمن ولم يمكنهم الرجوع إلى منازلهم بمكة إلا بعد أن نقضها هشام.

وقد قال «أبو طالب» في مدح هذا (أي نقض الصحيفة القاطعة والنّفر الذين قاموا بنقضها) قصيدة مطوّلة جاء في مطلعها.

ألا هل أتى بحرئنا ⁽¹⁾ صنع ربّنا * على نأيهم واللّٰه بالناس أروذ ⁽²⁾

فيخبرهم أنّ الصحيفة مزّقت * وإن كلّ ما لم يرضه اللّٰه مُفسد ⁽³⁾

هذه أمثلة ونماذج من ردود الفعل الظالمة والمواقف المناوئة التي اتخذتها قريش تجاه الدعوة المحمدية.

على أنه لا يمكن الادّعاء القطعيّ بأن جميع هذه الردود قد وقعت على الترتيب الذي ذكرناه تماماً، ولكن يمكن بمراجعة النصوص التاريخية تحصيل مثل هذا الترتيب وخاصّة أن مسألة انتهاء المحاصرة الاقتصادية قد وقعت في منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة الشريفة.

كما أنّ أذى قريش وردود فعلها ضدّ الإسلام والمسلمين وضدّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - خاصّة لم تنحصر في ما ذكرناه في هذه الفصول بل كانت هناك أساليب أخرى سلكتها قريش لتحطيم شخصية النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وأضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بالأبتر.

فقد كان «العاصم بن وائل السهمي» إذا ذكر رسول الله قال: دعوة، فأثما هو رجلٌ أبترٌ لا عقب له، لومات لا تقطع ذكره واسترحتم منه.

-
- 1 يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة في البحر.
 - 2 أي أرفق.
 - 3 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٧٧ - ٣٨٠ و قد أدرج ابن هشام القصيدة بتمامها، فراجع.

(509)

فانزل الله تعالى في ذلك سورة الكوثر التي يقول فيها:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ .)

وقد أخبر بها الله نبيّه بأنه سيهبه ذرية كثيرة. (1)

ولقد كتب العلامة الفخر الرازي في تفسيره لهذه السورة: (2) المعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قُتل من أهل البيت؟ ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحدٌ يُعبأ به.

ووجه المناسبة أن الكافر شمت بالنبيّ حين مات أحد أولاده وقال: ان محمداً أبتر فان مات ذكره، فانزل الله هذه السورة على نبيّه تسلياً له كأنه تعالى يقول: ان كان ابنك قد مات فانا اعطيناك فاطمة، وهي وإن كانت واحدة وقليلة، ولكن الله سيجعل هذا الواحد كثيراً.

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٩٣ و جميع التفاسير.
 - 2 مفاتيح الغيب: الجزء الثلاثون، سورة الكوثر.

(510)

(511)

٢١ وفاة أبي طالب وخديجة الكبرى

في الوقت الذي كنا نسطر فيه مواضيع هذا الفصل كان سجن «القطيف» يضم بين جدرانه شاباً حر الضمير شجاعاً مقداماً له يكن له من ذنب إلا أنه ألف كتاباً باسم «أبو طالب مؤمن قريش» يتناول إسلام «أبي طالب» وإيمانه وإخلاصه مثبتاً كل ذلك من مصادر أهل السنة. (1)

فطلبت منه السلطات القضائية في الحجاز - وفي عصر يتسم بحرّية التفكير والبيان والإعتقاد - بأن يتراجع عن كلامه، وحيث إنه لم يكن ليبريد أن ينكر حقيقة اعتقد بها عن قناعة ويقين، حكمت عليه تلك السلطات بالاعدام.

وقد نجا هذا الفتى الشجاع والكاتب الحرّ من الاعدام اثر جهود اسلامية واسعة وخُفِضت عقوبته إلى الحبس المؤبد، الذي خفّض اثر جهود اسلامية مرّة أخرى إلى عقوبة الجلد ثمانين جلدة!!

وهو الآن يلبث في أحد السجون بانتظار المصير، المجهول إذ على المسلمين إما أن يهتموا بالأمر ويطلبوا من السلطات القضائية السعودية صرف النظر عن

- [والكتاب يقع في ٣٤٠ صفحة طبع بحجم الوزيري وطبع في بيروت مراراً وقدم عليه الأديب اللبناني المعروف «بولس سلامة» صاحب ملحمة الغدير و ملاحم أخرى.

(512)

عقوبته، بل والافراج عنه نهائياً.

وإما أن يفقد هذا الشاب المجاهد الشجاع البريء حياته تحت سياط تلك السلطات الجائرة الحاكمة زوراً وقهراً على أرض الحجاز. (1)(2)

لقد سقطت مؤامرة الحصار الاقتصادي ضدّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بفعل إقدام ثلّة من ذوي المروءة وأيضاً بفضل صمود النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وثباتهم العظيم. وخرج النبيّ وأنصاره من «شعب أبي طالب» بعد ثلاث سنوات من النفي والعذاب وعادوا إلى منازلهم ظافرين مرفوعي الرؤوس.

وعاد التعامل الاقتصادي مع المسلمين إلى ما كان عليه قبل الحصار، وكانت أوضاع المسلمين تسير نحو الانتعاش والانفراج شيئاً فشيئاً، وإذا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يُفاجأ بحادث مؤلم مَرَّ ذلك هو وفاة شخصية كبرى أحدث فقدانها أثراً سيئاً في نفوس المسلمين وبخاصة المستضعفين منهم.

ولقد كان هذا الأثر عظيماً جداً بحيث لا يمكن قياسه بشيء بالنظر إلى تلك الظروف الحساسة، وذلك لأن نمو أية عقيدة وفكرة إنما يكون في ظل عاملين أساسيين: أحدهما: حربة التعبير، والآخر: القوة الدفاعية التي تحمي أصحاب تلك العقيدة والفكرة ضدّ حملات الخصوم التي لا ترحم.

ولقد كان المسلمون - آنذاك - يتمتعون بحرية البيان والتعبير، ولكنهم افتقدوا بسبب الحادث المفاجيء المذكور العاملَ الجوهري والمصيري الثاني يعني: حامي الإسلام والمدافع الوحيد عنه الذي وافته المنية في تلك الايام الحساسة

- إُلقد سمّيت أراضي «الحجاز» و «نجد» و «تهامة» باسم عائلة واحدة هي آل سعود، واخيراً حملت هذه المنطقة التي كانت تُعرف وحتى إلى ما يقرب من قرنين بارض الحجاز اسم المملكة العربية السعودية، ياله من استنثار وجرأة على المقدسات!!
- 2واخيراً نجا هذا الشاب المؤمن والمجاهد الحرّ بفضل جهود علماء الشيعة و مفكرهم المتضافرة والواسعة النطاق وأخلي سبيله وقد زار - للاعراب عن شكره - مدينة قم المقدّسة وقد التقينا به أيضاً كما زار اماكن أخرى لنفس الغرض.

(513)

وخرم المسلمون بوفاته من حمايته ودفاعه، ووقايته.

* * *

أجل لقد فقد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حاميهِ العظيم الذي تولى مهمة كفالاته والدفاع عنه، والمحافظة على حياته بصدق وإخلاص وجدّ و رغبة وكان يقيه بنفسه وذويه ويؤثره على نفسه وأولاده وينفق عليه من ماله حتى كَبُرَ وصار له مال وطول منذ أن كان - صلى الله عليه وآله وسلم - في السنة الثامنة من عمره وحتى يوم وفاة ذلك الحامي العظيم، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الخمسين من عمره.

لقد فقد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شخصيةً خاطبها عبدُالمطلب عند وفاته بالشعر قاتلاً:

أوصيك يا عبدَ مناف بعدي * بموحد بعدَ أبيه فرد

فأجابه أبوطالب قاتلاً: يا أبة لا توصين بمحمد فانه إبني وابن أخي. (1)

ولعلّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تذكر في اللحظة التي ظهر فيها على جبين ابي طالب عرق الموت جميع الحوادث الحلوّة والمرّة وقال في نفسه:

- [إن هذا الشخص المسجى على فراش الموت هو عمّه الرؤوف الذي ظلّ يحرسه بالليل والنهار طيلة سنوات الحصار في الشعب، فاذا جاء الليل قام عند رأسه بالسيف يحرسه. ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مضجع ثم يقيمه من فراشه إذا مضى شطراً من الليل ويضعه في موضع آخر ويضع مكانه ولده «علي بن ابي طالب» حتّى لا تغتاله قریش بعد أن رصّدوا مكانه، وكمناوا له، وكان يفعل أبوطالب ذلك طوال الليل كله فيفديني بولده «علي» ويقيني به حتّى إذا قال له «علي» ليلة:

«يا أبتاه إني مقتول ذات ليلة.»

فأجابه أبوطالب بنبرة المتحمّس الصبور:

- [عمدة الطالب: ص ٦ وفيه بواحد، المناقب: ج ١، ص ٢١.]

(514)

إصْبِرْ يَا بُنَيَّ فَالْصَبْرُ أَحْسَنُ * كُلُّ حَيْ مَصِيرُهُ لِشُعُوبِ

قَدْ بَلَوْنَاكَ وَالبَلَاءُ شَدِيدٌ * لِإِدَاءِ النَّجِيبِ وَابْنِ النَّجِيبِ

فأجابه «علي» بكلام أكثر حلاوة وعمقاً قائلاً:

أَتَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ فِي نَصْرِ أَحْمَدَ؟ * وَوَاللَّهِ مَا قُلْتُ الَّذِي قُلْتَ جَازِعاً

وَإِكْتَنِي أَحَبِّبْتُ أَنْ تَرَى نَصْرَتِي * وَتَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ لَكَ طَائِعاً⁽¹⁾

- [إن هذا الجثمان الذي فارقتة الروح هو جثمان عمي العطوف الذي شردّ هو وذووه، وعرض نفسه وأهله للبلاء والمحنة بسبب الحصار لأجلي، وأمر بأن يحرسوني ليل نهار، تاركاً زعامته وسيادته، وكلّ شؤونه للحفاظ على والإبقاء على رسالتي وأرسل إلى قریش رسالة قوية أعلن فيها عن وقوفه إلى جانبي وانه لن يسلمني ويخذلني مادام حيّاً إذ قال:

فَلَا تَحْسِبُونَا خَائِلِينَ مُحَمَّداً * لَدِي غُرْبَةٌ مِمَّا وَ لَا مُتَقَرِّبِ

سَتَمْنَعُهُ مِمَّا يَدُّ هَاشِمِيَّةً * وَ مَرَكِبُهَا فِي النَّاسِ أَحْسَنُ مَرَكَبِ⁽²⁾

بعد أن تحقق موت «أبي طالب» ارتفع الصراخ والنحيب من منازل بيوته، واجتمع حول بيته العدو والصدق، والقريب والبعيد، واشترك الجميع في مراسيم دفنه بقلوب ألمتها الفجيعة به، وقزحها الحزن عليه.

وهل ترى تنتهي آثار وردود فعل وفاة شخصية عظيمة الشأن مثل «أبي طالب» الذي كان زعيم قريش، وسيد عشيرته بمثل هذه السرعة، والبساطة؟

كلا بل سيكون لفقدانه أكبر الأثر على مسيرة الدعوة كما ستعرف ذلك مستقبلاً.

نماذج من مشاعر أبي طالب

إن التاريخ البشري يحتفظ في صفحاته بأمتلة كثيرة عن مشاعر تبادلها

- 1 مناقب ابن شهر آشوب: ج ١، ص ٦٤، الحجة: ص ٧٠، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١ - ١٩.
- 2 بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٤.

(515)

الأشخاص وعواطف وديّة قويّة أباها البعض تجاه بعض تدور أكثرها حول محور الدوافع المادية كالتي تدور حول معيار الجمال أو المال، ولهذا سرعان ما يذهب الحماس وتنطفئ شعله الحب، ويتضاءل لهيب العاطفة في كيانهم حتى تزول بالمرّة ولا يبقى منها شيء أبداً لعدم ثبات هذه الدوافع.

ولكنّ المشاعر والعواطف التي تنبع من أواصر الإيمان بفضائل شخص ما وكمالاته الروحية والمعنوية لا تتمحي ولا تتلاشى بسرعة.

وقد كانت مودة «أبي طالب» لمحمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - وحبّه الشديد له تنبع من كلا هذين الدافعين.

فقد كان «أبو طالب» يؤمن بمحمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ويرى فيه من جانب الإنسان الكامل، بل يعتبره في قمة الكمال الإنساني، ومن جانب آخر كان «محمّد» ابن أخيه، وقد أحله ذلك من قلبه محلّ الابن والأخ.

لقد كانت لصفات «محمّد» وخصاله المعنوية والأخلاقية، وطهره مكانة كبرى في قلب عمّه «أبي طالب» إلى درجة أنه كان يصطحبه معه إلى المصلّى، ويستسقي به أي انه يقسم على الله بمقامه أن يدفع عن الناس القحط والجذب وينزل عليهم الغيث، فكانت دعوته تستجاب من دون تأخير.

فقد نقل كثيرٌ من المؤرخين الحادثة التالية:

قحط الناسُ في «مكة» وحواليها سنةً من السنين، ومنعتِ السماء والأرضُ بركاتها عنهم بشكلٍ عجيب، فمشت قريشُ بعيونٍ باكيةٍ إلى «أبي طالب» تطلب منه بالحاح أن يستسقي لهم، وإن يذهب إلى المصلى ويدعو ربّه لينزّل عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنة الصعبة.

فخرج «أبو طالب» وقد أخذ بيد غلامٍ كأنه شمسٌ دجن تجلّت عنها غمامة فاسند ظهره إلى الكعبة ورفع وجهه نحو السماء وقال: يا رب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرخون ان السماء كانت صافية لا غيم فيها أبداً ساعة استسقى «أبو طالب» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكن ما ان فرغ «أبو طالب» من دعائه

(516)

إلّا وأقبلت السحاب في الحال، وغطت سماء «مكة» وما حولها من المناطق القريبة إليها، وارتدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأودية، وروّت القريب والبعيد، وسرّ به الجميع ورضوا. (1)

وقد اشار «أبو طالب» في لا ميته المعروفة إلى هذه الحادثة.

وقد أنشأ «أبو طالب» تلك القصيدة في أحلك الظروف واشدها، يوم زادت قريشٌ من ضغوطها على حامي الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ليسلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إليها.

وقد ذكّر فيها «أبو طالب» قريشاً بحادثة الاستسقاء برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل الإسلام وكيف أنها أمطرت ببركته، بعد قحط طويل، وجذب مهلك، كاد يبديد الحرث والضرع، وذلك عندما يقول:

وابيض يُستسقى الغمامُ بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للأرامل

تلوّدُ به الهلاك من آل هاشم * فهم عندّه في نعمة وفواضل

وقد نقل «ابن هشام» في سيرته (2) أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيدة، فيما أورد «ابن كثير» الشامي في تاريخه (3) اثنتين وتسعين بيتاً فقط.

وهي قصيدة في منتهى الروعة والعذوبة، وفي غاية القوة والجمال، وتفوق في هذه الجهات كل المعلقات السبع التي كان عرب الجاهلية يفتخرون بها، ويُعدونها من أرقى ما قيل في مجال الشعر والنظم.

وقد أورد «ابو هفان العبدى» الجامع لديوان «أبي طالب» مائة واحد وعشرين بيتاً من هذه القصيدة في ذلك الديوان، ويمكن أن تكون كل تلك القصيدة وتمامها.

ونحن نورد هنا أبياتاً متفرقة من هذه القصيدة مما يتصل منها برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بصورة صريحة.

-
- 1بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢ و ٣، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١١١ - ١١٦، الملل والنحل المطبوع بهامش الفصل في الأهواء والملل: ج ٣، ص ٢٢٥.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٨٠.
- 3البداية والنهاية: ج ٣، ص ٥٢ - ٥٧.
-

(517)

كذِبْتُمْ وبيتِ الله نيزى محمداً * ولما نطاعن دونه و نناضل⁽¹⁾

وئسلّمه حتّى نُصرّع دونه * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

لعمري لقد كلفتُ وجداً بأحمد * وإخوته دأبَ المحبِّ الموصل

فلا زال في الدنيا جمالا لأهلها * وزيناً لمن والاه ربُّ المشاكل⁽²⁾

فَمَنْ مثله في الناس أيُّ مؤمِّل * إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائش * يُوالي إلاها ليس عنه بغافل

لقد علموا أنّ ابننا لا مكذبٌ * لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

فأصبحَ فينا احمدٌ في أرومة * تقصّر عنه سورة المنظول⁽³⁾

حدّبتُ بنفسى دونه وحميته * ودافعتُ عنه بالدرا والكلال⁽⁴⁾

فأيدّه ربُّ العباد بنصره * وأظهرَ ديناً حقه غير باطل⁽⁵⁾

التغيير في برنامج السفر

لم يكن يمض أكثر من إثني عشر ربيعاً من عُمر «محمّد» بعد، عندما أراد «أبو طالب» التوجّه إلى الشام مع قافلة قريش التجارية

وعندما استعدت القافلة لمغادرة مكة ودق جرس الرحيل، أخذ «محمّد» فجأة بزمام الناقة التي كان يركبها عمّه وكافله «أبو طالب» بينما اغرورقت عيناه - صلى الله عليه وآله وسلم - بالدموع وقال:

«يا عمّ إلى من تكلني، لا أب لي ولا أم»؟.

هذا المشهد المؤثر وبخاصة عند ما رأى «أبو طالب» عيني محمّد وقد اغرورقت بالدموع، فعل فعلته في نفس العم الكافل الحنون، فاندردت عبرات العطف من عينيه وقرر من فورهِ ومن دون سابق تفكير في الموضوع أن يصطحب ابن أخيه «محمّداً» معه في هذا الرحلة، ومع أنه لم يحسب لهذا الامر - من قبل -

-
- 1 أي تُغَلَّبَ عليه.
 - 2 المشاكل: العظيّمات من الامور.
 - 3 السورة: الشدة والبطش.
 - 4 الذرا: جمع ذروة وهي اعلى ظهر البعير.
 - 5 راجع السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

(518)

أي حساب فان «أبا طالب» قبل بان يتحمّل كل ما يترتب على قراره هذا، فحمله معه على ناقته، وبقي يفكر في أمره، ويدبّر شأنه، ويحافظ عليه طوال تلك الرحلة، وشهد منه اثناء الطريق كرامات وخوارق، وقد أنشأ في ذلك قصيدة موجودة في ديوان أبي طالب، ومطلع هذه القصيدة هو:

إنّ ابن أمانة النبي محمّداً * عندي يفوقُ منازلَ الأولاد⁽¹⁾

* * *

الدِّفاعُ عن حوزة العقيدة والايمان

ليست هناك قوة تساعد على الثبات والمقاومة، والصمود والاستقامة، مثل قوة الايمان، فالايمان بالهدف هو العامل القوي وراء تقدّم الإنسان في ميدان الحياة، فهو الذي يهضم في نفسه كل الالام والمتاعب، ويدفع بالمرء إلى المضي قدماً في طريق الوصول إلى أهدافه المقدّسة، حتّى ولو كلفه ذلك التعرض للموت.

إنّ الجنديّ المسلّح بقوة الإيمان منتصرٌ لا محاله.

إن الجنديّ الذي يعتقد بأن الموت في طريق العقيدة هو عين السعادة لا بدّ أن يحرز النصر.

إن على الجندي - قبل أن يسلّح نفسه بسلاح العصر - أن يتزود في قلبه من طاقة الإيمان بالهدف، ويضيء قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقيقة، وحيّتها، ويجب أن يكون جهادُه وصلحُه من أجل العقيدة والدفاع عن حوزتها، وكيانها.

إنّ أفكارنا وعقائدنا نابعة من روحنا، وفي الحقيقة أنّ فكر الإنسان وليد عقله، فكما أنّ الإنسان يحبّ ولده الجسماني حباً شديداً كذلك يحب أفكاره التي هي ولادته وعقله وروحه، بل إن حبّ الإنسان لعقيدته أكثر من حبّه

- [ديوان أبي طالب: ص ٣٣ - ٣٥، تاريخ ابن عساکر: ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٢، الروض الأنف: ج ١، ص ١٢٠.

(519)

لأولاده الجسمانيّين، ولهذا فهو يدافع عن عقائده حتّى الموت، ويغضي - في سبيل الدفاع عن حوزة العقيدة والحفاظ عليها - عن كل شيء بينما هو غير مستعدّ لأن يضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على اولاده.

إنّ حب المرء للمال والمنصب حبّ محدود، فهو ينساق مع هذا الحبّ مادام لم يهدّد حياته خطر الموت الحقيقي، ولكنّه مستعد لأن يمضي - في سبيل الدفاع عن حياض العقيدة - إلى حدّ الموت، ويؤثر الموت الشريف في سبيل العقيدة على الحياة، ويرى الحياة الحقيقية والواقعية في وجود الرجال المجاهدين، وهو يردد:

«إنما الحياة عقيدة وجهاد⁽¹⁾.»

ولنلق نظرة فاحصة على حياة بطل حديثنا (ونعني به المدافع الوحيد عن الإسلام وحامي الرسول الاوحد في بدايات عهد الرسالة) فماذا كان دافعه إلى هذا الامر، وما الذي كان يحركه في هذا السبيل؟ واي شيء كان وراء مضيئه في هذا الطريق إلى حافة العدم، والغضب عن النفس والنفيس، والمقام، والقبيلة وغير ذلك والتضحية بكل ذلك في سبيل «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - .

إن من المتيقّن أن دافعه إلى ذلك لم يكن المحرك المادّي، وبالتالي لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن اخيه، وحمائته، والحدب عليه، كسب أمر مادي كتحصيل مال وثروة، لأن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن له يومئذ مال، ولا ثروة.

وكما أن مقصود «أبي طالب» لم يكن أيضاً تحصيل مقام، وأحراز مكانة اجتماعية لأنه كان يملك في ذلك المجتمع أعلى المناصب واهمها، فقد كانت له رئاسه «مكة» والبطحاء، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتازة و مكانته المنقولة بسبب دفاعه عن «محمّد»، وعدم الاستجابة لقومه في تسليمه اليهم، والتخلي عنه لأن دفاعه عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد استوجب سخط زعماء قريش عليه واستيلاءهم من موقفه، وخروجهم عن طاعته، ودفعهم إلى التمادي

- [المراد من العقيدة المقدسة هو بطبيعة الحال ما تدوب «الأنا» فيها في التوحيد والايان بالله إذ هنا يصدق قوله:

قف عند رأيك واجتهد * إن الحياة عقيدةٌ وجهاد

(520)

في معادة «بني هاشم» و «أبي طالب» والثورة عليهم!!

تصوّر باطلٌ

ربما يتصور بعض ضعفاء البصيرة أن علة حذب «أبي طالب» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس كانت هي: علاقة القربى، وشيجة الرّحم، أو بتعبير آخر: إن التعصب القبليّ، والعصبية القومية هو الذي دفع بأبي طالب إلى ان يعرّض نفسه لكل ذلك المكروه في سبيل ابن اخيه.

ولكنّ هذا ليس سوى مجرد تصور باطل لا غير، ويتضح بطلانه بدراسة مختصرة لأنه لا تستطيع أية وشيجة قريى على أن تدفع أحداً إلى أن يضحي بنفسه في احد أقربائه إلى هذه الدرجة من التضحية والمفاداة، بحيث يقي مثلا ابن أخيه عليه، ويكون مستعداً لأن يتقطّع ولده بالسيوف إرباً إرباً دون ابن أخيه.

إن العصبية القبائلية والعائلية وان كانت تدفع بالانسان حتّى إلى حافة الموت، ولكن لا معنى لان تختص، هذه الحماية الناشئة عن العصبية العائلية والقبيلية الشديدة بفرد واحد، وشخص خاص معين من أفراد العائلة والقبيلة، في حين نجد «أبا طالب» قد قام بكل هذه التضحية في سبيل شخص واحد، وفرد معين (أي النبيّ)، ولا يفعل مثل هذه في سبيل غيره من أبناء «عبدالمطلب» و «هاشم» وأحفادهما ومن ينتمي إليهم بوشيجة القربى ورابطة الرحم.

الدافع الحقيقي لأبي طالب

وعلى هذا الأساس فإنّ المحرك والدافع الحقيقي لأبي طالب لم يكن أمراً مادياً ولا الجاه والمنصب، أو التعصب القومي، والعائلي، بل كان أمراً معنوباً وأن ضغوط العدو وقوّته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأي نوع من أنواع التضحية وذلك الأمر المعنوي هو اعتقاده الراسخ برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعتبر «محمّداً» مظهرأ كاملاً للفضيلة والإنسانية ويعتبر دينه أفضل برنامج

(521)

للسعادة، وحيث أنه كان يحبُّ الحقيقة، ويعشق الكمالَ والحقَّ، لذلك كان من الطبيعيّ أن يدافع عن الحق والحقيقة، وينصرهما بكل وجوده، وبكل قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد «أبي طالب» وأشعاره، فهو يصرح بأن «محمّداً» رسولٌ كموسى وعيسى إذ يقول:

لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا * نَبِيًّا كَمُوسَى وَ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ

أَتَانَا يَهْدِي مِثْلَ مَا أَتَى بِهِ * فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَ يَعْصِمُ⁽¹⁾

ويقول في قصيدة أخرى:

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا * نَبِيًّا كَمُوسَى خَطِّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ⁽²⁾

هذا وتعتبر أبياته التي سبق أن أشرنا إليها والمئات من أمثالها مما جاء ذكره في ديوان أبي طالب، وفي ثنايا التاريخ والتفسير والحديث شواهد حية وقوية على أن محرك «أبي طالب» الواقعي ودافعه الحقيقي إلى الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان هو اعتقاده الخالص، وإسلامه الواقعي ولم يكن له أي دافع آخر سوى الإيمان والعقيدة.

ونحن هنا نكشف النقاب عن بعض مواقفه في الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحمانيته بعد اضطراره بعبء الرسالة، ونترك لك أيها القارئ بأن تدقّق في مثل هذه المواقف الفدائية ثم تقضي بنفسك: هل تتبع مثل هذه التضحية، ومثل هذا التفاني، والفداء إلا من الإيمان والاعتقاد؟؟

* * *

لمحات من توضيحات أبي طالب

إجتمع أسياذ قريش وأشرافها في بيت أبي طالب والنبىّ - صلى الله عليه وآله وسلم - حاضر، وتبودلت بين الجانبين أحاديث حول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- 1مجمع البيان: ج ٧، ص ٣٧، الحجّة: ص ٥٦ - ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ٢، ص ٦٢٣ و ٦٢٤.
- 2مجمع البيان: ج ٧، ص ٣٦، وقد نقل ابن هشام في السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٢ و ٣٥٣ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

ودينه وما خلق من مشكلات في مكة، وحاول القرشيون اثناء النبيّ عن دعوته وعمله ولكن دون جدوى فلما يسّوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم ليتركوا بيت «أبي طالب» قال «عقبة ابن أبي معيط» غاضباً مهدداً: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتال محمّداً!!

فغضب «أبو طالب» من هذه الكلمة، ولكنه ماذا عساه أن يفعل فهم ضيوفه، وفي بيته. واتفق أن خرج النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - من البيت في ذلك اليوم ولم يعد، وجاء «أبو طالب» وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع قتياناً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال - وهو يظن ان قريشاً كادت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم، فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية - يعنى أبا جهل - فانه لم يرغب عن شر ان كان محمّداً قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال: يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا ادخل بيتي أبداً حتّى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتّى اتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو في بيت عند الصفا ومع أصحابه يتحدّثون فاخبره الخبر، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي: ابن كنت؟ اكنّت في خير؟ قال: نعم، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فلما اصبح أبو طالب غدى على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاخذ بيده فوقف على اندية قريش ومع الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به؟ قالوا: لا، فاخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عما في ايديكم، فكشفوا، فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: واللّه لو قتلتموه ما بقيت منكم أحداً حتّى نتفانى نحن و انتم، فانكسر القوم وكان اشدهم انكساراً أبوجهل.⁽¹⁾

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٦٨، الطرائف: ص ٨٥.

لو لاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تاريخ «أبي طالب»، ودرست حياته لرأيت كيف ان «أبا طالب» ظل طوال اثنين وأربعين سنة بأيامها ولياليها يحذب على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويدافع عنه، ويحامي، وبخاصة في السنوات العشر الاخيرة من حياته التي صادفت بعثة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودعوته، فقد أظهر من الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والحرص على حياته، وحماية هدفه اكثر مما يتصور.

ولقد كان العامل الوحيد الذي دفعه إلى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم في هذا السبيل هو: عمق الايمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وقوة الاعتقاد الخالص برسالاته.

ولو أننا ضمنا إلى تضحياته الشخصية تضحيات ولده العزيز «عليّ» لأدركنا مغزى البيتين الذين انشدهما «ابن ابي الحديد» المعتزلي الشافعي إذ قال:

ولولا أبوطالب وابنه * لما مثلَ الدِّينُ شخصاً وقاما

فذاك بمكّة أوى و حامى * و هذا بيثربَ جِسَّ الحماما⁽¹⁾

قضية ذات بواعث سياسية:

ليس من ريب في أنه لو ثبت عُشر هذا القدر من الشواهد الدالة على اسلام «أبي طالب» وإيمانه بالرسالة المحمدية، لغيره مَمَّن هو بعيدٌ عن قضايا السياسة، وخارج عن دائرة الحقد والبغض لا تفق الجميع سنةً وشيعَةً على إسلامه وإيمانه، ولكن كيف ذهب فريقٌ إلى تكفير «أبي طالب» مع كلِّ هذه الشواهد القويّة القاطعة على إيمانه؟ حتّى أنّ فريقاً من الكتاب ذهب إلى أن بعض الآيات المشعرة بالعذاب نزلت في شأنه.

- [شرح نهج البلاغة: ج ١٤ ص ٨٤، يقول ابن أبي الحديد: صنف بعض الطالبين في هذا العصر كتاباً في اسلام أبي طالب، وبعثه إليّ، وسألني ان اكتب عليه بخطي نظماً أو نثراً اشهد فيه بصحة ذلك، وبوثاقة الأدلة عليه (إلى ان قال) فكتبت على ظاهر المجلد هذه الابيات.

(524)

بينما توقّف في هذا الأمر، وذهب أفراد معدودون من علماء السنة إلى الحكم باسلامه وإيمانه، ومنهم «زيني دحلان» مفتي مكة المتوفى سنة ١٣٠٤ من الهجرة.

ولكن الانصاف هو ان يقال: أن الهدف من طرح هذه المسألة والتوقف في ايمان «أبي طالب» أو تكفيره لم يكن إلاّ الطعن في أبنائه، وبخاصة أمير المؤمنين الامام عليّ - عليه السلام - .

ولقد جرّ بعض كتّاب السنّة - لتبرير تكفير أبي طالب - هذه المسألة إلى غير ابي طالب ووسع دائرة التكفير هذه حتّى شملت آباء النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أيضاً حيث ذهب إلى أن أبوي النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ماتا كافرين أيضاً.

ونحن لا يهمنا هنا أن نعلم بأن تكفير والدي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مخالفٌ لاجماع الامامية والزيدية، وكذا جماعة من علماء السنة، ومحققهم، إنما الكلام هو حول من اتَّهموا ببساطة متناهية حامي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الوحيد والمدافع عنه بلا منازع.

الأدلة على إيمان أبي طالب

إن التعرّف على عقيدة أحد، ومعرفة نمط تفكيره، يمكن عن ثلاث طرق هي:

1- دراسة ما ترك من آثار علمية وأدبية.

2- أسلوب عمله، وتصرفاته في المجتمع.

3- رأي أقربائه، وأصدقائه غير المغرضين فيه.

ونحن نستطيع أن نتعرّف على إيمان «أبي طالب» وعقيدته من خلال هذه الطرق.

فإن أشعار «أبي طالب» تدل بجلاء لألبس فيه على إيمانه وإخلاصه، وكذا تكون خدماته القيمة في السنوات العشر الأخيرة من عمره شاهداً قوياً على إيمانه العميق.

(525)

كما وأن رأي أقربائه المنصفين متفق على أنّ «أبا طالب» كان مسلماً مؤمناً ولم يقل أحدٌ من أقربائه، في حقه بغير هذا أبداً.

واليك إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث على وجه التفصيل:

آثار أبي طالب العلمية والأدبية

نحن نختر هنا من بين قصائد «أبي طالب» المطوّلة، بعض الأبيات التي تثبت إيمانه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، واعتقاده بالاسلام، في غير ابهام.

1- لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا * نَبِيٌّ كَمُوسَى وَ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ

أَنَا بَهْدِي مِثْلَ مَا أَتِيَابَهُ * فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَ يَعْصِمُ⁽¹⁾

2- تَمَنَيْتُمَا أَنْ تَقْتُلُوهُ وَإِنَّمَا * أَمَانِيكُمْ هَذَا كَأَحْلَامِ نَائِمِ

نَبِيٌّ أَنَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ * وَمَنْ قَالَ لَا يَقْرَعُ بِهَا سِنَّ نَائِمِ⁽²⁾

3- أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا * رَسُولًا كَمُوسَى خُطِّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ

وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً * وَ لَا حَيْفَ فِي مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ (3)

4- وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ * حَتَّى أَوْسَدَ فِي التَّرَابِ دَفِينًا

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْنِكَ غَضَاضَةً * وَابْشِرْ بِذَلِكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونًا

وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحٌ * وَلَقَدْ دَعَوْتَ وَ كُنْتَ تَمَّ أَمِينًا

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ * مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا (3)

5- أَوْثُوْمُنَا بِكِتَابِ مَنْزِلِ عَجَبٍ * عَلَى نَبِيِّ كَمُوسَى أَوْكَذِي النُّونِ (4)

6- لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَدِّبٌ * لَدَيْنَا وَ لَا يَعْني بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

فَاتَيْدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِبَصَرِهِ * وَ أَظْهَرَ دِينًا حَقَّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ (5)

-
- 1 - مجمع البيان: ج ٧، ص ٣٧، الحجة: ص ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ٢، ص ٦٢٣.
2 - ديوان أبي طالب: ص ٣٢، السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٣.
3 - تاريخ ابن كثير: ج ٣، ص ٤٢.
4 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٧٤، ديوان أبي طالب: ص ١٧٣.
5 - السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٨٠.
-

(526)

إن كل واحدة من هذه المقطوعات الشعرية التي تشكل قسماً صغيراً من قصائد مفصلة لأبي طالب، تشهد بايمانه بدين ابن أخيه «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وخلاصة القول: أن بيتاً واحداً من هذه الأبيات كاف في إثبات إيمان صاحبها وقائلها، ولو أن أحداً قالها وهو خارج عن فلك الصراعات السياسية، وبعيد عن دوائر التعصبات والأغراض لحكم الجميع - بالاتفاق - بإسلام قائله وإيمانه الخالص العميق.

ولكن لما كان «أبو طالب» هو قائلها، وكانت الأجهزة الدعائية في الحكومات الاموية والعباسية تعمل بكل جهدها ضد آل «أبي طالب» من هنا أبي فريق من الناس أن يُثبتوا مثل هذه الفضيلة الكبرى لأبي طالب - عليه السلام - .

هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّ أبا طالب والد «علي» الذي كانت سلطات الخلفاء تعمل ضده على الدوام، وتستغل كل الوسائل للحط من شأنه، كان إسلام أبيه وإيمانه بالرسالة المحمدية يُعدُّ فضيلة بارزة من فضائله - عليه السلام - في حين أن كفر آباء الخلفاء وشركهم يعدُّ مثلية توجب الحط من شأنهم، وقيمتهم.

وعلى كل حال قام جماعة بتكفير أبي طالب رغم كلّ هذه الأشعار والأقوال، والمواقف الصادقة، بل لم يكتفوا بذلك، فادعوا نزول آيات من القرآن تدل على كفره، وشركه!!!

الطريق الثاني لا ثبات إيمان أبي طالب

إنّ الطريق الثاني للبرهنة والتدليل على إيمان «أبي طالب» هو موافقه من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكيفية دفاعه وذبه عنه و حمايته له، وحده عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وما قام به من خدمات جليلة في هذا الطريق.

ان كل واحدة من هذه الخدمات تستطيع بمفردها ان تكون المرأة الصادقة

(527)

التي تعكس فكر «أبي طالب» وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحه من إيمان بالرسالة والرسول، و إخلاص لله تعالى.

لقد كان «أبو طالب» هو ذلك الشخصية التي لم يرض لنفسه بان ينكسر قلب ابن أخيه لتركه في مكة، واصطحبه معه إلى الشام في الرحلة التجارية التي سبق ذكرها، رغم الموانع الكثيرة، وفقدان الوسائل اللازمة، ورغم ما تُرتب على اصطحابه معه من متاعب

إن إيمانه بابن أخيه كان عميقاً إلى درجة أنه أخذهُ إلى المصلّى واستسقى به، مقسماً به على الله تعالى أن يكشف العذاب عن قومه، ويرسل رحمته عليهم، فيستجيب الله دعاءه، وينزل عليهم غيثاً وافراً ممرعاً، بقيت قصته في ذاكرة التاريخ.

إنه ذلك الرجل الذي لم يفتأ عن الحفاظ على حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لحظة واحدة، فهو الذي تحمل في سبيله ثلاثة أعوام عجاج من الحصار الاقتصادي والاجتماعي الصعب، مؤثراً العيش في الشعب وفي شغاف الجبال والوديان القاحلة على زعامة قريش، ورئاسة مكة إلى ان أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحته، وانحرف بذلك مزاجه، وتوفي متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب، والمشاق والمحن بعد نقض الصحيفة، و انتهاء الحصار، والعودة إلى المنازل بأيام معدودة!!

لقد كان إيمان «أبي طالب» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قوياً وراسخاً إلى درجة أنه رضى بأن يتعرض كل ابنائه لخطر القتل والاعتقال ليبقى «محمّد» ولا يمسه من أعدائه أي سوء، فكان يُضجّع ولده علياً في موضعه، حتّى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شيء وهذا يعني أنه كان يقيه بنفسه وبأولاده.

وفوق هذا كلّهُ استعدّ في يوم من الايام لأن يقتل كل زعماء قريش وأسيادها انتقاماً لمحمّد، وكان من الطبيعي أن يقتل في هذا العملية بنو هاشم كلّهم أيضاً. (1)

- [راجع الصفحة ٥٢٢ من هذا الكتاب.

(528)

وصية أبي طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده:

«أوصيكم بمحمّد خيراً فإنّه الأمين في قريش وهو الجامع لكلّ ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وانكره اللسان مخافة الشنئان، وأيم الله لكأني انظر إلى صعاليك العرب، وأهل البرّ في الاطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدّقوا كلمته، وعظّموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش و صناديدها أذنباً، ودورّها خراباً، وضُعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أوجههم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده. ...»

ثم ختم وصيته هذه بقوله:

يا معشر قريش كونوا له ولاةً، ولحزبه حماةً، والله لا يسلك أحدٌ منكم سبيله الارشد، ولا يأخذ أحدٌ بهديه الآسعد. (1)

نحن لا نشك في أن «أبا طالب» كان صادقاً في أمنيته هذه لأن خدماته الكبرى وتضحياته المتواصلة خلال عشر سنوات من بداية عهد الرسالة شاهدة على صدق مقاله، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعته على نفسه لابن أخيه (محمّد) في مبدأ البعثة عندما جمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلى الإسلام فقال له ابوطالب:

«أخرج يا ابن أخي فأنك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً.

والله لا يسلفك لساناً الاسلقتة ألسن جداد، واجتنبته سيفوف حداد.

والله لتدللن لك العرب ذلّ اليهم لحاضنها. (2)»

1- السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٥١ و ٣٥٢.
2- الطرائف تأليف السيد ابن طاووس: ص ٨٥، نقلا عن كتاب غاية السؤل في مناقب آل الرسول تأليف ابراهيم بن علي الدينوري.

(529)

آخر الطرق لا ثبات ايمان أبي طالب

ويحسن بنا أخيراً ان نسأل عن أبي طالب وعن ايمانه واخلاصه، اقاربه غير المغرضين لأن «أهل البيت ادرى بما في البيت.»

1- لما مات أبو طالب جاء عليّ - عليه السلام - إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأذنه بموته، فتوجع توجعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثم قال له امض فتولّ غسله فاذا رفعته على سريره فاعلمني، ففعل فاعترضه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو محمول على رؤوس الرجال: قال: «وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً فأقد ربّيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً.»

ثم تبعه إلى حضرته، فوقف عليه فقال:

«أما والله لاستغفرنّ لك، ولا شفعلنّ فيك شفاعةً يعجبُ لها الثقلان.»⁽¹⁾

2-روي ان علي بن الحسين - عليهما السلام - سئل عن ايمان أبي طالب. فقال:

«واعجباً! ان الله تعالى نهى رسوله ان يقّر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت اسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات.»⁽²⁾

3-روي عن علي بن محمّد الباقر - عليهما السلام - أنه قال:

«لو وُضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.»

ثم قال:

«ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليّاً - عليه السلام - كان يأمر أن يُحجّ عن عبد الله وأبيه.»⁽³⁾

4-قال الامام جعفر بن محمّد الصادق - عليهما السلام - :

- 1 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٧٦.
 - 2 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٦٩.
 - 3 المصدر السابق: ص ٦٨.

(530)

«إنَّ مَثَلُ أَبِي طَالِبٍ مَثَلُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ اسْرُؤُوا الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرُوا الشَّرْكَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، وَأَنْ أَبَا طَالِبٍ اسْرَأَ الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرَ الشَّرْكَ، فَآتَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ.»⁽¹⁾

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

ولقد اتَّفَقَ علماءُ الإمامية والزيدية تبعاً لأهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على: أن «أبا طالب» كان من أبرز المؤمنين برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم يخرج من الدنيا إلا بقلب يفيض إيماناً بالاسلام، وإخلاصاً لله تعالى، وحباً للمسلمين، وقد أُلِّفَتْ في هذا المجال كتب ورسائل، ودراسات عديدة، يمكن الوقوف عليها لمن اراد، ولمزيد التوسع في هذا المجال يراجع المجلد ٧، ص ٤٠٢ - ٤٠٤ من موسوعة الغدير للعلامة الأمينى طبعه النجف، أو ج ٧، ص ٣٣٠ - ٤٠٩ طبعه لبنان.

نظرة إلى حديث «الضحاح»

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغي أن نلقي نظرة إلى رواية تشكك في إيمان أبي طالب فقد روى بعض الكتاب مثل البخاري⁽²⁾، ومسلم عن رواية نظير سفيان بن سعيد الثوري، عبد الملك بن عمير، عبد العزيز بن محمد الدراوردي حديثاً نسبوه إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال عن أبي طالب رحمه الله:

«وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحاح.»

«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحاح من النار يبلغ كعبه، يغلي منه دماغه.»⁽³⁾

إن هذه الرواية و ان كانت تكذيبها عشرات الأحاديث والروايات الإسلامية ،

- 1 اصول الكافي: ج ١، ص ٤٤٨.
 - 2 صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٣ و ٣٤ من أبواب المناقب.
 - 3 صحيح مسلم: كتاب الايمان.

(531)

والدلائل القاطعة الساطعة، وثبتت بطلانها وتفاهتها، ولكننا بهدف الوصول إلى مزيد من التوضيح نعمد إلى دراسة أمرين مرتبطين بهذا الحديث.

-1 ضعف أسناد هذه الرواية

إنّ رِوَاةَ هذه الرواية - كما أسلفنا - هم عبارة عن سفيان بن سعيد الثوري وعبد الملك بن عمير و عبد العزيز بن محمّد الدراوردي الذين سندرس أحوالهم واحداً واحداً - في ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عند أهل السنة - حيث قالوا:

الف: سفيان بن سعيد الثوري

قال أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - وهو من علماء الرجال عند أهل السنة - في سفيان الثوري: كان يدلس عن الضعفاء. (1)

إن هذا الكلام شاهد قوي على وجود التدليس عند الثوري، وعلى روايته عن الضعفاء أو المجهولين، وهو وصف يُسقطه عن درجة الاعتبار.

باء: عبد الملك بن عمير

قال عنه الذهبي: طال عُمره وساء حفظه، قال أبو حاتم: ليس بحافظ، تغيّر حفظه، وقال أحمد: ضعيف يغلط، وقال ابن معين: مخلط وقال ابن خراش: كان شعبة لا يرضاه، وذكر الكوسج عن أحمد بن حنبل: انه ضعيف جداً (2)

فمن مجموع هذه العبارات نعرف ان عبد الملك كان يتصف بصفات عديدة هي أنه:

1- سيء الحفظ.

2- ضعيف.

3- كثير الغلط.

1 - ميزان الاعتدال: ج ٢، ص ١٦٩.
2 - المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦٠.

4- مخلط.

ومن الواضح ان كل واحدة من الصفات والحالات المذكورة كافية لأن تبطل الاحاديث التي يرويها عبد الملك بن عمير، والحال انه قد اجتمعت جميع نقاط الضعف هذه في هذا الرجل.

جيم: عبد العزيز بن محمد الدراوردي

ولقد وصفه علماء الرجال عند اهل السنة بالنسيان، وقلة الحفظ فلا يمكن الاستناد إلى مروياته.

فقد قال أحمد بن حنبل عنه: إذا حدثت من حفظه جاء بأباطيل. (1)

وقال أبو حاتم عنه: لا يُحْتَجُّ به. (2)

وقال أبو زرعة أيضاً: سىء الحفظ. (3) ومن مجموعة هذه العبارات يتضح بجلاء ان الرواة الاصيلين لحديث الضحاح ضعفاء في غاية الضعف، إلى درجة لا يمكن الاعتماد على مروياتهم.

-2 نص حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة

لقد نُسب إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه الرواية أنه أخرج أبا طالب من نار جهنم إلى ضحاح وبهذا خُفِّت عنه العذاب، أو أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - تمنى أن يشفع له، فيخفف الله عنه العذاب، على حين نفى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تخفيف العذاب عن الكفار كما ونفياً شفاعة احد في حقهم.

وعلى هذا الاساس فلو كان ابوطالب كافراً، لم يجز للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يخفف عنه العذاب أو يتمنى له الشفاعة في يوم الجزاء.

وبهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحاح.

واليك فيما يأتي ادلة ما قلناه من الكتاب والسنة:

- 1 المصدر السابق، ص 634.
- 2 و 3- المصدر السابق.

الف: القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ.) (1)

ب: السنة النبوية

ان السنة النبوية الطاهرة تنفي أيضاً الشفاعة للكفار، ونذكر من باب النموذج بعض تلك الأحاديث:

1- روى أبوذر الغفاري عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال:

«أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئاً» (2)

2- روى أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال:

«وشفاعتي لمن شهد أن لا اله الا الله مخلصاً، وأنَّ محمداً رسول الله يصدق لسانه قلبه، وقلبه لسانه» (3)

إن الآيات والروايات المذكورة تثبت بوضوح بطلان نص حديث الضحاح عند من يقول بأن أبا طالب مات كافراً.

ونتيجة البحث أنه تبين مما ذكر ان حديث الضحاح لا أساس له من الصحة لا من جهة السند والطريق، ولا من جهة المتن والنص، ولا يمكن الاستدلال به.

وبهذا ينهار أقوى حصن يتمسك به البعض للخدشة في ايمان أبي طالب الثابت المسلم.

-
- [فاطر: ٣٦.
 - 2 الترغيب والترهيب: ج ٤، ص ٤٣٣.
 - 3 المصدر السابق: ص ٤٣٧.

(534)

(535)

٢٢ المعراج

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ

كان الليل يخيم على الافق، ويسود الظلام على كل مكان.

فقد حان الأوانُ لان ترفدَ جميع الاحياء في مساكنها، وتستريح في جورها وأعشاشها، وتغمض الأجنان لبعض الساعات عن مظاهر الطبيعة، لتستعيد نشاطها من أجل العمل في يوم جديد حافل بالنشاط والحركة والسعي.

فذلك قانون الطبيعة في كلِّ ليل ونهار.

ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمستثنى عن هذا الناموس الطبيعي.

فهو - صلى الله عليه وآله وسلم - مضى ليستريح بعد أن صلى صلاة العتمة أيضاً.

ولكنه فجأة سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً له، وكان ذلك هو صوت أمين الوحي «جبرئيل» وهو يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً ورحلة طويلة، وأنه سيرافقه في هذا الرحلة إلى مختلف نقاط الكون، وسيسافر على متن دابة فضائية تدعى «البراق». »
لقد بدأ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رحلته الفضائية العظيمة من بيت اخت علي بن أبي طالب⁽¹⁾ «أم هاني»، وتوجه على متن تلك الدابة إلى «بيت

- [مجمع البيان: ج ٦، ص ٣٩٥ و ٣٩٦، السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٩٦ - ٤٠٢.

(536)

المقدس» في الأردن وفلسطين والذي يسمى «المسجد الأقصى» أيضاً، وهبط في تلك النقطة بعد مدة قصيرة جداً، وزار مواضع عديدة من ذلك المسجد، وتفقد «بيت لحم» مسقط رأس «السيد المسيح» ومنازل الأنبياء وأثارهم ومحاريبهم، وصلى عند كل محراب من بعض تلك المحاريب ركعتين.

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثاني من رحلته، حيث عرج من ذلك إلى السماوات العلى، وشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوي، وتحدث مع ارواح الأنبياء، والملائكة السماويين، واطّلع على مراكز الرحمة والعذاب (الجنة والنار)⁽¹⁾ ورأى درجات أهل الجنة، وأشباح أهل النار عن كثب، وبالتالي تعرف على أسرار الوجود، ورموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون، وأثار القدرة الإلهية المطلقة، ثم واصل رحلته حتى بلغ إلى سدرة المنتهى⁽²⁾، فوجد لها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم وعندها انتهى برنامج رحلته - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فامر بأن يعود من حيث أتى فعاد، بعد - صلى الله عليه وآله وسلم - ومرّ في عودته على بيت المقدس ثانية، ثم توجه منه إلى «مكة»، ومرّ خلال الطريق على قافلة تجارية لقريش وقد ضلّ بعير لهم في البيداء وكانوا يبحثون عنه، ثم وجد في رحلهم قعباً مملوء من الماء فشرب منه وصبّ بقيته على الأرض أو غطاه كما كان بناء على رواية. وترجّل عن مركبته الفضائية العجيبة في بيت «أم هاني» قبيل طلوع الفجر، وأخبرها بالخبر قبل أي أحد، ثم كشف عن هذا الحادث في أنديّة قريش صباح نفس تلك الليلة.

فاستبعد السامعون قصة المعراج والحركة السريعة هذه، واعتبروه أمراً محالاً وانكروه، وفسّوا هذا الخبر في جميع الأوساط وغضب بسببه أشرف قريش وساداتهم أكثر من غيرهم.

وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصة وقالوا: هذا والله الأمر البين

(537)

(العجيب المنكر) واللّه إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيزهـب ذلك «محمّد» في ليلة واحدة؟

وقالوا: إن صدقت فصف لنا بيت المقدس، فإن فينا من شاهده.

فلم يصف لهم رسول اللّه - صلى الله عليه وآله وسلم - بيت المقدس فحسب بل أخبرهم بكل مامرّ به وفعله ورآه في طريق عودته من بيت المقدس إلى «مكة» وقال: وآية ذلك أنّي مررت على بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، وقد ضلّ لهم بعير وقد همّوا في طلبه، وشربت من ماء في أنية لهم مغطاة بغطاء وثم غطيت عليها كما كان، ثم مررت على بعير فلان وقد نفّرت لهم ناقة وانكسرت يدها

فقال قريش: أخبرنا عن عير قريش.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : إنّها الآن في التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدمها جمل أورك (أبيض مائل إلى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكة.

فغضب قريش من هذه الأخبار القاطعة وقالت: سنعلمنّ الآن صدقه أو كذبه.

ثم لم تمض لحظات إلّا وطلعت العير عليهم، وحدثهم أبوسفیان بكل ما أخبرهم به رسول اللّه - صلى الله عليه وآله وسلم - من ضياع بعير لهم في الطريق وهمّهم في طلبه، وأنهم وضعوا ماء مملوء فغطوه ولما رجعوا وجدوه مغطى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماء.

هذه هي خلاصة ما جاء في كتب التفسير، والتاريخ، والحديث حول المعراج.

وإذا أراد القاريء الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر في هذا المجال فما عليه إلّا أن يراجع بحار الأنوار باب «المعراج»⁽¹⁾.

هل للمعراج جذور قرآنية؟

لقد جاء ذكر «المعراج» النبوي وسيره العجيب - صلى الله عليه وآله وسلم - في

العالم العلوي، والفضاء غير المتناهي في سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما واشير اليها في سور أخرى أيضاً

ونحن نكتفي هنا باستعراض الآيات التي ذكرت هذه القضية بصورة واضحة، ونقف عند بعض النقاط الجديدة بالدراسة فيها:

يقول الله تعالى في سورة الأسراء:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (1))

ويستفاد من ظاهر هذه الآية أمور:

- [لكي نعلم بأنَّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يطو تلك المسافات، ولم يَمَّ برحلته إلى تلك العوالم بقوة بشرية، بل تسنى له كلُّ ذلك بقوة غيبية، فيها استطاع أن يطوي تلك المسافات البعيدة في زمن قصير جداً بدأ الله تعالى حديثه عن الاسراء بقوله: **سُبْحَانَ الَّذِي** (وهو اشارة إلى تنزيه الله عن كلِّ نقص وعيب.

ولم يكتف بذلك بل وصف نفسه بوضوح بأنه هو تعالى سبب هذه الرحلة والمسير فيها إذ قال: **أَسْرَى** (أي إنَّ الله تعالى هو الذي سرى برسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأخذه إلى تلك الرحلة.

وهذه العناية لأجل أن لا يتصور الناس بأنَّ هذه الرحلة تحققت بالوسائل العادية، وحسب القوانين الطبيعية ليتسنى لهم إنكارها، إنما تحققت بقوة الله وعنايته الربوبية الخاصة.

-2إن هذه الرحلة تحققت برمتها خلال الليل، ويستفاد هذا المطلب - علاوة على كلمة ليلا - من كلمة **أَسْرَى** (أيضاً لأنَّ العرب كانت تستعمل اللفظة المذكورة في السير ليلا.

-3مع أنَّ هذه الرحلة بدأت من بيت «أم هاني» ابنة أبي طالب، فإن الآية صرحت بأنها تَمَّت من المسجد الحرام، ولعل هذا لأنَّ العرب كانت تعتبر

كل مكة حرماً إلهياً، ومن هنا كان كل مكان من مكة يتمتع عندهم بحكم الحرم والمسجد الحرام، فيكون المراد بالمسجد الحرام هنا مكة، ومكة والحرم كلها مسجد، فصَحَّ أن يقول: **من المسجد الحرام.**)

وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ المعراج كان من نفس المسجد الحرام.

ثم إنَّ هذه الآية وإن كانت تصرِّح بأنَّ المعراج بدأ من «المسجد الحرام» وانتهى بـ: «المسجد الأقصى» إلا أن ذلك لا ينافي أن يكون للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رحلة أخرى إلى العالم العلوي لأنَّ هذه الآية تبين فقط قسماً من هذه الرحلة، وأما القسم الآخر من برنامج هذه الرحلة فتعرض لذكره آيات في مطلع سورة «النجم.»

4- إنَّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عرج بجسمه وروحه معاً، لا بالروح فقط.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى **(بعبده)** الذي يُستعمل في «الجسم والروح معاً» ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول: **«بروحه.»**

5- إنَّ الغرض من هذا السير العظيم وهذه الرحلة العجيبة هو إيقاف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على مراتب الوجود، وإطلاعه على الكون العظيم، وهذا ما سنشرحه فيما بعد.

وأما السورة الأخرى التي تعرض لبيان حادثة المعراج بوضوح و صراحة هي سورة «النجم.»

والآيات التي سندرجها هنا من هذه السورة نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما قال لقريش: «رأيت جبرئيلَ أول ما أوحى التي على صورته الي خُلِقَ عليها» جادلته قريش في ذلك، فنزلت الآيات التالية تجيب على اعتراضهم:

(أَفْتَمَارُوتُهُ عَلَى مَا يَرَى * وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى.)⁽¹⁾

- [النجم: ١٢ - ١٨.

(540)

أحاديث المعراج:

روى المفسرون والمحدثون أخباراً وروايات كثيرة حول معراج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وما شاهده في هذه الرحلة العظيمة، ليست برمتها صحيحة مُسلَّمة مقطوعاً بها.

ولقد قَسَمَ المفسر الشيعيُّ الكبير المرحومُ «العلامة الطبرسي» هذه الاخبار إلى أصناف أربعة إذ قال:

وتنقسم جملتها إلى أربعة أوجه:

أحدها: ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، واحاطة العلم بصحته مثل أصل المعراج.

وثانيها: ما ورد في ذلك مما تجوّزه العقول ولا تأباه الاصول مثل طوافه في السماء ورؤيته أرواح الأنبياء وتحديثه معهم ورؤيته للجنة والنار، فنحن نجوّزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته، دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول، إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والدليل. مثل أنه رأى أهل الجنة وأهل النار وتحديث معهما الذي يجب أن يؤول فيحمل على انه: رأى أشباحهم وصورهم و صفاتهم.

ورابعها: ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله، وهي ما ألصق وألحق بهذه الحادثة من الأساطير والخرافات، مثل ما روي من أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كلم الله سبحانه جهرةً وراه وقعد معه على سريره أو سمع صرير قلمه، ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم والله سبحانه يتقدس عن ذلك كله، فالأولى أن لا نقبله. (1)

* * *

- [مجمع البيان: ج ٦، ص ٣٩٥.

(541)

متى وَقَعَت هذه الحادثة؟

مع ان أهمية هذه الحادثة العجيبة كانت تستوجب أن تكون مضبوطة التفاصيل من جميع الجهات، إلا أنها تعرضت للاختلاف - مع ذلك - من بعض الجهات و منها تحديد تاريخ وقوعها.

فقد ادّعى كاتب السيرة المعروفان: «ابن اسحاق» و «ابن هشام» أنها وقعت في السنة العاشرة من البعثة الشريفة.

وذهب المؤرخ الكبير «البيهقي» إلى أنها وقعت في السنة الثانية عشرة من البعثة.

وذهب آخرون إلى أنها وقعت في أوائل البعثة، بينما قال فريق رابع: أنها وقعت في أواسطها.

وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال: أنه كان لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - معارج متعددة.

ولكننا نعتقد أنّ المعراج الذي فُرِضَتْ فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب - عليه السلام - في السنة العاشرة قطعاً.

لأنّ من مسلمّات الحديث والتاريخ أنّ الله تعالى أمر نبيّه - صلى الله عليه وآله وسلم - في ليلة المعراج أن تصلّي أمة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلّ يوم وليلة خمس صلوات.

كما أنه يُستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أن الصلاة لم تُفرض مادام أبو طالب - عليه السلام - على قيد الحياة بل فُرِضت بعد وفاته، لأنّه حضر عنده - ساعة وفاته - سراة قُريش وأسيادها، وطلبوا منه أن يبيت لهم في أمر ابن أخيه «محمّد» ويمنعه من فعله، فيعطونه - في قبال ذلك - ما يريد فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ذلك المجلس: نعم كلمة واحدة تعطونهاها: «تقولون لا إله إلاّ الله وتخلعون ما تعبدون من دونه»⁽¹⁾»

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٧.

(542)

لقد طلب منهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاة وغيرها من الفروع أبداً، وهذا هو بنفسه يدلّ على أنه لم تجب الصلاة حتّى ذلك اليوم، وإلاّ كان الإيمان المجرد عن العمل، والصلاة مفروضة، لا فائدة فيه.

وأما أنه لم يذكر شيئاً عن نبوّته ورسالته فلاّ أنّ الإعراف بوحداية الله بأمره وطلبه - صلى الله عليه وآله وسلم - إعراف ضمنىّ برسالته ونبوّته، وفي الحقيقة أنّ التلقّظ بهذه العبارات بأمره يتضمّن شهادتين وقرارين: الإقرار بالله الواحد، والإقرار بنبوة رسول الإسلام.

هذا مضافاً إلى أن كُتّاب السيرة ذكروا كيفية إسلام جماعة مثل «الطفيل بن عمرو الدوسي» الذي أسلم قبل الهجرة⁽¹⁾ بأعوام اكتفى النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بالشهادتين، ولم يجر أي حديث عن الصلاة أبداً.

إن هذه الامتلاء تكشف عن أن هذه الحادثة (المعراج) التي فُرِضت فيها الصلاة وقعت قبل الهجرة بسنوات.

والذين تصوّروا أن المعراج وقع قبل السنة العاشرة مخطئون خطأ كبيراً لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ السنة الثامنة وحتّى السنة العاشرة، ولم يكن وضع المسلمين ليسمح بفرض تكليف زائد (مثل الصلاة).

وأما سنوات ما قبل الحصار فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين وأتت كانت هي بنفسها مانعاً من فرض الصلاة على المسلمين، كان المسلمون قلة معدودين، ولم يكن نورُ الإيمان، وأصول الإسلام قد ترسخت في قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوي بعد، ولذلك يكون من المستبعد أن يكلفوا بأمر زائد مثل الصلاة في مثل ذلك الظرف.

وأما ما ورد في بعض الأخبار والروايات من ان الامام علياً - عليه السلام -

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٨٣.

(543)

صلى مع رسول الله قبل البعثة بثلاث سنوات، واستمر على ذلك بعدها أيضاً فليس المراد منها الصلوات المحدودة المؤقتة بوقت، المشروطة بشروط خاصة، بل كانت تلك الصلوات عبارة من عبادة خاصة غير محدودة⁽¹⁾، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة والعبادات غير الواجبة.

هل كان المعراج جسمانياً؟

لقد وقع النقاش والكلام في كيفية معراج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنه كان روحانياً أو جسمانياً وروحانياً معاً، وقيل في ذلك كلام كثير.

ومع أن القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لا غموض فيه بأن معراج - صلى الله عليه وآله وسلم - كان جسمانياً⁽²⁾، فقد أوردت في المقام بعض الإشكالات والاعتراضات التي منعت البعض عن قبول هذه الحقيقة، وبالتالي دفعتهم إلى ارتكاب التأويل، والزعم بأن معراج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان روحانياً، أي بالروح لا بالجسم.

لقد قال هؤلاء: ان روح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هي التي طافت في تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مرة أخرى!!

وذهب جماعة إلى أبعد من ذلك إذ ادّعوا بان جميع هذه المشاهدات والقضايا تمت لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في عالم الرؤيا، فكل ما رآه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو فعله من الطواف واللقاء والصلاة كانت رؤيا ورؤيا الأنبياء صادقة!!

على أن أقوال الفريق الأخير من البعد عن الواقع بحيث لا يمكن ذكره في عداد الأقوال والنظريات أبداً، لأن قريش بعد أن سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [المزيد من التحقيق في تاريخ وجوب الوضوء والصلاة والاذان يراجع الكافي: ج ٣، ص ٤٨٢ - ٤٨٩].
- [لقد نقل الفقيه الجليل العلامة الشيعي المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج فراجع: ج ٦، ص ٣٩٥].

(544)

ادعاءه بأنه سار كل تلك المسافة الطويلة البعيدة، وطاف على كل تلك الاماكن المتباعدة العديدة في ليلة واحدة انزعجت بشدة وهبت لتكذيبه حقيقة، إلى درجة أن خبر المعراج أصبح حديث الساعة في نوادي قريش واطرافها آنذاك.

ولو كان كل ذلك تحقق للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في المنام والرؤيا لما كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى، إذ لا موجب للنزاع لو كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: إنّي فعلت تلك الامور، ورأيت تلك المشاهد في الرؤيا والمنام، إذ هو على كل حال رؤيا، وكل شيء - حتّى الامور المحالة أو المستبعدة جداً - ممكن في عالم الرؤيا.

ومن هنا لا قيمة للقول الأخير أصلاً فلا تستحق المتابعة أصلاً.

ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصريين (مثل فريد وجدي) هذا الرأي وسعى في تفويته وتبريره، ونحن نحبذ ان نتركه، وان لا نناقش فيه. (1)

ما هو المراد من المعراج الروحاني؟

لقد عمد فريق ممن عجز عن دفع وحلّ بعض الاعتراضات والاشكالات الواردة على المعراج الجسماني، إلى تأويل الآيات والأحاديث، واعتبر المعراج النبوي معراجاً روحانياً، لا غير.

والمقصود من المعراج الروحاني هو التدبّر في مخلوقات الله ومصنوعاته، ومشاهدة جلاله وجماله والاستغراق في ذكر الحق، والتفكير فيه، وبالتالي التخلص من القيود والاعلال المادية، والعلائق الدنيوية، والعبور من المراتب الامكانية في المراحل الباطنية والقلبية التي يحصل بعد طيها نوعاً من القرب الخاص الذي لا يمكن وصفه.

فاذا كان المراد من (المعراج الروحاني) هو التفكير في عظمة الحق وسعة

- [دائرة معارف القرن العشرين: ج ٦، ص ٣٢٩ مادة عرج.

(545)

الخلق و.. فلا شك أن هذا ليس من مختصات رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - بل كان أكثر الأنبياء، وكثير من الأولياء من ذوي البصائر القويّة الطاهرة يمتلكون هذه المرتبة، على حين أن القرآن الكريم يعتبر (المعراج) من خصائص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويذكره على أنه نوع من الامتياز الخاص به - صلى الله عليه وآله وسلم - .

هذا مضافاً إلى أن مثل هذه الحالة (اعني التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إلى الحق) كانت تتكرر لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في كل ليلة⁽¹⁾، والحال أن (المعراج) الذي هو محط الكلام قد وقع في ليلة معيّنة.

إن ما دفع بهذا الفريق إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج)، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضية الفلكي اليوناني المعروف «بطلميوس» التي كانت سائدة في الأوساط العلمية في الشرق والغرب طيلة ألفي سنة بالكامل، والتي أُلّف حولها مئات الكتب، وكانت تعدّ حتى حين من المسلّمات في مجال العلوم الطبيعية وهي على نحو الاجمال كالتالي:

إن الاجسام في هذا العالم على نوعين: أجسام عنصرية، واجسام فلكية.

والجسم العنصري هي العناصر الأربعة المعروفة: «الماء، والتراب، والهواء، والنار.»

وأول كرة تبدو لنا هي كرة التراب وهي مركز العالم، ثم تليها كرة الماء ثم كرة الهواء، وتأتي بعد كل هذه الثلاثة كرة النار، وكل من هذه الكرات محيطة بالأخرى، وهنا (اي وعند كرة النار) تنتهي الكرات، وتبدأ الاجسام الفلكية.

والمقصود من الأجسام الفلكية هي الافلاك التسعة التي تقع الواحدة فوق الاخرى وتحيط الواحدة بالأخرى على هيئة قشور البصل، وهي متصلة بعضها ببعض من دون فاصلة بينها وهي غير قابلة للاختراق والالتئام (اي الشق

- [راجع وسائل الشريعة: ج ٧، كتاب صوم الوصال، ص ٣٨٨ قال - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إنني لست كأحدكم، أي اظل عند ربّي فيطعمني ويسقيني.»

والالتئام) والفصل والوصل ولا يستطيع أي شيء من اختراقها والتحرك فيها بصورة مستقيمة لأن ذلك يستلزم انقسام اجزاء الفلك.

من هنا يكون المعراج الجسماني مستلزماً لأن ينطلق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مركز العالم ويصعد بصورة مستقيمة إلى الأعلى عابراً الكرات العنصرية الأربع، ومخترقاً الأفلاك التسعة الواحد تلو الآخر، بينما يستحيل خرق هذه الأفلاك ثم التحامها حسب نظرية بطلميوس وفرضيته الفلكية.

وعلى هذا لا مناص من أن نعتقد بأن المعراج النبويّ كان معراجاً روحانياً، أي ان روحه - صلى الله عليه وآله وسلم - هي التي عرجت حتّى لا يمنع أيّ جسم من عبورها وسيرها وصعودها إلى النقطة المطلوبة والغاية المرسومة.

الجواب:

ان هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمة عند ما كانت هيئة بطلميوس وفرضيته الفلكية لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الاوساط العلمية وكان هناك من يعتقد بها من صميم فواده.

ففي مثل تلك البيئة كان من الممكن التلاعب بالحقائق القرآنية، وتأويل صريح القرآن ونصوص الروايات.

أما الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيات قيمتها، وظهر للجميع بطلانها، ولم يعد أحد يتحدث عنها، إلا من باب ما يسمى بتاريخ العلوم.

فاليوم وبالنظر إلى كل هذه الأجهزة الفلكية والآلات الفضائية الدقيقة، والتلسكوبات العملاقة، وهبوط المركبات الفضائية المتعددة على سطح القمر والمريخ، وعملية القيادة الفضائية على سطح القمر لم يعد مجال لهذه الفرضيات الخيالية.

فاليوم لا يعتبر العلماء المحققون فكرة العناصر الأربعة والفلك المتصل كقشرة البصل إلا جزءاً من الاساطير.

فان العلماء لم يستطيعوا بالآلات العلمية وأجهزة الرصد الدقيقة والعيون

(547)

المسلحة من رؤية، تلك العوالم التي حاكها وصنعها بطلميوس بقوة خياله، من هنا فان أية نظرية تقوم على هذا الاساس غير الصحيح تكون عارية عن أية قيمة، واعتبار.

نَعْمَةٌ شَادَةٌ:

ولقد طلع مؤسس الفرقة الشيعية» (1) الشيخ احمد الاحساني» في «الرسالة القطيفية» بنعمة شادة في هذا الصعيد حيث أراد بابداء طرحة جديدة أن يرضي كلا الطرفين (القائلين بروحانية المعراج النبوي والقائلين بجسمانيته) حيث قال: ان النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عرج ببدينه البرزخي (الهور قليائي) (2) ثم استدل لذلك بقوله:

ان الصاعد كلما صعد ألقى في كل رتبة من المراتب المذكورة ما فيها، فمثلا إذا تجاوز كرة الهواء ألقى ما فيه من الهواء، وإذا تجاوز كرة النار ألقى ما فيها وإذا رجع أخذ ما له من كرة النار، وإذا وصل إلى كرة الهواء أخذ ما له من الهواء.

ومن هنا فإنَّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما عرج إلى السماء القى في كل كرة واحداً من تلك العناصر الأربعة في كرتة، وعرج ببدن فاقد لهذه العناصر.

ومثل هذا البدن لا يمكن ان يكون بدنأ عنصرياً، فليس هو الا البدن البرزخي (الذي أسماه الهور قليائي) لا غير. (3)

- [لاشك أن هذه الفرقة وامثالها من الفرقة المبتدعة هي من صنائع الاستعمار أو هي مما يؤيده لتنفيذ أغراضه، ومن حسن الحظ أن انتشار الوعي بين أبناء الأمة الإسلامية حدّ من نشاط هذه الفرق حتى انها أصبحت على أبواب الاندثار والانقراض نهائياً.
- وهو البدن البرزخي الذي يشبه البدن الذي يفعل به الإنسان الافعال المختلفة في عالم النوم والرويا ويقوم بكل نوع من انواع النشاط
- 3تقع الرسالة القطيفية ضمن مجموعة تحتوي على ٩٢ رسالة باسم جوامع الكلم التي طبعت عام ١٢٧٣.
ومع هذا التصريح يدعي البعض - للتستر على خطأ الشيخ وزلته هذه - بأن الشيخ يعتقد بأن المعراج كان جسمانياً عنصرياً، وأنه موافق لرأي المشهور في هذا المجال.

(548)

وبهذا - حسب تصوّره - أرضى من نفسه كلا الطرفين المذكورين، لأنه من جانب اعتقد بالمعاد الجسماني، وفي نفس الوقت تخلّص من اشكال «خرق الافلاك والتحامها» لأن نفوذ الجسم البرزخي لا يستوجب أي خرق وانفصال في جدار الفلك.

ولكن هذه النظرية - كما هو واضح لكل عالم متحرّ للحقيقة، بعيد عن العصبية - واضحة البطلان كسابقتها (نظرية المعراج الروحاني)، فمضافاً إلى انها مخالفة للقرآن وظاهر الاحاديث، لأنه - كما أسلفنا - لو عرضنا آية المعراج (من سورة الاسراء) على أي عارف باللغة، مهما كانت وطلبنا منه رأيه في هذا الصدد لقال: ان مراد القائل هو البدن الدنيوي العنصري الذي عبّر عنه القرآن بلفظ العبد، في قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده»، وليس الهور قليائي الذي لم يكن يعرفه المجتمع العربيّ، ولا يعرف أمثاله في ذلك اليوم أساساً، في حين أنهم كانوا هم المخاطبون في آية المعراج في سورة الاسراء لا غيرهم.

هذا مضافاً إلى أن ما دفع بالشيخ إلى ارتكاب هذا التأويل البارد هو الاسطورة اليونانية المذكورة حول الفلك، حيث تصوّرها كحقيقة ثابتة من حقائق اللوح المحفوظ، وقد كذبها وفنّدها كلُّ فلكيي العالم اليوم، وأعلنوا عن سخافتها.

فلا يجوز لنا أن نقبل تلك الفرضية تقليداً أعمى.

وإذا ما رأينا بعض القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسناً الظن بتلك الفرضية الفلكية القديمة وأمثالها امكن إغذارهم، لعدم قيام ادلة علمية قوية على خلافها آنذاك.

اما اليوم فلا ينبغي لنا ان نتجاهل الحقائق القرآنية لفرضية ثبت بطلانها في الأوساط العلمية.

المعراج وقوانين العلم الحديث:

قد يتصور فريقيّ من الناس أن القوانين الطبيعية والعلمية الحاضرة لا تتلاءم

(549)

مع معراج النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك لأنه:

- [يقول العلم الحديث: إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبية الأرض، وبعبارة أخرى ابطال مفعولها.

فان (الكرة) التي نقذفها إلى الأعلى تعود مرة ثانية إلى الأرض بفعل الجاذبية ومهما كررنا قذف الكرة إلى الأعلى فانها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فاذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبية الأرض ابطالا كاملا بحيث لا تعود الكرة المقذوفة إلى الأعلى إلى الأرض ثانية بل تواصل مسيرها إلى الأعلى فإننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى جعل سرعة الكرة باتجاه معاكس للأرض تعادل ٢٥ / ٠٠٠ ميلا في الساعة

وعلى هذا فان معنى المعراج هو ان يكون النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قد خرج من محيط جاذبية الأرض، واصبح في حالة انعدام الوزن.

ولكن ينطرح هنا سؤال وهو: كيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يطوي بدون وسائل هذه المسافة بمثل هذه السرعة، وهل البدن الطبيعي يتحمل مثل هذه السرعة مع عدم توفر الغطاء الواقي والوسائل اللازمة، التي تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الفائقة.

2- إنّ الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومترات بعيداً عن سطح الأرض، بمعنى اننا كلما ذهبنا صعوداً إلى الطبقات العليا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء أرق، حتّى يغدو غير قابل للاستنشاق، وربما نصل إذا وصلنا الصعود إلى الأعلى إلى منطقة ينعدم فيها الهواء اللازم للتنفس بالمرّة، فكيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبعد طي تلك المسافة الطويلة والبعيدة في أعالي الجو أن يعيش بدون وجود الاوكسجين!؟

3- إنّ الاشعة الفضائية، والاحجار السماوية والشهب الكثيرة المتطايرة إذا اصطدمت بأي جسم أرضي أبادته، وأفنته، ولكنها عندما تصطدم بالغلاف الغازي المحيط بالأرض تتلاشى وتصبح كالبودر ولا تصل إلى الأرض، فيكون

(550)

الغلاف الغازي في الحقيقة بمثابة درع يقي سُكَّان الأرض من خطر تلك الفذائف المهلكة.

ومع هذه الحالة كيف تهيأ لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يصون نفسه من تلك الأشعة الفضائية، والاحجار السماوية؟!

4- إذا قلَّ ضغطُ الهواء على جسم الإنسان فزاد أو نقص اختلت حياته الطبيعية، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معين من الهواء، لا يوجد في الطبقات العليا من الجوّ، فكيف استطاع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - والحال هذه أن يحافظ على حياته في أعالي الفضاء؟!؟

5- إنَّ سرعة الحركة التي سار بها النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لا ريب كانت تفوق سرعة الحركة التي يسير بها النور ومع العلم بأنَّ سرعة النور هي 300 / 000 كيلومتراً في الثانية، مع العلم أيضاً أنه ثبت في العلم الحديث أنه لا يستطيع أيُّ جسم أن يتحرك بسرعة تفوق سرعة النور، فكيف استطاع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يسير بسرعة تفوق سرعة النور، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله؟؟؟!

جوابنا:

وجوابنا هو: أننا إذا أردنا أن نناقش هذه المسألة على ضوء القوانين العلميّة الطبيعية لتجاوز عدد الاعتراضات والاشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكننا نقول في جواب هذا الفريق متساءلين: ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعية.

هل تريدون القول بأن السير في العوالم العليا أمرٌ غير ممكن، وممتنع ذاتاً وبالتالي أنه أمر محال.

فاننا نقول - حينئذ - في الجواب على ذلك بان الجهود والتحقيقات العلمية التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر - ولحسن الحظ - أمراً ممكناً، وعادياً، لأن مع اطلاق أول قمر اصطناعي عام (1957م) إلى السماء

(551)

والذي اسماء علماء الفضاء بـ «اسپوتنيك» اتضح أنه يمكن إبطال مفعول جاذبية الأرض بواسطة الصاروخ، كما أن إرسال السفن الفضائية الحاملة لرواد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ أوضح أنّ ما كان يعدّه البشر مانعاً من الصعود إلى الأعلى في الفضاء قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته، والتخلّص منه بيد العلم والتكنولوجيا.

إن البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء مثل مشكلة الشهب والنيازك المتطايرة في الجوّ ومشكلة الأشعة الفضائية، ومشكلة إنعدام الغاز اللازم للتنفس و..و.. وهاهو علم ارتياد الفضاء في حال توسع

مستمرّ وان العلماء أصبحوا الآن يتقون بأنهم سرعان ما يتمكنون من مدّ بساط الحياة والعيش في إحدى الكرات السماوية والسفر إلى إحدى الكواكب كالقمر والمريخ بسهولة كبرى⁽¹⁾!

إنّ هذه الأحداث العلمية وهذا التقدّم التكنولوجي في مجال ارتياد الفضاء شاهدٌ قوئٌ على أنّ هذا العمل أمر ممكن مائة بالمائة، وليس من الأمور المستحيلة.

وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو انه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحلة من دون أجهزة علمية وتكنولوجية، ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يملك في تلك الليلة مثل هذه الأجهزة فكيف طوى تلك المسافات وطاف

- [بعد اطلاق الاقمار والسنن الاصطناعية لأول مرة يوم الأربعاء ابريل عام ١٩٦١ بدأ الضابط الروسي جاجارين (٢٧ سنة) رحلته الفضائية في سفينة فضائية، وكان أول إنسان أقدم على هذه الرحلة الفضائية، وابتعدت سفينته ٣٠٢ كيلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دورة واحدة حول الكرة الارضية في ساعة ونصف.
وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على ارسال السفن الفضائية إلى الفضاء في محاولة لغزو القمر حتّى حطّت «أبولو» الحاملة لـ ١١ رائداً فضائياً على سطح القمر لأول مرّة، وكان هذا أول مرة يحط فيها انسان قدمه على ارض القمر.
وقد تكررت تجربة هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرات ومرات وكانت ناجحة على الاغلب. وكل هذه الجهود والنتائج تكشف عن أن هبوط الإنسان على سطح الكرات والكواكب أمرٌ ممكن، وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم يقدر الله خالق البشر على فعله بارادته النافذة.

(552)

على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلة نقل من هذا القبيل؟!

فاننا نقول في معرض الاجابة على اعتراضهم هذا بأن جواب هذا الاعتراض يتضح من الابحاث التي سبقت منا حول معاجز الانبياء وخصوصاً بحثنا المفصّل حول حادثة عام الفيل وهلاك جيش أبرهة العظيم بالأحجار الصغيرة، لأنه من المسلم أنّ ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلمية الصناعية يستطيع الأنبياء فعله بعناية الله تعالى، وإقداره وبدون الأسباب الظاهرية والخارجية.

لقد عرج رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى السماء بعناية وبقادر الله الذي خلق الوجود كله، واقام هذا النظام البديع برمته، فهو الذي أعطى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء، وأنواع الغازات في الجو، ومتى أراد أخذها وانتزاعها منها، أو كبح جماحها، وردّ عاديتها.

فاذا تحقق معراج النبي الاكرم محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - في ظلّ العناية الإلهية فإنّ من المسلم ان جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهرة، وارادته الغالبة، وهي طوع إرادته، والسموات والأرض مطويات بيمينه والجميع في قبضته ورهن اشارته دائماً وأبداً، وفي كل حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يعمل الله الذي منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماوية أشعتها، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقة ومن دون الاسباب الظاهرية، من مركز الجاذبية الأرضية، ويصونه من أخطار الأشعة الكونية، وأن يعتمد خالق كل هذا القدر الهائل من الاوكسجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبيه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم: «إنَّ الله مسبِّبُ الأسباب ومعطِّلُ الأسباب.»

ان أمر المعجزة يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعية والقدرة البشرية.

ونحن يجب أن لا نقيس قدرة الله المطلقة بقدرتنا المحدودة، فاذا كنّا لا نقدر

(553)

على شيء من دون الأسباب لم يصح أن نقول: ان القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الاسباب الطبيعية أيضاً.

إنَّ إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حياً في بطن الحوت، في قعر البحار، مما صدّقته جميع الكتب السماوية ونقلته إلينا لا تقلّ إشكالا ولا تختلف جواباً عن قصة المعراج النبوي

وخلاصة القول: ان جميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخرةٌ لله تعالى خاضعة لارادته، مطيعةٌ لأمره وارادته يمكن تعلّقها بكلّ شيء إلا بالأمر المحال، وأما غير ذلك أي ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فأنه قابلٌ لأن يتحقق في ظل ارادة الله ومشيئته سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أن حديثنا هذا موجّهٌ إلى مَنْ آمن بالله، وعرف ربّه بصفاته الخاصة به تعالى، وبالتالي آمن بالله الأزليّ على أنه القادر على كلّ شيء.

الهدف من المعراج:

لقد بيّنت الاحاديث - بعد الآيات - الغرض من المعراج واليك طائفة من هذه الاحاديث.

- [يقول ثابت بن دينار سألت الامام زين العابدين علي بن الحسين - عليه السلام - عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان فقال:

«تعالى الله عن ذلك.»

قلت: فلم اسرى بنبيه محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى السماء؟

قال: «لِيُريَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ صَنْعِهِ وَبِدَائِعِ خَلْقِهِ.»

2- وقال يونس بن عبد الرحمن قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر - عليه السلام - لأىِّ علة عرج الله بنبيه إلى السماء ومنها إلى «سدرة المنتهى»، ومنها إلى «حجب النور» وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟⁽¹⁾

فقال - عليه السلام - «: إنَّ الله لا يُوصَفُ بمكان ولا يَجري عليه زمانٌ، وَلَكِنَّهُ

- [علل الشرائع: ص ٥٥، البحار: ج ١٨ ص ٣٤٧ و ٣٤٨. تفسير البرهان: ج ٢، ص ٤٠٠.

(554)

عزوجل أراد ان يُشَرِّفَ به ملائكته، وسكانَ سَمَواتِه، ويكرِّمُهُم بمشاهدته، ويُريَه من عجائب عظمته ما يخيِّر به بَعْدَ هُبوبِه، وليس ذلك على ما يُقوله المشبِّهون سبحانه اللهُ تعالى عَمَّا يَصِفُون.⁽¹⁾»

أجل يجب أن يكون لرسول الإسلام وخاتم الأنبياء مثل هذا المقام العظيم ومثل هذه المنزلة السامقة، ليقول للبشرية العائشة في القرن العشرين، والتي أصبحت تفكر في الهبوط على «المريخ» و «الزهرة» وغيرها من الانجم البعيدة:

بانني قد فعلت هذا من دون أية وسيلة، وإنَّ رَبِّي قد مَنَّ عَلَيَّ وعَرَّفني على نظام السماوات والأرض، وأطلَّعني بقدرته وبعنايته على أسرار الوجود، ورموز الكون.

- [علل الشرائع: ص ٥٥، البحار: ج ١٨، ص ٣٤٧ و ٣٤٨. تفسير البرهان: ج ٢، ص ٤٠٠.

(555)

٢٣

سفرة إلى الطائف

انقضت السنة العاشرة بكل حوادثها الحلوة والمرّة، فان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد في هذا العام حاميه الكبيرين المتفانيين في سبيله، ففي البداية فقد كبير بني عبدالمطلب وسيدهم، والمدافع الوحيد عن حوزة الرسالة الإسلامية والذائب بالاخلاص عن حياض الشريعة المحمّدية، والشخصية الاولى في قريش اعني «أبا طالب» - عليه السلام - .

ولم تنمح آثار هذه المصيبة المرّة عن خاطر النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد إلا وفاجأته مصيبة وفاة زوجته الوفية العزيزة، السيدة خديجة الكبرى التي جددت برحيلها عنه أحزان النبيّ وآلامه الروحية.⁽¹⁾

لقد حامى أبوطالب ودافع عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وحافظ على حياته وسلامته ومكانته، وبينما ساعدت خديجة بثروتها الطائلة في نشر الإسلام وقدمت في هذا السبيل خدمات عظيمة لا تنسى.

من هنا سمى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك السنة بعام الحداد، أو

- [جاء في تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠١ انه قيل بأن «خديجة» توفيت بعد «أبي طالب» بشهر وخمسة أيام، بينما ذهب آخرون مثل ابن الأثير في الكامل ج ٢، ص ٦٣ إلى أن السيدة خديجة توفيت قبل أبي طالب، لا بعده.

(556)

الحزن. (1)

ومنذ أن توفى الله الحاميين العظميين والمدافعين القويين عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - واجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ظروفاً صعبة جداً قلما واجهها من قبل.

فقد واجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ حلول السنة الحادية عشر جراً مفعماً بالعداء له، والحقد عليه، وصارت الاخطار تهدد حياته الشريفة في كل لحظة، وقد فقد كل الفرص لتبليغ الرسالة وكل امكانات الدعوة إلى دينه.

يقول ابن هشام في هذا الصدد: ان «خديجة بنت خويلد» و «أبا طالب» هلكا (اي توفيا) في عام واحد فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المصائب بهلك خديجة وكانت له وزيرة صدق على الإسلام... وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعته وناصرراً على قومه وذلك قبل هجرته الى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيهة من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

ولما نثر ذلك السفيه على رأس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك التراب دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول لها:

«لا تبكي يا بُنَيَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ مانعُ أبائك.»

ويقول بين ذلك:

«ما نالت مني قريشٌ شيئاً أكرههُ حتى مات أبوطالب.» (2)

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن ينتقل

- 1 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٧.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٥ و ٤١٦، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٥ عن إعلام الوری عن محمد بن اسحاق بن يسار.

(557)

من المحيط المكي إلى محيط آخر يتسنى له تبليغ رسالته.

وحيث أنّ الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هاماً، لذلك رأى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يسافر لوحده إلى الطائف، ويجري بعض الاتصالات مع زعماء قبيلة ثقيف وساداتها ويعرض دينه عليهم علّه يحرز نجاحاً ويكسب انصاراً جديداً لرسالته من هذا الطريق.

ولما انتهى - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الطائف عمد إلى نفر من قبيلة «ثقيف» هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم، وجلس - صلى الله عليه وآله وسلم - إليهم، ودعاهم إلى الله، فلم يؤثر فيهم كلام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا له: لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي ان اكلمك!!

فعرف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ردهم الصبياني أنهم يحاولون التملص من قبول الدعوة واعتناق الإسلام، فقام - صلى الله عليه وآله وسلم - من عندهم بعد ان طلب منهم أن يكتموا ما جرى في هذا اللقاء خشية أن يعرف سفهاء ثقيف فيتجرأوا عليه ويتخذوا ذلك ذريعة لاستغلال غربته ووحده، ومن ثم إيدائه، فوعده بالكتمان، ولكنهم - وللاسف - لم يحترموا وعدهم هذا الذي أعطوه لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وفجأة وجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه محاطاً بجمع كبير من أولئك السفهاء يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع الناس، وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه في تلك الساعة، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل فجلس فيه وهو يتصبب عرقاً، وقد الحقوا الاذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف ورجلاه تسيلان من الدماء، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف، وقد كانا من اثرياء قريش، يومئذ.

فلما اطمان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - توجه إلى ربه وناجاه قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَ قِلَّةَ جِبَلَّتِي، وَ هَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ

تَكَلَّمُنِي، إِلَى

بعيد يَتَجَهَّمُنِي؟ أم إلى عدُو ملكته أمري؟

إن لم يكن بك على غضب فلا أبالي، ولك، عافيتك هي أوسع لي.

أعودُ بثور وجهك الذي اشرفت له الظلمات، و صلح عليه أمر الدنيا و الأجرة من أن ينزل بي غضبك، أو يجل علي سخطك.

لَكَ العُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَ لَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ. (1)»

هذه الكلمات وهذا الدعاء هي استغاثة شخصية عاش خمسين سنة عزيزاً مكرماً في ظل حماية من دافعوا عنه بصدق و إخلاص و دفعوا عنه كل اذى ولكنه الآن يضيق عليه رحب الحياة حتى يلجأ إلى حائط عدو من اعدائه، و يجلس في ظل شجرة، مكروباً موجعاً ينتظر مصيره.

فلما رآه ابنا ربيعة «عتبة وشيبة» وكانا من الوثنيين ومن أعداء الإسلام وشاهدوا مالقي من الأذى والعذاب، رقا له فدعوا غلاماً لهما نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالا له: خذ قطعاً من العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل بالعنب حتى وضعه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيه يده قال: «بسم الله الرحمن الرحيم. »

فتعجب عداس من ذلك بشدة وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن أهل أي البلاد أنت وما دينك؟

قال: أنا نصراني، من أهل نينوى.

قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى.

فقال له عداس: وما يدريك ما (من) يونس بن متى؟

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : (2)ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، أنا رسول الله،

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٠.
- 2وفي رواية البحار: ج ١٩، ص ٦ جملة اعتراضية هنا: - وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رسالة ربه. -

والله تعالى أخبرني خير يونس بن متى.

فأكبَّ عداس على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد رأى في كلماته علانم الصدق وآيات الحق، وجعل يقبل رأسه ويديه، وقدميه، وهما تسيلان من الدماء وآمن به، ثم عاد بعد الاستئذان منه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى صاحبيه في البستان.

فتعجب ابنا ربيعة لما رأياه في غلامهما عداس من الانقلاب الروحي العجيب، وسألاه قائلين: ويك يا عداس مالك قبّلت رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه وماذا قال لك؟!!

فاجابهما الغلام قائلًا: يا سيديّ ما في الارض شيء خير من هذا، هذا رجلٌ صالح لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيُّ.

فشقَّ كلامُ عداس على ابني ربيعة، وقالوا له بنبرة الناصح له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فان دينك خير من

دينه⁽¹⁾!!

النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يعود إلى مكة:

انتهت ملاحقة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بلجونه إلى حائط ابني ربيعة، وكان عليه الآن، وبعد أن يس من خير ثقيف ان يعود إلى مكة، ولكنَّ عودته إلى مكة لم تكن لتخلو عن مشاكل، لأنه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الاكبر والا وحده فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركون ويسفكوا دمه.

فقرر - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يبقى في منطقة «نخلة» (وهي واد بين الطائف ومكة) بعض الوقت.

لقد كان يريد أن يرسل أحداً إلى شخصية من شخصيات قريش يطلب منها ان تجيره حتّى يدخل مكة بجوار، ولكنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يجد من يقوم له بهذه المهمة. فترك «نخلة» إلى حراء، وهناك التقى رجلاً خزاعياً وطلب منه أن

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٩ - ٤٢١، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٦ و ٧ و ٢٢ مع اختلاف يسير.

يأتي «المطعم بن عدي» بمكة، وكان من الشخصيات المكية البارزة و يسأله أن يجير رسول الله ليدخل مكة في أمان من اذى قريش وكيدها.

فدخل الخزاعي مكة، وأبلغ المطعم ما طلبه منه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقبل المطعم - رغم كونه وثيقاً مشركاً - ان يجير رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال للخزاعي: انته فقل له: إني قد أجزتك فتعال.

فدخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مكة ليلاً ونزل في بيت مطعم مباشرة، وبات ليلته هناك، ولما طلعت الشمس من صبيحة غد قال مطعم لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لتعلمن قريش بانك في جوارنا، فاصحبنا إلى البيت، ليروا جوارنا

فاستحسن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رأيه فاخذ المطعم وأهل بيته السلاح ودخلوا مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في المسجد الحرام، وكان ورودهم في المسجد بهيئة رائعة.

وكان أبوسفیان قد كمن للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليكيد به، فلما رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً، وانصرف عن ايداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فجلس المطعم وولده واختانه واخوه، وطاف رسول الله بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله. (1).

ولم يمض على هذه الحادثة زمان طويل حتى هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٨١. بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٧ و ٨. ويستبعد بعض المحققين ان يكون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد طلب الجوار من مشرك أو دخل في جوار مشرك، على غرار عدم قبوله الهدية من المشرك وذكر لذلك ادلة ووجوها. ولكن يمكن الاجابة على هذا بأن الاجارة كانت امرأ عادياً في ذلك العصر، ولم يكن فيها ما يوجب شيئاً على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم تستلزم منة عليه. ثم ما المانع في مثل هذا الجوار لو ترتبت عليه مصالح عليا، كتمكين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الدخول بسلام إلى مكة، وتمكنه من القيام بمهامه الرسالية، خاصة ان هذا الجوار لم يستغرق إلا يوماً أو بعض يوم وتسنى بعده لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ترتيب اوضاعه في مواجهة الاخطار التي كانت تتهدده من جانب المشركين بمكة.

(561)

من مكة إلى المدينة، وتوفي المطعم في أوائل الهجرة في مكة، ولما بلغ رسول الله نبأ موته تذكر - صلى الله عليه وآله وسلم - - إحسانه وجواره، وانشأ حسان بن ثابت شاعر الإسلام شعراً يمدح فيه تقديرأ لخدمته.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتذكره كثيراً، حتى انه تذكره في واقعة «بدر» التي انهزمت فيها قريش وعادت منكسرة إلى مكة بعد أن خسرت كثيراً من رجالها واسر منها عدد كبير، فتذكر مطعم بن عدي ثمة وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - :-

«لو كان مطعم بن عدي حياً لو هبت له هؤلاء. (1)»

نقطة هامة:

إن سفر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الطائف يكشف عن اصراره في اداء رسالته و استقامته وصبره - صلى الله عليه وآله وسلم - كما ان تذكره لإحسان مطعم في المواقع المناسبة يقودنا إلى خصاله الحميدة وسجاياه. الفاضلة، وخلق العظيم.

ولكن الالهَم من هذا وذاك هو أننا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبي طالب القيمة، ومعرفة اهميتها الكبرى عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بمقايستها مع ما فعله مطعم.

فان مطعم لم يفعل شيئاً إلا أن اجار رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحماه يوماً أو بعض يوم.

بينما حذب أبو طالب على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودافع عنه وخدمه عمراً كاملاً، ولقى في سبيله من المحن والمتاعب ما لم يلق مطعم منها ولا شيئاً ضئيلاً.

فاذا كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعلن عن استعداده للافراج عن جميع الاسرى في «بدر» تقديراً لما قام به مطعم من اجارة بسيطة قصيرة، فماذا

- [المغازي للواقدي: ج ١، ص ١١٠ ثم قال الواقدي: وكانت لمطعم بن عدي عند النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اجارة حين رجع من الطائف، طبقات ابن سعد: ج ١، ص ٢١٠ و ٢١٢، البداية والنهاية: ج ٣، ص ١٣٧.

(562)

عسأه أن يقوم به تجاه ما اسداه إليه عُمه وحاميه وكافله الاكبر والأوحد أبوطالب من خدمات طوال اكثر من اربعين عاماً أنه يجب ان يكون لمثل هذا الشخص العظيم الذي كفل صاحب الرسالة وقام بشؤونه مدة أربعين عاماً بايامها وليالها ودافع عنه في السنوات العشر الاخيرة وهي جلُّ عمر الرسالة الإسلامية في الفترة المكية إلى درجة ان عرّض راحته وسلامته بل حياته وحياة أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حياض الرسالة، وحمايةً لصرح النبوة، مقاماً عظيماً ومنزلة كبرى عند قائد البشرية، ومعلم الإنسانية، وهاديها العظيم.

كيف لا؛ والفرق بين هذين الشخصين كبير، والبون شاسع، فمطعم رجل وثني مشرك، بينما يعتبر أبوطالب واحداً من كبار الشخصيات الإسلامية العظيمة بلا جدال.

الدعوة في أسواق العرب:

كانت العرب تجتمع - في مواسم الحج - في نقاط مختلفة مثل: «عكاظ» و «المجنة» و «ذي المجاز»، وكان الشعراء والخطباء العرب البارغون يقفون في هذه المناطق على أماكن مرتفعة ويلهون فريفاً من الناس بما يلقونه عليهم من خطب وقصائد تدور في الأغلب حول الحرب والقتال، والتفاخر، والعشق.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شأن كل الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه يستغل هذه الفرصة - كغيرها - لا بلاغ رسالة ربه إلى الناس، ولم يكن لاحد منعه أو الكيد به لحرمة القتال والجدال في الأشهر الحرم.

من هنا كان - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا حلّ الموسم وقف على مكان مرتفع وخاطب الناس قائلاً:
«قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا وَتَمَلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ وَتَذَلُّ لَكُمْ لِعَجْمٍ، وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ.»⁽¹⁾

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢١٦.

(563)

دعوة رؤساء القبائل في موسم الحج:

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتقي في موسم الحج في هذه النقاط برؤساء القبائل العربية واشرافها، ويقف على منازلهم منزلاً منزلاً، ويعرض دينه عليهم، ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل.⁽¹⁾

وربما مشى خلفه عنه «أبو لهب» فإذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من قوله وما دعا به قال أبو لهب فوراً للناس: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

وقد قدمت جماعة من بني عامر إلى مكة فدعاهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الإسلام وعرض عليهم نفسه، فقبلوا أن يعتنقوا الإسلام إلا أنهم اشترطوا عليه أن يكون إليهم خلافته من بعده إذ قالوا: أ رأيت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

(الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء.)

فرفضوا اعتناق الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

ثم لما عادوا إلى أوطانهم رجعوا إلى شيخ لهم طاعن في السن لم يقدر أن يحج معهم وكان ذا بصيرة وفهم فحدثوه بما جرى بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: جاءنا فتى من قريش من بني عبدالمطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمنعه⁽²⁾ ونقوم معه.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووبَّخَهُم على رفضهم لدعوة الرسول وقال:

- [قال ابن هشام: كان - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.
- 2 أي نحميه.

(564)

يا بني عامر والذي نفسُ فلان بيده ما تَقَوْلُها اسماعيليّ قط⁽¹⁾، وإنَّها لحقٌّ، فابن رأيكم كان عنكم؟⁽²⁾!

ان هذه القضية التاريخية تفيد - في ما تفيد - بان مسألة الخلافة والامامة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمر تنصيبي، تعييني، لا انتخابي، أي ان تعيين الخليفة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعود إلى الله، ولا خيار للناس فيه، وانما عليهم الطاعة والرضا.

- [أي ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني اسماعيل.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٤ و ٤٢٥.

(565)

٢٤

بيعة العقبة

كان (وادي القرى) في ما مضى من الزمن طريق التجارة من اليمن إلى الشام، فكانت القوافل التجارية القادمة من اليمن تدخل وادياً طويلاً يدعى بوادي القرى بعد العبور بالقرب من مكة، وكانت المناطق الواقعة على طول هذا الوادي مناطق خضراء، ومن هذه المناطق مدينة قديمة كانت تدعى بـ: يثرب والتي عرفت فيما بعد بمدينة الرسول.

وقد سكن في هذه المدينة منذ اوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتان: «الايوس والخزرج» اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين).

وكان يعيش الى جانبهم الطوائف اليهودية الثلاث المعروفة: «بنو قريظة» و «بنو النضير» و «بنو قينقاع» الذين كانوا قد هاجروا اليها من شمال شبه الجزيرة العربية واستوطنوها.

وكان يقدم إلى مكة كل عام جماعة من عرب يثرب للاشتراك في مراسم الحج، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتقي بهم في تلك المواسم، ويجري معهم اتصالات.

وقد مهدت بعض هذه اللقاءات للهجرة، وصارت سبباً لتركز قوى الإسلام المتفرقة، في تلك النقطة.

(566)

على ان كثيراً من تلك الاتصالات وان لم تثمر ولم تنطو على اية فائدة فعلية إلا أنها تسببت في أن يحمل حجاج يثرب - لدى عودتهم - انباء ظهور النبيّ الجديد وينشروه في اوساط المدينة كأهم نبأ من انباء الساعة، ويلفتوا نظر الناس في تلك الديار إلى مثل هذا الامر المهم والخطير.

ولهذا نقلنا هنا بعض اللقاءات والاتصالات التي تمت بين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وجماعات من اهل هذه المدينة في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة من البعثة للتضح بدراسة هذه المطالب علة هجرة النبيّ الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - من مكة إلى يثرب، وتمركز قوى المسلمين في تلك المنطقة.

- [كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلما سمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف تصدى له، ودعاه إلى الإسلام وعرض عليه ما عنده.

وقد قدم مرة «سويد بن الصامت» فتصدى له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعلّ أذني معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : وما الذي معك.

قال: مجلة لقمان يعني حكمة لقمان.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إعرضها عليّ فعرضها عليه. فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا. قرآن أنزله الله علىّ هو هدى ونور.

ثم تلا عليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - القرآن ودعاه إلى الإسلام فقال سويد إنّ هذا قولٌ حسن وأمرٌ برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج فيما كان يتلفظ الشهادتين وكان قتله قبل يوم بعث. (1)(2)

- [بعث موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج.
- 2 السيرة النبوية: ج 1، ص 425 - 427.

2-قدم «انس بن رافع» مكة ومعه فتية من بني عبدالاشهل فيهم «ياس بن معاذ» أيضاً، يلتمسون الحلف والنصرة على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأتاهم وجلس اليهم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذلك؟

قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل على الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فقال ياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له. فقد أدرك جيداً أن دين التوحيد يكفل كل حاجاتهم فهو دين شامل مبارك لأنه سيصهر الجميع في بوتقة الأخوة الواحدة فتزول عندئذ أسباب العداة والقتال، وبذلك ينهي كل مظاهر الحرب والتنازع، وكل مظاهر الفساد والتخريب فهو افضل من طلب المساعدة العسكرية من قريش التي جاؤوا من أجلها إلى مكة، فأمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من دون ان يكسب رضا رئيس قبيلته «انس بن رافع» واستئذانه، ولهذا غضب أنس وأخذ حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه ياس وقال: دعنا منك فعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت ياس وقام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عنهم وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعات بين الأوس والخزرج ولم يلبث ياس ان هلك، وقد سمعه قومٌ حضروا عند وفاته يهتفون لله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً، ولقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سمع . (1)

وقعة بُعات:

كانت وقعة بُعات من الحروب التاريخية بين الأوس والخزرج، ففي هذه

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٧ و ٤٢٨].

الوقعة انتصر الأوسيون على منافسيهم، وأحرقوا نخيل الخزرجيين، ثم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك «عبدالله بن أبي» وهو من أشرف الخزرج في هذه الواقعة من هنا كان موضع احترام من القبيلتين، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتهما بسبب تكرار الحروب، وتحمل الخسائر الثقيلة، ولهذا رغب الطرفان في عقد صلح بينهما يرضحاً لجميع أشكال العمليات العسكرية، والغزو والقتال، والثأر والانتقام، وأصرّت القبيلتان على «عبدالله بن أبي» بان يقبل بقيادة عملية المصالحة هذه، بل وأعدوا له تاجاً يتوجونه به، حتى يصبح أميراً في وقت معيّن، ولكن هذا المشروع تعرض للانهدام والسقوط وواجه الفشل على أثر اعتناق جماعة من الخزرج الإسلام، ففي هذا الوقت بالذات التقى رسول الله بمكة بستة اشخاص من رجال الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأمنوا به، ولئوا دعوته.

تفصيل الحادث:

خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الموسم الذي لقيه فيه نفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الأنصار وكانوا ستة انفار من الخزرج فقال لهم: أمن موالى اليهود؟ وهل لكم حلف معهم.

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلّمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّوجلّ وعرض عليهم السلام وتلا عليهم القرآن، فأحدثت كلمات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفوسهم أثراً عجبياً، ومما ساعد على ذلك أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غزوه في بلادهم،

(569)

فكانوا إذا وقع بينهم نزاع وكان بينهم شيء قال اليهود لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد اظنّ (أو اظنّ) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عد وإرم، فكانت اليهود تخبر بخروج نبي من العرب ينشر التوحيد، وتنتهي على يديه حكومة الوثنية والشرك، وقد قرب ظهوره.

فلما كلّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أولئك نفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض يا قوم: تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه.

فاجابوه فيما دعاهم إليه بان صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والنشر مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أحبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك. (1)

بيعة العقبة الأولى:

لقد أثرت دعوة هؤلاء السنة، الجادة في يثرب تأثيراً حسناً حيث سببت في إسلام فريق من اهل يثرب واعتناقهم عقيدة التوحيد. فلما كان العام المقبل (أي السنة الثانية عشرة من البعثة) قدم مكة اثنا عشر رجلاً من اهل يثرب، فلقوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالعقبة، وانعدت هناك أول بيعة اسلامية. وابرز هؤلاء الرجال هم: أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامت، وكان نص هذه البيعة - بعد الاعتراف - بالاسلام والايمان بالله ورسوله هو:

بايعنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بيهتان نقتريه من بين أيدينا و أرجلنا ولا نعصيه في معروف.

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٨٦، والسيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٧ و ٤٢٨، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٥.

(570)

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فامرکم إلى الله عزّوجل إن شاء عدّب، وإن شاء غفر.

وهذه البيعة اصطلح على تسميتها المؤرخون وكتّاب السيرة ببيعة النساء، لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - اخذ البيعة من النساء في فتح مكة على هذا النحو. (1)

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب بقلوب مفعمة بالايمان، مترعة بمحبة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فعمدوا إلى نشر الإسلام وكتبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث لهم من يعلمهم الإسلام والقرآن، فبعث النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لهم «مصعب بن عمير» وأمره بان يقرّأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقّهم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة.

واستطاع هذا المبلّغ القدير، وهذا الداعية النشط ان يجمع المسلمين بفضل عمله الدؤوب والحكيم وتبليغه الصحيح في غياب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ويؤمّمهم، ويصلي بهم. (2)

بيعة العقبة الثانية:

لقد أحدث تقدم الإسلام في يثرب هيجاناً كبيراً وشوقاً عجباً في نفوس المسلمين من أهلها، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحج، ليقدموا مكة، يلتقوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن كثب، ويُظهروا له عن استعدادهم لتقديم ما يطلب منهم من خدمة وعمل، وليستطيعوا توسيع نطاق البيعة من حيث الكم ومن حيث الكيف.

وأخيراً حل موسم الحج فخرجت قافلة كبيرة من أهل يثرب للحج تضمّ خمسمائة نفرأ فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتان، والباقي إما راغبون في الإسلام، وإما غير مكترث به، حتى قدموا مكة، والتقوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [والتي جاء ذكرها في الآية ١٢ من سورة الممتحنة.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٣٤، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٥.

(571)

وآله فوآدهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالعقبة للبيعة إذ قال: «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق»

فلما كانت الليلة الثالثة عشرة من شهر ذي الحجة وهي التي واعدهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيها باللقاء، ونام الناس حضر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع عمه «العباس بن عبدالمطلب» قبل الجميع، وخرج المسلمون من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين بعد أن ناموا مع قومهم في رحالهم، ومضى ثلث الليل لكيلا يحسوا بخروجهم، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، ولما استقرّ المجلس بالجميع، كان أول متكلم هو: العباس بن عبدالمطلب فقال واصفاً منزلة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمى هذا الحي من الانصار الخزرج خزرجها وأوسها - إنَّ محمداً مَنّا حيث قد علمتم، وقد مَنّاه من قومنا، فهو في عزّ من قومه، ومَنّعه في بلده، وإنّه قد ابى إلاّ الإنحياز اليكم، والأحقق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه مَنّ خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسلّمُوهُ وخاذلُوهُ بعدَ الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوهُ فإنه في عزّ ومَنّعة من قومه وبلده.

فقال الحضور: قد سمعنا ما قلت فتكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايغكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وإبناءكم.

فقام البراء بن معرور وأخذ بيد النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: نعم وأذني بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما تمنع منه
أُزُرنا⁽¹⁾ فبايعنا يا رسول الله فنحن والله

- [الملاحظ في هذه البيعة انها كانت بيعة للدفاع عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس بيعة للجهاد في سبيل الله، ولهذا فان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقدم على القتال في بدر إلا بعد ان كسب موافقة الانصار ورضاهم.

(572)

ابناء الحروب واهل الحلقة (اي السلاح) ورثاها كابراً عن كابر.

فب في الحضور حماس وسرور عظيم وتعالت الاصوات والنداءات من الخزرجين وألتي كانت تعبيراً عن شدة حماسهم،
وسرورهم لهذا الأمر، فقال العباس وهو أخذ بيد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وفي هذه الاثناء نهض «البراء بن معرور» و «ابو الهيثم بن التيهان» و «أسعد بن زرارة» من مواضعهم وبايعوا رسول الله -
صلى الله عليه وآله وسلم - ثم بايعه بقية القوم جميعاً.

وقد قال ابن التيهان عند مبايعته للنبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (اي اليهود) حبالا (وعلاقات)
وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «بل الدمّ الدّم، والهّم الهّم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم» يعني أنه
سببى على العهد، ولا يتركهم وكانت العرب تقول عند عقد الحلف: دمي دُمك، وهدمي هدمك، وهي كناية عن البقاء على العهد
واحترام الميثاق والحلف.

ثم ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: اخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم. (1)

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لاولئك النقباء: انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين
لعيسى بن مريم وأنا كفيلٌ على قومي (يعني المسلمين) فأبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.»

فقالوا: نعم وبايعوه على ذلك.

وكان النقباء الذين اختيروا لذلك تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس وقد ضُبطت أسماؤهم وخصوصياتهم في التاريخ.

وبعد أن تَمَّت مراسم البيعة و عدهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن يهاجِر إليهم في الوقت المناسب، ثم ارفض الجمع

و عادَ القومُ إلى رحالهم. (1)

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة:

والآن ينبغي أن نجيب بالتفصيل على السؤال الذي يطرح نفسه هنا وهو: ما الذي دعى أهل يثرب الذين كانوا بعبيدين عن مركز

ظهور الإسلام إلى أن يستجيبوا لنداء الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ويأخذوا بتعاليمه اسرع من المكين مع ما كان بين

المكين وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من القرابة القريبة؟!

وكيف تركت تلك اللقاءات المعدودة القصيرة بأهل يثرب أثراً تفوق الآثار التي تركتها الدعوة المحمدية خلال ثلاثة عشر عاماً في

مكة؟!

إن علة هذا التقدم يمكن اختصارها وحصرها في أمرين:

أولاً: أن اليثريين جاؤوا اليهود سنياً عديدة وطويلة قبل الإسلام وكثيراً ما كانوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم عن النبي العربي

الذي يظهر، ويأتي بدين جديد.

حتى أن اليهود كانوا يقولون: للوثنيين إن هذا النبي سيقم دين اليهود وينشره، ويمحي الوثنية ويقضي عليها بالمرّة.

فتركت هذه الكلمات أثراً عجبياً في نفوس أهل يثرب، وهيات قلوبهم لقبول الدين الذي كان يخبر عنه يهود وينتظرونه، بحيث عند

ما التقى الانفار الستة من اهل المدينة إلى الايمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأول مرّة، بادروا إلى

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٥ و ٢٦، السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٤١ - ٤٥٠، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢١ - ٢٢٣. وفي رواية أخرى في البحار: ج ١٩، ص ٤٧، كما أخذ موسى من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً وقد كان هذا العمل النبوي حكيماً جداً لان عامة الناس لا يمكن التعويل والانتكال على التزاماتهم بل لابد من الاعتماد - ضمناً - على رموز المجتمع ومفاتيحه وهم وجوه القوم وسراتهم.

الايمان به من غير إبطال ولا تأخير بعد أن قال بعضهم لبعض: واللّه إنّه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه.

ومن هنا فان مما يأخذه القرآن على اليهود هو: أنكم كنتم تهددون الوثنيين بالنبي العربي، وتبشرون الناس بانه سيظهر، وانهم قرأوا

أوصافه وعلائمه في التوراة فلماذا رفضوا الإيمان به لما جاء - صلى الله عليه وآله وسلم - .

يقول تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ⁽¹⁾)

ثانياً: إن العامل الأخير الذي يمكن اعتباره دخيلاً في التأثير في نفوس اليثريين وسرعة إقبالهم على الإسلام وتقبلهم لدعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو التعب والارهاق الذي كان أهل يثرب قد أصيبوا به من جراء الحروب الطويلة الدامية فيما بينهم والتي استمرت مائة وعشرين عاماً والتي انهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقى من رمقهم، وجعلتهم يملون الحياة، ويفقدون كل أمل في تحسن الأحوال والأوضاع.

وإن مطالعة وقعة «بُعَاث» وهي - حرب وقعت بين الأوس والخزرج - وحدها كفيلة بأن تجسد لنا الوجه الواقعي الذي كان عليه سكان تلك الديار.

ففي هذه الوقعة انهزم الأوسيون على يد الخزرجيين، فهربوا إلى «نجد»، فعيرهم الخزرجيون بذلك، فغضب «الحضير» سيد الأوس، لذلك غضباً شديداً، فطعن فخذة برمحه لشدة انزعاجه وغضبه، وترجل عن فرسه وصاح بقومه قائلاً: والله لا أقوم من مكاني هذا حتى أقتل!! فأوقد صمود «الحضير» وثباته نار الحمية والغيرة واشعل روح الشهامة واليسالة في قومه، فقرر الدفاع عن حقهم مهما كلفهم الأمر، فقاتلوا أعداءهم مستميتين، والمستميت منتصر لا محالة، فانتصر

- [البقرة: ٨٩].

(575)

الأوسيون المغلوبون، هذه المرة، وهزموا الخزرج هزيمة نكراء واحرقت مزارعهم ونزل بهم ما نزل على يد الأوسيين⁽¹⁾!! ثم تتابعت الحروب والمصالحات بعد ذلك، وكانت القبيلتان تتحلمان في كل مرة خسائر كبرى، جعلتهم يواجهون عشرات المشاكل التي حولت حياتهم إلى حياة مضيئة متعبة جداً.

من هنا لم تكن كلتا القبيلتين راضيتين على أوضاعهما، وكانتا تبحثان عن مخلص مما هما فيه، من الحالة السيئة، وتفتشان عن نافذة أمل، ومخرج من تلك المشاكل.

ولهذا وجد الخزرجيون الستة ضالّتهم المنشودة عندما التقوا - ولأول مرّة - رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسمعوا منه ما سمعوا، فتمنّوا أن يضعوا به حداً لاوضاعهم المتردية إذ قالوا له: عسى أن يجمعهم الله بك فان جمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك

كانت هذه هي بعض الأسباب التي دعت اليثريين إلى تقبل الإسلام بشوق ورغبة وحماس.

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة:

كانت قريش تغطّ في نوم عميق وكانت تتصور بانها قد حدّت من تقدم الإسلام في مكة وانه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والانحار، وأنه لن ينقضي زمانٌ إلا وتتطفّء جذوة الإسلام وتخمد شعلته، وتنمحي آثاره.

وفجأة استيقظت على دويّ بيعة العقبة الثانية التي كانت بمثابة انفجار قلبت كل المعادلات، وأسقطت كل تصورات قريش الساذجة، وذلك عند ما عرف زعماء الوثنيين بأن ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثريين عقدوا ليلة أمس وتحت جنح الظلام بيعة مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أن يدافعوا عنه كما

- 1 الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٤١٧ و ٤١٨.

(576)

يدافعون عن أبنائهم وأهليهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجباً في قلوب قادة قريش وسادة مكة المشركين المتعطرسين، لانهم اخذوا يقولون مع أنفسهم: لقد وجد المسلمون الآن قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، وانه يُخشى أن يجمع المسلمون كل طاقاتهم المبعثرة فيها. ويعملون معاً على نشر دينهم، وبث عقيدتهم، وحينئذ، وحينئذ ستواجه الوثنية في مكة خطراً جدياً، يهدّدها في الصميم.

ولهذا بادرت قريش إلى الاتصال بالخزرجيين صبيحة تلك الليلة وقالوا لهم: يا معشر الخزرج انه قد بلغنا أنكم قد جنتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، إنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحربُ بينا وبينهم، منكم.

فحلفت المشركون من أهل يثرب لقريش أنه ما كان من هذا شيء، وما علموه، وقد صدقوا لأنهم لم يعلموا بما جرى في العقبة. فان قافلة اليثريين كانت تضمّ خمسمائة شخص، تسلّل منهم ثلاث وسبعون فقط إلى العقبة وبقيّة الناس نيام لا يعلمون بشيء.

فأتت قريشاً إلى «عبدالله بن أبي بن سلول» فسأله عما جرى في ليلة العقبة، فأنكر ذلك وقال: إنَّ هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علىّ بمثل هذا (أي يعملوه من دون مشورتي) وما علمته كان، فهض رجال قريش من عنده ليتابعوا تحقيقهم حول الحادث

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يفشوا أمرهم، وانكشف سرهم، ولهذا قال بعضهم لبعض: مادمننا لم نعرف بعد فلنخرج من مكة فوراً قبل ان يظفر المشركون بنا، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكة والتوجه إلى المدينة، فزاد ذلك من سوء ظن قريش وعزّزت شكوكهم حول البيعة، وعرفوا بأنه قد كان، فخرجوا في طلب جميع اليتريبيين، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك إلا بعد خروج قافلة اليتريبيين من حدود مكة، والمكيين، ولم تظفر قريش إلا بسعد بن عباد.

(577)

غير أن ابن هشام يرى بأنهم ظفروا بنفرين هما: «سعد بن عباد» و «المنذر بن عمر»، وكان كلاهما من النقباء الاثني عشر.

وأما «المنذر» فاستطاع أن يخلص نفسه منهم.

وأما «سعد» فقد أخذه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجملته⁽¹⁾ وكان ذا شعر كثير.

يقول سعد:

فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علىّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيء أبيض، طويل القامة، فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا.

قال: فلما دنى مني رفع يده فلكنني لكمةً شديدةً.

فقلت في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير.

قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ رقّ علىّ رجلٌ كان معهم: فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوارٌ ولا عهدٌ؟

قلت: بلى كنتُ أجبر لجبر بن مُطعم بن عدي تجارةً، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي.

فذهب ذلك الرجل إلى مُطعم وأخبره بما فيه سعد بن عباد من الحال، وأنه أخبره بأنه كان يجبر لمطعم تجارة فقال مُطعم: صدق والله إنه كان ليجير لنا تجارة، ويمنعهم أن يُظلموا ببلدة ثم أسرع إلى سعد وخلصه من أيديهم.

وكان رفقاء سعد من المسلمين قد علموا بوقوعه في أيدي قريش في أثناء الطريق إلى المدينة، فعزموا على أن يعودوا إلى مكة ويخلصوه من أيدي المشركين، وبينما هم كذلك إذ بدى لهم «سعد» من بعيد، وأخبرهم بما جرى عليه. (2)

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي:

يصرُّ المستشرقون على أن انتشار الإسلام ونفوذه في المجتمعات ثم بواسطة

- [مجتمع شعر الرأس].
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٤٩ و ٤٥٠.

(578)

السيف وفي ظلّ استخدام القوة.

اما بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمة.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثة وقعت قبل الهجرة، ونلفت اليها نظر القارئ الكريم، فان دراستها والتعمق فيها يثبت بجلاء ان انتشار الإسلام ونفوذه في أوساط الناس كان في بداية الأمر نابعاً من جاذبيته التي كانت تجذب كل انسان بمجرد اعطاء شرح مختصر عنه وعن تعاليمه المحببة إليه.

واليك الحادثة بنصها:

قرر مصعب بن عمير المبلّغ والداعية الاسلامي المعروف الذي بعثه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة بطلب من اسعد بن زرارة، ذات يوم أن يدعو هو واسعد أشراف المدينة وساداتها إلى الإسلام بالمنطق والدليل فدخلا حائطاً (1) من حوائط المدينة فجلسا هناك واجتمع اليهما رجال ممن اسلم، وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير و هما من سادات بني الاشهل موجودين هناك أيضاً.

فقال سعد لا سيد: جرّد حربتك وقل لهذين (يعني مصعبا واسعد) ماذا جاء بهما إلى ديارنا يسفهان ضعفاءنا، ولولا أن سعد بن زرارة ابن خالتي، لكفيتك ذلك.

ففعل أسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء بكما الينا تسفهان ضعفاءنا وراح يشتمهما فقال له مصعب داعية الإسلام الحكيم، والمتكلم البليغ الذي تعلّم اسلوب الدعوة المؤثر من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :أوتجلس فتسمع، فان رضيت أمراً قبلته، وان كرهته كفتّ عنك ما نكره؟

قال: أنصفت ثم ركّز حربته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلمه مصعبٌ بالاسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن فأثرت آياتُ القرآن وما قاله مصعب من المواعظ البليغة في نفسه حتّى عُرف ذلك في إشراق وجهه، وانفراج اساريره، وشوقه فقال: ما احسن هذا الكلام واجمله؟! كيف تصنعون إذا اردتم أن تدخلوا

- [بستاناً].

(579)

في هذا الدين؟ فقال مصعب وسعد له: تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي.

فقام اسيد بن حضير الذي حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجاً مسروراً فاغتسل وظهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين.

ثم قال لهما: ان ورائي رجالا إن أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد بن معاذ الذي كان ينتظر عودته على احر من الجمر فلما نظر إليه سعد وقومه وهم جالسون في ناديهم قال: أحلف بالله لقد جاءكم اسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب من عندهم فلما وقف على النادي قال له سعد ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتُهما، فقالا: نفعل ما احببت، فغضب سعدٌ لذلك غضباً شديداً، وأخذ الحربة من اسيد، ثم خرج إلى مصعب واسعد ليقتلُهما، فلما رآهما سعد مطمئنين وقف عليهما متشتماً مهدداً اياهما، ولكن مصعباً وزميله قابلاً به بمثل ما قابلايه سابقه اسيد، وجرى له ما جرى له، فقد فعلت كلمات مصعب في نفسه فعلتها، وخضع لمنطقه القوي، وبيانه الساجر، وندم على ما قصد فعله، وقال لمصعب نفس ما قاله اسيد واعتنق الإسلام واغتسل وتطهر وصلى ثم رجع إلى قومه وقال لهم: يا بني عبدالاشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وافضلنا رايأ وایمننا نقيبأ.

قال: فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتّى تؤمنوا بالله وبرسوله فالحمد لله الذي اكرمنا بذلك.

فلم يُمس في دار بني عبدالاشهل رجلٌ ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، وهكذا أسلم كلُّ قبيلة بني الأشهل قبل أن يروا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصبحوا من الدعاة إلى الإسلام والمدافعين عن عقيدة التوحيد، لا بمنطق القوة انما بقوة المنطق. (1)

- [إعلام الوری: ص ۵۹، بحار الانوار: ج ۱۹، ص ۱۰ و ۱۱، السيرة النبوية: ج ۱، ص ۴۳۶ و ۴۳۷].

(580)

ان في التاريخ الاسلامي نماذج كثيرة من هذا القبيل تدل على بطلان وتفاهة ما قاله أو رَوَّجه المستشرقون حول أسباب تقدّم الإسلام وانتشاره، فان العامل المعتمد في جميع هذه الموارد لم يكن المال والتطبيع، ولا السلاح والتهديد، كما ادعى المستشرقون، وان الذين اسلموا في هذه الحوادث والوقائع لاهم رأوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا أنهم التقوا أو اتصلوا به بنحو من الانحاء، انما كان السبب الوحيد هو: منطق الداعية الاسلامي القويّ وبيانه الساحر الجذاب، فهو الذي كان يفعل في النفوس فعله العجيب، خلال دقائق معدودة، لا في نفس شخص واحد فحسب، بل ربما في نفوس قبيلة بكاملها.

اجل انه المنطقُ القوي والكلام المبرهن والحجة البالغة لاسواها.

مخاوف قريش المتزايدة:

لقد ايقظت حماية اليبوسيين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مرة أخرى، وكانت بيعة العقبة الثانية بمثابة ناقوس خطر لها فبدأت أذاها وإضطهادها ومضايقتها لهم من جديد، وتهيأت للعمل على الحيلولة دون انتشار الإسلام ونفوذه وتقدمه في الجزيرة العربية، وبلغ ذلك الاذى مبلغاً عظيماً.

فشكى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إليه ما يلقونه على أيدي المشركين من ضغوط واذى، واستأذنوه في الهجرة إلى مكان فاستمهلهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال:
«لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن اراد الخروج فليخرج إليها»⁽¹⁾

وبعد الاذن بالهجرة من قبيل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أخذ المسلمون يخرجون من مكة، ويتوجهون إلى المدينة شيئاً فشيئاً وبحجج مختلفة لكي لا تمنعهم قريش من الهجرة.

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٦.

(581)

ولم يكن قدمضى على بداية هجرة المسلمين التدريجية هذه زمان طويل الا وفتن زعماء قريش لسرها، وخطرها عليهم فآخذوا يمنعون من اي تنقل وسفر يقوم به المسلمون، وقرروا ان يعيدوا إلى مكة كل من وجدوه في اثناء الطريق، كما قرروا ان يحبسوا زوجة كل مسلم يريد الهجرة وله زوجة قرشية ويمنعوها عنه، ولكنهم كانوا يتجنبون اراقة الدماء في هذا السبيل، بل وكان يقتصر اذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعداهما.

ولكن هذه المحاولات التي قام بها زعماء قريش لوقف الهجرة إلى المدينة لم تنثر لحسن الحظ.

فقد استطاعت مجاميع كبيرة من المسلمين النجاة بنفسها من أيدي قريش والحقاق بزملائهم واخوانهم في يثرب حتى انه لم يبق في مكة من المسلمين إلا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلي - عليه السلام - وعدد قليل من المسجونين، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين في يثرب من مخاوف قريش، وضاعف من قلقها، ولهذا اجتمع كل رؤساء القبائل المكية في «دار الندوة» أكثر من مرة للتشاور في كيفية القضاء على الإسلام وطُرحت في ذلك المجلس خطط متنوعة، واقترحت أمور كثيرة لتحقيق هذه الغاية ولكنها فشلت برمتها بتدبير رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحكمته، وسياسته الدقيقة.

وأخيراً هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من «مكة» إلى «المدينة» في شهر ربيع الأول سنة ١٤ من البعثة.

اجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمد على قاعدة ثانية خارجة عن نطاق هيمنة المكيين وسيطرتهم واصبحوا حيرى لا يدرون ماذا يفعلون، لان جميع خططهم لمنع من انتشار الإسلام واتساع رقعته، قد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أصحابه بالهجرة إلى المدينة والالتحاق

(582)

بالانصار وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم داراً وإخواناً تأمنون بها.»⁽¹⁾⁽²⁾

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٦.
- 2] لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشرة من البعثة، وقد حاولنا ذكر كل ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كل تلك الحوادث أموراً مقطوعاً بها من هنا ذكرنا الحوادث المثبتة في الفصل ٢٤ من دون ادراج تواريخ لها في الأغلب ولكن حيث أن الوقائع الحادثة بعد الهجرة وقعت في أوقات معينة معلومة لذلك فاننا سنرفق ذكر كل حادثة بتاريخ وقوعها في الفصول القادمة.

(583)

حوادث السنة الأولى من الهجرة

٢٥

قصة الهجرة

كان زعماء قريش و رؤساؤها يجتمعون عند كل نائبة تتوبهم في «دار الندوة» لحل المشاكل ومعالجة ما عرض لهم من نائبة من خلال التشاور حولها وتداول الرأي فيها، ومن خلال تضافر الجهود على حلها، ورفعها أو دفعها.

وفي السنوات الثانية عشرة، والثالثة عشرة من البيعة واجه أهل مكة خطراً كبيراً جدياً، فقد حصل المسلمون على مركز هام، وقاعدة صلبة في يثرب، وتعهد اليثريون الشجعان بحماية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والدفاع عنه، وكل هذا كان من علامات ومظاهر ذلك التهديد الخطير، الذي بات يهدد كيان المشركين والوثنيين والزعامة القرشية.

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البيعة التي وقعت فيه هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبينما لم يكن قد بقي من المسلمين في مكة إلا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلي وأبو بكر و جماعة قليلة من المسلمين المحبوسين، أو المرضى، أو العجزة، وكان هؤلاء على أبواب الهجرة ومغادرة مكة إلى المدينة اتخذت قريش فجأة قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً جداً في هذا المجال.

فقد انعقدت جلسة هامة للتشاور في «دار الندوة» حضرها رؤساء قريش

(584)

وزعماؤها وبدأ متكلمهم⁽¹⁾ يتحدث عن تجمع القوى والعناصر الإسلامية وتمركزها في المدينة والبيعة التي تمت بين الخزرجيين والأوسيين وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم اضاف قائلاً:
يا معشر قريش إنه لم يكن أحدٌ من العرب أعزَّ منّا، نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين، ويكرمونا، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامعٌ، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا «محمد بن عبد الله» فكنا نسميه (الأمين) لصلاحه، وسكونه، وصدق لهجته، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله، وأن أخبار السماء تاتي به، فسفه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شباننا، وفرق جماعتنا، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا، وقد رأيت فيه رأياً، رأيت أن ندس إليه رجلاً منّا ليقتله، فان طلبت بنو هاشم بدمه⁽²⁾ اعطيناهم عشر ديات.

فقال رجلٌ مجهول حضر ذلك المجلس ووصف نفسه بانه نجدى: ما هذا برأي لأن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فانه إذا قُتل محمد تعصب بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الارض فيقع بينكم الحروب وتتفانوا.

فقال أبو البخترى: نلقيه في بيت ونلقي إليه قوته حتى يأتيه ريب المنون.

فقال الشيخ النجدى مرةً أخرى: وهذا رأيٌ أخبث من الآخر، لأن بني هاشم لا ترضى بذلك، فاذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم، واجتمعوا عليكم فاخرجوه.

فقال ثالث: نُخرجه من بلادنا ونتفرَّغ نحن لعبادة آلهتنا، أو قال نرخل بعيراً صعباً ونوثق محمّداً عليه كتافا، ثم نضربُ البعيرَ بأطراف الرماح فيوشنك أن يقطععه بين الصخور والجبال إرباً إرباً.

فانبرى ذلك النجدي يخطيء هذا الرأي أيضاً قائلاً: أرايتم إن خلص به

- 1 وروي انه كان المتكلم: أبو جهل.
- 2 وفي رواية: بديته.

(585)

البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ يقلوبهم بسحر بيانه وطلاقة لسانه، فصبأ⁽¹⁾ القوم إليه واستجابت القبائل له قبيلة فقبيلة، فليسبرئ حينئذ اليكم الكتائب والجيوش فلتهلكن كما هلكت اباد ومن كان قبلكم.

فتحيروا وساد الصمت ذلك المجلس، وفجأة قال أبو جهل (وعلى رواية: قال ذلك الشيخ النجدي): ليس هناك من رأي إلا أن تعمدوا إلى قبائلكم فتختاروا من كل قبيلة منها رجلاً قوياً ثم تسلحوه حساماً غضباً وليهجموا عليه معاً بالليل ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها في صاحبهم فيرضون حينئذ بالدية منهم!! فاستحسن الجميع هذا الرأي، واتفقوا عليه، ثم اختاروا القتل وتقرر ان يقوموا بمهمتهم اذا جنّ الليل وساد الظلام كل مكان. (2)

الإمدادات الغيبية والعنايات الالهية:

لقد كان اولئك العتاة الجهلة يتصورون أن رسالة محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - المدعومة من قبل الله تعالى والمؤيدة من جانبه سبحانه يمكن ان يقضى عليها بواسطة هذه الحيل والمكائد، والخطط والمؤامرات، ولم يكونوا يدركون أن هذا النبي - كغيره من الأنبياء - يتمتع بالمدد الالهي الغيبي، وان اليد التي حفظت مشعل الاسلام طوال ثلاثة عشر عاماً في وجه الاعاصير والرياح، قادرة على افشال هذه الخطة الاتيمية، وتعطيل هذه المؤامرة أيضاً.

يقول المفسرون: بعد أن دبر الكفار ما دبروا نزل ملك الوحي «جبرئيل»، على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بما حاك ضدّه المشركون من مؤامرة اذ

- 1 صبأ فلان: اي خرج من دين إلى دين غيره وكانت العرب تسمي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الصابي لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام وتسمي المسلمين: الصباة.. وهو جمع الصابيء.
- 2 الطبقات الكبرى: ج 1، ص 227 و 228، السيرة النبوية: ج 1، ص 480 - 482.

(586)

قرأ عليه قول الله تعالى:

(وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُبْسِتُوا لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حَتْفٌ أَوْ يَخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ. (1))

وعندئذ أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالهجرة من مكة إلى المدينة، ولكنَّ التخلص من أيدي القساة المكلفين بقتله من قبل زعماء الوثنيين وبالنظر إلى المراقبة الدقيقة التي كانوا يقومون بها لجميع التحركات، لم يكن بالأمر السهل وخاصة بالنظر إلى بُعد المسافة بين مكة والمدينة.

فإذا لم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يخرج من مكة وفق خطة دقيقة صحيحة كان من المحتمل جداً أن يدركه المكثرون في أثناء الطريق ويقبضوا عليه ويسفكوا دمه الشريف قبل أن يصل إلى أتباعه وأصحابه.

ولقد ذكر المفسرون والمؤرخون صوراً مختلفة لكيفية خروج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهجرته والاختلاف الذي نلاحظه بين هؤلاء المفسرين والمؤرخين في خصوصيات وتفصيل هذه الواقعة مما يقل نظيرة في غيره من الوقائع.

وقد استطاع مؤلف «السيرة الحلبية» أن يوفق إلى درجة ما، بين المنقولات والمرويات المختلفة ببيان خاص، ولكنه لم يوفق لازالة التناقض والاختلاف في بعض الموارد في هذا الصعيد.

على أن الموضوع الجدير بالإهتمام هو أن أكثر المؤرخين الشيعة والسنة نقل كيفية هجرة النبي، وخروجه من منزله، ثم من مكة بنحو مؤداه إسناد نجاة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وخلصه إلى عامل الاعجاز، وبالتالي فقد اسبغوا عليه صبغة الكرامة، والمعجزة.

في حين أن الإمعان في تفاصيل هذه القصة يكشف عن أن نجاة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كانت نتيجة سلسلة من الاجراءات الاحترافية، والتحسبات، والتدابير الحكيمة، وإن إرادة الله تعالى تعلقت بان ينجي نبيه

- [الانفال: ٣٠]. لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حَتْفٌ أَوْ يَخْرِجُوكَ . لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ حَتْفٌ أَوْ يَخْرِجُوكَ .

ويدل على هذا المطلب أنّ النبيّ توسل بالعلل الطبيعية، والوسائل والأسباب العادية (كمبيت شخص في فراش النبيّ، واختفاء رسول الله في الغار وغير ذلك مما سيأتي ذكره)، وبهذا الطريق نجى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه، وتخلص من أيدي أعدائه، العازمين على إراقة دمه.

ملك الوحي يخبر رسول الله:

لقد اخبر ملك الوحي «جبرئيل» رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخطة قريش المشؤومة لاغتياله وامره بالهجرة، وتقرر - بغية إفشال عملية الملاحقة - ان يببيت شخصاً في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليتصوّر المشركون أنّ النبيّ لا يزال في منزله، ولم يخرج بعد، وبالتالي يركّزوا كلّ إهتمامهم على محاصرة البيت، وينصرفوا عن مراقبة طرقات مكة، ونواحيها. ولقد كانت فائدة هذا العمل اي حصر اهتمام المراقبين ببيت النبيّ انه تسنى لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اغتنام الفرصة والخروج من مكة، والاختفاء في مكان ما من دون ان يحس به أحد من الذين باتوا يراقبون بيته، ويبغون قتله.

والآن يجب أن نرى من أذّي تطوّع للمبيت في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وفدى النبيّ بنفسه، ووقاه بحياته؟ ستقولون حتماً: إن أذّي سبق جميع المسلمين إلى الايمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبقي من بدء بعثته وإلى ذلك الحين يذب عنه، هو أذّي يتعيّن أن يضحي بنفسه في هذا السبيل، وبقي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحياته في هذه اللحظة الخطيرة، وهذا المضحي بحياته ونفسه، هو «علي» ليس سواه احد، انه تقدير صحيح، وحسن مصيب.

فليس غير «علي» يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

(588)

ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - عليه السلام - :

«يا عليّ إنّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنّه أوحى إليّ عن ربّي أن اهجّر دار قومي، فثمّ عليّ فراشي والتحف بيردي الحضرميّ لتُخفي بمبيتك عليهم أنّري فما أنت قائل وصانع؟؟»

فقال علي - عليه السلام - أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟

قال: نعم، فتبسّم عليّ - عليه السلام - ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من سلامته، فلما رفع رأسه قال للنبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - :

إمض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومُرني بما شئتَ اكن فيه كمسرتك، واقع فيه بحيث مرادك، وإن توفقي إلا بالله.

ثم رقدَ عليّ - عليه السلام - على فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واشتمل ببرده الحضرمي الاخضر، ولما مضى شطرًا من الليل حاصرَ رَصَدُ قريش - وهم اربعون رجلا - بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد جردوا سيوفهم، ينتظرون لحظة الهجوم على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويتطأعون إلى داخل البيت من فرجة الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في مضجعه، فيظنون أنَّ النَّائمَ في الفراش هو النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وهنا أراد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يخرج من بيته.

فمن جانب يحاصر الأعداء بيته - صلى الله عليه وآله وسلم - من كل جانب، ويراقبون كلَّ شيء، ومن جانب آخر تعلقت مشيئة الله تعالى وارادته القاهرة الغالبة أن ينجو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ايدي تلك الزمرة المنحطة، فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سورة (يس) لمناسبة مطلعها لظروفه حتَّى بلغ إلى قوله تعالى: **فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ** ⁽¹⁾ (وخرج من باب البيت دون ان يشعر به رَصَدُ قريش المكثفون بقتله، وذهب إلى المكان الذي كان من المقرر ان يختبئ

- [يس: ٩.

(589)

فيه على النحو الذي سيأتي تفصيله.

وأما كيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يخترق الحصار البشريَّ المشدّد الذي ضُربَ على بيته، ويتجاوز رَصَدَ قريش من غير ان يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلا أنه يستفاد من رواية نقلها المفسرُ الشيعيُّ المعروفُ المرحومُ عليُّ بن ابراهيم في تفسيره: قول الله تعالى: **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا** (ان رجال قريش كانوا نياماً ينتظرون الفجر عند خروج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولم يكونوا يتصوّرون أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصرح غيره من المؤرخين وكتاب السيرة⁽¹⁾ بان المحاصرين لمنزل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كانوا يقظين حتى لحظة الهجوم على بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خرج من البيت عن طريق الاعجاز والكرامة من دون ان يروه ويحسوا به.

إن امكان وقوع مثل هذه الكرامة ليس موضع شك، ولكن هل كان هناك ما يوجب ذلك؟؟

ان دراسة قصة الهجرة بصورة كاملة تجعل هذه المسألة أمراً قطعياً وهي أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان عارفاً بمؤامرة القوم قبل محاصرة بيته، وكان قد دبر ورسم لنجاته خطةً طبيعيةً عاديةً، ولم يكن في الأمر اي اعجاز.

لقد كان يريد - صلى الله عليه وآله وسلم - باضجاع علي - عليه السلام - في فراشه أن ينجو بنفسه من أيدي المشركين من الطرق العادية والقنوات الطبيعية من غير الاستعانة بالاعجاز والكرامة.

وعلى هذا كان في مقبور النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يتحسب لمسألة المحاصرة والطوق الذي كان سيضرب على بيته من أوائل الليل، وذلك بمغادرة

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٨، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ١٠٠.

(590)

بيته قبل المحاصرة وقبل الغروب.

ولكن يمكن ان يكون لتوقف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في البيت حتى ساعة المحاصرة علة لا نعرفها الآن. من هنا يكون إدعاء هذا الموضوع (وهو خروج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من البيت في الليل) غير مقطوع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - غادر منزله قبل فرض الحصار عليه، وقبل غروب الشمس. (1)

إقتحام الاعداء لبيت الوحي:

طوّقت قوى الكفر مهبط الوحي وبيت الرسالة وباتت تنتظر لحظة الإذن في إقتحامه، والهجوم على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في فراشه وضربه وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً!

وقد أصرّ جماعة منهم أن ينفذوا خطتهم المشؤومة هذه في منتصف الليل وقبل الفجر فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإنّ في الدار صبياناً ونساءً من بني هاشم، ولا نأمن أن تقع يدُ خاطئة، فنحرسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه.

وربما يقال أن علة التأخير هي أنهم أرادوا أن يقتلوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عند الصباح أمام أعين بني هاشم حتى يروا أن قاتله جماعة وليس واحداً.

وانقشع الظلام شيئاً فشيئاً، وانفجر الصبح، ودبّ في المشركين شوقٌ غريبٌ، مع اقتراب ساعة الصفر، فقد كانوا يتصوّرون بأنهم سينالون ما يريدون قريباً، وبينما هم ينتضون سيوفهم دخلوا حجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبينما هم يهيمون بأخذ من كان راقداً في الفراش بسيوفهم، إذا بهم يواجهون علياً - عليه السلام -

- [السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٢٩].

(591)

يثب في وجوههم وهو يكشف عن نفسه برد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الأخضر، وقال لهم في منتهى الطمأنينة والشجاعة: ما شأنكم؟ وماذا تريدون؟؟

فقالوا له بغضب: أين محمّد؟

فقال - عليه السلام - : أجمعتُموني عليه رقبياً؟!!

فغضبَ القوم غضباً شديداً، وكاد الغيظ يخنقهم، فقد ندموا على إنتظارهم انفجار الصبح وحملوا أبا لهب الذي منعهم من تنفيذ الهجوم على النبيّ في منتصف الليل فشل الخطة وتفويت الفرصة، فاقبلوا عليه يلومونه ويوبخونه!!

أجل لقد انزعجت قريش بشدة لفشل هذه المؤامرة، ووجدوا انفسهم أمام هزيمة نكراء بددت كلّ أحلامهم، وحيث أنهم كانوا يتصوّرون بأن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يستطيع الخروج عن حدود مكة في مثل تلك المدة القصيرة فهو إما مختبئ في مكة، أو أنه لا يزال في طريق المدينة، لذلك أقدموا فوراً على العمل على ترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

النبيُّ في غار ثور:

ان ما هو مسلّم به هو أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمضى هو وأبو بكر ليلة الهجرة وليلتين اخريين بعدها في غار

ثور الذي يقع في جنوب مكة في النقطة المحاذية للمدينة المنورة. (1)

وليس من الواضح كيف تمت هذه المصاحبة والمرافقة ولماذا، فان هذه المسألة من القضايا التاريخية الغامضة.

فان البعض يعتقد بان هذه المصاحبة كانت بالصدفة، فقد رأى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أبا بكر في الطريق، فاصطحبه معه إلى غار ثور.

- [حيث ان الطريق المؤدي إلى المدينة تقع في شمال مكة، فاخْتَبَأَ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في منطقة مقابلة أي في اسفل مكة، ليُعمي بذلك على قريش فلا يتبعوا أثره.

(592)

وروى فريق آخرُ أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذهب في نفس الليلة إلى بيت أبي بكر، ثم خرجا معاً في منتصف الليل إلى غار ثور. (1)

وقال فريق ثالث: أن أبا بكر جاء هو بنفسه يريد النبيّ وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - قد خرج من قبل فأرشدته «عليٌّ» إلى مخبأ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وعلى كل حال فان كثيراً من المؤرخين يُعدّون هذه المصاحبة من مفاخر الخليفة ومناقبه، ويذكرون هذه الفضيلة ويتحدثون عنها بكثير من الاسهاب والاطناب، وبمزيد من الاكبار والاعجاب.

قريش تفتش عن النبيّ:

لقد تسبب فشل قريش في تغيير خطتها، فقد بادرت إلى بث العيون والجواسيس في طرقات مكة، ومراقبة مداخلها ومخارجها مراقبةً شديدةً، وبعثت القافّة تقتص أثره في كل مكان، وفي طريق مكة - المدينة خاصة.

ومن جانب آخر جعلت مائة ابل لمن يأخذ نبي الله، ويردّه عليهم أو يأتي عنه بخبر صحيح.

وعمد جماعة من قريش إلى ملاحقة رسول الله والتفتيش عنه في شمال مكة، حيث الطريق المؤدي إلى المدينة، على حين أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد اختبأ - كما قلنا - في نقطة بجنوب مكة لافشال عملية الملاحقة.

وتصدت مجموعة أخرى لتتبع أثر قدم النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ورفيقه!!

وكان الذي يقف لهم الأثر يدعى أبا مكرز فوقف بهم على باب حجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال هذه قدم محمد، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار فانقطع عنه الأثر فقال: ما جاوز محمد ومن معه هذا المكان، إما أن يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا تحت الأرض، فان باب هذا الغار - كما ترون عليه - نسج

(593)

العنكبوت والقبجة حاضنة على بيضها بباب الغار⁽¹⁾، فلم يدخلوا الغار.

ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاثة أيام بلياليها ولكن دون جدوى، فلما ينس القوم بعد ثلاثة أيام من السعي تركوا التفتيش وكفوا عن الملاحقة.

التفاني في سبيل الحق:

إن النقطة المهمة في هذه الصفحة من التاريخ هي ما قام به علي - عليه السلام - من تفان في سبيل الحق، والحقيقة.

إن التفاني في سبيل الحق من شيمة الرجال الذين أحبوا الحق وعشقوه بكل وجودهم وكيانهم.

إن الذين يغضون نظرهم عن كل شيء من أشياء الدنيا ويضحون بالنفس والمال والشخصية، ويستخدمون كل طاقاتهم المادية والمعنوية في سبيل خدمة الحق، وإحيائه، وإقامته هم ولا شك من عشاق الحق والحقيقة الصادقين.

إنهم يرون كمالهم وسعادتهم في هدفهم، وهذا هو الذي يدفعهم إلى أن يصرفوا النظر عن الحياة العابرة، والعيش الموقت، ويلتحقوا بركب الحياة الواقعية الأبدية.

إن مبيت علي - عليه السلام - في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك الليلة الرهيبة لنموذج بارز من هذا الحب الحقيقي للحق، والعشق الصادق للحقيقة، فإن الدافع وراء التطوع لمثل هذه المهمة الخطيرة لم يكن إلا حب «علي» لبقاء الإسلام الذي يكفل سعادة المجتمع، ويضمن ازدهار الحياة، لا غير.

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٩ تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ وغيرها، ولقد ذكر عامة المؤرخين هذه الكرامة هنا، ولا ينبغي - نظراً لما ذكرناه في قصة الفيل وهلاك ابرهة وجنده بواسطة الابل، تأويل مثل هذا الكرامات.

(594)

إن لهذه التضحية والتفاني من القيمة العظمى بحيث مدحها الله تعالى في كتابه العظيم، ووصفها بأنها كانت تضحية صادقة لكسب مرضاة الله، فإن الآية التالية نزلت - حسب رواية أكثر المفسرين - في هذا المورد:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)⁽¹⁾

ان عظمة هذه الفضيلة واهمية هذا العمل التضحيى العظيم دفعت بكبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أكبر فضائل الامام علي - عليه السلام - وإلى أن يَصِفُوا بها علياً بالفداء والبذل والايثار، وإلى أن يعتبروا نزول الآية المذكورة في شأنه من المسلّمات كَلِّمًا بلغ الحديث في التفسير والتاريخ اليها. (2)

إنّ هذه الحقيقة مما لا ينسى أبداً فانه من الممكن اخفاء وجه الواقع والتعظيم عليه بعض الوقت إلا أنه سرعان ما تمزق أشعة الحقيقة الساطعة حجب الاوهام، وتخرج شمس الحقيقة من وراء الغيوم.

إنّ معاداة معاوية لأهل بيت النبوة وبخاصة للامام أمير المؤمنين - عليه السلام - مما لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغية من خلال تطميع بعض صحابة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يلوّث صفحات التاريخ اللامعة ويخفي حقائقه بوضع الاكاذيب، ولكنه لم يحرز في هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد «سمره بن جندب» الذي ادرك عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم انضم بعد وفاته - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بلاط معاوية بالشام، عمد إلى تحريف الحقائق لقاء اموال أخذها من الجهاز الأموي، الحاقده على أهل البيت.

فقد طلب منه معاوية باصرار أن يرقى المنبر ويكذب نزول هذه الآية في شأن

- [البقرة: ٢٠٧].
- 2مسند احمد: ج ١، ص ٨٧، وكنز العمال: ج ٦، ص ٤٠٧، وقد نقل كتاب الغدير: ج ٢، ص ٤٧ - ٤٩ طبعة لبنان مصادر نزول هذه الآية في شأن علي - عليه السلام - على نحو التفصيل، فراجع.

علي - عليه السلام - ، ويقول للناس أنها نزلت في حق قاتل عليّ (أي عبدالرحمان بن ملجم المرادي)، ويأخذ في مقابل هذه الاكذوبة الكبرى، وهذا الاختلاق الفضيع الذي أهلك به دينه مائة ألف درهم.

فلم يقبل «سمره» بهذا العرض ولكن معاوية زاد له في المبلغ حتّى بلغ اربعمائة ألف درهم، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابتة، مسوداً بذلك صفحته السوداء اكثر من ذي قبل وذلك عند ما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاوية. (1)

وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يخطر ببال أحد منهم أبداً ان (عبدالرحمان بن ملجم) اليمنى لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعلّه لم يكن قد وُلِدَ بعد آنذاك. فكيف يصح؟!

ولكن الحقيقة لا يمكن ان تخفى بمثل هذه الحجب الواهية، ولا يمكن ان تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتية الرخيصة.

فقد تعرّضت حكومة معاوية وتعرض أهلها وانصارها للحوادث، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهده المشؤوم، وطلعت شمس الحقيقة والواقع من وراء حُجُب الجهل والافتراء مرة أخرى، واعترف اغلب المفسرين الأجلة⁽²⁾ والمحدثين الافاضل - في العصور والادوار المختلفة، بأن الآية المذكورة نزلت في «لبلة المبيت» في بذل علي - عليه السلام - ومفاداته النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بنفسه.⁽³⁾

- 1 لاحظ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ٤، ص ٧٣.
- 2 شرح نهج البلاغة: ج ١٣، ص ٢٦٢، ولقد أعطى ابن ابي الحديد حقّ الكلام حول هذه الفضيلة.
- 3 سمرة بن جندب من العناصر المجرمة في الحكومة الاموية، ولم يكتف سمرة بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه، بل أضاف إلى ذلك - حسب رواية ابن ابي الحديد - أمراً آخر أيضاً إذ قال: ونزل في شأن «عليّ» قول الله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» (البقرة: ٢٠٤).
ومن جرائم هذا الرجل انه قتل يوم وُلّي البصرة على عهد زياد بن أبيه العراق ثمانية آلاف ممّن كانوا يحبون أهل البيت ويوالونهم وعندما سأله معاوية: هل تخاف ان تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟
أجاب قائلاً: لو قتلتُ اليهم مثلهم ما خشيت!!
هذا ومخازي هذا الرجل أكثر من ان تستوعبه هذه الصفحات القلائل.
وسمرة هذا هو ذلك الرجل الصلف الجاف الذي رد على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - طلبه بأن يراعي حقّ جاره في قضية النخلة مراراً فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إنك رجل مضارّ ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام» ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ.

(596)

كلام من ابن تيمية:

احمد بن عبدالحليم الحراني الحنبليّ الذي مات في سجن بدمشق عام ٧٢٨ من علماء السنّة، تعود إليه اكثر معتقدات الوهابيين، وأفكارهم.

ولابن تيمية هذا آراء ومواقف خاصة من النبيّ الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأمير المؤمنين، وعامة أهل بيت النبوة، وقد صرح باكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه «منهاج السنة.»

وقد دفعت عقائده المنحرفة وآراؤه الضالّة الكثر من علماء عصره إلى تكفيره، والتبرّي منه.

ولابن تيمية رأي عجيب حول هذه الفضيلة نذكره للقاريء الكريم مع تصرف بسيط في الألفاظ.⁽¹⁾

ومن المؤسف ان يكون قد تأثر بأرائه بعض السدّج والجاهلين، فجدّهم يشيعون آراءه في المجتمع من دون تحقيق فيما قال، ومن دون مراجعة ذوي الاختصاص لمعرفة رأيهم في أفكاره ومعتقداته وهم غافلون عن أنّ مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف وكذّبه بل وكفره بسببها أهل مذهبه.

هذا واليك خلاصة رأيه في فضيلة «المبيت.»

يقول: ان مبيت «عليّ» في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا تعدّ

- [راجع السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٢٦٣ و سبعة الجاحظ في العثمانية.

(597)

فضيلة لأن عليّاً عرف من طريقين بانه لن يصيبه شيء في تلك الليلة:

الأول: إخبار رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الصادق المصدّق نفسه إياه بذلك إذ قال له في نفس تلك الليلة: «نمّ في فراشي فإنه لا يخلصُ إليك شيء تكرههُ!!»

الثاني: أنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - كلّفه بردّ الودائع واداء الامانات التي أودعها أهل مكة عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، إلى أصحابها.

فعلم - من ذلك - أنه لن يُقتل والا لكلف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الآخرين بها.

فعرف «عليّ» من هذا التكليف أنه لن يلحقه أذى في هذه العمليّة وانه سيوفّق لأداء ما كلّفه به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

الجواب:

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمالاً: إن ابن تيميّة بانكاره هذه الفضيلة أثبت فضيلة أعلى لعلّي - عليه السلام - لأنه إما كان إيمان عليّ بصدق مقالة الرسول كان إيماناً عادياً، وإما أن كان إيماناً قوياً جداً، وكانت جميع اقوال النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وإخباراته لديه - في ضوء إيمانه - كالنهار في وضوحه.

وعلى الفرض الأول لم يكن لعلّي يقينٌ بنجاته من تلك الواقعة لأنه لا يحصل لمثل هذه الطبقة من الناس (ولا شك أن عليّاً ليس منهم حتماً) يقينٌ من كلام النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وحتّى لو قبلوا به في الظاهر، فانهم سيساورهم القلق، ولا يفارقهم الاضطراب، وإذا هم باتوا في فراشه في لحظات الخطر، فانه سيبقون فريسة الخوف والوجل وستمرّ في نفوسهم إحتمالاً كثيرةً حول مآل الأمر ومصيره، وسيتمثل أمامهم شبح الموت المرعب في كل لحظة وأن.

وعلى هذا الفرض لا بد أن يقال: بأنّ عليّاً - عليه السلام - لم يقدم على هذا الأمر الخطير إلّا وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين،

لا أنه بات وهو يتيقن

النجاة والسلامة.

وأما بناءً على الفرض الثاني فإنه تثبت لعلّ - عليه السلام - فضيلة أعلى واعظم، لأن إيمانَ الرجل يجب ان يبلغ من القوة والكمال بحيث لا يفرّق بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار أي أنهما يكونان عنده بمنزلة سواء.

ولا شك ان أهمية مثل هذا الايمان لا يمكن أن يعادلها شيء.

ونتيجة هذا الايمان هي أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عند ما قال له: تم في فراشي فلن يصيبك من هجوم الاعداء الحاقدين مكروءة، أن ينام في فراش النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقلب واثق بالسلامة، ونفس مطمئنة إلى النجاة، ومن دون أن يخالج نفسه أقل احتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيمية من قوله: ان علياً كانَ واثقاً من سلامته، لأن الصادق المصدّق أخبره بذلك هو: إثبات أعلى درجات الإيمان لعلّ - عليه السلام - فقد اثبت له - عليه السلام - من حيث لا يشعر اكبر فضيلة، وأعلى منقبة، وهي كمال الايمان والثقة برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخباره.

هذا هو الجواب الاجمالي واليك الجواب التفصيلي:

الجواب التفصيلي:

ففقول عن الدليل الأول: إن عبارة «لا يخلص اليك شيء تكرر» لم ينقلها بعض أرباب السيرة ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقة لا تنكر في هذا الصعيد. (1)

نعم روى ابن الاثير المتوفى عام ٦٣٠(2)، والطبري المتوفى عام ٣١٠(3) هذه العبارة وكأما قد أخذها عن ابن هشام في سيرته (4) التي نقل فيها تلك العبارة

- [مثل مؤلف الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ المولود عام ١٦٨ و المتوفى عام ٢٣٠، وكذا المقرئ في امتاع الاسماع، عند ذكرهم لتفاصيل قضية المبيت.
- 2 التاريخ الكامل: ج ٢، ص ٧٢.
- 3 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٩٩.
- 4 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٨٣.

بالصورة المتقدمة الذكر، خاصة أنّ عبارة ذينك المؤلفين (الطبري وابن الأثير) تطابق عبارة ابن هشام في هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أنّ القضية لا توجد بهذه الصورة في مؤلفات علماء الشيعة على ما نعلم.

ولقد نقل شيخ الطائفة الإمامية محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ في أماليه قصة الهجرة بشكل أكثر تفصيلاً ودقة، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيط، إلا أنه تختلف صورة القضية مع ذلك عما هي عليه في كتب أهل السنة، فانه رحمه الله يصرح بان علياً - عليه السلام - انطلق هو و «هندبن أبي هالة» ابن خديجة وربيب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتى دخلا على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ: «إتّهم لن يصلّوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتى تقدم عليّ.»⁽¹⁾

وهذه الجملة تشبه الجملة التي ذكرها ابن هشام والطبري وابن الأثير، ولكن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قالها لعليّ - عليه السلام - مطمئناً إياه بعد ليلتين من المبيت في الفراش، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون.

هذا علاوة على أنّ كلام علي نفسه خير شاهد على ما نقول:

فلقد عدّ عليّ - عليه السلام - عمله هذا (أي المبيت في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك الليلة الرهيبة) نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحق كما يتضح ذلك بجلاء من اشعاره حيث يقول:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطَأَ الْحِصَا * وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحِجْرِ

محمّد لما خاف أن يمكروا به * فَوَقَّاهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ مِنَ الْمَكْرِ

وَبِتُّ أُرَاعِي مِنْهُمْ مَا يَسْؤُنِي * وَقَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ

وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا * هُنَاكَ وَ فِي حَفِظِ الْإِلَهِ وَ فِي سِتْرٍ⁽²⁾

- [الأمالي: ج ٢، ص ٨٤.
- 2 المصدر السابق وغيره، هذا مضافاً إلى أنّ الإمام - عليه السلام - نفسه قد استنشد المسلمين مراراً بهذه القضية مستدلاً بها على تفانيه في سبيل الإسلام.

ومع هذه العبارات الصريحة لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الذي تدل قرائن كثيرة على خطاه، ويُحتمل، احتمالاً قوياً، بأن اشتباهه وخطاه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن اسحاق، وحيث أنه (ونعني ابن هشام) قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهملاً ظرف النطق بها لعدم أهمية زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية أو الثالثة، في نظره، وروى الموضوع بنحو يوهم بان جميع هذه الامور وقعت في ليلة واحدة!!

ويؤيد رأينا هذا أيضاً الحديث المعروف الذي رواه كثير من علماء السنة والشيعه وهو: أن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أتى قد أخيت بينكما وجعلت عمر احدكما أطول من عمر صاحبه فأيكما يؤثر أخاه.

وكلاهما كره الموت، فارحى الله إليهما: عيادي ألا كنتما مثل وليي «علي» أخيت بينه وبين «محمد» نبيي فأثره بالحياة على نفسه؟ أو قال: فبات على فراشه يفديه بمهجته.

ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسة علي وحفظه من عدوه. (1)

واما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيمية أن علياً كان يعلم بمصيره هو توصية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - له بأداء الامانات والودائع إلى أهلها، التي كانت تكشف عن ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعلم بأنه لن يصل إليه مكروه، ولهذا امره برد الودائع والامانات إلى أصحابها.

الخطيب وقضية المبيت:

وينبغي أن نختم هذا الفصل بما كتبه الاستاذ عبدالكريم الخطيب حول

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٣٩ نقلا عن احياء العلوم للغزالي.

(601)

مبيت علي - عليه السلام - في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث قال: لقد دعا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً ليلة الهجرة، وطلب إليه أن يبني في المكان الذي اعتاد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يبني فيه، وان يتغطي بالبرد الحصرم الذي كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يتغطي به حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار رأى كأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نائم في مكانه مغطى بالبرد الذي يتغطي به، وهذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة إذا نظر إليه في مجرى الاحداث التي عرضت للامام علي في حياته بعد تلك الليلة فانه يرفع لعيني الناظر أمارات واضحة و اشارات دالة على ان هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة لم يكن أمراً عارضاً بل هو عن حكمة لها آثارها - إلى ان قال - انه إذا غاب شخص الرسول كان

علیُّ هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه وتمثّل شخصه وتقوم مقامه، حين نظرنا إلى عليّ وهو في برد الرسول وفي مثنوى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه فقلنا: هذا خُلفُ الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - والقائم مقامه. (1)

ولكننا نعتقد ان في مقدورنا الحصول على حلٍ لهذه المشكلة إذا استعرضنا بقية قصة الهجرة بشكل صريح وكامل.

واليك بقية قصة الهجرة.

بقية قصة هجرة النبي:

انتهت المراحل الأولى لنجاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وفق تخطيط صحيح، بنجاح، فقد لجأ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في منتصف الليل إلى غار ثور، واختبأ فيه، وبذلك أفضل محاولة المتأمرين عليه.

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - طوال هذا الوقت مطمئناً لا يحسُّ في نفسه بأيّ قلق أو إضطراب، حتّى انه ظمأن رفيقاً سفره عندما وجده مضطرباً في تلك اللحظات الحساسة بقوله:

(لا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَن. (2))

وبقي هناك ثلاث ليال محروساً بعين الله تعالى و مشمولاً بعنايته ولطفه ،

- 1 راجع كتاب علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة، ص ١٠٣ - ١٠٥ ملخصاً.
- 2 التوبة: ٤٠.

وكان يتردد عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه الاثناء عليّ - عليه السلام - وهند ابن ابي هالة (ابن خديجة) على رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبدالله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة راعي اغنام أبي بكر (بناء على رواية كثير من المؤرخين). يقول ابن الاثير: كان عبدالله بن ابي بكر يتسمّع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا، وكان يرعى غنمه نهاره على مقربة من الغار، وكان إذا غدا من عندهما عفى على أثر الغنم. (1)

يقول الشيخ الطوسي في أماليه: عند ما دخل علي - عليه السلام - وهند على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الغار (بعد ليلة الهجرة) أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليّاً أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنتُ أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :إني لا أخذهما ولا أأدهما إلا بالثمن. ثم أمر - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً - عليه السلام - فدفع إليه ثمن البعيرين.(2)

وكان من جملة وصايا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - عليه السلام - في الغار في تلك الليلة ان يؤدي أمانته على أعين الناس ظاهراً وذلك بأن يقيم صارخاً بالابطح غدوة وعشياً: ألا من كان له قبل محمّد أمانة أو دبيعة فليأت فلنؤد إليه أمانته.(3) ثم أوصاه - صلى الله عليه وآله وسلم - بالفواطم (والفواطم هن: فاطمة الزهراء بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الحبيبة لديه، والأثيرة عنده، وفاطمة بنت أسد أمّ عليّ - عليه السلام - وفاطمة بنت الزبير ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم)، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه إلى يثرب وتهيئة ما يحتاجون إليه من زاد وراحلة.

وهنا قال - صلى الله عليه وآله وسلم - عبارته التي تدرّج بها ابن تيمية في دليله

-
- 1 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٧٣ مع تصرف.
 - 2 أمالي الشيخ: ج ٢، ص ٨٢.
 - 3 الكامل: ج ٢، ص ٧٣؛ السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٥٣.

(603)

الأول: «انهم لن يصلوا من الآن اليك يا عليّ بامر تكرهه حتّى تقدم عليّ.»

فالملاحظ للقارىء هو أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إنما قال هذه العبارة عندما أمره بآداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضية ليلة المبيت.

أي انه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العبارة وهو يتهيأ للخروج من غار ثور.

يقول الحلبي في سيرته: «وصى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في احدى الليالي وهو بالغار علياً رضي الله عنه بحفظ ذمته واداء امانته ظاهراً على اعين الناس.(1)»

وتم ينقل عن مؤلف كتاب «الدر» ما يقتضي انه اجتمع به عند خروجه من الغار.

وخلاصة القول: انه مع رواية شيخ جليل من مشائخ الشيعة الامامية كالشيخ الطوسي بالاسناد الصحيحة أن الأمر بردّ الودائع والامانات صدر من جانب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عليّ - عليه السلام - بعد ليلة المبيت لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعتمد إلى الهاء العامة بالتوافه، وأما رواية مؤرخي اهل السنة هذا المطلب بشكل آخر يوحي ظاهره بأن جميع

وصايا النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلّ تمت في ليلة واحدة هي ليلة الهجرة (ليلة المبيت) فقابلُ للتفسير والتوجيه، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على رواية أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها أهمية عندهم

الخروج من الغار:

هياً علي - عليه السلام - بأمر النبيّ ثلاث رواحل ودليلاً امينا يدعى أريقط ليترحلها إلى المدينة، ويدلّمهم الدليل على طريقها وأرسل كل ذلك إلى الغار.

- [السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٣٥.

(604)

ولما سمع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - رغاء البعير أو نداء الدليل نزل هو و صاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجها من أسفل مكة إلى «يثرب» سالكين إلى ذلك الخط الساحلي، وقد جاء ذكر المنازل التي مرّ بها في السيرة النبوية لابن هشام⁽¹⁾ وفي الهوامش المثبتة على التاريخ الكامل لابن الاثير⁽²⁾.

صفحة التاريخ الأولى:

اجل لقد حلّ الظلام في كل مكان، ولملمت الشمس اشعتها الذهبية من هذا الوجه من الكرة الأرضية لتوجّهها إلى الوجه الاخر منها

وعاد جماعة من رجال قريش الذين سلكوا كل طريق في مكة وضواحيها بحثاً عن النبيّ، ثلاثة أيام، بلباليها، إلى بيوتهم ومنازلهم متعبين مرهقين، وقد ينسوا من الظفر بالجائزة (وهي مائة من الإبل) التي وضعتها سادة قريش جائزة لمن يأخذ محمّداً أو يدل على مكانه، وأعيد فتح طريق مكة - المدينة التي أغلقت لهذه الغاية بعد اليأس من الظفر برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .⁽³⁾

وفي هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الذي كان يصطحب معه ثلاث رواحل ومقداراً من الطعام، إلى مسمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ورفيقه وهما في الغار وقد كان يقول بصوت خافت: لا بد ان نتخذ من ظلام هذا الليل ستراً، ونسرع في الخروج من حدود المكين، ونختار طريقاً يقلّ سالكوه ولا يهتدي إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الذي تضمّن تلك الليلة بالضبط، وجعل المسلمون يقيسون كل ما يقع من الحوادث بذلك العام وبذلك يحددون تاريخه وزمان حدوثه.

- 1 السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٤٩١.
- 2 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٧٥.
- 3 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ١٠٤.

(605)

لماذا أصبح العام الهجري مبدأ للتاريخ:

إن الإسلام أكمل الشرائع السماوية فاطبة، وقد جاء إلى البشرية بما تتضمنه شريعة موسى وعيسى - عليهما السلام - ولكن بصورة أكمل وبصيغة تطابق وتنمى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أن السيد المسيح - عليه السلام - وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عند المسلمين إلا أن ميلاده - عليه السلام - لم يُتخذ لديهم مبدأ للتاريخ، والتوقيت.

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل⁽¹⁾ مبدأ لتاريخها، وكانت تقيس حوادثها وأمورها إليه فترة من الزمن، ومع أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد وُلِدَ في ذلك العام نفسه، إلا أن المسلمين لم يتخذوه مع ذلك مبدأ للتاريخ، لأنه لم يكن ينطوي على ما يتصل بقضية الإيمان والإسلام.

ولاجل هذا أيضاً لم يتخذوا عام البعثة مبدأ لتاريخ المسلمين أيضاً لأن عدد المسلمين لم يكن يتجاوز في ذلك اليوم ثلاثة أشخاص، إذن فلم يكن في أي واحد من تلك الحوادث ما يعطي مبرراً قوياً لاتخاذها مبدأ للتوقيت والتاريخ، إذ لا بد أن يكون ما يتخذ لذلك قضية مصيرية بالغة الأهمية.

ولكنه في السنة الأولى من الاعوام الهجرية حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وهاجراً، وقد أسست فيه حكومة مستقلة وتخلّص المسلمون من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة، وبيئة حرة لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، من هنا جعلوا ذلك العام (أي العام الذي تحققت فيه هجرة النبي العظيم) مبدأ لتاريخهم، واخذوا يقيسون إليه - وحتى الآن - كل ما يحدث ويقع من خير وشر، لتحديد تاريخ وقوعه.

من هنا يكون قد مضى على عام هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مكة إلى المدينة الف واربعمائة وتسعة اعوام.

- [وهو العالم الذي سبّر فيه أبرهة جيشاً لهدم الكعبة تتقدمة الفيلة. راجع المحبّر: ص ٨-٥.

(606)

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة:

ولقد جعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - التاريخ الهجري بنفسه.

وإنَّ أئِ إعراض وتجاهل لهذا التاريخ، واختيار تاريخ آخر مكانه إعراضٌ عن سنة رسول الإسلام الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومخالفة لما رسمه للمسلمين في هذا المجال.

إن وجود تاريخ معين ثابت (مؤلف من السنة والشهر واليوم) في الحياة الإجتماعية البشرية، من الأمور الضرورية الحيوية بل هو في غاية الضرورة والحوية، من أجل أن لا تتوقف عجلة الحياة الإجتماعية البشرية عن الدوران والحركة بسبب فقدان مقياس زمني ثابت ومعلوم للامور والحوادث.

وتلك حقيقة لا حاجة إلى اقامة البرهان عليها لأنَّ الاستدلال عليها يكون مثل الاستدلال على الامور البديهية.

فهل يكون تنظيم المعاهدات، والمواثيق السياسية والعسكرية، والاتفاقيات، والعقود الاقتصادية وتحويل وتسديد السندات والحوالات التجارية ودفع الديون وكتابة الرسائل العائلية من دون ذكر تاريخ معين فيها أمراً مفيداً؟ كلا حتماً، ودون ريب.

فعندما سأل بعض الصحابة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن علة اختلاف أشكال القمر، وانه لماذا يكون هلالاً تارة ثم بدرأً أخرى. ثم يعود إلى سيرته الأولى هلالاً، نزل الوحي الالهي، يبيِّنُ بعض حكمة هذه الظاهرة الطبيعية إذ قال تعالى:

(قل هي مواقيت للناس.)⁽¹⁾

أي إن اختلاف اشكال القمر وهيئاته انما هو لاجل ان يعرف الناسُ به الوقت والتاريخ فيعرفوا في أي يوم من الشهر هم، في مبدئه أو منتصفه، أو منتهاه،

- [البقرة: ١٨٩ ومطلعها: «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت. ...»

(607)

ولكي يعرفوا بواسطة ذلك مواعيد واجباتهم الشرعية والاجتماعية، ويعرف الدُّيان موعد تسلُّم دُيونهم، ويعمَدُ المَدِينون إلى دفع ما عليهم في وقته، ويقوم المؤمنون بفرانضهم المقيَّدة بالازمنة والاوقات كالصوم والحج وماشابه ذلك.

من هنا لا مجال للنقاش في احتياج كل أمة إلى تاريخ معين ثابت محدّد تجعله ملاكاً للتوقيت، ومداراً لتحديداتها الزمنية.

إنما الكلام هو في ما ينبغي إتباعه والجري عليه من التواريخ، وتنظيم المستندات والمكاتبات والمواعيد وفقاً له.

وبعبارة أخرى: إن الكلام إنما هو في ما ينبغي جعله مبدأً للتاريخ يقاس به كل العُقود والاتفاقات من حيث الزمان، والتوقيت.

فما الذي يصلح أوبينبغي إتخاذه مبدأً للتاريخ للامة الإسلامية ؟

الجواب:

إن الاجابة على هذا السؤال واضحة جداً، وتلك الاجابة هي:

إذا كانت لأمة من الامم حوادث لامعة وسوابق مشرقة في حياتها، وثقافة خاصة بها، وديناً ومسلماً مستقلاً وشخصيات علمية وسياسية بارزة، واحداث ووقائع عظيمة مثيرة، تبعث على الفخر والاعتزاز، ولم تكن كنبئة وحشية نبئت عفواً واعتباطاً من غير قانون ولا جذور كبعض الجماعات والشعوب الجديدة الظهور التي لا تركز إلى أصول ثابتة معلومة.

فان على مثل هذه الأمة أن تتخذ من أعظم حوادثها الاجتماعية والدينية مبدءاً لتاريخها الذي تقيس، وتنظم عليه بقية حوادثها وأعمالها التي سبقت تلكم الحادثة العظمى، أو التي وقعت وتقع بعدها.

ومن هنا تكون قد اكسبت شخصيتها وكيانها قوة اكبر، وصاننت نفسها من التبعية للشعوب والأمم الاخرى، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن في تاريخ الأمة الإسلامية شخصية أعلى شأناً من شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، كما لم يكن هناك حادثة أعظم، وانفع من حادثة

(608)

الهجرة النبوية المباركة، لأن هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فتحت - في الحقيقة - صفحةً جديدةً في حياة البشرية، فقد خرج رسول الإسلام واتباعه من بيئة مكة الراححة تحت الكبت، إلى بيئة مناسبة حرة مكنتهم من إحداث انطلاقة كبرى لم يشهد التاريخ البشري برمتها مثلاً.

فقد استقبل أهل المدينة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن هاجر معه من المسلمين إلى يثرب استقبالا حاراً، ووضعوا تحت تصرفه كل ما توفر لديهم من الامكانات والقوى، فلم يمض زمن إلا وتمتع الإسلام بفضل هذه الهجرة المباركة بتشكيلات سياسية وعسكرية، واتخذ صورة وشكل حكومة قوية لها وزنها، وشأنها، وجانبها المرهوب في شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما نشر رايته على البسيطة كلها تقريباً، وأسس حضارة عظمى لم تر البشرية لها نظيراً.

فاذا لم تحدث تلك الهجرة المباركة المعطاء لفضي على الإسلام في محيط مكة، وحرم العالم الانساني من هذا الفيض العظيم.

من هنا، ولأجل هذا اتخذ المسلمون هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مبدأً لتاريخهم، ودأبوا على ذلك إلى الآن حيث ينقضي أكثر من ألف وأربعمائة عام، أي أن هذه الامة الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعة عشر قرناً من الأمجاد والمفاخر، وهي الآن على أعتاب القرن الخامس عشر؟

من الذي جعل الهجرة مبدأً للتاريخ؟

على العكس مما هو مشهور بين المؤرخين من أن الخليفة الثاني جعل هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مبدأً للتاريخ باقتراح وتأييد من الامام أمير المؤمنين علي - عليه السلام - وامر بأن تؤرخ الدواوين، والرسائل والعهود وما شابه ذلك بذلك التاريخ، فإن الامعان في مراسلات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومكاتباته التي هي مدرجة في الأغلب في كتب التاريخ والسيرة والحديث والسنة، وكذا غير ذلك من الأدلة التي سوف نذكرها في هذه الصفحات يثبت أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو نفسه أول من اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ،

(609)

وكان يؤرخ رسائله، وكتبه إلى امراء العرب، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة بذلك التاريخ (أي التاريخ الهجري)

وها نحن ندرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبوية المؤرخة بهذا التاريخ، ثم نعتمد بعد ذلك إلى استعراض الدلائل الأخرى على هذا الأمر، ونحن نحتمل ان تكون هناك أدلة أخرى غير ما سنذكره هنا - أيضاً - لم نقف عليها.

نماذج من رسائل النبي المؤرخة:

1- طلب سلمان من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يكتب له ولأخيه (ماه بنداذ) ولأهله وصية مفيدة ينتفع بها، فاستدعى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً وأملى عليه أموراً، وكتبها علي - عليه السلام - ثم جاء في آخر تلك الوصية: «وكتب علي بن أبي طالب بأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في رجب سنة تسع من الهجرة.⁽¹⁾»

2- أدرج المؤرخ الشهير «البلاذري» في كتابه «فتوح البلدان» نصَّ معاهدة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع يهود «المقنا» وذكر أن مصرياً رأى نصَّ هذه المعاهدة في جلد أحمر اللون عتيق وكان قد استنسخها، فقرأها لي.

ثم نقل البلاذري نص تلك المعاهدة وقد جاء في نهايتها:

«وليس عليكم امير الا من انفسكم أو من اهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكتب علي بن أبوطالب في سنة تسع⁽²⁾ «ومع أن «أبا طالب» يجب أن يكتب حسب القواعد الادبية في المقام «أبي طالب» لكونه مضافاً إليه فقد كتب: «علي بن

أبوطالب» ولكن مع ذلك ذكر المحققون ان قبيلة قريش كانت تتلفظ لفظة أب في جميع الموارد (أي في حالة النصب والرفع والجر) بـ «أبو» وتكتبها كذلك أيضاً، وقد صرح الاصمعيّ بهذا من بين الادياء.

ويقول البروفيسور «محمد حميد الله» مؤلف كتاب «الوثائق السياسية»: اني

- [1] اخبار اصفهان: تأليف ابي نعيم، ج ١، ص ٥٢ و ٥٣.
- 2] فتوح البلدان: ص ٧٢.

(610)

لما كنت في المدينة المنورة في شهر محرم سنة ١٣٥٨ وجدت في الكتابة القديمة التي في جنوبي جبل سلع في المدينة المنورة «أنا علي بن أبوطالب.(1)»

3- جاء في معاهدة الصلح التي نظمها «خالد بن الوليد» لاهل دمشق، ونص فيها على احترام دمائهم، واموالهم وكنائسهم: «وكتب سنة ثلاث عشرة.(2)»

وكلنا نعلم أن دمشق فتحت في أواخر حياة الخليفة الأول.

فما يدعيه البعض من ان التاريخ الهجري قد اتخذ في عهد الخليفة الثاني بارشاد وتأييد من الامام علي - عليه السلام - غير صحيح فان تاريخ ذلك يرتبط بالسنة السادسة عشرة أو السابعة عشرة من الهجرة، والحال ان هذه المعاهدة قد نظمت ودونت وأرخت بالتاريخ الهجري قبل ذلك بأربع سنوات.

4- ان كتاب الصلح الذي كتبه الامام علي - عليه السلام - بأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لنصارى نجران مؤرخ بالسنة الهجرية الخامسة.

فقد جاء في هذه الرسالة:

«وأمر علياً ان يكتب فيه انه كتب لخمس من الهجرة.(3)»

ان هذه الجملة تفيد بوضوح ان النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - هو واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الأول وهو الذي أمر علياً - عليه السلام - بان يؤرخ ذلك الكتاب بالتاريخ الهجري في ذيله.

5- جاء في مقدمة الصحيفة السجادية: قال جبرئيل وهو يفسر رؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشر، ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمس، ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها. (4)»

- 1 مكاتيب الرسول: ص ٢٨٩، نقلا عن شرح ملا علي القاري لشفاء القاضي عياض، وكذا الوثائق السياسية.
- 2 الاموال: طبعة مصر، ص ٢٩٧.
- 3 التراثيب الادارية: ج ١، ص ١٨١ نقلا عن السيوطي.
- 4 مقدمة الصحيفة السجادية، سفينة البحار: ج ٢، ص ٦٤١.

(611)

6- يروي المحدثون الاسلاميون أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لام سلمة:

«يُقْتَلُ الحسين بن علي على رأس ستين من مهاجري. (1)»

7- قال أنس بن مالك: «حدثنا أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: لاثنتي مائة سنة من الهجرة و منكم عين تطرف. (2)»

8- أرخ أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ايام حياته الحوادث الإسلامية بهجرته فقالوا: وقع كذا في الشهر كذا من الهجرة، مثلا كانوا يقولون: حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في شهر شعبان ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً. (3)

على رأس ثمانية عشر شهراً فرضَ صوم شهر رمضان. (4)

وقال عبدالله بن انيس أمير الوفد الذي بعثه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

خرجت من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس أربعة وخمسين شهراً. (5)

وقال محمد بن سلمة عن غزوة القرطاء: خرجت في عشر ليال خلون من المحرم فغبت تسع عشرة وقدمت لليلة بقيت من المحرم

على رأس خمسة وخمسين شهراً. (6)

إنَّ هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن ان المسلمين كانوا إلى السنة الخامسة من الهجرة يقيسون الحوادث بهجرة

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويؤرخون بها عن طريق عدِّ الأشهر، حتَّى إذا كانت السنة الخامسة من الهجرة

- 1 مجمع الزوائد: ج ٩، ص ١٩٠.
- 2 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٦٧.
- 3 نفس المصدر: ج ١، ص ٣٦٨.
- 4 المغازي: ج ٢، ص ٥٣١ تحقيق الدكتور مارسدن جونس.
- 5 المغازي: ج ٢، ص ٥٣١.
- 6 المغازي: ج ٢، ص ٥٣٤.

أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - باحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجري (كما مرّ في الرسالة رقم ٤) حيث أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يُورَخ الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران بالعام الهجري.

9-نقل المحدثون الاسلاميون عن الزهري قوله: ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قدم المدينة مهاجراً أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأول (اي شهر قدمه المدينة). (1)

10-روى «الحاكم» عن «ابن عباس» ان التاريخ الهجري بدأ من السنة التي قدم فيها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - المدينة. (2) إن هذه النصوص تحكي عن أنّ قائد الإسلام الأكبر قد أوضح مسألة التاريخ من اليوم الاول. وانه جعل هجرته مبدأ لذلك التاريخ. غاية ما هنالك أن هذا التاريخ كان إلى فترة من الزمن يعدُّ بالأشهر ثم حل العدُّ بالأعوام منذ حلول السنة الخامسة من الهجرة محل العدِّ بالأشهر.

سؤال:

ويمكن ان يسأل سائل: إذا كان حقاً أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو مؤسس التاريخ الهجري ووضعه الأول فماذا نفع بالخبر الذي رواه كثيرٌ من المحدثين والمؤرخين.

فانهم يقولون: رفع رجل إلى عمر صكاً مكتوباً على آخر بدين يحلّ عليه في شعبان فقال عمر: اي شعبان؟ أمن هذه السنة أم التي قبلها أم التي بعدها؟

ثم جمع الناس (أي أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون به حلول ديونهم... فيقال: أن بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده ففكر هو ذلك.

- [فتح الباري: ج ٧، ص ٢٠٨، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٢٨٨ طبعة دار المعارف.
- 2مستدرك الحاكم: ج ٣، ص ١٣ و ١٤ وقد صححه على شرط مسلم.

ومنهم من قال: ارخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر ففكر هو ذلك لطوله أيضاً.

وقال آخرون: أرخوا من مولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وقال آخرون: أرخوا من مبعثه. وأشار علي بن أبي طالب - عليه السلام - أن يؤرخ من هجرته إلى المدينة لظهوره على كل أحد، فانه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن عمر ذلك والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

الجواب:

إنّ هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه في مقابل النصوص الكثيرة التي وصفت الرسول العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - بكونه واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الأول.

هذا مضافاً إلى أنه من الممكن أن يكون التاريخ الهجري الذي وضعه النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تعرّض للترك، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلة الحاجة إلى التاريخ ولكن جُدد في زمن الخليفة الثاني، بسبب اتساع نطاق العلاقات وأعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجة إليه في هذا العهد.

التذكير بنقطتين:

1- لا نجد في الاقتراحات التي عرضت على الخليفة في مجال التاريخ أي ذكر للتاريخ المسيحي الذي يجعل ميلاد السيد المسيح - عليه السلام - مبدءاً للتاريخ.

والعلة هي: أن التاريخ الميلادي ظهر في القرن الرابع الاسلامي بين

- [البداية والنهاية: ج ٧، ص ٧٣ و ٧٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٢، ص ٧٤. الكامل لابن الاثير: ج ١، ص ١٠.

(614)

المسيحيين بعد سلسلة من المحاسبات التخمينية، فهو لم يكن رائجاً قبل ذلك.

2- ان البلاد والاقطار الإسلامية بحاجة اليوم إلى الوحدة والاتفاق أكثر من اي زمن مضى.

ومن مظاهر تلك الوحدة هو السعي للحفاظ على التاريخ الاسلامي الهجري.

ومن هنا يتوجب على الاقطار الإسلامية ان تقيم كل روابطها، وعلاقتها على أساس التاريخ الهجري، شمسياً كان أو قمرياً.

وان هذا الأمر بحاجة إلى مؤتمر إسلامي كبير يشترك فيه كبار الشخصيات الفكرية الإسلامية من أجل توحيد التاريخ، ودراسة السبل الكفيلة بالوصول إلى هذا الأمر، والتخلص من التبعية الغربية في التاريخ.

ان من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الإسلامية والعربية التاريخ الهجري وتعتمد التاريخ الميلادي المسيحي، حتى أن شيخ الجامع الأزهر الذي يشكل قمة القيادة الدينية في المجتمع السني يؤرخ رسائله بالتاريخ الميلادي، ولا يذكر إلى جانبه التاريخ الهجري على الأقل⁽¹⁾!!

مؤامرة الطاغوت:

وكانت ايران من الاقطار الإسلامية التي حافظت بشدة على التاريخ الهجري، واعتمدته في اعمالها، ولكن في المؤامرة التي نفذت بواسطة الطاغية المقبور في عام ١٣٩٩ هـ، استبدلت التاريخ الهجري بالتاريخ الشاهنشاهي وأعلن في وسائل الاعلام عن وجوب اعتماد هذا التاريخ المختلق بدل التاريخ الهجري الاصيل!!

ولقد تصوّر الطاغوت الأرعن أنه يستطيع بحذف التاريخ الهجري، و استبداله

- [وقد رأيت أنا شخصياً رسالةً من شيخ الجامع الأزهر السابق هو الشيخ محمود عبدالحليم وعليها التاريخ الميلادي فحسب!!]

(615)

بالتاريخ الشاهنشاهي المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزة، وسلطانه المنخور، ونظامه الظالم المتهريء، مدة أطول، ولكن العناية الالهية، وهمة الشعب الإيراني المسلم العالية، وقيادة الاستاذ الاكبر آية الله العظمى الإمام الخميني قدس سره الشريف أفضلت هذه المحاولة النكراء، وآل الأمر إلى اسقاط النظام الشاهنشاهي بثورة الشعب المجيدة واقامة حكومة الجمهورية الإسلامية على انقاض الحكم الملكي المباد، واحلال التاريخ الهجري الاسلامي المبارك محلّ التاريخ الشاهنشاهي المختلق. والحمدلله. (1)

برنامج الرحلة في حادث الهجرة:

لقد كان على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يقطع - للوصول إلى المدينة - ما يقرب من اربعمائة كيلومتراً، ولا شك أن طي هذه المسافة الطويلة تحت تلك الحرارة العالية الدرجة بحاجة إلى خطة صحيحة، لضمان السلامة، خاصة وانهم كانوا يخافون من أن يقوم الأعراب الذين كانوا ربما يصادفونهم في اثناء الطريق باخبار قريش بهم، ولهذا كانوا يسبرون ليلاً ويستريحون نهاراً

ويبدو أن شخصاً شاهد النبيّ ومن معه في أثناء الطريق فرجع إلى مكة وأخبر قريشاً بذلك فخرج «سراقة بن مالك بن جعشم» يطلبهم طمعاً في جائزة قريش الكبرى فلحق برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد صرفت قريشاً عن ملاحقة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل ذلك ليتفرد بها⁽²⁾.

يقول ابن الاثير: تبعهم سراقة فلحقهم فقال أبو بكر: يا رسول الله ادركنا الطلب، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لاتحزن إن الله معنا.»

ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «اللهم اكفني شرَّ سُراقة بما سُئت» فجمع به فرسه وطرحه أرضاً.

- [يستخدم في ايران تاريخ هجري آخر هو التاريخ الهجري الشمسي وهو ينفع لمعرفة الفصول وما شاكل ذلك.
- 2التاريخ الكامل: ج ٢، ص ١٠٥.

(616)

فعلم سراقة أن هذا من دعاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولهذا قال بنبرة المعتذر الملتمس: يا محمد هذه إبلي بين يديك فيها غلامي.

وان احتجت إلى ظهر (اي مركوب) أو لين فخذ منه فقد حكمتك في مالي.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لا حاجة لي في مالك⁽¹⁾.

وروى المجلسي ان سراقة قال: فسألني حاجة.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : رُدَّ عَنَّا مَنْ يَطْلُبُنَا مِنْ قَرِيْشٍ.

فانصرف سراقة فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم: انصرفوا عن هذا الطريق فلم يمرّ فيه أحد، وأنا اكفيكم هذا الطريق فعليكم بطريق اليمن والطائف.

وهكذا ما كان يمرّ باحد إلا وصرفه عن البحث عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذا الطريق بمثل هذا الكلام.

ثم إن كُتّاب السيرة من الشيعة والسنة يذكرون لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كرامات كثيرة في طريق مكة - المدينة ونحن ندرج واحدة منها:

مرّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أثناء الطريق على خيمة أم معبد وكانت امرأة شجاعة فاضلة فنزلوا بخيمتها وطلبوا منها تمراً ولحماً أو لبناً يشترونه.

فقالت: ما يحضرني شيء وكانت أغنامها قد أصيبت بالهزال بسبب الجذب، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى شاة في جانب من الخيمة فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لها: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد من الغنم فقال: هل بها من لبن؟

قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين ان أحلبها؟.

- إيذكر كثير من المؤرخين كابن الاثير في الكامل: ج ٢: ص ١٠٥. والمجسلي في البحار: ج ١٩، ص ٧٥ - ٨٨ القصة كما نقلناها هنا، ولكن مؤلف حياة محمد يقول: ان سراقاة تطير لما كبا به فرسه وألقي في روعه أن الالهة مانعة منه ضالته.

(617)

قالت: نعم ان رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عزوجل، ودعا لها في شاتها قائلاً اللهم بارك لها في شاتها فدرت لبناً كثيراً بفضل دعائه - صلى الله عليه وآله وسلم - فطلب إناء وحلبها، فسقاها أولاً حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رؤوا وشرب هو آخرهم، وقال:

«ساقى القوم آخرهم شرباً.»

ثم حلب الشاة مرة ثانية فغادره عندها، وثم ارتحلوا عنها إلى المدينة.⁽¹⁾

وقد ذكرت هذه الكرامة في كثير من كتب السيرة والتاريخ، وهو أمر ممكن في رؤية المؤمن بالله، لأن الدعاء أحد الأسباب التي

تستطيع أن تؤثر في الطبيعة، وشأنها شأن غيرها من الكرامات التي ورد ذكرها في الكتب الدينية وصدقته التجربة.⁽²⁾

النزول في قرية قباء:

تقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة وكانت مساكن «بني عمرو بن عرف» ومركزهم.

ولقد وصل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن معه إلى قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، و نزل على «كلثوم بن الهرم» وهو شيخ من بني عمرو وكان ثمة جمع كبير من المهاجرين والانصار ينتظرون قدمه، ويستخبرون وروده.

ولقد لبث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في قباء إلى آخر أيام الاسبوع، وقد خط في هذا الفترة مسجداً لقبيلة «بني عمرو بن عوف»، ونصب قبلته. (3)

- 1بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٧٥.
- 2بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤٣ و ج ١٩، ص ٩٩ - ١٠٣، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٣٠ و ٢٣١، تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٣٣، أسد الغابة: ج ١، ص ٣٧٧.
- 3تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٣٨.

(618)

وكان البعض ممن رافق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يصرّ عليه أن يسارع في الدخول إلى المدينة، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان ينتظر ابن عمه علياً.

ويقول: فما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أُمِّي وأخي، وابنتي (يعني عليّاً وفاطمة - عليهما السلام - . (4))

وأقام عليّ - عليه السلام - بمكة ثلاث ليالٍ بياهما، حتى أدّى عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الودائع التي كانت عنده للناس فقد وقف - عليه السلام - على مكان مرتفع في مكة ونادى قائلاً:

«مَنْ كَانَ لَهُ قَبِيلٌ مُحَمَّدٌ أَمَانَةٌ أَوْ وَدِيعَةٌ فليأتِ فلنؤدَّ إليه أمانتهُ.»

فكان يأتيه من له أمانةٌ أو ودِيعَةٌ عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويذكر علامتها ويأخذها فلما فرغ - عليه السلام - من أداء الامانات والودائع خرج بفاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وامه فاطمة بنت اسد، وفاطمة بنت الزبير وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعة، وتوجه بهم نحو المدينة ليلاً سالكا بها طريقاً في «ذي طوى.»

كتب الشيخ الطوسي في اماليه في هذا الصدد يقول: إن جواسيس قريش غرقت بسفر علي مع تلك الجماعة، فخرجوا لملاحقتهم، لغرض اعادتهم إلى مكة، فادركوهم في منطقة «ضجنان.»

ووقع بين رجال قريش وبين علي - عليه السلام - تلاح وتناوش، وأخذُ وردُّ، ودنا الرجال من النسوة، والمطايا ليثوروا فحال عليّ - عليه السلام - بينهم، وبينها، ولم يجد - عليه السلام - طريقاً إلا أن يدافع عن حرم الإسلام والمسلمين، فشدّ عليهم بسيفه شدة الأسد الغضب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً:

خُلُوا سبيل الجاهد المجاهد * آليث لا أعبُدُ غيرَ الواحدِ

(619)

فلما وجدوا ما به من الجذِّ والغضب خافوه وتفَرَّقوا عنه وقالوا: بنبرة الخائف المتضرع - : إحبس عنَّا نفسك يا ابن أبي طالب، فقال - عليه السلام - :

«فإني مُنطَلِقٌ إلى ابن عمِّي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بيثرب فمن سرَّه ان أفري لحمه وأهريق دمه فليتبعني، وليدُنْ مني.»

فتركه القومُ وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركبُ رحلته باتجاه المدينة.

يقول ابن الاثير: قدم «علي» المدينة وقد تَفَطَّرت قدماه، فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ادعوا لي عليًّا، قيل: لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واعتنقه وبكى رحمةً لما بقدميه من الورم.⁽¹⁾

ولقد قدم رسول الله قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والتحق به عليٌّ - عليه السلام - في منتصف ذلك الشهر نفسه⁽²⁾، ويؤيد هذا القول ما ذكره الطبري في تاريخه إذ كتب يقول: واقام علي بن ابي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها حتَّى أدى عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الودائع التي كانت عنده إلى الناس.⁽³⁾

المدينة تهبُّ لقدم النبي:

ولقد كان يوم دخول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوماً عظيماً جداً، ومشهوداً.

فكم ترى ستكون عظيمةً فرحةً الذين آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ ثلاث سنوات، وظلوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلمهم ووكلائهم إليه، ويذكرون اسمه المقدس، ويصلُّون عليه في صلواتهم كل يوم، إذا سمعوا أن

- [الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٠٦.
- 2]إمتاع الأسماع: ص ٤٨ وعلى هذا تكون محاصرة بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تَمَّت ثلاث ليال قبل شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة، وقد خرج النبي من داره ليلة الاثنين ودخل غار ثور وبقي مآكثاً فيه ثلاثة أيام، وخرج منه ليلة الخميس اول ربيع الاول وتوجه نحو المدينة ووصل قباء في الثاني عشر منه راجع تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.
- 3]تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٣٨٢.

(620)

قائدهم ذلك الذي طال انتظارهم اياه، واشتد تشوقهم إليه كائن عند ميلين من مدينتهم قد نزل في قبا اياماً، وسيقدم اليهم ويدخل مدينتهم بعد ايام؟ وكم سيكون مبلغ ابتهاجهم، وأي ابتهاج ترى سيعم كل صغير وكبير؟

إنه حقاً لأمر يعجزُ القلم عن بيانه، ويكل اللسان عن وصفه.

ولقد كان لفتية الأنصار وشبابهم الضامنين إلى الإسلام الحنيف برنامجٌ رائعٌ وعظيمٌ، فقد كانوا عمدوا بغية تطهير جوّ المدينة من ادران الوثنية إلى كل صنم في المدينة كان يقَدّس ويعبد فاحرقوه وكسّروه، وقد كان كل شريف في بيته صنمٌ يمسه ويطيّبه، ولكل بطن من الأوس والخزرج صنمٌ في بيت لجماعة يكرّمونه ويطيّبونه، ويجعلون عليه منديلاً ويذبحون له. (1)

ولا بأس في أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الذي قام به الانصار في التخلص من الوثنية:

لما قدم من بايع من الأنصار في العقبة الثانية إلى المدينة اظهروا الإسلام بها وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دين الشرك وعبادة الأوثان منهم «عمرو بن الجموح» وكان من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرفهم وكان ابنه «معاذ» بن عمرو قد شهد بيعة العقبة

وكان عمرو هذا قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة، كما كانت الاشراف يصنعون، تتخذة إلهاً تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح كانوا يتسلّلون في الليل إلى صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه في بعض حُفر بني سلمة ومزابلها، وفيها فضلات الناس وعذرها منكساً على رأسه!!

فاذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على ألّهتنا هذه الليلة؟

ثم يغدو يلتمسه حتّى إذا وجده غسله وطهره وطيّبه. ثم قال للصنم: أما واللّه لو أعلم من فعّل هذا بك لأخزيتّه!

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٠٧.]

(621)

فاذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانيةً ففعلوا به مثل ما فعلوا به أولاً.

فيغدو فيجدّه في مثل ما كان فيه من الأذى والوسخ فيغسله ويطهره ويطيّبه، و ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما اكثروا عليه استخرجه من حيث ألّفوه يوماً فغسله وطهره وطيّبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إنّي واللّه ما أعلم من يصنّع بك ماترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، ودافع عن نفسك فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو غدوا على ذلك الصنم فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً مَيِّتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس وفضلاتهم. ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به.

فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب، ميّت، فلما رآه وابصر شأنه وكلمه من اسلم من رجال قومه فاسلم، وهجر الوثنية والأوثان وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من شأنه ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

والله لو كنت إلهاً لم تكن * أنت وكنبٌ وسطٌ بئر في قرن

أف لملاقك إلهاً مستدن * الآن فتشناك عن سوء الغين

فالحمد لله العلي ذي المنن * الواهب الرزاق ديان الدين

هو الذي أنقذني من قبل أن * أكون في ظلمة قبر مرتهن

بأحمد المهدي النبي المرتهن⁽¹⁾

النبي يدخل المدينة:

بعد أن التحق علي - عليه السلام - ومن معه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في قباء توجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة ولما انحدر من ثنية الوداع (و

- [اسد الغاية: ج ٤، ص ٩٩.

(622)

هي منطقة قريبة من المدينة) وحط قدمه على تراب يثرب استقباله الناس رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، استقبالا عظيماً ورحبوا به اعظم ترحيب، وردد المرحبون انا شديد الترحيب التالية:

طلّع البدر علينا * من ثنيات الوداع

وجب الشكر علينا * ما دعا لله داع

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا * جِئْتُ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصرت عليه بأن ينزل في قباء وقالوا: أقم عندنا يا رسول الله فإننا أهل الجدّ والجأد، والحلقة (أي السلاح) والمنعة، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقبل.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمرّ بحيّ من أحياء الانصار إلا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته وأصروا عليه بأن ينزل عليهم هذا ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: خَلُّوا سَبِيلَهَا فَانْهَاهَا مَأْمُورَةٌ.

واخيراً لما انتهت ناقته - وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - قد أرخى زمامها - إلى باب المسجد الذي هو اليوم، ولم يكن مسجداً إنما كان أرضاً واسعة ليتيمين من الخزرج يقال لهما: سهل وسهيل وكانا في حجر أسعد بن زرارة فبركت الناقة على باب «أبي أيوب» خالد بن زيد⁽¹⁾ الانصاري الذي كان على مقربة من تلك الأرض.

فاغتمت أم أبي أيوب الفرصة فبادرت إلى رحل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فحطته وأدخلته منزلها، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم.

فلما اكلوا عليه، وتنازعوا في أخذه قال - صلى الله عليه وآله وسلم - أين الرجل؟؟

فقالوا: يخوف أم أيوب قد ادخلته في بيتها.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - «: المرء مع رجليه» وأخذ أسعد بن زرارة بزمام

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٠٨ ولكن ذهب البعض كصاحب الكامل في التاريخ إلى أنهما كانا في حجر معاذ بن عفراء.

الناقة فحوّلها إلى منزله. (1)

أصل النفاق ومنشؤه:

كانت الأوس والخزرج قد اتفقتا على أن تملك عبد الله بن أبي بن سلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم، وذلك قبل أن يتابع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في العقبة وتؤمن به وتعتنق الإسلام ولكن هذا القرار ألغي بعد اتصال الأوس والخزرج برسول

اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - من هنا حنق عبدالله بن أبي على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واضمر له العداوة منذ ذلك الحين، ولم يؤمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى آخر حياته، بل كان ينافق باسلامه.

ولما دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المدينة وشاهد عبدالله بن أبي ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي قام بهما الأوس والخزرج، شق عليه ذلك جداً، ولم يستطع اخفاء حنقه وغضبه، وحده وعداوته للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - !

فعندما انتهى - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عبدالله بن أبي - وقد أرخى - صلى الله عليه وآله وسلم - زمام ناقته لتبرك حيث تريد، أخذ عبدالله كَمَه ووضع على أنفه، وقد ثارت الغيرة بسبب الزحام وقال للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بنيرة الحائق الغاضب: يا هذا إذهب إلى الذين غرّوك وخدعوك وأتوا بك، فانزل عليهم، ولا تُعْشْنَا في ديارنا!!

فقام سعد بن عباد - وقد خشي أن يسوء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا الموقف الوقح الشرير فقال: يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء، فإننا كنا اجتمعنا على ان نمليكه علينا، وهو يرى الآن أنك قد سلّبتة أمراً قد كان أشرف عليه. (2)

- [1] تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٤١.
- [2] بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٠٨.

(624)

هذا ويتفق عامة المؤرخين وكتّاب السيرة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دخل يثرب يوم الجمعة، وصلى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم، وكانت هذه أول جمعة جمّعها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الإسلام فخطب في هذه الجمعة وهي أول خطبة خطبها في المدينة، وقد تركت هذه الخطبة البديعة البليغة التي لم يسمع أهل المدينة مثيلاً لفظاً ومعنى من قبل، أترأ عميقاً وطيباً في قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نصّ الخطبة في سيرته (1) كما أدرجها المجلسي في بحاره (2) أيضاً.

غير أن عبارات ومضامين الخطبة التي نقلها ابن هشام واثبتها في سيرته تختلف عما رواها واثبتتها المجلسي، وللإطلاع على ذلك يراجع المصدران المذكوران.

- [1] السيرة النبوية: ج ١، ص ٥٠٠ و ٥٠١.
- [2] بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٢٦.

الفهارس

- 1- فهرس الآيات القرآنية
- 2- فهرس الأحاديث الشريفة
- 3- فهرس الأشعار
- 4- فهرس الأعلام
- 5- فهرس القبائل والأمم
- 6- فهرس الكنى والألقاب
- 7- فهرس الوقائع والأيام
- 8- فهرس الأماكن والبلدان
- 9- فهرس المذاهب والأديان ونظم الحكم
- 10- فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة
- 11- فهرس المواضيع

(1)

فهرس الآيات القرآنية

وَأَتَيْنَا عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ الْبَيْتَانَ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي

إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ

الَّذِينَ آمَنُوا هُمْ يُعْرَفُونَ

إِن الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ

شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ

قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَاْمَسْكُوهُنَّ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ

قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ

من الربا

رقمها

78

89

126

129

133

134

143

146

174

185

189

204

213

219

231

233

275

275

278 و ٢٧٩

الصفحة

241

281 و ٣٥٠

142 و ١٤٥

350

131

240

308

349

349

344

606

595

316

45

63

62

49

50

49

(629)

آل عمران - ٣

وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب

يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك

وانبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم

فمن حاجك من بعد ما جاءك من البينات

ولكن كان حنيفاً مسلماً

واذ أخذ الله ميثاق النبيين

وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله

واعتصموا بحبل الله جميعاً

وكنتم على شفا حفرة من النار

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم

وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب

37

42

49

61

67

81

145

153

153

164

187

223

241

479

479

240

348

355

42

66

350

349

النساء - ٤

يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم

ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم

كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها

ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً

انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته

19

22

56

82

171

63

69

441

449

241

المائدة - ٥

حرمت عليكم الميتة

وقالوا إذا ضللنا في الأرض

ما المسيح بن مريم إلا رسول

انما الخمر والميسر والانصاب

ما جعل الله من بحيرة ولا...

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله

3

45

75

90

103

104

47

475

101

302

44

475

(630)

الأنعام - ٦

ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس

وقالوا لولا انزل عليك ملك

وأوحى إلى هذا القرآن

إن اتبع الأ ما يوحى إلى

لئن لم يهدني ربي

اني وجهت وجهي للذي فطرنى

ووهبنا له اسحاق و يعقوب...

وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم

7

8

19

50

77

79

84

100

436

475

351

328

121

125

239

43

الأعراف - ٧

وقال الملأ من قوم فرعون انذر موسى و قومه

ويضع عنهم إصرهم والاغلال

الذين يتبعون النبي الأمي

فالذين امنوا به وعزروه

128

157

157

157

121

45 و 67 و 83

224

258

الأنفال - ٨

وإذ يمكر بك الذين كفروا

30

586

التوبة - ٩

ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً

انما النسبيء زيادة في الكفر

لا تحزن ان الله معنا

ان ابراهيم لأواه حلیم

والسابقون الاولون من المهاجرين

وما كان المؤمنون لينفروا كافة

وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

36

37

40

84

100

122

١١٤-113

245

٢٥٦-49

601

240

419

355

132

يونس - ١٠

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات...

قل لو شاء الله ما تلوته

15

16

310 و٤٧٦

242 و٢٩٧

هود - ١١

ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور

تلك من انباء الغيب نوحيها اليك

(631)

13

49

472

356

(632)

الرعد - ١٣

ولقد ارسلنا رسلا من قبلك

38-٤٠

438

إبراهيم - ١٤

رب اجعل هذا بلداً آمناً

ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد

35

37

145

142

الحجر - ١٥

وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون

انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

ان عبادي ليس لك عليهم سلطان

فاصدع بما تؤمر

انا كفيناك المستهزئين

6

9

42

94

95

472 و٣٣٢

491

496

392

413

النحل - ١٦

وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً

انه ليس له سلطان على الذين آمنوا

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر

انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون...

ان ابراهيم كان أمة فانتا لله

واصبر وما صبرك إلا بالله

58 و٥٩

99

103

105 و١٠٦

120

127

6

496

235 و٤٧١

417

240

477

الإسراء - ١٧

سبحان الذي اسرى بعبده ليلا

قل لئن اجتمعت الانس والجن

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض

وقرآنا فرقناه لتقرأ على الناس على مكث

1

88

90 و٩٣

106

478 و٣٨ و٤٨٥

181

433 و٣٥ و٤٣٦ و٤٧٧

الكهف - ١٨

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

28

477

مريم - ١٩

يا يحيى خذ الكتاب بقوة

12

295

(633)

ولم يجعلني جباراً شقياً...

واذكر في الكتاب مريم إذ...

إذ قال لآبئيه يا ابنت لم تعبد ما لا يسمع

١٥ و 14

٣٣-16

٤٧-42

242

٢٩٥ و ٢٢٢ و 201

طه - ٢٠

طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى...

إذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على...

ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه...

ولا تعجل بالقرآن قبل ان يقضى اليك...

1-8

37-40

50

114

426

200

314

346

الأنبياء - ٢١

بل قالوا أضغاث أحلام

ولقد آتينا إبراهيم رشده...

وتالله لاكين اصنامكم

فرجعوا إلى انفسهم فقالوا

ولسليمان الريح عاصفة

5

٧٠-51

57

64

81

331

37

138

139

238

الفرقان - ٢٥

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده...

وقال الذين كفروا ان هذا إلا افك...

وقالوا اساطير الاولين اكتبها...

وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام

لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة

كذلك لنتبث به فوادك

ورتلناه ترتيلا

1

٦-4

٦-5

7

32

32

32

351

٤٧٢-٣٠٤-303

474

475

443

٤٤٥ و442

441

الشعراء - ٢٦

قالوا انما انت من المسحرين

نزل به الروح الامين على قلبك

وانذر عشيرتك الاقربين

وتقلبك في الساجدين

153

193-195

214

219

472

336

128 و 392

195

(634)

النمل - ٢٧

ولقد آتينا داوود و سليمان علماً

15

238

القصص - ٢٨

وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم من إله غيري

وما كنت بجانب طور

ولكن رحمة من ربك

وما كنت ترجوان يلقى اليك الكتاب

فلا تكونن ظهيراً للكافرين

38

46

46

86

86

121

308

42

297 و 308

301

الأحزاب - 33

ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم

40

351

سبأ - ٣٤

وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل

لقد كان لسبأ في مسكنهم آية

وما أرسلناك إلا كافة للناس

٧ و٨

15

28

44

33

351

فاطر - ٣٥

والذين كفروا لهم نار جهنم

36

533

يس - ٣٦

فجعلنا من بين ايديهم... فهم لا يبصرون

9

588

ص - ٣٨

وعجبوا أن جاءهم منذر...

واذكر عبادنا إبراهيم...

وانهم عندنا لمن المصطفين الاخير

٦٥

٤٦-45

48

475

239

240

فصلت - ٤١

حم تنزيل من الرحمن الرحيم...

ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

1 - 5

30

431

453

الفتح - ٤٨

ولله جنود السماوات والأرض

4

177

(635)

الطور - ٥٢

فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون

29

472

النجم - ٥٣

والنجم إذا هوى...

وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي

ان هو الا وحي يوحى

أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى

افتمارونه على ما يرى

٥-1

٤3

4

٢٠ و19

12:18

332

49

328

43 و ٤٩٣

539

الصف - ٦١

وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل

وعجبوا أن جاءهم منذر

6

48

379

475

القلم - ٦٨

وانك لعلى خلق عظيم

واصبر وما صبرك إلا بالله و لا تحزن

4

48

259

477

الحاقّة - ٦٩

ولا بقول كاهن...

42

472

المزمل - ٧٣

فاصبر لحكم ربك

10

477

المدثر - ٧٤

يا ايها المدثر قم فانذر

وثيابك فطهر، والرجز فاهجر

والرجز فاهجر

ذرني ومن خلقت وحيداً...

ذرني ومن خلقت وحيداً...

٣و1

٥-4

5

٣٠-11

٥١-11

379

297

301

430

469

(636)

النازعات - ٧٩

فالمديرات أمراً

انار بكم الاعلى

5

24

177

121

عيس - ٨٠

عبس و تولى ان جاءه الأعمى...

١١-1

481

التكوير - ٨١

وإذا المؤودة سنلت

انه نقول رسول كريم...

8

٢٨-20

58

332

البروج - ٨٥

قتل أصحاب الأخدود

٩-4

161

الضحى - ٩٣

والضحى والليل إذا سجي...

الم بجدك بتيمماً فأوى...

ووجدك ضالاً فهدى...

١١-1

٧-6

8

380

297

298

الانشراح - ٩٤

الم نشرح لك صدرك

ورفعنا لك ذكرك

٤-1

4

300

209

العلق - ٩٦

اقرأ باسم ربك الذي خلق...

٥-1

322

القدر - ٩٧

انا انزلناه في ليلة القدر

٣-1

344

الفيل - ١٠٥

الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل...

٥-1

165

الكوثر - ١٠٨

انا اعطيناك الكوثر

٤-1

509

(637)

الكافرون - ١٠٩

قل يا ايها الكافرون

1

476

المسد - ١١١

تبت يدا ابي لهب وتب...

(2)

فهرس الأحاديث الشريفة

نصّ الحديث

أمّنت قبل الناس بسبع سنين

أتعلمون أنّ الله فضّل في كتابه السابق...

اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان...

أخذ الله على الوحي ميثاقهم...

أرأيتم إن أخبرتم أنّ العدو مصبحكم

أرسله على حين فترة من الرسل

أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء

أرسلت إلى الناس كافة

استرضع لولدك بلبن الحسان

أسلمت قبل ان يسلم الناس بسبع سنين

اضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة

أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمّتي من لا يشرك

أفضل نساء أمّتي اربع...

العيافة والطيرة والطرق من الجيت...

اللهم أنيس المستوحشين

اللهم لا أعرف عبداً من هذه الأمة عبدك...

اللهم اكفني شرّ سراقاة بما شئت

اللهم بارك لها في شاتها

إلى شهادة ان لا اله إلا الله

القائل

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الباقر - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

الصفحة

362

363

364

316

401

92

94

351

218

316

94

533

259

82

287

362

615

617

51

(640)

الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء

أما والله لا استغفرنّ لك ولا شفعن فيك شفاعاة

أمنكم أحدُ أسلم مع رسول الله

أنا أول رجل أسلم مع رسول الله

أنا اول من اسلم مع النبي

أنا اول من صلّى مع رسول الله

انا رسول الله بعثني إلى العباد أعودهم إلى...

انا الصديق الاكبر آمنت قبل ان يؤمن ابوبكر

انتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة

الحواريين لعيسى بن مريم

أنشدكم الله أيها الرهط اتعلمون أن...

أنا عبدالله واخو رسول الله

أنا عبدالله واخو رسول الله وأنا الصديق الاكبر

انا يا رسول الله اكون وزيرك على ما بعثك الله

أنظروا من يرضع أولادكم

إن أولى الناس بامر هذه قديماً وحديثاً

ان كثيراً من التمانم شرك

إن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين

إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده

إن الرائد لا يكذب أهله

إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف

إن محمداً (ص) لما دعى إلى الايمان والتوحيد

إن الله لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان

إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم

أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله

أولكم وارداً على الحوض اولكم اسلاماً

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي) صلى الله عليه وآله وسلم))

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الصادق - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(الكاظم - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

563

529

361

361

361

361

567

361

572

364

357

361

395

218

362

82

348

348

394

530

363

553

398

588

358

(642)

أي بني اني وان لم اكن عمرت عمر من...

أَيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيَا أَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا

حَجَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) عَشْرَ حِجَّاتٍ

زَوَّجْتِكَ خَيْرَ أُمَّتِي أَعْلَمَهُمْ عِلْمًا

صَبْرًا أَلَّ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ

صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ثَلَاثَ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ...

عَبَدْتُ اللَّهَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

عَبَدْتُ اللَّهَ قَبْلَ أَنْ يُعْبَدَهُ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ

فَإِنِّي مَنْطَلِقٌ إِلَى ابْنِ عَمِّي رَسُولِ اللَّهِ

فَبَلِّغْ بِالرِّسَالَةِ صَادِعًا بِالنَّذَارَةِ

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا لِلنَّبِيَّةِ وَاخْتَارَهُ لِلرِّسَالَةِ

فِي أَصْلَابِ النَّبِيِّينَ نَبِيٍّ بَعْدَ نَبِيٍّ

قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا...

كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسَ اتَّقِينَا بِرَسُولِ

لَا تَبْكِي يَا بِنْتِيَّةَ فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ ابْنِكَ

لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ

لَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَ بِهِ

لا والله ما ابدلني الله خيراً منها

للدابة على صاحبها ست خصال

لقد صلّت الملائكة علىّ، و على علىّ

لم أوامر بذلك (قالها النبي في جواب من خطب فاطمة)

لم يكن معي من الرجال غيره

لو كان مطعم بن عدي حياً لو هبت...

لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان...

(علي - عليه السلام -)

(الحسن - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(الصادق - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(الزهراء - عليها السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(الصادق - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(643)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الباقر - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الباقر - عليه السلام -)

69

94

294

359

416

363

361

362

619

95

364

195

562

244

556

218

362

262

80

360

360

360

561

529

(644)

ما أعرّف أحداً من هذه الامة عبدالله بعد نبينا غيزي

ما من لبن يرضع به الصبي اعظم بركة من لبن أمه

ما من نبي إلا وقد رعى الغنم

مستقره خير مستقر

من يؤازرنى يكون أخى ووصيى وخليفتى

مهلاً يا أمه فان معى من يحفظنى

موسعكم العقبة فى الليلة الوسطى

نم فى فراشى فانه لا يخلص اليك شىء

واشهد أن محمداً عبده ورسوله

واشهد أن محمداً عبده ورسوله ابتتعه والناس...

واشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عباده

وشفاعتي لمن شهد ان لا اله الا الله مخلصاً

وكيف ينزل على وانتم لا تقصون اطافركم

ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً ملكاً

ولقد علمتم موضعي من رسول الله

يا أماه لا ارى اخوى في النهار

يا حميراء ان الله تبارك وتعالى بارك في...

يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي

يا علي ان قريشاً اجتمعت على المكربي...

يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيه أحد

يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر...

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(645)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

362

218

252

93

398

293

571

571

92

94

195

533

382

294

286

70

263

360

588

360

405

(3)

فهرس الأشعار

أحلامكم لسهام الجهل شافية

أبني لا تنس البليّة إنها

أبونا شفيع الناس حين سقوا به

إذا اختلجت عيني أقول لعلها

إذا اختلجت عيني تيقنت انني

إذا متّ فادفني بحرّاء مابها

إذا متّ فادفني إلى جنب كرمة

أربا واحداً ام ألف رب

اصبرن يا بنى فالصبر احجى

ألا ان خير الناس بعد محمّد

ألا حلاً في شقه مشقوقة

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر

ألا هل اتى بحرّيتنا صنع ربنا

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً

أليس أول من صلى لقبيلتكم

أما الحرام فالممات دونه

انا اخو المصطفى لا شك في نسبي

انت الجليل ربنا لم تدينس

إن صح ما أبصرت في المنام

77

74

288

79

79

74

67

55،283

514

373

77

460

508

521

372

(647)

أَنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَيِّنَاتٌ

إِنَّ ابْنَ أَمْنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ

إِنَّ عَلِيًّا لَمَيِّمُونَ نَقِيبَتَهُ

إِنَّ الْفِرَاقَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَّةَ

إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا

إِنَّ الَّذِينَ سَمَوْا بِاسْمِ مُحَمَّدَ

أَوْصِيكَ يَا عَبْدَ مَنْفَعٍ بَعْدِي

إِنَّ يَكُنْ مَا أَتَى بِهِ أَحْمَدُ الْيَوْمَ

بِشِبْهِةِ الْحَمْدِ اسْقَى اللَّهُ بِلَدَّتِنَا

بِنَاءَ مَكَارِمٍ وَأَسَاءَةَ جِرْحٍ

تَشَاجَرَتْ الْأَحْيَاءُ فِي فَصْلِ خِطَّةِ

تَظَلُّ مَقَالِيَتِ النَّسَاءِ يَطَّأَنَهُ

حَلَفْتُ لِنَعْقَدَنَّ حَلْفًا عَلَيْهِمْ

خاتته لما رأت شيئاً بمفرقه

خلوا سبيل الجاهد المجاهد

دعانا الوبير إلى بيعة

دعوت ابا المغوار في الحضرة دعوة

رايت علياً لا يلبث قرنه

سبقتكم إلى الإسلام طراً

سفته اباة الشمس إلا لثائة

سلط الموت والمنون عليه

شادن يحلوا إذا ما ابتسمت

صحوت واوقدت للجهل ناراً

صلى الآله ومن يحيق بعرشه

طلع البدر علينا

فالزمتني دنباً و غيري جرّه

185

72،518

372

275

249

211

289

213

287

77

285

76

249

75

618

374

78

372

363

76

56

76

79

(648)

فاني اذا كالثور يضرب جنبه

فان بك حقا يا خديجة فاعلمي

فحوطوا عليا فانصروه فانه

فشق له من اسمه ليجله

فصلي الاله على احمد

ففي كف احمد قد سبحت

فقتل للمضلل من وائل

فلا تحسبونا خاذلين محمداً

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها

فليت لي بهمو قوماً إذا ركبوا

فلو ان عندي جارتين وراقياً

فهذا نبي الله أحمد سبحت

فيارب ان اهلك ولم ترو هامتي

فيالبيت ان الجن جازوا حمالتي

قالوا وقد طال عنائي والسقم

قد استعدنا بعظيم الوادي

قلبت ثيابي والظنون تجول بي

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا

قف عند رأيك واجتهد

كذلك الثور يضرب بالهراوى

كذبتم وبيت الله بنزى محمداً

كمن يكوي الصحيح بروم براء

لاتحسين رثائماً عقنتها

لعمري ان عشرت من خيفة الردى

لعمري لقد كلفت جداً بأحمد

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة

72

215

373

211

374

214

374

514

73

66

76

214

56

78

78

79

75

74

519

72

517

73

75

75

(649)

لكل ابي بنت يراعى شؤونها

ليت الغراب غداة ينعب دائباً

ليعلم خيار الناس ان محمداً

ما كنت احسب ان الأمر منصرف

مع ابن عم احمد المعلى

مفجعة قد شفها فقد أحمد

من فيه ما فيهم ما تمترون به

نبياً يرى ما لا يرون وذكره

نجسته لا ينفع التجيس

هذا علي وابن عم المصطفى

هذا علي والهدى حقاً معه

وابيض يستسقى الغمام بوجهه

وان علياً لكم مصحر

وساحرة عيني لو أن عينها

وان ولي الأمر من بعد محمداً

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى

والله لو كنت الها لم تكن

ولا ينفع التعشير ان حَمّ واقع

ولولا أبوطالب وابنه

وكلفتني ذنب امرىء وتركته

وكم شققنا من رداء محبّر

وكم ناديتنه والليل ساج

وصي رسول الله من دون أهله

يا آل فهر لمظلوم بضاعته

يا راكبا بلغن عني مغلطة

يا رب يا رب انت مولاه

63

80

521

372

269

214

373

484

76

371

373

290:516

373

80

371

599

74

533

73

77

78

372

249

455

269

(650)

يا رب لا أرجو لهم سواك

يا رب ردّ راكبي محمّداً

يا عجباً لهذه الفليقة

يا كحل قد اتقلت اذنان البقر

278

299

78

72

(651)

(4)

فهرس الأعلام

(أ)

آبولو ٥٥١.

أزر ١٢٢، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠.

إبراهيم (الخليل) ٢٩، ٣٧، ٤٨، ٥١، ٥٤، ٥٩، ٨٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،

١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٦٢، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٤٠،

٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٩٢، ٣٥٠، ٤٩٨.

إبراهيم (بن رسول الله) ٩٦.

ابراهيم بن علي الدينوري ٥٢٨.

أبرهة ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٨٦، ٥٥٢، ٥٩٣، ٦٠٥.

ابن أبي شيبة ٣٦١، ٣٧٧.

ابن أبي الحديد ٢١٤، ٢٦٧، ٢٦٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٨، ٥٢٣.

ابن اسحاق (صاحب السيرة) ٣٥٦، ٣٧١، ٣٧٨.

ابن الاثير ١٧٠، ٢٩٥، ٣٥٧، ٣٦٤، ٤١٣، ٤٥٥، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٢، ٦٠٤، ٦١٢، ٦١٥، ٦١٩.

ابن أم مكتوم ٤٨١.

ابن تيمية ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٦٠٠، ٦٠٢.

(652)

ابن حجر ٣٥٧.

ابن حذيفة الاسدي ٣٧٣.

ابن حنظلة ٥٢٢.

ابن خلدون ١٦، ٦٤.

ابن ربيعة ٥٥٧، ٥٥٨.

ابن الزبير ٢٥٠.

ابن سعد (صاحب الطبقات) ٣٥٨، ٥٦١.

ابن شهر اشوب

ابن الصباغ المالكي ٦١٨.

ابن طواس ٢٥٨.

ابن طلحة (الشافعي) ٣٦٣.

ابن عباس ٦٠، ١٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٨، ٦١٢.

ابن عبدالبر ٣٧٨.

ابن كثير الشامي ٤١٠، ٥١٦.

ابن ماجه (صاحب السنن) ٣٦١.

ابن مزاحم (مؤلف وقعة صفين) ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٦.

ابن المغازلي ٣٦٠.

ابن المغيرة المخزومي ٢٨٤.

ابن هشام (المؤرخ) ٢١٤، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٦، ٣٤١، ٣٧٧، ٤١٦، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٥٥،

٤٦٨، ٥٠٨، ٥٢١، ٥٤١، ٥٦٣، ٥٧٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠٤، ٦٢٤.

ابن الوليد ٤٣١.

أبي بن خلف

أحمد الاحساني ٥٤٧.

أحمد (اسم النبي) ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤.

أحمد بن حنبل ٥٣١، ٥٣٢.

أحمد بن معين بن خراش ٥٣١.

أحمد بن عبدالحليم الحراني ٥٩٦.

الاحنس بن شريق ٤٣٩، ٤٨٣.

أردشير بابك ١١٢.

أرقم بن أبي الارقم ٣٨٨، ٤١٦.

أريقط ٦٠٣.

اساف (صنم) ٩٠.

اسبوتنيك ٥٥١.

اسحاق المدني ٣٧١.

أسعد بن زرارة ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٨، ٦٢٣.

إسفنديار ٤٧٣.

إسماعيل (النجي) ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٤٨، ٥٢، ٨٩، ١١٩، ١٣١، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٨،

١٨٨، ١٩٢، ٢٠٥، ٣٥٠.

الاسكندر ٦١٣.

الأسود بن المطلب ٤٨٨.

الأسود بن يغوث ٤٢٣.

اسيد بن حضير ٥٩٧.

إلياس (جد النبي) ١٤٦.

أمية بن أبي الصلت ٤٣٩.

أمية بن خلف ٣٩٠، ٤١٥، ٤٨٨.

أمية بن عبد شمس ١٥٠.

أنس بن رافع ٥٦٧.

أنس بن مالك ٢٦١، ٢٦٩، ٣٦٤، ٦١١.

أنوشيروان ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ٢٠٢.

أياس بن معاذ ٥٦٧.

(654)

(ب)

بحيرى (الراهب) ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٧٥.

بدر بن معشر ٢٤٦.

البراء بن معرور ٥٧١.

البراق ٥٣٥.

البراض بن قيس الكناني ٢٤٧.

بركة ٢٩١.

بريد الاسلامي ٣٦٥.

بلال الحبشي ٤١٥.

(ت)

تبان اسعد ١٦٠.

توماس كارليل ٨٥.

تيفاريومس (الامبراطور) ١١٦.

ج(

جابر بن عبدالله الانصاري ٢٦٠، ٣٦٢، ٣٦٤.

جاجارين (رائد فضائي) ٥٥١.

جبر (الغلام المسيحي).

جيرئيل ٢٦١، ٢٦٧، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٨٣، ٤٦٤، ٥٠٧، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٨٥، ٥٨٧، ٦٠٠،

٦٠١.

جعفر بن أبي طالب ٩٦، ٢١٤، ٢٥٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٠، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦٩، ٤٩٣.

جعفر بن محمّد (الامام) ١٧٩، ١٩٥، ٢٦٣، ٢٧٥، ٢٩٤، ٥٢٩.

جلال الدين الطوسي ٢٩٢.

جندب بن زهير ٣٧٣.

جنيد بن عبدالرحمان ٣٧٦.

جواد علي (مؤلف) ٩١.

(655)

جونس (دكتورمارسدن) ٦١١.

ج(

الحارث بن عبدالمطلب ١٥٥.

الحارث بن كلدة ١٨، ١٥٦، ٥٠٤.

الحارث بن نوفل ٤٤١.

حبيب بن أوييس ٥٧.

الحجاج ٣٧٥.

حجر بن معاذ الغفراني ٦٢٢.

حذيفة الغدر ٦٥

حذيفة بن اليمان ٢٦٣.

حرب بن أمية ١٥١، ١٥٤، ٢١١، ٢١٤، ٣٦١، ٣٧٣.

الحسن بن علي (الإمام) عليه السّلام ٢٥٠، ٢٦٩، ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٧٦.

الحسين بن علي (الإمام) عليه السّلام ٢٥٠، ٢٦٩، ٦١١، ٣٧٧.

حضير ٥٧٤.

حكيم بن حزام ٢٧٩، ٢٨٠، ٥٠٣، ٥٠٤.

حكيم مولى زاذان ٣٦١.

حمزة (عم النبي) ٢١٥، ١٩٠، ٢٧٣، ٢٨٦، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٥.

حناطة ١٦٢.

حمزة الاصفهاني ٨٨، ١٠٣.

حيدة بن معاوية العامري ٢٩٩.

خ(

خالد بن الوليد ٦١٠.

خالد (حكيم العرب) ٤٨٠.

خالد بن زيد ٦٢٢.

خياب بن الارت ٤٢٢، ٤٢٥، ٤٢٦.

خزيمة (جد النبي) ١٤٦.

(656)

خزيمة بن ثابت ٣٧٢.

خسرو برويز ٨٨، ١٠١، ١٠٢، ١١٠، ١٠٣، ١١١، ١١٣، ١١٧، ١١٨، ١١٩، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢.

الخطاب ٤٢٤.

خلف ٤٢٣.

الخميني (الإمام) ٦١٥.

خويلد ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٧، ٢٧٣، ٣٦٧، ٣٨٣.

د(

داود (النبي) ٢٣٧.

داود بن أبي هند ٣٦٠.

ديمتريوس ٣١.

ديودورس ٣١.

ذ(

ذونفر ١٦٢.

ذونواس ١٦١.

ذوالخصة (صنم) ٩١.

(ر)

ربيع بن الحرث ٣٧٢، ٥٥٧.

ربيعة ١٤٧، ٣٧٦، ٥٥٨، ٥٥٩، ٦١٨.

رستم ٤٧١، ٤٧٤.

رينان (مسيو) ٨٥.

(ز)

الزبير بين عبدالمطلب ٢٤٩.

زرارة بن اعين ٣٤٢.

زفر بن يزيد ٣٧٣.

زكريا (النبي) ١٧٤، ٢٢٣، ٢٩٥.

زمعة بن الاسود ٥٠٠.

(657)

زياد بن ابيه ٥٩٥.

زيد بن ارقم ٣٥٦، ٣٦٥.

زيد بن حارثة ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٨٧، ٥٢٢.

زيد بن عمرو بن نفيل ٢٢٤، ٢٨٢.

زيني دحلان (المؤرخ) ٢٨٩، ٥٢٤.

الزهرة (كوكب) ١٢٥.

زهير بن أبي اميه ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦.

(س)

سالم بن أبي جعد ٣٧٠.

سالمين (محمّد علي) ٦٠.

سراقة بن مالك بن جعشم ٦١٥.

سعد (صنم) ٩٠.

سعد بن أبي وقاص ٨١، ٣٨٧، ٣٨٨، ٥٠٣.

سعد بن عبادة ٥٧٦، ٥٧٧، ٦٢٣.

سعد بن معاذ ٥٧٨.

سعيد بن زيد ٤٢٤، ٣٨٨، ٤٢٦، ٤٢٥.

سعيد بن قيس الهمداني ٣٧١.

سفيان بن سعيد الثوري ٥٣١، ٥٣٠.

سلامة (بولس) ٥١١.

سلمان الفارسي ٣٦٧، ٦٠٩.

سلمة بن كهيل ٣٦١.

سليمان ٢٣٧، ٢٣٨.

سمرة بن جندب ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦.

سويد بن صامت ٥٦٦.

سهل وسهيل ٦٢٢.

سهيل (كوكب) ٥٢.

(658)

سيد قطب ١٨٢، ١٨٤.

(ش)

شنفرة ٦٥.

شهر بزاز (أخ سلمان) ١١١.

شيبية بن ربيعة ١٥٢، ٣٧٦، ٥٥٧، ٥٥٨.

شيث (النبي) ٣٧١.

شبرويه ١١١، ١١٨.

(ص)

الصدى (طائر خرافي) ٥٦.

صدر الدين الشيرازي (الفيلسوف) ١٧٦.

صعصعة بن ناجية ٤٦.

الصلت بن أبي يهاب ٢٦٥.

(ط)

طارق بن شهاب الاحمس ٣٧٠.

طالب ٥١.

الطاهر (بن النبي) ٢٧٨.

الطفيل بن عمرو الدوسي ٥٤٢.

الطيب (بن النبي) ٢٧٨.

(٤٤)

العاص بن وائل السهمي ٢٤٩، ٣٧٦، ٤١١، ٤١٢، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥١، ٥٠٧.

عامر بن فهيرة ٦٠٢.

عبادة بن الصامت ٥٦٩.

عباس بن عبدالمطلب (عم النبي) ٢٦٢، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٠، ٤٢١، ٤٢٠، ٤٧١.

عبدالحليم (الشيخ محمود) ٦١٤.

عبدالدار ١٤٧، ١٤٨.

(659)

عبدالرحمان بن حنبل الجمحي ٣٧٤.

عبدالرحمان بن عثمان ٢٥٠.

عبدالرحمان بن عوف ٣٨٧.

عبدالرحمان بن محمّد الحضرمي المالكي (القاضي) = ابن خلدون.

عبدالرحمان بن ملجم ٥٩٥.

عبدالرزاق ٣٥٧.

عبد شمس ١٤٨، ١٥٠، ١٤٩، ٤٦٨.

عبدالله (بن النبي) ٢٧٨.

عبدالله (والد النبي) ١٤٦، ١٤٧، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٩١، ٣٥٧، ٢٩٢، ٣٨٨، ٥٧٤.

عبدالله بن أبي بكر ٦٠٢.

عبدالله بن أبي بن سلول ٦٢٣.

عبدالله بن أبي خزرج ٥٦٨.

عبدالله بن أبي سفيان ٣٧١.

عبدالله بن أبي شيبه ٣٦١.

عبدالله بن أبي رافع ٤٧٠.

عبدالله بن انيس ٦١١.

عبدالله البجلي ٣٧٤.

عبدالله بن برير ٣٧١.

عبدالله بن الحارث ٥٥٤.

عبدالله بن حجر ٣٧٠.

عبدالله (بن حلیمه) ٢١٥.

عبدالله بن جحش ٢٨٢.

عبدالله بن جدعان ٢٤٩، ٤٥٩.

عبدالله بن خبابه ٣٧٠، ٣٧١.

عبدالله بن ربيعة ٤٥٦، ٤٥٩.

عبدالله بن الزبير ٢٥٠.

عبدالله بن عمرو بن مخزوم ١٨٦.

عبدالله بن مسعود ٣٦٩، ٤١٧، ٤١٨.

عبدالله بن مطعون ٣٨٨.

عبدالكريم الخطيب ٦٠٠.

عبدالمك بن عمير ٥٣٠، ٥٣١.

عبدالمطلب (جد النبي) ٥١، ١١٩، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٩، ١٩٠،

١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٨٦، ٢٨٧،

٢٩٢، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٥٣، ٣٧٢، ٤٠٤، ٤٠٩، ٤٢٠، ٤٢٥، ٥٠٤، ٥١٣، ٥٥٥، ٥٦٣، ٥٧١.

عبد مناف ١٤٧، ١٤٦، ١٤٩، ١٤٨، ١٥٢، ٢٨٩، ١٩٠، ٤٤١، ٥١٣.

عبدالعزیز بن محمد الدراوردي ٥٣٠، ٥٣١.

عبيدة بن الحارث ٣٨٨.

عبد الوهاب النجار ١٩٠، ١٩٤.

عتبة بن ربيعة ٥٠، ٤٣٠، ٤٣٢، ٥٥٧، ٥٥٨.

عتيق بن عائذ ٢٤٧.

عثمان بن حويرث ٢٨٢.

عثمان بن عفان ٢٥٢، ٣٨٢، ٣٨٨.

عثمان بن مطعون ٣٨٨، ٤٦٢.

عداس ٥٥٨، ٥٥٩،

عدنان ١٤٦.

عدي بن حاتم ٣٧٠.

عروة الرجال ٢٤٧.

العزى (صنم) ٥٤، ٥٥، ٢٧٩، ٩٠، ٢٩٣، ٤١٥، ٤٨٨، ٤٩٣.

(661)

عطارد ٥٢.

عفيف الكندي ٢٥٩، ٣٥٧.

عقبة بن أبي معيط ٢٥٨، ٢٦٥، ٤١٣، ٤٢٣، ٤٦٢، ٥٠٤، ٥٢٢.

عكرمة ١٧٠، ٢٦٢.

علي بن ابي طالب ٩١، ١٤٩، ١٩٥، ٢٠٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٤،
٣١٦، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧،
٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٢٥، ٤٨٠، ٥٠٦، ٥١٣، ٥١٤، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٩، ٥٣٥،
٥٤٢، ٥٨٣، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٠، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦١١، ٦١٣، ٦١٠،
٦١٨، ٦١٩.

علي بن الحسين السجاد (الإمام) ٥٥.

علي بن موسى الرضا (الإمام) ٣٠٠.

علي بن إبراهيم (المفسر) ٥٨٨.

عمادالدين ابن كثير ٢٤٨.

عمار بن ياسر

عمارة بن الوليد بن المغيرة ٤٠٦.

عمر بن الخطاب ٣٦٠، ٣٦٨، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٤، ٤٢٦.

عمر رضا كحالة ٤٢٧.

عمرو بن اسد ٢٧٣.

عمرو بن الجموح ٦٢٠، ٦٢١.

عمرو بن الحمق ٣٧١.

عمرو بن عاص ٤٢٣، ٤٥٦، ٤٥٩.

عمرو بن لحي ٥٣، ٩٠.

عمرو الخزرجي ١٥١.

عمرو العلا ١٤٨.

(662)

عميانس (صنم) ٩٠، ١٦١.

عياض (القاضي) ٦١٠.

عيسى بن مريم ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٩٥، ٣٤٢، ٣٥٨، ٤٥٩، ٤٩٨، ٥٢١، ٥٧١، ٦٠٥.

غ(

غالب ١٤٦.

الغرانيق ٤٧٨، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٤.

غسان ٤٠، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠.

غوستاف لويون ٤١ .

(ف)

فضل بن أبي لهب ٣٧٣ .

فضل بن الحارث ٢٤٨ .

فضل بن فضالة ٢٤٨ .

فضل بن وداعة ٢٤٨ .

فضيل بن جندب ١٦٢ .

فلاماريون ١٠٠ .

فريد وجدي (محمد) ٥٤٤ .

فهر (جد النبي) ١٤٦ .

(ق)

القاسم (بن رسول الله) ٢٦٣ ، ٢٧٨ .

القاصعة (الخطبة) ٣٥٦ .

قدامة بن مطعون ٣٨٨ .

القراريط ٢٥٢ .

قصي بن كلاب (جد النبي) ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٥ .

القمر ٥٤٦ ، ٥٥١ .

قيس بن زهير ٦٥ .

(663)

قيس بن عاصم ٥٩.

قيصر ١٦١، ٣٥٧، ٤٢٣.

قتاد بن دعامة ٣٧٥.

(ك)

كعب (جد النبي) ١٤٦.

كعب بن زهير ٣٧٢.

كعب الاحبار ٤٧٧.

كعب بن مالك ٢١٤.

كلاب بن مرة (جد النبي) ١٤٦.

كنانة (جد النبي) ١٤٦.

كلثوم بن هرم ٦١٧.

(ل)

اللات (صنم) ٥٤، ٥٥، ٩٠، ٢٧٩، ٢٩٣، ٤١٥، ٤٨٨، ٤٩٣.

لوي ١٤٦.

لبيد (الشاعر) ٤٦١، ٤٦٢.

لقمان ٥٦٦.

اللوح المحفوظ ٣٤٥.

(م)

مارسدن جونسن ٦١١.

مالك (جد النبي) ١٤٦.

مالك بن الحارث الاشتهر ٣٦٩.

مالك بن عباد ٣٧٣.

المأمون ٣٧٨.

ماني ١١٣.

ماه بنداذ (اخو سلمان) ٦٠٩.

مجاهد (المفسر) ٢٠٧.

(664)

محمد بن أبي بكر ٣٧١.

محمد بن أحمد الذهبي ٥٣١.

محمد بن اسحاق (المؤرخ) ٢٦٦، ٥٥٦.

محمد بن جرير الطبري ٣٩٦.

محمد بن حنيفة ٣٧٠.

محمد بن سلمة ٦١١.

محمد بن مسلم ٣٧٥.

محمد حسين هيكل ١٨٢، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٩٧.

محمد حميد الله (مؤلف) ٦٠٩.

محمَّد عبدة ١٦٨، ١٨٢، ١٨٣، ٣٠٠.

محمَّد عزت نصر الله، ٢١٤.

محمَّد المكندر المدني ٣٧١.

محمود الأوسي ٧١.

محمود بن عبدالحليم ٦١٤.

مخرمة بن نوفل الزهري ٢٥٠.

مدركة (جدّ النبي) ١٤٦.

مرّة (جدّ النبي) ١٤٦.

المريخ (كوكب) ٥٤٦، ٥٥١.

مزدك ١١٣، ١١٤.

المسورة بن مخرمة

المسيح ٥٤، ١١٧، ١٦٧، ١٨١، ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٩٦، ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٣٦، ٦١٢.

المشتري (كوكب) ٥٢.

مصعب بن عمير ٥٧٠، ٥٧٨، ٥٧٩.

مضاض بن عمرو الجرهمي ١٥٥.

مضر بن نزار (جدّ النبي) ١٤٦.

المطلب ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.

معاذ بن جبل ٧١، ٢٦٠، ٣٦٠.

معاذ بن عمرو ٦٢٠.

معاوية ٢٦٩، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٥٦٦، ٥٩٤.

معد (جد النبي) ١٤٦.

المغيرة (جد النبي) ١٤٧.

المقداد بن عمرو ٣٦٨.

المقداد السيوري ١٩٦.

الملاعلي القاري ٦١٠.

مناة (صنم) ٥٤، ٩٠، ٤٨٨، ٤٩٣.

مناف (صنم) ٥٤، ٩١.

منذر بن عمر ٥٧٧.

منصور بن عكرمة ٥٠١.

ميسرة (غلام خديجة) ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٧٠.

ميكائيل ٦٠٠.

موسى بن جعفر (الإمام) ٢٦٢، ٥٥٣.

موسى (النبي) ١٢١، ١٢٢، ١٥٨، ١٦٧، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٦٢، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٦٩، ٤٧٥، ٤٩٧،

٥٢١، ٥٢٥، ٥٧٣، ٦٠٥.

نائلة (صنم) ٩٠.

ناصر (غلام خديجة) ٢٥٦.

نزار (جد النبي) ١٤٦.

نصير الدين الطوسي ١٩٦.

النضر (جد النبي) ١٤٦.

(666)

النضر بن الحارث ٤٣٢، ٤٦٣، ٤٧٣، ٤٧٤.

النعمان بن المنذر ٨٨، ٥٩.

نعيم بن عبدالله ٤٢٥.

نفيل بن حبيب الخثعمي ١٦٢.

النمرود بن كنعان ١٢١، ١٢٢، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠.

نوح النبي ١٤٥، ٢٥١، ٤٩٨.

نوفل بن عبد مناف ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

(هـ)

هارون (النبي) ٣٤١، ٣٦٩.

هاشم بن عبد مناف (جد النبي) ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ٢٩٠، ٣٦٩، ٣٧٢.

هاشم بن عتبة ٣٦٩.

هامة ٨٢.

هيل (صنم) ٥٤، ٩٠.

هبيرة بن وهب المخزومي ٢٨٥.

هرودتس ٤١، ٤٠، ١٢٠.

هرقل ١١٨.

هشام بن عمرو ٥٠٤.

هند بن أبي هالة ٥٩٩، ٦٠٢.

(و)

ورقة بن نوفل ١٨٩، ١٩٢، ٢١٤، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٢، ٢٣٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٩٠، ٣٩١، ٤١٥.

الوليد بن عتبة ٢٥٠، ٣٧٣، ٤٨١، ٤٨٩.

الوليد بن المغيرة ٢٨٣، ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٨٠، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٠٣.

وهب بن عبد مناف ١٩٠.

(667)

ويليام موبير (السير) ٤٩٣.

(ي)

ياسر ٤١٦، ٤١٧.

يحيى بن زكريا (النبي) ٢٥٩، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٧٧.

يزدجرد ٦٢٢، ٦٢٤.

يعرب بن قحطان ٣٦.

يعقوب (النبي) ٢٣٨، ٢٥٦.

يوسف ٢٣٩.

يونس بن عبدالرحمان ٥٥٣.

يونس بن متى (النبي) ٥٥٨، ٥٥٩.

النساء:

آسية بنت مزاحم ٢٦٢، ٢٦٣.

أمنة بنت وهب ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٩١، ٤٥٤، ٥١٨.

أسماء بنت عميس ٢٦٠.

أنيسة (بنت حليلة السعدية) ٢١٥.

بلقيس ٣٣.

ثويبة ٢١٥.

حليلة السعدية ٧٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٧٧، ٢٩٣.

خديجة بنت خويلد ١٩١، ٢١٥، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧،

٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٣، ٣٢٢، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٥٠، ٣٥٣،

٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٧، ٥٠٣، ٥٠٧، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٩٩، ٦٠١.

خولة ٣٨٢.

دلالة ١٩٠.

رقية (بنت رسول الله) ٢٦٣، ٢٧٨.

زينب (بنت رسول الله) ٢٦٣، ٢٧٨.

سارة (زوجة الخليل (ع)) ١٠٨، ١٤١، ١٤٥، ٢٣٩، ٢٤٠.

سلمى (زوجة هاشم) ١٥١، ١٥٢، ٢٦٣.

سمية (زوجة ياسر) ٤١٦، ٤١٧.

الشيما (بنت حليلة السعدية) ٢١٥، ٢١٦.

عائشة بنت أبي بكر ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٥٣.

عاتكة (بنت عبدالمطلب) ٢١٥.

فاطمة بنت الخطاب ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦.

فاطمة الخثعمية ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.

فاطمة الزهراء (ع) (بنت رسول الله (ص)) ٩٥، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٦٠٢، ٦١٨.

فاطمة (أم قصي بن كلاب) ١٤٧.

فاطمة بنت أسد (أم علي بن أبي طالب) ٥٢٩، ٦٠٢.

فاطمة بنت الزبير ٦٠٢، ٦١٨.

الفواطم ٦٠٢.

مريم بنت عمران (أم السيد المسيح (ع)) ٥٤، ١٠١، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٩٥، ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٧١.

هاجر (زوجة الخليل (ع)) ٣٧، ١٤١، ١٤٢.

هندة ١٤٣، ١٤٤.

مارية القبطية ٢٧٨.

معاذة بنت عبدالله العدوية ٣٦٣.

نفيسة بنت عليّة ٢٧٢.

(669)

(5)

(فهرس القبائل والأمم)

آل الرسول ٥٧.

آل سعود ٥١٢.

آل ياسر ٤١٦.

اسلم (قبيلة) ٢٨٣.

أصحاب الاخدود ١٦١.

أصحاب الكهف ٢٨٢.

الانصار ٦١٩.

الأوس والخزرج ٣٠، ٥٠، ٩٠، ٩١، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٣.

بنو اسرائيل ٢٩٥، ٤٩٨، ٥٧٣.

بنو إسماعيل ٥٧٣.

بنو اقم ١٦٢.

بنو امية ٥٤، ١٤٩، ٤٨١.

بنو بكر ٤٢١.

بنو تميم ٥٢، ٥٩.

بنو جمح ٣٧٤، ٤١٥.

بنو سالم بن عوف ٦٢٤.

بنو سعد ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧.

(670)

بنو سلامان ٦٥، ٨٨.

بنو سلمة ٦٢٠، ٦٢١.

بنو عامر ٢٤٦، ٥٦٣، ٥٦٤.

بنو عبدالاشهل ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩.

بنو عبدالدار ٢٨٤.

بنو عبد مناف ٥٠٥، ٥١٣.

بنو عبس ٦٥.

بنو عدي ٢٨٤، ٢٩١، ٤١١.

بنو عمرو بن عوف ٦١٧، ٦٢٢.

بنو قريظة ٥٦٥.

بنو قينقاع ٥١، ٥٦٥.

بنو كنانة ٩٠، ١٤٦، ٢٤٥.

بنو مخزوم ٤٠٩.

بنوالمطلب ٥٠١، ٥٢٢، ٥٦٣، ٥٨٥.

بنو مليح ٥٢.

بنوالنضير ٥٦٥.

بنو هاشم ٣٧، ٥١، ١٥٣، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٥٥، ٢٧٣، ٢٩٠، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٩٤، ٤٠٨، ٤١٢، ٤١٣، ٤٤٠، ٤٥٠، ٥٠١،

٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٨، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٣٧، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٩٠، ٦٠١، ٦٠٢.

تباعة ٣٢.

ثقيف (قبيلة) ٥٥٧.

ثمود (قوم) ٣٦، ٢٣٣.

جرهم (قبيلة) ٣٧، ١٥٤، ١٥٥.

حمير (قبيلة) ٥٢.

خزاعة ٩٠، ١٥٤، ١٥٥، ٥٦٠، ٥٨٤.

دوس (قبيلة) ١٦١.

(671)

الروم ٤٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٦٠.

الساسانيون ٨٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٥.

سعد بن بكر (قبيلة) ٢١٥.

عاد (قوم) ٣٦، ٢٣٣.

العذنانيون ١١٣، ١١٤، ١١٥.

العرب البائدة ٣٦، ٣٧، ٣٨.

العمالقة ٣٠.

الغساسنة ٤٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠، ١٨٧.

القحطانيون ٣٦، ٥٦٥.

قريش ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٩١، ٩٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠، ١٨٦،
١٨٩، ١٩٠، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٦،
٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤،
٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣١٩، ٣٢١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦٨، ٣٦٠، ٣٨١، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤،
٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٠،
٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧،
٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٢، ٤٩٣، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤،
٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٦، ٥٣٩، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤،
٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٧، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥.

(672)

587، 588، 589، 591، 592، 601، 604، 615، 616.

كنانة (قبيلة) ٢٤٥، ٢٤٦.

منحج (قبيلة) ٢٤٣.

المناذرة ٦١٧.

اللمخيون ٨٨، ٨٩.

(673)

(6)

الكنى و الألقاب

«الكنى»

الرجال

أبو أحيدة ٥٤.

أبو الاسود الدؤلي ٣٧٣.

أبو امامة (ابن النقاش) ٢٦٧.

أبو أمية (ابن مغيرة المخزومي) ٢٨٤.

أبو أيوب (الانصاري) ٣٦٠، ٣٦٩، ٦٢٢.

أبو اليخترى ٤٣٢، ٥٠٤، ٥٨٤.

أبو بصير = اعشى بن قيس ٤٨٥، ٥٠٥.

أبو بكر (ابن أبي قحافة) ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٨٨، ٤١٠، ٤١١، ٤١٨، ٤٢٥، ٤٨٣، ٥٩٠،

٥٩٢ . 602

ابو تراب (علي بن أبي طالب) ٣٧٦، ٣٧٧.

أبو تمام (الشاعر) ٥٧.

أبو جعفر الاسكافي ٣٩٧.

أبو جهل ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٠٢، ٣٥٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٦٢،

٤٦٣، ٤٨٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٢٢، ٥٨٤، ٥٨٥.

أبو حاتم ٥٣١، ٥٣٢.

أبو حازم ٣٧٥.

أبو الحسن البكري ٢٧٠.

أبو حكيم ٤٠٩.

أبو حنظلة ٥٢٢.

أبو داود ٣٦١.

أبو ذر الغفاري ٣٦٨، ٣٧١، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٥٣٣.

أبو ذؤيب ٢١٥.

أبو رافع الطبراني الهيثمي ٣٦٢، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٩.

أبو رغال (تقيف) ١٦٢.

أبو زرعة ٢٦٠، ٥٣٢.

أبو سعيد الخدري ٣٦٠، ٣٦٨، ٣٧٥.

أبو سفيان ٥٤، ١٨٩، ٢٥٨، ٢٦٥، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٩٠، ٤٣٢، ٤٨٣، ٥٣٧، ٥٦٠.

أبو سلمة ٣٨٨.

أبو طالب (عم رسول الله) ١١٩، ١٤٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٤، ٢٦٦،

٢٦٧، ٢٧٣، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٩، ٣٥٥، ٣٥٦، ٣٧١، ٣٧٧، ٣٧٩، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٤، ٤٠٥،

٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤١٢، ٤٥٩، ٤٦٠، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٧، ٥١٩، ٥١٨،

٥٢٠، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٣، ٥٣٤، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٤، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٦١، ٥٦٩، ٥٦٢.

أبو العاص بن الربيع ٥٠٣.

أبو عبد شمس ٤٢٠، ٤٢٩، ٤٦١.

أبو عبيدة (الحراج) ٣٦٨، ٣٨٨.

أبو عثمان ٣٧٦.

أبو عمر (بشير بن محض) ٣٧٠.

أبو عمرو (مؤلف) ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨.

(675)

أبو عمرو (عامر الشعبي الكوفي) ٣٧٤.

أبو عمرو (ابن قتيبة) ٣٦١.

أبو فرج الاصفهاني ٢٨٥.

أبو مرازم ٣٦٩.

أبولهب ٥٤، ٢١٥، ٢٧٢، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٣، ٤٢٢، ٥٠٢، ٥٦٣، ٥٩٠، ٥٩١.

أبو مسعود (عمرو بن عمير الثقفي) ٤٣٩.

أبو مكرز ٥٩٢.

أبو نضر (محمّد بن السائب الكليبي) ٣٧٦.

أبو نعيم (مؤلف) ٢٩١.

أبو هالة التميمي ٢٧٤.

أبو هريرة ٢٦٠، ٥٣٣.

أبو هفان العبدي ٥١٦.

أبو الهيثم بن النيهان ٥٧١، ٥٧٢.

أبو الوليد = عتبة بن ربيعة ٤٣١.

أبو اليقظان = عمران بن عبد الله ٢٦٣.

النساء

أم أيمن ١٧١، ١٩٧، ١٩١، ٢٢٧، ٢٦٠، ٢٨٩، ٢٩١، ٣٦٠.

أم أيوب (الانصارية) ٦٢٢.

أم جميل بنت حرب ٤١٣، ٤١٤.

أم سلمة ٤٥٤، ٦١١.

أم كلثوم (بنت رسول الله) ٢٦١، ٢٧٨.

أم معبد ٦١٦.

أم هانئ (أخت علي بن أبي طالب) ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٨.

(676)

«الألقاب»

الاصمعي ٦٠٩.

الاميني (العلامة) ٣٥٨، ٣٥٩، ٥٣٠، ٥٨٤.

البلاذري ٦٠٩.

البلاغي ٢٤١.

البيهقي ٥٤١.

الترمذي ٣٦٤.

الجاحظ ٥٩٦.

الجنابذي ٢٥٦.

الحاكم النيسابوري ٦١٢.

الحلبي ٦٠٣.

الخوارزمي ٣٦٠، ٣٦٩.

الديار بكري ٢١٠.

ذوالقرنين ٣٨٢، ٤٦٤.

الزرقاني ٢٩٢، ٢٤٦، ٣٦٦.

السيوطي (جلال الدين) ٣٦٩، ٣٧٢.

الشيراوي (صاحب الاتحاف) ٢٩٢.

الشهرستاني ٢٨٨.

الشهيد الثاني ٢٠٥، ٢٠٧.

الطباطبائي ٣٠٧، ٣١١، ٣٤٦.

الطبرسي ٣٠٧، ٣٣٩، ٤٨١، ٥٤٠، ٥٤١.

الطبري ٣٤٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٨٨، ٥٩٨، ٥٩٩.

الطريحي (المؤلف) ٢٠٥.

الطوسي (الشيخ) ٥٩٩، ٦٠١، ٦٠٣، ٦١٨.

الفخر الرازي ٣٠٧، ٣٤٨، ٥٠٩.

الفرزدق ٤٦، ٤٩.

الفردوسي (الشاعر) ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

فرعون ١٢١، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٢.

القسطلاني ٣٦٧، ٣٧٥.

القوشجي ١٩٦.

كسرى ١٠٣، ١١٠، ٢٠٢، ٣٥٧.

الكلبي ٥٢.

المجلسي (العلامة) ٢٩٦، ٣٤١، ٤١٣، ٦١٦، ٦٢٤.

المسعودي (المؤرخ) ٤١.

المقرئزي ٢٠٤، ٥٩٨.

النفيسي (سعيد) ١٠٤.

اليقوبي ٢٨٨، ٣٨٥.

النجاشي ٩٦، ١٦١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٩٣.

(678)

(7)

فهرس الوقائع والأيام

أحد (معركة) ٤٨٦.

الأحزاب (معركة) ٤١٦، ٤٦١، ٤٧١، ٤٨٠، ٤٨٨.

بدر (معركة) ٤١٦، ٤٨٠، ٤٨٦، ٥٦١.

بعثت (يوم) ٦٧، ٥٧٤.

بيعة العقبة ٥٧٥.

بيعة النساء ٥٧٠.

حادثة الفيل ١٥٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ٢٠٣، ٥٥٢، ٦٠٥.

حجة الوداع ٦٤.

حلف الفضول ٢٤٨، ٢٤٩.

الخنديق (معركة) ٤٨٠، ٤٨٦.

داحس والغبراء (حرب) ٦٥.

صفين (وقعة) ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٢.

الفجار (حروب) ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٧٣.

القرطاء (غزوة) ٦١١.

ليلة المبيت ٥٩٥، ٥٩٦.

المباهلة ٥٣٧، ٥٤١، ٥٤٢.

المعراج ٥٤٤، ٥٤٥.

فهرس الأماكن والبلدان

آسيا ٢٧، ١١٦.

الابواء ٢٢٨.

الاتحاد السوفيتي ١٥٩، ٥٥١.

الاحساء ٢٨.

الاحقاف ٢٨.

الاردن ٥٣٦.

أرمينية ٩٨.

الازهر ٣٤٦، ٦١٤.

افريقية ٢٨.

امريكا ٨٥.

الاندلس ١٠٠.

انطاكية ٢٧، ٨٧، ٨٩، ٩٨.

أوربة ٤٠، ١٠٠، ٢٣٧.

اورشليم ٧، ١١١.

ايران ٢٧، ٨٧، ٨٩، ٩٨.

ايطاليا ٢٧.

بايل ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١.

بادية سماوة ٢٧.

البحر الاحمر ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٢.

(680)

بحيرة ساوة ٢٠٢.

البصرة ٣٠٣، ٣٦٧.

بصرى ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥.

بيت الله الحرام ٢٨٩.

بيت المقدس ٥٣٦، ٥٣٧، ٦١١.

بيروت ٥١١.

تهامة (سوق) ٢٥٦.

ثنية الوداع ٦٢٦.

جبل أبو قيس ٢٨٧.

جدة ٢٩، ٢٨٤، ٤٥٣.

الجزيرة العربية ٢٧، ٣٢، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٦، ٧١، ٨٧، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٧، ٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٨٠، ٢٨٢،

٣٠٦، ٤١٥، ٥٢٠، ٥٧٦، ٥٨٠.

الجنة والنار ٥٣٦.

الحبشة ٨٧، ٩٦، ١٥٠، ١٦١، ٢٢٤، ٢٨٢، ٢٩١، ٤١٥، ٤٢٤، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٩،

٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٨.

الحجاز ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٤٠، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٣٢، ١٤٢، ١٤١، ١٥٢، ١٥٥، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٨٢،
٢٨٣، ٥١١، ٥١٢، ٥٩٥.

حجر اسماعيل ١٤٤.

الحجر الاسود ٢٨٤، ٤١٢.

الحديدة (ميناء) ٣٢.

حراء (جبل / غار) ٢٨٤، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٥٤، ٣٨٢، ٣٨٣.

الحيرة ٢٧، ٥٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠، ٤٥٢.

الخليج ٢٧، ٢٨.

(681)

خليج عمان ٢٧.

الخورنق ٨٨.

خيبر ٢١٥.

دار الندوة ١٤٧، ١٤٨، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٨٦، ٥٠١، ٥٨١، ٥٨٣.

دار الخيزران ٣٨٩.

دجلة ٢٧.

دمشق ٨٩، ٣٧٦، ٦١٠.

الدهناء ٢٨، ٢٣١.

ديار ثمود ٢٣١.

ذوالمجاز (سوق) ٢٤٥.

ذى طوى ٦١٨.

الربع الخالي ٢٨.

زمزم ٣٧، ٩٠، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ٣٦٣، ٣٦٦.

سبأ ٣٣.

سدرة المنتهى ٥٣٦.

سويسرا ٢٧.

الشام ٢٧، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ١١٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٦٩، ١٨٧، ١٩١، ١٩٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،
٢٣٤، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٦٦، ٤٤١، ٤٥٢، ٥١٧، ٥٣٧، ٥٢٧، ٥٦٥، ٥٩٤.

شعب أبي طالب ٥١٢.

صحراء الشام ٢٧.

صحراء العرب ٢٧، ٣١.

صحراء النفوذ ٢٥٨.

صنعاء ٣٢، ٣٣.

ضجنان ٦١٨.

(682)

الظهران ٢٨.

الطائف ٢٩، ٥٤، ٩٠، ٢٤٧.

العدن ٣١.

العراق ٨٧، ١٤٩، ٣٦٥، ٢٦١، ٣٦٨، ٣٧٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٩٥.

العربية السعودية ٤١ ، ٥١٢ .

العرم

عسفان

العقبة ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ .

عكاظ (سوق) ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦ .

غار ثور ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٦٠١ ، ٦٠٣ ، ٦١٩ .

غزة ١٤٩ .

الفرات ٢٧ ، ٨٧ ، ١٢٠ ، ٣٧١ .

فرنسا ٢٧

فلسطين ٢٧ ، ٢٩ ، ٣٧ ، ١١٧ ، ١٤١ ، ٥٣٦

القاهرة ٣٧٩ .

قبا ٦١٧ .

القسطنطينية ٨٩ .

القطيف ٥١١ .

قم ٥١٢ .

الكعبة المعظمة ٢٩ ، ٣٠ ، ٥٤ ، ١٣٣ ، ١٤٥ ، ١٥٥ ، ١٥٧ ، ١٥٩ ، ١٦٢ ، ١٦٤ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٢ ، ٢٠٧ ، ٢٤٩ ، ٢٦٥ ،

٢٨٣ ، ٢٨٤ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٢٩٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٧ ، ٤٠٤ ، ٤٣٢ ، ٤٤١ ، ٤٨٨ ، ٥٠١ ، ٦١١ .

الكوفة ٨٨ .

مازندران ١٠٦ .

مجنة (سوق) ٢٤٥.

المحيط الهندي ٢٧.

مدين ٢٣١.

المدينة المنورة ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٥١، ٥٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٧، ١٠١، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٥، ١٦٠، ٢١٩، ٢٩١، ٣٨٢،

٤٤٢، ٥١٢، ٥٦١، ٥٦٥، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠٤، ٦٠٩، ٦١٢، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٢،

٦٢٣، ٦٢٤.

مراكش ٥٩٦.

مروة (جبل) ١٤٣، ٢٣٥.

المسجد الاقصى ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩.

المسجد الحرام ٢٨٤، ٤١٨، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٦٠.

مصر ١٢١، ١٤١، ٢٤٣.

المغمس ١٦٢.

مكة المكرمة ٢٩، ٣٠، ٣٧، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٩٠، ٩١، ٩٦، ١٠١، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠،

١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧،

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،

٣٠٣، ٣٠٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٥١،

٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠١،

٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥١٥، ٥٢٢، ٥١٩، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٧٥،

٧٥٦، ٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٧، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨.

نجد ٣١، ٤١.

نجران ٨٩، ١٦٠، ٦١٠.

نينوى ١١٨، ٥٥٨.

الهند ٨٥، ١١٥، ٢٦٥.

وادي القرى ٢٣١، ٥٦٥.

يثرب ٣٠، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٠، ١٩٧، ٢٧٧، ٣٠٣، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٨٣، ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦٢٢، ٦٢٤.

اليمن ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤١، ٨٦، ٨٩، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ١٨٧، ٢٣٣، ٢٩٣، ٤٥٢،

٥٦٥، ٥٩٥.

اليمامة ٤٨٦.

اليونان ٣١.

(9)

المذاهب والأديان ونظم الحكم

الآشورية ٤٠.

الأحناف ٢٨٣.

الاستشراق والمستشرقون ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٥.

الاشكنازي ٨٧.

الرياضة والمرتاؤون ١٨٢، ١٨٤.

الزردشنية ١١٢، ١١٤، ١١٥.

الشاهنشاهية ٨٦، ٦١٤، ٦١٥.

العثمانية ٣٦٧.

الكهانة ١٥٨.

الاهوتية ١٠٠.

المانوية ١١٢.

المجوسية والمجوس ١١٢، ١١٣، ١١٧.

المزدكية ١١٣، ١١٤.

المدرسية (الفلسفة) اسكولاستيك ١٠٠.

النصرانية والنصارى ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٧٩.

اليعقوبية ٩٩.

الوهابية والوهابيون ٥٩٦.

اليهود واليهودية ١٥٩، ٢٩١، ٣٨٢، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٧٥، ٤٨٧، ٥٦٥، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٣، ٥٧٤.

(686)

(10)

فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة ضمناً

-[بحث علمي حول المعجزة

2-طهارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من دنس الآباء وعهر الأمّهات

3-الاحتفال بذكرى المولد النبويّ ليس شركاً

4-خطأ المستشرقين في اسم النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم -

«5-أحمد» كان من أسماء النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - المشهورة

6- نظرة الإسلام في تأثير الرضاع

7- بحث قرآني وتاريخيّ حول كرامات فترة الطفولة عندالنبي

8- مقايسة عابرة بين القرآن والعهدين

9- خديجة في احاديث الرسول واهل بيته - عليهم السلام -

10-بحث حول دين النبي قبل البعثة

11-دور الانبياءالاساسي في اصلاح المجتمع

12-بحث حول الوحي في نظر الماديين والالهييين

13-مناقشة الاساطير المدسوسة في قصة بدء نزول الوحي

14-خاتمية رسول الاسلام

15-النبوة والامامة توأمان

16- أسرار النزول التدريجيّ للقرآن

17- دراسة لأيات من سورة الحج حول إلقاء الشيطان

18- دراسة علمية لحديث الضحاح

19- المعراج والقوانين العلميّة الحديثة

20- لماذا اتخذ العام الهجري ميّداً للتاريخ الإسلامي

165

165

208

212

213

217

219

236

258

292

316

322

340

353

442

444

494

530

548

605

(687)

فهرس المواضيع

- [شبه الجزيرة العربيّة

أو مهد الحضارة الإسلامية

27- 33

مكة المعظمة

تاريخ مكة

المدينة المنورة

29

29

30

-2العرب قبل الإسلام

35- 96

أخلاق العرب و تقاليدهم

هل كان للعرب حضارة؟

ملاحح المجتمع الجاهلي العربي من منظور القرآن

1- الشرك في العبادة

2- إنكار المعاد

3- هيمنة الخرافات

4- الفساد الاخلاقي

5- وأد البنات وإقبارهنّ

6- تصوّراتهم الخرافية حول الملائكة

7- كيفية الانتفاع من الانعام

8- الإستقسام بالأزلام

9- النسيء

10- الربا

37

39

42

43

43

44

45

46

47

47

48

48

49

(688)

صور من الوضع الجاهلي

العقيدة والدين في الجزيرة العربية

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت

الأداب مرآة أخلاق الشعوب ونفسياتها

مكانة المرأة عند العرب الجاهليين

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب

العرب والرّوح القتالية

الأخلاق العامّة في المجتمع العربي الجاهليّ

النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع العربي الجاهليّ

الخرافات عند العرب الجاهليين

نماذج من الخرافات في المجتمع العربي الجاهليّ

1- الاستسقاء باشعال النيران

2- ضرب الثور إذا عافت البقر الماء

3- كى صحيح الابل ليبراً السقيم

4- حبس ناقة عند القبر إذا مات

5- عقر الإبل على القبور

6- نهيق الرجل إذا أراد دخول القرية

7- تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدي

8- الرثم

9- وطى المرأة القتل الشريف لبقاء ولدها

10- طرح السنّ نحو الشمس إذا سقطت

11- تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون

12- دم الرئيس يشفي

13- شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل

14- معالجة المرضى بالأموور العجيبة

50

52

56

57

58

60

64

66

67

70

72

72

72

73

73

74

74

75

75

75

76

76

(689)

15- خرافات في مجال الغائب

16- عقائدهم العجيبة في الجن وتأثيره

17- تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات

أوضاع العرب الاجتماعية قبيل ظهور الإسلام

الدين في أرض الحجاز

العلم والثقافة في الحجاز

الإمام عليّ - عليه السلام - يصف العهد الجاهلي

فاطمة الزهراء - عليها السلام - تصف الوضع العربي الجاهلي

جعفر بن أبي طالب يصف الوضع العربي الجاهلي

83

89

91

92

95

96

3-إمبراطوريتنا الروم وإيران

إبان عهد الرّسالة

97- ١١٨

أوضاع الروم إبان عهد الرّسالة

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومى

أوضاع ايران إبان عهد الرّسالة

البيذخ والترف في البلاط الساساني

الوضع الإجتماعي في إيران

حق التعلّم خاصّ بالطبقات الممتازة

صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز

حكم التاريخ في عهد الملوك الساسانيين

الفوضى في الحكومة الساسانية

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين

الحروب الإيرانية الرومية

98

99

101

102

104

105

109

110

111

112

165

(690)

-4أسلاف رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم -

119-198

-1بطل التوحيد: إبراهيم الخليل - عليه السلام -

النبي إبراهيم ومكافحته للوثنية

حوار الخليل مع عبّاد الكواكب

طريقة الانبياء في الحوار والجدال

هل كان أزر والد إبراهيم

القرآن ينفي أبوة أزر لإبراهيم

إبراهيم محطّم الاصنام

العبر القيّمة في هذه القصة

هجرة الخليل - عليه السلام -

عين زمزم كيف ظهرت؟

2- قصي بن كلاب (الجّد الثاني لرسول الله)

3- عبد مناف (الجّد الثالث)

4- هاشم (الجّد الثاني)

أميّة يحسد هاشماً!

هاشم يتزوّج

5- عبدالمطلب (الجّد الأول)

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر

حادثة عام الفيل

ما هي عوامل هذه الحادثة؟

عبدالمطلب يذهب إلى معسكر أبرهة

كلمة حول المعجزة

نقاط تقتضي التأمل في تفسير حادث الفيل بالجدري

119

123

125

29

130

132

133

137

141

143

146

147

148

150

151

153

157

159

160

163

165

169

(691)

بحث علمي حول المعجزة في نقاط خمس:

1- [بحث ما هي المعجزة وما هو تعريفها؟]

2- هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة

أنواع العلل والاسباب:

(أ) العلة الطبيعية العادية

(ب) العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة

(ج) تأثير النفوس والأرواح

(د) العلل المجردة عن المادة

3- هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟

4- كيف تدل المعجزة على صحة ادعاء النبوة؟

5- بماذا نميز المعجز عن غيرها من الخوارق؟

أوهام قريش تتفاقم

عبدالله والد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

دور الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام

قصة فاطمة الخثعمية

علائم الاختلاق في هذه القصة

طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات

وفاة عبدالله (والد النبي) في يثرب

172

173

175

176

176

176

176

177

178

179

180

187

189

191

192

193

195

196

-5مولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

199 - ٢٢٤

فترة الطفولة في حياة العظماء

في أي يوم ولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

أي هذين القولين هو الصحيح؟

فترة الحمل

199

203

204

205

نظرية في يوم المولد النبوي ومواخزات عليه

الاحتفال بذكرى المولد النبوي ليس شركاً

مراسم تسمية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

خطأ المستشرقين في اسم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

أحمد كان من أسماء النبي المشهورة

فترة الرضاع في حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع

207

208

211

212

213

215

217

-فترة الطفولة في حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

الماديون وبعض المستشرقين وكرامات عهد الطفولة

خمسة اعوام في ربوع الصحراء

219

7-العودة إلى احضان العائلة

225- ٢٤٢

سفرة إلى يثرب

وفاة عبدالمطلب

كفالة أبي طالب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

سفرة إلى الشام مع أبي طالب

اكذوبة المستشرقين في قصة بحيرى

مقارنة بين القرآن والتوراة والانجيل

1-النبي داود - عليه السلام -

2-النبي سليمان - عليه السلام -

3-النبي يعقوب - عليه السلام -

4-النبي إبراهيم - عليه السلام -

5-النبي نوح - عليه السلام -

227

229

229

230

232

236

237

237

238

239

240

(693)

-فترة الشَّبَاب

في حياة النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

243 - ٢٥٠

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقدرته الروحية

حروب الفجار

الفجار الأول

الفجار الثاني

الفجار الثالث

الفجار الرابع

جلف الفضول

244

244

245

246

246

246

248

-9من فترة الشباب إلى مزاولة التجارة

251 - ٢٧٤

رعي النبي للغنم وأسباب ذلك

إقتراح أبي طالب بالتجارة لخديجة

هل عمل النبي اجيراً لخديجة؟

خديجة زوجة الرسول الأولى

خديجة في أحاديث الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

كيف تمت خطبة خديجة؟

عمر خديجة عند زواجها بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

253

254

255

258

260

270

272

274

10- من الزواج إلى البعثة

275- ٣١٢

فترة الشباب في حياة رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم -

276

(694)

أحاسيسه ومشاعره الانسانية في فترة الشباب

أولاد خديجة

حدس لا أساس له من الواقع في شأن خديجة

دعى رسول الله: زيد بن حارثة

بداية الخلاف في صفوف الوثنيين

أعمدة الوثنية تهتز

نموذج آخر من ضعف قریش

أمین قریش یکفل علیاً

إیمان النبىّ وأبائه وكفلائه قبل الإسلام

إیمان جدّه عبدالمطلب

إیمان كفيله وعمه أبی طالب

إیمان والدي النبىّ الأكرم

إیمان النبىّ بالله وتوحيده قبل البعثة

مناقشة الآيات التي استدلت بها النافون لإيمان النبىّ

الآية الأولى: الهداية بعد الضلال

الآية الثانية: الأمر بهجر الرجز

الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والإيمان

تفسير هذه الآية بأخرى

الآية الرابعة: عدم رجائه لقاء الكتاب إليه

الآية الخامسة: قوله تعالى: «لو لم يشأ ما تلوته»

277

278

278

279

280

281

283

285

286

286

290

291

292

292

297

300

302

306

308

310

11- بدء الوحي

313-342

دور الأنبياء الأساسي في إصلاح المجتمع

مثل واضح في المقام

317

317

(695)

أمين قريش في غار حراء

بدء الوحي

ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين

الروح المجردة

ظاهرة الوحي عند الماديين

أبرز التحليلات المادية لظاهرة الدين

ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين

قنوات المعرفة الثلاثة: التجربة، العقل، الإلهام

انواع الوحي من المنظور القرآني

اساطير مختلفة حول حال النبي عند نزول الوحي

بقية قصة نزول الوحي الأول

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل

بطلان هذه المزاعم والاساطير

319

321

322

324

325

325

333

334

336

336

337

338

340

12- متى نزل الوحي أولاً؟

343-352

الرأي المشهور بين علماء السنة واستدلّاهم

ردود الشيعة على هذا الرأي

الجواب الأول (التفريق بين النزول الدفعي والتدريجي)

الجواب الثاني (نزول حقيقة القرآن في رمضان على قلب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

الجواب الثالث (التفكيك بين مبدأ نزول القرآن و البعثة)

الانبياء والتبشير برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

محمد خاتم الانبياء

343

344

346

346

346

* * *

(696)

13- ماسبقني أحد

353- 386

من هو أول من آمن بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من الرجال والنساء؟

من النساء: خديجة

أقدم الرجال إسلاماً: علي بن أبي طالب

الدلائل التاريخية والنصوص الدالة على اسبقية الإمام علي

علي تربي في حجر النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

علي وخديجة يقيمان الصلاة مع النبيّ

«أنا الصّدّيق الأكبر»

«أولكم إسلاماً عليّ»

النصوص النبويّة الأخرى

كلمات أمير المؤمنين - عليه السلام -

كلمات الإمام السبط الحسن - عليه السلام -

رأي الصحابة والتابعين في أول من أسلم

مناظرة بين المأمون وإسحاق في إسلام عليّ

قضيّة انقطاع الوحي

اسطورة وليس تاريخاً

اختلاف المؤرخين في مسألة إنقطاع الوحي

353

353

354

354

355

357

357

358

359

361

364

364

378

379

380

381

14- الدعوة السريّة، دعوة الأقرّبين

387- ٤٠٠

دعوة الأقرّبين

كيفية دعوة الأقرّبين

خيانة تاريخية وجناية أدبيّة

389

394

395

15-الدعوة العامة

401- ٤٢٨

الثبات والاستقامة على طريق الهدف

ثبات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - **وصبره**

قريش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة

قريش تحاول تطبيع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

نماذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين

أبوجهل يكمن لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

أبولهب يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

صبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - **وإستقامته**

بعض من أوذوا بأشد الأذى:

1-بلال الحبشي

2-آل ياسر رمز الصمود والمقاومة

3-عبدالله بن مسعود

4-أبوذر أول المهاجرين بالإسلام

قبيلة غفار تعتنق الإسلام

أعداء النبي الألداء

عمر بن الخطاب يعنتق الإسلام

402

403

406

407

408

412

413

414

414

415

416

417

418

421

422

424

16- رأي قريش في القرآن

428- ٤٤٩

حكيم الوليد بن المغيرة في شأن القرآن

نموذج آخر من حكم البلغاء في شأن القرآن

428

430

(698)

تحجّجات قريش العجيبة

الدوافع وراء معاداة قريش و عنادهم:

1- حسدهم لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

2- معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم

3- الخوف من العقاب الأخرى

4- الخوف من ردّ فعل القبائل العربية المشتركة

طائفة من اعتراضات المشركين

القرآن الكريم والنزول التدريجي

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن الكريم

أسرار أخرى لنزول القرآن تدريجاً

432

438

440

440

440

441

441

442

444

447

17- الهجرة إلى الحبشة

450- ٤٦٥

الهجرة الأولى إلى الحبشة

الهجرة الثانية إلى الحبشة

قريش توفد رجالا لاسترداد المسلمين

العودة من الحبشة

وفد مسيحي يدخل مكة لتقصي الحقائق

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق في أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

450

454

455

460

462

463

18- الاسلحة الصديئة

والاساليب الفاشلة

466. ٤٨٦

1- الإتهامات الباطلة

الإصرار في نسبة الجنون إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

466

469

(699)

2- القرآن يردّ على جميع الاتهامات

فكرة معارضة القرآن

تحجّجات صيدانية وجاهلية

مقترحات عجيبة ومطالب غريبة

صمود النبيّ وصبره

معاجز النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لم تقتصر على القرآن

بعض معاجز النبيّ غير القرآن

1-شقّ القمر

2-المعراج

3-مباهلة أهل الباطل

4-الإخبار بالمغيبات

حرص النبيّ على هداية قريش

3-قرار تحريم الاستماع للقرآن

واضعوا القرار ينقضون قرارهم

منع الأشخاص من الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

1-الأعشى

2-الطفيل بن عمرو الدوسي

471

473

474

476

477

478

478

478

478

479

479

480

481

483

483

484

485

19- أسطورة الغرائيق

487- ٤٩٨

ماهي أسطورة الغرائيق؟

محاسبة بسيطة لهذه الأسطورة تفنّدها

رأي العقل في هذه القصّة الاسطورة

تفنيد القصّة من طريق آخر

دليلٌ لغوئٌ على تفنيد هذه الأسطورة

دراسة آيات من سورة الحج حول القاء الشيطان

488

489

490

492

493

494

(700)

ما هو المقصود من تمنّي الأنبياء والرّسل؟

ما هو المقصود من تدخّل الشيطان والقائه؟

ما هو المقصود من محو آثار التدخّل والإلقاء

495

495

497

20- الحصار الاقتصادي والاجتماعي

499 . ٥١٠

قريش تحاصر النبيّ والمسلمين اجتماعياً وإقتصادياً

قريش والصحيفة القاطعة

وضع بني هاشم المأساوي في شعب أبي طالب

500

503

-21 وفاة أبي طالب وخديجة الكبرى

511- ٥٣٣

نماذج من مشاعر أبي طالب تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

التعبير في برنامج السفر

الدفاع عن حوزة العقيدة والإيمان

تصوّر باطل عن مشاعر أبي طالب تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

الدافع الحقيقي لأبي طالب

لمحات من تضحيات أبي طالب

قضية ذات بواعث سياسية

طرق ثلاث لإثبات إيمان أبي طالب

-1 آثار أبي طالب العلمية والأدبية

-2 موافقه من النبي والرسالة الإسلامية

وصية أبي طالب عند وفاته

-3 شهادات اقرباء أبي طالب (من أهل البيت)

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

نظرة إلى رواية الضحاح

ضعف أسناد هذه الرواية

514

517

518

520

520

521

523

524

525

526

528

529

530

530

531

الف: سفيان بن سعيد الثوري

باء: عبد الملك بن عمير

جيم: عبدالعزيز بن محمد الدراوردي

نص حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة

1- القرآن الكريم: لامغفرة للكافر

2- السنة النبوية: لا شفاعة للمشرك

531

531

532

532

533

533

22- المعراج في القرآن والسنة والتاريخ

535- 554

هل للمعراج جذور قرآنية؟

أحاديث المعراج

متى وقعت هذه الحادثة؟

هل كان المعراج جسمانياً؟

ما هو المراد من المعراج الروحاني

نغمة شاذة

المعراج وقوانين العلم الحديث

الهدف من المعراج

537

540

541

543

544

547

548

553

23- سفرة إلى الطائف

555- ٥٦٤

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعود إلى مكة

نقطه هامة

الدعوة في أسواق العرب

دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج

559

561

562

563

-24بيعة العقبة

565- ٥٨٢

وقعة بُعِثَتْ

تفصيل الحادثة

567

568

(702)

بيعة العقبة الاولى

بيعة العقبة الثانية

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي

مخاوف قريش المتزايدة

569

570

573

575

577

580

25- قصّة الهجرة النبويّة

حوادث السنة الاولى من الهجرة الشريفة

583- 624

الإمدادات الغيبية والعنايات الربانية

ملاك الوحي يخبر رسول الله بمؤامرة قريش

إقحام الاعداء لبيت الوحي والرسالة

النبيّ في غار ثور

قريش تفتش عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم -

التفاني في سبيل الحق

كلام من ابن تيمية في مبيت علىّ - عليه السلام -

الجواب التفصيلي على هذا الكلام

الخطيب وقضية المبيت

بقية قصة الهجرة النبوية

الخروج من الغار

صفحة التاريخ الاسلامي الأولى

لماذا أصبح عام الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة

من أذني جعل الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي

نماذج من رسائل النبي المؤرخة بالعام الهجري

585

587

590

591

592

593

596

598

600

601

603

604

605

606

608

609

(703)

التذكير بنقطتين

مؤامرة الطاغوت

برنامج الرحلة في حادث الهجرة

النزول في قرية قباء

المدينة تهب لاستقبال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يدخل المدينة

أصل النفاق ومنشأه

613

614

615

617

619

621

إنّ سياسة العالم الذين لاتهمهم إلا إرساء قواعد حكمهم وسلطانهم على

(69)

الشعوب لا يتورعون عن التوسل بأية وسيلة، والاستفادة من اية واقعة في سبيل تحقيق مآربهم حتّى أنهم لا يتأخرون عن التذرع بترويح الخرافات والأساطير القديمة بين الشعوب للوصول إلى سدة الحكم، أو البقاء فيها ما امكنهم ذلك. ولو اتفق أن كانوا رجالاً موضوعيين ومنطقيين فانهم في هذه الحالة دافعوا عن تلك الخرافات والأوهام والاساطير التي لا تنسجم مع اي مقياس عقلي بحجة الحفاظ على التراث القومي، أو احترام رأي اكثرية الشعب، أو ما شابه ذلك من الحجج المرفوضة.

ولكنّ رسول الإسلام لم يكتف بإبطال المعتقدات الخرافية التي كانت تلحق الضرر به، وبمجتمعه، بل كان يكافح ويحارب بجميع قواه كل أسطورة أو خرافة شعبية أو فكرة فاسدة باطلة، تخدم غرضه، وتساعد على تحقيق التقدم في دعوته ويسعى إلى أن يجعل الناس يعشقون الحقيقة لا ان يعبدوا الخرافات، ويكونوا ضحايا الاساطير والأوهام، واليك واحداً من هذه المواقف العظيمة على سبيل المثال لا الحصر.

لمامات إبراهيم بن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ابنه الوحيد، حزن عليه النبي حزناً شديداً فكانت تنحدر الدموع منه على غير اختيار، واتفق ان انكسفت الشمس في ذلك اليوم أيضاً، فذهب المولعون بالخرافة في ذلك المجتمع (العربي) على عادتهم إلى ربط تلك الظاهرة بموت إبراهيم واعتبار ذلك دليلاً على عظمة المصاب به فقالوا: انكسفت الشمس لموت ابن رسول الله، فصعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المنبر وقال: «أيها الناس انّ الشمس والقمر آيتان من آيات الله يجريان بامرّه، ومطيعان له، لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، فاذا انكسفا، أو أحدهما صلوا. »

ثم نزل من المنبر فصلى بالناس صلاة الكسوف وهي ما تسمى بصلاة الايات. (1)

- [بحار الأنوار: ج ٩١، ص ١٥٥.

(70)

ان فكرة انكساف الشمس لموت ابن صاحب الرسالة وان كان من شأنها ان تقوي من موقع النبي في قلوب الناس، وتخدم بالتالي غرضه، وتساعد على انتشار دعوته، وتقدمها، إلا أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - رفض ان يحصل على المزيد من النفوذ في قلوب الناس من هذا الطريق.

على أن محاربة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للخرافات والاساطير التي كانت نموذجاً بارزاً من محاربه للوثنية، وتأليه المخلوقات وعبادتها، لم تكن من سيرته في عهد الرسالة بل كان ذلك دأبه في جميع أدوار حياته، حتى يوم كان صبياً يدرج، فإنه كان يحارب الاوهام والخرافات، ويعارضها في ذلك السن أيضاً.

تقول حليلة السعدية مرضعة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :لما تمَّ له (اي لمحمد) ثلاث سنين قال لي يوماً: «يا أمّاه مالي لا أرى أخوّي بالنهار»؟

قلت له: يا بنيّ إنهما برعيان غنيمات، قال: «فمالي لا أخرج معهما»؟ قلت له: تحبُّ ذلك؟ قال: نَعَمْ. فلما أصبح دهنته وكحلته وعلقت في عنقه خيطاً فيه جزع يمانية (وهي من التمام الباطلة كانت تعلق على الشخص في أيام الجاهلية لدفع الأفات عنه)، فنزَعها، وقال لي: «مَهْلا يا أمّاه فإنَّ مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِي». (1)

الخرافات في عقائد العرب الجاهلية:

كانت عقائد جميع الامم والشعوب العالمية يوم بزوغ شمس الإسلام مزوجة بألوان من الخرافات والأساطير.

فالاساطير اليونانية والساسانية كانت تخيم على افكار الشعوب التي كانت تعدُّ في ذلك اليوم من أرقى الشعوب والمجتمعات.

على انه لا تزال خرافات كثيرة تسود وإلى الآن في المجتمعات الشرقية المتقدمة، ولم تستطع الحضارة الراهنة أن تزيلها من حياة الناس ومعتقداتهم.

- إبحار الانوار: ج ١٥، ص ٣٩٢.

(71)

إن تنامي الخرافة «يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمستوى العلمي والثقافي في كل مجتمع، فيقدر ما يكون المجتمع متخلفاً من الناحية الثقافية والعلمية تزداد نسبة وجود الخرافة ومقدار نفوذها في عقول الناس ونفوسهم.

لقد سجل التاريخ عن سكان شبه الجزيرة العربية طائفة هائلة وكبيرة من الاوهام والخرافات، وقد جمع السيد محمود الألوسي اكثرها في كتابه «بلوغ الارب في معرفة احوال العرب»، مُرفقاً كل ذلك بما حصل عليه من الشواهد الشعرية وغيرها. (1)

ومن يتصفح هذا الكتاب يقف على ركام هائل من الخرافات التي كانت تملأ العقل العربي الجاهل آنذاك وتعشعش في نفوسهم، وقد كانت هذه السلسلة الرهيبة من الأوهام هي السبب في تخلف هذا الشعب عن بقية الشعوب والأمم الأخرى.

ولقد كانت هذه الخرافات من أكبر السدود في طريق تقدم الدعوة الإسلامية، ولهذا أجتهد النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بكل طاقاته في محو وازالة آثار الجاهلية التي لم تكن سوى تلك الأوهام والاساطير والخرافات.

فعندما وجّه «معاذ بن جبل» إلى اليمن اوصاه بقوله:

«وامتُ أمرَ الجاهليّةِ إلا ما سنَّه الإسلامُ و أظهرُ أمرَ الإسلامِ كلّه صغيرة وكبيرة. (2)»

لقد وقف رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمام جماهير كبيرة من العرب الذين كانت عقولهم ترزخ تحت الافكار والمعتقدات الخرافية ردها طويلا من الزمن يعلن عن نهاية عهد الأفكار والاهام الجاهلية إذ قال: «كُلُّ مَأْتِرَةٍ فِي الْجَاهِلِيَّةِ تَحْتَ قَدَمِي. (3)»

- 1 بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج ٢، ص ٢٨٦ - ٣٦٩.
- 2 تحف العقول: ص ٢٥.
- 3 السيرة النبوية: ج ٣، ص ٤١٢.

(72)

نماذج من الخرافات في المجتمع الجاهلي:

وللوقوف على مدى أهمية التعاليم الإسلامية وقيمتها نلفت نظر القارئ الكريم إلى نماذج من هذه الخرافات، ومن أراد التوسع راجع المصدر المذكور.

-1- الاستسقاء باشعال النيران:

كانت العرب إذا أجدبت، وأمسكت السماء عنهم، وأرادوا أن يستمطروا عمدوا إلى السلع والعشر (وهما أشجار سريعة الاشتعال) فحزموهما، وعقدوهما في أذنان البقر، وأضرموا فيها النيران وأصعدوها في جبل وعر، واتبعوها يدعون الله تعالى، ويستسقونه، وانما يضرمون النيران في أذنان البقر تفاولا للبرق بالنار... وكانوا يسوقونها نحو المغرب من دون الجهات الأخرى، وكانت هذه النيران والابقار إذا صاحت من وجع الاحتراق ظنّت العرب بان ذلك هو الرعد!!!

وقد قال شاعرهم في ذلك:

يا (كحل) قد أثقلت أذنان البقر * بسلع يُعقدُ فيها وعُسر

فهل تجودين ببرق أو مطر؟

-2- ضرب الثور إذا عافت البقر:

كانوا إذا أوردوا البقر فتمتنع من شرب الماء، ضربوا الثور ليقحم الماء، بعده ويقولون: إن الجن تصد البقر عن الماء، وأن الشيطان يركب قرني الثور، ولا يدع البقر تشرب الماء، ولذلك كانوا يضربون وجه الثور.

وقد قال في هذا شاعرهم:

كذلك الثور يضرب بالهراوى * إذا ما عافت البقر الظماء

وقال آخر:

فإني إذا كالتور يضرب جنبه * إذا لم يعف شرباً وعافت صواحيبه⁽¹⁾

- [عافت أي كرهت شرب الماء.

(73)

وقال ثالث:

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها * يكسر ضرباً وهو للورد طائغ

وما ذنبه إن لم ترد بقراته * وقد فاجأها عند ذلك الشرائع

-3- صحیح الإبل ليبراً السقيم:

إذا كان يصيب الإبل مرض أو قرح في مشافرها واطرافها عمدوا إلى بعير صحيح من تلك الإبل فكروا مشفرة وعضده وخذته يرون أن ذلك إن فعلوه ذهب الغر والقرح والمرض عن إبلهم السقيمة، ولا يعرف سبب ذلك.

وقد احتمل البعض أنهم إنما كانوا يفعلون ذلك وقاية للصالح من الإصابة بالغر الذي أصاب غيرها، أو أنه نوع من المعالجة العلمية، ولكن لماذا ترى كانوا يعمنون إلى بعير واحد من بين كل تلك الإبل، فلا بد من القول بأن هذا الفعل كان ضرباً من الاعمال الخرافية التي كانت سائدة في ذلك المجتمع الجاهلي قبل الإسلام.

وقد قال شاعرهم عن ذلك:

وكلفتني ذنب امرئ وتركته * كدى الغري كوى غيره وهو راتع

وقال آخر:

كمن يكوي الصحيح يروم بُرءاً * به من كل جرباء الإهاب

وقال ثالث:

فألزمتني ذنباً وغيري جرّه * حنانيل لا تكو الصحيح بأجربا

4- حبس ناقة عند القبر أدامات كريم:

إذا مات منهم كريم عفلوا ناقته أوبعيره عند القبر الذي دُفن فيه ذلك الكريم، فعكسوا عنقها، وأداروا رأسها إلى مؤخرها وتركوها في حفيرة لا تطعم ولا تسقى حتى تموت، وربما أحرقت بعد موتها وربما سلخت وملىء جلدُها ثماماً، وكانوا يزعمون أن من مات ولم يُبل عليه (اي لم تعفل ناقة عند قبره هكذا)

(74)

حشر ماشياً، ومن كانت له بلية (اي ناقة عقلت هكذا) حُشِر راكباً على بليته.

وقد قال أحدهم في هذا الصدد:

إذا متُّ فادفني بحراء مابها * سوى الأصرخين أو يفوز ركب

فإن أنت لم تُعقر على مطيتي * فلا قام في مال لك الدهر حالب

وقال آخر وهو يوصي ولده بان يفعلوا له ذلك:

أبني لا تنس البليّة إنها * لأبيك يوم نُشوره مركوب

5- عقر الإبل على القبور:

كانوا إذا مات أحدهم ضربوا قوائم بعير بالسيف عند قبره، وقيل انهم كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت المضيف على ما كان يعقره من الإبل في حياته وينحره للاضياف.

وقد ابطلت الشريعة المقدسة هذه العادة الباطلة في ما أبطلته فقد جاء في الحديث «لا عقر في الإسلام.»

وقد قال أحدهم حول العقر هذا:

قُلْ للقوافل والغزاة إذا غزوا * والباكرين وللمجد الرائح

إن الشجاعة والسماحة ضُمنا * قبراً بمرور على الطريق الواضح

فإذا مررت بقبره فاعقُبه * كَوْمَ الجِلاَدِ وكل طرف سابع

وأنضح جوانب قبره بدمائها * فلقد يكونُ آخا دم وذباح

6- نهيق الرجل إذا اراد دخول القرية (التعشير):

ومن خرافاتهم أن الرجل منهم كان إذا اراد دخول قرية فخاف وباءها أو جنَّها وقف على بابها قبل ان يدخلها فنَهَقَ نهيقَ الحمار، ثم علَّق عليه كعبَ ارنب كأنَّ ذلك عوذة له، ورقية من الوباء والجن ويسمون هذا النهيق التعشير.

قال شاعرهم:

ولا يَنْفَعُ التعشيرُ أنْ حُمَّ واقع * ولا زعزُعٌ يُعني ولا كعبُ ارنب

(75)

وقال الآخر:

لعمري إن عثرتُ من خيفة الردى * نهاقَ حمير أنني لجزوع

7- تصفيق الضالِّ في الصحراء ليهتدي:

فقد كان الرجلُ منهم إذا ضلَّ في فلاة قلب قميصه وصفق بيديه، كأنه يرمي بهما إلى انسان مهتدي.

قال أعرابي في ذلك:

قلبتُ ثيابي والظنونُ تجولُ بي * ويرمي برجلي نحو كلِّ سبيل

فلأياً بلائي ما عرفت حليتي * وأبصرتُ قصداً لم يُصنَّب بدليل

8-الرتم:

وذلك أن الرجل منهم كان إذا سافر عمَد إلى خيط فعقده في غصن شجرة أوفي ساقها فإذا عاد نظر إلى ذلك الخيط فإنَّ وجدته بحاله

علم ان زوجته لم تخنه وان لم يجده أو وَجَدَهُ محلولا قال: قد خانتني. وذلك العقد يسمى «الرتم.»

قال شاعرهم في ذلك:

خانتها لما رأته شبيهاً بمفرقه * وغرّه حلفها والعقد للرتم

وقال الآخر:

لا تحسبن رثائماً عقدها * تنبيك عنها باليقين الصادق

وقال ثالث:

يعلل عمرو بالرتائم قلبه * وفي الحى ظبى قد أحلت محارقه

فما فغعت تلك الوصايا ولا جنث * عليه سوى ما لا يحب رثائمه

-9وطي المرأة القليل الشريف لبقاء ولدها:

فقد كانت العرب تقول: ان المرأة المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد، إذا وطنت القليل الشريف عاش ولدها.

(76)

قال احدهم:

تظل مغاليت النساء يطأنه * يفلن ألا يلقى على المرء منزر

-10طرخ السن نحو الشمس إذا سقطت:

ومن تخيلات العرب وخرافاتهم أن الغلام منهم إذا سقط له سن أخذها بين السبابة والابهام واستقبل الشمس إذا طلعت وقذف بها

وقال: يا شمس ابدليني بسن احسن منها ولتجر في ظلمها آياتك، أو تقول أياؤك، وهما جميعاً شعاع الشمس.

قال احدهم وهو يصف نجر معشوقته:

سفته اياة الشمس إلا لثاته * أسف ولم تكرم عليه بائد

أي كأن شعاع الشمس اعارته ضوءها.

هذا وقد أشار شاعرهم إلى هذا الخيال (أو قل الخرافة المذكورة) إذ قال:

شادنٌ يحلو إذا ما ابتسمت * عن أقاح كاقاح الرملِ غر

بدلته الشمس من منبته * بزداً أبيض مصقول الاثر

-11 تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون:

ومن تخيلات العرب أنهم كانوا إذا خافوا على الرجل الجنون، وتعرض الأرواح الخبيثة له نجسوه بتعليق الاقدار كخرقة الحيض وعظام الموتى قالوا: وأنفع من ذلك أن تعلق عليه طامت عظام موتى ثم لا يراها يومه ذلك. وانشدوا في ذلك:

فلو أن عندي جارئين وراقياً * وعلق أنجاساً علي المعلق

وقالت امرأة وقد نجست ولدها فلم ينفعه ذلك ومات:

نجسته لا ينفع التجيس * والموت لا تفوته النفوس

-12 دم الرئيس يشفي:

فقد كانت العرب تعتقد أن دم الرئيس يشفي من عضة الكلب الكلب.

(77)

قال الشاعر:

بناة مكارم وأساءة جرح * دماؤهم من الكلب الشفاء

وقال آخر:

أحلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكلب

-13 شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل:

ومن أوهامهم وتخيلاتهم أنهم كانوا يزعمون أن الرجل إذا أحب امرأة واحبته فشق برقعها وشقت رداءه صلح حبهما ودام، فان لم يفعل ذلك فسد حبهما، قال في ذلك احدهم:

وكم شققنا من رداء محبر * و من برقع عن طفلة غير عانس

إذا شق برق شق بالبرد برقع * دوايك حتى كلنا غير لابس

نروم بهذا الفعل بُقياً على الهوى * والى الهوى يُغوى بهذي الوسواس

14- معالجه المرضي بالأمور العجيبه:

ومن مذاهبهم الخرافية في معالجه المرضي إذا بثرث شفة الصبي حمل منخلا على رأسه ونادى بين بيوت الحى: الحلا الحلا، الطعام الطعام، فتلقي له النساء كسّر الخبز، واقطاع التمر واللحم في المنخل ثم يلقي ذلك للكلاب فتأكله، فيبرأ من المرض فان أكل صبي من الصبيان من ذلك الذي ألقاه للكلاب تمره أو لقمة أو لحمه بثرث شفته.

فقد رويت عن امرأة أنها انشدت:

ألا حلاً في شفة مشقوقه * فقد قضى منحلنا حقوقه

ومن أعاجيبهم أنهم كانوا إذا طالت علة الواحد منهم، وظنوا أن به مسأ من الجن لانه قتل حية، أو يربوعاً، أو قنفذاً، عملوا جمالا من طين وجعلوا عليها جوالق وملاؤها حنطة وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وبتوا ليلتهم تلك، فاذا اصبحوا نظروا إلى تلك

(78)

الجمال الطين فاذا رأوا انها بحالها قالوا لم تقبل الدية فزادوا فيها وان رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا الدفت.

قال بعضهم:

قالوا وقد طال عنائي والسقم * إحمل إلى الجن جمالات وضم

فقد فعلت والسقام لم يرم * فبالذي يملك برئي اعتصم

وقال آخر:

فيا ليت أن الجن جازوا حمالتي * ورُحزح عني ما عناني من السقم

أعلل قلبي بالذي يزعمونه فيا ليتني عوفيت في ذلك الزعم

ومن مذاهبهم في هذا المجال أن الرجل منهم كان إذا ظهرت فيه القوباء (وهو مرض جلدي) عالجها بالريق.

قال احدهم:

يا عَجَباً لهذه الفليقة * هل تُذهِبَنَّ القُوباءَ الريقة

15- خرافاتٌ في مجال الغائب:

كانوا إذا غَمَّ عليهم أمرُ الغائب ولم يعرفوا له خبراً جاؤوا إلى بئرٍ عادية (أي مظلمة بعيدة القعر) أو جاؤوا إلى حصن قديم ونادوا فيه: يا فلان أو يا أبا فلان (ثلاث مرات)، ويزعمون انه إن كان مَيِّتاً لم يسمِعوا صوتاً، وإن كان حياً سمِعوا صوتاً ربّما توهموه وهماءً، أو سمعوه من الصدى فَبَنُوا عليه عقيدتهم، قال بعضهم في ذلك:

دَعَوْتُ ابا المِغوارِ في الحَفْرِ دعوة * فما أَضَنَ صوتي بالذي كنت داعياً⁽¹⁾

أظُنُّ ابا المِغوارِ في قصرِ مَظلم * تجرُّ عليه الذارياتُ السّوافيا

وقال آخر:

وكمّ ناديتُهُ والليلُ ساج * بِعادى البِئارِ فما أجابا

- [أضن أي عاد ورجع.

(79)

ومن ذلك أن الرجل منهم كان إذا اختلجت عينه قال: (أرى من أحبه) فإن كان غائباً توقع قدومه، وإن كان بعيداً توقع قربيه، وقال أحدهم:

إذا اختَلَجْتُ عيني أقولُ لعلَّها * فتاة بني عمرو بها العينُ تُلمغ

وقال آخر:

إذا اختَلَجَت عيني تَبَيَّنْتُ إنني * أراكَ و إن كانَ المزارُ بعيدا

وكانوا إذا لا يُجِبُونَ لمسافر أن يعودَ إليهم أوقدُوا ناراً خَلَفَهُ ويقولون في دعائهم «أبعده الله وأسحقه وأوقد ناراً إثره» قال بعضهم:

صحوتُ وأوقدتُ لِلجَهِلِ ناراً * وَرد عليك الصبا ما استعارا

16- عقائدهم العجيبة في الجن وتأثيره:

كانت العربُ في الجاهلية تعتقد في الجن وتأثير هذا الكائن في شتى مجالات حياتهم اعتقاداتٌ عجيبة وفي غاية الغرابة.

فتارة تستعبدُ بالجن، وقد استعادَ رجلٌ منهمُ و معهُ ولدٌ فاكلهُ الأسدُ فقال:

قَدْ اسْتَعَدْنَا بِعَظِيمِ الْوَادِي * مِنْ شَرِّ مَا فِيهِ مِنَ الْأَعَادِي

فلم يجرنا من هزبر عادي

وعن الاستعادة بالجن قال الله سبحانه في القرآن: **وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا.** (1)

ومن ذلك إعتقادهم بهتاف الجن. ولهم في هذا المجال أساطيرٌ خرافيةٌ مذكورة في محلها.

ومن هذا القبيل إعتقادهم بالغول، فقد كانت تزعم العربُ في الجاهلية أن الغيلان في الفلوات (وهي من جنس الشياطين) تتراءى

للناس، وتغول تغولا اي تتلون تلوناً فتضلهم عن الطريق، وتهلكهم، ومن هذا القبيل أيضاً إعتقادهم بالسعالى!!

- 1 الجن: ٦.

(80)

وقد قال أحدهم في ذلك:

وساحرةٌ عينيّ لو أنّ عينيها * رأت ما ألقىه من الهول جنت

أبيتٌ وسعلاةٌ وغولٌ بقفرة * إذا الليلُ وأرى الجن فيه أرنت

-17 تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء:

ومن مذهبهم الخرافية تشاؤمهم بأشياء كثيرة وحالات عديدة:

فمن ذلك؛ تشاؤمهم بالعطاس.

وتشاؤمهم بالغراب حتى قالوا: فلانٌ أشام من غراب البين، ولهم في هذا المجال أبياتٌ شعرية كثيرةٌ منها قول أحدهم:

ليت الغرابُ غداةً ينعبُ دأبياً * كان الغرابُ مقطّعَ الأوداج

وكذا تشاؤمهم وتطيرهم بالثور المكسور القرن والثعلب. إلى غير ذلك من التخيلات والأوهام والخرافات والاساطير، والاعتقادات العجيبة، والتصورات الغريبة التي تزخر بها كتب التاريخ المخصصة لبيان أحوال العرب قَبْلَ الإسلام وحتى ابان قيام الحضارة الإسلامية.

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات:

ولقد كافح الإسلام جميع هذه الخرافات بطرق مختلفة، واساليب متنوعة.

أما بالنسبة إلى ما كانوا يفعلونه بالحيوانات فمضافاً إلى أنّ أيّ شيء من هذه الأعمال لا ينسجم مع العقل والمنطق والعلم لأن المطر والغيث لا ينزل من السماء باسعال النيران، وضرب الثيران لا يؤثر في البقر، كما لا ينفع كئ البعير الصحيح في شفاء الإبل السقيمة، وتعتبر هذه الاعمال نوعاً من تعذيب الحيوانات وقد نهى الإسلام بشدة عن تعذيب الحيوانات وايدائها، باي شكل كان.

فقد روي عن النبي - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «للذابية على صاحبها ستُّ خصال:

- [يبدأ بعلفها إذا نَزَلَ.

(81)

2- ويُعرضُ عليها الماء إذا مرَّ به.

3- ولا يضرب وجهها فإنها تسبِّح بحمد ربِّها.

4- ولا يقف على ظهرها إلا في سبيل الله عزَّ وجلَّ.

5- ولا يحملها فوق طاقتها.

6- ولا يكلفها من المشي إلا ما تطيقُ. (1)

كما روي أنه نهى رسول الله - صَلَّى الله عليه وآله وسلم - عن أن توسم البهائم في وجهها، وأن تضرب في جوهها فإنها تسبِّح بحمد ربِّها.

ومن هنا ندرُك ان التعاليم في مجال الرفق بالحيوان، وحمائته، على النقيض من العادات الجاهلية السائدة في البيئة العربية آنذاك.

وأما بالنسبة إلى التمام والأشياء التي كانت تعلّقها العرب على أعناق وصدور رجالها، وأولادها، من الأحجار والخرز، و عظام الموتى، ومعالجة المرضى والمصابين وغيرهم بها أحياناً فقد حاربها الإسلام، بعد أن ابطلها كما ابطل الأفاعيل التي سبق أن ذكرناها قبل هذا.

فلما جاءت جماعات من الأعراب إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسأله عن الرقى والقلائد التي كانوا يتداونون بها أو يسترقونها بدلا عن التداوي بالعقاقير والأدوية قائلين يا رسول الله: انتدأوى؟

قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «تداووا فإن الله لم يضع داء إلا وضع له دواء. (2)»

بل نجد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يأمر سعد بن أبي وقاص عندما أصيب بمرض في فؤاده أن يعالج نفسه عند طبيب إذ قال له لما عادته وعرف بحاله: «إنك رجل مفود، إئت الحارث بن كلدة أبا ثقيف فإنه رجل يتطبّب. (3)»

- [1] من لا يحضره الفقيه: ج ٢، ص ٢٨٦، وراجع للوقوف على أحاديث حقوق الحيوان كتاب الشؤون الاقتصادية: ص ١٣٠ - ١٥٩ أيضاً.
- [2] التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ١٧٨.
- [3] التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ١٧٩.

(82)

هذا مضافاً إلى أنه وردت أحاديث كثيرة تصرّح ببطلان التمام السحرية التي لا تنفع ولا تضرّ أبداً، وها نحن نشير في ما يلي إلى نموذجين من هذه الأحاديث:

- [١] يقول أحدُهم: دخلتُ على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بابت لي قد علقت عليه من الغدرة (وهي قلادة سحرية جاهلية) فقال:

علام تدعُرُن أولادكُن بهذا العلاق، عليكَن بهذا العود الهنديّ» وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - يقصد عصارة هذا العود. (١)

2- روي عن الإمام جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - أنه قال: «إن كثيراً من التمام شريك». (2)»

هذا مضافاً إلى أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأوصيائه الكرام - بارشادهم الناس إلى ما ينبغي أن يتداووا به من العقاقير والأدوية وما أعطوه من تعاليم قيمة كثيرة في هذا المجال مما جمعه المحدثون الكبار تحت عنوان: «طبّ النبي» و «طبّ الرضا» ... و قد وجهوا ضربة قوية أخرى إلى تلك الأوهام والتخيّلات، والخرافات والاساطير التي كان يعاني منها المجتمع العربي الجاهلي قبل الإسلام. (3)

وأما الغول، والطيّرة، والتشاوم، والهامة والنوء فقد حاربها النبي بصراحة إذ قال: - صلى الله عليه وآله وسلم - «لا هامة ولا نوء ولا طيّرة، ولا غول. (4)»

وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : «العيافة والطيّرة والطرق من الجبت. (5)»

- 1 التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ١٨٤.
- 2 سفينة البحار: ج ١، مادة رقي.
- 3 وقد فتح المحدثون من الفريقين أبواباً خاصة لأحاديث الطب النبوي في كتب الحديث أيضاً.
- 4 التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ١٩٦ و ١٩٧ الفصل الرابع باب نفي مزاعم الجاهلية، قال مؤلف التاج: الهامة طائر أو اليوم إذ سقط في مكان تشاءم أهله، أو دابة تخرج من راس القليل أو من دمه فلا تزال تصيح حتى يؤخذ بثاره، والنوء نجم يأتي بالمطر وآخر يأتي بالريح (حسب عقيدة الجاهلية)!!
- 5 التاج الجامع للأصول: ج ٣ ص ٢٠١. قال مؤلف التاج العيافة زجر الطير والتفاؤل بأسمائها وأصواتها كالتفاؤل بالغقاب على الغقاب، وبالغراب على الغربة، وبالهُذُذ على الهُدَى، وكذا بافعالها، وكيفية طيرانها فكانت العرب تزجر الطير وتثيره فما اخذ منها ذات اليمين تبركوا به وتيمّنا وما تياسر منها تشاءموا به (كما في بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٢١٢ تحت عنوان كيفية الزجر عند العرب).
- و«الطرق»: الضرب بالحصى (للاستدلال على أمور غيبية باعتقاد الجاهليين). والجبت هو الباطل.

(83)

وعن النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - أيضاً أنه قال: «إِنَّ الرقي والتمايم والتولة شركٌ»⁽¹⁾.

وعن أحدهم قال: قلت يا رسول الله اموراً كنّا نصنعها في الجاهلية، كنّا نأتي الكهان، قال: فلا تأتوا الكهان، قلت: كنّا نتطير قال: ذلك شيء بجده أذككم في نفسه فلا يصدّكنم. »

إن وجود النهي الشديد والمكّرر في الاحاديث الكثيرة عن الطيرة والتشاوم، والزجر والعيافة والتمايم والتولة والهامة والنوء والغول، والكهانة، وايداء الحيوانات وكيهن، وتعذيبهن، وماشابه ذلك يدل بوضوح وقوة على مدى رسوخ هذه العادات الباطلة في الحياة العربية الجاهلية، يكشف عن مبلغ اعتقادهم بها، ونزوعهم اليها وهو بالتالي يكشف عن مغزى قوله تعالى: **وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ**⁽²⁾ (فأية سلاسل وأغلال أثقل وأساء عاقبة وأشدّ وطنة، من هذه الأغلال... أغلال الخرافة والوهم، وسلاسل التخيلات والاساطير!!؟

أوضاع العرب الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام:

إن أولى خطوة خطاها البشر باتجاه النمط الإجتماعي كانت عندما أقبل على تاسيس وإقامة الحياة القبلية، فالقبيلة تتكون من إجتماع عدة عوائل وأسر مترابطة فيما بينها بوشائج القربى والنسب تحت زعامة شيخ القبيلة، وبهذا يتحقق

- 1 التاج الجامع للأصول: ج ٣، ص ٢٠٣. قال مؤلف الجامع: «التولة»: نوع من السحر يحبب الرجل إلى زوجته، وهو من عمل المشركين (أي في الجاهلية).

- 2 سورة الاعراف: ١٥٧.

(84)

أبسط نمط من أنماط الحياة الإجتماعية.

وقد كانت الحياة العربية - آنذاك - من هذا القبيل، فكل مجموعة من العوائل المترابطة نسبياً تتجمع في شكل قبيلة، وتشكل بذلك مجتمعاً صغيراً يخضع فيه الجميع لأوامر رئيس القبيلة وزعيمها، ولقد كان الجامع بين افراد القبيلة هو الرابطة القومية، والشيجة النسبية، وكانت هذه القبائل تختلف في عاداتها ورسومها، وتقاليدها وأعرافها، اختلافاً كبيراً، وإذ كانت كل قبيلة تعتبر القبائل الأخرى غريبة عنها لذلك كانت لا تقيم للآخرين وزناً ولا قيمة، ولا تعترف لهم باي حق أو حرمة.

ولهذا كانت ترى الإغارة على الآخرين وقتلهم، ونهب أموالهم، وسلب ممتلكاتهم وسبي نساءهم من حقوقها القانونية المشروعة، اللهم إلا أن يكون بين القبيلة، والقبيلة الأخرى حلف أو معاهدة.

هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت القبيلة التي تتعرض للإغارة من جانب قبيلة أخرى ترى من حقها أن تردّ الصاع صاعين، تقتل كل أفراد القبيلة المغيرة، لأنّ الدم - في نظرهم - لا يغسله الا الدم!!!

ولقد تبدلت أخلاقيّة العرب هذه بعد انضوائهم تحت لواء الإسلام الحنيف، بل تحوّلوا من نمط الحكومة القبلية المتخلفة والنظام العشائري الضيق هذا، إلى حكومة عالميّة، واستطاع رسول الإسلام - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ان يؤلف من القبائل العربية المتفرقة أمة واحدة.

ولا شك أن تأليف أمة واحدة من قبائل وجماعات اعتادت طوال سنين مديدة من التاريخ على التنافر والتنازع، والتخاصم والتقاتل، والتهاجم والإغارة في ما بينها، واستمرأت سفك الدماء، وإزهاق الأرواح، وذلك في مدة قصيرة، عملٌ عظيم جداً، ومعجزة اجتماعية لا نظير لها، لأنّ مثل هذا التحول العظيم إذا أريد له أن يتمّ عبر التحوّلات والتطورات العادية لاحتاج إلى تربية طويلة الامد، ووسائل لا تحصى كثرة.

(85)

يقول «توماس كارليل» في هذا الصدد: لقد اخرج الله العرب بالإسلام من الظلمات إلى النور، وأحى به منها امة خاملة لا يُسمع لها صوتٌ ولا يُحسُّ فيها حركة، حتّى صار الخمولُ شهرةً والغموضُ نباهةً والضعفةُ رفعةً والضعفُ قوةً، والشرارةُ حريقاً، وشمل نوره الأبناء وعمّ ضوءه الأرجاء ما هو إلا قرنٌ بعد إعلان هذا الدين حتّى أصبح للعرب (المسلمين) قدمٌ في الهند واخرى في

الاندلس. (1)

وإلى هذه الحقيقة يشير أيضاً مؤلف تاريخ اللغات السامية الشهير «رينان» قائلاً: «لا مكان لبلاد العرب في تاريخ العالم السياسي والثقافي والديني قبل ذلك الانقلاب المفاجيء الخارق للعادة الذي صار به العرب أمة فاتحة مُبدعة ولم يكن لجزيرة العرب شأنٌ في القرون الأولى من الميلاد، حين كانت غارقة في دياجير ما قبل التاريخ.»⁽²⁾

أجل إن هذه القبائل العربية الجاهلية المختلفة المتناحرة لم تكن تعيش أية حضارة، ولم تمتلك أية تعاليم وقوانين، وأنظمة وأداب قبل مجيء الإسلام، لقد كانت محرومة من جميع المقومات الاجتماعية التي توجب التقدم والرفق، ولهذا لم يكن من المتوقع ابداً ان تصل إلى تلك الذرى الرفيعة من المجد والعظمة، ولا أن تنتقل من نمط الحياة القبلية الضيقة إلى عالم الإنسانية الواسع، وأفق الحضارة الريحب بمثل هذه السرعة التي وصلت إليه والزمن القصير الذي انتقلت فيه.

إنّ مثل الشعوب والأمم البشرية مثل المباني والعمارات تماماً.

فكما أن البناء القوي الراسخ يحتاج إلى مواد انشائية قوية معدّة باتقان ومحضرة باحكام حتّى يستطيع البناء المصنوع من هذه المواد، والمؤسس بعناية وهندسة متقنة من الوقوف في وجه الأعاصير، والأمطار الغزيرة كذلك يحتاج كيان كل أمة رشيدة من الأمم إلى أسس وقواعد محكمة (وهي الأصول والآداب الكاملة، والأخلاق الإنسانية العالية) لتستطيع من البقاء والتقدم.

- 1 الخطط الاستعمارية لمكافحة الإسلام: ص ٣٨، والإسلام والعلم الحديث: ص ٣٣.
- 2 حضارة العرب: ص ٨٧.

(86)

ولهذا السبب لا بد من التأمل في أمرٍ وسرّ هذه الظاهرة العجيبة ولا بد أن نتساءل:

كيف تحقق ذلك التطور العظيم، وذلك التحول العميق للعرب الجاهلية، ومن اين نشأ؟؟

كيف امكن ان تتحول جماعة متشتتة، متعادية، متناحرة، متباغضة، في مابينها، بعيدة عن النظم الاجتماعية، بمثل هذه السرعة إلى أمة متألّفة متاخية متعاونة متسالمة متحابه، وتشكل دولة قوية كياناً سياسياً شامخاً أوجب أن تخضع لها دول العالم وشعوبه، وتطيعها، وتحترم مبادئها واخلاقها وآدابها آنذاك.

حقاً لو كان في مقدور العرب أن يحرزوا ذلك التقدم الهائل بفعل عامل ذاتي فلماذا لم تستطع عرب اليمن الذين كانوا يمتلكون شيئاً كبيراً من الثقافة والحضارة، والذين عاشوا الانظمة الملكية سنياً عديدة، بل وربّت في احضانها ملوكاً وقادة كباراً، أن تصل إلى مثل هذه النهضة العظيمة الشاملة، وتقيم مثل هذه الحضارة العريضة الخالدة.

لماذا لم تستطع العربُ الغساسنةُ الذين كانوا يجاورون بلادَ الشام المتحضرة، ويعيشون تحت ظلِّ حضارة «الروم» أن يصلوا إلى هذه الدرجة من الرشد؟

لماذا لم تستطع عربُ الحيرةَ الذين كانوا - وإلى الامس القريب - يقيمون في ظلِّ الامبراطورية الفارسية أن ينالوا مثل هذا الرقي والتقدم؟ وحتى لو وصلوا إلى هذه الدرجة من التقدم وحققوا هذه القفزة فإنه لم يكن أمراً يثير العجب لأنهم كانوا يعيشون في أحضان مدنيات كبرى، ويتغذون منها، ولكن الذي يثير الدهشة، والعجب هو أن تستطيع عرب الحجاز من تحقيق هذه النهضة الباهرة، ويراثوا الحضارة الإسلامية العظمى وهم الذين كانوا يفتقرون إلى أبسط مقومات الحضارة الذاتية، ولم يكن لهم عهدٌ بأيّ تاريخ حضاريّ مشرق، بل كانوا كما عرفت يرزحون تحت أغلال الوهم والتخيل، ويسيروا في ظلمات الخرافات والأساطير.

* * *

(87)

دُول الحيرة و غسان :

على العموم كانت المناطق ذات المناخ الجيد من الجزيرة العربية حتى آخر قرن قبل الإسلام تحت سيطرة ثلاث دول كبرى هي: «إيران»، «الروم»، و«الحبشة».

فالشرق والشمال الشرقي من هذه المنطقة كانت تحت حماية «إيران».

والشمال الغربي كان تابعاً للروم.

والمناطق المركزية والجنوب كانت تحت نفوذ «الحبشة».

وعلى أثر مجاورة هذه المناطق للدول المتحضرة المذكورة، وما كان بينها من نزاع وتنافس دائمين ظهرت في المناطق الحدودية للجزيرة العربية دول شبه متحضرة، وشبه مستقلة كان كل واحد منها تابعة في حضاراتها لدولة متمدنة عظمى تجاورها.

وقد كانت دول «غسان»، و «الحيرة» «وكنده» من هذه الدول شبه المستقلة وشبه المتمدنة، وكانت كل واحدة منها تابعة لاحدى الدول العظمى آنذاك: «إيران»، «الروم»، «الحبشة».

الحيرة: يتبين من الآثار والأخبار أنه هاجرت - في أوائل القرن الثالث بعد الميلاد - بعض الطوائف العربية، وذلك في نهايات الحكم الأشكثاني، إلى الأراضي المجاورة للفرات، وسيطروا على قسم من أراضي العراق، وقد وجدت هذه الجماعة المهاجرة القرى

والقلاع هناك، شيئاً فشيئاً، وأحدثت المدنَ التي من أهمّها: «الحيرة» التي كانت تقع على حافة صحراء بالقرب من مدينة الكوفة الحالية.

وقد كانت هذه المدينة - وكما يظهر من إسمها - في بداية أمرها قلعة (لأن الحيرة تعني في اللغة السريانية: الدبر وما يشبهه) يسكنها العرب ثم تطورت شيئاً فشيئاً إلى مدينة.

وقد ساعد مناخها الجميل، والمياه الوفرة التي تأتي إليها من الفرات، وجودة

(88)

الأحوال الطبيعية الأخرى إلى أن تجتذب إليها أصحاب الصحراء، وسكان البوادي، والفقار، كما استطاعت هذه المدينة وبفضل مجاورتها للحضارة الفارسية إن تكتسب من ثقافتها ومدنيتها ما أفاض عليها لونهاً من الحضارة والمدنية، وقد بُنيت بالقرب من «الحيرة» قصورٌ مثل «الخورنق» الذي اُضيف إلى هذه المدينة جمالا وبهاء خاصين، وقد تعرّف العربُ الساكنون في هذه المنطقة على الخط والكتابة، ويمكن ان تكون الكتابة والقراءة قد سرتا منها إلى بقية مناطق الحجاز ومُدُنّها. (1)

ولقد كان ملوك «الحيرة» وأمراؤها من اللخميّين العرب يؤيّدون من قِبَل الدولة الإيرانية بقوة، وسبب هذا التأييد، والحماية الإيرانية لأمراء الحيرة وملوكها كان يكمن في أن ملوك إيران - آنذاك - كانوا يُريدون أن تكون الحيرة سَدّاً، وحاجزاً بينهم وبين عرب البادية، يدفعون بهم خطر الغزاة من أهل الصحارى على الحدود الإيرانية.

ولقد سجّل التاريخُ أسماء هؤلاء الأمراء؛ وقد نظم «حمزة الاصفهاني» فهرستاً بأسمائهم، وجدولاً بأعمارهم ومُدَد حكوماتهم، ومن كان يعاصرهم من ملوك بني ساسان الإيرانيين. (2)

ومهما يكن الأمر فإن دولة اللخميّين العرب كانت من أكبر الحكومات العربية شبه المتحضرة في منطقة الحيرة، وكان آخر ملوك هذه السلسلة هو «النعمان بن المنذر» صاحب القصة التاريخية التي تتضمن خلعته من الحكم، وقتله بواسطة الملك الإيراني: «خسرو برويذ». (3)»

عَسان: في أوائل القرن الخامس أو أوائل القرن السادس الميلادي هبط جماعة من المهاجرين اليمينيّين في الشمال الغربي - أقصى نقاط الجزيرة العربية - وفي جوار الإمبراطورية الروميّة، وأسسوا دولة الغساسنة، وقد كانت هذه الدولة

- [فتوح البلدان للبلاذري: ص ٤٥٧.

- 2سنيّ ملوك الأرض: ص ٧٣ - ٧٦.

- 3الأخبار الطوال: ص ١٠٩.

تحت حماية الروم، وكان ملوكها يُنصبون من جانب إمبراطوريات «قسطنطينية» مباشرة، تماماً كما كان ملوك «الحيرة» يُنصبون من جانب ملوك إيران.

ولقد كانت دولة الغساسنة متحضرة نوعاً ما، وحيث أن مراكز حكمها كانت قريبة من ناحية إلى «دمشق» ومجاورة لـ: «بُصرى» مركز القسم الرومي من الجزيرة العربية من ناحية أخرى، لذلك تأثرت بحضارة الروم تأثراً كبيراً وبالغاً.

ولقد كان الغساسنة متحالفين مع الروميين بسبب ما كان بينهم وبين ملوك الحيرة اللخمييين العرب والاييرانيين من الاختلاف والنزاع، ولقد حكم في دولة الغساسنة تسعة أو عشرة من الأمراء والملوك تبعاً.

الدين في أرض الحجاز:

لقد كان الدينُ الرائج في الحجاز هو الوثنية، وعبادة الأصنام.

نعم كانت هناك أقلّيات دينية يهودية تقطن في يثرب (المدينة فيما بعد) وخيبر، كما انه كان هناك من يتبع المسيحية وهم سكان نجران، البلد الحدودي لليمن والحجاز.

وكان الدين الرائج في المناطق الشمالية من الحجاز (أي الشام حالياً) هو المسيحية بسبب مجاورة هذه المناطق للروم وخوضها للسيادة الرومية.

ولو أننا استثنينا من الحجاز هذه المناطق الحساسة الثلاث لما وجدنا في بقية مناطق الحجاز إلا الوثنية في أشكال مختلفة، واعتقادات متنوعة، إلا بضع افراد كان عددهم لا يتجاوز عدد أصابع اليد ممن يُسمون بالاحناف كانوا على دين التوحيد، وكان عددهم بالنسبة إلى الاكثرية الساحقة من العرب الوثنيين قليلاً جداً. (1)

فمنذ زمن النبي «إبراهيم» الخليل وابنه «اسماعيل» - عليهما السلام - دخل

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٢٢ و ١٢٣.

التوحيد، ودخلت بعض التعاليم الأخلاقية والدينية إلى أرض الحجاز، وكان الحج وأداء مناسكه إحتراماً للكعبة الشريفة هو أحد هذه التعاليم والسنن التي دخلت مع «الخليل» إلى هذه المنطقة، ثم إن رجلاً من قبيلة «خزاعة» يسمى «عمرو بن لحي» الذي كانت زعامته مكة قد عهدت إليه، أدخل عبادة الاوثان في مكة في ما بعد، وذلك عندما سافر هذا الخزاعي إلى بلاد الشام فوجد قوماً من

العمالقة يعكفون على تماثيل جميلة النقش والمنظر يعبدونها، ويؤلهونها، فقال لهم: ما هذه الأصنام التي اراكم تعبدون؟؟ قالوا له: هذه اصنامٌ نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطونني منها صنماً فاسير به إلى ارض العرب فيعبدوه؟؟ فأعطوه صنماً، وهكذا استحَب عملهم، وجلب معه إلى مكة صنماً جميلاً النقش والنحت يدعى «هُبَل» فنصبه ودعا الناس إلى عبادته، وتعظيمه.

وهكذا دخلت الوثنية إلى «مكة» المكرمة، واصبحت عبادة الاوثان والاصنام عبادة رائجة في تلك الديار. (1)

واشهر اصنام العرب هي:

1- هبل وكانت أعظم اصنام العرب التي في جوف الكعبة.

2- اساف.

3- نائلة وكانت هي واساف على موضع زمزم ينحرون عندهما.

4- اللات وكانت لتثقيف بالطائف.

5- العزى وكانت بنخلة الشامية، وكانت لقريش وبنو كنانة.

6- مناة وكانت للاوس والخزرج ومن ذهب مذهبيهم من أهل يثرب.

7- عميانس وكان بأرض خولان يقسمون له من أنعامهم وحروثهم.

8- سعد.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٧٨ - ٨١، والعمالقة هم طائفة من العرب عاشوا وسادوا ثم بادوا قبل الإسلام.

(91)

9-ذوالالخصة وكانت لدوس وختعم وبجيلة.

10- مناف. (1)

ولقد كانت هذه هي أشهر أصنام العرب علاوة على الأصنام الأخرى غير المعروفة التي كانت تختص بطائفة دون أخرى، أو بعائلة دون عائلة.

العلم والثقافة في الحجاز:

كان أهل الحجاز يوصفون بالأميين، والامى هو من لم يتعلم القراءة والكتابة فهو كمن ولدته أمه، أو هو باق في عدم العلم بالقراءة والكتابة على الحالة التي ولد فيها من أمه.

ولأجل أن نعرف مدى ما كان عليه العلم والثقافة عند العرب من القيمة يكفي أن نعلم بأن عدد الذين كانوا يعرفون القراءة والكتابة بين قريش إلى ما قبل ظهور الإسلام لم يكن يتجاوز (١٧) شخصاً في مكة و (١١) نفرأ فقط من بين الأوس والخزرج في المدينة. (2) إذا لاحظنا هذا التخلف والانحطاط في مجال العلم والثقافة في البيئة العربية الجاهلية يتضح لنا مدى تأثير الإسلام، وادركنا عظمة التعاليم الإسلامية في جميع الحقول الاعتقادية والاقتصادية والأخلاقية والثقافية، ولا بد في تقييم الحضارات أن نطالع وندرس الحلقة السابقة، ثم نقيم الحلقة التالية في ضوء ذلك، وفي هذه الصورة نقف على عظمة تلك الحضارة الحقيقية. (3)

- [راجع الأضنام للكليبي، والمحرر: ص ٣١٥ - ٣١٩.
- 2 فتوح البلدان: ص ٤٥٧ - ٤٥٩.
- 3 للوقوف على معلومات أوسع وأكثر حول عقائد مختلف طوائف المجتمع العربي الجاهلي، وثقافتها وتقاليدها راجع الكتابين التاليين:
ألف: «بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب» تأليف السيد محمود الألوسي المتوفى عام ١٢٧٠ هجري قمرى.
باء: «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» تأليف الأستاذ جواد علي، وهذا الكتاب أخرج في (١٠) مجلدات، وقد بُحث فيها كل ما يرتبط بحياة العرب في العهد الجاهلي.

(92)

الإمام على يصف العهد الجاهلي:

وقد وصف الإمام على أمير المؤمنين - عليه السلام - تلك الحالة في خطبه، وحيث أنه عاصر نزوة ذلك الوضع المأساوي ووصفه وصفاً دقيقاً لذلك ينبغي أن نقف عند كلامه قليلاً ليتبين لنا جيداً ما كان عليه العرب إبان عهد الرسالة الإسلامية المباركة:

قال - عليه السلام - في الخطبة (الثانية) من نهج البلاغة:

«... وأشهد أن محمداً عبده ورسوله أرسله بالدين المشهور والعلم الماثور والكتاب المسطور والنور الساطع، والضياء اللامع، والأمر الصادع إزاحة للشبهات واحتجاجاً بالبينات و تحذيراً بالآيات، وتحويلاً بالمثلات (1) والناس في فتن أُنجم (2) فيها خذل الدين، وتزعزعت سوارى (3) اليقين وأختلف النجر (4)، وتشتت الأمر وضاق المخرج، وعمى المصدّر فالهدى خاملاً، والعمى شامل، غصي الرحمان ونصر الشيطان و خذل الإيمان فانهارت دعائمها، وتكثرت معالمه و درست (5) سبله و عفت شره (6) أطاعوا الشيطان فسلكوا مسالكه، ووردوا مناهله (7) بهم سارت أعلامه، وقام لواءه في فتن داسنهم بأخفافها (8) ووطننهم بأظلافها (9) وقامت على سنايكها (10) فتم فيها تنهون حائرون جاهلون مفتنون في خير دار وشر جيران نومهم سهود و كحلهم دموع بأرض عالمها مُجَم وجاهلها مكرم».

وقال في الخطبة (التاسعة والثمانين) أيضاً:

«أُرْسِلْتُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ عَلَى جِبِينَ فَنَزَرْتُ مِنَ الرُّسُلِ وَ طُولَ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَاعْتَزَامَ (11) مِنَ الْفَنَنِ وَانْتِشَارَ مِنَ الْأُمُورِ وَتَلَطُّ (12) مِنْ

الْحُرُوبِ وَالدُّنْيَا

-
- 1 المثلثات: العقوبات.
 - 2 انجذم: انقطع.
 - 3 السواري: الدعائم.
 - 4 النجر: الأصل.
 - 5 درست: انطمت.
 - 6 الشرك: الطُّرُق.
 - 7 المنهل: مورد النهر.
 - 8 الخف: هو للبعير كالقدم للإنسان.
 - 9 الظلف: للبقير والشاة كالخف للبعير والقدم للإنسان.
 - 10 السنايك: طرف الحافر.
 - 11 اعتزم الفرس: إذا مرَّ جامحاً.
 - 12 تلطَّ: تَلَهَّب.

(93)

كاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ العُزُورِ عَلَى حِينِ أَصْفَرَارِ مِنْ وَرَقِهَا وَأَيَّاسٍ مِنْ ثَمَرِهَا وَاعْزَارِ (1) مِنْ مَائِهَا قَدْ دَرَسَتْ مَنْارُ الأُهدى وَظَهَرَتْ
أَعْلَامُ الرَّدَى فَهِيَ مُتَجَهِّمَةٌ (2) لِأَهْلِهَا عَابِسَةٌ فِي وَجْهِ طَالِبِهَا تَمَرُّهَا الْفِئْتَةُ وَطَعَامُهَا الْجَيْفَةُ (3) وَسَعَارُهَا الخوفُ وَدَنَارُهَا السَّيْفُ. »
وَ قَالَ فِي الخُطْبَةِ (السَّادِسَةِ وَالعَشْرِينَ): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - نَذِيرًا لِلْعَالَمِينَ وَأَمِينًا عَلَى النَّثْرِيلِ وَأَنْتُمْ
مَعَشَرَ العَرَبِ عَلَى شَرِّ دِينٍ وَ فِي شَرِّ دَارٍ مُنِيخُونَ (4) بَيْنَ جِجَارَةِ حَشِينٍ (5) وَحَيَاتِ صُمِّ (6) تَشْرَبُونَ الكَبِيرَ وَتَأْكُلُونَ الجَشِيبَ (7) وَتَسْفِكُونَ
دِمَاءَكُمْ وَتَقَطِّعُونَ أَرْحَامَكُمْ الأَصْنَامَ فِيكُمْ مَنْصُوبَةً وَ الأَثَامَ بِكُمْ مَعْصُوبَةً.» (8)

وقال - عليه السلام - في الخطبة (الثالثة والثلاثين): «إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ مُحَمَّدًا - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَأَيَّسَ أَحَدًا مِنَ العَرَبِ يَقْرَأُ
كِتَابًا وَلَا يَدْعِي نُبوَةَ فَسَاقِ النَّاسِ حَتَّى بَوَّأَهُمْ مَحَلَّتَهُمْ (9) وَ بَلَّغَهُمْ مَنجَاتَهُمْ فَاسْتَقَامَتْ قَنَاتُهُمْ (10) وَاطْمَأَنَّتْ صِفَاتُهُمْ. »

وقال في الخطبة (الخامسة والتسعين) أيضاً:

«...بَعَثَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَالنَّاسُ ضَلَالًا فِي حَبْرَةٍ وَحَاطِبُونَ فِي فِئْتَةٍ قَدْ اسْتَهْوَتْهُمُ الأَهْوَاءُ وَاسْتَرَلَتْهُمُ الكِبْرِيَاءُ
وَاسْتَحْفَظَتْهُمُ (11) الجَاهِلِيَّةُ الجَهْلَاءُ حُبَارَى فِي زُلْزَالٍ مِنَ الأَمْرِ وَ بَلَاءٍ مِنَ الجَهْلِ قَبَالَعٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - فِي النَّصِيحَةِ وَ
مَضَى عَلَى الطَّرِيقَةِ وَ دَعَا إِلَى الحِكْمَةِ وَ المَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ.»

وقال - عليه السلام - في الخطبة (السابعة والتسعين) أيضاً:

«...مُسْتَعْرِزُهُ حَيْرٌ مُسْتَقَرٌّ وَ مُنْبَهُهُ أَشْرَفٌ مُنْبَتٌ فِي مَعَادِنِ الكَرَامَةِ وَ مَمَاهِدِ (12) السَّلَامَةِ قَدْ صُرِفَتْ نَحْوَهُ أَفْنَدَةُ الأَبْرَارِ وَ تُنْبِتُ إِلَيْهِ

أَرْمَةَ الأَبْصَارِ دَقَنَ

- 1 اغرار الماء: ذهابه.
- 2 تجهمه: استقبله بوجه كربه.
- 3 إشارة إلى أكل العرب للميتة من شدة الاضطرار.
- 4 منيخون: مقيمون.
- 5 الخُشن: جمع خشناء من الخشونة.
- 6 الصم: التي لا تسمع لعدم انزجارها بالاصوات.
- 7 الجشيب: الطعام الغليظ.
- 8 معصوبة: مشدودة.
- 9 برأهم محلهم: أنزلهم منزلتهم.
- 10 القناة: العود كناية عن القوة.
- 11 استخفتهم: طيبتهم.
- 12 الممهّد: ما يُبسط فيه الفراش.

(94)

اللّٰهُ بِهِ الضَّعَائِنُ وَ أَطْفَأَ بِهِ النَّوَّارَ (1) أَلْفَ بِهِ إِخْوَاناً وَ فَرَّقَ بِهِ أَقْرَاباً أَعَزَّ بِهِ الدَّلَّةَ وَ أَدَلَّ بِهِ العِزَّةَ كَلَامُهُ بَيَانٌ وَ صَمْتُهُ لِسَانٌ. »

وقال - عليه السلام - في الخطبة (١٥١) أيضاً:

«...أضاعتُ به - صلى الله عليه وآله وسلم - البلادَ بَعْدَ الضَّلَالَةِ الْمُظْلِمَةِ وَالْجَهَالَةِ الْعَالِيَةِ وَالْجَفْوَةَ الْجَافِيَةَ وَ النَّاسَ يَسْتَجِلُّونَ الْحَرِيمَ وَ يَسْتَنْدِلُونَ الْحَكِيمَ يَخْبُونَ عَلَى فِتْرَةٍ (2) وَ يَمُوتُونَ عَلَى كُفْرَةٍ. »

وقال في الخطبة (١٩٨):

«...ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا - صلى الله عليه وآله وسلم - بِالْحَقِّ جِئْنَا مِنَ الدُّنْيَا الْإِنْقِطَاعُ وَ أَقْبَلَ مِنَ الْآخِرَةِ الْإِطْلَاعُ (3) وَ أَظْلَمَتْ بَهْجَتُهَا بَعْدَ إِشْرَاقِ وَ قَامَتْ بِأَهْلِهَا عَلَى سَاقٍ وَ خَسِنَ مِنْهَا مِهَادٌ (4) وَ أَرَفَتْ (5) مِنْهَا قِيَادًا فِي انْقِطَاعِ مِنْ مَتْنِهَا وَ اقْتِرَابِ مِنْ أَسْرَاطِهَا (6) وَ تَصَرُّمِ (7) مِنْ أَهْلِهَا وَ انْقِصَامِ (8) مِنْ حَلَقَتِهَا وَ انْتِشَارِ (9) مِنْ سَبَبِهَا وَ عَفَاءِ (10) مِنْ أَعْلَامِهَا وَ تَكشُّفِ مِنْ عَوْرَاتِهَا وَ قِصَرِ مِنْ طَوْلِهَا. »

وقال - عليه السلام - في الخطبة (٢١٣):

«أَرْسَلَهُ بِالضَّيَاءِ وَ قَدَّمَهُ فِي الْأَصْطِفَاءِ فَرْتَقَى (11) بِهِ الْمَفَاتِقَ (12) وَ سَاوَرَ (13) بِهِ الْمُغَالِبَ وَ دَلَّلَ بِهِ الصُّعُوبَةَ وَ سَهَّلَ بِهِ الْخُرُونَةَ (14) حَتَّى سَرَّحَ الضَّلَالَ عَنِ يَمِينِ وَ شِمَالِ. »

وقال في الخطبة (١٩١):

«وَ اشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَ رَسُولُهُ ابْتَعَيْهِ وَ النَّاسُ يَضْرِبُونَ فِي غَمْرَةٍ (15) وَ يَمْوَجُونَ فِي حَبِيرَةٍ قَدَقَادَتْهُمْ أَرْمَةُ الْحَيْنِ (16) وَ اسْتَعْلَقَتْ عَلَى أَفْنَدِيَّتِهِمْ أَفْقَالَ الرَّيْنِ. (17) »

- 1 الثائرة: العداوة.
- 2 علي فترة: على خلؤ من الشرائع.
- 3 الاطلاع: الإتيان.
- 4 خشونة المهاد: كناية عن شدة آلام الدنيا.
- 5 ازف: قرب.
- 6 الشرط: العلامة.
- 7 التصرم: التقطع.
- 8 الانفصام: الانقطاع.
- 9 انتشار الأسباب: تبيدها حتى لا تُضبط.
- 10 عفاء الأعلام: اندراسها.
- 11 رتق: سدّ به الفتق.
- 12 المفاتق: مواضع الفتق.
- 13 ساور: ثوب.
- 14 الحزونة: غلظ في الارض.
- 15 الغمرة: الماء الكثير.
- 16 الحين: الهلاك.
- 17 الرين: التغطية.

(95)

فاطمة الزهراء تصف الوضع الجاهلي:

وقد وصفت السيّدة فاطمة الزهراء بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - العهدَ الجاهلي بمثل ذلك إذ قالت في خطبتها أمام أبي بكر والمسلمين: (1)

«فَبَلَّغَ (اي رسول الله) بالرسالة صادعاً بالندارة (2) مائلاً على مدرجة المشركين ضارباً تَبَجَّهْمُ (3) آخذاً بأكظامهم داعياً إلى سبيل ربه
بالجكمة و المؤظة الحسنّة يكسّر الأَصْنَامَ و ينكث الهام (4) حتى انهزم الجمع و ولوا الدبر حتى تفرى الليل عن صبجه و أسفر
الحق عن مخظه (5) و تطق زعيم الدين و حرس شقاسق (6) الشياطين و أطاح و شيط (7) التفاق و انحلت عُقد الكفر و الشقاق و فهنم
بكلمة الاخلاص في نفر من البيض الخماص و كننم على شفا حفرة من النار مُدَقَّة (8) الشارب و نُهْزَة (9) الطامع و قيسة العجلان (10) و
موطىء الأقدام تشربون الطرق (11) و تفتنون القيد (12) و الورق أدلة خاسنين تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله تعالى
بمحمد بعد اللثيا و التي بعد أن منى بهم (13) الرجال و ذوبان العرب و مرده أهل الكتاب (14) كلما أوقدوا ناراً للحرب أطفاها الله، أو
نجم (15) قرن الشيطان أو فغرت (16) فاغرة من المشركين، فدفت أخاه في لهواتها (17) فلا ينكفيء (18) حتى يطأ صماخها بأخمصه.»

- 1 شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد وبلاغات النساء وغيرهما.
- 2 النذار: الأذار.
- 3 التيج: الكاهل.
- 4 الهامة: الرأس.
- 5 المحض: الخالص.
- 6 الشقيقة: شيء يشبه الرئة يخرج من فم البعير إذا هاج.
- 7 الوشيط: الأتباع والخدم.
- 8 المدقة: شربة من اللبن الممزوج بالماء.
- 9 النهزة: الفرصة.
- 10 قيسة العجلان: الشعلة من النار التي يأخذها الرجل العاجل.
- 11 الطرق: الماء الذي خوضته الابل وبولت فيه.
- 12 القد: قطعة جلد غير مدبوغ.
- 13 البهمة: الشجاع الذي لا يهتدي من أن يؤتى.

- 14 المارد: العاتي.
- 15 نجم: طلع.
- 16 فُغرت: فتحت.
- 17 اللهاة: اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى الفم.
- 18 ينكفيء: يرجع.

(96)

جعفر بن ابي طالب يصف العهد الجاهلي:

ويشهد بذلك أيضاً ما قاله جعفر بن أبي طالب عند النجاشي ملك الحبشة عندما اراد مبعوثاً قريش استعادتهما إلى مكة:
أيها الملك، كُنَّا قوماً أهلَ جاهليَّة، نعبُدُ الاصنام، ونأكلُ الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار ويأكلُ القويُّ منَّا الضعيف، فكُنَّا على ذلك، حتَّى بعث الله إلينا رسولا منَّا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفاقه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنا نعبُدُ نحنُ وأباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة، وصلَّة الرحم، وحسن الجوار، والكفِّ عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات، وأمرنا أن نعبُد الله وَحده لا نشركُ به شيئاً، وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام قالت: فعدد عليه امور الإسلام حتَّى قال: وصدقناه، وأمنَّا به واتَّبَعناه على ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرَّمنا ما حرَّم علينا وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردُّونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى، وأن نَسْتَجِلَّ ما كنا نَسْتَجِلُّ من الخبائث. (1)

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٥ و ٣٣٦. والحديث عن أم سلمة.

(97)

٣

إمبراطوريتا الروم وإيران إبان عهد الرسالة

للووقوف على أهمية النهضة الإسلامية المباركة التي تحققت على يدي النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد ارساله من جانب الله تعالى وقيمتها، تكتسب دراسة بيئتين إجتماعيتين أهمية قصوى، وتأتي البيئتان هما:

- [بيئة نزول القرآن الكريم، أي البيئة التي ظهر فيها الإسلام، وترعرع ونما.

2- البيئية العالمية (خارج الجزيرة العربية)، ويعرف ذلك بدراسة عقائد الناس وافكارهم في اكثر مناطق العالم - يومذاك - مدنية وحضارة، ومطالعة آدابهم وأخلاقهم وتقاليدهم، وأعرافهم، ومدنياتهم التي كانت تعتبر أفضل الأفكار والمدنيّات، وأرقى الحضارات، والأوضاع آنذاك.

ولقد كانت بيتنا: الامبراطورية الرومانية، والإمبراطورية الإيرانية ألمع نقطة في ذلك اليوم - كما يدلنا التاريخ على ذلك. ولا بدّ أستكمالاً لهذا البحث من دراسة الأوضاع في هاتين الإمبراطوريتين، في مناطقها، ومن نواحيها المختلفة، لنقف من هذا الطريق على قيمة الحضارة التي أتى بها الإسلام، ونعرف ذلك بوجه أفضل.

* * *

(98)

أوضاع الروم ابان عهد الرسالة:

ان أوضاع الروم لم تكن بأقل سوءاً من أوضاع منافستها «ايران» فالحروب الداخلية من جانب والمعارك الخارجية المستمرة مع «ايران» وصراعها الدائم المستمر مع الاخيرة على منطقة «ارمينية» وغيرها كل ذلك كان يهيء الناس في تلك البلاد للقبول بثورة جديدة يضع حداً لمآسيهم ومحنهم.

ولقد كان للاختلافات والمنازعات الطائفية والمذهبية النصيب الاكبر والأوفر في توسيع رقعة هذه الاختلافات، والمنازعات.

فالحرب لم تتوقّف أبداً بين الوثنيين والمسيحيين ولم تنطفئ شرارتها يوماً ابداً.

فكان إذا غلب رجال الكنيسة على دست الحكم وأخذوا بمقاليده مارسوا أشدّ أنواع الضغط والأضطهاد بحقّ خصومهم ومنافسيهم الأمر الذي كان يساعد على إيجاد أقلية ناقمة من جهة، كما ويمكن اعتبار ذلك عاملاً مساعداً من جهة أخرى على تهيئة الشعب الروماني لاحتضان الدعوة الإسلامية، وتقبلها.

لقد كان حرمان طوائف كثيرة ومختلفة ناشئاً من ممارسات رجال الكنيسة الخشنة ومواقفهم المتزمتة.

هذا مضافاً إلى أن اختلاف القساوسة والرهبان النصارى فيما بينهم من جهة، وتعدّد المذاهب من جهة أخرى كان يعمل على التقليل من هيبة الامبراطورية الرومانية وجرّها إلى الضعف والوهن المتزايد يوماً بعد يوم.

هذا بغض النظر عن أن البيض والصُفر من سُكَّان الشمال والمشرق كانوا يفكرون في السيطرة على المناطق الغنية من أوربة، وربما ألحق أحدهما بالآخر خسائر فادحة وباهضة في الصراعات والمصادمات التي كانت تقع بينهما. وكان هذا هو نفسه السبب في أن تنقسم الامبراطورية الرومية إلى معسكرين: المعسكر (أو القسم الشرقي) والمعسكر (أو القسم الغربي). ويعتقد المؤرخون أن أوضاع الروم السياسية، والاجتماعية والاقتصادية في القرن السادس كانت مضطربة، ومتدهورة جداً، حتى أنهم لا يرون في غلبة

(99)

الروم وتفوقها على إيران شاهداً على قدرتها العسكرية، وتفوقها النظامي، بل يرون أن هزيمة إيران كانت بسبب الفوضى التي كان سائدة انذاك في جهاز الحكم الإيراني.

إن هاتين الدولتين اللتين كانتا تتربَّعان على عرش السيادة والسياسة العالمية في مطلع ظهور الإسلام كانتا تعيشان حالة سيئة من الفوضى، والهرج والمرج، ومن البديهي أن مثل هذه الأوضاع كان من شأنها أن توجد حالة من التهيؤ الكبير والظمأ الشديد إلى دين صحيح يضع حدًا ونهاية لتلك الحالة، ويعيد تنظيم حياتهم.

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومي:

المتعارف أن يعمد جماعة من البطالين والفسقة إلى طرح سلسلة من القضايا والمسائل الخاوية والنقاش حولها بهدف التوصل إلى أغراض فاسدة، فيستهلكون بذلك أوقات الناس، ويهدرون أعمارهم على منحر الجدل العقيم.

وهي حالة لها مصاديق كثيرة وشواهد عديدة في كثير من بلاد المشرق، ولسنا بصدد التوسّع فيه فعلاً.

وقد كانت «الروم» تعاني يومئذ من مثل هذه الحالة أكثر من أي مكان آخر.

فقد كان ملوك الروم ورجال الحكم والسياسة تبعاً لمذاهب دينية كنسيّة يعتقدون بأن المسيح ذو طبيعتين ومشيئتين، ولكن طائفة أخرى من النصارى وهم «اليقويبية» كانوا يقولون بانه: ذو طبيعة ومشيئة واحدة.

وقد وجهت هذه المسألة الباطلة نفسها، والجدل الواهي حولها ضربة شديدة إلى وحدة الروم ومن ثم استقلالها، وحدثت في صفوفها انشاقاً عميقاً حيث كانت السلطات الحاكمة تضطر إلى الدفاع عن معتقداتها، ولذلك كانت تضطهد معارضيها، وتلاحقهم وهذا الاضطهاد والضغط الروحي سبب في لجوء البعض إلى الدولة الإيرانية، كما كان هؤلاء هم الذين تركوا المقاومة عند

(100)

مواجهة الجيش الإسلامي، وألقوا السلاح، واستقبلوا جنود الإسلام بالاحضان.

كانت الرومُ تمرُّ آنذاك بظروف اشبه ما تكون بظروف القرون الأوربية الوسطى التي ينقل عنها «فلا ماريون» الفلكي الشهير القضايا التالية التي تدل على المستوى الفكري والثقافي لأوربة في القرون الوسطى:

لقد كان كتابُ «المجموعة اللاهوتية» المظهر الكامل للفلسفة المدرسية في القرون الوسطى، وقد بقي هذا الكتاب يُدرّس في أوربة خلال أربعمئة سنة ككتاب رسمي ومعترف به.

وقد كان من الأبحاث المطروحة في هذا الكتاب البحث حول عدد الملائكة التي يمكنها ان تستقر على راس إبرة؟! أو عدد الفراسخ بين العين اليسرى والعين اليمنى للاب الخالد؟! إلى غير ذلك من القضايا التافهة!!

إن الامبراطورية الرومية السينة الحظ فيما كانت تعاني من الحروب الخارجية الكثيرة، كانت تعاني كذلك من النزاعات والاختلافات الداخلية - التي كانت - على الاغلب - تتصف بالصبغة المذهبية والطائفية - وكانت تدفع بالبلاد إلى حافة الهاوية، وتزيدها قربا إليها يوماً بعد يوم.

ولما رأى اليهود (وهي الزمرة الشريرة المتآمرة على الشعوب دائماً) تصاعد الاضطهاد والضغط الذي يمارسه الامبراطور المسيحي الرومي حطّطت لاسقاط ذلك النظام، فاحتلت مدينة انطاكية ذات مرة، ومثلت بأسقف أنطاكية الاكبر فصلموا أذنه، وجدعوا أنفه، فانتمت حكومة الروم لهذه الجناية بعد مدة، وقتلت اليهود في انطاكية في مذبحه عامة.

وقد تكرّرت هذه الجرائم الفضيحة وهذه المذابح، والمذابح الانتقامية المضادة بين اليهود والنصارى عدة مرات، وربما سرت موجة الروح الانتقامية أحياناً إلى خارج البلاد، فمثلا اشترى اليهود من ايران ذات مرة ثمانين الف مسيحي ثم حزوا رؤوسهم انتقاماً وتشفيماً.

من هذا يستطيع القارئ الكريم أن يقف على الصورة القاتمة للوضع السيء والمتردّي الذي كان عليه العالم إبان بزوغ شمس الإسلام، ويدعن - مع

المذنعين - بأن التعاليم الإسلامية الرفيعة التي انقذت العالم من ذلك الوضع المأساوي لم تكن أبداً وليدة الفكر البشري وان نسيم الوحدة، الناعشة، ونعمة السلام التي يهدف إليه الإسلام ويسعى إلى تحقيقه وقراره في الحياة البشرية ليس لها من مصدر إلا الغيب،

إذ كيف يمكن القول بان الإسلام الذي يعترف حتى للحيوانات بحق العيش والحياة نابع من تلك البيئة المغرقة في القسوة والوحشية، وناشيء من ذلك المحيط المفحم بروح الانتقام والتشفي.

لقد أبطل الإسلام جميع تلك المجادلات العقيمة والمناقشات التافهة حول مشيئة عيسى وشخصيته، وقال في نعتة ووصفه:

(ما المسيحُ بنُ مريمَ إلا رسولٌ قد خلت من قبله الرُّسلُ وأمهٌ صِدِّيقَةٌ كانا يأكلان الطعامَ).⁽¹⁾

إن هذه الآية أنهت الكثير من أبحاث رجال الكنيسة الباطلة الخاوية حول «الروح» و «المسيح» ودمه، وشخصيته، وحقيقته، كما ان الإسلام بفضل التعاليم الرفيعة، واحياء السجايا والملكات الفاضلة انقذ البشرية من المنازعات، الفارغة، والمذابح الفضيعة.

أوضاع إيران إبان عهد الرسالة:

إن ما دفعنا إلى دراسة أوضاع الإمبراطورية الرومية هو نفسه يحتم علينا أيضا دراسة أوضاع إيران يومذاك.

لقد صادف ظهور الإسلام وبعثة الرسول الكريم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - (٦١١ ميلادية) عهد السلطان الإيراني خسرو برويز (٥٩٠ - ٦٢٨ م)، وفي عهد «خسرو برويز» هذا هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من مكة إلى المدينة (الجمعة ١٦ جولي ٦٢٢)، وصارت هذه الواقعة مبدء للتاريخ الإسلامي.

في هذه الأيام كانت الدولتان العظيمتان (الروم الشرقية وإيران

- [المائدة: ٧٥]

(102)

الساسانية) تسيطران على معظم مناطق العالم المتحضر، ولم تزل هاتان الدولتان في نزاع مستمر وصراع دائم على مناطق النفوذ حتى بعد ظهور الإسلام.

فقد بدأت حروب ايران والروم الطويلة من عهد السلطان الإيراني أنوشيروان (٥٣١ - ٥٨٩ م) واستمرت إلى عهد الملك «خسرو برويز»، واستغرقت اربعا وعشرين عاماً من الزمان.⁽¹⁾

وقد سبب تحمل «إيران» و «الروم» للخسائر الكبرى، في الارواح والثروات خلال هذه المعارك الطويلة في إضعاف تينك الدولتين، وتعطيل وشلّ قواهما بحيث لم يبق منهما إلا شيخ دولتين لا اكثر.

ولكي نقف على الوضع العام في إيران آنذاك من جهاته المختلفة، وابعاده المتنوعة وبصورة أفضل، يجب ان نلقي نظرة فاحصة على وضع الحكومات التي تولت على سدة القيادة الايرانية بعد حكم «انوشيروان» وحتى بداية دخول المسلمين.

البذخ والترف في البلاط الساساني:

كانت حياة الملوك الساسانيين تنسم عموماً بالبذخ والترف، والتشريفات الطويلة العريضة، وكان البلاط الساساني الفخم جداً يخلب ببريقه، بريق العيون، ويسحر الافئدة والعقول.

وكان للايرانيين في عهد الساسانيين لواء يُعرف بـ «درفش كاوياني» اي العلم الكاوياني نسبة إلى كاوه وهو بطل قومي إيراني أسطوري، وقد كانوا يحملونه معهم في الحروب، أو ينصبونه فوق قصورهم اثناء إحتفالات الساسانيين الكبرى، وقد كان هذا اللواء موشحاً ومزيناً بأعلى أنواع المجوهرات بلغت قيمتها التقديرية - حسب قول بعض الكتاب: «٠٠٠ / ٢٠٠ / ١» درهماً (أو ما يعادل

- [تاريخ علوم وادبيات در ايران ص ٣ و ٤ و ايران در زمان ساسانيان ص ٢٦٧ (باللغة الفارسية).

(103)

30 / 000 پوند.)

وقد بلغت مجموعة المجوهرات والاشياء الثمينة والتصاوير والرسوم المحيرة للعقول التي كانت تكتضئ بها قصور الساسانيين من حيث الاهمية والقيمة حداً سحرت العيون وخلبت الالباب.

ولو أننا أردنا أن نقف على عجائب ما في تلك القصور، وما كانت تحتوي عليه من غرائب الاشياء لكفاننا أن نلقي نظرة واحدة إلى السجادة البيضاء والكبيرة التي كانت مفروشة في احدى صالات بعض تلك القصور، وهي السجادة التي كانت تدعى بالفارسية بـ «بهارستان كسرى» وهو بساط كانوا يُعدونه للشقاء إذا ذهب الرياحين، فكانوا إذا أرادوا الشرب وتعاطي الخمر فرشوه، وشربوا عليه فكانهم في رياض وكان هذا البساط ستيناً في ستين أرصه بذهب ووشيه بفصوص، وثمره بجوهر وورقه بحريز!!⁽¹⁾»

وقيل أيضاً أن هذا البساط كان مئة وخمسين ذراعاً في سبعين ذراعاً وكان منسوجاً من خيوط الذهب والمجوهرات الغالية جداً!!

وقد كان «خسرو برويز» أكثر الملوك الساسانيين ميلاً إلى الترف، والبذخ، واتخاذ الزينة، وقد بلغت عدده نساته وجواريه عدة الآف.

يقول حمزة الاصفهاني في كتاب «سنى ملوك الارض» واصفاً حالة الترف والبذخ التي كان يعيشها كسرى برويز: ثلاثة آلاف امرأة، واثنان عشر.

وجاء في تاريخ الطبري: أن «كسرى⁽²⁾ برويز» كان قد جمع من الأموال ما لم يجمع أحدٌ من الملوك، وكان أرغب الناس في الجواهر والأواني.⁽³⁾

- 1 تاريخ الطبري ج ٢، ص ١٣٠.
وجاء في تاريخ الطبري: كانت هذه السجادة ستين ذراعاً في ستين ذراعاً، بساطاً واحداً مقدار جريب فيه طرق كالصور، وفصوصٌ كالأنهار وخلال ذلك كالذئير وفي حافته كالأرض المرزوعة والأرض المبقلة بالنبات في الربيع من الحرير على قضبان الذهب، ونواره بالذهب والفضة!!
- 2 سنن ملوك الأرض والأنبياء: ص ٤٢٠.
- 3 تاريخ الطبري: ج ١، ص ٦١٦.

(104)

الوضع الاجتماعي في إيران:

لم يكن الوضع الاجتماعي في عهد الساسانيين بأفضل من الوضع السياسي آنذاك أبداً، فقد بلغ الاختلاف الطبقي الذي كان سائداً في إيران منذ زمن بعيد أشده وأقوى درجاته، وأسوء حالاته في العهد الساساني.

فطبقة النبلاء والكهنة كانت تتميز على بقية الطبقات تمييزاً كاملاً، فهم يختصون بجميع المناصب الاجتماعية الحساسة والعليا، بينما حُرِم الكسبة والمزارعون وبقية أبناء الشعب من كافة الحقوق الاجتماعية، ولم يكن لهم من واجب ودور في النظام إلا دفع الضرائب الثقيلة والمشاركة في الحروب.

يكتب أحد الكُتّاب الإيرانيين وهو الاستاذ سعيد نفيسي في هذا الصعيد قائلاً:

إن ما كان يثير روح النفاق بين الإيرانيين أكثر هو سياسة التمايز الطبقي القاسي جداً الذي كان الساسانيون يتبعونها في التعامل مع الشعب، وكان لها جذورٌ في العهود والحضارات السابقة، ولكنها بلغت ذروتها في العهد الساساني بالذات!!

ففي الدرجة الأولى كان للعائلات السبع من النبلاء، ثم للطبقات الخمس إمتيازاتٌ خاصة حُرِمَتْ منها عامة أبناء الشعب.

فالملكية كانت محصورة -تقريباً في تلك العائلات السبع مع العلم أن الشعب في العهد الساساني كان يقاربُ عدد نفوسه مائة وأربعين مليوناً في حين لا يبلغ عددُ كل واحد من تلك العائلات الممتازة والتميّزة في شؤونها مائة ألف شخص، فيكون مجموعها سبع مائة

ألف.⁽¹⁾

وإذا افترضنا أن حراسَ الحدود وأمراءهم والمُلاك الذين كانوا يتمتعون هم الآخرون بشيء من حق الملكية كان يبلغ عددهم أيضاً سبع مائة ألف فيكون حق التملك والمالكية حينئذٍ خاصاً بمليون ونصف من مجموع مائة

(105)

واربعين مليوناً، فقد كانت تلك الزمرة القليلة هي التي تملك، وأما الآخرون وهم الاكثرية الساحقة فقد كانوا محرومين من هذا الحق الطبيعي الموهوب لهم من جانب الله أساساً وأصلاً.

لقد كان الكسبة والفلاحون الذين كانوا محرومين من جميع الحقوق، والإمتيازات ولكنهم كانوا يتحملون نفقات حياة البذخ والرفاهية التي كان يرفل فيها النبلاء والأشراف والطبقات العليا، لا يأملون خيراً وراء استمرار هذه الاوضاع، ودوامها، ولهذا كثيراً ما كان المزارعون والفلاحون والطبقات الدنيا من الشعب يغادرون أعمالهم، ومزارعهم ويلجأون إلى الأديرة فراراً من الضرائب الباهضة والاتاوات القاصمة للظهور، المبددة للثروات. (1)

يقول مؤلف كتاب «ايران في عهد الملوك الساسانيين» (2) »

إن حروب إيران - الروم الطويلة بدأت من عهد حكومة الملك الإيراني انوشيروان (٥٣١ - ٥٨٩ م).

وخلاصة القول أنه كان في الامبراطورية الساسانية يملك أقلية صغيرة تقلّ نسبتها عن ١/٥ % (واحد ونصف بالمائة) من مجموع الشعب كل شيء بينما كان اكثر من (٨٩ %) من الشعب الإيراني محرومين من حق الحياة تماماً كالعبيد.

حَقُّ التعلّم خاصٌ بالطبقات الممتازة:!!

في العهد الساساني كان ابناء الاغنياء والبيوتات الرفيعة هم وحدهم الذين يتمتعون بحق التعليم، بينما كان عامة جماهير الشعب، والطبقات الوسطى والدنيا محرومين من تحصيل العلوم واكتسابها.

وقد كانت هذه المنقصة بادية وواضحة في عصور ايران التاريخية جداً بحيث ذكرها الشعراء الكبار في ملاحمهم ودواوينهم الملكية المعروفة بالرغم من ان

- [ماذا خسّر العالم بانحطاط المسلمين: ٧٠ و ٧١].
- 2 إيران في عهد الساسانيين: ص ٤٢٤.

(106)

الهدف من تلك الملاحم والدواوين كان هو الحماسة، والتفاخر بالبطولات وتجييش العواطف، بعد مدح الملوك والامراء.

فها هو «الفردوسي»⁽¹⁾ الشاعر الملحني الفارسي المعروف، بل أشهر شعراء إيران قد ذكر في شاهنامه (وهي الملحمة الشعرية التي يذكر فيها أمجاد ملوك الفرس في قرابة ستين ألف بيت) قصة في هذا الصدد تعتبر أفضل شاهد على ما قلناه.

وقد وقعت هذه القصة في زمن «أنوشيروان»، أي في الوقت الذي كانت الامبراطورية الساسانية تمرُّ فيه بعهدا ذهبي.

وهذه القصة تشهد بأن اكثرية الشعب في عهد هذا الملك أيضاً كانت محرومة من حق التعلم، وممنوعة عن اكتساب الثقافة.

يقول الفردوسي: لقد أبدى حداء استعداده لتحمل نفقات الجيش الإيراني - في حربه مع الروم - بدفع ما يحتاجون إليه من ذهب وفضة

ومع أن السلطة في عهد «أنوشيروان» كانت بحاجة ماسة إلى مساعدات مالية كبيرة إذ كان يتعين عليها أن تجهز ما يقرب من ثلاثمائة ألف مقاتل قد اصابوا بالمجاعة وقلة العتاد، بحيث أدى ذلك إلى وقوع بعض الاعتراضات، وإلى ظهور الفوضى في الجنود، مما أدى بدوره إلى قلق الملك الإيراني «أنوشيروان». »

والتخوف من مضاعفات هذه الحالة، وأثاره السيئة في قتاله للروم، ولذلك بادر إلى استدعاء وزيره المحنك «بزرجمهر» للتشاور معه في المخلص من ذلك الوضع المرحج، ثم امره بالتوجه إلى منطقة «مازندران» وجمع الاموال اللازمة من سكانها.

ولكن «بزرجمهر» حذّر الملك من مغبة هذا العمل، وأضاف بأن هذا من شأنه أن يضاعف من الخطر ثم اقترح جمع الاموال اللازمة عن طريق القروض الشعبية فاستحسن «أنوشيروان» اقتراحه وأمره باتخاذ الترتيبات اللازمة على

- [راجع للتعرف السريع على شخصية هذا الشاعر: الموسوعة العربية الميسرة: ص ١٢٨٦.

التو فيرسل الوزير مندوبين له إلى المدن الإيرانية ليكلم التجار واصحاب الثروة في الامر.

فيبيدئ الحداء المذكور استعداده لتحمل كل نفقات الجيش لوحده الا انه اشترط ذلك بان يسمحوا لولده الوحيد الراغب في تحصيل العلم جداً ان يتعلم.

فاستحقر الوزير شرطه ووعد بالانجاز، والسماح لولده بالتعلم وتحصيل العلم، ثم عرض الامر على الملك انوشيروان وهو يأمل في ان يتجاوب الملك مع رغبة الحداء وطلبه الصغير إذا ما قيس بما سيعطيه من اموال طائلة في تلك الاوضاع الحرجة.

ولكن الملك استشاط غضباً لهذا الطلب، ونهر الوزير قائلاً: دع هذا، ما أسوأ ما تطلبه، ان هذا لا يمكن ان يكون، لان ابن الحداء بخروجه من وضعه الطبقي يهدم التقليد الطبقي المتبع، فينفرط بذلك عقد الدولة، ويكون ضرر هذا المال علينا اكثر من نفعه، وشره اكثر من خيره.

ثم إن الفردوسي يعمد إلى شرح المنطق الميكافيلي حكاية عن لسان انوشيروان إذ يقول ناظماً ذلك في ابيات: (1)

وإذا اصبح ابن الحداء عالماً كاتباً عارفاً فعندما يجلس ولدنا على مسند الحكم والسلطنة واحتاج إلى كاتب، فانه سيضطر إلى الاستعانة بابن ذلك الحداء - الكاتب - (وهو من عامة الشعب ومن ابناء الطبقة الدنيا وفي حين جرت عادتنا إلى الآن على أن نستعين بابناء الاشراف والنبلاء لا أبناء الطبقة الدنيا)!!!

وإذا حصل ابن الحداء وبائع الاحذية على العلم والمعرفة أعاره العلم والمعرفة حينئذ عيوناً بصيرة، وأذاناً سمعية فيرى حينئذ ما يجب أن لا يراه،

- [وإليك هذه الأبيات باللغة الفارسية:

چو بازارگان بچه گردد دبیر * هنرمند و بادانش و یادگیر
چو فرزند ما برنشند به تخت * دبیری ببایدش بیروز بخت
هنر باید از مرد موزه فروش * سپارد بدو چشم بینا و گوش
بدست خردمند مرد نژاد * نماند جز از حسرت و سرد باد

(108)

ويسمع ما يجب أن لا يسمعه، وحينئذ لا يبقى لأبناء الملوك إلا الحسرة والتأسف. (1)

وهكذا يعيد الملك دراهم الحداء المسكين إليه رافضاً طلبه ويعود الحداء خائباً وهو يتوسل بما يتوسل به المستضعفون والمحرومون المظلومون وهو الدعاء والضراعة إلى الله في الليل وفي هذا قال الفردوسي: عاد مبعوث الملك بدراهم الحداء إليه فاصيب الحداء لذلك بغم شديد ثم لما جن الليل تضرع الحداء إلى الله وشكا إليه الملك طالباً عدالته. (2)

والعجيب هو أن يصف البعض هذا السلطان بالعدل وهو الذي لم يعالج أسوأ مشكلة في المجتمع الإيراني أيام حكمه وسلطانه وهي المشكلة الثقافية، بل تسبب في أن يصاب الشعب الإيراني بالمزيد من المشاكل الاجتماعية وغيرها.

فقد وأد ودفن في القبور احياء ما يقرب من ثمانين الف انسان (اومائة الف كما قيل) في حادثة واحدة، وهي فتنة مزدك، حتى أنه ظنّ انه قد قضى على جذور تلك الفتنة وهو لا يعلم أنها لم تُستأصل لأن مثل هذه الأساليب القمعية انما تقضي فقط على المسبب دون السبب وتكافح المجرم لا الجرم.

لقد كان السبب الحقيقي وراء تلك الفتنة هو الظلم الاجتماعي، والاختلاف الطبقي، واحتكار الثروة، والمنصب على أيدي طبقة خاصة وحرمان الاكثريّة الساحقة من الشعب وغير ذلك من المفاصد وكان عليه لو أراد الاصلاح أن يعالج هذه الأمور ليأتي على المشكلة من أساسها، ولكنه بدل ذلك كان يريد - بالقهر والقمع وفي ظلّ الحراب والسياط - أن يظهر الناس انفسهم بمظهر الراضي وعن السلطة، الموافق على تصرفاتها، وأحوالها وأوضاعها السيئة!!!

ومن هنا نعرف بطلان الحديث المروي عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم -

- 1راجع شاهنامه (باللغة الفارسية) وتاريخ اجتماعي ايران: ص ٦١٨ .
- 2فرستاده برگشت و شد بادرم دل كفشگر زان درم پر زغم

شب آمد، غمی شد ز گفتار شاه * خروش جرس خواست از بارگاه

(109)

الذي قال فيه: (وُلِدْتُ في زمن الملك العادل) ويقصد به انوشيروان. (1)

صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز:

ومن جرائم الملك خسروبرويز ومظالمه المنكرة ما فعله بوزيره الشهير «بزرجمهر» الذي خدم البلاط الشاهنشاهي الايرانيّ ثلاثة عشر عاماً وكان ذلك موجباً لشهرته في البلاد وحسن صيته بين الناس.

فقد عمّد هذا الملك إلى سجن الوزير المذكور، والنكاية به، وقدكتب إلى الوزير المسجون رسالة يقول فيها: إنَّ حظَّك من العلم والمعرفة أنه عرضك للقتل!!

فاجابه «بزرجمهر» بقوله: «فقد انتفعت بعلمي مادام قد حالفني الحظ، وحيث عاكسني الآن، فأنني اصبر وأنتفع بصبري، فإذا فاتني فعلٌ خير كثير فأنني سعيدٌ لأنني لم أرتكب كذلك شراً كثيراً وإذا ما سلّبتني منصب الوزارة فاني في الوقت نفسه قد استرحت كذلك من غم الحيف بالناس، فلا ابالي بما أنا فيه.»

ولما بلغت هذه الرسالة إلى الملك «برويز» استشاط غضباً، وأمر بقطع شفتي الوزير، وجَدَّع أنفه، وعندما عرف الوزيرُ بهذا الأمر الظالم قال: أجل أن شفتي تستحقان أكثر من هذا.

فسأله خسروبرويز: ولماذا؟ فقال: لأنهما وصفتاك عند العامة والخاصة بما لا تستحق من الأوصاف، واعطتاك ما ليس فيك من الخصال، فاملتا اليك القلوب، ورغبتا فيك النفوس، والافئدة، وأشاعتا عنك أمجاداً لم تستحقها، يا أسوأ الملوك وأظلم الحكام، تقتلني الآن بسوء الظن بعد أن كنت على يقين من وفائي، وصدقني، وإخلاصي، وسلامتي، فمن بعد هذا يأمل في عدلك، ومن بعد هذا يثق بقولك؟!!

- [راجع في هذا المجال: تذكرة الموضوعات لابن الجوزي، اللئالي المصوغة في الأحاديث الموضوعة للسيوطي، وكذا مجمع الزوائد للهيثمى.

(110)

فازداد «خسروبرويز» لسماع هذه الكلمات الساخنة غضباً على غضب، وأمر من فوره بقتل الوزير، فضرب عنقه في التوق. (1)

وتلك هي معاملة ذلك الملك الموصوف زوراً بالعدل مع اقرب مقربيه، وأكثر معاونيه إخلاصاً، ووفاء له فكيف كانت تُرى معاملته مع سائر أفراد الرعية وبقية أفراد الشعب؟!

حكم التاريخ في الملوك الساسانيين:

لقد اتخذ الحكام الساسانيون في عهودهم وحكوماتهم سياسة خشنة قاسية، وقد أخضعوا الناس بسطانهم بالسيف والعنف. كانوا يفرضون على الناس ضرائب ثقيلة وأتاوات باهضة قاصمة للظهور، ولهذا السبب كان عامة الشعب الإيراني غير راضين على حكمهم وسيرتهم، ولكنهم خوفاً على نفوسهم، ما كانوا يتمكنون من الاعلان من استيائهم هذا بل لم يكن لأرباب الفكر والرأي والعارفين بالامور شأن ولا قيمة في البلاط الشاهنشاهي.

لقد بلغ الاستبدادي لدى الحكام الساسانيين حداً لم يستطع معه أحدٌ من إظهار رأيه، ولم يجرأ احد على إبداء أية ملاحظة في شأن من الشؤون.

لقد بلغت القوة بخسروبرويز حداً عجبياً وصفه الثعالبي بقوله:

قيل لخسرو برويز (كسرى) دعونا فلانا الوالي فتباطأ عن الامتثال، فأمر الملك من فوره قائلاً ان كان يصعب عليه مجيئه ببذنه كله، فاننا يكفيننا شيء منه، فليؤتى براسه فحسب. (2)

- 1 يذكر الفردوسي الشاعر الملحمي هذه القصة في شاهنامه المعروفة عند ذكر وقائع انوشيروان اثناء حربه مع الروم (ج ٦، ص ٢٥٧ - ٢٦٠).
- 2 ايران در عهد ساسانيان: ص ٣١٨.

(111)

الفوضى في الحكومة الساسانية:

ومما يجب ان لا نغفل عن ذكره هو ما تعرضت له الحكومة الساسانية في اواخر عهدها من الفوضى الادراية، وتفاقم الهرج والمرج في جهازها الحكومي.

فقد دب الصراع والنزاع ونشب التنافس الحاد بين الامراء، والاعيان وقاده الجيش في ذلك العهد وذهب كل فريق يختار أميراً من أبناء العائلة المالكة، ويقوم بتصفية الطائفة الأخرى التي اختارت أميراً آخر.

وعندما فكر العرب المسلمون في فتح إيران كانت العائلة الساسانية المالكة قد بلغت ذروة الضعف والانقسام.

ومما يدل على ذلك تعاقب ما يقرب من (١٤) ملكاً على مسند الحكم والسلطان خلال مدة اربعة اعوام من مقتل الملك «خسرو برويز» وجلس شيرويه مجلسه وحتى آخر ملك من ملوك بني ساسان.

وهذا يعني أن حكومة إيران انتقلت خلال مدة لا تتجاوز اربعة اعوام من يد إلى يد أخرى (١٤ مرة)!! ومن الواضح ما يلحق باية دولة ومملكة تتعرض لـ (١٤) انقلاب يُقتل فيه ملك، ويحل محله ملك آخر في مثل هذه المدة القصيرة.

فقد كان كل حاكم يتسلم زمام الحكم ويستولي على عرش السلطان يعمد إلى قتل واغتيال كل من كان يطمع في العرش، ولا يتورع في سبيل إرساء قواعد حكمه من ارتكاب كل ما يراه ضرورياً، فكان الأب يقتل ابنه، والابن يقتل أباه، وربما يقتل الاخ إخوته، والزوجة زوجها وهكذا...

فقد قتل «شيرويه» أباه⁽¹⁾ للحصول على مقعد الحكم والسلطان، كما أباد اربعين شخصاً من أبناء الملك «خسرو برويز» اي إخوته.⁽²⁾!!

وكان «شهر براز» يقتل كل من لا يثق به، وقد أدى هذا إلى أن يقضي على كل أبناء سلالته من الامراء الساسانيين ممن كان قد تسلم عرش السلطان

والمملوكية قبله، رجلا كان ذلك أم امرأة، صغيراً كان أم كبيراً، لكيلا يبقى في الوجود من يطمع في السلطان أو يدّعيه!!

وصفوة القول: أن الفوضى السياسية بلغت في أواخر العهد الساساني حداً بحيث كانوا يجلسون فيه الأطفال والصبيان والنساء على

أريكة الحكم، ثم يثرون عليهم ويقتلونهم بعد أيام أو أشهر ويحلون محلهم أشخاصاً آخرين!!

وعلى هذا فإن الدولة الساسانية رغم قوتها الظاهرية كانت أخذت في الانحطاط والانحلال وسائرة نحو التمزق والفتنة.

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين:

لقد كان أهم عامل للفوضى التي كانت تعاني منها الأوضاع في العهد الساساني هو الاختلاف في المعتقدات الدينية التي كانت سائدة آنذاك.

فحيث أن «أردشير بن بابك» مؤسس السلسلة الساسانية كان ابن مؤبد (وهو رجل دين زردشتي) وقِيماً على بيت نار وقد تمكن من السلطان بفضل الموادة فإنه اجتهد في الترويج لدين آبائه في ايران.

وفي عهد الساسانيين كان الدين الرسمي والشائع في أوساط الشعب الإيراني هو الدين الزرادشتي، ولما كانت السلالة الساسانية قد توصلت إلى الحكم بواسطة الموادة - كما أسلفنا - لذلك كان الموادة والقيمون على بيوت النار (ونعني بهم رجال الدين الزرادشتي) يحظون بمكانة كبرى لدى البلاط الساساني إلى درجة أنهم أصبحوا يشكلون في أواخر العهد الساساني أقوى طبقة، وأشد الإجحاة نفوذاً في المجتمع الإيراني آنذاك.

ولقد كان الحكام الساسانيون دائماً ممنّين رشحهم للحكم الموادة ورجال الدين الزردشتي المجوسي، ولذلك كان الحكام يأترون بأوامرهم، ولو أن أحداً منهم خالف الموادة عارضوه أشدّ المعارضة، وسحبوا عنه تأييدهم ودّعهم، ولهذا اجتهد الملوك الساسانيون في كسب رضا الموادة، والعناية بهم أكثر من غيرهم من الطبقات، وقد تسببت عناية أولئك الملوك بالموادة وحمائيتهم لهم في تزايد

وقد كان الساسانيون يستغلون رجال الدين المجوس أكبر استغلال لتثبيت قواعد حكمهم، وتقوية مواقعهم في السلطان ولذلك أقاموا في مختلف مناطق القطر الإيراني العريض بيوت النار، (وهي معابد المجوس) جاعلين في كل واحد من هذه المعابد ثلة كبيرة من الموابدة كسدنة.

فقد كتب المؤرخون يقولون: ان «خسرو برويز» شيد بيتاً للنار عظيماً ووكّل به (١٢ الف) هيريد (وهو منصب خاص ورتبة خاصة في نظام القيادة الدينية المجوسية) لينشدوا فيه الاناشيد الدينية، ويؤدوا الطقوس والشعائر المجوسية. (1)!!

وعلى هذا الاساس كان الدين المجوسي دين البلاط، وكان رجاله في خدمة الملوك.

هذا وقد اجتهد الموابدة - بكل ما في وسعهم - في إبقاء الطبقات الكادحة والمحرومة من ابناء الشعب الإيراني في حالة من الركود والجمود وحالة عدم الاحساس بالآلام والرضا بالأمر الواقع.

ولقد تسببت الصلاحيات الواسعة والحريات المطلقة المخولة إلى الموابدة في ابتعاد الناس عن الدين المجوسي والنفور منه، فجماهير الشعب كانت تبحث لنفسها عن غير ما يتدين به الأشراف من عقيدة ودين.

يقول مؤلف كتاب «تاريخ اجتماعي ايران» وقد سعى الشعب الإيراني - في المآل - إلى ان يتخلص من ضغوط الاشراف والموابدة واضطهادهم، ولهذا ظهر بيت الزردشتيين في قبال الدين الرسمي «المزدية الزردشتية» الذي كان دين البلاط كما عرفنا، وكان يدعى: بهدين (اي الدين الافضل) مذهباً آخران. (2)

اجل وبسبب ضغوط الاشراف وتشددات الموابدة في العهد الساساني ظهرت في ايران مذاهب مختلفة الواحد تلو الآخر، وقد حاول «مزدك» ومن قبله «ماني» ان يوجدوا بأنفسهما تحولا في الاوضاع الدينية وفي العقائد والمؤسسات،

- [تاريخ تمدن ساساني: ج ١، ص ١ (بالفارسية).
- 2تاريخ اجتماعي ايران: ج ٢، ص ٢٠.

ألاّ أنهما منيا بالفشل في هذا السبيل. (1)

فحوالي سنة (٤٩٧ ميلادية) قام «مزدك»، وألغى الملكية الانحصارية (الخاصة)، ونسخ عادة تعدد الزوجات، ونظام الحریم وكان ذلك في مقدمة برامجه الاصلاحية، وقد لقيت أفكاره هذه تأييداً قوياً من قِبل الطبقات المحرومة المسحوقة التي فجرت بقيادة «مزدك» ثورة كبرى، وانقلاباً هائلاً في المجتمع الإيراني.

ولقد كانت هذه الثورات والانقلابات الشعبية لأجل أن يتوصل الناس إلى حقوقهم المشروعة، الممنوحة لهم من قبل الله خالقهم وبارئهم.

ولقد قوبل مذهب «مزدك» باعتراض شديد من قبَل الموبدة، وامراء الجيش، وجرّ إلى فتنة كبيرة، وإلى تردي الاوضاع في ايران آنذاك.

كما ان المذهب الزردشتي قد فقد - في أواخر العهد الساساني - حقيقته بصورة كاملة، ووصل الأمر بعبادة النار وتقديسها إلى درجة أنهم كانوا يحرمون الدقّ على حديدة محماة اكتسبت لون النار ولهبها بمجاورتها لها.

وبكلمة واحدة؛ لقد كانت اكثر المعتقدات الزردشتية المجوسية تتألف من الخرافات والأساطير، وقد أعطت حقائق هذا الدين - في هذا العهد - مكانها لحفنة من الشعائر الجوفاء، والطقوس الفارغة، التي أضاف إليها الموبدة سلسلة من التشريفات الطويلة العريضة تثبيثاً لمواقعهم، ودعماً لمكانتهم في المجتمع الإيراني يومئذ.

لقد بلغت سيطرة الخرافات والاساطير البعيدة عن العقل والمنطق على هذه العقيدة، ورسوخها في هذا الدين حداً ألق حتى رجال الدين الزردشتي انفسهم أيضاً، وقد كان بين الموبدة انفسهم من أدرك منذ البداية تفاهة الطقوس والشعائر الزردشتية الجوفاء فتخلى عنها.

- [المذهب المانوي هو المذهب الزردشتي الخليط بالمسيحية، فقد اخترع ماني من مسلك قومي وآخر اجنبي مذهباً جديداً ثالثاً.]

(115)

هذا من جانب

ومن جانب آخر كان قد انفتح على الشعب الإيراني منذ أيام الملك «أنوشيروان» فما بعد طريق التفكير، والتأمل، والتحقيق، ومما قد قوى هذا الامر ما حصل من اتصالات بين العقائد الزردشتية والمعتقدات المسيحية وغيرها من العقائد والاديان وما تحقق من تلاحق بينها نتيجة تسلسل الثقافة اليونانية والهندية، وغيرها إلى الوسط الإيراني، وتسبب كل ذلك في يقظة الشعب الإيراني، ولذلك اصبح يعاني من هذه الخرافات والاساطير التي كانت الديانة الزردشتية تعج بها اكثر من أي وقت مضى.

وعلى أية حال فان الفساد الذي ظهر في أوساط رجال الدين الزردشت، وتطرق الخرافات والاساطير الواهية الكثيرة إلى المعتقدات الزردشتية تسبّب في حصول مزيد من التشتت والاختلاف والتشردم في آراء الشعب الإيراني وعقيدته.

ومع ظهور هذا الاختلاف وعلى أثر إنتشار المذاهب المتنوعة ظهر روح الشك والتردد لدى الطبقة المفكرة والمتفكرة، وسرت منهم إلى بقية الاصناف والفئات مما أدى ذلك إلى أن يفقد جماهير الشعب ثقفتها وإيمانها القطعي، واعتقادها الكامل السابق بتلك المعتقدات

وهكذا استشرى الهرج والمرج وعمت الفوضى واللا دينية كل مناطق إيران والمجتمع الإيراني، كما رسم «برزويه» الطبيب الشهير في العهد الساساني حيث صور نموذجاً كاملاً عن الاختلاف الاعتقادي والتشردم الفكري، وبالتالي اضطراب الأوضاع الإيرانية في العهد الساساني، في مقدمة «كليلا ودمنة.»

الحروب الإيرانية الرومية:

لقد انقذ «برزجمهر» - الوزير الإيراني الشهير الذي كان يحتل مكان الصدارة في حكومة «انوشيروان» وكان موصوفاً بالتدبير والكفاءة العالية - إيران من الاخطار التي احدثت بها في اكثر الاحيين، ولكن علاقته بالسلطان

(116)

(انوشيروان) كانت تتأثر احياناً بسعاية الساعين ووشاية الوشاة الذين كانوا يوغرون صدر الملك ضده فيستصدرون منه قراراً بحبسه وسجنه.

وقد أوغر هؤلاء السعاة والواشون أنفسهم صدر «انوشيروان» ضد امبراطور الروم، وألبوه عليه، وشجعوه على توسيع رقعة نفوذه، وتوسيع حدود بلاده واضعاف سيطرة منافسه الخطير، متجاهلاً وثيقة «الصلح الخالد» التي عقدها مع الروم واتفق فيها الجانبان على عدم التعرض لبعضهم لبعض.

وأدى هذا التحريض بأنوشيروان إلى مهاجمة الروم، واشتعلت على اثرها نيران الحرب، واستطاع جنود ايران ان يفتحوا سورية (وقد كانت مستعمرة رومية) في مدة قصيرة تقريباً، وحرقت انطاكية ونهب آسيا الصغرى.

وبعد عشرين عاماً من القتال وسفك الدماء، والكفر والفر بين الروم وايران وبعد أن فقد الجانبان قدراتهم وطاقاتهم في تلك المعارك الطاحنة، وبعد الخسائر العظيمة التي تحملها الطرفان اضطررا إلى عقد وثيقة الصلح مرة ثانية، وحددوا حدود بلادهما، ومناطق نفوذهما كما كانت عليه في السابق شريطة أن تدفع دولة الروم كل عام ما يعادل (عشرين الف) دينار إلى دولة ايران.

ومن الواضح الذي لا يخفى ولا يحتاج إلى البيان أن حروباً طويلة الامد تدور رحاها بعيداً عن مركز الدولة من شأنها ان تأتي بالنتائج السيئة والتبعات الثقيلة على اقتصاد الشعب المحارب، وصناعته وتوجه إلى هذه الجوانب ضربات قوية، لا تزول آثارها إلا بعد زمان طويل خاصة مع ملاحظة الوسائل والأدوات في تلك العصور.

ومهما يكن فان هذه الحروب، وهذه الحملات المكلفة هيأت المقدمات الموجبة لسقوط الحكومة الإيرانية الحتمي.

فان آثار هذه المعارك لم تزل بعد إلا وقد نشبت حرب أخرى دامت سبعة اعوام فان «تي باربوس» امبراطور الروم بعد ان تسلم عرش السلطان هدد بحملاته الكبيرة استقلال الدولة الإيرانية بدافع الانتقام.

وفي الأثناء - وقبل ان يتضح موقف الطرفين وموقعهما في تلك المعارك من

(117)

الهيمنة أو الانتصار - مات «انوشيروان» وخلفه في إدارة البلاد ابنه «خسروبريز». »

وقد حمل هذا الأخير على الروم ايضاً، وذلك عام (٦١٤) بحجج معينة، وفتح في أول حملة من حملاته: بلاد الشام وفلسطين وأفريقية ونهب اورشليم، وأحرق كنيسة القيامة ومزار السيد المسيح - عليه السلام - وهدم المدن، ودمرها.

وقد انتهت هذه الحرب بعد مقتل تسعين الف من النصارى لصالح الإيرانيين.

في مثل هذه المرحلة التي كان فيها العالم المتحضر آنذاك يحترق - في نيران الحروب والظلم، يُعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة الإسلامية، وبلغ نداؤه المحيي للنفوس والعقول سمع البشرية، وقام يدعو الناس إلى الصلح والسلم، وإلى النظم والامن.

ولقد أدى انهزام الروميين المتدينين، المؤمنين بالله على أيدي المجوس الكفار، عبدة النار، إلى ان يتفاعل اهل مكة الوثنيون بهذا الحدث، ويحدثوا (ويمنوا) أنفسهم بالانتصار على المسلمين المؤمنين بالله عما قريب، وانطلقوا يرددون هذه الأمنية أمام المسلمين وهم يحاولون بها إضعاف معنوياتهم، وزعزعة إيمانهم، الامر الذي أقلق المسلمين.

ولم يتخذ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - موقفاً تجاه هذه الظاهرة انتظاراً لما سينزل به عليه الوحي إلى ان نزلت آيات في هذا المجال هي الآيات الأولى من سورة الروم التي تقول: **الم، غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بِضْعِ سنينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلِ وَ مَنْ بَعْدَ وَ يَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ بَنَصْرَ اللَّهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ. وَعَدَّ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.** (1)

وقد تحققت نبوءة القرآن هذه حول الروم في عام (٦٢٧ ميلادية) حيث

استولى «هرقل» على «نبوى» في حملة واحدة.

وعلى أية حال كانت الدولتان المتنافستان تطويان الدقائق والساعات الأخيرة من حياتهما فيما تستعدان من ناحية اخرى لتجميع القوى، والتهيؤ لشن حملات جديدة، وخوض حروب ومعارك أخرى ولكن حيث أن الإرادة الإلهية كانت قد تعلقت بأن يسطع على تلك المنطقتين نور التوحيد وتتبعش نفوس الروميين والفرس الذابلة الميتة بنسائم الإسلام الناعشة، واشعته الهادية، لذلك لم يلبث أن قُتل «خسرو برويز» على يدي ابنه «شيرويه» الذي لم يُدْم سلطانه بعد اغتياله لأبيه أكثر من ثمانية أشهر، ثم سادت ايران بعد «شيرويه» فوضى شاملة خلال اربعة اشهر، حيث تناوب على مسند الحكم حُكَّامٌ وامراء عديدون أربعة منهم من النساء، إلى أن أنهى الجيش الاسلامي بحملاته الناجحة هذه الاوضاع، ووضع نهاية لهذا الصراع السياسي الحاد الذي استمر خمسين عاماً والذي ساعد بدوره على تقدم الفتوحات الإسلامية.

٤

أسلاف رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم -

-1- بطل التوحيد: إبراهيم الخليل - عليه السلام -

إن الهدف من استعراض حياة النبي العظيم إبراهيم الخليل - عليه السلام - هو التعريف بأجداد النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - وأسلافه، لانتهاه نسبه الشريف إلى النبي إسماعيل بن إبراهيم - عليهما السلام - ، وحيث ان لهاتين الشخصيتين العظيمتين وبعض أسلاف النبي العظيم نصيباً هاماً في تاريخ العرب والإسلام، لهذا ينبغي الحديث عن أحوالهم بصورة مختصرة، خاصة أن حوادث التاريخ الإسلامي ترتبط ارتباطاً كاملاً - كحلقات سلسلة واحدة - بالحوادث السابقة، أو المقارنة لبزوغ الإسلام.

فعلى سبيل المثال تُعتبر كفاية «عبدالمطلب» لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحمائته له، وجهود «ابي طالب» ودفاعه الطويل عن النبي، وعظمة الهاشميين وسمو مقامهم واخلاقهم، وجذور معادة الأمويين لهم، الاسس والقواعد الموضوعية لحوادث التاريخ الإسلامي، ولهذا كان لابد من تخصيص فصل كامل في التاريخ الإسلامي لهذه الابحاث.

إن في حياة حامل راية التوحيد النبي «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - نقاطاً مشرقة وبارزة جداً.

فجهاده العظيم في سبيل ارساء قواعد التوحيد واقتلاع جذور الوثنية مما

لا ينسى.

وهكذا حوار ه اللطيف والزاهر بالمعاني مع عبدة النجوم والكواكب في عصره والذي ذكره القرآن الكريم لمعرفتنا، افضل واسمى درس توحيدى لطلاب الحقيقة وبغاة الحق.

مولد إبراهيم:

لقد وُلِدَ بطلُ التوحيد في بيئة مظلمة كانت تسربلها ظلمات الوثنية، وعبادة البشر... في بيئة كان الإنسان فيها يخضع لأصنام نحتها بيديه، كما يخضع لكواكب ونجوم.

لقد وُلِدَ حامل لواء التوحيد «إبراهيم الخليل - عليه السلام - في «بابل» الذي يعدّها المؤرخون إحدى عجائب الدنيا السبع، ويذكرون حولها قصصاً واموراً كثيرة تنبئ عن عظمتها وأهمية حضارتها، فيقول «هيردوتس» المؤرخ المعروف - مثلاً - : لقد كانت بابل بنية بشكل مربع طول كل ضلع من اضلاعه الاربعة (١٢٠ فرسخاً) ومحيطه (٤٨٠ فرسخاً).^(١)

إنّ هذا الكلام مهما كان مبالغاً فيه إلا أنه على كل حال يكشف عن حقيقة لا تقبل الإنكار، إذا ما ضُمنَّ إلى ما كتبه الآخرون عن تلك المدينة التاريخية.

غير اننا لا نرى من تلك المدينة اليوم ومن مناظرها الجميلة، وقصورها الرائعة، إلا تلاً من التراب في منطقة بين «دجلة» و «الفرات»، فالموت يخيم على كل تلك المنطقة، اللهم الا عندما يكسر علماء الآثار بتنقيباتهم جدار الصمت أحياناً، بحثاً عن آثار تلك المدينة، ويستخرجون بقاياها الموقوفة على معالم من حضارة اصحابها وسكانها.

لقد فتح رائد التوحيد ومُرسى اركانهِ «إبراهيم الخليل - عليه السلام - عينيه

- [قاموس الكتاب المقدس، مادة بابل].

(121)

في دولة «نمرود بن كنعان. »

وكان نمرود هذا رغم أنه يعبدُ الصنم يدعي الألوهية ويأمر الناس بعبادته.

وقد يبدو هذا الامر عجباً جداً فكيف يمكن ان يكون الشخص عابد صنم ومع ذلك يدعي الألوهية في الوقت نفسه، إلا أن القرآن الكريم يذكر لنا نظير هذه المسألة في شأن «فرعون مصر»، وذلك عندما هزّ النبي موسى بن عمران - عليه السلام - قواعد العرش

الفرعوني بمنطقه القوى، وحجته الصاعقة، فاعترض أنصار فرعون وملأوه على هذا الأمر، وخاطبوا فرعون بلهجة معترضة قائلين: **أَتَنْدُرُ مُوسَى وَ قَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَ يَذَرَكَ وَ آلِهَتَكَ.** (1)

ومن الواضح جداً أن «فرعون» كان يدعي الالهوية فهو الذي كان يقول: **أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى** (2) (وهو القائل): **مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ آلِهَةٍ غَيْرِي** (3) (ولكنه كان في الوقت نفسه عابد صنم ووثنياً).

بيد أن هذه الازدواجية ليست بأمر غريب عند الوثنيين، ولا يمنع مانع في منطقتهم أن يكون الشخص نفسه وثنياً يعبد الصنم، ومع ذلك يدعي أنه اله ويدعو الناس إلى عبادته فيكون الهأ معبوداً، يعبد الهأ أعلى منه، لأن المقصود من المعبود والاله ليس هو خالق الكون بل هو من يتفوق على الآخرين بنحو من أنحاء التفوق ويتملك زمام حياتهم بشكل من الإشكال.

هذا والتاريخ يحدثنا أن العوائد في بلاد الروم كانت تعبد كبارها ومع ذلك كان أولئك الكبار المعبودين انفسهم يتخذون لأنفسهم معبوداً أو معبودات أخرى.

إن أكبر وسيلة توسل بها «نمرود» في هذا السبيل هو استقطاب جماعة من الكهنة والمنجمين الذين كانوا يُعدون الطبقة العاملة والمتففة في ذلك العصر.

فقد كان خضوع هذه الطبقة يمهد لاستعمار الطبقة المنحطة وغير الواعية من الناس.

هذا مضافاً إلى أنه كان يُناصر «نمرود» بعض من ينتسب إلى «الخليل»

- [الأعراف: ١٢٧.

- 2 النازعات: ٢٤.

- 3 القصص: ٣٨.

- عليه السلام - بوشيجة القربى مثل «أزر» الذي كان يصنع التماثيل، وكان عارفاً بأحوال النجوم والفلك أيضاً، وكان هذا هو الآخر أحد العراقيين التي كانت تمنع الخليل من انجاح مهمته، لأنه مضافاً إلى مخالفة الرأي العام له، كان يواجه مخالفة أقاربه ايضاً.

لقد كان نمرود غارقاً في عالم خيالي عندما دق المنجمون فجأة أول ناقوس للخطر وقالوا له: سوف تنهار حكومتك، ويتهاوى عرشك وسلطانك على يد رجل يولد في تلك البيئته، الأمر الذي أيقظ أفكاره النائمة، فتساءل من فوره، وهل ولد هذا الرجل؟ فقيل له: لا، انه لم يولد بعد. فأمر من فوره بعزل الرجال عن النساء (وذلك في الليلة التي انعقدت فيها نطفة ابراهيم الخليل - عليه السلام - عدو

نمرود، وهادم ملكه، ومزبل سلطانه وهي الليلة التي حددها وتكهن بها المنجمون والكهنة من انصار نمرود) ومع ذلك كان جلاوزة «نمرود» يقتلون كل وليد ذكر، وكان على القوابل ان يسجلن اسماء المواليد في مكتبه الخاص.

ولقد اتفق أن انعقدت نطفة «الخليل» في نفس الليلة التي منع فيها اي لقاء جنسي بين الرجال، وازواجهم.

لقد حملت أم إبراهيم به كما حملت أم موسى به، وامضت فترة حملها في خفاء وتستر، ثم لجأت بعد وضع وليدها العزيز إلى غار بجبل على مقربة من المدينة حفاظاً عليه، وراحت تتفقد بين حين وآخر من الليل والنهار، قدر المستطاع.

وقد أرضى هذا الأسلوب الظالم «نمروداً» وأراح باله بمرور الزمن، إذ أيقن بانه قد قضى به على عدو عرشه، وهادم سلطانه، وتخلص منه.

لقد قضى «إبراهيم» - عليه السلام - ثلاثة عشر عاماً في ذلك الغار الذي كان يتصل بالعالم الخارجي عبر باب ضيق، ثم أخرجته أمه من ذلك الغار بعد ثلاثة عشر عاماً، ودخل «إبراهيم» في المجتمع، فاستغرب المجتمع النمرودي وجوده وانكروه. (1)

- [تفسير البرهان: ج ١، ص ٥٣٥.

(123)

لقد خرج «إبراهيم» من الغار، مؤمناً بالله بفطرته، وقوى توحيدة الفطري، بمشاهدة الأرض والسماء، والنظر في سطوع الكواكب والنجوم والتأمل في ما يجري في عالم النبات من نمو و حركة إلى غير ذلك مما يجري في عالم الطبيعة العجيب.

لقد واجه إبراهيم - عليه السلام - بعد خروجه من الغار جماعة من الناس بهرتهم أحوال الكواكب وعظمة أمرها، ففقدوا عقولهم تجاه هذه الظاهرة، كما رأى جماعة أخرى أخطأ فكرياً من سابقتها يعبدون اصناماً منحوتة، بل واجه ما هو اسوأ بكثير من أعضاء الطوائف والجماعات الضالة إذ رأى رجلاً يستغل جهل الناس وغباهم ويدعي الالهية ويفرض عليهم عبادته والخضوع له!!

لقد كان إبراهيم - عليه السلام - يرى أن عليه أن يهيب نفسه لخوض المعركة في هذه الجهات الثلاث المختلفة، وقد نقل القرآن الكريم قصة نضال النبي «إبراهيم» - عليه السلام - في هذه الاصعدة والجهات الثلاث وسنقل لك في ما يأتي وباختصار ما ذكره القرآن في هذا المجال.

إبراهيم ومكافحته للوثنية:

كانت ظلمات الوثنية قد خيمت على منطقة بابل (موضع ولادة الخليل) برمتها.

فالآلهة المدعاة، والمعبودات (السموية والارضية) الباطلة قد سحرت عقول مختلف فئات الشعب، فبعضها في نظرهم هي أرباب القدرة والسلطة، وبعضها الآخر وسيلة الزلفى والتقرب إلى الله إلى غير ذلك من التصورات السخيفة في هذا الصعيد.

وحيث أن طريقة الأنبياء في هداية البشرية وارشادهم هي الاستدلال بالبراهين، والاحتجاج بالمنطق، لانهم إنما يتعاملون مع قلوب الناس وعقولهم، ويبتغون ايجاد حكومة تقوم على أساس الإيمان واليقين، ومثل هذه الحكومة لا يمكن اقامتها بالسيف أو بالنار والحديد. لهذا يبدأون حركتهم بالتوعية الفكرية.

إن علينا أن نفرق بين الحكومات التي يريد الأنبياء تأسيسها، وحكومة

(124)

الفراعة والنمارة.

إن هدف الطائفة الثانية هو: الرئاسة والزعامة، والحفاظ عليها بكل وسيلة ممكنة في حياتهم، وإن تلاشت وتهوت من بعدهم.

ولكن الانبياء والرسول يريدون حكومة تبقى قائمة في جميع الحالات ومائلة في جميع الاوقات، في الخلوة والجلوة، في وقت الضعف، وفي وقت القوة، في حياتهم وبعد مماتهم... انهم يريدون أن يحكموا على القلوب لا على الابدان، وهذا الهدف لا يتحقق ابداً عن طريق القوة واستخدام العنف والقهر!! إنما يتحقق عن طريق الحجة والبرهان.

لقد بدأ النبي «إبراهيم» عمله بمكافحة ما كان عليه أقرباؤه الذين كان في طبيعتهم وعلى رأسهم «آزر» وهو الوثنية وعبادة الاصنام، ولكنه لم ينته من هذه المعركة ولم يحرز إنتصاراً كاملاً في هذه الجبهة بعد إلا وواجه - عليه السلام - جبهة أخرى، وكانت هذه الجماعة أعلى مستوى من افراد الجماعة السابقة في الفهم والثقافة. لان هذه الجماعة - على خلاف أقرباء إبراهيم - قد نبذت عبادة الأوثان والأصنام⁽¹⁾، والمعبودات الارضية الحقيرة، وتوجهت بعبادتها وتقديسها إلى الكواكب والنجوم والاجرام السماوية.

ولقد بين «الخليل» - عليه السلام - في حوارهِ العقائدي مع عبّاد الاجرام السماوية، ومكافحته لمعتقداتهم الفاسدة، سلسلة من الحقائق الفلسفية والعلمية التي لم يصل إليها الفكر البشري يومذاك، وذلك ببيان بسيط مدعوم بأدلة لا تزال إلى اليوم موضع اعجاب كبار العلماء، ورواد الفلسفة والكلام.

والأهم من ذلك - في هذا المجال - أن القرآن الكريم نقل أدلة «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - باهتمام خاص وعناية بالغة ولهذا ينبغي لنا أن نتوقف عندها قليلاً، وهذا ما سنفعله في هذه الصفحات.

- [ترتبط آية ٧٤ من سورة الأنعام بحواره - عليه السلام - مع الوثنيين، بينما ترتبط الآيات اللاحقة لها بعبدة الأجرام السماوية.

حوار الخليل مع عبدة الكواكب:

ذات ليلة وقف إبراهيم - عليه السلام - عند ابتداء مغيب الشمس يتطلع في السماء - وهو ينوي هداية الناس - وبقي ينظر إلى النجوم والكواكب من أول الغروب من تلك الليلة إلى الغروب من الليلة التالية، وخلال هذه الساعات الأربع والعشرين حاور وجادل ثلاث فرق، من عبدة النجوم وابطل عقيدة كل فرقة منها بأدلة محكمة، وبراهين متقنة قوية.

فعندما أقبل الليلُ وخيم الظلام على كل مكان وهو يخفي كل مظاهر الوجود ومعالمه في عالم الطبيعة ظهر كوكبُ «الزهرة» من جانب الأفق وهو يتلألأ.

فقال إبراهيم لِعباد هذا الكوكب - وهو يتظاهر بموافقتهم جلباً لهم، ومقدمة للدخول معهم في حوار - : «هذا ربي.»

وعندما افل ذلك الكوكب وغاب عن الانظار قال: «لا احب الأفلين.»

وبمثل هذا المنطق الجميل أبطل عقيدة عبدة الزهرة، واطهر خواءها وفسادها.

ثم إنه - عليه السلام - نظر إلى كوكب القمر المنير الذي يسحر القلوب بنوره وضوئه، فقال - متظاهراً بموافقة عبدة القمر - : «هذا ربي.» ثم ردّ بأسلوب منطقي محكم تلك العقيدة أيضاً، عندما امتدت يد القدرة المطلقة ولمت أشعة القمر من عالم الطبيعة، وعندها إتخذ إبراهيم - عليه السلام - هيئة الباحث عن الحقيقة ومن دون أن يصدم تلك الفرق المشركه ويجرح مشاعرهم إذ قال: **يَهْدِينِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ**⁽¹⁾ (لأن القمر قد أفل أيضاً كما أفل سابقه فهو كغيره أسير نظام عُلوِّي لا يتخلف، وما كان كذلك لا يمكن ان يُعدَّ رباً يُعبَد، ويتوجه إليه بالتقديس والتضرع.

ولما ولى الليل وأدبر، واكتسحت الشمس الوضاء بأشعتها حجب

الظلام، وبثت خيوطها الذهبية على الوهاد والسهول، والتفت عبدة الشمس إلى معبودهم، تظاهر إبراهيم بالاقرار ببروبيتها اتباعاً لقواعد الجدل والمناظرة ولكن افول الشمس وغروبها اثبت هو الآخر بطلان عبادتها ايضاً بعد أن اثبت خضوعها للنظام الكوني العام، فتبرأ «الخليل» - عليه السلام - من عبادتها بصراحة.

وعندئذ أعرض - عليه السلام - عن تلك الطوائف الثلاث وقال: **إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَ مَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ.** (1)

لقد كان المخاطبين في كلام إبراهيم - عليه السلام - هم الذين يعتقدون بأن تدبير الكائنات الارضية، ومنها الإنسان قد انيطت إلى الاجرام السماوية وفوضت اليها!!

وهذا الكلام يفيد أن الخليل - عليه السلام - لم يقصد المطالب الثلاث التالية:

1- [اثبات الصانع (الخالق)].

2- توحيد الذات وأنه واحد غير متعدد.

3- التوحيد في الخالقية، وأنه لا خالق سواه.

بل كان تركيزه - عليه السلام - على التوحيد في «الربوبية» و «التدبير» وادارة الكون، وانه لا مدبّر ولا مربّي للموجودات الأرضية إلاّ الله سبحانه وتعالى، ومن هنا فانه - عليه السلام - فور إبطاله لربوبية الاجرام السماوية قال: **وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ** (...وهو يعني ان خالق السماوات والأرض هو نفسه مدبرها وربّها، وانه لم يفوض أي شيء من تدبير الكون، - لا كله ولا بعضه - إلى الاجرام السماوية، فتكون النتيجة: أن الخالق والمدبر واحد لا أن الخالق هو الله والمدبر شيء آخر.

ولقد وقع المفسرون، والباحثون في معارف القرآن في خطأ، والتباس عند التعرض لمنطق «إبراهيم - عليه السلام - وشرح حوارته هذا، حيث تصوروا أن الخليل - عليه السلام - قصد نفي «ألوهية» هذه الأجرام يعني الالوهية التي تعتقد بها

- [الأأنعام: ٧٩].

(127)

جميع شعوب الأرض ويكون هذا الكون الصاخب آية وجوده.

بينما تصوّر فريق آخر ان «إبراهيم» كان يقصد نفي «الخالقية» عن هذه الأجرام السماوية، لأنه من الممكن ان يخلق إله العالم كائناً كامل الوجود والصفات ثم يفوض إليه مقام الخالقية في حين أن هذين التفسيرين غير صحيحين، بل كان هدف الخليل - عليه السلام - بعد التسليم بوجود اله واجب الوجود، وتوحيده، ووحداية الخالق - البحث في قسم آخر من التوحيد، الا وهو التوحيد

«الربوبي»، وبالتالي اثبات أن خالق الكون هو نفسه مدير ذلك الكون أيضاً، وعبارة «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ...» أفضل شاهد على هذا النوع من التفسير.

من هنا كان التركيز الأكبر في بحث ابراهيم على مسألة «الرب» و «الربوبية» في صعيد الاجرام كالقمر والزهرة والشمس. (1)
هذا واستكمالاً للبحث الحاضر لا بدّ من توضيح برهان النبيّ «ابراهيم» - عليه السلام - .

لقد استدل «ابراهيم» في جميع المراحل الثلاث بأقول هذه الاجرام على أنها لا تليق بتدبير الطواهر الارضية وبخاصة الإنسان.
وهنا ينطرح سؤال: لماذا يُعتبر أقول هذه الاجرام شاهداً على عدم مدبّريتها؟

إن هذا الموضوع يمكن بياؤه بصور مختلفة، كل واحدة منها تناسب طائفة معينة من الناس.

إن تفسير منطق «الخليل» - عليه السلام - واسلوبه في إبطال مدبّرية الاجرام السماوية وربوبيتها بأشكال وصور مختلفة أفضل شاهد على أن للقرآن الكريم أبعاداً مختلفة وأن كل بُعد منها يناسب طائفة من الناس.

- لقد بيّنا مراتب التوحيد من وجهة نظر القرآن الكريم في كتابنا «معالم التوحيد في القرآن الكريم» وأثبتنا هناك أنّ التوحيد في الذات غير التوحيد في الخالقية، وأن هذين النوعين من التوحيد غير التوحيد في الربوبية، وهي غير المراتب الأخرى للتوحيد، فراجع الكتاب المذكور تقف على هذه الحقيقة.

(128)

واليك في ما يلي التفاسير المختلفة لهذا الاستدلال:

الف: إن الهدف من اتخاذ الربّ هو أن يستطيع الكائن الضعيف في ظل قدرة ذلك الرب من الوصول إلى مرحلة الكمال ولا بدّ ان يكون لمثل هذا الربّ ارتباطٌ قريبٌ مع الموجودات المراد تربيتها بحيث يكون واقفاً على أحوالها، غير منفصل عنها، ولا غريب عليها.

ولكن كيف يستطيع الكائن الذي يغيب ساعات كثيرة عن الفرد المحتاج إليه في التربية ويحرم ذلك الفرد من فيضه وبركته، ان يكون رباً للموجودات الأرضية ومدبراً لها؟!!

من هنا يكون أقول النجم، وغروبه، الذي هو علامة غريبته وانقطاعه عن الموجودات الارضية خير شاهد على أن للموجودات الأرضية رباً آخر، منزهاً عن تلك النقيصة عارياً عن ذلك العيب.

باء: إنّ طلوع الأجرام السماوية وغروبها وحركتها المنظمة دليل على أنها جميعاً خاضعة لمشيئة فوقها، وانها في قبضة القوانين الحاكمة عليها، والخضوع لقوانين منظمة هو بذاته دليل على ضعف تلك الموجودات، ومثل هذه الموجودات الضعيفة لا يمكن أن تكون حاكمة على الكون، أو شيء من الظواهر الطبيعية، وأما استفادة الموجودات الارضية من نور تلك الاجرام وضوئها فلا يدل أبداً على ربوبية تلك الأجرام، بل هو دليل على أن تلك الأجرام تؤدي وظيفة تجاه الموجودات الأرضية بأمر من موجود أعلى. وبعبارة أخرى: إن هذا الأمر دليل على التناسق الكوني، وارتباط الكائنات بعضها ببعض.

جيم: ما هو الهدف من حركة هذه الموجودات؟ هل الهدف هو أن تسير من النقص إلى الكمال أو بالعكس؟

وحيث أن الصورة الثانية غير معقولة، وعلى فرض تصورها لا معنى لأن يسير المرّي والمدبر للكون من مرحلة الكمال إلى النقص والفناء، يبقى الفرض الأول وهو بنفسه دليل على وجود مرّبٍ آخر يوصل هذه الموجودات القوية في ظاهرها

(129)

من مرحلة إلى مرحلة، هو - في الحقيقة - الربُّ الذي يبلغ بهذه الموجودات وما دونها إلى الكمال.

طريقة الأنبياء في الحوار والجدال:

لقد أسلفنا في ما سبق أن «ابراهيم» - بعد خروجه من الغار - واجه صنفين منحرفين عن جادة التوحيد هما:

1- الوثنيون.

2- عبدة الاجرام السماوية.

ولقد سمعنا حوار «ابراهيم» - عليه السلام - وجداله مع الفريق الثاني، وعلينا الآن أن نعرف كيف حاور الوثنيين وعبدة الاصنام؟ إن تاريخ الانبياء والرسول يكشف لنا عن أنهم كانوا يبدأون دعوتهم من انذار الاقربين ثم يوسعون دائرة الدعوة لتشمل عامة الناس كما فعل رسول الإسلام في بدء دعوته حيث بدأ بانذار عشيرته الاقربين لما امره الله تعالى بذلك إذ قال: **وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ**.⁽¹⁾ (وبذلك أسس دعوته على إصلاح اقربائه وعشيرته.

ولقد سلك «الخليل» - عليه السلام - نفس هذا المسلك أيضاً إذ بدأ عمله الاصلاحى باصلاح اقربائه.

ولقد كان لأزر بين قومه مكانة اجتماعية عليا فهو - مضافاً إلى معلوماته في الصناعة وغيرها - كان منجماً ماهراً، وذا كلمة مسموعة ورأي مقبول في بلاط «نمرود» في كل ما يخبر به من أخبار النجوم، وكل ما يستخرجه وما يستنبطه من الامور الفلكية ويذكره من تكهنات.

لقد ادرك «ابراهيم» انه بجلبه لأزار (عمه) يستطيع أن يسيطر على اوساط الوثنيين، ويجردهم من ركيزة هامة من كبريات ركانزهم، ولهذا بادر إلى منع

- [الشعراء: ٢١٤] -

(130)

عمه أزر - وبافضل الاساليب - عن عبادة الاوثان، بيد أن بعض الأسباب أوجبت أن لا يقبل «أزر» بنصائح «ابراهيم» - عليه السلام - ، والمهم لنا في هذا المجال هو ان نتعرف على كيفية دعوة الخليل وعلى اسلوب حوارهم مع «أزر» .

ان الامعان في الآيات التي تنقل حوار «ابراهيم» - عليه السلام - مع «أزر» توضح لنا أدب الانبياء، واسلوبهم الرائع في الدعوة والارشاد، ولنقف عند حوار ابراهيم ودعوته، ليتضح لنا ذلك.

يقول القرآن الكريم عن ذلك: **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً. يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جِئْتِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً. يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيّاً. يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً.**

فاجابه «أزر» قانلاً: **أَرَاغِبُ أَنْتَ عَنِ الْهَيْتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَمْ تَنْتَه لَأَرْجَمَنَّكَ وَ أَهْجُرْنِي مَلِيّاً.**

ولكن «ابراهيم» بسعة صدره وعظمة روحه تجاهل رد «أزر» العنيف ذلك وأجابه قانلاً: **سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي.** (1)

وأي جواب افضل من هذا البيان وأى لغة ألين من هذه اللغة واحب إلى القلب، وأكثر رحمة ولطفاً.

هل كان أزر والد إبراهيم؟

ان الظاهر من الآيات المذكورة وكذا الآية (١١٥) من سورة «التوبة» والآية (١٤) من سورة الممتحنة هو: أن «أزر» كان والد إبراهيم - عليه السلام - .

وقد كان إبراهيم يسميه أباً في حين كان «أزر» وثنياً، فكيف يصح ذلك وقد اتفقت كلمة علماء الشيعة عامة على كون والد النبي الكريم «محمّد»

- [1] مریم: ٤٢ - ٤٧.

(131)

- صلى الله عليه وآله وسلم - وجميع الأنبياء مؤمنين بالله سبحانه موحدين إياه تعالى.

ولقد ذكر الشيخ المفيد رضوان الله عليه في كتابه القيم «أوائل المقالات»⁽¹⁾ «ان هذا الامر هو موضع اتفاق علماء الشيعة الامامية كافة بل وافقهم في ذلك كثير من علماء السنة ايضاً.

وفي هذه الصورة ما هو الموقف من ظواهر الآيات المذكورة التي تفيد أبوة «أزر» لإبراهيم، وما هو الحل الصحيح لهذه المشكلة؟؟ يذهب أكثر المفسرين إلى أن لفظة «الأب» وان كانت تُستعمل عادة في لغة العرب في «الوالد»، إلا أن مورد استعمالها لا ينحصر في ذلك.

بل ربما استعملت - في لغة العرب وكذا في مصطلح القرآن الكريم - في: (العم) أيضاً. كما وقع ذلك في الآية التالية التي استعملت فيها لفظة الأب بمعنى العم إذ يقول سبحانه:

(إِذْ قَالَ لِبَنِيِّهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهُاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ.)⁽²⁾

فإنّ ممّا لا ريب فيه أن «اسماعيل» كان عمّاً ليعقوب لا والداً له، فيعقوب هو ابن اسحاق، واسحاق هو أخو اسماعيل.

ومع ذلك سمى أولاد يعقوب «اسماعيل» الذي كان عمهم أباً.

ومع وجود هذين الاستعماليين (استعمال الاب في الوالد تارة، وفي العم تارة أخرى) يصبح احتمال كون المراد بالاب في الآيات المرتبطة بهداية «أزر» هو العمّ أمراً وارداً، وبخاصة إذا ضَمّمنا إلى ذلك قرينة قوية في المقام وهي: اجماع العلماء الذي نقله المفيد رحمه الله على طهارة آباء الانبياء واجدادهم من رجس الشرك والوثنية.

ولعل السبب في تسمية النبي «ابراهيم» عمّه بالآب هو أنه كان الكافل

- [1] أوائل المقالات: ص ١٢، باب القول في آباء رسول الله صلى الله عليه وآله.
- [2] البقرة: ١٣٣.

لابراهيم ردهاً من الزمن، ومن هنا كان «ابراهيم» ينظر إليه بنظر الأب، وينزله منزلة الوالد.

القرآن ينفي أبوة «آزر» لإبراهيم:

ولكي نعرف رأي القرآن الكريم في مسألة العلاقة بين «آزر» و «ابراهيم» - عليه السلام - نلقت نظر القارئ الكريم إلى توضيح آيتين:

- [لقد أشرقت منطقة الحجاز بنور الايمان والإسلام بفضل جهود النبي «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - وتضحياته الكبرى، وأمن أكثر الناس به عن رغبة ورضا، وعلموا بأن عاقبة الشرك، وعبادة الاوثان والاصنام هو الجحيم والعذاب الاليم.

إلا أنهم رغم ابتهاجهم وسرورهم بما وقفوا له من إيمان وهداية، كانت ذكريات آبائهم وأمهاتهم الذين مضوا على الشرك والوثنية تزعج خواطرهم وتثير شفقتهم، واسفهم.

وكان سماع الآيات التي تشرح أحوال المشركين في يوم القيامة يحزنهم ويؤلمهم، وبغية ازالة هذا الالم الروحي المجهد طلبوا من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يستغفر لابائهم وأمهاتهم كما فعل «إبراهيم» في شأن «آزر» فنزلت الآية في مقام الرد على طلبهم ذلك، إذ قال سبحانه:

(مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قَرَبَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَاهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ. (1))

إنَّ ثمة قرائن كثيرة تدل على أنَّ محادثة النبي «إبراهيم» وحواره مع «آزر» ووعده بطلب المغفرة له من الله سبحانه قد انتهى إلى قطع العلاقات،

والتبري منه في عهد فتوة «إبراهيم»، وشبابه، أي عندما كان «إبراهيم» لا يزال في مسقط رأسه «بابل» ولم يتوجه بعد إلى فلسطين ومصر وأرض الحجاز.

إننا نستنتج من هذه الآية أن «إبراهيم» قطع علاقته مع «أزر» - في أيام شبابه - بعد ما أصرَّ «أزر» على كفره، ووثنيته، ولم يعد يذكره إلى آخر حياته.

2- لقد دعا «إبراهيم» عليه السلام - في أخريات حياته - أي في عهد شيخوخته - وبعد أن فرغ من تنفيذ مهمته الكبرى (تعمير الكعبة) واسكان ذريته في أرض مكة القاحلة، دعا بكل اخلاص وصدق جماعة منهم والداه، وطلب من الله إجابة دعائه، إذ قال في حين الدعاء:

(رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ) (1)

إن هذه الآية تفيد بصراحة - أن الدعاء المذكور كان بعد الفراغ من بناء الكعبة المعظمة، وتشبيدها، يوم كان إبراهيم يمر بفترة الشيخوخة، فاذا كان مقصوده من الوالد في الدعاء المذكور هو «أزر»، وأنه المراد له المغفرة الالهية كان معنى ذلك أن «إبراهيم» كان لم يزل على صلة بـ «أزر» حتى أنه كان يستغفر له في حين أن الآية التي نزلت رداً على طلب المشركين أوضحت بأن «إبراهيم» كان قد قطع علاقته بـ «أزر» في أيام شبابه، وتبرأ منه، ولا ينسجم الاستغفار مع قطع العلاقات.

إن صَمَّ هاتين الآيتين بعضهما إلى بعض يكشف عن أن الذي تبرأ منه «إبراهيم» في أيام شبابه، وقطع علاقته معه، واتخذوه عدواً هو غير الشخص الذي بقي يذكره، ويستغفر له إلى أخريات حياته. (2)

إبراهيم محطّم الأصنام:

لقد حلَّ موسم العيد، وخرج أهلُ بابل المغفلين الجهلة إلى الصحراء للاستجمام، ولقضاء فترة العيد، وإجراء مراسيمه، وقد أخلوا المدينة.

- 1 إبراهيم: ٤١ .
- 2 مجمع البيان: ج ٣، ص ٣٢١، والميزان: ج ٧، ص ١٧٠ .

ولقد كانت سوابق «إبراهيم»، وتحامله على الأصنام، واستهزائه بها قد أوجدت قلقاً وشكاً لدى أهل بابل، ولهذا طلبوا منه - وهم الذين يساورهم القلق من موقفه تجاه اصنامهم - الخروج معهم إلى الصحراء، والمشاركة في تلك المراسيم، ولكن اقتراحهم هذا بل إصرارهم واجه رفض إبراهيم الذي رد على طلبهم بحجة المرض إذ قال: «إني سقيم» وهكذا لم يشترك في عيدهم، وخروجهم وبقي في المدينة.

حقاً لقد كان ذلك اليوم يوم ابتهاج وفرح للموحد والمشارك، وأما للمشاركين فقد كان عيداً قديماً عريقاً يخرجون للاحتفال به، واقامة مراسيمه وتجديد ما كان عليه الآباء والاسلاف إلى الصحراء حيث السفوح الخضراء والمراع الجميلة.

وكان عيداً لإبراهيم بطل التوحيد كذلك، عيداً لم يسبق له مثيل، عيداً طال انتظاره، وافرحة حضوره وحلوله، فها هو إبراهيم يجد المدينة فارغة من الاغيار، والفرصة مناسبة للانقضاض على مظاهر الشرك والوثنية، وحدث هذا فعلاً.

فعندما خرج آخر فريق من اهل بابل من المدينة، إغتنم «إبراهيم» تلك الفرصة ودخل وهو ممتلئ ايماناً وبقيناً بالله في معبدهم حيث الأصنام والأوثان المنحوتة الخاوية، وأمامها الأطعمة الكثيرة التي احضرها الوثنيون هناك بقصد التبرك بها، وقد لفتت هذه الأطعمة نظر «الخليل» - عليه السلام - ، فأخذ بيده منها كسرة خبز ، وقدمها مستهزء إلى تلك الاصنام قائلاً: لماذا لا تأكلون من هذه الاطعمة؟

ومن المعلوم أن معبودات الشركين الجوفاء هذه لم تكن قادرة على فعل اي شيء أو حركة مطلقاً فكيف بالاكل.

لقد كان يخيم على جوّ ذلك المعبد الكبير سحابة من الصمت القاتل ولكنه سرعان ما اخترقته اصوات المعول الذي اخذ «إبراهيم» يهوي به على رؤوس تلك التماثيل الجامدة الواقفة بلا حراك، وايديها.

لقد حطم «الخليل» - عليه السلام - جميع الاصنام وتركها ركاماً من الاعواد المهشمة، والمعدن المتحطم، وإذا بتلك الاصنام المنصوبة في اطراف ذلك الهيكل

(135)

قد تحولت إلى تلة في وسط المعبد.

غير ان «إبراهيم» ترك الصنم الأكبر من دون ان يمسه بسوء، ووضع المعول على عاتقه، وهو يريد بذلك ان يظهر للقوم بأن محطّم تلك الأصنام هو ذلك الصنم الكبير، إلا أن هدفه الحقيقي من وراء ذلك كان امراً آخرأ سنبينه في ما بعد.

لقد كان «إبراهيم» - عليه السلام - يعلم بأنّ المشركين بعد عودتهم من الصحراء، ومن عيدهم سيزورون المعبد، وسوف يبحثون عن علة هذه الحادثة، وأنهم بالتالي سوف يرون ان وراء هذه الظاهرة واقعاً آخر، إذ ليس من المعقول ان يكون صاحب تلك الضربات القاضية هو هذا الصنم الكبير الذي لا يقدر اساساً على فعل شيء على الاطلاق.

وفي هذه الحالة سوف يستطيع «إبراهيم» - عليه السلام - أن يستفيد من هذه الفرصة في عمله التبليغي ويستغل اعتراضهم بأن هذا الصنم الكبير لا يقدر على شيء أبداً، لتوجيه السؤال التالي اليهم: انذ كيف تعبدونه!!

فمنذ أن اخذت الشمس تدنو إلى المغيب ويقتربُ موعد غروبها، وتتقلص اشعتها وتنكمش من الرّوابي والسهول، أخذَ الناسُ يؤوبون إلى المدينة أفواجاً أفواجاً.

وعند ما أن موعد العبادة، وتوجّهوا إلى حيث اصنامهم، واجهوا منظرأً فضيعاً وامراً عجبياً لم يكونوا ليتوقّفونه!!

لقد كان المشهد يحكي عن ذلة الآلهة وحقارتها، وهو أمرٌ لفت نظر الجميع شيباً وشباناً، كباراً وصغاراً.

ولقد كانت تلك اللحظة لحظة ثقيلة الوطأة على الجميع بلا استثناء.

فقد خيّم سكوتٌ قاتلٌ مصحوب بحنق ومضض على فضاء ذلك المعبد المنكود الحظ.

إلا أن أحدهم خرق ذلك الصمت الرهيب وقال: من الذي ارتكب هذه الجريمة، ومن فعل هذا بالهتنا؟!!

(136)

ولقد كانت آراء «إبراهيم» ومواقفه السلبيّة السابقة ضد الاصنام وتحامله الصريح عليها تبعثهم على اليقين بأن «إبراهيم» وليس سواه هو الذي صنع ما صنع بالهتهم واصنامهم.

ولأجل ذلك تشكلت فوراً محكمة يرأسها «نمرود» نفسه وأخذوا يحاكمون «إبراهيم» وأمه!!

ولم يكن لأمه من ذنب إلا أنها أخفت ابنها، ولم تُعلم السلطات بوجوده ليقضوا عليه، شأنه شأن غيره من المواليد الذين قضت تلك السلطة الظالمة عليهم حفاظاً على نفسها وكيانها.

ولقد أجابت أم إبراهيم على هذا السؤال بقولها: أيها الملك فعلت هذا نظراً مني لرعيّتك، فقد رأيتك تقتل أولاد رعيّتك فكان يذهب النسل فقلت: إن كان هذا الذي يطلبه دفعته إليه ليقنتله ويكف عن قتل أولاد الناس، وإن لم يكن ذلك فبقي لنا ولدنا.

ثم جاء دور مساءلة إبراهيم - عليه السلام - فسأله قائلا: **مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتْنَا يَا إِبْرَاهِيمَ (فقال إبراهيم): فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطَفُونَ.**

وقد كان «إبراهيم» - عليه السلام - يهدف من هذه الاجابة اللامبالية المصحوبة بالسخرية والازدراء هدفاً آخر، وهو ان «إبراهيم» - عليه السلام - كان على يقين بأنهم سيقولون في معرض الاجابة على كلامه هذا: إنك تعلم يا إبراهيم ان هذه الأصنام لا تقدر على النطق، وفي هذه الصورة يستطيع «إبراهيم» أن يُلفت نظر السلطات التي تحاكمه إلى نقطة اساسية.

وقد حدث فعلاً ما كان يتوقعه «إبراهيم» - عليه السلام - لما قالوا له وقد نكسوا على رؤوسهم: «لقد علمت ما هؤلاء ينطقون» فقال إبراهيم رداً على كلامهم هذا الذي كان يعكس حقارة تلك الاصنام والأوثان وتفاهة شأنها: **أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَ لَا يَضُرُّكُمْ أَفَ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ.**)

إلا أن تلك الزمرة المعاندة التي ران على قلوبها الجهل والتقليد الأعمى لم

(137)

يجدوا جواباً لأبراهيم الذي افحمهم بمنطقه الرصين إلا أن يحكموا باعدامه حرقاً، فأوقدوا ناراً كبيرة وألقوا بإبراهيم - عليه السلام - فيها إلا أن العناية الإلهية شملت إبراهيم الخليل - عليه السلام - ، وحفظته من اذى تلك النار، وحولت ذلك الجحيم الذي اوجده

البشر، إلى جُنبنة خضراء نضرة إذ قال: **يا نازُ كوني بَرْدًا وَ سَلامًا على إبراهيم.**(1)

العبر القيمة في هذه القصة:

مع ان اليهود يعتبرون أنفسهم في مقدمة الموحدين، لم ترد هذه القصة في ثوراتهم الحاضرة رغم كونها معروفة بينهم، بل تفرّد القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بذكرها لأهميتها.

من هنا فإننا نذكر بعض النقاط المفيدة، والدروس المهمة في هذه القصة التي يهدف القرآن من ذكرها وذكر أمثالها من قصص الأنبياء والرسل.

- [وقد ذكر تفاصيل هذه القصة في الآيات ٥١ إلى ٧٠ من سورة الانبياء وها نحن ندرج كل هذه الآيات هنا:
(وَ لَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلِ وَ كُنَّا بِهِ عَالِمِينَ. إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَابِدُونَ. قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ. قَالُوا اجْتِنَّا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ وَ تَالِلهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ. فَجَعَلَهُمْ جَذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ. قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ. قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ. قَالُوا: فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ قَالُوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ. قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْئَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلاءِ يَنْطِقُونَ. قَالَ: أَفْتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَ لَا يَضُرُّكُمْ. أَفَ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا الْهَيْتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ. قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَ سَلامًا على إبراهيم. وَ أَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ.)
وللوقوف على تفاصيل وخصوصيات ولادة إبراهيم عليه السلام وتحطيمه للأصنام راجع كتاب الكامل لابن الأثير: ج ١، ص ٥٣ - ٦٢، وبحار الأنوار: ج ١٢، ص ١٤ - ٥٥.

(138)

-[1] هذه القصة خير شاهد على شجاعة «إبراهيم الخليل» - عليه السلام - وبطولته الفائقة.

فغزم إبراهيم على تحطيم الاصنام، ومحق وهدم كل مظاهر الشرك والوثنية المقيتة لم يكن امراً خافياً على النمروديين لانه - عليه السلام - كان قد أظهر شجبه لها، وعلن عن استنكاره لعبادتها وتقديسها من خلال كلماته القادحة فيها، واستهزائه بها، فقد كان -

عليه السلام - يقول لهم بكل صراحة بانه سيتخذ من تلك الاصنام موقفاً ما إذا لم يتركوا عبادتها وتقديسها، فقد قال لهم يوم ارادوا ان يخرجوا إلى الصحراء لمراسيم العيد: **وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ.** (1)

ولقد كان موقف الخليل - عليه السلام - ينم عن شجاعة كبرى فقد قال الإمام الصادق - عليه السلام - في هذا الصدد: «ومنها (اي ومما تحلى به النبي إبراهيم) الشجاعة وقد كشفت (قضية) الاصنام عنه، ومقاومة الرجل الواحد ألوفاً من أعداء الله عزوجلّ تمام الشجاعة. (2)»

2- ان ضربات «إبراهيم» القاضية وان كانت في ظاهرها حرباً مسلحة، وعنيفة ضد الاصنام إلا أن حقيقة هذه النهضة - كما يُستفاد من ردود «إبراهيم» على أسئلة الذين حاكموه، واستجوبوه - كانت ذات صبغة تبليغية دعائية.

فان «إبراهيم» لم يجد وسيلة لا يفاظ عقول قومه الغافية، وتنبيه فطرهم الغافلة، إلا تحطيم جميع الاصنام، وترك كبيرها وقد علق القدم على عاتقه ليدفع بقومه إلى التفكير في القضية من اساسها وحيث أن العمل لم يكن أكثر من مسرحية إذ لا يمكن أن يصدق أحدهم بأن تلك الضربات القاضية كانت من صنع ذلك الصنم الكبير وفعله حينئذ يستطيع إبراهيم أن يستثمر فعله هذا في دعوته، ويقول أن هذا الصنم الكبير لا يقدر - وباعتراكم - على فعل أي شيء.

- 1 الأنبياء: ٥٧ .
- 2 بحار الأنوار: ج ١٢، ص ٦٧ .

(139)

مهما كان صغيراً وحقيراً فكيف تعبدونه اذن؟!!

ولقد استفاد «إبراهيم» من هذه العملية فعلا، وتوصل إلى النتيجة التي كان يتوخاها، فقد تابوا إلى نفوسهم بعد ان سمعوا كلمات «إبراهيم» - عليه السلام - ، واستيقظت ضمائرهم وعقولهم ووصفوا انفسهم بالظلم بعد أن تبين لهم الحق وبطل ما كانوا يعبدون إذ قال تعالى: **فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ** (1) وهذا بنفسه يفيد بأن سلاح الانبياء القاطع في بدء عملهم الرسالي كان هو: سلاح المنطق والاستدلال ليس إلا، غاية الأمر أن هذا كان يؤدي في كل دورة بما يناسبها من الوسائل، وإلا فما قيمة تحطيم عدد من الأصنام الخشبية بالقياس إلى مخاطرة النبي «إبراهيم الخليل» بنفسه وحياته، وبالقياس إلى الاخطار التي كانت تتوجه إليه نتيجة هذا العمل الصارخ.

إن فلان ان يكون وراء هذه العملية الخطيرة هدفت كبير وخدمة عظيمة تستحق المخاطرة بالنفس، ويستحق المرء امتداح العقل له إذا عرّض حياته للخطر في سبيلها.

3- لقد كان إبراهيم يعلم بأن هذا العمل سيؤدي بحياته، وسيكون فيه حتفه، فكانت القاعدة تقتضي أن يسيطر عليه قلق واضطراب شديدان، فيتوارى عن أعين الناس، أو يترك المزاح، والسخرية بالأصنام على الأقل، ولكنه كان على العكس من ذلك رابط الجأش، مطمئن النفس، ثابت القدم، فهو عندما دخل في المعبد الذي كانت فيه الأصنام تقدم بقطعة من الخبز إلى الاصنام ودعاها ساخرأ بها، إلى الاكل، وتم ترك الأصنام بعد اليأس منها تلاً من الخشب المهشم، واعتبر هذا الامر مسألة عادية لا تستأهل الوجع والخوف، وكأنه لم يفعل ما يستتبع الموت المحقق ويستوجب الاعدام المحتم.

فهو عندما يأخذ مكانه امام هيئة القضاة يقول معرضاً بالاصنام: فعله كبير الأصنام فاسئلوه ولا شك أن هذا التعريض والسخرية بالاصنام إنما هو موقف من

- [الأنبياء: ٦٤ .

(140)

لا يوجس خيفة، ولا يشعر بوجل من عمله، بل هو فعل من قد هيأ نفسه لكل الاخطار المحتملة، واستعد لكل النتائج مهما كانت خطيرة.

بل الأعجب من هذا كله دراسة وضع «إبراهيم» نفسه حينما كان في المنجنيق وقد تيقن أنه سيكون وسط أسنة اللهب بعد هنيئة، وتلتهمه النار المستعرة تلك النار التي جمع اهل «بابل» لها الحطب الكثير تقريباً إلى آلهتهم، وكانوا يعتبرون ذلك العمل واجباً مقدساً... تلك النار التي كان لهيبها من القوة بحيث ما كانت الطيور تستطيع من التحليق على مقربة منها.

في هذه اللحظة الخطيرة الحساسة جاءه جبرئيل واعلن عن استعداده لانقاذه وتخليصه من تلك المهلكة الرهيبة قائلاً له: هل لك إلى من حاجة؟

فقال «إبراهيم»: أما إليك فلا، وأما إلى رب العالمين فنعمة. (1)

ان هذا الجواب يجسد إيمان «إبراهيم» العظيم، وروحه الكبرى.

لقد كان «نمرود» الذي جلس يراقب تلك النار من عدة فراسخ، ينتظر بفارغ الصبر لحظة الانتقام، وكان يحب ان يرى كيف تلتهم أسنة النار «إبراهيم». فما أرب تلك اللحظات!

لقد اشتغل المنجنيق، وبهزة واحدة ألقى بإبراهيم - عليه السلام - في وسط النار غير أن مشيئة الله، وارادته النافذة تدخلت فوراً لتخلص خليل الله ونبيه العظيم، فحوّلت تلك النار المحرقة التي أوقدتها يدُ البشر إلى روضة خضراء وجنيئة زاهرة ادهشت الجميع حتى أنّ «إبراهيم» التفت إلى «أزر» وقال - من دون ارادته - : «يا أزر ما اكرم إبراهيم على ربه.(2)»

إن انقلاب تلك النار الهائلة إلى روضة خضراء لإبراهيم قد تمّ بأمر الله المسبب للإسباب والمعطل لها متى شاء، المعطي لها آثارها، والسالب عنها ذلك، متى اراد.

- 1 عيون أخبار الرضا: ص ١٣٦، وأمالى الصدوق: ص ٢٧٤، وبحار الأنوار: ج ١٢، ص ٣٥.
- 2 تفسير البرهان: ج ٣، ص ٦٤.

(141)

اجل إن الله أذني منح الحرارة للنار والاضاءة للقمر، والاشعاع للشمس لقادر على سلب هذه الآثار وانتزاعها من تلك الاشياء وتجريدها، ولهذا صحَّ وصفه بمسبب الاسباب، ومعطلها.

غير ان جميع هذه الحوادث الخارقة والآيات الباهرة لم تستطع ان توفر لابراهيم الحرية الكاملة في الدعوة والتبليغ، فقد قررت السلطة الحاكمة وبعد مشاورات ومداولات إبعاد «إبراهيم» ونفيه، وقد فتح هذا الأمر صفحة جديدة في حياة ذلك النبي العظيم، وتهيأت بذلك اسباب رحلته إلى بلاد الشام وفلسطين ومصر وارض الحجاز.

هجرة الخليل

- عليه السلام - :

لقد حكمت محكمة «بابل» على «إبراهيم» بالنفي والإبعاد من وطنه، ولهذا اضطرّ - عليه السلام - ان يغادر مسقط رأسه، ويتوجه صوب فلسطين ومصر، وهناك واجه استقبال العمالقة الذين كانوا يحكمون تلك البقاع وترحيبهم الحار به ونعم بهداياهم التي كان من جملتها جارية تدعى «هاجر.»

وكانت زوجته «سارة» لم تُرزق بولد إلى ذلك الحين، فحركت هذه الحادثة عواطفها ومشاعر ها تجاه زوجها الكريم إبراهيم ولذلك حثته على نكاح تلك الجارية عله يُرزق منها بولد، تقرّ به عينه وتزدهر به حياته.

فكان ذلك، وولدت «هاجر» لإبراهيم ولداً ذكراً سمي باسماعيل، ولم يمض شيء من الزمان حتى حبلت سارة هي أيضاً وولدت - بفضل الله ولطفه - ولداً سمي باسحاق. (1)

وبعد مدة من الزمان أمر الله تعالى «إبراهيم» بان يذهب بإسماعيل وأمه «هاجر» إلى جنوب الشام «أي ارض مكة» ويُسكنهما هناك في واد غير معروف إلى ذلك الحين... واد لم يسكنه أحدٌ بل كانت تنزل فيه القوافل التجارية

- [بحار الأنوار: ج ١٢، ص ١١٨ و ١١٩].

(142)

الذاهبة من الشام إلى اليمن، والعائدة منها إلى الشام، بعض الوقت ثم ترحل سريعاً، وأما في بقية أوقات السنة فكانت كغيرها من أراضي الحجاز صحراء شديدة الحرارة، خالية عن أي ساكن مقيم.

لقد كانت الإقامة في مثل تلك الصحراء الموحشة عملية لا تطاق بالنسبة لأمراة عاشت في ديار العمالة والفت حياتهم وحضارتهم، وترفهم وبذخهم.

فالحرارة اللاهبة والرياح الحارقة في تلك الصحراء كانت تجسد شبح الموت الرهيب امام ابصار المقيمين.

وإبراهيم نفسه قد انتابته كذلك حالة من التفكير والدهشة لهذا الامر، ولهذا فإنه فيما كان عازماً على ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ذلك الواد قال لزوجته «هاجر» وعيناه تدمعان: «إن الذي أمرني أن أضعكم في هذا المكان هو الذي يكفيكم.»

ثم قال في ضراعة خاصة: رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ. (1)

وعندما انحدر من ذلك الجانب من الجبل التفت اليهما وقال داعياً: رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زُرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ. (2)

إن هذا السفر والهجرة وإن كانت في ظاهرها امراً صعباً، وعملية لا تطاق، إلا أن نتائجها الكبرى التي ظهرت في ما بعد أوضحت وبيّنت أهمية هذا العمل، لأنّ بناء الكعبة، وتأسيس تلك القاعدة العظمى لأهل التوحيد، ورفع راية التوحيد في تلك الربوع، وخلق نواة نهضة، عميقة، دينية، انبثقت على يد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وشعت من تلك الديار إلى أنحاء العالم، كل ذلك كان من ثمار تلك الهجرة.

- [البقرة: ١٢٦].

- [إبراهيم: ٣٧].

(143)

عين زمزم كيف ظهرت؟

لقد غادر «إبراهيم» - عليه السلام - أرض مكة تاركاً زوجته وولده «إسماعيل» بعيون دامعة، وقلب يملأه الرضا بقضاء الله والامل بلطفه وعنايته.

فلم تمض مدة إلا ونفذ ما ترك عندهما من طعام وشراب، وجف اللبن في ثديي «هاجر»، وتدهورت أحوال الرضيع «إسماعيل»، وكانت دموع الام الحزينة تنحدر على حجره، وهي تشاهد حال وليدها الذي قد أخذ العطش والجوع منه مأخذاً.

فانطلقت من مكانها فجأة تبحث عن الماء حتى وصلت إلى جبل «الصفا» فرأت من بعيد منظر ماء عند جبل «مروة»، فأسرعت إليه مهرولة، غير ان الذي رأته وظننته ماء لم يكن الا السراب الخادع، فزادها ذلك حزناً على وليدها مما جعلها تكرر الذهاب والاياب إلى الصفا والمروة أملاً في أن تجد الماء ولكن بعد هذا السعي المتكرر، والذهاب والاياب المتعدد بين الصفا والمروة عادت إلى وليدها قانطةً يائسةً.

كانت أنفاس الرضيع الظامىء ودقات قلبه الصغير قد تباطأت بل واشرفت على النهاية، ولم يعد ذلك الرضيع الظامىء قادراً على البكاء ولا حتى على الانين.

ولكن في مثل هذه اللحظة الحرجة الصعبة استجاب الله دعاء خليله و حبيبه «إبراهيم»، إذ لاحظت هاجر الماء الزلال وهو ينبع من تحت اقدام «اسماعيل.»

فسرت تلك الام المضطربة - التي كانت تلاحظ وليدها وهو يقضي اللحظات الاخيرة من حياته، وكانت على يقين بانه سرعان ما يموت عطشاً، وجهداً - سروراً عظيماً بمنظر الماء، وبرق في عينيها بريق الحياة، بعد ان اظلمت الدنيا في عينيها قبل دقائق، فشربت من ذلك الماء العذب، وسقت منه رضيعها الظامىء، وتقشعت بلطف الله وعنايته وبما بعثه من نسيم الرحمة الربانية كل غيوم اليأس، وسحب القنوط التي تلبدت وخيمت على حياتها.

ولقد ادى ظهور هذه العين التي تدعى بززم في ان تتجمع الطيور في تلك المنطقة و تحلق فوق تلك البقعة التي لم يُعهد أن حلق عليها الطيور، وارتادتها الحمائم، وهذا هو ما دفع بجرهم وهي قبيلة كانت تقطن في منطقة بعيدة عن هذه البقعة ان تنتبه إلى ظهور ماء فيها لمارأت تساقط الطيور وتحليقها، فأرسلت و اردن لينقصيا لها الخبر ويعرفا حقيقة الأمر، وبعد بحث طويل وكثير، انتهيا إلى حيث حلت الرحمة الالهية، وعندما اقتربا إلى «هاجر» وشاهدا بام عينيها «امراًة» و «طفلاً» عند عين من الماء الزلال الذي لم يعدها من قبل عادا من فورهما من حيث أتيا، وأخيرا كبار القبيلة بما شاهداه، فاخذت الجماعة تلو الجماعة من تلك القبيلة الكبيرة

تدف إلى البقعة المباركة، وتخيم عند تلك العين لتطرد عن «هاجر» وولدها مرارة الغربة، ووحشة الوحدة، وقد سبب نمو ذلك الوليد المبارك ورشده في رحاب تلك القبيلة في ان يتزوج إسماعيل هذا من تلك القبيلة، وبصاهرهم، وبذلك يحظى بحمايتهم له، وينعم بدفاعهم ورعايتهم ومحبتهم له. فانه لم يمض زمانٌ حتى أختار «إسماعيل» زوجة من هذه القبيلة، ولهذا ينتمي ابناء «إسماعيل» إلى هذه القبيلة من جهة الأم.

تجديد اللقاء:

كان إبراهيم - عليه السلام - بعد أن ترك زوجته «هاجر» وولده «إسماعيل» في ارض «مكة» بأمر الله، يتردد على ولده بين فينة وأخرى.

وفي احدى سفراته ولعلها السفرة الأولى دخل «مكة» فلم يجد ولده «إسماعيل» في بيته، وكان ولده الذي أصبح رجلاً قوياً، قد تزوج بامرأة من جرهم.

فسأل «إبراهيم» زوجته قائلاً: اين زوجك؟ فقالت: خرج يتصيد، فقال لها: هل عندك ضيافة؟ قالت: ليس عندي شيء وما عندي أحد، فقال لها إبراهيم: «إذا جاء زوجك فأقرئيه السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه.»

(145)

وذهب إبراهيم - عليه السلام - منزحاً من معاملة زوجة ابنه «إسماعيل» له وقد قال لها ما قال.

ولما جاء إسماعيل - عليه السلام - وجد ريح ابيه فقال لامرأته: هل جاءك احد؟ قالت: جاءني شيخ صفته كذا وكذا كالمستخفة بشأنه، قال: فماذا قال لك: قالت: قال لي أفرني زوجك السلام وقولي له: فليغير عتبة بابه!!

فطلقها وتزوج أخرى، لأن مثل هذه المرأة لا تصلح ان تكون زوجة وشريكة حياة. (1)

وقد يتساءل أحد: لماذا لم يمكث إبراهيم - عليه السلام - هناك قليلاً ليرى ولده إسماعيل بعد عودته من الصيد، وقد قطع تلك المسافة الطويلة، وكيف سمح لنفسه بان يعود بعد تلك الرحلة الشاقة من دون ان يحظى برؤية ابنه العزيز؟!

يجيب ارباب التاريخ على ذلك بان إبراهيم انما استعجل في العودة من حيث اتى لوعده اعطاه لزوجته سارة بأن يعود اليها سريعاً، ففعل ذلك حتى لا يخلف. وهذا من اخلاق الانبياء.

ثم إن «إبراهيم» سافر مرة أخرى إلى ارض مكة بأمر الله، وليبني الكعبة التي تهدمت في طوفان «نوح»، ليوجه قلوب المؤمنين الموحدين إلى تلك النقطة.

إن القرآن الكريم يشهد بأن أرض «مكة» قد تحولت إلى مدينة بعد بناء الكعبة قبيل وفاة إبراهيم - عليه السلام - ، لأن إبراهيم دعا بُعيد فراغه من بناء الكعبة قائلاً:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ)⁽²⁾ على حين دعا عند نزوله مع زوجته، وابنه إسماعيل في تلك الأرض قائلاً:

(رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا).⁽³⁾

وهذا يكشف عن ان مكة تحولت إلى مدينة عامرة في حياة الخليل

- [بحار الأنوار: ج ١٢، ص ١١٢ نقلا عن قصص الأنبياء.
- 2 إبراهيم: ٣٥.
- 3 البقرة: ١٢٦.

(146)

- عليه السلام - ، بعد ان كانت صحراء قاحلة، وواد غير ذي زرع.

* * *

ولقد كان من المُستحسن استكمالاً لهذا البحث أن نشرح هنا كيفية بناء الكعبة المعظمة، ونستعرض التاريخ الاجمالي لذلك، بيد أننا لكي لا نقصر عن الهدف المرسوم لهذا الكتاب اعرضنا عن ذلك وعمدنا إلى ذكر بعض التفاصيل عن أبرز واشهر أجداد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في التاريخ.

-2- قُصَى بْنُ كِلَابٍ:

إن أسلاف الرسول العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - هم على التوالي: عَبْدُ اللَّهِ، عَبْدُ الْمُطَّلِبِ، هاشم، عبدُ مَنَافٍ، قُصَى، كِلَابٍ، مُرَّة، كَعْب، لُؤَيٌّ، غَالِب، فُهْر، مَالِك، النَّضْر، كِنَانة، حُزَيْمَة، مُدْرِكَة، إِبْرَاهِيم، مُضَر، نَزَار، مَعَد، عَدنان.⁽¹⁾ من المسلم أن نسب النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عدنان هو ما ذُكر، فلا خلاف فيه، إنما وقع الخلاف في عدد، وهاسماء من هم بعد عدنان إلى إسماعيل - عليه السلام - ، ولذلك لم يجز التجاوز عنه لحديث رواه ابن عباس عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ قال: «إِذَا بَلَغَ نَسَبِي إِلَى عَدْنَانَ فَأَمْسِكُوا»⁽²⁾ «هذا مضافاً إلى أن النبي نفسه كان إذا عدّ أجداده فبلغ إلى عدنان أمسك، ونهى عن ذكر من بعده إلى إسماعيل، وقد روي عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: كَذِبَ النَّسَابُونَ.

ولهذا فإننا نكتفي بذكر من أتفق عليه، ونعتمد إلى الحديث عن حياة كل واحد منهم.

ولقد كان كلُّ من ذكرنا أسماءهم هنا معروفين، ومشهورين في تاريخ

- 1 التاريخ الكامل: ج ٢، ص ٢ - ٢١.
- 2 بحار الأنوار: ج ١٥، ص ١٠٥ عن مناقب ابن شهر آشوب، وكشف الغمّة: ج ١، ص ١٥.

(147)

العرب، بيد أن حياة طائفة منهم ترتبط بتاريخ الإسلام، ولهذا فاننا نقف عند حياة «قصيّ» ومَن لحقه إلى والد النبي «عبدالله» ونعرض عن ذكر حياة غيرهم من أجداده وأسلافه - صلى الله عليه وآله وسلم - ممّن لا علاقة له بهذه الدراسة.⁽¹⁾

أما «فُصيّ» وهو الجدّ الرابع لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأمة «فاطمة» التي تزوجت برجل من بني كلاب ورزقت منه بولدين هما: «زهرة» و «قصي» إلا أن زوج فاطمة قد توفي، وهذا الأخير لم يزل في المهدي، فتزوجت بزواج آخر يدعى ربيعة، وسافرت معه إلى الشام، وبقي «قصيّ» يحظى برعاية أبوية من ربيعة حتّى وقع خلاف بين قصيّ وقوم ربيعة، واشتد ذلك الخلاف حتّى انتهى إلى طرده من قبيلتهم، ممّا أحرز ذلك أمه، واضطرت إلى إرجاعه إلى «مكة».

وهكذا اتت به يد القدر إلى «مكة»، وسببت قابلياته الكامنة التي برزت في تلك المدينة في تفوقه على أهل مكة وبخاصة قريش.

وسرعان ما احتلّ قصيّ هذه المقامات العالية، وشغل المناصب الرفيعة، مثل حكومة «مكة» وزعامة قريش، وسدانة الكعبة المعظمة، وصار رئيس تلك الديار دون منازع.

ولقد ترك (قصيّ) من بعده آثاراً كثيرة وعديدة منها تشجيع الناس على بناء المساكن والبيوت حول الكعبة المعظمة، وتأسيس مكان للشورى ليجتمع فيه رؤساء القبائل العربية من أجل التداول في الأمور وحل المشاكل يدعى بدار الندوة.

وقد توفي «قصيّ» في القرن الخامس الميلادي وخلف من بعده ولدين هما:

«عبد الدار» و «عبد مناف».

-3-عبدمناف:

وهو الجدّ الثالث لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واسمه «المغيرة» ولقبه

- 1 لقد بحث ابن الأثير في الكامل حول حياتهم فراجع: ج ٢، ص ١٥ - ٢١.

«قمر البطحاء»، وكان أصغر من أخيه «عبدالدار» إلا أنه كان يحظى بمكانة خاصة عند الناس دون أخيه، وكان شعاره التقوى، ودعوة الناس إلى حسن السيرة وصلة الرحم، بيد انه مع ما كان له من المكانة القوية لم ينافس اخاه «عبدالدار» في المناصب العالية التي كان يشغلها.

فقد كانت الزعامة لأخيه عبدالدار حسب وصية أبيهما «قصي». »

ولكن بعد وفاة هذين الأخوين وقع الخصام والتنازع بين أبنائهما على المناصب، وانتهى ذلك بالصراع الطويل إلى اقتسام المناصب والمقامات، وتقرر ان يتولى ابناء عبدالدار سدانة الكعبة، وزعامة دار الندوة، ويتولى ابناء عبد مناف سقاية الحجيج وضيافتهم ووفادتهم.

وقد بقي هذا التقسيم المتفق عليه ساري المفعول إلى زمن ظهور الإسلام. (1)

4- هاشم:

وهو الجدُّ الثاني لنبي الإسلام واسمه «عَمْرُو» ولقبه «العلاء» وهو الذي وُلِدَ مع «عبد شمس» توأمين، وأخواه الاخران هما: «المطلب» و «نوفل». »

هذا وثمة خلاف بين ارباب السير وكتاب التاريخ في أن هاشماً وعبد شمس كانا توأمين، وأن هاشماً ولد واصبغ واحدة من اصابع قدمه ملصقةً بجبهة «عبد شمس» وقد نزعت بسيلان دم، فتشاءم الناس لذلك (2) يقول الحلبي في سيرته: فكانوا يقولون: سيكون بينهما دم فكان بين ولديهما اي بين بني العباس

- [لم تكن هناك مناصب للكعبة يوم أسست ورفَع قواعدها بل حدث كل ذلك تدريجاً بحكم المقتضيات والتطورات، وكانت هذه المناصب التي استمرت إلى زمن ظهور الإسلام عبارة عن:

- 1- سدانة الكعبة.
 - 2- سقاية الحجيج.
 - 3- رفاقتهم وضيافتهم.
 - 4- زعامة المكيين وقيادة جيشهم. ولم يكن هذا الأخير منصباً ذا صبغة دينية.
- 2تاريخ الطبري: ج ٢، ص ١٣.

وكأنَّ كاتب السيرة قد تجاهل الحوادث المحزنة والمؤسفة التي وقعت بين بني امية وابناء علي - عليه السلام - في حين أن تلك الحوادث الدامية التي تسببها بنو امية وأهرقت فيها دماء ذرية رسول الله وعترته الطاهرة، اقوى شاهد على تلك العداوة بين هاتين الطائفتين، ولكننا لا ندري لماذا تجاهل ذكرها مؤلف السيرة الحلبية ولم يشر اليها مطلقاً!

ثم ان من خصوصيات أبناء «عبد مناف» حسبما يُستفاد من الأدب الجاهلي، وما جاء فيه من أشعار، أنهم توفوا في مناطق مختلفة

فهاشم - مثلاً - توفي في «غزة» وعبد شمس مات في مكة، ونوفل في ارض العراق، والمطلب في ارض اليمن.(2)

وكان من سجايا هاشم واخلقه الفاضلة أنه كان كلما هلَّ هلال شهر ذي الحجة قام صبيحته، وأسند ظهره إلى الكعبة المشرفة، وخطب قائلاً:

«يا معشر قريش إنكم سادة العرب وأحسنها وجوهاً، وأعظمها احلاماً (اي عقولا) وأوسط العرب (أي أشرفها) أنساباً، واقرب العرب بالعرب أرحاماً.

يا معشر قريش إنكم جيرانُ بيت الله تعالى اكرمكمُ الله تعالى بولايته، وخصكم بجواره، دون بني إسماعيل، وانه ياتيكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من اكرم أضياف الله انتم، فاكرموا ضيفه وزواره، فانهم يأتون شعثاً غبراً من كل بلد على ضوامر كالفداح، فاكرموا ضيفه وزوار بيته، فورب هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرجٌ من طيب مالي وحلاله ما لم يُقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يُدخل فيه حرامٌ، فمن شاء منكم ان يفعل مثل ذلك فعلى، وأسألكم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجلٌ منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحمٌ، ولم يؤخذ غصباً.(3)»

-
- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤.
 - 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٥.
 - 3 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦.

ولقد كانت زعامه «هاشم» وقيادته نافعة للمكيين من جميع النواحي، وكان لها تأثيرٌ كبيرٌ في تحسين أوضاعهم.

ولقد سبب كرمه وما قام به من إطعام واسع في سنوات الجذب القاسية في تخفيف شدة الوطأة عن أهل مكة، وبالتالي أدى إلى عدم احساسهم بالقحط، وأثار الجذب.

كما أنّ من خطواته البارزة واعماله النافعة جداً لتحسين الحالة التجارية للمكّين هو ما عقده مع أمير «غسان» من المعاهدة، الأمر الذي دفع بأخيه «عبد شمس» إلى أن يعاهد أمير الحبشة، وبأخويه الآخرين «المطلب» و «نوفل» إلى ان يعاهدا أمير اليمن وملك ايران تكون القوافل التجارية بموجب تلك المعاهدات للجانبين في أمان، من العدوان والتعرض.

وقد أزلت هذه المعاهدات الكثير من المشاكل، وكانت وراء ازدهار التجارة في «مكة المكرمة» حتّى عهد بزوغ شمس الإسلام.

ثم ان من أعمال «هاشم» وخطواته النافعة تأسيسه لرحلتي قريش اللتين يتحدث عنهما القرآن الكريم إذ يقول: «رحلة الشتاء والصيف» وهما رحلة إلى الشام، وكانت في الصيف، ورحلة إلى اليمن، وكانت في الشتاء، وقد استمرت هذه السيرة حتّى ما بعد ظهور الإسلام ايضاً.

أمية بن عبدشمس يحسد هاشماً:

ولقد حسد «أمية بن عبد شمس» ابن أخي هاشم عمّه «هاشماً» على ما حظي به من المكانة والعظمة، والنفوذ إلى قلوب الناس وجذبها نحوه بسبب خدماته وایاديته، وما كان يقوم به من بذل وانفاق، وحاول جاهداً ان يقلده ويتشبه بهاشم في سلوكه ولكنه رغم كل ما قام به من جهود ومحاولات لم يستطع أن يتشبه به و يتخذ سيرته، وكما لم يستطع بايقاعه وطعنه به ان يُقلل من شأنه بل زاده رفعة وعظمة.

لقد كان لهيب الحسد في قلب «أمية» يزداد اشتعالاً يوماً بعد يوم، حتى

(151)

دفع به إلى ان يدعو عمّه «هاشماً» للذهاب إلى كاهن من كهنة العرب للمنافرة عنده فتكون الرياسة والزعامة لمن يمدحه ذلك الكاهن، وكانت عظمة «هاشم» وسموّ مقامه تمنع من منافرة ابن اخيه (أمية) إلا أنه رضي بالمنافرة هذه تحت اصرار (أمية) بشرطين:

1- أن يعطي المغلوب خمسين من النياق سود الحدق تتحر بمكة.

2- جلاء المغلوب عن مكة عشر سنين.

ومن حسن الحظّ أن ذلك الكاهن نطق بمدح «هاشم» بمجرد أن وقعت عيناه عليه فقال: «والقمر الباهر، والكوكب الزاهر، والغمام الماطر... لقد سبق هاشم أمية إلى المآثر» إلى آخر كلامه. وهكذا قضى لهاشم بالغلبة فأخذ الابل فنحرها وأطعمها واضطر أمية إلى

الجلاء عن مكة والعيش بالشام عشر سنين. (1)

وقد استمرت آثارُ هذا الحسد التاريخي إلى ١٣٠ عاماً بعد ظهور الإسلام، وتسببت في جرائم وفجائع كبرى عديمة النظير في التاريخ.

ثم ان القصة السابقة مضافاً إلى انها تبين مبدأ العداوة بين الأمويين والهاشميين تبين أيضاً علل نفوذ الأمويين في البيئَة الشامية، ويتبين أن علاقات الأمويين العريقة بأهل هذه المنطقة هي التي مهّدت لقيام الحكومة الأموية في تلك الديار.

هاشم يَنزُوج...

كانت «سلمى» بنت «عمرو الخزرجي» امرأة شريفة في قومها، قد فارقت زوجها بطلاق، وكانت لا ترضى بالزواج من أحد، ولدى عودة «هاشم» من بعض أسفاره نزل في يثرب أياماً فخطبها إلى والدها، فرغبت سلمى فيه لشرفه في قريش، ولنبله وكرمها، ورضيت بالزواج منه بشرطين: أحدهما أن لا تلد ولدها

- [الكامل لابن الاثير: ج ٢، ص ١٠، والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٤.]

(152)

إلا في أهلها، وحسب هذا الاتفاق بقيت «سلمى» مع زوجها «هاشم» في مكة بعض الوقت حتى إذا ظهر عليها آثار الحمل رجعت إلى: «يثرب» وهناك وضعت ولداً اسمه «شيبه». وقد اشتهر في ما بعد بـ «عبدالمطلب.»

وكتب المؤرخون في علة تسميته بهذا الاسم بأن هاشماً لما أحسّ بقرب انصرام حياته قال لآخيه «المطلب»: يا أخي أدرك عبدك شيبه. ولذلك سُمِّي شيبه بن هاشم: «عبدالمطلب.»

وقيل أن أحد المكيين مرَّ على غلمان يلعبون في زقاق من أزقة يثرب، وينتضلون بالسهام، ولما سبق أحدهم الآخرين في الرمي قال مفتخراً: «أنا ابنُ سيّد البطحاء» فسأله الرجل عن نسبه وأبيه فقال: أنا شيبه بن هاشم بن عبدمناف، فلما قدم الرجل مكة اخبر «المطلب» أخي «هاشم» بما سمعه وراه، فاشتاق «المطلب» إلى ابن أخيه فذهب إلى المدينة، ولما وقعت عيناه على ابن أخيه «شيبه» عرف شبه أخيه هاشم، وتوسّم فيه ملامحه، ففاضت عيناه بالدموع، وتبادلا قُبَلات الشوق، والمحبة، وأراد أن يأخذه معه إلى «مكة» وكانت أمه تمنع من ذلك، ولكن ممانعتها كانت تزيد من عزم العمّ على أخذه إلى «مكة» واخيراً تحققت أمنية العم فقد استطاع «المطلب» أن يحصل على اذن أمه، فاردفه خلفه وتوجّه حذب «مكة» تدفعه رغبة طافحة إلى إيصاله إلى والده هاشم.

وفعلت شمسُ الحجاز واشعتها الحارقة فعلتها في هذه الرحلة فقد غيّرت لون وجه شيبه وأبلت ثيابه، ولهذا ظنَّ أهل «مكة» عند دخوله مع عمه «مكة» أنه غلام اقتناه «المطلب» فكان يقول بعضهم لبعض: هذا عبدالمطلب، وكان المطلب ينفي هذا الامر، ويقول:

إنما هو ابن أخي هاشم وما هو بعبيدي، ولكن ذلك الظن هو الآخر فعل فعلته، وغرف «شيبه» بعبد المطلب. (1)

وربما يقال: أن سبب شهرته بهذا الإسم هو انه تربى وترعرع في حجر عمّه

- [الكامل لابن الاثير: ج ٢، ص ٦، وتاريخ الطبري: ج ٢، ص ٨ و ٩، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦.

(153)

«المطلب» وكانت العربُ تسمي من يترعرع في حجر أحد وينشأ تحت رعايته عبداً لذلك الشخص تقديراً لجهوده وتحميناً لرعايته

-5- عبدُ المطلب:

عبدُ المطلب بن هاشم وهو الجدّ الأول للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان رئيس قريش وزعيمها المعروف، وكانت له مواقف بارزة، وأعمال عظيمة في حياته، وحيث أن ما وقع من الحوادث في ايام حكمه يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الإسلام ولهذا يتعين علينا دراسة بعض تلكم الحوادث والوقائع.

لا شك أن المرء مهما تمتع بنفسية قوية فانه سينأثر - في المآل - ببيئته وعاداتها، وتقاليدها، التي تصبغ فكره، بصبغة خاصة، وتطبع عقلته بطابع معين.

بيد أن هناك بين الرجال من يقاوم تأثير العوامل البيئية بمنتهى الشجاعة والشجاعة، ويصون نفسه من التلوث بشيء من أدرانها وأقذارها.

وبطلٌ حديثنا هنا هو احد النماذج الصادقة لاولئك الرجال العظماء لان في حياته صفحات مشرقة عظيمة، وسطوراً لا معة تتبىء عن نفسيته القوية، وشخصيته الشامخة.

فان الذي يعيش ثمانين عاماً في وسط اجتماعي تسود فيه الوثنية، ومعاقرة الخمر، والربا، وقتل الأنفس البريئة، والفحشاء حتى ان هذه الامور كانت من العادات والتقاليد الشائعة، ولكنه مع ذلك لم يعاقر الخمر طوال حياته، وكان ينهى عن القتل والخمر والفحشاء، ويمنع عن الزواج بالمحارم، والطواف بالبيت المعظم عرياناً، وكان ملتزماً بالوفاء بالعهد، واداء النذر بلغ الامر ما بلغ، لهو - حقاً - نموذجٌ صادقٌ من الرجال الذين يندر وجودهم، ويقل نظيرهم في المجتمعات.

أجل إن شخصية اودعت يد المشيئة الربانية بين حناياها نور النبي الاكرم أعظم قائد عالمي، يجب ان يكون إنساناً طاهر السلوك، نقيّ الجيب منزهاً عن أي نوع من أنواع الانحطاط، والفساد.

هذا ويستفاد من بعض قصصه وكلماته القصار أنه كان أحد الرجال المعدودين الذين كانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر في تلك البيئة المظلمة، وكان يردد دائماً: «لَنْ يخرج من الدنيا ظلومٌ حتّى ينتقم منه، وتصيبه عقوبة... والله ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسنُ بإحسانه، ويعاقبُ فيها المسيءُ باسائه»⁽¹⁾ «اي ان الظلوم شأنه في الدنيا أن تصيبه عقوبة، فاذا خرج ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة.

ولقد كان «حرب بن أمية» من أقربائه، وكان من اعيان قريش ووجهها أيضاً، وكان يجاور يهودياً فاتفق أن وقع بينه وبين حرب نزاع في بعض اسواق تهامة، تبودلت بينهما فيه كلمات جارحة، وانتهى ذلك إلى مقتل اليهودي بتحريك من «حرب»، ولما علم «عبدالمطلب» بذلك قطع علاقته بحرب، وسعى في أستحصال دية اليهودي المقتول من «حرب» ودفعها إلى اولياء القتيل، وهذه القصة تكشف عن حبّ عبدالمطلب للمستضعفين والمظلومين وحبه للحق والعدل.

حَفْرُ زَمْرَم:

منذ أن ظهرت عين زمزم نزلت عندها قبيلة جرهم التي كانت بيدها رئاسة مكة طوال سنين مديدة، وكانت تستفيد من مياه تلك العين، ولكن مع ازدهار أمر التجارة في «مكة»، واقبال الناس على الشبهوات والمفاسد آل الأمر إلى جفاف تلك العين، ونضوب مائها بالمرّة.⁽²⁾

ويقال: أن قبيلة «جرهم» لما واجهت تهديداً من جانب قبيلة خزاعة

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤.
- 2 لا ريب أنّ تفشي الذنوب والمعاصي بين الناس من عوامل نزول البلايا والكوارث ولا يبعد أن تكون الأعمال المخزية من موجبات الجذب والقحط والمجاعات، وهذه الحقيقة مضافاً إلى انطباقها على القواعد الفلسفية ممّا صرح به القرآن الكريم والسنة الشريفة، راجع سورة الأعراف، الآية: ٩٦.

واضطرت إلى مغادرة تلك الديار، وايقن زعيمها «مضامن بن عمرو» بانه سرعان ما يفقد زعامته، ويزول حكمه وسلطانه بفعل هجوم العدو، امر بان يُلقى الغزالان الذهبيان، والسيوف الغالية الثمن التي كانت قد أُهديت إلى الكعبة، في قعر بئر زمزم، ثم يملأ البئر بالتراب ويعفى اثره إعفاء كاملاً حتّى لا يهتدي خصومه إلى مكانه ابدأً، حتّى إذا عادت إليه زعامته وعاد إلى مكة استخرج ذلك الكنز الدفين، واستفاد منه. ثم نشب القتال بين «جرهم» و «خزاعة» واضطرت «جرهم» وكثير من ابناء اسماعيل إلى مغادرة «مكة المكرمة»، والتوجه إلى ارض اليمن، ولم يرجع أحدٌ منهم إلى «مكة» ابدأً.

ووقعت زعامة مكة منذ هذا التاريخ بيد «خزاعة» حتى بزغ نجم قريش في سماء مكة بوصول قصي بن كلاب (الجد الرابع لنبي الإسلام) إلى سدة الزعامة والرئاسة، ثم بعد مدة انتهى امر الزعامة إلى «عبدالمطلب» فعزم على أن يحفر بئر «زمزم» من جديد، ولكنه لم يعرف بموقع البئر معرفة كاملة حتى إذا عثر عليه بعد بحث طويل قرّر ان يهيء هو و ولده «حارث» مقدمات ذلك.

وحيث أنه «يوجد في المجتمع دائماً من يتحجج ويجادل - بسبب سلبيته - ليمنع من أي عمل ايجابي مفيد، انبرى منافسوا «عبدالمطلب» إلى الاعتراض على قراره هذا وبالتالي التفرّد باعادة حفر بئر زمزم، لكيلا يذهب بفخر هذا العمل العظيم، وقالوا له: إنها بئر أبينا اسماعيل، وان لنا فيها حقاً فاشركنا معك» ولكن «عبدالمطلب» رفض هذا الطلب لبعض الاسباب، فقد كان «عبدالمطلب» يريد ان يتفرّد بحفر زمزم، ويسبّل ماءها ليسقي منها جميع الحجيج دون مانع ولا منازع، ويحول بذلك دون المتاجرة به ولم يكن ليتسنى له ذلك إلا إذا قام بحفر زمزم بوحده دون مشاركة من قريش.

وقد آل هذا الأمر إلى النزاع الشديد فتقرر أن يتحاكموا إلى كاهن من كهنة العرب وعقلائهم والقبول بما يقضي به، فتوجه «عبدالمطلب» ومنافسوه إلى ذلك الكاهن وقطعوا الصحارى القاحلة بين الحجاز والشام، وفي منتصف الطريق أصابهم جهدٌ وعطش شديدان، ولما تيقنوا بالهلاك، وقرب الوفاة اخذوا

(156)

يفكرون في كيفية الدفن إذا هلكوا وماتوا، فاقترح «عبدالمطلب» ان يبادر كل واحد إلى حفر حفرة حتى إذا أدرك الموت دفنه الآخرون فيها، فاذا استمر بهم العطش وهلكوا يكون الجميع (ماعدًا من بقي منهم على قيد الحياة) قد أقبروا، ولم تغد ابدانهم طعمة للوحوش والطيور فأيد الجميع هذا الاقتراح⁽¹⁾، واحتقر كل واحد منهم حفيرة لنفسه، وجلسوا ينتظرون الموت بوجوه واجمة، وعيون ذابلة، وفجأة صاح عبدالمطلب: «والله ان إلقاءنا بأيدينا هكذا للموت لانضرب في الأرض ونبتغي لأنفسنا لعجز» وحثهم على البحث عن الماء في تلك الصحراء بصورة جماعية عسى ان يجدوا ما ينقذهم من الموت، فركب عبدالمطلب وركب مرافقه، واخذوا يبحثون عن الماء يائسين غير مصدقين، ولم يمض شيء حتى ظهرت لهم عين ماء عذبة انقذتهم من الموت المحتم، وعادوا من حيث جازوا وهم يقولون لعبدالمطلب: «قد والله قضى لك علينا يا عبدالمطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، ان الذي سفاك هذا الماء بهذه الفلاة لهو الذي سفاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً وتنازلوا له لينفرد بحفر زمزم ويكون إليه امره دون منازع، ولا شريك.⁽²⁾»

فعمد «عبدالمطلب» وولده الوحيد الحارث إلى حفر البئر، ونشأ من ذلك تلٌّ هائلٌ من التراب حول البئر، وفجأة عثر «عبدالمطلب» على الغزاليين المصاعين من الذهب، والسيوف المرصعة المهداة إلى الكعبة، فشبّ نزاع آخر بين «قريش» وبين «عبدالمطلب» على هذه الاشياء، واعتبرت «قريش» نفسها شريكة في هذا الكنز، وتقرر ان يلجأوا إلى القرعة لحل هذا المشكلة، فخرجت القرعة

باسم «عبدالمطلب»، وصار جميع ذلك الكنز إليه دون «قريش»، ولكن عبدالمطلب خص بتلك الاشياء الكعبة فصنع من السيوف باباً للكعبة، وعلق الغزالين الذهبيين فيها.

- 1 ولعلّ احجام الآخرين من الاداء بالاقتراح وهو اليأس المطلق من تحصيل الماء.
- 2 تاريخ اليعقوبي: ج ١، ص ٢٠٦، والسيرة النبوية: ج ١، ص ١٤٢ - ١٤٧.

(157)

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر:

رغم ان العرب الجاهليين كانوا غارقين في الفساد الأخلاقي فانهم كانوا يتحلون ببعض الصفات الحسنة، والخصال المحببة. وللمثال كان نقض العهود من أقبح الافعال في نظرهم، فاذا عقدوا عهداً مع القبائل العربية أو ثقوا بالأيمن، المغلظة المؤكدة، والتزموا بها إلى الاخير، وربما نذروا النذور الثقيلة واجتهدوا في اداها مهما كلف ذلك من مشقة وثمان. ولقد أحسَّ «عبدالمطلب» عند حفر بئر زمزم بالضعف في قريش لقلّة اولاده، ولهذا نذر إذا رزقه الله تعالى عشرة بنين أن يقدم أحدهم قرباناً للكعبة ولم يُطَلِّع احداً على نذره هذا.

ولم يمض زمان إلاّ وبلغ عدّدُ ابنائهِ عشرة، وبذلك حان أو ان وفائهِ بنذره الذي نذر، وهو ان يذبح احدهم قرباناً للكعبة. ولا شك ان تصور مسألة كهذه فضلا عن تنفيذه كان امراً في غاية الصعوبة على عبدالمطلب، ولكنه كان في نفس الوقت يخشى ان يعجز عن تحقيق هذا الامر فيكون من الناقضين للعهد، التاركين لاداء النذر، ومن هنا قرّر ان يشاور ابناهُ في هذا الامر، وبعد ان يكسب رضاهم وموافقتهم يختار احدهم للذبح بالقرعة. (1)

وتمت عملية القرعة، فاصابت «عبدالله» والد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاخذ عبدالمطلب بيد ابنه، وتوجّه من فوره إلى حيث يذبحه فيه.

ولما علمت قريش رجالها ونساؤها بقصة النذر المذكور وما آلت إليه عملية القرعة حزنَ الناس والشباب خاصة لذلك حزنا شديداً وبكوا وضجوا، وقال أحدهم ليبتني ذبحت مكان هذا الشاب.

- [هذه القضية ذكرها كثير من المؤرخين وكتّاب السيرة، وهذه القصة إمّا هي جديرة بالاهتمام من جهة أنها تجسّد مدى إيمان «عبدالمطلب» وقوة عزمه، وصلابة إرادته، وتبين جيداً كم كان مصراً على الوفاء بعهوده والتزاماته.

فاقترحت قريشٌ على عبدالمطلب بان يفدي «عبدالله»، واطهروا استعدادهم لدفع الفدية إذا جاز ذلك، فتحيّر «عبدالمطلب» تجاه تلك المشاعر الساخنة، والاعتراضات القوية، وراح يفكر في عدم الوفاء بنذره، ويفكر في نفس الوقت في الحصول على مخلص معقول من هذه المشكلة، فقال له أحدهم: لا تفعل وانطلق إلى أحد كهنة العرب عسى أن يجد لك حلاً.

فوافق «عبدالمطلب» واکابر قريش على هذا الاقتراح، وتوجهوا بأجمعهم نحو «يثرب» قاصدين ذلك الكاهن، ولما قدموا عليه سألوه في ذلك فاستمهلهم يوماً واحداً، ولما كان اليوم الثاني دخلوا عليه فقال لهم: كم دية المرء عندكم؟ قالوا: عشرٌ من الإبل.

فقال: إرجعوا إلى بلادكم، وقربوا عشرًا من الإبل واضربوا عليها وعلى صاحبكم «أي عبدالله» القداح فان خرجت القرعة على صاحبكم فزيدوا عشرًا، حتى يرضى ربكم، وإن خرجت على الإبل فانحروها فقد رضي ربكم ونجا صاحبكم وكانت عنه فداء.

فهذا اقتراح الكاهن لهيب المشاعر الملتهبة لدى الناس، لأن نحر مئات الإبل كان أسهل عليهم من أن يشاهدوا شاباً مثل «عبدالله» يتشطح في دمه.

ولهذا فانهم فور عودتهم إلى «مكة» بادروا إلى اجراء القرعة في مجمع كبير من الناس وزادوا عشرًا عشرًا حتى إذا بلغ عدد الإبل مائة خرجت القداح على الإبل، ونجا «عبدالله» من الذبح، فأحدث ذلك فرحة كبيرة لدى الناس، بيد أن «عبدالمطلب» طلب أن تُعاد عملية القرعة قائلاً: «لا والله حتى أضرب ثلاثاً»، وأما أراد ذلك ليستيقن ان ربه قد رضي عنه، ولكن في كل مرة كانت القداح تخرج على الإبل المائة فنحرت الإبل ثم تركت لا يمنع عنها انسانٌ ولا سبع. (1)

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٥٣، وبحار الانوار: ج ١٦، ص ٧٤، وقد نُقلَ عن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال: «أنا ابنُ الذبيحين» يقصدُ بالأول جدّه إسماعيل - عليه السلام - والثاني أباه «عبدالله» الذي كاد أن ينحر ولكنه نجا من الذبح كما نجا جدّه إسماعيل - عليه السلام - .

حادثة عام الفيل:

عندما يحدثُ أمرٌ عظيمٌ في أمةٍ من الأمم وخاصة إذا كان ذا جذور دينية أو ذا مدلولات قومية أو سياسية فإنه سرعان ما يتحول - بفعل إعجاب الناس عامة به - إلى مبدأ للتاريخ.

فقيام النبي موسى يعتبرُ مبدأً للتاريخ عند اليهود، ومولد السيد المسيح يعتبرُ مبدأً للتاريخ عند النصارى، والهجرة النبوية الشريفة تعتبرُ مبدأً للتاريخ عند المسلمين.

وهذا يعني أن كل أمة من الأمم تقيس حوادثها من حيث الزمان بذلك الحدث الذي تعتبره بداية تاريخها.

وأحياناً تتخذ الأمم والشعوب بعض الحوادث مبدأ للتاريخ مع انها تملك مبدأ سياسياً للتاريخ، كما نلاحظ ذلك في بلاد الغرب وشعوبه، فقد اتخذت الثورة الفرنسية، وثورة اكتوبر الشيوعية مبدأ للتاريخ في فرنسا، والاتحاد السوفياتي، بحيث اصبح يقاس بهما كل ما وقع من الحوادث بعدهما.

ولكن الشعوب غير المتحضرة التي لم تمتلك مثل تلك الثورات والحركات السياسية والدينية كان من الطبيعي أن تتخذ الحوادث الخارقة للعادة مبدأ لتاريخها بدلا من الثورات والتحوّلات الاجتماعية، وهذا ما حدث عند العرب وقبل الإسلام.

فانهم - بسبب حرمانهم من حضارة صحيحة - اتخذوا من بعض الوقائع المفجعة والمرة - كالحرب والزلازل، والمجاعة والقحط أو الحوادث غير الطبيعية، الخارقة للعادة مبدأ لتاريخهم.

ولهذا نجد مبادئ متعددة للتاريخ عند العرب، آخرها: ضجة عام الفيل وهجوم «أبرهة» على «مكة» بهدف الكعبة المشرفة، التي صارت في ما بعد مبدأ للتاريخ تؤرخ - بقية الحوادث والوقائع اللاحقة.

ونظراً لأهمية هذا الحدث التاريخي العظيم الذي وقع عام ٥٧٠م وأتفقت فيه

(160)

ولادة النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - فاننا نتناول هذه القصة بالعرض والتحليل:

ماهي عوامل هذه الحادثة؟

لقد ذكرت قصة أصحاب الفيل في القرآن بصورة مختصرة، وسوف ننقل - هنا - الآيات التي نزلت حول هذه القصة بعد حوادثها. يكتب المؤرخون عن علة هذه الحادثة ان ملك اليمن «نُبَّان أسعد» والد ذي نواس بعد ان أرسى قواعد حكمه مر في احدى رحلاته على يثرب (المدينة)، وقد كانت لـ «يثرب» في ذلك الوقت مكانةً دينيةً مرموقةً فقد قطنها جماعة من اليهود⁽¹⁾، وبنوا فيها عدداً من المعابد والهياكل، فأكرم اليهودُ مقدم ملك اليمن، ودعوه إلى دينهم ليستطيعوا في ظل حكمه حماية أنفسهم من أذى المسيحيين الروميين، والمشركيين العرب.

ولقد تركت دعوتهم وما رافقها من اساليب مؤثرة اثرها في نفس ذلك الامير واختار اليهودية، واجتهد في بثها ونشرها. ثم ملك من

بعده ابنه «ذونواس» الذي جدّ في بث اليهودية والتحق به جماعة خوفاً.

بيد أن اهل نجران الذين كانوا قد دانوا بالمسيحية قبل ذلك امتنعوا من تغيير دينهم وترك المسيحية واعتناق اليهودية، وقاوموا «ذي نواس» مقاومة شديدة، فشق ذلك على ملك اليمن، واغضبه فتوجه احد قادته إلى نجران على رأس جيش كبير لتأديب المتمردين من أهلها فعكس هذا الجيش على مشارف نجران، واحتقر قائدة خندقاً كبيراً، واوقد فيه ناراً عظيمة، وهدد المتمردين بالاحراق بالنار.

ولكن أهل نجران الذين احبوا المسيحية واعتنقوها برغبة كبيرة اظهروا شجاعة كبرى، واستقبلوا الموت حرقاً، وغدوا طعمة للنيران.

يقول المؤرخ الإسلامي «ابن الأثير الجزري» بعد ذكر هذه القصة: لما قتل

- [وفاء الوفا: ج ١، ص ١٥٧، والسيرة النبوية: ج ١، ص ٢١ و ٢٢.

(161)

«ذونواس» من قتل في الأخدود لاجل العود عن النصرانية أفلت منهم رجلٌ يقال له «دوس» فقدم على «قيصر» فاستنصره على «ذي نواس» وجنوده واخبره بما فعل بهم، فقال له قيصر: بعدت بلادك عنا، ولكن ساكتبُ إلى النجاشي ملك الحبشة وهو على هذا الدين وقريب منكم، فكتب قيصر إلى ملك الحبشة يأمره بنصره، فارسل معه ملكُ الحبشة سبعين الفاً، وأمر عليهم رجلا يقال له «أرياط» وفي جنوده «ابرهة الأشرم» فساروا في البحر حتى نزلوا بساحل اليمن، وجمع «ذونواس» جنوده فاجتمعوا وكتب إلى زعماء قومه من اهل اليمن يدعوهم إلى الاجتماع لمقاتلة عدوهم، فلم يجيبوه، فانهارت حكومته أمام حملة جيش الحبشة، وسيطر الاحباش على أرض اليمن، وجعل «أبرهة» اميراً عليها من قبيل «النجاشي» بعد مقتل «أرياط» على يد «أبرهة» في صراع السلطة. (1)

وهذه القصة هي التي تعرف في القرآن الكريم بقصة «اصحاب الأخدود» وقد جاء ذكرها في سورة البروج إذ يقول الله تعالى: **قُتِلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ. النَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ. إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ. وَهُمْ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ. وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ. الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ.** (2)

وقد ذكر المفسرون هذه القصة في شأن نزول هذه الآيات بصورة مختلفة. (3)

ثم ان «ابرهة» الذي اسكره الانتصار والغلبة على منافسه، وتمادى في الشهوات بنى في صنعاء كنيسة عظيمة تقرباً إلى ملك الحبشة، وارضاه له ثم كتب كتاباً إلى «النجاشي» ملك الحبشة يقول فيه: «اني قد بتيتُ لك ايها الملك كنيسة لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمُنْتَه حتى اصرف اليها حج العرب. »

-
- 1 - الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٢٦٠ - ٢٦٣، والسيرة النبوية: ج ١، ص ٣١ - ٣٧.
2 البروج: ٤ - ٩.
3 راجع مجمع البيان: ج ٥، ص ٤٦٤ - ٤٦٦.

(162)

وقد أدى معرفة العرب بما جاء في هذا الكتاب إلى ردة فعل شديدة لديهم، إلى درجة أن امرأة من قبيلة «بني اقم» تسللت ذات ليلة إلى تلك الكنيسة وحدثت فيها، فآثار هذا العمل الذي كان يدل على مدى ازدياد العرب بكنيسة «أبرهة» واحتقارهم لها، غضب «أبرهة»، هذا من جانب ومن جانب آخر كان «أبرهة» كلما زاد في تزيين تلك الكنيسة زاد ذلك من حقد العرب، وحققهم عليه، واحتقارهم لكنيسته، فتسبب كل ذلك في أن يحلف أبرهة على السير إلى الكعبة وهدمها، فسير لذلك جيشاً عظيماً، وقدم أمامه القبيلة المقاتلة، وخرج متوجهاً صوب مكة وهو يعتزم هدم الكعبة ببيت الله الحرام!!

فلما عرف زعماء العرب بغايته، وادركوا خطورة ذلك العمل وابتغوا بان استقلال العرب وسيادتهم تتعرض لخطر السقوط، لم يمنعهم ما عهدوه من قوة «أبرهة» وانتصاراته بل خرج بعضهم إلى حربه فقاتلوه بكل شجاعة وبسالة مدفوعين بدافع الغيرة والحفاظ على الشرف المهتد بالخطر.

فقد خرج «ذونفر» وهو من أشرف أهل اليمن وملوكهم، ودعا قومته ومن أجابه من سائر العرب إلى حرب «أبرهة» ولكن سرعان ما تغلب «أبرهة» عليه بجيشه الكبير، ثم خرج له بعد ذلك «نفيل بن حبيب» وبقي يقاتله مدة طويلة فهزمه «أبرهة» وأخذ له اسيراً، فطلب «نفيل» العفو منه فاشترط عليه أن يدلّه على طريق مكة ليعفو عنه، فدله نفيل حتى الطائف، واكل الدلالة على بقية الطريق إلى شخص آخر يدعى «أبورغال» فدله أبورغال على الطريق حتى أرض «المغمس» وهي منطقة قريبة من «مكة» فنزل «أبرهة» وجيشه بالمغمس، فأرسل أبرهة رجالاً من الحبشة - على عادته - إلى ضواحي «مكة» فاستولى على أموال قريش من الإبل والغنم فساق إليه في جملة ذلك مائتي بعير لعبد المطلب، ثم امر رجالاً آخر يدعى «خناطه» ليدخل «مكة» ويبلغ أهلها عنه ما جاء من أجله، وهو هدم البيت المحرم الكعبة المعظمة، وقال له: سل عن سيد اهل هذا البلد وشريفها، ثم قل له: ان الملك يقول لك: «إني لم أت لحربكم، انما جئت لهدم هذا البيت، فان تعرّضوا دونه بحرب فلا حاجة لي في

(163)

دمائكم»، فإن هو لم يرد حربي فاتني به.

فدخل «خناطه» مكة ولما سأل عن سيد قريش و شريفها، وقد كانت قبائل قريش المختلفة قد تجمعت في اطراف البلاد جماعات جماعات تتذاكر في امر «أبرهة» وما يجب اتخاذه من موقف تجاهه.

فدأوه على بيت «عبدالمطلب»، ولما دخل على «عبدالمطلب» أبلغه مقالة «أبرهة ٩ فقال له عبدالمطلب: «والله ما تُريدُ حربيّه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم - عليه السلام - ، فان يمنعه منه فهو بيته وحرمه، وان يخلي بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه»؟

فسرّ «حناطة» رسول ابرهة بمنطق عبدالمطلب ومقالته التي كانت تحكي عن قوة ايمانه، وعن روحه المسالمة فطلب منه أن يصحبه إلى «أبرهة»، قائلاً: فانطلق معي إليه فانه قد امرني أن آتية بك.

عَبْدُ الْمَطْلَبِ يَذْهَبُ إِلَى مَعْسَكِ أِبْرَهَةَ:

فتوجه عبدالمطلب هو وجماعة من ولده إلى معسكر ابرهة، فاعجب «أبرهة» بوقار رئيس قريش وهيبته إعجاباً شديداً، وبهر به حتى أنه نزل له من تخته اجلالاً، واخذ بيده، واجلسه إلى جنبه، فسأله عن طريق مترجمه متأدباً: ما الذي آتى به وماذا يريد؟ فأجابه عبدالمطلب قائلاً: حاجتي أن يردّ الملك علىّ مائتي بعير أصابها لي.

فقال «أبرهة» لترجمانه: قل له: قد كنت اعجبنتني حين رأيتك، ثم قد زهدتُ فيك حين كلمتني، أتكلمني في مائتي بعير أصبئها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك قد جئتُ لهدمه، لا تكلمني فيه!؛

فقال له عبدالمطلب: إني أنارُبُ الإبل، وان للبيت رباً سيمنعه، فقال «أبرهة» مغترّاً بنفسه: ما كان ليمنع مني.

ثم أمر بان ترد الإبل إلى أصحابها.

* * *

(164)

إنتظار قريش:

ولقد انتظرت قريش عودة «عبدالمطلب» من معسكر «أبرهة» بفارغ الصبر لتعرفت نتيجة ما دار بينه وبين أبرهة، وعندما عاد «عبدالمطلب» اخبرهم الخبر، وامرهم بالخروج معه من مكة، والتحرز في رؤوس الجبال من معرة الجيش فخرجوا إلى الشعاب، والجبال، ثم لما كان الليل نزل عبدالمطلب مع جماعة من قريش إلى الكعبة واخذ بحلقة بابها يدعون الله ويستنصرونه على أبرهة وجنده وقال «عبدالمطلب» مناجياً الله سبحانه: **اللَّهُمَّ أَنْتَ أَنْيَسُ الْمَسْتَوْحِشِينَ وَلَا وَحْشَةَ مَعَكَ فَالْبَيْتِ، بَيْتِكَ وَالْحَرَمِ حَرَمِكَ وَالِدَارُ دَارُكَ وَنَحْنُ جِيرَانُكَ تَمْنَعُ عَنْهُ مَا تَشَاءُ وَرَبُّ الدَّارِ أَوْلَىٰ بِالدَّارِ** (ثم قال:

لاهم إن (1) العبد يمنع رَحَد * له فامنع جلالك (2)

لا يغلبن صلبهم * ومحالهم عدواً محالك (3)

وقال أيضاً:

يا رَبِّ لا أَرْجُو لَهُمْ سِوَاكَ * يا رَبِّ فامْنَعْ مِنْهُمُ جِماكا

إنْ عَدُوَّ النَّبِيِّ مَنْ عاَدَكَ * اِمْنَعُهُمْ أَنْ يَخْرُبُوا فِناكا

ثم انه ترك حلقة الباب، ولجأ إلى الجبل لينظروا ما سيجري.

وفي الصباح وعندما كان «أبرهة» وجنده يستعدون للتوجه إلى «مكة»، وإذا باسراب من الطيور تظهر من جهة البحر يحمل كل واحد منها ثلاثة احجار، حجر في منقاره، وحجرين في رجليه، فاطلم سماء الجيش بتحليق تلك الطيور فوق رؤوس الجند، وتركت تلك الاحجار الصغيرة الحقيمة في ظاهرها اثرها العجيب فقد رجمت تلك الطيور جنود «ابرهة» بتلك الاحجار بامر الله، فكانت لا تصيب منهم أحداً إلا تحطم رأسه، وتمزق لحم بدنه، وهوى صريعاً،

- 1 اللهم أصلها: اللهم والعرب تحذف الالف واللام وتكتفي بما بقي.

- 2 الحلال جمع حلة وهي جماعة البيوت.

- 3 المحال: القوة والشدة.

(165)

وهلك من توه، فاصابت واحدة من تلك الاحجار راس «ابرهة» نفسه فارتعدت فرائصه وايقن بغضب الله وسخطه عليه، فنظر إلى جنوده وهم اشلاء ميثوثون هنا وهناك على الأرض كورق الشجر في فصل الخريف، فصاح بمن لم يزل على قيد الحياة من جنده بامرهم بأن يتهيأوا للعودة إلى اليمن، من حيث أتوا، فاخذ بقية الجند طريق اليمن هاربين، غير أن هذه البقية قد هلكت شيئاً فشيئاً في اثناء الطريق حتى أن ابرهة نفسه بعد أن لم يصل إلى صنعاء إلا بعد ان تفرق لحم بدنه، وسقطت اعضاؤه وجوارحه ومات بصورة عجيبة.

وقد دَوَّى صوتُ هذه الواقعة العجيبة والرهيبية في العالم آنذاك، وقد ذكرها القرآن الكريم في سورة الفيل إذ يقول تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ. أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سَجيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.**)

وما ذكرناه هنا - في هذه الصفحات - ليس هو في الحقيقة إلا خلاصة ما ورد في كتب التاريخ الإسلامي، وصرح به القرآن الكريم. (1)

واستكمالاً لهذا البحث نعد هنا إلى دراسة نظرية المفسر المصري الكبير الشيخ «محمّد عبده» والعلامة المعروف الدكتور «هيكل» وزير الثقافة المصري السابق في هذا المجال.

كلمة حول المعجزة:

لقد أوجدَ التقدم العلميُّ الأخير في مختلف مجالات العلوم الطبيعية والفضائية، وما استلزم ذلك من تهافت طائفة كثيرة من الفرضيات، ضجة عجيبة في الغرب، فمع أن جميع تلك التطورات كانت مجردَ تطورات علمية تجري في مجال المسائل الطبيعية أو الفلكية، ولم يكن لها أية صلة بالمعتقدات الدينية

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٣ - ٦٢، والكامل في التاريخ ج ١، ص ٢٦٠ - ٢٦٢، وبحار الأنوار: ج ٥، ص ١٣٠ - ١٤٦.]

(166)

فإنَّ هذا التحول والتطور وتلك الكشوف أوجدت شكاً عجبياً لدى بعض الناس انسحب على جميع المعارف والمعتقدات الدينية الموروثة على وجه الإطلاق!

والسرّ في ذلك هو أن العلماء رأوا بأن الفرضيات القديمة، التي بقيت تسيطر على الأوساط العلمية لمدة طويلة من الزمان، قد أصبحت اليوم عرضةً للبطلان والسقوط تحت مطارق التجربة وبواسطة الاختبارات العلميّة، والتحقيقات المختبرية، فلم يُعد - بعد هذا - مجالاً للقول بفرضية الافلاك التسعة التي طُلِعَ بها «بطلميوس»، ولا بفرضية مركزية الارض، ولا غيرها من عشرات الفرضيات، فقالوا في أنفسهم: ومن أين ترى لا تكون بقية المعلومات والمعارف الدينية من هذا القبيل؟!

وقد تفاقم هذا النوع من الشك في قلوب جماعة من العلماء بالنسبة إلى جميع المعتقدات والمعارف الدينية ونمى بشكل قوى في فترة قصيرة، وعمَّ الأوساط العلمية كائى مرض!!

هذا مضافاً إلى أنّ محاكم التفتيش وتشدّد الكنيسة وأربابها كان لها النصيب الأكبر في ظهور هذه الحالة بل في نموّها، وإطرادها، لأن الكنيسة كانت تقضي على العلماء الذين نجحوا في اكتشاف القوانين العلمية تحت التعذيب والاضطهاد القاسي بحجة أنها تخالف الكتاب المقدس، وتعارض مقرّرات الكنيسة!!

ومما لا يخفى أنّ مثل هذه الضُغوط، وهذا الاضطهاد والتعجرف ما كان ليمرّ من دون حدوث ردة فعل، وقد كان من المتوقّع منذ البداية أن العلماء في الغرب لو اتاحت لهم الفرصة لانتقموا من الدين، بسبب سوء تصرف الكنيسة، وسوء معاملتهم لهم خاصة، وللناس عامة.

وقد حدث هذا فعلاً فكلما تقدم العلمُ خطوةً، واطَّلَعَ العلماء على العلاقات السائدة بين الكائنات الطبيعية، واكتشفوا المزيد من الحقائق الكونية، والعلل الطبيعية لكثير من الحوادث والظواهر المادية، وكذا علل الامراض، قلَّ اعتناؤهم بالقضايا الميتافيزيقية، وما يدور حول المبدأ والمعاد والافعال الخارقة للعادة

(167)

كمعاجز الانبياء، وازداد عدد المنكرين لها والشاكين فيها، والمترددین في قبولها يوماً بعد يوم!!

لقد تسبَّب الغرورُ العلمیُّ الَّذي أُصيب به العلماء في الغرب في ان ينظر بعض اولئك العلماء إلى جميع القضايا الدينية بعين الازدراء والتحقير، وأن يمتنعوا حتَّى عن التحدث في المعاجز التي يخبر بها التوراة والانجيل، ويعتبروا عصا موسى - عليه السلام - التي كانت تشفي المرضى وتحيي الموتى من الأساطير، وراحوا يتسائلون - في عجب واستنكار - : وهل يمكن أن تتحول قطعة من الخشب اليابس إلى افعى، أو ثعبان، أو هل يمكن ان تعود الحياة إلى ميّت بكلمات من الدعاء؟

لقد تصور العلماء الذين أسكرتهم فتوحاتهم العلمية، انهم ملكوا مفاتيح جميع العلوم، ووقفوا على جميع العلاقات بين الكائنات الطبيعية والظواهر الكونية، ومن هنا تصوَّروا أنه لا توجد اية علاقة بين قطعة الخشب والثعبان، أو بين جملة من الدعاء والتفاته من بشر وعودة الروح إلى الموتى، ولهذا أخذوا ينظرون إلى هذه الامور بعين الشك والترديد، وربما بعين الانكار والرفض المطلق!!

وقد سرى هذا النوع من التفكير إلى اوساط بعض العلماء المصريين الذين تأثروا بهذا الاتجاه اكثر من غيرهم، مع بعض التعديل في ذلك الموقف، وشيء من الاختلاف في النظرة المذكورة، ولهذا اتبعوا تلك السيرة في تحليل الوقائع والحوادث التاريخية والعلمية من هذا النوع، والسير في تأثر بعض علماء مصر بهذه النظرة قبل واكثر من غيرهم هو احتكاك هذه الجماعة بالأفكار الواردة من الغرب قبل غيرهم، ومن هذه المنطقة سرت بعض النظريات والآراء الغربية إلى البلاد الإسلامية الأخرى.

لقد اختار هؤلاء طريقاً خاصاً فصدُّوا به الحفاظ على حرمة الكتاب العزيز، والاحاديث القطعية ومكانتها من جهة، وكسب نظر العلماء الماديين الطبيعيين إلى انفسهم من جهة أخرى، أو ارادوا ان لا يختاروا ما لا يمكن التوفيق بينه وبين القوانين العلمية الطبيعية وتطبيقه عليها.

(168)

لقد وجدَ هؤلاء من جهة أن القرآن الكريم يخبر عن سلسلة من المعجزات والخرارق التي لا يمكن تفسيرها بالعلوم العادية المتعارفة، لأن العلم لا يستطيع أن يدرك العلاقة بين العصا الخشبية اليابسة والتعبان، ومن جهة أخرى كان القبول بالنظريات التي لا يمكن إثباتها بالحسن والتجربة أمراً في غاية الصعوبة لهم.

ولهذا السبب، وفي خضمِّ الصراع بين هذين العاملين: العلم والعقيدة، اختار هؤلاء الكتاب والعلماء نهجاً يستطيعون به وضع نهاية لهذا الصراع، والتنازع، فيحافظون على ظواهر القرآن والاحاديث من جانب، ويتجنبون القول بما يخالف منطق العلم من جانب آخر، ويتلخص هذا النهج في تفسير جميع المعاجز وجميع خوارق العادة التي جرت على أيدي الأنبياء بالموازين العلمية الحاضرة الرائجة في هذا العصر بصورة تبدو وكأنها أمورٌ طبيعية، وبهذا يكونون قد حافظوا على مكانة القرآن الكريم والاحاديث القطعية المسلمة، ولم يتفوهوا بما يخالف العلم الحديث ويتعارض مع معانيته.

ونحن هنا نذكر من باب النموذج والمثال: التفسير الذي ذكره العلامة المصري المعروف «محمد عبده» لقصة اصحاب الفيل وما جرى لهم:

فهو يقول عند تفسيره لسورة الفيل:

«فيجوز لك ان تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الامراض، وان تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تملئه الرياح فيعلق بارجل هذه الحيوانات، فاذا اتصل بجسد دخل في مسامه فاثار فيه تلك القروح التي تنتهي بافساد الجسم وتساقط لحمه، وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعُد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير - الذي يسمونه الآن بالميكروب - لا يخرج عنها.⁽¹⁾»

- [راجع تفسير في ظلال القرآن: ج ٣٠، ص ٢٥١.

(169)

وقال أحد الكتاب مؤيداً هذا الاتجاه بقوله: «إن الطير المستعمل في الكتاب العزيز يراد منه مطلق ما يطير، ويشمل الذباب والبعوض ايضاً.»

ولابدَّ - قبل دراسة هذه الأقوال - أن نستعرض مرة أخرى الآيات النازلة في اصحاب «الفيل.»

يقول الله تعالى: **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ. وَ أَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ. فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ.** ()

إن ظاهر هذه الآيات يفيد أن جيش ابرهة أصيب بالغضب والسخط الالهي، وان هلكه وفناءه كان بهذه الأحجار التي حملتها تلك الطيور، والقث بها على رؤوس الجند وأبدانهم.

إن الإمعان في مفاد هذه الآيات يعطي أن موتهم كان بسبب هذه الاسلحة غير الطبيعية (الصغيرة الحقيرة في ظاهرها، القوية الهدامة بفعالها وأثرها).

وعلى هذا فإن أي تفسير يخالف ظاهر هذه الآيات لا يمكن الذهاب إليه وحمل الآيات عليه ما لم يقم على صحته دليل قطعي.

نقاط تقتضي التأمل في التفسير المذكور:

1- إن التفسير المذكور لا يستطيع كذلك أن يجعل كل تفاصيل هذه الحادثة أمراً طبيعياً، بل هناك جوانب في تلك الواقعة التاريخية العجيبة لا بد من تفسيرها بالعوامل والاسباب الغيبية، لأنه مع فرض أن هلاك الجند وتلاشي أجسادهم تم بواسطة ميكروب: «الحصبة» و «الجدري»، ولكن من الذي ارشد تلك الطيور إلى تلك الاحجار الصغيرة الملوثة بميكروب الحصبة والجدري، فتوجهت بصورة مجتمعة إلى تلك الاحجار الخاصة بدل التوجه إلى الحَبّ والطعام، ثم كيف بعد حمل تلك الأحجار بمناقيرها وأرجلها حلقفت فوق معسكر «أبرهة»، ورجمت جنده كما لو أنها جيش منظم موجه؟؟

هل يمكن اعتبار كل ذلك أمراً عادياً، وحدثاً طبيعياً؟

(170)

تري لو أننا فسّرنا طرفاً من هذه الحادثة العظيمة والعجيبة بالعوامل الغيبية، وبارادة الله النافذة فهل تبقى مع ذلك أية حاجة إلى أن نفسّر جانباً من هذه الحادثة بتفسير طبيعي مألوف، ونركض وراء التوجيهات الباردة، لنجعلها أمراً مقبولاً.

2- إن الكائنات الدقيقة، أو ما يسمى الآن بـ «الميكروب» لا شك انها عدوة لمطلق الإنسان، وليس بصديقة لهذا أو ذاك، ومع ذلك كيف توجهت إلى جنود «ابرهه» وقتلتهم دون غيرهم، وكيف نسيت المكّيين بالمره؟!

إن التاريخ المدوّن يثبت لنا أن جميع الضحايا في هذه الواقعة العظيمة كانوا من جند «ابرهه» ولم يلحق فيها: أي أذى - إطلاقاً - بقريش، وغيرهم من سكان الجزيرة العربية، في حين أن الحصبة والجدري من الأمراض المعدية، التي تنقلها العوامل الطبيعية الكالرياح وغيرها من منطقة إلى أخرى، ورُبما تُهلك اهل قطر باجمعهم.

فهل مع هذا يمكن أن نعدّ هذه الحادثة حدثاً طبيعياً عادياً؟!

3-ان اختلاف هذا الفريق في تحديد نوعية الميكروب، يضيف على هذا الادعاء مزيداً من الإبهام، ويجعله اقرب الى البطلان. فتارة يقولون: أنّه ميكروب الوباء وتارة أخرى يقولون: أنّه داء الحصبة والجذري، في حين اننا لم نجد مستنداً صحيحاً لهذا الخلاف، ومبرراً وجيهاً لهذا الاختلاف، اللهم إلا ما احتمله «عكرمة» من بين المفسرين، وعكرمة هو نفسه موضع نقاش بين العلماء والأما لما ذهب «ابن الاثير». من بين المؤرخين وارباب السير الى ذكر هذا الرأي في صورة الاحتمال الضعيف، والقيل، ثم عاد فردّ هذا القول فوراً. (1)

والأعجب من الجميع ما أعطاه مؤلف كتاب «حياة محمّد» الدكتور هيكل وزير المعارف المصري السابق من تفسير، عند ذكر قصة الفيل.

- 1 الكامل: ج ١، ص ٢٦٣.

(171)

فهو بعد ذكر تلك القصة سرد آيات سورة الفيل، ومع أنه اتى بقول الله تعالى «وأرسل عليهم طيراً أبابيل» قال عن هلاك جنود أبرهة: «وعلّ جراثيم الوباء جاءت مع الريح من ناحية البحر، وأصابت العدوى أبرهة نفسه (1)» فاذا كان الذي جاء بهذا الميكروب هو الريح، فلماذا حلّقت طيورُ الأبابيل على رؤوس جيش أبرهة، والقت بالأحجار الصغيرة على رؤوسهم ودون غيرهم، وأي أثر كان لهذه الاحجار في هلاك أولئك الجنود وموتهم؟

فالحق هو: أن لا يُتبع هذا النمط من التفكير، وأن لا نسعى لتفسير معجزات الأنبياء - الكبرى بمثل هذه التأويلات والتفسيرات، بل إن طريق المعجزات والإعجاز أساساً يختلف عن طريق العلوم الطبيعية التي تتحدد دائرتها بمعرفة العلاقات العادية بين الظواهر الطبيعية، ولهذا يجب علينا أن لا نعمد - ارضاء لهوى جماعة ممّن لا يمتلكون اية معلومات دينية، وليست لديهم أية معرفة بهذا النوع من القضايا - إلى التنازع عن أسسنا الدينية المسلّمة، في حين لا توجد أية حاجة مُلزمة إلى مثل ذلك التنازل والاعتذار!

نقطتان هامتان:

وهنا لا بد من أن نذكّر بنقطتين هنا:

الأولى: يجب ان لا يظن أحدٌ - خطأ - أننا بما قلناه هنا نريد تصحيح كل ما تلوّكه ألسُنُ الناس، وتنسبه إلى الانبياء العظام، أو إلى عباد الله الكرام، من دون أن يكون له أي سند صحيح أو وجه معقول بل وربما اتّسم بطابع الخرافة في بعض الاحيان والموارد.

بل مقصودنا هو: أن نثبت - وطبقاً للمصادر الصحيحة والقطعية المتوفرة - ان الأنبياء كانوا يقومون - لا ثبات ارتباطهم بما وراء هذه الطبيعة - بأعمال خارقة للعادة، خارجة عن الناموس الطبيعيّ المؤلف، تعجز العلوم الطبيعية الراجحة عن

- [حياة محمّد لمحَمَّد حسين هيكل: ص ١٠٢ و ١٠٣.

(172)

إدراك عللها، وأسبابها.

فهذنا هو الدفاع عن هذه الطائفة من المعاجز.

الثانية: إننا لا نقول مطلقاً: أنّ وجود المعجزة هو تخصيص لقانون العلية العامّ، بل اننا في الوقت الذي نحترّم فيه هذا القانون المسلّم نعتقد بأن لجميع حوادث هذا العالم عللاً خاصة واسباباً معينة، وانه من المستحيل أن يوجد شيء بعد عدمه من دون علة، بيد أننا نقول ان لهذه الطائفة من الظواهر والوقائع (أي المعاجز) عللاً غير طبيعية، وان هذه العلل ميسرة ومتاحة لأنبياء الله ورسله والرجال الإلهيين خاصة، وليس في مقدور أحد - لم يستطع لا عن طريق الحس ولا عن طريق التجربة أن يكتشف هذه العلل - أن يتنكر لها، وينكرها، بل ان جميع الاعمال الخارقة التي يقوم بها أنبياء الله ناشئة عن علل لا يمكن تفسيرها بالعلل الطبيعية المؤلف، ولو أنها خضعت للتفسير والتوجيه لخرجت عن كونها معجزة، ولم يصدق في حقها عنوان الاعجاز.

ولكي نقف على حقيقة هذا الامر، ونعرف مدى بطلان المذهب المذكور (مذهب تفسير الخوارق والمعاجز بالتفسير المادي والمألوف المحض) ينبغي أن نتبسط قليلاً في شرح مسألة الاعجاز ونبحث في مدى علاقتها بقانون العلية العام.

بحثٌ علميٌّ حول المعجزة في خمس نقاط:

إن الحديث العلميّ عن المعجزة لا بدّ أن يتركز على عدة نقاط أساسية هي:

1- ماهي المعجزة وما هو تعريفها؟

2- هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

3- هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير عادية فقط؟

4- كيف تدل المعجزة على صدق ادعاء النبوة؟

5- كيف وبماذا نميز المعجزة عن الخوارق الأخرى؟

إنّ الإجابة على هذه الأسئلة كفيّلة بتوضيح حقيقة المعجزة، وبيان مدى بطلان الاتجاه المذكور نعني: تفسير المعاجز بالتفسير المادي الطبيعي.

(173)

على أننا - نظراً لضيق المجال - سنختصر الجواب على هذه الأسئلة، وعلى من أراد التوسع أن يرجع إلى كتب الكلام والعقيدة.

1- ماهي المعجزة وما هو تعريفها؟

لقد عرّف علماء العقيدة المعجزة بتعاريف مختلفة أتقنها وأكملها هو: إنّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة، مقرونٌ بالدعوى، والتحدّي، مع عدم المعارضة، ومطابقة الدعوى.⁽¹⁾

ويعني الشرط الأول (أي كون المعجزة أمراً خارقاً للعادة) أن كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية الحادثة مرتبطة بعلّة حتماً، فلا يمكن صدورها من دون علّة، وهذا الكون مشحون بالعلل التي يكتشفها البشر شيئاً فشيئاً وتدرجاً عبر وسائله العادية أو العلميّة، ولكنّ المعجزة مع كونها ظاهرة واقعية ولهذا فهي كغيرها مرتبطة بعلّة، بيد أنها تختلف عن غيرها من الظواهر في أنّ من غير الممكن كشف عللها من الطريق العادية أو بواسطة التجارب والتحقيقات العلمية، ولا يمكن تفسيرها وتبريرها بالعلل العادية أو بما يكتشفه العلم من العلل لمثل هذه الحوادث، والمقصود من خرق العادة هو أنّ تقع المعجزة على خلاف ما عهدناه وتعودنا عليه في الظواهر الأخرى وعللها، مثل إشفاء المرضى من دون علاج ودواء كما هو المعهود، وإخراج الماء من صخرة صماء من دون حفر أو تنقيب كما هو المألوف، وتحويل العصا إلى افعى من دون تبييض وتفريخ وتوالد وتناسل، بل بمسح من يد، أو بعبارة من لسان، أو بضرب من عصا!!

من هنا نكتشف أنّ كل ظاهرة يقف الناس العاديون بالطرق العادية أو العلماء خاصة بالطرق العلمية على عللها وأسبابها لا تكون معجزة لأنّه في هذه

- [راجع للوقوف على هذا التعريف: كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد للعلامة الحلّي شرحاً والمحقق نصيرالدين الطوسي متناً: ص ٢١٨، وأيضاً شرح تجريد الاعتقاد للعلامة القوشجي: ص ٤٦٥.

(174)

الصورة لم يقع أي شيء على خلاف العادة، والمألوف ليبدل على مزية في الانبياء.

فان مثل هذه الظاهرة التي يكون لها علّةٌ عاديةٌ يعرفها جميعُ الناس، أو سببٌ علمي خاصٌ يعرفها علماء ومتخصصوا ذلك العلم يمكن أن يقوم بايجاد أمثالها جميعُ الناس، فلا يكون حينئذ معجزة.

ولا يعني هذا - وكما اسلفنا - أنّ المعجزة لا تنتهي إلى اية علّة، اصلاً، بل هي تستند إلى علّة غير متعارفة وغير عادية، ولمزيد التوضيح سنبحث في هذا المجال عند الاجابة على السؤال الثالث.

ويُصد من الشرط الثاني (أي كون الاعجاز مقروناً بالدعوى) أن يدّعي صاحبُ المعجزة النبوة والسفارة من جانب الله تعالى، ويأتي بالمعجزة دليلاً على صحة دعواه هذه، إذ في غير هذه الصورة لا يكون الأمرُ الخارق للعادة معجزةً بل يُطلق عليه في الاصطلاح الديني لفظ «الكرامة»، كما كان لمريم بنت عمران التي كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقاً فاذا سألها من أين لها ذلك؟

قالت: هو من عند الله. (1)

ويعني الشرط الثالث أن يكون الاعجاز مقروناً بدعوة الناس إلى الإتيان بمثله، وعجز الناس عن هذه المعارضة، وعدم قدرتهم على الإتيان بمثله مطلقاً إذ في هذه الصورة يتضح أنّ النبي يعتمد على قوة الهية غير متناهية، قوة خارجة عن حوزة البشر العادي.

واما الشرط الرابع فيعني أن الامر الخارق للعادة إنما يكون عملاً إعجازياً، ويستحق وصف المعجزة الدالّة على ارتباط الآتي بها بالمقام الإلهي، إذا وافق الامرُ الواقع ما يدعي أنه قادر على الأتيان به.

فلو قال: سأجعلُ هذا البئر الجاف الفارغ من الماء، يفيض بالماء باشارة اعجازية، ثم يقع ما قاله كان هذا الأمر معجزة حقاً، وأما إذا قال: سأجعل هذا

- [راجع سورة آل عمران: ٣٧.

(175)

الماء القليل الموجود في البئر يفيضُ ماء، بالإعجاز، ولكن جفّت ذلك البئرُ على عكس ما قال، لم يكن ذلك إعجازاً، بل كان تكذيباً لمدعيها.

هذا هو خلاصة ما يمكن أن يُقال حول تعريف المعجزة والاعجاز وهو يساعد على فهم طبيعة العمل الإعجازي.

2- هل الاعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة؟

وبهذا يتضح جواب السؤال المطروح في هذا المجال وهو أن يقال: إن قانون العلية (أي: ارتباط كل معلول حادث بعلة) مما ارتكز عليه ذهنُ البشري وقبلة العلم والفلسفة، ولذلك فإننا نلاحظ: كلما وقف الإنسان على ظاهرة مهما كانت - بحثً عن علتها فوراً فإذا رأى حية - مثلاً - عرف بان علتها الطبيعية هي أن تبيض حية، ثم خروج حية من البيض بعد سلسلة من التفاعلات فكيف يمكن القبول بالمعجز مع أنها لا تنشأ عن مثل هذه العلل ولا تمرُّ بمثل هذه المقدمات والمراحل والتفاعلات الطبيعية، مثل انقلاب العصا إلى ثعبان، أو نبوع الماء من الصخر من دون حفر أو تنقيب.

أليس هذا هدمٌ، أو تخصيصٌ لذلك القانون العقلي المسلم العام؟

فإن الجواب على هذا السؤال هو أن مثل هذا السؤال لا يطرحه إلا الذين يحرصون العلل والعلاقات بين الأشياء في العلل والعلاقات المادية الطبيعية.

ولكن الحق هو أن أية ظاهرة مادية يمكن أن يكون لها نوعان من العلل:

1- العلة العادية التي تخضع للتجربة.

2- العلة غير العادية التي لا يعرفها الناس ولم تكن متعارفة ولا تخضع للتجربة العلمية.

وهذا يعني أنه لا توجد أية ظاهرة في هذا العالم بدون علة.

وتوضيح هذا أن أصل وجود الحية ونبوع الماء من الصخرة وتكلم الطفل - مثلاً - أمرٌ ممكنٌ، ولا يُعدّ من المحالات، لأنها لو كانت من المحالات لما تحقق وجودها أبداً.

(176)

نعم أنها بحاجة إلى علة لكي تتحقق، والعلة - سواء في المعجز أو غيرها - يمكن أن تكون إحدى الأمور التالية:

أ - العلة الطبيعية العادية وهي ما ألفناها وأعتدنا عليها مثل ظهور شجرة من نواة بعد سلسلة من التفاعلات.

ب - العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة وهذا يعني أنه قد يكون لظاهرة معينة نوعان من العلل، وطريقان للتحقق والوجود أحدهما معروف ومعلوم، والآخر مجهول غير معلوم، والأنبياء بحكم اتصالهم بالعلم والقدرة الإلهية، يمكن أن يقفوا على هذا النوع من العلل - عن طريق الوحي - ويوجدوا الظاهرة.

ج - تأثير النفوس والأرواح:

فإنَّ بعض الظواهر يمكن أن تكون ناشئة من تأثير أرواح الأنبياء ونفوسهم القوية، كما نلاحظ ذلك في مجال المرتاضين الهنود الذين يبلغون درجة يستطيعون معها أن يقوموا بما يعجز عنه الأفراد العاديون، وذلك بفضل الرياضات النفسية التي يخضعون لها. وهو ما يسمى باليوجا أحياناً، وقد كتبت حوله كتب ودراسات.⁽¹⁾

وقد أشار إلى هذا جملة من علماء الإسلام وفلاسفته منهم الفيلسوف الإسلامي الشهير صدر الدين الشيرازي حيث يقول:
«لا عجب أن يكون لبعض النفوس قوةً الهيئية تكون بقوتها كأنها نفسُ العالم فيطبعها العنصرُ طاعةً بدينها لها، فكأما ازدادت النفسُ - تجرداً وتشبهاً بالمبادئ القسوى ازدادت قوةً وتأثيراً في ما دونها.

وإذا صار مجردُ التصوّر والتوهم سبباً لحدوث هذه التغيرات في هيولى البدن لأجل علاقة طبيعية، وتعلّق جبلي لها إليه، لكان ينبغي أن تؤثر في بدن الغير وفي هيولى العالم مثل هذا التأثير، لأجل مزيد قوة شوقية، واهتزاز علوي للنفس

- إراجع كتاب الطاقة الإنسانية لأحمد حسين.

(177)

ومحبة الهيئية لها، فيؤثر نفسه في إصلاحها، وإهلاك ما يضرّها ويفسدها.⁽¹⁾»

د - العللُ المجردة عن المادة:

فيمكن ان تكون للظواهر عللٌ مجردة عن المادة كالملائكة، بان تقوم الملائكة بأمر من الله سبحانه بتدمير قرية، أو تقوم بمعجزة بعد طلب النبي منها ذلك.

والملائكة مظاهرُ القدرة الالهية في الكون، وهي التي تدبّر أمور الكون بأمر الله تعالى كما يقول القرآن الكريم: **فَالْمُدَبِّرَاتِ**

أَمْرًا⁽²⁾ (وهي بالتالي جنود الله في السماوات والأرض) **وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ**.⁽³⁾

فلا بد من ارجاع الظواهر الطبيعية الواقعة إلى أحد هذه العوامل الاربعة، ولا يمكن أبداً حصر العلة في العلة الطبيعية العادية المعروفة كما تصور منكروا الاعجاز، بل يمكن أن تكون كلٌ واحدة من هذه العلل سبباً لحدوث الظاهرة الطبيعية، فاذا لم نشاهد علة ظاهرة من الظواهر لم يجز لنا أن نبادر - فوراً - إلى تصوّر أنها ناشئة من غير علة.

ويجب ارجاع معاجز الأنبياء إلى إحدى الطرق الاخيرة، والقول بأن الانبياء استخدموا - في ايقاع الخوارق والمعاجز - إما العلل المادية غير المعروفة للغرف، والعلم، وأما نفوسهم القوية التي حصلت لهم بفعل الجهاد الرُوحِي العظيم والرياضات النفسية الشديدة فهي علة تلك الأفعال الخارقة للعادة.

كما ويمكن ان تكون جميع تلك الافعال العجيبة ناشئة عن جملة من العلل والعوامل الغيبية المدبّرة للكون بامر الله ومشيتة.

إذن فلا تتحقق المعجزة بدون علة كما يتصوّر، ولا يهدم الاعجاز القوانين العقلية المسلمة.

- 1 اراجع المبدأ والمعاد: ص ٣٥٥ و ٣٥٦ لصدر المتألهين المشهور بصدر الدين الشيرازي، وشرح المنظومة للحكيم السيزواري: ص ٣٢٧ قال السيزواري ناظماً:

يطيعه العنصر طاعة الجسد * للنفس فالكل كجسمه يُعدّ

- 2 النازعات: ٥.

- 3 الفتح: ٤.

(178)

3- هل المعجزة تصدر عن علة مادية غير معروفة فقط؟

قد يتصور البعض أن المعاجز تصدر عن علة مجردة عن المادة فقط نافرين أن تكون لها آية علة مادية معروفة أو غير معروفة، في حين لا يصحّ هذا السلب الكلي، إذ ما أكثر الخوارق التي تنشأ عن أمور عادية وعبر سلسلة من التفاعلات الطبيعية.

فعندما يرقّد مرتاض هندیّ ليمرّ عليه تراكتور من دون ان تحدث في جسمه اية جراحات أو اصابات فان هناك أموراً مادية كثيرة دخلت في هذا الامر الخارق مثل: وقوع هذا الحدث في اطار الزمان الخاص، والمكان الخاص، ومثل جسم المرتاض، وما كنة الحرارة.

فان جميع هذه الاشياء المادية اثرت في ظهور هذا العمل الخارق.

وهكذا عندما تنقلب عصا الكليم - عليه السلام - إلى حية على نحو الاعجاز فان العصا شيء مادي وهكذا الحال في غيره من الموارد

ولهذا لا يمكن ان نتجاهل تأثير العوامل والامور المادية في ظهور الأمور غير العادية، وننكر دخالتها بمثل هذا الإنكار.

وهذه هي اكثر النظريات اعتدالا في هذا المجال.

وفي مقابل ذلك التفريط⁽¹⁾أفرط آخرون إذ قالوا: ان جميع المعاجز والخوارق ناشئة من علل مادية غير معروفة.

وحتى ما يقوم به المرتاضون يعود إلى هذه العوامل الطبيعية التي لا يعرفها ولا يقف عليها حتى النابغ من الناس فضلا عن العاديين، لأن العوامل الطبيعية على نوعين: المعروفة وغير المعروفة، والناس يستفيدون في حياتهم اليومية - في الأغلب - من القسم الاول، بينما يستخدم الانبياء والمرتاضون تلك العوامل الطبيعية غير المعروفة التي وقفوا عليها وادركوها دون غيرهم.

- [أي حصر علل الخوارق والمعاجز في العوامل المجردة ونفي تأثير العلل المادية على نحو الاطلاق.

(179)

والسبب في وصفنا هذه النظرية بالافراط والتطرف هو عدم وجود دليل لا ثباته، بل يمكن ان يقال ان مثل هذا الموقف ناشيء عن الانهزامية تجاه العالم المادي، أو انه لارضاء الماديين، والناقين لما يدخل في إطار العالم المادي فان الماديين يرفضون أي عالم آخر غير الطبيعة وآثارها وعلاقاتها وخواصها، وحيث أن ارجاع المعجزات إلى العلل المجردة عن المادة يخالف منطق الماديين، ويضاد اتجاههم وتصورهم لهذا عمد أصحاب هذه النظرية (نظرية إرجاع المعاجز والخوارق إلى علل طبيعية غير معروفة وغير عادية) إلى مثل هذا التفسير إقناعاً للماديين، وارضاء لهم فقالوا: ان جميع الخوارق والمعاجز ناشئة من علل طبيعية ومادية على الاطلاق، غاية ما في الأمر أنها علل غير معروفة، شأنها شأن كثير من العوامل الطبيعية المجهولة.

ونحن بدورنا نترك هذه النظرية في دائرة الاجمال وبقعة الإمكان، لعدم الدليل لا على طبقها ولا على خلافها.

4- كيف تدلّ المعجزة على صحّة ادّعاء النبوة؟

ان صفحات التاريخ مليئة بذكر من ادّعوا النبوة خداعاً وكذباً، واستثماراً للناس، مستغلّين سذاجة الاغلبية الساحقة من جانب، وانجذابهم الفطري إلى قضايا التوحيد والايان من جانب آخر.

فكيف وبماذا يُميّز النبيّ الصادق عن مدّعي النبوة؟؟

إن المعجزة هي إحدى الطرق التي تدل على صحة ادعاء النبوة.

وإنما تدلّ المعجزة على صدق ادّعاء النبوة، وارتباط النبيّ بالمقام الربوبي لأن الله الحكيم لا يمكن أن يزود الكاذب في دعوى النبوة بالمعجزة، لأن في تزويد الكاذب تغريراً للناس الذين يعتبرون العمل الخارق دليلاً على ارتباط الآتي بها بالمقام الربوبي.

والى هذا أشار الامام جعفر الصادق - عليه السلام - بقوله في جواب من سأله عن علة اعطاء الله المعجزة لانبيائه ورسله:

«لِيَكُونَ دَلِيلًا عَلَى صِدْقِ مَنْ أَنَى بِهِ، وَالْمُعْجِزَةُ عَلَامَةٌ لِلَّهِ لَا يُعْطِيهَا إِلَّا أَنْبِيَاءُهُ وَرُسُلُهُ، وَحَجَّجَهُ، لِيَعْرِفَ بِهِ صِدْقَ الصَّادِقِ مِنْ كَذِبِ الْكَاذِبِ.»⁽¹⁾

5- بماذا نميز المعاجز عن غيرها من الخوارق؟

لا شكَّ في أنَّ السِّحْرَةَ والمرْتاضِينَ يقومون بأفعال خارقة للعادة مثيرة للعجب والدهشة حتَّى إن البسطاء ربما يذهب بهم الاندهاش إلى حدِّ الاعتقاد بأنَّ القائمين بهذه الخوارق مزوِّدون بقوى غامضة غيبية لا يتوصَّل إليها البشر.

فكيف يمكن اذن أن نُمَيِّزَ بَيْنَ المعاجز وتلك الخوارق والعجائب؟

إن التمييز بين هذه وتلك يمكن أن يتم إذا لاحظنا العلامات الفارقة بين المعجزة وغير المعجزة من الاعمال الخارقة للعادة، كاعمال السحرة والمرتاضين (اصحاب اليوجا) ونظائرهم.

وهذه الفوارق هي عبارة عن الامور التالية:

1- إن القوة الغامضة الحاصلة لدى المرتاضين والسحرة ناشئة بصورة مباشرة من التعلم والتحصيل عند اساتذة تلك العلوم، وذلك طيلة سنين عديدة من الزمان.

بينما لا يرتبط الاعجاز بالتعلُّم والتلمذ أبداً، والتاريخ خير شاهد على هذا الكلام.

2- إن أفعال السِّحْرَةَ والمرْتاضِينَ العجيبة قابلة للمعارضة والمقابلة بأمثالها، وربما بما هو أقوى منها، على عكس الإعجاز، فالمعجزات غير قابلة لأن تعارض وتقابل بمثلها ابداً.

3- المرتاضون والسحرة لا يتحدُّون أحداً بأفعالهم ولا يطلبون معارضة أحد لهم وإلا لاقتضخوا وكتبوا.

بينما يتحدى الانبياء والرسل بمعاجزهم جميع الناس ويدعونهم لمعارضتهم

- 1 علل الشرائع: ج ١، ص ١٢٢.

والإتيان بمثل معاجزهم لو قدروا، واستطاعوا.

فهذا هو القرآن الكريم ينادي بأعلى صوته على مر العصور: **قُلْ لَنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً.** (1)

وذلك لأن أفعال السحرة الخارقة مما كانت فانها تستند إلى الطاقة البشرية المحدودة، ولا تتجاوزها بينما يعتمد الانبياء والرسل العنصر الغيبي، والإرادة الألهية.

4- إن أفعال السحرة والمرتاضين الخارقة للعادة لأمر محدودة ومقتصرة على ما تعلموها وتمرنوا عليها، بينما لا تكون معاجز الأنبياء والرسل مقتصرة على أمور خاصة، فهم لا يعجزون عن الاتيان بكل ما يطلبه الناس منهم، طبعاً حسب شرائط خاصة مذكورة في محلها في أبحاث الاعجاز. (2)

فتلك معاجز موسى المتعددة الابتدائية، والمقترحة، ومعاجز المسيح - عليه السلام - المتنوعة خير مثال على هذا الأمر.

5- إن اصحاب المعاجز يقصدون من معاجزهم دائماً دعوة الناس إلى أهداف إنسانية عالية وغايات الهية سامية وبالتالي هداية المجتمع البشري إلى المبدأ والمعاد، والأخلاق الفاضلة فيما لا يهدف المرتاضون والسحرة إلا تحقيق مآرب دنيوية حقيرة، ونيل مكاسب مادية رخيصة.

هذا مضافاً إلى أن الأنبياء والرسل أنفسهم يختلفون عن السحرة والمرتاضين

- [الاسراء: ٨٨.

2- مثل أن لا يكون ما يطلبه الناس محالاً عقلياً كروية الله، ومثل أن لا يكون ما سيأتي لهم به دليلاً على ارتباطه بالمقام الربوبي، كما لو طلبوا منه أن تكون له جنة من نخيل وأعناب وبيت من ذهب، لأن هذه الأمور لا تكون دليلاً على النبوة إذ نلاحظ أن كثيراً من الناس يملكون هذه وليسوا مع ذلك بأنبياء.
وأن لا يكون المقترحون من ذوي اللجاج والعناد الذين لا يقصدون من طلب المعاجز إلا الهزل والاستهزاء والتنزّه. وأن لا تكون نتيجة المعجزة هلاكهم كما لو طلبوا ان يُنزل عليهم ناراً من السماء تحرقهم لأن في ذلك نقضاً للغرض.

(182)

في نفسيّتهم العالية، وأخلاقهم الفاضلة وتاريخهم المشرق، وصفاتهم النبيلة على العكس من السحرة والمرتاضين.

هذه هي أهمّ العلامات الفارقة بين المعاجز التي تدل على نبوة الانبياء والخوارق التي يقوم بها المرتاضون والسحرة.

وبعد أن تبين كل هذا اتضح أن الخوارق الالهية التي هي من مقولة المعاجز أيضاً تختلف عن الأمور العادية في أن عللها لا تنحصر في العلل المادية غير المعروفة فضلاً عن الأمور المادية المعروفة، بل ربما تكون مستندة إلى العلل المجرّدة، فليس من الصحيح ان نسعى لتفسير الخوارق الالهية مثل: «قصة الفيل» التي أهلك الله تعالى فيها جيش «أبرهة» العظيم بأحجار صغيرة من سجيل

رمتها طيور الأبنيل بالعلل المادية المعروفة كما فعل من اشرنا إلى أسمائهم في مطلع هذا البحث. (1)

ولهذا عدل «سيد قطب» عن رؤية الأذى كان قد أبداه في ما سبق في أمثال هذه الأمور، إذ قال:

ان الطريق الأمثل في فهم القرآن وتفسيره أن ينفُض الإنسان من ذهنه كل تصوّر سابق، وأن يواجه القرآن بغير مقرّرات تصوّرية أو عقلية أو شعورية سابقة، وأن يبني مقرّراته كلها حسبما يصور القرآن والحديث حقائق هذا الوجود، ومن ثم لا يحاكم القرآن والحديث لغير القرآن، ولا ينفي شيئاً يثبتته القرآن ولا يُؤوِّله، ولا يثبت شيئاً ينفيه القرآن أو يبطله، وما عدا المثبت والمنفي في القرآن فله أن يقول فيه ما يهديه إليه عقله وتجربته.

نقول هذا بطبيعة الحال للمؤمنين بالقرآن... وهم مع ذلك يؤولون نصوصه هذه لتوائم مقررات سابقة في عقولهم وتصورات سابقة في أذهانهم لما ينبغي أن تكون عليه حقائق الوجود. (2)

- 1 أي الاستاذ الشيخ محمّد عبده والاستاذ محمّد حسين هيكل.
- 2 وهنا قال سيّد قطب في هامش هذا الكلام مانصه «وما أبرئ نفسي أنني فيما سبق من مؤلّفاتني وفي الأجزاء الأولى من هذا الضلال قد انسقت إلى شيء من هذا وارجو أن أتداركه في الطبعة التالية إذا وفق الله.»

(183)

فاما الذين لا يؤمنون بهذا القرآن، ويعتسفون نفي هذه التصورات لمجرد أن العلم لم يصل إلى شيء منها فهم مضحكون حقاً! فالعلم لا يعلم اسرار الموجودات الظاهرة بين يديه والتي يستخدمها في تجاربه، وهذا لا ينفي وجودها طبعاً! فضلا عن العلماء الحقيقيين اخذت جماعة كبيرة منهم تؤمن بالمجهول على طريق المتدينين أو على الأقل لا ينكرون ما لا يعلمون، لأنهم بالتجربة وجدوا أنفسهم - عن طريق العلم ذاته - أمام مجاهيل فيما بين ايديهم ممّا كانوا يحسبون انهم فرغوا من الاحاطة بعلمه فتواضعوا تواضعاً علمياً نبيلاً ليس فيه سمّة الادعاء، ولا طابع التناول على المجهول كما يتناول مدّعو العلم، ومدّعو التفكير العلمي، ممن يُنكرون حقائق الديانات وحقائق المجهول. (1)

ثم يقول في موضع آخر من تفسيره ناقداً لموقف الاستاذ عبده من قصة الفيل التي هي احدى الخوارق حيث حفظ الله تعالى بيته المعظم على نحو خارق للعادة:

ويرى الذين يميلون إلى تضييق نطاق الخوارق والغيبيات، وإلى رؤية السنن الكونية المألوفة تعمل عملها، أن تفسير الحادث بوقوع وباء الجدري والحصبة اقرب و اولى، وان الطير تكون هي: الذباب والبعوض تحمل الميكروبات فالطير هو كل ما يطير.

ثم ينقل كلام الاستاذ «عبده» الذي ذكرناه بنصه مع قوله: هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو ممّا لا يصح قبوله إلا بتأويل ان صحت روايته، وممّا تعظم به القدرة ان يُؤخذ من استعز بالفيل - وهو اضخم حيوان من ذوات الاربع جسماً - ويُهلك حيوان صغير لا يظهر للنظر ولا يدرك بالبصر حيث ساقه القدر لا ريب عند العاقل أن هذا الكبر و اعجب وأبهر.

ثم يقول: ونحن لا نرى أن هذه الصورة التي افترضها الاستاذ الامام - صورة الجدري أو الحصبة من طين ملوث بالجراثيم - أدلّ على قدرة، ولا أولى بتفسير الحادث، فهذه كتلك في نظرنا من حيث إمكان الوقوع، ومن حيث الدلالة على قدرة الله، وتدبيره، ويستوي عندنا أن تكون السنة المألوفة للناس، المعهودة المكشوفة لعلمهم، هي التي جرت، فأهلكت قوماً أراد الله اهلاكهم، أو أن تكون سنة الله قد جرت بغير المألوف للبشر، و غير المعهود المكشوف لعلمهم فحققت قدره ذلك.

ثم يقول: لقد كان الله سبحانه يريد بهذا البيت (1) أمراً، كان يريد أن يحفظه ليكون مثابة للناس وأمناً وليكون نقطة تجمع للعقيدة الجديدة تزحف منه حرة طليقة في ارض حرة طليقة لا يهيمن عليها احدٌ من خارجها ولا تسيطر عليها حكومة قاهرة تحاصر الدعوة في محضنها، ويجعل هذا الحادث عبرة ظاهرة مكشوفة لجميع الانظار في جميع الأجيال، ليضربها مثلاً لرعاية الله لحرماته وغيرته عليها.

فما يتناسق مع جوّ هذه الملابس كلها أن يجيء الحادث غير مألوف ولا معهود بكل مقوماته وبكل اجزائه، ولا داعي للمحاولة في تغليب صورة المألوف من الأمر في حادث هو في ذاته وبملابساته مفردٌ فذُّ.

وبخاصة ان المألوف في الجدري والحصبة لا يتفق مع ما روي من آثار الحادث بأجسام الجيش وقائده فإن الجدري أو الحصبة لا يُسقط الجسم عُضواً عُضواً، وأنملة انملة، ولا يشق الصدر عن القلب!!

ثم ان «سيد قطب» يشير إلى علل تفسير هذه الحادثة الخارقة للعادة بالتفسير المادي العادي الطبيعي، والمدرسة العقلية التي كان الاستاذ «عبد» على رأسها، وضغط الفتنة بالعلم التي تركت آثارها في تلك المدرسة، ونحن نكتفي بهذا القدر بالمناسبة، وإشعاراً بما يمكن أن يجنيه مثل هذا الاتجاه على مقولات الدين ومفاهيمه ومقرراته عن الأحداث الكونية والتاريخية والإنسانية

هذا و يجدر بنا ان ننقل هنا ما قاله صاحب تفسير مجمع البيان في هذا الصدد في شأن حادثة الفيل استكمالاً لهذا البحث وتأكيداً لمعجزة هذا الحدث.

قال صاحب المجمع: وكان هذا من اعظم المعجزات القاهرة، والآيات الباهرات في ذلك الزمان، اظهره الله تعالى ليدل على وجوب معرفته، وفيه ارهاص لنبوة نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه ولد في ذلك العام، وفيه حجة لائحة قاصمة لظهور الفلاسفة والملحدین المنكرين للآيات الخارقة للعادات فانه لا يمكن نسبة شيء مما ذكره الله تعالى من أمر اصحاب الفيل إلى طبع وغيره كما نسبوا الصيحة والريح العقيم والخسف وغيرهما مما اهلك الله تعالى به الامم الخالية، إذ لا يمكنهم أن يروا في اسرار الطبيعة ارسال جماعات من الطير معها احجارٌ معدة مهية لهلاك أقوام معينين قاصدات إياهم دون من سواهم فترميهم بها حتى تهلكهم، وتدمر عليهم، لا يتعدى ذلك إلى غيرهم ولا يشك من له مسكة عن عقل ولب ان هذا لا يكون الا من فعل الله تعالى مسبب الاسباب ومذلل الصعاب، وليس لأحد أن ينكر هذا لأن نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قرأ هذه السورة على أهل مكة لم ينكروا ذلك بل اقرؤا به وصدقوه مع شدة حرصهم على تكذيبه، واعتنائهم بالرد عليه وكانوا قريبي عهد بأصحاب الفيل، فلو لم يكن لذلك عندهم حقيقة وأصل لأنكروه، وجدوه، وأنهم قد أرخوا بذلك كما أرخوا ببناء الكعبة، وموت قصي بن كعب وغير ذلك.

وقد اكثر الشعراء ذكر الفيل ونظموه ونقلته الرواة عنهم فمن ذلك ما قاله (أمية) بن ابي الصلت:

إن آيات ربنا بينات * ما يُمارئ فيهنّ إلا الكفورُ

حبس الفيل بالمغمس حتى * ظلّ يحبو كأنه مغمورُ

- [في ظلال القرآن: ج ٣٠، ص ٢٥١ - ٢٥٥.

(186)

وقال عبدالله بن عمرو بن مخزوم:

أنت الجليل ربنا لم تُدّيس * أنت حبست الفيل بالمغمس

من بعد ما همّ بشيء مئلس * حبسته في هيئة المكرس⁽¹⁾

وقال ابن قيس الرقيات في قصيدة:

واستهلّت عليهم الطير با * لجنل حتى كأنه مزجوم⁽²⁾

ماذا بعد هزيمة الأحباش؟

لقد استوجب مقتل أبرهة وتحطم جيشه وهلاكهم، وبالتالي هزيمة أعداء الكعبة المشرفة، وأعداء قريش، أن يتعاضم شأن المكيين، وشأن الكعبة الشريفة في نظر العرب، فلا يجرأ أحدٌ - بعد ذلك - في أن يحدث نفسه بغزو مكة، والإغارة على قريش، أو أن يفكر في التطاول على الكعبة المعظمة صرح التوحيد الشامخ، فقد اخذ الناس يقولون في انفسهم: إنَّ الله أهلك أعداء بيته المعظم بمثل ذلك الإهلاك إحتراماً لبيته وتعظيماً لشأن قريش، ولأنَّ ما كان يتصور أحد أن ما وقع كان لاجل المحافظة على الكعبة فقط، أي من دون أن يكون لمكانة قريش ومنزلتهم وشأنهم دخل في ذلك، ويشهد بذلك أن قريشاً تعرضت مراراً لحملات متكررة من غزاة ذلك العصر دون أن يُصابوا بمثل ما أصيب به جنْدُ «ابرهة» الذي قصد الكعبة بالذات ويواجهوا ما واجهه، من الردع والكتب.

إنَّ هذا الفتح والظفر الذي نالته قريش من دون تعب ونصب، ومن دون إراقة أية دماء من أبنائها، أحدثت في نفوس القرشيين حالات جديدة خاصة، فقد زادت من غرورهم وحميتهم، وعنجهيتهم، واعتزازهم بعنصرهم، فأخذوا يفكرون في تحديد شؤون الآخرين، والتقليل من وزنهم، اعتقاداً منهم بانهم الطبقة الممتازة من العرب دون سواهم. كما أنها دفعتهم إلى أن يتصوَّروا أنهم وحدهم موضع عناية الأصنام (الثلاثمائة والستين) فهم وحدهم الذين تحبُّهم

- 1 المنكس.
- 2 تفسير مجمع البيان للطبرسي: ج ١٠، ص ٥٤٣ في تفسير سورة الفيل.

(187)

تلك الاصنام، وتحميمهم وتدافع عنهم!!

ولأجل هذا تمادوا في لهوهم، ولعبهم، وتوسعوا في ممارسة اللذة والترف حتى أنهم أظهروا ولعاً شديداً بالخمير، فكانوا يحتسونها في كل مناسبة، وربما مدّوا موائد الخمر في فناء الكعبة، واقاموا مجالس سمرهم وأنسهم إلى جانب أصنامهم الخشبية، والحجرية، التي كان لكل قبيلة من العرب بينها صنمٌ أو أكثر، ويقضون فيها اسعدَ لحظات حياتهم - حسب تصورهم، و هم يتناقلون فيها كل ما سمعوه من أخبار وقصص حول «مناذرة» الحيرة و «غساسنة» الشام وقبائل اليمن، وهم يتصورون أن هذه الحياة الحلوة اللذيذة هي من بركة تلك الاصنام والاوثنان، فهي التي جعلت عامة العرب تخضع لقريش، وجعلت قريشاً أفضل من جميع العرب!!

أوهام قريش تتفاقم!!

إنَّ أخطرَ ما يمرُّ به إنسانٌ في حياته هو أن يصفو عيشه من المشاكل، رداً من الزمن ويحس لنفسه بنوع من الحصانة الوهمية، فعندها تجده يخص الحياة بنفسه ويستأثر بكل شيء في الوجود ولا يرى لغيره من ابناء نوعه وجنسه من البشر أي حق في الحياة، ولا أي شأن وقيمة تذكر، وذلك هو ما يصطلح عليه بالاستكبار والاستعلاء، والاحساس بالتفوق، والغطرسة.

وهذا هو بعينه ما حصل لقريش بعد اندحار جيش «ابرهة» وهلاكه، وهلاك جنده بذلك الشكل العجيب الرهيب.

فقد عزمت قريش منذ ذلك اليوم - وبهدف إثبات تفوقها وعظمتها للأخرين - على أن تلغي أي احترام لأهل الحلّ لأنهم كانوا يقولون:

ان جميع العرب محتاجون إلى معبدنا، وقد رأى العرب عامة كيف اعتنى بنا آلهة الكعبة، خاصة، وكيف حمتنا من الاعداء!!

ومن هنا بدأت قريش تضيّق على كل من يدخل مكة من أهل الحلّ للعمرة أو الحج، وتتعامل معهم بخشونة بالغة، وديكتاتورية شديدة

ففرضت على

(188)

كل من يريد دخول مكة للحج أو العمرة أن لا يصطحب معه طعاماً من خارج الحرم، ولا يأكل منه، بل عليه أن يقتني من طعام أهل الحرم، ويأكل منه، وأن يلبس عند الطواف بالبيت من ثياب أهل مكة التقليدية القومية، أو يطوف عرباناً بالكعبة إن لم يكن في مقدوره شراؤها واقتناؤها، ومن كان يرفض الخضوع لهذا الأمر، من رؤساء القبائل وزعمائها، كان عليه أن ينزع ثيابه - بعد انتهائه من الطواف - ويلقيها جانباً، ولا يحق لأحد ان يمسه أبداً لا صاحبها ولا غيره. (1)

اما النساء فكان يجب عليهن إذا أردنّ الطواف أن يُطفنّ عراة على كل حال، وان يضعن خرقة على رؤوسهن و يُرِدْنَ البيت التالي في اثناء الطواف:

اليوم يبدو بعضه أو كلّه * وبعدَ هذا اليوم لا أجله

ثم إنه لم يكن يحق لأيّ يهودي أو مسيحي - بعد هزيمة «ابرهة» الذي كان هو أيضاً مسيحياً - أن يدخل مكة إلا أن يكون أجيراً لمكّي، وحتى في هذه الصورة كان يجب عليه أن لا يتحدّث في شيء من أمر دينه ومن أمر كتابه.

لقد بلغت النخوة والعصبية بقريش حداً جعلتهم يتركون بعض مناسك الحج التي كان يجب الإتيان بها خارج الحرم!! لقد أنفوا منذ ذلك اليوم أن يأتوا بمناسك عرفة (2) كما يفعل بقية الناس فتركوا الوقوف بعرفة، والافاضة منها مع أن آباءهم (من ولد إسماعيل) كانوا يُقرّون أنها من المشاعر والحج، وكانت هيئة قريش وعظمتها الظاهرية رهناً - برمتها - بوجود الكعبة بين ظهرانيها، وبوظائف الحج ومناسكه هذه، إذ كان يجب على الناس في كل عام أن يأتوا إلى هذا الوادي الخالي عن الزرع وهذه الصحراء اليابسة لأداء المناسك، إذ لو لم يكن في هذه النقطة من الأرض أئ مطاف أو مشعر لما رغب احد حتى في العبور بها فضلاً عن المكث فيها عدة ايام وليال.

لقد كان ظهور مثل هذا الفساد الاخلاقي وهذا الموقف المتعصب من الآخرين أمراً لا بد منه بحسب المحاسبات الاجتماعية.

فالبينة المكينة لابد أن تغرق في الفساد والانحراف حتى يتهيأ العالم لانقلاب أساسى ونهضة جذرية.

إن كل ذلك الانفلات الاخلاقي والترف والانحراف كان يهيء الارضية ويعدها لظهور مصلح عالمي، أكثر فاكثراً.

ولهذا لم يكن غريباً أن يغضب «أبوسفيان» فرعون مكة وطاعينها على «ورقة بن نوفل» حكيم العرب الذي تنصر في أخريات حياته واطلع على ما في الانجيل، كلما تحدّث عن الله والانبياء ويقول له: «لا حاجة إلى مثل هذا الاله وهذا النبي، تكفينا عناية

اصنامنا!!»

عَبْدُ اللَّهِ وَالِدُ النَّبِيِّ:

يوم فدى «عبدالمطلب» ولده «عبدالله» بمائة من الابل نحرها، وأطعم الناس في سبيل الله، لم يكن يمض من عمر «عبدالله» أكثر من اربعة عشر ربيعاً، وقد تسببت هذه الواقعة في أن يكتسب «عبدالله» شهرة خاصة بين عشيرته مضافاً إلى شهرته الكبرى بين قريش، وأن يحظى بمكانة كبيرة عند أبيه: «عبدالمطلب» بنحو خاص، لأن ما يُكَلِّفُ الإنسان غالباً، ويتحمل في سبيله عناء أكثر لا بد أن يحظى لديه بمكانة أكبر، ويحبّه محبة تفوق المتعارف.

ومن هنا كان «عبدالله» يتمنّع باحترام يفوق الوصف بين أبناء عشيرته وأفراد عائلته وأقربائه.

ثم إن «عبدالله» يوم كان يتوجه برفقة والده إلى المذبح كان يعاني من مشاعر وأحاسيس متناقضة ومتضادة، فهو من جانب كان يُكِنُّ لوالده احتراماً كبيراً وحباً شديداً، ولهذا لم يكن يجدُ بدأً من طاعته، والانصياع لمطلبه، بينما كان من جانب آخر يعاني من قلق، واضطراب شديدين على حياته التي كان يرى كيف تعبت بها يدُ القدر، وتكادُ تقضي عليها كما يقضي الخريف على

أوراق الشجر.

كما أن «عبدالمطلب» نفسه كان هو الآخر تتجاذبه قوتان متضادتان: قوة الايمان والعقيدة من جانب، وقوة العاطفة والمحبة الأبوية من جانب آخر، وقد أوجدت هذه الواقعة في نفسي هاتين الشخصيتين آثاراً مرّة يصعب زوالها، بيد أن تلك المشكلة حيث عولجت

بالطريقة التي ذكرناها ونجا «عبدالله» من الموت المحقق فكر «عبدالمطلب» فوراً في ان يغسل عن قلب «عبدالله» تلك المرارة الفاسية بزواج «عبدالله» بأمنة، وبذلك يقوي من عرى حياته التي بلغت درجة الانصرام، بأقوى السبل، وأمتن الوسائل.

ومن هنا توجه «عبدالمطلب» إلى بيت «وهب بن عبدمناف» - فور رجوعه من المذبح آخذاً بيد ولده عبدالله - وعقد لولده على «أمنة بنت وهب» التي كانت تُعرف بالعبقة، والطهر، والنجابة، والكمال.

كما أنه عقد لنفسه - في ذات المجلس - على «دلالة» ابنة عم أمينة، ورزق منها «حمزة» عم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والمشابه له في السن. (1)

غير أن الاستاذ المؤرخ «عبد الوهاب النجار» المدرس بقسم التخصص في الازهر الذي صحح «التاريخ الكامل» لابن الاثير، وعلق عليه بملاحظات وهوامش مفيدة شكك في صحة هذه الرواية، واستغربها، وقال: لأظن أنه يصح شيء في هذه الرواية، إذ المعقول أن يتريث «عبدالمطلب» بعد ذلك المجهود المضني حتى يريح نفسه ثم يذهب ليخطب لابنه. (2)

ولكننا نعتقد بأن المؤرخ المذكور لو نظر إلى المسألة من غير هذه الزاوية لسئل عليه التصديق بهذه الرواية.

ثم أن «عبدالمطلب» عيّن موعداً للزفاف، وعند حلول ذلك الموعد تمت مراسم الزفاف في بيت «أمنة» طبقاً لما كان متعارفاً عليه في قریش، ولبث

- [1] تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧ والمذكور في هذا المصدر «هالة» -
- 2- الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤، قسم الهامش.

«عبدالله» مع «أمنة» رداً من الزمن حتى سافر إلى الشام للتجارة، وعند عودته توفي أثناء الطريق كما ستعرف.

دور الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام:

لا شك أن التاريخ سجّل في صفحاته كل ما يتعلق بالشعوب والاقوام من نقاط مضيئة أو مظلمة، كقصص للعبرة والعظة.

ولكن الحب والبغض تارة والتساهل والبدعة تارة أخرى وحب اظهار المقدره وابرار القوة الأدبية تارة ثالثة وغير ذلك من العوامل والاسباب عملت عملها فتدخلت - في جميع الأدوار والعصور - في صياغة التاريخ، وخأطت الغث بالسمين والحقيقة بالخرافة، وتلك هي مشكلة كبرى تقع في طريق المؤرخ الذي يريد عرض حوادث التاريخ في أمانة وإستقامة، ولذلك يجب عليه أن يميز الحق عن الباطل، والصدق عن الكذب من خلال الأخذ بالموازين العلمية، والممارسة الكاملة للتاريخ. ولقد كان للعوامل المذكورة تأثير أيضاً في تدوين التاريخ الإسلامي، فالأيادي المريبة المشبوهة عملت على تحريف الحقائق في هذا المجال، بل وربما عمد

بعض الاصدقاء - بهدف تعظيم شأن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى نسبة بعض الأمور التي يظهر عليها آثار الاختلاق والإفتعال إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو منها بُراء.

فقد جاء في التاريخ أن نور النبوة كان يسطع في جبين «عبدالله» والد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - دائماً⁽¹⁾، كما نقرأ أن «عبدالمطلب» كان يأخذ بيد ولده «عبدالله» في سنين الجذب والقحط، ويصعد الجبل ويستسقي متوسلاً إلى الله بالنور الذي كان يبث في جبين «عبدالله»⁽²⁾ فهذا هو ما كتبه وسجله كثير من علماء الشيعة والسنة في مؤلفاتهم، ونحن لا نملك اي دليل على عدم صحته.

ولكن هذه القصة وقعت أساساً لبعض الاساطير التي لا يمكن ان نقبل بها مطلقاً

1- السيرة الحلبية: ج 1، ص 39.
2- الكامل في التاريخ: ج 2، ص 4.

(192)

واليك فيما يأتي ما الحق بهذه القضية التاريخية الثابتة.

قصة فاطمة الختعية:

و «فاطمة» هذه هي أخت «ورقة بن نوفل» الذي كان من حكماء العرب وكهّانهم، وكان له معرفة كبيرة بالإنجيل. وقد ضبط التاريخ حديثه مع خديجة في بدء بعثة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسوف نشير إليه في محله من هذا الكتاب.

وكانت «فاطمة» اخت «ورقة» قد سمعت من أخيها عن نبوة رجل من احفاد «اسماعيل»، ولهذا ظلت تنتظر، وتبحث.

و ذات يوم وعندما كان «عبدالمطلب» متوجها إلى بيت أمنة بنت وهب بعد قفوله ومنصرفه من المذبح وهو آخذ بيد «عبدالله»، شاهدت «فاطمة الختعية» - التي كانت تقف على مقربة من منزلها - النور الساطع من جبين «عبدالله»، والذي كانت تنتظره مدة طويلة وتبحث عنه بشوق، فقالت: اين تذهب يا عبدالله؟ لك مثل الإبل التي نجزت عنك، وقع على الأن.

فقال: أنا مع أبي ولا استطيع خلافه وفراقه. (1)!!

ثم تزوج «عبدالله» بأمنة في نفس ذلك اليوم، وقضى معها ليلة واحدة.

ثم في الغد من ذلك اليوم أتى المرأة «الختعية» التي عرضت نفسها عليه، وأبدى استعداده لتنفيذ رغبتها، ولكن «الختعية» قالت له: ليس لي بك اليوم حاجة، فلقد فارقك النور الذي كان معك أمس. (2)!!

وقيل: إنه لما عرضت تلك المرأة «الختعمية» على «عبدالله» ما عرضت أجابها «عبدالله» بالبداهة ببيتين من الشعر هما:

أما الحرام فالمماتُ ذوتُهُ * والجلُّ لآحلٍ فاستبينهُ

فكيف بالأمر الذي تبغينه * يحمي الكريمُ عرضَه ودينَهُ

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٥٦ النص والهامش.

(193)

ولكن لم تمر ثلاثة من زواجه بأمنة، واقامته عندها حتى دعته نفسه إلى ان يأتي الختعمية، و عرض نفسه عليها قائلاً: هل لك فيما كنت اردت؟ فقالت: لقد رأيت في وجهك نوراً فاردت ان يكون لي فابى الله الا أن يجعله حيث اراد فما صنعت بعدي؟

قال: زوّجني أبي «أمنة بنت و هب. (1)!!»

علام الاختلاق في هذه القصة!

لقد غفل مختلق هذه القصة عن أمور كثيرة عند صياغته لها، ولم يستطع اخفاء آثار الاختلاق عنها.

فلو كان يكتفي بالقول - مثلاً - بان «فاطمة» صادفت «عبدالله» ذات يوم في زقاق من الأزقة، أو سوق من الاسواق، وشاهدت نور النبي ساطعاً من طلعتة ففكرت في الزواج به رغبة في ذلك النور لكان من الممكن التصديق بهذه القصة، بيد أن نصّ القصة جاء بصورة لا يمكن القبول بها للأسباب التالية:

1- ان هذه القصة تفيد أن المرأة «الختعمية» عند ما عرضت نفسها على «عبدالله»، كانت يد «عبدالله» في يد والده «عبدالمطلب»،

فكيف يمكن ان تعرض تلك الفتاة نفسها عليه وتبين مطلوبها له ويدور بينهما ما يدور، ولا يحسّ عليهما عبدالمطلب؟!

ثم الم تستح من عظيم قريش «عبدالمطلب» الذي لم يثنه عن طاعة الله تعالى شيء حتى مقتل ولده وذبحه.

ولو قلنا أن مطلبها كان حلالاً مشروعاً فان ذلك لا ينسجم مع البيتين من الشعر اللذين ردّ بهما «عبدالله» طلبها.

2- والأصعب من ذلك قصة عبدالله نفسه. فان ولدأ مثل «عبدالله» يحترم والده إلى درجة الاستعداد لأن يُذبحَ وفاءً لنذر والده، كيف

يمكن أن يتفوّه في

حضرة والده بما نُقِلَ عنه؟!!

ترى أيمن لشاب نجا لتوّه من السيف والذبح، ولا يزال يعاني من آثار الصدمة الروحية أن يستجيب لرغبات امرأة، أو يبدي استعداداً ورضاه القلبيّ لذلك لولا وجود والده معه؟! ترى هل كانت تلك المرأة جاهلة بالظروف، لا تقدر الاحوال، ولا تعرف الوقت المناسب لطرح مطلبها، أو أنّ مختلق هذه القصة غفل عن نقاط الضعف البارزة هذه؟!!

ثم إن ممّا يفضح هذه القصة ويُظهر بطلانها ما جاء في الصورة الثانية لها، فان عبد الله - كما لا حظنا جابه طلب تلك المرأة ببنتين من الشعر وقال ما حاصله بأن الموت أسهل عليه من ارتكاب هذا الفعل الحرام الذي يأتي على دين الرجل وشرفه، فكيف يجوز لمثل هذا الشاب الطاهر الغيور أن يقع فريسة لتلك الأهواء، والرغبات الرخيصة الفاسدة، والحال انه لم ينقض من زواجه أكثر من ثلاث ليال، وتدفعه غريزته الجنسية إلى ان يبادر إلى بيت المرأة الخثعمية.

إنّ ما جابه به «عبدالله» دعوة تلك المرأة، وما جاء في ذينك البيتين من الشعر اللذين يطفحان بالغيرة، والإباء، لخير دليل على طهارة «عبدالله» وغبته، وتقواه، وترفعه عن الأثام والادران، وابتعاده عن الانجاس والادناس.

وقد علّق الاستاذ العلامة «النجار» على هذه الاسطورة بقوله: «ليس من المعقول أن يذهب عبدالله يبغى الزنا في الساعة التي تزوج فيها، ودخل فيها على امرأته.»

ولكن الاستاذ «النجار» أخطأ في تشكيكه في النور النبويّ الساطع في جبين «عبدالله» حيث قال معقّباً على كلامه السابق: «ولكنها مسألة النور في وجهه يريدون إثباتها ورسول الله غني عن هذا كله.⁽¹⁾»

فان ذلك ممّا رواه جميع المؤرخين بلا استثناء، فلا داعى ولا وجه للتشكيك فيه!

طهارة النبيّ من دنس الآباء وعهر الأمهات:

وينبغي هنا - وبالمناسبة - ان نشير إلى مسألة مهمة في تاريخ النبيّ الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ألا وهي طهارة النسب النبوي من دنس الآباء ودناءتهم وعهر الأمّهات وفسادهن فلا يكون في اجداده وجدّاته سفاح، وزنا.

وهذا ممّا اتفق عليه المسلمون، بعد ان دلّ عليه العقل إذ لو لم يكن النبيّ منزها عن دناءة الآباء وعهر الأمّهات لتنفّر عنه الطباع ولم يرغب احد في متابعتة، والانقياد لاوامره ونواهيّه.

ولقد صرح رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - بذلك في احاديث رواها السنة والشيعة.

فقد جاء عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال:

«نقلت من الاصلاب الطاهرة إلى الارحام الطاهرة نكاحاً لا سفاحاً. (1)»

وجاء ايضاً انه - صلى الله عليه وآله وسلم - قال:

«لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسينية إلى الأرحام الطاهرة. (2)»

وقال الإمام امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - :

«وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله وسيّد عباده كلما نسخ الله الخلق فرقتين جعله في خيرهما لم يسهم فيه عاهرٌ، ولا ضرب فيه فاجرٌ. (3)»

وقال الإمام الصادق - عليه السلام - في هذا الصدد عند تفسير قول الله تعالى: **وَتَقَلَّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ**(4):

«في أصلاب النبيّين، نبي بعد نبي، حتّى اخرجه من صلب ابيه عن نكاح غير سفاح من لدن آدم. (5)»

وقد صرح علماء الإسلام من الفريقين بهذا الأمر، واشترطوه في النبيّ.

-
- [كنز الفوائد: ج ١، ص ١٦٤.
 - 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤٣.
 - 3 نهج البلاغة: الخطبة ٢١٥، طبعة عيده.
 - 4 الشعراء: ٢١٩.
 - 5 تفسير مجمع البيان عند تفسير الآية.

قال المحقق نصير الدين الطوسي في تجريد الاعتقاد: ويجب في النبيّ العصمة... وعدم السهو، وكل ما ينقُر عنه من دناءة الآباء وعهر الأمّهات. (1)...

وقد وافقه على هذا العلامة القوشجي الاشعري في شرح التجريد. (2)

وقال العلامة المتكلم المقداد السيوري في اللوامع الإلهية: ويجب أن لا يكون مولوداً من الزنا ولا في آبائه دنى ولا عاهر. (3)

وفاة عبد الله في «يثرب»»

لقد بدأ «عبدالله» بالزواج فصلاً جديداً في حياته، وأضاء ربوعها بوجود شريكة للحياة في غاية العفة والكمال هي زوجته الطاهرة «أمنة» وبعد مدة من هذا الزواج المبارك توجه في رحلة تجارية - وبصحبة قافلة - إلى الشام بهدف التجارة.

دقت أجراس الرحيل، وتحركت القافلة التجارية وفيها عبدالله، وبدأت رحلتها من «مكة» صوب الشام، وهي مشدودة بمئات القلوب والأفئدة.

وكانت «أمنة» تمر في هذه الايام بفترة الحمل، فقد حملت من زوجها «عبدالله». »

وبعد مضي بضعة أشهر طلعت على مشارف مكة بوادر القافلة التجارية وهي عائدة من رحلتها، وخرج جمع كبير من أهل مكة لاستقبال ذويهم المسافرين العائدين. ها هو والد «عبدالله» ينتظر - في المنتظرين - ابنه «عبدالله»، كما ان عيون عروسة ولده «أمنة» هي الأخرى تدور هنا وهناك تتصفح الوجوه وتبحث عن زوجها الحبيب «عبدالله» في شوق لا يوصف.

- 1 كشف المراد في شرح تجريد الاعتقاد: ص ٣٤٩ تحقيق الشيخ حسن زاده الأملّي.
- 2 راجع: شرح القوشجي لتجريد الاعتقاد: ص ٣٥٩.
- 3 اللوامع الإلهية: ص ٣١١.

ولكن ومع الأسف لا يجدان أثراً من «عبدالله» بين رجال القافلة!!

وبعد التحقيق يتبين أن «عبدالله» قد تمرّض أثناء عودته في يثرب، فتوقف هناك بين احواله لكي يستريح قليلاً، فاذا تماثل للشفاء عاد إلى أهله في «مكة». »

وكان من الطبيعي أن يغتم هذان المنتظران «عبدالمطلب وأمنة» لهذا النبأ، وتعلو وجهيهما آثار الحزن، والقلق وتحدّر من عيونهما دموع الأسى والاسف.

فأمّر «عبدالمطلب» أكبر ولده: «الحارث» إلى أن يتوجّه إلى «يثرب»، ويصطحب معه «عبدالله» إلى مكة.

ولكنه عند ما دخل يثرب عرف بأن أخاه: «عبدالله» قد توفي بعد مفارقة القافلة له بشهر واحد، فعاد الحارث إلى مكة، فاخبر والده «عبدالمطلب»، وكذا زوجته العزيزة «أمينة» بذلك، ولم يخلف «عبدالله» من المال سوى خمسة من الأبل، وقطيع من الغنم، وجارية تدعى «أم أيمن» صارت فيما بعد مربية النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧ و ٨، والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٥٠.

(198)

(199)

٥ مَوْلِدُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ

كانت سُحْبُ الجاهلية الداكنة تُعْطِي سماء الجزيرة العربية، وتمحي الاعمال القبيحة والممارسات الظالمة، والحروب الدامية، والنهب والسلب، ووأد البنات، وقتل الاولاد، كل فضيلة أخلاقية. في البيئة العربية وكان المجتمع العربي قد اصبح في منحدر عجيب من الشقاء، ليس بينهم وبين الموت إلا غشاء رقيق ومسافة قصيرة!!

في هذا الوقت بالذات طلع عليهم شمس السعادة والحياة فاضاءت محيط الجزيرة الغارق في الظلام الدامس، وذلك عندما اشرفت بيئة الحجاز بمولد النبي المبارك «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - وبهذا تهيأت المقدمات اللازمة لنهضة شعب متخلف طال رزوخه تحت ظلام الجهل، والتخلف، وطالت معاناته لمرارة الشقاء. فانه لم يمض زمن طويل الا وملا نور هذا الوليد المبارك ارجاء العالم واسس حضارة انسانية عظمية في كل المعمورة.

فترة الطفولة في حياة العظماء:

ان جميع الفصول في حياة العظماء جديرة بالتأمل، وقمينة بالمطالعة، وربما تبلغ العظمة في شخصية احدهم من السعة، والسمو بحيث تشمل جميع فصول حياته

(200)

بدء من الطفولة، بل وفترة الرضاع فتكون حياته وشخصيته برمتها سلسلة متواصلة من حلقات العظمة.

إن جميع الأدوار، والفترات في حياة العظماء، والنوابغ وقادة المجتمعات البشرية، ورواد الحضارات الإنسانية وبناتها تنطوي في الأغلب على نقاط مثيرة وحساسة وعلى مواطن توجب الاعجاب.

إن صفحات تاريخهم وحياتهم منذ اللحظة التي تنعقد فيها نفطهم في أرحام الأمهات، وحتى آخر لحظة من أعمارهم مليئة بالأسرار، زاخرة بالعجائب.

فنحن كثيراً ما نقرأ عن أولئك العظماء في أدوار طفولتهم أنهما كانت تقارن سلسلة من الامور العجيبة، والمعجزة.

ولو سهل علينا التصديق بهذا الامر في شأن الرجال العاديين من عظماء العالم لكان تصديقنا بأمثالها في شأن الانبياء والرسل اسهل من ذلك بكثير، وكثير.

إن القرآن الكريم ذكر فترة الطفولة في حياة النبي موسى - عليه السلام - في صورة محفوفة بكثير من الأسرار، فهو يقول ما خلاصته: ان مئات من الاطفال قُتلوا ودُبحوا بامر من فرعون ذلك العصر منعاً من ولادة موسى ونشوته.

ولكن ارادة الله شاءت ان يُولد الكليم، وظلت هذه المشيئة تحفظه من كيد الكائدين ولهذا لم يعجز اعداؤه عن القضاء عليه أو الحاق الاذى به فحسب، بل تربي في بيت فرعون اعدى اعدائه.

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد: **وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ**

فَأَلْقِيهِ الْيَمِّ بِالسَّاجِدِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي. (

ثم يقول): إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ. (1)

- [طه: ٣٧ - ٤٠.

(201)

ثم إن القرآن الكريم يذكر قصة ولادة المسيح، وبصور طفولته ونشأته بشكل أعجب إذ يقول:

(وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَدَّتْ مِنْ أهلكا مكاناً شرقياً. فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَاباً فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتُ تَقِيًّا قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا. قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا. قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىٰ هَيْئٍ وَنَجَعَلُهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا. فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَدَّتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا. فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَنْسِيًّا. فَنَادَاهَا مِنْ تَحْتِهَا أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَزِي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا حَنِيًّا. فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَمَا تَرِينَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي

نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا. فَاتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا. يَا أُخْتُ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ
أَمْرًا سَوْءًا وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَعْثًا. فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا. قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا.
وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَ الزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا. وَ السَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ
وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أَمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا. (1)

فإذا كان أتباع القرآن والتوراة والانجيل يشهدون بصحة هذه المطالب حول ولادة هذين النبيين العظميين من اولي العزم لموسى
وعيسى - عليهما السلام - ، ويقرون بصدقها، فلا يصح في هذه الصورة أن نستغرب وقوع أمثالها في شأن رسول الإسلام، ونتعجب
من الحوادث العجيبة التي سبقت أو رافقت ميلاده المبارك، ونعتبرها أموراً سطحية لا تدل على شيء.

فنحن نقرأ في الكتب التاريخية وفي كتب الحديث عن وقوع حوادث عجيبة

- 1مريم: ١٦ - ٣٣.

(202)

يوم ولادة النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - مثل: ارتجاس أيوان كسرى، وسقوط اربع عشرة شرفة منه، وانخمد نار فارس
التي كانت تُعبد، وانجفاف بحيرة ساوة، وتساقط الاصنام المنصوبة في الكعبة على وجوهها، وخروج نور معه - صلى الله عليه
وآله وسلم - اضاء مساحة واسعة من الجزيرة، والرويا المخيفة التي رآها انوشيروان ومؤبدوه، وولادة النبي - صلى الله عليه وآله
وسلم - مختوناً مقطوع السرة، وهو يقول: «ألله اكبر، والحمد لله كثيرا، سبحان الله بكرة وأصيلا.»

وقد وردت جميع هذه الامور في المصادر التاريخية الأولى، والجوامع الحديثية المعتمدة. (1)

ومع ملاحظة ما ورد في حق موسى وعيسى ونقلنا بعضه هنا، لا يبقى أى مجال للشك في صحة هذه الحوادث.

نعم ينبغي أن نسأل هنا: ماذا كانت تهدف هذه الحوادث غير العادية؟

وفي الاجابة على هذا السؤال يجب ان نقول:

إن هذه الحوادث الخارقة والعجيبة كانت تهدف إلى أمرين:

الأول: أن تدفع بالجبابة، والوثنيين وعبدة الاصنام إلى التفكير فيما هم فيه فيسألوا أنفسهم: لماذا انطفات نيرانهم التي طالما بقيت

مشتعلة تحرسها اعيان السدنة والكهنة؟

لماذا سببت هزة خفيفة في ارتجاس ايوان كسرى العظيم المحكم البنيان، ولم يحدث لبيت عجوز في نفس ذلك البلد شيء؟

لماذا تهاوت الاصنام المنصوبة في الكعبة وحولها، وانكبت على وجوها بينما بقيت غيرها من الاشياء على حالها لم يصبها شيء ابدأ؟

لو كانوا يفكرون في تلك الحوادث لعرفوا أن تلك الحوادث كانت تبشّر بعصر جديد... عصر انتهاء فترة الوثنية وزوال مظاهر السلطة الشيطانية

- [تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٥، بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٤٨ - ٣٣١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦٧ - ٧٨ وغيرها.

(203)

واندحارها؟

الثاني: ان هذه الحوادث جاءت لتبرهن على شأن الوليد العظيم، وانه ليس وليداً عادياً، فهو كغيره من الانبياء العظام الذين رافقت مولدهم أمثال تلك الحوادث العجيبة، والوقائع الغريبة، كما يخبر بذلك القرآن الكريم فيما يحدثه عن حياة الانبياء - كما عرفت - وتخبّر بها تواريخ الشعوب والملل المسيحية واليهودية.

واساساً لا يلزم ان تكون تلك الحوادث سبباً للعبادة ووسيلة للا تعاض يوم وقوعها، بل يكفي ان تقع حادثة في احدى السنين، ثم يعتبر بها الناس بعد أعوام عديدة، وقد كانت حوادث الميلاد النبوي من هذه المقولة، لأن الهدف منها كان هو ايجاد هزة في ضمائر أولئك الناس الذين كانوا قد غرقوا في احوال الوثنية، والظلم، والانحراف الاخلاقي حتى قمة رؤوسهم، وعشعشت الجهالة والغفلة في اعماقهم حتى النخاع.

إن الذين عاشوا في عصر الرسالة، أو من اتى من بعدهم عندما يسمعون نداء رجل نهض - بكل قواه - ضد الوثنية، والظلم، ثم يطالعون سوابقه، ويلاحظون إلى جانب ذلك ما وقع ليلة ميلاده من الحوادث العظيمة التي تتلاءم مع دعوته، فانهم ولا شك سيعتبرون تقارن هذين النوعين من الحوادث دليلاً على صحة دعواه، وصدق مقاله فيصدقونه، وينضون تحت لوائه.

إن وقوع أمثال هذه الحوادث الخوارق عند ميلاد الانبياء مثل «إبراهيم» و «موسى» و «المسيح» و «محمد» صلى الله عليه وعليهم اجمعين لا يقل اهمية عن وقوعها في عصر رسالتهم ونبوتهم، فهي جميعاً تنبع من اللطف الالهي، وتتحقق لهداية البشرية، وجذبها إلى دعوة سفرائه ورسله.

في أي يوم وُلدَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - ؟

لقد اتَّفَقَ عَامَّةُ كُتَّابِ السِّيرَةِ عَلَى أَنَّ وِلَادَةَ النَّبِيِّ الْكَرِيمِ كَانَتْ فِي عَامِ الْفِيلِ سَنَةَ ٥٧٠ مِيلَادِيَّةً.

لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - رحل إلى ربه عام (٦٣٢) ميلادية عن (٦٢))

(204)

أو (٦٣) عاماً، وعلى هذا الأساس تكون ولادته المباركة قد وقعت في سنة (٥٧٠) ميلادية تقريباً.

كما أنَّ أكثرَ المحدثين والمؤرخين يتفقون على أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وُلدَ في شهر ربيع الأول.

انما وقع الخلاف في يوم ميلاده، والمشهور بين محدثي الشيعة أنه كان يوم الجمعة السابع عشر من شهر ربيع الأول بعد طلوع الفجر.

والمشهور بين أهل السنة أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وُلدَ في يوم الاثنين الثاني عشر من ذلك الشهر. (١)

أَيُّ هَذَيْنِ الْقَوْلَيْنِ هُوَ الصَّحِيحُ؟

ان من المؤسف جداً أن يعاني التقويم الدقيق لميلاد رسول الإسلام العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - ووفاته بل مواليده ووفيات أكثر قاداتنا وائمنا لمثل هذا الارتباك، وان لا تكون اوقاتها وتواريخها محددة معلومة على وجه التحقيق واليقين!

ولقد تسبب هذا الارتباك في أن لا تستند أكثر احتفالاتنا ومآمننا إلى تاريخ قطعي، في حين نجد أن علماء الإسلام كانوا يهتمون - عادة بتسجيل الوقائع التي حدثت على مدار القرون الإسلامية في نظم خاص وعناية كبيرة، ولكننا لا ندري ما الذي منع من تسجيل مواليده هذه الشخصيات العظيمة ووفياتهم على نحو دقيق، وصورة قطعية؟!

على أن مثل هذه المشكلة يمكن حلها بدرجة كبيرة بالرجوع إلى أهل البيت - عليهم السلام - ، فان اي مؤرخ لو أراد ان يكتب عن حياة شخصيّة من الشخصيات و اراد أن يُلمَّ بكل تفاصيلها ودقائقها لم يسمح لنفسه بان يفعل ذلك من دون ان يراجع ابناء أو اقرباء تلك الشخصية التي يزعم ترجمتها والكتابة عنها.

- [وقد ذكر المقرئ في «الامتاع» ص ٣ جميع الاقوال المذكورة في يوم ميلاد النبي وشهره وعامه، فراجع.

(205)

ولقد مضى رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخلف من بعده ذرية وقربى وهم الذين يطلق عليهم اهل البيت.
واهل بيته يقولون: لو كان صحيحاً وحقا ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أبونا وجدنا، وقد نشأنا في بيته وترعرعنا في حجره فاننا نقول انه قد ولد يوم كذا وتوفي يوم كذا فهل يبقى بعد ذلك مجال لأن نتجاهل قولهم ورأيهم، ونختار ما يقوله الآخرون من الأبعدين، وقديماً قالوا: أهل البيت ادرى بما في البيت؟⁽¹⁾

فَتْرَةُ الْحَمْلِ:

المعروفُ أن النورَ النبويَّ الشريف استقر في رحم أمنة - الطاهر في ايام التشريق وهي اليوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر من شهر ذي الحجة⁽²⁾، ولكن هذا الامر لا ينسجم مع الرأي المشهور بين عامة المؤرخين من كون ولادة النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في شهر ربيع الأول، إذ في هذه الصورة يجب ان نعتبر مدة حمل «أمنة» به - صلى الله عليه وآله وسلم - إما ثلاثة أشهر واما سنة وثلاثة اشهر، وكلا الامرين خارجان عن الموازين العادية في الحمل، كما أنه لم يعدة احدٌ من خصائص النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .⁽³⁾

ولقد عالج المحقق الكبير الشهيد الثاني (٩١١ - ٩٦٦ هـ) هذا الإشكال بالنحو التالي إذ قال:

إن ذلك مبنيٌّ على النسبِ الذي كانوا يفعلونه في الجاهلية، وقد نهى الله تعالى عنه، وقال: «إنما النسبُ زيادةٌ في الكُفْرِ. »

وتوضيح هذا هو أن أبناء «إسماعيل» كانوا تبعاً لاسلافهم يؤدون مناسك الحج في شهر ذي الحجة، ولكنهم رأوا - في ما بعد - أن يحجوا في كل شهر عامين

- [ومن هنا لا بد من الاعتراف بان ما ينقله ويكتبه الامامية من تفاصيل تتعلق بحياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هي اقرب من غيرها إلى الحقيقة لأنها مأخوذة عن اقربائه وابنائهم - عليهم السلام - .
- 2الكافي: ج ١، ص ٤٣٩ أبواب التاريخ باب مولد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ووفاته.
- 3 ذكر الطريحي فقط في مجمع البحرين في مادة شرق قولاً بهذا لم يُسم قائله.

يعنى ان يحجوا في ذي الحجة عامين وفي المحرم عامين وفي صفر عامين وهكذا.

وهذا يعني أن الحج يعود كل اربعة وعشرين سنة في موضعه الطبيعي (اي شهر ذي الحجة).

وقد جرى العربُ المشركونَ على هذه الطريقة حتى صادفت أيام الحج شهر ذي الحجة في السنة العاشرة من الهجرة النبوية فحج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك السنة حجة الوداع، فنهى في خطبة له عن هذه الفعلة (التي تسمى بالنسيء بمعنى تأخير

الحج عن موضعه وموعده) فقال: «ألا و إنَّ الرِّمَانَ قد استدارَ كهَيْئتهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ السَّنَةَ إِثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ: ثَلَاثٌ مَتَوَالِيَاتٌ: ذُو الْقَعْدَةِ وَ ذُو الْحِجَّةِ، وَ مُحَرَّمٌ، وَ رَجَبٌ الَّذِي بَيْنَ جَمَادِي وَ شَعْبَانَ.»⁽¹⁾

وقد أراد - صلى الله عليه وآله وسلم - بذلك أن الأشهر الحرم رجعت إلى مواضعها، وعاد الحُج إلى ذي الحجة وبطل النسيء. ونزل في هذه المناسبة قول الله تعالى: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحَلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا.**⁽²⁾

من هنا تنتقل أيام التشريق كل سنتين من مواضعها، على ما عرفت، وحينئذ لا منافاة بين القول بأن نور النبي انتقل إلى رحم أمه «أمنة بنت وهب» في أيام التشريق، وبين ما اجمع عليه عامة المؤرخين من أنه وُلد في شهر ربيع الأول. وانما تكون المنافاة بين هذين الأمرين إذا كان المراد من أيام التشريق هو اليوم الحادي عشر، والثاني عشر، والثالث عشر من شهر ذي الحجة خاصة، ولكن قلنا ان أيام التشريق كانت تنتقل من شهر إلى آخر باستمرار، فيلزم أن يكون عام حمل أمه به، و عام ولادته أيام الحج الواقعة في شهر جمادى الأولى، وحيث أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وُلد في شهر ربيع الأول فتكون مدة حمل «أمنة» به عشرة أشهر تقريباً.

- 1 مجمع البيان: ج ٥، ص ٢٩.
- 2 التوبة: ٣٧.

(207)

مُؤَاخَذَاتٌ وَإِشْكَالَاتٌ عَلَى هَذَا الْبَيَانِ:

إن النتيجة التي توصل إليها المرحوم «الشهيد الثاني» ليست صحيحة، كما أن المعنى الذي ذكره للنسيء لم يقل به من بين المفسرين إلا مجاهد، واما الآخرون فقد فسروه بنحو آخر فلا يكون التفسير الذي مرَّ قوياً، وذلك:

أولاً: لأن «مكة» كانت مركزاً لجميع الاجتماعات كما كانت معبداً للعرب جميعاً، ولا يخفى أن تغيير الحج في كل سنتين مرة واحدة من شأنه أن يسبب الالتباس لدى الناس ويوقعهم في الخطأ والاشتباه، وبالتالي يتعرّض ذلك الاجتماع العظيم، وتلك العبادة الجماعية إلى خطر الزوال.

ولهذا يُستبعد ان ترضى قريش والمكيون بان يخضع ما هو وسيلة لعزتهم وافتخارهم للتغيير والتبدل الذي من عواقبه ان يتعرض وقته وموعده للنسيان، فيذهب ذلك الاجتماع، ويزول من الاساس.

ثانياً: إذا أخضعنا ما قاله «الشهيد الثاني» لمحاسبة دقيقة فان كلامه يستلزم ان تكون ايام التشريق والحج في السنة التاسعة من الهجرة واقعة في شهر ذي القعدة لا جمادى الاولى في حين ان امير المؤمنين علياً - عليه السلام - كُلف في هذه السنة بالذات بأن

يقرأ سورة البراءة على المشركين في ايام الحج، والمفسرون والمحدثون متفقون على أنه - عليه السلام - تلاها عليهم في العاشر من شهر ذي الحجة ثم امهلهم اربعة اشهر ابتداء من شهر ذي الحجة لا ذي القعدة. (1)

ثالثاً: ان النسيء يعني أنّ العرب حيث لم يكن لديهم مصدر صحيح للرزق بل كانوا يعيشون في الاغلب، على النهب والغارة لهذا كان من الصعب عليهم ترك الحرب، في الاشهر الحرم الثلاث (وهي ذوالقعدة وذوالحجة، والمحرم) لهذا ربما طلبوا من سدنة الكعبة بأن يسمحوا لهم بالقتال في شهر المحرم، ثم يتركون

- [ولقد قام العلامة المجلسي في بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٥٣ بهذه المحاسبة، وان لم يشر إلى الإشكال الذي أوردناه فليراجع.

(208)

الحرب في شهر صفر، وهذا هو معنى النسيء فلم يكن نسيء وتأخير للشهر الحرام في غير شهر محرّم، وفي الآية نفسها إشارة إلى هذا المطلوب: «يُجَلِّوْهُ عَاماً وَ يُحَرِّمُوْهُ عَاماً.»

والذي نراه في حل هذه المشكلة هو: أن العرب كانوا يحجّون في وقتين: أحدهما شهر ذي الحجة، والثاني شهر رجب، وقد كانوا يؤدّون كلّ مناسك الحج في هذين الوقتين على السواء، فيمكن أن يكون المقصود من حمل «أمنة» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ايام التشريق هو شهر رجب فإذا اعتبرنا يوم ولادته هو السابع عشر من شهر ربيع الاول كانت مدة حمل «أمنة» به ثمانية أشهر وإياماً.

الاحتفال بذكرى المولد النبوي:

وينبغي ان يحتفل المسلمون جميعاً بمولد النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وقيموا المهرجانات الكبرى في هذه المناسبة الشريفة التي كانت مبدأ الخير والبركة، ومنشأ السعادة والكرامة للبشرية جمعاء، وأية مناسبة اخرى بالاحتفال والاحتراف من هذه المناسبة؟

على ان اقامة مثل هذه الاحتفالات هو نوع من تكريم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو امر مطلوب ومحبيب في الشريعة المقدسة.

فقد قال الله تعالى:

(فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَ عَزَّوْهُ وَ نَصَرُوْهُ وَ اتَّبَعُوا النُّوْرَ الَّذِي اُنزِلَ مَعَهُ اُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (4))

وعزّر بمعنى كَرَّمَ وبجَلَّ كما في اللغة⁽²⁾ وهو لا يختص بزمان دون زمان، فعلى المسلمين في كل وقت وزمان ان يعظّموا شأن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويكرّمونه، سواء في حياته أو بعد مماته، لما له من فضل عظيم على الناس، ولما

- [الأعراف: ١٥٧].
- 2 راجع مفردات الراغب: مادة عزز.

(209)

له من منزلة عند الله تعالى.

كيف لا والاحتفال بميلاده لا يعني سوى ذكر أخلاقه العظيمة، وسجاياه النبيلة، والاشادة بشرفه وفضله وهي أمور مدحه القرآن الكريم بها إذ قال سبحانه: **وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**⁽¹⁾ (وقال تعالى أيضاً) **وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ**⁽²⁾ (وغير ذلك من الآيات المادحة لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فان الاحتفال بميلاد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي يتحقق بذكر صفاته وأخلاقه والاشادة به خير مصداق لرفع ذكره، الذي فعله الله بنحوماً.

ولو كان رفع ذكر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أمراً غير جائز ولا صحيح، بل فعلاً قبيحاً لما فعله الله، فيكفي في حسنه وصحته بل ومشروعيته ومطلوبيته ان الله تعالى فعله بالنسبة لنبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وهل يكون الاحتفال بمولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، واطهار السرور والشكر لله تعالى بمقدم نبيه المبارك عبادة للنبي كما يزعم البعض إذ يقول:

«الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم.»⁽³⁾

والحال ان العبادة في مفهومها الاصطلاحي الموجب للشرك والكفر ليس إلا الخضوع لمن يُعْتَقَدُ بالوهيته وتعظيمه بهذه النية⁽⁴⁾ وابن هذا من ذكر فضائل النبي في يوم مولده والابتهاج بمقدمه والشكر لله على ولادته.

ثم ان تعظيم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينطلق من كونه عبداً مطيعاً لله تعالى، ادى رسالته بصدق واخلاص، وجسد بسلوكه وسيرته كل مكارم الاخلاق اصدق تجسيد فالاحتفال بمولده الكريم احتفال بالقيم السامية، وشكر لله على منته، واطهار للحب الكامن في النفوس ليس إلا.

والزعم بانّه محرّم لكونه بدعة، أو لأنه لا يخلو عن اشتماله على منكرات

-
- 1 القلم: ٤ .
2 الانشراح: ٤ .
3 فتح المجيد: ص ١٥٤ ، ثم نقل عن كتاب قرة العيون ما يشابه هذا المضمون.
4 راجع مفاهيم القرآن في معالم التوحيد: ص ٤٠٤ - ٤٤٠ .
-

(210)

ومحرمات كالرقص والغناء فهو مرفوض، مردود لان الكلام انما هو حول اصل الاحتفال مجرداً عن المحرمات والمنكرات.

ان الاحتفاء والاحتفال بمولد خاتم النبيين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انما هو تكريم لمن كرمه الله تعالى، وامر بتكريمه، وحث على احترامه وحبه، ومودته، وانه بالتالي اداء شكر لله تعالى على تلك الموهبة العظيمة، وتلك العطية المباركة حيث منَّ سبحانه على البشرية عامة وعلى المسلمين خاصة بأن شرف الارض بمولد عظيم نعمت الارض ببركة شخصيته وخلقه، واشرقت بنور رسالته ودعوته، فاية نعمة ترى اولى بالشكر من هذه، واي شكر اجمل وافضل من الأحتفاء بمولد هذا النبي العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وذكر فضائله، ومناقبه، للتعرف عليها، والافتداء بها، وتشديد الحب له بسببها، والابتهاج إلى الله في يوم ميلاده، وطلب التوفيق الالهي لمتابعته، والسير على نهجه، والدفاع عن رسالته، والذبّ دون دينه، بعد الشكر لله تعالى على موهبته هذه؟؟

هذا ولقد درج المسلمون في العصور الإسلامية الاولى على الاحتفال بذكرى المولد النبوي وأنشأوا القصائد الرائعة في مدحه، وذكر خصاله ومكارم اخلاقه، واطهروا السرور بمولده والشكر لله تعالى بلطفه، وتفضله به - صلى الله عليه وآله وسلم - على البشرية.

قال الإمام الديار بكري في تاريخ الخميس في هذا الصدد:

لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده - عليه السلام - ويعملون الولائم، ويتصدقون في لياليه بانواع الصدقات ويظهرون السرور، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. (1)

اجل ينبغي على المسلمين ان يحتفلوا بمقدم نبيهم الكريم ولا يعبأوا بما قاله البعض حيث قال: «الذكريات التي ملأت البلاد باسم الاولياء هي نوع من

- [تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس: ج ١، ص ٢٢٣ نقلا عن المواهب اللدنية: ج ١، ص ٢٧ للقسطلاني.

(211)

العبادة لهم وتعظيمهم. (1)»

فهذا القول مغالطة صريحة، ان لم يكن نابعاً عن الغفلة والجهل بعد ان تبين حقيقة الاحتفال واقامة الذكريات احتفاء بالمولد النبوي. (2)

مَرَّاسْمُ تَسْمِيَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ:

حلَّ اليومُ السابعُ من الميَلاَدِ المباركَ، فعقَّ عبدالمطلب عن النبيِّ بكبشٍ شكراً لله تعالى ودعا جماعة ليَشترَكوا في الاحتفال الذي حضره عامة قريش لتسمية النبيِّ، وسماه «محمَّداً»، وعندما سألوه عما حمَّله على أن يسمي هذا الوليد المباركَ «محمَّداً» وهو اسم

لم يعرفه العرب الاندراً أجاب قائلاً: أردتُ أن يحمد في السماء والأرض. (3)

والى ذلك يشير حسان بن ثابت بقوله:

فَشَقَّ لَهُ مِنْ إِسْمِهِ لِجَلَّةُ فُدُفَاءَ وَالْعَرْشِ مَحْمُودٌ وَ هَذَا مُحَمَّدٌ (4)

ومن المسلم أن هذا الإختيار لم يكن ليتم من دون دخالة للإلهام الالهي، لأن اسم «محمَّد» وإن كان موجوداً عند العرب إلا أنه قلَّ من كان قد تسمى بهذا الإسم، فحسب ما استقصاه بعضُ المؤرخين لم يتسم به إلى ذلك اليوم من العرب إلا ستة عشر شخصاً كما يقول شاعرهم:

إِنَّ الَّذِينَ سَمُّوا بِاسْمِ مُحَمَّدٍ مِنْ قَبْلِ خَيْرِ الْخَلْقِ ضِعْفُ ثَمَانٍ (5)

ولا يخفى أن نُدرة المصاديق لأي لفظ من الالفاظ أو اسم من الأسماء من شأنها أن تقلل فرص الاشتباه فيه، وحيث أن الكتب السماوية كانت قد أُخبرت عن إسم النبي الخاتم - صلى الله عليه وآله وسلم - وصفاته، وعلائمه الرُوحية والجسمية، لذلك يجب أن تكون علائمه - صلى الله عليه وآله وسلم - واضحة جداً

-
- 1 هوامش الفتح المجيد.
 - 2 راجع للتوسع: معالم التوحيد في القرآن الكريم.
 - 3 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٧٨ و ٧٩.
 - 4 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٢٠، والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٧٨ و ٧٩.
 - 5 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٢ ثم يذكر صاحب السيرة أولئك الأشخاص في بيئتين آخرين.

(212)

حتى لا يتطرق إليها التباسٌ أو اشتباهٌ، وقد كان من علائمه - صلى الله عليه وآله وسلم - اسمه الشريف، فيجب أن تكون مصاديقها قليلة جداً حتى يزيل ذلك أي عروض للشك والترديد في تشخيص النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - خاصة إذا ضمَّت إليه بقية أوصافه وعلائمه، وخصوصياته.

خَطَأُ الْمُسْتَشْرِقِينَ:

لقد ذكر القرآن الكريم اسمين أو عدة أسماء للنبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ففي سورة آل عمران ومحمد والأحزاب والفتح في الآيات ١٤٤ و ٢ و ٤٠ و ٢٩ (1) سماه «محمدًا» (2)»

وفي سورة الصف الآية ٦ (3) دعاه «أحمد» .»

والعلة في تسميته بهذين الاسمين أن أمه «أمنة» سمته «أحمدًا» قبل أن يسميه جده، كما هو مذكور في التاريخ.

وعلى هذا فإن ما ذكره بعض المستشرقين - في معرض الاعتراض - بأن الإنجيل - حسب تصريح القرآن الكريم في سورة الصف الآية ٦ - بشر بنبي اسمه «أحمد» لا «محمد» كلام لا أساس له ولا مبرر، لأن القرآن الكريم الذي سمي نبينا بـ «أحمد» سماه في عدة مواضع بـ «محمد» فإذا كان المصدر في تعيين اسم النبي هو: القرآن الكريم، فإن القرآن سمّاه بكلا الاسمين، في موضع باسم

- [يعتقد البعض أن هذا ليس اسماً للنبي صلى الله عليه وآله بل هو من الحروف المقطعة في القرآن. - 2 قال تعالى: **وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ.** () وقال تعالى: **وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ.** () وقال سبحانه: **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ.** () وقال عز وجل: **مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ.** () - 3 إذ قال سبحانه: **وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ.** ()

(213)

«محمد»، وفي موضع آخر باسم «أحمد» .»

«أحمد» كان من أسماء النبي المشهورة:

كل من كان له ادنى إمام بتاريخ النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - علم أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يُدعى بإسمين

في الناس منذ صغره أحدهما: «محمد» الذي سمّاه به جده «عبدالمطلب»، والآخر «أحمد» الذي سمته به أمه «أمنة» .»

وهذه حقيقة من حقائق التاريخ الإسلامي، وقد روى المؤرخون هذا الأمر، ويمكن للقاريء الكريم أن يقرأه في السيرة الحلبية. (1)

ولقد أنشأ عمه «أبو طالب»، الذي أنيطت إليه كفالته بعد وفاة عبدالمطلب، فبقي يقوم بهذه المهمة طوال اثنين وأربعين عاماً بكل

حرص ورغبة، ولم يمتنع في هذا السبيل عن بذل كل ما استطاع من غال ورخيص انشأ في ابن أخيه أبياتاً سمّاه في بعضها «محمد»

وفي بعضها الآخر «أحمد»، وهذا يكشف عن انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان معروفاً آنذاك بكلا الاسمين.

واليك فيما يأتي بعض هذه الأبيات التي سمى فيها «أبو طالب» النبي باسم احمد:

1- إن يُكُنْ ما أتى به أحمدُ اليوم * سناءً وكانَ في الحشر ديناً

2-وقوله لأحمد أنت أمرء * خلوف الحديث ضعيف النسب

3-وإن كان أحمد قد جاءهم * بحق ولم يأتيهم بالكذب

4-أرادوا قتل أحمد ظالموه * وليس بقتلهم فيهم زعيم

5-ألا إن خير الناس نفساً والداً * إذا غد سادات البرية أحمد

6-فلسنا وبيت الله نسلم أحمداً * لعزاء من عض الزمان ولا كرب(2)

وقد سمي «أبو طالب» النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ابیات اخرى بأحمد

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٢ و ٨٣.
- 2ديوان أبي طالب عليه السلام.

(214)

أيضاً قد ذكرها كبار المحققين من المؤرخين والمحدثين ونسبوا إلى أبي طالب ولكنها غير موجودة في ديوانه. (1)

كما وأنه قد سمّاه غير أبي طالب في أبياته بأحمد مما يدل على أنه كان مشتهراً بهذا الاسم في ذلك الزمان، وتلك الابيات كثيرة تفوق حدّ الحصر والاحصاء لكننا ننقل نماذج منها هنا:

قال حسان بن ثابت في رثائه للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

مفجعةً قد شفها فقد أحمد * فطلت لآلاء الرسول تُعدُّ

أطالت وقرفاً تذرّف العين جُهدها * على طلل القبر الذي فيه أحمد(2)

وقال في رثائه أيضاً:

صلى الاله ومن يُحيق بعرشه * والطيبون على المبارك احمد(3)

وقال في رثاء جعفر بن أبي طالب الطيّار:

فمن كان أو يكون كأحمد * نظام الحق أو نكال لملحد(4)

وقال حسّان وهو يذكر معجزة من معاجز النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

ففي كفّ أحمد قد سبّحت * عُيون من الماء يوم الظم(5)

وقال كعبُ بن مالك:

فهذا نبيُّ الله أحمَدُ سَبَّحت * صِغارُ الحصى في كَفِّه بالترنم⁽⁶⁾

وقال «ورقة بن نوفل» يومَ أُخبرتهُ خديجةُ بنزول الوحي على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

- [مثل قوله:

لعمري لقد كلفْتُ وُجداً بأحمد * وأحبُّنُهُ حُبَّ الحبيبِ المواصلِ

زعمتُ قريشٌ أن أحمَدُ ساحرٌ * كذِبْتُ وَرَبِّ الراقصاتِ إلى الحرم
راجع ديوان أبي طالب، وسيرة ابن هشام: ج ١، ص ٢٧٢، وشرح النهج لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٧٩ وغيرها.
(2) و (٣) ابن هشام في سيرته: ج ٢، ص ٦٦٧ و ٦٦٦، وابن سعد في طبقاته: ج ٢، ص ٣٢٣.
4-شاعر عهد الرسالة: تحقيق محمَّد عزت نصر الله.
(5) و (٦) بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٤١٣ و ٤١٥.

(215)

فإنَّ بكَ حقاً يا خديجةُ فاعلمي * حديثك إيانا فاحمدُ مُرسل⁽¹⁾

وقالت عاتكة بنتُ عبدالمطلب ترثي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - :

يا عينُ جُودي ما بقيتِ بعبرة * سحاً على خير البرية أحمَد⁽²⁾

وقال العباسُ في مناسبة تزويج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بخديجة:

أحمَدُ سيِّدُ الورى * خير ماشٍ وراكِب⁽³⁾

فَتْرَةُ الرِّضَاعِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

:

لم يرتضع وليدُ قريش المبارك «محمَّد» من أمه سوى ثلاثة أيام، ثم حَطَّبتِ بفخر إرضاعه - بعد ذلك - امرأتانُ هما:

« - [ثويبة «مولاة «أبي لهب»، وقد أرضعته أربعة أشهر فقط، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وزوجته الوفية: «خديجة

بنت خويلد» يقدران هذا العمل لها حتَّى آخر لحظات حياتها. (4)

و «ثويبة» هذه كانت قد أرضعَتْ قَبْلَ ذلك «حمزة» عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - و «ابا سلمة بن عبد الله المخزومي»

أيضاً فكانوا إخوة من الرضاعة. (5)

وقد بعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد مبعثه، من يشتريها من «أبي لهب» ليعتقها فابى. (6)

وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يكرمها كلما دخلت عليه، وكان يبعث إليها بالصلة إلى أن بلغه خبر وفاتها عند منصرفه من وقعة «خيبر» فسأل عن ابنها فقيل: مات قبلها، فسأل عن قرابتها، فقيل: لم يبق منهم أحد. (7)

« 2- حليلة السعدية » بنت ابي ذؤيب التي كانت من قبيلة سعد بن بكر بن هوازن، وكان اولادها عبارة عن: «عبدالله»، «أنيسة»، «شيماء»، وقد

-
- [بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٥.
 - 2 الطبقات الكبرى: ج ٢، ص ٣٢٦.
 - 3 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٧٢.
 - 4 تاريخ الخميس في احوال انفس نفيس: ج ١، ص ٢٢٢.
 - 5 السيرة النبوية: ج ٣، ص ٩٦.
 - 6 الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٢٧١.
 - 7 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٢٥ نقلا عن سيرة مغلطاي وغيره.

(216)

قامت آخر اولادها وهي «الشيماء» بحضانة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أيضاً:

وقد كان من عادة العرب يومذاك هو أن يدفعوا اولادهم الرضعاء إلى المراضع اللاتي كُنَّ يَعِشْنَ في البوادي لينشأوا في تلك البيئات المعروفة بطيب هوائها، وقلة رطوبتها، وعذوبة مائها ببنية قوية، هذا مضافاً إلى صيانتهم عن خطر الوباء الذي كان يهدد الأطفال في «مكة»، ولأن ذلك كان له مدخلٌ عظيم، وتأثيرٌ بليغ في فصاحة المولود لسلامة لغة أهل القبائل الساكنة في البوادي آنذاك.

وكانت مراضع بني سعد من المشهورات بهذا الأمر بين العرب، فقد كانت نساء هذه القبيلة التي كانت تسكن حوالي «مكة» ونواحي الحرم بأئين «مكة» في كل عام في موسم خاص يلتمسن الرضعاء ويذهبن بهم إلى بلادهن حتى تتم الرضاعة.

وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تجاوز شهره الرابع لما قدمت نساء من بني سعد «مكة» يلتمسن الرضعاء في سنة جذب وقط، ولهذا كُنَّ بحاجة شديدة إلى مساعدة أشراف «مكة» واعيانها.

ويقول بعض المؤرخين: إنه لم تقبل أية واحدة من تلك المراضع أن تأخذ «محمداً» بسبب يتمه، وقد كان اغلبهن يُرَدْنَ أن يأخذن من يكون له أبٌ حيٌّ حتى يُغدق عليهنَّ بالمساعدات والصلات، وحتى «حليمة» هي الأخرى أبنتُ أخذة، ولكنها أيضاً لم تحصل على طفل لهُزال جسمها، فاضطرت إلى أن تأخذ حفيد «عبدالمطلب» وقالت لزوجها: والله لأذهبنَّ إلى ذلك اليتيم فلاخذنَّه، فقال لها زوجها: لا عليك ان تفعلي، عسى الله ان يجعل لنا فيه بركة.

ولقد اصاب الزوجان في ظنهما هذا، فمنذ أن أبدت «حليمة» استعدادها لخدمة ذلك اليتيم شملت اللطاف الالهية كل مجالات حياتها. (1)

إن القسم الأول من هذه القصة ليس سوى اسطورة، لأن مكانة البيت

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٦٢ و ١٦٣.

(217)

الهاشمي الرفيعة، وشخصية رجل عُرفت بكمال الجود والاحسان، وبعون المحتاجين والمحرومين كانت سبباً في أن لا تعرض المرضعات عن اخذ «محمّد» فحسب، بل يتنازع على اخذه ولهذا لا يكون هذا القسم من التاريخ سوى اسطورة تكذبها الحقائق. واما علة عدم اعطائه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى غير «حليمة» من المرضعات فهي: أن وليد قريش لم يقبل أيّ ثدي من أئداء تلكم المرضعات، ولم يزل كذلك حتّى قبل ثدي «حليمة السعدية»، فسرّ بذلك «عبدالمطلب» وأهله سروراً عظيماً، بعد أن حزنهم امتناعه عنهم قبل ذلك. (1)

قالت «حليمة»: استقبلني عبدالمطلب فقال: من انت، فقلت: أنا امرأة من بني سعد، قال: ما أسمك؟ قلت: حليمة، فتبسّم «عبدالمطلب» وقال: بَخِ بَخِ سَعْدٌ وَحَلْمٌ، خصلتان فيهما خيرُ الدهر، وعز الأبد. (2)

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع:

وهنا ينبغي بالمناسبة أن نشير إلى نظرة الإسلام في تأثير الرضاع في شخصيّة الإنسان.

فقد سبق الإسلام العلم الحديث في الكشف عن آثار اللبن في تكوين الإنسان الخُلقي والنفسى والعضوي سلْباً وإيجاباً.

ولهذا حتّ الإسلام على استرضاع الام، كما حتّ على اختيار المرضعات الصالحات ونهى عن استرضاع اليهودية والمجوسية والنصرانية والمجنونة منعاً من انتقال طباعهنّ إلى الطفل عن طريق اللبن.

واستكمالاً لهذا البحث نورد جملة من الأحاديث التي تصرح بهذه الحقيقة العلمية الهامة:

- [قال امير المؤمنين علي - عليه السلام - :

- [بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٣٤٢ و ٣٤٣.
- 2السيرة الحلبية: ج ١، ص ٨٩.

«تَخَيَّرُوا لِلرَّضَاعِ كَمَا تَخَيَّرُونَ لِلنِّكَاحِ فَإِنَّ الرَّضَاعَ يُغَيِّرُ الطَّبَاعَ.»⁽¹⁾

2- وعنه - عليه السلام - ايضاً:

«أَنْظَرُوا مَنْ يُرَضَعُ أَوْلَادَكُمْ فَإِنَّ الْوَلَدَ يَتَشَبَّهُ عَلَيْهِ.»⁽²⁾

3- عن الإمام أبي جعفر الباقر - عليه السلام - انه قال:

«لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ فَإِنَّ اللَّبْنَ يُعَدِي، وَإِنَّ الْغَلَامَ يَنْزِعُ إِلَى اللَّبَنِ.»⁽³⁾...

4- وعنه - عليه السلام - ايضاً:

«اسْتَرْضِعْ لَوْلَدِكَ بِلَبَنِ الْحِسَانِ وَإِيَّاكَ وَالْقَبِيحُ فَإِنَّ اللَّبْنَ قَدْ يُعَدِي.»⁽⁴⁾

5- وعن علي - عليه السلام - انه قال:

«مَا مِنْ لَبْنٍ يَرْضَعُ بِهِ الصَّبِيُّ أَعْظَمَ بَرَكَتَهُ عَلَيْهِ مِنْ لَبْنِ أُمِّهِ.»⁽⁵⁾

- [قرب الأسناد: ص ٤٥ .
 - 2 فروع الكافي ج ٢، ص ٩٣ .
 - 3 وسائل الشيعة: ج ١٥، ص ١٨٨ .
 - 4 التهذيب: ج ٢، ص ٢٨٠ .
 - 5 روضة المتقين: ج ٨، ص ٥٥٤ .

٦

فَتْرَةُ الطُّفُولَةِ فِي حَيَاةِ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

إن صفحات التاريخ تشهد بأن حياة رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - من بداية طفولته وأوان صباه وإلى يوم بعثه بالرسالة كانت مشحونة بسلسلة من الحوادث العجيبة التي تعدُّ بأجمعها من كراماته - صلى الله عليه وآله وسلم - وتدل على أن حياة النبي لم تكن حياة عادية.

وينقسم المؤلفون في تفسير هذه الحوادث إلى طائفتين:

-[الماديون، وجماعة من المستشرقين: فان العلماء الماديين الذين يحصرون الوجود في نطاق المادة، ويعتبرون جميع الظواهر ظواهر مادية، وينحتون لكل واحدة منها علة طبيعية، لا يهتمون بهذه الحوادث ولا يُعبرونها أية أهمية، لامتناع واستحالة وقوع أمثال هذه الظواهر حسب النظرة المادية، ولهذا فكل ما يصادفونه في ثنايا التاريخ من هذا الباب يعتبرونه من ولائد الخيال، ومما نسجته أوهاؤ التابعين لذلك الدين، أو الطريقة.

وقد تبعهم في هذا الموقف جماعة من المستشرقين فرغم انهم يعتبرون انفسهم - حسب الظاهر - في عداد الموحدين، والمؤمنين بالله، وبما بعد الطبيعة من عوالم الغيب، إلا أنهم - لضعف إيمانهم وبسبب غرورهم العلمي، وغلبة النزعة المادية على أفكارهم وأذهانهم - اتبعوا - لدى تحليلهم لهذه الحوادث - المنهج المادي، فنحن

(220)

نقرأ في كتاباتهم مراراً وتكراراً زعمهم بأن النبوة ماهي إلا نبوغٌ بشريٌّ، وأن النبي مجرد نابعة اجتماعية استطاع تغيير مسار الحياة البشرية بأفكاره النيِّرة!!

ولا شك أن مثل هذا التصوّر ينبع من طريقة التفكير المادي الذي يعتبر جميع الأديان من ولائد الفكر البشري وافرازات الذهن الانساني، في حين ان علماء العقيدة اثبتوا في: مباحث «النبوة العامة» ان النبوة عطية الهية، وموهبة ربانية هي في الحقيقة منشأ جميع الالهامات والارتباطات المعنوية، ومصدر لمناهج الانبياء وبرامجهم، ليست ابدأ وليدة نبوغهم الانساني، ولا نسيجة فكرهم البشري، وليس لها مصدر إلا الإلهام من الغيب، ولكن عندما ينظر المستشرق المسيحي إلى هذه القضايا من زاوية الفكر المادي ويريد تفسير جميع هذه الظواهر بالأسس العلمية التي كشفت عنها التجربة ينتقد مثل هذه الحوادث ذات الطابع الاعجازي، وربما انكرها من الاساس.

-2المؤمنون بالله: الذين يعتقدون بأن العالم المادي بجميع خصوصياته وخواصه يخضع لتدبير عالم آخر، وأن ذلك العالم (اي عالم التجرد وماوراء الطبيعة) هو المنظم لهذه الطبيعة، وهو المدير لهذا الكون المادي.

وبعبارة أخرى إن عالم المادة ليس عالماً مسيئاً، مستقلاً عن غيره، وان جميع الانظمة والقوانين الطبيعية والعلمية مسببة عن تأثيرات موجودات عليا، وبخاصة ناشئة عن إرادة الله الخالق، الذي اعطى للمادة وجودها، وأوجد القوانين والعلاقات الصحيحة بين أجزائها، وبنى بقاءها على سلسلة من النواميس الطبيعية.

إن هذا الفريق من الناس مع احترامهم للقوانين العلمية، واذعانهم الصادق بما قاله العلماء في صعيد العلاقات، والروابط القائمة بين القوانين مما أثبتته العلم واكده، يعتقدون بأن مثل هذه القوانين الطبيعية ليست أموراً لا تقبل التغيير، والتبدل.

فهم يعتقدون بأن العالم الاعلى يمكنه - إذا أراد - أن يُغيّر تلك القوانين لغايات خاصة، وليس في مقدوره ذلك فقط، بل فعل ذلك في جملة من الموارد

(221)

لأهداف عليا.

وبعبارة أخرى: إنّ الافعال الخارقة للعادة ليست ظواهر عارية عن العال، بل إنّ علتها غير طبيعيّة، وافتقاد العلة الطبيعية (وخاصة العلة الطبيعية غير المعروفة) ليس دليلاً على افتقاد مطلق العلة.

والخلاصة؛ إن قوانين الخلق ليست بحيث لا يمكن تبديلها، وتغيّرها بارادة بارئها وخالقها.

إنهم يقولون: إنّ جميع خوارق العادة، وجميع أفعال الأنبياء العجيبة التي تتصف بصفة الاعجاز، والخارجة عن اطار القوانين الطبيعية، تتحقق من هذه الزاوية.

إنّ هذا الفريق من الناس لا يسمّحون لأنفسهم بان يرفضوا الأعمال الخارقة للعادة، والكرامات التي جاء ذكرها في القرآن الكريم، والاحاديث، أو وردت في المصادر التاريخية الصحيحة المعتمدة، أو يكشوا فيها بحجة أنها لا توافق الموازين الطبيعية، والقوانين العلمية.

وها نحن نشير إلى قضيتين عجيبتين وقعتا في فترة الطفولة من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومع اخذ ما قلناه بنظر الاعتبار لا يبقى أي مجال للترييد، أو الاستبعاد:

- [لقد نقلَ المؤرخون عن «حليمة السعدية» قولها بأنها لما تكفلت إرضاع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أرادت أن ترضعه في محضر أمّها، ففتحت جيبها وأخرجت ثديها الأيسر، وأخذت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فوضعت في حجرها، ووضعت ثديها في فمه، فترك النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ثديها، ومالَ إلى ثديها الأيمن، فاخذت «حليمة» ثديها الأيمن من يد النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ووضعت ثديها الأيسر في فمه وذلك أنّ ثديها الأيمن كان جهاماً (أي خالياً من اللبن ولم يكن يدرُّ به)، وخافت (حليمة) أن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا مصَّ الثدي ولم يجد فيه شيئاً لا يأخذ - بعده - الأيسر. ولكن النبيّ أصرَّ على أخذ الثدي الأيمن، فلما مصَّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الأيمن امتلأ فانفتح حتّى ملأ شديقه

(222)

فادهش الجميع ذلك. (1)

2-وتقول «حليمة» أيضاً: إن البوادي أجدبت وحملنا الجُهد على دخول البلد، فدخلت مكة مع نساء بني سعد فأخذت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فعرفنا به البركة والزيادة في معاشنا ورياشنا حتى أثرينا، وكثرت مواشينا، وأموالنا. (2)

إنَّ مَنْ المسلم أنَّ حكم الماديين، أو من يحذر حذوهم ويتبع منهجهم في هذه المسائل يختلف عن حكم المؤمنين بالله.

فإن أتباع المنهج المادي إذ عجزوا عن تفسير هذا النوع من القضايا من زاوية العلوم الطبيعية، نجدهم يبادرون إلى اعتبار هذه الحوادث من نسج الخيال، ومن ولائد الاوهام، واما إذا كانوا اكثر تأدباً لقالوا: إن رسول الإسلام ليس بحاجة إلى امثال هذه المعاجز:

ونحن نقول: لا نقاش في أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - غني عن هذه المعاجز إلا أن عدم الحاجة شيء، والحكم بصحة هذه الأمور أو بطلانها شيء آخر.

وأما المؤمن بالله الذي يردُّ النظام الطبيعي، إلى مشيئة الله خالق الكون وارادته العليا، ويعتقد بأن كل الحركات والظواهر في العالم الطبيعي من اصغر اجزائه (الذرة) إلى اكبر موجوداته (المجرة) يجري تحت تدبيره، ونظارته، فانه بعد التحقق من مصادر هذه الحوادث والتأكد من وقوعها ينظر إليها بنظر الاحترام، وأما إذا لم يطمئن إليها لم يرفضها رفضاً قاطعاً.

ولقد ورد في القرآن الكريم نظائر عديدة لهذه القصة حول «مريم» أم عيسى فالقرآن يخبرنا عن تساقط الرطب الجنى من جذع النخلة اليابسة كرامة لوالدة المسيح عندما لجأت إليه مريم عند المخاض إذ يقول:

(...أَلَا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا. وَهَرَىٰ إِلَيْكَ بِجُدْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا.)⁽³⁾

- [بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٣٤٥ و ٣٤٦.
- 2 المناقب لابن شهر آشوب: ج ١، ص ٢٤.
- 3 مريم: ٢٤ و ٢٥.

إنه وإن كان الفرق بين «مريم» و «حليمة» شاسعاً وكبيراً من حيث الملكات الفاضلة والمكانة، والمنزلة، إلا أن منزلة «مريم» - عليها السلام - لو استوجبت مثل هذا اللطف الالهي، ففي المقام استوجب نفس مقام الوليد العظيم، ومكانته عند الله تعالى أن تشمله العناية الالهية.

كما انه قد جاء في القرآن الكريم حول مريم - عليها السلام - امور أخرى مشابهة.

ان عصمة هذه المرأة الطاهرة، وتقاهها وطهرها البالغ كانت بحيث أن «زكريا» كلما دخل عليها المحراب وجد عندها رزقاً، فاذا

سألها: من أين لك هذا قالت: هو من عند الله؟. (1)

و على هذا الأساس يجب أن لا نتردد ولا نسمح لانفسنا بأن نشك في مثل هذه الكرامات، أو نستبعداها.

خَمْسَةُ أَعْوَامٍ فِي الصَّحْرَاءِ:

أمضى وليدُ «عبدالمطلب» في قبيلة «بني سعد» مدة خمسة أعوام، بلغ فيها أشده.

وخلال هذه المدة اخذته «حليمة» إلى أمه مرتين أو ثلاث، وقد سلمته إلى أمه في آخر مرة.

وكانت المرة الأولى من تلك المرات عند فطامه، ولهذا السبب اتت به - صلى الله عليه وآله وسلم - «حليمة» إلى مكة ولكنها عادت

به إلى الصحراء باصرار منها، وكان السبب وراء هذا الاصرار على اصطحابه معها إلى البادية هو أن هذا الوليد قد اصبح مبعث

خير ورعاء، وبركة في منطقتها، وقد دفع شيوع مرض الوباء في «مكة» إلى أن تقبل أمه الكريمة بهذا الطلب. (2)

وأما المرة الثانية من تلك المرات فكانت عندما قدم جماعة من نصارى

...» - 1 أو كفلها زكريا كلما دخل عليها زكريا المخراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أتى لك هذا قالت هو من عند الله» (آل عمران: 37).
- 2بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٤٠١.

(224)

الحبشة إلى الحجاز، فوقع نظرهم على محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - في «بني سعد»، ووجدوا فيه جميع العلام المذكورة في

الكتب السماوية للنبي الذي سيأتي بعد عيسى المسيح - عليه السلام -، ولهذا عزموا على أخذه غيلة إلى بلادهم لما عرفوا ان له شأنا

عظيماً، لينالوا شرف احتضانه ويذهبوا بفخره. (1)

ولا مجال لاستبعاد هذه القضية لأن علام النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذكرت في الانجيل حسب تصريح القرآن الكريم، فلا

يبعد أن علماء النصارى قد تعرفوا في ذلك الوقت على النبي من العلام التي قرأوها ودرسوها في كتبهم.

يقول القرآن الكريم في هذا المجال:

(وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي

اسْمُهُ أَحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. (2)

ثم ان في هذا الصعيد آيات أخر صرحت بجلاء بأن علام رسول الإسلام في الكتب السماوية الماضية في وضوح، ومن غير إبهام،

وأن الامم السابقة كانت على علم بهذا الأمر. (3)

(225)

٧ العودة إلى أحضان العائلة

لقد خلقت يد القدرة الإلهية كل فرد من أفراد النوع الانساني لأمر معين، فهناك من خلق لاكتساب العلم والمعرفة، وهناك من خلق للاختراع والاكتشاف، وثالث خلق للسعي والعمل، وبعض للتدبير والسياسة وفريق للتدريس والتربية وهكذا.

وإن المربين المخلصين الذين يهتمهم تقدم الأفراد أو رقي مجتمعهم لا يعمدون إلى نصب أحد في عمل من الاعمال ولا يعهدون إليه مسؤولية من المسؤوليات إلا بعد اختبار سلفيته ومواهبه، بغية وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، إذ في غير هذه الحالة يتعرض المجتمع لضررين كبيرين: احدهما: أن لا يوكل إلى الفرد ما يستطيع القيام به، والثاني: ان يبقى العمل الذي قام به ناقصاً، متوراً.

وقد قيل في المثل: لكل انسان موهبة، والسعيد هو من اكتشف تلك المواهب، واصابها.

وقد ذكروا أن استاذاً كان ينصح تلميذاً له كسولاً، ويعدّد له مضار الكسل والتواني، ويصف له حال من ترك الاشتغال بالعلم، وضيع ربيع حياته في البطالة والغفلة.

وبينما الاستاذ ينصح تلميذه - وهو يسمع مواعظ أستاذه - رأى تلميذه يرسم

(226)

بقطعة من الجص صورة على المنضدة، فادرك من فوره أن هذا الصبي لم يُخلق للدرس وتحصيل العلم، بل خلّقه يد القدرة للرسم، فطلب منه أن يصطحب اياه إلى المدرسة في اليوم القادم، ثم قال لوالد الصبي: إذا كان ولدك هذا كسولاً في التعلم، والتحصيل فانه يمتلك ذوقاً رفيعاً في الرسم، ورغبة كبيرة في التصوير.

وقبل الوالد نصيحة المعلم هذه ولم يمض زمان طويلاً إلا وبرع الصبي وغدى قمة في هذا الفن، بعد أن تابع هوايته بشغف وأكثر من ممارستها.

إن فترة الطفولة والصبا في حياة الأشخاص خير فرصة لأولياء الأطفال بأن يختبروا مواهب أبنائهم، ويتعرفوا عليها من خلال تصرفاتهم، وأفكارهم وردودهم، لأن حركات الطفل وأقواله الجميلة والحلوة خير مرآة لما ينطوي عليه من مواهب وقابليات وصفات لو توفرت لها ظروف التربية الصحيحة لأمكن الاستفادة منها على أفضل صورة، وأحسن وجه.

إن مطالعة فاحصة لحياة النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأقواله وأفعاله إلى وقت البعثة المباركة تُوقفنا على صورة كاملة لشخصيته - صلى الله عليه وآله وسلم - وتوضح لنا أهدافه العليا، على أن مطالعة صفحات الطفولة في حياته - صلى الله عليه وآله وسلم - فقط لا تكشف لنا عن مستقبله المشرق، بل إن دراسة الصورة الاجمالية لحياته وتاريخه إلى يوم مبعثه الشريف، وإعلانه عن نبوته وقيادته للمجتمع، تخبرنا عن ذلك المستقبل العظيم، وبالتالي عن هذه الحقيقة وهي أن هذه الشخصية خُلقت لأى عمل، وأن إدعاء الرسالة والقيادة له هل ينسجم مع سوابقه التاريخية أم لا؟؟

هل تُؤيد تفاصيل حياته خلال أربعين سنة قبل الرسالة، وهل تُؤيد أفعاله وأقواله، وبالتالي: سلوكه مع الناس ومعاشرته الطويلة مع الآخرين رسالته أم لا؟؟

من هنا نعمدُ إلى عرض بعض الصفحات من حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أيامها وسنواتها الأولى.

(227)

لقد حافظت مرضعةُ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عليه خمس سنوات، وقامت في هذه المدة برعاية شؤونه خير قيام، وبالغت في كفالته والعناية به، وفي خلال هذه المدة تعلّم النبي لغة العرب على احسن ما يكون، حتّى انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يفتخر بذلك في ما بعد إذ كان يقول:

أنا أعرِبكُمْ (أي أفصحكم)... وارضعت في بني سعد. (1)»

ثم إن «حليمة» جاءت به إلى «مكة»، وبقي عند أمّه الحنون رديحاً من الزمن، وفي كفالة جده العظيم: «عبدالمطلب» رديحاً آخر منه، وكان هو السلوة الوحيدة لأقاربه والبقية الباقية من ابيه: «عبدالله». (2)»

سفرة إلى يثرب:

منذ أن فقدت كَنَّة «عبدالمطلب» وعروس ابنه: «أمّنة» زوجها الشاب الكريم: «عبدالله» باتت تترقب الفرص لتذهب إلى «يثرب» وتزور قبر زوجها الحبيب الفريد عن كُثب، وتزور اقاربها في يثرب في نفس الوقت.

وذات مرة فكَرت بأن تلك الفرصة قد سنحت، وأن ولدها «محمّداً» قد كُبر، ويمكنه أن يشاركها في حزنها، فتهيأت هي وأمّ ايمن للسفر، واتجهت نحو يثرب برفقة «محمّد»، ولبيت هناك شهراً.

ولقد انطوت (وبالاحرى حملت) هذه السفرة على بعض الالام الروحية لوليد قريش «محمّد» لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - رأى فيها ولأول مرة البيت الذي توفي فيه والده العزيز، ودفن⁽³⁾ وكانت والدته قد حدثته بامور عن والده إلى ذلك الحين.

وكانت لا تزال سحابة الحزن تخيم على روحه الشريفة إذ فوجيء بحادثة مقرحة أخرى، وغشيه موج آخر من الحزن لأنه عند عودته إلى مكة فقد أمه

1- السيرة الحلبية: ج 1، ص 89.
2- السيرة النبوية: ج 1، ص 167.
3- كان البيت الذي يضم قبر «عبدالله» عليه السلام لا يزال موجوداً حتى قبيل توسعة الدائرة حول المسجد النبوي الطاهر، ولكنه أزيل بحجة إيجاد تلك التوسعة.

(228)

العزيزة في اثناء الطريق في منطقة تدعى بـ «الابواء»⁽¹⁾»

إن هذه الحادثة قد عززت مكانة الرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - في عشيرته اكثر فأكثر، وجعلته يتمتع بمحبة أزيد منهم، فهو الزهرة الوحيدة من تلك الجنية المباركة، كما انه صار منذ ذلك الحين يتمتع بعناية أكبر من قبل جده «عبدالمطلب» ولهذا كان يحبه اكثر من أبنائه، بل ويؤثره عليهم جميعاً.

ومن ذلك أنه كان يمد في فناء الكعبة المعظمة بساط لزعيم قريش «عبدالمطلب» فيجلس هو عليه ويتحلق حوله وجوه قريش وسادتها وأولاده فإذا وقعت عيناه على بقية عبدالله «محمّد» أمر بأن يُفرج له حتى يتقدم نحوه ثم يُجلسه إلى جنبه على ذلك البساط المخصوص به.⁽²⁾

ان القرآن الكريم يُذكر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بفترة يتمه ويقول: «ألم يجدك يتيماً فأوى.»

إن الحكمة وراعيتم وليد قريش ليست واضحة لنا تمام الوضوح، ولكننا نعلم إجمالاً بأن سيل هذه الحوادث المؤلمة احياناً، والمزعة احياناً اخرى لم يك خالياً عن حكمة معقولة ومصلحة رشيدة، بيد أننا مع كل هذا يمكن لنا الحدس بأن الله تعالى أراد أن يذوق قائد العالم البشري ومعلمه، وإمام الإنسانية وهاديها - وقبل ان يتسلم مهامه، ويزاول مسؤولياته العظمى ويبدأ قيادته - خلو الحياة ومرها، ويجرب سراء العيش وضراءه، حتى تنهياً لديه تلك الروح الكبرى الصبورة الصامدة، ويذخر من تلك الحوادث الصعبة تجارب ودروساً، ويعد نفسه لمواجهة مسلسل الشدائد والمصاعب، والمشاق والمناعب التي كانت تنتظره في المستقبل.

و ربما أراد الله تعالى أن لا تكون في عنق نبيه طاعة لأحد، ولهذا انشأه حراً خلياً من كل قيد، منذ الايام الأولى من حياته، يصنع نفسه بنفسه ويقبض لها موجبات الرشد، واسباب الرقى ليتضح أن نبوغه ليس نبوغاً بشرياً عادياً ومألوفاً

- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٠٥.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٦٨.

(229)

وانه لم يكن لوالديه اي دخل فيه وفي مصيره، وبالتالي فان عظمته الباهرة نابعة من مصدر الوحي، وليست من العوامل العادية والاسباب المأنوسة المتعارفة.

وفاة عبدالمطلب:

لقد جرت عادة الحياة ان تتعرض للمرء باستمرار، وتستهدف سفينة حياته كالأموح المتلاحقة موجهة ضرباتها القوية لروحه، ونفسه.

أجل هذه هي طبيعة الحياة وستنتها مع أفراد النوع الانساني من دون استثناء.

ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمعزل عن هذه السنة المعروفة وهذه القاعدة الحياتية العامة.

فلم تكن أمواج الحزن تفارق قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لوفاة والديه بعد حتى فاجأته مصيبة كبرى.

إنه لم يكن يمض من عمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اكثر من ثمان سنوات إلا وفقد جدّه العظيم «عبدالمطلب»، وقد

اعتصرت وفاة «عبدالمطلب» قلب رسول الله أماً وحنناً، وكان لها وقع شديد على نفسه المباركة، حتى أنه بكى لفقده بكاء شديداً

وظلّت دموعه تجري من أجله إلى أن وري في لحدّه، ولم ينس ذكره أبداً. (1)!!

كفالة أبي طالب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

سيكون لنا حديث مفصّل حول شخصيّة أبي طالب في فصل خاص (2) و سنثبت هناك إيمانه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم

- بالوثائق والأدلة القاطعة، ولكن من المناسب الآن أن نستعرض بعض الحوادث المرتبطة بفترة كفالته للنبي

- إكتب البيهقي في تاريخه: ج ٢، ص ١٠ و ١١ من تاريخه حول سيرة عبدالمطلب، وأنه كان موجّداً لاوثنيّاً، وذكر أن الإسلام أمضى الكثير من سننه.
- 2 في حوادث السنة العاشرة.

(230)

- صلى الله عليه وآله وسلم - .

لقد تكفل أبو طالب - ولأسباب خاصة - رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتقبل تحمّل هذه المسؤولية بفخر واعتزاز، ولأنّ أباطالب - مضافاً إلى العلل المشار إليها - كان أماً لوالد النبي من أمّ واحدة أيضاً (1) كما أنّه كان معروفاً بجوده وكرمه، ومن هنا أوكل «عبدالمطلب» أمر كفالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - حفيده، إليه، وسوف نقص عليك تدريجاً سطوراً ذهبية من تاريخه، تمثل شاهد صدق على خدماته القيمة، وأيديه الجابلية.

يقولون: إن النبي شارك وهو في العاشرة من عمره جنباً إلى جنب مع عمّه في حرب من الحروب (2) وحيث أن هذه الحرب وقعت في الأشهر الحرم لذلك سُميت بحرب «الفجار» وقد وردت تفاصيل حروب «الفجار» في التاريخ بشكل مسهب.

سفرة إلى الشام:

لقد جرت العادة ان يسافر تجار قريش إلى الشام كل سنة مرة واحدة.

فعزم «أبو طالب» على أن يشارك في رحلة قريش السنوية هذه ذات مرة، وعالج مشكلة ابن اخيه «محمّد» الذي ما كان يقدر على مفارقتة بأنه قرر أن يتركه في مكة في حراسة جماعة من الرجال، ولكنه ساعة الرحيل واجه من ابن اخيه العزيز ما غير بسببه قراره المذكور فقد شاهد «محمّد» وقد اغرورقت عيناه بالدموع لفراق كفيله الحميم «أبي طالب»، فحدثت ملامح «محمّد» الكئيبة طوفاناً من المشاعر العاطفية في قلب «أبي طالب» بحيث اضطرتّه إلى أن يرضى

- [1] السيرة النبوية: ج ١، ص ١٧٩، وامهما هي فاطمة المخزومية.
- [2] لقد كتب البيهقي في تاريخه: ج ١، ص ١٥ طبعة النجف أنّ أبا طالب لم يشترك في هذه الحرب قط، كما لم يسمح لبني هاشم بالمشاركة فيها أيضاً، لأنه كان ظلماً وعدواناً وقطيعة رحم واستحلالاً للشهر الحرام.

بمشقة اصطحاب «محمّد» في تلك الرحلة. (1)

لقد كانت سفرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه التي قام بها بصحبة عمّه وكافله «أبي طالب» في الثانية عشرة من عمره، من اجمل وأطرف اسفاره - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - عبر فيها على: «مدّين» و «وادي القرى» و «ديار ثمود» واطّلع على مشاهد الشام الطبيعية الجميلة.

ولم تكن قافلة قريش التجارية قد وصلت إلى مقصدها حتّى حدثت في منطقة تدعى «بصرى» قضية غيرت برنامج «أبي طالب» وتسببت في عدوله عن المضي به في تلك الرحلة والقفول إلى مكة.

واليك فيما يلي مجمل هذه القضية:

كان يسكن في «بصرى» من نواحي الشام راهبٌ مسيحي يدعى «بحيرا» يتعبد في صومعته، يحترمه النصارى في تلك الديار. وكانت القوافل التجارية إذا مرت على صومعته توقفت عندها بعض الوقت وتبركت بالحضور عنده.

وقد اتفق أن التقى هذا الراهبُ قافلة قريش التي كان فيها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فلفت نظره شخصيته «محمَّد»، وراح يحدق في ملامحه، وكانت نظراته هذه تحمل سرّاً عميقاً ينطوي عليه قلبه منذ زمن بعيد وبعد دقائق من

- [ويذكر «أبو طالب» في أبيات له قصّة هذه السفارة وما جرى فيها من البدء إلى الختام نقتطف منها بعض الأبيات:

إنّ ابنَ أمانة النبي محمّداً * عندي يفوقُ منازل الأولاد
لما تعلّق بالزمام رحمته * والعيسُ قد قلّصنَ بالازواد
فأرفضّ من عينيّ دمع ذارف * مثل الجمان مُفرّق الأفراد
راعيتُ فيه قرابة موصولة * وحفظت فيه وصية الأجداد
وأمرته بالسير بين عمومة * بيض الوجوه مصالحت أنجاد
حتّى إذا ما القومُ بُصرى عابنوا * لاقوا على شرك من المرصاد
حبراً فاخبرهم حديثاً صادقاً * عنه وردّ معاشر الخُساد
(تاريخ ابن عساکر: ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٢ و ديوان ابي طالب: ص ٣٣ - ٣٥.)

(232)

النظرات الفاحصة، والتحديق في وجه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خرج عن صمته وانبرى سائلاً: أنشدكم بالله أيكم وليّه؟ فإشار جماعة منهم إلى «أبي طالب» وقالوا: هذا وليّه.

فقال «أبو طالب»: إنه ابن أخي، سلني عما بدا لك.

فقال «بحيرا»: إنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيمٌ، نجده في كتبنا وماروينا عن آبائنا، هذا سيّد العالمين، هذا رسول رب العالمين، يبعثه رحمة للعالمين. إحدز عليه اليهود لئن رأوه وعرفوا منه ما أعرف ليقتصدنّ قتله. (1)

هذا وقد اتفق أكثر المؤرخين على أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يتعدّ تلك المنطقة، وليس من الواضح أن عمه «أبا طالب» بعثه إلى مكة مع أحد، (ويُستبعد أن يكون عمّه قد رضي بمفارقتة منذ أن سمع تلك التحذيرات من الراهب بحيرا)، أم أنه

اصطحبه بنفسه إلى مكة، وانتثى عن مواصلة سفره إلى الشام. (2)

وربما قيل أنه تابع - بحذر شديد - سفره إلى الشام مع ابن أخيه «محمّد» .»

أَكْذُوبَةُ الْمُسْتَشْرِقِينَ:

لقد آلينا على أنفسنا في هذا الكتاب ان نشير إلى أخطاء المستشرقين وغلطاتهم بل وربما أكاذيبهم، واتهاماتهم الباطلة، وشبههم الواهية ليتضح للقراء الكرام الى أي مدى يحاول هذا الفريق إرباك أذهان البسطاء من الناس، وبلبله عقولهم حول قضايا الإسلام!! إن قضية اللقاء الذي تم - في بصرى - بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والراهب «بحيرا» لم تكن سوى قضية بسيطة، وحادثة عابرة وقصيرة، إلا أنها وقعت في ما بعد ذريعة بايدي هذه الزمرة (المستشرقون) فراحوا يصرون أشدّ اصرار على أنّ

- [رؤى تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٣٢ و ٣٣، والسيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٠ - ١٨٣ هذه القصة بتفصيل اكبر وقد اختصرناها هنا تمثيلاً مع حجم هذا الكتاب.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٢ و ١٨٣.

(233)

ما أظهره رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من تعاليم رفيعة سامية بعد ٢٨ عاماً، واستطاع بها أن يُحيي بها تلك الأمة الميتة قد تلقاها من الراهب «بحيرا» في هذه السفارة. ويقولون: إن «محمّداً» بما تمتع به من قوة ذاكرة، وصفاء نفس ودقة فكر، وعظمة روح وهبته اياها يد القدر، أخذ من الراهب «بحيرا» في لقائه به، قصص الانبياء السالفين والاقوام البائدة مثل عاد وثمود، وكثيراً من تعاليمه الحيوية.

ولا ريب في أن هذا الكلام ليس سوى تصور خيالي لا يتلاءم ولا ينسجم مع حياته - صلى الله عليه وآله وسلم - بل وتكذبه الموازين العقلية، واليك بعض الشواهد على هذا:

- [لقد كان «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - باجماع المؤرخين أمياً، لم يتعلم القراءة والكتابة، وكان عند سفره إلى الشام، ولقائه بـ «بحيرا» لم يتجاوز ربيعه الثاني عشر بعد، فهل يصدق العقل - والحال هذه - أن يستطيع صبي لم يدرس ولم يتعلم القراءة والكتابة ولم يتجاوز ربيعه الثاني عشر ان يستوعب تلك الحقائق من «التوراة» و «الإنجيل»، ثم يعرضها - في سن الاربعين - على الناس بعنوان الوحي الالهى والشريعة السماوية؟!]

إن مثل هذا الأمر خارج عن الموازين العادية، بل ربما يكون من الأمور المستحيلة لو أخذنا بنظر الاعتبار حجم الاستعداد البشري

2- إن مدة هذا اللقاء كان اقل بكثير من أن يستطيع محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - في مثل تلك الفترة الزمنية القصيرة أن يستوعب «التوراة» و «الانجيل»، لأن هذه الرحلة كانت رحلة تجارية ولم يستغرق الذهاب والاياب والاقامة اكثر من أربعة أشهر، لأن قريشاً كانت تقوم في كل سنة برحلتين، في الصيف إلى «الشام»، وفي الشتاء إلى «اليمن»، ومع هذا لا يُظنّ أن تكون الرحلة برمتها قد استغرقت اكثر من اربعة أشهر، ولا يستطيع اكبر علماء العالم واذكاهم من أن يستوعب في مثل هذه المدة القصيرة جداً محتويات دينك الكتابيين، فضلا عن صبي لم يدرس، ولم يتعلم القراءة والكتابة من احد.

(234)

هذا مضافاً إلى أنه لم يكن يصاحب - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك الراهب كل تلك الاشهر الاربعة بل ان اللقاء الذي وقع إتفاقاً في أحد منازل الطريق لم يستغرق سوى عدة ساعات لا اكثر.

3-إن النّص التاريخي يشهد بأن «باطالب» كان ينوي اصطحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الشام، ولم يكن مقصده الأصلي «بصرى» بل إن «بصرى» كان منزلاً في أثناء الطريق تستريح عنده القوافل التجارية أحياناً، ولفترة جداً قصيرة.

فكيف يمكن في مثل هذه الصورة ان يمكث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك المنطقة، ويشغل بتحصيل علوم «التوراة» و «الانجيل» ومعارفهما؟ سواء قلنا بأن «باطالب» أخذ معه إلى الشام، أو عاد به من تلك المنطقة إلى مكة أو أعاده بصحبة أحد إلى مكة؟!

وعلى كل حال فان مقصد القافلة ومقصد «ابي طالب» لم يكن «بصرى» ليقال: ان القافلة اشتغلت فيها بتجارتها، بينما اغتتم «محمّد» الفرصة واشتغل بتحصيل معارف العهدين.

4-إذا كان محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تلقى أموراً ومعارف من الراهب المذكور اذن لاشتهر ذلك بين قريش حتماً، ولتتناقل الجميع خبر ذلك بعد العودة إلى مكة.

هذا مضافاً إلى أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه ما كان يتسطيع أن يدعي امام قومه في ما بعد بأنه أمي لم يدرس كتاباً، ولا تلمذ على أحد، في حين أن النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - افتتح رسالته بهذا العنوان، ولم يقل أحد، يا محمّد كيف تدعي بأنك لم تقرأ ولم تدرس عند احد وقد درست عند راهب «بصرى» وتلقيت منه هذه الحقائق الناصعة وانت في الثانية عشرة من عمرك؟

لقد وجّه مشركوا مكة جميع انواع الإتهام إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وبالغوا في البحث عن أية نقطة ضعف في قرآنه يمكن أن يتذرعوا بها لتفنيد دعوته، حتّى أنهم عندما شاهدوا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات مرة عند

«مروءة» يجالس غلاماً نصرانياً استغلوا تلك الفرصة وقالوا: لقد أخذ «محمد» كلامه من هذا الغلام، ويروي القرآن الكريم مزعمتهم هذه بقوله:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ⁽¹⁾)

ولكن القرآن الكريم لم يتعرض لذكر هذه الفرية قط كما أن قريشاً المجادلين المعاندين لم يتذرعوا بها أبداً، وهذا هو بعينه دليل قاطع وقوي على أن هذه الفرية من افتراءات المستشرقين في عصرنا هذا، ومن نسج خيالهم!!

5- إن قصص الانبياء والرسل التي جاءت في القرآن الكريم على وجه التفصيل تتعارض وتتنافى مع ما جاء في التوراة والانجيل

فقد ذُكرت قصصُ الأنبياء واحوالهم في هذين الكتابين بصورة مشينة جداً، وطُرحت بشكل لا يتفق مع المعايير العلمية والعقلية مطلقاً، وان مقايسة عاجلة بين هذين الكتابين من جانب وبين القرآن الكريم من جانب آخر تثبت بأن قضايا القرآن الكريم ومعارفه لم تتخذ من دينك الكاتبين بحال، ولو أن النبي محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - قد اكتسب معارفه ومعلوماته حول الانبياء والرسل من العهدين لجاء كلامه مزيجاً بالخرافات والأوهام⁽²⁾

6- إذا كان راهب «بُصرى» يمتلك كل هذه الكمية من المعلومات الدينية والعلمية التي عرضها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فلماذا لم يحض هو بأي شيء من الشهرة، ولماذا ترى لم يُربِّ غير «محمد» في حين أن معبده كان مزار الناس ومقصد القوافل؟!

7- يعتبرُ الكتاب المسيحيون «محمداً» - صلى الله عليه وآله وسلم - رجلاً أميناً صادقاً، والآيات القرآنية تصرح بأنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن على علم مسبق

- [النحل: ١٠٣].
- 2تنجلي هذه الحقيقة أكثر فاكتر إذا ما قارنا بين مواضع القرآن الكريم، وبين ما جاء في نصوص العهدين (التوراة والانجيل) وقد تصدى بعض الكتاب الاسلاميين لمثل هذه المقارنة، وقد تعرضنا لها ايضاً في بعض دراساتنا.

أصلاً بقصص الأنبياء والأمم السابقين، وأن معلوماته في هذا الصعيد لم تحصل لديه إلا عن طريق الوحي.

فقد جاء في سورة «القصص» الآية (٤٤) هكذا: **وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ.** ()

وجاء في سورة «هود» الآية (٤٩) بعد نقل قصة نوح: **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا.** ()

إن هذه الآيات توضح أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن على علم أبداً بهذه الحوادث، والوقائع.

وهكذا جاء في الآية (٤٤) من سورة «آل عمران»: **ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَقُولُونَ أَفَلَا مَعَهُمْ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُرِيدُ الْمُعْلَمُ.** ()

إن هذه الآية وغيرها من الآيات العديدة تصرح بأن هذه الأخبار الغيبية وصلت إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق الوحي فقط، وهو لم يكن على علم بها مطلقاً.

نَظْرَةٌ إِجْمَالِيَّةٌ إِلَى التَّوْرَةِ الْحَاضِرَةِ:

إنَّ هذا الكتاب السَّمَاوِيُّ تورَّط في تناقضات عجيبة في بيان قصص الأنبياء والمرسلين لا يمكن نسبتها إلى الوحي مطلقاً، وها نحن نأتي هنا بنماذج في هذا المجال من التوراة ليتضح لنا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لو كان قد أخذ قضايا القرآن الكريم من ذلك الراهب فلماذا لا يحتوي هذا الكتاب العظيم على تلك الأضاليل التي انطوى عليها «التوراة» و «الانجيل». »

واليك بعض ما جاء حول الأنبياء والمرسلين في «التوراة» و «الانجيل» وتقرآن ذلك بما جاء في القرآن الكريم ليتضح مدى الفرق بين الكتابين (العهدين، والقرآن).

(237)

-[داود - عليه السلام -]-

جاء في التوراة: «إن داود رأى من على السطح امرأة تستحم، وكانت المرأة جميلة المنظر جداً، فارسل داود وسأل عن المرأة، فقال واحد: إنها امرأة أورثياً فأرسل داود رسلاً وأخذها فدخلت إليه فاضطجع معها وهي مطهرة من طمئتها ثم رجعت إلى بيتها، وحبلت المرأة، فارسلت وأخبرت داود وقالت: إني حُبلى، فارسل داود إلى يوا ب يقول: اجعلوا أورثياً في وجه الحرب الشديدة⁽¹⁾، وارجعوا من ورائه فيضرب ويموت... فلما سمعت امرأة أورثياً أنه قدم أورثياً رجلاً نذبت بعلها، ولما مضت المناحة أرسل داود وضماً إلى بيته وصارت له امرأة، وولدت له ابناً، وأما الأمرُ الذي فعله داود ففحيح في عيني الرب. (2)!!»

هكذا تصف التوراة النبيّ الكريم داود، وترميه بالزنا، واكراه امرأة محصنة على خيانة زوجها!!

بينما يصف القرآن الكريم النبيّ داود - عليه السلام - بافضل الاوصاف إذ يقول (في الآية ١٥ و ١٦ من سورة النمل):

(وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلْنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ... وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ وَ أوتينا من كل شيء إن هذا لهو الفضل المبين.)
2- النبيّ سليمان - عليه السلام - :

تقول «التوراة» عن النبيّ العظيم سليمان - عليه السلام - :

1- «وداود الملك ولد سليمان من التي لأوريا. (3)»

أي ان سليمان النبيّ الكريم - والعياذ بالله - هو ابن زنا!!

- 1 أي في مقدمة الجيش المحارب.
- 2 العهد القديم (التوراة): صموئيل، الثاني الاصحاح الحادي عشر ٣ إلى ٢٧.
- 3 إنجيل متى: الاصحاح الأول ٦.

(238)

2- و أَحَبَّ الْمَلِكُ سُلَيْمَانَ نِسَاءً غَرِيبَةً... مِنَ الَّذِينَ قَالَ عَنْهُمْ الرَّبُّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ: لَا تَدْخُلُونَ إِلَيْهِمْ، وَهُمْ لَا يَدْخُلُونَ إِلَيْكُمْ لِأَنَّكُمْ يُمِيلُونَ قلوبكم وراء آلهتهم، فالتصق سليمانُ بهؤلاء بالمحبة، وكانت له سبع مئة من النساء السيدات، وثلاث مئة من السراري فأملت نساؤه قلبه وكان في زمان شيخوخة سليمان ان نساءه أملن قلبه وراء آلهة أخرى، ولم يكن قلبه كاملاً مع الرب الهه كقلب داود ابيه، فذهب سليمان وراء عششورت إلهة الصيد ونين، وملكوم رجس العمونيين، وعمل سليمان الشرّ في عيني الرب، ولم يتبع الرب تماماً كداود ابيه، فغضب الرب على سليمان لأن قلبه مال عن الرب إله إسرائيل. (1)!!!»

إن سليمان - حسب هذه التعابير التوراتية - يعشق النساء الاجنبيات، ويتقرب اليهن بصنع أصنام لهنّ. ويعبدها معهن، ويرتكب الشرور التي أغضبت الرب!!

بينما يقول القرآن الكريم عن سليمان - عليه السلام - (ولقد آتينا داودَ و سُلَيْمَانَ عِلْمًا. (2)

ويقول): وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا، وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ. (3)

إنه نبي عظيم اختاره الله تعالى لوحيه، وأصطفاه لأداء رسالاته.

3- يعقوب - عليه السلام - :

إنَّ «التوراة» تصف النبي العظيم يعقوب - عليه السلام - بأنه رجل كذاب مخادع، أخذ النبوة من ابيه بالمكر والخداع، «فبعد ما شاخ اسحاقُ وكَلَّت عيناهُ عن النظر دعا عيسو ابنه الاكبر، وطلب منه أن يصطادله صيداً، ويصنع له طعاماً جيداً حتَّى يباركه، ويعطيه النبوة، ولكن يعقوب (ابن إسحاق من رفقة

-
- 1 التوراة: الملوك الأول الاصحاح: ١١، العبارات ١: ١١.
 - 2 النمل: ١٦.
 - 3 الأنبياء: ٨١.
-

(239)

زوجته الأخرى) بادر إلى صنع طعام لذيذ لأبيه وتظاهر بأنه عيسو، لابساً ثياب عيسو، وقطعاً من جلود جُدِّي المعزى على عنقه لأن عيسو كان مشعراً وكان يعقوب امس الجسد، فبارك اسحاق ابنه يعقوب ومنحه النبوة، وبعد ذلك قدم عيسو من الصيد، فعرف اسحاقُ بأنه خُدع، وأن يعقوب أخذ منه النبوة بالمكر، فارتعد اسحاقُ ارتعاداً عظيماً جداً وقال لعيسو متأسفاً: قد جاء أخوك بمكر، وأخذ بركتك. (1)!!»

هذا هو حال يعقوب في لسان «التوراة» المحرفة!!

وأما القرآن الكريم فإنه يقول عن هذا النبي الطاهر:

(وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ وَ أَيُّوبَ وَ يُوسُفَ وَ مُوسَى وَ هَارُونَ وَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ). (2)

ويقول تعالى أيضاً:

(وَ اذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ أُولَى الْأَيْدِي وَ الْأَبْصَارِ. اِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ. وَ إِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفِينَ الْأَخْيَارِ). (3)

4- إبراهيم - عليه السلام - :

تقول «التوراة» عن إبراهيم - عليه السلام - إنه لما اراد أن يدخل مصر قال لزوجته سارة: إني قد علمت أنك امرأة حسنة المنظر، فيكون إذا رآك المصريون أنهم يقولون: هذه امرأته، فيقتلونني، ويستبقونك، فولي إنك أختي، ليكون لي خيرٌ بسببك وتحيا نفسي من أجلك.

وكذلك فعلت سارة و أخذت إلى بيت فرعون، فصنع إلى إبرام خيراً

- [سفر التكوين: الاصحاح السابع والعشرون: ١ إلى ٤٦، وقد ذكرنا هذه القصة من التوراة بتلخيص.
- 2 الأنعام: ٨٤.
- 3سورة ص: ٤٥ - ٤٧.

(240)

بسببها، وصار له غنم، وبقر، وحمير، وعبيد، وإماء، وأتن، وجمال، ولما عرف فرعون - في ما بعد - ان سارة زوجة ابراهيم، وليس أخته عاتبه قائلاً: لماذا لم تخبرني إنها امرأتك، لماذا قلت: هي أختي حتى أخذتها لي لتكون زوجتي والآن هو ذا امرأتك، خذها واذهب. (1)»

إن ابراهيم الخليل - عليه السلام - في وصف التوراة رجلاً كذاباً، يكذب ويحتال.

أما القرآن الكريم فيصف هذا النبي الجليل بأعظم الأوصاف، ويعتبره أعظم الأنبياء إذ يقول عنه انه:

1- حنيف موحِّدٌ لله: **وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا** (آل عمران: ٦٧).

2- إمامٌ للناس: **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** (البقرة: ١٣٤).

3- مُسَلِّمٌ: **وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا** (آل عمران: ٦٧).

4- حَلِيمٌ: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ** (التوبة: ٨٤).

5- امة كاملة بمفرده: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً** (النحل: ١٢٠).

6- أواهٌ يخشى الله: **إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ** (التوبة: ٨٤).

7- مصطفى: **لِمَنِ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارَ** (ص: ٤٨).

8- ذو قلب سليم: **إِذْ جَاءَ رَبُّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ** (الصافات: ٤٨).

5- المسيح - عليه السلام - :

إن عيسى - حسب رواية الإنجيل - يحتقر أمه، ويزدري بها، فذات يوم جاء إخوته وأمه ووقفوا خارجاً وارسلوا يدعونه، وكان الجمع جالساً حوله، فقالوا له «هو ذا أمك وإخوتك خارجاً يطلبونك، فأجابهم قائلاً: من أمي وإخوتي؟ ثم نظر حوله إلى الجالسين وقال: ها أمي وإخوتي، لأن من يصنع مشيئة الله هو أخي وأختي وأمّي(2)!!»

- [سفر التكوين: الاصحاح الثاني عشر ١ - ٢٠ .
- 2إنجيل مرقس: الاصحاح الثالث: ٣١ - ٣٥ .

(241)

إنه يقول هذا الكلام عن أمه التي وصفها القرآن الكريم بأن الله تعالى اصطفاها على نساء العالمين. (1)
إنه يفضّل تلاميذه الذين لم يؤمنوا به في قلوبهم ذرة من خردل، والذين خذلوه ليلة الهجوم عليه من جانب اليهود (2)- كما يقول الإنجيل - على أمه الصديقة.

كما إن الإنجيل يقول: إن المسيح حوّل الماء إلى الخمر في عرس (3)بل يقول إنه - عليه السلام - شرب الخمر(4)، والحال أن الإنجيل يصرح بحرمة الخمر في مواضع عديدة.

هذا هو «عيسى» النبي الطاهر وحواريوه حسب رواية الإنجيل. (5)!!

أما القرآن الكريم فيقول عنه غير ما يقوله: «الإنجيل» وإليك بعض ما جاء في الكتاب العزيز حول «المسيح» - عليه السلام - .

قال الله تعالى: **وَآتَيْنَا عِيسَى بِنَ مَرْيَمَ الْبَيْتَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ.**(6)

وقال تعالى أيضاً: **إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى بِنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَكَلَّمْتَهُ.**(7)

ويكفي في عظمة المسيح - عليه السلام - وعلو شأنه أنه - عليه السلام - كلّم الناس في المهد صبياً وقال: **إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ**

وَ جَعَلَنِي نَبِيًّا. وَ جَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا. وَ بَرًّا بِوَالِدَتِي وَ لَمْ يَجْعَلْنِي

- 1 آل عمران: ٤٢ .
- 2إنجيل متى: الاصحاح السابع والشعرون ١ - ٦ انظر كيف وافق يهوذا الاسخريوطي وهو أحد الحواريين مع المتآمريين ضد المسيح، وأيضاً راجع نفس السفر: الاصحاح السادس والعشرين: وراجع انجيل متى: الاصحاح العاشر أيضاً.
- 3إنجيل يوحنا: الاصحاح الثاني: ١ - ١١ .
- 4إنجيل لوقا: الاصحاح الأول ١٥ وغيره.
- 5على أنّ خرافات التوراة والإنجيل لا تنحصر في ما ذكرناه هنا، وللتوسع راجع: أنيس الأعلام تأليف فخر الإسلام، والهدى إلى دين المصطفى للعلامة البلاغي.
- 6البقرة: ٧٨ .
- 7النساء: ١٧١ .

(242)

جَبَّاراً شَقِيحاً. وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَ يَوْمَ أُمُوتُ وَ يَوْمَ أُبْعِثُ حَيًّا. ذَلِكَ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ. (1)

هذه هي مواقف القرآن الكريم من الأنبياء الكرام، والرسل العظام، وتلك هي مواقف «التوراة» و «الانجيل» المشينة، المسيئة إلى شخصية سفراء الله مبلغي رسالاته، فكيف يُعقل ان يكون القرآن الكريم مقتبساً من تلك الكتب وبينهما بُعد المشركين؟! ثم لو أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد اطلع على هذه القضايا والقصص قبل إخباره بنبوته فلماذا لم يرشح منها شيء في أحاديثه قبل الرسالة وقد عاش بين قومه طويلاً.

قال الله سبحانه في معرض الردّ والجواب على اقتراح المشركين على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن يأتي لهم بقرآن غير الذي جاء به:

(قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. (2)

فالآية تؤكد على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان لابثاً في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آياً من آياته، فكل ما أخبر به هو ممّا أوحى به الله تعالى إليه بعد ان بعثه بالرسالة. (3)

- 1مريم: 30 - 34.

- 2يونس: 16.

- 3للتوسع راجع مفاهيم القرآن: ج 3، ص 321 - 323.

(243)

٨

فَتْرَةُ الشَّبَابِ في حياة النبي الاكرم

يجب ان يكون قادة المجتمع أقوياء شجعان، لا يرهيون أحداً، ولا يخافون شيئاً، يمتلكون قوة روحية كبرى، ويتمتعون بصبر عظيم. وإرادة قوية، صلبة.

فكيف يستطيع الضعفاء والجنباء والمتردّون، وضعاف النفوس قيادة المجتمع، والخروج به من المأزق والمشاكل، وكيف يستطيعون أن يقاوموا اعداءهم ويحفظوا كياناتهم وشخصيتهم من عدوان هذا أو ذاك؟!!

إن لعظمة القائد الروحية، ولقواه البدنية والنفسية تأثيراً عظيماً وعجيباً في أتباعه وأنصاره، فعند ما اختار الإمام امير المؤمنين - عليه السلام - أحدَ اصحابه المخلصين لولاية «مصر» كتب إلى أهل «مصر» المظلومين الذين ذاقوا الأُمّرين على ايدي ولاتهم

السابقين كتاباً ذكر فيه شجاعة هذا الوالي الجديد، الروحية وقدرته النفسية الفائقة، واليك فيما يلي بعض الفقرات من ذلك الكتاب الذي يعكس الشروط والمواصفات الواقعية في القائد:

«أما بعدُ فقد بعثتُ اليكم عبداً من عباد الله لا ينام أيام الخوف، ولا يَنكُلُ عن الأعداء ساعات الروح، أشدَّ على الفجار من حريق النار، وهو مالك بن الحارث أخو مزحج، فاسمعوا له وأطيعوا أمره فيما طابَقَ الحق، فإنه سيُفِّتُ من

(244)

سَيُوفِ الله، لا كليلُ الطَّبَّة، ولا نابي الضريبة. (1)»

رسولُ الله وقدرتهُ الروحيةُ:

لقد كانت آثار الشجاعة، والقوة باديةً في جبين عزيز قريش منذ طفولته وصباه، ففي الخامسة عشرة من عمره الشريف شارك في حرب هاجت بين قريش من جهة، وقبيلة هوازن من جهة اخرى، وتدعى «حرب الفجار»، وقد كان في هذه الحرب يناول أعمامه النبل.

فها هو «ابن هشام» ينقل عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «كُنْتُ أَنْبِلُ عَلَى أَعْمَامِي. (2)»

إن مشاركته - صلى الله عليه وآله وسلم - في العمليات الحربية في مثل هذه السن تكشف عن شجاعته - صلى الله عليه وآله وسلم - وقدرته الروحية الكبرى وتساعدنا على أن ندرك مغزى ما قاله أمير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - في حق النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - «: كُنَّا إِذَا أَحْمَرُ أَلْبَاسُ إِيْتَقِينَا بِرَسُولِ اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَّا أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ. (3)»

وسوف نشير - وبعون الله عند ذكر جهاد المسلمين للكفار والمشركين - إلى نظام العسكرية الإسلامية وكيفية جهاد المسلمين وقتالهم لأعدائهم التي تَمَّتْ بأجمعها بتوجيه من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وهو في نفسه من الابحاث الشيقة في تاريخ الإسلام.

حُرُوبُ الْفِجَارِ:

إنَّ الحديثَ بتفصيل هذه الوقائع وعن تكتيكات هذه الحوادث التاريخية

- [نهج البلاغة: قسم الرسائل، الرقم ٣٨.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٦، وقد قال ابن الأثير في النهاية بعد نقل هذا الحديث وضبط الكلمة «انبل» مشددة «أنبل»: «إذا ناولته النبل يرمي» راجع مادة نبل.
- 3 نهج البلاغة: فصل في غريب كلامه الرقم ٩.

خارج عن إطار هذه الدراسة، بيد أننا - مع ذلك - نعتمد إلى بيان أسباب هذه الحروب التي شارك في إحداها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بناء على رواية بعض المؤرخين وحوادثها على نحو الاجمال بغية اطلاع القارىء الكريم.

كانت العرب تقضي عامها كله بالقتال والاغارة، وقد تسبب هذا الوضع في اختلال حياتهم، واضطراب أمورهم، ولأجل هذا كانوا يحرمون القتال ويتوقفون عنه في أربعة أشهر من كل عام (هي شهر رجب، ذوالقعدة، ذوالحجة، محرم) ليتسنى لهم - في هذه المدة - أن يقيموا أسواقهم، ويستغلّوها بالكسب والتجارة والبيع والشراء. (1)

ولهذا كانت أسواق «عكاظ» و «مجنّة» و «ذوالمجاز» تشهد طوال هذه الأشهر الحرام اجتماعات كبرى وتجمعات حافلة وحاشدة، كان يلتقي فيها العدو والصديق جنباً إلى جنب، يتبايعون، ويتفاخرون.

فقد كان شعراء العرب المشهورون يلقون قصائدهم في هذه الاجتماعات الكبرى، كما يلقي كبارُ خطباء العرب وفصحاؤهم خطباً قوية، وأحاديث في غاية الفصاحة والبلاغة، وكان اليهود والنصارى والوثنيون يعرضون معتقداتهم في هذه المناسبات من دون خوف أو وجل.

ولكن هذه الحرمة قد هُتكت أربع مرات في تاريخ العرب، وتقاتلت القبائل العربية فيما بينها في هذه الأشهر الحرم، ولهذا سُميت تلك الحروب بحروب «الفجار»، وفي مايلي نشير إليها على نحو الاجمال:

الفَجَارُ الأوَّل:

ووقعت الحربُ فيها بين قبيلتي «كنانة» و «هوازن» وجاء في سبب نشوب

- [يُستفاد من قوله تعالى في الآية ٣٦ من سورة التوبة: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ» أن تحريم القتال في هذه الأشهر الأربعة كان ذا جذور دينية، وكانت العرب الجاهلية تحترم هذه الأشهر اتباعاً لسنة «إبراهيم الخليل» عليه السلام.

هذه الحرب أن رجلاً يدعى «بدر بن معشر» كان قد أعدّ لنفسه مكاناً في سوق «عكاظ» يحضر فيه، ويذكر للناس مفاخره فوقف ذات مرة شاهراً سيفه يقول: أنا والله أعزُّ العرب فمن زعم أنه أعزُّ منِّي فليضربها بالسيف.

فقام رجلٌ من قبيلة أخرى فضرب بالسيف ساقه فقطعها، فاختمت الناس وتنازعت القبيلتان، ولكنهما اصطلحتا من دون أن يُقتل

الفِجَارُ الثَّانِي:

وكان سببه أن فتية من قريش قعدوا إلى امرأة من «بني عامر» وهي جميلة، عليها برقع، فقالوا لها: إسفري لنا ننظر إلى وجهك، فلم تفعل، فقام غلامٌ منهم، فجمع ذيل ثوبها إلى مافوقه بشوكة فلما قامت انكشف جسمها، فضحكوا، فصاحت المرأة قومها، فأتاها الناس، واشتجروا حتى كاد أن يكون قتالٌ، ثم اصطلحوا، وانفضوا بسلام.

الفِجَارُ الثَّالِث:

وسببه أن رجلاً من «كنانة» كان عليه ذئبٌ لرجل من «بني عامر»، وكان الكنايني يماطل، فوقع شجاراً بين الرجل، واستعدى كل واحد منهما قبيلته، فاجتمع الناس، وتجاوزوا حتى كاد يكون بينهم القتال، ثم اصطلحوا.

الفِجَارُ الرَّابِع:

وهي الحرب التي - قيل أنه - شارك فيها النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد ادعى البعض انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يومذاك في الخامسة عشرة، أو الرابعة عشرة من عمره.

- [ولقد كان مما أزاله الإسلام ومحاه هذا التفاخر الجاهلي المقيت، وستعرف هذا في الأبحاث القادمة.

(247)

وقال بعضٌ: انه كان في العشرين من عمره وحيث أن هذه الحرب قد استمرت أربع سنوات. لهذا يمكن أن تكون جميع هذه الأقوال صحيحة. (1)

وقيل في سببه: أن «النعمان بن المنذر» ملك الحيرة كان يبعث إلى سوق «عكاظ» في كل عام بضاعة في جوار رجل شريف من أشرف العرب، يُجيرها له حتى تباع هناك ويشتري بثمنها من أقمشة «الطائف» الجميلة المزركشة مما يحتاج إليه، فأجارها «عروة الرجال الهوزاني» في تلك السنة، ولكن «البراض بن قيس الكنايني» انزعج لمبادرة «عروة» إلى ذلك، فشكاه عند «النعمان بن المنذر» ولم يجد اعتراضه وشكواه، فحسد على «عروة» حسداً شديداً، فتربص به حتى غدر به في أثناء الطريق، وبذلك لطمخ يده بدم هوزاني.

وكانت قريش يومذاك حليف كنانة، وقد اتفق وقوع هذا الأمر يوم كانت العرب مشغولة بالكسب والتجارة في سوق عكاظ، فأخبر رجل قريشاً بمقتل الهوزاني على يد الكنايني، ولهذا عرفت قريش وحليفاتها بنو كنانة بالأمر قبل هوازن، وأسرعوا في الخروج من «عكاظ» وتوجهوا نحو الحرم (والحرم هو أربعة فراسخ من كل جانب من مكة، وكانت العرب تحرم القتال في هذه المنطقة) ولكن

هوازن علمت بذلك فلاحقت قريش ٣ وحليفها فوراً، وادركتهم قبل الدخول في الحرم فوقع بينهم قتال، ولما جنَّ الليل كفوا عن الحرب فاغتنمت «قريش» وحليفها فرصة الليل، وواصلت حركتها باتجاه الحرم المكي وبذلك نجت من خطر العدو.

ومنذ ذلك اليوم كانت تخرج قريش وحليفها من الحرم بين الفينة والأخرى وتقاتل هوازن، وقد شارك النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في بعض تلك الأيام مع أعمامه على النحو الذي مرَّ بيانه.

وقد استمر الامر على هذه الحال مدة أربع سنوات، حتَّى ان وُضعت نهاية

- [التاريخ الكامل: ج ١، ص ٣٥٨ و ٣٥٩، السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٤ الهامش، تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٥٩.

(248)

لهذه الحرب الطويلة بدفع قريش لهوازن دية القتلى الذين كانوا يزيدون على قتلى قريش على يد هوازن. (1)

وقد أسلفنا أن تحريم القتال في الأشهر الحرم كانت له جذورٌ دينية، وحيث أن حرب «الفجار» استمرت أربع سنوات فيمكن أن يكون لمشاركة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فيها وجهاً وجيباً وهو الدفاع، خاصة انه لما سئل - صلى الله عليه وآله وسلم - عن مشهده يومئذ فقال: «ما سرّني أنّي أشهده، إنهم تعدّوا على قومي عرضوا (اي قريش) عليهم (اي على هوازن) أن يدفّعوا إليهم البرّاض صاحبهم (اي الذي قتل عروة) فأبوا. (2)»

ويحتمل أن تكون مشاركته - صلى الله عليه وآله وسلم - في غير الأشهر الحرم بناء على استمرار هذه الحروب مدة اربعة اعوام، وإنما سميت مع ذلك بالفجار لأن بدايتها وافقت الأشهر الحرم لا أنّها وقعت بتمامها في الأشهر الحرم.

وبذلك لا يبقى مجال لأن تُسْتَبَعِد مشاركة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في بعض أيام تلك الحرب.

حَلْفُ الْفُضُول:

لقد كان في ما مضى ميثاقٌ وحلفٌ بين الجرهميين يدعى بحلف «الفضول»، وكان هذا الحلف يهدف الى الدفاع عن حقوق المظلومين، وكان المؤسسون لهذا الحلف هم جماعة كانت اسماءهم برمتها مشتقة من لفظة الفضل، واسماؤهم - كما نقلها المؤرخ المعروف «عمادالدين ابن كثير» - هي عبارة عن: «فضل بن فضالة»، و «فضل بن الحارث»، و «فضل بن وداعة»(3)، وحيث أن الحلف الذي عقده جماعة من قريش فيما بينها كان متحداً في الهدف (وهو الدفاع عن حقوق المظلومين) مع حلف «الفضول» لذلك سمّي هذا الاتفاق

- [سيرة ابن هشام: ج ١، ص ١٨٤ - ١٨٧، الأغاني: ج ٢٢، ص ٥٦ - ٧٥.
- ١2 الأغاني: ج ٢٢، ص ٧٣.
- 3 البداية والنهاية: ج ١، ص ٢٩٠.

(249)

وهذا الحلف بحلف «الفضول» أيضاً.

فقبل البعثة النبوية الشريفة بعشرين عاماً دخل رجلٌ من «زبيد في مكة في شهر ذي القعدة، وعرض بضاعة له للبيع فاشتراها منه «العاص بن وائل»، وحبس عنه حقه، فاستعدى عليه الزبيديّ قريشاً، وطلب منهم أن ينصروه على العاص، وقريش آنذاك في انديتهم حول الكعبة، فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته * بيطن مكة نائي الدار والنقر

ومحرّم أشعث لم يقض عُمرته * يا للرجال وبيّن الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمّت كرامته * ولا حرام لثوب الفاجر القذر

فاتارت هذه الأبيات العاطفية مشاعر رجال من قريش، وهيجت غيرتهم، فقام «الزبير بن عبدالمطلب» وعزم على نصرته، وأيده في ذلك آخرون، فاجتمعوا في دار «عبدالله بن جدعان» وتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكوننّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يودى إليه حقه ما أمكنهم ذلك ثم مشوا إلى «العاص بن وائل» فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

وقد أنشد الزبير بن عبدالمطلب في ذلك شعراً فقال:

إنّ الفضول تعافدوا وتحالفوا * ألا يقيم بيطن مكة ظالم

أمرٌ عليه تعافدوا وتوافقوا * فالجار والمعتز فيهم سالم

وقال أيضاً:

خلفت أنعتن حلفاً عليهم * وإن كُنّا جميعاً أهل دار

نسّميه «الفضول» إذا عقّنا * يعزّبه الغريب لذي الجوار

ويعلم من حوالي البيت أتا * أبا الضنم تمنع كلّ عار⁽¹⁾

وقد شارك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، في هذا الحلف الذي ضمن حقوق المظلومين وحياتهم، وقد نُقلت عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - عبارات كثيرة يشيد فيها بذلك الحلف ويعتزُّ فيها بمشاركته فيه وما نحن ننقل حديثين منها في

- [البداية والنهاية: ج ١، ص ٢٩٠.

(250)

هذا المقام.

قال - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«لقد شهدت في دار عبدالله بن جدعان حلفاً لودعيتهُ به في الإسلام لأجبتُ. »

كما أن ابن هشام نقل في سيرته أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يقول في ما بعد عن هذا الحلف: «ما أحبُّ أن لي به حُمْرَ النِّعَمِ. »

ولقد بقي هذا الحلف يحظى بمكانة واحترام قويين في المجتمع العربي والإسلامي حتى أن الأجيال القادمة كانت ترى من واجبها الحفاظ عليه والعمل بموجبه، ويدل على هذا قضية وقعت في عهد إمارة «الوليد بن عتبة» الأموي (1) على المدينة.

فقد وقعت بين الإمام الحسين بن علي - عليه السلام - وبين أمير المدينة هذا منازعة في مال متعلق بالحسين - عليه السلام - ، ويبدو أن «الوليد» تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له الإمام السبط الذي لم يرضخ لحيف قط، ولم يسكت على ظلم أبداً: «أحلفُ بالله لتُنصِفَنِي مِنْ حَقِّي، أَوْ لَأُحْدَنَنَّ سَيْفِي نَمَّ لَأَقُومَنَّ فِي مَسْجِدِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - ثُمَّ لَأَدْعُونَ بِحَلْفِ الْفُضُولِ. (2)»

فاستجاب للحسين فريق من الناس منهم «عبدالله بن الزبير»، وكَرَّرَ هذه العبارة وأضاف قائلاً: وأنا أُحْلِفُ بِاللَّهِ لئن دعا به لَأُحْدَنَنَّ سَيْفِي نَمَّ لَأَقُومَنَّ مَعَهُ حَتَّى يُنْصَفَ مِنْ حَقِّهِ أَوْ نَمُوتَ جَمِيعاً.

وبلغت كلمة الحسين السبط - عليه السلام - هذه إلى رجال آخرين كـ «المسورة بن مخزومة بن نوفل الزُّهري» و «عبدالرحمان بن عثمان» فقالا مثل ما قال «ابن الزبير»، فلما بلغ ذلك «الوليد بن عتبة» أنصف الحسين - عليه السلام - من حقه حتى رضي. (3)

- [من قبل عمه معاوية.

- 2السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٢.

- 3البداية والنهاية: ج ٢، ص ٢٩٣.

من فترة الشباب إلى مزاولة التجارة

يحمل القادة الالهيون العظماء وأصحاب الرسالات السماوية على كواهلهم مسؤوليات كبرى، ومهام عظمى تلازم - في الأغلب - التعرض للمتاعب والمصاعب، والعذاب، وتحمل الأذى، بل وربما التعرض للقتل والاعتقال، وكلما كبرت الاهداف، عظمت المشاكل، والمتاعب.

وعلى هذا الاساس، فان نجاح القادة الرساليين يتوقف على مدى صبرهم واستقامتهم في وجه الاتهامات والمضايقات، وفي وجه الأذى والعذاب، لأن الصبر والتحمل في جميع مراحل الجهاد والعمل هو الشرط الاساسي للوصول إلى المقصود، وإلى تحقيق الهدف المنشود والغاية المطلوبة.

من هنا ليس لقائد حقيقي أن يخشى كثرة العدو، وليس له ان ينسحب، أو يضعف لقلّة الاتباع والمؤيدين وبالتالي ليس له أن يقلق للنوائب فتخور عزيمته، أو ترخو إرادته، مهما عظمت حلق البلاء واشتدت، ومهما تزايدت، أو تواترت.

إننا نقرأ في تاريخ الأنبياء وقصصهم أموراً يعسر على الإنسان العادى هضمها، ويصعب تصوّرها.

فعن نوح النبي - عليه السلام - نقرأ أنه دعا قومه تسعمائة وخمسين عاماً، ولم تنتج هذه الدعوة الطويلة المضنية سوى قلة من المؤمنين والمؤيدين الذين لم

يتجاوز عددهم الواحد والثمانين، وهذا يعني أنه لم يوفق في كل اثني عشر عاماً الإلهادية شخص واحد.

إنّ إرادة الصبر، وقوّة التحمّل، والتصبر تظهر لدى الإنسان شيئاً فشيئاً، فلا بدّ أن تتلاحق حوادثٌ صعبةٌ، ولا بدّ أن يمرّ المرء بنوائب مزعجة حتى تأنس روحه بالامور الثقيلة، والقضايا الصعبة.

لقد قضى رسولٌ - صلى الله عليه وآله وسلم - شطراً من حياته قبل البعثة في رعي الغنم في الصحاري والقفار، ليكون بذلك صبوراً في تربية الناس الذين سيكلّف بقيادتهم وهدايتهم، وليستسهل كل صعب في هذا المجال.

إن ادارة المجتمع البشرى من أصعب الأمور التي تواجه القادة، ورجال الاصلاح. والمقدرة على الإدارة هذه لا تسنح ولا تنهياً لأحد إلا بعد مزاوله الأمور الصعبة، وممارسة الأعمال الشاقة، وربما يكون قيام النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - برعى الغنم من هذا الباب، ولهذا جاء في الحديث.

«مَا بَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ حَتَّى يَسْتَرْعِيَهُ الْغَنَمَ لِيُعَلِّمَهُ بِذَلِكَ رِعْيَةَ النَّاسِ. (1)»

لقد قضى النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - شطراً من عمره الشريف في هذا المجال، وينقل كثير من ارباب السير والمؤرخين هذه العبارة عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«مَا مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا وَقَدْ رَعَى الْغَنَمَ» قِيلَ: وَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟

فَقَالَ: «أَنَا رَعَيْتُهَا لِأَهْلِ مَكَّةَ بِالْفَرَاظِ. (2)»

إن شخصية عظيمة يُفترض فيها أن تواجه - في المستقبل - أشخاصاً عنودين كأبى جهل وأبى لهب، وأن تصنع ممن انحطت أفكارهم حتى أنهم سجدوا لكل حجر ومدبر، أفراداً لا يخضعون لأي شيء سوى ارادة الحق ومشيئته، لا بد أن تتسلح قبل ذلك بسلاح الصبر، وتتجهز بأداة التحمل، وتتزود مسبقاً بقدرة الاستقامة على طريق الهدف، وهذا لا يكون إلا بتعويد النفس على هذه

- [سفينة البحار: مادة نبأ.
- 2السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ١٦٦.

(253)

الصفات، وحملها على مشاق الاعمال:

سبب آخر لرعى الغنم:

ويمكن أن نذكر هنا سبباً آخر أيضاً وهو ان رجلا حرّ النفس والعقل كرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تجري في شرايينه وعروقه دماء الغيرة والشجاعة كان يشق عليه ان يشاهد كل ذلك الظلم والحيف الذي كان يمارسه طغاة مكة، وعتاة قريش وزعماؤها الظالمون القساة بحق الضعفاء، والمحرومين، وكذا كان يشق عليه ان يرى تظاهرهم بالعصيان والفسوق في حرم الله، وعند بيته المعظم.

إن اعراض سُكَّان مكة عن عبادة الله الواحد الحق، وطوافهم حول تلك الأصنام الخاوية هي - بلا ريب - أسوأ واقبح ما يكون في نظر الرجل الفاهم، والعامل العالم، واثقل ما يكون عليه.

من هنا رأى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يقضي رداً من الزمن في الصحاري والقفار وعند سفوح الجبال التي كانت يومئذ بعيدة بطبيعة الحال عن تلك المجتمعات الفاسدة وأحوالها وأوضاعها، ليستريح (أو يتخلص) بعض الشيء من آلامه الروحية الناشئة من رؤية تلك الأوضاع المزرية، والأحوال المشينة.

على أن هذا الأمر لا يعني أن للرجل المتقي أن يسكت على الفساد والظلم، ويقرّ عليهما.

ويفرّق بين حياته وحياته الآخرين ويعتزل عنهم ويتخذ موقف اللامبالاة تجاه الأوضاع المنحرفة، والأحوال الشاذة، بل إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما كان مأموراً من جانب الله سبحانه بالسكوت والانتظار، لأنه لم تكن ظروف «البعثة» والهداية قد توفرت وتهيأت بعد لذلك اتخذ - صلى الله عليه وآله وسلم - مثل هذا الموقف.

* * *

(254)

سبب ثالث:

ولقد كان هذا العمل (أي الاشتغال برعي الاغنام في البراري والقفار وعند السهول وسفوح الجبال) فرصة جيدة لأن يتمكن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من النظر في خلق السماوات والتطلع في النجوم والكواكب وأحوالها وأوضاعها، وبالتالي الامعان في الآيات الأنفسية والأفاقية التي هي جميعاً من آيات وجود الله تعالى، ومن مظاهر قدرته وحكمته وعلمه وإرادته.

إن قلوب الأنبياء والمرسلين مع أنها منوّرة بمصابيح المعرفة المشرقة ومضاءة بأنوار الايمان والتوحيد منذ بدء فطرتها، وخلقتها، ولكنهم مع ذلك لا يرون انفسهم في غنى عن النظر في عالم الخلق، والتفكر في الآيات الالهية، إذ من خلال هذا الطريق يصلون إلى أعلى مراتب الايمان، ويبلغون اسمى درجات اليقين، وبالتالي يتمكنون من الوقوف على ملكوت السماوات والأرضين.

إقتراح أبي طاب:

لقد دفع وضع (محمّد) المعيشي الصعب «أبا طالب» سيد قريش وزعيمها الذي كان معروفاً بالسخاء وموصوفاً بالشهامة، وعلو الطبع، وإباء النفس إلى أن يفكر في عمل لابن أخيه، كيما يخفف عنه وطأة ذلك الوضع.

ومن هنا اقترح على ابنه أخيه «محمّد» العمل والتجارة بأموال «خديجة بنت خويلد» التي كانت امرأة تاجرة، ذات شرف عظيم، ومال كثير، تستأجر الرجال في مالها أو تضاربهم إياه بشيء تجعله لهم منه.

فقد قال أبو طالب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : يا ابن أخي هذه خديجة بنت خويلد قد انتفع بمالها أكثر الناس وهي تبحث عن رجل أمين، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك، وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك.

ولكن إباء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلو طبعه، منعه من الإقدام

(255)

بنفسه على هذه الأمر من دون سابق عهد، ولهذا قال - صلى الله عليه وآله وسلم - لعمه: فلعلها أن ترسل إليّ في ذلك، لأنّها تعرف بأنه المعروف بالأمين بين الناس.

فبلغ «خديجة» بنت خويلد، ما دار بين النبي وعمه «أبي طالب»، فبعثت إليه فوراً تقول له: إنّي دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، وأنا اعطيك ضعف ما أعطى رجلا من قومك وابعث معك غلامين يأتمران بأمرك في السفر.

فاخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمه بذلك فقال له أبو طالب: «إنّ هذا رزق ساقه الله إليك.»⁽¹⁾

هل عمل النبي أجيراً لخديجة؟

وهنا لابدّ من التذكير بنقطة في هذا المجال وهي:

هل عمل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أجيراً في أموال خديجة، أم أنه قد عمل في تجارتها بصورة أخرى كالمضاربة، وذلك بأن تعاقد النبي مع خديجة على أن يتاجر بأموالها على أن يشاركها في ارباح تلك التجارة؟

إنّ مكانة البيت الهاشمي، وإباء النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - ومناعة طبعه، كل تلك الأمور والخصال توجب أن يكون عمل النبي في أموال خديجة قد تمّ بالصورة الثانية (أي العمل في تجارتها على نحو المضاربة لا الإجارة)، وتؤيد هذا المطلب أمور هي:

أولاً: انه لا يوجد في اقتراح أبي طالب أية إشارة ولا أي كلام عن الإجارة، بل قد تحاور أبو طالب مع إخوته (أعمام النبي) في هذه المسألة من قبل وقال: «امضوا بنا إلى دار خديجة بنت خويلد حتّى نسألها ان تعطي محمّداً ما لا يتجر به.»⁽²⁾

- [بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٢، السيرة الطليبية: ج ١، ص ١٣٢ و ١٣٣، الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٢٤.
- 2[بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٢.

(256)

ثانياً: ان المؤرخ الأقدم المعروف باليعقوبي كتب في تاريخه: ان النبي ما كان أجيراً لأحد قط. (1)

ثالثاً: ان الجنازدي صرّح في كتابه «معالم العترة» بأن «خديجة» كانت تضاربُ الرجال في مالها، بشيء تجعله لهم منه (اي من ذلك المال أو من ربحه). (2)

* * *

تهيأت قافلة قريش التجارية للسفر إلى الشام، وفيها أموال «خديجة» أيضاً، في هذه الاثناء جعلت «خديجة» بغيراً قوياً وشيناً من البضاعة الثمينة تحت تصرّف وكيلها (أي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وامرت غلامها (ميسرة وناصح) اللذين قررت ان يرافقه - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يمثلا أومراه، ويطيعاه، ويتعاملا معه بأدب طوال تلك الرحلة، ولا يخالفاه في شيء. (3) وأخيراً وصلت القافلة إلى مقصدها واستفاد الجميع في هذه الرحلة التجارية أرباحاً، إلا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ربح أكثر من الجميع، كما أنه ابتاع أشياء من الشام لبيعها في سوق «تهامة»»

ثم عادت تلك القافلة التجارية إلى «مكة» بعد ذلك المكسب الكبير، والحصول على الربح الوفير.

ولقد تسنى لفتى قريش «محمّد» أن يمرّ - للمرة الثانية في هذه السفرة - على ديار عاد وثمود.

وقد حمله الصمّتُ الكبير الذي كان يخيم على ديار واطلال تلك الجماعة العاصية المتمردة في نقلة روحانية إلى العوالم الأخرى أكثر فاكتر، هذا مضافاً إلى أن هذه الرحلة جدّدت خواطره وذكرياته في السفرة الأولى، فقد تذكر يوم طوى مع عمه «ابي طالب» هذه الصحاري نفسها وهذه القفار ذاتها، وما كان يحظى

- 1 تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٢١.
- 2 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٩ نقلا عن معالم العترة.
- 3 قالت خديجة لهما: إعلما أنني قد أرسلتُ اليكما أميناً على أموالي وأنه أمير قريش وسيدها، فلا يدُ على يده، فإن باع لا يُمنع وإن ترك لا يؤمر وليكنْ كلامكما له بلطف وأدب ولا يعلو كلامكما على كلامه. (بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٩).

فيها من عمه من الحذب والعناية.

وعند ما اقتربت قافلة قريش إلى «مكة»، وصارت عند مشارفها، التفت «ميسرة» غلامُ خديجة، إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: «يامحمّد لقد ربحتنا في هذه السفرة ببركتك ما لم نربح في اربعين سنة، فاستقبل بخديجة وابشرها بربحنا» فأخذ النبي باقتراح ميسرة، وسبق القافلة العائدة في الدخول إلى مكة، وتوجه نحو بيت «خديجة» بينما كانت خديجة جالسة في غرفتها، فلما رأَت النبي مقبلاً عليها، نزلت من منظرتها وركضت نحوه واستقبلته، وأدخلته في غرفتها، فخبّر ها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - بما ربحوا، ببيان جميل، وكلام بليغ، فسرت «خديجة» بذلك سروراً عظيماً، ثم قدم «ميسرة» في الأثر، ودخل عليها، وأخبرها بكل ما رآه وشاهده من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك السفرة من الكرامة والخير، والخلق العظيم، والخصال الكريمة، ومن الأمور التي كانت برمتها تدل على عظمة شخصيته - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وسمو خصاله⁽¹⁾، ومن جملة ما حدثها به ميسرة هو أنه لما وقع بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين رجل تلاح وجدال في بيع قال له ذلك الرجل: إحلّف باللات والغزى، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما حلفنّ بهما قط، وإني لأمرُّ فاعرضُ عنهما. (2)

وحدثها أيضاً بأنه لما مرَّ ببصرى نزلاً في ظل شجرة ليستريحها فقال راهبٌ كان يعيش هناك لما رأى النبيّ يستريح في ظل تلك الشجرة: «ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبيّ» سأل عن اسمه، فأخبره ميسرة باسمه فقال: «هو نبيّ وهو آخر الأنبياء، إنه هو هو ومُنزّل الانجيل، وقد قرأت عنه بشائر كثيرة. (3)»

- 1 الخرايج: ص ١٨٦، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٥.
- 2 الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٣٠ وفي بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٨: انه صَلَّى اللهُ عليه وآله قال: إليك عني تكلتك أمك فما تكلمت العرب بكلمة أثقل عليّ من هذه الكلمة.
- 3 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٨، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٣٠، الكامل لابن الأثير: ج ٢، ص ٢٤ و ٢٥.

(258)

خديجة زوجة الرسول الأولى:

حتى قبل ذلك اليوم لم تكن حالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الاقتصادية ووضعته المالي يُحسدُ عليه، فقد كان بحاجة إلى مساعدة عمّه «أبي طالب» المالية، ولم يكن شغله على النحو الذي يكفي لضمان نفقاته، من جانب، وتمكينه من اختيار زوجة وشريكة حياة وتكوين عائلة، من جانب آخر.

ولكن هذه السفارة إلى الشام وبخاصة على نحو الوكالة والمضاربة في أموال امرأة جلييلة، معروفة في قريش (أعني خديجة) ساعدت وإلى حدّ كبير على تثبيت وضعه الاقتصادي وتقوية بنيته المالية.

ولقد اعجبت «خديجة» بعظمة فتى قريش وسمو أخلاقه، ومقدرته التجارية حتى أنها أرادت أن تعطيه زيادة على ما تعاقدا عليه، تقديراً له، واعجاباً به، ولكنه اكتفى بأخذ ما تقرر في البداية ثم توجه إلى بيت عمه «أبي طالب» وقدم كل ما أخذه من «خديجة» إلى عمه «أبي طالب» ليوسّع به على أهله.

ففرح «أبو طالب» بما عين من ابن أخيه، وبقية أبيه «عبدالمطلب»، وأخيه «عبدالله» وأغرورقت عيناه بالدموع، وسرّ بما حقق من نجاح وما حصل عليه من ربح من تلك التجارة سروراً كبيراً، واستعدّ أن يعطيه بعيرين يسافر عليهما ويتاجر، وراحتين يُصلح بهما شأنه، لبيتسنى له بأن يحصل على ثروة ومال يعطيه لعمه ليختار له زوجة.

في مثل هذه الظروف بالذات عزم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عزمًا قاطعاً على أن يتخذ لنفسه شريكة حياة ويكون أسرة، ولكن كيف وقع الاختيار على «خديجة» التي سبق لها أن رفضت كل طلبات الزواج التي تقدم بها كبار الاثرياء والشخصيات القرشية مثل «عقبة بن أبي معيط»، و «أبو جهل» و «أبوسفيان» للزواج بها؟؟!، وماذا كانت العلة التي جمعت هذين الشخصين غير المتشابهين، من حيث مستوى الحياة، والثراء؟ وكيف ظهرت تلك الرابطة القوية، وتلك العلاقة المعنوية العميقة، والألفة والمحبة بينهما إلى درجة أنّ

(259)

«خديجة» سلام الله عليها وهبت كل ثروتها للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لينفقها في نشر الإسلام، وإعلاء كلمة الحق، وإرساء قواعد التوحيد، وبث الدين الجديد، واصبحت تلك الدار المفخمة التي كانت تزينها الكراسي المرصعة، والستر المطرّزة، المصنوعة من أعلى الأقمشة الهندية، والإيرانية، ملجأً للمسلمين، وملتقى لانصار الرسالة!!

لابدّ من البحث عن جذور هذه الحوادث في تاريخ حياة «خديجة» نفسها، فان من المسلمّ والبديهي أن هذا النوع من الفداء، والتفاني والإيثار لم يكن ثابتاً ليتحقق ما لم يكن لها جذور معنوية وظاهرة.

إن صفحات التاريخ لتشهد بأنّ هذا الزواج كان ناشئاً من إيمان «خديجة» بتقوى عزيز قريش وقتاها الامين «محمّد» وطهره، وحبها الشديد لعفته وكرم أخلاقه، ولهذا قال النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - في حقها: «أفضل نساء الجنة أربع: خديجة. (1)»...

إنها أول امرأة آمنّت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فقد قال علي أمير المؤمنين - عليه السلام - : في خطبته التي يشير فيها إلى غربة الإسلام في مبدأ البعثة النبوية الشريفة:

«لَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِدٌ يَوْمَئِذٍ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ وَ خَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا. (2)»

ويكتب «ابن الأثير» قائلاً: إنّ عفيف الكندي كان إمرأً تاجرأ قدم مكة أيام الحج فرأى رجلاً قام تجاه الكعبة يصليّ ثم خرجت امرأة تصليّ معه، ثم خرج غلام فقام يصليّ معه، فمضى يسأل العباس عمّ النبي عن هؤلاء، وعن هذا الدين، فقال العباس:

هذا محمّد بن عبد الله ابن أخي زعم أن الله ارسله، وهذه امرأته خديجة آمنت به، وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به، وأبى الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلا هؤلاء الثلاثة. (١)

وينبغي هنا أن نعطي لمحة عن مكانة خديجة في الإسلام تكميلاً لهذه الدراسة.

خديجة في أحاديث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم -

:

لقد اكتسبت «خديجة» بفضل إيمانها العميق بالرسالة المحمدية، وتفانيها في سبيل الإسلام وبسبب حرصها العجيب على حياة صاحب الرسالة وسلامته، وعملها المخلص على انجاح مهمته، ومشاركتها الفعالة، في دفع عجلة الدعوة إلى الامام، ومشاطرتها للنبي في أكثر ما تحمله من محن واذى بصبر واستقامة وحب ورغبة.

لقد اكتسبت خديجة بفضل كل هذا وغيره مكانة سامية في الإسلام، حتى ان النبي ذكرها في أحاديث كثيرة وأشاد بفضلها، ومكانتها وشرفها على غيرها من النساء المسلمات المؤمنات، وذلك ولا شك ينطوي على أكثر من هدف.

فمن جملة الأهداف التي ربما توخاها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من الإشادة بخديجة - عليها السلام - الفات نظر المرأة المسلمة إلى القدوة التي ينبغي أن تقتدي بها في حياتها وسلوكها في جميع المجالات والأبعاد، والظروف، والحالات.

هذا مضافاً إلى ما يمكن أن تقدمه المرأة وهي نصف المجتمع (إن لم تكن أكثره أحياناً) من دعم جدي للرسالة، مادياً كان أو معنوياً

وفيما يلي نأتي ببعض الأحاديث الشريفة التي تعكس مكانة خديجة، ومقامها، ومدى إسهامها في نصرته الإسلام ودعم دعوته، وإرساء قواعده.

1- عن أبي زرعة عن أبي هريرة يقول قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«أتاني جبرئيل - عليه السلام - فقال يا رسول الله هذه خديجة قد أتتك ومعها أنية فيها ادم أو طعام أو شراب، فإذا هي أتتك فاقرأ -

عليها السلام - من ربها ومني، وبئسها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. (1)»

2- عن عائشة قالت: ما غرث على امرأة ما غرث على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت اسمعه يذكرها،

ولقد أمره ربه عزوجل أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يهديها إلى خلائها (أي خليلاتها وصدقاتها). (2)

3- وعن عائشة أيضاً قالت ما غرث على نساء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا على خديجة، واني لم أدركها، (قالت): وكان

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا ذبح الشاة فيقول: أرسلوا بها إلى اصدقاء خديجة قالت: «أي عائشة» فاعضبته يوماً

فقلت: خديجة!! فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: اني قد رزقت حبها. (3)»

4- ومن هذا القبيل ما كان يقوم به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع صاحبات خديجة من الاحترام لهن والاحتفاء بهن:

فقد وقف - صلى الله عليه وآله وسلم - على عجوز فجعل يسألها، ويتحفاها، وقال:

«ان حسن العهد من الايمان، انها كانت تأتينا ايام خديجة. (4)»

5- وروي عن انس قال كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا أتى بهدية قال: «إذهبوا بها إلى بيت فلانة فانها كانت صديقة

لخديجة إنها كانت تحب خديجة. (5)»

- [صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٣، مستدرک الحاكم: ج ٣، ص ١٨٤ و ١٨٥ بطرق متعددة صحيحة على شرط الشيخين.
(2) و (٣) صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٤، ومثلها في صحيح البخاري: ج ٥، ص ٣٨ و ٣٩.
- 4 شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٨، ص ١٠٨.
- 5 سفينة البحار: ج ١، ص ٣٨٠ (خدج).

6- روى مجاهد عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يكاد يخرج من البيت

حتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الايام فادركتني الغيرة فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها،

فغضب حتى أهنز مقدّم شعره من الغضب، ثم قال: «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، آمننتُ بي إذ كفر الناس، وصدقتني وكذبني

الناس وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء» قالت عائشة فقلت في نفسي: لا أذكرها

بسيئة ابداً. (1)

7- عن يعلى بن المغيرة عن ابن ابي رواد قال: دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على خديجة في مرضها الذي ماتت

فيه، فقال لها:

«يا خديجة أتكرهين ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيراً كثيراً، أما علمت أن الله تعالى زوّجني معك في الجنة مريم بنت عمران، وكلتُم أخت موسى وأسية امرأة فرعون. (2)»...

8- عن عكرمة عن ابن عباس قال خطّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أربع خطط في الأرض وقال: أتدرون ما هذا؟ قلنا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «أفضل نساء الجنة أربع: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمّد، ومريم بنت عمران وأسية بنت مزاحم امرأة فرعون. (3)»

9- عن أنس جاء جبرئيل إلى النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وعنده خديجة فقال: إن الله يقرىء خديجة السلام فقالت: إن الله هو السلام، وعليك السلام، ورحمة الله وبركاته. (4)

10- عن أبي الحسن الأول (الكاظم) - عليه السلام - قال قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

- [1] اسد الغاية: ج ٥، ص ٤٣٨، ورواها مسلم أيضاً: ج ٧، ص ١٣٤، وكذا البخاري: ج ٥، ص ٣٩ وقد حذف آخرها من: فغضب حتى... إلى آخر الرواية.
- 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٧، وأسد الغاية: ج ٥، ص ٤٣٩.
- 3 الخصال للصدوق: ج ١، ص ٩٦، كما في بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢.
- 4 المستدرک على الصحيحين: ج ٣، ص ١٨١٦.

(263)

«إن الله اختار من النساء اربعاً: مريم و أسية وخديجة وفاطمة. (1)»

11- عن ابي اليقظان عمران بن عبد الله عن ربيعة السعدي قال أتيت حذيفة بن اليمان وهو في مسجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فسمعتُه يقول: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«خديجة بنتُ خويلد سابقةُ نساء العالمين إلى الايمان بالله وبمحمد - صلى الله عليه وآله وسلم - . (2)»

12- عن عروة قال قالت عائشة لفاطمة رضي الله عنها بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : ألا ابشرك أني سمعت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول:

«سيدات نساء أهل الجنة أربع: مريم بنت عمران، وفاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وخديجة بنت خويلد و أسية. (3)»

13- عن أبي عبد الله (الصادق) - عليه السلام - قال: دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منزله، فاذا عائشة مقبلة على فاطمة تصايحها وهي تقول: والله يا بنت خديجة، ماترين إلا أن لأُمك علينا فضلاً، وأئ فضل كان لها علينا؟!!

ماهي إلا كبعضنا، فسمع - صلى الله عليه وآله وسلم - مقالته لفاطمة، فلما رأت فاطمة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بكت، فقال: ما يبكيك يا بنت محمد؟! قالت: ذكرتُ أُمِّي فتتَقَصَّنُها فبكيْتُ، فغضب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . ثم قال:

«مَهْ يا حميراء، فان الله تبارك وتعالى بارك في الوُدود الولود، وأن خديجة رحمها الله ولدَتْ مِنِّي طاهراً، وهو عبْدُ الله وهو المطهر وَ ولدَتْ مِنِّي القاسم، وفاطمة، ورقية، وأم كلثوم، وزينب، وأنت ممن أعقم اللهُ رحمه فلم تلدي

- [الخصال: ج ١، ص ٩٦، كما في البحار: ج ١٦، ص ٢.
(2) و(٣) المستدرک علی الصحیحین: ج ٣، ص ١٨٤ - ١٨٦ ووردت روايات بمضمون ذیل الحديث في صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٣.

(264)

شيئاً⁽¹⁾»

أجل هذه هي «خديجة بنت خويلد» شرفٌ وعقلٌ، وحبٌ عميق لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ووفاء وإخلاص، وتضحية بالغالي والرخيص في سبيل الإسلام الحنيف.

هذه هي «خديجة» أول من آمنت بالله ورسوله، وصدقت محمداً فيما جاء به عن ربه، من النساء، وأزره، فكان - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يسمع من المشركين شيئاً يكرهه من ردِّ عليه، وتكذيب له إلا فرَّجَ الله عنه بخديجة التي كانت تخفف عنه⁽²⁾، وتهون عليه ما يلقي من قومه، بما تمنحه من لطفها، وعطفها، وعنايتها به - صلى الله عليه وآله وسلم - ، في غاية الاخلاص والودِّ والتفاني

ولهذا كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يحبُّها حباً شديداً ويجلُّها ويقدرها حق قدرها⁽³⁾، ولم يفتأ يذكرها، ولم يتزوج عليها غيرَها حتَّى رحلت وفاء لها، واحتراماً لشخصها ومشاعرِها، وكان يغضب إذا ذكرها احدٌ بسوء، كيف وهي التي آمنت به إذ كفر به الناسُ، وصدقته إذ كذَّبَها الناسُ، وواسته في مالها إذ حرَّمهُ الناسُ.

ولهذا أيضاً كانت وفاتها مصيبة عظيمة أزننت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودفعته إلى أن يسمي ذلك العام الذي توفي فيه ناصراً وحامياً، ورفيقاً لأمه (زوجته هذه: خديجة بنت خويلد، وعمه المؤمن الصامد الصابر ابوطالب - عليهما السلام -) بعام الحداد، أو عام الحزن⁽⁴⁾ وان يلزم بيته ويقلَّ الخروج⁽⁵⁾،

- [الخصال: ج ٢، ص ٣٧ و ٣٨، كما في بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٣.
- 12 اعلام النساء لعمر رضا كحالة: ج ١، ص ٣٢٨.
- 13 اعلام النساء: ج ١، ص ٣٣٠.

- 4تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٥، وقد روي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال بهذه المناسبة: «اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشدُّ جزاءً» المصدر نفسه، وراجع تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠١ نقلاً عن سيرة مغلطاي.
- 5السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٧، المواهب اللدنية حسب نقل تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠٢ وفيه إضافة: ونالت قريش منه ما لم تكن تتال.

(265)

وأن ينزل - صلى الله عليه وآله وسلم - عند دفنها في حفرتها، ويدخلها القبر بيده، في الحجون. (1)

عن ابن عباس في حديث طويل في زواج فاطمة الزهراء - عليها السلام - بعلي - عليه السلام - اجتمعت نساء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكان يومئذ في بيت عائشة ليسألته أن يدخل الزهراء على (علي) - عليه السلام - فاحدقن به وقلن: فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله قد اجتمعنا لأمر لو أن «خديجة» في الأحياء لقرت بذلك عيها.
قالت أم سلمة: فلما ذكرنا «خديجة» بكى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال: «خديجة وابن مثل خديجة، صدقتني حين كذبتني الناس ووازرتني على دين الله وأعانتني عليه بمالها، إن الله عزوجل أمرني أن ابشر خديجة ببيت في الجنة من قصب (الزمرّد) لا صخب فيه ولا نصب. (2)»

لقد كانت خديجة من خيرة نساء قريش شرفاً، وأكثرهنّ مالاً، واحسنهنّ جمالاً وأقواهنّ عقلاً وفهماً وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة لشدة عفافها وصيانتها (3) ويقال لها: سيدة قريش (4)، وكان لها من المكانة والمنزلة بحيث كان كل قومها وسراة أبناء جلدتها حريصين على الاقتران بها (5)، وقد خطبها - كما يحدثنا التاريخ - عظماء قريش وبذلوا لها الأموال، وممن خطبها «عقبة بن ابي معيط» و «الصلت بن ابي يهاب» و «ابوجهل» و «ابوسفیان» فرضتهم جميعاً، وأختارت رسول الله - وهي في سن الأربعين - وهو - صلى الله عليه وآله وسلم - في الخامسة والعشرين - وهي تمتلك تلكم الثروة الطائلة، وهو - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يمتلك من حطام الدنيا إلا الشيء اليسير اليسير، رغبة في الاقتران به ولما عرفت فيه من كرم الاخلاق، وشرف النفس، والسجايا الكريمة والصفات العالية، وهي ما كانت تبحث عنه في حياتها وتتعشقه وإذا بتلك المرأة الغنية الثرية العائشة في

- 1السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٦.
- 2بحار الأنوار: ج ٤٣، ص ١٣١ نقلاً عن كشف اليقين.
- 3(و) (٤) و (٥) السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٧.

(266)

أفضل عيش تصبح في بيت زوجها الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك الزوجة المطيعة الخاضعة، الوفية المخلصة، وتسارع إلى قبول دعوته، واعتناق دينه بوعي وبصيرة واردة منها واختيار، وهي تعلم ما ينطوي عليه ذلك من مخاطر ومتاعب، وتجعل

كل ثروتها في خدمة العقيدة والمبدأ، وتشاطر زوجها آلامه، ومتاعبه، وترضى بأن تذوق مرارة الحصار في شعب أبي طالب ثلاث سنوات وفي سنّ الرابعة أو الخامسة والستين. وهي مع ذلك تواجه كل ذلك بصبر وثبات⁽¹⁾، ودون أن يذكر عنها تبرّم أو توجع.

هذا مضافاً إلى أنها كانت تعامل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأدب تامّ يليق بمقام الرسالة والنبوة، على العكس من غيرها من بعض نساء النبيّ اللائي كنّ ربما يثرن سخطه وغضبه، ويؤذينه في نفسه وأهله.

واليك فيما يأتي بعض ما قاله عنها كبار الشخصيات، والمؤرخين ممّا يكشف عن عظيم مكانتها عند المسلمين أيضاً، قال امير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - :

«كنتُ أولَ من أسلم، فمكثنا بذلك ثلاث حجج وما على الأرض خلُقٌ يُصليّ ويشهد لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بما أتاه غيري، وغير ابنة خويلد رحمها الله وقد فعل.»⁽²⁾

وقال محمّد بن اسحاق: كانت خديجة أولَ من آمن بالله ورسوله وصدّقت بما جاء من الله، ووازرتَه على أمره فخفف الله بذلك عن رسول الله، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من ردّ عليه وتكذيب له فيحزنه ذلك إلا فرح الله ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بها إذا رجع إليها تنبّئته، وتخفّف عنه، وتهوّن

- 1 شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٤، ص ٥٩ قال: خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله صلى الله عليه وآله محاصرة في الشعب.
- 2 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢ ومثله في روايات متعددة في شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٤، ص ١١٩ و ١٢٠.

عليه امر الناس حتّى ماتت رحمها الله. ⁽¹⁾

وعنه أيضاً: أن «خديجة بنت خويلد» و «اباطالب» ماتا في عام واحد، فتتابع على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هلاك خديجة وابي طالب وكانت خديجة وزيرة صدق على الإسلام، وكان رسول الله يسكن اليها. ⁽²⁾

وقال أبو امامة ابن النفاش: ان سبق خديجة وتأثيرها في اول الإسلام وموازرتها ونصرتها وقيامها لله بمالها ونفسها لم يشركها فيه احدٌ لا عائشة ولا غيرها من أمهات المؤمنين. ⁽³⁾

وقد جاء في المنتقى: ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عند ما أمر بأن يصدع بالرسالة صعد على الصفا، وأخبر الناس بما أمره الله به فرماه أبوجهل قبحه الله بحجر فشج بين عينيه، وتبعه المشركون بالحجارة فهرب حتّى أتى الجبل، فسمع علىّ و خديجةً بذلك فراحا يلتمسانه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو جائع عطشان مرهق، ومضت خديجة تبحث عنه في كل مكان في الوادي وهي تناديه بحرقة وألم، وتبكي وتنحب، فنظر جبرئيل إلى خديجة تجول في الوادي فقال: يا رسول الله الاترى إلى خديجة

فقد أبكت لبيكائها ملائكة السماء؟ أدعها اليك فاقرأها مني السلام وقل لها: إن الله يقرئك السلام، ويبشّرها أن لها في الجنة بيتاً من قصب لا نصّب فيه ولا صخب فدعاها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والدماء تسيل من وجهه على الأرض وهو يمسحها ويردّها، وبقي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وعلي وخديجة هناك حتّى جَنَّ الليلُ فأنصرفوا جميعاً ودخلت به خديجة منزلها، فأقعنته على الموضع الذي فيه الصخرة واطأته بصخرة من فوق رأسه، وقامت في وجهه تستره بئردّها وأقبل المشركون يرمونه بالحجارة، فاذا جاءت من فوق رأسه صخرة وقته الصخرة، وإذا رمؤه من تحته وقته الجدران الخيط، وإذا رمى من بين يديه وقته خديجة رضي الله عنها بنفسها، وجعلت تنادي يا معشر قريش ترمي الخرّة

- [بحار الانوار: ج ١٦، ص ١٠ - ١٢.
- 2 نفس المصدر.
- 3 تاريخ الخميس في أحوال أنفيس نفيس: ج ١، ص ٢٦٦.

(268)

في منزلها؟ فلما سمعوا ذلك انصرفوا عنه، وأصيح رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وغدا إلى المسجد يُصلي. (1)
ولقد بلغ من خضوعها لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحبها له أنها بعد أن تمّ عقد زواجها برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قالت له - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إلى بيتك، فبيتي بيتك، وأنا جاريتك.» (2)
وجاء في السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ولسبقها إلى الإسلام وحسن المعروف جزاها الله سبحانه فبعث جبرئيل إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو بغار حراء وقال له: اقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب؛ فقالت: هو السلام ومنه السلام وعلى جبرئيل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته، وهذا من وفور فقها رضي الله عنها حيث جعلت مكان ردّ السلام على الله التناء عليه ثم غايرت بين ما يليق به وما يليق بغيره، قال ابن هشام والقصب هنا الولؤ المجوف، وابدى السهيلي لنفي النصب لطيفة هي انه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما دعاها إلى الايمان أجابت طوعاً ولم تحوجه لرفع صوت ولا منازعة ولا نصب بل ازالته عنه كل تعب، وأنسته من كل وحشة، وهوّنت عليه كل عسير فناسب ان تكون منزلتها التي بشرها بها ربها بالصفة المقابلة لفعالها وصورة حالها رضي الله عنها واقراء السلام من ربها خصوصية لم تكن لسواها، وتميزت أيضاً بأنها لم تسؤه - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم تغاضبه قط، وقد جزاها فلم يتزوج عليها مدة حياتها وبلغت منه ما لم تبلغه امرأة قط من زوجاته. (3)

افتخار اهل البيت بخديجة - عليها السلام -

:

وما يدل على سمو مقامها وعلو منزلتها أن اهل البيت - عليهم السلام - طالما

-
- 1بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٤٣.
- 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٤ نقلا عن الخرائج والجرائح: ص ١٨٦ و ١٨٧.
- 3السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٦٩ الهامش.
-

(269)

افتخروا بأن خديجة منهم، وانهم من خديجة وقد كانوا يعتزون بها، ويشيدون بمكانتها:

فقد خطب معاوية بالكوفة حين دخلها والحسن والحسين - عليهما السلام - جالسان تحت المنبر فذكر علياً - عليه السلام - فقال منه ثم نال من الحسن فقام الحسين - عليه السلام - ليردَّ عليه فأخذه الحسن بيده وأجلسه ثم قام فقال:

«أيتها الذاكرُ عَلِيُّ أنا الحسن وأبي عليّ وأنت معاوية وأبوك صخرٌ وأمي فاطمة وأمك هند وجدي رسول الله وجدك عتبة بن ربيعة وجدتي خديجة وجدتك قتيلة فلعن الله أحمأنا ذكراً والأمنا حسباً وشرأنا قديماً وحديثاً. فقال طوائف من أهل المسجد: آمين. (1)

وقيل: ان «الحسين» - عليه السلام - سائر «أنس بن مالك» فأتى قبر خديجة فبكى ثم قال: إذهب عني قال «أنس»؛ فاستخفيت عنه فلما طال وقوفه في الصلاة سمعته يقول:

يا رَبِّ يَا رَبِّ أَنْتَ مَوْلَاهُ * فَأَرْحَمَ عُيْبَاداً إِلَيْكَ مُلْجَاهُ

يا ذا الْمَعَالِي عَلَيْكَ مُعْتَمِدِي * طُوبَى لِمَنْ كُنْتَ أَنْتَ مَوْلَاهُ

طُوبَى لِمَنْ كَانَ خَادِماً أَرْقَاً * يَشْكُو إِلَى ذِي الْجَلَالِ بُلُوَاهُ

إلى آخر الابيات. (2)

هكذا كان اهل البيت النبوي - اقتداءً برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يحترمون خديجة ويكرمونها لما كان لها من شخصية عظيمة ولما اسدته إلى الإسلام وإلى رسول الإسلام من خدمات لا تنسى على مر الدهور.

ان بيان ونقل الاحاديث والروايات، وكذا الاقوال التي وردت في شأن خديجة والحديث عن شخصيتها ومكانتها ومدى إسهامها في انجاح ونصرة الدعوة المحمدية خارج عن امكانية هذه الدراسة، ونطاقها، لذلك نكتفي بهذه الاماعة

-
- [شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد المعتزلي: ج ١٦، ص ٤٦ و ٤٧.
- 2بحار الأنوار: ج ٤٤، ص ١٩٣ نقلا عن عيون المحاسن.
-

(270)

العابرة تاركين الكلام باسهاب حولها إلى مجال آخر.

ولنغذُ إلى تبيّن الأسباب الظاهرية والباطنية لزواجها من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

:

إن الإنسان المادىّ الذي ينظر إلى كل ما يحيط به من خلال المنظار المادي، ويفسره تفسيراً مادياً قد يتصور (وبالاحرى يظن) أن «خديجة» كانت امرأة تاجرة تهتمّها تجارتها، وتنمية ثروتها، ولأنها كانت بحاجة ماسة إلى رجل أمين قبل اي شيء، لذلك وجدت ضالتها في محمّد الصادق الامين - صلى الله عليه وآله وسلم - فتزوجت منه، بعد أن عرضت نفسها عليه ومحمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - هو الآخر حيث انه كان يعلم بغناها وثروتها، قبل بهذا العرض رغم ما كان بينه وبينها من فارق في السن كبير.

ولكن التاريخ يثبت أن ثمة أسباباً وعللاً معنويّة لا مادية هي التي دفعت بخديجة للزواج بأمين قريش وفتاها الصادق الطاهر.

واليك في ما يأتي شواهدنا على هذا الامر:

1- عند ما سألت «خديجة» ميسرة عما رآه في رحلته من فتى قريش «محمّد» فخبّرها ميسرة بما شاهد ورأى من «محمّد» في تلك السفارة، وبما سمعه من راهب الشام حوله أحسّت «خديجة» في نفسها بشوق عظيم ورغبة شديدة نحوه كانت نابعة من اعجابها بمعنوية محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - وكريم خصاله، وعظيم أخلاقه، فقالت من دون إرادتها: «حسبك يا ميسرة؛ لقد زدنتي شوقاً إلى محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، إذهب فانث حرّ لوجه الله، وزوجتك وأولادك ولك عندي مائتا درهم وراحتان» ثم خلعت عليه خلعة سنية. (1)

ثم إنها ذكرت ما سمعته من «ميسرة» لورقة بن نوفل وكان من حكماء

- [بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٥٢.

(271)

العرب: فقال ورقة: «لئن كان هذا حقاً يا خديجة إنّ محمّداً لنبيّ هذه الأمة. (1)»

2- مرّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يوماً بمنزل «خديجة بنت خويلد» وهي جالسة في ملامن نسائها وجواربها وخدمها وكان عندها حبرٌ من أحبار اليهود، فلما مرّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - نظر إليه ذلك الحبر وقال: ياخديجة مري من يأتي بهذا

الشاب، فارسلت إليه من أتى به، ودخل منزل «خديجة»، فقال له الحبر: إكشفت عن ظهرك فلما كشف له قال الحبر: هذا والله خاتم النبوة فقالت له خديجة: لو رآك عمه وأنت تفتشه لحأت عليك منه نازلة البلاء وان أعمامه ليحذرون عليه من أحبار اليهود.

فقال الحبر: ومن يقدر على «محمّد» هذا بسوء، هذا وحق الكليم رسول الملك العظيم في آخر الزمان، فطوبى لمن يكون له بعلا، وتكون له زوجة وأهلا فقد حازت شرف الدنيا والآخرة.

فتعجبت «خديجة»، وانصرف «محمّد» وقد اشتغل قلب «خديجة» بنت خويلد بحبه فقالت: أيها الحبر بم عرفت محمّداً أنه نبي؟ قال: وجدت صفاته في التوراة انه المبعوث آخر الزمان يموت أبوه وأمه، ويكفله جدّه وعمه، وسوف يتزوج بامرأة من قريش سيده قومها وأميرة عشيرتها، وأشار بيده إلى خديجة فلما سمعت «خديجة» ما نطق به الحبر تعلق قلبها بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فلما خرج من عندها قال: إجتهدى ان لا يفوتك «محمّد» فهو الشرف في الدنيا والآخرة. (2)

3- لقد كان ورقة بن نوفل (وهو عم خديجة وكان من كهّان قريش وقد قرأ صحف «شيث» عليه السلام - وصحف «إبراهيم» عليه السلام - وقرأ التوراة والانجيل وزبور «داود» عليه السلام - (يقول دائماً: سيُبعثُ رجلٌ من قريش في آخر

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٩١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٦.
- 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢٠ و ٢١ نقلا عن كتاب الأنوار لأبي الحسن البكري.

الزمان يتزوج بامرأة من قريش تسود قومها (أو تكون سيده قومها، وأميرة عشيرتها)، ولهذا كان يقول لها: «يا خديجة سوف تتصلين برجل يكون أشرف أهل الأرض والسماء. (1)»

هذه قضايا ذكرها بعض المؤرخين، وهي منقولة ومثبتة في طائفة كبيرة من الكتب التاريخية، وهي بمجموعها تدل على العلل الحقيقية والباطنية لرغبة خديجة في الزواج برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وإن هذه الرغبة كانت ناشئة من اعجاب «خديجة» بأخلاق فتى قريش الأمين، ونبله، وطهارته، وعظيم سجاياه وخصاله وحبها لهذه الأمور، وليس هناك أي اثر في علل هذا الزواج لامانة «محمّد» وكونه أصلح من غيره لهذا السبب للقيام بتجارة «خديجة». »

كيف تمّت خطبة خديجة؟

من المسلم به أن اقتراح الزواج جاء من جانب «خديجة» نفسها أولاً، حتّى أن ابن هشام (2) نقل في سيرته: ان «خديجة» لما أخبرها ميسرة بما أخبرها به بعثت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقالت له: «يا ابن عم إبي قد رغبتُ فيك لقرابتك وسطنتك [أي شرفك ومكانتك] في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك» ثم اقتترحت عليه أن تتزوج به.

ويعتقد أكثر المؤرخين أن «نفيسة بنت عليّة» بلّغت رسالة «خديجة» إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على النحو التالي:

قالت لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: يا محمّد ما يمنعك أن تتزوج... ولو دُعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة إلاّ تجيب؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : فمن هي؟

فقلت: خديجة، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : وكيف لي بذلك، فقالت: علىّ فذهبت إلى خديجة فأخبرتها، فأرسلت خديجة إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- 1 بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٢١.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٩ و ١٩٠.

(273)

بوكيلها «عمرو بن اسد»⁽¹⁾ «لتحديد ساعة من اجل مراسم الخطبة في محضر من الاقارب. (2)

فشاور النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أعمامه وفي مقدمتهم «أبوطالب»، ثم عقدوا مجلساً فخماً حضره كبار وجوه قريش، ورؤساؤها فخطب «أبوطالب»، وبعد أن حمد الله واثى عليه وصف ابن أخيه محمّداً بقوله:

«ثم إن ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يوزنُ به رجلٌ إلاّ رجح به شرفاً ونُبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان في المال فإنّ المال ظلُّ زائلٌ، وأمْرٌ حائلٌ وعاريةٌ مُسْتَرْجَعَةٌ، وَ لَهُ في خديجة رغبةٌ ولها فيه رغبةٌ، والصّدّاق ما سألتهم عاجله وأجله من مالي، ومحمّدٌ من قد عرّفنتم قرابته.»

وحيث أن «أباطالب» تعرّض في خطبته لذكر قريش، وبني هاشم وفضيلتهم، ومنزلتهم بين العرب، لذلك تكلم «ورقة بن نوفل بن اسد» الذي كان من أقارب خديجة⁽³⁾ وقال في خطبة له: «لا تتكرّ العشيرة فضلكم، ولا يرُدُّ أحدٌ من الناس فخركم وشرفكم وقد رغبتنا في الإتصال بحبلكم وشرفكم.»⁽⁴⁾

ثم أُجري عقد النكاح ومهرها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أربعمائة دينار وقيل أصدقها عشرين بكرة.⁽⁵⁾

- 1 المعروف أنّ والد خديجة توفي في حرب الفجار ولهذا قام بالايجاب من قبلها عمها عمرو بن اسد ولهذا لا يصح ما ذكره بعض المؤرخين من أنّ خويلد (والد خديجة) امتنع من تزويجها لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في بداية الأمر، ثم رضي بذلك نزولاً عند رغبة خديجة.

- 2 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٦٤.
- 3 المعروف أنّ ورقة كان عمّاً لخديجة ولكن هذا موضع نقاش لأنّ «خديجة بنت خويلد بن اسد» وورقة بن نوفل بن اسد فيكونان

اولاد عمومة أي أنه ابن عم خديجة وهي بنت عمه. ولذلك جاء في بعض المصادر وصفه بـ «ابن عمها» (تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٨٢) وراجع قبله السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٢٠٣.
- 4بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٦، مناقب آل أبي طالب: ج ١، ص ٣٠، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٩، تاريخ الخميس: ج ١، ص ٢٦٤.
- 5السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣٩.

(274)

عمر خديجة عند زواجها بالنبى - صلى الله عليه وآله وسلم - .

:

المعروف المشهور أن خديجة - عليها السلام - تزوجت من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهي في سنّ الأربعين وأنها وُلدت قبل عام الفيل بخمسة عشر عاماً.

وذكر البعض أقلّ من ذلك أيضاً.

وذكر أنها تزوجت قبل النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - برجلين أولهما «عتيق بن عائذ» ثم من بعده ابوهالة التميمي اللذين توفي كلّ منهما بُعيد زواجه بخديجة. (1)

- [ربما يُشكك في أن تكون خديجة - عليها السلام - قد تزوجت قبل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأحد وهي التي امتنعت عن كل من خطبها ورام تزويجها من سادات قريش وأشرافها. راجع الاستغاثة: ج ١، ص ٧٠.

(275)

١٠ من الزواج إلى البعثة

تُعتبر فترة الشباب من أهم وأخطر الفترات في حياة الإنسان ففي هذه الفترة تبلغ الغريزة الجنسية نضجها وكمالها، وتصبح النفس البشرية لعبة في أيدي الأهواء ويغلب طوفان الشهوة على فضاء العقل، ويغطي الظلام سماء التفكير، وتشتد حاكمية الغرائز المادية، وتتضاءل شعلة العقل، وتترأى أمام عيون الشباب بين الحين والآخر، وصباح مساء صروح عظيمة من الآمال الخيالية.

ولو ملك الإنسان - في مثل هذه الفترة - شيئاً من الثروة، لتحوّلت حياته إلى مسألة في غاية الخطورة فالغرائز الحيوانية، وصحة المزاج من جهة والامكانيات المادية والمالية من جهة أخرى تتعاضدان وتغرقان المرء في بحر من الشهوات، والنزوات، وتهيئان له عالماً بعيداً عن التفكير في المستقبل.

ومن هنا يصف المربّون العلماء تلك الفترة الحساسة بأنها الحدّ الفاصل بين الشقاء والسعادة، والفترة التي قلما يستطيع شاب أن يرسم لنفسه فيها مساراً معقولاً، ويختار لنفسه طريقاً واضحاً على أمل الحصول على الملكات الفاضلة، والنفسية الرفيعة الطاهرة التي تحفظه عن أي خطر متوقّع. (1) حقاً إن كبح جماح

- وإلى هذه الحقيقة أشار الإمام جعفر الصادق - عليه السلام - بقوله:

إنّ الفراغ والشباب والجدّة * مفسدة للمرء اي مفسدة

(276)

النفس، وزمّها وحفظها منّ الإنزلاق في مهاوي الشهوات، والنزوات في مثل هذه الفترة لهو أمر جدّ عسير، ولو أن الانسان حُرّم من تربية عائلية صحيحة مستقيمة كان عليه أن ينتظر مصيراً سيّئاً، ومستقبلاً في غاية اليأس والشقاء.

فَتْرَةُ الشَّبَابِ فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ -

:

ليس من شك في ان فتى قریش «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يتمتع في أيام شبابه بصحة جيدة، وقوة بدنية عالية، وكان شجاعاً قوياً، لأنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تربي في بيئة حرة بعيدة عن ضوضاء الحياة، وفتح عينيه في عائلة اتصف جميع أفرادها وعضائها بالشجاعة والفرسية، هذا من جانب، ومن جانب آخر كان يمتلك ثروة «خديجة» الطائلة فكانت ظروف الترف، والعيش الشهواني متوفرة له بشكل كامل، ولكن كيف ترى استفاد من هذه الامكانيات المادية هل مدّ موائد العيش واللذة وشارك في مجالس السهر والسمر واللهو واللعب. واطلق العنان لشهوته، وفكر في إشباع غرائزه الجنسية كغيره من شباب ذلك العصر، وتلك البيئة الفاسدة.

أم أنّه اختار لنفسه منهجاً آخر في حياته، واستفاد من كل تلك الإمكانيات في سبيل تحقيق حياة زاخرة بالمعنوية، الأمر الذي تبدو ملامحه بجلاء لمن تتبع تلك الفترة الحساسة من تاريخه.

ان التاريخ ليشهد بأنّه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعيش كما يعيش أي رجل، رجل عاقل لبيب وفاضل رشيد، وأنه طوى تلك السنوات الحساسة من حياته كأحسن ما يكون، بعيداً عن العبث والترف والضياع والانزلاق إلى الشهوات والانسياق وراء التوافه

بل ان التاريخ ليشهد بأنه كان اشد ما يكون نفوراً من اللهو، والعبث، والترف والمجون فقد كانت تلوح على محيآه دائماً آثار التفكر والتأمل، وكثيراً ما كان يلجأ إلى سفوح الجبال أو الكهوف والمغارات للابتعاد عن الجوّ الإجتماعي الموبوء في مكة، يلبث هناك أياماً يتأمل فيها في آثار القدرة الالهية ،

(277)

وفي عظمة الصنع الالهي، الرائع البديع.

احاسيسه ومشاعره الإنسانية في فترة الشباب:

ولقد وقعت في احدى أسواق مكة ذات يوم حادثة هيّجت مشاعره الإنسانية وحركت عواطفه واحاسيسه، فقد رأى مقامراً قد خسر بغيره وبيته، بل بلغ الأمر به أن استرقه منافسه عشرة أعوام.

وقد آلمت هذه القصة المأساوية فتى قريش «محمّد» بشدة، إلى درجة أنه لم يحدّ يحتمل البقاء في «مكة» ذلك اليوم فغادرها من فورهِ وذهب إلى الجبال المحيطة بمكة ثم عاد بعد هزيع من الليل.

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينزعج بشدة لهذه المشاهد المحزنة والاضاع المأساوية، وكان يتعجب من ضعف عقول قومه، وانحطاط مداركهم.

ولقد كان بيت «خديجة» قبل زواج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بها ملاذاً للفقراء وكعبة لآمال المساكين والمحرومين، وبعد أن تزوج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بها لم يطرأ على وضع ذلك البيت أيّ تغيير من جهة الانفاق والبذل.

ففي سنين الجذب والقحط التي كانت تضرب مكة وضواحيها بين الحين والآخر ربما قدمت «حليمة السعدية» مكة لتزور ولدها الرضاعي «محمّد» فكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يكرمها ويحترمها، ويفرش رداءه تحت أقدامها، ويصغي لكلامها بعناية ولطف، وفاء لجميلها، وعرفاناً لعواطفها وأمومتها.

فقد روي أن «حليمة» قيمت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مكة بعد تزوّجه خديجة، فشكت إليه جذب البلاد وهلاك المواشي فكلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «خديجة» فأعطتها بغيراً واربعين شاة، وانصرفت إلى أهلها موفورة، مسرورة.

وروي أيضاً انه استأذنت «حليمة» عليه ذات مرة فلما دخلت عليه قال: «أمي أمي» وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه. (1)

أولاد خديجة:

لا ريب في أن وجود الأولاد في الحياة العائليّة ممّا يقوّي أواصر الوشيجة الزوجية، ويعمّق جذورها، ويمنح الجوّ العائليّ بهاء، ورؤنفاً، وجمالاً خاصاً.

ولقد أنجبت «خديجة» لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ستة من الأولاد اثنين من الذكور، أكبرهما «القاسم» ثم «عبدالله» اللذان كانا يُدعيان بـ: «الطاهر» و «الطيب» واربعة من الإناث.

كتب ابن هشام يقول في هذا الصدد: اكبر بناته رُقِيّة ثم زَيْنَب ثم أمّ كلثوم، ثم فاطمة.

فأما الذكور من أولاده - صلى الله عليه وآله وسلم - فماتوا قبل البيعة، وأما بناته فكلهن أدركن الإسلام. (1)

ورغم أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قد عُرفَ بصبره وجَلده في الحوادث والنوائب فربما انعكست احزانه القلبية في قطرات دموعه الساخنة المنحدرة على خَدَيْهِ الشريفين في موت أولاده.

ولقد بلغ به الحزنُ والغمُّ لموت ولده «إبراهيم» من زوجته مارية القبطية حدّاً لم يحدث لغيره من أولاده، إلاّ أنّه رغم ذلك الحزن الأخذ من قلبه مأخذاً لم يفتر لسانه عن حمدالله وشكره حتّى أن اعرابياً اعترض عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - لما وجده يبكي على ولده قائلاً: أولم تكن نهيت عن البكاء اجابه بقوله:

«انما هذا رحمة، ومن لا يَرْحَمَ لا يُرْحَمَ.» (2)

حَدْسٌ لا أساس له من الواقع!!

لقد كتبَ الدكتور هيكَل في كتابه: «حياة محمّد» يقول: «لا ريب أن

- [مناقب ابن شهر آشوب: ج ١، ص ١٤٠، قرب الأسناد: ٦ و ٧، الخصال: ج ٢، ص ٣٧، بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٥ - ١٥٢. وقد ذكر البعض للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أكثر من ولدين، يراجع تاريخ الطبري ج ٢، ص ٣٥، بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٦٦. - 2بحار الأنوار: ج ٢٢، ص ١٥١.

خديجة عند موت كل واحد منهما (اي ولدي النبي: القاسم وعبدالله) في الجاهلية توجّهت إلى آلهتها الاصنام تسألها ما بالها لم تشملها برحمتها وبرها. (1)»

إنَّ هذا الكلام لا يستند إلى أي دليل تاريخي، وليس هو بالتالي إلا حُذْسٌ باطل، وإدعاء فارغ ليس له من منشأ إلا أن أغلبية أهل ذلك العصر كانوا عبدة أوثان، فلا بُدَّ أن خديجة كانت على منوالهم!!

في حين ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يبغض الأصنام والأوثان من بداية شبابه، وقد اتضح موقفه منها أكثر في سفرته إلى الشام في أموال خديجة يوم قال لمن استحلّفه باللات والعزى: «إليك عني، فما تكلمت العرب بكلمة أثقل عليّ من هذه»

مع ذلك كيف يمكن القول بأن امرأة لبيبة عاقلة لم يكن شدة حبها وشغفها بزوجها موضع شك، أن تتوجّه عند موت ولديها إلى الأصنام التي كانت ابغض الأشياء عند زوجها، وخاصة أن حبها لزوجها «محمّد» وبل إقدامها على الزواج منه إنما كان بسبب ما كان يتحلّى به من إيمان ومعنوية، وصفات فاضلة، وملكات اخلاقية عالية، فهي قد سمعت عنه بأنه آخر نبيّ، وأنه خاتم المرسلين، فكيف والحال هذه يمكن ان يحتمل احد انها - مع هذا الاعتقاد - بثت شكواها وجزنها إلى الاوثان والاصنام؟؟!

دَعَى رَسُولُ اللَّهِ: زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ:

عند الحَجَرِ الاسود أعلن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن تبنيه له... ذلك هو زيد بن حارثة.

وكان «زيد» ممّن سبأه العرب من حدود الشام، وباغوه في أسواق مكة رقيقاً لأحد أقرباء «خديجة» يُدعى «حكيم بن حزام»، ولكن لا يُعرف كيف انتقل إلى «خديجة» في ما بعد؟

- [حياة محمّد: ص ١٢٨ .

(280)

يقول هيكل في كتابه «حياة محمّد» في هذا الصدد «لقد ترك موتٌ ولدئ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفس النبي اثراً عميقاً حتّى إذا جىء زيد بن حارثة يُباغ طلب إلى «خديجة» أن تبتاعه ففعلت ثم اعتقه وتبناه. (1)»

ولكن اكثر المؤرخين يقولون: ان «حكيم بن حزام» قد اشتراه لعمته «خديجة بنت خويلد»، وقد أحبّه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - له عند زواجه - صلى الله عليه وآله وسلم - منها.

ففتش عنه والدّه «حارثة» حتّى عرف بمكانه في مكة، فقدمها، ودخل على النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يأذن لزيد ليرحل معه إلى موطنه، فدعاه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخيّره بين المقام معه - صلى الله عليه وآله وسلم - والرحيل إلى موطنه مع أبيه، فاختار المقام مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما وجد من خلقه، وحنانه، ولطفه العظيم فلما رأى رسول

اللّٰه - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك اخرجہ إلى الحجر واعتقه ثم تبناه على مرأى من الناس ومسمع قانلا: «يا من حضر اشهدوا أن زیداً ابني. (2)»

بداية الخِلاف بين الوثنيين:

لقد وجدت البعثة النبوية خلافاً واختلافاً كبيراً في أوساط قريش وفرقت صفوفهم، غير أن هذا الاختلاف قد وُجدت أسبابه وعوامله، وظهرت بوادره وعلائمه قبل البعثة المباركة.

فقد أبدى جماعة من الناس في الجزيرة العربية استياءهم من دين العرب وانكروا عقائدهم الباطلة، وطالما كانوا يتحدثون عن قرب ظهور النبي العربي الذي يتم على يديه إحياء التوحيد.

وكان اليهود يتوعدون أهل الاصنام بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويقولون:

- [حياة محمد: ص ١٢٨ .
- 2 الاصابة: ج ١، ص ٥٤٥ و ٤٥٦، أسد الغابة: ج ٢، ص ٢٢٥ و ٢٢٦ .

(281)

ليخرجن نبي فليكسرن أصنامكم. (1)

وكتب ابن هشام يقول: كان اليهود يقولون للعرب: إنه قد تقارب زمان نبي يُبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد و ارم.

وكتب يقول أيضاً: وكانت الاحبار من اليهود، والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل مبعثه.

هذه الكلمات تُصوّر انقضاء عهد الوثنية في نظرهم إلى درجة أن بعض القبائل أجابت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما بُعث، ودعاهم الله، بينما احجمت اليهود عن الايمان به وبرسالته وبقيت على كفرها وجحودها لنبوته التي طالما بشرت بها.

وقد نزل فيهم قوله تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا

عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. (2)(3)

أعمدة الوثنية تهتز:

ولقد شهد أحد أعياد قريش حادثاً غريباً كان في نظر العقلاء وأصحاب الفكر الثاقب منهم بمثابة جرس إنذار اذن باقتراب سقوط دولة الوثنيين، وإنهيار صروح الوثنية وعبادة الأصنام، وانقراضها.

فقد اجتمعت قريش يوماً في عيد لهم عند صنم من أصنامهم كانوا يعظمونه وينحرون له، ويعكفون عنده، ففتح أربعة ممن عرفوا بالعلم ناحية، وأخذوا يتحدثون سرّاً، وأخذوا ينتقدون عبادة الأوثان والأصنام، وما عليه قومهم من فساد العقيدة.

فقال بعضهم لبعض: والله ما قومكم على شيء، لقد اخطأوا دين أبيهم

-
- 1بحار الأنوار: ج ١٥، ص ٢٣١.
 - 2البقرة: ٨٩.
 - 3السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٢١.

(282)

إبراهيم!! ما حَجَرَ تُطِيفُ بِهِ لَا يَسْمَعُ وَلَا يَبْصُرُ، وَلَا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ، يَا قَوْمِ التَّمَسُّوا لَأَنْفُسِكُمْ دِينًا...

وكان هؤلاء الأربعة هم:

« 1- ورقة بن نوفل» الذي اختار النصرانية بعد أن طالع كُتُبَهَا، واتصل بأهلها.

« 2- عبيدالله بن جحش» الذي أسلم عند ظهور الإسلام، ثم هاجر مع المسلمين إلى الحبشة.

3- «عثمان بن الحويرث» الذي قدم على قيصر ملك الروم، فتنصّر.

4- «زيد بن عمرو بن نفيل» الذي اعتزل الأوثان، وقال: اعبُدْ رَبَّ إِبْرَاهِيمَ. (1)

إن ظهور مثل هذا الاستنكار والجحد للأوثان والوثنية لا يعني أبداً أنَّ دعوة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كانت تعقيباً لدعوة هذه الجماعة، واستمراراً لها!!

كيف يمكن أن نعتبر دعوة رسول الله العالمية مع مانطوت عليه من أهداف كبرى، واستندت إليه من معارف وأحكام لا تُحصى، ردة فعل لمثل هذا الحادث الصغير وتعبيراً عن مثل هذا الاستنكار المحدود؟

إن الحنيفية وهي سُنَّة إبراهيم ودينه لم تكن قد مُجِيت كلياً في الحجاز بعد أيام بعثة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بل كان هناك لا يزال بعض الأحناف (وهم الذين كانوا على دين إبراهيم - عليه السلام -) منتشرين في أنحاء الجزيرة العربية، إلا أن ذلك

لا يعني أنهم كانوا قادرين على التظاهر بعقيدتهم بين الناس، أو قيادة حركة، أو تربية أفراد على نهجهم، أو أن توجُّهاتهم التوحيدية كانت من القوة بحيث تستطيع أن تكون مصدر إلهام لقيم ومعارف وتعاليم وأحكام لشخصية مثل رسول الإسلام «محمَّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فلم يُنقل عن هؤلاء سوى بعض الإعتقادات المحدودة مثل الاعتقاد

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٢٥.

(283)

بالمعاد واليوم الآخر، وشيء بسيط من البرامج الأخلاقية، وحتى ما نقل عنهم من آيات توحيدية لا يمكن تأكيد انتسابها إليهم، وأن لم يمكن نفي ذلك أيضاً. (1)

فهل يمكن والحال هذه أن نعتبر الثقافة الإسلامية العظيمة، والمعارف العقلية العالية، والقوانين والتشريعات المفصلة، والانظمة الأخلاقية والسياسية والإقتصادية الإسلامية، الشاملة الكاملة، كنتيجة لمتابعة أولئك نفر المحدود من «الأحناف» الموحدين المنتشرين في انحاء مختلفة من بلاد الحجاز الذين كانت جلُّ عقائدهم تتألف من مجرد الاعتقاد بوجود الله، واليوم الآخر وقضية أو قضيتين من قضايا الأخلاق؟!

نموذج آخر عن ضعف قريش:

لم يكن يمض على عُمر فتى قريش أكثر من خمس وثلاثين عاماً يومَ واجه اختلافاً كبيراً بين قريش، فأزال بحكمته ذلك التخاصم، ولقد كشفت هذه الحادثة عن مدى الإحترام الذي كان فتى قريش «محمَّد» يحظى به لدى قريش، كما وتكشف عن قوة اعتقادهم بصدقه وأمانته.

واليك تفصيل هذه الحادثة:

إنحدر سيلٌ رهيب من جبال مكة المرتفعة نحو بيت الله المعظم «الكعبة المقدسة» فلم يسلم من هذا السيل بيت في مكة حتى الكعبة المعظمة، التي تصدَّعتُ جدرانها تصدعاً كبيراً بفعل ذلك السيل.

فجزمت قريش على تجديد تلك البنية المعظمة، ولكنها تهيَّبت ذلك، وترددت في هدم الكعبة، فأقدم «الوليد بن المغيرة» وهدم ركنين منها على شيء من الخوف، فانتظر أهل مكة أن يحل به أمرٌ، ولكنهم لما رأوا «الوليد» لم يصبه

- [ولقد نقل ابن هشام في كتابه: السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٢٢ - ٢٣٢ طائفة من الأبيات والقصائد التوحيدية هذه؛ والتي جاء في مطلع إحداها ما أنشده زيد بن عمرو بن نفيل:

أَرَبًا وَإِجْدًا أُمُّ أَلْفِ رَبِّ * أَدِينُ إِذَا تُقْسِمَتِ الْأُمُورُ؟
عزَلْتُ اللَّاتَ وَالْعَزَى جَمِيعًا * كَذَلِكَ يَفْعَلُ الْجَدُّ الصَّبُورُ (البصير)

(284)

غضب من الآلهة، اطمأنوا إلى أنه لم يرتكب قبيحاً، وأنه عمل ما فيه رضى آلهتهم، فاقدموا جميعاً على هدم ما تبقى من الكعبة، واتفق أن تحطمت سفينة قادمة من «مصر» في تجارة لرومي عند ميناء «جدة» بفعل الرياح والعواصف، فعلمت بذلك قريش، وأرسلت رجالاً يبتاعون أخشابها ليستخدموها في بناء الكعبة المعظمة، وأوكلوا أمر نجارتها إلى نجار قبيطي محترف كان يقطن «مكة».

ولما ارتفعت جدران الكعبة إلى قامة الرجل، وأن الأوان لوضع الحجر الأسود في محله من الركن وقع الاختلاف بين زعماء قريش، وتنازعا في من يتولى وضع الحجر الأسود في مكانه.

وتحالفت قبيلة «بني عبدالدار» مع «بني عدى» على أن يمنعا من أن ينال هذا الفخار غيرهم، وعمدوا إلى اناء مملوء بالدم فوضعوا أيديهم فيه تأكيداً لذلك الميثاق.

من هنا تأخرت عملية البناء وتوقفت خمسة أيام بليلاتها، وكاد أن تنشب بينهم حربٌ دامية، وربما طويلة، فقد اجتمعت طوائف مختلف من قريش في المسجد الحرام وهي تنتظر حادثة خطيرة، فعمد - في الأخير - شيخ من شيوخ قريش يدعى «أبو أمية بن مغيرة المخزومي» من زعماء قريش وقال: يا معشر قريش، إجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد ^(١) يقضي بينكم فيه» فقبلوا براهيه اجمع، فكان أول داخل عليه فتى قريش «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - فلما رآه قالوا: هذا الأمين، رضينا، هذا محمد.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - :هلم الى ثوباً، فأخذ الحجر ووضع فيه ثم قال:

«لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثم ارفعوه جميعاً»

ففعّلوا حتّى إذا بغوا به موضعه من الركن وضعه - صلى الله عليه وآله وسلم - هو بيده مكانه، وبهذا حال دون وقوع حوادث دامية كادت أن تقع بسبب تنازع قريش، واختلافها، وحلّ الوفاق محل الشقاق بعد أن رضي الكلّ بحكمه.

(285)

وإلى قضية التحكيم هذه يشير «هبيرة بن أبي وهب» في أبيات صوّرت هذه الحادثة التاريخية الكبرى، إذ قال:

تَشَاجَرَتِ الأَحْيَاءُ فِي فَصْلِ خَطَّةٍ * جرت بينهم بالنّحس من بعد أسعد

تلاقوا بها بالبُغض بعد مَوَدَّةٍ * وأوقد ناراً بينهم شرّ موقد

فلما رأينا الأمر قد جدَّ جدُّه * ولم يبقَ شيء غير سلّ المهند

رضينا وقلنا العدل أولُّ طالعٍ * يجيء من البطحاء من غير موعد

ففا جأنا هذا الامينُ محمَّدٌ * فقلنا رضينا بالأمين محمَّد

بخير قريش كلها أمس شيمة * وفي اليوم مع ما يُحدثُ الله في غد

فجاء بأمر لم ير الناس مثله * أعمّ وأرضى في العواقب والبد

وتلك يدُّ منه علينا عزيمة * يروبو لها هذا الزمان ويعتدي⁽¹⁾

أَمِينُ قَرِيْشٍ يَكْفُلُ عَلِيًّا:

أجديت مكة وضواحيها سنة من السنين، وقل فيها الماء، وأصابت الناس أزمة شديدة، وكان أبوطالب - عليه السلام - كثير العيال، فعزم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أن يساعد عمه أباطالب، ويخفف عنه عبء العيال، فانطلق إلى عمه العباس وقال له: «إن أخاك أباطالب كثير العيال وقد أصاب الناس ماترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله أخذ من بنيه رجلا وتأخذ أنت رجلا.»

فكفل العباس جعفرًا، وكفل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليا - عليه السلام - .

يقول أبوالفرج الاصفهاني المؤرخ المعروف في هذا الصد:

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ١٩٢ - ١٩٩ وفروع الكافي: ج ٤، ص ٢١٧ و ٢١٨، والجدير بالذكر أنهم قالوا عند تجديد بناء الكعبة: «يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبًا، لا يدخل فيها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد للناس» (البداية والنهاية: ج ٢، ص ٣٠١) ولا شك أن هذه من بقايا تعاليم الأنبياء التي بقيت بينهم ولم تمح بالمرّة.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أخذ «علياً» من أبيه وهو صغير في سنة اصابته قريشاً وقحط نالهم، وأخذ حمزة جعفرأ وأخذ العباس طالباً ليكفوا اباهم مؤنتهم ويخففوا عنهم ثقلهم، وأخذ هو (أي ابوطالب) عقيلاً لميله كان إليه فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«اخترتُ مَنْ اختار الله لي عليكم: علياً. (1)»

إن هذه الحادثة وإن كانت في ظاهرها تعني ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اقدم على هذا الأمر ليساعدَ عمه أباطالب في تلك الازمة، لكن الهدف الأعلى والأخير كان أمراً آخر وهو أن: يتربى علي - عليه السلام - في حجر النبي، ويغتذي من مكارم اخلاقه ويتبعه في كريم افعاله.

ولقد اشار الإمام عليّ - عليه السلام - نفسه إلى هذا الموضوع بقوله:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ وَ الْمَنْزِلَةِ الْخَصِيصَةِ وَضَعْنِي فِي حَجْرِهِ وَ أَنَا وَ لَدَ بَضْمُنِي إِلَى صَدْرِهِ وَ يَكْفُنِي فِي فِرَاشِهِ... وَ لَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ أَتْبَاعَ الْفَصِيلِ أَثَرِ أُمِّهِ يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْمًا وَ يَأْمُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ. (2)»

إيمان النبي وآبائه وكفلائه قبل الإسلام:

تدلّ الدلائل التاريخية، القوية، فضلا عن الأدلة العقلية والمنطقية على أن النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يعبد غير الله تعالى منذ وُلِدَ من أمة، والى أن رحل إلى ربه، بل وكان كفلاؤه مثل عبدالمطلب وأبي طالب مؤمنون موحّدون هم أيضاً

إيمان جده عبدالمطلب:

وأما عبدالمطلب كقبيل النبيّ الأوّل فلا ننسى أنه عند ما قصد «أبرهة» هدم

- [مقاتل الطالبيين: ص ٢٦، الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٣٧، السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٥ - ٢٤٧ باب (ذكر أن عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه اول ذكر أسلم).
- 2 نهج البلاغة: الخطبة ١٩٢.

الكعبة في جيش الفيل، نزل في جوف الليل إلى الكعبة وأخذ بحلقة بابها يدعوا الله ويقول مناجياً الله سبحانه.

«اللهم أنيس المستوحشين، ولا وحشة معك فالبيت بيئتك، والحرم حرمك والدار دارك، ونحن جيرانك، انك تمنع عنه ما نشاء، ورب
الذار أولى بالذار. »

ثم أنشأ يقول:

يا رب لا أرجو لهم سواكا * يارب فأمع منهمو جماكا

إن عدو البيت من عاداكا * إمنعهمو إن يخربوا فناكا⁽¹⁾

وهذا يكشف بوضوح عن ايمان عبدالمطلب بالله تعالى، وتوكله عليه سبحانه، وانه كان الرجل الموحد الذي لا يلتجىء في المصائب والمكاره إلى غير كهف الله، ولا يعرف إلا باب الله على عكس ما كانت الوثنية عليه فان قومه كانوا يستغيثون بالاصنام المنصوبة حول الكعبة.

ومما يدل على ايمانه ايضاً توسله لكشف غمته بالله سبحانه فقد تتابعت على قريش سنون جذب ذهبت بالأموال، واشرفت الانفس واجتمعت قريش لعبدالمطلب، وعلوا جبل ابي قبيس ومعهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - محمّد وهو غلام فتقدم عبدالمطلب وقال: لاهم (اي اللهم) هؤلاء عبيدك واماؤك وبنو امانك، وقد نزل بنا ماترى، وتتابعت علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر، فاشرفت على الانفس فأذهب عنا الجذب، واتننا بالحياء والخصب، فما برحوا حتى سالت الأودية، وفي هذه الحالة تقول رقيقة:

بشبية الحمد اسقى الله بلدتنا * وقد عدمنا الحيا وا جلوذ المطر

إلى أن تقول:

مبارك الأم يستسقى الغمام به * ما في الانام له عدل ولا خطر

- [راجع القصة ومصادرها في ص ١٦١ من هذا الكتاب، ولعبدالمطلب مواقف أخرى مشابهة، وعديدة، راجع بصددها مفاهيم القرآن: ج ٥، ص ١٣٦ - ١٤٠.

وإلى هذه الواقعة يشير ابوطالب في قصيدة أولها:

ابونا شفيح الناس حين سقوا به * من الغيث رجاس العشير بكور

ونحن - سنين المحل - قام شفيغنا * بمكة يدعو والمياه تغور⁽¹⁾

وقد نقل الشهرستاني هذه الواقعة في كتابه «الملل والنحل» قال: ومما يدل على معرفته (أي عبدالمطلب) بحال الرسالة وشرف النبوة ان اهل مكة لما أصابهم ذلك الجذب العظيم، وامسك السحاب عنهم سنتين أمر اباطالب ابنه، ان يُحضر المصطفى محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - فاحضره ابوطالب، وهو رضيع في قماط، فوضعه على يديه واستقبل الكعبة، ورماه إلى السماء، وقال: يا رب بحق هذا الغلام، ورماه ثانياً وثالثاً وكان يقول: بحق هذا الغلام اسقنا عيئاً مغيثاً دائماً هطلاً، فلم يلبث ساعة أن السحاب وجه السماء وأمطر، حتّى خافوا على المسجد، وقال ايضاً: وببركة ذلك النور كان عبدالمطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبغي، ويحثهم على مكارم الاخلاق، وينهاهم عن دنياات الأمور.

وكان يقول في وصاياه: «انه لن يخرج من الدنيا ظلم حتّى ينتقم الله منه وتصيبه عقوبة»، إلى ان هلك رجل ظلوم حنّف انفه لم تصبه عقوبة، فقبل لعبدالمطلب في ذلك، ففكر وقال: ان وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن باحسانه ويعاقب فيها المسيء باسأته.⁽²⁾

ان توسل عبدالمطلب بالله سبحانه وتوليه عن الاصنام والاثان، والتجاء إلى رب الارباب آية توحيده الخالص، وايمانه بالله وعرفانه بالرسالة الخاتمة، وقداسة صاحبها، فلو لم يكن له إلا هذه الوقائع لكفت في البرهنة على ايمانه بالله، وتوحيده له. وقد اعترف المؤرخون لعبدالمطلب بهذا فقد قال اليعقوبي: «ورفض عبدالمطلب عبادة الاوثان والاصنام، ووجد الله عزّوجلّ ووفى بالنذر، وسنّ سنناً نزل القرآن باكثرها، وجاءت السنة الشريفة من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣١ - ١٣٣.
- 2 الملل والنحل: ج ٢، ص ٢٤٨ و ٢٤٩.

بها، وهي الوفاء بالنذر، ومائة من الابل في الدية، وان لا تنكح ذات محرم، ولا تؤتى البيوت من ظهورها وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموودة، وتحريم الخمر، وتحريم الزنا، والحدّ عليه، والقرعة، وان لا يطوف احد بالبيت عرياناً، وازافة الضيف وان لا ينفقوا إذا حجوا إلا من طيب اموالهم، وتعظيم الاشهر الحُرْم، ونفي ذوات الريات.⁽¹⁾

هذا وعن أم أيمن «رضي الله عنها» قالت: كنتُ أحضن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (اي اقوم بتربيته وحفظه)، ففعلت عنه يوماً فلم ادر إلا بعبدالمطلب قائماً على رأسي يقول «يا بركة.»

قلت: لبيك.

قال: أتدرين اين وجدتُ إبنِي؟

قلت: لا ادري.

قال: وجدته مع غلمان قريباً من السدرة، لا تغفلي عن ابني، فان أهل الكتاب يزعمون انه نبيّ هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم. (2)

وكان عبدالمطلب لا يأكل طعاماً إلا يقول علىّ بابني (اي احضروه) ويجلسه بجانبه، وربما اقعده على فخذه، ويؤثره بأطيب طعامه

ثم انه لما بلغ أجله اوصى إلى ابي طالب برسول الله وقال له: قد خَلَفْت في ايديكم الشرف العظيم الذي تطؤون، به رقاب الناس

وقال له أيضاً:

أوصيك يا عبد مناف بعدي * بمفرد بعد ابيه فرد

فارقة وهو ضجيع المهد * فكنت كالأم له في الوجد

تدنيه من أحشائها والكبد * فانت من أرجى بني بعدي

لدفع ضيم أو لشدّ عقدي(3)

هذا هو عبدالمطلب، وتعوده ببيت الله الحرام، ومواقفه بين قومه، وكلماته في

- 1 تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٩ في بعض ماعدّه المؤرخ المذكور نظر.

- 2 سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٦٤.

- 3 تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ١٠.

المبدأ والمعاد وعطفه وحنانه على رسول الإسلام، واهتمامه برسالة خاتم النبيين، وهي بمجموعها من أقوى الشواهد على توحيده،

وايمانه بالله، واعترافه برسالة الرسول الكريم.

إيمان كفيّله وعمه أبي طالب:

وهكذا كان حال كفيل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الثاني ابوطالب - عليه السلام - ، فان له مواقف بارزة وكثيرة قبل البعثة النبوية، وبعدها تكشف عن عمق أيمان شيخ الأباطح، وتوحيده.

ومن تلك المواقف استسقاؤه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في صباه:

فقد اصاب مكة قحطاً شديداً في سنة من السنين فطلبت قريش من «أبي طالب» أن يستسقي لها فخرج ومعه غلامٌ - وهو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - - كأنه شمسٌ دجن تجلّت عنها سحابة قتماء وحوله أغيلمةٌ، فأخذه «أبوطالب» فألصق ظهره بالكعبة، ولاذ الغلام باصبعه (أي أشار بها إلى السماء) وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، وأغدق وانفجر له الوادي، واخصب البادي والنادي.

ففي ذلك يقول ابوطالب - في مدح رسول الله -:

وابيضُّ يُستسقى الغمامُ بوجهه * ثمالُ اليتامى عصمةٌ لإبراهيم

يُلوذُ به الهلاكُ من آل هاشم * فهُمُ عندهُ في نعمةٍ وفواضل

وميزانُ عدلٍ لا يخيسُ شعيره * ووزانُ صدقٍ وزنه غير هائل⁽¹⁾

وكل هذا يعرب عن توحيد كفيلي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الخالص، وإيمانهما بالله تعالى، ولو لم يكن لهما إلا هذين الموقنين لكفياهما دليلاً وبرهاناً على كونهما مؤمنين موحدين.

- [شرح البخاري للقسطلاني: ج ٢، ص ٢٢٧، المواهب اللدنية: ج ١، ص ٤٨، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٢٥، وللتوسع راجع الغدير: ج ٧، ص ٣٤٥ و ٣٤٦، وقد ذكرنا مواقف ابي طالب الايمانية عند البحث عن شخصيته فراجع.

كما ان ذلك يدل ايضاً على أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نشأ وترعرع ونما في بيت كانت الديانة السائدة فيه هي توحيد الله، وعبادته وحده ورفض الاصنام والوثان.

إيمان والدي النبي الاكرم:

لقد نقلت عن عبدالله والد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلمات وابييات تدل على ايمانه ومن ذلك ما نقله اهل السير عندما عرضت فاطمة الخثعمية نفسها عليه فقال رداً عليها:

أما الحرام فالمماتٌ دونهُ * والجلّ لاجلٍ فاستبيهُه

يحمي الكريمُ عرضَه ودينَه * فكيف بالأمر الذي تبغيه⁽¹⁾

وقد روي عن النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال: «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أحرام الطاهرات» ولعل فيه ايعازاً إلى طهارة آبائه وامهاته من كل دنس وشرك⁽²⁾

واما الوالدة فيكفي في اثبات ايمانها ما رواه الحفاظ عنها عند وفاتها فانها (رضي الله عنها) خرّجت مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو ابن خمس سنين ونزلت بالمدينة تزور أحوال جده وهم بنو عدي بن النجار ومعها ام ايمن «بركة» الحبشية، فاقامت عندهم، وكان الرسول بعد الهجرة يذكر اموراً حدثت في مقامه ويقول: «ان أُمِّي نزلت في تلك الدار، وكان قوم من اليهود يختلفون وينظرون إلى فنظر إلى رجلٍ من اليهود فقال: يا غلام ما اسمك؟ فقلت: أحمد، فنظر إلى ظهري، وسمعتَه يقول: هذا نبي هذه الأمة، ثم راح إلى اخوانه فاخبرهم فخافت أُمِّي عليّ فخرجنا من المدينة، فلما كانت بالابواء توفيت ودُفنت فيها.

وروى ابو نعيم في دلائل النبوة عن اسماء بنت رهم قالت: شهدت أمانة أم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في علتها التي ماتت بها، ومحمّد - عليه السلام - غلام يقع

- 1 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٤٦.
- 2 سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٥٨.

(292)

(اي يافع) له خمس سنين عند رأسها فنظرت إلى وجهه وخاطبته بقولها:

إن صحَّ ما أبصرتُ في المنام * فانت مبعوثٌ إلى الانام

فاللّه انهاك عن الاصنام * ان لا تواليها مع الاقوام

ثم قالت: كل حي ميت وكل جديد بال، وكل كبير يفنى، وانا ميتة وذكرى باق وولدتُ طهراً.

وقال الزرقاني في شرح المواهب نقلاً عن جلال الدين السيوطي تعليقا على قولها: وهذا القول منها صريح في انها كانت موحدة إذ ذكرت دين ابراهيم - عليه السلام - ، وبشرت ابنها بالاسلام من عندالله، وهل التوحيد شيء غير هذا، فان التوحيد هو الاعتراف باللّه وانه لا شريك له، والبراءة من عبادة الاصنام.⁽¹⁾

ونلفت نظر القارئ الكريم هنا إلى ما قاله المرجوم الشيخ المفيد في كتابه «اوائل المقالات» في هذا الصدد:

اتفقت الإمامية على أن آباء رسول الله من لدن آدم إلى عبدالله بن عبدالمطلب مؤمنون بالله عزوجلّ موحدون له، واحتجوا في ذلك بالقرآن والاحبار قال الله عزوجلّ: «الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين.»⁽²⁾

ثم إن هنا سؤالين هما:

1- هل كان - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة مؤجداً؟

2- بماذا وبأي دين كان يتعبد - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة؟

واليك الحديث في هاتين الجهتين:

إيمان النبي بالله وتوحيده قبل البعثة:

إن الدلائل التاريخية - بالاضافة إلى البراهين العقلية والكلامية - تدل على انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قبل ان يبعثه الله بالإسلام، مؤمناً بالله، مؤجداً إياه، لم يعبد وثناً قط، ولم يسجد لصنم أبداً، وان ذلك من المسلمات.

- [الاتحاف للشبراوي: ص ١٤٤؛ سيرة زيني دحلان بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٥٧.
- 2اوائل المقالات: ص ١٢ و ١٣.

(293)

وهذا الامر وان كان أمراً مسلماً وواضحاً كوضوح الشمس إلا اننا نذكر بعض ما جاء في التاريخ الثابت الصحيح ليقترن ذلك الاتفاق بأصح الدلائل التاريخية:

اما بغضه للأصنام وتجنبه للوثان وما يكون من هذا القبيل فإليك بعض ما ذكره التاريخ الصحيح في هذا المجال:

1- جاء في حديث طويل: ان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لما تم له ثلاث سنين قال يوماً لوالدته (لمرضعته) حليلة السعدية: مالي لا أرى أحوئاً بالنهار، قالت له: يا بُنى أئهما يرعيان عُثُمَات.

قال: فمالي لا أخرج معهما، قالت له: أتحب ذلك؟ قال: نعم، فلما اصبح محمدٌ دهنته (تقول حليلة) وكخلته وعققت في عنقه خيطاً فيه جزعٌ يمانئ، فنزعه ثم قال لأُمّه:

«مَهْلاً يا امّاهُ فَإِنَّ مَعِيَ مَنْ يَحْفَظُنِي.»⁽¹⁾

2- روي ان «بحيرا» الراهب قال للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في سفرته الاولى مع عمه أبي طالب إلى الشام: يا غلام اسألك بحق اللات والعزى الا أخبرتني عما أسألك، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«لا تسألني باللات والعزى فوالله ما ابغضتُ شيئاً بغضَهُما» قال الراهب: بالله الا أخبرتني عما أسألك عنه، قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : سألني عما بدالك. (2)

3- روي أنه قد وقع بين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبين رجل تلاح في سفرته الثانية إلى الشام للتجارة بأموال خديجة مع غلامها «ميسرة» بعد أن باع - صلى الله عليه وآله وسلم - سلعته، فقال له الرجل: إحلِفُ باللات والعزى، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

- 1 المنتقى، الباب الثاني من القسم الثاني - للكازروني كما في البحار: ج ١٥، ص ٣٩٢.
- 2 الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٥٤، السيرة النبوية: ج ١، ص ١٨٢.

(294)

«ما حلِفْتُ بهما قطُّ، وإني لأمرُّ فأعرضُ عنهما.»

وفي رواية أخرى:

«إليك عني ثكالك أمكُ فما تكلمت العربُ بكلمة انقلَ عليَّ من هذه الكلمة.»

فقال الرجل: القول قولك. ثم قال لميسرة: هذا والله نبيُّ. (1)

واما عبادته لله تعالى فقد أجمع المؤرخون على أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يخلو بحراء كل عام شهراً يعبد فيه الله تعالى

وقد قال الامام أمير المؤمنين علي بن ابي طالب - عليه السلام - في هذا المجال:

«وَلَقَدْ كَانَ يُجَاوِرُ فِي كُلِّ سَنَةٍ بَحْرَاءَ، فَارَاهُ وَ لَا يَرَاهُ غَيْرِي.» (2)

حتى أن جبرئيل وافاه بالرسالة في ذلك المكان، وفي تلك الحال.

وقد صرَّح بهذا أصحابُ الصحاح الستة أيضاً إذ قالوا:

«وَ كَانَ يَخْلُو بَحْرَاءَ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعْبُدُ فِي اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ.» (3)

كما ان الإمام امير المؤمنين - عليه السلام - وصف هذا المقطع من حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقوله:
«ولقد قرّن الله به - صلى الله عليه وآله وسلم - لذنُّ أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلكُ به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم، ليله ونهاره.»⁽⁴⁾

وجاء في الأخبار أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حجّ قبل البعثة حجات عديدة وكان يأتي بمناسكها على وجه صحيح بعيداً عن أعين قريش.

قال الإمام الصادق - عليه السلام - : في حديث ابن أبي يعفور:

«حج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عشر حجّات مُستترأ في كلّها.»⁽⁵⁾

وفي رواية: عشرين حجة .⁽⁶⁾

-
- 1- الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٥٦، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٨ .
2- نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة ١٩٢ .
3- صحيح البخاري: ج ١، ص ٢، صحيح مسلم باب الايمان، مسند أحمد: ج ٦، الحديث ٢٣٣ .
4- نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة رقم ١٩٢ .
5(و) (٦) - وسائل الشيعة: ج ٨، ص ٨٨ أبواب وجوب الحج.

(295)

والسبب في هذا الاستتار هو أن قريش كانت قد اسقطت بعض مناسك الحج، والعمرة، فكانت تؤدّي الحج بصورة غير صحيحة وربما غيرت أشهر الحج احياناً لبعض الاعتبارات السياسية والمادية، وهو ما سمي بالنسيء وقد مرّ بيانه.⁽¹⁾

ان هذه الوقائع وغيرها - وهي ليست بقليلة اصدق دليل على إيمانه - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتوحيده، إذ كيف يمكن أن يتنكّب مثل هذه الشخصية التي نشأت وترعرعت في ذلك البيت الطاهر، وقرن الله به ملكاً يتولاه بالتربية والهداية عن جادة التوحيد.

ثم أن ممّا لا ريب فيه أن الرسول الخاتم - صلى الله عليه وآله وسلم - هو افضل من جميع الأنبياء والمرسلين بنص القرآن الكريم

وقد صرح القرآن بان بعض الانبياء بلغوا درجة النبوة في الصغر، أو الصبا، ونزلت عليهم الكتب في تلك الفترات.

فمثلاً يقول القرآن الكريم عن يحيى بن زكريا: **يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبياً.**⁽²⁾

ثم يقول عن «عيسى بن مريم» عندما كان في المهدي وكان وجه القوم من بني اسرائيل قد استنكروا ولادته من غير اب، وطلبوا من «مريم البتول» ان توضح لهم الامر، وتبين لهم كيف حملت بعيسى؟! فاشارت إلى المسيح - عليه السلام - أن كلموه وهو آنذاك في المهدي لم يمض على ولادته سوى ايام معدودات؛ فنطق المسيح بفصاحة كبيرة وقال:

(إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا. وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا.)⁽³⁾

لقد بيّن وليد «مريم» للناس أصول دينه وفروعه في فترة الطفولة والرضاعة، وأعلن لهم عن توحيده وإيمانه بالله سبحانه.

- [راجع الصفحة ٨٣ و ٨٤ من هذا الكتاب.

- 2مريم: ١٢.

- 3مريم: ٣٠ و ٣١.

(296)

فهل يرضى ضميرك أيها القارىء الكريم أن يكون «يحيى» و «المسيح» -عليهما السلام - مؤمنين معلنين عن توحيدهما، وإيمانهما منذ طفولتهما، وصباهما، ويكون أفضل الأنبياء والمرسلين، وأشرف الخلق أجمعين إلى سائر الأربعة على غير إيمان، وتوحيد، مع أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان مشغولا بالتعبّد في جبل «حراء» عند نزول ملاك الوحي عليه لأول مرة؟ واليك بعض ما قاله المؤرخون، والعلماء في هذا المجال استكمالا لهذا المبحث: قال ابن هشام: كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يجاور ذلك الشهر من كل سنة يطعم من جاءه من المساكين فاذا قضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره، الكعبة، قبل أن يدخل بيته، فيطوف به سبعا أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التي بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى «حراء» كما كان يخرج لجواره ومعه اهله حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها جاءه جبرئيل - عليه السلام - بأمر الله تعالى. (1)

وقال العلامة المجلسي: قد ورد في أخبار كثيرة انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يطوف، وانه كان يعبد الله في حراء وانه كان يراعي الآداب المنقولة من التسمية والتحميد عند الاكل وغيره، وكيف يجوز ذو مسكة من العقل على الله تعالى ان يهمل افضل انبيائه اربعين سنة بغير عبادة؟ والمكابرة في ذلك سفسطة. (2)

فايمان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وتوحيده قبل البعثة، ان، أمر مسلم لا شبهة فيه، ولا غبار عليه.

ولكن بعض الكتاب من المسيحيين ومن تبعهم، من المستشرقين وغيرهم، أبوا إلا أن ينتقصوا النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - فادّعوا ضلالة قبل البعثة،

(297)

وإنه كان على غير إيمان، أو توحيد، واستدلوا لزعمهم الباطل هذا بما توهموا أنه يدل على دعواهم من الآيات القرآنية، وأبرزها الآيات التالية:

(1- ألم يجدك يتيماً فآوى. وَ وَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى. (1))

(2- وَثِيَابَكَ فَطَهَّرَ. وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ. (2))

(3- وَ كَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. (3))

4- (فَلَنْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمراً مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ. (4))

5- (وَ مَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ. (5))

لقد استدلت المستشرقون ومن لفت لفهمهم ومن سبقهم أولحقتهم من المخطئة بهذه الآيات على ضلال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة، وسلب الإيمان عنه، ولكنها لا تدل على ما يريدون، ولاجل تسليط الضوء على مقاصدهم نبحت عنها واحدة واحدة.

الاية الأولى: الهداية بعد الضلالة:

ذكر المفسرون لقوله تعالى: «وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَى» الذي يشعر بهداية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد الضلالة احتمالات عديدة، في معرض الاجابة على استدلال من استدلل به لاثبات ضلال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة ولكن الحق ان يقال: أن الضال يُستعمل في عرف اللغة في موارد:

1- الضالّ: من الضلالة ضدّ الهداية والرشاد.

2- الضالّ: من ضلّ البعير إذا لم يعرف مكانه.

3-الضالّ: من ضلّ الشيء إذا ضوّل وخفى ذكره.

وتفسير الآية بأى واحدة من هذه المعاني لا يثبت ما يدعيه الذين يتمسكون بها لأثبات ضلال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة.

أما المعنى الأول فهو المقصود في كثير من الآيات قال سبحانه: **غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ.** (1)

لكن الضلالة على نوعين:

النوع الأول ما تكون الضلالة فيه أمراً وجودياً في النفس يوجب ظلمة النفس ومنقصتها، مثل الكفر والشرك والنفاق، والضلالة بهذا المعنى قابلة للزيادة والنقصان قال سبحانه: **إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ.** (2)

النوع الثاني ما تكون الضلالة فيه أمراً عذمياً، وذلك عندما تكون النفس فاقدة للرشاد، وعندئذ يكون الإنسان ضالاً بمعنى أنه غير واجد للهداية من عند نفسه، وذلك كالطفل الذي اشرف على التمييز وكاد أن يعرف الخير والشر، ويميز بين الصلاح والفساد فهو آنذاك ضالٌّ بمعنى أنه غير واجد للنور الذي يهتدي به في سبل الحياة لا بمعنى كينونة ظلمة الكفر والفسق في نفسه وروحه.

والمراد من الضالّ في قوله تعالى «وَرَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى» لو كان ما يضاد الهداية فهو يهدف إلى النوع الثاني، فيكون المعنى أنك في ابان عمرك كنت غير واجد للهداية من عند نفسك فهذاك الله إلى اسباب السعادة وعرفك عوامل الشقاء، وهو اشارة إلى قانون الهي عام في حياة البشر انبياء واناساً ماديين، وهو ان هداية كل إنسان بل كل ممكن مكتسبة من الله قال سبحانه: **قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى.** (3)

وعلى هذا الاساس فالآية تهدف إلى ذكر النعم التي انعم الله بها على نبيه الحبيب منذ ان استعد لها فأواه بعد ما صار يتيماً، وافاض عليه الهداية بعد ما كان

- 1 الفاتحة: ٧.

- 2 التوبة: ٣٧.

- 3 طه: ٥٠، وراجع الآيات: ٢ و ٣ من سورة الأعلى و ٤٣ من سورة الأعراف و ٧٨ من سورة الشعراء وغيرها.

فاقداً لها بحسب ذاته، وبحكم طبيعته، ويعود زمن هذه العناية الربانية بنبيه إلى مطلع حياته، واوليات عمره وايام صباه بقرينة ذكر ذلك بعد الايواء الذي تحقق باليتم، وتمّ بجده عبدالمطلب فوقع في كفالته إلى ثمانية سنين، ويؤيد ذلك قولُ امام المتقين علي بن ابي

طالب - عليه السلام - «: ولقد قرن الله به - صلى الله عليه وآله وسلم - من لدن أن كان فطيماً أعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم، ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره. (1)»

وصفة القول أن المراد بكونه ضالاً هو أن لازم كون النبي ممكناً بالذات هو كونه فاقداً في ذاته لكل كمال وجمال، مفاضاً عليه كل جميل من جانب الله تعالى وهذا هو إشارة إلى مقتضى التوحيد الإفعالي وابن هذا من الضلالة المساوقة للكفر أو الشرك أو الفسق والعصيان؟!«

ثم ان من المحتمل ان تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضل الشيء إذا لم يُعرف مكانه» وفي الحديث «الحكمة ضالة المؤمن» اي مفقودته، لاضد الهداية والرشاد، فيكون الضالّ بهذا المعنى منطبقاً على ما نقله أهل السير والتواريخ عن ماجرى للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ايام صباه يوم ضلّ في شعاب مكة، وهو صغير فمنّ الله عليه إذ رده إلى جده، وقصته معروفة في كتب السير والتاريخ(2) ولولا رحمة الله سبحانه لادرکه الهلاك ومات عطشاً أو جوعاً فشملتة العناية الالهية.

أو أن تكون الضلالة في الآية مأخوذة من «ضل الشيء إذا خفي وغاب عن الأعين» فالإنسان الضال هو الإنسان المخفي ذكره، المسنّى اسمه لا يعرفه إلا القليل من الناس، ولا يهتدي كثير منهم إليه.

ولو كان هذا هو المقصود، كان معناه حينئذ انه سبحانه رفع ذكره، وعزّفه

- إنهج البلاغة: من الخطبة ١٧٨ و المسماة بالقاصعة: ص ١٨٢.

- 2لاحظ السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٣١ وغيره، وفي هذه القصة يروي عن حيدة بن معاوية العامري سمعت شيخاً يطوف بالبيت وهو يقول:

ياربّ ردّ راكبي محمّداً * أردده ربّي واصطنع عندي يدا

(300)

للناس بعد ما كان خاملاً ذكره منسياً اسمه.

ويؤيد هذا الاحتمال قوله سبحانه في سورة الانشراح التي نزلت لتحليل ما ورد في سورة الضحى قائلاً:

(الم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. ورفعنا لك ذكرك. (1))

فرفع ذكُره في العالم عبارة عن هداية الناس إليه ورفع الحواجز بينه، وبينهم وعلى هذا فالمقصود من «الهداية» هو هداية الناس إليه لا هدايته بعد ضلال، فكأنه قال: فوجدك ضالاً، أي خاملاً ذكرك، باهتاً اسمك، فهدى الناس اليك، وسير ذكرك في البلاد. وإلى ذلك يشير الإمام الرضا - عليه السلام - على ما في خبر ابن الجهم بقوله: «قال الله عزَّ وجلَّ لنبيه محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - (: ألم يجدك يتيماً فأوى (يقول «ألم يجدك» وحيداً فأوى إليك الناس) (وَوَجَدَكَ ضَالاًً) يعني عند قومك «فهدى» أي هداهم إلى معرفتك (2)» قال الاستاذ الشيخ محمد عبده في هذا المجال:

لقد بُعِثَ إليه (أي إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -) (الوثنية من مبدأ عمره فعاجلته طهارة العقيدة، كما بادره حسنُ الخليفة، وما جاء في الكتاب من قوله: «وَوَجَدَكَ ضَالاًً فَهَدَى» لا يُفهم منه أنه كان على وثنية قبل الاهتداء إلى التوحيد، أو على غير السبيل القويم، قبل الخلق العظيم حاش لله، إنَّ ذلك لهوَ الإفك المُبِين. (3)

الآية الثانية: الامر بهجر الرجز

استدلوا بقول الله تعالى «الرُّجْزَ فَاهْجُرْ» على وجود ارضية لعبادة الصنم

-
- [1] الإنشراح: ١ - ٤.
 - 2بحار الأنوار: ج ١٦، ص ١٤٢.
 - 3رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده: ص ١٣٥ و ١٣٦.

(301)

والوثن في شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك بتفسير الرجز بالصنم، والوثن، ويتضح بطلان هذا الادعاء والاستنباط إذا أمعنا في معاني واستعمالات هذه اللفظة في الكتاب العزيز.

ان الرجز استعمل في القرآن الكريم في معان ثلاثة: العذاب، القذارة، الصنم.

وقد استعمل الرجز (بكسر الراء) في تسع موارد في القرآن الكريم، وقد أريد منه في جميعها العذاب إلا في مورد واحد: وهي: البقرة - ٥٩، والاعراف - ١٣٤ (وجاءت اللفظة فيها مرتين) و ١٣٥ و ١٦٢ والانفال - ١١ وسبأ - ٥ والجاثية - ١١ والعنكبوت - ٣٤.

وجاء الرجز - بضم الراء - مرّة واحدة وهي الآية التي نحن بصددنا هنا. (1)

وهذه الآية لا تدل على ما ذهب إليه الذين يزعمون بان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان على غير التوحيد قبل البعثة.

واليك بيان هذا الموضوع مفصلاً:

1- إن الرُّجْز لو كان بمعنى «العذاب» دَلَّت الآية على هجر ما يستلزم العذاب، فيكون الخطابُ حينئذٍ مسوقاً من باب التعليم، ومن باب «اياك أعني واسمعي يا جاره»، فيكون ظاهر الأمر هو مخاطبة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ونهيه عما يستلزم العذاب، وإرادة تعليم الأمة مثل قول الله تعالى في خطابه للنبي (فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ) (2) (وقوله تعالى): لَنْ أَسْرُكْتَ لِيَخْبِطَنَّ عَمَلُكَ (3) فكما لا تدلّ الآية على وجود أرضية الشرك في شخصية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كذلك لا تدلّ الآية على وجود أرضية التعرض للعذاب في شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

2- إن الرُّجْز لو كان بمعنى (القدارة) وهي تنقسم إلى مادية ومعنوية فيحتمل ان يكون المراد بناء على المعنى الأول اشارة إلى ما ورد في الروايات من

-
- 1 المذتّر: ٥ .
 - 2 القصص: ٨٦ .
 - 3 الزمر: ٦٥ .

(302)

أنّ اباجهل جاء بشيء قدر، وأمر رجلا من قريش بالقائه على النبي، ففعل، فأمر الله نبيه بتطهير ثوبه من الدنس.

ويحتمل ان تكون الآية دعوة إلى اجتناب الصفات الذميمة بناء على ارادة المعنى الثاني الفظة الرُّجْز فتكون الآية تعليماً للناس على النمط السابق، فلا تدل على اتصاف النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بها.

3- الرُّجْز بمعنى الصنم، لنفترض أن المقصود منه في الآية هو الصنم، لكن لا بمعنى أنه وضع لذلك المعنى، وإنما وضع اللفظ لمعنى جامع يعمُّ الصنم والخمر والازلام لاشتراك الجميع في كونها رجزاً، ولأجل ذلك وصِف الجميع في مورد آخر بالرجس فقال تعالى): إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ. (4)

ولكن يجاب عن هذا أيضاً بأن النبي يوم نزلت الآية لم يكن عابداً للوثن بل كان مشمراً عن ساعد الجدّ لتحطيم الاصنام ومكافحة عبديتها، فلا يصح أن يخاطب من هذا شأنه بهجر الاصنام إلا على السبيل الذي أشرنا إليه وهو توجيه الخطاب إلى النبي وإرادة الأمة به لكون هذا النوع من الخطاب أبلغ في التأثير، لأنه سبحانه إذا خاطب أعزّ الناس إليه بهذا الخطاب فغيره أولى به.

الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والايمان

قوله سبحانه): وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نُهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ

عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. (2)

زعم جماعة دلالة هذه الآية - والعياذ بالله - على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان فاقداً للإيمان قبل الإحياء إليه.

لكن حياته الشريفة المشرقة بالإيمان، والتوحيد، تفنّد تلك المقالة، فالتاريخ

- 1 المائدة: ٩٠.

- 2 الشورى: ٥٢.

(303)

يشهد على انه - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ بداية عمره إلى أن لاقى ربه مؤمناً موحداً وذلك امرٌ لا شك فيه، ولا شبهة تعتريه، وقد اجمع على ذلك أهل السير والتاريخ، وحتى أن الاحبار والرهبان كانوا معترفين بانه نبيُّ هذه الأمة، وخاتم النبيين، وكان يسمع تلك الشهادات منهم في فترات خاصة في «مكة» و «يثرب» و «بصرى» و «الشام»⁽¹⁾ وغيرها، فكيف والحال هذه يمكن ان يكون غافلاً عن الكتاب الذي ينزل إليه أو يكون مجانباً للإيمان بوجوده سبحانه، و توحيده، والتاريخ المسلم الصحيح يؤكد على عدم صدق ذلك الاستظهار من الآية الحاضرة.

فلا بدّ إذن من الإمعان في مفاد الآية كما لا بدّ - في تفسيرها - من الاستعانة بالآيات الواردة في ذلك المساق.

بعث النبيُّ الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لهداية قومه أولاً، وهداية جميع الناس ثانياً، بالآيات والبيّنات، ونخصّ بالذكر منها: القرآن الكريم (معجزته الكبرى الخالدة) الذي بفصاحته أخرج فرسان الفصاحة، وقادة الخطابة، وببلاغته قهر ارباب البلاغة وملوك البيان، وخب عقولهم، وقد دعاهم إلى التحدي والمقابلة، فلم يكن الجواب منهم إلا اثاره الشكوك والتهم حوله، وحول ما جاء به، وعدم المعارضة بمثل القرآن قط.

فتارة قالوا: بانه يعلمه بشر، وأخرى بأنه إفكٌ افتراه، واعانه عليه قوم آخرون وثالثة: بأنه أساطير الاولين، قد اكتبها فهي تُملى عليه بكرة واصبلا، قال سبحانه رداً على هذه التهم التي أشرنا إليها): **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ * وَ لَقَدْ نَعَلِمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ.**⁽²⁾ وقال سبحانه) **وَ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَ أَعَانَهُ عَلَيْهِ**

- 1 راجع السيرة النبوية والسيرة الحلبية وبحار الأنوار.

- 2 النحل: ١٠٢ و ١٠٣.

(304)

قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا. وَقَالُوا آسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اِكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا. (1)

والآية المبحوثة بصدد بيان هذا الأمر، وانه وحي سماوي لا افك إفتراه، ولهذا بدأ كلامه بلفظة: «وَ كَذَلِكَ أُوحينا إليك» أي كما أنه سبحانه أوحى إلى سائر الانبياء باحدى الطرق الثلاثة التي بينها في الآية المتقدمة، أوحى إليك أيضاً روحاً من امره، وليس هذا كلامك وصنيعك، بل كلام ربك وصنيعه.

هذا مجمل الكلام في الآية ولأجل رفع النقاب عن مرماها نقدم اموراً تسلط الضوء على الآية:

الأول: ان المراد من الروح في الآية هو القرآن وسمي روحاً لانه قوام الحياة الأخروية، كما ان الروح في الإنسان قوام الحياة الدنيوية، ويؤيد ذلك امور:

أ - ان محور البحث الأصلي في سورة الشورى هو: الوحي والآيات الواردة فيها البالغ عددها (٥٣) آية تبحث عن ذلك المعنى بالمباشرة أو بغيرها.

ب - الآية التي تقدمت على تلك، تبحث عن الطرق التي يكلم بها سبحانه انبياءه ويقول: **وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكْتُمَ اللَّهُ إِلَهًُا وَحِيًّا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأَنَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ حَكِيمٍ** (2)

ج - انه سبحانه بدأ كلامه في هذه الآية بلفظة: «وكذلك» أي كما أوحينا إلى من تقدم من الانبياء كذلك أوحينا إليك باحدى تلك الطرق «روحاً من أمرنا» ووجه الاشتراك بينه وبين النبيين هو الوحي المتجلي في نبينا بالقرآن وفي غيره بوجه آخر.

كل ذلك يؤيد ان المراد من الروح في الآية المبحوثة هو القرآن الملقى إليه.

نعم وردت في بعض الروايات ان المراد منه هو روح القدس، ولكنه لا ينطبق على ظاهر الآية، لان الروح بحكم كونه مفعولاً لـ «أوحينا» يجب ان

- 1 الفرقان: ٤ - ٦ .
- 2 الشورى: ٥١ .

يكون شيئاً قابلاً للوحي حتى يكون موحى، وروح القدس ليس موحى بل هو الموحى (بالكسر) فكيف يمكن أن يكون مفعولاً لـ «أوحينا»، ولأجله يجب تأويل الروايات إن صحّت اسنادها.

الثاني: إن هيئة «ما كنت» أو «ما كان» تُستعمل في نفي الإمكان والشأن قال سبحانه: **وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ**

اللَّهِ (1) (وقال عزَّ اسمه) **مَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً**. (2)

وعلى ضوء هذا الاصل يكون مفاد قوله «ما كنت تدري ما الكتاب ولا الايمان» أنه لولا الوحي ما كان من شأنك أن تدري الكتاب ولا الايمان، فان وقفتَ عليهما فأنما هو بفضل الوحي وكرامته.

الثالث: أن ظاهر الآية هو أن النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - كان فاقداً للعلم بالكتاب، والدراية بالكتاب، وانما حصلت الدراية بهما في ظل الوحي وفضله فيجب إمعان النظر في الدراية التي كان النبي فاقداً لها قبل الوحي وصار واجداً لها بعده، فما تلك الدراية وذاك العلم؟

فهل المراد هو العلم بنزول الكتاب إليه اجمالاً والايمان بوجوده وتوحيده سبحانه، أو المراد العلم بتفاصيل ما في الكتاب، والاذعان بها كذلك؟

لا شك انه لا سبيل إلى الأول لأنَّ علمه - اجمالاً - بانه ينزل إليه الكتاب، أو ايمانه بوجود الله سبحانه كانا حاصلين قبل نزول الوحي إليه ولم يكن العلم بهما مما يتوقف على الوحي، فان الأخبار والرهبان كانوا واقفين على نبوته ورسالته ونزول الكتاب إليه في المستقبل إجمالاً، وقد سمع منهم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في فترات مختلفة: أنه النبي الموعود في الكتب السماوية، وانه خاتم الرسالات والشرائع، فهل يصح أن يقال أن علمه - صلى الله عليه وآله وسلم - بنزول كتاب عليه إجمالاً كان بعد بعثته وبعد نزول الوحي، أو انه كان متقدماً عليه و على بعثته، ومثله الايمان بالله سبحانه، وتوحيده، إذ لم يكن الايمان بالله امراً

- 1 آل عمران: ١٤٥.

- 2 التوبة: ١٢٢.

مشكلاً متوقفاً على الوحي، وقد كان الاحناف في الجزيرة العربية ومن جملتهم رجال البيت الهاشمي موحدين مؤمنين مع عدم نزول الوحي اليهم.

فيتعين الاحتمال الثاني وهو أن العلم التفصيلي بمضامين الكتاب وما فيه من الاصول والتعاليم ثم الايمان والاذعان بتلك التفاصيل كانا متوقفين على نزول الوحي، ولولاه لما كان هناك علمٌ بها، ولا ايمان.

وبعبارة أخرى: إنَّ العلم والإيمان بالأمور السمعية التي لا سبيل للعقل إليها مثل المعارف والاحكام والقصص ومجادلات الانبياء مع المشركين والكفار، وما نزل بساحة أعدائهم من إهلاك وتدمير، لا يحصلان إلا من طريق الوحي حتى قصص الامم السالفة وحكاياتهم لتطرق الوضع والدس إلى كتب القصّاصين، والصحف السماوية النازلة قبل القرآن.

* * *

تفسير الآية بأية أخرى:

إن الرجوع إلى ما ورد في هذا المضمار من الآيات يوضح المراد من عدم درايته بالكتاب أولاً، والإيمان ثانياً. أما الأول: فيقول سبحانه: **تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ** (1) فالآية صريحة في أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن عالماً بتفاصيل الأنبياء، وقد وقف عليها من جانب الوحي، فعبر عن عدم وقوفه عليها في هذه الآية بقوله: «ما كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَ لَا قَوْمُكَ» وفي تلك الآية بقوله: «ما كُنْتَ تدري مَا الْكِتَابِ» والفرق هو ان «الكتاب» أعم من «أنبياء الغيب» والأول يشتمل على الانبياء وغيرها، وأما «الانبياء» فانها مختصة بالقصص، والكل مشتركان في عدم العلم بهما قبل الوحي والعلم بهما بعده.

- [هود: ٤٩].

(307)

واما الثاني فقوله سبحانه: **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَ مَلَائِكَتِهِ وَ كُتُبِهِ وَ رُسُلِهِ لَا نَفَرَقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَ قَالُوا سَمِعْنَا وَ أَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَ إِلَيْكَ الْمَصِيرُ** (1) فقوله: «آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ» صريح في أن متعلق الإيمان الحاصل بعد الوحي، هو الإيمان «بما أنزل إليه» أعني تفاصيل الكتاب في المجالات المختلفة، لا الإيمان بالله وتوحيده وعندئذ يرتفع الابهام في الآية التي تمسكت بها المخطئة ومن ينسبون عدم الإيمان بالله وتوحيده إلى النبي قبل البعثة، ويتبين أن متعلق الإيمان المنفَى في قوله: «ولا الإيمان» هو «ما أنزل» لا الإيمان بالمبدأ وتوحيده.

والحاصل إن هُنا شيئاً واحداً هو: «الإيمان بما أنزل من المعارف والاحكام والانبياء» فقد نفى عنه في الآية المبحوث عنها لكونها ناظرة إلى فترة ما قبل البعثة، واثبت له في الآية الأخرى لكونها ناظرة إلى ما بعد البعثة.

قال الطبرسي: «ما كُنْتَ تدري ما الكتاب» ما القرآن ولا الشرائع ومعالم الإيمان. (2)

وقال الفخر الرازي: المراد من الايمان هو الاقرار بجميع ما كلف الله تعالى به، وانه قبل النبوة ما كان عارفاً بجميع تكاليف الله تعالى بل انه كان عارفاً بالله... ثم قال: صفات الله تعالى على قسمين: منها ما تمكن معرفته بمحض دلائل العقل، ومنها ما لا تمكن معرفته الا بالدلائل السمعية، فهذا القسم الثاني لم تكن معرفته حاصلة قبل النبوة. (3)

وقال العلامة الطباطبائي في الميزان: ان الآية مسوقة لبيان ان ما عنده - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي يدعو إليه انما هو من عند الله سبحانه لا من قبل نفسه، وإنما أوتي ما أوتي من ذلك بالوحي بعد النبوة، فالمراد بعدم درايته بالكتاب هو عدم علمه بما فيه من تفاصيل المعارف الاعتقادية والشرائع العملية، فان ذلك هو الذي أوتي العلم به بعد النبوة والوحي، والمراد من عدم درايته الإيمان عدم تلبسه

- [البقرة: ٢٨٥].
- 2 مجمع البيان: ج ٣، ص ٨٨ و ٨٩.
- 3 مفاتيح الغيب: ج ٧، ص ٤١٠.

(308)

بالالتزام التفصيلي بالعقائد الحقة والأعمال الصالحة، وقد سمى العمل ايماناً في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضَيِّعَ إِيمَانَكُمْ⁽¹⁾) (والمراد الصلوات التي اتى بها المؤمنون إلى بيت المقدس قبل النسخ وتحويل القبلة، والمعنى ما كان عندك قبل وحي الروح علم الكتاب بما فيه من المعارف والشرائع ولا كنت متلبساً به ما انت متلبس به بعد الوحي من الالتزام التفصيلي والاعتقادي وهذا لا ينافي كونه مؤمناً بالله، موحداً قبل البعثة صالحاً في عمله، فان الذي تنفيه الآية هو العلم بتفاصيل ما في الكتاب والالتزام بها اعتقاداً وعملاً، لا نفي العلم والالتزام الاجماليين بالايمان بالله، والخضوع للحق. (2)

الآية الرابعة: عدم رجائه إلقاء الكتاب اليه

قال تعالى: (وَمَا كُنْتَ تَرْجُوا أَنْ يُلْقَى إِلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهيراً لِلْكَافِرِينَ. (3))

استدلوا بأن ظاهر الآية نفى علمه بإلقاء الكتاب إليه، فلم يكن النبي راجياً لذلك واقفاً عليه.

أقول: ان توضيح مفاد هذه الآية يتوقف على إمعان النظر في الجملة الاستثنائية اعني قوله: «الآ رحمة من ربك» حتى يتضح المقصود، وقد ذكر المفسرون في توضيحها وجوها ثلاثة تأتي بها:

1- إن «الآ» استدرابية، وليست استثنائية فهي بمعنى «لكن» لاستدراك ما بقي من المقصود، وحاصل معنى الآية: «ما كنت يا محمد ترجو فيما مضى أن يوحى الله إليك ويشرفك بإنزال القرآن عليك، إلا أن ربك رحمك، وانهم به عليك و اراد بك الخير» نظير قوله سبحانه: (وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَ لَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ⁽⁴⁾) اي ولكن رحمة من ربك خصصك به وهذا هو المنقول

-
- 1 البقرة: ١٤٣ .
- 2 الميزان: ج ١٨ ص ٨٠ .
- 3 القصص: ٨٦ .
- 4 القصص: ٤٦ .
-

عن الفراء. (1)

وعلى هذا لم يكن للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اي رجاء لالقاء الكتاب إليه، وانما فاجأه الالقاء لأجل رحمة ربه.

ولكن لا يصار إلى هذا الوجه إلا إذا امتنع كون الاستثناء متصلاً لكون الانقطاع على خلاف الظاهر.

2- ان يكون «الآ» للاستثناء لا للاستدراك وهو متصل لا منقطع، ولكن المستثنى منه جملة محذوفة معلومة من سياق الكلام، وهو كما في الكشف: «وما القى اليك الكتاب إلا رحمة من ربك (2)» اي لم يكن لالقائه عليك وجة إلا رحمة ربك، وعلى هذا الوجه ايضاً لا يُعلم انه كان للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رجاء لالقاء الكتاب عليه وان كان الاستثناء متصلاً.

وهذا الوجه بعيد أيضاً لكون المستثنى منه، محذوفاً مفهوماً من الجملة على خلاف الظاهر وانما يصار إليه إذا لم يصح ارجاعه إلى نفس الجملة الواردة في نفس الآية كما سيبيّن في الوجه الثالث.

3- أن يكون «الآ» استثناء من الجملة السابقة عليه اعني قوله: «وما كنت ترجو» ويكون معناه: ما كنت ترجو القاء الكتاب عليك إلا أن يرحمك الله برحمة فينعم عليك بذلك، فتكون النتيجة: ما كنت ترجو إلا على هذا. (3)

فيكون هنا رجاء منفيًا، ورجاء مثبتًا، أما الأول فهو رجاءه بحادثة نزول الكتاب على نسج رجائه بالحوادث العادية، فلم يكن ذلك الرجاء موجوداً.

واما رجاءه به عن طريق الرحمة الالهية فكان موجوداً فنفي أحد الرجائين لا يستلزم نفي الآخر، بل المنفي هو الأول، والثابت هو الثاني وهذا الوجه هو الظاهر المتبادر من الآية.

وقد سبق ممّا أن جملة «ما كنت» وما اشبهه تستعمل في نفي الامكان ،

-
- 1 مجمع البيان: ج ٤، ص ٢٩٦، مفاتيح الغيب: ج ٦، ص ٤٠٨ .
- 2 الكشف: ج ٢، ص ٤٨٧ و ٤٨٨ .
- 3 مفاتيح الغيب: ج ٦، ص ٤٩٨ .
-

والشأن، وعلى ذلك يكون معنى الجملة: لم تكن راجياً لأن يلقى اليك الكتاب، وتكون طرفاً للوحي، والخطاب الأ من جهة خاصة، وهي أن تقع في مظلة رحمته وموضع عنايته، فيختارك طرفاً لوحيه، ومخاطباً لكلامه، فالنبي بما هو انسان عادي لم يكن راجياً لأن ينزل إليه الوحي، ويلقى إليه الكتاب، وبما انه صار مشمولاً لرحمته وعنايته، وصار انساناً مثالياً، قابلاً لتحمل المسؤولية، وتربية الأمة، كان راجياً به، وعلى ذلك فالنفي والاثبات غير واردين على موضع واحد.

وبهذا خرجنا بفضل هذا البحث الضافي أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إنساناً مؤمناً موحداً عابداً لله ساجداً قائماً بالفرائض العقلية والشرعية مجتنباً عن المحرمات عالماً بالكتاب ومؤمناً به إجمالاً وراجياً لنزوله إليه إلى أن بعث لانقاذ البشرية عن الجهل، وسوقها إلى الكمال.

الآية الخامسة: لو لم يشأ ما تلوته

قال سبحانه: **قُلْ لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا تَلَوْتُهُ عَلَيْكُمْ وَلَا أَدْرِيكُمْ بِهِ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ**⁽¹⁾، والآية تؤكد أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان لا يبتأ في قومه، ولم يكن تالياً لسورة من سور القرآن، أو آية من آياته وليس هذا شيء ينكره القائلون بالعصمة، فقد اتفقت كلمتهم على أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وقف على ما وقف عليه من أي الذكر الحكيم من جانب الوحي، ولم يكن قبله عالماً به واين هذا من قول المخطئة من نفي الايمان منه قبلها. وان اردت الاسهاب في تفسيرها فلاحظ الآية المتقدمة، فترى فيها اقتراحين للمشركين وقد اجاب القرآن عن أحدهما في الآية المتقدمة وعن الآخر في نفس هذه الآية واليك نصها: **قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ أَفَلَا مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٌ عَظِيمٌ**.⁽²⁾

- 1 يونس: ١٦.

- 2 يونس: ١٥.

اقترح المشركون على النبي أحد الأمرين:

1- الإتيان بقرآن غير هذا مع التحفظ على فصاحته وبلاغته.

2- تبديل بعض آياته مما فيه سب لآلهتهم وتنديد بعبادتهم للاوثان والاصنام.

فأجاب عن الثاني في نفس الآية بان التبدل عسيان لله، وانه يخاف من مخالفة ربه، ولا محيص له إلا إبتاغ الوحي من دون أن يزيد فيه أو ينقص عنه.

واجاب عن الأول في الآية المبحوث عنها بان ذلك أمر غير ممكن لأن القرآن ليس من صناعي وكلامي حتى أذهب به وآتي بآخر، بل هو كلام الله سبحانه وقد تعلقت مشيئته بتلاوتي، ولو لم يشأ لما تلوته عليكم ولا ادراككم به، والدليل على ذلك أنني كنت لا بئاً فيكم عُمرأ من قبل فما تكلمت بسورة أو بآية من آياته، ولو كان القرآن كلامي لبادرت إلى التكلم به، ايام معاشرتي السابقة معكم في المدة الطويلة، المديدة.

قال العلامة الطباطبائي في تفسير الآية: إن الأمر فيه إلى مشيئة الله لا إلى مشيئتي، فانما أنا رسول ولو شاء الله ان ينزل قرآناً غير هذا لأنزل، أو لم يشأ تلاوة هذا القرآنُ تلوته عليكم، ولا أدراكم به فاني مكثت عُمرأ من قبل نزوله، ولو كان ذلك الی وببيدي لبادرتُ إليه قبل ذلك وبدت من ذلك آثار ولاحت لوانحه. (1)

فكيف يمكن والحال هذه أن يكون مجانباً للإيمان بالله وتوحيده، لاهياً عن عبادته وتقديسه.

هذا وفي هذا المجال حديث واسع اكتفينا منه بهذا القدر، ومن أراد التوسع أن يراجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن ص ١٣٥ - ١٩١.

وأما الكلام في الجهة الثانية وهي: أنه بماذا وبأي دين كان يتعبد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل البعثة، فقد وقع ذلك محطاً للبحث بين العلماء، وحيث انه لا ينطوي على فائدة كبرى، بعد أن تبين أنه كان قبل البعثة

- [الميزان: ج ١٠، ص ٢٦، ولاحظ المنار: ج ١١، ص ٣٢٠.

(312)

مؤمناً، موخداً، يعبد الله، فإنه يكفي أن نعرف أنه كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتزم بما ثبت له أنه شرع الله تعالى... وبما يؤدي إليه عقله الفطري السليم، وأنه بالتالي كان مؤيداً مسدداً، وأنه كان أفضل الخلق واكملهم خلقاً، وخلقاً، وعقلاً، وانه كان يعمل حسب ما يُلهم سواء اكان مطابقاً لشرع ما قبله أم مخالفاً وأن هاديه وقائده منذ صباه إلى ان بعث هو نفس هاديه بعد البعثة. (1)

- [وللتوسع والوقوف على الآراء المختلفة في هذا المجال راجع الجزء الخامس من مفاهيم القرآن: ص ١٣٥ - ١٩١.

(313)

١١ بدء الوحي

انَّ التاريخَ الإسلاميَّ يبدأ في الحقيقة من يوم بعثة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة، والتي وقعت على أثره حوادث خاصة.

ويوم بُعث النبيُّ الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - لهداية الناس، ودَوَى في سمعه الشريف نداء «إنيك لرسول الله» الصادر عن ملاك الوحي ألقيت على كاهله مسؤولية كبرى وثقيلة جداً، على نمط الوظيفة الهامة التي ألقيت على كاهل من سبقه من الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

منذ ذلك اليوم اتضح هدف أمين قريش، أكثر فأكثر، وتجلت خطته أكثر فأكثر.

ونحن نرى من اللازم قبل شرح الحوادث الأولى الواقعة عند البعثة ان نعطي بعض الايضاحات حول مسألتين:

-1[وجوب بعث الأنبياء.

2- دورُ الأنبياء في اصلاح المجتمع.

لقد أودع الله تعالى في كيان كُلِّ كائن من الكائنات أدوات تكامله، وجَهَّزه - لسلوك هذا الطريق - بالوسائل المتنوعة، والأجهزة المختلفة اللازمة.

ولنأخذ مثلاً: نبتة صغيرة، فان ثمة عوامل كثيرة تتفاعل في ما بينها وتعمل

(314)

لتحقيق التكامل فيها.

ان جذور كل نبتة تعمل اكبر قدر ممكن لامتصاص العناصر الغذائية، وتلبية احتياجات النبتة، وتوصل العروق والقنوات المختلفة، عصارة ما تأخذه من الارض إلى جميع الاغصان والاوراق.

إننا لو درسنا جهاز (وردة) لرأينا أكثر مدعاة للاعجاب وأشد اثاره للتعجب من تركيب بقية النباتات.

فللكأس وظيفه توفير الغطاء اللازم للاوراق الناعمة اللطيفة في الوردة.

وهكذا الحال بالنسبة إلى بقية الأجهزة في (الوردة) مما أنيط إليها مسؤولية الحفاظ على كائن حيّ، وضمان رشدّه ونموّه، فإنها جميعاً تقوم بوظائفها المخلوقة لها بأحسن شكل، وأفضل صورة.

ولو أننا خطونا خطوات أكثر وتقدّمنا بعض الشيء لدراسة الأجهزة العجيبة في عالم الأحياء، لرأينا أنها جميعاً وبدون استثناء مُزوّدة بما يضمن بلوغها إلى مرحلة الكمال المطلوب لها.

وإذا أردنا أن نصبّ هذا الموضوع في قالب علميّ لوجب أن نقول: إنّ الهداية التكوينية، التي هي النعمة المتجلّية في عالم الطبيعة، تشمل كل موجودات هذا العالم من نبات، وحيوان وإنسان.

ويبيّن القرآن الكريم هذه الهداية التكوينية الشاملة بقوله:

(رَبَّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى. (1))

فإنّه يصرّح بأن كل شيء في هذا الكون من الذرة إلى المجرة ينعم بهذا الفيض العام، وإنّ الله تعالى بعد أن قدّر كل موجود وكائن، بيّن له طريق تكامله، ورُقّيّه، وهياً لكل كائن من تلك الكائنات ما يحتاج إليه في تربيته ونموّه، وهذه هي (الهداية التكوينية العامة) السائدة على كل أرجاء الخليقة دونما استثناء.

- إله: ٥٠.

(315)

ولكن هل تكفي هذه الهداية الفطرية، التكوينية لكائن مثل الإنسان، اشرف الموجودات، وافضل ما في هذه الخليقة؟!

بكل تأكيد: لا.

لأن للإنسان حياة اخرى غير الحياة المادية، تشكل اساس حياته الواقعية، ولو كان للإنسان حياة مادية جافّة فقط مثلما لعالم النباتات، والحيوانات، لكفت العوامل والعناصر المادية في تكامله، والحال أن للإنسان نوعين من الحياة، يكمن في تكاملهما معاً رمز سعادة الإنسان ورُقّيّه.

ان الإنسان الأول، ونعني به انسان الكهوف والحياة البسيطة والفترة السلمية التي لم يطرأ على جبلته اي إعوجاج لم يكن بحاجة إلى ما يحتاج إليه الإنسان الإجتماعي من التربية والهداية.

ولكن عندما خطى الإنسان خطوات أبعد من ذلك، وبدأ الحياة الاجتماعية، وسادت على حياته فكرة التعاون والعمل الجماعي برزت في روحه ونفسيته سلسلة من الانحرافات نتيجة للاحتكاك الاجتماعي، وغيّرت الخصال القبيحة والافكار الخاطئة صفاته الفطرية، وبالتالي اخرج المجتمع من حالة التوازن!

إن هذه الانحرافات حملت خالق الكون على أن يرسل إلى البشرية رجالاً أفاضلاً صالحين يتولون تربية البشر، وليقوموا بتنظيم برنامج المجتمع، والتخفيف من المفسد الناشئة - بصورة مباشرة - عن النزعة الاجتماعية لدى الإنسان، وليضيئوا - بمشاعل الوحي المشعة المنيرة - طريق السعادة والخير للإنسانية في جميع المجالات والأبعاد.

إذ لا نقاش في أنّ الحياة الاجتماعية والعيش بصورة جماعية مع كونه مفيداً، ينطوي على مفسد لا تُنكر، ويجرّ إلى انحرافات كثيرة لا تقبل التردد.

ولهذا بعث الله سبحانه رجالاً مصلحين، وهداة مرشدين يعملون - قدر الامكان - على الحدّ من الانحرافات والمفسد، ويضعون عجلة المجتمع - بتنظيم القوانين الواضحة والانظمة الحكيمة - على الطريق الصحيح، ويضمنون دورانها

(316)

وحركتها في المسار المستقيم.

وقد يُستفاد هذا الامر - بوضوح - من قوله تعالى:

(كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ. (١))

دور الانبياء في اصلاح المجتمع:

إن الذي يتصوره الناس عادة هو أنّ الانبياء مجرد معلّمين إلهيين بُعثوا لتعليم البشرية.

فكما يتعلم الطفل خلال حركته التعليمية ابتداء من الابتدائية ومروراً بالمتوسطة وانهاء بالجامعة دروساً معينة ومواضيع خاصة على ايدي الاساتذة والمعلمين، كذلك يتعلم الناس في مدرسة الانبياء أموراً خاصة، ويكتسبون معارف معينة، وتتكامل أخلاقهم وصفاتهم وخصالهم الاجتماعية جنباً إلى جنب مع اكتسابهم المعرفة والعلم على أيدي الأنبياء والمرسلين.

ولكننا نتصور ان مهمة الانبياء ووظيفتهم الاسياسية هي (تربية) المجتمعات البشرية لا تعليمها، وان اساس شريعتهم لا ينطوي على كلام جديد، وانه مالم تتحرف الفطرة البشرية عن مسارها الصحيح، وما لم تلفها غشاوات الجهل والغفلة لعرفت وادركت خلاصة الدين الالهي، وعصارتها، في غير ابهام، ولا خفاء.

على أن هذه الحقيقة قد أشار إليها قادة الإسلام العظماء.

فقد قال امير المؤمنين - عليه السلام - في نهج البلاغة عن هدف الانبياء:

«أخذَ عَلَى الوحي ميثاقهم، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم... لِيَسْتَأْذِنُواهُمْ ميثاقَ فِطْرَتِهِ، وَ يُذَكِّرُوهُمْ مُنْسَى نِعْمَتِهِ، وَيَحْتَجُّوا عَلَيْهِم بِالتَّبْلِيغِ، وَيُثْبِتُوا لَهُم دِفَائِنَ العُقُولِ.»⁽²⁾

- [البقرة: ٢١٣].
- 2 نهج البلاغة: قسم الخطب، الخطبة رقم ١.

(317)

مثال واضح في المقام:

إذا قلنا: ان وظيفة الانبياء في تربية الناس واصلاح نفوسهم هي وظيفة البستاني في تربية شجيرة من الشجرات، أو قلنا: أن مثل الانبياء في قيادة التوجهات الفطرية البشرية وهدايتها، مثل المهندس الذي يستخرج المعادن الثمينة من بطون الاودية والجبال، لم نكن في هذا القول مبالغين.

وتوضيح ذلك ان النبتة، أو الشجيرة الصغيرة تحمل من بداية انعقاد حبثها الأولى كل قابليات النمو، والرشد، فاذا توفر لها الجو المناسب للنمو، دبّت الحياة والحركة في كل أجزائها، واستطاعت بفعل جذورها القوية واجهزتها المتنوعة وفي الهواء الطلق، والضوء اللازم، من أن تقطع أشواطاً كبيرة من التكامل، والنمو.

فمسؤولية البستاني في هذه الحالة تتركز في امرين:

1- توفير الظروف اللازمة لتوقية جذور تلك النبتة لكي تظهر القوى المودعة في تلك النبتة أو الشجيرة، وتخرج من حيز القوة إلى مرحلة الفعلية، والتحقق.

2- الحيلولة دون تعرض تلك الشجرة أو النبتة للانحرافات والأفات، وذلك عندما تتجه القوى الباطنية صوب الوجهة المخالفة لسعادتها، وتسلك طريقاً ينافي تكاملها.

ومن هنا فان مسؤولية البستاني ووظيفته ليست هي (الإنماء) بل هي (المراقبة) وتوفير الظروف اللازمة ليتهاة لتلك الشجرة والنبتة أن تبرز كمالها الباطني.

لقد خلق الله سبحانه البشر وأودع في كيانه طاقات متنوعة، وغرائز كثيرة، وعجن فطرته وجبلته بالتوحيد، وحب معرفة الله، وحب الحق والخير، والعدل والانصاف، كما وأودع فيه غريزة السعي والعمل.

وعندما تبدأ خمائر هذه الامور وبذورها الصالحة المودعة بالعمل والتفاعل في كيان الإنسان تتعرض في الجو الاجتماعي لبعض الانحرافات بصورة قهرية ،

(318)

فغريزة العمل والسعي تتخذ شيئاً فشيئاً صفة الحرص والطمع، وغريزة حب السعادة والبقاء تتخذ صورة الانانية، وحب الجاه والمنصب، ويتجلى نور التوحيد والإيمان في لباس الوثنية وعبادة الأصنام.

في هذه الحالة يعمل سفراء الله إلى البشرية: (الانبياء والرسل) على توفير ظروف الرشد والنمو الصحيح لتلك الغرائز وتلك القوى والطاقات في ضوء الوحي، والبرامج الصحيحة المستلهمة من ذلك المنبع الالهي الهادي، ويقومون بالتالي بتعديل انحرافات الغرائز، والوقوف دون تجاوزها حدودها المعقولة المطلوبة.

ولقد قال امير المؤمنين في مامر من كلامه: إن الله أخذ - في مبدأ الخلق - ميثاقاً يدعى «ميثاق الفطرة». »

فما هو تروى المقصود من ميثاق الفطرة هذا؟

إن المقصود من هذا الميثاق هو: أن الله تعالى بخلقه وابداعه الغرائز المفيدة في الكيان الإنساني، وبمزج الفطرة البشرية بعشرات الأخلاق الطيبة والسجايا الصالحة يكون قد أخذ من الإنسان ميثاقاً فطرياً بأن يتبع خصال الخير، ويأخذ بالغرائز الطيبة الصالحة.

فإذا كان منح جهاز البصر (العين) للإنسان هو نوع من اخذ الميثاق من الإنسان بان يتجنب المزالق، ولا يقع في البئر، فكذاك ابداع حسن التدبير، وغريزة الانجذاب إلى الله، وحب العدل، في كيانه هو الآخر نوع من اخذ الميثاق منه بأن يظل مؤمناً بالله، موحداً إياه، عادلاً، منصفاً محباً للخير والحق.

وإن وظيفة الأنبياء هي أن يحملوا الناس على العمل بمقتضى ميثاق الفطرة، وبالتالي فإن مهمتهم الأساسية الحقيقية هو تمزيق اغشية الجهل وتبديد سحب الغفلة التي قدترين على جوهره الفطرة المطعمة بنور الايمان، فتمنعها من الاشرار على وجود الإنسان، وتحرم الإنسان من هدايتها.

ومن هنا قالوا: إن اساس الشرائع الالهية يتالف من الامور الفطرية، التي فطر الإنسان عليها.

وكان صرح الكيان الإنساني (جَبَلٌ) اختفت بين ثنايا صخوره وفي بطونه احجار كريمة كثيرة ومعادن ذهبية ثمينة، فالوجود الإنساني هو الآخر قد أودعت فيه فضائل وعلوم، ومعارف وخصال، واخلاق متنوعة.

فعندما يغورُ الانبياء والمهندسون الروحويون في أعماق نفوسنا وذواتنا وهم يعلمون جيداً أن نفوسنا معجونة بطائفة من الصفات والسجايا النبيلة والمشاعر والاحاسيس الطيبة، ويعملون على اعادة نفوسنا - بتعاليم الدين وبرامجه - إلى جادة الفطرة المستقيمة السليمة فانهم في الحقيقة يذكرّوننا بأحكام فطرتنا، ويُسمعوننا نداء ضمائرنا، ويلفتونها إلى الصفات، وإلى الشخصية المودعة فيها.

تلك هي رسالة الانبياء، وذلك هو عملهم الاساسي، وهذا هو دورهم في اصلاح النوع الإنساني، أفراداً وجماعات.

أمين قريش في غار حراء:

يقع جبل «حراء» في شمال «مكة» ويستغرق الصعود إلى غار حراء مدة نصف ساعة من الزمان.

ويتألف ظاهر هذا الجبل من قطع صخرية سوداء، لا يُرى فيها أي أثر للحياة أبداً.

ويوجد في النقطة الشمالية من هذا الجبل غار يمكن للمرء أن يصل إليه ولكن عبر تلك الصخور، ويرتفع سقف هذا الغار قامة رجل، وبينما تضيء الشمس قسماً منه، تغرق نواح أخرى منه في ظلمة دائمة.

ولكن هذا الغار يحمل في رحابه ذكريات كثيرة عن صاحب له طالما تردّد عليه، وقضى ساعات بل وأياماً وأشهرات في رحابه... ذكريات يتشوق الناس - وحتى هذه الساعة - إلى سماعها من ذلك الغار، ولذلك تجدهم يسارعون إلى لقائه كلما زاروا تلك الديار، متحمّلين في هذا السبيل كل عناء، للوصول إلى رحابه، لكي يستفسرونه عما جرى فيه عند وقوع حادثته: «الوحي» العظيمة وليسألونه عن ما تحتفظ به ذاكرته من تاريخ رسول الإنسانية الاكبر ممّا جرت

حوادثه في ذلك المكان التاريخي، العجيب.

ويتحدث ذلك الغار هو الآخر اليهم بلسان الحال ويقول: هاهنا المكان الذي كان يتعبد فيه عزيز قريش وفتاها الصادق الامين.

وهاهنا قضى ليالي وأياماً عديدة وطويلة قبل ان يبلغ مرتبة الرسالة، في عبادة الله، والتأمل في الكون، وفي آثار قدرة الله وعظمته

أجل، لقد اختار محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك المكان البعيد عن ضجيج الحياة، للعبادة والتحنّث، فكان يمضي جميع الايام من شهر رمضان فيه، وربما لجا إليه في غير هذا الشهر أحياناً اخرى، إلى درجة أنّ زوجته الوفية كانت إذا لم يرجع إلى منزلها، تعرفت أنه قد ذهب إلى «غار حراء» وأنه هناك مشغول بالعبادة والتحنّث والاعتكاف، وكانت كلما أرسلت إليه أحداً وجده في ذلك المكان مستغرقاً في التأمل والتفكير، أو مشغولاً بالعبادة والتحنّث.

لقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل أن يبلغ مقام النبوة، ويُنْعَث بالرسالة يفكر - أكثر شيء في أمرين:

1- كان يفكر في ملكوت السموات والارض، ويرى في ملامح كل واحد من الكائنات التي يشاهدها نور الخالق العظيم، وقدرته، وعظمته وعلمه، وقد كانت تفتح عليه من هذا السبيل نوافذ من الغيب تحمل إلى قلبه وعقله النور الإلهي المقدس.

2- كان يفكر في المسؤولية الثقيلة التي ستوضع على كاهله.

إن اصلاح المجتمع في ذلك اليوم على ما كان عليه من فساد عريق وانحطاط عريض، لم يكن في نظره وتقديره بالامر المحال الممتنع. ولكن تطبيق مثل هذا البرنامج الاصلاحى لم يكن في نفس الوقت أمراً خالياً من العناء والمشاكل، من هنا كان يفكر طويلاً في الفساد في حياة المجتمع المكّي وما يراه من ترف قريش، وكيفية رفع كل ذلك واصلاحه.

لقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - حزيناً لما يرى من قومه من فساد العقيدة المتمثل في الخضوع للأوثان الميتة، والعبادة للأصنام الخاوية الباطلة، ولطالما

(321)

شوهدت آثار ذلك الحزن على محيابه، ولامح وجه الشريف، ولكن لما لم يكن مأذوناً بالافصاح بالحقائق، لذلك كان يتجنب ردع الناس عن تلك المفاسد، ومنعهم عن تلك الانحرافات.

بدء الوحي:

لقد امر الله ملكاً من ملائكته بأن ينزل على امين قريش وهو في غار حراء ويتلو على مسمعه بضع آيات كبدائية لكتاب الهداية والسعادة، معلناً بذلك تنويجه بالنبوة، ونصبه لمقام الرسالة.

كان ذلك الملك «جبرئيل»، وكان ذلك اليوم هو يوم المبعث النبوي الشريف الذي سنتحدث عن تاريخه في المستقبل.

ولا ريب أن ملاقاته الملك ومواجهته أمرٌ كان يحتاج إلى تهيؤ خاص، وما لم يكن محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - يمتلك روحاً عظيمة، ونفسية قوية لم يكن قادراً قط على تحمّل ثقل النبوة، وملاقاته ذلك الملك العظيم.

أجل لقد كان «أمين قريش» يمتلك تلك الروح الكبرى، وتلك النفس العظيمة وقد اكتسبها عن طريق العبادات الطويلة، والتأمل العميق الدائم، إلى جانب العناية الإلهية.

ولقد روى أصحاب السير والتاريخ انه رأى رؤى عديدة قبل البعثة كانت تكشف عن واقع بيّن واضح وضوح النهار. (1)

ولقد كانت الذّ الساعات وأحبها عنده بعد كل فترة، تلك الساعات التي يخلو فيها بنفسه، ويتعبّد فيها بعيداً عن الناس.

ولقد قضى على هذا الحال مدة طويلة حتى أتاه - في يوم معين - ملك عظيم بلوح نصّبهُ أمامه وقال له: «إقرأ»، وحيث أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان أمياً لم يدرس أجاب الملك بقوله: «ما أنا بقارىء». »

- [صحيح البخاري: ج ١ كتاب العلم ص ٢٢، بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٤.

(322)

فاتحضنه ذلك الملك، وعصره عصرة شديدة، ثم طلب منه أن يقرأ فأجابه بالجواب الأول.

فَعصره الملك ثانية عصرة شديدة وتكرّر هذا العمل مرات ثلاث احس بعدها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفسه أنه قادر على قراءة ما في ذلك اللوح، فقرأ ساعتها تلك الآيات التي تشكل - في الحقيقة - ديباجة كتاب السعادة البشرية، وأساس رقيها

لقد قرأ - صلى الله عليه وآله وسلم - قوله تعالى:

(إِذَا بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * إقرأ وَ رَبُّكَ الْأَكْرَمُ. الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ. (1)

وبعد أن انتهى جبرئيل من أداء مهمته التي كُلف بها من جانب الله تعالى، وبلغ إلى النبي تلكم الآيات الخمس، انحدر رسول الله -

صلى الله عليه وآله وسلم - من جبل حراء، وتوجه نحو منزل خديجة. (2)

ولقد أوضحت الآيات المذكورة برنامج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اجمالاً، وبيّنت وبشكل واضح ان اساس الدين يقوم على القراءة والكتابة، والعلم والمعرفة، واستخدام القلم.

ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين:

لقد تسبّب التقدم العظيم والمتزايد الذي تحقق في ميدان العلوم الطبيعية في سلب الكثير من العلماء القدرة على فهم وإدراك القضايا المعنوية والخارجة عن اطار العلوم الطبيعية والتالي أدى إلى تحديد وتضييق آفاق الفكر عندهم.

فإذا بهم اصبحوا يتصورون أن الوجود يتلخص في هذا الكون المادي، وانه ليس في الوجود من شيء سوى المادة وان كل ما لا يمكن تفسيره وتبريره بالقوانين والقواعد المادية فهو أمر باطل، ومن نسج الخيال!!

- [العلق: ١ - ٥].
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٣٦ و ٢٣٧.

(323)

إن هذا الفريق - لتسرع في اصدار الحكم في الأمور المتعلقة - بالغيب وقضايا ماوراء الطبيعة، وحصر أدوات المعرفة بالحس والتجربة - انكروا عالم الوحي، بحجة أن الحس والتجربة لا يقودانهم إلى ذلك العالم، ولا يخبرانهم عن مثل تلك الموجودات، فلكونها بالتالي لا تخضع لمبضع التشريح، ومجهر الإختبار أنكروها بالمرّة، وكانت النتيجة أن أدوات المعرفة المعروفة (الحسّ والتجربة) حيث انها لا تهدي إلى عالم ماوراء المادة فاذن لا وجود خارجي لذلك العالم ولحقاقه أبداً!

إنّ هذا النمط من التفكير نمط جدّ ضيق ومحدود، مضافاً إلى انه يتسم بالغرور والغطرسة، فهو من باب «استنتاج عدم الوجود من عدم الوجدان» في خطوة متعجّلة فجّة!!

فمادامت هذه الحقائق التي يعتقد بها الالهيوّن المؤمنون بالله لا يمكن التوصل إليها عن طريق الادوات الفعلية المتعارفة بينهم للدراك والمعرفة فهي اذن لا اساس لها من الواقع!!

ان الذي لا شك فيه هو: ان الماديين لم يدركوا مقالة العلماء الالهييين حتّى في مسألة اثبات الصانع الخالق فكيف بالعالم الأخرى لما فوق الطبيعة، ولو أنّ الفريقين تحاورا في جوّ علمي مناسب، بعيداً عن الأغراض والعصبيّات، لكان من المتوقع ان تزول الفواصل بين الماديين والالهييين في اقرب وقت، وأين يرتفع هذا الاختلاف الذي قسّم العلماء إلى فريقين على طرفي نقيض.

لقد اقام المؤمنون الموجدون عشرات الأدلة والبراهين القاطعة على وجود الله تعالى، واثبتوا بأنّ هذه العلوم الطبيعية هي نفسها تقودنا إلى الخالق العالم القادر، وان هذا النظام العجيب السائد في ظواهر الكائنات الطبيعيّة وبواطنها لدليل قاطع، وبرهان ساطع على وجود مبدع هذا النظام، وأن جميع أجزاء هذا الكون المادى، من ذراته إلى مجراته، يسير وفق قوانين دقيقة متقنة، ولا تستطيع الطبيعة الصماء العمياء ابداً أن تكون مبتكرة لهذا النظام البديع، ومبدعة لهذا الترتيب الدقيق.

(324)

وهذا هو بنفسه برهان «نظام الوجود» أو (برهان النظم) الذي ألف العلماء الالهييون الموحدون حوله عشرات الكتب والدراسات.

وحيث ان (برهان النظم) هذا ممّا يفهمه جميع الناس على مختلف مراتبهم ومداركهم، لذلك ركزت عليها الكتب الاعتقادية دون سواها، وسلك كلُّ واحد من العلماء طريقاً معيناً وخاصاً لتقريره، وبيانه، كما ودرست الأدلة والبراهين الأخرى التي لا تتسم بمثل هذه الشمولية، في الكتب، والمؤلفات الفلسفية والكلامية بصورة مفصلة ومبسوطة.

إنّ للعلماء الالهييين بيانات وأدلة في مجال (الروح المجردة)، وعوالم ما وراء الطبيعة (الميتافيزيقيا) نشير إلى بعضها هنا:

الروح المجردة:

إن الاعتقاد بالروح من القضايا الشائكة الطبيعية التي استقطبت اهتمام العلماء وشغلت بالهم بشدة.

فهناك فريقٌ - ممّن اعتاد أن يُخضع كل شيء لمبضع التشريح - ينكر وجود (الروح)، ويكتفي بالاعتقاد بالنفس ذات الطابع المادي، والعاملة ضمن نطاق القوانين الطبيعية فقط.

ووجود «الروح» والنفس غير المادية (أي المجردة المستقلة عن المادة) من القضايا التي عُوجت ودُورست من قِبَل المؤمنين بالله، والمعتقدين بالعالم الروحاني، بصورة دقيقة، وعميقة.

فهم أقاموا شواهد عديدة على وجود هذا الكائن (غير المادي) وهي أدلة وبراهين لو تَمَّ التعرف عليها والنقاش حولها في جو علمي هادئ مع الأخذ بنظر الاعتبار ما يقوم عليه منطق الالهييين - في هذا المجال - من قواعد وأسس، لأدّى ذلك إلى التصديق الكامل بها.

على أن ما يقوله الالهييون في مجالات أخرى مشابهة مثل (الملائكة) و (الوحي) و (الإلهام) يقوم هو الآخر على الأساس الذي شيده ومهدوه وبرهنوا

(325)

عليه قبل ذلك بالأدلة المحكمة، المتقنة. (1)

ظاهرة الوحي عند الماديين:

يُعتبر الاعتقاد بالوحي أساساً لجميع الرسالات، والأديان السماوية، وتقوم هذه الظاهرة (ظاهرة الوحي) على أن الذي يوحى إليه يمتلك روحاً قوية تقدر على تلقي المعارف الالهية من دون واسطة، أو بواسطة ملك من الملائكة.

ويلخص العلماء المختصون تعريفهم للوحي على النحو التالي: «الوحي تعليمٌ تعالي من اصطفاه من عباده كل ما أراد اطلاعه عليه من ألوان الهداية والعلم ولكن بطريقتة خفية غير مُعتادة للبشر.»

ولكن الماديين - كما قلنا - لم يستطيعوا هضم هذه الحقيقة، وادراك هذه الظاهرة على حالها، وصورتها الغيبية بسبب ما ذكرناه من منهجهم ونظرتهم إلى الأمور والكائنات فذهبوا في تفسير ظاهرة الوحي - التي هي كما اسلفنا من قضايا الغيب ومن عوالم ما فوق الطبيعة - مذاهب مختلفة ترجع برمتها إلى الرؤية المادية للوجود.

واليك أبرز هذه التفسيرات المادية لظاهرة الوحي الغيبية:

أبرز النظريات المادية لظاهرة الوحي:

- [قالوا: الوحي هي القدرة الفكرية، والنفسية والعقلية التي تحصل للإنسان بسبب التمرينات والرياضات الروحية التي على اثرها تنفتح عليه أبواب من الغيب، فيخبر عن امور طالما تتفق مع الواقع على نحو ما يحصل للمرتاضين الهنود. (2)]

فالانبياء بسبب اعتزالهم للمجتمع - على غرار ما يفعل المرتاضون - وإقبالهم

- [ولقد جاء تفصيل هذه البراهين والأدلة في الكتب الفلسفية مثل: «الإشارات» و «الأسفار». ولقد اشرنا إلى بعض هذه الأدلة في كتاب (الله خالق الكون) فراجع.
- 2 وهم الذي يمارسون علمية اليوجا.

(326)

على الرياضة الروحية تحصل لهم المقدرة على الإخبار بالغائبات، والكائنات الخفية على غيرهم.

والجواب على هذه النظرية هو: أن دراسة حالات المرتاضين تكشف لنا عن أنهم طالما يخطأون في إخباراتهم أخطاء فاضحة، بينما لم يُعهد من نبي أنه أخطأ في إخباراته، وإنباءاته.

هذا اولا

وثانياً: إن ما يفعله المرتاضون لا ينطوي على أية أهداف اصلاحية عليا للمجتمع البشري، بل غاية همهم هو: عرض الافعال العجيبة على الناس وربما تسلية المتفرجين، بينما يهدف الأنبياء إلى إصلاح المجتمعات البشرية وقيادتها إلى ذرى الكمال والتقدم .

وثالثاً: إن المرتاضين لا يتقون بما يخبرون به، كما لم يُعزف إلى الآن أن أحداً منهم طلع على المجتمع البشري ببرنامج كامل وشامل للحياة البشرية الفردية والاجتماعية، بينما نجد الأنبياء يخبرون الناس بما أمروا به وهم على إيمان كامل، ويقين ثابت منه، هذا إلى جانب أنهم يحملون إلى البشرية برامج اجتماعية وحيوية جامعة الاطراف، كاملة الأبعاد، رفيعة الأهداف، عميقة الغايات، ترجع إليها كل فضيلة وكل خير تعرفه المجتمعات إلى الآن.

ورابعاً: إنّ أعمال المرتاضيين وما تحصلُ لهم من قوى وينفتح عليهم من آفاق، محدودة، بينما لا تقف طاقاتُ الانبياء وآفاق علومهم، وأبعاد أعمالهم عند حدّ.

فلا يمكن أبداً تفسير وتعليل ظاهرة (الوحي) وما يحصل للرسول والانبياء على اثره من أمورهِ تتخطى حدود العالم المادي المحدود، بالرياضة الروحية التي يمارسها المرتاضون وما يحصل لهم على أثرها من أمور.

2- قالوا: إنّ (الوحي) نوعٌ من النبوغ، أو أنه ناشىء من النبوغ، وأن الانبياء هم نوابغ اجتماعيون لا أكثر.

وقد شرحوا نظريتهم هذه قائلين: بأن نظام الخليفة قد ربي في أحضانه نوابغ

(327)

صالحين، اهتدوا بفعل نبوغهم الفكري الرفيع إلى أفكار وقيم رفيعة ودعوا مجتمعاتهم إلى الأخذ بها، والسير على هديها، لتحقيق الخير والعدالة، فكان لهم بذلك اكبر نصيب في إرشاد البشرية إلى سعادتها، فكل ما طرحوه من أفكار، وكل ما عرضه على تلك المجتمعات باسم الدين أو القانون ليست - في الحقيقة - سوى نتيجة ما تمنعوا به من نبوغ، وفكر خارق، ولا علاقة له بعالم آخر غير هذا العالم المادي المألوف.

وقالوا: وإن ممّا يساعد على تقوية هذا النبوغ أمور ابرزها:

الحبُّ، التعرُّضُ للظلم الطويل، الطفولة وما يكتنفها من ضعف وعجز، الوحدة، السكوت، التربية الأولى، والعيش في صورة الأقلية وما يرافقها من ظروف إجتماعية غير مواتية.

فإن جميع هذه الأمور أو بعضها تدفع بالشخص إلى الأنطوائية، والتفكير والتأمل، للاهتداء إلى مخرج من المشاكل والصعوبات، ومخلص من الظروف الصعبة، والأحوال الشاقة.

ويُجاب على هذه النظرية بأن أصحاب هذه النظرية حكموا على هذه القضية على أساس موقف اتخذوه سلفاً فهم حَصَرُوا الأشياء في المادة والامور المادية ثم فسَّروا ما يرتبط بعالم الغيب بذلك، فجاء تفسيرهم لهذه الظاهرة الغيبية تفسيراً مادياً، غفلة منهم عن أن مثل هذا التفسير والتعليل لا يليق بظاهرة (الوحي) التي تجسد أعلى قضية في سلم الحقائق العلمية والفلسفية، ويرجع إليها أعظم القوانين والبرامج للسعادة البشرية.

نحن لا ننكر أن لما ذكروه من العوامل تأثيراً في تقوية عملية «التفكير» لدى الإنسان إلى درجة إيجاد ما يسمى بظاهرة التوابع لديه، إلا أنه لا يمكن أن يوجد مثل هذا الامر نبياً خضعت جميع النبواغ البشرية لعظمة تعاليمه التي أتى بها طوال أربعة عشر قرناً

نبياً لم يزل ما جاء به من معارف عقلية وفلسفية، وقوانين ترتبط بعالم الطبيعة وبالنظام الاجتماعي وآداب السلوك تحافظ على قوتها، وعمقها وأصالتها ولمعانها

(328)

كل المحافظة رغم كل ما احرزه البشر في ضوء نشاطه الفكري والعقلي من تقدم، في المعارف والعلوم.

هذا مضافاً إلى أن نسبة هؤلاء الأنبياء جميع ما عرضه على المجتمعات البشرية إلى العالم الآخر واصرارهم على أنها من جانب الله تعالى وليست من نسيج افكارهم يناقض نظرية هذه الطائفة، التي تفسر النبوة بالنبوغ.

لنقرأ معاً الآية التي يقول الله تعالى فيها حاكياً عن رسول الإسلام محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - :

(إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ. (1))

أو يقول سبحانه:

(إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى. (2))

3-يقولون: إن الوحي هو ظهور الشخصية الكامنة في النبي وياحواؤها لما ينفعه وينفع قومه المعاصرين له، إليه.

وربما قالوا: إن معلومات «محمد» وافكاره وأماله وألدت لديه إلهاماً فاض من عقله الباطن أو نفسه الخفية على مخيلته السامية، وانعكس اعتقاده على بصره فرأى الملك مثالا له وهو يتلو على سمعه ما حدث به بعد ذلك.

وتوضيح هذه النظرية هو: ان لكل إنسان شخصيتين:

1- الشخصية الظاهرة العادية وهي التي تخضع للحواس الخمس وتعمل بها.

2- الشخصية الباطنية وهي التي تعمل عندما تتعطل الحواس، ويتعطل الشعور الظاهري:

وهذه الشخصية هي التي تحرك جميع أعضاء الجسم الانساني التي لا تخضع لارادته كالكبد والقلب، والمعدة وغيرها، كما انها هي

مصدر الكثير من الإلهامات الطبية في الظروف الحرجة.

ثم قالوا: وهذه الشخصية الباطنية قد اصبحت مدركة بالحس، فان المنوّم

- [الأنعام: ٥٠.

- 2النجم: ٤.

(329)

مغناطيسياً يظهر بمظهر العقل الراجح، والفكر الثاقب والنظر البعيد، ويقوم بما لا يقوم به في حالته العادية.

وقد انتهى هؤلاء الماديون من خلال تحقيقاتهم وتجاربهم إلى: ان شخصية الإنسان الباطنية ارقى من شخصيته العادية، وإن ما يتوصّل إليه الإنسان من أفكار عالية رقيقة جداً، وما قد يتمتع به من روح قوية هو من مظاهر هذه الشخصية وفعاليتها.

فقالوا: وان هذه الشخصية هي التي تنفث في روح الأنبياء ما يعتبرونه وحياً من الله، وقد تظهر لهم متجسدة فيحسبونها من ملائكة الله هبطت عليهم من السماء!!!

فالوحي عند هؤلاء الباحثين في الروح على الاسلوب التجريبي لا يكون بنزول ملك من السماء على الرسول فيبلغه كلاماً عن الله بل يكون في تجلي روح الإنسان عليه بواسطة شخصيته الباطنة فتعلمه ما لم يكن يعلم، وتهديه إلى خير الطرق لهداية نفسه وترقية أمته. (1)

ولكن هذه النظرية هي الأخرى تتبع من الغرور العلمي الذي اصاب هذا النمط من العلماء الذين يحاولون تفسير كل ظواهر هذا العالم بالتفسير المادي، وهو لا شك ينشأ من علمهم المحدود القاصر عن إدراك حقائق الوجود.

إننا لا نشك في وجود ما يسمى بالشخصية الباطنية لدى الإنسان فهو ممّا سبق إلى كشفه والتنويه به الفلاسفة الإسلاميون من قبل ولكن كيف وعلى أى أساس حقّ لهؤلاء ان يفسروا ظاهرة (الوحي الالهي) والنبوة بهذا الامر؟

هذا أولاً

وثانياً: انّ تجلي الشخصية قلماً يحدث في الاشخاص الأصحاء، بل هو يحدث في الاغلب عند المتعبين القلقين، والسكران، والمصابين بالهزيمة والنكسة، لأن نافذة (اللاوعي) عند غيرهم من الاصحاء تنسد بسبب اشتغالهم الشديد بقضايا الحياة اليومية وهمومها، ولا يبقى للشخصية الباطنية مجال للنشاط والفعالية، كما

- [دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي: ج ١٠، مادة وحي.

هو العكس عند المتعبين والسكران والمرضى الذين يقل اهتمامهم بالحياة اليومية فيترك (الوعي) مكانه للاوعي، وتترك الشخصية الظاهرية المعطلة مكانها للشخصية الباطنية.

ولذلك نجد بين آلاف العلماء والمفكرين مفكراً أو عالماً واحداً اتفق له في بداية عمره أن اهتدى بصورة لا شعورية إلى فكرة خاصة أو نظرية معينة من دون سابق تفكير أو استدلال قائم على الشعور.

وخلاصة القول أن تجلّي الشخصية الباطنية في الحياة الإنسانية قضية نادرة جداً، وهي لا تحدث إلا في ظروف خاصة مثل: المنامات والأحلام وغيرها من التحولات الحياتية التي تقلل من توجه الإنسان إلى العالم الخارجى وتصرف التفاته وتوجّهه إلى الشخصية الباطنية.

ولكن هذه الحالة وهذه الشرائط (أي الغفلة عن هموم الحياة اليومية الخارجية) لم تحصل للانبياء قط.

فالنبي الأكرم محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - كان طوال (٢٣ سنة) وهي أعوام الرسالة، مشتغلاً كل الاشتغال بقضايا الحياة اليومية، فالنشاطات السياسية، والتبليغية وقضايا الدعوة والقيادة كانت تهيمن على كل توجهه واهتمامه وتملاً، عقله وروحه ونفسه .

فالكثير من آيات الجهاد ترتبط بساحات القتال والجهاد، وهذا يعني انه كان مشغولاً بروحه وعقله كله إلى تلك الأمور.

وثالثاً: إن هذه النظرية يمكن أن تصدق على نبوة الانبياء لو كان هؤلاء الانبياء أفراداً متعبين، منهزمين، منتكسين، مرضى، معتزلين عن الحياة ليقال حينئذ ان هذه الحالات والظروف مهّدت لانقطاعهم - عليهم السلام - عن هموم الحياة، وقضاياها، وبالتالي مهّدت لفعالية الشخصية الباطنية وعملها.

ولكن تاريخ الانبياء يشهد بوضوح لا إبهام فيه، بانهم كانوا - طيلة حياتهم الرسالية - رجالاً مجاهدين، لا يهتمهم إلا إصلاح المجتمعات وقيادة الجماعات وحل المشكلات الاجتماعية، ورفع مستويات الناس معنوياً وفكرياً وكانوا

يعملون لتحقيق هذه الأهداف ليل نهار، بلا سأم ولا ملل، ولا تعب ولا نصب.

كيف يمكن القول والحال هذه بان الشخصية الباطنية تجلّت لديهم واوحت اليهم بحقائق وقيم وافكار؟

إن تفسير (الوحي الالهي) الذي يُلقى إلى الانبياء ويكشف لهم عن أدق الحقائق وارفعاها، وأعظم المناهج واكملها، بتجلي الشخصية الباطنية، ناشيء من اعتقاد هذا الفريق من العلماء بأصاله المادة، أو بعبارة اخرى: حصر الوجود في المادة، ومن هنا حاولوا إلباس كل شيء حتى الامور المعنوية والغيبية: اللباس المادي، واغلقوا على أنفسهم باب عوالم الغيب، وعمدوا إلى التفتيش عن علة مادية حتى لظاهرة (الوحي) التي لا تُقاس بمقاييس العالم المادي.

هذا مضافاً إلى أن تفسير (الوحي الالهي) عن طريق نظرية تجلي الشخصية الباطنية، وخاصة في شأن رسول الإسلام «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - يواجه اشكالات ومؤاخذات اخرى تجعل هذه النظرية في عداد الاساطير!!

وإن ابرز هذه الاشكالات الواردة على هذه النظرية في مجال رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - هي: أنّ هذه النظرية ليست رأياً جديداً وتهمة جديدة توجه إلى نبوة رسول الإسلام.

فان نظرية «الشخصية الباطنية، والوحي النفسي الذاتي» هي نظرية متبلورة ومتقدمة لتهمة (الجنون والصرع) التي كان يرمي بها العرب الجاهليون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - !!

فقد كان المشركون في بدء الدعوة يقولون: ان ما يقوله «محمّد» وما يتكلم به ليس إلا افكاره المضطربة الناشئة عن خياله، وإن القرآن هي تلك الأفكار المضطربة التي تسربت إلى فضاء عقله من دون ارادة منه ولا اختيار!!

لنستمع إلى القرآن الكريم وهو ينقل عنهم هذا الاتهام:

(يَلْ قَالُوا اضْعَافُ أَحْلَامٍ. ⁽¹⁾)

- [الأنبياء: ٥.

(332)

ولكن القرآن الكريم يردّ على هذه المزعمة الواهية بقوله:

(وَ النَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَ مَا يَتَّبِقُ عَنِ الْهَوَىٰ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ. ⁽¹⁾)

ان القرآن الكريم يشجب في هذه الآيات المنتظمة انتظاماً رائعاً وبديعاً هذه المزعمة (أي مقولة أن القرآن وليدُ الخيال لدى محمّد)، ويردُّ الأمر إلى الوحي الالهي، والتوجيه الرباني العلويّ.

إن نظرية الوحي النفسى وتجلي الشخصية الباطنية التي طلع بها الماديون في عصرنا ما هي في الحقيقة إلا غطاء لمزعة المشركين وتهمة الجنون والخيال، التي سبق أن رمى بها أعداء الرسالة الإسلامية ومعارضوها النبىء - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك التهمة التي يذكرها القرآن الكريم بقوله:

(وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ) (2)

وهي تهمة كان يوجهها المعارضون دائماً إلى المصلحين وأصحاب الرسالات (3) وقد اتخذت هذه التهمة صبغة علمية جديدة، وتبلورت في نظرية: «الوحي النفسى، وتجلي الشخصية الباطنية». ان القرآن الكريم يرد على هذه المزاعم والتصورات الباطلة حول عملية الوحي ومسألة النبوة ويرد على نسبة الكهانة وماشابه ذلك كالخبر المنقول عن اهل السير بمحاولة القاء النبي نفسه من شاهق في بداية الوحي الذي يشبه نسبة الجنون إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ يقول تعالى:

(إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ. ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ. مُطَاعٌ ثَمَّ أَمِينٍ. وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. وَنَقَدَ رَأَى بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ. وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ. فَأَيِّنَ

- 1 النجم: ١ - ٥.
- 2 الحجر: ٦، وايضاً راجع الآيات التالية: سبأ: ٨، الصافات: ٣٦، الدخان: ١٤، الطور: ٢٩، القلم: ٢، التكوثر: ٢٢.
- 3 إذ يقول القرآن في هذا الصدد: «كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَصَّوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ» (الذاريات: ٥٢ و ٥٣).

تَذَهَّبُونَ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ) (1)

بهذا البيان تبين بطلان هذا التفسير وجميع التفاسير الأخرى التي تحاول إعطاء (الوحي) طابعاً مادياً مألوفاً، شأنه شأن غيره من الظواهر الغيبية، ونحن استكمالاً لهذا البحث نشير إلى ما هو الحق في هذا المجال، مما يؤيد الواقع والعقل والدين:

ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين:

لا شك أن حياة كل فرد من افراد الإنسان تبدأ من «الجهل» ثم يأخذ الإنسان بالدخول في مجال العلم شيئاً فشيئاً، إلى ان تفتح عليه بالتدرج نوافذ على الواقع الخارج عن ذهنه.

فيبدأ الإنسان بالتعرف على الحقائق عن طريق الحواس الظاهرية، ثم على أثر التكامل في جهازه العقلى والفكري يهتدي إلى الحقائق الخارجة عن مجال الحس واللمس، فيغدو عقلياً استدلالياً، ويقف على طائفة من الحقائق الكلية والقوانين العلمية.

وربما يظهر بين أفراد النوع الإنساني أصحاب نفوس عالية يقفون عن طريق الإلهام ومن خلال بصيرة خاصة على حقائق وأمر لا يُهتدى إليها حتى عن طريق الاستدلال والبرهنة!

ومن هنا قسّم العلماء ادراك البشر إلى ثلاثة أنواع: «إدراك العامة» «إدراك المفكرين وأرباب الاستدلال» «إدراك العرفاء واصحاب البصائر والنفوس الكبرى.»

وكأنّ أصحاب الظاهر يستعينون على اكتشاف الحقيقة بالحس، والمفكرين يستعينون بالاستدلال والبرهنة، وأصحاب البصائر والمعرفة بالإلهام والاشراق وبالفيض عليهم من العالم الأعلى.

- [التكوير: ٢٠ - ٢٨].

(334)

ان النوابع في مجال الأخلاق، وان عقول العلماء الخلافة، وأفكار الفلاسفة العظيمة كلها تؤيد وتشهد بأن ما يحصلون عليه، وما يطلعون به على المجتمع البشري مما لم يعرفوه من قبل ما هي الا شرارات مضيئة وملهمة تخطر لهم، ثم يعمدون إلى تنميتها وبلورتها بالتجربة، أو بالاستدلال والبرهنة والتأمل.

قنوات المعرفة الثلاث:

من هذا الكلام نستنتج أن أمام بني البشر ثلاث طرق للوصول إلى مقاصدهم؛ فالطريق الأول يستفيد منه جماهير الناس غالباً، بينما يستفيد طائفة خاصة منهم من الطريق الثاني، ولا يستفيد من الطريق الثالث إلا أفراد معدودون قلّة تكاملت عقولهم، وتسامت أرواحهم. وهي كالتالي:

1- الطريق التجريبي والجسي، والمقصود منه ذلك القسم من الإدراكات والمعلومات الواردة إلى محيط الذهن البشري عن طريق الحواس الظاهرية كالمرئيات، والمشموحات والمطعمات وغيرها مما يستقر في محيط إدراكنا بواسطة الأجهزة المختصة بها.

وقد استطاع البشر اليوم، وبفضل اختراع التلسكوبات والميكروسكوبات وأجهزة التلفاز والراديو ان يقدم خدمة كبرى للبشرية في مجال الإدراكات الحسية ويمهّد لمزيد من سيطرتها على البعيد والقريب.

2- الطريق التعقلي الإستدلالي: فان المفكرين يتوصلون إلى كشف طائفة من القوانين الكلية الخارجة عن الحس عن طريق عملية التفكير والتأمل وتشغيل جهاز العقل، وإقامة سلسلة من المقدمات البديهية الواضحة، وبذلك يمكن الوصول إلى قمم المعرفة والكمال العلمي.

إنَّ انكشاف القوانين العلميَّة الكليَّة، والمسائل الفلسفيَّة، والمعارف المرتبطة بصفات الله وأفعاله سبحانه والقضايا المطروحة في علم العقيدة والأديان ناشيء برمته من جهاز العقل، وحركته، وناتج من عملية التفكير، والإستدلال المذكورة.

3- طريق الإلهام: وهذا هو الطريق الثالث لمعرفة الحقائق، وهو فوق نطاق

(335)

الحس والتعقل.

إنه نوعٌ جديدٌ من المعرفة ونمط متميِّز من إدراك الحقائق، ليس محالاً من وجهة نظر العلم وإن كان يصعبُ على أصحاب الاتجاه الماديِّ القبول به لكونه طريقاً غير حسي ولا تعقلي.

وأما من جهة الأصول العلميَّة فلا مجال لإنكاره، ولا مبررٍ لعدّه من المحالات.

إن طريق التعرُّف على حقائق الكون الخارج عن الذهن - في منهج الماديِّين، وأصحاب النزعة المادية - ينحصر في قناتين لا أكثر، وهما اللذان سبق ذكرهما، في حين أنَّ هناك - حسبَ نظرة الأديان والشرائع الكبرى وحسب نظرة الفلاسفة والعرفاء الإلهيين - قناةٌ ثالثة أيضاً.

بل إنَّ هذا الطريق الثالث - كما أسلفنا في مسألة الوحي - أكثر واقعية، وأقوى أسساً، وأوسع أفقاً عند من يدعون الرسالة، والنبوة من جانب الله سبحانه، وإن نفوس أولئك الأشخاص لتبدو أكثر صفاء وطلاوةً بفضل هذا الطريق، وفي ضوء هذه القناة.

وكأما حصل إرتباط بين الله، وبين فرد من أفراد النوع الإنساني على نحو خاص ألقيت الحقائق في وجوده من دون توسط الحواس الظاهرية، وإعمال الفكر، واستخدام جهاز العقل.

وهذا النوع من الإلقاء يسمى حيناً بالالهام، وبالاشراق حيناً آخر.

ولكن كلما نتج من إرتباط الإنسان بما وراء الطبيعة سلسلة من التعاليم العامَّة والأنظمة والبرامج الشاملة أُطلق على هذا النوع من الإلقاء عنوان (الوحي)، وسَمِّيَ الآتي بها (ملك الوحي) والأخذ لها (نبياً).

هذا وقد يوجب الإلهام الثقة والاطمئنان للملهم إليه، ولكنه لا يمكن أن يكون مبعث الإطمئنان والثقة عند الآخرين.⁽¹⁾

- [وإنما قلنا «قد» أي يمكن أن يوجب الاطمئنان ولم نقطع بذلك لأنَّ مصدر هذه الإلهامات ليست معلومة واضحة، ولا يمكن الاعتماد على مطلق الواردات القلبية والفجائية التي لا تستند إلى أصول معلومة.
وبعبارة أخرى: يجب الفصل والتمييز بين الإلهامات الرحمانية والالقاءات الشيطانية بواسطة الموازين العقلية والشرعية.

من هنا اعتبر العلماء «الوحي» الطريقَ المطمئنة الوحيدة إلى المعرفة العامة... الوحي الذي ينزل على الانبياء الذين ثبتت نبوتهم بالدلائل القاطعة، من المعجزة وغيرها.

أنواع الوحي واصنافه:

إن في مقدور الروح الإنسانية بسبب ما تملك من كمالات أن تتصل بالعوالم الروحانية من الطرق المختلفة، ونحن هنا نشير إلى هذه الطرق التي جاء ذكرها في أحاديث قادة الإسلام وائمته، باختصار:

1- تارة يتلقى الحقائق السماوية العليا على نحو الالهام، فيتخذ ما يتم إقاؤه في النفس عبر هذا الطريق حكم (العلوم البديهية) التي لا يتطرق إليها أي ريب وشك.

2- وقد يسمع عبارات وكلمات من جسم معين (كالجبل والشجرة) كسماع موسى - عليه السلام - كلام الله من الشجرة.

3- وربما تتكشف الحقائق له في عالم الرؤيا انكشاف النهار.

4- وقد ينزل عليه ملكٌ من جانب الله بكلام خاص.

وقد نزل القرآن الكريم على النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - من هذا الطريق، وقد صرح القرآن الكريم نفسه بهذا عند

قوله تعالى: **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ. بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ.** (1)

أساطير مختلفة:

لقد كتب المؤرخون والكتاب عن حياة كثير من الشخصيات العالمية، وضبطوا كل

- [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥، وقد أشير في سورة الشورى الآية ٥١ إلى هذه الطرق الأربع جميعها.

ما جل أودق في هذا المجال، وربما تحمّلوا عناء الرحلات الطويلة والأسفار الشاقة لتكميل دراساتهم، وكتاباتهم.

غير أن التاريخ لا يعرف شخصية مثل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ضبطت تفاصيل سيرته الدقيقة، واهتم اتباعه وأصحابه ومحبيه بكل شاردة وواردة في حياته الشريفة.

إنَّ هذا الوله الشديء بتسجيل كل شيء - مهما صغر - من حياة النبيّ الاعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - وسيرته العطرة كما ساعد على ضبط جميع الجزئيات والتفاصيل في هذا المجال، تسبب في بعض الموارد في إصاق بعض الزوائد بحياة النبي الاكرم وشخصيته العظيمة، الطاهرة.

ومثل هذا لا يبعد عن المحيّن الجهلاء فكيف بالأعداء الألداء العارفين.

من هنا يتعيّن على كل مؤلف يكتب عن سيرة شخصية من الشخصيات أن لا يغفل عن مبدأ (الحذر والإحتياط) في تحليله لحوادثها، وقضاياها، فلا يغفل عن تقييم كل ما جاء حولها من روايات وقصص في ضوء الموازين التاريخية الدقيقة.

واليك بقية ما جرى في واقعة نزول (الوحي) في حراء:

بقية حادثة نزول الوحي:

استنارت نفس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وروحه الكبرى بنور «الوحي» المبارك، وتعلّم كل ما ألقى عليه ملك الوحي في ذلك اللقاء العظيم، وانتقشت تلك الآيات الشريفة في صدره حرفاً حرفاً، وكلمة كلمة.

وقد خاطبه نفس ذلك الملك بعد تلاوه تلك الآيات بقوله:

يا محمد... أنت رسول الله... وأنا جبرئيل.

وقيل: انه - صلى الله عليه وآله وسلم - سمع هذا النداء عند نزوله من غار حراء وقد اضطرب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لهذين الحدين، اضطرب لعظمة المسؤولية الكبرى التي ألقيت على كاهله.

(338)

وكان هذا الاضطراب طبيعياً بعض الشيء، وهو لا ينافي بالمرّة يقينه - صلى الله عليه وآله وسلم - وإيمانه بصدق ما أنزل عليه لأن الروح مهما بلغت من العظمة والسّمو والقوة والصلابة، ومهما كانت قوة ارتباطها بعالم الغيب، وبالعالم الرّوحانية العليا فإنّها عندما تواجه لأول مرّة ملكاً لم تره من قبل، وذلك في مثل المكان الذي التقى النبي (فوق الجبل) لا بُدَّ أن يحصل لها مثل هذا الاضطراب، ولهذا زال ذلك الاضطراب عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ما بعد.

ثم إن الاضطراب والتعب الشديد قد تسببا في أن يتوجه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بيت «خديجة» - عليها السلام - ،
وعندما دخل بيتها ووجدت على ملامحه آثار الاضطراب والتفكير سألته عن ما جرى له، فحدثها بكل ما سمع وراى وقصَّ عليها
ما كان من أمر جبرئيل معها، فعظمت «خديجة» - عليها السلام - أمره، ودعت له، وقالت: إيشر فوالله لا يخزيك الله أبداً.
ثم إن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي كان يشعر بالجهد والتعب قال لزوجته الوفيّة «خديجة»: دثّرني... دثّرني.
فدثّرتة، فنام بعض الشيء.

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل:

لقد تحدثنا في الصفحات الماضية عن «ورقة» وقلنا أنه كان ممن تنصّر وقرأ الكتب وسمع من أهل التوراة والانجيل وكان ابن عم
خديجة.

فعند ما سمعت «خديجة» زوجة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سمعته منه انطلقت إلى «ورقة» لتخبره بما سمعته من زوجها
الكريم، وشرحت له كل شيء مما جرى له مع جبرئيل.

فقال «ورقة» في جواب ابنة عمه: إن ابن عمك لصادق... وإن هذا لبدء النبوة، وانه ليأتيه الناموس الاكبر (أي الرسالة والنبوة). (1)

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٩٥.]

(339)

إن ما ذكرناه إلى هنا هو في الحقيقة ملخص الروايات التاريخية المتواترة التي وصلت إليها، والتي دُوّنت في جميع الكتب.
بيد أننا نلاحظ بين ثنايا هذه الحادثة أموراً لا تتفق مع ما نعرفه من أنبياء الله ورُسُلُه العظام، كما أنها لا تتفق مع ما قرأناه إلى الآن
عن حياة هذا النبي العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وما سنذكره الآن من هذه الزوائد إما يجب اعتباره من قبيل الاساطير التاريخية، أو أنّ علينا تأويله بنوع من التأويل.

وانا لنعجب قبل كل شيء من المفكر المصري الدكتور «هيكل» كيف سمح لنفسه وهو الذي تحدث في مقدمة كتابه عن مشكلة
تسرب الاساطير إلى التاريخ النبوي، وقال: بأنّ هناك من دسّ في السيرة النبوية، عن عداوة أو جهل، بعض الاكاذيب.

ولكنه مع ذلك ينقل هنا أموراً لا أساس لها من الصحة أبداً، في حين اعطى فريقاً من علماء الشيعة - كالمرحوم الطبرسي - ملاحظات
مفيدة في هذا الصعيد.

واليك في ما يلي بعض هذه الاساطير والقضايا المختلفة، على أنها لم تكن جديرة بالاشارة ابدأ لولا أن بعض المحييين الجهلاء، والأعداء الأذكياء ذكروها في كتبهم، وكرروها في دراساتهم.

- [قالوا: إنَّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عند ما دخل منزل خديجة، كان يفكر في نفسه: لعلَّ بصره خدعته، أو انه كاهن، أوفيه جنون!!

ولكن لما قالت له خديجة: «إنَّ الله لا يفعل بك ذلك يا ابن عبدالله، إنك تصدق الحديث، وتؤدِّي الأمانة، وتصلُّ «الرحم» اطمأنَّ، وزال عنه الشكُّ والتردد، والقى على «خديجة» نظرَ شكر ومودة، ثم طلب أن يُرْمَل، فرمِلَ فنام. (1)!!

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٩٥، حياة محمَّد: ص ١٣٤.

(340)

2-يقول الطبري وغيره من مؤرخي السيرة: ان النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لما سمع نداء يقول: «يا محمَّد أنت رسول الله» أصابهُ خوفٌ شديدٌ حتّى أنه همَّ بان يطرح نفسه من أعلى الجبل، فتبدى له (ملك الوحي) ومنعه عن ذلك!!!

3- ثم إنَّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ذهب ليطوف بالكعبة بعد ذلك اليوم، فرأى «ورقة بن نوفل» وشرح لورقة ما جرى له مع جبرئيل، فقال له ورقة:

«والذي نفسي بيده، إنك لنبى هذه الأمة، وقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتُكذِّبته، ولتؤدِّبته ولتخرجنه ولتقاتليه» فأحس «محمَّد» بأن ورقة يصدِّقه، فاطمأن. (1)

بُطلانُ هذه المزاعم:

إن الذي نتصوره هو أن جميع هذه القصص مختلفة من الاساس، وقد دُسَّت في التاريخ والتفسير عن قصد وهدف، أو دخلت فيهما عن غير ذلك.

وذلك:

أولا :لأننا لتقييم هذه المزاعم يجب ان نلقي نظرة فاحصة إلى تاريخ الأنبياء الماضين وسيرهم.

إن القرآن الكريم قصَّ علينا قضاياهم، وسيرهم، وقد وردت في هذا المجال روايات وأخبار كثيرة.

وإننا لا نجد أي أثر لمثل هذه القصص المشينة في حياة أي واحد منهم.

إن القرآن الكريم يقص علينا قصة بدء نزول (الوحي) على «موسى» بشكل كامل وبيّن جميع التفاصيل في قصته - عليه السلام - ولا يذكر أي شيء من الخوف، والارتعاش، والوحشة والفرع، بحيث يحدث نفسه بالانتحار على أثر سماع الوحي!! مع أن أرضية الخوف والفرع في مجال «موسى» كانت متوفرة

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٣٨.

(341)

أكثر، لأنه سمع في ليلة ظلماء وهو في صحراء خالية نداء من الشجرة يخبره بأنه نبي مرسل.

ولكن موسى - كما بصّر القرآن الكريم، بهذه الحقيقة - حافظ على هدوئه، وسكونه، وعندما خاطبهُ الله تعالى بقوله: «أن ألق عصاك» القاها من فوره، وكان خوفه من ناحية العصى التي تبدّلت إلى ثعبان مخيف، لا من جهة الإيحاء إليه.

فهل يمكن، أو يجوز لنا أن نقول: كان «موسى» لحظة الوحي إليه مطمئناً هادئاً ساكناً، ولكن أفضل الانبياء والمرسلين اضطرب عند سماع كلام الملك، وفرع إلى درجة فُكّر في طرح نفسه من أعلى الجبل؟! هل هذا كلام معقول؟!

لا ريب أن روح محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ما لم تكن مهياًة من جميع الجهات وبصورة كاملة لتلقّي السرّ الالهيّ (النبوة) لا يمكن أن يمنّ عليه الربّ الحكيم بمنصب النبوة، ويختاره لمقام الرسالة، لأن الهدف الجوهرى من ابتعاث الرّسل، وارسال الانبياء هو هداية الناس وارشادهم.

ومن كان كذلك من حيث ضعف الروح ووهن النفس بهذه المرتبة بحيث يحدث نفسه بالانتحار خوفاً⁽¹⁾ وفرعاً كيف يمكن ان ينفذ إلى نفوس الناس ويؤثر فيهم؟!

ثانياً: كيف يمكن أن يطمئن موسى بمجرد سماعه للنداء الالهيّ إلى أنه صادرٌ من جانب الله، فطلب من ربّه من فوره أن يجعل أخاه هارون وزيراً له لأنه أفصح منه قولاً⁽²⁾ بينما لا يطمئن سيد المرسلين وخاتمهم؟!

ثالثاً: لقد كان «ورقة» مسيحياً حتماً، ولكنه عند ما أراد أن يزيل عن «محمّد» الشك والإضطراب ذكر نبوة «موسى» - عليه السلام - وقال: قد جاءك الناموس الذي جاء موسى. (3)

- [كما نقل هيكّل في كتابه: «حياة محمّد. »

طه: ٢٩.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٣٨ وقد نقل المرجوم المجلسي هذه العبارة عن المنتقى ولكنه بلفظة «عيسى» أيضاً ولكن لا وجود لذلك في صحيح البخاري وسيرة ابن هشام اللذين هما الأساس لهذه الامور.

ألا يدلُّ هذا على أنّ ثمة يداً اسرانيّية وراء هذه الحكبة هي التي صاغت هذه القصة واختلقتها في غفلة عما كان يدين به «ورقة» بطلُّ القصة؟!!

كل هذا بغصن النظر عن أن مثل هذه الأمور تتنافى والعظمة التي نعهد لها من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولا تنسجم معها أبداً، ويبدو أن كاتب «حياة محمّد» أدرك إلى درجة ما خرافية هذه القصة ولذلك نجده ينقل بعض مواضعها بعد جملة: «كما يقولون. »

وقد حارب ائمة الشيعة هذه الاساطير بكل قوة، وأبطلوها برمتها.

فعندما يسأل زرارة الإمام الصادق - عليه السلام - مثلاً: كيف لم يخف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيما يأتيه من قبيل الله ان يكون مما يزرغ به الشيطان:

قال الإمام - عليه السلام - : « إنّ الله إذا اتخذ عبداً ورسولاً، أنزل عليه السكينة والوقار فكان يأتيه من قبيل الله عزّوجلّ مثل الذي يراه بعينه. ⁽¹⁾ »

ويقول العلامة الشيعي الكبير المرحوم الطبرسي في تفسيره، في هذا الصدد:

«إن الله لا يوحى الى رسوله إلا بالبراهين النيرة والآيات البينة الدالة على أن ما يوحى إليه إنما هو من الله تعالى، فلا يحتاج إلى شيء سواها ولا يفزع، ولا يفزق. ⁽²⁾ »

- [بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٦٢ وفي الكافي: ج ١، ص ٢٧١ نظيره.
- 2مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٨٤.

متى نزل الوحي أولاً؟

لقد تعرّضَ يوم مبعث رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - للاختلاف من حيث التعيين والتحديد فهو مثل يوم ولادته ويوم وفاته - صلى الله عليه وآله وسلم - غير مقطوع به، من وجهة نظر المؤرخين وكُتّاب السيرة النبوية.

فلقد اتفق علماء الشيعة على القول بان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بُعث بالرسالة في السابع والعشرين من شهر رجب، وأن نزول الوحي عليه قد بدأ من ذلك اليوم نفسه.

بينما اشتهر عند علماء السنة أن رسول الإسلام قد أوتي هذا المقام العظيم في شهر رمضان المبارك.

ففي ذلك الشهر الفضيل كُلف «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - من جانب الله تعالى بهداية الناس، وُبعث بالرسالة.

ولما كانت الشيعة تشايح عترة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأهل بيته الصادقين، وتعتقد بصحة ما يروونه ويقولون به اتباعاً لقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيهم، في حديث الثقلين: «إنهما لن يفترقا» فانهم اتبعوا - في تحديد يوم المبعث النبوي الشريف - القول المأثور - بنقل صحيح - عن عترة النبي المطهرين في

(344)

هذا المجال.

فقد روي عن أبناء الرسول وعترة الطاهرة أن عظيم هذا البيت و سيده (أي النبي) قد بُعث في السابع والعشرين من شهر رجب، وهم في ذلك حجة.

ولهذا لا يمكن الشك والتردد في صحة هذا القول وثبوته. (1)

نعم غاية ما يمكن الاستدلال به على القول الآخر هو تصريح القرآن الكريم نفسه بأن آيات القرآن نزلت في شهر رمضان، وحيث أن يوم بعثة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان هو بنفسه يوم بدء نزول الوحي، والقرآن عليه، لهذا يجب القول بان يوم البعثة الشريفة انما كان في نفس الشهر الذي نزل فيه القرآن الكريم: اي شهر رمضان المبارك.

واليك فيما يأتي الآيات التي تدل على أن القرآن الكريم نزل في شهر رمضان:

(1- شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ. (2)

(2- حَم. وَالْكِتَابِ الْمُبِين. إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مُبَارَكَةٍ (3) (وتلك الليلة هي ليلة القدر التي قال عنها سبحانه): إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ

الْقَدْرِ) (لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ. (4)

ما أجاب به علماء الشيعة:

ولقد أجاب محدثو الشيعة ومفسروهم عن هذا الاستدلال بطرق مختلفة نذكر طائفة منها هنا:

الجواب الأول:

إنّ الآيات المذكورة إنّما تدل على أن القرآن نزل في شهر رمضان وبالذات في ليلة مباركة منه هي «ليلة القدر»، ولكنها لا تتعرض
لذكر محلّ نزول هذه

-
- 1 راجع بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٨٩.
 - 2 البقرة: ١٨٥.
 - 3 الدخان: ١ - ٣.
 - 4 القدر: ١ و ٣.

(345)

الآيات، وأنها أين نزلت؟ وهي بالتالي لا تدل أبداً ومطلقاً على أنها نزلت في تلك الليلة على قلب رسول الله؟

فيحتمل أن يكون القرآن نزولات متعددة إحداها نزول القرآن على رسول الله تدريجاً.

والآخر نزوله الدفعي من اللوح المحفوظ إلى البيت المعمور. (1)

وعلى هذا فما المانع من ان تكون بعض آيات القرآن (من سورة العلق) قد نزلت على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في السابع
والعشرين من شهر رجب. ثم نزل القرآن بصورته الجمعية الكاملة في شهر رمضان من مكان معين أسماه القرآن باللوحة المحفوظ
إلى موضع آخر عُبر عنه في بعض الروايات بالبيت المعمور.

ويؤيد هذا الرأي قول الله تعالى في سورة الدخان: **إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ مَبْرُكَةٍ** (فإنّ هذه الآية - بحكم رجوع الضمير فيها إلى
الكتاب - تصرح بأن الكتاب العزيز بأجمعه نزل في ليلة مباركة (في شهر رمضان)، ولا بدّ أنّ يكون هذا النزول
غير ذلك النزول الذي تحقق في يوم المبعث الشريف، لأن في يوم المبعث لم تنزل سوى آيات معدودة لا أكثر.

وخلاصة الكلام هي ان الآيات التي تصرح بنزول القرآن في شهر رمضان في ليلة مباركة (ليلة القدر) لا يمكن أن تدل على أن
يوم المبعث الذي نزلت فيه بضغّ آيات أيضاً كان في ذلك الشهر نفسه، لأنّ الآيات المذكورة تدل على أن مجموع القرآن لا بعضه
قد نزل في ذلك الشهر، في حين لم تنزل في يوم المبعث سوى آيات معدودة كما نعلم.

وفي هذه الصورة يحتمل أن يكون المراد من النزول الجمعي للقرآن هو نزول مجموع الكتاب العزيز في ذلك الشهر من «اللوحة
المحفوظ» إلى «البيت المعمور».

وقد روى علماء الشيعة والسنة روايات وأخباراً بهذا المضمون، وبخاصة

الاستاذ الأزهرى محمّد عبدالعظيم الزرقانى أذى أورد روايات عديدة فى هذا الصد فى كتابه. (1)

الجواب الثانى:

وهو أمتن الاجوبه والردود على هذا القول.

فقد بذل الاستاذ الطباطبائى جهداً كبيراً لتوضيحه وبيانه فى كتابه القيم؛ واليك خلاصته:

يقول العلامة الطباطبائى: إن قول الله تعالى إنا أنزلناه فى شهر رمضان، المقصود منه هو نزول حقيقة القرآن على قلب النبى -

صلى الله عليه وآله وسلم - ، لأن للقرآن مضافاً إلى وجوده التدريجى، واقعية اطلع الله تعالى نبيه العظيم عليها فى ليلة معينة من

ليالى شهر رمضان المبارك. (2)

وحيث أن النبى الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد عرف من قبل بجميع القرآن الكريم لذلك نزلت الآية تأمره بان لا يعجل

بقرائته حتى يصدر الأمر بنزول القرآن تدريجاً إذ يقول تعالى: **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ.** (3)

وخلاصة هذا الجواب هي: أن للقرآن الكريم وجوداً جمعياً علمياً واقعياً وهو الذى نزل على الرسول الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم -

مرة واحدة فى شهر رمضان، وآخر وجوداً تدريجياً كان بدء نزوله على النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فى يوم المبعث،

واستمرّ تنزله إلى آخر حياته الشريفة على نحو التدرج.

الجواب الثالث: التفكيك بين نزول القرآن والبعثة

إن للوحي - كما أوضحنا ذلك فى مبحث أنواع الوحي اجمالاً - مراتب

- [مناهل العرفان فى علوم القرآن: ج ١، ص ٣٧.

- 2الميزان: ج ٢، ص ١٤ - ١٦.

- 3طه: ١١٤.

ومراحل، يتمثل أول مراتبه فى الرؤيا الصادقة التى رآها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

والمرتبة الأخرى تمثلت فى سماعه للنداء الغيبى الالهى من دون وساطة ملك.

وأخر تلك المراتب هو أن يسمع النبيُّ كلام الله من ملك يبصره ويراه، ويتعرف عن طريقه على حقائق العوالم الأخرى.

وحيث أن النفس الإنسانية لا تستطيع في الوهلة الأولى تحمُّل مراتب (الوحي) جميعها دفعة واحدة بل لابد أن يتحملها تدريجاً، لهذا يجب القول بأنَّ النبيَّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قد سمع يوم المبعث (اليوم السابع والعشرون من شهر رجب) النداء السماويَّ الذي يخبره بأنه رسول الله، فقط ولم تنزل في مثل هذا اليوم آية قط، وقد استمر الأمر على هذا المنوال مدة من الزمان. ثم بعد مدة بدأ نزول القرآن الكريم على نحو التدرج ابتداء من شهر رمضان.

وخلاصة هذا الجواب هي أن ابتعاث الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - بالرسالة في شهر رجب لا يلزم نزول القرآن في ذلك الشهر حتماً.

وعلى هذا الأساس ما المانع من ان يُبعث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في شهر رجب، وينزل القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس ذلك العام؟

ان هذه الاجابة وإن كانت لا توافق كثيراً من النصوص التاريخية (لأن كثيراً من المؤرخين صرّحوا بأنَّ الآيات الخمس من سورة العلق نزلت في يوم المبعث نفسه) إلا أن هناك - مع ذلك - روايات ذكرت قصة البعثة بسماع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - للنداء الغيبيّ، ولم تذكر شيئاً عن نزول قرآن أو آيات، بل هي تشرح الواقعة على النحو التالي إذ تقول:

في ذلك اليوم سمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ملكاً يقول له: يا محمّد إنك لرسول الله، وجاء في بعض الأخبار أنه سمع هذا النداء، فقط، ولم تذكر شيئاً عن مشاهدة الملك.

وللمزيد من التوضيح، والتوسع يُراجع «البحار» في هذا المجال. (1)

- [بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٨٤ و ١٩٠ و ١٩٣ و ٢٥٣، الكافي: ج ٢، ص ٤٦٠، تفسير العياشي: ج ١، ص ٨٠ وهذا الجواب لا ينسجم مع ما رواه البخاري من أنّ بعثة النبي رافقت نزول آيات من سورة العلق عليه.

على أن هذه الاجابة تختلف عن الإجابة الرابعة التي تقول بأن مبعث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان في شهر رجب، وكان نزول القرآن الكريم بعد انقضاء الدعوة السريّة التي استغرقت ثلاثة أعوام.

الانبياء والبشارة برسول الله:

وينبغي - استكمالاً لهذا الفصل من التاريخ النبوي - ان نلفت نظر القارئ الكريم إلى ان الرسالة المحمدية المباركة، ممّا بشر به جميع الانبياء المتقدمين زمنياً على خاتم الانبياء والمرسلين محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد اشار القرآن الكريم إلى ذلك إذ قال الله تعالى:

(وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَ حِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَ لَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَ أَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَ أَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ. (1))

وهذه الآية وإن كانت تكشف عن أصل عام وكلي وهو: وجوب تصديق إتيان النبي السابق للنبي اللاحق، إلا أن المصداق الأتم لها هو رسول الإسلام الكريم.

فيظهر من هذه الآية أن الله تعالى أخذ الميثاق المؤكد من جميع الانبياء أو من أصحاب الشرائع منهم أن يؤمنوا برسالة محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ويدعوا أتباعهم إلى تصديقه واتباعه ونصرته.

روى الفخر الرازي عن امير المؤمنين علي - عليه السلام - :

«إن الله تعالى ما بعث آدم - عليه السلام - و مؤمن بعده من الانبياء عليهم الصلاة والسلام إلا أخذ عليهم العهد لئن بعث محمّد وهو حي ليؤمننّ به ولينصرنه. (2)»

ومما يؤيد هذا ان القرآن دعا اهل الكتاب إلى بيان ما قرأوه ووجدوه في

- 1 آل عمران: ٨١ .
- 2 مفاتيح الغيب: ج ٢، ص ٥٠٧ .

كتبهم حول رسول الإسلام للناس من دون كتمان، واليك فيما ياتي طائفة من الآيات المصرحة بهذا الأمر:

-1 قال الله تعالى:

(وَ إِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَ لَا تَكْفُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَسَ مَا يَشْتَرُونَ. (1))

-2 قال تعالى:

(إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ، وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. (2))

3- وقال تعالى:

(الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لِيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ. (3))

4- وقال سبحانه:

(الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَ يُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. (4))

ان القرآن الكريم يصرح بجلاء ان السيد المسيح - عليه السلام - اخبر عن رسول الإسلام ورسالته إذ يقول تعالى:

(وَ إِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ

-
- 1 آل عمران: ١٨٧.
 - 2 البقرة: ١٧٤.
 - 3 البقرة: ١٤٦.
 - 4 الاعراف: ١٥٧.

(350)

بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ. (1))

كما يتحدث القرآن الكريم عن أهل الكتاب الذين تنكروا لرسالة النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما بُعثَ وقد كانوا من قبل يخبرون عنه ويطلبون النصر به على اعدائهم إذ قال سبحانه:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. (2))

بل ويخبرنا القرآن الكريم بأن إبراهيم - عليه السلام - يومَ أحلَّ زوجته وولده اسماعيل بارض مكة دعا قائلًا:

(رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. (3))

وقد انطبقت هذه الأوصاف على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إذ يصفه القرآن الكريم بقوله:

(لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَ يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا

مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ. (4))

محمّد خاتم الانبياء:

واستكمالاً لهذا البحث ينبغي أيضاً أن نشير إلى أبرز ناحية في رسالة النبي محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ونبوته وهي مسألة الخاتمية.

فإن القرآن الكريم صرح في آيات عديدة بكون رسول الله محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - خاتم النبيين، وشريعته خاتمة الشرائع، فلا نبي بعده، ولا رسالة بعد رسالته.

-
- 1الصف: ٦.
 - 2البقرة: ٨٩.
 - 3البقرة: ١٢٩.
 - 4آل عمران: ١٦٤.

(351)

وها نحن ندرج ابرز الآيات الواردة في هذا المجال:

- [قال تعالى:

(مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَ خَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَ كَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا. (1))

- 2قال سبحانه:

(تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا. (2))

- 3وقال سبحانه:

(وَ أَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرْكُمْ بِهِ وَ مَن بَلَغَ. (3))

- 4وقال تعالى:

(وَ مَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَ نَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ. (4))

والآيات الثلاث الأخيرة تفيد بأن رسالة النبي محمد - صلى الله عليه وآله وسلم - عامة وعالمية وأبدية لأنه في غير هذه الحالة وفي غير هذه الصورة لن يكون نبياً للناس كافة، وللعالمين جميعاً. ولن يكون نذيراً لقومه ولمن بلغه نداؤه.

هذا وقد صرح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه في أحاديث كثيرة بهذا الموضوع وهو الصادق المصدّق.

فعن أبي هريرة قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

«أرسلتُ إلى الناس كافةً وبني خُتم النبيّون. (5)»

-
- 1 الأحزاب: ٤٠ .
 - 2 الفرقان: ١ .
 - 3 الانعام: ١٩ .
 - 4 سبأ: ٢٨ .
 - 5 الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٢٨ .

(352)

(353)

١٣

ما سَبَقْتِي أَحَدٌ

أَوَّلُ مَنْ آمَنَ بِالنَّبِيِّ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ:

لقد انتشر الإسلام في العالم بصورة تدريجية، ويوصف الذين بادروا إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية والمساعدة على نشرها قبل غيرهم بـ «السابقين». »

وقد كان السبق إلى الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في صدر الإسلام معياراً للفضل ولهذا يجب أن ندرس هذا الموضوع في ضوء المصادر الصحيحة، ونتعرف على من سبق إلى الإيمان بالرسالة الإسلامية من الرجال، ومن النساء.

مِنَ النِّسَاءِ: «خَدِيجَةُ»

إن من المسلم به تاريخياً أن «خديجة» كانت أول امرأة آمنت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولم يخالف في هذا أحد،⁽¹⁾ ونحن هنا ننقل مستنداً تاريخياً مهماً واحداً ذكره المؤرخون نقلاً عن إحدى زوجات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، مكتفين به رعاية للاختصار.

تقول عائشة: ما غرث على نساء النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا على «خديجة» وإني لم أدركها، وقد كان رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يكاد يخرج

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٠].

(354)

من البيت حتّى يذكر «خديجة» فيحسن الثناء عليها، فذكرها يوماً من الايام فأدركتني الغيرة، فقلت: هل كانت إلا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها، فغضب حتّى اهتز مقدم شعره من الغضب ثم قال:

«لا والله ما أبدلني الله خيراً منها، أمّنت بي إذ كفر الناس، وصدّقتني إذ كذّبني الناس، وواستني في مالها إذ حرمني الناس ورزقني الله منها اولاداً إذ حرمني اولاد الناس.»⁽¹⁾

ومما يدل أيضاً على سبق خديجة في الإيمان برسول الله كلّ نساء العالم جمعاء ما جرى في قضية بدء الوحي، ونزول القرآن، لأن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما انحدر من غار «حراء» واخبر زوجته «خديجة» بما جرى له واجهه - رأساً - ايمان زوجته به وقبولها للكلامه، وتصديقها برسالته، تصريحاً وتلويحاً.

هذا مضافاً إلى أنها كانت قد سمعت من قبل أخباراً تتعلق بنبوته ومستقبل رسالته من كهنة العرب وأهل الكتاب، وهذه الأخبار وامانة فتى قريش وصدقه الذي اشتهر به هي التي دفعت بها إلى أن تتزوج بالفتى الهاشمي (محمّد).

أقدم الرجال اسلاماً: «عليّ»

إن المشهور المقارب للمتفق عليه بين المؤرخين، سنة وشيعة، هو أن «علياً» كان اول من آمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الرجال.

ونرى في مقابل هذا القول المشهور أقوالاً اخر نادرة قد نقلناقلها ما يخالفها أيضاً:

فمثلاً يقال: إنّ زيد بن حارثة ربيب رسول الله وابنه بالتبني، أو أبوبكر كان أول من أسلم، ولكن دلائل عديدة (نذكر بعضها هنا على سبيل الاختصار) تشهد على خلاف هذين القولين.

- [صحيح مسلم: ج ٧، ص ١٣٤، صحيح البخاري: ج ٥، ص ٣٩، اسدالغابة لابن الأثير الجزري: ج ٥، ص ٤٢٨، بحار الأنوار: ج ١٦، ص ٨].

واليك بعض هذه الدلائل:

1- علىّ تربى في حجر النبىّ

لقد تلقى عليّ - عليه السلام - تربيته في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ونشأ وترعرع في بيته منذ طفولته، وكان النبىّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يجتهد في تربيته والعناية به كالوالد الرحيم.

قال عامّة المؤرخين وكتّاب السيرة بالاتفاق: إنّ قريشاً أصابتهم أزمةٌ شديدةٌ (قبل بعثة النبى) وكان أبوطالب ذاعيل كثير، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - للعباس عمّه، وكان من أيسر بني هاشم: يا عباس إن أخاك أباطالب كثير العيال، وقد اصاب الناس ماترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، أخذ من بنيه رجلاً وتأخذ انت رجلاً فنكفهما عنه، فقال العباس: نعم، فانطلقا حتّى اتيا أباطالب فقالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتّى ينكشف عن الناس ما هم فيه (إلى أن قال): فأخذ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً فضمّه إليه، وأخذ العباس جعفرأ فضمّه إليه فلم يزل عليّ مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتّى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً فاتبعه علي رضي الله عنه وآمن به وصدقّه. (1)

في هذا الصورة يجب أن نقول بأنّ علياً - عليه السلام - انتقل إلى بيت النبىّ وهو دون الثامنة، لأنّ الغرض من أخذ النبىّ إيّاه من ابيه «أبي طالب» هو التخفيف عن كاهل زعيم مكة (أبي طالب)، ومن الواضح أنّ صبيّاً في مثل هذا السنّ (دون الثامنة) مضافاً إلى أنّ فصله عن والديه أمرٌ في غاية الصعوبة، لن يكون لأخذه وتكفّله أيّ أثر هامّ في وضع أبيه (أبي طالب) المعيشى.

وعلى هذا يجب أن نفترض له - عليه السلام - عمراً يكون لأخذه فيه من قبل النبىّ تأثيراً معتدلاً به في وضع أبيه الإقتصادي والمعيشي.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٦، البداية والنهاية: ج ٢، ص ٢٥.

فكيف يمكن القول - والحال هذه - أن اباعد عن البيت النبويّ مثل «زيد بن حارثة» وغيره اطلّعوا على أسرار الوحي، بينما جهل ابن عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واقرب الناس إليه والذي كان معه في اكثر الأوقات بما أتى به - صلى الله عليه وآله وسلم - وما نزل عليه.

إنَّ غرضَ النَّبِيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - من تربية الإمام عليٍّ وتكفله إياه كان إلى حدِّ كبير هو أداء ما أسدى إليه أبوطالب من خدمات، ولم يكن ثمَّة شيء أحبَّ إلى رسول الله من أن يُهديَّ أحداً إلى الصراط المستقيم، فكيف يمكن أن يقال - والحال هذه - أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حرم ابن عمه الذي كان يتمتع بذكاء باهر وضمير يقظ، من هذه النعمة الكبرى.

إنَّ من الأفضل أن نسمِّعَ هذا الأمر من لسان «علي» نفسه، فقد بيَّن - عليه السلام - في الخطبة القاصعة منزلته من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقربه إليه هكذا:

«وَلَقَدْ عَلِمْتُم مَوْضِعِي مِنْ رَسُولِ اللَّهِ بِالْقَرَابَةِ الْقَرِيبَةِ، وَالْمَنْزِلَةَ الْخَصِيصَةَ، وَضَعَنِي فِي حَجْرِهِ وَأَنَا وَلِيدٌ، يَضُمُّنِي إِلَى صَدْرِهِ، وَيَكْتَفِينِي فِي فِرَاشِهِ، وَيَمْسُئُنِي جِسْدَهُ، وَيُسْمُنِي عِرْقَهُ (عرقه)... وَلَقَدْ كُنْتُ أَتَّبِعُهُ اتِّبَاعَ الْفَصِيلِ إِثْرَ أُمِّهِ، يَرْفَعُ لِي فِي كُلِّ يَوْمٍ مِنْ أَخْلَاقِهِ عِلْماً وَيَأْتُرُنِي بِالْإِقْتِدَاءِ بِهِ، وَلَقَدْ كَانَ بِجَاوِرِنِي فِي كُلِّ سَنَةٍ بِحَرَاءِ فَارَاهِ وَلَا يَرَاهُ غَيْرِي، وَلَمْ يَجْمَعْ بَيْتٌ وَاحِداً يَوْمَنْدٌ فِي الْإِسْلَامِ غَيْرَ رَسُولِ اللَّهِ، وَخَدِيجَةَ وَأَنَا ثَالِثُهُمَا أَرَى نُورَ الْوَحْيِ وَالرَّسَالَةِ وَأَشْمُ رِيحَ النَّبُوَّةِ. (1)»

وجاء في تاريخ الطبري عن ابن اسحاق قال: كان اول ذكر آمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصلى معه وصدق بما جاءه من عند الله «علي بن ابي طالب - عليه السلام - وهو يومند ابن عشر سنين، وكان مما انعم الله به على علي بن ابي طالب - عليه السلام - انه كان في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [نهج البلاغة: ج ٢، ص ١٨٢، وفي هذه الخطبة نفسها يقول: اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَنَابَ وَسَمِعَ وَ أَجَابَ لَمْ يَسْبِقْنِي إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ بِالصَّلَاةِ.]

(357)

قبل الإسلام. (1)

2- عليٌّ وخديجة يقيمان الصلاة مع النبي:

ينقل ابن الاثير في «أسد الغابة»، وابن حجر في «الإصابة» عند ترجمة «عفيف الكندي» وكثير من علماء التاريخ القصة التالية عنه، بأنه قال:

كنت إمراً تاجراً فقدمتُ «منى» أيام الحج، وكان العباس بن عبدالمطلب امرء تاجراً فأتيته أبتاع منه وابععه، قال: فبينما نحن إذ خرج رجلٌ من خباء يصلي فقام تجاه الكعبة ثم خرجت امرأة فقامت تصلي، وخرج غلام يصلي معه، فقلت: يا عباس ما هذا الدين، إنَّ هذا الدين ما ندرى به؟ فقال: هذا محمَّد بن عبدالله يزعم أنَّ الله أرسله وأن كنوز كسرى وقيصر سئفنتح عليه، وهذه امرأته «خديجة بنت خويلد» أمنت به وهذا الغلام ابن عمه «علي بن ابي طالب» آمن به قال عفيف: فليتني كنت رابعهم. (2)

وهذه الواقعة ينقلها ويرويها حتى الذين يقصرون في رواية فضائل الإمام عليّ وكتابتها، وفي امكان القارىء الكريم ان يقف على هذه القصة في المصادر التالية على وجه التفصيل.

-3 أنا الصديق الأكبر:

تلاحظ هذه العبارة ونظائرُها كثيراً، في خطب الإمام عليّ - عليه السلام - وكلماته فهو يكرّر العبارات التالية بكثرة:

«أنا عبدُالله، وأخو رسول الله، وأنا الصديقُّ الأكبر، لا يقولها بعدي الا كاذب مفتر، ولقد صليتُ مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أول من

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٧.
- 2 الاصابة: ج ٢، ص ٤٨٠، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٧. الكامل: ج ٢، ص ٣٧ و ٣٨. اعلام الوري: ص ٢٥، اسدالغاية: ج ٣، ص ٤١٤.

(358)

صلى معه. (1)»

-4 أولكم إسلاماً: عليّ

ولقد وردت أحاديث متواترة عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبتعابير متنوعة قال فيها:

«أولُّكم وأردأ عليّ الحوض، أولُّكم إسلاماً عليّ بن أبي طالب. (2)»

وعند ما يدرس المنصف المحاييد هذه الاحاديث، يقطع بأسبقية الإمام عليّ إلى الإسلام، وتقدّمه على غيره في الإيمان بالدعوة المحمّدية، ولا يختار القولين الآخرين اللذين لا يذهب إليهما إلا الأقلية.

فإنّ ما يناهز الستين شخصاً من الصحابة والتابعين يؤيدون القول الأول (أي أن عليّاً أول القوم إسلاماً وأقدمهم أيماناً) وحتى الطبريّ نفسه الذي شكك في هذا القول، واكتفى بنقله دون اختياره وتأكيد، روى في ج ٢، ص ٦٠ بأن «ابن سعد» سأل اباه قاتلاً: أكان أبو بكر أولكم إسلاماً، فقال: لا ولقد أسلم قبله اكثر من خمسين.

ومن غريب الأمر ان مؤرخاً كبيراً كابن كثير يتنكر لهذه الحقيقة الساطعة فقد ذكر في ج ٧، ص ٣٣٤ من كتابه «البداية والنهاية» حديثاً صحيحاً بإسناد الإمام أحمد الترمذي في إسلام أمير المؤمنين وأنه أول من أسلم وصلى ثم أردفه بقوله: وهذا لا يصح من اي وجه كان روي عنه، وقد ورد في أنه أول من أسلم من هذه الأمة أحاديث كثيرة لا يصح منها شيء... إلخ.

وقد تصدى العلامة المحقق الاميني رحمه الله للردّ على هذا المقال بالتفصيل ونظراً لأهميّة ما كتبه العلامة الاميني وما احتوى عليه من نصوص تاريخية نسرده هنا مع ما فيه من تكرار بسيط لبعض ما ذكرناه.

- [خصائص النسائي: ص ٣ و سنن ابن ماجه: ج ١، ص ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ١، ص ١١٢، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٥٦ وغيرها.
- 2يراجع مصادر هذا الحديث في الغدير: ج ٣، ص ٢٢٠.

(359)

يقول العلامة الاميني:

نُسائل هذا الرَّجُل لِمَ لا يَصِحُّ شيءٌ منها من أَىِّ وجه كان؟! والطرق صحيحةٌ، والرّجال ثقات، والحفاظ حكموا بصحّته، وأرباب السير أطبقوا عليه، وكان من المتسالم عليه بين الصّحابة الأوّلين والتابعين لهم بإحسان.

ونحن لو نقتصر على كلمتنا هذه بحسبها القارىء دعوى مجرّدة لدة دعوى ابن كثير (أعاذنا الله عن مثلها) وتخفى عليه جليّة الحال فيهمنا ذكر نزر ممّا يدلُّ على المدّعى وإن لم يسعنا ايراد كثير منه روماً للاختصار.

النصوص النبوية:

- [قال - صلى الله عليه وآله وسلم - :أولكم وارداً - وروداً - على الحوض أولكم إسلاماً على بن أبي طالب.

أخرجه الحاكم في المستدرک ٣ ص ١٣٦ وصحّحه م - والخطيب البغدادي في تاريخه ج ٢ ص ٨١ و يوجد في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٧ . شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨ .

وفي لفظ: أوّل هذه الأُمّة وروداً على الحوض أوّلها إسلاماً على بن أبي طالب، رضي الله عنه. السيرة الحليّة ١ ص ٢٨٥. سيرة زيني دحلان ١ ص ١٨٨ هامش الحليّة.

وفي لفظ: أوّل الناس وروداً على الحوض أولهم إسلاماً على بن أبي طالب مناقب الفقيه ابن المغازلي. مناقب الخوارزمي.

-2قال - صلى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة: زوّجتك خير أمتي أعلمهم علماً، وأفضلهم حلماً وأولهم سلماً. راجع ما مرّ ص ٩٥.

-3قال - صلى الله عليه وآله وسلم - لفاطمة: إنّه لأوّل أصحابي: إسلاماً. أو: أقدم أمتي سلماً. حديث صحيح راجع ص ٩٥.

4- أخذ - صلى الله عليه وآله وسلم - بيد عليّ، فقال: إنَّ هذا أوَّل من آمن بي، وهذا أوَّل من يُصافحني يوم القيامة، وهذا الصديق الأكبر. راجع الجزء الثاني

(360)

ص ٣١٣، ٣١٤.

5- عن أبي ايوب قال قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لقد صلّت الملائكة عليّ وعلى علي سبع سنين لأننا كنّا نصلي وليس معنا أحدٌ يُصلي غيرنا.

مناقب الفقيه ابن المغازلي باسنادين م - أسد الغابة ٤ : ١٨ ومناقب الخوارزمي وفيه: ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: لم يكن معي من الرجال غيره.

كتاب الفردوس للدليمي. شرح ابن أبي الحديد عن رسالة الاسكافي ٣ ص ٢٥٨. فرائد السمطين الباب ٤٧.

6- ابن عباس قال قال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : إنَّ أوَّل من صلّى معي عليّ. فرائد السمطين الباب ٤٧ بأربع طرق.

7- معاذ بن جبل قال قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : يا عليّ! اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي، وتخصم الناس بسبع ولا يُجحدك فيه أحدٌ من قريش، أنت أوَّلهم إيماناً بالله، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

8- أبوسعيد الخدري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - وضرب بين كتفيه - : يا عليّ لك سبع خصال لا يُحاحك فيهنَّ أحدٌ يوم القيامة؛ أنت أوَّل المؤمنين بالله إيماناً، وأوفاهم بعهد الله، وأقومهم بأمر الله. الحديث. (حلية الأولياء ١ ص ٦٦).

9- من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند الشعبي عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنه قال لعليّ - عليه السلام - : هذا أوَّل من آمن بي وصدّقني وصلّى معي. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

10- إنَّ ابابكر وعمر خطبا فاطمة فردّهما رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: لم أوامر بذلك. فخطبها عليّ فزوجه إياها وقال لها: زوجتكِ أقدم الأمة إسلاماً. روى هذا الحديث جماعة من الصحابة منهم: أسماء بنت عميس وأم أيمن وابن عباس و جابر بن عبد الله. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٧.

(361)

كلمات امير المؤمنين - عليه السلام -

:

1- قال - عليه السلام - :أنا عبد الله، وأخو رسول الله، وأنا الصديق الأكبر، لا يقولها بعدي إلا كاذبٌ مفترى، ولقد صلّيت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين، وأنا أوّل من صلّى معه.

إسناده من طريق ابن أبي شيبة والنسائي وابن ماجة والحاكم والطبري⁽¹⁾ صحيحٌ رجاله ثقات، راجع الجزء الثاني من كتابنا ٣١٤ .

2- قال - عليه السلام - :أنا أوّل رجل أسلم مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

أخرجه أبو داود بإسناده الصحيح كما في شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨ .

3- قال - عليه السلام - :أنا أوّل من أسلم مع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - .

أخرجه الخطيب البغدادي في تاريخه ٤، ص ٢٣٣ .

4- قال - عليه السلام - أنا أوّل من صلّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

أخرجه أحمد، والحافظ الهيثمي في «مجمع الزوائد» وقال: رجاله رجال الصحيح غير حبة العرني وقد وثق. وأخرجه أبو عمرو في الإستيعاب ٢، ص ٤٥٨ .

وابن قتيبة في «المعارف» ص ٧٤ من طريق أبي داود عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن حبة عنه - عليه السلام - . والإسناد صحيحٌ رجاله ثقات.

5- قال - عليه السلام - أسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين. الرّياض النضرة ٢ ص ١٥٨ .

6- قال - عليه السلام - :عبدت الله مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سبع سنين قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة. مستدرک الحاكم ٣ ص ١١٢ .

7- قال - عليه السلام - : عن حكيم مولى زاذان قال: سمعت علياً يقول: صلّيت قبل الناس سبع سنين، وكنا نسجدو لا نركع، وأوّل صلاة ركعنا فيها صلاة العصر، شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٨ .

8-قال - عليه السلام - :عبدت الله قبل أن يعبده أحدٌ من هذه الأمة خمس سنين. الإستيعاب ٢، ص ٤٤٨. الرِّياض النضرَة ٢، ص

١٥٨. السيرة الحليَّة ١، ص ٢٨٨.

9-قال - عليه السلام - :أمنت قبل الناس سبع سنين. خصائص النسائي ص ٣.

10-قال - عليه السلام - :ما أعرف أحدًا من هذه الأمة عبَدَ الله بعد نبينا غيري، عبَدتُ الله قبل أن يعبدَه أحدٌ من هذه الأمة تسع

سنين. خصائص النسائي ص ٣.

11-من خطبة له - عليه السلام - يوم صقِّين: وابن عمِّ نبيِّكم معكم بين أظهركم يدعوكم إلى طاعة ربِّكم، ويعمل بسنة نبيِّكم - صلى

الله عليه وآله وسلم - فلا سواء من صلى قبل كلِّ ذكرٍ لم يسبقني بصلاتي مع رسول الله. كتاب نصر ص ٣٥٥. شرح ابن أبي

الحديد ١، ص ٥٠٣.

12-قال - عليه السلام - :اللهم لا أعرف عبداً من هذا الأمة عبَدَكَ قبلي غير نبيِّك [قاله ثلاث مرَّات] ثمَّ قال: لقد صلَّيت قبل أن

يُصلِّي الناس. وفي لفظ: قبل أن يُصلِّي أحدٌ. أخرجه أحمد، أبويعلى، البراز، الطبراني، الهيثمي في المجمع ٩، ص ١٠٢. وقال:

إسناده حسنٌ. شيخ الإسلام الجويني في الفرائد الباب ٤٨.

13-من كتاب له - عليه السلام - كتبه إلى معاوية: إنَّ أولى النَّاسِ بأمر هذه الأمة قديماً وحديثاً أقربها من رسول الله، وأعلمها

بالكتاب، وأفقهها في الدين، وأولها إسلاماً، وأفضلها جهاداً. كتاب صقِّين لابن مزاحم ص ١٦٨ ط مصر.

14-في حديث عنه - عليه السلام - :لا والله إن كنت أوَّل من صدَّق به فلا أكون أوَّل من كذب عليه. المحاسن والمساويء ١، ص

٣٦. تاريخ القرماني هامش الكامل لابن الأثير ١، ص ٢١٨.

15-قال - عليه السلام - :بُعِث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وأسلمت يوم الثلاثاء.

مجمع الزوائد ٩، ص ١٠٢. تاريخ القرماني ١، ص ٢١٥. الصواعق ٧٢. تاريخ الخلفاء للسيوطي ١١٢. إسعاف الراغبين ١٤٨

16- من كتاب كتبه - عليه السلام - إلى معاوية: انَّ محمداً - صلى الله عليه وآله وسلم - لما دعا إلى الإيمان بالله والتوحيد كنا أهل البيت أول من آمن به؟ وصدّق بما جاء به، فلبثنا أحوالاً مجرّمة (أي كاملة) وما يعبد الله في ربع ساكن من العرب غيرنا. كتاب صقّين لابن مزاحم ص ١٠٠.

17- قال - عليه السلام - :يوم صقّين مخاطباً أصحاب معاوية: ويحكم أنا أول من دعا إلى كتاب الله، وأول من أجاب إليه. كتاب نصر ٥٦١.

18- قالت معاذة بنت عبدالله العدويّة: سمعت عليّ بن أبي طالب على منبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: أنا الصديق الأكبر أمنت قبل أن يؤمن أبو بكر، وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر. راجع الجزء الثاني ص ٣١٤.

19- قال - عليه السلام - :في خطبة خطبها في معسكر صقّين: أتعلمون أنّ الله فضّل في كتابه السابق على المسبوق، وأنه لم يسبقني الله ورسوله أحدٌ من الأئمة؟! قالوا: نعم. راجع الجزء الأوّل ص ١٩٥.

20- قال - عليه السلام - :صليت مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاث سنين قبل أن يُصليّ مع أحد من الناس. أخرجه أحمد باسنادين.

21- قال - عليه السلام - :يوم الشورى في حديث أسلفناه: أمنكم أحدٌ وخدّ الله قبلي؟ قالوا: لا. أمنكم أحدٌ صلى القبلتين غيري؟ قالوا: لا. راجع ج ١ ص ١٩٥-١٦٣، وهذه الفقرة من الحديث عدّها ابن أبي الحديد ممّا استفاضت به الروايات.

22- مرّ في الجزء الثاني ص ٢٥ في أبيات له - عليه السلام - كتبها إلى معاوية:

سبقتمكم إلى الإسلام طرّاً * غلاماً ما بلغت أو ان حلمي

23- ذكر ابن طلحة الشافعي في مطالب السؤل ص ١١ له - عليه السلام - :

أنا أخو المصطفى لا شكّ في نسبي * به رُبيت وسبطاه هما ولدي

صدّقته وجميع الناس في بهم * من الضلالة والإشراك والنكد

قال: قال جابر: سمعت علياً يُنشد بهذا ورسول الله يسمع: فتبسّم رسول الله وقال: صدقت يا علي؟

كلمة الإمام السبط الحسن - عليه السلام -

:

24- من خطبة للامام الحسن - عليه السلام - في مجلس معاوية قوله: أنشدكم الله أيها الرّهط! أتعلمون أنّ الذي شتمتموه منذ اليوم
صلى القبلتين ككتبيهما؟

وأنت يا معاوية بهما كافرٌ، تراها ضلالة، وتعيد اللات والعزى غواية؛ وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه بايع البيعتين ككتبيهما: بيعة الفتح
وبيعة الرضوان؟ وأنت يا معاوية بإحداهما كافرٌ، وبأخرى ناكثٌ. وأنشدكم الله هل تعلمون أنّه أوّل الناس ايماناً؟! وإنّك يا معاوية
وأباك من المؤلّفة قلوبهم. شرح ابن أبي الحديد ٢ ص ١٠١.

25- وفي خطبة له - عليه السلام - مرّت في ج ١، ص ١٩٨: فلما بعث الله محمّد للنبوّة، واختاره للرّسالة، وأنزل عليه كتابه ثمّ
أمره بالدعاء إلى الله، فكان أبي أوّل من استجاب لله ولرسوله، وأوّل من آمن وصدّق الله ورسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد
قال الله في كتابه المنزل على نبيّه المرسل: «أفمن كان على بيّنة من ربه ويتلوه شاهدٌ منه» فجدي الذي على بيّنة من ربه، وأبي
الذي يتلوه وهو شاهدٌ منه.

رأي الصحابة والتابعين في أوّل من أسلم

1- أنس بن مالك قال: نُيئء (بُعِث) النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الإثنين وأسلم علىّ يوم الثلاثاء. وفي لفظ له: بُعث رسول
الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وصلى علىّ يوم الثلاثاء.

أخرجه الترمذي في جامعه ٢، ص ٢١٤. الطبراني. الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٢. ابن عبد البرّ في الإستيعاب ٣ ص ٣٢. ابن
الأثير في جامع الأصول كما في تلخيصه تيسير الوصول ٣ ص ٢٧١. الجويني في فرائد السمطين الباب

(365)

47- وأوعز إليه العراقي في التقريب ١، ص ٨٥. ويوجد في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨. تذكرة السبط ٦٣. السراج المنير
شرح الجامع الصغير ٢ ص ٤٢٤. شرح المواهب ١ ص ٢٤١.

2- بُريدة الأسلمي قال: أوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وصلى علىّ يوم الثلاثاء. أخرجه الحاكم في
المستدرک ٣ ص ١١٢ وصحّحه هو وأقرّه الذهبي.

3- زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله علىّ بن أبي طالب.

تاريخ الطبري بإسنادين صحيحين رجالهما ثقات. مسند أحمد ٤، ص ٣٦٨.

مستدرك الحاكم ٤، ص ٣٣٦ وصحّحه هو وأقرّه الذهبي. الكامل لابن الأثير ٢، ص ٢٢.

4- يزيد بن أرقم قال: أوّل من صلّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليّ.

أخرجه أحمد والطبراني كما في مجمع الهيئتي ٩ ص ١٠٣ وقال: رجال أحمد رجال الصحيحين. أبو عمرو في الإستيعاب ٢، ص ٤٥٩.

5- يزيد بن أرقم قال: أوّل من آمن بالله بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليّ بن أبي طالب. الإستيعاب ٢، ص ٤٥٩.

6- عبدالله بن عباس قال: أوّل من صلّى عليّ.

جامع الترمذي ٢، ص ٢١٥. تاريخ الطبري ٢، ص ٢٤١ بإسناد صحيح. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٦.

7- عبدالله بن عباس قال: لعليّ أربع خصال ليست لأحد: هو أوّل عربيّ وأعجميّ صلّى مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . مستدرك الحاكم ٣، ص ١١١، الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧.

8- عبدالله بن عباس قال مجاهد: إنّه قال: أوّل من ركع مع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عليّ بن أبي طالب فنزلت فيه هذه الآية: وأقيموا الصلّاة وآتوا الزكّاة واركعوا مع الراكعين. تذكرة السبط ٨.

(366)

9- عبدالله بن عباس قال في خطبة له: إنّ ابن أكلة الأكباد قد وجد من طعام أهل الشام أعواناً على عليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله وصهره وأوّل ذكر صلّى معه.

كتاب صفّين لابن مزاحم ٣٦٠. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٥٠٤. جمهرة الخطب ١ ص ١٧٥.

10- عبدالله بن عباس قال: فرض الله تعالى الإستغفار لعليّ في القرآن على كلّ مسلم بقوله تعالى: «رَبَّنَا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان». فكلّ من أسلم بعد عليّ فهو يستغفر لعليّ. شرح ابن أبي الحديد ٣، ص ٢٥٦.

11- عبدالله بن عباس قال: أوّل من أسلم عليّ بن أبي طالب.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٨. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢.

12- عبدالله بن عباس قال: كان عليّ أوّل من آمن من الناس بعد خديجة رضي الله عنهما.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧ وقال: قال أبو عمرو رضي الله عنه: هذا إسنادٌ لامطعن فيه لأحد لصحتّه وثقة نقلته. وصحّحه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢.

13- كان ابن عباس بمكّة يُحدّث على شفير زمزم ونحن عنده فلما قضى حديثه قام إليه رجلٌ فقال: يا ابن عباس؟ إني امرؤ من أهل الشام من أهل حمص إنهم يتبرّون من عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه ويلعنونه. فقال: بل لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعدّ لهم عذاباً مهيناً. ألبعد قرابته من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -؟ وإنه لم يكن أوّل ذكران العالمين إيماناً بالله ورسوله؟ وأوّل من صلى وركع وعمل بأعمال البرّ؟ قال الشامي: إنهم والله ما يُنكرون قرابته وسابقتهم غير أنّهم يزعمون أنه قتل الناس. الحديث. المحاسن والمساويء للبيهقي ١، ص ٣٠.

14- عفيف قال: جئت في الجاهليّة إلى مكّة وأنا أريد أن ابتاع لأهلي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبدالمطلب وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالسٌ

(367)

حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شابٌ فرمى ببصره إلى السماء ثمّ قام مستقبلاً الكعبة ثمّ لم البث إلا يسيراً حتّى جاء غلامٌ فقام على يمينه، ثمّ لم يلبث إلا يسيراً حتّى جاءت امرأةٌ فقامت خلفهما، فرجع الشابٌ فرجع الغلام والمرأة، فرجع الشابٌ فرجع الغلام والمرأة، فسجد الشابٌ فسجد الغلام والمرأة فقلت: يا عباس؟ أمرٌ عظيمٌ. قال العباس: أمرٌ عظيمٌ، أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا. قال: هذا محمّد بن عبدالله ابن أخي. أتدري من هذا الغلام؟ هذا عليّ ابن أخي. أتدري من هذه المرأة؟ هذه خديجة بنت خويلد زوجته، إنّ ابن أخي هذا أخبرني أنّ ربّه ربّ السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه، والله ما على الأرض كلّها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

خصائص النسائي ٣. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١. الرّياض النضرة ٢ ص ١٥٨. الإستيعاب ٢ ص ٤٥٩. عيون الأثر ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. السيرة الحلبية ١ ص ٢٨٨.

15- سلمان الفارسي قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيّها الحوض أوّلها إسلاماً عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٧. مجمع الزوائد ٩ ص ١٠٢ وقال: رجاله ثقاتٌ. وعدّ الإسكافي في رسالته على العثمانيّة. وأبو عمرو في الإستيعاب. والعراقى في شرح التقرّيب ١ ص ٨٥. والقسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥ ممّن روى أنّ عليّاً أوّل من أسلم.

16- أبو رافع قال: صَلَّى النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أوَّل يوم الاثنين وصَلَّت خديجةُ آخره وصَلَّى عليَّ يوم الثلاثاء من الغد

أخرجه الطبراني كما في شرح المواهب ١ ص ٢٤٠. عيون الأثر ١ ص ٩٢.

وتجده وسابقه في الرِّياض النضرة ٢ ص ١٥٨. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

17- أبو رافع قال: مكثَ عليٌّ يصلي مستخفياً سبع سنين وأشهرًا قبل أن يصليَ أحدٌ. أخرجه الطبراني. الهيثمي في المجمع ٩ ص

١٠٣. الجويني في

(368)

الفرائد ب ٤٧.

18- أبوذر الغفاري، عدَّ ممَّن روى أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. التقريب وشرحه ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

19- خباب بن الأرت قال: رايت عليًّا يُصلي قبل الناس مع النبيِّ وهو يومئذ بالغٌ مستحکم البلوغ. رسالة الإسكافي. وعدَّ ممَّن روى

أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم في الاستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والمواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

20- المقداد بن عمرو الكندي، ممَّن روى أنَّ عليًّا أوَّل من أسلم كما في الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. والتقريب وشرحه ١ ص ٨٥.

والمواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

21- جابر بن عبد الله الأنصاري، قال: بُعث النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يوم الإثنين وصَلَّى عليَّ يوم الثلاثاء. الطبري ٢

ص ٢١١. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨، وعدَّ أبو عمرو والعراقيُّ والقسطلاني ممَّن روى أنَّ

عليًّا أوَّل من أسلم.

22- أبو سعيد الخدري روى أنَّ عليَّ بن أبي طالب أوَّل من أسلم.

الإستيعاب ٢ ص ٤٥٦. شرح التقريب ١ ص ٨٥. المواهب اللدنيَّة ١ ص ٤٥.

23- حذيفة بن اليمان قال: كنا نعبد الحجاره ونشرب الخمر وعلئ من أبناء أربع عشر سنة قائمٌ يصلي مع النبي ليلا ونهاراً، وقريش يومئذ تسافه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما يذبُّ عنه إلا عليّ. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

24- عمر بن الخطاب قال عبدالله بن عباس: سمعت عمرو عنده جماعةً فنذاكروا السابقين إلى الإسلام فقال عمر: أما علي فسمعت رسول الله يقول فيه ثلاث خصال، لو ددت أن تكون لي واحدة منهن، كانت أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس، كنت أنا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة من أصحابه إذ ضرب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على منكب علي رضي الله عنه فقال له: يا علي؟ أنت أوّل

(369)

المؤمنين إيماناً، وأوّل المسلمين إسلاماً، وأنت مني بمنزلة هارون من موسى.

رسالة الإسكافي. مناقب الخوارزمي. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

25- عبدالله بن مسعود قال: أوّل حديث علمته من أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أني قدمت مكة مع عمومة لي (وذكر مثل حديث عفيف المذكور ص ٢٢٦) رسالة الإسكافي.

26- أبو أيوب الأنصاري، أخرج الطبراني عنه أنه قال: أوّل الناس إسلاماً عليّ بن أبي طالب. شرح التقريب ١ ص ٨٥. شرح الزرقاني ١ ص ٢٤٢.

27- أبو مرزوم يعلى بن مرّة، عدّه الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممن قال: إنّ عليّاً أوّل الناس إسلاماً.

28- هاشم بن عتبة المرقال قال: أنت يا أمير المؤمنين! أقرب الناس من رسول الله رحماً، وأفضل الناس سابقةً وقدماً. كتاب نصر ١٢٥. جمهرة الخطب ١ ص ١٥١.

29- في كلام لهاشم بن عتبة يوم صفين: إنّ صاحبنا هو أوّل من صلى مع رسول الله، وأفقهه في دين الله، وأولاه برسول الله.

كتاب نصر ٤٠٣. تاريخ الطبري ٦ ص ٢٤. الكامل لابن الأثير ٣ ص ١٣٥. وقال هاشم يوم صفين:

مع ابن عمّ أحمد المعلى * فيه الرسول بالهدى استهلا

أوّل من صدّقه وصلى * فجاهد الكفار حتّى أبلى⁽¹⁾

30-مالك بن الحارث الأشر قال في خطبة له: معنا ابن عم نبيّنا وسيف من سيوف الله على بن ابي طالب، صلى مع رسول الله
لم يسبقه إلى الصلاة ذكر، حتى كان شيخاً لم يكن له صبوة ولا نبوة ولا هفوة، فقيه في دين الله، عالم بحدود الله.

كتاب نصر ٢٦٨. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٤٨٤. جمهرة الخطب ١

- [كتاب صفين لابن مزاحم: ٣٧١ ط مصر.

(370)

ص ١٨٣.

31-عدي بن حاتم قال في خطبة له مخاطباً معاوية: ندعوك إلى أفضل الأمة سابقة، وأحسنها في الإسلام آثاراً.

كتاب نصر ٢٢١. تاريخ الطبري ٦ ص ٢. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٣٤٤. وفي لفظ ابن الأثير في الكامل ٣ ص ١٢٤: إن ابن
عمك سيد المسلمين أفضلها سابقاً.

32- عدي بن حاتم قال في خطبة أخرى له: إن كان له «لعلّي» عليكم فضلاً فليس لكم مثله فسلموا وإلا فنازعوا عليه، والله لئن كان
إلى العلم بالكتاب والسنة؟ أنه لأعلم الناس بهما. ولئن كان إلى الإسلام؟ إنّه لأخو نبي الله والرأس في الإسلام. الإمامة والسياسة ١
ص ١٠٣.

33-محمد بن الحنفية قال سالم بن ابي الجعد قلت له: أبوبكر كان أولهم إسلاماً؟ قال: لا. الاستيعاب ٢ ص ٤٥٨. إذا ثبت أنّ أبابكر
لم يكن أوّل الناس إسلاماً فعليّ - عليه السلام - هو المتعّين سبق إسلامه.

34- طارق بن شهاب الأحمسي في كلام له: ثمّ قلت: ادع عليّاً وهو أوّل المؤمنين إيماناً بالله وابن عمّ رسول الله - صلى الله عليه
وآله وسلم - ووصيّه، هذا أعظم، الحديث. شرح ابن أبي الحديد ١ ص ٧٦.

35-عبدالله بن هاشم المرقال قال في خطبة له: يا أيّها الناس! إنّ هاشماً جاهد في طاعة ابن عمّ رسول الله، وأوّل من آمن به؛
وأفقههم في دين الله. كتاب نصر ٤٠٥.

36-عبدالله بن حجل قال: يا أمير المؤمنين! أنت أوّلنا إيماناً، وآخرنا بنبيّ الله عهداً. الإمامة والسياسة ١ ص ١٠٣، كتاب نصر.

37- أبو عمرة بشير بن محسن قال في جمع من أصحاب علي ومعاوية: إنَّ صاحبي أحق البرية كلها بهذا الأمر في الفضل والدين والسابقة في الإسلام والقرابة من رسول الله. كتاب نصر ٢١٠.

38- عبدالله بن خباب بن الارت قال ابن قتيبة: إنَّ الخارجة التي خرجت

(371)

على عليّ بينما هم يسبرون فإذا هم برجل يسوق امرأته على حمار له فعبروا إليه الفرات فقالوا له: من أنت؟ قال: أنا رجلٌ مؤمنٌ، قالوا: فما تقول في عليّ بن أبي طالب؟ قال: أقول: إنَّه أمير المؤمنين وأوّل المسلمين ايماناً بالله ورسوله. قالوا: فما اسمك؟ قال: وأنا عبدالله بن خباب بن الارت صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . الإمامة والسياسة ١ ص ١٢٢ .

39- عبدالله بن بُريدة قال: أوّل الرجال إسلاماً عليٌّ بن أبي طالب ثمّ الرهط الثلاث: أبوذر وبُرَيْدة وابن عمّ لأبي ذرّ. أخرجه محمّد بن إسحق المدني في الجزء الأوّل من المغازي.

40- محمّد بن أبي بكر كتب إلى معاوية كتاباً منه: فكان أوّل من أجاب وأنا، وصدّق ووافق، وأسلم وسلم أخوه وابن عمّه عليٌّ بن أبي طالب - إلى أن قال - : أوّل الناس إسلاماً، وصدق الناس نيّة - إلى قوله - بالك الويل! تعدل نفسك بعليّ وهو وارث رسول الله ووصيّه وابو ولده، وأوّل الناس له أتباعاً، وآخرهم، به عهداً، يُخبره بسره، ويشركه في أمره. نصر في كتاب صفين ١٣٣ .

41- عمرو بن الحمق قال لعليّ: أحببتك لخصال خمس: أنّك ابن عمّ رسول الله، وأوّل من آمن به. وفي لفظ: وأسبق الناس إلى الإسلام، أبو الذرية التي بقيت فينا من رسول الله، وأعظم رجل من المهاجرين سهماً في الجهاد.

كتاب صفين ١١٥ . جمهرة الخطب ١ ص ١٤٩ .

42- سعيد بن قيس الهمداني يرتجز في صفين بقوله: (1)

هذا عليّ وابن عمّ المصطفى * أوّل من أجابه ممّن دعا

هذا الإمام لا يُبالي من غوى

43- عبدالله بن أبي سفيان قال مجيباً الوليد (2)

وإنّ وليّ الأمر بعد محمّد * عليّ و في كلّ المواطن صاحبه

- 1 شرح النهج لابن ابي الحديد: ج ١٣ ص ٢٣٢ وفيه «أول من أجابه فيما روى. »
- 2 رسالة الإسكافي، وذكرهما الحافظ الكنجي في الكفاية ص ٤٨ للفضل بن العباس.

(372)

وصيُّ رسول الله حقاً وصنوه * وأول من صلى ومن لان جانبه

44- خزيمة بن ثابت الأنصاري عدّه العراقي في شرح التقريب ١ ص ٨٥، والزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢ ممّن قال

بأنّ عليّاً أول الناس إسلاماً.

وقال: أنشد المرزبان له في عليّ:

أليس أول من صلى لقبلكم * وأعلم الناس بالقران والسنن؟؟

وذكر له الإسكافي في رسالته كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩:

وصيُّ رسول الله من دون أهله * وفارسه مذكان في سالف الزمّ

وأول من صلى من الناس كلّهم * سوى خيرة النسوان والله ذو المنن

وذكرهما له الحاكم في المستدرک ٣ ص ١١٤، وذكر قبلهما:

إذا نحن بايعنا عليّاً فحسبنا * أبو حسن ممّا نخاف من الفتن

وجدناه أولى الناس بالناس أنّه * أطبّ قريش بالكتاب وبالسنن⁽¹⁾

45- كعب بن زهير، ذكر الزرقاني في شرح المواهب ١ ص ٢٤٢. من قصيدة يمدح بها أمير المؤمنين - عليه السلام - :

إنّ عليّاً لميمون نقيته * بالصالحات من الأفعال مشهور

صهر النبي وخير الناس كلّهم * فكلّ من رامه بالفخر مفخور

صلى الصلاة مع الأمي أولهم * قبل العباد وربّ الناس مكفور⁽²⁾

46- ربيعة بن الحارث بن عبدالمطلب، ذكر جمع من الأعلام له أبيات وذكرها آخرون لغيره وهي:

ما كنت أحسب أنّ الأمر منصرف * عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن

أليس أول من صلى لقبيلتهم؟! * وأعلم الناس بالآيات والسنن؟!!

وآخر الناس عهداً بالنبوي؟ * ومن جبريل عون له في الغسل والكفن؟

- 1 ولهذه الايات بقية توجد في الفصول المختارة ٢ ص ٦٧ .
- 2 في النسخة تصحيف ذكرناها صحيحة.

(373)

من فيه ما فيهم ما تمترون به؟! * وليس في القوم ما فيه من الحسن

ماذا الذي ردكم عنه؟! فنعلمه * ها إن بيعتكم من أول الفتن

وذكر الإسكافي في رسالته البيتين الأولين منها ونسبهما إلى أبي سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس حين بويع أبوبكر. شرح
ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٩.

47-الفضل بن أبي لهب قال ردأ على قصيدة الوليد بن عقبة:

ألا إن خير الناس بعد محمد * مهيمنه التاليه في العرف والنكر

وخيرته في خبير ورسوله * بنبذ عهود الشرك فوق أبي بكر

وأول من صلى صنو نبيّه * وأول من أردى الغواة لدى بدر

فذاك على الخير من ذا يفوقه؟! * أبو حسن حلف القرابة والصهر

48-مالك بن عبادة الغافي حليف حمزة بن عبدالمطلب قال:

رأيت علياً لا يلبث قرنه * إذا ما دعاه حاسراً أو مسربلاً

فهذا وفي الإسلام أول مسلم * وأول من صلى وصام وهللاً

49-أبو الأسود الدؤلي يهدد طلحة والزبير بقوله:

وإن علياً لكم مصحراً * يماثله الأسد الأسود

أما أَنَّهُ أَوَّلُ الْعَابِدِينَ * بِمَكَّةَ وَاللَّهِ لَا يُعْبَدُ⁽¹⁾

50- جندب بن زهير كان يرتجز يوم صفين بقوله:

هَذَا عَلِيٌّ وَالْهَدَى حَقًّا مَعَهُ * يَا رَبِّ فَاحْفَظْهُ وَلَا تَضَيِّعْهُ

فإِنَّهُ يَخْشَاكَ رَبِّي فَارْفَعَهُ * نَحْنُ نَصْرُنَاهُ عَلِيٌّ مَنْ نَازَعَهُ

صَهْرَ النَّبِيِّ الْمُصْطَفَى قَدْ طَاوَعَهُ * أَوَّلُ مَنْ بَايَعَهُ وَتَابَعَهُ⁽²⁾

51- زفر بن يزيد⁽³⁾ بن حُذَيْفَةَ الْأَسَدِيِّ قَالَ:

فحَاطُوا عَلِيًّا فَنَصَرُوهُ فَإِنَّهُ * وَصِيٌّ وَفِي الْإِسْلَامِ أَوَّلُ أَوَّلٍ

- 1 رسالة الاسكافي كما شرح ابن ابي الحديد: ٢ ص ٢٥٩.

- 2 كتاب نصر بن مزاحم: ٤٥٣.

- 3 في بعض المصادر: زفير بن زيد.

(374)

وإن تخذلوه والحوادث جَمَّة * فليس لكم عن أرضكم متحوِّل⁽¹⁾

52- النجاشي بن الحارث بن كعب قال:

فَقُلْ لِلْمُضَلَّلِ مِنْ وَاثِلٍ * وَمَنْ جَعَلَ الْغَيْثَ يَوْمًا سَمِينًا

جَعَلْتَ ابْنَ هَنْدٍ وَأَشْيَاعَهُ * نَظِيرَ عَلِيٍّ أَمَا تَسْتَحُونَا؟!

إِلَى أَوَّلِ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ * أَجَابَ النَّبِيَّ مِنَ الْعَالَمِينَا

وَصَهْرَ الرَّسُولِ وَمَنْ مِثْلَهُ * إِذَا كَانَ يَوْمَ يَشِيبُ الْقُرُونَا؟!⁽²⁾

53- جرير بن عبدالله البجلي قال:

فَصَلَّى إِلَهَهُ عَلَى أَحْمَدٍ * رَسُولَ الْمَلِكِ تَمَامَ النِّعَمِ

وَصَلَّى عَلَى الطَّهْرِ مِنْ بَعْدِهِ * خَلِيفَتَنَا الْقَائِمَ الْمَدْعَمِ

علياً عنيت وصيَّ النبي * يجالد عنه غواة الأمم

له الفضل والسبق والمكرما * ت وبيت النبوة لا المهتمضم

54-عبدالله بن حكيم التميمي قال:

دعانا الزبير إلى بيعة * وطلحة من بعد أن أثقلا

فقلنا: صفقنا بايماننا * فإن شئتما فخذوا الأشملا

نكتنم علياً على بيعة * وإسلامه فيكم أولاً

55-عبدالرحمن بن حنبل [جعل] [الجمحي حليف بني الجمح قال:

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة * على الدين معروف العفاف موقفاً

عفيفاً عن الفحشاء أبيض ماجداً * صدوقاً وللجبار قدماً مصدقاً

أبا حسن فارضوا به وتبايعوا * فليس كمن فيه يرى العيب منطفاً

عليٌ وصيُّ المصطفى ووزيره * وأول من صلى لذي العرش وأتقى⁽³⁾

56-أبو عمرو عامر الشعبي الكوفي قال: أول من أسلم من الرجال عليُّ بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين. رسالة الإسكافي كما

في شرح ابن أبي

- [رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد: ٣ ص ٢٥٩.

- 2كتاب صفين لنصر بن مزاحم: ٦٦.

- 3كفاية الطالب الحافظ الكنجي: ٤٨.

57-أبو سعيد الحسن البصري قال: عليُّ أول من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد عن عبدالرزاق عن معمر عن قتادة عنه. ورواه

الإسكافي في رسالته عن عبدالرزاق كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

وقال الحجاج للحسن وعنده جماعة من التابعين وذكر علي بن أبي طالب: ما تقول أنت يا حسن؟ فقال: ما أقول؟ هو: أول من صلى إلى القبلة، وأجاب دعوة رسول الله. وإنّ لعلّي منزلة من ربّه وقربة من رسوله، وقد سبقت له سوابق لا يستطيع ردّها أحدٌ. فغضب الحجاج غضباً شديداً وقام عن سريره فدخل بعض البيوت.

وقال رجل للحسن: مالنا لا نراك تثني على عليّ وتقرّظه؟ قال كيف؟! وسيف الحجاج يقطر دماً، أنّه أول من أسلم، وحسبكم بذلك. رسالة الإسكافي كما في شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٥٨.

58- الإمام محمّد بن عليّ الباقر قال: أول من آمن بالله عليّ بن أبي طالب وهو ابن إحدى عشرة سنة. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠.

59- قتادة بن دعامة الأكمة البصري قال: عليّ أول من أسلم بعد خديجة. أخرجه أحمد كما سمعت، والقسطلاني عدّة ممّن قال به في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢.

60- محمّد بن مسلم المعروف بابن شهاب⁽¹⁾ عدّه القسطلاني في المواهب ١ ص ٤٥، وأقرّه الزرقاني في شرحه ١ ص ٢٤٢ من الفاتلين بأنّ عليّاً أول من أسلم.

61- أبو عبدالله محمّد بن المكندر المدني قال: عليّ أول من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

62- أبو حازم سلمة بن دينار المدني قال: عليّ أول من أسلم. تاريخ الطبري ١ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

- [نسبة إلى جدّ جده.

(376)

63- أبو عثمان ربيعة بن أبي عبدالرحمن المدني قال: عليّ أول من أسلم. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

64- أبو النضر محمّد بن السائب الكلبي قال: عليّ أول من أسلم، أسلم وهو ابن تسع سنين. تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. الكامل لابن الأثير ٢ ص ٢٢.

65- محمّد بن اسحاق قال: كان أول ذكر آمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وصلى معه وصدقّه بما جاءه من عند الله عليّ بن أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين⁽¹⁾ وكان ممّا أنعم الله به على عليّ بن أبي طالب أنّه كان في حجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل الإسلام.

وقال: وذكر بعض أهل العلم أنّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه عليّ بن ابي طالب، مستخفياً من عمّه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصلّيان الصلوات فيها، فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ماشاء الله أن يمكثا، ثم إنّ أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصلّيان فقال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :يا بن أخي ما هذا الدين؟ الحديث.

تاريخ الطبري ٢ ص ٢١٣. سيرة ابن هشام ١ ص ٢٦٤، ٢٦٥. سيرة ابن سيّد الناس ١ ص ٩٣. الكامل لابن الأثير ٤ ص ٢٢. شرح ابن أبي الحديد ٣ ص ٢٦٠. السيرة الحليّة ١ ص ٢٨٧.

66-جُنَيْد بن عبد الرحمن قال: أتيت من حوران إلى دمشق لأخذ عطائي فصليت الجمعة ثم خرجت من باب الدرج فإذا عليه شيخٌ يقال له: ابو شيبه القاصّ يقصّ على الناس، فرغّب فرغبنا، وخوّف فبكيننا، فلمّا انقضى حديثه قال: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب. فلعنوا أبا تراب - عليه السلام - فالتفت إليّ من على يميني فقلت له: فمن أبو تراب؟ فقال: عليّ بن أبي طالب ابن عمّ رسول الله، وزوج إبنته، وأولّ الناس إسلاماً، وأبو الحسن والحسين. فقلت: ما أصاب هذا القاصّ؟! فقلت إليه وكان ذا وفرة فأخذت وفرته بيدي وجعلت أطم وجهه

- [في الكامل لابن الأثير: ٢ ص ٣٢. احدى عشرة سنة. نقلا عن ابن اسحاق.

(377)

وأبطح براسه الحائط، فصاح فاجتمع أعوان المسجد فوضعوا رداي في رقبتي وساقوني حتّى دخلوني على هشام بن عبد الملك وابو شيبه يقدمني فصاح يا أمير المؤمنين؟ قاصّك وقاصّ آبائك وأجدادك أتى إليه اليوم أمرٌ عظيمٌ. قال: من فعل لك؟ فقال: هذا. فالتفت إليّ هشام وعنده أشراف الناس فقال: يا أبا يحيى؟ متى قدمت؟ فقلت: أمس وأنا على المصير إلى أمير المؤمنين فادركتني صلاة الجمعة فصليت وخرجت إلى باب الدرج فإذا هذا الشيخ قائمٌ يقصّ فجلست إليه فقرأ فسمعنا، فرغّب من رغّب، وخوّف من خوّف؛ ودعا فأمننا، وقال في آخر كلامه: اختموا مجلسنا بلعن أبي تراب، فسالت من أبو تراب؟

فقيل: عليّ بن ابي طالب، أولّ الناس إسلاماً، وابن عم رسول الله، وأبو الحسن والحسين، وزوج بنت رسول الله. فوالله يا أمير المؤمنين؟ لوذكر هذا قرابة لك بمثل هذا الذكر ولعنه بمثل هذا اللعن لأحلت به الذي أحلت، فكيف لا أغضب لصهر رسول الله وزوج إبنته؟! فقال هشام: بنس ما صنع. تاريخ ابن عساکر ٣ ص ٤٠٧.

هذه جملةٌ من النصوص النبويَّة، والكلم المأثورة عن أمير المؤمنين والصحابة والتابعين في أنَّ علياً أوَّل مَنْ أسلم: وهي تريبو على مائة كلمة، أضف إليها ما مرَّ ج ٢ ص ٢٧٦ من أنَّ أمير المؤمنين سبق هذه الأُمَّة. واشفع الجميع بما أسلفناه ج ٢ ص ٣٠٦ من أنَّه صلوات الله عليه صديق هذه الأُمَّة، وهو الصديق الأكبر.

فهل تجد عندئذ مساعاً لمكابرة ابن كثير تجاه هذه الحقيقة الراهنة وقوله: وقد ورد في أنَّه أوَّل من أسلم. إلخ؟!؟! فإذا لا يصحُّ مثل هذه فما الذي يصحُّ؟ وإن كان لا يصحُّ شيء منها فما قيمة تلك الكتب المشحونة بها؟! كلا، إنَّها كلمة هو قائلها ومن ورائهم برزخٌ إلى يوم يبعثون.

وأنت ترى الرجل يزيّف هذه الكلم والنصوص الكثيرة الصحيحة بحكم الحقاظ الأثبات بكلمة واحدة قارصة، ويعتمد في إثبات أيِّ أمر يروقه في تاريخه على المراسيل والمقاطع والأحاد، ونقل المجاهيل وأفناء الناس.⁽¹⁾

- [الغدِير: ج ٣ ص ٢١٩ - ٢٣٩.

(378)

مناظرة بين المأمون وإسحاق:

ولقد دار بين المأمون العباسي وإسحاق وهو من العلماء المشهورين حوار طريف في هذا المجال ينقله ابن عبد ربّه في كتابه «العقد الفريد» نذكر هنا خلاصته:

قال المأمون: يا إسحاق أي الأعمال كان أفضل يوم بعث الله رسوله؟

ابن إسحاق: الإخلاص بالشهادة.

المأمون: أليس سبق إلى الإسلام؟

ابن إسحاق: نعم.

المأمون: اقرأ ذلك في كتاب الله يقول: «والسابقون السابقون أولئك المقربون» إنَّما عُني من سبق إلى الإسلام، فهل علمت أحداً سبق علياً إلى الإسلام؟

ابن إسحاق: إنَّ علياً أسلم وهو حديث السن لا يجوز عليه الحكم وأبو بكر أسلم وهو مستكمل يجوز عليه الحكم.

وهنا أمسك المأمونُ بزمام الكلام وقال:

أخبرني عن إسلام عليّ حين أسلم لا يخلو من أن يكون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دعاه إلى الإسلام، أو يكون إلهاماً من الله؟

قال إسحاق: بل دعاه رسول الله إلى الإسلام.

قال المأمون: يا إسحاق هل يخلو رسول الله حين دعاه إلى الإسلام من ان يكون دعاه بأمر من الله أو تكلف ذلك من نفسه؟

ثم قال: يا إسحاق لا تنسب رسول الله إلى تكلف فإن الله يقول: «وما أنا من المتكافئين.»

فإذا دعاه بأمر الله وليس من صفة الجبار - جلّ ذكره - أن يكلف رسله دعاء من لا يجوز عليه حكم، أفتراه في قياس قولك يا إسحاق؟ أن علياً أسلم صبياً لا يجوز عليه الحكم قد تكلف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من دعاء

(379)

الصبيان ما لا يطيقون. (1)

وعلى هذا الأساس يجب اعتبار إيمان علي - عليه السلام - إيماناً صحيحاً ثابتاً لم يقل عن إيمان الآخرين أهميةً وقيمةً بل هو أفضل مصداق لقوله تعالى:

(والسابقون السابقون أولئك المقربون)، هو الإمام علي بن أبي طالب.

قضية «انقطاع الوحي»:

لقد أضاءت روح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ونفسه الشريفة واستنارت بنور الوحي، ودفعه ذلك إلى التأمل والتفكير في الوظيفة الكبرى والثقيلة التي جعلها الله على كاهله، وخاصة عندما خاطبه الله تعالى بقوله:

(يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر. (2))

وهنا طرح المؤرخون وبخاصة الطبري الذي لا يخلو تاريخه من الاساطير الاسرائيلية قضية باسم «انقطاع الوحي» فقالوا: إن رسول الله بعد أن رأى ذلك الملك وسمع منه الآيات الأولى من القرآن الكريم بقي ينتظر نزول خطاب آخر من جانب الله تعالى، ولكن دون جدوى، فهو لم ير ذلك الملك الجميل بعد ذلك، ولا أنه سمع النداء الغيبي مرة أخرى على غرار ما رأى وسمع في بدء نزول الوحي.

ولو كان لأنقطاع الوحي في بداية عهد الرسالة (الذي ادّعاه هؤلاء) حقيقة فما هو سوى النزول التدريجي للقرآن ليس إلا.

وقد تعلقت المشيئة الالهية اساساً بأن ينزل الوحي على رسول الله تدريجاً، لا دفعةً واحدةً وذلك لمصالح معينة، وحيث أن الأمر في بدء الوحي كان على أوله وفي بدايته، لذلك لم ينزل الوحي الالهي بعد المرة الأولى فوراً، ولكن حُمِلَ هذا على «انقطاع الوحي» ولم يكن لا انقطاع الوحي ولا أية مسألة أخرى من

- [العقد الفريد: ج ٥ ص ٣٥٢ طبعة بيروت دار الكتب العلمية و ج ٥ ص ٩٤ طبعة لجنة التأليف القاهرة.
- 2 المدثر ١ - ٣.

(380)

هذا القبيل.

وحيث أن هذه المسألة قد تذرّع بها الكتابُ المغرضون لذلك ينبغي أن نعطيها بعض الاهتمام ليتضح أن ما ادّعى من انقطاع الوحي، قضية فارغة عن الحقيقة ولذلك لا صحة لتطبيق الآيات القرآنية عليها.

ولتوضيح هذا الأمر ننقل هنا نصّ ما كتبه الطبري ونقله في تاريخه، ثم نعد بعد ذلك إلى نقده.

يكتب الطبري في هذا الصدد قائلاً لما أبطأ جبرئيل على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وجزع جزعاً شديداً قالت له خديجة: ما أرى ربك إلا قد قلاك، فانزل الله عزوجلّ قوله: **وَالضُّحَى. وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى. وَللآخِرَةِ خَيْرٌ لكَ مِنَ الْأُولَى. وَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى. أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى. وَ وَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى. وَ وَجَدَكَ عَانِلًا فَأَغْنَى. فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ. وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ. وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ.** (1)

ولقد أوجد نزولُ هذه الآيات سروراً عظيماً لدى خديجة - عليها السلام - ، وعلمت بأن ما قالته حول رسول الله لا أساس له من الصحة. (2)

أسطورة وليس تاريخاً!

إنّ ذاكرة التاريخ تحفظ وتتذكر جيّداً تاريخ حياة السيدة خديجة.

إن خديجة التي كانت أخلاق محمّد الفاضلة وخصاله المجيدة، وافعاله الحميدة ماثلة امام عينيها والتي كانت تؤمن بعدل ربّها كيف يجوز ان تسيء الظن بالله تعالى وبنبيه الكريم، العظيم الشأن؟

إنّ مقام النبوة ومنصب الرسالة، والسفارة الالهية لا يُعطى إلا لمن يملك طائفةً من الصفات النبيلة والخصال الرفيعة، وما لم يتصف شخصُ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الصفات العليا، وما لم تتوفر فيه مثل هذه الشرائط الخاصة

(381)

والمواصفات المعينة لم يُمنح له ذلك المنصب قط. وتقع العصمة والسكينة القلبية، والاعتماد والتوكل في طبيعة هذه الخصال والمواصفات، ومع هذه الأوصاف والخصال يستحيل أن يدور في خذه مثل تلك التصورات الخاطئة.

ولقد قال العلماء: إنَّ المسيرة التكاملية عند الانبياء تبدأ من فترة الطفولة والصباء، فإن العشاوات والحجب تبدأ تتساقط وتنقشع الواحدة تلو الأخرى منذ ذلك الوقت، ويستمر ذلك حتى تصل الاحاطة العلمية لديهم حدَّ الكمال فلا يشكّون في شيء يروونه أو يسمعونه أبداً، ومن حاز هذه المراتب لا يمكن أن يتطرق الشك والحيرة والتردد إلى قلبه وعقله مطلقاً.

إنَّ آيات سورة «الضحى» وخاصة عبارة «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَ مَا قَلَى» تفيد فقط بأن هناك من قال مثل هذه العبارة للنبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأما مَنْ هو قائلها؟ وكم تركت هذه العبارة من تأثير في نفسية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وروحانيته فهي ساكنة عن كل ذلك؟

وذهب بعضُ المفسرين إلى أن قائلها هم بعضُ المشركين، ولهذا الاحتمال لا تكون جميع الآيات مرتبطة ببدء الوحي، لأنه لا أحد غير «علي» و «خديجة» كان يعرف في بدء البعثة بنزول الوحي، ليتسنى له أن يعترض على رسول الله، ويعيره بانقطاعه عنه بعد ذلك، فإن أمر المبعث والرسالة - كما سنقول ذلك فيما بعد - بقي خافياً على أكثر المشركين لمدة ثلاثة اعوام تماماً، فهو لم يكن مكلفاً بابلاغ رسالته إلى عامة الناس، إلى أن نزل قوله تعالى: «فاصدغ بما تومر» الذي أمره الله فيه بالجهر بأمر رسالته لعامة الناس بلا استثناء.

إختلاف المؤرخين في مسألة «انقطاع الوحي»:

لم يرد في القرآن الكريم أي ذكر مطلقاً لمسألة (انقطاع الوحي) بل لم ترد به إشارة أيضاً، إنما نلاحظها في كتب السيرة والتفسير فقط، ويختلف كُتّاب السيرة والمؤرخون في علة (انقطاع الوحي) هذا، ومدته اختلافاً كبيراً يجعلنا لا نعتمد على أي واحد منها، وها نحن نشير إليها بشكل ما:

(382)

- [1] ان اليهود سألوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن اصحاب الكهف، وعن الروح، وعن قصة ذي القرنين فقال عليه

الصلاة والسلام: سأخبركم غداً، ولم يستثن، فاحتبس عنه الوحي. (1)

بناء على هذا لا يمكن ان نربط هذه المسألة ببدء الوحي ومطلع عهد الرسالة لان اتصال علماء اليهود واحبارهم مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن طريق قريش وسؤالهم اياه حول هذه الأمور الثلاثة، وقع في حدود السنة السابعة من البعثة يوم توجه وفد من قريش إلى المدينة ليسألوا علماء اليهود عن صحة ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فاقترح اليهود عليهم ان يسألوا النبي عن تلك الأمور الثلاثة. (2)

2- قالت خولة وهي امرأة كانت تخدم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن جرّواً دخل البيت فدخلت تحت السرير فماتت، فمكثت النبي الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أياماً لا ينزل عليه الوحي، فلما خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من البيت كنست خولة تحت السرير فاذا جرّو ميت فأخذته وقتته خلف الجدار فأنزل الله تعالى هذه السورة ولما نزل جبرئيل سأله النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن التأخر فقال: **أما علمت أنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة.** (3)

3- إن المسلمين قالوا: يا رسول الله، مالك لا ينزل عليك الوحي؟ فقال: «وكيف ينزل عليّ وأنتم لا تقصّون أظفاركم ولا تأخذون من شواربكم»؟ (4) فنزل جبرئيل بهذه السورة.

4- اهدى عثمان إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عنقود عنب وقيل عنق تمر فجاء سائل فأعطاه ثم اشتراه عثمان بدرهم فقده إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - ثانياً ثم عاد السائل فأعطاه وهكذا ثلاث مرات فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - :ملاطفاً لا غضبان: أسائل أنت يا فلان أم تاجر؟ فتأخر الوحي أياماً فاستوحش فنزلت

- 1روح المعاني: ج ٣٠، ص ١٥٧، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣١٠ و ٣١١.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٠٠ و ٣٠١.
- 3تفسير القرطبي: ج ١٠، ص ٨٣ و ٧١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٩.
- 4نفس المصدر.

السورة. (1)

5- إن جرّواً لأحد نساء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو أحد أقربائه حال دون نزول الوحي عليه. (2)

6- إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سأل جبرئيل عن تأخر الوحي قال جبرئيل، لا املك من نفسي شيئاً إنّما أنا عبد مأمور. (3)

ثم ان هناك أقوالاً أخرى يمكن الحصول عليها من مراجعة التفاسير. (4)

ولكن الطيرى نَقَلَ وجهاً آخر تمسك به المغرضون والمرضى من الكُتَاب واعتبروه دليلاً على طروء الشك على قلب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو أنّ الوحي انقطع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد حادثة (حراء) فقالت خديجة للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما أرى ربك إلا قد فلاك!!

فنزَلَ الوحي يقول:

(مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى) (5)

ومما يدلُّ على أهداف هذا النوع من الكُتَاب، المريضة، أو عدم تتبّعهم واستقصائهم، أنهم تمسكوا من بين جميع الأقوال بهذا الاحتمال، واستندوا إليه للحكم على شخصية كرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي لم ير في حياته أي أثر للشك والحيرة مطلقاً.

وإننا مع ملاحظة النقاط التالية يمكننا أن نقف على بطلان هذا الاحتمال وتفاهته:

- [لقد كانت السيدة خديجة من النساء اللواتي أحبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حباً صادقاً وعميقاً، فهي التي وفّت لزوجها حتّى النفس الأخير،

-
- [تفسير روح المعاني: ج ٣٠، ص ١٥٧.
 - 2 غرائب القرآن في هامش تفسير الطبري: ج ٣٠، ص ١٠٨.
 - 3 تفسير ابو الفتوح الرازي: ج ١٢، ص ١٠٨.
 - 4 مجمع البيان: ج ١٠، تفسير سورة الضحى.
 - 5 تفسير الطبري: ج ٣٠، ص ١٤٨.

(384)

ووقفت ثروتها الطائلة لتحقيق أهدافه، وكانت في عام البعثة قد قضيت خمسة عشر عاماً من حياتها الزوجية، ولم تر خديجة طوال هذه الفترة من زوجها إلا التقوى والطهر ولم تلمس منه إلا كرم الصفات ونبيل الاخلاق فقد كانت من المصدقين له - صلى الله عليه وآله وسلم - من أول يوم وكانت تراعي نهاية الأدب في تكليمها معه وعشرتها اياه - صلى الله عليه وآله وسلم - فكيف تتكلم مثل هذه المرأة المؤمنة الوفية، مع زوجها بغليظ القول، وتوجه له مثل هذه الكلمة غير المهذّبة، بل والجارحة؟؟!

-2[إن آية: «مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى» لا تدل على أن «خديجة» قالت مثل هذا الكلام لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بل غاية ما تفيد هذه الآية هي أنّ مثل هذا الكلام قد وُجّه إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأمّا من هو القائل، ولماذا قال هذا الكلام؟ فليس ذلك معلوماً.

3- إن ناقل هذه الرواية يصف «خديجة» تارة بأنها طمأنت النبيّ، وسكّنت من روعه إلى درجة أنها منعتة عن الإنتحار، ولكنه يصفها تارة أخرى بانها قالت له: بأن الله عاداه وقلأه، ألا ينبغي هنا أن نقول: «كن ذكوراً ثم أكذب»؟!«

4- إذا كان الوحي قد انقطع بعد حادثة جبل (حراء) ونزول بضع آيات من سورة «العلق» إلى أن نزلت سورة «الضحى»، يتوجب - في هذه الصورة - ان تكون سورة «الضحى» ثاني سورة من حيث الترتيب التاريخي لنزول السور في حين أنّ تاريخ نزول الآيات و السور القرآنية يفيد أنها السورة الحادية عشرة من سور القرآن الكريم. لأن فهرس السور القرآنية حسب نزولها هو كالتالي:

1-العلق.

2-القلم.

3- المزمّل.

4- المدثر.

5- تَبَّتْ (المسند).

(385)

6- التكوير.

7- الاعلى.

8- الانشراح.

9- والعصر.

10- والفجر.

11-الضحى. (1)

نعم إنفرد اليعقوبي من بين المؤلفين باعتبار سورة الضحى - في تاريخه (2)- السورة الثالثة من حيث تاريخ النزول، وحتّى هذا الرأي لا ينسجم مع القصة المذكورة (انقطاع الوحي).

الإختلاف في مدة انقطاع الوحي:

لقد تعرّض تحديد مدة انقطاع الوحي بشكله المزعوم لإبهام كبير، فقد ذكر ذلك بصور مختلفة في التفاسير والأقوال التالية هي:

4-أيام.

12-يوماً.

15-يوماً.

19-يوماً.

25-يوماً.

40-يوماً.

ولكن بعد دراسة فلسفة النزول التدريجي للقرآن الكريم سنرى أنّ انقطاع الوحي وتوقفه لم يكن حدثاً إستثنائياً، لأنّ القرآن الكريم أعلن منذ أول يوم أن المشيئة الإلهية تعلّقت بأن ينزل القرآن بصورة تدريجية، منجّمة إذ يقول تعالى:

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَىٰ مَكْثٍ ⁽³⁾)

-
- 1 تاريخ القرآن للزنجاني: ص ٥٨.
- 2 تاريخ اليعقوبي: ج ٢، ص ٣٣.
- 3 الاسراء: ١٠٦.

(386)

ويكشف القرآن النقاب - في موضع آخر - عن سرّ نزول القرآن تدريجاً إذ قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَّاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً. ⁽¹⁾)

ومع ملاحظة طريقة نزول الآيات والسور القرآنية هذه يجب أن لا يُتَوَقَّع نزولُ الآيات كل يوم وكلّ ساعة، وأن ينزل جبرئيلُ على النبيّ على الدّوام، ويأتي إليه بالآيات دون انقطاع، بل إنّ الآيات القرآنية كانت تنزل على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في فواصل زمنية مختلفة وفقاً للاحتياجات، وبحسب الأسئلة المطروحة على النبي، ولأسرار أخرى في النزول التدريجي شرحها علماء الإسلام. ⁽²⁾

وفي الحقيقة لم يكن هناك ما يُسمى بانقطاع الوحي، بل كل ما كان في الأمر هو أنّه لم يكن ثمّة ما يوجب النزول الفوري، والمتلاحق للوحي.

(387)

١٤

الدَّعْوَةُ السِّرِّيَّةُ وَدَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ

إستمرَّ النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يدعو إلى دينه سراً مدة ثلاثة أعوام. فهو في هذه السنوات عمَد إلى بناء الكوادر واعدادها بدل توجيه الدعوة إلى عامَّة الناس، فإنَّ اعتبارات معيَّنة في ذلك الوقت كانت توجبُ أن لا يجهر بدعوته ولا يُعلنَ عن رسالته، ويكتفي بالاتصالات الفردية السريَّة ويدعو اشخاصاً معيَّنين إلى دينه.

وقد كانت هذه الدعوة السريَّة هي السبب في أن يجذب إلى الدين الإسلامي جماعة من الناس، وتواجه دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - منهم بالقبول، وقد سجَّل التاريخ أسماء هؤلاء السابقين الذين آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، في هذه الفترة من عهد الرسالة، وتاريخ الإسلام، واليك بعضهم:

1- السيدة خديجة بنت خويلد (زوجة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .)

2- علي بن أبي طالب - عليه السلام - .

3- زيد بن حارثة.

4- الزبير بن العوام.

5- عبدالرحمان بن عوف.

6- سعد بن أبي وقاص.

(388)

7- طلحة بن عبيدالله.

8- أبو عبيدة الجراح.

9- أبو سلمة.

10-الأرقم بن أبي الأرقم.

11- عثمان بن مظعون.

12- قدامة بن مظعون.

13- عبدالله بن مظعون.

14- عبيدة بن الحارث.

15- سعيد بن زيد.

16- خباب بن الأرت.

17- أبوبكر بن أبي قحافة.

18- عثمان بن عفان.

وغيرهم من الذين قبلوا دعوة النبي، وآمنوا بنبوته في هذه الفترة. (1)

ولقد كان أقطاب قريش و أسياها منهمكين - طيلة هذه الاعوام الثلاثة - في لهوهم ومجونهم، ومع أنهم كانوا قد عرفوا بعض الشيء عن دعوة النبي السرية إلا أنهم لم يظهروا أية ردة فعل تجاهها، ولم يقوموا بشيء ضدها.

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه السنوات التي تعتبر فترة صياغة الفرد يخرج مع بعض أتباعه إلى شعاب مكة للصلاة فيها بعيداً عن أنظار قريش.

واتفق أن رآهم بعض المشركين في ما كانوا يُصلون في شعب من شعاب مكة، واستنكروا عملهم هذا، وأدى ذلك إلى منازعة عابرة بينهم وبين المشركين جرح على أثرها أحد المشركين على يدي «سعد بن أبي وقاص» أحد المسلمين، ومن هنا قرّر رسول الله -

صلى الله عليه وآله وسلم - اتخاذ بيّت «الأرقم بن أبي الأرقم» محلاً

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٤٥ و ٢٦٢.

ولقد كان «عمّار بن ياسر» و «صهيب بن سنان» الرومىّ مَن آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ذلك البيت. (2)

دَعْوَةُ الْأَقْرَبِينَ:

يشرع العقلاء من الناس من اصحاب البرامج الواسعة والمشاريع الكبرى اعمالهم الكبرى - عادة - من بدايات صغيرة ونقاط محددة، فإذا حقّقوا نجاحاً في هذه البدايات بادروا إلى توسيع نطاق نشاطهم فوراً، وهكذا جنباً إلى جنب مع النجاحات التي يحقّقونها في كل خطوة يوسّعون دائرة العمل، ويجتهدون في تحقيق المزيد من النجاح، والتكامل لما هم بصدد.

ولقد سأل أحد الشخصيات زعيماً في دولة كبيرة من الدول الكبرى المعاصرة: ما هو سرّ نجاحكم في الاعمال الإجتماعية وما هو الأمر الذي يساعدكم على النجاح في مشاريعكم ؟

فأجابته ذلك الزعيم قائلاً: ان طريقة عملنا نحن الغربيين تختلف عن طريقتهم انتم أهل الشرق، فنحن دائماً نخطّط لمشاريع كبرى و نبدأ من مكان صغير، وبعد إحرار النجاح نعمل إلى توسيع نطاق العمل، وإذا اكتشفنا في منتصف الطريق خطأ برنامجنا غيرنا أسلوب عملنا، وعدلنا إلى طريقة أخرى، وبدأنا بعمل آخر.

أما أنتم الشرقيون فتدخلون ساحة العمل في برامجكم الكبرى من مكان كبير، وتبدأون من نقطة واسعة، وتحاولون تطبيق مشروعكم جملة واحدة، فاذا واجهتم في خلال العمل طريقاً مسدوداً لم يكن في إمكانكم ان ترجعوا من

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦١.
- 2 هذا البيت كان عند جبل الصفا، وكان معروفاً إلى مدة بـ «دار الخيزران» أسد الغابة: ج ٤، ص ٤٤، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٩٢، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٨٣.

منتصف الطريق إلا بتحمل خسائر كبرى فادحة.

هذا مضافاً إلى ان أنفسكم كأنها قد عُجنت بالعجلة ولذلك تؤدّون قطف ثمار جهودكم ونتيجة عملكم في الحال دونما صبر وترقّب وانتظار، وهذه هي بنفسها طريقة تفكير إجتماعية خاطئة، من شأنها أن تجعل الإنسان أمام طرق مسدودة كثيرة وغريبة.

هذا ما قاله ذلك الغربيّ.

ولكن الذي نتصوره ونعتقد نحن هو: أن هذه الطريقة من التفكير لا ترتبط لا بالشرق ولا بالغرب، بل هي ميزة العقلاء الاذكياء من الناس، فانهم يعتمدون هذا الأسلوب لا نجاح مهامهم، وتحقيق مقاصدهم.

ولقد اتبع قائد الإسلام الاكبر الرسول الاعظم - صلى الله عليه وآله وسلم - هذه الطريقة في عمله الرسالي فركّز جهده على الدعوة السريّة إلى دينه مدة ثلاثة أعوام من دون تعجّل، وكان يعرضُ دينه على كل من وجده أهلاً للدعوة، ومستعدّاً من الناحية الفكرية للتبليغ.

فرغم أنّه كان يهدف إلى تشكيل دولة عالمية كبرى ينضوي تحت لوائها (لواء التوحيد) جميع أفراد البشرية، إلا أنه لم يعمد إلى الدعوة العامة طيلة هذه الأعوام الثلاثة، بل لم يوجّه الدعوة الخاصة حتّى إلى أقاربه، إنّما اكتفى بالاتصال الشخصي بمن وجده مؤهلاً وصالحاً للدعوة، ومستعدّاً لقبول الدّين، حتّى أنّه استطاع في هذه الأعوام الثلاثة أن يكسب فريقاً من الأتباع من الذين اهتدوا إلى دينه وقبّلوا دعوته.

وقد كان زعماء قريش - كما أسلفنا - منهمكين طوال هذه الأعوام الثلاثة في اللذّة والهوى وكان فرعون «مكة» وطاعيتها: «أبوسفيان» وجماعته كلما سمعوا بالدعوة اطلقوا ضحكة استهزاء وقالوا لانفسهم: إنّها أيام وتنطفئ بعدها شعلة الدعوة هذه فوراً تماماً كما انطفأت من قبل دعوة «ورقة» و «أميّة» (اللذين أخذوا يحبّذان إلى العرب التوجه نحو المسيحية ونبذ الوثنية بعد أن قرء الانجيل والتوراة) وبالتالي لن يمرّ زمانٌ حتّى يُنسى هذا الأمر، ويغدو خبراً بعد أثر، بل

(391)

لا شيء يُذكر.

بهذا التصوّر، وبهذه العقلية واجهت زعامة «مكة» دعوة النبي في البداية، ولهذا لم يقم زعماء قريش خلال هذه السنوات الثلاث بايّ عمل عدائيّ ضدّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بل ظلّوا ينظرون إليه بنظر الإحترام، ويُرَاعون معه قواعد الأدب والسلوك، وكان النبيّ هو أيضاً لا يتعرض لأصنامهم وآلهتهم في هذه الأعوام الثلاثة بسوء ولا يتناولها بالنقد والاعتراض بصورة علنية، بل كان مركزاً جهده على الاتصال الشخصي بذوي البصائر من الأشخاص وهدايتهم إلى دينه الحنيف.

ولكن منذ أن بدأ النبيّ دعوة الأقربين وأخذ ينتقد وثنيّتهم، ويذكر أوثانهم بسوء ويعترض على تصرفاتهم اللإنسانية أصبح حديث الألسن. ومنذ ذلك اليوم أيضاً بدأت يقظة قريش، وعرفوا أمر محمّد يختلف عن أمر «ورقة» و «أميّة» اختلافاً بيناً وانه لبين الدعوتين فرقا كبيراً، ولهذا بدأت المعارضة والمخالفة السريّة والعلنية، لدعوة النبيّ.

وقد بدأ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بكسر جدار الصمت بدعوة أقربائه إلى دينه ثم شرع بعد ذلك بدعوة الناس أجمعين.

على أنه ما من شك في أنّ الإصلاحات العميقة التي يراد لها ان تترك أثراً في جميع شؤون الناس وكل مناحي حياتهم، وتغيّر مسير المجتمع تحتاج قبل أيّ شيء إلى قوتين:

1- قوة البيان، بأن يستطيع الداعية والمصلح بيان الحقائق التي جاء بها من أفكاره الخاصة، أو ما تلقاه عن طريق آخر إلى الناس بأسلوب جذاب، يأسر القلوب، ويسحر العقول.

2- القوة الدفاعية التي يستطيع تشكيل خط دفاعي منها عند التعرض لهجوم الأعداء والخصوم، وفي غير هذه الصورة ستتطفيء شعلة الدعوة ويفشل المصلح في خطاه الأولى.

ولقد كان البيان لدى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أعلى مرتبة من

(392)

الكمال فكان قادراً كأقوى خطيب على بيان تعاليم دينه للناس في غاية الفصاحة والبلاغة. ولكنه كان يفتقر في الأيام الأولى من دعوته إلى عنصر (القوة الثانية)، أي (القوة الدفاعية)، الرادعة الحامية، لأنه استطاع في السنوات الثلاث الأولى من رسالته أن يضم إلى دعوته قرابة أربعين شخصاً، وذلك في الظروف السرية الشديدة، ولا ريب ان تلك القلة القليلة من الاتباع لم تكن قادرة على أن تتولى مسؤولية الدفاع عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وحماية رسالته.

من هنا عمّد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبهدف تحصيل القوة الدفاعية المطلوبة وتشكيل النواة المركزية إلى دعوة أقربائه إلى دينه قبل التوجه بالدعوة إلى عامة الناس، ليتمكن من هذا الطريق، أن يزيل النقص من جهة عدم وجود القوة الثانية، ويكون منهم سياجاً قوياً يحفظه، ويحفظ رسالته من الأخطار المحتملة.

على أن فائدة هذه الدعوة كانت على الأقل دفع أبناء عشيرته إلى الدفاع عنه بدافع القربى والرحم على فرض أنهم لم يؤمنوا برسالته، ولم يقبلوا دعوته.

هذا مضافاً إلى انه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعتقد ان أي إصلاح وتغيير لابد أن يبدأ من إصلاح الداخل وتغييره، فما لم يستطع الإنسان من إصلاح أبنائه وأقربائه وردعهم عن قبائح الأفعال لا يمكن لدعوته أبداً أن تؤثر في الأجنبي والأبعدين، لأن المناوئين سيعترضون عليه لدعوته في هذه الحالة، ويشيرون إلى أفعال أبنائه وعشيرته.

من هنا أمره الله تعالى بأن يدعو عشيرته الأقربين إذ خاطبه قائلاً:

(وَ أَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ. (1))

كما أنه خاطبه بصدد دعوة الناس عامة بقوله:

(فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَ أَعْرَضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ. إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِنِينَ. (2))

كيفية دعوة الأقرابين:

كانت طريقة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في دعوة عشيرته الأقرابين طريقة جميلة وذكية جداً، فقد تجلّت في ذلك حقيقة أوضحت اسرار هذه الدعوة في ما بعد أكثر فأكثر.

فإن المفسرين كتبوا عند قوله تعالى: **وانذر عشيرتک الاقربین** (وكذا الأغلبية القريبة للاجماع من المؤرخين أن الله أمر نبيه - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن ينذر عشيرته الأقرابين ويدعوهم إلى دينه ورسالته فأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علي بن أبي طالب الذي كان آنذاك في ربيعه الثالث عشر أو الخامس عشر بأن يعدّ طعاماً ولبناً، ثم دعا - صلى الله عليه وآله وسلم - خمساً وأربعين رجلاً من سراة بني هاشم ووجوههم، وعزم على أن ييوح لضيوفه ويكشف لهم من امر رسالته في خلال تلك الضيافة إلا أنه - وللأسف - ما أن أنتهوا من الطعام حتّى بادر أبو لهب فتكلم بكلمات سخيفة قبل أن يتحدث النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ممّا جعل الجوّ غير مناسب لأن يطرح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - موضوع رسالته عليهم، فانفض المجلس دون تحقيق هذا الغرض.

ولما كان من غد أمر النبي علياً - عليه السلام - باعداد الطعام واللبن ثانية، وكرّر دعوة تلك الجماعة، إلى ضيافة أخرى، وبعد أن فرغوا من الطعام تكلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال:

«إنّ الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا إله إلا هو إني رسول الله إليكم خاصّة وإلى الناس عامّة والله لتموتنّ كما تئامون و لتبعثنّ كما تستيقظون و لتحاسبنّ بما تعملون وإنها الجنّة أبدأ و النار أبدأ.»

ثم قال:

«يا بني عبد المطلب اني و الله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومهُ بأفضل ممّا جئتكم به، اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة و قد أمرني الله عزّوجلّ أن ادعوكم إليه فأيتكم يؤمن بي ويؤازرنني على هذا الأمر على أن يكون أخي و

ولما بلغ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى هذه النقطة - وبينما أمسك القوم وسكثوا عن آخرهم إذ كان كل واحد منهم يفكر في ما يؤول إليه هذا الامر العظيم، وما يكتنفه من أخطار - قام «على» - عليه السلام - فجأة، وهو آنذاك في الثالثة أو الخامسة عشرة من عمره، وقال وهو يكسر بكلماته الشجاعة - جدار الصمت والذهول :-

أنا يا رسول الله أكونُ وزيرك على ما بعثك الله. »

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :إجلس، ثم كرر دعوته ثانية وثالثة وفي كل مرة يحجم القوم عن تلبية مطلبه، ويقوم «على» ويعلن عن استعداداه لموازرة النبي، ويأمره رسول الله بالجلوس حتى إذا كان في المرة الثالثة أخذ رسول الله بيده والتفت إلى الحاضرين من عشرين من عشرينه الاقربين وقال:

«إن هذا أخي و وصيي و خليفتي فيكم (أو عليكم) فاسمعوا له، و أطيعوا. »

فقام القوم يضحكون، ويقولون لأبي طالب «قد أمرك أن تسمع لا تنك وتطيع وجعله عليك أميراً. (1)»

إن ما كتبناه هو - في الحقيقة - خلاصةً لحديث مفصل رواه اكثر المفسرين والمؤرخين بعبارات مختلفة، ولم يشكك في صحته أحد، بل اعتبروه من مسلمات التاريخ، الا «ابن تيمية» الذي اتخذ موقفاً خاص من أهل بيت النبي صلى الله عليه و عليهم أجمعين.

خيانة تاريخية و جنائية أدبية!!

إن تحريف الحقائق وقلبها، أو إخفاء الوقائع لهو حقاً من أوضح مصاديق

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٢ و ٦٣، تاريخ الكامل: ج ٢ ص ٤٠ و ٤١، مسند أحمد: ج ١، ص ١١١، وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٣ ص ٢١٠ و ٢١١.

الخيانة والجنائية.

ولقد سلك فريق من الكُتّاب المتعصبين عبر التاريخ للاسف مثل هذا الطريق المقبوح، وأسقطوا مؤلفاتهم العلمية والتاريخية بارتكابهم خطيئة التحريف في جملة من الحقائق، من الاعتبار، وهم يخالون ان عملهم قادر على ان يبقي الحقائق في هالة الإهمال والغموض

إلا أن أمر هؤلاء قد انكشف مع انقضاء الزمن، وتكامل العلم، ودفع بفريق من أهل التحقيق والإنصاف إلى أن يمزقوا بأطراف اقلامهم حجب الزيف والتحريف ويظهروا الوقائع والحقائق على حقيقتها.

واليك في ما يأتي بعض هذا الخيانات:

- [لقد ذكر محمّد بن جرير الطبري (المتوفى عام ٣١٠ هـ) في تاريخه حادثة دعوة الأقربين بشكل مفصل وعلى النحو الذي مرّ على القارئ الكريم.

بيد أنه حرّف في تفسيره⁽¹⁾ وكتّم، فهو عند تفسير قوله تعالى: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» يذكر كل ما ذكره في تاريخه، ولكنه يغيّر ويبدل في قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث يقول: «على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي»، فهو يكتب في تفسيره هكذا: «على أن يكون كذا وكذا.»

ولا ريب أنّ في تغيير عبارة «أخي ووصيي وخليفتي عليكم (أو فيكم) إلى: «كذا وكذا» غرضاً مريضاً، وهو بالتالي خيانة تاريخية فاضحة.

على أن الطبري لم يكتف بهذا القدر من التغيير في الكلام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بل غيّر حتّى في الجملة التي تعقبها وهي قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد أن قام على - عليه السلام - للمرة الثالثة وأعلن عن استعداده لمؤازرة النبي بعد إجماع القوم وسكوتهم: «إن هذا أخي ووصيي و خليفتي» حيث أبدلها بعبارة: «إنّ هذا أخي وكذا وكذا!!!»

إن على المؤرخ أن يكون حراً وشهماً في كتابة الحقائق وروايتها، فيثبتها

- [تفسير الطبري: ج ١٩، ص ٧٤.

(396)

ويروها كما هي، بكل شجاعة، وصلابة.

ولا ريب ان الذي دفع بالطبري إلى أن يرتكب مثل ذلك التبديل والتغيير هو تعصّبه المذهبي، فهو لا يعتبر الإمام عليّاً خليفة رسول الله بلا فصل، وحيث أن تبنك الكلمتين: «خَليفتي ووصيي» تصرّحان بخلافة «علي» للنبي ووصايته بلا فصل لذلك يغيّر ويبدل حتّى ينتصر لمذهبه بالتحريف في شأن نزول هذه الآية أيضاً.

2- ولقد فعل ابن كثير (المتوفى عام ٧٣٢ هـ) نظير هذا في تاريخه⁽¹⁾ وكذا في تفسيره (ج ٣ ص ٣٥١) وسلك نفس الطريق الذي

سلكه - من قبل - سلفه الطبري ضارباً عرض الجدار مبدأً أمانة النقل!!!

ونحن لا نعدز ابن كثير في عمله هذا أبداً، لأنه قد اعتمد - في رواياته التاريخية، في تاريخه وتفسيره معاً - تاريخ الطبري، لا تفسيره ولا شك أنه قد مرَّ على هذه القصة في تاريخ الطبري، ولكنَّه مع ذلك حاد عن الطريق السويِّ فأعرض عن نقل رواية التاريخ - في هذه الحادثة - وعمد - بصورة غير متوقعة - إلى نقل رواية التفسير!!!

3- والأغرب من تبنك الخيانتين ما ارتكبه - في عصرنا الحاضر - وزير المعارف المصرية الأسبق الدكتور «هيكل» في كتابه «حياة محمَّد»، وفتح بعمله باب التحريف في وجه الجيل الحاضر.

والعجب ان «هيكل» هاجم - في مقدمته - جماعة المستشرقين بشدة وانتقدهم بعنف لتحريفهم الحقائق التاريخية، واختلاقهم لبعض الوقائع في حين لم يقصر عنهم في هذا السبيل فهو:

أولاً: نقل الواقعة المذكورة (دعوة الاقربين المعروفة بحادثة يوم الدار أو حديث بدء الدعوة) في الطبعة الأولى من كتابه المذكور بصورة مبتورة ومقتضبة جداً واكتفى من الجملتين الحساستين بذكر واحدة منهما فقط وهي: قول النبي مخاطباً

- [البداية والنهاية: ج ٢، ص ٤٠.

(397)

الحضور في ذلك اليوم: «مَنْ يُؤازرنِي يَكُونُ أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي» بينما حذف بالمرّة الجملة التي قالها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد أن قام للمرة الثانية وأعلن موازرتة للنبي وهي قوله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إِنَّ هَذَا أَخِي وَوَصِيِّي وَخَلِيفَتِي!!!»

ثانياً: أنه خطى في الطبعات الثانية والثالثة والرابعة، خطوة أبعد حيث حذف كلتا الجملتين معاً وبهذا قد وجّه ضربة كبرى إلى قيمته ككاتب. وقيمة كتابه، كدراسة تاريخية!!

النبوة والإمامة توأمان:

إن الاعلان عن وصاية عليّ - عليه السلام - وخلافته في مطلع عهد الرسالة وبداية أمر النبوة يفيد - بقوة ووضوح - أنّ هذين المنصبين ليسا بأمرين منفصلين، ففي اليوم الذي يعلن فيه رسول الله عن رسالته ونبوّته، يعين خليفته ووصيّه من بعده، وهذا يشهد - بجلاء - بأن النبوة والإمامة يشكّلان قاعدة واحدة، وأن هذين المنصبين إن هما إلا كحلقتين متصلتين لا يفصل بينهما شيء.

كما أن هذه الحادثة تكشف - من جانب آخر عن مدى الشجاعة الروحية التي كان يتحلّى بها الإمام امير المؤمنين «علي بن أبي طالب» - عليه السلام - ، حيث قام - في مجلس أحجم فيه الشيوخ الدهاة والسادة المجربون عن قبول دعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

وآله وسلم - خوفاً وتهيئاً - وأعلن بكل شجاعة مؤازرته للنبي، واستعداده للتضحية في سبيل دينه ورسالته وهو آنذاك غلامٌ في ربيعهِ الثالث أو الخامس عشر، وما حابى أعداء الرسالة ولا ماشاهم كما فعل المصلحون من الساسة والزعماء المتخوفون على مصالحهم ومراكزهم آنذاك!!!

صحيح ان «علياً» - عليه السلام - كان في ذلك اليوم أصغر الحاضرين سناً إلا أن معاشرته الطويلة للنبي قد هيأت قلبه لتقبل الحقائق التي تردّد شيوخ القوم في قبولها، بل عجزوا عن دركها وفهمها!!

ولقد اعطى ابو جعفر الإسكافي حق الكلام في هذا المجال إذ قال:

(398)

فهل يُكَلِّف عملُ الطعام، ودعاء القوم صغيرٌ غير مميّز، و غير عاقل، وهل يؤتمن على سرّ النبوة طفلاً... وهل يُدعى في جملة الشيوخ والكهول إلا عاقل لبيب، وهل يضع رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يده في يده، ويعطيه صفقة يمينه بالأخوة والوصية، والخلافة، الا وهو أهل لذلك، بالغ حدّ التكليف، محتمل لولاية الله، و عداوة أعدائه، وما بال هذا الطفل لم يأنس باقرانه ولم يلصق بأشكاله، ولم يُرمع الصبيان في ملاعبهم بعد اسلامه، وهو كأحدهم في طبقته ك بعضهم في معرفته، وكيف لم ينزع إليهم في ساعة من ساعاته بل ما رأيناه الا ماضياً على اسلامه، مصمماً في أمره، محققاً لقوله بفعله، قد صدق اسلامه بعفاه وزده، ولصق برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من بين جميع من حضرته فهو أمينه واليفه في دنياه و آخرته. (1)

- [شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ١٣، ص ٢١٥ و ٢٩٥.

(399)

الدعوة العامة

كان قد انقضى ثلاث سنوات على بدء البعثة يوم عمد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى دعوة الناس عامة بعد دعوة عشيرته الاقربين.

فقد استطاع خلال السنوات الثلاث الأولى من عمر الدعوة أن يهدي - من خلال الاتصالات السرية - مجموعة من الأشخاص إلى الإسلام ولكنه دعا هذه المرّة وبصوت عال عامة الناس إلى دين التوحيد.

فقد وقف ذات يوم على صخرة عند جبل الصفا ونادى بصوت عال: يا صباحاه (وهي كلمة كانت العرب تطلقها كلما أحسّت بخطر، أو بلغها نبأ مُرعب فكانت هذه الكلمة بمثابة جرس الخطر)⁽¹⁾ فلفت نداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا نظر الناس فاجتمع حوله جماعة من أبناء القبائل المختلفة وقالوا: له ما لك؟

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : أرأيتم إن أخبرتكم أنّ العدوّ مُصبحكم أو ممسيكم ما كنتم تصدّقونني؟

- إقال الجزري في النهاية: ج ٢، ص ٢٧١: سعد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على الصفا وقال: يا صباحاه؛ هذه كلمة يقولها المستغيث، وأصلها إذا صاحوا للغارة لانهم أكثر ما كانوا يغيرون عند الصباح ويسمّون يوم الغارة يوم الصباح، فكان القائل: يا صباحاه يقول: قد غشينا العدو.

(400)

قالوا: بلى.

قال: فاني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

ثم قال: إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى اهله فجعل يهتف: واصباحاه. (1)

ولقد كانت قريش تعرف عن دينه بعض الشيء، قيل هذا ولكنها تملّكها الخوف هذه المرة، وهي تسمع ذلك الانذار القوي فبادر أحد قادة الكفر إلى تبديد تلك المخاوف فوراً إذ قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : تَبَّأَ لَكَ، ألهذا دعوتنا؟، وتفرّق على أثرها الناس.

الثبات والإستقامة على طريق الهدف:

إن نجاح أى شخص مرهونٌ بأمرين:

الأول: الايمان بالهدف.

والثاني: الاستقامة والثبات والسعي الدائب لتحقيق ذلك.

إنّ الإيمان هو المحرّك الباطني والقوة الخفية التي تجر الإنسان شاء أم لم يشأ نحو الغاية التي يتوخاها، وتسهّل عليه الصعاب، وتدعوه إلى العمل الدائب لتحقيق مقصوده، لأن شخصاً كهذا يعتقد اعتقاداً قوياً بأنّ سعادته، ومجده يتوقّفان على ذلك.

وبعبارة أخرى: إذا آمن انسان بأن سعادته ومجده يتوقّفان على تحقيق هدف معيّن فإنه سيندفع بقوة الإيمان نحو تحقيق ذلك الهدف، متجاوزاً كل الصعاب، ومتحدياً كل المشكلات في ذلك السبيل.

فالمريض الذي يرى شفاؤه في شرب دواء مرّ مثلاً سيستسهل شربه.

والعَوَاصِ الذي يعتقد إعتقاداً جازماً بأن ثَمّة درراً غالية الثمن تحت أمواج البحر سيلقي بنفسه في قلب تلك الأمواج دونما خوف أو وجل، ليخرج منها بعد

- [السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ١٩٤].

(401)

دقائق ظافراً بأعلى الجواهر.

بينما إذا كان المريض أو العَوَاصِ يشكُّ في عمله، أو يعتقد بعدم فائدته، فأنه لن يُقدّم عليه قط واذما أقدم فان عمله سيكون حينئذ مقروناً بالجهد والعناء.

فقوة الإيمان اذن هي التي تدلّل كل مُشكّل، وتسهّل كلّ صعب.

غير أنه لا ريب في أنّ الوصول إلى الهدف لا يخلو من مشكلات و موانع، فلا بدّ من السعي لرفع تلك الموانع، وإزالة تلك المشكلات

وقد قيل قديماً: أنّ مع كل وردة أشواك، فكيف يمكن قطف وردة دون أن تُدْمى أنامل القاطف بالأشواك المحيطة بها؟؟

هذا وقد بيّن القرآن الكريم هذه المسألة (وهي ان رمز السعادة هو: الإيمان بالهدف والثبات في طريق تحقيقه) في جملة قصيرة إذ قال:

(إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أُنَّ لَا تَخَافُوا وَ لَا تَحْزَنُوا وَأَبْشُرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ. ⁽¹⁾)

ثَبَاتُ النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - وَ صَبْرُهُ:

لقد أدّت إتصالاتُ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الخاصّة. قَبْلَ الدعوة العامّة، وجهودُه الكبرى بعد الجهر بالدعوة، إلى ظهور و تكوين صفٍّ مرصوص من المسلمين في وجه صفوف الكفر، والوثنية.

فالأذنين دخلوا سرّاً في حوزة الإسلام والإيمان قبل الدعوة العامّة تعرّفوا على المسلمين الجدد الذين لبّوا داعي الإسلام بعد إعلان الرسالة، وشكّل القدامى والجديد جماعة قوية متعاطفة متحاببة، وكان ذلك بمثابة إنذار لأوساط الكفر والشرك والوثنية، أربكها وجعلها تشعر بالخطر.

على أنّ ضرب نهضة ناشئة والقضاء عليها كان أمراً سهلاً لقريش، ولكنّ الذي أربع قريشاً ومنعها من توجيه مثل هذه الضربة هي أنّ أفراد هذه

- إِفْصَلَتْ: ٣٠.

(402)

الجماعة، وعناصر هذه النهضة لم يكونوا من قبيلة واحدة، ليتمكن مواجهتها وضربها بكلّ قوة، بل إنتمى من كل قبيلة إلى الإسلام، عددٌ من الأفراد، ومن هنا لم يكن إتخاذ أيّ قرار حاسم بحقهم أمراً سهلاً وبسيطاً.

من هنا قرّر سادة قريش وكبرائها - بعد تداول الأمر في ما بينهم - أن يبدأوا بالقضاء على أساس هذه الجماعة، ومحرك هذا الحزب، والداعي إلى هذه العقيدة بمختلف الوسائل فيحاولوا ثنيه عن دعوته بالأغراء والتطميع تارة ويمنعوا من انتشار دينه بالتهديد والايذاء تارة أخرى.

وقد كان هذا هو برنامج قريش وموقفها من الدعوة طيلة عشر سنوات وهي المدة المتبقية من سنوات البعثة من الفترة المكية، إلى أن قررت بالتالي قتله، ولكنه استطاع ان يبطل مؤامرتهم بالهجرة إلى المدينة قبل أن يتمكنوا من القضاء عليه.

ولقد كان «أبو طالب» آنذاك زعيم بني هاشم ورئيسها المطلق، وكان رجلاً طاهر القلب عالي الهمة، شجاعاً كريماً، وكان بيته ملجأً دافئاً للمحرومين والمستضعفين، وملاذاً أميناً للفقراء والأيتام، وكان يتمتع في المجتمع العربي - علاوة على رئاسة مكة و بعض مناصب الكعبة - بمكانة كبرى و منزلة عظيمة، وحيث أنّه كان كفيلاً لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد وفاة جدّه «عبدالمطلب»، لذلك حضر سادة قريش بصورة جماعية (1) عنده وقالوا له:

«يا أبا طالب إن ابن أخيك قدسب آلهتنا، وعاب ديننا، وسفّه أحلامنا وضللّ آباءنا، فإما أن تكفّه عنّا، وإما أن تخلي بيننا وبينه.»

ولكن «أبا طالب» قال لهم قولاً رقيقاً وردّهم ردّاً جميلاً حكيماً، فانصرفوا عنه.

بيد أنّ نفوذ الإسلام وانتشاره كان يتزايد باستمرار، وكانت جاذبيّة الدّين المحمّدي، وبيان القرآن البليغ يساعداً على ذلك، فيترك اثره في الناس،

(403)

وخاصة في الأشهر الحرم حيث تدف الحجاج على مكة من مختلف أنحاء الجزيرة، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعرض دينه عليهم، فكانت أحاديثه الجذابة، وكلماته البليغة، ودينه المحبب تؤثر في قلوب كثير منهم، فيميلون إلى الإسلام ويقبلون دعوة الرسول.

وهنا أدرك طغاة مكة وفراعنتها أن «محمداً» قد بدأ يفتح له مكاناً في قلوب جميع القبائل، وأصبح له أنصاراً واتباعاً في كثير منها، مما دفعهم مرة أخرى إلى الحضور عند «أبي طالب» حاميه الوحيد، وتذكيره بالإشارة والتصريح بالآخطار المحدقة باستقلال المكيين وعقائدهم نتيجة نفوذ الإسلام وانتشاره فقالوا له أجمع:

يا أباطالب، إن لك سناً، وشرفاً، ومنزلة فينا، وإننا قد استنهييناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإننا والله لا نصير على هذا من شتم أبائنا، وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا، حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين.

فأدرك حامي الرسول الوحيد - بذكائه وفطنته - أن عليه أن يصبر أمام جماعة ترى وجودها، ومصالحها في خطر، من هنا عمد إلى مسالمتهم وملاطفتهم، ووعد بأن يبلغ ابن أخيه «محمداً» كلامهم. وقد كان هذا محاولة من «أبي طالب» لتسكين غضب تلك الجماعة الغاضبة وإطفاء نائرتهم، وتهذئة خواطرم، ليتم معالجة هذه المشكلة - بعد ذلك - بطريقة أصح وأفضل.

ولهذا أقبل - بعد خروج تلك الجماعة من عنده - على ابن أخيه، وذكر له ما قال له القوم، وهو يريد - بذلك ضمناً - إختبار إيمان «محمداً» بهدفة، فكان الرد العظيم، والجواب الخالد الذي يعتبر من أسطع وألمع السطور في حياة قائد الإسلام الأكبر «محمداً» رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، حيث قال لعمه بعد أن سمع مقالة قريش:

«يا عم، والله لو وضغوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله، أو اهلك فيه، ما تركته»

ثم اغرورقت عيناه الشريقتان بدموع الشوق والحب للهدف، وقام وذهب

(404)

من عند عمه.

وكان لتلك الكلمات الصادقة النافذة أثرٌ عجيب في نفس زعيم مكة وسيدها الوقور بحيث نادى ابن أخيه، وأظهر له استعدادَه الكامل للوقوف إلى جانبه، والحدب عليه رغم كل المخاطر، والمتاعب التي كانت تكمن له إذ قال:

«إذْهَبْ يَا بَيْنَ أَخِي فَقُلْ مَا أَحْبَبْتُ قَوْلَ اللَّهِ لَا أَسْلَمُكَ لِشَيْءٍ أَبَدًا.»

قريش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة:

لقد أفلق انتشار الإسلام المتزايد قريشاً، ودفعها إلى التفكير في حيلة، فاجتمع أشرفها وسادتها للتشاور مرة أخرى وقالوا:

لعل كفالة أبي طالب لمحمد هي التي تدفعه إلى الدفاع عنه وحمائته والوقوف إلى جانبه في دعوته، فكيف لو مشوا إليه بأجمل فتين مكة، وطلبوا منه أن يأخذه بدل «محمد» ويسلمه اليهم ليروا فيه رأيهم، ولهذا مشوا إلى أبي طالب بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له:

يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أنهد فتى في قريش وأجمله، فخذة فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً فهو لك، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا، الذي فرق جماعة قومك، وسفّه أحلامهم فقتله، فانما هو رجل برجل!!

فأجابهم أبوطالب وهو مستاء من هذه المساومة الظالمة:

«هذا والله لبئس ما تسوموني! أتعطوني إبنكم أغدوة لكم، واعطيكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً.»

فقال «المطعم بن عدي بن نوفل»: «والله يا أباطالب لقد أنصفك قومك، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً.

فأجابه أبوطالب قائلاً: «والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني، ومظاهرة القوم على فاصنع ما بدا لك.»⁽¹⁾

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٧ و ٦٨، السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٢٦٦ و ٢٦٧.

قريش تحاول تطميع رسول الله!

ولما علمت قريش بأنه لا يمكن ارضاء «أبي طالب» بخذلان ابن أخيه «محمد»، فهو وإن كان لا يتظاهر بالإسلام، إلا أنهم يكفون لابن أخيه، وُدّاً عميقاً، ومحبة كبرى من هنا قرروا بأن يتركوا مفاوضة، إلا أنهم فكروا في خطة أخرى وهي أن يحاولوا إنشاء النبي عن المضي في دعوته بتطميعة بالمناصب، والهدايا، والأموال والفتيات الجميلات، ولهذا مشوا إلى بيت «أبي طالب» ودخلوا عليه ومحمد جالس إلى جنبه فتكلموا متكلمهم وقال: يا محمد انا بعثنا اليك إنكلمك، فانا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومك ما

ادخلت على قومه لقد شتمت الآباء، وعيبت الدين، وسببت الآلهة، وسفهت الاحلام، وفرقت الجماعة ولم يبق امر قبيح الا أتيته فيما بيننا وبينك فان كنت انما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون اكثر مالا، وان كنت انما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وان كان هذا الذي ياتيك تابعاً من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبعك.

فقال ابوطالب لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أي ابن أخي ما بال قومك يشكونك، يزعمون انك تشتم آلهتهم وتقول وتقول؟ فتكلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: يا عم أريدكم على كلمة واحدة يقولونها تدين لهم بها العرب وتؤدي اليهم بها العجم الجزية.

ففرعوا لكلمته، ولقوله فقال القوم كلمة واحدة: نعم وأبيك عشراً.

قالوا: فما هي، فقال ابوطالب: وأي كلمة هي يا ابن أخي؟

قال: «لا اله الا الله.»

فكان هذا الرد مفاجئة قوية لذلك الفريق الذي يأمل في صرف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن هدفه، ولهذا قاموا فزعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون): **أَجْعَلُ الآلهةَ إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب.** (1)

- [السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٠٣، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٦٥ و ٦٦.

(406)

نماذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين:

يوم صدع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بما أمر، وجهر بدعوته للناس وأيس سادة قريش من قبوله لأى اقتراح من إقترحاتهم بعد ما سمعوه يقول: «والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يُظهره الله أو أهلك دونه ما تركته» بدأ في الحقيقة واحداً من أشد فصول حياته، وأكثرها متاعب ومصاعب، لأن قريشاً كانت لا تزال إلى ذلك الوقت تراعي حرمة وتحترمه، وتسيطر على أعصابها، ولكنها عند ما فشلت في خطتها لجره إلى مساومتها اضطرت إلى تغيير نهجها وأسلوبها معه لتقف دون إنتشار دينه مهما كلف من الثمن مستفيدة في هذا السبيل من كل الوسائل الممكنة.

من هنا قرّر سادة قريش بالاجماع أن يتوسلوا بسلاح الاستهزاء والسخرية، والإيذاء والتهديد، بهدف صرفه عن المضى في

دعوته. (1)

ولا يخفى أن المصلح الذي يفكر في هداية العالم البشري كله يجب ان يتزود بقدر كبير من الصبر والتحمل، أمام جميع المشكلات والمتاعب، والمكاره والشدائد ليتغلب عليها شيئاً فشيئاً، كما كان دأب كل المصلحين الآخرين.

ونحن هنا نورد طرفاً من أذى قريش لرسول الله وأتباعه ليتضح مدى صبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وثباته، واستقامته على طريق الدعوة.

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتمتع - مضافاً إلى العامل الروحي والمعنوي الباطني الذي كان يساعده من الداخل أعني الإيمان والصبر والإستقامة والثبات - بعامل خارجي تولى حراسته وحمايته وذلك حماية بني هاشم، وعلى رأسهم أبوطالب له - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنه عند ما عرف «أبوطالب» بعزم قريش القاطع على إيذاء ابن أخيه (محمد) دعا بني هاشم عامة، وطلب منهم جميعاً حماية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - والقيام دونه، فلبوا نداء سيدهم، وأجابوه

- 1 راجع لمعرفة ابرز من كان يؤذي النبي والمسلمين المحبر: ص ١٥٧ و ١٦١ .

(407)

إلى ما دعاهم من حماية رسول الله وحراسته بعضٌ بدافع الايمان وآخر بدافع الرّحم، الأ «أبولهب» ورجلان آخران انضموا إلى اعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكن هذا السياج الدفاعي لم يقدر - مع ذلك - على صيانته - صلى الله عليه وآله وسلم - من بعض الحوادث المرّة، لأنّ قريشاً ألحقت به الأذى، وأنزلت به مكروهاً، كلما وجدته وحيداً بعيداً عن أعين حُماته.

وإليك فيما يأتي بعض النماذج من ذلك الأذى:

- [١] مرَّ «أبوجهل» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عند الصفا، فأذاه وشتمه ونال منه ببعض ما يُكره من العيب لدينه، والتضعيف لأمره، فلم يكلمه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومولاة لعبدالله بن جدعان في مسكن لها تسمع ذلك، ثم انصرف عنه، فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة، فجلس معهم، فلم يلبث «حمزة بن عبدالمطلب» رضي الله عنه أن أقبل متوشحاً قوسه راجعاً من قنص له، وكان صاحب قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل إلى أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمرّ على ناد من قريش إلا وقف وسلّم وتحدّث معهم، وكان أعز فتى في قريش، وأشدّ شكيمه.

فلما مرّ بالمولاة، وقد رجع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بيته قالت له: يا أبا عمارة (وتلك هي كنيته) لو رأيت ما لقي ابنُ أخيك محمدَ أنفأ من أبي الحكم بن هشام (وتعني أبا جهل): وجده هاهنا جالساً فأذاه وسبّه، وبلغ منه ما يُكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمدٌ - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فغضب «حمزة»، لذلك، فخرج يسعى ولم يقف على أحد مُعداً لأبي جهل إذا لقيه أن يوقع به.

فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً في القوم، فاقبل نحوه، حتّى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشقَّه شقّة منكّرة، ثم قال:

«أشمته وأنا على دينه أقول ما يقول. فردّ ذلك علىّ أن استطعت.»

فقامت رجالٌ من بني مخزوم إلى «حمزة» لينصروا «أباهل» فقال أبو جهل:

(408)

دعوا أبا عمارة فاني قد سببتُ ابن أخيه سباً قبيحاً.⁽¹⁾ وبهذا منع «أبو جهل» الذي كان ممن يدرك خطورة مثل هذه المواقف من وقوع شجار وقتال.

إنّ التاريخ الثابت والمسلم يشهد بأنّ وجودَ رجال ذوي بأس وقوة بين صفوف المسلمين مثل «حمزة» الذي أصبح في ما بعد من كبار قادة الإسلام، قد كان له أثرٌ كبيرٌ في حفظ الإسلام، والحفاظ على حياة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ودعم جماعة المسلمين، وتقوية جناحهم، فهذا ابن الأثير⁽²⁾ يقول عن حمزة: لما اسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد عزّ وامتنع فكفوا عما كانوا يتناولون منه.

من هنا أخذت قريش تفكّر في إعداد خطط أخرى لمواجهة قضية الإسلام والمسلمين، سنذكرها في المستقبل.

هذا ويرى بعضُ المؤرّخين مثل ابن كثير الشامي⁽³⁾ على أن رُود فعل إسلام «أبي بكر» و «عمر» واثرهما لم تكن بأقلّ من تأثير إسلام «حمزة»، وأنّ الدين قوى جانبه بإسلام هذين الرجلين، وكسبَ المسلمون بذلك القوة والحريّة في العمل والتحرك، والحقيقة انه لا شك في انه لكل فرد تأثيره في تقوية ودعم الإسلام، إلّا أنه لا يمكن - القول بحال بأن تأثير إسلام الشيخين كان يعدل تأثير إسلام «حمزة»، فإن «حمزة» ما ان سمع بأن قريشاً أساءت إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا وتوجه، من دون أن يُعزّج على أحد، إلى المسيء وانتقم منه في الحال أشدّ انتقام، ولم يجرؤ أحد على الوقوف في وجهه ومنع المسيء منه، ومن غضبه وانتقامه، بينما يكتب ابن هشام في سيرته عن «أبي بكر» امرأ يكشف عن أن «أبابكر» يوم دخل في صفوف المسلمين لم يكن قادراً على حماية نفسه، ولا على الدفاع عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - . واليك نصُّ الواقعة:

مرّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم على جماعة من قريش وهم جلوسٌ عند الحجر، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد، وأحاطوا به يقولون: أنت الذي تقول:

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٩١ و ٢٩٢، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧٢.

- 2 الكامل لابن الأثير: ج ٢، ص ٥٦.

- 3 البداية والنهاية: ج ٢، ص ٢٦ و ٣٢.

كذا و كذا، لما كان يقول من عيب ألتهم ودينهم فيقول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :نعم أنا الذي أقول ذلك، فأخذ رجلٌ منهم بمجمع ردائه (وهم يقصدون قتله) فقام «أبوبكر» دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً يقول ربِّي الله؟ فانصرفوا عنه (ولم يقتلوه لأمر رأوه)، فرجع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى منزله، ورجع «أبوبكر» يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه. (1)

إن هذه الرواية التاريخية إذا دلت على مشاعر الخليفة تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلا أنها تدل قبل أي شيء على عجزه وضعفه.

إنه يدلُّ على أنه لم يملك ذلك اليوم لا أية مقدرة بدنية وروحية، ولا أية مكانة اجتماعية تُرهَب، وحيث أن إلحاق الأذى بشخص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان ينطوي في نظر قريش ذلك على عواقب لا تحمد - لذلك تركوا رسول الله، وَوَجَّهُوا ضربتهم إلى رفيقه وصدعوا فرق رأسه.

ولو أنك قارنت بين هاتين الحادثتين وقايست بين موقف «حمزة» الشجاع وموقف الخليفة الأول هذا لاستطعت أن تقضي بسهولة بأن عزة الإسلام وقوة المسلمين، وتعزيز موقفهم، وخوف الكفار كان يعود إلى الإسلام أجمع واحد من دينك الرجلين؟

هذا وستقرأ في القريب العاجل كيفية إسلام «عمر». وسترى بأنَّ إسلامه - كإسلام صديقه - لم يزد هو الآخر من قدرة المسلمين الدفاعية، وأنهم بالتالي لم يعتزوا بإسلامه.

فيوم أسلم «عمر» كاد أن يُقتل لولا «العاص بن وائل السهمي» لأنه هو الذي خاطب الذين قصدوا قتل «عمر» قائلاً: رَجُلٌ اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون منه؟ أترون بني عدي بن كعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا، خلوا عن الرجل. (2)»

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٨٩ و ٢٩٠، وقد ذكر الطبري في تاريخه: ج ٢، ص ٧٢ قصة صدع رأس أبي بكر بالتفصيل فراجع.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٤٩.

إن هذه العبارة التي قالها «العاص» لانقاذ الخليفة الثاني من أيدي الذين اجتمعوا على قتله تفيد - بوضوح - أن الخوف من قبيلة «عمر» هو الذي كان وراء تركهم إياه وعدم قتله، وقد كان دفاغ القبائل عن أبنائها سنة فطرية وعادة متعارفة يومذاك وكان يتساوى فيها الكبير والصغير، والشريف والوضيع.

أجل إن بني هاشم هم كانوا - في الواقع - الحصن الحقيقي للمسلمين، وقد كان القسط الأكبر من هذا الأمر يتحملة «أبوطالب» وذووه، وإلا فإنّ الأشخاص الآخرين الذين كانوا ينضمّون إلى صفوف المسلمين لم يكن لديهم القدرة على الدفاع عن أنفسهم، فكيف بالدفاع عن الإسلام وجماعة المسلمين ليقال بأن المسلمين اعتزوا بهم؟

أبوجهل يكمن لرسول الله:

لقد أغضب تقدّم الإسلام المطرد قريشاً بشدة فلم يمرّ يوم دون أن يبلغهم نبأ عن انضمام واحد من أفراد قريش إلى صفوف المسلمين ولأجل هذا راح رجل الغضب والحنق على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يغلي في نفوسهم، فهذا فرعون مكة «أبوجهل قال لقريش في مجلس من مجالسهم: يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما ترون من عيب ديننا، وشتّم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وشتّم أهلنا، واني أعاهد الله لأجلسنّ له غداً بحجر ما أطيق حمله فإذا سجد في صلاته فضختُ به رأسه.

فلما كان من غد أخذ «أبوجهل» حجراً كما وصّف ثم جلس لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ينتظره، وغدا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على عادته ووقف للصلاة بين الركن اليمانيّ والحجر الأسود، وغدت تلك الجماعة من قريش فجلست في انديتها تنتظر ما أبوجهل فاعلّ، فلما سجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أحتمل «أبوجهل» الحجر، ثم أقبل نحوه، حتّى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقعاً لونه، مرّ عوباً وقذف الحجر من يده، فقامت إليه رجال قريش وقالوا له: مالك يا أبا الحكم؟ فقال بصوت ضعيف يطفح بالخوف والرعب: قمت إليه

(411)

لأفعل به ما قلت لكم البارحة فلما دنوتُ منه عرضَ لي دونه ما لا رأيتُ مثله حياتي، فتركتُه. (1)!!

إنه ليس من شك في أنّ قوة غيبية أدركت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأمر الله تعالى في تلك اللحظة، وصوّرت ذلك المنظر الرهيب وحفظت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كما وعده تعالى وعداً لا خلف فيه إذ قال: **إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ.** (2)

وهناك نماذج كثيرة من أذى قريش لشخص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سجّلها التاريخ في صفحاته، وقد عقد «ابن الأثير (3)» فصلاً خاصاً لهذا الموضوع ذكر فيه أسماء أعداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الألداء، في مكة، وبيّن أنواع ما كانوا يؤذون به النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وما قد مرّ ذكره في الصفحات السابقة ما هو إلا أمثلة على ذلك، فقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يواجه في كل يوم نوعاً خاصاً من الأذى، والمضايقة.

فقد رُوِيَ أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يطوف ذات يوم فشتّمه «عقبة بن أبي معيط» وألقى عمامته في عنقه، وجّره من المسجد، فأخذوه من يده، خوفاً من بني هاشم. (4)

أبولهب يؤذي رسول الله:

ولقد تعرّض رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأذى لا مثيل له من جانب عمه «أبي لهب» وزوجته «أم جميل» وقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يجاورهم، فلم يألوا جهداً في إزعاجه وإيذائه فكم من مرّة ومرة ألقيا الرماد

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٩٨ و ٢٩٩.
- 2 الحجر: ٩٥.
- 3 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٧ كما وعقد المجلسي رحمه الله في البحار: ج ١٨ باباً خاصاً بعنوان: «باب المبعث وأظهار الدعوة ومالقي صلى الله عليه وآله من القوم» راجع من صفحة ١٤٨ إلى صفحة ٢٤٣.
- 4 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٩٣ نظيره.

(412)

والتراب على رأسه الشريف وثيابه. وكم من مرّة نشرت أم جميل الشوك على طريقه، أو جمعته باب بيته لتؤذيه عند الخروج. ولا شك ان معارضة انساب النبي واقربائه لدعوته المباركة، واذاؤهم اياه كان اكثر ايلاماً لنفسه الشريفة، واشد وقعاً عليها، حتّى اننا نجد القرآن يخص أبا لهب باللعن ويسميه بصورة خاصة مما يكشف عن هذه الحقيقة إذ يقول:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ. مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ. سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ. وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ. فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ.)⁽¹⁾

صبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واستقامته:

ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يواجه كل ذلك الأذى وماشابهه من التحججات التي سنشير إليها بصبر عظيم، وثبات تتعجب منه الجبال السماء، وذلك او لا إيماناً منه برسالته.

إيذاء المسلمين وتعذيبهم!

يرجع تقدّم الإسلام في مطلع عهد الرسالة إلى عوامل منها: ثبات رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه، وثبات أتباعه وأنصاره.

ولقد تعرّفنا - في ما سبق - على أمثلة ونماذج من ثبات قائد الإسلام الاكبر وصبره، واستقامته في ما لقي من أذى ومضايقة.

على أن ثبات أنصاره واتباعه الذين آمنوا في مكة (مركز الحكومة الوثنية آنذاك) هو الآخر ممّا يدعو إلى الإعجاب ويستحق الاحترام. وسنذكر صمودهم وثباتهم في حوادث ما بعد الهجرة في محله.

وأما هنا فنسلط الضوء على حياة عدد من أتباع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - القدامى الذين تحملوا أشد أنواع العذاب وكانوا يعيشون في المحيط المكي

- [المسد: ١ - ٥].

(413)

حيث لم يكن ملجأ لهم يلجؤون إليه وهاجروا منه لأغراض الدعوة والتبليغ بعد أن تحملوا شيئاً كثيراً من الإيذاء والتعذيب على أيدي المشركين والوثنيين القساء.

-1 بلال الحبشي:

كان أبواهُ مَمَّنَ أسروا في الجاهلية وحيء بهم من الحبشة إلى جزيرة العرب ثم إلى مكة.

وأما بلال الذي أصبح في ما بعد مؤذن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد كان غلاماً لـ «أمية بن خلف» الذي كان من أشد أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وحيث أنّ عشيرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تولّت الدفاع عنه - صلى الله عليه وآله وسلم - وحمائمه ولم يمكن لأمية إلحاق الأذى برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمد إلى تعذيب غلامه بلال الذي أسلم، أمام الناس، بأشد أنواع الأذى والتعذيب إنتقاماً، وتشفيماً.

فقد كان يطرح بلالا عارياً على الأحجار والصخور الملتهبة في الهاجرة، ويضع صخرة على صدره ثم يقول له: لا تزال هكذا حتى

تموت أو تكفر بمحمد، وتعد اللات والعزى، فيقول وهو في ذلك البلاء والمحنة الشديدة: **أَحَدُ أَحَدٍ. (1)**

ولقد أثار ثبات هذا الغلام الأسود وجلدة وصبره على أذى سيده، إعجاب الآخرين، حتى أن «ورقة بن نوفل» مرّ عليه وهو يعذب بذلك وهو يقول: **أَحَدُ أَحَدٍ، اقبل على «أمية» ومن يصنع به ذلك من «بني جمح» فيقول: احلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه**

حناناً (أي لأجعلن قبره متبركاً ومزاراً). (2)

وربما زاد «أمية» من تعذيبه لبلال فربط حبلاً بعنقه وترك الصبيان يديرون به في الازقة والسكك. (3)

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣١٧ و ٣١٨.

- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣١٨.

- 3 الطبقات الكبرى لابن سعد: ج ٣، ص ٢٣٣.

وقد أسير «أمية» وابنه في معركة «بدر» وكانا أول من أسيرا من المشركين، ولم يوافق بعض المسلمين على قتلها ولكن بلالا قال: «رأس الكفر أمية بن خلف لا نجوت إن نجا». وأدى أصرا بلال على قتلها إلى قتل أمية وابنه جزاء أعمالهما الظالمة.

-2 آل ياسر رمز الصمود والمقاومة!

كان «عمار» ووالداه من السابقين إلى الإسلام فهم أسلموا يوم كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتقي بأصحابه ويدعو إلى الإسلام في بيت «الارقم بن أبي الأرقم»، وعند ما عرف المشركون بانضمامهم إلى صفوف المسلمين عمدوا إلى إيذائهم وتعذيبهم ولم يألوا جهداً في ذلك أبداً.

فقد كان المشركون يخرجون «عماراً» واباه «ياسر» وأمه «سميه» في وقت الظهيرة إلى رمضاء مكة ليقتضوا ساعات طويلة تحت أشعة الشمس الحارقة، وفوق الرمال الملتهبة والصخور المتقدة كأنها الجمرات.

وقد تكرّر هذا العذاب مرّات عديدة حتى أودى بحياة «ياسر» ففضى نحيبه على تلك الحال.

وقد خاشنت زوجته «سُميّة» أبا جهل وكلمته في زوجها بغليظ القول، فطعنها اللعين برمح في قلبها فقضت - هي الأخرى - نحبها، وكانا أول شهيدين في الإسلام.⁽¹⁾

وقد ألم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما شاهده من حالهما وهما يعذبان بأشد أنواع العذاب فقال لهما ولولدهما «عمار» وهو يصبرهم، والدموع تنحدر على خديه:

«صَبْرًا آلَ يَاسِرٍ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ.»⁽²⁾

- 1 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٤١ والسيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة.
- 2 السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٠٠، السيرة الدحلانية بهامش السيرة الحلبية: ج ١، ص ٢٣٨ و ٢٣٩.

ويعد أن قضى والدا «عمار» نحبهما تحت التعذيب بالغ المشركون القساة في تعذيب «عمار» وإيذائه والتنكيل به، وأخذوا يعذبونه على نحو ما كانوا يعذبون به بلالا، وهم يقصدون قتله، وإحاقه بأبويه!! أو يتبرأ من دين النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فاضطر إلى أن يعطيهم ما يريدون ويظهر الرجوع عن الإسلام، إبقاء على نفسه، وتقية منهم فتركوه، وانصرفوا عن قتله، ولكنه سرعان ما ندم على فعله من التظاهر بتبرك الإسلام وتآلم من ذلك فجاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يبكي، فقال له

النبي: كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئن بالايمن قال: ان عادوا فعد، فنزلت الآية التالية في ايمان عمّار: **إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكُذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ * مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مِنْ أَكْرَهٍ وَ قَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ.** (1)(2)

هذا وروي أنّ أبا جهل حينما قصد تعذيب «آل ياسر» وكانوا أضعف من بمكة أمر بسوط ونار ثم سحبوا عماراً وأبويه على الأرض، فكان يكوئهم بطرف السيف والخنجر المحمى بالنار المشتعلة ابدانهم، ويضربهم بالسوط ضرباً شديداً.

وقد تكرر هذا العمل القاسي كثيراً حتى استشهد «ياسر» وزوجته «سُمَيَّة» على أثر ذلك التعذيب المرير، ولكن دون أن يفتنا حتى النفس الأخير عن مدح رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والإشادة بدينه.

ولقد أثار هذا المنظر المؤلم مشاعر فتيان من قريش فأقدموا - رغم عدائهم للإسلام ومشاركتهم لغيرهم من المشركين في بغض الرسول - على تخليص «عمار» الجريح المنهك عذاباً من برائن «أبي جهل» ليتمكن من مواصلة أبويه الشهيدين.

-3- عبد الله بن مسعود:

تتوارى المسلمون في ما بينهم في مقرهم السري في من يجهر بالقرآن على مسامع قريش، في المسجد الحرام لأنها لم تسمع منه شيئاً إذ قالوا: والله ما سمعنا قريشاً

- 1 النحل: ١٠٥ و ١٠٦ .
- 2 الدر المنثور: ج ٤، ص ١٣٢ عند تفسير الآيتين المذكورتين.

(416)

هذا القرآن يجهر لها قط فمَنْ رَجُلٌ يُسْمِعُهُمْ؟

فأبدي «ابن مسعود» استعدادَه للقيام بهذه العملية الجريئة، وتلاوة القرآن على مسامع قريش في المسجد الحرام بصوت عال.

فقالوا: إنا نخشاهم عليك، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه.

قال: دعوني فإن الله سيمنعني.

ثم غدا «ابن مسعود» حتى أتى المقام في وقت الضحى وقريش في انديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: «بسم الله الرحمن الرحيم» رافعاً بها صوته، «الرحمان علم القرآن» وهكذا استمر يقرأ بقية آيات تلك السورة المباركة.

فارعبت عبارات القرآن الفصيحة القوية قلوب سراه قريش؁ ولكي يمنعوا من تأثير هذا النداء الالهى العظيم قاموا إليه جميعاً وجعلوا يضرّبونه في وجهه؁ وجعل هو يقرأ حتى بلّغ منها ماشاء الله أن يبلغ ثم عاد إلى اصحابه وقد أذمى وجهه وجسمه؁ وهو مسرورٌ لإسماع قريش كتاب الله تعالى وآياته المباركة. (1)

إنّ الذين صمّدوا في أشد الأيام وأصعبها في مطلع عهد البعثة من المسلمين الأوائل لا شك أكثر ممّن ذكرنا أسماءهم إلا أننا اكتفينا بهذا القدر رعاية للاختصار.

4-أبوذر: أول المجاهرين بالإسلام

كان «أبوذر» رابع أو خامس من أسلم(2)؁ وعلى هذا فهو من الذين أسلموا في الأيام الأولى من بزوغ شمس الإسلام وطلوع فجره؁ فإذن هو من السابقين إلى الإسلام.

وقد صرح القرآن الكريم بأنّ للذين سبقوا إلى الإيمان برسول الله في بدء

- [السيرة النبوية: ج ١؁ ص ٣١٤.
- 2أسد الغابة: ج ١؁ ص ٣٠١؁ الإصابة: ج ٤؁ ص ٦٤؁ الإستيعاب: ج ٤؁ ص ٦٢.

(417)

بعثته وبالتالي فإنّ للسابقين عندالله تعالى مكانة عظيمة؁ ومقاماً لا يضاهاى إذ قال تعالى:

(السابقُونَ السابقُونَ. أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ. (1)

وقال تعالى فيهم أيضاً.

(والسابقُونَ الأوَّلُونَ مِنَ المهاجرينَ وَ الأنصارِ وَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بإحسانِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَ رَضُوا عَنْهُ وَ أَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الأنهارُ خالدينَ فِيها أبداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. (2)

وقال تعالى كذلك في من آمن قبل فتح مكة وفضلهم؁ ومكانتهم المعنوية المتفوقة على من أسلم بعداً إعتزاز الإسلام؁ واشتداد أمره؁ وقيام دولته يعني أنّهم ليسوا سواء.

(لا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَ قَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَ قَاتَلُوا. (3)...

أجل هذه هي مكانة السابقين في الإسلام وكان «أبوذر» منهم.

هذا مضافاً إلى أنّه يُعدُّ أول من نادى بالإسلام على رؤوس الأشهاد وفي الملأ من قريش.

فيوم اسلم «أبوذر» كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يدعو الناس إلى الإسلام سرّاً، ولم تهيأ بعدُ ظروفُ الجَهْر بالدعوة إلى هذا الدين، فإنَّ أتباع الإسلام والمؤمنين به لم يتجاوز عددهم في ذلك اليوم عددَ الأصابع هم: النبيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وخمسة ممن آمنوا به، وقبلوا دعوته، ومع ملاحظة هذه الإعتبارات والظروف لم يكن بدّ حسب الظاهر - من أن يُخفي «أبوذر» إسلامه، ويعودَ إلى قبيلته من دون أن يعرف به أحدٌ في مكة.

ولكنَّ روحَ «أبي ذر» الطافحة بالإيمان والحماس أبت ذلك، وكأنه قد خُلِقَ لينهض في كل زمان ومكان ضدَّ الظلم والطغيان، ويرفع عقيدته في وجه

-
- 1 الواقعة: ١٠ - ١١.
 - 2 التوبة: ١٠٠.
 - 3 الحديد: ١٠.

(418)

الباطل وأهله، ويكافح الانحراف والاعوجاج أيّاً كان مصدره، وصاحبه. وأئُّ باطل أكبر من أن يُطأطئء الناسُ أمامَ أصنام مصنوعة من الحجر، ويخضعوا أمام أوثان منحوتة من الخشب لا تضرُّ ولا تنفع، ولا تعطي ولا تمنع، ويسجدوا لها ويتخذوها آلهة دون الله الخالق الكبير المتعال؟؟

إنه ليس في وسع «أبي ذر» أن يتحمّل هذا المشهد البغيض المقرء!!

من هنا قال لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد أن مكث في مكة قليلاً وقرأ شيئاً من القرآن: يا نبيّ الله ما تأمرني؟

قال: ترجعْ إلى قومك حتّى يبلغك أمري.

فقال له: والذي نفسي بيده لا أرجع حتّى أصرخ بالإسلام في المسجد.

قال: اني اخاف عليك أن تقتل.

قال: لا بد منه وإن قُتِلْتُ.

ثم دخل المسجد فنادى بأعلى صوته: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنَّ محمّداً عبدهُ ورسوله. (1)

إن التاريخ الإسلامي يشهد بأن هذا النداء كان أول نداء تحدّى جبروت قريش وشركها، وقد اطلقتها حنجرة رجل غريب لا حامى له في مكة ولا نصير، ولا قوم ولا قريب.

وقد وقع ما توقَّعه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فما أن دوى صوت ابي ذر في المسجد حتَّى قام إليه رجال قريش، وهاجموا عليه من كل جانب وضربوه بشدة حتَّى صرع فأناه العباس بن عبدالمطلب فأكبَّ عليه في محاولة لانقاذه من الموت - بطريقة لطيفة - وقال: قتلتم الرجل يا معشر قريش! انتم تجار وطريقكم على غفار، فتريدون ان يقطع الطريق، فامسكوا عنه. ونجحت محاولة «العباس» الانقاذية، وكفَّت قريش عن ابي ذر.

- [حلية الأولياء: ج ١، ص ١٥٨ و ١٥٩، الطبقات الكبرى: ج ٤، ص ٢٢٥، الاستيعاب: ج ٤، ص ٦٣، الاصابة: ج ٤، ص ٦٤، الدرجات الرفيعة: ص ٢٢٨].

(419)

ولكن أبانر الشاب الشجاع، والطافح بالحيوية والحماس عاد اليوم الثاني فصنع مثل ما صنعه في اليوم الاول فضربوه حتَّى صرع، فأكب عليه العباس، وقال لهم مثل ما قال في أول مرة فأمسكوا عنه.

ولا شك في انه لو لم يكن العباس لما نجى أبونذر من مخالف المشركين في اغلب الظن، ولكن أبانر لم يكن بذلك الرجل الذي يترجع عن هدفه بسرعة، ولهذا بدأ جهاده من جديد.

ففي يوم رأى امرأة تطوف بالبيت، وتدعو ساف و نائلة (وهما صنمان لقريش) وتسالهما ان يقضيا لها حاجاتها، فانزعج أبونذر من جهل تلك المرأة، ولكي يفهمها بانها تدعو صنمين لا يضران ولا ينفعان بل ولا يشعران قال: أنكحي أحدهما الآخر. فغضبت المرأة لقول ابي ذر في الصنمين، وتعلقت به وقالت: انت صابئ، فجاء فتية من قريش فضربوه وجاء ناس من بني بكر فانقذوه منهم. (١)

قبيلة غفار تعتنق الإسلام:

لقد أدرك رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - قابليات تلميذه وناصره الجديد، وصلابته الخارقة في مكافحة الباطل، ولكن حيث ان الوقت لم يكن يحنُ بعد للدخول في مواجهة ساخنة مع المشركين لهذا أمره رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يلحق بقومه، ويدعوهم إلى الإسلام، قائلاً له: «الحق بقومك فاذا بلغك ظهوري فأتني. »

فعاد ابونذر إلى قومه، وأخذ يدعوهم إلى الإسلام ويكلمهم عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويدعوهم إلى نبذ الاصنام وعبادة الله الواحد، والتخلق بالاخلاق الرغيبية.

فاسلم أبواه، أولاً، ثم اسلم نصف رجال قبيلته «غفار» ثم اختار البقية الإسلام بعد هجرة النبي إلى المدينة، ثم تبعها قبيلة «أسلم» حيث وفدوا على

(420)

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واعتنقوا الإسلام.

ثم التحق ابوذر بعد معركة بدر وأحد برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في المدينة وأقام فيها. (1)

وربما كان إيذاء المشركين للمسلمين برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتخذ طابع التهديد والترهيب وممارسة الضغط النفسي والاقتصادي والاجتماعي.

فقد كان ابوجهل إذا سمع بالرجل قد اسلم له شرف ومنعة أنبه وأخزاه، وقال له: تركت دين أبيك وهو خير منك، لتسبهن حلمك، ولنفلن رأيك، ولنضعن شرفك.

وإن كان تاجراً قال له: لنكسرن تجارتك، ولنهلكن مالك.

وإن كان ضعيفاً ضربته، وأغرى به. (2)

وروي أيضاً أن «خبّاب بن الارت» صاحب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قيناً بمكة يعمل السيوف وكان قد باع من «العاص بن وائل» سيوفاً صنعها له حتى كان له عليه مال، فجاءه يتقاضاه، فقال يا خبّاب: أليس يزعم «محمّد» صاحبكم هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب وفضة أو ثياب أو خدم، قال خبّاب: بلى، قال: فأنظرنني إلى يوم القيامة يا خبّاب حتى أرجع إلى تلك الدار، فأقضيك هنالك حقك فوالله لا تكون وصاحبك يا خبّاب اشتر عند الله مني. (3)!!

أعداء النبي الأعداء:

إن للتعرف على أعداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخصومه الأعداء، ومواقفهم دوراً هاماً في تحليل جملة من حوادث التاريخ الإسلامي التي وقعت

- [الطبقات الكبرى: ج ٤، ص ٢٢١ و ٢٢٢ و ٢٢٦، الدرجات الرفيعة: ص ٢٢٥ و ٢٢٦ و ص ٢٢٩ و ٢٣٠.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٢٠.
- 3السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٧.

(421)

بعد الهجرة النبوية.

ونحن نكتفي هنا بادراج اسماء طائفة منهم ونذكر شيئاً من خصوصياتهم.

« 1- أبولهب»: عم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وقد كان جاراً له - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو الذي لم يفنألحظة واحدة عن تكذيب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وايداء المسلمين.

2- «الاسود بن عبد يغوث» وكان أحد المستهزئين وكان إذا وجد مسلماً فقيراً لا يحميه أحد قال مستهزئاً: هؤلاء ملوك الأرض الذين يرثون ملك كسرى. (1)!!

ولم يمهله أجله ليرى بأمر عينيه كيف ورث المسلمون أرض كسرى وقيصر، ووطأوا عرشهما.

3- «الوليد بن المغيرة» شيخ قريش وحكيمها الذي كان يملك ثروة هائلة، وسوف نتحدث عنه وعن موقفه من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الفصل القادم.

4- «أمية» و «أبي» ابنا خلف، وقد مشى «أبي» هذا بعظم رميم إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم ففتته في يده ثم نفخه نحو النبي وقال: أتزعم أن ربك يحيي هذا بعد ماترى (أو بعد ما رم)؟ فنزل قول الله تعالى: **قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ.** (2)

وقد قتل ابنا خلف هذان في بدر.

5- «أبو الحكم بن هشام» الذي سماه المسلمون لعناده وتعصبه الجاهل ضد الإسلام بأبي جهل، وقد قتل هو الآخر في بدر أيضاً.

6- «العاص بن وائل» وهو والد «عمر بن العاص»، وهو الذي وصف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالأبتر.

- 1 السيرة الحلبية: ج 1، ص 318.
- 2 بحار الأنوار: ج 18، ص 202، السيرة النبوية: ج 1، ص 361 و 362.

« 7- عقبة بن أبي معيط» الذي كان من ألد أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأشد خصومه بغضاً له - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكان لا يألو جهداً في مضايقة المسلمين ولا يترك فرصة تمرّ دون إيذائهم. (1)!

هؤلاء هم بعض أعداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المبالغين في معاداته، وهناك غيرهم كأبي سفيان ممن ذكر المؤرخون خصوصياتهم كاملة في مؤلفاتهم، وقد أعرضنا عن إدراجهم بأجمعهم هنا رعاية للاختصار.

عمر بن الخطاب يعتنق الإسلام:

لقد كان إسلام كل واحد من الذين أجابوا دعوة الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - نابعاً من سبب معيّن.

فربّما أدّت حادثة صغيرة إلى أن يعتنق فردٌ أو فريق الإسلام، وينضمّوا إلى صفوف المسلمين.

وقد اتّسم السبب الذي آل إلى إسلام عمر - من بين جميع تلكم الاسباب والعلل - بطرافة تقتضي التوقف عنده في هذه الدراسة التاريخية التحليلية.

على أن التسلسل التاريخي، والتنظيم الوقائي لاحداث الإسلام وان كان يقتضي منا ان نأتي على ذكر هذه الحادثة بعد هجرة صحابة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الحبشة، إلا أن الحديث حيث دار هنا حول صحابة النبي وكيفية اسلامهم ومواقفهم ناسب أن نشير هنا إلى كيفية إسلام الخليفة الثاني.

يقول ابن هشام: كان اسلام عمر - في ما بلغني - أن أخته بنت الخطاب وكانت عند «سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل» وكانت قد أسلمت وأسلم بعلمها «سعيد بن زيد»، وهما مستخفيان باسلامهما من عمر (وهؤلاء هم كل من أسلم من آل الخطاب) وكان خطاب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يُقرئها القرآن.

- [الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٤٧ و ٥١، وراجع أيضاً أسد الغابة، والاصابة والاستيعاب وغيرها.

(423)

وكان «عمر» الذي كانت بينه وبين المسلمين علاقات جداً سيئة⁽¹⁾ قد أزعجه ما أصاب المجتمع المكي من تشتت وفرقة، وما لحق بقريش من المتاعب أثر ظهور الإسلام، من هنا عزم على أن يقضي على علة هذا الأمر باغتيال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والفتك به.

فخرج يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ورهطاً من أصحابه وقد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، ومع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عمّه «حمزة» بن عبدالمطلب و «ابوبكر» و «علي بن ابي طالب» في رجال من المسلمين يحفظونه ويحرسونه.

يقول «نعيم بن عبدالله» وقد كان صديقاً حميماً لعمر: لقيت عمراً وهو متوشح سيفاً ويريد مكاناً فقلت له: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً هذا الصابىء الذي فرّق في أمر قریش، وسقّه أحلامها وعاب دينها، وسبّ آلهتها، فأقتله.

فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

قال: وأي أهل بيتي؟

قال: خنتك وابن عمك «سعيد بن زيد» واختك «فاطمة بنت الخطاب» فقد والله أسلما، وتابعا محمداً على دينه فعليك بهما.

فأغضب هذا النبأ عمر بشدة فانصرف عن الهدف الذي كان يرمي إليه وعاد من توه إلى بيت أخته، فدخل على أخته وختته وعندهما «خباب بن الأرت» معه صحيفة فيها سورة «طه» يقرئهما إياها، فلما سمعوا حس «عمر» تغيب «خباب» في مخدع لهم، أوفي بعض البيت، واخفت «فاطمة بنت

- [راجع السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٤٢ - ٣٤٦.

(424)

الخطاب» الصحيفة، وكان «عمر» قد سمع حين دنا إلى البيت قراءة «خباب» عليهما، فلما دخل قال: «ما هذه الهيمنة (1) التي سمعت؟

قالا له: ما سمعت شيئاً.

قال: بلى والله، لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه.

وبطش بختته «سعيد بن زيد» فقامت إليه اخته «فاطمة بنت الخطاب» لتكفّه عن زوجها فضرِبها فشجّها.

فلما فعل ذلك قالت له اخته وختته: نعم قد اسلمنا وأمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

فلما رأى «عمر» ما بأخته من الدّم ندّم على ما صنع، فارعوى ورجع، وقال لأخته: اعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرؤون أنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمداً؟

فلما قال ذلك قالت له اخته: إننا نخشاك عليها. قال: لا تخافي وحلف لها بالهتة ليردّتها إذا قرأها، إليها.

فلما قال ذلك طمعت في اسلامه، فقالت: يا أخي، إنك نجس على شركك وأنه لا يمسه إلا الطاهر، فقام «عمر» فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها آيات من سورة «طه» هي:

(طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلاً ممن خلق الأرض و السماوات العلى * الرحمن على العرش
أستوى * له ما في السماوات و ما في الأرض و ما بينهما و ما تحت الثرى * وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر و أخفى. (2))

ولقد تركت هذه الآيات المحكمة الفصيحة البليغة تأثيراً شديداً في نفس عمر فقال: ما احسن هذا الكلام؟

وقرر الرجل، الذي كان قبل ثوان عدو الإسلام الأول، أن يغيّر موقفه،

- [الهيمنة صوت كلام لا يفهم.
- 2طه: ١ - ٨.

(425)

فتوجه من توه إلى البيت الذي ذكر له أنّ فيه رسول - صلى الله عليه وآله وسلم - وجماعة من أصحابه وهو متوشح سيفه، فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فنظر من خلل الباب فرأه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو فزع وأخبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بما رأى، فقال حمزة: فائذن له، فان جاء يريد خيراً بذلناه له، وإن كان يريد شراً قتلناه بسيفه.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إئذن له، فأذن له الرجل، ونهض إليه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتى لقيه في الحجرة، فأخذ حجزته (وهو موضع شد الإزار) أو بمجمع ردائه ثم جبّده جبّدةً شديدة، وقال: ما جاء بك يابن الخطاب فولله ما أرى تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة!؟

فقال عمر: يا رسول الله جئتك لاؤمن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله.

وهكذا اسلم «عمر» عند رسول الله وأصحابه وانضوى إلى صفوف المسلمين.

ثم ان ابن هشام روى رواية أخرى في كيفية اسلام عمر من أراد الوقوف عليها راجعها في السيرة النبوية. (1)

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٤٣ - ٣٤٦.

(426)

(427)

١٦ رأي قريش في القرآن

ان البحث حول حقيقة الاعجاز القرآني أمرٌ خارج عن اطار هدفنا في هذا الكتاب فذلك متروكٌ إلى الكتب الإعتقادية والكلامية. ولكن الأبحاث التاريخية تهدينا إلى أن القرآن الكريم كان من أكبر وأقوى اسلحة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - بحيث خضع أمام فصاحته البالغة وحلاوة كلماته وقوة آياته، وعباراته، اساتذة الفصاحة والبلاغة وأمراء البيان والكلام، وعمالقة الكتابة والخطابة، واعترفوا برمتهم، وقضتهم وقضيتهم بأن القرآن الذي جاء به محمدٌ يحتل أعلى مكان في الفصاحة والبلاغة، وأن مثل هذا الحديث لم يعرفه البشر ولم يعهد له التاريخ الانساني نظيراً.

فلقد كانت جاذبيّة «القرآن الكريم» وتأثير حديثه بحيث ترتعد عند استماع آياته فرائص أعدى أعدائه، وربما انهارت قواه، بقي مدة طويلة، لا يقوى على جراك، ولا يملك فعل شيء.

وفيما يلي نذكر بعض النماذج في هذا المجال:

حُكْمُ الْوَلِيدِ فِي الْقُرْآنِ:

كان «الوليد بن المغيرة» ممن يرجع إليه العربُ لحل الكثير من مشاكلها ،

(428)

وكان داسين، وثروة كبيرة فيهم.

وعندما واجهت قريش مشكلة ظهور الإسلام وانتشاره في القبائل مشى فريقٌ منهم إلى الوليد يلتمسون منه حلاً لهذا الأمر الذي بات يهدد كيان الزعامة المكيّة الجاهلية، وطلبوا منه أن يبين رأيه في القرآن الكريم وقالوا: هل هو سحر أم كهانة أم حديث قد حاكه بنفسه.

فاستنظرهم «الوليد» ليعطي رأيه فيه بعد أن يسمع شيئاً من القرآن، فأتى إلى الحجر حيث كان يجلس النبي، وابتلو القرآن، فقال: يا محمد أنشدني شعرك.

فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ما هو بشعر، ولكنّه كلام الله الذي به بعث انبياءه ورسله.

فقال: أنلّ علىّ منه، فقرأ عليه رسول الله:

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ.»

فلما سمع: الرحمان، استهزأ فقال: تدعو إلى رجل باليمامة يسمى بالرحمان؟

قال: لا، ولكني أدعو إلى الله وهو الرحمان الرحيم ثم افتتح سورة «حم السجدة»، فلما بلغ إلى قوله تعالى:

(فَأَنْعَزُوا فَأَنْ أُنذِرُكُمْ صَاعِقَةً مِثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ.)

وسمعه الوليد، فاقشعر جلده، وقامت كل شعرة في راسه ولحيته، ثم قام ومضى إلى بيته ولم يرجع إلى قريش.

فقال قريش: يا ابا الحكم صبا ابو عبد شمس إلى دين محمّد، أما تراه لم يرجع الينا وقد قيل قوله، ومضى إلى منزله.

فاغتمت قريش من ذلك غماً شديداً وغدا عليه ابوجهل فقال: يا عم نكست رؤوسنا وفضحتنا.

قال: وما ذاك يا ابن أخي؟

قال: صبوت إلى دين محمّد.

قال: ما صبوت واني على دين قومي وأبائي، ولكني سمعت كلاماً صعباً

(429)

تقشعر منه الجلود فقال أبوجهل: أشعر هو؟

قال: ما هو بشعر.

قال: فخطب هي؟

قال: لا وان الخطب كلام متصل، وهذا كلام منثور، لا يشبه بعضه بعضاً، له طلاوة.

قال: فكأنه هي؟

قال: لا.

قال: فما هو؟

قال: دعني افكر فيه.

فلما كان من الغد، قالوا: يا ابا عبد شمس ما تقول؟ قال: قولوا: هو سحر فانه أخذ بقلوب الناس فأنزل الله سبحانه فيه:

(ذُرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً * وَبَيْنَ شُهُوداً) (إلى قوله): عَلَيْهَا تِسْعَةَ عَشَرَ. (1)(2)

* * *

نموذج آخر:

كان «عتبة بن ربيعة» من كبراء قريش واشرافها، ويوم أسلم «حمزة» وأصبح أصحاب رسول الله يزيدون ويكثران اغتمت قريش كلها، وخشي زعماء المشركين ان ينتشر الإسلام اكثر من هذا فقال عتبة وهو جالس في نادي قريش يوماً، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم إلى «محمّد» فالكلمه وأعرض عليه أموراً لعلّه يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء ويكف عنا؟

- [المدرّج: ١١ - ٣٠].
- 2بحار الأنوار: ج ١٧، ص ٢١١ و ٢١٢، إعلام الوري بأعلام الوري: ص ٤١ و ٤٢.

(430)

فقالوا: بلى يا أبا الوليد قم إليه فكلّمه.

فقام إليه «عتبة» حتّى جلس إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقال: يابن أخي إنك منّا حيث ما قد علمت من الشرف في العشيرة والمكان في النسب، وانك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفّهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم، ودينهم، وكفّرت به من مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنتظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قل يا أبا الوليد اسمع.

قال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جنت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتّى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتّى لانقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً (وهو ما يتراءى للناس من الجنّ) تراه لا تستطيع ردهً عن نفسك طلبنا لك الطبّ، وبدّلنا فيه أموالنا حتّى نُبرّك منه فإنه ربّما غلب التابع على الرجل حتّى يداوي منه، حتّى إذا فرغ «عتبة»، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يستمع منه قال: أقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم قال: فاسمع منّي؛ قال: إفعل، قال:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ. بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ. وَ قَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ. (1))

ثم مضى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيها يقرؤها عليه، فلما سمعها منه «عتبة» أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يسمع منه وبقي على هذه مدة من الزمن صامتاً وكأنه قد سلب قدرة النطق، ثم انتهى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى السجدة فسجد ثم قال:

«قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك.»

- [فصلت: ١ - ٥.

(431)

فقام «عتبة» إلى أصحابه وقد تغيرت ملامحه فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به!! فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟

قال: ورائي اني قد سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا بالسحر، ولا بالكهانة، يا معشر قريش، أطيعوني واجعلوها بي، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله هذا الذي سمعت منه نبأ عظيم، فان تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وان يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به.

فانزعجت قريش من مقالة «عتبة» هذا وسخرت به وقالت: سحرك والله يا ابا الوليد بلسانه!!

قال: هذا رأيي، فاصنعوا ما بدا لكم. (1)

هذان نموذجان من رأي كبار فصحاء العرب في العهد الجاهلي، في القرآن الكريم.

على أن هناك أمثلة ونماذج أخرى كثيرة في هذا المجال.

تحججات قريش العجيبة:

اجتمع «عتبة بن ربيعة»، و «شيبه بن ربيعة» و «أبوسفيان بن حرب» و «النضر بن الحارث»، و «أبو البخترى»، و «الوليد بن المغيرة»، و «ابوجهل» و «العاص بن وائل» وغيرهم بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة، ثم قال بعضهم لبعض: إبعثوا إلى

«محمّد» فكلموه، وخاصموه حتّى تعذروا فيه، فبعثوا إليه؛ فجاءهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سريعاً وهو يظن أن قد بدا لهم فيما كلمهم فيه بدء وانهم قد غيّروا مواقفهم، وكان يحبّ رشدهم وهدايتهم حتّى جلس إليهم.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٩٣ و ٢٩٤.

(432)

فقالوا له: يا محمّد إنّنا قد بعثنا إليك لنكلمك، وأنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه مثل ما أدخلت على قومك لقد شتمت الآباء، وعبت الدين، وشتمت الآلهة... ومضوا يعددون أموراً من هذا القبيل ثم اقترحوا عليه أموراً نكرها الله تعالى بتمامها في الآية ٩٠ إلى ٩٣ من سورة الإسراء حيث يقول حاكياً عن لسانهم:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى

-[تفجر لنا من الأرض ينبوعاً.

-2 أو تكون لك جنة من نخيل و عنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً.

-3 أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً.

-4 أو تأتي بالله و الملائكة قبيلاً.

-5 أو يكون لك بيت من زخرف.

-6 أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرؤيتك حتّى تنزل علينا كتاباً نقرؤه!!)

* * *

وحيث أنّ مضمون هذه الآيات هو عدم تلبية النبي لمطالب قريش حيث قال: **قُلْ سُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا** (قد نذر به المستشرقون للايقاع بالرسالة المحمّدية لذلك نعد هنا إلى توضيح مفاد هذه الآيات والعلل المنطقية لعدم تلبية النبي مطالب قريش ومقترحاتهم.

الجواب: إنّ الأنبياء لا يأتون بالمعجز في كل ظرف و زمان، فإن للاعجاز شروطاً خاصة لم تتوفر في هذه الاقتراحات، وهذه الشروط هي:

أولاً: أن لا تكون المعجزة من الأمور المستحيلة التي لا يمكن تحققها، فإنّ مثل هذه الأمور خارجة عن إطار القدرة، ولا تتعلق بها مشيئة الله تعالى ولا مشيئة أى صاحب إرادة مطلقاً.

وعلى هذا الأساس إذا طلب الناس من النبيّ أمراً محالاً، فقبول طلبهم بعدم الاهتمام من قبل النبيّ لم يكن ذلك دليلاً على إنكار صدور المعجزة على أيدي الأنبياء قط.

(433)

هذا الشرط لم يكن متوفراً في بعض مقترحات المشركين المذكورة (المقترح الرابع) فانهم طلبوا من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يأتي لهم بالله سبحانه وتعالى ليقابلوه وجهاً لوجه، ويروه جهرة ومن قريب، ورؤية الله تعالى امر محال، لأن رؤيته تستلزم أن يكون سبحانه محدوداً بالزمان والمكان، وأن يكون جسماً وذا لون وصورة وهو تعالى منزّه عن المادة ولوازم المادية. بل حتّى مقترحهم الثالث لو كان المقصود منه أن تسقط السماء عليهم (لا أن تسقط قطعة من الصخر على رؤوسهم و تقتلهم) فان ذلك هو أيضاً من المحالات إذ أن المشيئة الالهية تعلّقت بان يفعل الله هذا في نهاية العالم، والنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد أخبر المشركين بهذا الأمر أيضاً كما يدل عليه قولهم: «كما زعمت.»

إنّ إنهدام المنظومة الشمسيّة وتبعثر النجوم وتساقطها وإن لم يكن في حد ذاته بالأمر المحال، ولكنّه - حسب المشيئة الإلهية الحكيمة وإرادته النافذة الفاضية بأن يستمر النوع البشري، ويصل إلى مرحلة الكمال - يعدّ محالاً، ولا يمكن أن يفعل حكيماً خلاف ما يقتضيه هدفه وغايته.

ثانياً: حيث أنّ الغاية المنشودة من اقتراح وطلب الإعجاز هو أن يستدلّ به على صدق دعوى النبيّ، وصحة انتسابه إلى الله، وبالتالي يكون بدافع تحصيل سند على ارتباطه بعالم ما فوق الطبيعة، لذلك فإنّ أى اقتراح ومطالبة بالمعجزة لا تتوفر فيها هذه الصفة يعني على فرض أن يلبى النبيّ طلبهم ويأتي لهم بالمعجزة لا يكون ذلك دليلاً على ارتباطه بعالم الغيب، فحينئذ لا معنى ولا موجب لأن يقوم النبيّ بما لا يرتبط بشؤونه ولا يخدم هدفه.

وقد كانت بعض مقترحات المشركين المذكورة من هذا النوع، وذلك مثل تفجير ينبوع من الأرض، أو أن تكون له جنة من نخيل وعنب، أو أن يكون له بيت من زخرف وذهب، فإنّ مثل هذه الأمور لا تدل على نبوة من يمتلكها إذ ما اكثر الذين يمتلكون واحدة من هذه الأشياء وليسوا مع ذلك بأنبياء، بل ربما يملكون اكثر من ذلك، ومع ذلك لا يشم فيهم رائحة الايمان فضلا عن النبوة.

(434)

فاذا لم ترتبط هذه الأشياء بمقام النبوة، ولا تكون دليلاً على صدق من يدعيها كان الإتيان بها أمراً لغواً وعبثاً تعالى عنه مقام النبوة، وجئت عنه منزلة الأنبياء.

وقد يقال: إن هذه الأشياء⁽¹⁾ لا تدل على صدق دعوى النبي إذا حصلت عن طريق الأسباب العادية، ولكنها لو حصلت بصورة غير عادية ولا متعارفة كانت ولا شك من المعجزات الإلهية، ودلت على صدق النبي وصحة دعواه.

ولكن الظاهر أن هذه فكرة باطلة لأن المشركين كانوا يهدفون من اقتراحاتهم هذه أن يكون النبي صاحب مال و ثروة، فقد كانوا يستبعدون أن يكون نبي الله ورسوله فقيراً لا يملك شيئاً من الثروة والمال، وكانوا يعتقدون أن الوحي الإلهي يجب أن ينزل على رجل غني ذي طول وحول، ولذلك قالوا مستعربين ومستنكرين:

(وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)⁽²⁾!!؟

أي لماذا لم ينزل هذا القرآن على رجل ثري من مكة أو الطائف.

ومما يدل على أن الهدف كان هو أن يملك النبي مثل هذه الأمور بأي طريق كان، ولو بالطريق العادي أنهم كانوا يريدون هذه الأشياء للنبي نفسه إذ قالوا:

(أَوْ يَكُونُ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرَفٍ)⁽³⁾

وبعبارة أخرى: كانوا يقولون إذا أنت لا تمتلك بستاناً أو بيتاً من ذهب فاننا لن نؤمن لك!!

ولو كان الهدف هو أن يحصل هذان الأمران بواسطة القدرة الغيبية لم يكن وجه حينئذ لقولهم: ما لم يكن «لك» بيت من زخرف، فاننا نؤمن بك بل كان يكفي أن يقولوا: إذا لم تحدث وتوجد بيتاً وجنة فاننا لن نؤمن لك.

- 1 أي الامور الثلاثة المقترحة الينبوع والجنة والبيت من ذهب.

- 2 الزخرف: ٣١.

- 3 الاسراء: ٩٣.

أما قولهم في مطلع اقتراحاتهم: «تُفَجَّرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يُنْبِئُ عَلَيْنَا» فان مقصودهم لم يكن هو أن يستخرج لهم بالاعجاز ينبوعاً لينتفعوا به، بل يفعل ذلك لكي يؤمنوا به.

ثالثاً: إن المقصود من المعجزة هو الاهتداء في ضوئها إلى صحة دعوى النبيّ وصدق مقاله، والإيمان بمنصبه، والإعتقاد بمقامه، وعلى هذا إذا كان بين المقترحين للمعجزة من يكون الاتيان له بالإعجاز سبباً لإيمانه بالنبيّ، فحينئذ كان الاتيان بالمعجزة وتلبية اقتراحه أمراً مستحسناً، وغير مقبوح عقلاً.

أما إذا كان المقترحون، يقترحون عناداً ولجاجاً، أو يطلبون ما يطلبونه لهواً وتسليةً كما يفعل الناس مع السحرة والمرتاضين فإن منزلة الأنبياء أجل - حينئذ - من أن يلبى مثل هذه المقترحات، ويستجيب لمثل هذه المطالب، وقد كانت بعض إقتراحات المشركين من هذا النمط.

فإن مطالبتهم بأن يصعد النبيّ إلى السماء، أو أن يُنزل من السماء كتاباً يقرأونه لم يكن بهدف إكتشاف الحقيقة لأنهم لو كانوا ممن يهدف الوصول إلى الحقيقة فلماذا لم يكتفوا بمجرد صعوده إلى السماء بل كانوا يصرون على أن يضمّ أمراً آخر إلى عروجه وصعوده (وهو أن ينزل معه كتاباً)!!

ثم أنه يُستفاد من آيات أخرى، غير هاتين الآيتين أيضاً، أنهم كانوا سيعاندون، ويصرون على كفرهم حتى بعد نزول الكتاب عليهم من السماء كما يصرح بذلك قوله تعالى:

(وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرطاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالِ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ⁽¹⁾)

فمن غير المستبعد أن يكون الكتاب المنزل في قرطاس إشارة إلى إقتراح المشركين الذي جاء ضمن آيات سورة الاسراء أي قولهم: **أَوْ تَرَفَى فِي السَّمَاءِ وَ لَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكِ حَتَّى تَنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَأُهِ**⁽²⁾ (فقال الله سبحانه: حَتَّى لَوْ

- [الانعام: ٧].
- [الاسراء: ٩٣].

فعلنا لهم ذلك لكفروا، واحجموا عن الإيمان.

رابعاً: إن طلب المعجزة إنما هو لأجل أن يستتبع الاتيان بها الإيمان بالرسالة والانضمام إلى صفوف المؤمنين، فإذا كانت نتيجة المعجزة هي إباء المقترحين استلزم ذلك نقض الغرض المنشود من المعجزة، وانتفاء فائدتها.

فإذا كان المقصود من سقوط السماء عليهم، هو نزول الصخور السماوية لآبادتهم فإن هذا الطلب لا يتفق أبداً مع هدف الإعجاز وهو من أوضح مصاديق نقض الغرض.

وبالتالي ينبغي أن نذكر بنقطة وهي: أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على خلاف ما تصوّر المستدلون بهذه الآية على نفي اية معجزة لرسول الإسلام - لم يصف نفسه بالعجز وعدم القدرة على الاتيان بالمعجزة بل أفاد بقوله) **سُبْحَانَ رَبِّيَ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بِشْرًا رَسُولًا** (1) (أمرين):

1- تنزيه الله، فهو بقوله) **سُبْحَانَ رَبِّي** (نزه الله تعالى عن كل عجز ونقص كما نزهه عن الرؤية ووصفه بالقدرة على كل شيء ممكن.

2- محدودية قدرة النبي، إذ بقوله - صلى الله عليه وآله وسلم -) **هَلْ كُنْتُ إِلَّا بِشْرًا رَسُولًا** (أفاد بأنه امرئ مأمور لا أكثر وأنه مطيع لأمر الله وإرادته فهو يأتي بما يريد ربّه، والأمرُ إلى الله كله، وليس للنبي أن يُلبي أي طلب واقتراح بإرادته.

وبعبارة أخرى: ان الآية ركزت في مقام الجواب على طلبهم بعد تنزيه الله عن العجز والرؤية على كلمتي: «البشر والرسول» والهدف هو انه: إذا أنتم قد طلبتم هذه الأمور مني من جهة إنني بشر، كان طلبكم هذا طلباً غير صحيح، لأن هذه الأمور تحتاج إلى قدرة الهيئة.

وإن طلبتموها مني من جهة اني نبيُّ رسولٍ فان النبي والرسول ما هو إلا امرئ مأمورٌ يفعل ما يذنُّ به الله، وليس له ان يفعل ما يشاء هو دون إرادة الله تعالى.

- [الأسراء: ٩٣ .

(437)

وبهذا اتضح أن هذه الآيات لا تدلُّ على ما استدل به النافون لمعاجز النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وكان ممّا تحججت به قريش على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أنهم قالوا:

لَوْ كَانَ مُحَمَّدًا نَبِيًّا لَشَغَلْتَهُ النُّبُوَّةُ عَنِ النِّسَاءِ وَلَأَمَكْنَهُ جَمْعُ الْآيَاتِ (اي لأتته الآيات دفعة واحدة) ولأمكنه منع الموت عن اقاربه ولما مات أبوطالب وخديجة فنزل قوله تعالى:

(وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٍ. يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ. وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتوفينك فإتّما عليك البلاغ وعلينا الحساب.)

وبذلك ردّ عليهم. (2) (1)

الدوافع وراء معاداة قريش وعنادهم:

هذا القسم هو احدى النقاط الجديرة بالدراسة في تاريخ الإسلام، لأن المرء قد يسائل نفسه، لماذا ترى كانت قريش تعارض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أشدّ المعارضة رغم أنها كانت تعتبره الصادق الأمين ولم تعهد منه انحرافاً أو خطأ قط وكانت تسمع كلامه الفصيح البليغ الذي يأسر القلوب، وربما شاهدوا حدوث بعض الخوارق للعادة، الخارجة عن حدود القوانين الطبيعية على يديه.

إن لهذا التمرد والمعارضة يعود إلى علة أو علل عديدة هي:

1- حَسَدُهُمْ لِلنَّبِيِّ - صلى الله عليه وآله وسلم - :

لقد عارض رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وخالفه فريقٌ ممن عارضه بسبب

- [الرعد: ٣٨ - ٤٠ .
- 2بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٧ عن المناقب.

(438)

حسد هم له، فقد كانوا يَتَمَنُّونَ أن يكونوا هم صاحب هذا المنصب، وصاحب هذه المنزلة.

فقد قال المفسِّرون عند قوله تعالى: **وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ** (1) «أن» الوليد بن المغيرة» قال: أُيُنزَّلُ على محمَّد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها ويترك «ابو مسعود عمرو بن عمير الثقفي» سيد ثقيف ونحن عظيمي القريتين فأَنْزَلَ اللهُ تعالى فيه الآية. (2)

وروى انه قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكننُ أولى بها منك لأنني اكبرُ منك سنأ وأكثرُ منك مالا. (3)

وكان «أمية بن أبي الصلت» من الذين كانوا يقولون هذا الكلام حول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكان يتمنى كثيراً أن ينال هو هذا المقام ويحظى بهذا المنصب العظيم، ولم يتبع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى آخر حياته، وكان يؤلب الناس عليه.

وقد سأل «الخنس بن شريق» - وهو من أعداء رسول الله - أبا جهل يوماً يا ابا الحكم ما رأيك فيما سمعت من «محمَّد» ؟ فقال: ماذا سمعت، تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تجادبنا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منأ نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى تدرك مثل هذه، والله لا نؤمنُ به أبداً ولا نصدقه. (4)

هذه النماذج تُظهرُ الحسد الذي كان يحول بين زعماء قريش وساداتها وبين إتياع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وتصديقه، فَعَبُوا عَلَى اللَّهِ وَتَرَكُوا أَمْرَهُ عَيَانًا، وَلَجُوا فِيهَا هُم عَلَيْهِ مِنَ الْكُفْرِ، وَهَنَّاكَ نَمَاذِجٌ وَأَمْثَلَةٌ أُخْرَى سَجَلَتْهَا صَفْحَاتُ التَّارِيخِ أَعْرَضْنَا عَنْ إِدْرَاجِهَا هُنَا.

-
- [الزخرف: ٣١].
 - 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦١.
 - 3 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٣٥.
 - 4 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣١٥ و ٣١٦.

(439)

-2 معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم:

وكان لهذا العامل الأثر الأكبر في عتو قريش و معارضتها لدعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لأنهم كانوا أصحاب لهو ولعب، وفسق ومجون، ومثل هؤلاء الذين أمضوا سنوات عديدة على هذا النحو، دون ان يقيدهم شيء من الحدود والقيود، وجدوا دعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تخالف عاداتهم القديمة، وكان ترك مثل تلك العادة التي تتفق معها أهوائهم ورغباتهم النفسية أمراً يلازم النصب والعناء والجهد.

-3 الخوف من عقوبات اليوم الآخر:

إن سماع آيات العذاب التي تنذر الفسقة والظالمين وتوعدهم بالعقوبات الثقيلة ارعب قلوبهم، وأقلق نفوسهم بشدة.

فعند ما كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتلو الآيات المتعلقة بيوم القيامة وأوضاعه، وقضاياها في الاجتماعات والاماكن العامة، كان يحدث بذلك ضجةً كبرى في أوساطهم، فيهدم مجالس لهوهم، وأنسهم.

إنَّ الْعَرَبِيَّ الَّذِي كَانَ يَسْلُخُ نَفْسَهُ بِكُلِّ مَا اسْتَطَاعَ مِنْ سِلَاحٍ لِيُدْفَعَ عَنْ نَفْسِهِ أَىْ خَطَرَ مُحْتَمَلٍ، وَيَعْمَدُ إِلَى مِمَارَسَةِ الْقِرَاعَةِ وَيَتَعَاطَى الْإِنصَابِ وَالْإِزْلَامِ لِيَحْصَلَ عَلَى لُقْمَةِ عَيْشِهِ، وَيَتَقَالُ بِالْأَحْجَارِ، وَيَنْتَظِرُ وَيَنْتَشَاءُ بِالطَّيُورِ وَيَسْتَدَلُّ بِحَالَاتِهَا عَلَى حَوَادِثِ وَقَعَتْ أَوْتَقَعُ، لَمْ يَكُنْ عَلَى اسْتِعْدَادٍ لِأَنْ يَهْدَأَ مِنْ دُونِ أَنْ يَحْصَلَ عَلَى ضَمَانٍ بَعْدَ التَّعَرُّضِ لِمَا يَخْبِرُ عَنْهُ «مُحَمَّدٌ» مِنْ عَذَابٍ وَعِقَابٍ!!

من هنا كانوا يحاربون النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويخالفونه حتى لا يسمعوا وعده ووعيد.

واليك بعض الآيات التي كانت تقلق بشدة نفوس المترفين من قريش:

(فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاعَةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمُّهُ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ لِكُلِّ أَمْرٍءٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. (1))

وبينما كانوا يمدّون موائد اللّهُو والشراب في ظلال الكعبة ويحتسون كؤوس الخمر كانوا فجأة يسمعون هذه الآية:

(كَلِمًا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بِدَلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ).⁽¹⁾

فتلقوا في نفوسهم رعباً عجبياً، وينتابهم الاضطراب الشديد حتّى أنهم كانوا يلقون بكؤوس الخمر جانباً ويتملكهم خوف شديد لم يعرفوا له مثيلاً.

4-الخوف من القبائل العربية المشركة:

قال «الحارث بن نوفل بن عبد مناف» لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : انا لنعلم أنّ قولك حقّ ولكن يمئنا أن نتبع الهدى ونؤمن بك مخافة أن يتخطفنا العرب من أرضنا (إن تركنا الوثنية التي تدين بها ويعتبروننا سدنة لأوثانها) ولا طاقة لنا بها. فنزل قوله تعالى يرد عليهم:

(وَقَالُوا إِن نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نَتَّخِطَفُ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا).⁽²⁾⁽³⁾

وهكذا كان تخوف قريش من العرب إن هي تركت ما كان عليه العرب من الوثنية والشرك أحد الاسباب لعتوهم وإعراضهم عن قبول الدعوة الإسلامية.

طائفة من اعتراضات المشركين:

وربما اعترض المشركون على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قائلين: إن هذه الارض ليست بأرض الانبياء، وإنما ارض الأنبياء الشام فأت الشام.⁽⁴⁾

وكان اكثر المشركين يقولون - وذلك بوحى من اليهود - لماذا لا ينزل القرآن على «محمّد» دفعة واحدة كالتوراة والانجيل فحكى القرآن الكريم اعتراضهم

- 1 النساء: ٥٦.

- 2 القصص: ٥٧.

- 3 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢٣٦.

- 4 بحار الأنوار: ج ١٨، ص ١٩٨.

هذا بنصه إذ قال:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً.)

ثم قال تعالى ردّاً على إعتراضهم هذا:

(كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ. (1))

إن القرآن يهتم بهذا الإعتراض، ويوضح مسألة «النزول التدريجي» للقرآن الكريم و يقطع الطريق على المستشرقين المغرضين ومن حذى حذوهم، بمنطقه المحكم، وبيانه القوي.

وها نحن نعد هنا إلى إعطاء شيء من التوضيح لهذه المسألة أيضاً:

القرآن و النزول التدريجي:

إن التاريخ القطعي لنزول القرآن وكذا مضامين آيات سوره تشهد بأن آيات القرآن الكريم وسوره نزلت تدريجاً.

فبمراجعة فاحصة لأوضاع مكة، والمدينة يمكن تمييز المكّي من هذه الآيات عن مدنيّتها.

فالآيات التي تتحدث عن مكافحة الشرك والوثنية ودعوة الناس إلى الله الواحد، والإيمان باليوم الآخر مكّيّة، بينما تكون الآيات التي تدور حول الأحكام وتحتّ على الجهاد والقتال مدنيّة، ذلك لأنّ الخطاب في البيئّة المكّيّة كان موجّهاً إلى المشركين عبدة الاوثان الذين كانوا ينكرون توحيد الله، واليوم الآخر، فهنا تكون الآيات التي تتحدث حول هذا الموضوع قد نزلت في هذه البيئّة.

في حين كان الخطاب في المدينة المنورة موجّهاً إلى المؤمنين بالله، وإلى جماعة اليهود والنصارى، وكان الجهاد والقتال في سبيل إعلاء كلمة الله هو الأعمال المهمّة التي بدأها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وواصلها في هذه البيئّة، من هنا تكون الآيات التي تتضمن الحديث حول الاحكام والفروع والقوانين، ويدور

- [الفرقان: ٣٢].

(442)

الحديث فيها أيضاً حول عقائد اليهود والنصارى ومواقفهم وتتضمن الحنث - كذلك - على الجهاد والقتال والتضحية في سبيل اعلاء كلمة الله وإعزاز دينه، آيات مدنيّة.

إن كثيراً من الآيات ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وهذه الحوادث هي التي تشكل ما يسمى بشأن أو أسباب النزول التي يكون الوقوف عليها مُوجِباً لفهم مفاد الآية، وإيضاح مفادها، فان وقوع هذه الحوادث كان سبباً لنزول آيات فيها بالمناسبة.

على أن بعض الآيات الأخرى نزلت جواباً على أسئلة الناس، ولرفع حاجاتهم في المجالات المختلفة.

والبعض الآخر منها نزلت لبيان المعارف والأحكام الإلهية.

ولهذه الاسباب يمكن القول بان القرآن الكريم نزل على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تدريجاً لتدرج موجبات النزول.

وقد صرح القرآن الكريم بهذا الامر أيضاً في بعض المواضع إذ قال:

(وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْتٍ. (1))

وهنا يطرح هذا السؤال وهو: لماذا لم تنزل آيات القرآن كلها على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جملة واحدة، ودفعة واحدة كما حدث ذلك للتوراة والإنجيل من قبل؟!

إن هذا السؤال لم يكن جديداً بل طرحه أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومعارضوه في عصر الرسالة في صورة الاعتراض أيضاً حيث كانوا يقولون:

(لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً. (2))

ويمكن تقرير و شرح هذا الاعتراض على نحوين:

- [إذا كان الإسلام ديناً إلهياً، وكان القرآن كتاباً سماوياً منزلاً من جانب الله على رسوله، فلا بد أن يكون ديناً كاملاً، ومثل هذا الدين

الكامل

- [الاسراء: ١٠٦ .

- 2الفرقان: ٣٢ .

يجب أن ينزل بواسطة ملائكة الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جملة واحدة من دون تدريج ولا توقف في نزول الآيات، إذا لا مبرر ولا داعي لأن ينزل ديناً كاملاً من جميع الجهات، مكمل من حيث الأصول والفروع والتشريعات والواجبات والسنن، على نحو التدريج في ٢٣ عاماً، ولمناسبات مختلفة.

وحيث أن القرآن نزل منجماً، وبصورة متفرقة متناثرة، وعقيب طائفة من الأسئلة، أو وقوع حوادث و طرء حاجات في أزمنة مختلفة يمكن الحدس بان هذا الدين لم يكن كاملاً من حيث الأصول والفروع، وهو يتدرج في التكامل ومثل هذا الدين الناقص الذي يسير نحو كماله خطوة خطوة وبالتدريج لا يصح أن يوصف بالدين الالهي.

-2إن آيات القرآن والتاريخ القطعي والمسلم للتوراة والإنجيل والزبور تحكي جميعها عن أن هذه الكتب السماوية أعطيت إلى المرسلين بها في ألواح مكتوبة مدونة، فلما لم ينزل القرآن الكريم على هذا الغرار، كأن ينزل القرآن على «محمّد» في لوح مكتوب كما نزل التوراة في ألواح مكتوبة؟!!

وحيث أن المشركين لم يكونوا يعتقدون بهذه الكتب السماوية قط، ولم يكن لهم على علم مسبق بكيفية نزولها، لذا يمكن القول بان مقصودهم من هذا الاعتراض كان هو الشكل الأول من هذا التوضيح، والذي يتلخص في أنه لماذا لم ينزل ملائكة الوحي آيات القرآن على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - جملة واحدة، بل نزلت هذه الآيات عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - في فواصل زمنية متفاوتة، وبمناسبات وحسب وقائع مختلفة متدرجة؟!!

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن:

ولقد كشف القرآن القناع - في معرض الردّ على إعتراض المشركين هذا - عن حكّم وأسرار النزول التدريجي للقرآن الكريم.

واليك توضيح هذا القسم الذي اشار إليه الكتاب العزيز بعبارة مقتضبة قصيرة:

(444)

-1إن الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - يتحمّل مسؤوليات كبرى، وان شخصية كهذه من الطبيعي ان يواجه مشاكل ومتاعب باهضة وصعبة، ولا ريب أن تلك المشاكل والمتاعب توجب الكلال، وانخفاض مستوى النشاط مهما كانت الروح التي يتمتع بها الشخص عظيمة، وقوية، في مثل هذه الحالة يكون تجديد الارتباط بالعالم الأعلى، وتكزّر نزول الملك من جانب الله تعالى باعثاً على تجدد النشاط، وعاملاً قوياً في بثّ القوة والحماس والمعنوية الفاعلة في نفس النبي وروحه، وبالتالي فان العناية والمحبة الالهية الممتدة لنبيه ورسوله إنما تتجدد بتكرّر نزول الوحي عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - من جانبه تعالى.

وقد أشار القرآن إلى هذه الحقيقة النفسية الكبرى إذ قال:

(كذلك يُنْتَبِتُ بِهِ فُؤَادَكَ. (1))

-ويمكن ان تكون الجملة المذكورة ناظرة إلى جهة أخرى وهي: انّ المصالح التربوية والتعليمية تقتضي أن ينزل القرآن الكريم على نحو التدرّج ويُلقى إلى الناس على هذا الشكل ايضاً وذلك لان النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - معلّم الأمة، وطبيبها الروحيّ الَّذِي يُبْعَثُ إلى الناس بالوصفات الالهية لتعليمهم، وهدايتهم ومعالجة أمراضهم وأدوائهم الاجتماعية والخلقية، والفكرية، وكُلِّفَ بأن يُطبِّقَ هذه الوصفات في حياتهم العملية، ومثل هذا يتطلب التدرّج لينفع الدواء - حينئذٍ - وتنجع المعالجة.

إن أفضل وأجح أساليب التربية هو أن يمتزج الجانب العمليّ بالجانب النظري في أيّة محاولة تربوية، وأن يطبق كل ما يدرسه الاستاذ بصورة عملية تطبيقية، ويعطي لما يلقيه من معلومات، صبغة تحقيقية، ويتجنّب بشدة إتصاف أفكاره وآراءه بالطابع النظريّ البحت.

فلو أن الاستاذ المتخصّص في الطبّ اكتفى بالقاء جملة من المعلومات الكليّة والأسس العامة من الطبّ على طلابه في الصف حُرْمَ النتائج المتوخّاة والغايات

- [الفرقان: ٣٢].

(445)

المطلوبة من تعليم الطبّ، بشكل كامل.

أما إذا قرّن الاستاذ درسه النظري بالإرشاد العمليّ وطبّق ما ألقاه وبيّنه من أفكار ومعلومات في هذا المجال على جسم مريض راقداً أمام الطلبة فإنه سيحصل على نتائج أحسن، ويساعد الطلبة على فهم افضل للمواد التي درسوها في هذا المجال.

فلو أنّ الآيات القرآنية الكريمة قد نزلت جملةً واحدة (والحال أن المجتمع الإسلامي لم يكن يحتاج إلى كثير منها) كان القرآن - حينئذٍ - فاقداً لهذه المزبة التربوية الهامة التي أشرنا إليها قريباً في مثال تدريس الطب.

ان بيان الآيات التي يشعر الناس في انفسهم بعدم الحاجة إلى اخذها وتعلّمها، لا يترك التأثير الباهر في القلوب، بينما إذا نزل ملائكة الوحي بآيات القرآن حسب حاجات الناس التي يشعرون فيها بضرورة تعلّمها لتضمّنّها الأحكام والأصول والفروع التي يحتاجون إليها فإنه لا شكّ يكون لها في هذه الحالة تأثير أحسن وأقوى في قلوب الناس. كما سيكون لها ترسّخ أكبر في نفوسهم، وسيظهر الناس من انفسهم إستعداداً أكبر لاخذ ألفاظها ومعانيها، وفوق كل ذلك سيشعرون بنتائج هذه التعاليم عند تعليم النبيّ إياها لهم، وعندئذٍ

تتحقق المقولة التربوية التي اشرنا إليها في ما سبق وهي اقتران كلام المرّي بالنتيجة لأن النظريات إتخذت طابعاً عملياً، ولم تكن مجرد نظريات لا ترتبط بالواقع.

ولكن يبقى هنا سؤال آخر وهو: إذا كان نزول القرآن قد تحقّق على نحو التدرّج وتبعاً للاحتياجات والحوادث المختلفة، فإن ذلك يستلزم انقسام العلاقات والروابط بين الآيات والسور، وهذا ينتج أن لا يهتم الفكر البشري بتعلّم وحفظ معارفها لتبعرها، وتباعده أزمنتها وغياب علاقاتها، ولكن لو نزل القرآن جملة واحدة وتلاه ملائكة الوحي على رسول الله دفعة واحدة لزوَعِيَت الروابط والعلاقات بين قضايا الوحي ولتضاعفَت رغبة الناس واستعدادهم لأخذها وحفظها؟

(446)

ولقد أجاب القرآن الكريم أيضاً على هذا السؤال إذ قال: صحيح أن آيات القرآن الكريم نزلت على نحو التدرّج تبعاً لطائفة من المقترضات والموجبات إلا أن هذا النزول التدرّجي لا يمنع أبداً من ترابط مطالبه، وارتباط مواضعه بعضها ببعض، فإن الله تعالى أفاض على هذه الآيات إنسجاماً وترابطاً خاصاً يمكن الإنسان من تعلمها وضبطها وحفظها إذا أعطى الموضوع قليلاً من الإهتمام إذ قال تعالى:

(وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً) ⁽¹⁾

أي إننا أعطينا آيات القرآن نظاماً معيناً وترتيباً خاصاً.

أسرارٌ أخرى لنزول القرآن تدرّجاً:

3- لقد واجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في فترة رسالته ونبوّته فئات مختلفة من الناس: كاليهود والمسيحيين الذين كان لكل فئة منهم ديناً خاصاً، وعقائد وتصورات خاصة حول المبدأ والمعاد، وغيرهما من المعارف العقلية.

وقد كانت اللقاءات المختلفة هذه توجب أن يعمد الوحي الإلهي إلى توضيح وبيان عقائد هذه الفئات (وإن لم يكن مطلوباً ومقترحاً من قبلهم) ويقوم الأدلة والبراهين على بطلانها، وزيفها، هذا من جانب.

ومن جانب آخر كانت هذه اللقاءات في أزمنة متفاوتة، وأوقات مختلفة، لهذا لم يكن بدّ من أن ينزل الوحي الإلهي تدرّجاً، وفي الأوقات المختلفة، ويتصدى لبيان بطلان تلك العقائد والتصورات ويجب على شبهات المخالفين واعتراضاتهم.

وربما كانت توجب هذه المواجهات العقائدية إلى أن يطرحوا على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بعض الاسئلة إمتحاناً واختباراً له وكان على النبي أن

(447)

يجيب عليها، وحيث أن هذه الاسئلة كانت تطرح في اوقات مختلفة، لهذا لم يكن مناص من أن ينزل الوحي الالهي في الأوقات والأزمنة المختلفة، وعلى نحو التدرج.

هذا مضافاً إلى أن حياة النبي نفسها كان حياة ثورة، ووقائع، وكان النبي يواجه باستمرار أحداثاً وقضايا يجب توضيح حكمها، وبيان المنهج فيها من جانب الوحي الالهي.

وربما كان الناس أنفسهم يواجهون في حياتهم اليومية حوادثاً وأموراً يرجعون فيها إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يطلبون منه الحكم الالهي فيها ويسألونه عما يجب إتخاذه من الموقف الشرعي في تلك الحوادث وما يشابهها.

وحيث أن هذه الحوادث، وما يترتب عليها من تساؤلات كانت تقع في اوقات مختلفة، وبمرور الزمن، لذلك لم يكن بد ايضاً من ان ينزل الوحي الالهي بالتدرج ليجيب على هذه الأسئلة أولاً بأول.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه النقاط، وإلى نقاط أخرى غيرها في قوله تعالى:

(وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا.)⁽¹⁾

4- إن للنزول التدرجي للقرآن الكريم وراء كل ذلك سرّاً آخر، وعلّة أخرى غفلوا عنها، ألا وهي: هداية الناس وتوجيه أنظارهم إلى منشأ هذا الكتاب، وأن القرآن ليس الأ كتاباً سماوياً، ووحياً الهياً لا غير، ولا يمكن أن يكون من نسج العقل البشري، لأن القرآن نزل خلال (٢٣ عاماً) عبر طريق طويل من أنواع الحوادث والوقائع المسرة والمحنة، المقرونة بالنصر والهزيمة، والنجاح والإخفاق، ولا شك أن هذه الحالات المختلفة، والاحاسيس والمشاعر المتنوعة المتباينة، تترك أثراً عميقاً في نفس الإنسان، وروحه وعقله، ولا يمكن لإنسان واحد أن يتكلم بكلام من نوع واحد، وبنبرة واحدة، في حالتين

(448)

نفسيتين متضادتين، فالكلام الصادر في حال الفرح والابتهاج والمسرة من اللسان أو القلم، يختلف من حيث الفصاحة والبلاغة وجمال اللفظ وعمق المعنى اختلافاً بارزاً عن الكلام الصادر في حال الحزن والتعب، والافخاق، والهزيمة.

بينما لا يوجد أي شيء من الاختلاف من حيث الألفاظ والمعاني بين آيات القرآن الكريم مع أنها نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يمر بحالات مختلفة من الحزن والسرور والافئاق والانتصار والسرء والضراء، والعسر والرخاء والجهد والنشاط، بل نجد تلك الآيات على نمط ونسق واحد من القوة والفصاحة والبلاغة، وجمال اللفظ وعمق المعنى بحيث يستحيل على أي بشر بلِّغ ما بلغ أن يعارض آية من آياته أو سورة من سورته، وكأنَّ القرآن الكريم كمية من الفضة المائعة خرجت من الأتون جملة واحدة لا يوجد بين آياتها أي شيء من التفاوت والاختلاف، أو كأنه جوهرة واحدة أولها كآخرها وآخرها كأولها.

ولعلَّ الآية التالية التي تنفي أي نوع من أنواع الاختلاف في القرآن إذ تقول:

(وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا⁽¹⁾) (إشارة إلى هذا السر).

إنَّ المفسرين اعتبروا هذه الآية ناظرة إلى نفي الاختلاف والتناقض بين مفاهيم الآيات ومفاداتها، ومقاصدها، في حين لا تنفي هذه الآية مجرد هذا النوع من الاختلاف بل تقدس القرآن المجيد وتنزهه من جميع انواع الاختلاف والتناقض الذي هو من لوازم العمل والانتاج البشري.

- [النساء: ٨٢].

(449)

١٧ إلى الحبشة

الهجرة الاولى

تُعتبر هجرة فريق من المسلمين إلى أرض الحبشة دليلاً بارزاً على إيمانهم وإخلاصهم العميق لدينهم، ولربهم وذلك لأن فريقاً من الرجال والنساء يقررون - وبهدف الحفاظ على عقيدتهم والتخلص من أذى قريش ومضايقتها والحصول على مكان آمن يقيمون فيه شعائهم بحرية ويعبدون الله الواحد - مغادرة (مكة)، العربية التي ترزح تحت ظلام الوثنية، فلا يمكن أن يرفعوا نداء التوحيد عالياً في اية نقطة من نقاطها، ولا يمكنهم إقامة احكام الدين الحنيف فيها من دون خوف أووجل، وبعيداً عن الارهاب، ويفكرون، ويفكرون، وأخيراً يقررون التفكير إلى أن يفتحوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بهذه المسألة، ويطلبوا في ذلك رأي النبي الذي يقوم دينه على مبدأ): (إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّاي فَاعْبُدُون.⁽¹⁾)

لقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعرف أوضاع المسلمين المؤلمة جيداً، فقد كان هو يحظى بحماية بني هاشم، وكان الفتيان الهاشميون يحمونه ويحفظونه

(450)

من كل اذى، ولكن الذين آمنوا به من الإماء والعبيد، ومن ليست لهم حماية من الأحرار المستضعفين الذين كانوا يشكلون عدداً كبيراً من المسلمين السابقين كان يتعرضون لشتى صنوف العذاب والايذاء والمضايقة من قريش التي لم تأل جهداً، ولم تدخر وسعاً، ولم تفوت فرصة ولا وسيلةً للاحاق العنت والأذى بالمؤمنين برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولا يستطيع - صلى الله عليه وآله وسلم - منعهم من ذلك.

وقد كان زعماء كل قبيلة يعمدون - للمنع من نشوب أئ صدام بين القبائل - إلى تعذيب من اسلم من ابناء قبيلتهم، وايدائه والتنكيل به، وقد مرت عليك نماذج وامثلة من أذى قريش وتعذيبها القاسي للمسلمين.

لهذه الأسباب عند ما طلب أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رأيه في الهجرة من مكة قال في جوابهم:

«لَوْ خَرَجْتُمْ إِلَى أَرْضِ الْحَبَشَةِ فَإِنَّ بِهَا مَلِكًا لَا يُظَلِّمُ عِنْدَهُ أَحَدٌ وَهِيَ أَرْضٌ صِدْقٌ حَتَّى يَجْعَلَ اللَّهُ لَكُمْ فَرَجًا مِمَّا أَنْتُمْ فِيهِ. (1)»

أجل ان مجتمعا صالحا يتسلم زمام الأمر فيه رجل صالح عادل نموذج مصغر من جنة عدن بالنسبة إلى المسلمين المضطهدين في بلدهم بسبب عقيدتهم، وهو ما كان يريده ويتمناه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليتمكنوا من القيام بشعائر دينهم فيه في جو من الطمأنينة والامن.

ولقد كان لكلام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أثر قوي في نفوسهم تلك الثقة المؤمنة الباحثة عن ارض تعبد فيها الله في أمان، بحيث لم يمض زمان إلا وقد شدت رحالها وغادرت مكة ليلا في غفلة من الاجانب (المشركين) مشاة وركباناً، متجهة نحو جدة، للسفر عبر مينائها إلى ارض الحبشة.

وكان هذا الفريق يتألف من عشر أو خمسة عشر شخصاً بينهم أربعة من

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٢١، تاريخ الطبري ج ٢، ص ٧٠، وبحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤١٢ نقلا عن مجمع البيان للطبرسي.

(451)

والآن يجب أن نرى لماذا لم يذكر رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - للمسلمين مناطقَ أخرى للهجرة إليها، وإنما ذكر الحبشة فقط.

إن سر هذا الاختيار هذا يتضح إذا درسنا أوضاع الجزيرة العربية وغيرها من المناطق آنذاك.

إن الهجرة إلى المناطق العربية التي كان سكانها من المشركين والوثنيين قاطبة كان أمراً محفوفاً بالخطر، فإن المشركين كانوا سيمتنعون عن قبول المسلمين في أرضهم إرضاءً لقريش أو وفاءً وتعصباً لدين الأباء (الوثنية).

وكذلك المناطق التي كان يقطنها المسيحيون أو اليهود، من الجزيرة العربية لم تكن تصلح لهجرة المسلمين إليها هي الأخرى لأن تبنك الطائفتين كانتا تتقاتلان فيما بينهما في صراعٍ مذهبيٍّ وطائفيٍّ، فلم تكن الأوضاع لتسمح بأن يدخل طرفٌ ثالثٌ في حلبة الصراع، هذا مضافاً إلى أن ذنبك الفريقين (اليهود والنصارى) كانا يحتقران العنصر العربيَّ أساساً، فكيف يمكن الهجرة إلى مناطقهم والتعايش معهم؟!

أما «اليمن» فقد كان تحت سيطرة الحكم الإيراني الملكيِّ، ولم تكن السلطاتُ الإيرانيةُ آنذاك لتسمح بإقامة المسلمين في ربوع «اليمن»، لما عُرف من نقيمتها فيما بعد على الدعوة الإسلامية إلى درجة أنه لما وصلت رسالة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى «خسروبرويز» كتب إلى عامله على اليمن فوراً «احمل إلى هذا الذي يذكر أنه نبيٌّ، وبدأ اسمه قبل اسمي، ودعاني إلى غير ديني!!»⁽²⁾

وكذلك كانت «الحيرة» تحت الاستعمار والنقوذ الإيراني كاليمين.

وأما «الشام» فقد كانت بعيدة عن «مكة المكرمة»، هذا مضافاً إلى أن «اليمن» و «الشام» كانتا سوقين لقريش، وكانت تربط قريش بسكان هاتين المنطقتين روابط وعلاقات وثيقة، فإذا كان المسلمون يلجأون إليها أخرجوا منهما

- 1 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧٠.
- 2 بحار الأنوار: ج ٢٠، ص ٣٨٢.

بطلب من قريش، تماماً كما طلبت من ملك الحبشة مثل هذا الطلب، ولكنه رفض طلبهم.

وقد كانت الرحلة البحرية - في تلك الأونة - وبخاصة برفقة النساء والأطفال رحلة شاقة جداً، من هنا كانت هذه الهجرة، وترك الحياة والمعيشة في الوطن دليلاً قوياً على إخلاص أولئك المهاجرين لدينهم وعمق إيمانهم به، وصدقه.

ولقد كان ميناء «جدة» آنذاك ميناء تجارياً عامراً كما هو عليه الآن، ومن حسن التوفيق أن هذه الثلثة المهاجرة قد وصلت إلى هذا الميناء في الوقت الذي كانت فيه سفينتان تجاريتان على أهبة الاقلاع، والتوجه نحو الحبشة، فبادر المسلمون إلى ركوبها والسفر عليها دون تلغو خشية لحاق قريش بهم والقبض عليهم، لقاء نصف دينار عن كل راكب.

وكان ذلك في شهر رجب في السنة الخامسة من مبعث رسول الله. (1)

ولما عرف المشركون بهجرة بعض المسلمين أمروا جماعة من رجالهم بملاحقة اولئك المهاجرين واعدتهم إلى مكة فوراً، ولكن المسلمين المهاجرين كانوا قد غادروا شواطئ «جدة» قبل أن يدركهم الطلب. (2)

ومن الواضح أن ملاحقة مثل هذه الثلثة التي لم تلجأ إلى أرض الغير إلا لأجل الحفاظ على عقيدتها والفرار من الفتنة لنموذج بارز من عتو قريش وعنادها.

فالولئك المهاجرون مؤمنون تركوا الأهل والوطن، واغمضوا الطرف عن المال، والتجارة، وخرجوا يطلبون أرضاً نائية يمارسون فيها شعائرهم بحرية، ومع ذلك لا يكف عنهم زعماء مكة وجبايرتها وطغاتها!!

اجل ان رؤساء «دار الندوة» بمكة واقطابها كانوا يعلمون جيداً أسرار هذه

- 1بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤١٢ نقلا عن مجمع البيان للطبرسي.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٢١ - ٣٢٣.

الهجرة وأثارها من خلال بعض القرائن، والمؤشرات ولذلك كانوا يرددون فيما بينهم أموراً سنذكرها في ما بعد.

هذا والجدير بالذكر أن اعضاء هذا الفريق المهاجر لم يكونوا من قبيلة واحدة بل كان كل واحد من هؤلاء العشرة ينتمي إلى قبيلة خاصة.

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

ثم انه وقعت بعد هذه الهجرة هجرة أخرى، وكان في مقدمة المهاجرين هذه المرة «جعفر بن أبي طالب». ابن عم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

ولقد تمت الهجرة الثانية في منتهى الحرية، لأن المسلمين المهاجرين استطاعوا في هذه الهجرة ان يصطحبوا معهم نساءهم وأولادهم، بحيث بلغ عدد المسلمين في أرض الحبشة هذه المرة (٨٣) .

هذا إذا لم نحص من وُلد في أرض الحبشة لهم، والأكثر عددُ أكثر من هذا الرقم.

ولقد وَجَدَ المسلمون المهاجرون أرضَ الحبشة كما وصفها رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لهم: منطقة عامرة، وبينة آمنة حرّة، تصلح لأن يُعبد فيها الله تعالى بحرية وأمان.

تقول «أم سلمة» التي تشرفت بالزواج من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ما بعد، عن تلك الأرض: لما نزلنا أرضَ الحبشة جاؤرنا بها خير جار النجاشي، أمنا على ديننا، وعبدا لله تعالى، لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه.

كما أنه يُستفاد مما قاله بعض أولئك المهاجرين من الشعر في الحبشة، انهم آمنوا بأرض الحبشة، وحمدوا جوار النجاشي، وعبدوا الله لا يخافون على ذلك أحداً.

ونحن نكتفي هنا بادراج بعض الأبيات من قصيدة مطوّلة أنشأها «عبدالله بن الحارث» في هذا الصدد:

(454)

يا راكباً يَلْعَن عَنِّي مُغْلَغَلَةً * ⁽¹⁾مَنْ كَانَ يَرْجُو بِلَاغَ اللَّهِ وَالدِّينِ

كَلَّ امْرِيءٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ مُضْطَهَدٍ * بِيَطْنِ مَكَّةَ مَقْهُورٍ وَمَفْتُونِ

أَنَا وَجَدْنَا بِلَادَ اللَّهِ وَاسِعَةً * تُتَجِي مِنَ الدُّنَى وَالْمَخْرَاةِ وَالْهَيُونَ

فَلَا تُقِيمُوا عَلَى دُنَى الْحَيَاةِ وَخَزْ * ي فِي الْمَمَاتِ وَعَيْبِ غَيْرِ مَأْمُونِ ⁽²⁾

ويقول ابن الاثير: وكان مسيرهم (إلى الحبشة) في رجب سنة خمس من النبوة وهي السنة الثانية من اظهار الدعوة فاقاموا شعبان وشهر رمضان وقدموا في شوال سنة خمس من النبوة، وكان سبب قدمهم إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - انه بلغهم ان قريشاً أسلمت فعاد منهم قومٌ وتخأف قومٌ. ⁽³⁾

هذا ويمكن للقارىء الكريم أن يقف على تفاصيل هذا القسم في السيرة النبوية لابن هشام. ⁽⁴⁾

قريش توفد رجالا لاسترداد المسلمين:

عندما بلغ قريشاً وزعماء «مكة» ما أصبح فيه المسلمون المهاجرون من أمن وحرية، وما حصلوا عليه من حسن الجوار والطمأنينة والراحة في أرض الحبشة ثارت ثائرة الحسد والغیظ في قلوبهم، وتوجسوا خيفة من نفوذ المسلمين في الحبشة لأن أرض الحبشة قد أصبحت قاعدة قوية للمسلمين، وكانت الزعامة المكية تتخوف من أن يجد أنصار الإسلام واتباعه منفذاً إلى بلاط النجاشي زعيم

الاحباش وملِكهم، ويُملِأوا قلبه نحو الإسلام، ويكسبوا تاييده للمسلمين، فيؤول الامر إلى أن يعبىء جيشاً كبيراً للفضاء على حكومة المشركين الوثنيين في شبه الجزيرة العربية، وعندها تكون الكارثة.

فاجتمع أقطابُ «دار الندوة» مرة أخرى للتشاور في الأمر، فأستقر رأيهم على أن يبعثوا إلى البلاط الحبشي من يقدم إلى النجاشي ووزرائه وقواده هدايا

-
- 1 المُلغلة: الرسالة ترسل من بلد إلى بلد.
 - 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥١ - ٣٥٣.
 - 3 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٥٢ و ٥٣.
 - 4 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٤ - ٣٦٢.

(455)

مناسبة يستميلونهم بها ليستطيعوا من هذا الطريق التأثير على النجاشي ثم يتسنى لهم بعد ذلك ان يقنعوه بضرورة إخراج المسلمين المهاجرين من أرضه أن يتهمونهم عنده بالسفاهة والجهل، وابتداع دين جديد منكر، والإرتداد عن دين الآباء والاجداد!!

ولكي تتحقق خطتهم هذه على أحسن وجه ويصلوا عن طريقها إلى افضل النتائج اختاروا من بينهم رجلين مكرين اصبح احدهما في ما بعد من دهاقنة السياسة وهما: «عمرؤ بن العاص»، و «عبدالله بن ابي ربيعة» وقال لهما كبير المؤتمرين في ذلك الدار: إدفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم.

فخرج موقدا قريش حتى قدما على النجاشي بعد أن تلقيا هذه التعليمات.

وهناك في الحبشة دُفعا إلى كل بطريق من بطارقة النجاشي وقادة جيشه ووزرائه هديته، وقالوا لكل بطريق منهم:

إنه قد ضوى ⁽¹⁾ إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجأؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا انتم، وقد بعثنا إلى الملك لنكلمه في أمرهم أشراف قومهم ليردّهم اليهم فاذا كَلّمنا الملك فيهم، فأشيروا عليه بأن يسلمهم إلينا، ولا يكلمهم، فان قومهم أبصر بهم، واعلم بما عابوا عليهم.

فابدى أولئك البطارقة والقادة والوزراء الطامعون الجهلة استعدادهم لمساعدة الرجلين في إنجاح مهمتهم.

ولما كان من غد دخلا على النجاشي وقدما هداياهما إليه فقبلها منهما ثم كَلّماه فقالا له:

أيها الملك إنه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء، فارقوا دين قومهم ولم

(456)

يدخلوا في دينك، وجاؤوا بدين ابتدعه لا نعرفه نحن ولا أنت، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردّهم إليهم، فهم أبصر بهم وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

وما أن انتهى موفدا قريش من الكلام إلا وقالت بطارقه حوله: صدقا أيها الملك، قومهم أبصر بهم، وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم إليهما، فليرداهم إلى بلادهم وقومهم.

فغضب النجاشي وكان رجلا حكيما عادلا وقال: لاها الله، إذن لا أسلمهم إليهما، ولا يكاد قوم جاؤوني، وتزلوا بلادي واختاروني على من سواي حتى أذعّوهم فاسألهم عما يقول هذان في أمرهم فان كانوا كما يقولان أسلمتهم إليهما، ورددتهم إلى قومهم، وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما واحسنت جوارهم ما جاؤوني.

ثم ارسل إلى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المهاجرين إلى الحبشة فدعاهم من غير أن يعلمهم بما يريد منهم، فحضروا عنده، وكانوا قد قرّروا أن يكون متكلمهم وخطيبهم: «جعفر بن أبي طالب» وقد قلق بعض المسلمين لما قد سيقوله «جعفر» عند الملك، وبماذا سيكلمه ويجيبه، فسأله عن ذلك فقال لهم جعفر: أقول والله ما علمنا، وما امرنا به نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - كائنا في ذلك ما هو كائن.

فالتفت النجاشي إلى «جعفر» وسأله قائلا:

ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم، ولم تدخلوا (به) في ديني ولا في دين أحد من هذه الملل؟

فقال جعفر بن أبي طالب:

«أيها الملك، كنّا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منّا الضعيف، فنكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده، ونخلع ما كنّا نعبد نحن وأباؤنا من دونه من

(457)

الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم والدماء، ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنات. وأمرنا أن نعبد الله وحده، لا نشرك به شيئا، وأمرنا بالصلاة والزكاة

والصيام فصَدَّقناه وأَمَّنَّا به، واتَّبَعناه على ما جاء به من اللّٰه، فَعَبَدنا اللّٰه وحده فلم نشرك به شيئاً، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا، فعدا علينا قومُنَا، فعَدَّبونا، وفتنونا عن ديننا، ليرُدُّونا إلى عبادة الاوثان من عبادة اللّٰه تعالى، وان نستحل ما كُنَّا نستحل من الخبائث، فلَمَّا قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحالوا بيننا وبين ديننا، خرجنا إلى بلادك، واخترناك على من سواك، ورجبنا في جوارك، ورجونا أن لا نظلم عندك ايها الملك. »

فأثرت كلمات جعفر البليغة، وحديثه العذب تأثيراً عجبياً في نفس النجاشي بحيث اغرورقت عيناه بالدموع، وقال: لجعفر هل معك ممَّا جاء به عن اللّٰه من شيء؟

فقال جعفر: نعم فقال له النجاشي: فاقرأه عليّ، فقرأ عليه جعفر آيات من مطلع سورة مريم، واستمرَّ في قراءته، وبذلك بين نظرة الإسلام إلى «مريم» - عليها السلام - وطهارة جيبها، وإلى مكانة المسيح - عليه السلام - ، وعظمة شأنه، وجليل مقامه، فبكى النجاشي حتَّى اخضلت لحيته بالدموع وبكت اسقافته⁽¹⁾ حتَّى بلّوا مصاحفهم بها حين ما سمعوا ما تلاه جعفر عليهم حول مريم والمسيح - عليهما السلام - .

وبعد صمت قصير ساد ذلك المجلس قال النجاشي:

«إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة» وهو يقصد أن القرآن والإنجيل كلام اللّٰه وأنهما شيء واحد.

ثم التفت إلى موفدي قريش وقال لهما بنبرة قوية: انطلقا فلا واللّٰه لا أسلمهم إليكما ولا يُكادون، فخرجا من عنده.

- [الاساقفة؛ جمع اسقف: علماء النصارى.

(458)

وعند المساء تكلم «عمرو بن العاص» - وكان إمراً خداعاً ما كرا - مع رفيقه «عبدالله بن ربيعة» في الامر، وقال له: واللّٰه لا أتيتنَّ غداً عنهم بما استأصل به خضراءهم (وهو يعني أنه سيأتي بحيلة تقضي على جنود المهاجرين بالمرّة) ولأخبرته أنهم يزعمون أن عيسى بن مريم عبد. (أي على خلاف ما يعتقد النصارى في المسيح).

فنهاه «عبدالله» عن ذلك وقال: لا تفعل، فإنّ لهم أرحاماً، وان كانوا خالفونا، ولم ينفع نهي عبدالله له.

ولمّا كان من الغد دخلا على النجاشي مرة أخرى فقال له «عمرو» متظاهراً هذه المرة بالدفاع عن عقيدة النصارى وهي دين الملك واهله، ومنتقداً رأي المسلمين.

أيها الملك، إنهم يقولون في «عيسى بن مريم» قولا عظيماً. فارسل إليهم فسلهم عما يقولون فيه.

فارسل النجاشي إليهم ليسألهم عنه، وهو الملك المحنك الذي لا يأخذ الأمور على ظواهرها، ومن غير تحقيق ودراسة، فأدرك المسلمون بفطنتهم أنه سيسألهم هذه المرة عن موقفهم من المسيح - عليه السلام - فاتفقوا أن يكون «جعفر» منكممهم وخطيبهم وعندما سأله عما سيجيب به الملك قال: أقول والله ما قال الله، وما جاءنا به نبينا.

فلما دخلوا على النجاشي قال لجعفر بن ابي طالب: ماذا تقولون في عيسى بن مريم؟

فقال جعفر: نقول فيه الذي جاءنا به نبينا - صلى الله عليه وآله وسلم - : هو عبدالله ورسوله وروحه وكلمته القاها إلى مريم العذراء البتول.

فسر النجاشي لكلام جعفر ورضي به وقال: هذا والله هو الحق، والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت.

ولكن حاشيته لم ترض بهذا الكلام ولم تقبل بما قاله الملك، ولكنه لم يعبا بهم، وأيد مقالة المسلمين، ومنحهم الحرية الكاملة، والأمان الكامل قائلًا لهم:

(459)

اذهبوا فانتم آمنون في أرضي من سبكم غرم، من سبكم غرم، ما أحب أن لي دبراً من ذهب وإني أذيت رجالاً منكم.

ورد على موفدي قريش هداياهما قائلًا لهما: «ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين رد علي ملكي فأخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.»

فخرج مبعوثاً قريش مقبوحين مردوداً عليهما ما جاء به يجزان انيال الخيبة. (1)

* * *

وينبغي ان نسجل هنا موقفاً آخر من مواقف ابي طالب في تأييد المسلمين، ونصرة الدين الحنيف.

فقد أرسل «ابوطالب» أبياتاً للنجاشي يحثه على الدفع عن المهاجرين وحسن جوارهم وتلك الابيات هي:

ألا ليت شعري كيف في النأي جعفر * وعمرؤ واعداء العدو: الأقراب؟

وهل نالت افعال (2) النجاشي جعفرًا * وأصحابه أو عاق ذلك شاغب؟

تَعَلَّم، ابَيْتَ اللَعْنَ، انك ماجدٌ * كريمٌ فلا يشقى أديك المجانبُ

تَعَلَّم بَانَ اللّهُ زادك بسطةً * واسبابَ خير كلّها بك لازب

وأنتَ فيضٌ نوسجال غزيرة * يتألّ الأعداي نفعها والاقارب(3)

العودة من الحبشة:

قلنا في ما مضى أنّ المجموعة الأولى من المهاجرين رجعت من الحبشة إلى مكة لأنباء بلغتها عن إسلام قريش عامة وانصوائها تحت راية الإسلام. حتّى إذا دنوا من «مكة» بلغهم أنّهم كانوا تحدّثوا به من إسلام أهل مكة كان باطلاً،

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٨، إمتاع الاسماع: ص ٢١، بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤١٤ و ٤١٥.
- 2 إحصان.
- 3 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٣٣ و ٣٣٤.
-

(460)

فلم يدخل منهم إلى «مكة» إلا قليل دخلوها مستخفين أو في جوار بعض الشخصيات القرشية بينما عاد الأكثرون من حيث جاؤوا. وكان ممن دخل «مكة» بجوار، «عثمان بن مظعون» الذي دخلها بجوار «الوليد بن المغيرة»⁽¹⁾ «ولكنه كان يشاهد ما فيه أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من البلاء، والعذاب وهو يغدو ويروح في امان فتألّم لذلك ولم تطق نفسه تحمّل هذا الفرق وقال: واللّه إن غدوّي ورواحي أمنأ بجوار رجل من أهل الشرك، وأصحابي وأهل ديني يلقون من البلاء والأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير في نفسي فمشى إلى «الوليد بن المغيرة» وردّ عليه جواره ليواسي المسلمين ويشاركهم في آلامهم ومتاعبهم وقال: يا أبا عبد شمس وفنت ذمتك، قد ردّدت إليك جوارك.

قال: لم يابن أخي؟ لعلّه أذاك أحد من قومي؟

قال: لا ولكني أرضى بجوار الله ولا أريد أن أستجير بغيره.

فقال الوليد له: إذن فارد على جوارى علانية كما أجرئك علانية.

فانطلقا فخرجا حتّى أتيا المسجد، فقال «الوليد» مخاطباً من حضر من قريش: هذا عثمان قد جاء برد على جوارى.

قال: صدق، قد وجدته وفيّاً كريم الجوار ولكنّي قد احببتُ أن لا استجير بغير الله، فقد ردّدت عليه جواره. (2)

ثم لم يمض شيء من الوقت حتى دخل المسجد «لبيد» وكان شاعراً متكلماً بارزاً من شعراء العرب ومتكلمياً ووقف في مجلس من قريش ينشد لهم و «عثمان بن مظعون» جالس معهم فقال من جملة ما قال شعراً:

ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطلٌ

فقال عثمان بن مظعون: صدقتَ فقال: لبيد:

1- السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦٩.
2- السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٧٠.

(461)

وكلُّ نعيم لا محالة زائلٌ

قال عثمان: كذبت، نعيمُ الجنة لا يزول فاستنقل «لبيد» تكذيب عثمان وتحديده له في ذلك الجمع فقال: يا معشر قريش والله ما كان يؤذى جليسكم، فمتى حدث هذا فيكم؟؟

فقال رجلٌ من القوم: إنَّ هذا سفيه في سفهاء معه، قد فارقوا ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله.

فردَّ عليه «عثمان» حتى تفاقم الأمر بينهما فقام إليه ذلك الرجل فلطم عينه فحضرها (وإصابها)، والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ عثمان فقال: أما والله يا ابن أخي إن كانت عينك عمًا أصابها لغنيّة لقد كنت في ذمة منيعة (وهو يريد أنك لو بقيت في ذمتي وجواري لما أصابك ما أصابك).

فقال عثمان راداً عليه: بل والله إن عيني الصحيحة لفقيرة إلى مثل ما أصاب أختها في الله، واني لفي جوار من هو أعزُّ منك، واقدُر يا أبا عبد شمس.

فقال له الوليد: هلمَّ يا ابن أخي إن شئت فعُد إلى جوارك، فقال ابنُ مظعون: لا. (1)

وكانت هذه صورة رائعة من صور كثيرة لصلمود المسلمين، وتفانيهم في سبيل العقيدة، وإصرارهم على النهج الذي اختاروه، ومواساة بعضهم لبعض في أشد فترة من فترات التاريخ الإسلامي.

وفد مسيحي لتقصي الحقائق يدخل مكة:

قدمَ على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو بمكة عشرون رجلاً من النصارى حين بلغهم خبره من الحبشة، مبعوثين من قِبَل أساقفتها لتقصي الحقائق بمكة، والتعرف على الإسلام. فوجدوا رسول الله في المسجد، فجلسوا إليه، وكلموه وسألوه عن مسائل، ورجالاً من قريش فيهم «أبوجهل» في أنديةهم حول الكعبة.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٧٠ و ٣٧١].

(462)

فلما فرغوا من مسألة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عما أرادوا دعاهم - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الله عز وجل وتلا عليهم آيات من القرآن الكريم، فكان لها من التأثير البالغ في نفوسهم بحيث عندما سمعوا فاضت أعينهم من الدمع، ثم استجابوا له و آمنوا به وصدقوه، بعد ما عرفوا منه ما كان يوصف في كتابهم (الانجيل) من أمره.

فلما قاموا عنه، ورأت قريش ما نتج عنه ذلك اللقاء استنقله «أبوجهل» فقال للنصارى الذين اسلموا معترضاً وموياً: خيبكم الله من ركب بعثكم من رءاكم من أهل دينكم تترادون لهم لتأتوهم بخبر الرجل فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم وصدقتموه بما قال، ما نعلم ركباً أحمق منكم.

فأجابه اولئك بقولهم: سلام عليكم لا تجاهلكم، لنا ما نحن عليه، ولكم ما أنتم عليه، لم نأل أنفسنا خيراً. (1)

وبذلك الكلام الرفيق الجميل ردوا على فرعون مكة الذي كان يبغى - كسحابة داكنة - حجب أشعة الشمس المشرقة، وحالوا دون وقوع صدام.

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق:

لقد ايقظ وفد نصارى الحبشة إلى مكة وما نجم عن لقائهم برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قريشاً ودفعهم إلى تكوين وفد يتألف من «النضر بن الحارث» و «عقبة بن ابي معيط» وغيرهما وإرسالهم إلى أحوار يهود المدينة ليسألونهم عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودينه.

فقال أحوار اليهود لمبعوثي قريش: سلوا محمداً عن ثلاث نأمركم بهن، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل منقول، فروا فيه رأيكم، سلوه:

- [عن فتية ذهبوا في الدهر الأول (يعنون بهم أصحاب الكهف) ما كان

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٩٠ و ٣٩٣ وقد نزلت في هذا الشأن الآيات ٥٢ إلى ٥٥ من سورة القصص.

(463)

من امرهم، فإنه قد كان لهم حديثٌ عجيبٌ.

2- وعن رجل طَوَّافٍ (يعنون به ذا القرنين) قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه وخبره؟

2- وعن الروح ماهي؟

فاذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبيّ، وان لم يفعل، فهو رَجُلٌ متَقَوِّلٌ فاصنعوا في أمره ما بدا لكم.

فعاد وفد قريش إلى «مكة» ولما قدموها قالوا لقريش ما سمعوه من أحبار اليهود.

فجاؤوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وطرحوا عليه الاسئلة الثلاثة السالفة. فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : انتظر في ذلك وحيًا⁽¹⁾.

ثم نزل الوحي يحمل إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الأجوبة المطلوبة على تلك الاسئلة.

وقد وردَ الجواب عن السؤال عن الروح في الآية ٨٥ من سورة الإسراء.

وأجيبَ على السؤالين الآخرين عن أصحاب «الكهف» وذي القرنين بتفصيل في سورة «الكهف» ضمن الآيات ٩ - ٢٨ و الآيات ٧٣ - ٩٣.

وقد وردت تفصيلات هذه الإجابات التي أجاب بها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أسئلتهم في كتب التفسير.

ولابدَّ هنا من أن تُذكر القارئ الكريم بنقطة مفيدة وهي أنّ المراد من «الروح» في سؤال القوم ليس هو الروح الإنسانية بل كان المراد هو جبرئيل الأمين، (بقرينة أنّ المقترحين الاصليين لهذه الأسئلة: هم اليهود وكانوا يكرهون الروح الامين، ويعادونه)، وهو أمرٌ مبحوثٌ في محلّه من كتب التفسير.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٠٠ - ٣٠٢.

(464)

(465)

١٨ الأسلحة الصديئة والاساليب الفاشلة

نظّم أسياذ قريش صفوفهم لمكافحة عقيدة التوحيد، بعد أن أدركوا عقم المواقف المبعثرة من هذا الدين وأهله.

فقد حاولوا في بداية الأمر أن يئنثوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن المضي في مواصلة دعوته، وذلك بتطميعة بالمال والجاه وماشابه ذلك، ولكن لم يحصلوا من ذلك على شيء، فقد خيب ذلك الرجل المجاهدُ ظنونهم فيه، وبدد آمالهم في اثناؤه هدفه بكلمته الخالدة المدوية: «والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر لما فعلت» وهو يعني ان تملكه العالم كله لا يثنيه عن هدفه ولا يصرفه عن تحقيق ما نُدب إليه وارسل به.

فعمدوا إلى سلاح آخر هو التهديد والأذى، والتتكيل به وباصحابه وانصاره، ولكنهم واجهوا صموده وصمود أنصاره واصحابه، وثباتهم الذي ادى إلى انتصار المؤمنين في هذا الميدان، وخيبة المشركين وهزيمتهم.

وقد بلغ من ثبات المسلمين على الطريق أنهم أقدموا على مغادرة الوطن، وترك الأهل والعيال، والهجرة إلى الحبشة فراراً بدينهم إلى الله، وسعيًا وراء نشره وبثه في غير الجزيرة من الأفاق.

ولكن رغم إخفاق أسياذ قريش المشركين في جميع هذه الجهات والميادين

(466)

وعجزهم عن استئصال شجرة التوحيد الفتية، وفشل جميع الأسلحة التي استخدموها للقضاء على الدين الجديد وأهله، لم تنته محاولاتهم الإجهاضية بل عمدا هذه المرة إلى استخدام سلاح جديد حسبوه أمضى من سوابقه.

وهذا السلاح هو سلاح الدعاية ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، لانه صحيح أن ايداء وتعذيب جماعة المؤمنين في «مكة» تمنع غيرهم من سكران «مكة» من الإنضواء إلى الإسلام إلا ان الحجيج الذين كانوا يسافرون إلى مكة في الأشهر الحرم وكانوا يلتقون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في جو من الأمن والطمأنينة خلال تلك المواسم كانوا يتأثرون بدعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وبتز عرغ اعتقادهم بالأوثان على الأقل، ان لم يؤمنوا بدينه، ولم يستجيبوا لدعوته، ثم إنهم كانوا ينقلون رسالة الإسلام وانباء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى مواطنهم، ومناطقهم وكان ينتشر بذلك اسم رسول الله، وانباء دينه في

شئى مناطق الجزيرة العربية، وكان هذا هو بنفسه ضربة قوية توجّه إلى صرح الوثنية في مكة، وعاملاً قوياً في انتشار عقيدة التوحيد، وسطوع أمره.

من هنا اتخذ سادة قريش أسلوباً آخر، قاصدين بذلك الحيلولة دون انتشار الإسلام، واتساع رقعته، وقطع علاقة المجتمع العربي به

واليك فيما يأتي بيان تفاصيل هذا الاسلوب، وهذه الخطة:

-1- الاتّهامات الباطلة:

يمكن التعرف على شخصية أي واحد وتقييمها من خلال ما يرميه به اعداؤه من شتائم وسباب، وما يكيلون له من اتهامات ونسب، فإن العدو يسعى دائماً إلى أن يتهم خصمه بنوع من أنواع التهم ليُضِلَّ الناس، ويصرفهم عنه، وليتمكن بما يحوِّكُه حوله من أراجيف وأباطيل الحط من شأنه في المجتمع واسقاطه من الانظار والأعين.

ان العدو الذكيّ يسعى دائماً إلى أن ينسب إلى منافسه ما يُصدِّقه ولو فئة خاصة من الناس على الأقل، ويوجبُ شكَّهم في صدقه، ويتجنب تلك النسب

(467)

التي لا تصدِّق في شأنه، ولا تناسبُ اخلاقه وافعاله المعروفة عنه، ولا تمسه بشكل من الأشكال، لأنه سوف لا يجني في هذه الحالة إلا عكس ما يقصد، وخلاف ما يريد.

ومن هنا يستطيع المؤرِّخُ المحقِّقُ أن يتعرف على الشخصية الواقعية لمن يدرسه، وعلى مكانته الإجتماعية، وأخلاقه وسجاياه ولو من خلال ما ينسبُه الأعداء إليه، وما يكيلون له من أكاذيب وإفتراءات، ونسب باطلة واتهامات، لأنَّ العدو الذي لا يخاف أحداً لا يقصُرُ في كيل كلِّ تهمة تنفعُه وتخدمُ غرضه إلى الطرف الآخر، ويستخدم هذا السلاح (أي سلاح الدعاية) ما استطاع، وما ساعدته معرفته بالطروف، ودرابته بالفرص.

فاذا لم ينسب إليه أيُّ شيء من تلك النسب الباطلة فان ذلك إنما هو لأجل طهارة جيبه، ونقاء صفحته، وتنزُّه شخصيته عن تلك النسب، ولأنَّ المجتمع لم يكن ليعبأ بها ولم يصدِّقها في شأنه.

ولو أننا تصفحنا اوراق التاريخ الإسلامي لرأينا أن قريشاً مع ما كانت تكن من عداء، وتجلُّ من جِدِّ على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وكانت تسعى بكل جهدها أن تهدم صرح الإسلام الجديد الظهور، وأن تحطَّ من شأن مؤسسه وبانيه لم تستطع مع ذلك أن تستفيد من هذا السلاح، وتستخدمه كاملاً.

فقد كانت تفكّر في نفسها: ماذا تقول في حق رسول الله؟ وماذا ترى تنسب إليه؟؟

هل تتهمه بالخيانة المالية وها هم جماعة منهم قد انتموه على أموالهم؟⁽¹⁾! كما أن حياته الشريفة طوال الاربعين سنة الماضية جسدت امانته امام الجميع، فهو الامين بلا منازع؟

هل تتهمه بالجري والانسياق وراء الشهوة واللذة؟ وكيف تقول في حقه مثل هذا الكلام مع أنه بدأ حياته الشبابية بالتزويج بزوجة كبيرة السن إلى درجة

- 1بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٦٢.

(468)

ماء، وبقي معها حتّى لحظة انعقاد هذه الشورى في «دار الندوة» بهدف الدعاية ضدّه، ولم يُعهد منه زلّة قدم في هذا السبيل قط؟! وبالتالي بماذا تتهم محمّداً الصادق الأمين، الطاهر العفيف، وأية تهمة ترى يمكن أن تُصدّق في حقه، أو يحتمل الناس صدقها في شأنه ولو بنسبة واحد في المائة؟

لقد تحيّر سادة «دار الندوة» وأقطابها في كيفية استخدام هذا السلاح، سلاح الدعاية ضدّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقرّروا في نهاية الأمر أن يطرحوا هذا الأمر على صناديد قريش ويطلبوا رأيه فيه، وهو «الوليد بن المغيرة» وكان ذا سنّ فيهم، ومكانة، فقال لهم:

يا معشر قريش، إنه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدّم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فاجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذبُ بعضكم بعضاً، ويردُّ قولكم بعضه بعضاً.

قالوا: فأنت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به.

قال: بل أنتم قولوا أسمع.

قالوا: نقول كاهن.

قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهَّانَ فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه.

قالوا: فنقول: مجنون.

قال: ما هو بمجنون، لقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنقه، ولا تخالجه، ولا وسوسته.

قالوا: فنقول: ساحر.

قال: ما هو بساحر لقد رأينا السحَّارَ وسحرهم فما هو بنفتهم ولا عقدهم.

وهكذا تحيَّروا في ما ينسبون إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وأخيراً اتفقوا على أن يقولوا: أنه ساحر جاء بقول هو سحرٌ يفرق به بين المرء وبيته وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجته وبين المرء وعشيرته.

ويدلُّ عليه ما أوجده من الخلاف والإنشاق والتفرُّق بين أهل مكة الذين

(469)

كان يضرب بهم المثل في الوحدة والاتفاق. (1)

وقد ذكر المفسِّرون في تفسير سورة «المدثر» هذه القصة بنحو آخر فقالوا: لما أنزل على رسول الله (حم تنزيل الكتاب) (...قام إلى المسجد و «الوليد بن المغيرة» قريب منه يسمع قراءته فلما فطن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لاستماعه لقراءته، أعاد قراءة الآية، فتركت الآية في نفس الوليد تأثيراً شديداً فانطلق إلى منزله، ولم يخرج منه أياماً، فسخرت منه قريشٌ وقالت: صبا - والله - الوليدُ ثم مشى رجال من قريش إليه وسألوه رأيه في قرآن محمَّد، واقترح كل واحد منهم أمراً، ولكنه رد عليها بالنفي جميعاً فقالت قريش إذن ما هو؟ فتفكر «الوليد» في نفسه ثم قال: ما هو إلا ساحرٌ أما رأيتموه يفرِّق بين الرجل وأهله، وولده ومواليه فهو ساحر وما يقوله سحر يؤثر. (2)

ويرى المفسرون أن الآيات التالية في شأنه إذ يقول الله تعالى:

(ذُرْنِي وَمَنْ خَلَفْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً. وَمَهْنُوتٌ لَهُ تَمْهِيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ. كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيداً. سَأَاهُفُّهُ صَعُوداً. إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ. فَقَتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ. ثُمَّ نَظَرَ. ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ. ثُمَّ أَدْبَرَ وَأَسْتَكْبَرَ. فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ... (إلى قوله:)) فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُغْرِضِينَ. كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ. (3)

* * *

الإصرار في نسبة الجنون إليه - صلى الله عليه وآله وسلم -

:

يعتبر إتصاف النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - واشتهاره بين الناس بالصدق والامانة وغيرها من مكارم الأخلاق منذ شبابه من مسلمات التاريخ.

وهو بالتالي أمرٌ اعترف به حتى أعداؤه الالذاء، فقد دانوا بفضلهم، وأقرُّوا

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٠.
 - 2 مجمع البيان: ج ١٠، ص ٣٨٦ و ٣٨٧.
 - 3 المدثر: من ١١ - ٥١.

(470)

بأخلاقه الكريمة و سجاياه النبيلة، دون تلكؤ، ولا إبطاء.

وقد كان من أوصافه الحسنة البارزة ان جميع الناس كانوا يدعونه «الصادق» «الامين» وكانوا يتقون بأمانته ثقة كبرى (1) حتى أن المشركين كانوا يودعون ما غلب من أموالهم عنده، واستمر هذا الأمر حتى عشرة أعوام بعد دعوته العلنية.

وحيث أن دعوته - صلى الله عليه وآله وسلم - قد ثقلت على المعاندين فاجتهدوا في أن يصرفوا عنه الناس بما ينسبون إليه من بعض النسب التي توجب سوء الظن به، ومن ثم إفسال دعوته، وحيث أنهم كانوا يعلمون أن النسب الأخرى مما لا يقيم لها المشركون وزناً، لأنها امور بسيطة في نظرهم، من هنا رأوا بأن يتهمونه بالجنون، والزعم بان ما يقوله و يقروه ما هو إلا من نسج الخيال، ومن أثر الجنون الذي لا يتنافى مع الزهد، والأمانة، وذلك تكذيباً لدعوته.

ثم عملت قريش على إشاعة هذه النسبة، واتخذت وسائل عديدة وما كرت لترويجها وبثها بين الناس.

ومن شدة مكرهم ومرءاتهم أنهم كانوا يتخذون موقف المتسائل المحايد فيطرحون هذه التهمة في قالب الشك، والترديد إذ يقولون:

(أفترى على الله كذباً أم به جنّة). (2)

وهذه هي بعينها الحيلة الشيطانية التي يتوسل بها ويتستر وراءها أعداء الحقيقة دائماً عند ما يريدون تكذيب المصلحين العظام، واسقاط خطواتهم وافكارهم من الاعتبار، والخط من شأنها وأهميتها.

ويشير القرآن أيضاً إلى أنّ هذا الأسلوب الماكر الذميمة لم يكن مختصاً بالمعارضين في عهد الرسالة المحمّدية، بل كان المعارضون في العصر الغابرة أيضاً يتوسلون بهذا السلاح لتكذيب الرسل، والانبياؤ إذ يقول عنهم:

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٦٢ عن عبيدالله بن ابي رافع: كانت قريش تدعو محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - في الجاهلية الامين وكانت تستودعه وتحتفظه أموالها وأمتعتها، وكذلك كلُّ من كان يقدم مكة من العرب في الموسم، وجاءته النبوة والرسالة والأمر كذلك. - 2سبأ: ٨.

(471)

(كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به بل هم قوم طاغون. (1)

وتحدّث الاناجيل الحاضرة هي الأخرى عن ان المسيح - عليه السلام - عندما وعظ اليهود قالوا: إنّ فيه شيطاناً، فهو يهذي فلماذا تسمعون إليه؟! (2)

ومن المسلم والبديهي أنّ قريشاً لو كان في مقدورها أن تنتهم رسول الله الصادق الأمين - صلى الله عليه وآله وسلم - بغير هذا الاتهام وتنسب إليه غير هذه النسبة لما تأخرت عن ذلك، ولكن حياة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - المشرقة خلال الاربعين سنة الماضية، وسوابقه اللامعة في المجتمع المكيّ وغير المكي كانت تحول دون أن ينسبوا إليه شيئاً من تلك النسب القبيحة، الذميمة.

لقد كانت «قريش» مستعدة لأن تستخدم أي شيء - مهما صغر - ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فمثلاً عند ما وجده أعداء الرسالة يجلس إلى غلام مسيحيّ يدعى «جبر» عند المروة، انطلقوا يستخدمون هذا الأمر ضده - صلى الله عليه وآله وسلم - فوراً فقالوا: والله ما يُعلم محمّداً كثيراً ممّا يأتي به الا «جبر» النصراني.

فردّ عليهم القرآن الكريم بقوله:

(وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيّ وَ هَذَا لِسَانٌ عَرَبِيّ مُبِينٌ. (3)

(وَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ. (4)

القرآن يرد على جميع الاتهامات:

وربما نسبوا إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - الكهانة، والكاهن هو من يتصل بعناصر من الجن (5) أو الشياطين ويتلقى منهم اخباراً حول الماضي والمستقبل،

- [الذاريات: ٥٢ و ٥٣.

- 2 انجيل يوحنا: الفصل ١٠، الفقرة: ٢٠، والفصل ٧، الفقرة ٤٨ و ٥٢.

- 3 النحل: ١٠٣.

4-الدخان: ١٣ و ١٤ .
5-الجن كائن من الكائنات ومخلوق من مخلوقات الله تعالى وقد اخبر به القرآن الكريم في مواضع عديدة كما سميت احدى السور باسم الجن.

(472)

وكان هذا موجوداً قبل الإسلام كما ترويهِ كتب السير والتواريخ. (1)

وقد رد القرآن الكريم على هذه المقالة و هذا الزعم إذ قال تعالى:

(وَلَا يَقُولُ كَاهِنٌ قَلِيلاً مَا تَدْكُرُونَ) (2) (كما ردّ أيضاً تهمة السحر، والكذب والافتراء والشعر إذ قال تعالى وهو يصف المتهمين تارة بالكفر وأخرى بالظلم:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَ قَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ. (3)

وقال تعالى): (وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا. (4)

وقال سبحانه متعجباً منهم) :قالوا إنما أنت من المسحورين. (5)

وقال تعالى): (وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ. (6)

وقال سبحانه): (وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ. (7)

وقال عزّوجلّ): (فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ. (8)

وقال تعالى): (قالوا إنما أنت مفتّر بل أكثرهم لا يعلمون. (9)

وقال تعالى): (أم يقولون افتراء قل فأتوا بعشر سور مثله. (10)

وقال سبحانه): (وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً. (11)

وقال سبحانه): (افتري على الله كذباً أم به جنة. (12)

وقال تعالى): (أم يقولون شاعر نتربص به ريب المنون. (13)

وقال تعالى): (وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقران مبين. (14)

وربما وصفوا القرآن بأنه اضغاث احلام فردهم سبحانه بقوله.

(بَلْ قَالُوا اضْغَاثٌ أَحْلَامٌ بَلِ افْتِرَاءُ بَلٍ هُوَ شَاعِرٌ. (15)

1-راجع: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب: ج ٣، ص ٢٦٩ باب علم الكهانة والعرافة.

2-الحاقة: ٤٢.

3-ص: ٤.

4-الفرقان: ٨.

5-الشعراء: ١٥٣.

- 6 الحجر: ٦.
- 7 التكوير: ٢٢.
- 8 الطور: ٢٩.
- 9 النحل: ١٠١.
- 10 هود: ١٣.
- 11 الفرقان: ٤.
- 12 سبأ: ٨.
- 13 الطور: ٣٠.
- 14 يس: ٦٩.
- 15 الانبياء: ٥.

(473)

وهكذا نجدهم ذهبوا في استخدام سلاح الاتهام والتشويش على الشخصية المحمّدية والرسالة الإسلامية كل مذهب، فمرة وصفوه بأنه كاهن وأخرى بأنه ساحر وثالثة بأنه مسحور، ورابعة بأنه مجنون وخامسة بأنه معلّم وسادسة بأنه كذاب وسابعة بأنه مفترى وثامنة بأنه مفترى أو مجنون على سبيل الترييد وتاسعة بأنه شاعر وعاشرة بان ما يقوله ما هو إلا أضغاث احلام.

-2- فكرة معارضة القرآن:

لم يُجدِ استخدام سلاح الاتهام ضد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفعاً، ولم يأت بالثمار التي كان يتوخاها المشركون منه، لأن الناس كانوا يُدركون بفتنتهم وفراستهم أن للقرآن جاذبية غريبة، وأنهم لم يسمعوا كلاماً حلواً، وحديثاً عذباً مثله.

ان لكلماته من العمق والعذوبة بحيث يتقبلها كل قلب، وتسكن إليها كل نفس.

من هنا لم ينفع اتهام قريش لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالجنون وبأن ما يقوله إن هو إلا من نسج الخيال، ونتائج الجنون، شيئاً، فقررت أن تخطّ لتدبير آخر ظناً منهم بأن تنفيذه سيصرف الناس عنه، وعن الاستماع إلى كتابه، ألا وهو: معارضة القرآن الكريم.

فعمدت إلى «النضر بن الحارث» وكان من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وينصب له العداوة، وكان قد قضى شطراً من حياته في الحيرة بالعراق وتعلّم بها أحاديث ملوك الفرس واحاديث «رُستم» و «إسفنديار» وقصصهم، وحكاياتهم، وأساطيرهم، وطلبوا منه أن يجمع الناس ويقص عليهم من تلكم الأساطير والحكايات يلهي بها الناس عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ويصرفهم عن الإصغاء إلى القرآن الكريم!!

فكان إذا جلس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مجلساً فذكر الناس فيه بالله، وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه «النضر» في مجلسه

(474)

إذا قام - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه فهلّم إليّ، فأنا أحديتكم أحسن من حديثه.

ثم يحدثهم عن ملوك الفرس و «رستم» و «اسفنديار» ثم يقول:

بماذا محمّد أحسن حديثاً مني وما حديثه إلا أساطير الأولين اكتتبها كما اكتتبها؟⁽¹⁾

وقد كانت هذه الخطة حمقاء جداً إلى درجة أنها لم تدم إلا عدة أيام لا أكثر حتى أن قريشاً سأمت من أحاديث «النضر» وسرعان ما تفرقت عنه.

وقد نزل في هذا الشأن آيات هي:

(وَقَالُوا أُسَاطِيرَ الْأُولِينَ اكَتْتَبَهَا فَهِيَ تَمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا * قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا.)⁽²⁾

* * *

تحججات صيبانية و جاهلية:

وربما جسّدوا معارضتهم للدعوة المحمّدية في صورة تحججات ومجادلات جاهلية ومأخذ سخيفة اخذوها على رسول الله ورسالته، تنم عن تكبر وجهل، وعناد ولجاج طبعوا عليه.

وها نحن نذكر ابرزها:

أ - لماذا لم ينزل القرآن على ثرى من اثرياء مكة أو الطائف؟!

قال تعالى حاكياً قولهم:

(لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ.)⁽³⁾

ب - لماذا لم يرسل اليهم ملائكة ولماذا هو بشر؟!

قال تعالى عنهم:

(وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٠٠ و ٣٥٨.

- 2الفرقان: ٥ و ٦.

- 3الزخرف: ٣١.

رَسُولًا. (1)

وقال تعالى حاكياً عنهم أيضاً:

(وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ. (2)

ج - أنه يدعو إلى خلاف ما كان عليه الآباء، من الدين والعقيدة والسلوك؟

يقول عنهم سبحانه:

(وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا

يَهْتَدُونَ. (3)

د - تبديل الآلهة باله واحد.

قال الله عنهم:

(وَعَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنذِرٌ مِنْهُمْ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ * أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ. (4)

هـ - القول بحشر الاجساد وتجدد الحياة في يوم القيامة.

قال تعالى عنهم:

(وَقَالُوا إِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ فَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ. (5)

و - لماذا ليس عنده مثل ماكان لدى موسى من المعجزات كالثعبان المنقلب من العصا، وقد توصل المشركون إلى

هذا النمط من الاعتراض بسبب اتصالهم بأحبار اليهود.

يقول الله عنهم:

(فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلُ مَا أُوتِيَ مُوسَى. (6)

ز - لماذا ليس معه ملك يُرى ويشاهد ويحضر معه في كل مقام ومشهد.

قال تعالى:

(وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ. (7)

- [الاسراء: ٩٤ .
- 2الفرقان: ٧ .
- 3المائدة: ١٠٤ .
- 4ص: ٤ و ٥ .
- 5السجدة: ١٠ .
- 6القصص: ٤٨ .
- 7الانعام: ٨ .

(476)

مقترحات عجيبة ومطالب غريبة:

وكان المشركون إذا نفذت تحججاتهم واعتراضاتهم الواهية، وقبولوا بردود قوية وقاطعة عليها عمدوا إلى طرح مقترحات سخيقة على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في سياق معارضتهم لدعوته ونورد هنا ابرز تلك الاقتراحات ليعرف القارىء الكريم مدى معاناة النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - من قومه:

لقد اقترحوا عليه:

- [ان يعبد اصنامهم سنة ويعبدوا إلهه سنة أخرى وجعلوا ذلك شرطا لايمانهم بدعوته!!

فأنزل الله تعالى في ردّهم بسورة «الكافرون»: »

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ * لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ. وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ. لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ.)

-2تبديل القرآن، فقد دفع نقدُ القرآن الكريم للوثنية، والازاء على الاصنام، دفعهم إلى ان يطلبوا من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يأتي لهم بقرآن آخر لا يحتوي على شجب عبادة الاوثان والازدراء بالاصنام، وابطالها.

قال الله تعالى عن فعلهم هذا:

(وَ إِذَا تَنَالَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا انتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ. (1))

فردّ الله عليهم بقوله:

(قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ اتَّبَعَ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ. (2))

-3مطالب مادية عجيبة!!

وقد عمدوا - بسبب عنادهم وعتوهم - إلى المطالبة بأمر لا ترتبط بهداية الناس، مثل مطالبته بان يفجر لهم ينابيع، أو يُسقط السماء على رؤوسهم قطعاً، أو يصعد إلى السماء، أو يأتي بالله سبحانه وتعالى، أو غير ذلك من الاقتراحات والمطالب التي كانت إما مستحيلة في نفسها أو تناقض غرض الدعوة!!

قال الله حاكياً عنهم ذلك:

(وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً. أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيراً. أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلاً. أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ. (1))

صبر النبي واستقامته وثباته:

ولقد قابل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كل هذه التحججات الايدائية وما طرح من الاقتراحات المستحيلة بصبر عظيم وثبات هائل، ايماناً منه بدعوته، وحرصاً على ابلاغ رسالته، وبفعل التأييد الالهي من جانب.

يقول الله تعالى في هذا الصدد:

(1- فَأَصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعُرْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ. (2))

(2- وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ. (3))

(3- وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ. (4))

(4- وَاصْبِرْ نَفْسُكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْعَدَاوَةِ وَالْعِشْيِ. (5))

(5- فَأَصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُنْ كَصَاحِبِ الْخُوْتِ. (6))

(6- وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً. (7))

* * *

- 1الاسراء: ٩٠ - ٩٣ .

- 2الاحقاف: ٣٥ .

- 3يونس: ١٠٩ .

- 4النحل: ١٢٧ .

- 5الكهف: ٢٨ .

- 6القلم: ٤٨ .

- 7المزمل: ١٠ .

معاجز النبي لم تنحصر في القرآن:

وبالمناسبة لا بد أن نذكر أن المشركين ومن حذى حذوهم من الكفار والمعارضين للرسالة الإسلامية كانوا يطالبون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمعاجز وديات لا بدافع الرغبة في الإيمان بدعوته بل بدافع اللجاج والعناد، وإلا فإن معاجز النبي لم تنحصر في الكتاب العزيز، فقد أتى رسول الله بأيات ومعاجز كثيرة أخرى غير القرآن، كان كل واحد منها يكفي للاقتناع برسالته، والإيمان بصحة دعواه.

فالقرآن نفسه يشير إلى أبرز هذه المعاجز وهي:

1- شق القمر

فقد طلب المشركون من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يشق لهم القمر نصفين حتى يؤمنوا به، فلما على ذلك لهم بانن الله كفروا به وقالوا انه سحر!!

يقول الله تعالى:

(إِفْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرَضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ.)⁽¹⁾

2- المعراج

ان العروج برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والذي سيأتي مفصلاً هو الآخر معجزة من معاجزه القوية، وقد نطق بها القرآن بقوله:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.)⁽²⁾

- 1 القمر: ١ و ٢.

- 2 الاسراء: ١.

3- مباهلة أهل الباطل

ان تقدم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع من خرج بهم إلى المباهلة، واحجام النصارى عن مباهلتهم، معجزة أخرى من معاجزه - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد تحدت القرآن الكريم عن هذه القضية إذ قال:

(فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ آبَاءَنَا وَابْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِنْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ. (1))

وستأتي قصة المباحلة على نحو التفصيل في حوادث السنة العاشرة من الهجرة.

-4- الاخبار بالمغيبات

فقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يخبر عن أمور غائبة كما يقول الله سبحانه حاكياً عنه:

(وَأَنْتُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ. (2))

هذا وقد أخبرت الاخبار والاحاديث عن معاجز كثيرة لرسول الله غير القرآن الكريم.

- آل عمران: ٦١.
- آل عمران: ٤٩، وقد اشار القرآن الكريم إلى موارد أخرى من هذه القبيل.
فقد اخبر عن غلبة الروم بعد سنين: قال تعالى:
(إِذْ غَلَبَتِ الرُّومُ * فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَلَيْهِمْ سَيِّئَاتُ بَدُونٍ. فِي بَضْعِ سِنِينَ * لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدِ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ) (الروم: ١ - ٤).
واخبر عن هلاك ابي لهب قال تعالى:
(تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ... الخ.)
وأخبر عن هزيمة المشركين في بدر قال سبحانه:
(سَيَهْزِمُ الْجَمْعَ وَيُولُونَ الدَّبْرَ) (القمر: ٤٥).
- آل عمران: ٦١.

(480)

ومن هذه المعاجز ما ذكره الامام امير المؤمنين علي بن ابي طالب - كما في نهج البلاغة - حول سؤال المشركين من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قلع شجرة بعروقتها وجذورها ولما فعل ذلك وقال: «يا أَيُّهَا الشَّجَرَةُ ان كُنْتَ تَؤْمِنِينَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتَعْلَمِينَ أَنِّي رَسُولُ اللَّهِ فَانْقَلِعِي بِعُرْوَتِكَ حَتَّى تَقْفِي بَيْنَ يَدَيْ بَانِئِ اللَّهِ. »

فانقلعت بعروقتها ولها دوي عجب ووقفت بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكنهم كذبوا وقالوا ساحر كذاب، علواً واستكباراً.

وقد صرح الامام في كلامه هذا أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أخبرهم بانهم لا يؤمنون وان ظهرت لهم المعجزة التي طلبوها، وان فيهم من يطرح في القليب (في معركة بدر) وان منهم من يحزب الأحزاب (لمعركة الخندق). (1)

اصرار النبي على هداية قريش:

بل كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يحرص على هدايتهم وارشادهم وابقاظهم. فقد كان زعيم المسلمين وقائدهم يعلم جيداً بأن اعتقاد أغلبية الناس بالأوثان ما هو إلا أمر نابع من تقليد الآباء، والجدود، أو اتباع أسياد القبيلة وكبرائها، وهو بالتالي لا يستند إلى جذور في أعماق الناس وأسس في عقولهم ونفوسهم.

من هنا فإنَّ أئمةً انقلاب يحصل ويحدث في اوساط السادة والكبراء بان يؤمن أحدهم مثلاً كان كفيلاً بأن يحلَّ الكثير من المشاكل.

من هنا كان ثمة إصرار كبير على جزّ «الوليد بن المغيرة» الذي أصبح ابنه «خالد» في ما بعد من قادة الجيش الاسلامي والمشاركين في الفتوح الإسلامية إلى صف المؤمنين بالرسالة المحمدية، لأنه كان أسنَّ من في قريش وأكثرهم نفوذاً، وأعلامهم مكانة، وأقوامهم شخصية، وكان يُدعى حكيم العرب، وكانت العرب تحترم رأيه إذا اختلفت في أمر.

- إنهج البلاغة: قسم الخطب الرقم ١٩٢.

(481)

وقد كلّمه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذات يوم في ذلك وقد طمع في اسلامه، فبينما هو في ذلك إذ مرَّ به «ابن أم مكتوم»، فكلّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وجعل يستقرئه القرآن فشقَّ ذلك منه على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حتّى اضجره، وذلك أنه شغله عمّا كان فيه من أمر «الوليد». وما طمع فيه من اسلامه، فلما أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه، فنزل قوله تعالى:

(عَبَسَ وَتَوَلَّى. اِنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى. وَ مَا يَدْرِيكَ لَعَلَّهٗ يَزْكَى. اَوْ يَذَّكُرُ فَتَنْفَعُهُ الذِّكْرَى. اَمَّا مَنْ اسْتَعْصَى. فَاَنْتَ لَهُ تَصَدَّى. وَ مَا عَلَيْكَ اِلَّا يَرْكَى. وَ اَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى. وَ هُوَ يَخْشَى فَاَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى. كَلَّا اِنَّهَا تَذْكِرَةٌ. (1) (2))

وقد فنّد علماء الشيعة ومحققوهم هذه الرواية التاريخية، واستبعدوا صدور مثل هذا السلوك عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي امتدحه ربُّ العالمين بالخلق العظيم، ووصفه بالرفقة بالمؤمنين، وقالوا: ليس في الآيات ما يدل على أن الذي عبس وتولى هو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وقد روي عن الامام الصادق - عليه السلام - أنّ المراد رجلٌ من بني أمية، فإنّه عبس وتولى عند ما حضر «ابن أم مكتوم» الأعمى عند رسول الله فنزلت هذه الآيات توبيخاً له. (3)

* * *

3-تحریم استماع القرآن

كانت البرامج الواسعة التي دبرها الوثنيون في «مكة» لمكافحة الإسلام والحيلولة دون انتشاره بين القبائل والجماعات، تُنفذ الواحدة تلو الأخرى، ولكن دون جدوى، ودون ان يكسب أصحابها من ورائها أي نجاح، وإية نتائج على

(1) السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦٣ - ٣٦٤.

- 2 عبس: ١ - ١١.

- 3 مجمع البيان: ج ١٠، ص ٤٣٧، وقد شرح العلامة الطباطبائي في المجلد ٢٠ من تفسير الميزان عند تفسير سورة عبس شأن نزول هذه الآيات بصورة رائعة، وشكل بديع، واثبت بان فاعل عبس ليس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولا ينافي ذلك توجه الخطاب في «وما يدريك» إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(482)

المستوى المطلوب، فقد كانت تلك المؤامرات تفشل في كل مرة، ولا يجني المشركون منها سوى الخيبة والفشل، وسوى النتائج المعكوسة في أغلب الأحيان.

فقد مارسوا الدعاية ضد رسول الله فترة من الزمن ولكن لم يحالفهم التوفيق الكامل في ذلك، فقد وجدوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اكثر ثباتاً واستقامة في طريقه وأشد إصراراً على هدفه، وكانوا يرون بأعينهم بأن عقيدة التوحيد في انتشار مستمر ومتزايد، يوماً بعد يوم.

ولهذا قرّر سادة قريش وزعماء «مكة» المشركون أن يمنعوا الناس عن سماع القرآن. ولكي تتحقق خطتهم هذه وتلبس ثوب الوجود بنوا جواسيسهم في كل انحاء مكة ومداخلها ليمنعوا من يفتد إليها للحج أو التجارة من الاتصال بمحمد، ومنعه بكل صورة ممكنة، عن الاستماع إلى القرآن، وأعلن مناديتهم ما ذكره القرآن عند قوله تعالى:

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَعْلَمُونَ. (1))

لقد كان القرآن اقوى أسلحة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فقد القى رعباً عجبياً في نفوس الاعداء واقض مضاجعهم.

وكان اشراف قريش وأسيادها يرون بأعينهم كيف أن أعداء النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - (وهو أبوجهل) عندما مشى إليه ليستهزئ به، ويسخر منه، ما ان سمع آيات من القرآن، إلا وفقد السيطرة على نفسه، ولان قلبه، وأصبح من أصحابه ومؤيديه الأقوياء، ولهذا لم يكن أمام أولئك الاسياد إلا أن يمنعوا من سماع القرآن منعاً باتاً، ويحرموا التحدث إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - تحريماً قاطعاً. (2)

ولهذا كان الرجل منهم إذا أراد أن يسمع من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بعض ما يتلوه من القرآن وهو يصلي استرق

السمع دونهم فرقاً منهم، فان رأى أنهم قد عرفوا أنه يستمع منه ذهب خشيةً إذا هم فلم يستمع. (3)

واضعوا القرار ينقضون قرارهم!!

ولكن من الطريف العجيب أن نفس الذين كانوا يمنعون الناس بشدة عن الاستماع إلى القرآن، وكانوا يعدون كل من يتجاهل قرار (تحريم الاستماع إلى القرآن) مخالفاً يتعرض للملاحقة والعقاب، نقضوا بعد أيام من إصدار هذا القرار قرارهم وانضموا إلى صفوف المخالفين له في الخفاء.

فاذا بالذين يمنعون من سماع القرآن في العلن، يستمعون إليه في الخفاء!

واليك بعض ما جرى في هذا الصعيد:

خرج «أبوسفيان» و «أبو جهل» و «الخنس» ليلة ليستمعوا من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو يصلي من الليل في بيته، فاخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعت الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا، وقال بعضهم لبعض: لا تعودوا، فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل منهم إلى مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعت الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة، ثم انصرفوا، حتى إذا كانت الليلة الثالثة اخذ كل رجل منهم مجلسه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلعت الفجر تفرقوا، فجمعهم الطريق، فقال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود، فتعاهدوا على ذلك. ثم تفرقوا. (1)

* * *

4- منع الأشخاص من الايمان برسول الله

بعد خطة (تحريم الاستماع إلى القرآن) بدأوا بتنفيذ خطة أخرى وهي منع كل قريب وبعيد ممن رغبوا في الإسلام وقدموا إلى مكة ليتعرفوا على النبي، وعلى ما أتى به من كتاب ودين، من الاتصال بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

فبثت قريش جواسيسها في الطرق المؤدية إلى مكة ليتصلوا بمن يلقونه من هؤلاء ويبادروا إلى منعه من الاتصال برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والايمان برسالته، بشتى الحيل والاساليب.

واليك نموذجين حيين من هذا الامر.

«-1 الاعشى:»

وكان من شعراء العهد الجاهلي البارزين، وكانت قصائده تتناقلها مجالس السمر القرشية، وتتغنى بها محافل انسهم.

وقد بلغ «الاعشى» في كبره نبأ ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من التوحيد ومن تعاليم الإسلام العظيمة، وكان يعيش في منطقة نائية عن مكة، حيث لم تصل اليها أشعة الرسالة الإسلامية على وجه التفصيل بعد، ولكن ما قد سمع به من تعاليم الإسلام على نحو الاجمال قد اوجد في نفسه هياجاً خاصاً وحرك مشاعره فأنشأ قصيدة مطولة يمدح فيها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم خرج إلى مكة ليهديها إليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو في نفس الوقت يريد الإسلام.

ورغم ان تلكم القصيدة لا تتجاوز أبياتها ٢٤ بيتاً، ولكنها تعد من أفضل وافصح ما قيل من الشعر في الإسلام، وفي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في العهد النبوي ويوجد نصّها الكامل في «ديوان الأعشى» وقد قال فيها وهو يذكر بعض تعاليم الإسلام:

نبيّاً يرى ما لا يرون وذكره * أغار لعمرى في البلاد وأنجدا

فاياك والميتات لا تقربنها * ولا تاخذن سهماً حديداً لتقصدا

وذا النُصب المنسوب لا تُسكّنه * ولا تعبد الأوثان والله فاعبدا

ولا تقربن خرة كان سرها * عليك حراماً فانكحن او تأبداً

وذا الرحم القربى فلا تقطعنه * لعاقبة، ولا الاسير المقيدا

وسيح على حين العشبات والضحي * ولا تحمد الشيطان والله فاحمدا

(485)

فلما كان بمكة أو قريباً منها اعترضه جواسيس قريش و رجالها فسألوه عن أمره وقصده فاخبرهم بانه جاء يريد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليلسّم، وحيث أنهم كانوا يعرفون بأن «الاعشى» رجل يحب النساء والخمر حباً كبيراً لذلك عمدوا إلى الضرب على هذا الوتر لينفروه من الإسلام فقالوا له: يا أبا بصير (وهي كنية الاعشى) إنه يحرم الزنا.

فقال الاعشى: والله ذلك لأمر ما لي فيه من ارب.

فقالوا له: يا أبا بصير فأنه يحرم الخمر.

فقال الاعشى - وقد صُدِمَ بهذا الخبر - أما هذه فوالله في النفس منها لعلالات، ولكني منصرفٌ فاترؤى منها عامي هذا، ثم أتية

فأسلم!! فانصرف فمات في عامه ذلك، ولم يُعَدَّ إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

-2- الطفيل بن عمرو الدوسي:

وهو الشاعر العربي الحكيم العذب اللسان، صاحب النفوذ والكلمة المسموعة في قبيلته.

يروى انه قدم «مكة» ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بها، وكانت قريش تخشى ان يتصل بالنبى - صلى الله عليه وآله وسلم - فيسلم.

ومن البديهي أن اسلام رجل مثله كان ممّا يشق على قريش جداً ولهذا مشى إليه رجالٌ منهم وقالوا له - محذرين إياه من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

يا طفيل، إنك قدمت بلادنا، وهذا الرجل الذي بين أظهرنا قد اعضل بنا، وقد فرّق جماعتنا، وشتت أمرنا، وإنما قوله كالسحر يفرّق بين الرجل وبين ابيه، وبين الرجل وبين اخيه، وبين الرجل وبين زوجته، وإنما نخشى عليك وعلى قومك ما قد دخل علينا فلا تكلمنّه، ولا تسمعنّ منه شيئاً.

فعلت تحذيرات قريش فعلتها في نفس الطفيل وهم يكرّرونها عليه بقوة

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٨٦ - ٣٨٨.

(486)

وإصرار، حتى انه قرر ان لا يسمع من النبى - صلى الله عليه وآله وسلم - شيئاً، ولا يكلمه، وحشى أذنه - حين غدى إلى المسجد

للطواف - قظناً، خوفاً من أن يبلغه شيء من قول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو لا يريد ان يسمعه!!!

يقول الطفيل: فغدوت إلى المسجد فاذا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قائمٌ يصلي عند الكعبة، فقمثُ منه قريباً فسمعتُ

كلاماً حسناً من غير اختيار مني فقلت في نفسي: واتكل أُمي، والله اني لرجل لبيبٌ شاعرٌ ما يخفى على الحسنُ من القبيح، فما

يمنعني أن اسمع من هذا الرجل ما يقول، فان كان الذي يأتي به حسناً قبلته، وان كان قبيحاً تركته؟

فمكثت حتى انصرف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بيته فاتبعته حتى إذا دخل بيته دخلت عليه فقلت: يا محمد إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا للذي قالوا، فوالله ما برحوا يخوفونني أمرك حتى سردت أذني بكسرف لنلا اسمع قولك ثم أبى الله إلا أن يُسمعني قولك فسمعتُه قولاً حسناً، فاعرض عليّ أمرك، فعرض عليّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الإسلام وتلا عليّ القرآن، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه، ولا أمراً أعدل منه، فأسلمتُ وشهدتُ شهادة الحق. ثم قلت: يا الله نبيّ إني امرؤ مطاغ في قومي وأنا راجع إليهم، وداعيتهم إلى الإسلام.

ثم يكتب ابن هشام قائلًا: إن الطفيل لم يزل بارض «دوس» يدعوهم إلى الإسلام حتى هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة ومضى «بدر» و «أحد» و «الخنق» فقدم على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمن أسلم معه من قومه وهم سبعون أو ثمانون بيتاً ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخبير فلحقوا جميعاً برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخبير، وبقي مع النبيّ حتى قُبِضَ - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم سار مع المسلمين - في زمن الخلفاء إلى «اليمامة» وشارك في معركتها وقُتِلَ فيها. (1)

- 1 السيرة النبوية: ج 1، ص 382 - 385.

(487)

١٩

اسطورة الغرائق

قد يكون بين القراء من يودّ التعرف على اسطورة «الغرائق» التي رواها بعض مؤرخي السنّة ومعرفة جذورها كما يودّ التعرف على الأيدي الخفية التي كانت وراء اختلاق هذه الاسطورة، وأمثالها من الأكاذيب، والمفتريات.

كان اليهودُ وبخاصّة أخبارهم ولا يزالون العدو رقم واحد للإسلام.

وقد عمد فريقٌ منهم - مثل «كعب الاحبار» وغيره - ممّن تظاهروا باعتناق الإسلام إلى تحريف الحقائق باختلاق الأكاذيب وجعل الأخبار المفتراة على لسان الانبياء. (1)

ولقد أدرج بعضُ المؤلفين المسلمين بعض هذه المفتريات في مؤلفاتهم وجعلوها في عداد الحديث والتاريخ الصحيح من دون تمحيصها والتحقيق فيها، ثقة بكل من أظهر الإسلام وتظاهر بالإيمان، وانضم إلى صفوف المسلمين!!

ولكنّ اليوم حيث يجد العلماء فرصة اكبر للتحقيق في هذا النوع من الأحاديث والاحبار، والمنقولات والنصوص وبخاصة بعد أن توفرت لديهم، بفضل جهود طائفة من المحققين المسلمين القواعد والضوابط الكفيلة بتمييز

- وهي التي يُطلق عليها الاسرائيليات وقد ألفت في هذا المجال بعض الكتب.

(488)

الحسن عن القبيح، والصحيح عن السقيم، وفرز الحقائق التاريخية عن القصص الخيالية، والروايات الاسطورية.

من هنا لا ينبغي لكاتب مسلم ملتزم أن يعتبر كل ما يراه في مصنف تاريخي أو غير تاريخي متقدّم أمراً صحيحاً مقطوعاً بسلامته، ويرويه في كتابه من دون دراسة وتحقيق، وتمحيص وتقييم.

ماهي أسطورة الغرائق؟!!

يقولون: إن «الأسود بن المطلب» و «الوليد بن المغيرة» و «أمية بن خلف» و «العاص بن وائل» وهم من زعماء قريش و اسياها قالو لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

يا محمّد هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد فنشترك نحن وانت في الأمر!!

وقالوا ذلك رفاً للاختلاف، وتضييقاً لشقّة الخلاف فأنزل الله سبحانه سورة الكافرين التي امر فيها نبيّه أن يقول في جوابهم:

(لا أعبد ما تعبدون. و لا أنتم عابدون ما أعبد.)

ومع ذلك كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يرغب في أن يساوم قريشاً ويجار بهم وكان يقول في نفسه: ليت نزل في ذلك أمر يقربنا من قريش.

و ذات يوم وبينما كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يتلو القرآن عند الكعبة ويقرأ سورة «النجم» فلما بلغ قوله تعالى:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ. وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ.)⁽¹⁾

أجرى الشيطان على لسانه الجملتين التاليتين:

«بَلْكَ الْغَرَانِيقُ الْعُلَىٰ مِنْهَا الشَّفَاعَةُ تُرْتَجَىٰ. »

فقرأهما من دون إختيار، وقرأ ما بعدها من الآيات، ولمّا بلغ آية السجدة سجد هو ومن حضر في المسجد من المسلمين والمشركين أمام الاصنام، إلّا

(489)

«الوليد» الذي عاقه كبر سنه عن السجود!!

وفرح المشركون، وارتفعت نداءاتهم يقولون: لقد ذكر «محمّد» آلهتنا بخير.

وانتشر نبأ هذه المصالحة والتقارب بين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والمشركين، المهاجرين إلى الحبشة، فعاد على أثرها جماعة منهم إلى مكة، ولكنهم ما أن كانوا على مشارف «مكة» إلا وعرفوا بأن الأمر تغير ثانية، وأن ملك الوحي نزل على النبيّ وأمره مرة أخرى بمخالفة الاصنام ومجاهدة الكفار والمشركين، وأخبره بأن الشيطان هو الذي أجرى تينك الجملتين على لسانه، وانه لم يقله وأنه ليس من «الوحي» في شيء أبداً.

وعندئذ نزلت الآيات (٥٢ - ٥٤) من سورة «الحج» التي يقول الله تعالى فيها:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ.)

(لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبِهِمْ، وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أَوْتُوا العِلْمَ أَنَّهُ الحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.)

هذه هي خلاصة أسطورة «الغرائيق» التي أوردها «الطبري» في تاريخه⁽¹⁾ ويذكرها ويرددها المستشرقون المغرضون بشيء كبير من التحويل والتفصيل!!

محاسبة بسيطة لهذه الاسطورة

لنفترض أن «محمّد» لم يكن نبياً مرسلًا ولكن هل يمكن لأحد أن ينكر ذكاه وحنكته، وفطنته وعقله.

فهل لعاقل فطن، محدك لبيب مثله أن يفعل مثل هذا ؟

ان الذكيّ اللبيب الذي يجد انصاره يتكاثرون ويتزايدون يوماً بعد يوم

وتقوى صفوفهم أكثر فأكثر بينما تتفرق صفوف أعدائه ومناوئيه ويتناقص معارضوه وخصومُه، هل يقدم في مثل هذه الحالة على

عمل يوجب ان يسيء الجميع ظَنهم به، ويشك الصديق والعدو في أمره؟!!

هل تصدق أنت أيها القاريء الكريم أن رجلا ترك جميع الأموال والمناصب التي عرضتها قریش عليه، في سبيل دينه الحنيف،

وعقيدة التوحيد أن يصبح مرة أخرى من دعاة الشرك، ومرّوجي الوثنية؟؟!

إننا لن نصدّق بمثل هذا الاحتمال في حق مصلح أو سياسي عادي من الساسة والمصلحين فكيف برسول الله ونبّيه العظيم.

رأي العقل في هذه القصة:

1- إن العقل يحكم بان المرشدين الذين يبعثهم الله تعالى إلى البشرية لهدايتها وارشادها، وتزكيتها وتعليمها مصونون عن أي خطأ

وزلل بقوة (العصمة) التي أوتوها، إذ لو تعرض مثل هؤلاء إلى الخطأ والزلل في أمور الدين لزال ثقة الناس بهم وبكلامهم.

يجب علينا ان نقارن بين أمثال هذه القصص، وبين هذا الأصل العقائدي المنطقي ونعالج بواسطة معتقداتنا القوية المبرهنة متشابهات

التاريخ ومعضلاته.

إنّ من المسلّم أن عصمة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كانت تمنعه وتحفظه من أي نوع من هذه الحوادث في تبليغ رسالته

السموية.

2- إن هذه الاسطورة تقوم أساساً على أن النبيّ قد تعب من أداء مهمّته التي ألقاها الله سبحانه عليه، وقد شقّ عليه ابتعاد الوثنيين

عنه، فكان يبحث عن مخلص من هذا الوضع المتعب، يكون طريقاً - حسب تصوره - إلى إصلاح وضعهم!!

ولكن العقل يقضي بأن على الانبياء أن يكونوا صابرين حلماء أكثر ممّا يتصور، وأن يكونوا مضرب المثل عند الجميع في ذلك،

فلا يُحدثوا أنفسهم بالتهرب من المسؤولية وترك الساحة مطلقاً، مهما اشتدّت الظروف، وتأزّمت

الأحوال.

بينما لو صحّت هذه الرواية - الاسطورة - لكانت دليلاً على أنّ بطل حديثنا قد فقدّ عنان الصبر وأفلت منه زمام الثبات والاستقامة

وانه بالتالي تعب وملّ، وضني وكلّ، وهو أمرٌ لا ينسجم مع ما يحكم به العقل السليم في حق الأنبياء، كما لا يتفق كذلك مع ما عهدناه

من سوابق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن مستقبله أبداً.

إن مخلق هذه الاسطورة لم يمرّ بخاطره وباله أن القرآن الكريم شهد ببطلان هذه القصة، إذ يعد الله تعالى نبيه الكريم، بأن لا يتسرّب إلى القرآن أي شيء من الباطل إذ قال:

(لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. (1))

كما وعده أيضاً بأن يصونه عبر جميع أدوار البشرية من أي حادث سيء إذ قال سبحانه:

(إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون. (2))

ومع ذلك كيف يستطيع الشيطان الرجيم عدو الله أن ينتصر على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويسرّب إلى القرآن شيئاً باطلاً، ويصبح القرآن الذي تقوم معارفه وتعاليمه على أساس معاداة الوثنية ومحاربتها داعياً إلى الوثنية؟؟!!

إنه لأمر عجيب جداً أن يفترى مخلق هذه الاسطورة أمراً ضدّ التوحيد في موضع قد كذّبه القرآن قبل هذا المكان بقليل إذ قال الله تعالى:

(و ما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحى. (3))

فكيف يترك الله نبيه - وقد وعده بهذا الوعد - من دون حفيظ، ويسمح للشيطان بأن يتصرف في قلبه وعقله ولسانه؟؟ إن هذه الأدلة العقلية إنما تفيد من يكون مؤمناً بنبوّة محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ورسالته.

- [فصلت: ٤٢ .
- 2 الحجر: ٩ .
- 3 النجم: ٣ و ٤ .

(492)

وأما المستشرقون الذين لا يعتقدون بنبوته، ويعمدون إلى شرح ونقل وترديد أمثال هذه الأساطير للحطّ من شأن دينه ورسالته فلا تكفيهم هذه الدلائل، فلا بدّ أن ندخل معهم في البحث من باب آخر.

تكذيب القصة من طريق آخر

إنّ النصّ التاريخي يقول: إن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قرأ هذه السورة، وكبار قريش واكثرهم من عمالقة الكلام، وأبطال الفصاحة والبلاغة العربية حضور في المسجد ومنهم «الوليد بن المغيرة»، متكلم العرب ومنطيقها المفوّه المعروف بينهم بالذكاء وحصافة العقل والنباهة، وقد سمعوا جميعاً هذه السورة إلى ختامها حيث سجد الجميع بسجنتها.

فكيف اكتفى هذا الجمع المؤسس للفصاحة والبلاغة الذين كانوا ينقدون كل ما يعرض عليهم نقداً دقيقاً؟

كيف اكتفوا بتبنيك الجملتين اللتين امتدحتنا آلهتهم، وقد تضمنت الآيات السابقة عليهما، واللاحقة لهما على شتم آلهتم وتفنيدها، والازدراء بها بصورة صارخة و صريحة؟!

كيف تصور مختلق هذه الاكذوبة الفاضحة، تلك الجماعة أصحاب اللغة العربية وآبائها ونقاد الكلام المعدودين عند العرب كلها من عمالقة الفصاحة والبلاغة بلا منازع، والذين كانوا أعرف من غيرهم بإشارات تلك اللغة، وكنياتها (فضلاً عن تصريحاتها).

كيف اكتفى هؤلاء بتبنيك العبارتين في امتداح آلهتهم، وغفلوا عما سبقها ولحقها من الذم لها والظعن الصارخ فيها؟

إنه لا يمكن قط أن نخدع العاديين من الناس بهاتين الجملتين المحفوفتين بكلام مطول يذم عقائدهم وسلوكهم فكيف بمن عُرف باللب، والحصافة، والحكمة والذكاء؟

وها نحن ندرج هنا الآيات المتعلقة بالمقام ونترك أصفاراً (و فراغاً) في مكان

(493)

الجملتين اللتين أدعي اضاقتهم، ثم نترك للقاريء نفسه أن يقيم بنفسه هل لتبنيك الجملتين مكانٌ بين هذه الآيات (التي وردت في ذم الاصنام والقدح فيها): وإليك هذه الآيات:

(أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ (1)...أَلَكُمُ الذَّكْرُ وَ لَهُ الْأُنثَىٰ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ * إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمِيَّتُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ. (2))

ثم هل يسمع إنسانٌ عادياً لنفسه أن يكف عن معاداة نبيِّ هاجم عقائده طيلة عشرة اعوام، وهدر إستقلاله وكيانه، وجرَّ عليه الشقاء بتسفيه أحلامه، و شتم آلهته، لعبارات متناقضة وكلام خليط من الذم الكبير والمدح العابر.

دليلٌ لغويٌّ على تفنيد هذه الاسطورة

يقول العلامة الجليلُ الشيخ محمدٌ عبده: لم يُستعمل لفظ الغرائيق في الآلهة أبداً لا في اللغة ولا في الشعر العربي. (3)

و «غرنوق» و «غرنيق» اللذان جاءا في اللغة استعمالاً في نوع من طيور الماء أو الشاب الجميل، ولا يتطبق أيُّ واحد من هذه المعاني على الآلهة.

وقد اعتبر احدُ المستشرقين يدعى «السيروليم موبير» قصة «الغرائيق» هذه من مسلمات التاريخ واستدل لها بقوله: لم يكن يمض على هجرة المهاجرين الاول إلى الحبشة اكثر من ثلاثة أشهر يوم صالح محمدٌ قريشاً فعادوا إلى مكة.

إن المسلمين الذين هاجروا إلى تلك الأرض وكانوا يعيشون في أمن وطمأنينة في جوار النجاشي إذا لم يكونوا يبلغهم نبأ مصالحة النبي لقريش لما عادوا إلى مكة للقاء بنوهم.

فإذن لا بد أن «محمداً» قد تذرّع بشيء لمصالحة قريش، والتقرب إليها،

-
- 1مكان الجملتين المزعومتين: تلك الغرائق... إلى آخرها.
 - 2النجم: ١٩ - ٢٣.
 - 3نقله عنه القاسمي في تفسيره: ج ١٢، ص ٥٥ - ٥٦.

(494)

وهذا الشيء هو قصة الغرائق. (1)!!»

ولكن يجب أن نسأل هذا المستشرق المحترم:

أولا: لماذا يجب أن تكون عودة المهاجرين ناشئة عن نبأ صحيح حتماً.

إن النفعيين وذوي الأهواء والأغراض يسعون دائماً إلى بثّ عشرات بل مئات الأخبار الكاذبة بين جماعتهم لتحقيق مآرب خاصة لهم، فما الذي يمنع من أن نحتمل أن هناك من افتعل خبر مصالحة النبي لقريش بهدف إرجاع المهاجرين من الحبشة إلى «مكة». وقد صدق بعض أولئك المهاجرين هذا الخبر الكاذب فعادوا إلى أرض الوطن، بينما لم ينخدع الآخرون بها وبقوا في الحبشة ولم يعودوا إلى مكة؟؟؟

ثانياً: لنفترض أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يريد أن يصلح قريشاً، فهل يكون الطريق إلى السلام والمصالحة منحصراً في افتعال هاتين الجملتين.

ألم يكن إعطاء مجرّد وعد مناسب أو مجرّد السكوت عن عقابهم كافياً لتهدئة خواطرهم، واجتذاب قلوبهم نحوه؟

وعلى كلّ حال فإن عودة المهاجرين لا يكون دليلاً على صحة هذه الأسطورة كما أن المصالحة، والتقارب غير متوقفين على النطق بهاتين الجملتين.

والأعجب من هذا أن البعض تصوّر الآيات (٥٢ - ٥٤ من سورة الحج) قد نزلت في قصة الغرائق.

وحيث أن هذه الآيات قد وقعت ذريعة بأيدي المستشرقين ومرتكبي جريمة التحريف في التاريخ، فإننا نعمدُها إلى توضيح مفاد هذه الآيات، ونبين للقارئ بأنها تنظر إلى امر آخر، ولا ترتبط بهذه القصة بتاتاً.

وها هو نصُّ الآيات المشار إليها:
(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ * إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكُمُ اللَّهُ آيَاتِهِ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ*)

- [راجع حياة محمَّد: ص ١٦٥ و ١٦٦ .

(495)

لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةَ قُلُوبُهُمْ وَ إِن الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ وَ لِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَ أَنَّ اللَّهَ لَهُاد الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.)

والآن يجب أن نبين مفاد الآيات ولنبدأ بالآية الأولى:

انَّ الآية الأولى تذكِّرُ بثلاثة أمور هي:

-1[انَّ الأنبياء والرسل يتمنون.

-2[انَّ الشيطانَ يتدخَّل في تمنياتهم.

-3[انَّ الله يمحي آثار ذلك التدخَّل.

وبتوضيح هذه النقاط الثلاث يتضح مفاد الآية والمراد منها.

واليك توضيح تلكم النقاط الثلاث:

-1[ما هو المقصود من تمني الانبياء والرسل

لقد كان الأنبياء والرسل يجيئون هداية أممهم، ونشر دينهم وتعاليمهم فيها، وكانوا يدبرون أموراً ويخططون خطأً لتحقيق أهدافهم هذه، كما كانوا يتحملون في هذا السبيل كل المتاعب والمصاعب، ويثبتون في جميع المشكلات والمحن.

ولم يكن رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - مستثنى عن هذه القاعدة، فقد كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يخطط لتحقيق أهدافه كثيراً، ويهييء مقدمات ويبين القرآن هذه الحقيقة بقوله:

(وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى.)

فأتضح إلى هنا المراد من لفظ تمنى ولنشرح الآن النقطة الثانية.

-2 ما هو المقصود من تدخل الشيطان؟

إن تدخل الشيطان يمكن أن يتم على نحوين:

1- أن يوجد الشك والترديد في عزم الانبياء، ويوحى إليهم بأن هناك

(496)

عوائق كثيرة تحول بينهم وبين أهدافهم، ولذلك لن يحرزوا نجاحاً في تحقيق تلك الأهداف.

2- بأن الأنبياء كلما مهّدوا لأمر وهياؤوا له مقدّماته، وظهرت منهم أمارات تدلّ على أنهم مقدمون على تنفيذه فعلا أقام الشيطان ومن تبعه من شياطين الانس العراقل والموانع في طريقهم، ليمنعواهم من الوصول إلى غاياتهم.

أما الاحتمال الأول فلا ينسجم لا مع الآيات القرآنية الأخرى ولا مع الآية اللاحقة.

أما من جهة الآيات الأخرى فلأن القرآن ينفي بصراحة لا صراحة فوقها أنه لا سلطان للشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين (ولو بأن يصوّروا لهم بأنهم لن يقدرُوا على تحقيق آمالهم، وأهدافهم) إذ يقول:

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان⁽¹⁾.) ويقول أيضاً:

(إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون⁽²⁾.)

إن هذه الآيات، والآيات الأخرى التي تنفي سلطان الشيطان على أولياء الله وعباده الصالحين، وتأثيره في قلوبهم ونفوسهم لخير شاهد وأفضل دليل على أنّ المقصود من تدخل الشيطان في تمنيات الأنبياء ليس بمعنى إضعاف عزيمتهم، وإرادتهم وتكبير الموانع والعراقل في نظرهم.

أما من جهة الآيات المبحوثة فإن الآية الثانية والثالثة تفسّر وتشرح علّة التدخل على النحو الآتي:

إننا نختبر بهذا العمل فريقين من الناس: الفريق الأول: الذين في قلوبهم مرض، والفريق الثاني: الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر.

يعني أنّ تدخّل الشيطان في أعمال الأنبياء عن طريق تحريك الناس ضدّهم وضدّ أهدافهم يوجب مخالفة الفريق الأوّل ومعارضتهم للأنبياء في حين يكون الأمر على العكس من ذلك في الفريق الثاني فإنه يزيد من ثباتهم وصدورهم.

- [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥].
- [النحل: ٩٩].

(497)

وان بيان أن لتدخل الشيطان في تمنيات الانبياء، مثل هذين الاثرين المختلفين (أي يحمل فريقا على المخالفة وفريقا آخر على الثبات والصدور) يفيد أن المراد بالتدخل هنا هو المعنى الثاني، يعني ان التدخل يحصل عن طريق تحريك الناس ضدّهم، وإلقاء الوسواس في قلوب أعدائهم، وخلق الموانع والعراقيل في طريقهم لا أنهم يتصرفون في نفوس الأنبياء وقلوبهم ويضعفون ارادتهم وعزمهم.

إلى هنا اتضح معنى تدخّل الشيطان في تمنيات الانبياء والرسل.

والآن حان الحين لتوضيح المطلوب الآخر يعني محو آثار هذا التدخل.

-3- ما هو المقصود من محو آثار التدخل؟

إذا كان معنى تدخّل الشيطان هو تحريك الناس وتآليبهم ضد الانبياء ليمنعوا الأنبياء والرسل من التقدم في أهدافهم، فإن محو آثار التدخل الشيطاني من قبل الله - حينئذ - يكون بمعنى ان الله يدفع عن أنبيائه ورسله كيد الشيطان ليتضح الحقّ للمؤمنين، ويكون إختياراً لمرضى القلوب كما يقول تعالى في آية أخرى.

(إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالدِّينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا. ^(١))

وخلاصة القول: أن القرآن يخبر - في هذه الآيات - عن سنة لله قديمة في مجال الأنبياء وهي:

إن تمّني التقدم في الأهداف وتمّني التوفيق في هداية الناس هو فعل الانبياء دائماً.

ثم يأتي الدور لتدخل الشيطان وأتباعه من شياطين الإنس والجنّ، وذلك بايجاد الموانع والعقبات في طريق الأنبياء والرسل.

ثم يأتي من بعد ذلك حلول المدد الالهي الغيبي بمحو وفسخ كلّ التدابير الشيطانية المضادة لأهداف الانبياء المعرّفة لتحقيق أمانتهم

وهذه هي إحدى السنن الالهية الثابتة التي جرت في جميع الأمم السالفة.

(498)

إن تاريخ الأنبياء والرسل وقصصهم من نوح وإبراهيم وأنبياء بني إسرائيل وبخاصة موسى وعيسى - عليهما السلام - ، و تاريخ حياة الرسول الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - خير شاهد على هذا المطلب .

وينبغي إستكمالاً لهذا البحث أن نقول: ولأجل ما ورد على هذه القصة الأسطوية من مؤاخذات رفضها وفندها بعض المحققين من أهل السنة إذ قال بعد ذكرها على النحو الذي ادرجها الطبري في تاريخه وأرسله ارسال المسلمات:

وأهل الأصول يدفعون هذا الحديث بالحجة.

ومن صححه قال فيه أقوالاً:

منها: ان الشيطان قال ذلك وأداعه والرسول عليه الصلاة والسلام لم ينطق به .

(وذكر وجوهاً أخرى ثم قال:) والحديث على ما خيلت غير مقطوع بصحته. (1)

- [راجع هوامش السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٦٤ .

(499)

٢٠

الحصار الاقتصادي والاجتماعي

إن أبسط وسيلة وأسهلها لضرب الأقليات في أي مجتمع، والقضاء عليها هو ما يسمى بالمكافحة السلبية التي تقوم أساساً على اتحاد الأكثرية واتفاقها على مقاطعة الأقلية المتمردة.

إن عكس هذا يحتاج إلى أدوات متعددة مختلفة، لأنه يتطلب مثلاً ان يحمل جماعة من المقاتلين السلاح، وتتوجه نحو الاهداف المطلوبة عبر التضحية بقدر كبير من الأنفس والأموال، وازالة العشرات من الموانع والسواتر، وهو أمر لا يُقدم عليه القادة المحنكون إلا بعد توفر كل مستلزمات المواجهة واتخاذ جميع التدابير اللازمة، والاستعداد الكامل، وبالتالي لا يقدمون على هذه الخطوة ما لم تدعو الضرورة اليها، وتنحصر الحيلة في القتال.

ولكنّ المكافحة السلبية لا تتوقف على مثل هذه الأمور، بل تحتاج إلى أمر واحد وهو اتفاق الاكثرية.

يعني أن يتفق من يعينهم الأمرُ ولهم عقيدة واحدة ويتحالفوا في ما بينهم بصدق على أن يقطعوا كلَّ صلاتهم وعلاقاتهم بالأقلية المعارضة، فيحرّموا التعامل التجاريّ معهم ويوقفوا الاتصال العائليّ بهم، ولا يشركونهم في اعمالهم الاجتماعية ولا يتعاونوا معهم في أمورهم الشخصيةً أيضاً.

(500)

في مثل هذه الحالة تضيق الأرض على الأقلية بما رحبت وتغدو الدنيا لهم على سعتها كسجن ضيق وصغير، ويصيرون عُرضة للانهياب والسقوط بأقلّ قدر ممكن من الضغط عليها.

إن الاقلية المخالفة المتمردة ربما تستسلم - في هذه الحالة - وتؤوب من منتصف الطريق، وتطيع إرادة الأكثرية.

ولكن أقلية كهذه لا بد أن تكون ممّن لا تعود مخالفتها للأكثرية إلى أمر عقائديّ ولا يكون لانفصالها عن الأكثرية طابعٌ أصوليّ مبدئيّ، كما لو كان خلافها مع الأكثرية مثلاً على تحصيل ثروة أو منصب مهمّ أو ما شاكل ذلك.

فان مثل هذه الاقلية إذا أسست بخطر جدّي، أو واجهت العذاب والسجن والحصار ستراجع عن مخالفتها وتعود إلى طاعة الأكثرية مؤثرة اللذة العابرة المؤقتة على اللذة الإحتمالية، لأنها لم تنطلق من دوافع ايمانية اصيلة، ولم يكن المحرك لها محركاً روحياً معنوياً .

ولكن الجماعة التي يقوم خلافها للأكثرية على أساس الإيمان بهدف مقدس، لن تنصاع أبداً لمثل هذه الضغوط، ولن تنتهي أمام هذه الرياح والعواصف، ولا يزيدها ضغط الحصار الأصلاية وقوة، وإصراراً وعناداً، وتردُّ جميع ضربات العدو بالصبر والإستقامة .

إن صفحات التاريخ البشريّ تشهد بأن أقوى العوامل لثبات كل أقلية وصمودها في وجه الأكثرية هو: قوة الإيمان، وعاملُ الإعتقاد، الذي ربما يؤدي رسالة الثبات والمقاومة ببذل آخر قطرة دم في ساحة المواجهة.

ولنا على هذا عشرات بل ومئات الأمثلة من التاريخ الغابر والحاضر.

قريشٌ تحاصر النبيّ والمسلمين اقتصادياً واجتماعياً

لقد شقَّ على قريش انتشار الإسلام المتر ايد وأزعجها نفوذه العجيب في القبائل العربية في مدة غير طويلة بالنسبة إلى عمر الدعوة ولهذا كانت تفكر باستمرار في حلّ لهذه المشكلة.

فان اسلام شخصيات ذات أهمية ومكانة كبرى مثل حمزة، وكذا رغبة فتية قريش المتفتحين في الإسلام، وحرية العمل والتحرك التي اكتسبها المسلمون على اثر الهجرة إلى أرض الحبشة، كل ذلك زاد من حيرة، واضطراب الزعامة الجاهلية في مكة، التي زادها حيرة، وانزعاجاً، فشل جميع مخططاتها الاجهازية ضد الإسلام والمسلمين، وعدم حصولها على أية نتائج تذكر!!

من هنا فكرت في خطة جديدة، وهي ان تفرض حصاراً اقتصادياً قوياً على النبيّ والمسلمين تقطع به كل الشرايين الحيوية للمسلمين، وبذلك تحدّ من سرعة انتشار الإسلام وتقف دون نفوذه، وبالتالي تخنق بين كمشاة هذا الحصار مؤسس هذه العقيدة التوحيدية، وأنصاره.

ولهذا اجتمع زعماء قريش في «دار الندوة» ووقّعوا ميثاقاً كتبته «منصور بن عكرمة» وعلّقه في جوف الكعبة، وتحالفوا بان تلتزم قريش ببئوده حتّى الموت.

ونصّ هذا العقد على الأمور التالية:

1- أن لا يبتاعوا من أنصار النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا يبيعوهم شيئاً.

2- أن لا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم.

3- أن لا يؤكلوهم ولا يكلموهم.

4- أن يكونوا يداً واحدة على «محمّد» وأنصاره.

وقد وقّعت على هذه الصحيفة الظالمة القاطعة كلّ الشخصيات البارزة في قريش إلا «مطعم بن عدي» وأعلنت عن سريان مفعوله بكل قوة وإصرار.

فلما علم حامي النبي الاكبر أبوطالب - عليه السلام - بذلك جمع بني هاشم و بني المطلب وحملهم مسؤولية الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والحفاظ على حياته وسلامته، وأمرهم بالخروج من مكة وبدخول شعب كائن بين جبال مكة كان يعرف بشعب أبي طالب فيه بعض البيوت العادية، والسقائف البسيطة جداً، والسكنى في ذلك الشعب بعيداً عن المجتمع المكّي المشرك.

وعمد إلى بث رجال منهم في نقاط مرتفعة للمراقبة والحراسة تحسباً لأي

هجوم مباغت تقوم به قريش. (1)

وقد استمر هذا الحصار ثلاثة أعوام كاملة، وبلغ الجهدُ بالمحاصرين في الشعب بحيث ارتفع صراخ الأطفال من الجوع والضر، وبلغت هذه الصرخات مسامع قساة مكة إلا أنها لم تؤثر فيهم قط.

كان الشباب والرجال منهم يعيشون على ثمرة واحدة طوال اليوم، وربما تتناصف اثنان ثمرة واحدة، ولم يمكنهم الخروج من الشعب طوال هذه السنوات الثلاث إلا في الأشهر الحرم حيث يسود الأمنُ كل انحاء الجزيرة العربية.

فاذا حلَّ الموسمُ كانت بنو هاشم تخرج من الشعب فيشترون ويبيعون ثم يعودون إلى الشعب إلى الموسم الثاني.

وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يستغلُّ هو أيضاً تلك المواسم في نشر دينه، والدعوة إلى ما أتى به.

وكانت عناصر قريش تحاول مضايقة النبي وأنصاره وتمارس الحصار الاقتصادي عليهم بشكل من الأشكال حتى في هذه المواسم، فكانوا يحضرون عند مواقع البيع والشراء فاذا وجدوا مسلماً يريد أن يبتاع شيئاً اشتروه بثمن أعلى ليمنعوا المسلم منه!!

وكان «أبو لهب» أكثر الناس اصراراً على هذا العمل، فقد كان ينادي في الأسواق: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا معكم شيئاً فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي فانا ضامن أن لا خسار عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع الرجل المسلم إلى اطفاله وهم يتضاغون من الجوع وليس في يديه شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما

- [السيرة النبوية: ج ١، ص 350، وتاريخ الطبري: ج ٢، ص ٧٨، وقد كتبت هذه الصحيفة الظالمة في الليلة الأولى من السنة السابعة للبعثة وعندما عرف ابوطالب بأمرها أنشد قصيدة في ذمهم مطلعها:

ألم تعلموا أنا وجدنا محمداً * نبياً كموسى خُطَّ في أول الكتب

(503)

اشتروا من الطعام واللباس. (1)!!

وكان «الوليد بن المغيرة» ينادي: أيما رجل منهم وجدتموه عند طعام يشتريه فزيدوا عليه فكانت قريش تباكرهم إلى الأسواق فيشترونها فيغنونها عليهم.

وضع بني هاشم المأساوي في الشعب

لقد بلغ الجهد والجوع بالمحاصرين في الشعب حدّاً جعلهم يأكلون كل ما تقع عليه أيديهم من الخبط وورق السمر حتّى أن «سعد بن أبي وقاص» يقول: لقد جعلت حتّى أني وطنئت ذات ليلة على شيء رطب فوضعتة في فمي وبلعته، وما أدري ما هو إلى الآن. (2)

هذا وقد بنّت قريش جواسيسها على الطرق المؤدّية إلى الشعب ليمنعوا من إيصال الطعام إلى من فيه فلا يصل إليهم شيء إلاّ سرّاً و مستخفياً به ممّن أراد صلّتهم من قريش.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» (ابن اخ خديجة) و «أبو العاص بن الربيع» و «هشام بن عمرو» كانوا يسرّبون إلى «بني هاشم» في الشعب سرّاً وفي أواسط الليل تحت جناح الظلام، فكان الواحد منهم يحمل قمحاً وتمراً على بعير ويأتي به إلى باب الشعب ثم يصيحُ بها فتدخلُ الشعب ويأكله بنو هاشم.

وربما صادفهم بعض جواسيس قريش، فهُمّوا بقتله، أو سبّوا له بعض المتاعب.

فقد روي أن «حكيم بن حزام» خرج يوماً ومعه انسان يحمل طعاماً إلى عمته خديجة بنت خويلد (زوجة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكانت معه في الشعب طيلة أعوام الحصار) إذ لقيه «أبو جهل» فقال له: تذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت ولا طعامك حتّى أفضحك عند قريش بمكة.

(1) و (2) السيرة النبوية: ج 1، ص 337 الهوامش.

فقال له أبو البخترى - وكان من أعداء الإسلام هو أيضاً - : تمنعه أن يرسل إلى عمته بطعام كان لها عنده؟

فأبى «أبو جهل» أن يدعه إلا أن يأخذه إلى قريش، فقام إليه «أبو البخترى» بساق بعير فضربه ووطأه وطناً شديداً. (1)»

وخلاصة القول؛ أن قريشاً بالغت في تضيق الحصار على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن تبعه حتّى أن من كان يدخل «مكة» من العرب. كان لا يجسر على أن يبيع من بني هاشم شيئاً ومن باع منهم شيئاً انتهبوا ماله، وكان «أبو جهل»، و «العاص بن وائل» و «النضر بن الحارث بن كلة»، و «عقبة بن أبي معيط» يخرجون إلى الطرقات التي تدخل «مكة» فمن رأوه معه ميرة وطعام نهوه ان يبيع من بني هاشم شيئاً، ويحذرون إن باع شيئاً منهم نهبوا ماله.

كما وعدوا على من أسلم فارتقوهم وأذوهم واشتدّ البلاء عليهم، وأبدت قريش لبني عبدالمطلب الجفاء.

ولكن لم يستطع كل ذلك أن يفتت في عضد النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ويقلل من إصراره وثباته على الطريق، ولا من إصرار أتباعه وثباتهم وإيمانهم.

وأخيراً تركت صرخات أطفال بني هاشم في الشعب من الجوع والعري والجهد والضرر، وأوضاعهم المأساوية أثرها في نفوس بعض المشركين الموقعين على تلك الصحيفة الظالمة، وذلك الميثاق المشؤوم، فندموا على إمضائهم لتلك المقاطعة بشدة وصاروا يفكرون في نفضها بشكل من الأشكال.

فمشى «هشام بن عمرو» إلى «زهير بن أبي أمية» (وكان من أحفاد عبدالمطلب من جانب بناته) وقال له وهو يحثه على نقض الصحيفة: يا زهير أقد رضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتنكح النساء، وأحوالك حيث قد علمت لا يُباعون ولا يُبتاع منهم، ولا يُنكحون ولا يُنكح إليهم؟

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٤، هذا ويشكك أحد المحققين في نوايا حكيم بن حزام في هذا العمل، وفي أن يكون قد حصل بدافع الوفاء لوشيجة القرى، بل كان بدافع الربح الاكثر لما ثبت - حسب قوله - من انه كان يحتكر الطعام على عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(505)

أما إنني أحلف بالله أن لو كاثوا أخوال أبي الحكم (أي أبي جهل) ثم دعوته إلى ما دعاك إليه منهم ما أجابك إليه أبداً؟

فقال زهير: ويحك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ والله لو كان معي رجلٌ آخر لقمْتُ في نفضها حتى أنقضها. قال: قد وجدت رجلاً.

قال فمن هو؟ قال: أنا.

قال له زهير: أبغنا رجلاً ثالثاً. فذهب إلى «المطعم بن عدي» فقال له يا مطعم أقد رضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، وأنت شاهدٌ على ذلك، موافقٌ لقريش فيه! أما والله لئن أمكنتموهم من هذه لتجدنهم إليها منكم سراعاً؟

قال: ويحك! فماذا أصنع؟ إنما أنا رجلٌ واحدٌ.

قال: قد وجدت ثانياً.

قال: من هو؟ قال: أنا.

قال: أبغنا ثالثاً.

قال: قد فعلتُ.

قال: من هو؟

قال: زهير بن أبي أمية.

قال: ابغنا رابعاً.

فذهب إلى «البخترى بن هشام» فقال له نحواً مما قال للمطعم بن عدي، فقال: وهل من أحد يعين علي هذا؟

قال: نعم.

قال: من هو؟

قال: «زهير بن أبي أمية» و «المطعم بن عدي» وأنا معك.

فقال: ابغنا خامساً.

فذهب إلى «زمعة بن الأسود بن المطلب» فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم فقال له: وهل على هذا الأمر الذي تدعوني إليه من أحد؟

(506)

قال: نعم... ثم سمى له القوم الذين وعدوه بالمساعدة على نقض تلك الصحيفة القاطعة الظالمة.

فاتفقوا على أن يحضروا في أندية قريش في المسجد ويُعلِنُوا مخالفتهم لتلك الصحيفة.

فلما أصبحوا غدوا إلى مجلس قريش في المسجد الحرام فأقبل «زهير بن أبي أمية» على الناس وقال:

يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى لا يُباع لهم ولا يُبتاع منهم؟ واللّه لا أقعد حتى تشقّ هذه الصحيفة القاطعة الظالمة.

فقال أبو جهل وكان في ناحية المسجد: كذبت واللّه لا تشقّ.

فانتصر زمعة لزهير وردّ على أبي جهل قائلاً: أنت واللّه أكذب، ما رضينا كتابها حيث كتبت.

وقال أبوالبختري من ناحية مؤيداً موقف زميله: صدق زمعة لا نرضى ما كتب فيها، ولا نقرّ به.

وقال المطعم بن عدي: صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها.

وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك.

فأحسن أبو جهل بأن ذلك كان أمراً مبيّناً مدبراً من قبل فقال:

هذا أمرٌ فُصِي بليلى، تُشور فيه بغير هذا المكان.

وكان أبو طالب - حسب بعض الروايات التاريخية - جالساً ذلك اليوم في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقّها فوجد

(الإرضة) ⁽¹⁾ قد أكلتها، إلا «باسمك اللهم» التي صُدّرت بها تلك الصحيفة وهي جملة كانت قريش تبدأ بها عهودها ورسائلها.

فلما رأى «أبو طالب» ذلك رجع إلى الشعب وأخبر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [وهي دودة بيضاء شبه النملة وهي آفة كل شيء من خشب أو نبات راجع لسان العرب مادة: ارض].

(507)

بما جرى، وعاد المحاصرون في الشعب إلى منازلهم مرة أخرى بعد المشورة مع «أبي طالب».

ويروي طائفة من المؤرخين أنّ «خديجة» و «أبا طالب» أنفقا أموالهما برمتها خلال سنوات المحاصرة.

وفجأة نزل ملك الوحي «جبرئيل» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الشعب، وأخبره بان الله قد بعث على صحيفة

المشركين القاطعة دابة الأرض فلحست (أو اكلت) جميع ما فيها من قطيعة وظلم وتركت جملة «باسمك اللهم» فأخبر رسول الله

أباطال بذلك قائلاً يا عم إنّ ربّي الله قد سلط «الإرضة» على صحيفة قريش فلم تدع فيها إسماً هو لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها

الظلم والقطيعة والبهتان.

فقال أبو طالب: إذن لا يدخل عليك أحدٌ. ⁽¹⁾

ثم قام ولبس ثيابه، ومشى هو ورسول الله وشخص آخر حتّى دخلوا المسجد على قريش وهم مجتمعون فيه، فلما دنا أبو طالب منهم

قاموا إليه وعظّموه، وتباشروا وظنوا أن الحصر والبلاء حمل أباطال على التخلّي عن موقفه، فقالوا له: قد آن لك أن تطيب نفسك

عن قتل رجل في قتله صلاحكم وجماعتكم (أو قد آن لك أن تسلّم إلينا ابن أخيك).

فقال أبو طالب: والله ما جئت لهذا، ولكن ابن أخي أخبرني ولم يكذبني أن الله تعالى أخبره أنه بعث على صحيفتكم القاطعة دابةً فلحست جميع ما فيها من قطيعة رحم وظلم وجور وترك اسم الله، فهلم صحيفتكم فإن كان حقاً فاتقوا الله وارجعوا عما أنتم عليه من الظلم والجور وقطيعة الرحم.

وإن كان باطلاً دفعته إليكم فإن شئتم قتلتموه، وإن شئتم استحيتموه.

فقالوا: رضينا، وتعاقدوا على ذلك.

- [وإنما اتخذ مثل هذا الاجراء حتى لا يفشوا ذلك الخبر فيبلغ المشركين فيحتالوا للصحيفة ويكذبوا بذلك خبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

(508)

ثم بعثوا إلى الصحيفة وأنزلوها من الكعبة، وعليها أربعون خاتماً.

فلما أتوا بها نظر كل رجل منهم إلى خاتمه، ثم فكوها فإذا ليس فيها حرفٌ واحدٌ إلا «باسمك اللهم»، كما أخبرهم بذلك رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

غير أن هذا لم يوجب هدايتهم بل زادهم شراً وعناداً ورجع بنو هاشم مرة أخرى إلى الشعب ويقوا محاصرين فيه مدة من الزمن ولم يمكنهم الرجوع إلى منازلهم بمكة إلا بعد أن نقضها هشام.

وقد قال «أبو طالب» في مدح هذا (أي نقض الصحيفة القاطعة والنفر الذين قاموا بنقضها) قصيدة مطولة جاء في مطلعها.

ألا هل أتى بحرئنا (1) صنع ربنا * على نأيهم والله بالناس أروذ (2)

فيخبرهم أن الصحيفة مزقت * وإن كل ما لم يرضه الله مُفسد (3)

هذه أمثلة ونماذج من ردود الفعل الظالمة والمواقف المناوئة التي اتخذتها قريش تجاه الدعوة المحمدية.

على أنه لا يمكن الادعاء القطعي بأن جميع هذه الردود قد وقعت على الترتيب الذي ذكرناه تماماً، ولكن يمكن بمراجعة النصوص التاريخية تحصيل مثل هذا الترتيب وخاصة أن مسألة انتهاء المحاصرة الاقتصادية قد وقعت في منتصف شهر رجب من السنة العاشرة للبعثة الشريفة.

كما أنّ أذى قريش وردود فعلها ضدّ الإسلام والمسلمين وضدّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - خاصّة لم تنحصر في ما ذكرناه في هذه الفصول بل كانت هناك أساليب أخرى سلكتها قريش لتحطيم شخصية النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وأضعاف عزيمته مثل وصفهم للنبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بالأبتر.

فقد كان «العاصم بن وائل السهمي» إذا ذكر رسول الله قال: دعوة، فأثما هو رجلٌ أبترٌ لا عقب له، لومات لا تقطع ذكره واسترحتم منه.

-
- 1 يقصد من هاجر من المسلمين إلى الحبشة في البحر.
 - 2 أي أرفق.
 - 3 السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٧٧ - ٣٨٠ و قد أدرج ابن هشام القصيدة بتمامها، فراجع.

(509)

فانزل الله تعالى في ذلك سورة الكوثر التي يقول فيها:

(بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَأَنْحَرْ * إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ .)

وقد أخبر بها الله نبيّه بأنه سيهبه ذرية كثيرة. (1)

ولقد كتب العلامة الفخر الرازي في تفسيره لهذه السورة: (2) المعنى أنه يعطيه نسلاً يبقون على مرّ الزمان، فانظر كم قُتل من أهل البيت؟ ثم العالم ممتلئ منهم، ولم يبق من بني أمية في الدنيا أحدٌ يُعبأ به.

ووجه المناسبة أن الكافر شمت بالنبيّ حين مات أحد أولاده وقال: ان محمداً ابتر فان مات ذكره، فانزل الله هذه السورة على نبيّه تسلياً له كأنه تعالى يقول: ان كان ابنك قد مات فانا اعطيناك فاطمة، وهي وإن كانت واحدة وقليلة، ولكن الله سيجعل هذا الواحد كثيراً.

-
- 1 السيرة النبوية: ج ١ ص ٣٩٣ و جميع التفاسير.
 - 2 مفاتيح الغيب: الجزء الثلاثون، سورة الكوثر.

(510)

(511)

٢١ وفاة أبي طالب وخديجة الكبرى

في الوقت الذي كنا نسطر فيه مواضيع هذا الفصل كان سجن «القطيف» يضم بين جدرانه شاباً حر الضمير شجاعاً مقداماً له يكن له من ذنب إلا أنه ألف كتاباً باسم «أبو طالب مؤمن قريش» يتناول إسلام «أبي طالب» وإيمانه وإخلاصه مثبتاً كل ذلك من مصادر أهل السنة. (1)

فطلبت منه السلطات القضائية في الحجاز - وفي عصر يتسم بحرّية التفكير والبيان والإعتقاد - بأن يتراجع عن كلامه، وحيث إنه لم يكن ليبريد أن ينكر حقيقة اعتقد بها عن قناعة ويقين، حكمت عليه تلك السلطات بالاعدام.

وقد نجا هذا الفتى الشجاع والكاتب الحرّ من الاعدام اثر جهود اسلامية واسعة وخُفِضت عقوبته إلى الحبس المؤبد، الذي خفّض اثر جهود اسلامية مرّة أخرى إلى عقوبة الجلد ثمانين جلدة!!

وهو الآن يلبث في أحد السجون بانتظار المصير، المجهول إذ على المسلمين إما أن يهتموا بالأمر ويطلبوا من السلطات القضائية السعودية صرف النظر عن

- [والكتاب يقع في ٣٤٠ صفحة طبع بحجم الوزيري وطبع في بيروت مراراً وقدم عليه الأديب اللبناني المعروف «بولس سلامة» صاحب ملحمة الغدير و ملاحم أخرى.

(512)

عقوبته، بل والافراج عنه نهائياً.

وإما أن يفقد هذا الشاب المجاهد الشجاع البريء حياته تحت سياط تلك السلطات الجائرة الحاكمة زوراً وقهراً على أرض الحجاز. (1)(2)

لقد سقطت مؤامرة الحصار الاقتصادي ضدّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بفعل إقدام ثلّة من ذوي المروءة وأيضاً بفضل صمود النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وثباتهم العظيم. وخرج النبيّ وأنصاره من «شعب أبي طالب» بعد ثلاث سنوات من النفي والعذاب وعادوا إلى منازلهم ظافرين مرفوعي الرؤوس.

وعاد التعامل الاقتصادي مع المسلمين إلى ما كان عليه قبل الحصار، وكانت أوضاع المسلمين تسير نحو الانتعاش والانفراج شيئاً فشيئاً، وإذا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يُفاجأ بحادث مؤلم مَرَّ ذلك هو وفاة شخصية كبرى أحدث فقدانها أثراً سيئاً في نفوس المسلمين وبخاصة المستضعفين منهم.

ولقد كان هذا الأثر عظيماً جداً بحيث لا يمكن قياسه بشيء بالنظر إلى تلك الظروف الحساسة، وذلك لأن نمو أية عقيدة وفكرة إنما يكون في ظل عاملين أساسيين: أحدهما: حربة التعبير، والآخر: القوة الدفاعية التي تحمي أصحاب تلك العقيدة والفكرة ضدّ حملات الخصوم التي لا ترحم.

ولقد كان المسلمون - آنذاك - يتمتعون بحرية البيان والتعبير، ولكنهم افتقدوا بسبب الحادث المفاجيء المذكور العاملَ الجوهري والمصيري الثاني يعني: حامي الإسلام والمدافع الوحيد عنه الذي وافته المنية في تلك الايام الحساسة

- إلقِد سَمِيَّتْ أَرْضِي «الحجاز» و «نجد» و «تهامة» باسم عائلة واحدة هي آل سعود، واخيراً حملت هذه المنطقة التي كانت تُعرف وحتى إلى ما يقرب من قرنين بارض الحجاز اسم المملكة العربية السعودية، ياله من استنثار وجرأة على المقدسات!!
- 2 واخيراً نجا هذا الشاب المؤمن والمجاهد الحرّ بفضل جهود علماء الشيعة و مفكرهم المتضافرة والواسعة النطاق وأخلي سبيله وقد زار - للاعراب عن شكره - مدينة قم المقدّسة وقد التقينا به أيضاً كما زار اماكن أخرى لنفس الغرض.

(513)

وخرم المسلمون بوفاته من حمايته ودفاعه، ووقايته.

* * *

أجل لقد فقد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حاميهِ العظيم الذي تولى مهمة كفالاته والدفاع عنه، والمحافظة على حياته بصدق وإخلاص وجدّ و رغبة وكان يقيه بنفسه وذويه ويؤثره على نفسه وأولاده وينفق عليه من ماله حتى كَبُرَ وصار له مال وطول منذ أن كان - صلى الله عليه وآله وسلم - في السنة الثامنة من عمره وحتى يوم وفاة ذلك الحامي العظيم، ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الخمسين من عمره.

لقد فقد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شخصيةً خاطبها عبدُالمطلب عند وفاته بالشعر قاتلاً:

أوصيك يا عبد مناف بعدي * بموحد بعد أبيه فرد

فأجابه أبوطالب قاتلاً: يا أبة لا توصين بمحمد فانه إبني وابن أخي. (1)

ولعلّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تذكر في اللحظة التي ظهر فيها على جبين ابي طالب عرق الموت جميع الحوادث الحلوة والمرّة وقال في نفسه:

- [إن هذا الشخص المسجى على فراش الموت هو عمّه الرؤوف الذي ظلّ يحرسه بالليل والنهار طيلة سنوات الحصار في الشعب، فاذا جاء الليل قام عند رأسه بالسيف يحرسه. ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مضجع ثم يقيمه من فراشه إذا مضى شطراً من الليل ويضعه في موضع آخر ويضع مكانه ولده «علي بن ابي طالب» حتّى لا تغتاله قريش بعد أن رصّوا مكانه، وكمناوا له، وكان يفعل أبوطالب ذلك طوال الليل كله فيفديني بولده «علي» ويقيني به حتّى إذا قال له «علي» ليلة:

«يا أبتاه إني مقتول ذات ليلة.»

فأجابه أبوطالب بنبرة المتحمّس الصبور:

- [عمدة الطالب: ص ٦ وفيه بواحد، المناقب: ج ١، ص ٢١.]

(514)

إصْبِرْ يَا بُنَيَّ فَالْصَبْرُ أَحْسَنُ * كُلُّ حَيْ مَصِيرُهُ لِشُعُوبِ

قَدْ بَلَوْنَاكَ وَالبَلَاءُ شَدِيدٌ * لِفِدَاءِ النَّجِيبِ وَابْنِ النَّجِيبِ

فأجابه «علي» بكلام أكثر حلاوة وعمقاً قائلاً:

أَتَأْمُرُنِي بِالصَّبْرِ فِي نَصْرِ أَحْمَدَ؟ * وَوَاللَّهِ مَا قُلْتُ الَّذِي قُلْتَ جَازِعاً

وَلكِنِّي أَحَبُّبْتُ أَنْ تَرَى نَصْرَتِي * وَتَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَزَلْ لَكَ طَائِعاً⁽¹⁾

- [إن هذا الجثمان الذي فارقتّه الروح هو جثمان عمّي العطوف الذي شردّه هو وذووه، وعرض نفسه وأهله للبلاء والمحنة بسبب الحصار لأجلي، وأمر بأن يحرسوني ليل نهار، تاركاً زعامته وسيادته، وكلّ شؤونه للحفاظ علىّ والإبقاء على رسالتي وأرسل إلى قريش رسالة قوية أعلن فيها عن وفوه إلى جانبي وانه لن يسلمني ويخذلني مادام حيّاً إذ قال:

فَلَا تَحْسِبُونَا خَائِلِينَ مُحَمَّداً * لذي غُرْبَةٍ مِنَّا وَ لَا مُتَقَرِّبِ

سَتَمْنَعُهُ مِنَّا يَدٌ هَاشِمِيَّةٌ * وَ مَرَكِبُهَا فِي النَّاسِ أَحْسَنُ مَرَكِبِ⁽²⁾

بعد أن تحقق موت «أبي طالب» ارتفع الصراخ والنحيب من منازل بيوته، واجتمع حول بيته العدو والصدق، والقريب والبعيد، واشترك الجميع في مراسم دفنه بقلوب آلمتها الفجيعة به، وقزحها الحزن عليه.

وهل ترى تنتهي آثار وردود فعل وفاة شخصية عظيمة الشأن مثل «أبي طالب» الذي كان زعيم قريش، وسيد عشيرته بمثل هذه السرعة، والبساطة؟

كلا بل سيكون لفقدانه أكبر الأثر على مسيرة الدعوة كما ستعرف ذلك مستقبلاً.

نماذج من مشاعر أبي طالب

إن التاريخ البشري يحتفظ في صفحاته بأمتلة كثيرة عن مشاعر تبادلها

- 1 مناقب ابن شهر آشوب: ج 1، ص 64، الحجة: ص 70، بحار الأنوار: ج 19، ص 1 - 19.
- 2 بحار الأنوار: ج 19، ص 4.

(515)

الأشخاص وعواطف وديّة قويّة أباها البعض تجاه بعض تدور أكثرها حول محور الدوافع المادية كالتي تدور حول معيار الجمال أو المال، ولهذا سرعان ما يذهب الحماس وتنطفئ شعله الحب، ويتضاءل لهيب العاطفة في كيانهم حتى تزول بالمرّة ولا يبقى منها شيء أبداً لعدم ثبات هذه الدوافع.

ولكنّ المشاعر والعواطف التي تنبع من أواصر الإيمان بفضائل شخص ما وكمالاته الروحية والمعنوية لا تتمحي ولا تتلاشى بسرعة.

وقد كانت مودة «أبي طالب» لمحمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - وحبّه الشديد له تنبع من كلا هذين الدافعين.

فقد كان «أبو طالب» يؤمن بمحمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - ويرى فيه من جانب الإنسان الكامل، بل يعتبره في قمة الكمال الإنساني، ومن جانب آخر كان «محمّد» ابن أخيه، وقد أحله ذلك من قلبه محلّ الابن والأخ.

لقد كانت لصفات «محمّد» وخصاله المعنوية والأخلاقية، وطهره مكانة كبرى في قلب عمّه «أبي طالب» إلى درجة أنه كان يصطحبه معه إلى المصلّى، ويستسقي به أي انه يقسم على الله بمقامه أن يدفع عن الناس القحط والجذب وينزل عليهم الغيث، فكانت دعوته تستجاب من دون تأخير.

فقد نقل كثيرٌ من المؤرخين الحادثة التالية:

قحط الناسُ في «مكة» وحواليها سنةً من السنين، ومنعتِ السماء والأرضُ بركاتها عنهم بشكلٍ عجيب، فمشت قريشُ بعيونٍ باكيةٍ إلى «أبي طالب» تطلب منه بالحاح أن يستسقي لهم، وإن يذهب إلى المصلى ويدعو ربّه لينزّل عليهم المطر وينقذهم من تلك المحنة الصعبة.

فخرج «أبو طالب» وقد أخذ بيد غلامٍ كأنه شمسٌ دجن تجلّت عنها غمامة فاسند ظهره إلى الكعبة ورفع وجهه نحو السماء وقال: يا رب هذا الغلام اسقنا غيثاً مغيثاً، دائماً هاطلاً.

ويكتب المؤرخون ان السماء كانت صافية لا غيم فيها أبداً ساعة استسقى «أبو طالب» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولكن ما ان فرغ «أبو طالب» من دعائه

(516)

إلّا وأقبلت السحاب في الحال، وغطت سماء «مكة» وما حولها من المناطق القريبة إليها، وارتعدت السماء وأبرقت ثم جرى غيث عظيم سالت به الأودية، وروّت القريب والبعيد، وسرّ به الجميع ورضوا. (1)

وقد اشار «أبو طالب» في لا ميته المعروفة إلى هذه الحادثة.

وقد أنشأ «أبو طالب» تلك القصيدة في أحلك الظروف واشدها، يوم زادت قريشٌ من ضغوطها على حامي الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ليسلم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إليها.

وقد ذكّر فيها «أبو طالب» قريشاً بحادثة الاستسقاء برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل الإسلام وكيف أنها أمطرت ببركته، بعد قحط طويل، وجذب مهلك، كاد يبديد الحرث والضرع، وذلك عندما يقول:

وابيض يُستسقى الغمامُ بوجهه * ربيع اليتامى عصمة للأرامل

تلوّدُ به الهلاك من آل هاشم * فهم عندّه في نعمة وفواضل

وقد نقل «ابن هشام» في سيرته (2) أربعة وتسعين بيتاً من هذه القصيدة، فيما أورد «ابن كثير» الشامي في تاريخه (3) اثنتين وتسعين بيتاً فقط.

وهي قصيدة في منتهى الروعة والعذوبة، وفي غاية القوة والجمال، وتفوق في هذه الجهات كل المعلقات السبع التي كان عرب الجاهلية يفتخرون بها، ويُعدونها من أرقى ما قيل في مجال الشعر والنظم.

وقد أورد «ابو هفان العبدى» الجامع لديوان «أبي طالب» مائة واحد وعشرين بيتاً من هذه القصيدة في ذلك الديوان، ويمكن أن تكون كل تلك القصيدة وتمامها.

ونحن نورد هنا أبياتاً متفرقة من هذه القصيدة مما يتصل منها برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بصورة صريحة.

-
- 1بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٢ و ٣، السيرة الحلبية: ج ١، ص ١١١ - ١١٦، الملل والنحل المطبوع بهامش الفصل في الأهواء والملل: ج ٣، ص ٢٢٥.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٨٠.
- 3البداية والنهاية: ج ٣، ص ٥٢ - ٥٧.
-

(517)

كذِبْتُمْ وبيتِ الله نيزى محمداً * ولما نطاعن دونه و نناضل⁽¹⁾

وئسلّمه حتّى نُصرّع دونه * ونذهل عن أبنائنا والحلائل

لعمري لقد كلفتُ وجداً بأحمد * وإخوته دأبَ المحبِّ الموصل

فلا زال في الدنيا جمالا لأهلها * وزيناً لمن والاه ربُّ المشاكل⁽²⁾

فَمَنْ مثله في الناس أي مؤمِّل * إذا قاسه الحكام عند التفاضل

حليمٌ رشيدٌ عادلٌ غير طائش * يُوالي إلاها ليس عنه بغافل

لقد علموا أنّ ابننا لا مكذبٌ * لدينا ولا يُعنى بقول الأباطل

فأصبحَ فينا احمدٌ في أرومة * تقصّر عنه سورة المنظول⁽³⁾

حدّبتُ بنفسى دونه وحميته * ودافعتُ عنه بالدرا والكلال⁽⁴⁾

فأيدّه ربُّ العباد بنصره * وأظهرَ ديناً حقه غير باطل⁽⁵⁾

التغيير في برنامج السفر

لم يكن يمض أكثر من إثني عشر ربيعاً من عُمر «محمد» بعد، عندما أراد «أبو طالب» التوجّه إلى الشام مع قافلة قريش التجارية

وعندما استعدت القافلة لمغادرة مكة ودق جرس الرحيل، أخذ «محمد» فجأة بزمام الناقة التي كان يركبها عمه وكافله «أبو طالب» بينما اغرورقت عيناه - صلى الله عليه وآله وسلم - بالدموع وقال:

«يا عمّ إلى من تكلني، لا أب لي ولا أم»؟.

هذا المشهد المؤثر وبخاصة عند ما رأى «أبو طالب» عيني محمد وقد اغرورقت بالدموع، فعل فعلته في نفس العم الكافل الحنون، فاندردت عبرات العطف من عينيه وقرر من فوره ومن دون سابق تفكير في الموضوع أن يصطحب ابن أخيه «محمدًا» معه في هذا الرحلة، ومع أنه لم يحسب لهذا الامر - من قبل -

-
- 1 أي تُغَلَّبَ عليه.
 - 2 المشاكل: العظيّمات من الامور.
 - 3 السورة: الشدة والبطش.
 - 4 الذرا: جمع ذروة وهي اعلى ظهر البعير.
 - 5 راجع السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٨٠.

(518)

أي حساب فان «أبو طالب» قبل بان يتحمّل كل ما يترتب على قراره هذا، فحمله معه على ناقته، وبقي يفكر في أمره، ويدبّر شأنه، ويحافظ عليه طوال تلك الرحلة، وشهد منه اثناء الطريق كرامات وخوارق، وقد أنشأ في ذلك قصيدةً موجودةً في ديوان أبي طالب، ومطلع هذه القصيدة هو:

إنّ ابن أمانة النبيّ محمّداً * عندي يفوقُ منازلَ الأولاد⁽¹⁾

* * *

الدِّفاعُ عن حوزة العقيدة والايمان

ليست هناك قوةٌ تساعد على الثبات والمقاومة، والصمود والاستقامة، مثل قوة الايمان، فالايمان بالهدف هو العامل القوي وراء تقدّم الإنسان في ميدان الحياة، فهو الذي يهضم في نفسه كل الالام والمتاعب، ويدفع بالمرء إلى المضي قدماً في طريق الوصول إلى أهدافه المقدّسة، حتّى ولو كلفه ذلك التعرض للموت.

إنّ الجنديّ المسلّح بقوة الإيمان منتصرٌ لا محاله.

إن الجنديّ الذي يعتقد بأن الموت في طريق العقيدة هو عين السعادة لا يبدّ أن يحرز النصر.

إن على الجندي - قبل أن يسلّح نفسه بسلاح العصر - أن يتزود في قلبه من طاقة الإيمان بالهدف، ويضيء قلبه بمصباح الاعتقاد بالحقيقة، وحيّتها، ويجب أن يكون جهادُه وصلحُه من أجل العقيدة والدفاع عن حوزتها، وكيانها.

إنّ أفكارنا وعقائدنا نابعة من روحنا، وفي الحقيقة أنّ فكر الإنسان ولید عقله، فكما أنّ الإنسان يحبّ ولده الجسماني حباً شديداً كذلك يحب أفكاره التي هي ولادته وعقله وروحه، بل إن حبّ الإنسان لعقيدته أكثر من حبّه

- [ديوان أبي طالب: ص ٣٣ - ٣٥، تاريخ ابن عساکر: ج ١، ص ٢٦٩ - ٢٧٢، الروض الأنف: ج ١، ص ١٢٠.

(519)

لأولاده الجسمانيّين، ولهذا فهو يدافع عن عقائده حتّى الموت، ويغضي - في سبيل الدفاع عن حوزة العقيدة والحفاظ عليها - عن كل شيء بينما هو غير مستعدّ لأن يضحي بنفسه في سبيل الحفاظ على اولاده.

إنّ حب المرء للمال والمنصب حبّ محدود، فهو ينساق مع هذا الحبّ مادام لم يهدّد حياته خطر الموت الحقيقي، ولكنّه مستعد لأن يمضي - في سبيل الدفاع عن حياض العقيدة - إلى حدّ الموت، ويؤثر الموت الشريف في سبيل العقيدة على الحياة، ويرى الحياة الحقيقية والواقعية في وجود الرجال المجاهدين، وهو يردد:

«إنما الحياة عقيدة وجهاد⁽¹⁾.»

ولنلق نظرة فاحصة على حياة بطل حديثنا (ونعني به المدافع الوحيد عن الإسلام وحامي الرسول الاوحد في بدايات عهد الرسالة) فماذا كان دافعه إلى هذا الامر، وما الذي كان يحركه في هذا السبيل؟ واي شيء كان وراء مضيئه في هذا الطريق إلى حافة العدم، والغضب عن النفس والنفيس، والمقام، والقبيلة وغير ذلك والتضحية بكل ذلك في سبيل «محمّد» - صلى الله عليه وآله وسلم - .

إن من المتيقّن أن دافعه إلى ذلك لم يكن المحرك المادّي، وبالتالي لم يقصد من وراء الدفاع عن ابن اخيه، وحمائته، والحدب عليه، كسب أمر مادي كتحصيل مال وثروة، لأن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يكن له يومئذ مال، ولا ثروة.

وكما أن مقصود «أبي طالب» لم يكن أيضاً تحصيل مقام، وأحراز مكانة اجتماعية لأنه كان يملك في ذلك المجتمع أعلى المناصب واهمها، فقد كانت له رئاسه «مكة» والبطحاء، بل هو فقد منصبه وشخصيته الممتازة و مكانته المنقولة بسبب دفاعه عن «محمّد»، وعدم الاستجابة لقومه في تسليمه اليهم، والتخلي عنه لأن دفاعه عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد استوجب سخط زعماء قريش عليه واستيائهم من موقفه، وخروجهم عن طاعته، ودفعهم إلى التمادي

- [المراد من العقيدة المقدسة هو بطبيعة الحال ما تدوب «الأنا» فيها في التوحيد والايان بالله إذ هنا يصدق قوله:

قف عند رأيك واجتهد * إن الحياة عقيدةٌ وجهاد

(520)

في معادة «بني هاشم» و «أبي طالب» والثورة عليهم!!

تصوّر باطلٌ

ربما يتصور بعض ضعفاء البصيرة أن علة حذب «أبي طالب» على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والتضحية في سبيله بالنفس والنفيس كانت هي: علاقة القربى، وشيجة الرّحم، أو بتعبير آخر: إن التعصب القبليّ، والعصبية القومية هو الذي دفع بأبي طالب إلى ان يعرّض نفسه لكل ذلك المكروه في سبيل ابن اخيه.

ولكنّ هذا ليس سوى مجرد تصور باطل لا غير، ويتضح بطلانه بدراسة مختصرة لأنه لا تستطيع أية وشيجة قربي على أن تدفع أحداً إلى أن يضحي بنفسه في احد أقربائه إلى هذه الدرجة من التضحية والمفاداة، بحيث يقي مثلا ابن أخيه عليه، ويكون مستعداً لأن يتقطّع ولده بالسيوف إرباً إرباً دون ابن أخيه.

إن العصبية القبائلية والعائلية وان كانت تدفع بالانسان حتّى إلى حافة الموت، ولكن لا معنى لان تختص، هذه الحماية الناشئة عن العصبية العائلية والقبيلية الشديدة بفرد واحد، وشخص خاص معين من أفراد العائلة والقبيلة، في حين نجد «أبا طالب» قد قام بكل هذه التضحية في سبيل شخص واحد، وفرد معين (أي النبيّ)، ولا يفعل مثل هذه في سبيل غيره من أبناء «عبدالمطلب» و «هاشم» وأحفادهما ومن ينتمي إليهم بوشيجة القربى ورابطة الرحم.

الدافع الحقيقي لأبي طالب

وعلى هذا الأساس فإنّ المحرك والدافع الحقيقي لأبي طالب لم يكن أمراً مادياً ولا الجاه والمنصب، أو التعصب القومي، والعائلي، بل كان أمراً معنوباً وأن ضغوط العدو وقوّته كانت تدفعه إلى الاستعداد للقيام بأي نوع من أنواع التضحية وذلك الأمر المعنوي هو اعتقاده الراسخ برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعتبر «محمّداً» مظهرأ كاملاً للفضيلة والإنسانية ويعتبر دينه أفضل برنامج

(521)

للسعادة، وحيث أنه كان يحبُّ الحقيقة، ويعشق الكمالَ والحقَّ، لذلك كان من الطبيعيّ أن يدافع عن الحق والحقيقة، وينصرهما بكل وجوده، وبكل قواه.

وهذا المعنى هو المستفاد من قصائد «أبي طالب» وأشعاره، فهو يصرح بأن «محمّداً» رسولٌ كموسى وعيسى إذ يقول:

لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا * نَبِيًّا كَمُوسَى وَ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ

أَتَانَا يَهْدِي مِثْلَ مَا أَتَى بِهِ * فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَ يَعْصِمُ⁽¹⁾

ويقول في قصيدة أخرى:

أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا * نَبِيًّا كَمُوسَى خَطَّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ⁽²⁾

هذا وتعتبر أبياته التي سبق أن أشرنا إليها والمنات من أمثالها مما جاء ذكره في ديوان أبي طالب، وفي ثنايا التاريخ والتفسير والحديث شواهد حية وقوية على أن محرك «أبي طالب» الواقعي ودافعه الحقيقي إلى الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان هو اعتقاده الخالص، وإسلامه الواقعي ولم يكن له أي دافع آخر سوى الإيمان والعقيدة.

ونحن هنا نكشف النقاب عن بعض مواقفه في الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحمانيته بعد اضطراره بعبء الرسالة، ونترك لك أيها القارئ بأن تدقق في مثل هذه المواقف الفدائية ثم تقضي بنفسك: هل تتبع مثل هذه التضحية، ومثل هذا التفاني، والفداء إلا من الإيمان والاعتقاد؟؟

* * *

لمحات من تضحيات أبي طالب

اجتمع أسياذ قريش وأشرافها في بيت أبي طالب والنبىّ - صلى الله عليه وآله وسلم - حاضر، وتبودلت بين الجانبين أحاديث حول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- 1مجمع البيان: ج ٧، ص ٣٧، الحجّة: ص ٥٦ - ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ٢، ص ٦٢٣ و ٦٢٤.
- 2مجمع البيان: ج ٧، ص ٣٦، وقد نقل ابن هشام في السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٢ و ٣٥٣ خمسة عشر بيتاً من هذه القصيدة.

ودينه وما خلق من مشكلات في مكة، وحاول القرشيون اثناء النبيّ عن دعوته وعمله ولكن دون جدوى فلما يسّوا من الحصول على النتيجة التي كانوا يريدونها نهضوا من مكانهم ليتركوا بيت «أبي طالب» قال «عقبة ابن أبي معيط» غاضباً مهدداً: لا نعود إليه أبداً، وما خير من أن نغتال محمّداً!!

فغضب «أبو طالب» من هذه الكلمة، ولكنه ماذا عساه أن يفعل فهم ضيوفه، وفي بيته. واتفق أن خرج النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - من البيت في ذلك اليوم ولم يعد، وجاء «أبو طالب» وعمومته إلى منزله فلم يجدوه، فجمع قتياناً من بني هاشم وبني المطلب، ثم قال - وهو يظن ان قريشاً كادت برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليأخذ كل واحد منكم حديدة صارمة ثم ليتبعني إذا دخلت المسجد، فلينظر كل فتى منكم، فليجلس إلى عظيم من عظمائهم فيهم ابن الحنظلية - يعنى أبا جهل - فانه لم يرغب عن شر ان كان محمّداً قد قتل، فقال الفتيان: نفعل فجاء زيد بن حارثة فوجد أبا طالب على تلك الحال فقال: يا زيد أحسست ابن أخي؟ قال: نعم كنت معه آنفاً.

فقال أبو طالب: لا ادخل بيتي أبداً حتّى أراه.

فخرج زيد سريعاً حتّى اتى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو في بيت عند الصفا ومع أصحابه يتحدّثون فاخبره الخبر، فجاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى أبي طالب فقال: يا ابن أخي: ابن كنت؟ اكنّت في خير؟ قال: نعم، قال: ادخل بيتك، فدخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فلما اصبح أبو طالب غدى على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فاخذ بيده فوقف على اندية قريش ومع الفتيان الهاشميون والمطلبيون فقال: يا معشر قريش هل تدرون ما هممتُ به؟ قالوا: لا، فاخبرهم الخبر، وقال للفتيان اكشفوا عما في ايديكم، فكشفوا، فاذا كل رجل منهم معه حديدة صارمة. فقال: واللّه لو قتلتموه ما بقّيت منكم أحداً حتّى نتفانى نحن و انتم، فانكسر القوم وكان اشدهم انكساراً أبوجهل.⁽¹⁾

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ١٦٨، الطرائف: ص ٨٥.

لو لاحظت أيها القارئ الكريم هذه الصفحات وغيرها من تاريخ «أبي طالب»، ودرست حياته لرأيت كيف ان «أبا طالب» ظل طوال اثنين وأربعين سنة بأيامها ولياليها يحذب على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويدافع عنه، ويحامي، وبخاصة في السنوات العشر الاخيرة من حياته التي صادفت بعثة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودعوته، فقد أظهر من الدفاع عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والحرص على حياته، وحماية هدفه أكثر مما يتصور.

ولقد كان العامل الوحيد الذي دفعه إلى مثل هذا الموقف الراسخ العظيم في هذا السبيل هو: عمق الايمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وقوة الاعتقاد الخالص برسالاته.

ولو أننا ضمنا إلى تضحياته الشخصية تضحيات ولده العزيز «عليّ» لأدركنا مغزى البيتين الذين انشدهما «ابن ابي الحديد» المعتزلي الشافعي إذ قال:

ولولا أبوطالب وابنه * لما مثلَ الدِّينُ شخصاً وقاما

فذاك بمكّة أوى و حامى * و هذا بيثرب جِسَّ الحماما⁽¹⁾

قضية ذات بواعث سياسية:

ليس من ريب في أنه لو ثبت عُشر هذا القدر من الشواهد الدالة على اسلام «أبي طالب» وإيمانه بالرسالة المحمدية، لغيره ممن هو بعيدٌ عن قضايا السياسة، وخارج عن دائرة الحقد والبغض لا تفق الجميع سنةً وشيعةً على إسلامه وإيمانه، ولكن كيف ذهب فريقٌ إلى تكفير «أبي طالب» مع كلِّ هذه الشواهد القويّة القاطعة على إيمانه؟ حتّى أنّ فريقاً من الكتاب ذهب إلى أن بعض الآيات المشعرة بالعذاب نزلت في شأنه.

- [شرح نهج البلاغة: ج ١٤ ص ٨٤، يقول ابن أبي الحديد: صنف بعض الطالبيين في هذا العصر كتاباً في اسلام أبي طالب، وبعثه إليّ، وسألني ان اكتب عليه بخطي نظماً أو نثراً اشهد فيه بصحة ذلك، وبوثاقة الأدلة عليه (إلى ان قال) فكتبت على ظاهر المجلد هذه الابيات.

(524)

بينما توقّف في هذا الأمر، وذهب أفراد معدودون من علماء السنة إلى الحكم باسلامه وإيمانه، ومنهم «زيني دحلان» مفتي مكة المتوفى سنة ١٣٠٤ من الهجرة.

ولكن الانصاف هو ان يقال: أن الهدف من طرح هذه المسألة والتوقف في ايمان «أبي طالب» أو تكفيره لم يكن إلاّ الطعن في أبنائه، وبخاصة أمير المؤمنين الامام عليّ - عليه السلام - .

ولقد جرّ بعض كتّاب السنّة - لتبرير تكفير أبي طالب - هذه المسألة إلى غير ابي طالب ووسع دائرة التكفير هذه حتّى شملت آباء النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - أيضاً حيث ذهب إلى أن أبوي النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ماتا كافرين أيضاً.

ونحن لا يهمنا هنا أن نعلم بأن تكفير والدي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مخالفٌ لاجماع الامامية والزيدية، وكذا جماعة من علماء السنة، ومحققهم، إنما الكلام هو حول من اتَّهموا ببساطة متناهية حامي النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - الوحيد والمدافع عنه بلا منازع.

الأدلة على إيمان أبي طالب

إن التعرّف على عقيدة أحد، ومعرفة نمط تفكيره، يمكن عن ثلاث طرق هي:

1- دراسة ما ترك من آثار علمية وأدبية.

2- أسلوب عمله، وتصرفاته في المجتمع.

3- رأي أقربائه، وأصدقائه غير المغرضين فيه.

ونحن نستطيع أن نتعرّف على إيمان «أبي طالب» وعقيدته من خلال هذه الطرق.

فإن أشعار «أبي طالب» تدل بجلاء لألبس فيه على إيمانه وإخلاصه، وكذا تكونُ خدماته القيمة في السنوات العشر الأخيرة من عمره شاهداً قوياً على إيمانه العميق.

(525)

كما وأن رأي أقربائه المنصفين متفق على أنّ «أبا طالب» كان مسلماً مؤمناً ولم يقل أحدٌ من أقربائه، في حقه بغير هذا أبداً.

واليك إثبات هذا الموضوع عن هذه الطرق الثلاث على وجه التفصيل:

آثار أبي طالب العلمية والأدبية

نحن نختر هنا من بين قصائد «أبي طالب» المطوّلة، بعض الأبيات التي تثبت إيمانه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، واعتقاده بالاسلام، في غير ابهام.

1- لِيَعْلَمَ خِيَارُ النَّاسِ أَنَّ مُحَمَّدًا * نَبِيٌّ كَمُوسَى وَ الْمَسِيحِ بْنِ مَرْيَمَ

أَنَا بَهْدِي مِثْلَ مَا أَتِيَابَهُ * فَكُلُّ بِأَمْرِ اللَّهِ يَهْدِي وَ يَعْصِمُ⁽¹⁾

2- تَمَنَيْتُمَا أَنْ تَقْتُلُوهُ وَإِنَّمَا * أَمَانِيكُمْ هَذَا كَأَحْلَامِ نَائِمِ

نَبِيٌّ أَنَاهُ الْوَحْيُ مِنْ عِنْدِ رَبِّهِ * وَمَنْ قَالَ لَا يَقْرَعُ بِهَا سِنَّ نَائِمِ⁽²⁾

3- أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَا وَجَدْنَا مُحَمَّدًا * رَسُولًا كَمُوسَى خُطِّ فِي أَوَّلِ الْكُتُبِ

وَأَنَّ عَلَيْهِ فِي الْعِبَادِ مَحَبَّةً * وَ لَا حَيْفَ فِي مَنْ خَصَّهُ اللَّهُ بِالْحُبِّ (3)

4- وَاللَّهِ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ بِجَمْعِهِمْ * حَتَّى أَوْسَدَ فِي التَّرَابِ دَفِينًا

فَاصْدَعْ بِأَمْرِكَ مَا عَلَيْكَ غَضَاضَةٌ * وَابْشِرْ بِذَلِكَ وَقَرَّ مِنْكَ عُيُونًا

وَدَعَوْتَنِي وَعَلِمْتُ أَنَّكَ نَاصِحٌ * وَلَقَدْ دَعَوْتَ وَ كُنْتَ تَمَّ أَمِينًا

وَلَقَدْ عَلِمْتُ بِأَنَّ دِينَ مُحَمَّدٍ * مِنْ خَيْرِ أَدْيَانِ الْبَرِيَّةِ دِينًا (3)

5- أَوْثُوْمَنَا بِكُتَابِ مَنْزِلِ عَجَبٍ * عَلَى نَبِيِّ كَمُوسَى أَوْكَذِي النُّونِ (4)

6- لَقَدْ عَلِمُوا أَنَّ ابْنَنَا لَا مُكَدِّبٌ * لَدَيْنَا وَ لَا يَعْني بِقَوْلِ الْأَبَاطِلِ

فَاتَيْدَهُ رَبُّ الْعِبَادِ بِبَصَرِهِ * وَ أَظْهَرَ دِينًا حَقُّهُ غَيْرُ بَاطِلٍ (5)

-
- 1 - مجمع البيان: ج ٧، ص ٣٧، الحجة: ص ٥٧، مستدرک الحاكم: ج ٢، ص ٦٢٣.
2 - ديوان أبي طالب: ص ٣٢، السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٥٣.
3 - تاريخ ابن كثير: ج ٣، ص ٤٢.
4 - شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٧٤، ديوان أبي طالب: ص ١٧٣.
5 - السيرة النبوية: ج ١، ص ٢٧٢ - ٢٨٠.
-

(526)

إن كل واحدة من هذه المقطوعات الشعرية التي تشكل قسماً صغيراً من قصائد مفصلة لأبي طالب، تشهد بايمانه بدين ابن أخيه «محمد» - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وخلاصة القول: أن بيتاً واحداً من هذه الأبيات كاف في إثبات إيمان صاحبها وقائلها، ولو أن أحداً قالها وهو خارج عن فلك الصراعات السياسية، وبعيد عن دوائر التعصبات والأغراض لحكم الجميع - بالاتفاق - بإسلام قائله وإيمانه الخالص العميق.

ولكن لما كان «أبو طالب» هو قائلها، وكانت الأجهزة الدعائية في الحكومات الاموية والعباسية تعمل بكل جهدها ضد آل «أبي طالب» من هنا أبي فريق من الناس أن يُثبتوا مثل هذه الفضيلة الكبرى لأبي طالب - عليه السلام - .

هذا من جانب.

ومن جانب آخر فإنّ أبا طالب والد «علي» الذي كانت سلطات الخلفاء تعمل ضدّه على الدوام، وتستغل كل الوسائل للحط من شأنه، كان إسلام أبيه وإيمانه بالرسالة المحمدية يُعدُّ فضيلة بارزة من فضائله - عليه السلام - في حين أن كفر آباء الخلفاء وشركهم يعدُّ مثلية توجب الحط من شأنهم، وقيمتهم.

وعلى كل حال قام جماعة بتكفير أبي طالب رغم كلّ هذه الأشعار والأقوال، والمواقف الصادقة، بل لم يكتفوا بذلك، فادعوا نزول آيات من القرآن تدل على كفره، وشركه!!!

الطريق الثاني لا ثبات إيمان أبي طالب

إنّ الطريق الثاني للبرهنة والتدليل على إيمان «أبي طالب» هو موافقه من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكيفية دفاعه وذبه عنه و حمايته له، وحده عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - وما قام به من خدمات جليلة في هذا الطريق.

ان كل واحدة من هذه الخدمات تستطيع بمفردها ان تكون المرآة الصادقة

(527)

التي تعكس فكر «أبي طالب» وعقيدته وما كان يحمله بين جوانحه من إيمان بالرسالة والرسول، و إخلاص لله تعالى.

لقد كان «أبو طالب» هو ذلك الشخصية التي لم يرض لنفسه بان ينكسر قلب ابن أخيه لتركه في مكة، واصطحبه معه إلى الشام في الرحلة التجارية التي سبق ذكرها، رغم الموانع الكثيرة، وفقدان الوسائل اللازمة، ورغم ما تُرتب على اصطحابه معه من متاعب

إن إيمانه بابن أخيه كان عميقاً إلى درجة أنه أخذهُ إلى المصلّى واستسقى به، مقسماً به على الله تعالى أن يكشف العذاب عن قومه، ويرسل رحمته عليهم، فيستجيب الله دعاءه، وينزل عليهم غيثاً وافراً ممرعاً، بقيت قصته في ذاكرة التاريخ.

إنه ذلك الرجل الذي لم يفتأ عن الحفاظ على حياة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لحظة واحدة، فهو الذي تحمل في سبيله ثلاثة أعوام عجاف من الحصار الاقتصادي والاجتماعي الصعب، مؤثراً العيش في الشعب وفي شغاف الجبال والوديان القاحلة على زعامة قريش، ورئاسة مكة إلى ان أعيته تلك المحن والمتاعب ففقد بذلك صحته، وانحرف بذلك مزاجه، وتوفي متأثراً بتلك المتاعب والمصاعب، والمشاق والمحن بعد نقض الصحيفة، و انتهاء الحصار، والعودة إلى المنازل بأيام معدودة!!

لقد كان إيمان «أبي طالب» برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قوياً وراسخاً إلى درجة أنه رضى بأن يتعرض كل ابنائه لخطر القتل والاعتقال ليبقى «محمد» ولا يمسه من أعدائه أي سوء، فكان يُضجع ولده علياً في موضعه، حتى إذا أرادوا إغتياله لا يصيبه شيء وهذا يعني أنه كان يقيه بنفسه وبأولاده.

وفوق هذا كله استعد في يوم من الأيام لأن يقتل كل زعماء قريش وأسيادها انتقاماً لمحمد، وكان من الطبيعي أن يقتل في هذا العملية بنو هاشم كلهم أيضاً. (1)

- [راجع الصفحة ٥٢٢ من هذا الكتاب.

(528)

وصية أبي طالب عند وفاته

وعند وفاته قال لأولاده:

«أوصيكم بمحمد خيراً فإنه الأمين في قريش وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وانكره اللسان مخافة الشنئان، وأيم الله لكأني انظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الاطراف، والمستضعفين من الناس، قد أجابوا دعوته، وصدقوا كلمته، وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش و صناديدها أذنباً، وثورُها خراباً، وضُعاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أوجههم إليه ، وأبعدهم منه أحظاهم عنده. ...»

ثم ختم وصيته هذه بقوله:

يا معشر قريش كونوا له ولاةً، ولحزبه حماةً، والله لا يسلك أحدٌ منكم سبيله الارشد، ولا يأخذ أحدٌ بهديه الآ سعد. (1)

نحن لا نشك في أن «أبا طالب» كان صادقاً في أمينته هذه لأن خدماته الكبرى وتضحياته المتواصلة خلال عشر سنوات من بداية عهد الرسالة شاهدة على صدق مقاله، كما كان صادقاً في الوعد الذي قطعه على نفسه لابن أخيه (محمد) في مبدأ البعثة عندما جمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أعمامه وعشيرته الأقربين ودعاهم إلى الإسلام فقال له ابوطالب:

«أخرج يا ابن أخي فإنيك الرفيع كعباً، والمنيع حزباً، والأعلى أباً.

والله لا يسلفك لساناً الاسلقتة ألسن جداد، واجتنبته سيفوف حداد.

والله لتدللن لك العرب ذل اليهم لحاضنها. (2)»

1- السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٥١ و ٣٥٢.
2- الطرائف تأليف السيد ابن طاووس: ص ٨٥، نقلا عن كتاب غاية السؤل في مناقب آل الرسول تأليف ابراهيم بن علي الدينوري.

(529)

آخر الطرق لا ثبات ايمان أبي طالب

ويحسن بنا أخيراً ان نسأل عن أبي طالب وعن ايمانه واخلاصه، اقاربه غير المغرضين لأن «أهل البيت ادرى بما في البيت.»

1- لما مات أبوطالب جاء عليّ - عليه السلام - إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأذنه بموته، فتوجع توجعاً عظيماً، وحزن حزناً شديداً، ثم قال له امض فتولّ غسله فاذا رفعته على سريره فاعلمني، ففعل فاعترضه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وهو محمول على رؤوس الرجال: قال: «وصلتك رحم يا عم، وجزيت خيراً فأقد ربّيت وكفلت صغيراً، ونصرت وآزرت كبيراً.»

ثم تبعه إلى حضرته، فوقف عليه فقال:

«أما والله لاستغفرنّ لك، ولا شفعلنّ فيك شفاعةً يعجبُ لها الثقلان.»⁽¹⁾

2-روي ان علي بن الحسين - عليهما السلام - سئل عن ايمان أبي طالب. فقال:

«واعجباً! ان الله تعالى نهى رسوله ان يقّر مسلمة على نكاح كافر، وقد كانت فاطمة بنت اسد من السابقات إلى الإسلام، ولم تزل تحت أبي طالب حتى مات.»⁽²⁾

3-روي عن علي بن محمّد الباقر - عليهما السلام - أنه قال:

«لو وُضِعَ إيمان أبي طالب في كفة ميزان، وإيمان هذا الخلق في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.»

ثم قال:

«ألم تعلموا أنّ أمير المؤمنين عليّاً - عليه السلام - كان يأمر أن يُحجَّ عن عبد الله وأبيه.»⁽³⁾

4-قال الامام جعفر بن محمّد الصادق - عليهما السلام - :

- 1 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٧٦.
 - 2 شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٤، ص ٦٩.
 - 3 المصدر السابق: ص ٦٨.

(530)

«إنَّ مَثَلُ أَبِي طَالِبٍ مَثَلُ أَصْحَابِ الْكَهْفِ اسْرُؤُوا الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرُوا الشَّرْكَ فَآتَاهُمُ اللَّهُ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ، وَأَنْ أَبَا طَالِبٍ اسْرَأَ الْإِيمَانَ، وَأَظْهَرَ الشَّرْكَ، فَآتَاهُ اللَّهُ أَجْرَهُ مَرَّتَيْنِ.»⁽¹⁾

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

ولقد اتَّفَقَ علماء الإمامية والزيدية تبعاً لأهل بيت النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على: أن «أبا طالب» كان من أبرز المؤمنين برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم يخرج من الدنيا إلا بقلب يفيض إيماناً بالاسلام، وإخلاصاً لله تعالى، وحباً للمسلمين، وقد أُلِّفَتْ في هذا المجال كتب ورسائل، ودراسات عديدة، يمكن الوقوف عليها لمن اراد، ولمزيد التوسع في هذا المجال يراجع المجلد ٧، ص ٤٠٢ - ٤٠٤ من موسوعة الغدير للعلامة الأمينى طبعه النجف، أو ج ٧، ص ٣٣٠ - ٤٠٩ طبعه لبنان.

نظرة إلى حديث «الضحاح»

واستكمالاً لهذا الحديث ينبغي أن نلقي نظرة إلى رواية تشكك في إيمان أبي طالب فقد روى بعض الكتاب مثل البخاري⁽²⁾، ومسلم عن رواية نظير سفيان بن سعيد الثوري، عبد الملك بن عمير، عبد العزيز بن محمد الدراوردي حديثاً نسبوه إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال عن أبي طالب رحمه الله:

«وجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحاح.»

«لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحاح من النار يبلغ كعبه، يغلي منه دماغه.»⁽³⁾

إن هذه الرواية و ان كانت تكذيبها عشرات الأحاديث والروايات الإسلامية ،

- 1 اصول الكافي: ج ١، ص ٤٤٨.
 - 2 صحيح البخاري: ج ١، ص ٣٣ و ٣٤ من أبواب المناقب.
 - 3 صحيح مسلم: كتاب الايمان.

(531)

والدلائل القاطعة الساطعة، وثبتت بطلانها وتفاهتها، ولكننا بهدف الوصول إلى مزيد من التوضيح نعمد إلى دراسة أمرين مرتبطين بهذا الحديث.

-1 ضعف أسناد هذه الرواية

إنّ رواة هذه الرواية - كما أسلفنا - هم عبارة عن سفيان بن سعيد الثوري وعبدالمك بن عمير و عبدالعزيز بن محمّد الدراوردي الذين سندرس أحوالهم واحداً واحداً - في ضوء أقوال علماء الرجال المعترف بهم عند أهل السنة - حيث قالوا:

الف: سفيان بن سعيد الثوري

قال أبو عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي - وهو من علماء الرجال عند أهل السنة - في سفيان الثوري: كان يدّلس عن الضعفاء. (1)

إن هذا الكلام شاهد قوي على وجود التدليس عند الثوري، وعلى روايته عن الضعفاء أو المجهولين، وهو وصف يُسقطه عن درجة الاعتبار.

باء: عبدالمك بن عمير

قال عنه الذهبي: طال عُمره وساء حفظه، قال أبو حاتم: ليس بحافظ، تغيّر حفظه، وقال أحمد: ضعيف يغلط، وقال ابن معين: مخلط وقال ابن خراش: كان شعبة لا يرضاه، وذكر الكوسج عن أحمد بن حنبل: انه ضعيف جداً (2)

فمن مجموع هذه العبارات نعرف ان عبدالمك كان يتصف بصفات عديدة هي أنه:

1- سيء الحفظ.

2- ضعيف.

3- كثير الغلط.

1 - ميزان الاعتدال: ج ٢، ص ١٦٩.
2 - المصدر السابق، ج ٢، ص ٦٦٠.

4- مخلط.

ومن الواضح ان كل واحدة من الصفات والحالات المذكورة كافية لأن تبطل الاحاديث التي يرويها عبدالمك بن عمير، والحال انه قد اجتمعت جميع نقاط الضعف هذه في هذا الرجل.

جيم: عبدالعزيز بن محمد الدراوردي

ولقد وصفه علماء الرجال عند اهل السنة بالنسيان، وقلة الحفظ فلا يمكن الاستناد إلى مروياته.

فقد قال أحمد بن حنبل عنه: إذا حدث من حفظه جاء بأباطيل. (1)

وقال أبو حاتم عنه: لا يُحْتَجُّ به. (2)

وقال أبو زرعة أيضاً: سىء الحفظ. (3) ومن مجموعة هذه العبارات يتضح بجلاء ان الرواة الاصيلين لحديث الضحاح ضعفاء في غاية الضعف، إلى درجة لا يمكن الاعتماد على مروياتهم.

-2- نص حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة

لقد نُسِبَ إلى النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه الرواية أنه أخرج أبا طالب من نار جهنم إلى ضحاح وبهذا خَفَّتْ عنه العذاب، أو أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - تمنى أن يشفع له، فيخَفِّفَ اللَّهُ عنه العذاب، على حين نفى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة تخفيف العذاب عن الكفار كما ونفياً شفاعة احد في حقهم.

وعلى هذا الاساس فلو كان ابوطالب كافراً، لم يجز للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يخفف عنه العذاب أو يتمنى له الشفاعة في يوم الجزاء.

وبهذا يظهر بطلان محتوى حديث الضحاح.

واليك فيما يأتي ادلة ما قلناه من الكتاب والسنة:

- 1 المصدر السابق، ص ٦٣٤.
- 2 و٣- المصدر السابق.

الف: القرآن الكريم

يقول القرآن الكريم في هذا الصدد:

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا، كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ.) (1)

ب: السنة النبوية

ان السنة النبوية الطاهرة تنفي أيضاً الشفاعة للكفار، ونذكر من باب النموذج بعض تلك الأحاديث:

1- روى أبوذر الغفاري عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال:

«أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمتي من لا يشرك بالله شيئاً» (2)

2- روى أبو هريرة عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - انه قال:

«وشفاعتي لمن شهد أن لا اله الا الله مخلصاً، وأنَّ محمداً رسول الله يصدق لسانه قلبه، وقلبه لسانه» (3)

إن الآيات والروايات المذكورة تثبت بوضوح بطلان نص حديث الضحاح عند من يقول بأن أبا طالب مات كافراً.

ونتيجة البحث أنه تبين مما ذكر ان حديث الضحاح لا أساس له من الصحة لا من جهة السند والطريق، ولا من جهة المتن والنص، ولا يمكن الاستدلال به.

وبهذا ينهار أقوى حصن يتمسك به البعض للخدشة في ايمان أبي طالب الثابت المسلم.

-
- [فاطر: ٣٦.
 - 2 الترغيب والترهيب: ج ٤، ص ٤٣٣.
 - 3 المصدر السابق: ص ٤٣٧.

(534)

(535)

٢٢ المعراج

المعراج في نظر القرآن والسنة والتاريخ

كان الليل يخيم على الافق، ويسود الظلام على كل مكان.

فقد حان الأوانُ لان ترفدَ جميع الاحياء في مساكنها، وتستريح في جورها وأعشاشها، وتغمض الأجفان لبعض الساعات عن مظاهر الطبيعة، لتستعيد نشاطها من أجل العمل في يوم جديد حافل بالنشاط والحركة والسعي.

فذلك قانون الطبيعة في كلِّ ليل ونهار.

ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بمستثنى عن هذا الناموس الطبيعي.

فهو - صلى الله عليه وآله وسلم - مضى ليستريح بعد أن صلى صلاة العتمة أيضاً.

ولكنه فجأةً سمع صوتاً مألوفاً مأنوساً له، وكان ذلك هو صوت أمين الوحي «جبرئيل» وهو يخبره بأن أمامه الليلة سفراً بعيداً ورحلة طويلة، وأنه سيرافقه في هذا الرحلة إلى مختلف نقاط الكون، وسيسافر على متن دابة فضائية تدعى «البراق». »
لقد بدأ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - رحلته الفضائية العظيمة من بيت اخت علي بن أبي طالب⁽¹⁾ «أم هاني»، وتوجه على متن تلك الدابة إلى «بيت

- [مجمع البيان: ج ٦، ص ٣٩٥ و ٣٩٦، السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٩٦ - ٤٠٢.

(536)

المقدس» في الأردن وفلسطين والذي يسمى «المسجد الأقصى» أيضاً، وهبط في تلك النقطة بعد مدة قصيرة جداً، وزار مواضع عديدة من ذلك المسجد، وتفقد «بيت لحم» مسقط رأس «السيد المسيح» ومنازل الأنبياء وأثارهم ومحاربيهم، وصلى عند كل محراب من بعض تلك المحاريب ركعتين.

ثم بدأ بعد ذلك القسم الثاني من رحلته، حيث عرج من ذلك إلى السماوات العلى، وشاهد النجوم والكواكب، واطّلع على نظام العالم العلوي، وتحدث مع ارواح الأنبياء، والملائكة السماويين، واطّلع على مراكز الرحمة والعذاب (الجنة والنار)⁽¹⁾ ورأى درجات أهل الجنة، وأشباح أهل النار عن كثب، وبالتالي تعرف على أسرار الوجود، ورموز الطبيعة، ووقف على سعة الكون، وأثار القدرة الإلهية المطلقة، ثم واصل رحلته حتى بلغ إلى سدره المنتهى⁽²⁾، فوجد لها مسربلة بالعظمة المتناهية والجلال العظيم وعندها انتهى برنامج رحلته - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فأمر بأن يعود من حيث أتى فعاد، بعد - صلى الله عليه وآله وسلم - ومرّ في عودته على بيت المقدس ثانية، ثم توجه منه إلى «مكة»، ومرّ خلال الطريق على قافلة تجارية لقريش وقد ضلّ بعير لهم في البداء وكانوا يبحثون عنه، ثم وجد في رحلهم قعباً مملوء من الماء فشرب منه وصبّ بقيته على الأرض أو غطاه كما كان بناء على رواية. وترجّل عن مركبته الفضائية العجيبة في بيت «أم هاني» قبيل طلوع الفجر، وأخبرها بالخبر قبل أي أحد، ثم كشف عن هذا الحادث في أندية قريش صباح نفس تلك الليلة.

فاستبعد السامعون قصة المعراج والحركة السريعة هذه، واعتبروه أمراً محالاً وانكروه، فشا هذا الخبر في جميع الأوساط وغضب بسببه أشرف قريش وساداتهم أكثر من غيرهم.

وكعادتها بادرت قريش إلى تكذيب هذه القصة وقالوا: هذا والله الأمر البين

(537)

(العجيب المنكر) واللّه إن العير لتطرد شهراً من مكة إلى الشام مدبرة، وشهراً مقبلة، أفيزهـب ذلك «محمّد» في ليلة واحدة؟

وقالوا: إن صدقت فصف لنا بيت المقدس، فإن فينا من شاهده.

فلم يصف لهم رسول اللّه - صلى الله عليه وآله وسلم - بيت المقدس فحسب بل أخبرهم بكل مامرّ به وفعله ورآه في طريق عودته من بيت المقدس إلى «مكة» وقال: وآية ذلك أنّي مررت على بعير بني فلان بوادي كذا وكذا، وقد ضلّ لهم بعير وقد همّوا في طلبه، وشربت من ماء في أنية لهم مغطاة بغطاء وثم غطيت عليها كما كان، ثم مررت على بعير فلان وقد نفّرت لهم ناقة وانكسرت يدها

فقال قريش: أخبرنا عن عير قريش.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : إنّها الآن في التنعيم (وهو مبدأ الحرم) يتقدمها جمل أورك (أبيض مائل إلى السواد) عليه غرارتان وستدخل الآن مكة.

فغضب قريش من هذه الأخبار القاطعة وقالت: سنعلمنّ الآن صدقه أو كذبه.

ثم لم تمض لحظات إلّا وطلعت العير عليهم، وحدثهم أبوسفیان بكل ما أخبرهم به رسول اللّه - صلى الله عليه وآله وسلم - من ضياع بعير لهم في الطريق وهمّهم في طلبه، وأنهم وضعوا ماء مملوء فغطوه ولما رجعوا وجدوه مغطى كما غطوه ولكن لم يجدوا فيه ماء.

هذه هي خلاصة ما جاء في كتب التفسير، والتاريخ، والحديث حول المعراج.

وإذا أراد القاريء الكريم أن يقف على تفاصيل أكثر في هذا المجال فما عليه إلّا أن يراجع بحار الأنوار باب «المعراج»⁽¹⁾.

هل للمعراج جذور قرآنية؟

لقد جاء ذكر «المعراج» النبوي وسيره العجيب - صلى الله عليه وآله وسلم - في

العالم العلوي، والفضاء غير المتناهي في سورتين من القرآن الكريم بشكل واضح وصريح كما واشير اليها في سور أخرى أيضاً

ونحن نكتفي هنا باستعراض الآيات التي ذكرت هذه القضية بصورة واضحة، ونقف عند بعض النقاط الجديدة بالدراسة فيها:

يقول الله تعالى في سورة الأسراء:

(سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا، إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ. (1))

ويستفاد من ظاهر هذه الآية أمور:

- [لكي نعلم بأنَّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يطو تلك المسافات، ولم يَمَّ برحلته إلى تلك العوالم بقوة بشرية، بل تسنى له كلُّ ذلك بقوة غيبية، فيها استطاع أن يطوي تلك المسافات البعيدة في زمن قصير جداً بدأ الله تعالى حديثه عن الاسراء بقوله: **سُبْحَانَ الَّذِي** (وهو اشارة إلى تنزيه الله عن كلِّ نقص وعيب.

ولم يكتف بذلك بل وصف نفسه بوضوح بأنه هو تعالى سبب هذه الرحلة والمسير فيها إذ قال: **أَسْرَى** (أي إنَّ الله تعالى هو الذي سرى برسوله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وأخذه إلى تلك الرحلة.

وهذه العناية لأجل أن لا يتصور الناس بأنَّ هذه الرحلة تحققت بالوسائل العادية، وحسب القوانين الطبيعية ليتسنى لهم إنكارها، إنما تحققت بقوة الله وعنايته الربوبية الخاصة.

-2إن هذه الرحلة تحققت برمتها خلال الليل، ويستفاد هذا المطلب - علاوة على كلمة ليلا - من كلمة **أَسْرَى** (أيضاً لأنَّ العرب كانت تستعمل اللفظة المذكورة في السير ليلا.

-3مع أنَّ هذه الرحلة بدأت من بيت «أم هاني» ابنة أبي طالب، فإن الآية صرحت بأنها تَمَّت من المسجد الحرام، ولعل هذا لأنَّ العرب كانت تعتبر

كل مكة حرماً إلهياً، ومن هنا كان كل مكان من مكة يتمتع عندهم بحكم الحرم والمسجد الحرام، فيكون المراد بالمسجد الحرام هنا مكة، ومكة والحرم كلها مسجد، فصَحَّ أن يقول: **من المسجد الحرام.**)

وتذهب بعض الروايات إلى أنَّ المعراج كان من نفس المسجد الحرام.

ثم إنَّ هذه الآية وإن كانت تصرِّح بأنَّ المعراج بدأ من «المسجد الحرام» وانتهى بـ: «المسجد الأقصى» إلا أن ذلك لا ينافي أن يكون للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رحلة أخرى إلى العالم العلوي لأنَّ هذه الآية تبين فقط قسماً من هذه الرحلة، وأما القسم الآخر من برنامج هذه الرحلة فتعرض لذكره آيات في مطلع سورة «النجم.»

4- إنَّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عرج بجسمه وروحه معاً، لا بالروح فقط.

ويدلُّ على ذلك قوله تعالى **(بعبه الذي يُستعمل في «الجسم والروح معاً» ولو كان المعراج بالروح فقط لزم أن يقول: «بروحه.»**)

5- إنَّ الغرض من هذا السير العظيم وهذه الرحلة العجيبة هو إيقاف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - على مراتب الوجود، وإطلاعه على الكون العظيم، وهذا ما سنشرحه فيما بعد.

وأما السورة الأخرى التي تعرض لبيان حادثة المعراج بوضوح و صراحة هي سورة «النجم.»

والآيات التي سندرجها هنا من هذه السورة نزلت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما قال لقريش: «رأيت جبرئيلَ أول ما أوحى التي على صورته الي خُلِقَ عليها» جادلته قريش في ذلك، فنزلت الآيات التالية تجيب على اعتراضهم:

(أَفْتَمَارُوتُهُ عَلَى مَا يَرَى * وَ لَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى * عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى.) (1)

- [النجم: ١٢ - ١٨.

(540)

أحاديث المعراج:

روى المفسرون والمحدثون أخباراً وروايات كثيرة حول معراج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وما شاهده في هذه الرحلة العظيمة، ليست برمتها صحيحة مُسلَّمة مقطوعاً بها.

ولقد قَسَمَ المفسر الشيعيُّ الكبير المرحومُ «العلامة الطبرسي» هذه الاخبار إلى أصناف أربعة إذ قال:

وتنقسم جملتها إلى أربعة اوجه:

أحدها: ما يقطع على صحته لتواتر الأخبار به، واحاطة العلم بصحته مثل أصل المعراج.

وثانيها: ما ورد في ذلك مما تجوّزه العقول ولا تأباه الاصول مثل طوافه في السماء ورؤيته أرواح الأنبياء وتحديثه معهم ورؤيته للجنة والنار، فنحن نجوّزه ثم نقطع على أن ذلك كان في يقظته، دون منامه.

وثالثها: ما يكون ظاهره مخالفاً لبعض الأصول، إلا أنه يمكن تأويلها على وجه يوافق المعقول فالأولى أن نؤوله على ما يطابق الحق والدليل. مثل أنه رأى أهل الجنة وأهل النار وتحديث معهما الذي يجب أن يؤول فيحمل على انه: رأى أشباحهم وصورهم و صفاتهم.

ورابعها: ما لا يصح ظاهره ولا يمكن تأويله، وهي ما ألصق وألحق بهذه الحادثة من الأساطير والخرافات، مثل ما روي من أنه - صلى الله عليه وآله وسلم - كلم الله سبحانه جهرةً وراه وقعد معه على سريره أو سمع صرير قلمه، ونحو ذلك مما يوجب ظاهره التشبيه والتجسيم والله سبحانه يتقدس عن ذلك كله، فالأولى أن لا نقبله. (1)

* * *

- [مجمع البيان: ج ٦، ص ٣٩٥.

(541)

متى وَقَعَت هذه الحادثة؟

مع ان أهمية هذه الحادثة العجيبة كانت تستوجب أن تكون مضبوطة التفاصيل من جميع الجهات، إلا أنها تعرضت للاختلاف - مع ذلك - من بعض الجهات و منها تحديد تاريخ وقوعها.

فقد ادّعى كاتبها السيرة المعروفان: «ابن اسحاق» و «ابن هشام» أنها وقعت في السنة العاشرة من البعثة الشريفة.

وذهب المؤرخ الكبير «البيهقي» إلى أنها وقعت في السنة الثانية عشرة من البعثة.

وذهب آخرون إلى أنها وقعت في أوائل البعثة، بينما قال فريق رابع: أنها وقعت في أواسطها.

وربما يقال في الجمع بين هذه الأقوال: أنه كان لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - معارج متعددة.

ولكننا نعتقد أنّ المعراج الذي فُرِضَتْ فيه الصلاة وقع بعد وفاة أبي طالب - عليه السلام - في السنة العاشرة قطعاً.

لأنّ من مسلمّات الحديث والتاريخ أنّ الله تعالى أمر نبيّه - صلى الله عليه وآله وسلم - في ليلة المعراج أن تصلّي أمة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلّ يوم وليلة خمس صلوات.

كما أنه يُستفاد من ثنايا التاريخ أيضاً أن الصلاة لم تُفرض مادام أبو طالب - عليه السلام - على قيد الحياة بل فُرِضت بعد وفاته، لأنّه حضر عنده - ساعة وفاته - سراة قريش وأسيادها، وطلبوا منه أن يبيت لهم في أمر ابن أخيه «محمّد» ويمنعه من فعله، فيعطونه - في قبال ذلك - ما يريد فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في ذلك المجلس: نعم كلمة واحدة تعطونيها: «تقولون لا إله إلا الله وتخلعون ما تعبدون من دونه»⁽¹⁾»

- 1 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٧.

(542)

لقد طلب منهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا الأمر ولم يطلب منهم شيئاً آخر كالصلاة وغيرها من الفروع أبداً، وهذا هو بنفسه يدلّ على أنه لم تجب الصلاة حتّى ذلك اليوم، وإلا كان الإيمان المجرد عن العمل، والصلاة مفروضة، لا فائدة فيه.

وأما أنه لم يذكر شيئاً عن نبوّته ورسالته فلاّنّ الإعراف بوحداية الله بأمره وطلبه - صلى الله عليه وآله وسلم - إعراف ضمنى برسالته ونبوّته، وفي الحقيقة أنّ التلقظ بهذه العبارات بأمره يتضمّن شهادتين وقرارين: الإقرار بالله الواحد، والإقرار بنبوة رسول الإسلام.

هذا مضافاً إلى أن كُتّاب السيرة ذكروا كيفية إسلام جماعة مثل «الطفيل بن عمرو الدوسي» الذي أسلم قبل الهجرة⁽¹⁾ بأعوام اكتفى النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بالشهادتين، ولم يجر أي حديث عن الصلاة أبداً.

إن هذه الامثلة تكشف عن أن هذه الحادثة (المعراج) التي فُرِضت فيها الصلاة وقعت قبل الهجرة بسنوات.

والذين تصوّروا أن المعراج وقع قبل السنة العاشرة مخطئون خطأ كبيراً لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - كان محصوراً في شعب أبي طالب منذ السنة الثامنة وحتّى السنة العاشرة، ولم يكن وضع المسلمين ليسمح بفرص تكليف زائد (مثل الصلاة).

وأما سنوات ما قبل الحصار فعلاوة على ضغوط قريش على المسلمين وأتت كانت هي بنفسها مانعاً من فرض الصلاة على المسلمين، كان المسلمون قلة معدودين، ولم يكن نورُ الإيمان، وأصول الإسلام قد ترسخت في قلوب ذلك العدد القليل بشكل قوي بعد، ولذلك يكون من المستبعد أن يكلفوا بأمر زائد مثل الصلاة في مثل ذلك الظرف.

وأما ما ورد في بعض الأخبار والروايات من ان الامام علياً - عليه السلام -

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٨٣.

(543)

صلى مع رسول الله قبل البعثة بثلاث سنوات، واستمر على ذلك بعدها أيضاً فليس المراد منها الصلوات المحدودة المؤقتة بوقت، المشروطة بشروط خاصة، بل كانت تلك الصلوات عبارة من عبادة خاصة غير محدودة⁽¹⁾، أو كان المراد منها الصلوات المندوبة والعبادات غير الواجبة.

هل كان المعراج جسمانياً؟

لقد وقع النقاش والكلام في كيفية معراج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأنه كان روحانياً أو جسمانياً وروحانياً معاً، وقيل في ذلك كلام كثير.

ومع أن القرآن الكريم والأحاديث تشهد بجلاء لا غموض فيه بأن معراجه - صلى الله عليه وآله وسلم - كان جسمانياً⁽²⁾، فقد أوردت في المقام بعض الإشكالات والاعتراضات التي منعت البعض عن قبول هذه الحقيقة، وبالتالي دفعتهم إلى ارتكاب التأويل، والزعم بأن معراج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان روحانياً، أي بالروح لا بالجسم.

لقد قال هؤلاء: ان روح النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هي التي طافت في تلك العوالم ثم عادت إلى جسد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مرة أخرى!!

وذهب جماعة إلى أبعد من ذلك إذ ادّعوا بان جميع هذه المشاهدات والقضايا تمت لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في عالم الرؤيا، فكل ما رآه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أو فعله من الطواف واللقاء والصلاة كانت رؤيا ورؤيا الأنبياء صادقة!!

على أن أقوال الفريق الأخير من البعد عن الواقع بحيث لا يمكن ذكره في عداد الأقوال والنظريات أبداً، لأن قريش بعد أن سمعت من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [المزيد من التحقيق في تاريخ وجوب الوضوء والصلاة والاذان يراجع الكافي: ج ٣، ص ٤٨٢ - ٤٨٩].
- [لقد نقل الفقيه الجليل العلامة الشيعي المرحوم الطبرسي في تفسير مجمع البيان إجماع علماء الشيعة على جسمانية المعراج فراجع: ج ٦، ص ٣٩٥].

(544)

ادعاءه بأنه سار كل تلك المسافة الطويلة البعيدة، وطاف على كل تلك الاماكن المتباعدة العديدة في ليلة واحدة انزعجت بشدة وهبت لتكذيبه حقيقة، إلى درجة أن خبر المعراج أصبح حديث الساعة في نوادي قريش واطرافها آنذاك.

ولو كان كل ذلك تحقق للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في المنام والرؤيا لما كان لتكذيب قريش وانزعاجها واستنكارها معنى، إذ لا موجب للنزاع لو كان - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: إنّي فعلت تلك الامور، ورأيت تلك المشاهد في الرؤيا والمنام، إذ هو على كل حال رؤيا، وكل شيء - حتى الامور المحالة أو المستبعدة جداً - ممكن في عالم الرؤيا.

ومن هنا لا قيمة للقول الأخير أصلاً فلا تستحق المتابعة أصلاً.

ولكن مع الأسف استحسن بعض العلماء المصريين (مثل فريد وجدي) هذا الرأي وسعى في تفويته وتبريره، ونحن نحبذ ان نتركه، وان لا نناقش فيه. (1)

ما هو المراد من المعراج الروحاني؟

لقد عمد فريق ممن عجز عن دفع وحلّ بعض الاعتراضات والاشكالات الواردة على المعراج الجسماني، إلى تأويل الآيات والأحاديث، واعتبر المعراج النبوي معراجاً روحانياً، لا غير.

والمقصود من المعراج الروحاني هو التدبّر في مخلوقات الله ومصنوعاته، ومشاهدة جلاله وجماله والاستغراق في ذكر الحق، والتفكير فيه، وبالتالي التخلص من القيود والاعلال المادية، والعلائق الدنيوية، والعبور من المراتب الامكانية في المراحل الباطنية والقلبية التي يحصل بعد طيها نوعاً من القرب الخاص الذي لا يمكن وصفه.

فاذا كان المراد من (المعراج الروحاني) هو التفكير في عظمة الحق وسعة

- [دائرة معارف القرن العشرين: ج ٦، ص ٣٢٩ مادة عرج].

(545)

الخلق و.. فلا شك أن هذا ليس من مختصات رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - بل كان أكثر الأنبياء، وكثير من الأولياء من ذوي البصائر القويّة الطاهرة يمتلكون هذه المرتبة، على حين أن القرآن الكريم يعتبر (المعراج) من خصائص رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويذكره على أنه نوع من الامتياز الخاص به - صلى الله عليه وآله وسلم - .

هذا مضافاً إلى أن مثل هذه الحالة (اعني التفكير في عظمة الخالق والاستغراق في التوجه إلى الحق) كانت تتكرر لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في كل ليلة⁽¹⁾، والحال أن (المعراج) الذي هو محط الكلام قد وقع في ليلة معيّنة.

إن ما دفع بهذا الفريق إلى اتخاذ مثل هذا الموقف من (المعراج)، وآل بهم اختيار هذا الرأي هو فرضية الفلكي اليوناني المعروف «بطلميوس» التي كانت سائدة في الأوساط العلمية في الشرق والغرب طيلة ألفي سنة بالكامل، والتي أُلّف حولها مئات الكتب، وكانت تعدّ حتى حين من المسلّمات في مجال العلوم الطبيعية وهي على نحو الاجمال كالتالي:

إن الاجسام في هذا العالم على نوعين: أجسام عنصرية، واجسام فلكية.

والجسم العنصري هي العناصر الأربعة المعروفة: «الماء، والتراب، والهواء، والنار.»

وأول كرة تبدو لنا هي كرة التراب وهي مركز العالم، ثم تليها كرة الماء ثم كرة الهواء، وتأتي بعد كل هذه الثلاثة كرة النار، وكل من هذه الكرات محيطة بالأخرى، وهنا (اي وعند كرة النار) تنتهي الكرات، وتبدأ الاجسام الفلكية.

والمقصود من الأجسام الفلكية هي الافلاك التسعة التي تقع الواحدة فوق الاخرى وتحيط الواحدة بالأخرى على هيئة قشور البصل، وهي متصلة بعضها ببعض من دون فاصلة بينها وهي غير قابلة للاختراق والالتئام (اي الشق

- [راجع وسائل الشريعة: ج ٧، كتاب صوم الوصال، ص ٣٨٨ قال - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إني لست كأحدكم، أي اظل عند ربّي فيطعمني ويسقيني.»

والالتئام) والفصل والوصل ولا يستطيع أي شيء من اختراقها والتحرك فيها بصورة مستقيمة لأن ذلك يستلزم انفصام اجزاء الفلك.

من هنا يكون المعراج الجسماني مستلزماً لأن ينطلق النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مركز العالم ويصعد بصورة مستقيمة إلى الأعلى عابراً الكرات العنصرية الأربع، ومخترقاً الأفلاك التسعة الواحد تلو الآخر، بينما يستحيل خرق هذه الأفلاك ثم التحامها حسب نظرية بطلميوس وفرضيته الفلكية.

وعلى هذا لا مناص من أن نعتقد بأن المعراج النبويّ كان معراجاً روحانياً، اي ان روحه - صلى الله عليه وآله وسلم - هي التي عرجت حتّى لا يمنع أيّ جسم من عبورها وسيرها وصعودها إلى النقطة المطلوبة والغاية المرسومة.

الجواب:

ان هذا الكلام كان مقبولاً وذا قيمة عند ما كانت هيئة بطلميوس وفرضيته الفلكية لم تكن بعد قد فقدت قيمتها في الاوساط العلمية وكان هناك من يعتقد بها من صميم فواده.

ففي مثل تلك البيئة كان من الممكن التلاعب بالحقائق القرآنية، وتأويل صريح القرآن ونصوص الروايات.

أما الآن فقد فقدت أمثال هذه الفرضيات قيمتها، وظهر للجميع بطلانها، ولم يعد أحد يتحدث عنها، إلا من باب ما يسمى بتاريخ العلوم.

فالיום وبالنظر إلى كل هذه الأجهزة الفلكية والآلات الفضائية الدقيقة، والتلسكوبات العملاقة، وهبوط المركبات الفضائية المتعددة على سطح القمر والمريخ، وعملية القيادة الفضائية على سطح القمر لم يعد مجال لهذه الفرضيات الخيالية.

فالיום لا يعتبر العلماء المحققون فكرة العناصر الأربعة والفلك المتصل كقشرة البصل إلا جزءاً من الاساطير.

فان العلماء لم يستطيعوا بالآلات العلمية وأجهزة الرصد الدقيقة والعيون

(547)

المسلحة من رؤية، تلك العوالم التي حاكها وصنعها بطلميوس بقوة خياله، من هنا فان أية نظرية تقوم على هذا الاساس غير الصحيح تكون عارية عن أية قيمة، واعتبار.

نَعْمَةٌ شَادَةٌ:

ولقد طلع مؤسس الفرقة الشيعية» (1) الشيخ احمد الاحساني» في «الرسالة القطيفية» بنعمة شادة في هذا الصعيد حيث أراد بابداء طرحة جديدة أن يرضي كلا الطرفين (القائلين بروحانية المعراج النبوي والقائلين بجسمانيته) حيث قال: ان النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عرج ببدينه البرزخي (الهور قليائي) (2) ثم استدل لذلك بقوله:

ان الصاعد كلما صعد ألقى في كل رتبة من المراتب المذكورة ما فيها، فمثلا إذا تجاوز كرة الهواء القى ما فيه من الهواء، وإذا تجاوز كرة النار ألقى ما فيها وإذا رجع أخذ ما له من كرة النار، وإذا وصل إلى كرة الهواء أخذ ما له من الهواء.

ومن هنا فإنَّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - عندما عرج إلى السماء القى في كل كرة واحداً من تلك العناصر الأربعة في كرتة، وعرج ببدن فاقد لهذه العناصر.

ومثل هذا البدن لا يمكن ان يكون بدنأ عنصرياً، فليس هو الا البدن البرزخي (الذي أسماه الهور قليائي) لا غير. (3)

- [لاشك أن هذه الفرقة وامثالها من الفرقة المبتدعة هي من صنائع الاستعمار أو هي مما يؤيده لتنفيذ أغراضه، ومن حسن الحظ أن انتشار الوعي بين أبناء الأمة الإسلامية حدّ من نشاط هذه الفرق حتى انها أصبحت على أبواب الاندثار والانقراض نهائياً.
- وهو البدن البرزخي الذي يشبه البدن الذي يفعل به الإنسان الأفعال المختلفة في عالم النوم والرويا ويقوم بكل نوع من انواع النشاط
- 3تقع الرسالة القطيفية ضمن مجموعة تحتوي على ٩٢ رسالة باسم جوامع الكلم التي طبعت عام ١٢٧٣.
ومع هذا التصريح يدعي البعض - للتستر على خطأ الشيخ وزلته هذه - بأن الشيخ يعتقد بأن المعراج كان جسمانياً عنصرياً، وأنه موافق لرأي المشهور في هذا المجال.

(548)

وبهذا - حسب تصوّره - أرضى من نفسه كلا الطرفين المذكورين، لأنه من جانب اعتقد بالمعاد الجسماني، وفي نفس الوقت تخلّص من اشكال «خرق الافلاك والتحامها» لأن نفوذ الجسم البرزخي لا يستوجب أي خرق وانفصال في جدار الفلك.

ولكن هذه النظرية - كما هو واضح لكل عالم متحرّ للحقيقة، بعيد عن العصبية - واضحة البطلان كسابقتها (نظرية المعراج الروحاني)، فمضافاً إلى انها مخالفة للقرآن وظاهر الاحاديث، لأنه - كما أسلفنا - لو عرضنا آية المعراج (من سورة الاسراء) على أي عارف باللغة، مهما كانت وطلبنا منه رأيه في هذا الصدد لقال: ان مراد القائل هو البدن الدنيوي العنصري الذي عبّر عنه القرآن بلفظ العبد، في قوله تعالى: «سبحان الذي أسرى بعبده»، وليس الهورقليائي الذي لم يكن يعرفه المجتمع العربيّ، ولا يعرف أمثاله في ذلك اليوم أساساً، في حين أنهم كانوا هم المخاطبون في آية المعراج في سورة الاسراء لا غيرهم.

هذا مضافاً إلى أن ما دفع بالشيخ إلى ارتكاب هذا التأويل البارد هو الاسطورة اليونانية المذكورة حول الفلك، حيث تصوّرها كحقيقة ثابتة من حقائق اللوح المحفوظ، وقد كذبها وفندها كل فلكيي العالم اليوم، وأعلنوا عن سخافتها.

فلا يجوز لنا أن نقبل تلك الفرضية تقليداً أعمى.

وإذا ما رأينا بعض القدماء من المشايخ قال بمثل هذا محسناً الظن بتلك الفرضية الفلكية القديمة وأمثالها امكن إذارهم، لعدم قيام ادلة علمية قوية على خلافها آنذاك.

اما اليوم فلا ينبغي لنا ان نتجاهل الحقائق القرآنية لفرضية ثبت بطلانها في الأوساط العلمية.

المعراج وقوانين العلم الحديث:

قد يتصور فريقيّ من الناس أن القوانين الطبيعية والعلمية الحاضرة لا تتلاءم

(549)

مع معراج النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وذلك لأنه:

- [يقول العلم الحديث: إنّ الابتعاد عن الأرض يتطلب التخلّص من جاذبية الأرض، وبعبارة أخرى ابطال مفعولها.

فان (الكرة) التي نقذفها إلى الأعلى تعود مرة ثانية إلى الأرض بفعل الجاذبية ومهما كررنا قذف الكرة إلى الأعلى فانها تعود وترجع إلى الأرض أيضاً.

فاذا أردنا أن نبطل مفعول جاذبية الأرض ابطالا كاملا بحيث لا تعود الكرة المقذوفة إلى الأعلى إلى الأرض ثانية بل تواصل مسيرها إلى الأعلى فإننا نحتاج لتحقيق هذا الهدف إلى جعل سرعة الكرة باتجاه معاكس للأرض تعادل ٢٥ / ٠٠٠ ميلا في الساعة

وعلى هذا فان معنى المعراج هو ان يكون النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قد خرج من محيط جاذبية الأرض، واصبح في حالة انعدام الوزن.

ولكن ينطرح هنا سؤال وهو: كيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يطوي بدون وسائل هذه المسافة بمثل هذه السرعة، وهل البدن الطبيعي يتحمل مثل هذه السرعة مع عدم توفر الغطاء الواقي والوسائل اللازمة، التي تصون الجسم من التبعثر والذوبان بفعل السرعة الفائقة.

2- إنّ الهواء القابل للاستنشاق غير موجود فوق عدد من الكيلومترات بعيداً عن سطح الأرض، بمعنى اننا كلما ذهبنا صعوداً إلى الطبقات العليا وابتعدنا عن الأرض أصبح الهواء أرق، حتّى يغدو غير قابل للاستنشاق، وربما نصل إذا وصلنا الصعود إلى الأعلى إلى منطقة ينعدم فيها الهواء اللازم للتنفس بالمرّة، فكيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبعد طي تلك المسافة الطويلة والبعيدة في أعالي الجو أن يعيش بدون وجود الاوكسجين!؟

3- إنّ الاشعة الفضائية، والاحجار السماوية والشهب الكثيرة المتطايرة إذا اصطدمت بأي جسم أرضي أبادته، وأفنته، ولكنها عندما تصطدم بالغلاف الغازي المحيط بالأرض تتلاشى وتصبح كالبودر ولا تصل إلى الأرض، فيكون

(550)

الغلاف الغازي في الحقيقة بمثابة درع يقي سُكَّان الأرض من خطر تلك الفذائف المهلكة.

ومع هذه الحالة كيف تهيأ لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يصون نفسه من تلك الأشعة الفضائية، والاحجار السماوية؟!

4- إذا قلَّ ضغطُ الهواء على جسم الإنسان فزاد أو نقص اختلت حياته الطبيعية، فهو يمكنه أن يعيش تحت ضغط معين من الهواء، لا يوجد في الطبقات العليا من الجوّ، فكيف استطاع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - والحال هذه أن يحافظ على حياته في أعالي الفضاء؟!؟

5- إنَّ سرعة الحركة التي سار بها النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لا ريب كانت تفوق سرعة الحركة التي يسير بها النور ومع العلم بأنَّ سرعة النور هي 300 / 000 كيلومتراً في الثانية، مع العلم أيضاً أنه ثبت في العلم الحديث أنه لا يستطيع أيُّ جسم أن يتحرك بسرعة تفوق سرعة النور، فكيف استطاع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يسير بسرعة تفوق سرعة النور، ومع ذلك يرجع إلى الأرض سالم الجسم كامله؟؟؟!

جوابنا:

وجوابنا هو: أننا إذا أردنا أن نناقش هذه المسألة على ضوء القوانين العلميّة الطبيعية لتجاوز عدد الاعتراضات والاشكالات ما ذكرناه آنفاً.

ولكننا نقول في جواب هذا الفريق متساءلين: ما هو مقصودكم من توضيح هذه النواميس الطبيعية.

هل تريدون القول بأن السير في العوالم العليا أمرٌ غير ممكن، وممتنع ذاتاً وبالتالي أنه أمر محال.

فاننا نقول - حينئذ - في الجواب على ذلك بان الجهود والتحقيقات العلمية التي بذلها علماء الفضاء في الشرق والغرب قد جعلت هذا الأمر - ولحسن الحظ - أمراً ممكناً، وعادياً، لأن مع اطلاق أول قمر اصطناعي عام (1957م) إلى السماء

(551)

والذي اسماء علماء الفضاء بـ «اسپوتنيك» اتضح أنه يمكن إبطال مفعول جاذبية الأرض بواسطة الصاروخ، كما أن إرسال السفن الفضائية الحاملة لرواد الفضاء من البشر بواسطة الصاروخ أوضح أنّ ما كان يُعدّه البشر مانعاً من الصعود إلى الأعلى في الفضاء قد أصبح قابلاً لرفعه وإزالته، والتخلّص منه بيد العلم والتكنولوجيا.

إن البشر استطاع بأدواته وآلاته العلمية والتكنولوجية أن يعالج مشكلات عديدة في مجال ارتياد الفضاء مثل مشكلة الشهب والنيازك المتطايرة في الجوّ ومشكلة الأشعة الفضائية، ومشكلة إعدام الغاز اللازم للتنفس و..و.. وهاهو علم ارتياد الفضاء في حال توسع

مستمرّ وان العلماء أصبحوا الآن يتقون بأنهم سرعان ما يتمكنون من مدّ بساط الحياة والعيش في إحدى الكرات السماوية والسفر إلى إحدى الكواكب كالقمر والمريخ بسهولة كبرى⁽¹⁾!

إنّ هذه الأحداث العلمية وهذا التقدّم التكنولوجي في مجال ارتياد الفضاء شاهدٌ قوئٌ على أنّ هذا العمل أمر ممكن مائة بالمائة، وليس من الأمور المستحيلة.

وإذا كان مقصود المعترضين على المعراج هو انه لا يمكن القيام بمثل هذه الرحلة من دون أجهزة علمية وتكنولوجية، ولم يكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يملك في تلك الليلة مثل هذه الأجهزة فكيف طوى تلك المسافات وطاف

- [بعد اطلاق الاقمار وال سفن الاصطناعية لأول مرة يوم الأربعاء ابريل عام ١٩٦١ بدأ الضابط الروسي جاجارين (٢٧ سنة) رحلته الفضائية في سفينة فضائية، وكان أول إنسان أقدم على هذه الرحلة الفضائية، وابتعدت سفينته ٣٠٢ كيلومتراً عن سطح الأرض، ودارت دورة واحدة حول الكرة الارضية في ساعة ونصف.
وبعد ذلك أقدمت أمريكا والاتحاد السوفيتي على ارسال السفن الفضائية إلى الفضاء في محاولة لغزو القمر حتّى حطّت «أبولو» الحاملة لـ ١١ رائداً فضائياً على سطح القمر لأول مرّة، وكان هذا أول مرة يحط فيها انسان قدمه على ارض القمر.
وقد تكررت تجربة هذا البرنامج الفضائي فيما بعد مرات ومرات وكانت ناجحة على الاغلب. وكل هذه الجهود والنتائج تكشف عن أن هبوط الإنسان على سطح الكرات والكواكب أمرٌ ممكن، وما يستطيع البشر فعله عن طريق العلم يقدر الله خالق البشر على فعله بارادته النافذة.

(552)

على جميع تلك العوالم من دون أدنى وسيلة نقل من هذا القبيل؟!

فاننا نقول في معرض الاجابة على اعتراضهم هذا بأن جواب هذا الاعتراض يتضح من الابحاث التي سبقت منا حول معاجز الانبياء وخصوصاً بحثنا المفصّل حول حادثة عام الفيل وهلاك جيش أبرهة العظيم بالأحجار الصغيرة، لأنه من المسلم أنّ ما يستطيع البشر فعله عن طريق الأدوات والآلات العلمية الصناعية يستطيع الأنبياء فعله بعناية الله تعالى، وإقداره وبدون الأسباب الظاهرية والخارجية.

لقد عرج رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى السماء بعناية وبقادر الله الذي خلق الوجود كله، واقام هذا النظام البديع برمته، فهو الذي أعطى للأرض جاذبيتها، وأعطى للشمس أشعتها وأوجد مختلف طبقات الهواء، وأنواع الغازات في الجو، ومتى أراد أخذها وانتزاعها منها، أو كبح جماحها، وردّ عاديتها.

فاذا تحقق معراج النبي الاكرم محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - في ظلّ العناية الإلهية فإنّ من المسلم ان جميع النواميس تخضع أمام قدرته القاهرة، وارادته الغالبة، وهي طوع إرادته، والسموات والأرض مطويات بيمينه والجميع في قبضته ورهن اشارته دائماً وأبداً، وفي كل حين وأوان.

وعلى هذا فماذا يمنع من أن يعمل الله الذي منح للأرض جاذبيتها، وللأجرام السماوية أشعتها، على إخراج عبده المصطفى بقدرته المطلقة ومن دون الاسباب الظاهرية، من مركز الجاذبية الأرضية، ويصونه من أخطار الاشعة الكونية، وأن يعتمد خالق كل هذا القدر الهائل من الاوكسجين إلى إيجاد الهواء اللازم لنبيه في الطبقات التي ينعدم فيها الهواء، وهذا هو معنى قولهم: «إنَّ الله مسبِّبُ الأسباب ومعطِّلُ الأسباب.»

ان أمر المعجزة يختلف ويفترق أساساً عن أمر العلل الطبيعية والقدرة البشرية.

ونحن يجب أن لا نقيس قدرة الله المطلقة بقدرتنا المحدودة، فاذا كنَّا لا نقدر

(553)

على شيء من دون الأسباب لم يصح أن نقول: ان القادر المطلق لا يقدر على مثله من دون الاسباب الطبيعية أيضاً.

إنَّ إحياء الموتى، وقلب العصا إلى ثعبان، وإبقاء يونس حياً في بطن الحوت، في قعر البحار، مما صدقته جميع الكتب السماوية ونقلته إلينا لا تقل إشكالا ولا تختلف جواباً عن قصة المعراج النبوي

وخلاصة القول: ان جميع العلل الطبيعية والموانع الخارجية مسخرة لله تعالى خاضعة لارادته، مطيعة لأمره وارادته يمكن تعلُّقها بكل شيء إلا بالأمر المحال، وأما غير ذلك أي ما يكون ممكناً بالذات مهما كان، فأنه قابلٌ لأن يتحقق في ظل ارادة الله ومشيئته سواء يقدر البشر عليه أم لا يقدر.

على أن حديثنا هذا موجَّهٌ إلى مَنْ آمن بالله، وعرف ربّه بصفاته الخاصة به تعالى، وبالتالي آمن بالله الأزليّ على أنه القادر على كل شيء.

الهدف من المعراج:

لقد بيّنت الاحاديث - بعد الآيات - الغرض من المعراج واليك طائفة من هذه الاحاديث.

- [يقول ثابت بن دينار سألت الامام زين العابدين علي بن الحسين - عليه السلام - عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان فقال:

«تعالى الله عن ذلك.»

قلت: فلم اسرى بنبيه محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى السماء؟

قال: «لِيُريَهُ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَمَا فِيهَا مِنْ عَجَائِبِ صَنْعِهِ وَبِدَائِعِ خَلْقِهِ.»

2- وقال يونس بن عبدالرحمان قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر - عليه السلام - لأىِّ علة عرج الله بنبيه إلى السماء ومنها إلى «سدرة المنتهى»، ومنها إلى «حجب النور» وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟⁽¹⁾

فقال - عليه السلام - «: إنَّ الله لا يُوصَفُ بمكان ولا يَجري عليه زمانٌ، ولكِنَّهُ

- [علل الشرائع: ص ٥٥، البحار: ج ١٨ ص ٣٤٧ و ٣٤٨. تفسير البرهان: ج ٢، ص ٤٠٠.

(554)

عزوجل أراد ان يُشَرِّفَ به ملائِكَته، وسكانَ سَمَواتِهِ، ويكرِّمُهُم بمشاهدته، ويُريَهُ من عجائب عظمته ما يخيِّر به بَعْدَ هُبوبِهِ، وليس ذلك على ما يُقولُهُ المشبِّهون سبحانه الله تعالى عَمَّا يَصِفُون.⁽¹⁾»

أجل يجب أن يكون لرسول الإسلام وخاتم الأنبياء مثل هذا المقام العظيم ومثل هذه المنزلة السامقة، ليقول للبشرية العائشة في القرن العشرين، والتي أصبحت تفكر في الهبوط على «المريخ» و «الزهرة» وغيرها من الانجم البعيدة:

بانني قد فعلت هذا من دون أية وسيلة، وإنَّ رَبِّي قد مَنَّ عَلَيَّ وعَرَّفني على نظام السماوات والأرض، وأطلَّعني بقدرته وبعنايته على أسرار الوجود، ورموز الكون.

- [علل الشرائع: ص ٥٥. البحار: ج ١٨، ص ٣٤٧ و ٣٤٨. تفسير البرهان: ج ٢، ص ٤٠٠.

(555)

٢٣

سفرة إلى الطائف

انقضت السنة العاشرة بكل حوادثها الحلوة والمرّة، فان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقد في هذا العام حاميه الكبيرين المتفانيين في سبيله، ففي البداية فقد كبير بني عبدالمطلب وسيدهم، والمدافع الوحيد عن حوزة الرسالة الإسلامية والذائب بالاخلاص عن حياض الشريعة المحمّدية، والشخصية الاولى في قريش اعني «أبا طالب» - عليه السلام - .

ولم تنمح آثار هذه المصيبة المرّة عن خاطر النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - بعد إلا وفاجأته مصيبة وفاة زوجته الوفية العزيزة، السيدة خديجة الكبرى التي جددت برحيلها عنه أحزان النبيّ وآلامه الروحية.⁽¹⁾

لقد حامى أبوطالب ودافع عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وحافظ على حياته وسلامته ومكانته، وبينما ساعدت خديجة بثروتها الطائلة في نشر الإسلام وقدمت في هذا السبيل خدمات عظيمة لا تنسى.

من هنا سمى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - تلك السنة بعام الحداد، أو

- [جاء في تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠١ انه قيل بأن «خديجة» توفيت بعد «أبي طالب» بشهر وخمسة أيام، بينما ذهب آخرون مثل ابن الأثير في الكامل ج ٢، ص ٦٣ إلى أن السيدة خديجة توفيت قبل أبي طالب، لا بعده.

(556)

الحزن. (1)

ومنذ أن توفى الله الحاميين العظميين والمدافعين القويين عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - واجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ظروفاً صعبة جداً قلما واجهها من قبل.

فقد واجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ حلول السنة الحادية عشر جراً مفعماً بالعداء له، والحقد عليه، وصارت الاخطار تهدد حياته الشريفة في كل لحظة، وقد فقد كل الفرص لتبليغ الرسالة وكل امكانات الدعوة إلى دينه.

يقول ابن هشام في هذا الصدد: ان «خديجة بنت خويلد» و «أبا طالب» هلكا (اي توفيا) في عام واحد فتتابعت على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المصائب بهلك خديجة وكانت له وزيرة صدق على الإسلام... وبهلك عمه أبي طالب وكان له عضداً، وحرزاً في أمره، ومنعته وناصراً على قومه وذلك قبل هجرته الى المدينة بثلاث سنين، فلما هلك أبو طالب نالت قريش من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الأذى ما لم تكن تطمع به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفية من سفهاء قريش فنثر على رأسه تراباً.

ولما نثر ذلك السفية على رأس رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذلك التراب دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول لها:

«لا تبكي يا بُنَيَّةُ فَإِنَّ اللَّهَ مانعُ أبائك.»

ويقول بين ذلك:

«ما نالت مني قريشٌ شيئاً أكرههُ حتى مات أبوطالب.» (2)

ولأجل تزايد الضغط والكبت هذا قرر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن ينتقل

- 1 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٠١، السيرة الحلبية: ج ١، ص ٣٤٧.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٥ و ٤١٦، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٥ عن إعلام الوري عن محمد بن اسحاق بن يسار.

(557)

من المحيط المكي إلى محيط آخر يتسنى له تبليغ رسالته.

وحيث أنّ الطائف كانت تعتبر آنذاك مركزاً هاماً، لذلك رأى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يسافر لوحده إلى الطائف، ويجري بعض الاتصالات مع زعماء قبيلة ثقيف وساداتها ويعرض دينه عليهم علّه يحرز نجاحاً ويكسب انصاراً جديداً لرسالته من هذا الطريق.

ولما انتهى - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الطائف عمد إلى نفر من قبيلة «ثقيف» هم يومئذ سادة ثقيف واشرافهم، وجلس - صلى الله عليه وآله وسلم - إليهم، ودعاهم إلى الله، فلم يؤثر فيهم كلام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا له: لئن كنت رسولاً من الله كما تقول لأنت أعظم خطراً من أردّ عليك الكلام، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي ان اكلمك!!

فعرف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ردهم الصبياني أنهم يحاولون التملص من قبول الدعوة واعتناق الإسلام، فقام - صلى الله عليه وآله وسلم - من عندهم بعد ان طلب منهم أن يكتموا ما جرى في هذا اللقاء خشية أن يعرف سفهاء ثقيف فيتجرأوا عليه ويتخذوا ذلك ذريعة لاستغلال غربته ووحده، ومن ثم إيدائه، فوعده بالكتمان، ولكنهم - وللاسف - لم يحترموا وعدهم هذا الذي أعطوه لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم، وفجأة وجد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه محاطاً بجمع كبير من اولئك السفهاء يسؤونه ويصيحون به حتى اجتمع الناس، وألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة وهما فيه في تلك الساعة، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه، فعمد إلى ظل فجلس فيه وهو يتصبب عرقاً، وقد الحقوا الاذى بمواضع عديدة من بدنه الشريف ورجلاه تسيلان من الدماء، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان مالقي من سفهاء أهل الطائف، وقد كانا من اثرياء قريش، يومئذ.

فلما اطمان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - توجه إلى ربه ونجاه قائلاً:

«اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَ قِلَّةَ جِبَلَّتِي، وَ هَوَانِي عَلَى النَّاسِ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ، وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ

تَكَلَّنِي، إِلَى

بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟

إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي، ولك، عافيتك هي أوسع لي.

أعود بنور وجهك الذي اشرفت له الظلمات، و صلح عليه أمر الدنيا و الآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يجل علي سخطك.

لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَ لَا حَوْلَ وَ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ. (1)»

هذه الكلمات وهذا الدعاء هي استغاثة شخصية عاش خمسين سنة عزيزاً مكرماً في ظل حماية من دافعوا عنه بصدق و إخلاص و دفعوا عنه كل اذى ولكنه الآن يضيق عليه رحب الحياة حتى يلجأ إلى حائط عدو من اعدائه، و يجلس في ظل شجرة، مكروباً موجعاً ينتظر مصيره.

فلما رآه ابنا ربيعة «عتبة وشيبة» وكانا من الوثنيين ومن أعداء الإسلام وشاهدوا مالقي من الأذى والعذاب، رقا له فدعوا غلاماً لهما نصرانياً من أهل نينوى يقال له «عداس» فقالا له: خذ قطعاً من العنب فضعه في هذا الطبق ثم اذهب به إلى هذا الرجل فقل له يأكل منه، ففعل عداس، ثم أقبل بالعنب حتى وضعه بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال له: كل، فلما وضع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيه يده قال: «بسم الله الرحمن الرحيم. »

فتعجب عداس من ذلك بشدة وقال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد.

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن أهل أي البلاد أنت وما دينك؟

قال: أنا نصراني، من أهل نينوى.

قال - صلى الله عليه وآله وسلم - : من مدينة الرجل الصالح يونس بن متى.

فقال له عداس: وما يدريك ما (من) يونس بن متى؟

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - : (2)ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي، أنا رسول الله،

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٠.
- 2 وفي رواية البحار: ج ١٩، ص ٦ جملة اعتراضية هنا: - وكان لا يحقر أحداً أن يبلغه رسالة ربه. -

والله تعالى أخبرني خير يونس بن متى.

فأكبَّ عداس على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد رأى في كلماته علانم الصدق وآيات الحق، وجعل يقبل رأسه ويديه، وقدميه، وهما تسيلان من الدماء وآمن به، ثم عاد بعد الاستئذان منه - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى صاحبيه في البستان.

فتعجب ابنا ربيعة لما رأياه في غلامهما عداس من الانقلاب الروحي العجيب، وسألاه قائلين: ويك يا عداس مالك قبّلت رأس هذا الرجل، ويديه وقدميه وماذا قال لك؟!

فاجابهما الغلام قائلًا: يا سيديّ ما في الارض شيء خير من هذا، هذا رجلٌ صالح لقد أخبرني بأمر ما يعلمه إلا نبيُّ.

فشقَّ كلامُ عداس على ابني ربيعة، وقالوا له بنبرة الناصح له: ويحك يا عداس، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك فان دينك خير من

دينه⁽¹⁾!!

النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يعود إلى مكة:

انتهت ملاحقة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بلجونه إلى حائط ابني ربيعة، وكان عليه الآن، وبعد أن يس من خير ثقيف ان يعود إلى مكة، ولكنَّ عودته إلى مكة لم تكن لتخلو عن مشاكل، لأنه قد فقد نصيره وحاميه ومدافعه الاكبر والا وحده فكان من المحتمل جداً أن يقبض عليه المشركون ويسفكوا دمه.

فقرر - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يبقى في منطقة «نخلة» (وهي واد بين الطائف ومكة) بعض الوقت.

لقد كان يريد أن يرسل أحداً إلى شخصية من شخصيات قريش يطلب منها ان تجيره حتّى يدخل مكة بجوار، ولكنه - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يجد من يقوم له بهذه المهمة. فترك «نخلة» إلى حراء، وهناك التقى رجلا خزاعياً وطلب منه أن

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤١٩ - ٤٢١، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٦ و ٧ و ٢٢ مع اختلاف يسير.

يأتي «المطعم بن عدي» بمكة، وكان من الشخصيات المكية البارزة و يسأله أن يجير رسول الله ليدخل مكة في أمان من اذى قريش وكيدها.

فدخل الخزاعي مكة، وأبلغ المطعم ما طلبه منه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقبل المطعم - رغم كونه وثنيّاً مشركاً - ان يجير رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال للخزاعي: انتة فقل له: إني قد أجزتك فتعال.

فدخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مكة ليلاً ونزل في بيت مطعم مباشرة، وبات ليلته هناك، ولما طلعت الشمس من صبيحة غد قال مطعم لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لتعلمن قريش بانك في جوارنا، فاصحبنا إلى البيت، ليروا جوارنا

فاستحسن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - رأيه فاخذ المطعم وأهل بيته السلاح ودخلوا مع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في المسجد الحرام، وكان ورودهم في المسجد بهيئة رائعة.

وكان أبوسفیان قد كمن للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ليكيد به، فلما رأى هذا المشهد المهيب غضب غضباً شديداً، وانصرف عن ايداء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، فجلس المطعم وولده واختانه واخوه، وطاف رسول الله بالبيت وصلى عنده ثم انصرف إلى منزله. (1).

ولم يمض على هذه الحادثة زمان طويل حتى هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٣٨١. بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٧ و ٨. ويستبعد بعض المحققين ان يكون رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد طلب الجوار من مشرك أو دخل في جوار مشرك، على غرار عدم قبوله الهدية من المشرك وذكر لذلك ادلة ووجوها. ولكن يمكن الاجابة على هذا بأن الاجارة كانت امرأ عادياً في ذلك العصر، ولم يكن فيها ما يوجب شيئاً على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولم تستلزم منة عليه. ثم ما المانع في مثل هذا الجوار لو ترتبت عليه مصالح عليا، كتمكين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من الدخول بسلام إلى مكة، وتمكنه من القيام بمهامه الرسالية، خاصة ان هذا الجوار لم يستغرق إلا يوماً أو بعض يوم وتسنى بعده لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليه وآله وسلم - ترتيب اوضاعه في مواجهة الاخطار التي كانت تتهدده من جانب المشركين بمكة.

(561)

من مكة إلى المدينة، وتوفي المطعم في أوائل الهجرة في مكة، ولما بلغ رسول الله نبأ موته تذكر - صلى الله عليه وآله وسلم - - إحسانه وجواره، وانشأ حسان بن ثابت شاعر الإسلام شعراً يمدح فيه تقديرأ لخدمته.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يتذكره كثيراً، حتى انه تذكره في واقعة «بدر» التي انهزمت فيها قريش وعادت منكسرة إلى مكة بعد أن خسرت كثيراً من رجالها واسر منها عدد كبير، فتذكر مطعم بن عدي ثمة وقال - صلى الله عليه وآله وسلم - :-

«لو كان مطعم بن عدي حياً لو هبت له هؤلاء. (1)»

نقطة هامة:

إن سفر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الطائف يكشف عن اصراره في اداء رسالته و استقامته وصبره - صلى الله عليه وآله وسلم - كما ان تذكره لإحسان مطعم في المواقع المناسبة يقودنا إلى خصاله الحميدة وسجاياه. الفاضلة، وخلق العظيم.

ولكن الالهَم من هذا وذاك هو أننا نستطيع من خلال هذا تقييم خدمات أبي طالب القيمة، ومعرفة اهميتها الكبرى عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، بمقايستها مع ما فعله مطعم.

فان مطعم لم يفعل شيئاً إلا أن اجار رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحماه يوماً أو بعض يوم.

بينما حذب أبو طالب على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ودافع عنه وخدمه عمراً كاملاً، ولقى في سبيله من المحن والمتاعب ما لم يلق مطعم منها ولا شيئاً ضئيلاً.

فاذا كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعلن عن استعداده للافراج عن جميع الاسرى في «بدر» تقديراً لما قام به مطعم من اجارة بسيطة قصيرة، فماذا

- [المغازي للواقدي: ج ١، ص ١١٠ ثم قال الواقدي: وكانت لمطعم بن عدي عند النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - اجارة حين رجع من الطائف، طبقات ابن سعد: ج ١، ص ٢١٠ و ٢١٢، البداية والنهاية: ج ٣، ص ١٣٧.

(562)

عسأه أن يقوم به تجاه ما اسداه إليه عُمه وحاميه وكافله الاكبر والأوحد أبوطالب من خدمات طوال اكثر من اربعين عاماً أنه يجب ان يكون لمثل هذا الشخص العظيم الذي كفل صاحب الرسالة وقام بشؤونه مدة أربعين عاماً بايامها وليالها ودافع عنه في السنوات العشر الاخيرة وهي جلُّ عمر الرسالة الإسلامية في الفترة المكية إلى درجة ان عرّض راحته وسلامته بل حياته وحياة أبنائه لخطر الموت دفاعاً عن حياض الرسالة، وحمايةً لصرح النبوة، مقاماً عظيماً ومنزلة كبرى عند قائد البشرية، ومعلم الإنسانية، وهاديها العظيم.

كيف لا؛ والفرق بين هذين الشخصين كبير، والبون شاسع، فمطعم رجل وثني مشرّك، بينما يعتبر أبوطالب واحداً من كبار الشخصيات الإسلامية العظيمة بلا جدال.

الدعوة في أسواق العرب:

كانت العرب تجتمع - في مواسم الحج - في نقاط مختلفة مثل: «عكاظ» و «المجنة» و «ذي المجاز»، وكان الشعراء والخطباء العرب البارغون يقفون في هذه المناطق على أماكن مرتفعة ويلهون فريفاً من الناس بما يلقونه عليهم من خطب وقصائد تدور في الأغلب حول الحرب والقتال، والتفاخر، والعشق.

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - شأن كل الأنبياء والمرسلين الذين سبقوه يستغل هذه الفرصة - كغيرها - لا بلاغ رسالة ربه إلى الناس، ولم يكن لاحد منعه أو الكيد به لحرمة القتال والجدال في الأشهر الحرم.

من هنا كان - صلى الله عليه وآله وسلم - إذا حلّ الموسم وقف على مكان مرتفع وخاطب الناس قائلاً:
«قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلِحُوا وَتَمَلِكُوا بِهَا الْعَرَبَ وَتَذَلُّ لَكُمْ لِعَجْمٍ، وَإِذَا آمَنْتُمْ كُنْتُمْ مُلُوكًا فِي الْجَنَّةِ.»⁽¹⁾

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢١٦.

(563)

دعوة رؤساء القبائل في موسم الحج:

وكان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتقي في موسم الحج في هذه النقاط برؤساء القبائل العربية واشرافها، ويقف على منازلهم منزلاً منزلاً، ويعرض دينه عليهم، ويدعوهم إلى الله ويخبرهم أنه نبي مرسل.⁽¹⁾

وربما مشى خلفه عنه «أبو لهب» فإذا فرغ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من قوله وما دعا به قال أبو لهب فوراً للناس: يا بني فلان إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة، فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه.

وقد قدمت جماعة من بني عامر إلى مكة فدعاهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى الإسلام وعرض عليهم نفسه، فقبلوا أن يعتنقوا الإسلام إلا أنهم اشترطوا عليه أن يكون إليهم خلافته من بعده إذ قالوا: أ رأيت إن نحن تابعتك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أ يكون لنا الأمر من بعدك؟

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

(الأمر إلى الله يَضَعُه حيثُ يشاءُ.)

فرفضوا اعتناق الإسلام والإيمان بالله ورسوله.

ثم لما عادوا إلى أوطانهم رجعوا إلى شيخ لهم طاعن في السن لم يقدر أن يحج معهم وكان ذا بصيرة وفهم فحدثوه بما جرى بينهم وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقالوا: جاءنا فتى من قريش من بني عبدالمطلب يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نمناه⁽²⁾ ونقوم معه.

فوضع الشيخ يديه على رأسه ووبَّخَهُم على رفضهم لدعوة الرسول وقال:

- [قال ابن هشام: كان - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدَّى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده.
- 2 أي نحيمه.

(564)

يا بني عامر والذي نفسُ فلان بيده ما تَقَوْلُها اسماعيليّ قط⁽¹⁾، وإنَّها لحقٌّ، فإين رأيكم كان عنكم؟⁽²⁾!

ان هذه القضية التاريخية تفيد - في ما تفيد - بان مسألة الخلافة والامامة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمر تنصيبي، تعييني، لا انتخابي، أي ان تعيين الخليفة بعد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يعود إلى الله، ولا خيار للناس فيه، وانما عليهم الطاعة والرضا.

- [أي ما ادعى النبوة كاذباً أحد من بني اسماعيل.
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٤ و ٤٢٥.

(565)

٢٤

بيعة العقبة

كان (وادي القرى) في ما مضى من الزمن طريق التجارة من اليمن إلى الشام، فكانت القوافل التجارية القادمة من اليمن تدخل وادياً طويلاً يدعى بوادي القرى بعد العبور بالقرب من مكة، وكانت المناطق الواقعة على طول هذا الوادي مناطق خضراء، ومن هذه المناطق مدينة قديمة كانت تدعى بـ: يثرب والتي عرفت فيما بعد بمدينة الرسول.

وقد سكن في هذه المدينة منذ اوائل القرن الرابع الميلادي قبيلتان: «الايوس والخزرج» اللتان كانتا من مهاجري عرب اليمن (من القحطانيين).

وكان يعيش الى جانبهم الطوائف اليهودية الثلاث المعروفة: «بنو قريظة» و «بنو النضير» و «بنو قينقاع» الذين كانوا قد هاجروا اليها من شمال شبه الجزيرة العربية واستوطنوها.

وكان يقدم إلى مكة كل عام جماعة من عرب يثرب للاشتراك في مراسم الحج، وكان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يلتقي بهم في تلك المواسم، ويجري معهم اتصالات.

وقد مهدت بعض هذه اللقاءات للهجرة، وصارت سبباً لتمرکز قوى الإسلام المتفرقة، في تلك النقطة.

(566)

على ان كثيراً من تلك الاتصالات وان لم تثمر ولم تنطو على اية فائدة فعلية إلا أنها تسببت في أن يحمل حجاج يثرب - لدى عودتهم - انباء ظهور النبيّ الجديد وينشروه في اوساط المدينة كأهم نبأ من انباء الساعة، ويلفتوا نظر الناس في تلك الديار إلى مثل هذا الامر المهم والخطير.

ولهذا نقلنا هنا بعض اللقاءات والاتصالات التي تمت بين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وجماعات من اهل هذه المدينة في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة من البعثة للتضح بدراسة هذه المطالب علة هجرة النبيّ الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - من مكة إلى يثرب، وتمرکز قوى المسلمين في تلك المنطقة.

- [كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كلما سمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف تصدى له، ودعاه إلى الإسلام وعرض عليه ما عنده.

وقد قدم مرة «سويد بن الصامت» فتصدى له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حين سمع به فدعاه إلى الله وإلى الإسلام فقال له سويد: فلعلّ أذني معك مثل الذي معي.

فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : وما الذي معك.

قال: مجلة لقمان يعني حكمة لقمان.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إعرضها عليّ فعرضها عليه. فقال له: إن هذا الكلام حسن، والذي معي أفضل من هذا. قرآنٌ انزلهُ اللهُ عليّ هو هدى و نور.

ثم تلا عليه رسولُ الله - صلى الله عليه وآله وسلم - القرآن ودعاه إلى الإسلام فقال سويد إنّ هذا قولٌ حسن وأمرٌ برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقدم المدينة على قومه، فلم يلبث أن قتلته الخزرج فيما كان يتلفظ الشهادتين وكان قتله قبل يوم بعث. (1)(2)

- [بعث موضع كانت فيه حرب بين الأوس والخزرج.
- 2 السيرة النبوية: ج 1، ص 425 - 427.

2-قدم «انس بن رافع» مكة ومعه فتية من بني عبدالاشهل فيهم «ياس بن معاذ» أيضاً، يلتمسون الحلف والنصرة على قومهم من الخزرج، فسمع بهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فأتاهم وجلس اليهم وقال لهم: هل لكم في خير مما جئتم له؟ فقالوا له: وما ذاك؟

قال: «أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً وانزل على الكتاب» ثم ذكر لهم الإسلام وتلا عليهم القرآن.

فقال ياس بن معاذ وكان غلاماً حدثاً شهماً: أي قوم هذا والله خير مما جئتم له. فقد أدرك جيداً أن دين التوحيد يكفل كل حاجاتهم فهو دين شامل مبارك لأنه سيصهر الجميع في بوتقة الأخوة الواحدة فتزول عندئذ أسباب العداة والقتال، وبذلك ينهي كل مظاهر الحرب والتنازع، وكل مظاهر الفساد والتخريب فهو افضل من طلب المساعدة العسكرية من قريش التي جاؤوا من أجلها إلى مكة، فأمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من دون ان يكسب رضا رئيس قبيلته «انس بن رافع» واستئذانه، ولهذا غضب أنس وأخذ حفنة من تراب البطحاء وضرب بها وجه ياس وقال: دعنا منك فعمري لقد جئنا لغير هذا، فصمت ياس وقام رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عنهم وانصرفوا إلى المدينة، وكانت وقعة بُعات بين الأوس والخزرج ولم يلبث ياس ان هلك، وقد سمعه قومٌ حضروا عند وفاته يهتفون لله تعالى ويكبره ويحمده ويسبحه حتى مات، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً، ولقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس حين سمع من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ما سمع . (1)

وقعة بُعات:

كانت وقعة بُعات من الحروب التاريخية بين الأوس والخزرج، ففي هذه

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٧ و ٤٢٨].

الوقعة انتصر الأوسيون على منافسيهم، وأحرقوا نخيل الخزرجيين، ثم وقعت بعد ذلك حروب ومصالحات بينهم.

ولم يشترك «عبدالله بن أبي» وهو من أشرف الخزرج في هذه الواقعة من هنا كان موضع احترام من القبيلتين، وكاد الطرفان يفقدان مقاومتهما بسبب تكرار الحروب، وتحمل الخسائر الثقيلة، ولهذا رغب الطرفان في عقد صلح بينهما يضع حداً لجميع أشكال العمليات العسكرية، والغزو والقتال، والثأر والانتقام، وأصرّت القبيلتان على «عبدالله بن أبي» بان يقبل بقيادة عملية المصالحة هذه، بل وأعدوا له تاجاً يتوجونه به، حتى يصبح أميراً في وقت معيّن، ولكن هذا المشروع تعرض للانهدام والسقوط وواجه الفشل على أثر اعتناق جماعة من الخزرج الإسلام، ففي هذا الوقت بالذات التقى رسول الله بمكة بستة اشخاص من رجال الخزرج ودعاهم إلى الإسلام فأمنوا به، وليّوا دعوته.

تفصيل الحادث:

خرج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الموسم الذي لقيه فيه نفر من الأنصار فعرض نفسه على قبائل العرب كما كان يصنع في كل موسم فبينما هو عند العقبة لقي رهطاً من الانصار وكانوا ستة انفار من الخزرج فقال لهم: أمن موالى اليهود؟ وهل لكم حلف معهم.

قالوا: نعم.

قال: أفلا تجلسون أكلّمكم؟

قالوا: بلى.

فجلسوا معه، فدعاهم إلى الله عزّوجلّ وعرض عليهم السلام وتلا عليهم القرآن، فحدثت كلمات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في نفوسهم أثراً عجبياً، ومما ساعد على ذلك أن يهوداً كانوا معهم في بلادهم، وكانوا أهل كتاب وعلم، وكانوا هم أهل شرك وأصحاب أوثان، وكان اليهود قد غزوه في بلادهم،

(569)

فكانوا إذا وقع بينهم نزاع وكان بينهم شيء قال اليهود لهم: إن نبياً مبعوث الآن، قد اظنّ (أو اظنّ) زمانه نتبعه فنقتلكم معه قتل عد وإرم، فكانت اليهود تخبر بخروج نبي من العرب ينشر التوحيد، وتنتهي على يديه حكومة الوثنية والشرك، وقد قرب ظهوره.

فلما كلّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أولئك نفر، ودعاهم إلى الله، قال بعضهم لبعض يا قوم: تعلموا والله إنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا تسبقنكم إليه.

فاجابوه فيما دعاهم إليه بان صدّقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام وقالوا: إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والنشر مثل ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أحبناك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل اعز منك. (1)

بيعة العقبة الأولى:

لقد أثرت دعوة هؤلاء السنة، الجادة في يثرب تأثيراً حسناً حيث سببت في إسلام فريق من اهل يثرب واعتناقهم عقيدة التوحيد. فلما كان العام المقبل (أي السنة الثانية عشرة من البعثة) قدم مكة اثنا عشر رجلاً من اهل يثرب، فلقوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالعقبة، وانعدت هناك أول بيعة اسلامية. وابرز هؤلاء الرجال هم: أسعد بن زرارة، وعبادة بن الصامت، وكان نص هذه البيعة - بعد الاعتراف - بالاسلام والايمان بالله ورسوله هو:

بايعنا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق، ولا نزنّي، ولا نقتل أولادنا، ولا نأتي بيهتان نقتريه من بين أيدينا و أرجلنا ولا نعصيه في معروف.

- [تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٨٦، والسيرة النبوية: ج ١، ص ٤٢٧ و ٤٢٨، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٥.

(570)

فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : إن وفيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فامرکم إلى الله عزّوجل إن شاء عدّب، وإن شاء غفر.

وهذه البيعة اصطلح على تسميتها المؤرخون وكتّاب السيرة ببيعة النساء، لأنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - اخذ البيعة من النساء في فتح مكة على هذا النحو. (1)

وعاد هؤلاء النفر إلى يثرب بقلوب مفعمة بالايمان، مترعة بمحبة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فعمدوا إلى نشر الإسلام وكتبوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يبعث لهم من يعلمهم الإسلام والقرآن، فبعث النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لهم «مصعب بن عمير» وأمره بان يقرّأهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقّهم في الدين، فكان يسمى المقرئ بالمدينة. واستطاع هذا المبلّغ القدير، وهذا الداعية النشط ان يجمع المسلمين بفضل عمله الدؤوب والحكيم وتبليغه الصحيح في غياب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ويؤمّمهم، ويصلي بهم. (2)

بيعة العقبة الثانية:

لقد أحدث تقدم الإسلام في يثرب هيجاناً كبيراً وشوقاً عجباً في نفوس المسلمين من أهلها، فكانوا ينتظرون بفارغ الصبر حلول موسم الحج، ليقدموا مكة، ويلتقوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عن كثب، ويُظهروا له عن استعدادهم لتقديم ما يطلب منهم من خدمة وعمل، وليستطيعوا توسيع نطاق البيعة من حيث الكم ومن حيث الكيف.

وأخيراً حل موسم الحج فخرجت قافلة كبيرة من أهل يثرب للحج تضمّ خمسمائة نفرأ فيهم ثلاث وسبعون من المسلمين من بينهم امرأتان، والباقي إما راغبون في الإسلام، وإما غير مكترث به، حتى قدموا مكة، والتقوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

- [والتي جاء ذكرها في الآية ١٢ من سورة الممتحنة.
- 2السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٣٤، بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٥.

(571)

وآله فوآدهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بالعقبة للبيعة إذ قال: «موعدكم العقبة في الليلة الوسطى من ليالي التشريق»

فلما كانت الليلة الثالثة عشرة من شهر ذي الحجة وهي التي واعدهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فيها باللقاء، ونام الناس حضر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع عمه «العباس بن عبدالمطلب» قبل الجميع، وخرج المسلمون من رحالهم يتسللون تسلل القطا مستخفين بعد أن ناموا مع قومهم في رحالهم، ومضى ثلث الليل لكيلا يحسوا بخروجهم، حتى اجتمعوا في الشعب عند العقبة، ولما استقرّ المجلس بالجميع، كان أول متكلم هو: العباس بن عبدالمطلب فقال واصفاً منزلة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :يا معشر الخزرج - وكانت العرب تسمى هذا الحي من الانصار الخزرج خزرجها وأوسها - إنَّ محمدًا مِنَّا حيث قد علمتم، وقد مَنَعَهُ من قومنا، فهو في عزٍّ من قومه، ومَنَعَهُ في بلده، وإنَّه قد ابى إلاّ الإنحياز اليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مُسْلِمُوهُ وخاذِلُوهُ بعدَ الخروج به إليكم، فمن الآن فدعوه فإنه في عزٍّ ومَنَعَةٍ من قومه وبلده.

فقال الحضور: قد سمعنا ما قلت فتكلّم يا رسول الله، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

فتكلّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ثم قال: أبايغكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وإبناءكم.

فقام البراء بن معرور وأخذ بيد النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وقال: نعم وأذني بعثك بالحق نبياً لنمنعنك مما تمنع منه
أُزّرنا⁽¹⁾ فبايعنا يا رسول الله فنحن والله

- [الملاحظ في هذه البيعة انها كانت بيعة للدفاع عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وليس بيعة للجهاد في سبيل الله، ولهذا فان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقدم على القتال في بدر إلا بعد ان كسب موافقة الانصار ورضاهم.

(572)

ابناء الحروب واهل الحلقة (اي السلاح) ورثاها كابراً عن كابر.

فقب في الحضور حماس وسرور عظيم وتعلت الاصوات والنداءات من الخزرجين وألتي كانت تعبيراً عن شدة حماسهم،
وسرورهم لهذا الأمر، فقال العباس وهو أخذ بيد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وفي هذه الاثناء نهض «البراء بن معرور» و «ابو الهيثم بن التيهان» و «أسعد بن زرارة» من مواضعهم وبايعوا رسول الله -
صلى الله عليه وآله وسلم - ثم بايعه بقية القوم جميعاً.

وقد قال ابن التيهان عند مبايعته للنبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال (اي اليهود) حبالا (وعلاقات)
وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله، أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

فتبسّم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: «بل الدمّ الدّم، والهّم الهّم احارب من حاربتم واسالم من سالمتم» يعني أنه
سببى على العهد، ولا يتركهم وكانت العرب تقول عند عقد الحلف: دمي دّمك، وهدمي هدمك، وهي كناية عن البقاء على العهد
واحترام الميثاق والحلف.

ثم ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: اخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم. (1)

فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لاولئك النقباء: انتم على قومكم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين
لعيسى بن مريم وأنا كفيلٌ على قومي (يعني المسلمين) فأبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم.»

فقالوا: نعم وبايعوه على ذلك.

وكان النقباء الذين اختيروا لذلك تسعةً من الخزرج وثلاثةً من الأوس وقد ضُبطت أسماؤهم وخصوصياتهم في التاريخ.

وبعد أن تَمَّت مراسم البيعة وعدهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بأن يهاجِر إليهم في الوقت المناسب، ثم ارفض الجمع

وعاد القوم إلى رحالهم. (1)

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة:

والآن ينبغي أن نجيب بالتفصيل على السؤال الذي يطرح نفسه هنا وهو: ما الذي دعى أهل يثرب الذين كانوا يعيدين عن مركز

ظهور الإسلام إلى أن يستجيبوا لنداء الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - ويأخذوا بتعاليمه اسرع من المكين مع ما كان بين

المكين وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من القرابة القريبة؟!

وكيف تركت تلك اللقاءات المعدودة القصيرة بأهل يثرب أثراً تفوق الآثار التي تركتها الدعوة المحمدية خلال ثلاثة عشر عاماً في

مكة؟!

إن علة هذا التقدم يمكن اختصارها وحصرها في أمرين:

أولاً: أن اليثريين جاؤوا اليهود سنياً عديدة وطويلة قبل الإسلام وكثيراً ما كانوا يتحدثون في مجالسهم وأنديتهم عن النبي العربي

الذي يظهر، ويأتي بدين جديد.

حتى أن اليهود كانوا يقولون: للوثنيين إن هذا النبي سيقم دين اليهود وينشره، ويمحي الوثنية ويقضي عليها بالمرّة.

فتركت هذه الكلمات أثراً عجبياً في نفوس أهل يثرب، وهيات قلوبهم لقبول الدين الذي كان يخبر عنه يهود وينتظرونه، بحيث عند

ما التقى الانفار الستة من اهل المدينة إلى الايمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لأول مرّة، بادروا إلى

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٥ و ٢٦، السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٤١ - ٤٥٠، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢١ - ٢٢٣. وفي رواية أخرى في البحار: ج ١٩، ص ٤٧، كما أخذ موسى من بني اسرائيل اثني عشر نقيباً وقد كان هذا العمل النبوي حكيماً جداً لان عامة الناس لا يمكن التعويل والانتكال على التزاماتهم بل لابد من الاعتماد - ضمناً - على رموز المجتمع ومفاتيحه وهم وجوه القوم وسراتهم.

الايمان به من غير إبطال ولا تأخير بعد أن قال بعضهم لبعض: واللّه إنّه للنبي الذي توعدكم به يهود فلا تسبقنكم إليه.

ومن هنا فان مما يأخذه القرآن على اليهود هو: أنكم كنتم تهددون الوثنيين بالنبي العربي، وتبشرون الناس بانه سيظهر، وانهم قرأوا

أوصافه وعلائمه في التوراة فلماذا رفضوا الإيمان به لما جاء - صلى الله عليه وآله وسلم - .

يقول تعالى:

(وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ⁽¹⁾)

ثانياً: إن العامل الأخير الذي يمكن اعتباره دخيلاً في التأثير في نفوس البشريين وسرعة إقبالهم على الإسلام وتقبلهم لدعوة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو التعب والارهاق الذي كان أهل يثرب قد أصيبوا به من جراء الحروب الطويلة الدامية فيما بينهم والتي استمرت مائة وعشرين عاماً والتي انهكتهم وكادت أن تذهب بما تبقى من رمقهم، وجعلتهم يملون الحياة، ويفقدون كل أمل في تحسن الأحوال والأوضاع.

وإن مطالعة وقعة «بُعَاث» وهي - حرب وقعت بين الأوس والخزرج - وحدها كفيلة بأن تجسد لنا الوجه الواقعي الذي كان عليه سكان تلك الديار.

ففي هذه الوقعة انهزم الأوسيون على يد الخزرجيين، فهربوا إلى «نجد»، فعيرهم الخزرجيون بذلك، فغضب «الحضير» سيد الأوس، لذلك غضباً شديداً، فطعن فخذة برمحه لشدة انزعاجه وغضبه، وترجل عن فرسه وصاح بقومه قائلاً: والله لا أقوم من مكاني هذا حتى أقتل!! فأوقد صمود «الحضير» وثباته نار الحمية والغيرة واشعل روح الشهامة واليسالة في قومه، فقرروا الدفاع عن حقهم مهما كلفهم الأمر، فقاتلوا أعداءهم مستميتين، والمستميت منتصر لا محالة، فانتصر

- [البقرة: ٨٩].

(575)

الأوسيون المغلوبون، هذه المرة، وهزموا الخزرج هزيمة نكراء واحرقت مزارعهم ونزل بهم ما نزل على يد الأوسيين⁽¹⁾!! ثم تتابعت الحروب والمصالحات بعد ذلك، وكانت القبيلتان تتحلمان في كل مرة خسائر كبرى، جعلتهم يواجهون عشرات المشاكل التي حوّلت حياتهم إلى حياة مضنية متعبة جداً. من هنا لم تكن كلتا القبيلتين راضيتين على أوضاعهما، وكانتا تبحثان عن مخلص مما هما فيه، من الحالة السيئة، وتفتشان عن نافذة أمل، ومخرج من تلك المشاكل.

ولهذا وجد الخزرجيون الستة ضالّتهم المنشودة عندما التقوا - ولأول مرّة - رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وسمعوا منه ما سمعوا، فتمنّوا أن يضعوا به حداً لاوضاعهم المتردية إذ قالوا له: عسى أن يجمعهم الله بك فان جمعهم الله بك فلا رجل أعزّ منك

كانت هذه هي بعض الأسباب التي دعت اليثريين إلى تقبل الإسلام بشوق ورغبة وحماس.

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة:

كانت قريش تغطّ في نوم عميق وكانت تتصور بانها قد حدّت من تقدم الإسلام في مكة وانه قد بدأ يتقهقر ويسير باتجاه السقوط والاندحار، وأنه لن ينقضي زمانٌ إلا وتتطفّء جذوة الإسلام وتخمد شعلته، وتنمحي آثاره.

وفجأة استيقظت على دويّ بيعة العقبة الثانية التي كانت بمثابة انفجار قلبت كل المعادلات، وأسقطت كل تصورات قريش الساذجة، وذلك عند ما عرف زعماء الوثنيين بأن ثلاثاً وسبعين شخصاً من اليثريين عقدوا ليلة أمس وتحت جناح الظلام بيعة مع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - على أن يدافعوا عنه كما

- 1 الكامل في التاريخ: ج ١، ص ٤١٧ و ٤١٨.

(576)

يدافعون عن أبنائهم وأهليهم.

فأحدث هذا النبأ خوفاً عجبياً في قلوب قادة قريش وسادة مكة المشركين المتعطرسين، لانهم اخذوا يقولون مع أنفسهم: لقد وجد المسلمون الآن قاعدة قوية في قلب الجزيرة العربية، وانه يُخشى أن يجمع المسلمون كل طاقاتهم المبعثرة فيها. ويعملون معاً على نشر دينهم، وبث عقيدتهم، وحينئذ، وحينئذ ستواجه الوثنية في مكة خطراً جدياً، يهدّدها في الصميم.

ولهذا بادرت قريش إلى الاتصال بالخزرجيين صبيحة تلك الليلة وقالوا لهم: يا معشر الخزرج انه قد بلغنا أنكم قد جنتم إلى صاحبنا تستخرجونه من بين أظهرنا، وتبايعونه على حربنا، إنه والله ما من حيٍّ من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحربُ بينا وبينهم، منكم.

فحلفت المشركون من أهل يثرب لقريش أنه ما كان من هذا شيء، وما علموه، وقد صدقوا لأنهم لم يعلموا بما جرى في العقبة. فان قافلة اليثريين كانت تضمّ خمسمائة شخص، تسلّل منهم ثلاث وسبعون فقط إلى العقبة وبقية الناس نيام لا يعلمون بشيء.

فأتت قريشاً إلى «عبدالله بن أبي بن سلول» فسأله عما جرى في ليلة العقبة، فأنكر ذلك وقال: إن هذا الأمر جسيم، ما كان قومي ليتفوتوا علىّ بمثل هذا (أي يعملوه من دون مشورتي) وما علمته كان، فهض رجال قريش من عنده ليتابعوا تحقيقهم حول الحادث

فعرف المسلمون الذين حضروا ذلك المجلس وبايعوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يفشوا أمرهم، وانكشف سرهم، ولهذا قال بعضهم لبعض: مادمننا لم نعرف بعد فلنخرج من مكة فوراً قبل ان يظفر المشركون بنا، ولهذا أسرعوا في الخروج من مكة والتوجه إلى المدينة، فزاد ذلك من سوء ظن قريش وعزّزت شكوكهم حول البيعة، وعرفوا بأنه قد كان، فخرجوا في طلب جميع اليتريبيين، ولكنهم لم يتنبهوا لذلك إلا بعد خروج قافلة اليتريبيين من حدود مكة، والمكيين، ولم تظفر قريش إلا بسعد بن عباد.

(577)

غير أن ابن هشام يرى بأنهم ظفروا بنفرين هما: «سعد بن عباد» و «المنذر بن عمر»، وكان كلاهما من النقباء الاثني عشر.

وأما «المنذر» فاستطاع أن يخلص نفسه منهم.

وأما «سعد» فقد أخذه، وربطوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، ثم أقبلوا به حتى أدخلوه مكة يضربونه، ويجذبونه بجملته⁽¹⁾ وكان ذا شعر كثير.

يقول سعد:

فوالله إني لفي أيديهم إذ طلع علىّ نفرٌ من قريش فيهم رجلٌ وضيء أبيض، طويل القامة، فقلت في نفسي: إن يك عند أحد من القوم خير فعند هذا.

قال: فلما دنى مني رفع يده فلكنني لكمةً شديدةً.

فقلت في نفسي: لا والله، ما عندهم بعد هذا من خير.

قال: فوالله إني لفي أيديهم يسحبونني إذ رقّ علىّ رجلٌ كان معهم: فقال: ويحك أما بينك وبين أحد من قريش جوارٌ ولا عهدٌ؟

قلت: بلى كنتُ أجبر لجبر بن مُطعم بن عدي تجارةً، وأمنعهم ممن أراد ظلمهم ببلادي.

فذهب ذلك الرجل إلى مُطعم وأخبره بما فيه سعد بن عباد من الحال، وأنه أخبره بأنه كان يجبر لمطعم تجارة فقال مُطعم: صدق والله إنه كان ليجبر لنا تجارة، ويمنعهم أن يُظلموا ببلدة ثم أسرع إلى سعد وخلصه من أيديهم.

وكان رفقاء سعد من المسلمين قد علموا بوقوعه في أيدي قريش في أثناء الطريق إلى المدينة، فعزموا على أن يعودوا إلى مكة ويخلصوه من أيدي المشركين، وبينما هم كذلك إذ بدى لهم «سعد» من بعيد، وأخبرهم بما جرى عليه. (2)

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي:

يصرُّ المستشرقون على أن انتشار الإسلام ونفوذه في المجتمعات ثم بواسطة

- [مجتمع شعر الرأس].
- 2 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٤٩ و ٤٥٠.

(578)

السيف وفي ظلّ استخدام القوة.

اما بطلان هذا الكلام فسيثبت من خلال الحوادث القادمة.

ونحن نذكر هنا للمثال حادثة وقعت قبل الهجرة، ونلفت اليها نظر القارئ الكريم، فان دراستها والتعمق فيها يثبت بجلاء ان انتشار الإسلام ونفوذه في أوساط الناس كان في بداية الأمر نابعاً من جاذبيته التي كانت تجذب كل انسان بمجرد اعطاء شرح مختصر عنه وعن تعاليمه المحببة إليه.

واليك الحادثة بنصها:

قرر مصعب بن عمير المبلّغ والداعية الاسلامي المعروف الذي بعثه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة بطلب من اسعد بن زرارة، ذات يوم أن يدعو هو واسعد أشراف المدينة وساداتها إلى الإسلام بالمنطق والدليل فدخلا حائطاً (1) من حوائط المدينة فجلسا هناك واجتمع اليهما رجال ممن اسلم، وكان سعد بن معاذ واسيد بن حضير و هما من سادات بني الاشهل موجودين هناك أيضاً.

فقال سعد لا سيد: جرّد حربتك وقل لهذين (يعني مصعبا واسعد) ماذا جاء بهما إلى ديارنا يسفهان ضعفاءنا، ولولا أن سعد بن زرارة ابن خالتي، لكفيتك ذلك.

ففاعل أسيد ذلك وقال لمصعب ما جاء بكما الينا تسفهان ضعفاءنا وراح يشتمهما فقال له مصعب داعية الإسلام الحكيم، والمتكلم البليغ الذي تعلّم اسلوب الدعوة المؤثر من رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :أوتجلس فتسمع، فان رضيت أمراً قبلته، وان كرهته كفّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت ثم ركز حربيته وجلس إليهما يستمع لقولهما فكلمه مصعب بالاسلام، وقرأ عليه شيئاً من القرآن فأثرت آيات القرآن وما قاله مصعب من المواعظ البليغة في نفسه حتى عُرف ذلك في إشراق وجهه، وانفراج اساريره، وشوقه فقال: ما احسن هذا الكلام واجمله؟! كيف تصنعون إذا اردتم أن تدخلوا

- [بستاناً].

(579)

في هذا الدين؟ فقال مصعب وسعد له: تغتسل فتطهر وتغسل ثوبيك ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي.

فقام اسيد بن حضير الذي حضر لقتل مصعب وسعد من عندهما مبتهجا مسرورا فاعتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فرقع ركعتين.

ثم قال لهما: ان ورائي رجالا ان أتبعكما لم يتخلف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن، ثم أخذ حربيته وانصرف إلى سعد بن معاذ الذي كان ينتظر عودته على احر من الجمر فلما نظر إليه سعد وقومه وهم جالسون في ناديهم قال: أحلف بالله لقد جاءكم اسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب من عندهم فلما وقف على النادي قال له سعد ما فعلت؟

قال: كلمت الرجلين، فوالله ما رأيت بهما بأساً، وقد نهيتهما، فقالا: نفعل ما احببت، فغضب سعد لذلك غضباً شديداً، وأخذ الحربة من اسيد، ثم خرج إلى مصعب واسعد ليقتلها، فلما رأها سعد مطمئنين وقف عليهما متشتماً مهدداً اياهما، ولكن مصعباً وزميله قابلاً به بمثل ما قابلايه سابقه اسيد، وجرى له ما جرى له، فقد فعلت كلمات مصعب في نفسه فعلتها، وخضع لمنطقه القوي، وبيانه الساجر، وندم على ما قصد فعله، وقال لمصعب نفس ما قاله اسيد واعتنق الإسلام واعتسل وتطهر وصلى ثم رجع إلى قومه وقال لهم: يا بني عبدالاشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا وافضلنا رايأ وایمننا نقيبةً.

قال: فان كلام رجالكم ونسائكم على حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله فالحمد لله الذي اكرمنا بذلك.

فلم يمس في دار بني عبدالاشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، وهكذا أسلم كل قبيلة بني الأشهل قبل أن يروا النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - وأصبحوا من الدعاة إلى الإسلام والمدافعين عن عقيدة التوحيد، لا بمنطق القوة انما بقوة المنطق. (1)

- [إعلام الوری: ص ۵۹، بحار الانوار: ج ۱۹، ص ۱۰ و ۱۱، السيرة النبوية: ج ۱، ص ۴۳۶ و ۴۳۷].

(580)

ان في التاريخ الاسلامي نماذج كثيرة من هذا القبيل تدل على بطلان وتفاهة ما قاله أو رَوَّجه المستشرقون حول أسباب تقدّم الإسلام وانتشاره، فان العامل المعتمد في جميع هذه الموارد لم يكن المال والتطبيع، ولا السلاح والتهديد، كما ادعى المستشرقون، وان الذين اسلموا في هذه الحوادث والوقائع لاهم رأوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولا أنهم التقوا أو اتصلوا به بنحو من الانحاء، انما كان السبب الوحيد هو: منطق الداعية الاسلامي القويّ وبيانه الساحر الجذاب، فهو الذي كان يفعل في النفوس فعلة العجيب، خلال دقائق معدودة، لا في نفس شخص واحد فحسب، بل ربما في نفوس قبيلة بكاملها.

اجل انه المنطقُ القوي والكلام المبرهن والحجة البالغة لاسواها.

مخاوف قريش المتزايدة:

لقد ايقظت حماية البُريين للمسلمين قريشاً من غفلتها ونومها العميق مرة أخرى، وكانت بيعة العقبة الثانية بمثابة ناقوس خطر لها فبدأت أذاها وإضطهادها ومضايقتها لهم من جديد، وتهيأت للعمل على الحيلولة دون انتشار الإسلام ونفوذه وتقدمه في الجزيرة العربية، وبلغ ذلك الاذى مبلغاً عظيماً.

فشكى أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إليه ما يلقونه على أيدي المشركين من ضغوط واذى، واستأذنوه في الهجرة إلى مكان فاستمهلهم رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم قال:
«لقد أخبرت بدار هجرتكم وهي يثرب فمن اراد الخروج فليخرج إليها»⁽¹⁾

وبعد الاذن بالهجرة من قبَل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أخذ المسلمون يخرجون من مكة، ويتوجهون إلى المدينة شيئاً فشيئاً وبحجج مختلفة لكي لا تمنعهم قريش من الهجرة.

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٦].

(581)

ولم يكن قدمضى على بداية هجرة المسلمين التدريجية هذه زمان طويل الا وفطن زعماء قريش لسرها، وخطرها عليهم فآخذوا يمنعون من اي تنقل وسفر يقوم به المسلمون، وقرروا ان يعيدوا إلى مكة كل من وجدوه في اثناء الطريق، كما قرروا ان يحبسوا زوجة كل مسلم يريد الهجرة وله زوجة قرشية ويمنعوها عنه، ولكنهم كانوا يتجنبون اراقة الدماء في هذا السبيل، بل وكان يقتصر اذاهم على الحبس والتعذيب ولا يتعداهما.

ولكن هذه المحاولات التي قام بها زعماء قريش لوقف الهجرة إلى المدينة لم تنثر لحسن الحظ.

فقد استطاعت مجاميع كبيرة من المسلمين النجاة بنفسها من أيدي قريش والحقاق بزملائهم واخوانهم في يثرب حتى انه لم يبق في مكة من المسلمين إلا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلي - عليه السلام - وعدد قليل من المسجونين، أو المرضى من المسلمين.

وقد زاد اجتماع المسلمين في يثرب من مخاوف قريش، وضاعف من قلقها، ولهذا اجتمع كل رؤساء القبائل المكية في «دار الندوة» أكثر من مرة للتشاور في كيفية القضاء على الإسلام وطُرحت في ذلك المجلس خطط متنوعة، واقترحت أمور كثيرة لتحقيق هذه الغاية ولكنها فشلت برمتها بتدبير رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وحكمته، وسياسته الدقيقة.

وأخيراً هاجر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من «مكة» إلى «المدينة» في شهر ربيع الأول سنة ١٤ من البعثة.

اجل لقد تضاعف قلق قريش منذ أن حصل محمد على قاعدة ثانية خارجة عن نطاق هيمنة المكيين وسيطرتهم واصبحوا حيرى لا يدرون ماذا يفعلون، لان جميع خططهم لمنع من انتشار الإسلام واتساع رقعته، قد باءت بالفشل.

لقد أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أصحابه بالهجرة إلى المدينة والالتحاق

(582)

بالانصار وقال لهم: «إن الله قد جعل لكم داراً وإخواناً تأمنون بها.»⁽¹⁾⁽²⁾

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٢٦.
- 2] لقد انتهينا من تسجيل حوادث السنوات الثلاث عشرة من البعثة، وقد حاولنا ذكر كل ما كان معلوماً مشهوراً من تواريخها، ولكن لا يمكن اعتبار تواريخ كل تلك الحوادث أموراً مقطوعاً بها من هنا ذكرنا الحوادث المثبتة في الفصل ٢٤ من دون ادراج تواريخ لها في الأغلب ولكن حيث أن الوقائع الحادثة بعد الهجرة وقعت في أوقات معينة معلومة لذلك فاننا سنرفق ذكر كل حادثة بتاريخ وقوعها في الفصول القادمة.

(583)

حوادث السنة الأولى من الهجرة

٢٥

قصة الهجرة

كان زعماء قريش و رؤساؤها يجتمعون عند كل نائبة تتوبهم في «دار الندوة» لحل المشاكل ومعالجة ما عرض لهم من نائبة من خلال التشاور حولها وتداول الرأي فيها، ومن خلال تضافر الجهود على حلها، ورفعها أو دفعها.

وفي السنوات الثانية عشرة، والثالثة عشرة من البيعة واجه أهل مكة خطراً كبيراً جدياً، فقد حصل المسلمون على مركز هام، وقاعدة صلبة في يثرب، وتعهد اليرببون الشجعان بحماية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - والدفاع عنه، وكل هذا كان من علامات ومظاهر ذلك التهديد الخطير، الذي بات يهدد كيان المشركين والوثنيين والزعامة القرشية.

وفي شهر ربيع الأول من السنة الثالثة عشرة من البيعة التي وقعت فيه هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبينما لم يكن قد بقي من المسلمين في مكة إلا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وعلي وأبو بكر و جماعة قليلة من المسلمين المحبوسين، أو المرضى، أو العجزة، وكان هؤلاء على أبواب الهجرة ومغادرة مكة إلى المدينة اتخذت قريش فجأة قراراً قاطعاً وحاسماً وخطيراً جداً في هذا المجال.

فقد انعقدت جلسة هامة للتشاور في «دار الندوة» حضرها رؤساء قريش

(584)

وزعماؤها وبدأ متكلمهم⁽¹⁾ يتحدث عن تجمع القوى والعناصر الإسلامية وتمركزها في المدينة والبيعة التي تمت بين الخزرجيين والأوسيين وبين رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم اضاف قائلاً:
يا معشر قريش إنه لم يكن أحدٌ من العرب أعزَّ منّا، نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرتين، ويكرمونا، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامعٌ، فلم نزل كذلك حتى نشأ فينا «محمد بن عبد الله» فكنا نسميه (الأمين) لصلاحه، وسكونه، وصدق لهجته، حتى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادعى أنه رسول الله، وأن أخبار السماء تاتي به، فسفه أحلامنا، وسب آلهتنا، وأفسد شباننا، وفرق جماعتنا، فلم يرد علينا شيء أعظم من هذا، وقد رأيت فيه رأياً، رأيت أن ندس إليه رجلاً منّا ليقتله، فان طلبت بنو هاشم بدمه⁽²⁾ اعطيناهم عشر ديات.

فقال رجلٌ مجهول حضر ذلك المجلس ووصف نفسه بانه نجدى: ما هذا برأي لأن قاتل محمد مقتول لا محالة، فمن هذا الذي يبذل نفسه للقتل منكم؟ فانه إذا قُتل محمد تعصب بنو هاشم وحلفاؤهم من خزاعة، وإن بني هاشم لا ترضى أن يمشي قاتل محمد على وجه الارض فيقع بينكم الحروب وتتفانوا.

فقال أبو البخترى: نلقيه في بيت ونلقي إليه قوته حتى يأتيه ريب المنون.

فقال الشيخ النجدى مرةً أخرى: وهذا رأيٌ أخبث من الآخر، لأن بني هاشم لا ترضى بذلك، فاذا جاء موسمٌ من مواسم العرب استغاثوا بهم، واجتمعوا عليكم فاخرجوه.

فقال ثالث: نُخرجه من بلادنا ونتفرَّغ نحن لعبادة آلهتنا، أو قال نرخلُ بعيراً صعباً ونوثقُ محمّداً عليه كتافا، ثم نضربُ البعيرَ بأطراف الرماح فيوشكُ أن يقطّعه بين الصخور والجبال إرباً إرباً.

فانبرى ذلك النجدي يخطيء هذا الرأي أيضاً قائلاً: أرايتم إن خلص به

- 1 وروي انه كان المتكلم: أبوجهل.
- 2 وفي رواية: بديته.

(585)

البعير سالماً إلى بعض الناس فأخذ يقلوبهم بسحر بيانه وطلاقة لسانه، فصبأ⁽¹⁾ القوم إليه واستجابت القبائل له قبيلة فقبيلة، فليسبرئُ حينئذ اليكم الكتائب والجيوش فلتهلكن كما هلكت اباد ومن كان قبلكم.

فتحيروا وساد الصمت ذلك المجلس، وفجأة قال أبوجهل (وعلى رواية: قال ذلك الشيخ النجدي): ليس هناك من رأي إلا أن تعمدوا إلى قبائلكم فتختاروا من كل قبيلة منها رجلاً قوياً ثم تسلّحوه حساماً غضباً وليهجموا عليه معاً بالليل ويقطعوه إرباً إرباً فيتفرق دمه في قبائل قريش جميعاً فلا تستطيع بنو هاشم وبنو المطلب مناهضة قبائل قريش كلها في صاحبهم فيرضون حينئذ بالدية منهم!! فاستحسن الجميع هذا الرأي، واتفقوا عليه، ثم اختاروا القتل وتقرّر ان يقوموا بمهمتهم اذا جنّ الليل وساد الظلام كل مكان. (2)

الإمدادات الغيبية والعنايات الالهية:

لقد كان اولئك العتاة الجهلة يتصورون أن رسالة محمّد - صلى الله عليه وآله وسلم - المدعومة من قبل الله تعالى والمؤيدة من جانبه سبحانه يمكن ان يقضى عليها بواسطة هذه الحيل والمكائد، والخطط والمؤامرات، ولم يكونوا يدركون أن هذا النبيّ - كغيره من الأنبياء - يتمتع بالمدد الالهيّ الغيبي، وان اليد التي حفظت مشعل الاسلام طوال ثلاثة عشر عاماً في وجه الاعاصير والرياح، قادرة على افشال هذه الخطة الاتيمية، وتعطيل هذه المؤامرة أيضاً.

يقول المفسرون: بعد أن دبّر الكفار ما دبروا نزل ملك الوحي «جبرئيل»، على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخبره بما حاك ضدّه المشركون من مؤامرة اذ

- 1 صبأ فلان: اي خرج من دين إلى دين غيره وكانت العرب تسمي النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - الصابىء لأنه خرج من دين قريش إلى دين الإسلام وتسمي المسلمين: الصباة.. وهو جمع الصابىء.
- 2 الطبقات الكبرى: ج 1، ص 227 و 228، السيرة النبوية: ج 1، ص 480 - 482.

(586)

ويدل على هذا المطلب أنّ النبيّ توسل بالعلل الطبيعية، والوسائل والأسباب العادية (كمبيت شخص في فراش النبيّ، واختفاء رسول الله في الغار وغير ذلك مما سيأتي ذكره)، وبهذا الطريق نجى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - نفسه، وتخلص من أيدي أعدائه، العازمين على إراقة دمه.

ملك الوحي يخبر رسول الله:

لقد اخبر ملك الوحي «جبرئيل» رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بخطة قريش المشؤومة لاغتياله وامره بالهجرة، وتقرر - بغية إفشال عملية الملاحقة - ان يببيت شخصاً في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ليتصوّر المشركون أنّ النبيّ لا يزال في منزله، ولم يخرج بعد، وبالتالي يركّزوا كلّ إهتمامهم على محاصرة البيت، وينصرفوا عن مراقبة طرقات مكة، ونواحيها. ولقد كانت فائدة هذا العمل اي حصر اهتمام المراقبين ببيت النبيّ انه تسنى لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - اغتنام الفرصة والخروج من مكة، والاختفاء في مكان ما من دون ان يحس به أحد من الذين باتوا يراقبون بيته، ويبغون قتله.

والآن يجب أن نرى من الذي تطوّر للمبيت في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وفدى النبيّ بنفسه، ووقاه بحياته؟ ستقولون حتماً: إن الذي سبق جميع المسلمين إلى الايمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبقي من بدء بعثته وإلى ذلك الحين يذب عنه، هو الذي يتعيّن أن يضحي بنفسه في هذا السبيل، وبقي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بحياته في هذه اللحظة الخطيرة، وهذا المضحي بحياته ونفسه، هو «علي» ليس سواه احد، انه تقدير صحيح، وحسن مصيب.

فليس غير «علي» يصلح لهذه المهمة الخطيرة.

(588)

ولهذا قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - عليه السلام - :

«يا عليّ إنّ قريشاً اجتمعت على المكر بي وقتلي، وإنّه أوحى إليّ عن ربّي أن اهجّر دار قومي، فثمّ عليّ فراشي والتحف بيردي الحضرميّ لتُخفي بمبيتك عليهم أنّري فما أنت قائل وصانع؟؟»

فقال علي - عليه السلام - أو تسلمنّ بمبيتي هناك يا نبيّ الله؟

قال: نعم، فتبسّم عليّ - عليه السلام - ضاحكاً مسروراً وأهوى إلى الأرض ساجداً، شكراً لما أنبأه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من سلامته، فلما رفع رأسه قال للنبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - :

إمض لما أمرت فداك سمعي وبصري وسويداء قلبي، ومُرني بما شئتَ اكن فيه كمسرتك، واقع فيه بحيث مرادك، وإن توفقي إلا بالله.

ثم رقدَ عليّ - عليه السلام - على فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واشتمل ببرده الحضرمي الاخضر، ولما مضى شطرًا من الليل حاصرَ رَصَدُ قريش - وهم اربعون رجلا - بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد جردوا سيوفهم، ينتظرون لحظة الهجوم على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويتطأون إلى داخل البيت من فرجة الباب بين الحين والآخر ليتأكدوا من بقاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في مضجعه، فيظنون أنَّ النَّائمَ في الفراش هو النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وهنا أراد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يخرج من بيته.

فمن جانب يحاصر الأعداء بيته - صلى الله عليه وآله وسلم - من كل جانب، ويراقبون كلَّ شيء، ومن جانب آخر تعلقت مشيئة الله تعالى وارادته القاهرة الغالبة أن ينجو رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - من ايدي تلك الزمرة المنحطة، فقرأ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - سورة (يس) لمناسبة مطلعها لظروفه حتَّى بلغ إلى قوله تعالى: **فَهُمْ لَا يَبْصُرُونَ** ⁽¹⁾ (وخرج من باب البيت دون ان يشعر به رَصَدُ قريش المكثفون بقتله، وذهب إلى المكان الذي كان من المقرر ان يختبئ

- [يس: ٩.

(589)

فيه على النحو الذي سيأتي تفصيله.

وأما كيف استطاع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يخترق الحصارَ البشريَّ المشدَّدَ الذي ضُربَ على بيته، ويتجاوز رَصَدَ قريش من غير ان يشعروا به فذلك غير معلوم جيداً.

إلا أنه يستفاد من رواية نقلها المفسرُ الشيعيُّ المعروفُ المرحومُ عليُّ بن ابراهيم في تفسيره: قول الله تعالى: **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا** (ان رجال قريش كانوا نيماً ينتظرون الفجر عند خروج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ولم يكونوا يتصوِّرون أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد عرف بتدبيرهم ومؤامرتهم.

ولكن يصرح غيره من المؤرخين وكتاب السيرة⁽¹⁾ بان المحاصرين لمنزل النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كانوا يقظين حتى لحظة الهجوم على بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - خرج من البيت عن طريق الاعجاز والكرامة من دون ان يروه ويحسوا به.

إن امكان وقوع مثل هذه الكرامة ليس موضع شك، ولكن هل كان هناك ما يوجب ذلك؟؟

ان دراسة قصة الهجرة بصورة كاملة تجعل هذه المسألة أمراً قطعياً وهي أنّ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - كان عارفاً بمؤامرة القوم قبل محاصرة بيته، وكان قد دبر ورسم لنجاته خطةً طبيعيةً عاديةً، ولم يكن في الأمر اي اعجاز.

لقد كان يريد - صلى الله عليه وآله وسلم - باضجاع علي - عليه السلام - في فراشه أن ينجو بنفسه من أيدي المشركين من الطرق العادية والقنوات الطبيعية من غير الاستعانة بالاعجاز والكرامة.

وعلى هذا كان في مقبور النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يتحسب لمسألة المحاصرة والطوق الذي كان سيضرب على بيته من أوائل الليل، وذلك بمغادرة

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٨، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ١٠٠.

(590)

بيته قبل المحاصرة وقبل الغروب.

ولكن يمكن ان يكون لتوقف النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في البيت حتى ساعة المحاصرة علة لا نعرفها الآن. من هنا يكون إدعاء هذا الموضوع (وهو خروج النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من البيت في الليل) غير مقطوع به لدى الجميع لاعتقاد البعض بان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - غادر منزله قبل فرض الحصار عليه، وقبل غروب الشمس. (1)

إقتحام الاعداء لبيت الوحي:

طوّقت قوى الكفر مهبط الوحي وبيت الرسالة وباتت تنتظر لحظة الإذن في إقتحامه، والهجوم على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في فراشه وضربه وتقطيعه بالسيوف إرباً إرباً!

وقد أصرّ جماعة منهم أن ينفذوا خطتهم المشؤومة هذه في منتصف الليل وقبل الفجر فمنعهم أبو لهب من ذلك وقال: لا أدعكم أن تدخلوا عليه بالليل، فإنّ في الدار صبياناً ونساءً من بني هاشم، ولا نأمن أن تقع يدُ خاطئة، فنحرسه الليلة، فإذا أصبحنا دخلنا عليه.

وربما يقال أن علة التأخير هي أنهم أرادوا أن يقتلوا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عند الصباح أمام أعين بني هاشم حتى يروا أن قاتله جماعة وليس واحداً.

وانقشع الظلام شيئاً فشيئاً، وانفجر الصبح، ودبّ في المشركين شوقٌ غريبٌ، مع اقتراب ساعة الصفر، فقد كانوا يتصوّرون بأنهم سينالون ما يريدون قريباً، وبينما هم ينتضون سيوفهم دخلوا حجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وبينما هم يهيمون بأخذ من كان راقداً في الفراش بسيوفهم، إذا بهم يواجهون علياً - عليه السلام -

- [السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٢٩].

(591)

يثب في وجوههم وهو يكشف عن نفسه برد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الأخضر، وقال لهم في منتهى الطمأنينة والشجاعة: ما شأنكم؟ وماذا تريدون؟؟

فقالوا له بغضب: أين محمّد؟

فقال - عليه السلام - :أَجَعَلْتُمُونِي عَلَيْهِ رَقِيباً؟!

فغضبَ القوم غضباً شديداً، وكاد الغيظ يخنقهم، فقد ندموا على إنتظارهم انفجار الصبح وحملوا أبا لهب الذي منعهم من تنفيذ الهجوم على النبيّ في منتصف الليل فشل الخطة وتفويت الفرصة، فاقبلوا عليه يلومونه ويوبخونه!!

أجل لقد انزعجت قريش بشدة لفشل هذه المؤامرة، ووجدوا انفسهم أمام هزيمة نكراء بددت كلّ أحلامهم، وحيث أنهم كانوا يتصوّرون بأن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لا يستطيع الخروج عن حدود مكة في مثل تلك المدة القصيرة فهو إما مختبئ في مكة، أو أنه لا يزال في طريق المدينة، لذلك أقدموا فوراً على العمل على ترتيب أمر ملاحقته والقبض عليه.

النبيُّ في غار ثور:

ان ما هو مسلّم به هو أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أمضى هو وأبو بكر ليلة الهجرة وليلتين اخرين بعدها في غار

ثور الذي يقع في جنوب مكة في النقطة المحاذية للمدينة المنورة. (1)

وليس من الواضح كيف تمت هذه المصاحبة والمرافقة ولماذا، فان هذه المسألة من القضايا التاريخية الغامضة.

فان البعض يعتقد بان هذه المصاحبة كانت بالصدفة، فقد رأى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - أبا بكر في الطريق، فاصطحبه معه إلى غار ثور.

- [حيث ان الطريق المؤدي إلى المدينة تقع في شمال مكة، فاخْتَبَأَ النَّبِيُّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في منطقة مقابلة أي في اسفل مكة، ليعمي بذلك على قريش فلا يتبعوا أثره.

(592)

وروى فريق آخر أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ذهب في نفس الليلة إلى بيت أبي بكر، ثم خرجا معاً في منتصف الليل إلى غار ثور. (1)

وقال فريق ثالث: أن أبا بكر جاء هو بنفسه يريد النبي وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - قد خرج من قبل فأرشدته «عليٌّ» إلى مخبأ النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وعلى كل حال فان كثيراً من المؤرخين يعدّون هذه المصاحبة من مفاخر الخليفة ومناقبه، ويذكرون هذه الفضيلة ويتحدثون عنها بكثير من الاسهاب والاطناب، وبمزيد من الاكبار والاعجاب.

قريش تفتش عن النبي:

لقد تسبب فشل قريش في تغيير خطتها، فقد بادرت إلى بث العيون والجواسيس في طرقات مكة، ومراقبة مداخلها ومخارجها مراقبةً شديدةً، وبعثت القافة تقتص أثره في كل مكان، وفي طريق مكة - المدينة خاصة.

ومن جانب آخر جعلت مائة ابل لمن يأخذ نبي الله، ويردّه عليهم أو يأتي عنه بخبر صحيح.

وعمد جماعة من قريش إلى ملاحقة رسول الله والتفتيش عنه في شمال مكة، حيث الطريق المؤدي إلى المدينة، على حين أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد اختبأ - كما قلنا - في نقطة بجنوب مكة لافشال عملية الملاحقة.

وتصدت مجموعة أخرى لتتبع أثر قدم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ورفيقه!!

وكان الذي يقف لهم الأثر يدعى أبا مكرز فوقف بهم على باب حجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال هذه قدم محمد، فما زال بهم حتى أوقفهم على باب الغار فانقطع عنه الأثر فقال: ما جاوز محمد ومن معه هذا المكان، إما أن يكونا صعدا إلى السماء أو دخلا تحت الأرض، فان باب هذا الغار - كما ترون عليه - نسج

(593)

العنكبوت والقبجة حاضنة على بيضها بباب الغار⁽¹⁾، فلم يدخلوا الغار.

ولقد استمرت هذه المحاولات بحثاً عن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ثلاثة أيام بلياليها ولكن دون جدوى، فلما ينس القوم بعد ثلاثة أيام من السعي تركوا التفتيش وكفوا عن الملاحقة.

التفاني في سبيل الحق:

إن النقطة المهمة في هذه الصفحة من التاريخ هي ما قام به علي - عليه السلام - من تفان في سبيل الحق، والحقيقة.

إن التفاني في سبيل الحق من شيمة الرجال الذين أحبوا الحق وعشقوه بكل وجودهم وكيانهم.

إن الذين يغضون نظرهم عن كل شيء من أشياء الدنيا ويضحون بالنفس والمال والشخصية، ويستخدمون كل طاقاتهم المادية والمعنوية في سبيل خدمة الحق، وإحيائه، وإقامته هم ولا شك من عشاق الحق والحقيقة الصادقين.

إنهم يرون كمالهم وسعادتهم في هدفهم، وهذا هو الذي يدفعهم إلى أن يصرفوا النظر عن الحياة العابرة، والعيش الموقت، ويلتحقوا بركب الحياة الواقعية الأبدية.

إن مبيت علي - عليه السلام - في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك الليلة الرهيبة لنموذج بارز من هذا الحب الحقيقي للحق، والعشق الصادق للحقيقة، فإن الدافع وراء التطوع لمثل هذه المهمة الخطيرة لم يكن إلا حب «علي» لبقاء الإسلام الذي يكفل سعادة المجتمع، ويضمن ازدهار الحياة، لا غير.

- [الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٩ تاريخ الخميس، ج ١، ص ٣٢٧ - ٣٢٨ وغيرها، ولقد ذكر عامة المؤرخين هذه الكرامة هنا، ولا ينبغي - نظراً لما ذكرناه في قصة الفيل وهلاك ابرهة وجنده بواسطة الابل، تأويل مثل هذا الكرامات.

(594)

إن لهذه التضحية والتفاني من القيمة العظمى بحيث مدحها الله تعالى في كتابه العظيم، ووصفها بأنها كانت تضحية صادقة لكسب مرضاة الله، فإن الآية التالية نزلت - حسب رواية أكثر المفسرين - في هذا المورد:

(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ)⁽¹⁾

ان عظمة هذه الفضيلة واهمية هذا العمل التضحيى العظيم دفعت بكبار علماء الإسلام إلى اعتبارها واحدة من أكبر فضائل الامام علي - عليه السلام - وإلى أن يَصِفُوا بها علياً بالفداء والبذل والايثار، وإلى أن يعتبروا نزول الآية المذكورة في شأنه من المسلّمات كَمَا بلغ الحديث في التفسير والتاريخ اليها. (2)

إنّ هذه الحقيقة مما لا ينسى أبداً فانه من الممكن اخفاء وجه الواقع والتعظيم عليه بعض الوقت إلا أنه سرعان ما تمزق أشعة الحقيقة الساطعة حجب الاوهام، وتخرج شمس الحقيقة من وراء الغيوم.

إنّ معاداة معاوية لأهل بيت النبوة وبخاصة للامام أمير المؤمنين - عليه السلام - مما لا يمكن النقاش فيه.

فقد أراد هذا الطاغية من خلال تطميع بعض صحابة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يلوّث صفحات التاريخ اللامعة ويخفي حقائقه بوضع الاكاذيب، ولكنه لم يحرز في هذا السبيل نجاحاً.

فقد عمد «سمره بن جندب» الذي ادرك عهد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ثم انضم بعد وفاته - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى بلاط معاوية بالشام، عمد إلى تحريف الحقائق لقاء اموال أخذها من الجهاز الأموي، الحاقده على أهل البيت.

فقد طلب منه معاوية باصرار أن يرقى المنبر ويكذب نزول هذه الآية في شأن

- [البقرة: ٢٠٧].
- 2مسند احمد: ج ١، ص ٨٧، وكنز العمال: ج ٦، ص ٤٠٧، وقد نقل كتاب الغدير: ج ٢، ص ٤٧ - ٤٩ طبعة لبنان مصادر نزول هذه الآية في شأن علي - عليه السلام - على نحو التفصيل، فراجع.

علي - عليه السلام - ، ويقول للناس أنها نزلت في حق قاتل عليّ (أي عبدالرحمان بن ملجم المرادي)، ويأخذ في مقابل هذه الاكذوبة الكبرى، وهذا الاختلاق الفضيع الذي أهلك به دينه مائة ألف درهم.

فلم يقبل «سمره» بهذا العرض ولكن معاوية زاد له في المبلغ حتّى بلغ اربعمائة ألف درهم، فقبل الرجل بذلك فقام بتحريف الحقائق الثابتة، مسوداً بذلك صفحته السوداء اكثر من ذي قبل وذلك عند ما رقى المنبر وفعل ما طلب منه معاوية. (1)

وقبل السامعون البسطاء قوله، ولم يخطر ببال أحد منهم أبداً ان (عبدالرحمان بن ملجم) اليمنى لم يكن يوم نزول الآية في الحجاز بل لعلّه لم يكن قد وُلِدَ بعد آنذاك. فكيف يصح؟!

ولكن الحقيقة لا يمكن ان تخفى بمثل هذه الحجب الواهية، ولا يمكن ان تنسى بمثل هذه المحاولات العنكبوتية الرخيصة.

فقد تعرّضت حكومة معاوية وتعرض أهلها وانصارها للحوادث، واندثرت آثار الاختلاق والافتعال الذي وقع في عهده المشؤوم، وطلعت شمس الحقيقة والواقع من وراء حُجُب الجهل والافتراء مرة أخرى، واعترف اغلب المفسرين الأجلة⁽²⁾ والمحدثين الافاضل - في العصور والادوار المختلفة، بأن الآية المذكورة نزلت في «ليلة المبيت» في بذل علي - عليه السلام - ومفاداته النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بنفسه.⁽³⁾

- 1 لاحظ شرح نهج البلاغة لابن ابي الحديد: ج ٤، ص ٧٣.
- 2 شرح نهج البلاغة: ج ١٣، ص ٢٦٢، ولقد أعطى ابن ابي الحديد حقّ الكلام حول هذه الفضيلة.
- 3 سمرة بن جندب من العناصر المجرمة في الحكومة الاموية، ولم يكتف سمرة بتحريف الحقائق وقلبها بما ذكرناه، بل أضاف إلى ذلك - حسب رواية ابن ابي الحديد - أمراً آخر أيضاً إذ قال: ونزل في شأن «علي» قول الله: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ» (البقرة: ٢٠٤).
ومن جرائم هذا الرجل انه قتل يوم وُلّي البصرة على عهد زياد بن أبيه العراق ثمانية آلاف ممّن كانوا يحبون أهل البيت ويوالونهم وعندما سأله معاوية: هل تخاف ان تكون قد قتلت أحداً بريئاً؟
أجاب قائلاً: لو قتلتُ اليهم متلهم ما خشيت!!
هذا ومخازي هذا الرجل أكثر من ان تستوعبه هذه الصفحات القلائل.
وسمرة هذا هو ذلك الرجل الصلف الجاف الذي رد على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - طلبه بأن يراعي حقّ جاره في قضية النخلة مراراً فقال له رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: إنك رجل مضارّ ولا ضرر ولا ضرار في الإسلام» ولمزيد التوضيح راجع كتب الحديث والتراجم والتاريخ.

(596)

كلام من ابن تيمية:

احمد بن عبدالحليم الحراني الحنبليّ الذي مات في سجن بدمشق عام ٧٢٨ من علماء السنّة، تعود إليه اكثر معتقدات الوهابيين، وأفكارهم.

ولابن تيمية هذا آراء ومواقف خاصة من النبيّ الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - وأمير المؤمنين، وعامة أهل بيت النبوة، وقد صرح باكثر آرائه ومعتقداته هذه في كتابه «منهاج السنة.»

وقد دفعت عقائده المنحرفة وآراؤه الضالّة الكثر من علماء عصره إلى تكفيره، والتبرّي منه.

ولابن تيمية رأي عجيب حول هذه الفضيلة نذكره للقاريء الكريم مع تصرف بسيط في الألفاظ.⁽¹⁾

ومن المؤسف ان يكون قد تأثر بأرائه بعض السدّج والجاهلين، فجدّهم يشيعون آراءه في المجتمع من دون تحقيق فيما قال، ومن دون مراجعة ذوي الاختصاص لمعرفة رأيهم في أفكاره ومعتقداته وهم غافلون عن أنّ مثل هذه الآراء قد صدرت من منحرف وكذّبه بل وكفره بسببها أهل مذهبه.

هذا واليك خلاصة رأيه في فضيلة «المبيت.»

يقول: ان مبيت «عليّ» في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لا تعدّ

- [راجع السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٢٦٣ و سبعة الجاحظ في العثمانية.

(597)

فضيلة لأن عليّاً عرف من طريقين بانه لن يصيبه شيء في تلك الليلة:

الأول: إخبار رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الصادق المصدّق نفسه اياه بذلك إذ قال له في نفس تلك الليلة: «نمّ في فراشي فإنه لا يخلصُ إليك شيء تكرههُ!!»

الثاني: أنّ النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - كلفه بردّ الودائع واداء الامانات التي أودعها أهل مكة عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، إلى أصحابها.

فعلم - من ذلك - أنه لن يُقتل والا لكُف رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الآخرين بها.

فعرف «عليّ» من هذا التكليف أنه لن يلحقه أدئٌ في هذه العمليّة وانه سيوفّق لأداء ما كلفه به رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

الجواب:

وقبل أن نجيب عن هذا الكلام على نحو التفصيل نقول إجمالاً: إن ابن تيميّة بانكاره هذه الفضيلة أثبت فضيلة أعلى لعلّي - عليه السلام - لأنه إما كان إيمان عليّ بصدق مقالة الرسول كان إيماناً عادياً، وإما أن كان إيماناً قوياً جداً، وكانت جميع اقوال النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - وإخباراته لديه - في ضوء ايمانه - كالنهار في وضوحه.

وعلى الفرض الأول لم يكن لعلّي يقينٌ بنجاته من تلك الواقعة لأنه لا يحصل لمثل هذه الطبقة من الناس (ولا شك أن عليّاً ليس منهم حتماً) يقينٌ من كلام النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - ، وحتّى لو قبلوا به في الظاهر، فانهم سيساورهم القلق، ولا يفارقهم الاضطراب، وإذا هم باتوا في فراشه في لحظات الخطر، فانه سيبقون فريسة الخوف والوجل وستمرّ في نفوسهم احتمالاتٌ كثيرةٌ حول مآل الأمر ومصيره، وسيتمثل أمامهم شبح الموت المرعب في كل لحظة وأن.

وعلى هذا الفرض لا بد أن يقال: بأنّ عليّاً - عليه السلام - لم يقدم على هذا الأمر الخطير إلاّ وهو يحتمل الهلاك على أيدي المشركين،

لا أنه بات وهو يتيقن

النجاة والسلامة.

وأما بناءً على الفرض الثاني فإنه تثبت لعلّ - عليه السلام - فضيلة أعلى واعظم، لأن إيمانَ الرجل يجب ان يبلغ من القوة والكمال بحيث لا يفرّق بين صدق كلام النبي وبين وضوح النهار أي أنهما يكونان عنده بمنزلة سواء.

ولا شك ان أهمية مثل هذا الايمان لا يمكن أن يعادلها شيء.

ونتيجة هذا الايمان هي أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عند ما قال له: تم في فراشي فلن يصيبك من هجوم الاعداء الحاقدين مكروءة، أن ينام في فراش النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بقلب واثق بالسلامة، ونفس مطمئنة إلى النجاة، ومن دون أن يخالج نفسه أقل احتمال للخطر.

ولو كان مراد ابن تيمية من قوله: ان علياً كانَ واثقاً من سلامته، لأن الصادق المصدّق أخبره بذلك هو: إثبات أعلى درجات الإيمان لعلّ - عليه السلام - فقد اثبت له - عليه السلام - من حيث لا يشعر اكبر فضيلة، وأعلى منقبة، وهي كمال الايمان والثقة برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وأخباره.

هذا هو الجواب الاجمالي واليك الجواب التفصيلي:

الجواب التفصيلي:

فنقول عن الدليل الأول: إن عبارة «لا يخلص اليك شيء تكرهه» لم ينقلها بعض أرباب السيرة ورجال علم التاريخ الذين لهم سابقة لا تنكر في هذا الصعيد. (1)

نعم روى ابن الاثير المتوفى عام ٦٣٠(2)، والطبري المتوفى عام ٣١٠(3) هذه العبارة وكأما قد أخذها عن ابن هشام في سيرته (4) التي نقل فيها تلك العبارة

- [مثل مؤلف الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٢٧ و ٢٢٨ المولود عام ١٦٨ و المتوفى عام ٢٣٠، وكذا المقرئ في امتاع الاسماع، عند ذكرهم لتفاصيل قضية المبيت.
- 2 التاريخ الكامل: ج ٢، ص ٧٢.
- 3 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٩٩.
- 4 السيرة النبوية: ج ١، ص ٤٨٣.

بالصورة المتقدمة الذكر، خاصة أنّ عبارة ذينك المؤلفين (الطبري وابن الأثير) تطابق عبارة ابن هشام في هذا المجال تماماً.

هذا مضافاً إلى أنّ القضية لا توجد بهذه الصورة في مؤلفات علماء الشيعة على ما نعلم.

ولقد نقل شيخ الطائفة الإمامية محمد بن الحسن الطوسي المتوفى عام ٤٦٠ في أماليه قصة الهجرة بشكل أكثر تفصيلاً ودقة، وذكر العبارة المذكورة مع تغيير بسيط، إلا أنه تختلف صورة القضية مع ذلك عما هي عليه في كتب أهل السنة، فانه رحمه الله يصرح بان علياً - عليه السلام - انطلق هو و «هندبن أبي هالة» ابن خديجة ورييب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في منتصف الليل بعد ليلتين من الهجرة حتّى دخلا على النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلّي: «إبّهم لن يصلّوا من الآن إليك يا علي بأمر تكرهه حتّى تقدم عليّ.»⁽¹⁾

وهذه الجملة تشبه الجملة التي ذكرها ابن هشام والطبري وابن الأثير، ولكن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قالها لعلّي - عليه السلام - مطمئناً إياه بعد ليلتين من المبيت في الفراش، وليس ليلة المبيت كما يروي الثلاثة المذكورون.

هذا علاوة على أنّ كلام علي نفسه خير شاهد على ما نقول:

فلقد عدّ عليّ - عليه السلام - عمله هذا (أي المبيت في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في تلك الليلة الرهيبة) نموذجاً من بذله وتفانيه في سبيل الحق كما يتضح ذلك بجلاء من اشعاره حيث يقول:

وَقَيْتُ بِنَفْسِي خَيْرَ مَنْ وَطَأَ الْحِصَا * وَمَنْ طَافَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَبِالْحِجْرِ

محمّد لما خاف أن يمكروا به * فَوَقَّاهُ رَبِّي ذُو الْجَلَالِ مِنَ الْمَكْرِ

وَبِتُّ أُرَاعِي مِنْهُمْ مَا يَسُوءُنِي * وَقَدْ وَطَّئْتُ نَفْسِي عَلَى الْقَتْلِ وَالْأَسْرِ

وَبَاتَ رَسُولُ اللَّهِ فِي الْغَارِ آمِنًا * هُنَاكَ وَ فِي حَفِظِ الْإِلَهِ وَ فِي سِتْرٍ⁽²⁾

- [الأمالي: ج ٢، ص ٨٤.
- 2 المصدر السابق وغيره، هذا مضافاً إلى أنّ الإمام - عليه السلام - نفسه قد استنشد المسلمين مراراً بهذه القضية مستدلاً بها على تفانيه في سبيل الإسلام.

ومع هذه العبارات الصريحة لا مجال للاعتماد على قول ابن هشام الذي تدل قرائن كثيرة على خطئه، ويُحتمل، احتمالاً قوياً، بأن اشتباهه وخطئه قد نشأ من تلخيصه لسيرة ابن اسحاق، وحيث أنه (ونعني ابن هشام) قد بنى في سيرته على الاختصار لذلك اكتفى بنقل أصل العبارة، مهملاً ظرف النطق بها لعدم أهمية زمن النطق بها وأنها قيلت في الليلة الثانية أو الثالثة، في نظره، وروى الموضوع بنحو يوهم بان جميع هذه الامور وقعت في ليلة واحدة!!

ويؤيد رأينا هذا أيضاً الحديث المعروف الذي رواه كثير من علماء السنة والشيعه وهو: أن الله أوحى إلى جبرئيل وميكائيل عليهما السلام أتى قد أخيت بينكما وجعلت عمر احدكما أطول من عمر صاحبه فأيكما يؤثر أخاه.

وكلاهما كره الموت، فارحى الله إليهما: عيادي ألا كنتما مثل وليي «علي» أخيت بينه وبين «محمد» نبيي فأثره بالحياة على نفسه؟ أو قال: فبات على فراشه يفديه بمهجته.

ثم أمرهما بالهبوط إلى الأرض وحراسة علي وحفظه من عدوه. (1)

واما الدليل الثاني الذي يستفيد منه ابن تيمية أن علياً كان يعلم بمصيره هو توصية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - له بأداء الامانات والودائع إلى أهلها، التي كانت تكشف عن ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان يعلم بأنه لن يصل إليه مكروه، ولهذا امره برد الودائع والامانات إلى أصحابها.

الخطيب وقضية المبيت:

وينبغي أن نختم هذا الفصل بما كتبه الاستاذ عبدالكريم الخطيب حول

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٣٩ نقلا عن احياء العلوم للغزالي.

(601)

مبيت علي - عليه السلام - في فراش رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - حيث قال: لقد دعا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً ليلة الهجرة، وطلب إليه أن يبني في المكان الذي اعتاد الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - أن يبني فيه، وان يتغطي بالبرد الحصرم الذي كان النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يتغطي به حتى إذا نظر ناظر من قريش إلى الدار رأى كأن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - نائم في مكانه مغطى بالبرد الذي يتغطي به، وهذا الذي كان من علي في ليلة الهجرة إذا نظر إليه في مجرى الاحداث التي عرضت للامام علي في حياته بعد تلك الليلة فانه يرفع لعيني الناظر أمارات واضحة و اشارات دالة على ان هذا التدبير الذي كان في تلك الليلة لم يكن أمراً عارضاً بل هو عن حكمة لها آثارها - إلى ان قال - انه إذا غاب شخص الرسول كان

علیُّ هو الشخصية المهيأة لأن تخلفه وتمثّل شخصه وتقوم مقامه، حين نظرنا إلى عليّ وهو في برد الرسول وفي مثنى منامه الذي اعتاد أن ينام فيه فقلنا: هذا خُلفُ الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم - والقائم مقامه. (1)

ولكننا نعتقد ان في مقدورنا الحصول على حلٍ لهذه المشكلة إذا استعرضنا بقية قصة الهجرة بشكل صريح وكامل.

واليك بقية قصة الهجرة.

بقية قصة هجرة النبي:

انتهت المراحل الأولى لنجاة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وفق تخطيط صحيح، بنجاح، فقد لجأ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في منتصف الليل إلى غار ثور، واختبأ فيه، وبذلك أفضل محاولة المتأمرين عليه.

ولقد كان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - طوال هذا الوقت مطمئناً لا يحسُّ في نفسه بأي قلق أو إضطراب، حتّى انه طمأن رفيق سفره عندما وجده مضطرباً في تلك اللحظات الحساسة بقوله:

(لا تَحْزُنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَن. (2))

وبقي هناك ثلاث ليال محروساً بعين الله تعالى و مشمولاً بعنايته ولطفه ،

- 1 راجع كتاب علي بن أبي طالب بقية النبوة وخاتم الخلافة، ص ١٠٣ - ١٠٥ ملخصاً.
- 2 التوبة: ٤٠.

وكان يتردد عليه - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذه الاثناء عليّ - عليه السلام - وهند ابن ابي هالة (ابن خديجة) على رواية الشيخ الطوسي في أماليه، وعبدالله بن أبي بكر وعامر بن فهيرة راعي اغنام أبي بكر (بناء على رواية كثير من المؤرخين). يقول ابن الاثير: كان عبدالله بن ابي بكر يتسمّع لهما بمكة نهاره ثم يأتيهما ليلا، وكان يرعى غنمه نهاره على مقربة من الغار، وكان إذا غدا من عندهما عفى على أثر الغنم. (1)

يقول الشيخ الطوسي في أماليه: عند ما دخل علي - عليه السلام - وهند على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الغار (بعد ليلة الهجرة) أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - عليّاً أن يبتاع بعيرين له ولصاحبه، فقال أبو بكر: قد كنتُ أعددت لي ولك يا نبي الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :إني لا أخذهما ولا أأدهما إلا بالثمن. ثم أمر - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً - عليه السلام - فدفع إليه ثمن البعيرين.(2)

وكان من جملة وصايا رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لعليّ - عليه السلام - في الغار في تلك الليلة ان يؤدي أمانته على أعين الناس ظاهراً وذلك بأن يقيم صارخاً بالابطح غدوة وعشياً: ألا من كان له قبل محمّد أمانة أو دبيعة فليأت فلنؤد إليه أمانته.(3) ثم أوصاه - صلى الله عليه وآله وسلم - بالفواطم (والفواطم هن: فاطمة الزهراء بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الحبيبة لديه، والأثيرة عنده، وفاطمة بنت أسد أمّ عليّ - عليه السلام - وفاطمة بنت الزبير ومن يريد الهجرة معه من بني هاشم)، وأمره بترتيب أمر ترحيلهم معه إلى يثرب وتهيئة ما يحتاجون إليه من زاد وراحلة.

وهنا قال - صلى الله عليه وآله وسلم - عبارته التي تدرّج بها ابن تيمية في دليله

-
- 1 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٧٣ مع تصرف.
 - 2 أمالي الشيخ: ج ٢، ص ٨٢.
 - 3 الكامل: ج ٢، ص ٧٣؛ السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٥٣.

(603)

الأول: «انهم لن يصلوا من الآن اليك يا عليّ بامر تكرهه حتّى تقدم عليّ.»

فالملاحظ للقارىء هو أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إنما قال هذه العبارة عندما أمره باداء أمانته، وذلك بعد انقضاء قضية ليلة المبيت.

أي انه أمر علياً بذلك، وقال له تلك العبارة وهو يتهيأ للخروج من غار ثور.

يقول الحلبي في سيرته: «وصى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في احدى الليالي وهو بالغار علياً رضي الله عنه بحفظ ذمته واداء امانته ظاهراً على اعين الناس.(1)»

وتم ينقل عن مؤلف كتاب «الدر» ما يقتضي انه اجتمع به عند خروجه من الغار.

وخلاصة القول: انه مع رواية شيخ جليل من مشائخ الشيعة الامامية كالشيخ الطوسي بالاسناد الصحيحة أن الأمر بردّ الودائع والامانات صدر من جانب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عليّ - عليه السلام - بعد ليلة المبيت لا يحقّ لنا أن نعارض هذا النقل الصحيح، ونعتمد إلى الهاء العامة بالتوافه، وأما رواية مؤرخي اهل السنة هذا المطلب بشكل آخر يوحي ظاهره بأن جميع

وصايا النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لعلّ تمت في ليلة واحدة هي ليلة الهجرة (ليلة المبيت) فقابلٌ للتفسير والتوجيه، لأنه لا يبعد أن عنايتهم كانت مركزة على رواية أصل الموضوع، ولم يكن لظرف صدور هذه الوصايا والأوامر ووقت بيانها أهمية عندهم

الخروج من الغار:

هياً علي - عليه السلام - بأمر النبيّ ثلاث رواحل ودليلاً امينا يدعى أريقط ليترحلها إلى المدينة، ويدلّمهم الدليل على طريقها وأرسل كل ذلك إلى الغار.

- [السيرة الحلبية: ج ٢، ص ٣٥.

(604)

ولما سمع النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - رغاء البعير أو نداء الدليل نزل هو و صاحبه من الغار وركبا البعيرين وتوجها من أسفل مكة إلى «يثرب» سالكين إلى ذلك الخط الساحلي، وقد جاء ذكر المنازل التي مرّ بها في السيرة النبوية لابن هشام⁽¹⁾ وفي الهوامش المثبتة على التاريخ الكامل لابن الاثير⁽²⁾.

صفحة التاريخ الأولى:

اجل لقد حلّ الظلام في كل مكان، ولملمت الشمس اشعتها الذهبية من هذا الوجه من الكرة الأرضية لتوجّهها إلى الوجه الاخر منها

وعاد جماعة من رجال قريش الذين سلكوا كل طريق في مكة وضواحيها بحثاً عن النبيّ، ثلاثة أيام، بلباليها، إلى بيوتهم ومنازلهم متعبين مرهقين، وقد ينسوا من الظفر بالجائزة (وهي مائة من الإبل) التي وضعتها سادة قريش جائزة لمن يأخذ محمّداً أو يدل على مكانه، وأعيد فتح طريق مكة - المدينة التي أغلقت لهذه الغاية بعد اليأس من الظفر برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .⁽³⁾

وفي هذه اللحظات بالذات بلغ نداء الدليل الذي كان يصطحب معه ثلاث رواحل ومقداراً من الطعام، إلى مسمع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ورفيقه وهما في الغار وقد كان يقول بصوت خافت: لا بد ان نتخذ من ظلام هذا الليل ستراً، ونسرع في الخروج من حدود المكين، ونختار طريقاً يقلّ سالكوه ولا يهتدي إليه أحد.

ويبدأ تاريخ المسلمين من العام الذي تضمّن تلك الليلة بالضبط، وجعل المسلمون يقيسون كل ما يقع من الحوادث بذلك العام وبذلك يحددون تاريخه وزمان حدوثه.

- 1 السيرة النبوية لابن هشام: ج ١، ص ٤٩١.
- 2 الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ٧٥.
- 3 تاريخ الطبري: ج ٢، ص ١٠٤.

(605)

لماذا أصبح العام الهجري مبدأ للتاريخ:

إن الإسلام أكمل الشرائع السماوية فاطبة، وقد جاء إلى البشرية بما تتضمنه شريعة موسى وعيسى - عليهما السلام - ولكن بصورة أكمل وبصيغة تطابق وتنمى مع جميع الظروف والأوضاع.

ومع أن السيد المسيح - عليه السلام - وميلاده المبارك يحظى بالاحترام عند المسلمين إلا أن ميلاده - عليه السلام - لم يُتخذ لديهم مبدأ للتاريخ، والتوقيت.

وكانت العرب قد جعلت عام الفيل⁽¹⁾ مبدأ لتاريخها، وكانت تقيس حوادثها وأمورها إليه فترة من الزمن، ومع أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان قد وُلِدَ في ذلك العام نفسه، إلا أن المسلمين لم يتخذوه مع ذلك مبدأ للتاريخ، لأنه لم يكن ينطوي على ما يتصل بقضية الإيمان والإسلام.

ولاجل هذا أيضاً لم يتخذوا عام البعثة مبدأ لتاريخ المسلمين أيضاً لأن عدد المسلمين لم يكن يتجاوز في ذلك اليوم ثلاثة أشخاص، إذن فلم يكن في أي واحد من تلك الحوادث ما يعطي مبرراً قوياً لاتخاذها مبدأ للتوقيت والتاريخ، إذ لا بد أن يكون ما يتخذ لذلك قضية مصيرية بالغة الأهمية.

ولكنه في السنة الأولى من الأعوام الهجرية حقق المسلمون انتصاراً عظيماً وهاجراً، وقد أسست فيه حكومة مستقلة وتخلّص المسلمون من التشرذم والتبعثر، وتمركزت قواهم وعناصرهم في نقطة واحدة، وبيئة حرة لا أثر فيها للكبت والاضطهاد، من هنا جعلوا ذلك العام (أي العام الذي تحققت فيه هجرة النبي العظيم) مبدأ لتاريخهم، واخذوا يقيسون إليه - وحتى الآن - كل ما يحدث ويقع من خير وشر، لتحديد تاريخ وقوعه.

من هنا يكون قد مضى على عام هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من مكة إلى المدينة الف واربعمائة وتسعة اعوام.

- [وهو العالم الذي سبّر فيه أبرهة جيشاً لهدم الكعبة تتقدمة الفيلة. راجع المحبّر: ص ٨-٥.

(606)

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة:

ولقد جعل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - التاريخ الهجري بنفسه.

وإنَّ أئَّ إعراض وتجاهل لهذا التاريخ، واختيار تاريخ آخر مكانه إعراضٌ عن سنة رسول الإسلام الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - ، ومخالفة لما رسمه للمسلمين في هذا المجال.

إن وجود تاريخ معين ثابت (مؤلف من السنة والشهر واليوم) في الحياة الإجتماعية البشرية، من الأمور الضرورية الحيوية بل هو في غاية الضرورة والحوية، من أجل أن لا تتوقف عجلة الحياة الإجتماعية البشرية عن الدوران والحركة بسبب فقدان مقياس زمني ثابت ومعلوم للامور والحوادث.

وتلك حقيقة لا حاجة إلى اقامة البرهان عليها لأنَّ الاستدلال عليها يكون مثل الاستدلال على الامور البديهية.

فهل يكون تنظيم المعاهدات، والمواثيق السياسية والعسكرية، والاتفاقيات، والعقود الاقتصادية وتحويل وتسديد السندات والحوالات التجارية ودفع الديون وكتابة الرسائل العائلية من دون ذكر تاريخ معين فيها أمراً مفيداً؟ كلا حتماً، ودون ريب.

فعندما سأل بعض الصحابة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - عن علة اختلاف أشكال القمر، وانه لماذا يكون هلالاً تارة ثم بدرأً أخرى. ثم يعود إلى سيرته الأولى هلالاً، نزل الوحي الالهي، يبيِّنُ بعض حكمة هذه الظاهرة الطبيعية إذ قال تعالى:

(قل هي مواقيت للناس.)⁽¹⁾

أي ان اختلاف اشكال القمر وهيئاته انما هو لاجل ان يعرف الناسُ به الوقت والتاريخ فيعرفوا في أي يوم من الشهر هم، في مبدئه أو منتصفه، أو منتهاه،

- [البقرة: ١٨٩ ومطلعها: «يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت. ...»

(607)

ولكي يعرفوا بواسطة ذلك مواعيد واجباتهم الشرعية والاجتماعية، ويعرف الدُّيان موعد تسلُّم دُيونهم، ويعمَدُ المَدِينون إلى دفع ما عليهم في وقته، ويقومُ المؤمنون بفرانضهم المقيَّدة بالازمنة والاوقات كالصوم والحج وماشابه ذلك.

من هنا لا مجال للنقاش في احتياج كل أمة إلى تاريخ معين ثابت محدّد تجعله ملاكاً للتوقيت، ومداراً لتحديداتها الزمنية.

إنما الكلام هو في ما ينبغي إتباعه والجري عليه من التواريخ، وتنظيم المستندات والمكاتبات والمواعيد وفقاً له.

وبعبارة أخرى: إن الكلام إنما هو في ما ينبغي جعله مبدأً للتاريخ يقاس به كل العُقود والاتفاقات من حيث الزمان، والتوقيت.

فما الذي يصلح أوبينبغي إتخاذه مبدأً للتاريخ للامة الإسلامية ؟

الجواب:

إن الاجابة على هذا السؤال واضحة جداً، وتلك الاجابة هي:

إذا كانت لأمة من الامم حوادث لامعة وسوابق مشرقة في حياتها، وثقافة خاصة بها، وديناً ومسلماً مستقلاً وشخصيات علمية وسياسية بارزة، واحداث ووقائع عظيمة مثيرة، تبعث على الفخر والاعتزاز، ولم تكن كنبئة وحشية نبئت عفواً واعتباطاً من غير قانون ولا جذور كبعض الجماعات والشعوب الجديدة الظهور التي لا تركز إلى أصول ثابتة معلومة.

فان على مثل هذه الأمة أن تتخذ من أعظم حوادثها الاجتماعية والدينية مبدءاً لتاريخها الذي تقيس، وتنظم عليه بقية حوادثها وأعمالها التي سبقت تلكم الحادثة العظمى، أو التي وقعت وتقع بعدها.

ومن هنا تكون قد اكسبت شخصيتها وكيانها قوة اكبر، وصاننت نفسها من التبعية للشعوب والأمم الاخرى، والميعان والفناء فيها.

وإذ لم يكن في تاريخ الأمة الإسلامية شخصية أعلى شأناً من شخصية رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ، كما لم يكن هناك حادثة أعظم، وانفع من حادثة

(608)

الهجرة النبوية المباركة، لأن هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - فتحت - في الحقيقة - صفحةً جديدةً في حياة البشرية، فقد خرج رسول الإسلام واتباعه من بيئة مكة الراححة تحت الكبت، إلى بيئة مناسبة حرة مكنتهم من إحداث انطلاقة كبرى لم يشهد التاريخ البشري برمته لها مثلاً.

فقد استقبل أهل المدينة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن هاجر معه من المسلمين إلى يثرب استقبالا حاراً، ووضعوا تحت تصرفه كل ما توفر لديهم من الامكانات والقوى، فلم يمض زمن إلا وتمتع الإسلام بفضل هذه الهجرة المباركة بتشكيلات سياسية وعسكرية، واتخذ صورة وشكل حكومة قوية لها وزنها، وشأنها، وجانبها المرهوب في شبه الجزيرة العربية، وسرعان ما نشر رايته على البسيطة كلها تقريباً، وأسس حضارة عظمى لم تر البشرية لها نظيراً.

فاذا لم تحدث تلك الهجرة المباركة المعطاء لفضي على الإسلام في محيط مكة، وحرم العالم الانساني من هذا الفيض العظيم.

من هنا، ولأجل هذا اتخذ المسلمون هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مبدأً لتاريخهم، ودأبوا على ذلك إلى الآن حيث ينقضي أكثر من ألف وأربعمائة عام، أي أن هذه الامة الكبرى تركت وراءها إلى هذا اليوم أربعة عشر قرناً من الأمجاد والمفاخر، وهي الآن على أعتاب القرن الخامس عشر؟

من الذي جعل الهجرة مبدأً للتاريخ؟

على العكس مما هو مشهور بين المؤرخين من أن الخليفة الثاني جعل هجرة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - مبدأً للتاريخ باقتراح وتأييد من الامام أمير المؤمنين علي - عليه السلام - وامر بأن تؤرخ الدواوين، والرسائل والعهود وما شابه ذلك بذلك التاريخ، فان الامعان في مراسلات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ومكاتباته التي هي مدرجة في الأغلب في كتب التاريخ والسيرة والحديث والسنة، وكذا غير ذلك من الأدلة التي سوف نذكرها في هذه الصفحات يثبت أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو نفسه أول من اعتمد تلك الحادثة الكبرى كمبدأ للتاريخ،

(609)

وكان يؤرخ رسائله، وكتبه إلى امراء العرب، وزعماء القبائل وغيرهم من الشخصيات البارزة بذلك التاريخ (أي التاريخ الهجري)

وها نحن ندرج هنا نماذج من تلك الرسائل النبوية المؤرخة بهذا التاريخ، ثم نعتمد بعد ذلك إلى استعراض الدلائل الأخرى على هذا الأمر، ونحن نحتمل ان تكون هناك أدلة أخرى غير ما سنذكره هنا - أيضاً - لم نقف عليها.

نماذج من رسائل النبي المؤرخة:

1- طلب سلمان من النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يكتب له ولأخيه (ماه بنداذ) ولأهله وصية مفيدة ينتفع بها، فاستدعى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - علياً وأملى عليه أموراً، وكتبها علي - عليه السلام - ثم جاء في آخر تلك الوصية: «وكتب علي بن أبي طالب بأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في رجب سنة تسع من الهجرة.⁽¹⁾»

2- أدرج المؤرخ الشهير «البلاذري» في كتابه «فتوح البلدان» نصَّ معاهدة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - مع يهود «المقنا» وذكر أن مصرياً رأى نصَّ هذه المعاهدة في جلد أحمر اللون عتيق وكان قد استنسخها، فقرأها لي.

ثم نقل البلاذري نص تلك المعاهدة وقد جاء في نهايتها:

«وليس عليكم امير الا من انفسكم أو من اهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وكتب علي بن أبوطالب في سنة تسع⁽²⁾ «ومع أن «أبا طالب» يجب أن يكتب حسب القواعد الادبية في المقام «أبي طالب» لكونه مضافاً إليه فقد كتب: «علي بن

أبوطالب» ولكن مع ذلك ذكر المحققون ان قبيلة قريش كانت تتلفظ لفظة أب في جميع الموارد (أي في حالة النصب والرفع والجر) بـ «أبو» وتكتبها كذلك أيضاً، وقد صرح الاصمعيّ بهذا من بين الادياء.

ويقول البروفيسور «محمد حميد الله» مؤلف كتاب «الوثائق السياسية»: اني

- [1] اخبار اصفهان: تأليف ابي نعيم، ج 1، ص 52 و 53.
- 2] فتوح البلدان: ص 72.

(610)

لما كنت في المدينة المنورة في شهر محرم سنة 1358 وجدت في الكتابة القديمة التي في جنوبي جبل سلع في المدينة المنورة «أنا علي بن أبوطالب.(1)»

3- جاء في معاهدة الصلح التي نظمها «خالد بن الوليد» لاهل دمشق، ونص فيها على احترام دمائهم، واموالهم وكنائسهم: «وكتب سنة ثلاث عشرة.(2)»

وكلنا نعلم أن دمشق فتحت في أواخر حياة الخليفة الأول.

فما يدعيه البعض من ان التاريخ الهجري قد اتخذ في عهد الخليفة الثاني بارشاد وتأييد من الامام علي - عليه السلام - غير صحيح فان تاريخ ذلك يرتبط بالسنة السادسة عشرة أو السابعة عشرة من الهجرة، والحال ان هذه المعاهدة قد نظمت ودونت وأرخت بالتاريخ الهجري قبل ذلك بأربع سنوات.

4- ان كتاب الصلح الذي كتبه الامام علي - عليه السلام - بأمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لنصارى نجران مؤرخ بالسنة الهجرية الخامسة.

فقد جاء في هذه الرسالة:

«وأمر علياً ان يكتب فيه انه كتب لخمس من الهجرة.(3)»

ان هذه الجملة تفيد بوضوح ان النبي الاكرم - صلى الله عليه وآله وسلم - هو واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الأول وهو الذي أمر علياً - عليه السلام - بان يؤرخ ذلك الكتاب بالتاريخ الهجري في ذيله.

5- جاء في مقدمة الصحيفة السجادية: قال جبرئيل وهو يفسر رؤيا رآها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - «: تدور رحى الإسلام من مهاجرك فتلبث بذلك عشر، ثم تدور رحى الإسلام على رأس خمس وثلاثين من مهاجرك فتلبث بذلك خمس، ثم لا بد من رحى ضلالة هي قائمة على قطبها. (4)»

- 1 مكاتيب الرسول: ص ٢٨٩، نقلا عن شرح ملا علي القاري لشفاء القاضي عياض، وكذا الوثائق السياسية.
- 2 الاموال: طبعة مصر، ص ٢٩٧.
- 3 التراثيب الادارية: ج ١، ص ١٨١ نقلا عن السيوطي.
- 4 مقدمة الصحيفة السجادية، سفينة البحار: ج ٢، ص ٦٤١.

(611)

6- يروي المحدثون الاسلاميون أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قال لام سلمة:

«يُقْتَلُ الحسين بن علي على رأس ستين من مهاجري. (1)»

7- قال أنس بن مالك: «حدثنا أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - قال: لاتأتي مائة سنة من الهجرة و منكم عين تطرف. (2)»

8- أرخ أصحاب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - في ايام حياته الحوادث الإسلامية بهجرته فقالوا: وقع كذا في الشهر كذا من الهجرة، مثلا كانوا يقولون: حولت القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة في شهر شعبان ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً أو ثمانية عشر شهراً. (3)

على رأس ثمانية عشر شهراً فرضَ صوم شهر رمضان. (4)

وقال عبدالله بن انيس أمير الوفد الذي بعثه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - :

خرجت من المدينة يوم الاثنين لخمس خلون من المحرم على رأس أربعة وخمسين شهراً. (5)

وقال محمد بن سلمة عن غزوة القرطاء: خرجت في عشر ليال خلون من المحرم فغبت تسع عشرة وقدمت لليلة بقيت من المحرم

على رأس خمسة وخمسين شهراً. (6)

إنَّ هذا النوع من تاريخ الحوادث والوقائع يكشف عن ان المسلمين كانوا إلى السنة الخامسة من الهجرة يقيسون الحوادث بهجرة

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - ويؤرخون بها عن طريق عدِّ الأشهر، حتَّى إذا كانت السنة الخامسة من الهجرة

- 1 مجمع الزوائد: ج ٩، ص ١٩٠.
- 2 تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٦٧.
- 3 نفس المصدر: ج ١، ص ٣٦٨.
- 4 المغازي: ج ٢، ص ٥٣١ تحقيق الدكتور مارسدن جونس.
- 5 المغازي: ج ٢، ص ٥٣١.
- 6 المغازي: ج ٢، ص ٥٣٤.

أمر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - باحلال السنة الهجرية مكان الشهر الهجري (كما مرّ في الرسالة رقم ٤) حيث أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بان يُورَخ الكتاب الذي كتبه لنصارى نجران بالعام الهجري.

-9 نقل المحدثون الاسلاميون عن الزهري قوله: ان رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لما قدم المدينة مهاجراً أمر بالتاريخ فكتب في ربيع الأول (اي شهر قدمه المدينة). (1)

-10 روى «الحاكم» عن «ابن عباس» ان التاريخ الهجري بدأ من السنة التي قدم فيها النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - المدينة. (2) إن هذه النصوص تحكي عن أنّ قائد الإسلام الأكبر قد أوضح مسألة التاريخ من اليوم الاول. وانه جعل هجرته مبدأ لذلك التاريخ. غاية ما هنالك أن هذا التاريخ كان إلى فترة من الزمن يعدُّ بالأشهر ثم حل العدُّ بالأعوام منذ حلول السنة الخامسة من الهجرة محل العدِّ بالأشهر.

سؤال:

ويمكن ان يسأل سائل: إذا كان حقاً أن النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - هو مؤسس التاريخ الهجري ووضعه الأول فماذا نفع بالخبر الذي رواه كثيرٌ من المحدثين والمؤرخين.

فانهم يقولون: رفع رجل إلى عمر صكاً مكتوباً على آخر بدين يحلّ عليه في شعبان فقال عمر: اي شعبان؟ أمن هذه السنة أم التي قبلها أم التي بعدها؟

ثم جمع الناس (أي أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - (فقال: ضعوا للناس شيئاً يعرفون به حلول ديونهم... فيقال: أن بعضهم أراد أن يؤرخوا كما تؤرخ الفرس بملوكهم كلما هلك ملك أرخوا من تاريخ ولاية الذي بعده ففكر هو ذلك.

- [فتح الباري: ج ٧، ص ٢٠٨، تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٢٨٨ طبعة دار المعارف.
- 2 مستدرک الحاكم: ج ٣، ص ١٣ و ١٤ وقد صححه على شرط مسلم.

ومنهم من قال: ارخوا بتاريخ الروم من زمان اسكندر ففكر هو ذلك لطوله أيضاً.

وقال آخرون: أرخوا من مولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - .

وقال آخرون: أرخوا من مبعثه. وأشار علي بن أبي طالب - عليه السلام - أن يؤرخ من هجرته إلى المدينة لظهوره على كل أحد، فانه أظهر من المولد والمبعث، فاستحسن عمر ذلك والصحابة، فأمر عمر أن يؤرخ من هجرة رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - . (1)

الجواب:

إنّ هذا القسم من التاريخ لا يمكن الاستناد إليه في مقابل النصوص الكثيرة التي وصفت الرسول العظيم - صلى الله عليه وآله وسلم - بكونه واضع التاريخ الهجري ومؤسسه الأول.

هذا مضافاً إلى أنه من الممكن أن يكون التاريخ الهجري الذي وضعه النبي الكريم - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تعرّض للترك، وفقد رسميته بمرور الزمن وقلة الحاجة إلى التاريخ ولكن جُدد في زمن الخليفة الثاني، بسبب اتساع نطاق العلاقات وأعيد الاهتمام به لاشتداد الحاجة إليه في هذا العهد.

التذكير بنقطتين:

1- لا نجد في الاقتراحات التي عرضت على الخليفة في مجال التاريخ أي ذكر للتاريخ المسيحي الذي يجعل ميلاد السيد المسيح - عليه السلام - مبدءاً للتاريخ.

والعلة هي: أن التاريخ الميلادي ظهر في القرن الرابع الاسلامي بين

- [البداية والنهاية: ج ٧، ص ٧٣ و ٧٤، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ١٢، ص ٧٤. الكامل لابن الاثير: ج ١، ص ١٠.

(614)

المسيحيين بعد سلسلة من المحاسبات التخمينية، فهو لم يكن رائجاً قبل ذلك.

2- ان البلاد والاقطار الإسلامية بحاجة اليوم إلى الوحدة والاتفاق أكثر من اي زمن مضى.

ومن مظاهر تلك الوحدة هو السعي للحفاظ على التاريخ الاسلامي الهجري.

ومن هنا يتوجب على الاقطار الإسلامية ان تقيم كل روابطها، وعلاقتها على أساس التاريخ الهجري، شمسياً كان أو قمرياً.

وان هذا الأمر بحاجة إلى مؤتمر إسلامي كبير يشترك فيه كبار الشخصيات الفكرية الإسلامية من أجل توحيد التاريخ، ودراسة السبل الكفيلة بالوصول إلى هذا الأمر، والتخلص من التبعية الغربية في التاريخ.

ان من المؤسف جداً أن تتجاهل بعض الدول الإسلامية والعربية التاريخ الهجري وتعتمد التاريخ الميلادي المسيحي، حتى أن شيخ الجامع الأزهر الذي يشكل قمة القيادة الدينية في المجتمع السني يؤرخ رسائله بالتاريخ الميلادي، ولا يذكر إلى جانبه التاريخ الهجري على الأقل⁽¹⁾!!

مؤامرة الطاغوت:

وكانت ايران من الاقطار الإسلامية التي حافظت بشدة على التاريخ الهجري، واعتمدته في اعمالها، ولكن في المؤامرة التي نفذت بواسطة الطاغية المقبور في عام ١٣٩٩ هـ، استبدلت التاريخ الهجري بالتاريخ الشاهنشاهي وأعلن في وسائل الاعلام عن وجوب اعتماد هذا التاريخ المختلق بدل التاريخ الهجري الاصيل!!

ولقد تصوّر الطاغوت الأرعن أنه يستطيع بحذف التاريخ الهجري، و استبداله

- [وقد رأيت أنا شخصياً رسالة من شيخ الجامع الأزهر الاسبغ هو الشيخ محمود عبدالحليم وعليها التاريخ الميلادي فحسب!!]

(615)

بالتاريخ الشاهنشاهي المشؤوم تثبيت قواعد حكومته المهزوزة، وسلطانه المنخور، ونظامه الظالم المتهريء، مدة أطول، ولكن العناية الالهية، وهمة الشعب الإيراني المسلم العالية، وقيادة الاستاذ الاكبر آية الله العظمى الإمام الخميني قدس سره الشريف أفضلت هذه المحاولة النكراء، وآل الأمر إلى اسقاط النظام الشاهنشاهي بثورة الشعب المجيدة واقامة حكومة الجمهورية الإسلامية على انقاض الحكم الملكي المباد، واحلال التاريخ الهجري الاسلامي المبارك محلّ التاريخ الشاهنشاهي المختلق. والحمدلله. (1)

برنامج الرحلة في حادث الهجرة:

لقد كان على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ان يقطع - للوصول إلى المدينة - ما يقرب من اربعمائة كيلومتراً، ولا شك أن طي هذه المسافة الطويلة تحت تلك الحرارة العالية الدرجة بحاجة إلى خطة صحيحة، لضمان السلامة، خاصة وانهم كانوا يخافون من أن يقوم الأعراب الذين كانوا ربما يصادفونهم في اثناء الطريق باخبار قريش بهم، ولهذا كانوا يسبرون ليلاً ويستريحون نهاراً

ويبدو أن شخصاً شاهد النبيّ ومن معه في أثناء الطريق فرجع إلى مكة وأخبر قريشاً بذلك فخرج «سراقة بن مالك بن جعشم» يطلبهم طمعاً في جائزة قريش الكبرى فلحق برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقد صرفت قريشاً عن ملاحقة النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - قبل ذلك ليتفرد بها⁽²⁾.

يقول ابن الاثير: تبعهم سراقة فلحقهم فقال أبو بكر: يا رسول الله ادركنا الطلب، فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «لاتحزن إن الله معنا.»

ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : «اللهم اكفني شرَّ سُراقة بما سُئت» فجمع به فرسه وطرحه أرضاً.

- [يستخدم في ايران تاريخ هجري آخر هو التاريخ الهجري الشمسي وهو ينفع لمعرفة الفصول وما شاكل ذلك.
- 2التاريخ الكامل: ج ٢، ص ١٠٥.

(616)

فعلم سراقة أن هذا من دعاء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ولهذا قال بنبرة المعتذر الملتمس: يا محمد هذه إبلي بين يديك فيها غلامي.

وان احتجت إلى ظهر (اي مركوب) أو لين فخذ منه فقد حكمتك في مالي.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : لا حاجة لي في مالك⁽¹⁾.

وروى المجلسي ان سراقة قال: فسألني حاجة.

فقال رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - : رُدَّ عَنَّا مَنْ يَطْلُبُنَا مِنْ قَرِيْشٍ.

فانصرف سراقة فاستقبله جماعة من قريش في الطلب فقال لهم: انصرفوا عن هذا الطريق فلم يمر فيه أحد، وأنا اكفيكم هذا الطريق فعليكم بطريق اليمن والطائف.

وهكذا ما كان يمرّ باحد إلا وصرفه عن البحث عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - في هذا الطريق بمثل هذا الكلام.

ثم إن كُتَّاب السيرة من الشيعة والسنة يذكرون لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كرامات كثيرة في طريق مكة - المدينة ونحن ندرج واحدة منها:

مرّ رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في أثناء الطريق على خيمة أم معبد وكانت امرأة شجاعة فاضلة فنزلوا بخيمتها وطلبوا منها تمراً ولحماً أو لبناً يشترونه.

فقالت: ما يحضرني شيء وكانت أغنامها قد أصيبت بالهزال بسبب الجذب، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى شاة في جانب من الخيمة فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - لها: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: شاة خلفها الجهد من الغنم فقال: هل بها من لبن؟

قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين ان أحلبها؟.

- إيذكر كثير من المؤرخين كابن الأثير في الكامل: ج ٢: ص ١٠٥. والمجسلي في البحار: ج ١٩، ص ٧٥ - ٨٨ القصة كما نقلناها هنا، ولكن مؤلف حياة محمد يقول: ان سراقاة تطير لما كبا به فرسه وألقي في روعه أن الالهة مانعة منه ضالته.

(617)

قالت: نعم ان رأيت بها حلباً فاحلبها.

فدعا بها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فمسح بيده ضرعها، وسمى الله عزوجل، ودعا لها في شاتها قائلاً اللهم بارك لها في شاتها فدرت لبناً كثيراً بفضل دعائه - صلى الله عليه وآله وسلم - فطلب إناء وحلبها، فسقاها أولاً حتى رويت ثم سقى أصحابه حتى رؤوا وشرب هو آخرهم، وقال:

«ساقى القوم آخرهم شرباً.»

ثم حلب الشاة مرة ثانية فغادره عندها، وثم ارتحلوا عنها إلى المدينة.⁽¹⁾

وقد ذكرت هذه الكرامة في كثير من كتب السيرة والتاريخ، وهو أمر ممكن في رؤية المؤمن بالله، لأن الدعاء أحد الأسباب التي

تستطيع أن تؤثر في الطبيعة، وشأنها شأن غيرها من الكرامات التي ورد ذكرها في الكتب الدينية وصدقته التجربة.⁽²⁾

النزول في قرية قباء:

تقع قرية قباء على ميلين من المدينة على يسار القاصد إلى مكة وكانت مساكن «بني عمرو بن عرف» ومركزهم.

ولقد وصل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ومن معه إلى قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول يوم الاثنين، و نزل على «كلثوم بن الهرم» وهو شيخ من بني عمرو و كان ثمة جمع كبير من المهاجرين والانصار ينتظرون قدومه، ويستخبرون وروده.

ولقد لبث رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في قباء إلى آخر أيام الاسبوع، وقد خط في هذا الفترة مسجداً لقبيلة «بني عمرو بن عوف»، ونصب قبلته. (3)

- 1بحار الأنوار: ج ١٩، ص ٧٥.
- 2بحار الأنوار: ج ١٨، ص ٤٣ و ج ١٩، ص ٩٩ - ١٠٣، الطبقات الكبرى: ج ١، ص ٢٣٠ و ٢٣١، تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٣٣، أسد الغابة: ج ١، ص ٣٧٧.
- 3تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٣٨.

(618)

وكان البعض ممن رافق رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يصرّ عليه أن يسارع في الدخول إلى المدينة، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - كان ينتظر ابن عمه علياً.

ويقول: فما أنا بداخلها حتى يقدم ابن أُمِّي وأخي، وابنتي (يعني عليّاً وفاطمة - عليهما السلام - . (4))

وأقام عليّ - عليه السلام - بمكة ثلاث ليالٍ بياهما، حتى أدّى عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الودائع التي كانت عنده للناس فقد وقف - عليه السلام - على مكان مرتفع في مكة ونادى قائلاً:

«مَنْ كَانَ لَهُ قَبِيلٌ مُحَمَّدٌ أَمَانَةٌ أَوْ وَدِيعَةٌ فليأتِ فلنؤدَّ إليه أمانتهُ.»

فكان يأتيه من له أمانةٌ أو ودِيعَةٌ عند رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - ويذكر علامتها ويأخذها فلما فرغ - عليه السلام - من أداء الامانات والودائع خرج بفاطمة بنت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وامه فاطمة بنت اسد، وفاطمة بنت الزبير وآخرين ممن لم يكن قد هاجر مكة حتى تلك الساعة، وتوجه بهم نحو المدينة ليلاً سالكا بها طريقاً في «ذي طوى».

كتب الشيخ الطوسي في اماليه في هذا الصدد يقول: إن جواسيس قريش غرقت بسفر علي مع تلك الجماعة، فخرجوا لملاحقتهم، لغرض اعادتهم إلى مكة، فادركوهم في منطقة «ضجنان».

ووقع بين رجال قريش وبين علي - عليه السلام - تلاح وتناوش، وأخذُ وردُّ، ودنا الرجال من النسوة، والمطايا ليثوروا فحال عليّ - عليه السلام - بينهم، وبينها، ولم يجد - عليه السلام - طريقاً إلا أن يدافع عن حرم الإسلام والمسلمين، فشدّ عليهم بسيفه شدة الأسد الغضب والليث الغيور وهو يقول مرتجزاً:

خُلُوا سبيل الجاهد المجاهد * آليث لا أعبدُ غيرَ الواحدِ

(619)

فلما وجدوا ما به من الجذّ والغضب خافوه وتفزعوا عنه وقالوا: بنبرة الخائف المتضرع - : إحبس عنا نفسك يا ابن أبي طالب، فقال - عليه السلام - :

«فإني مُنطَلِقٌ إلى ابن عمّي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - بيثرب فمن سرّه ان أفري لحمه وأهريق دمه فليتبعني، وليدُنْ مني.»

فتركه القومُ وعادوا من حيث أتوا، وواصل الركبُ رحلته باتجاه المدينة.

يقول ابن الاثير: قدم «علي» المدينة وقد تفتّرت قدماه، فقال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - : ادعوا لي عليّاً، قيل: لا يقدر أن يمشي، فأتاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - واعتنقه وبكى رحمةً لما يقدميه من الورم.⁽¹⁾

ولقد قدم رسول الله قباء في الثاني عشر من شهر ربيع الأول، والتحق به عليّ - عليه السلام - في منتصف ذلك الشهر نفسه⁽²⁾، ويؤيد هذا القول ما ذكره الطبري في تاريخه إذ كتب يقول: واقام علي بن ابي طالب رضي الله عنه بمكة ثلاث ليال وأيامها حتّى

أدى عن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الودائع التي كانت عنده إلى الناس.⁽³⁾

المدينة تهبُّ لقدم النبي:

ولقد كان يوم دخول رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يوماً عظيماً جداً، ومشهوداً.

فكم ترى ستكون عظيمةً فرحةً الذين آمنوا برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - منذ ثلاث سنوات، وظلوا طوال هذه الأعوام يبعثون برسلمهم ووكلائهم إليه، ويذكرون اسمه المقدس، ويصلّون عليه في صلواتهم كل يوم، إذا سمعوا أن

- [الكامل في التاريخ: ج ٢، ص ١٠٦.

- 2] إمتاع الأسماع: ص ٤٨ وعلى هذا تكون محاصرة بيت رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - قد تمت ثلاث ليال قبل شهر ربيع الأول من السنة الأولى من الهجرة، وقد خرج النبي من داره ليلة الاثنين ودخل غار ثور وبقي مآكثاً فيه ثلاثة أيام، وخرج منه ليلة الخميس اول ربيع الاول وتوجه نحو المدينة ووصل قباء في الثاني عشر منه راجع تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٣٧ - ٣٣٨.

- 3] تاريخ الطبري: ج ٢، ص ٣٨٢.

(620)

قائدهم ذلك الذي طال انتظارهم اياه، واشتد تشوقهم إليه كائن عند ميلين من مدينتهم قد نزل في قبا اياماً، وسيقدم اليهم ويدخل مدينتهم بعد ايام؟ وكم سيكون مبلغ ابتهاجهم، وأي ابتهاج ترى سيعم كل صغير وكبير؟

إنه حقاً لأمر يعجزُ القلم عن بيانه، ويكل اللسان عن وصفه.

ولقد كان لفتية الأنصار وشبابهم الضامنين إلى الإسلام الحنيف برنامجاً رائعاً وعظيماً، فقد كانوا عمدوا بغية تطهير جوّ المدينة من ادران الوثنية إلى كل صنم في المدينة كان يقَدّس ويعبد فاحرقوه وكسّروه، وقد كان كل شريف في بيته صنمٌ يمسه ويطيّبه، ولكل بطن من الأوس والخزرج صنمٌ في بيت لجماعة يكرّمونه ويطيّبونه، ويجعلون عليه منديلاً ويذبحون له. (1)

ولا بأس في أن نذكر نموذجاً من هذا العمل الجليل الذي قام به الانصار في التخلص من الوثنية:

لما قدم من بايع من الأنصار في العقبة الثانية إلى المدينة اظهروا الإسلام بها وفي قومهم بقايا من شيوخ لهم على دين الشرك وعبادة الأوثان منهم «عمرو بن الجموح» وكان من سادات بني سلمة وشريفاً من أشرفهم وكان ابنه «معاذ» بن عمرو قد شهد بيعة العقبة

وكان عمرو هذا قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له: مناة، كما كانت الاشراف يصنعون، تتخذها إلهة تعظمه وتطهره، فلما أسلم فتيان بني سلمة: معاذ بن جبل، وابنه معاذ بن عمرو بن الجموح كانوا يتسلّلون في الليل إلى صنم عمرو بن الجموح فيحملونه ويطرحونه في بعض خُفر بني سلمة ومزابلها، وفيها فضلات الناس وعذرها منكساً على رأسه!!

فاذا أصبح عمرو قال: ويلكم من عدا على ألهتنا هذه الليلة؟

ثم يغدو يلتمسه حتّى إذا وجده غسله وطهره وطيّبه. ثم قال للصنم: أما واللّه لو أعلم من فعّل هذا بك لأخزيته!

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٠٧].

(621)

فاذا أمسى ونام عمرو عدوا عليه ثانيةً ففعلوا به مثل ما فعلوا به أولاً.

فيغدو فيجدّه في مثل ما كان فيه من الأذى والوسخ فيغسله ويطهره ويطيّبه، و ثم يعدون عليه إذا أمسى فيفعلون به مثل ذلك.

فلما اكثرُوا عليه استخرجه من حيث ألقوه يوماً فغسله وطهره وطيّبه ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إنّي واللّه ما أعلم من يصنّع بك ماترى، فإن كان فيك خيرٌ فامتنع، ودافع عن نفسك فهذا السيف معك.

فلما أمسى ونام عمرو عدوا على ذلك الصنم فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً مَيِّتاً فقرنوه به بحبل، ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عذر من عذر الناس وفضلاتهم. ثم غدا عمرو بن الجموح فلم يجده في مكانه الذي كان به.

فخرج يتبعه حتى وجده في تلك البئر منكساً مقروناً بكلب، مَيِّت، فلما رآه وابصر شأنه وكلمه من اسلم من رجال قومه فاسلم، وهجر الوثنية والأوثان وحسن إسلامه.

فقال حين أسلم وعرف من الله ما عرف وهو يذكر صنمه ذلك، وما أبصر من شأنه ويشكر الله تعالى الذي أنقذه مما كان فيه من العمى والضلالة:

وَاللَّهِ لَوْ كُنْتُ إِلَهًا لَمْ تَكُنْ * أَنْتَ وَكَلْبٌ وَسَطٌ بئرَ فِي قَرْنٍ

أَفَ لِمَلَقَاكَ إِلَهًا مُسْتَدْنُ * الْآنَ فَتَشْنَاكَ عَن سَوِّ الْعَيْنِ

فَالْحَمْدُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ ذِي الْمِنَّةِ * الْوَاهِبِ الرِّزَاقِ دَيَّانِ الدِّينِ

هُوَ الَّذِي أَنْقَذَنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ * أَكُونَ فِي ظُلْمَةِ قَبْرِ مَرْتَهْنُ

بأحمد المهدي النبي المرتهن⁽¹⁾

النبي يدخل المدينة:

بعد أن التحق علي - عليه السلام - ومن معه برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في قباء توجه رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى المدينة ولما انحدر من ثنية الوداع (و

- [اسد الغاية: ج ٤، ص ٩٩.

(622)

هي منطقة قريبة من المدينة) وحط قدمه على تراب يثرب استقباله الناس رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً، استقبالا عظيماً ورحبوا به اعظم ترحيب، وردد المرحبون انا شديد الترحيب التالية:

طَلَعَ الْبَدْرُ عَلَيْنَا * مِنْ ثُنَيَاتِ الْوَدَاعِ

وَجَبَّ الشُّكْرُ عَلَيْنَا * مَا دَعَا لِلَّهِ دَاعِ

أَيُّهَا الْمَبْعُوثُ فِينَا * جِئْتُ بِالْأَمْرِ الْمَطَاعِ

وكانت بنو عمرو بن عوف قد اجتمعت عنده وأصرت عليه بأن ينزل في قباء وقالوا: أقم عندنا يا رسول الله فإننا أهل الجدّ والجأد، والحلقة (أي السلاح) والمنعة، ولكن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - لم يقبل.

وبلغ الأوس والخزرج خروج رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقرب نزوله المدينة فلبسوا السلاح وأقبلوا يعدون حول ناقته لا يمرّ بحيّ من أحياء الانصار إلا وثبوا في وجهه وأخذوا بزمام ناقته وأصروا عليه بأن ينزل عليهم هذا ورسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - يقول: خَلُّوا سَبِيلَهَا فَانْهَاهَا مَأْمُورَةٌ.

واخيراً لما انتهت ناقته - وكان - صلى الله عليه وآله وسلم - قد أرخى زمامها - إلى باب المسجد الذي هو اليوم، ولم يكن مسجداً إنما كان أرضاً واسعة ليتيمين من الخزرج يقال لهما: سهل وسهيل وكانا في حجر أسعد بن زرارة فبركت الناقة على باب «أبي أيوب» خالد بن زيد⁽¹⁾ الانصاري الذي كان على مقربة من تلك الأرض.

فاغتتمت أم أبي أيوب الفرصة فبادرت إلى رحل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - فحطته وأدخلته منزلها، بينما اجتمع عليه الناس ويسألونه أن ينزل عليهم.

فلما اكلوا عليه، وتنازعوا في أخذه قال - صلى الله عليه وآله وسلم - أين الرجل؟؟

فقالوا: يخوف أم أيوب قد ادخلته في بيتها.

فقال - صلى الله عليه وآله وسلم - «: المرء مع رجليه» وأخذ أسعد بن زرارة بزمام

- [بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٠٨ ولكن ذهب البعض كصاحب الكامل في التاريخ إلى أنهما كانا في حجر معاد بن عفراء.

الناقة فحوّلها إلى منزله. (1)

أصل النفاق ومنشؤه:

كانت الأوس والخزرج قد اتفقتا على أن تملك عبد الله بن أبي بن سلول (رئيس المنافقين وكبيرهم) عليهم، وذلك قبل أن يتابع رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في العقبة وتؤمن به وتعتنق الإسلام ولكن هذا القرار ألغي بعد اتصال الأوس والخزرج برسول

اللَّهِ - صلى الله عليه وآله وسلم - من هنا حنق عبدالله بن أبي على رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - واضمر له العداوة منذ ذلك الحين، ولم يؤمن برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى آخر حياته، بل كان ينافق باسلامه.

ولما دخل رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - المدينة وشاهد عبدالله بن أبي ذلك الاستقبال والترحيب العظيمين لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - الذي قام بهما الأوس والخزرج، شق عليه ذلك جداً، ولم يستطع اخفاء حنقه وغضبه، وحده وعداوته للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - !

فعندما انتهى - صلى الله عليه وآله وسلم - إلى عبدالله بن أبي - وقد أرخى - صلى الله عليه وآله وسلم - زمام ناقته لتبرك حيث تريد، أخذ عبدالله كَمَه ووضع على أنفه، وقد ثارت الغيرة بسبب الزحام وقال للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - بنيرة الحانيق الغاضب: يا هذا إذهب إلى الذين غرّوك وخذعوك وأتوا بك، فانزل عليهم، ولا تُعْشْنَا في ديارنا!!

فقام سعدُ بن عبادَةَ - وقد خشي أن يسوء رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - هذا الموقف الوقح الشريير فقال: يا رسول الله لا يعرض في قلبك من قول هذا شيء، فإننا كنا اجتمعنا على ان نمليكه علينا، وهو يرى الآن أنك قد سلّبتَه امرأةً قد كان أشرف عليه. (2)

- [تاريخ الخميس: ج ١، ص ٣٤١].
- 2بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٠٨.

(624)

هذا ويتفق عامة المؤرخين وكتّاب السيرة أن رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - دخل يثرب يوم الجمعة، وصلى صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف في بطن واد لهم، وكانت هذه أول جمعة جمّعها رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - في الإسلام فخطب في هذه الجمعة وهي أول خطبة خطبها في المدينة، وقد تركت هذه الخطبة البديعة البليغة التي لم يسمع أهل المدينة مثيلاً لفظاً ومعنى من قبل، أترأ عميقاً وطيباً في قلوبهم ونفوسهم.

وقد أدرج ابن هشام نصّ الخطبة في سيرته (1) كما أدرجها المجلسي في بحاره (2) أيضاً.

غير أن عبارات ومضامين الخطبة التي نقلها ابن هشام واثبتها في سيرته تختلف عما رواها واثبتتها المجلسي، وللإطلاع على ذلك يراجع المصدران المذكوران.

- [السيرة النبوية: ج ١، ص ٥٠٠ و ٥٠١].
- 2بحار الأنوار: ج ١٩، ص ١٢٦.

الفهارس

- 1- فهرس الآيات القرآنية
- 2- فهرس الأحاديث الشريفة
- 3- فهرس الأشعار
- 4- فهرس الأعلام
- 5- فهرس القبائل والأمم
- 6- فهرس الكنى والألقاب
- 7- فهرس الوقائع والأيام
- 8- فهرس الأماكن والبلدان
- 9- فهرس المذاهب والأديان ونظم الحكم
- 10- فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة
- 11- فهرس المواضيع

(1)

فهرس الآيات القرآنية

وَأَتَيْنَا عِيسَىٰ بْنِ مَرْيَمَ الْبَيْتَانَ

وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ

رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا

رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا

إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي

إِنِّي جَاعِلٌ لِلنَّاسِ إِمَامًا

وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ إِيمَانَكُمْ

الَّذِينَ اتَّبَعْتَهُمْ كَتَابَ يَعْرِفُونَهُ

أَنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ

شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ

قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ

وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْجِبُكَ قَوْلُهُ

كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَاْمَسْكُوهُنَّ

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ فَلَا تَعْضَلُوهُنَّ

قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلَ الرِّبَا

وَإِذَا طَلَقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلِّغْنَ أَجْلَهُنَّ

من الربا

رقمها

78

89

126

129

133

134

143

146

174

185

189

204

213

219

231

233

275

275

278 و ٢٧٩

الصفحة

241

281 و ٣٥٠

142 و ١٤٥

350

131

240

308

349

349

344

606

595

316

45

63

62

49

50

49

(629)

آل عمران - ٣

وكفلها زكريا كلما دخل عليها المحراب

يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك

وانبتكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم

فمن حاجك من بعد ما جاءك من البينات

ولكن كان حنيفاً مسلماً

واذ أخذ الله ميثاق النبيين

وما كان لنفس ان تموت الا باذن الله

واعتصموا بحبل الله جميعاً

وكنتم على شفا حفرة من النار

لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم

وإذ اخذ الله ميثاق الذين أتوا الكتاب

37

42

49

61

67

81

145

153

153

164

187

223

241

479

479

240

348

355

42

66

350

349

النساء - ٤

يا ايها الذين آمنوا لا يحل لكم

ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم

كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غير ها

ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً

انما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته

19

22

56

82

171

63

69

441

449

241

المائدة - ٥

حرمت عليكم الميتة

وقالوا إذا ضللنا في الأرض

ما المسيح بن مريم إلا رسول

انما الخمر والميسر والانصاب

ما جعل الله من بحيرة ولا...

وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله

3

45

75

90

103

104

47

475

101

302

44

475

(630)

الأنعام - ٦

ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس

وقالوا لولا انزل عليك ملك

وأوحى إلى هذا القرآن

إن اتبع الأ ما يوحى إلى

لئن لم يهدني ربي

اني وجهت وجهي للذي فطرنى

ووهبنا له اسحاق و يعقوب...

وجعلوا له شركاء الجن وخلقهم

7

8

19

50

77

79

84

100

436

475

351

328

121

125

239

43

الأعراف - ٧

وقال الملأ من قوم فرعون انذر موسى و قومه

ويضع عنهم إصرهم والاغلال

الذين يتبعون النبي الأمي

فالذين امنوا به وعزروه

128

157

157

157

121

٦٧ و٦٨ و٨٣

224

258

الأنفال - ٨

وإذ يمكر بك الذين كفروا

30

586

التوبة - ٩

ان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً

انما النسبيء زيادة في الكفر

لا تحزن ان الله معنا

ان ابراهيم لأواه حلیم

والسابقون الاولون من المهاجرين

وما كان المؤمنون لينفروا كافة

وما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين

36

37

40

84

100

122

١١٤-113

245

٢٥٦-49

601

240

419

355

132

يونس - ١٠

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات...

قل لو شاء الله ما تلوته

15

16

310 و٤٧٦

242 و٢٩٧

هود - ١١

ام يقولون افتراه قل فاتوا بعشر سور

تلك من انباء الغيب نوحيها اليك

(631)

13

49

472

356

(632)

الرعد - ١٣

ولقد ارسلنا رسلا من قبلك

38-٤٠

438

إبراهيم - ١٤

رب اجعل هذا بلداً آمناً

ربنا اني اسكنت من ذريتي بواد

35

37

145

142

الحجر - ١٥

وقالوا يا ايها الذي نزل عليه الذكر انك لمجنون

انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون

ان عبادي ليس لك عليهم سلطان

فاصدع بما تؤمر

انا كفيناك المستهزئين

6

9

42

94

95

472 و٣٣٢

491

496

392

413

النحل - ١٦

وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً

انه ليس له سلطان على الذين آمنوا

ولقد نعلم انهم يقولون انما يعلمه بشر

انما يفترى الكذب الذين لا يؤمنون...

ان ابراهيم كان أمة فانتا لله

واصبر وما صبرك إلا بالله

58 و٥٩

99

103

105 و١٠٦

120

127

6

496

235 و٤٧١

417

240

477

الإسراء - ١٧

سبحان الذي اسرى بعبده ليلا

قل لئن اجتمعت الانس والجن

وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض

وقرآنا فرقناه لتقرأ على الناس على مكث

1

88

90 و٩٣

106

478 و٣٨ و٤٨٥

181

433 و٣٥ و٤٣٦ و٤٧٧

الكهف - ١٨

واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم

28

477

مريم - ١٩

يا يحيى خذ الكتاب بقوة

12

295

(633)

ولم يجعلني جباراً شقياً...

واذكر في الكتاب مريم إذ...

إذ قال لآبئيه يا ابنت لم تعبد ما لا يسمع

١٥ و 14

٣٣-16

٤٧-42

242

201 و 222 و 295

طه - ٢٠

طه ما انزلنا عليك القرآن لتشقى...

إذ تمشي اختك فتقول هل ادلكم على...

ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه...

ولا تعجل بالقرآن قبل ان يقضى اليك...

1-8

37-40

50

114

426

200

314

346

الأنبياء - ٢١

بل قالوا أضغاث أحلام

ولقد آتينا إبراهيم رشده...

وتالله لاكين اصنامكم

فرجعوا إلى انفسهم فقالوا

ولسليمان الريح عاصفة

5

٧٠-51

57

64

81

331

37

138

139

238

الفرقان - ٢٥

تبارك الذي نزل الفرقان على عبده...

وقال الذين كفروا ان هذا إلا افك...

وقالوا اساطير الاولين اكتبها...

وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام

لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة

كذلك لنتبث به فوادك

ورتلناه ترتيلا

1

٦-4

٦-5

7

32

32

32

351

٤٧٢-٣٠٤-303

474

475

443

٤٤٥ و442

441

الشعراء - ٢٦

قالوا انما انت من المسحرين

نزل به الروح الامين على قلبك

وانذر عشيرتك الاقربين

وتقلبك في الساجدين

153

193-195

214

219

472

336

128 و 392

195

(634)

النمل - ٢٧

ولقد آتينا داوود و سليمان علماً

15

238

القصص - ٢٨

وقال فرعون يا ايها الملأ ما علمت لكم من إله غيري

وما كنت بجانب طور

ولكن رحمة من ربك

وما كنت ترجوان يلقى اليك الكتاب

فلا تكونن ظهيراً للكافرين

38

46

46

86

86

121

308

42

297 و 308

301

الأحزاب - 33

ما كان محمداً أباً أحد من رجالكم

40

351

سبأ - ٣٤

وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل

لقد كان لسبأ في مسكنهم آية

وما أرسلناك إلا كافة للناس

٧ و٨

15

28

44

33

351

فاطر - ٣٥

والذين كفروا لهم نار جهنم

36

533

يس - ٣٦

فجعلنا من بين ايديهم... فهم لا يبصرون

9

588

ص - ٣٨

وعجبوا أن جاءهم منذر...

واذكر عبادنا إبراهيم...

وانهم عندنا لمن المصطفين الاخير

٦٥

٤٦-45

48

475

239

240

فصلت - ٤١

حم تنزيل من الرحمن الرحيم...

ان الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا

1 - 5

30

431

453

الفتح - ٤٨

ولله جنود السماوات والأرض

4

177

(635)

الطور - ٥٢

فذكر فما انت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون

29

472

النجم - ٥٣

والنجم إذا هوى...

وما ينطق عن الهوى * ان هو الا وحي

ان هو الا وحي يوحى

أفرأيتم اللات والعزى * ومناة الثالثة الأخرى

افتمارونه على ما يرى

٥-1

٤3

4

٢٠ و19

12:18

332

49

328

43 و٤٩٣

539

الصف - ٦١

وإذ قال عيسى بن مريم يا بني اسرائيل

وعجبوا أن جاءهم منذر

6

48

379

475

القلم - ٦٨

وانك لعلى خلق عظيم

واصبر وما صبرك إلا بالله و لا تحزن

4

48

259

477

الحاقة - ٦٩

ولا يقول كاهن...

42

472

المزمل - ٧٣

فاصبر لحكم ربك

10

477

المدثر - ٧٤

يا ايها المدثر قم فانذر

وثيابك فطهر، والرجز فاهجر

والرجز فاهجر

ذرني ومن خلقت وحيداً...

ذرني ومن خلقت وحيداً...

٣و1

٥-4

5

٣٠-11

٥١-11

379

297

301

430

469

(636)

النازعات - ٧٩

فالمديرات أمراً

انار بكم الاعلى

5

24

177

121

عيس - ٨٠

عبس و تولى ان جاءه الأعمى...

١١-1

481

التكوير - ٨١

وإذا المؤودة سنأت

انه نقول رسول كريم...

8

٢٨-20

58

332

البروج - ٨٥

قتل أصحاب الأخدود

٩-4

161

الضحى - ٩٣

والضحى والليل إذا سجي...

الم بجدك بتيماً فأوى...

ووجدك ضالاً فهدى...

١١-1

٧-6

8

380

297

298

الانشرأح - ٩٤

الم نشرح لك صدرك

ورفعنا لك ذكرك

٤-1

4

300

209

العلق - ٩٦

أقرأ بأسم ربك الذي خلق...

٥-1

322

القدر - ٩٧

انا انزلناه في ليلة القدر

٣-1

344

الفيل - ١٠٥

الم تر كيف فعل ربك باصحاب الفيل...

٥-1

165

الكوثر - ١٠٨

انا اعطيناك الكوثر

٤-1

509

(637)

الكافرون - ١٠٩

قل يا ايها الكافرون

1

476

المسد - ١١١

تبت يدا ابي لهب وتب...

(2)

فهرس الأحاديث الشريفة

نصّ الحديث

أمّنت قبل الناس بسبع سنين

أتعلمون أنّ الله فضّل في كتابه السابق...

اجتمعت على هذه الأمة مصيبتان...

أخذ الله على الوحي ميثاقهم...

أرأيتم إن أخبرتم أنّ العدو مصبحكم

أرسله على حين فترة من الرسل

أرسله بالضياء وقدمه في الاصطفاء

أرسلت إلى الناس كافة

استرضع لولدك بلبن الحسان

أسلمت قبل ان يسلم الناس بسبع سنين

اضاءت به البلاد بعد الضلالة المظلمة

أعطيت الشفاعة وهي نائلة من أمّتي من لا يشرك

أفضل نساء أمّتي اربع...

العيافة والطيرة والطرق من الجيت...

اللهم أنيس المستوحشين

اللهم لا أعرف عبداً من هذه الأمة عبدك...

اللهم اكفني شرّ سراقاة بما شئت

اللهم بارك لها في شاتها

إلى شهادة ان لا اله إلا الله

القائل

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الباقر - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

الصفحة

362

363

364

316

401

92

94

351

218

316

94

533

259

82

287

362

615

617

51

(640)

الأمر إلى الله يضعه حيث يشاء

أما والله لا ستغفرنّ لك ولا شفعن فيك شفاعاة

أمنكم أحدٌ أسلم مع رسول الله

أنا أول رجل أسلم مع رسول الله

أنا اول من اسلم مع النبي

أنا اول من صلّى مع رسول الله

انا رسول الله بعثني إلى العباد أعودهم إلى...

انا الصديق الاكبر آمنت قبل ان يؤمن ابوبكر

انتم على قومكم بما فيكم كفلاء ككفالة

الحواريين لعيسى بن مريم

أنشدكم الله أيها الرهط اتعلمون أن...

أنا عبدالله واخو رسول الله

أنا عبدالله واخو رسول الله وأنا الصديق الاكبر

انا يا رسول الله اكون وزيرك على ما بعثك الله

أنظروا من يرضع أولادكم

إن أولى الناس بامر هذه قديماً وحديثاً

ان كثيراً من التمانم شرك

إن الله بعث محمداً نذيراً للعالمين

إن الله تعالى ما بعث آدم عليه السلام ومن بعده

إن الرائد لا يكذب أهله

إن مثل أبي طالب مثل أصحاب الكهف

إن محمداً (ص) لما دعى إلى الايمان والتوحيد

إن الله لا يوصف بمكان ولا يجري عليه زمان

إن هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم

أو تسلمن بمبيتي هناك يا نبي الله

أولكم وارداً على الحوض أولكم اسلاماً

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي) صلى الله عليه وآله وسلم))

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الصادق - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(الكاظم - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

563

529

361

361

361

361

567

361

572

364

357

361

395

218

362

82

348

348

394

530

363

553

398

588

358

(642)

أي بني اني وان لم اكن عمرت عمر من...

أَيُّهَا الذَّاكِرُ عَلِيَا أَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ

أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ آيَاتَانِ

ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ بَعَثَ مُحَمَّدًا

حَجَّ رَسُولَ اللَّهِ (ص) عَشْرَ حِجَّاتٍ

زَوَّجْتِكَ خَيْرَ أُمَّتِي أَعْلَمَهُمْ عِلْمًا

صَبِرًا أَلَّ يَأْسِرَ فَإِنَّ مَوْعِدَكُمْ الْجَنَّةَ

صَلَّيْتُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ثَلَاثَ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ...

عَبَدْتُ اللَّهَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ

عَبَدْتُ اللَّهَ قَبْلَ أَنْ يُعْبَدَهُ أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ

فَأَنِي مُنْطَلِقٌ إِلَى ابْنِ عَمِّي رَسُولِ اللَّهِ

فَبَلِّغْ بِالرِّسَالَةِ صَادِعًا بِالنَّذَارَةِ

فَلَمَّا بَعَثَ اللَّهُ مُحَمَّدًا لِلنَّبِيَّةِ وَاخْتَارَهُ لِلرِّسَالَةِ

فِي أَصْلَابِ النَّبِيِّينَ نَبِيٍّ بَعْدَ نَبِيٍّ

قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَفْلَحُوا...

كُنَّا إِذَا أَحْمَرَ الْبَأْسَ اتَّقِينَا بِرَسُولِ

لَا تَبْكِي يَا بَنِيَّةَ فَإِنَّ اللَّهَ مَانِعُ ابْنِكَ

لَا تَسْتَرْضِعُوا الْحَمَقَاءَ

لَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتُ أَوَّلَ مَنْ صَدَّقَ بِهِ

لا والله ما ابدلني الله خيراً منها

للدابة على صاحبها ست خصال

لقد صلّت الملائكة عليّ، و على عليّ

لم أوامر بذلك (قالها النبي في جواب من خطب فاطمة)

لم يكن معي من الرجال غيره

لو كان مطعم بن عدي حياً لو هبت...

لو وضع ايمان ابي طالب في كفة ميزان...

(علي - عليه السلام -)

(الحسن - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(الصادق - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(الزهراء - عليها السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(الصادق - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(643)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الباقر - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(الباقر - عليه السلام -)

69

94

294

359

416

363

361

362

619

95

364

195

562

244

556

218

362

262

80

360

360

360

561

529

(644)

ما أعرّف أحداً من هذه الامة عبدالله بعد نبينا غيزي

ما من لبن يرضع به الصبي اعظم بركة من لبن أمه

ما من نبي إلا وقد رعى الغنم

مستقره خير مستقر

من يؤازرنى يكون أخى ووصيى وخليفتى

مهلا يا أماه فان معى من يحفظنى

موسعكم العقبة فى الليلة الوسطى

نم فى فراشى فانه لا يخلص اليك شىء

واشهد أن محمداً عبده ورسوله

واشهد أن محمداً عبده ورسوله ابتتعه والناس...

واشهد أن محمداً عبده ورسوله وسيد عباده

وشفاعتي لمن شهد ان لا اله الا الله مخلصاً

وكيف ينزل على وانتم لا تقصون اطافرکم

ولقد قرن الله به من لدن كان فطيماً ملكاً

ولقد علمتم موضعي من رسول الله

يا أماه لا ارى اخوى في النهار

يا حميراء ان الله تبارك وتعالى بارك في...

يا علي أخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي

يا علي ان قریشاً اجتمعت على المكربي...

يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيه أحد

يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر...

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبی - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(النبی - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبی - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبی - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبی - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(علي - عليه السلام -)

(علي - عليه السلام -)

(645)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

(النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

362

218

252

93

398

293

571

571

92

94

195

533

382

294

286

70

263

360

588

360

405

(3)

فهرس الأشعار

أحلامكم لسهام الجهل شافية

أبني لا تنس البليّة إنها

أبونا شفيع الناس حين سقوا به

إذا اختلجت عيني أقول لعلها

إذا اختلجت عيني تيقنت انني

إذا متّ فادفني بحرّاء مابها

إذا متّ فادفني إلى جنب كرمة

أربا واحداً أم ألف رب

اصبرن يا بنى فالصبر احجى

ألا ان خير الناس بعد محمّد

ألا حلاً في شقه مشقوقة

ألا ليت شعري كيف في الناس جعفر

ألا هل اتى بحرّيتنا صنع ربنا

ألم تعلموا أنا وجدنا محمّداً

أليس أول من صلى لقبيلتكم

أما الحرام فالممات دونه

انا اخو المصطفى لا شك في نسبي

انت الجليل ربنا لم تدينس

إن صح ما أبصرت في المنام

77

74

288

79

79

74

67

55،283

514

373

77

460

508

521

372

(647)

أَنَّ آيَاتِ رَبِّنَا بَيِّنَاتٌ

إِنَّ ابْنَ أَمْنَةَ النَّبِيِّ مُحَمَّدَ

إِنَّ عَلِيًّا لَمَيِّمُونَ نَقِيْبِيْتَهُ

إِنَّ الْفِرَاقَ وَالشَّبَابَ وَالْجِدَّةَ

إِنَّ الْفُضُولَ تَعَاقَدُوا وَتَحَالَفُوا

إِنَّ الَّذِينَ سَمَوْا بِاسْمِ مُحَمَّدَ

أَوْصِيْكَ يَا عَبْدَ مَنْفَعٍ بَعْدِي

إِنَّ يَكُنْ مَا أَتَى بِهِ أَحْمَدُ الْيَوْمَ

بِشِبْهِةِ الْحَمْدِ اسْقَى اللَّهُ بِلَدْتِنَا

بِنَاءَ مَكَارِمٍ وَأَسَاءَةَ جِرْحٍ

تَشَاجَرَتْ الْأَحْيَاءُ فِي فَصْلِ خِطَّةِ

تَظَلُّ مَقَالِيْتِ النَّسَاءِ يَطَّأَنُهُ

حَلَفْتُ لِنَعْقَدَنَّ حَلْفًا عَلَيْهِمْ

خاتمه لما رأته شيباً بمفرقه

خلوا سبيل المجاهد المجاهد

دعانا الوبير إلى بيعة

دعوت ابا المغوار في الحضر دعوة

رايت علياً لا يلبث قرنه

سبقتكم إلى الإسلام طراً

سفته اباة الشمس إلا لثائة

سلط الموت والمنون عليه

شادن يحلوا إذا ما ابتسمت

صحوت واوقدت للجهل ناراً

صلى الآله ومن يحيق بعرشه

طلع البدر علينا

فالزمتني دنباً وغيري جرّه

185

72،518

372

275

249

211

289

213

287

77

285

76

249

75

618

374

78

372

363

76

56

76

79

(648)

فاني اذا كالثور يضرب جنبه

فان بك حقا يا خديجة فاعلمي

فحوطوا عليا فانصروه فانه

فشق له من اسمه ليجله

فصلي الاله على احمد

ففي كف احمد قد سبحت

فقتل للمضلل من وائل

فلا تحسبونا خاذلين محمداً

فلا تجعلوها كالبقير وفحلها

فليت لي بهمو قوماً اذا ركبوا

فلو ان عندي جارتين وراقياً

فهذا نبي الله أحمد سبحت

فيارب ان اهلك ولم ترو هامتي

فيالبيت ان الجن جازوا حمالتي

قالوا وقد طال عنائي والسقم

قد استعدنا بعظيم الوادي

قلبت ثيابي والطنون تجول بي

قل للقوافل والغزاة إذا غزوا

قف عند رأيك واجتهد

كذلك الثور يضرب بالهراوى

كذبتم وبيت الله بنزى محمداً

كمن يكوي الصحيح بروم براء

لاتحسين رثائماً عقنتها

لعمري ان عشرت من خيفة الردى

لعمري لقد كلفت جداً بأحمد

لعمري لئن بايعتم ذا حفيظة

72

215

373

211

374

214

374

514

73

66

76

214

56

78

78

79

75

74

519

72

517

73

75

75

(649)

لكل ابي بنت يراعى شؤونها

ليت الغراب غداة ينعب دائباً

ليعلم خيار الناس ان محمداً

ما كنت احسب ان الأمر منصرف

مع ابن عم احمد المعلى

مفجعة قد شفها فقد أحمد

من فيه ما فيهم ما تمترون به

نبياً يرى ما لا يرون وذكره

نجسته لا ينفع التجيس

هذا علي وابن عم المصطفى

هذا علي والهدى حقاً معه

وابيض يستسقى الغمام بوجهه

وان علياً لكم مصحر

وساحرة عيني لو أن عينها

وان ولي الأمر من بعد محمداً

وقيت بنفسي خير من وطأ الحصى

والله لو كنت الها لم تكن

ولا ينفع التعشير ان حَمّ واقع

ولولا أبوطالب وابنه

وكلفتني ذنب امرىء وتركته

وكم شققنا من رداء محبّر

وكم ناديتنه والليل ساج

وصي رسول الله من دون أهله

يا آل فهر لمظلوم بضاعته

يا راكبا بلغن عني مغلطة

يا رب يا رب انت مولاه

63

80

521

372

269

214

373

484

76

371

373

290:516

373

80

371

599

74

533

73

77

78

372

249

455

269

(650)

يا رب لا أرجو لهم سواك

يا رب ردّ راكبي محمّداً

يا عجباً لهذه الفليقة

يا كحل قد اتقلت اذنان البقر

278

299

78

72

(651)

(4)

فهرس الأعلام

(أ)

آبولو ٥٥١.

أزر ١٢٢، ١٢٤، ١٣٠، ١٣١، ١٣٢، ١٣٣، ١٤٠.

إبراهيم (الخليل) ٢٩، ٣٧، ٤٨، ٥١، ٥٤، ٥٩، ٨٩، ١١٩، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٢٤، ١٢٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣١،

١٣٢، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٠، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٦٢، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٤٠،

٢٧١، ٢٧٨، ٢٨٢، ٢٩٢، ٣٥٠، ٤٩٨.

إبراهيم (بن رسول الله) ٩٦.

ابراهيم بن علي الدينوري ٥٢٨.

أبرهة ١٥٩، ١٦١، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٥، ١٦٩، ١٧٠، ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٨٦، ٥٥٢، ٥٩٣، ٦٠٥.

ابن أبي شيبة ٣٦١، ٣٧٧.

ابن أبي الحديد ٢١٤، ٢٦٧، ٢٦٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٥، ٣٦٨، ٥٢٣.

ابن اسحاق (صاحب السيرة) ٣٥٦، ٣٧١، ٣٧٨.

ابن الاثير ١٧٠، ٢٩٥، ٣٥٧، ٣٦٤، ٤١٣، ٤٥٥، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٢، ٦٠٤، ٦١٢، ٦١٥، ٦١٩.

ابن أم مكتوم ٤٨١.

ابن تيمية ٣٩٥، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٦٠٠، ٦٠٢.

(652)

ابن حجر ٣٥٧.

ابن حذيفة الاسدي ٣٧٣.

ابن حنظلة ٥٢٢.

ابن خلدون ١٦، ٦٤.

ابن ربيعة ٥٥٧، ٥٥٨.

ابن الزبير ٢٥٠.

ابن سعد (صاحب الطبقات) ٣٥٨، ٥٦١.

ابن شهر اشوب

ابن الصباغ المالكي ٦١٨.

ابن طائوس ٢٥٨.

ابن طلحة (الشافعي) ٣٦٣.

ابن عباس ٦٠، ١٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٥، ٣٦٨، ٦١٢.

ابن عبدالبر ٣٧٨.

ابن كثير الشامي ٤١٠، ٥١٦.

ابن ماجه (صاحب السنن) ٣٦١.

ابن مزاحم (مؤلف وقعة صفين) ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٦.

ابن المغازلي ٣٦٠.

ابن المغيرة المخزومي ٢٨٤.

ابن هشام (المؤرخ) ٢١٤، ٢٤٤، ٢٥٠، ٢٦٨، ٢٧٢، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٩٦، ٣٤١، ٣٧٧، ٤١٦، ٤٢٣، ٤٢٤، ٤٢٧، ٤٥٥،

٤٦٨، ٥٠٨، ٥٢١، ٥٤١، ٥٦٣، ٥٧٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠٤، ٦٢٤.

ابن الوليد ٤٣١.

أبي بن خلف

أحمد الاحساني ٥٤٧.

أحمد (اسم النبي) ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤.

أحمد بن حنبل ٥٣١، ٥٣٢.

أحمد بن معين بن خراش ٥٣١.

أحمد بن عبدالحليم الحراني ٥٩٦.

الاحنس بن شريق ٤٣٩، ٤٨٣.

أردشير بابك ١١٢.

أرقم بن أبي الارقم ٣٨٨، ٤١٦.

أريقط ٦٠٣.

اساف (صنم) ٩٠.

اسبوتنيك ٥٥١.

اسحاق المدني ٣٧١.

أسعد بن زرارة ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٦٩، ٥٧١، ٥٧٨، ٦٢٣.

إسفنديار ٤٧٣.

إسماعيل (النجي) ٣٠، ٣٦، ٣٧، ٤٨، ٥٢، ٨٩، ١١٩، ١٣١، ١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٨،

١٨٨، ١٩٢، ٢٠٥، ٣٥٠.

الاسكندر ٦١٣.

الأسود بن المطلب ٤٨٨.

الأسود بن يغوث ٤٢٣.

اسيد بن حضير ٥٩٧.

إلياس (جد النبي) ١٤٦.

أمية بن أبي الصلت ٤٣٩.

أمية بن خلف ٣٩٠، ٤١٥، ٤٨٨.

أمية بن عبد شمس ١٥٠.

أنس بن رافع ٥٦٧.

أنس بن مالك ٢٦١، ٢٦٩، ٣٦٤، ٦١١.

أنوشيروان ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ٢٠٢.

أياس بن معاذ ٥٦٧.

(654)

(ب)

بحيرى (الراهب) ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٧٥.

بدر بن معشر ٢٤٦.

البراء بن معرور ٥٧١.

البراق ٥٣٥.

البراض بن قيس الكناني ٢٤٧.

بركة ٢٩١.

بريد الاسلامي ٣٦٥.

بلال الحبشي ٤١٥.

(ت)

تبان اسعد ١٦٠.

توماس كارليل ٨٥.

تيفاريومس (الامبراطور) ١١٦.

ج(

جابر بن عبدالله الانصاري ٢٦٠، ٣٦٢، ٣٦٤.

جاجارين (رائد فضائي) ٥٥١.

جبر (الغلام المسيحي).

جبرئيل ٢٦١، ٢٦٧، ٢٨٦، ٢٩٤، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٧، ٣٨٢، ٣٨٦، ٣٨٣، ٤٦٤، ٥٠٧، ٥٣٥، ٥٣٩، ٥٨٥، ٥٨٧، ٦٠٠،

٦٠١.

جعفر بن أبي طالب ٩٦، ٢١٤، ٢٥٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٠٠، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦٩، ٤٩٣.

جعفر بن محمّد (الامام) ١٧٩، ١٩٥، ٢٦٣، ٢٧٥، ٢٩٤، ٥٢٩.

جلال الدين الطوسي ٢٩٢.

جندب بن زهير ٣٧٣.

جنيد بن عبدالرحمان ٣٧٦.

جواد علي (مؤلف) ٩١.

(655)

جونس (دكتورمارسدن) ٦١١.

ج(

الحارث بن عبدالمطلب ١٥٥.

الحارث بن كلدة ١٨، ١٥٦، ٥٠٤.

الحارث بن نوفل ٤٤١.

حبيب بن أوييس ٥٧.

الحجاج ٣٧٥.

حجر بن معاذ الغفراني ٦٢٢.

حذيفة الغدر ٦٥

حذيفة بن اليمان ٢٦٣.

حرب بن أمية ١٥١، ١٥٤، ٢١١، ٢١٤، ٣٦١، ٣٧٣.

الحسن بن علي (الإمام) عليه السّلام ٢٥٠، ٢٦٩، ٣٥٧، ٣٦٤، ٣٧٦.

الحسين بن علي (الإمام) عليه السّلام ٢٥٠، ٢٦٩، ٦١١، ٣٧٧.

حضير ٥٧٤.

حكيم بن حزام ٢٧٩، ٢٨٠، ٥٠٣، ٥٠٤.

حكيم مولى زاذان ٣٦١.

حمزة (عم النبي) ٢١٥، ١٩٠، ٢٧٣، ٢٨٦، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤٢٥.

حناطة ١٦٢.

حمزة الاصفهاني ٨٨، ١٠٣.

حيدة بن معاوية العامري ٢٩٩.

(خ)

خالد بن الوليد ٦١٠.

خالد (حكيم العرب) ٤٨٠.

خالد بن زيد ٦٢٢.

(ر)

ربيع بن الحرث ٣٧٢، ٥٥٧.

ربيعة ١٤٧، ٣٧٦، ٥٥٨، ٥٥٩، ٦١٨.

رستم ٤٧١، ٤٧٤.

رينان (مسيو) ٨٥.

(ز)

الزبير بين عبدالمطلب ٢٤٩.

زرارة بن اعين ٣٤٢.

زفر بن يزيد ٣٧٣.

زكريا (النبي) ١٧٤، ٢٢٣، ٢٩٥.

زمعة بن الاسود ٥٠٠.

(657)

زياد بن ابيه ٥٩٥.

زيد بن ارقم ٣٥٦، ٣٦٥.

زيد بن حارثة ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٨٧، ٥٢٢.

زيد بن عمرو بن نفيل ٢٢٤، ٢٨٢.

زيني دحلان (المؤرخ) ٢٨٩، ٥٢٤.

الزهرة (كوكب) ١٢٥.

زهير بن أبي اميه ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٠٦.

(س)

سالم بن أبي جعد ٣٧٠.

سالمين (محمّد علي) ٦٠.

سراقة بن مالك بن جعشم ٦١٥.

سعد (صنم) ٩٠.

سعد بن أبي وقاص ٨١، ٣٨٧، ٣٨٨، ٥٠٣.

سعد بن عبادة ٥٧٦، ٥٧٧، ٦٢٣.

سعد بن معاذ ٥٧٨.

سعيد بن زيد ٤٢٤، ٣٨٨، ٤٢٦، ٤٢٥.

سعيد بن قيس الهمداني ٣٧١.

سفيان بن سعيد الثوري ٥٣١، ٥٣٠.

سلامة (بولس) ٥١١.

سلمان الفارسي ٣٦٧، ٦٠٩.

سلمة بن كهيل ٣٦١.

سليمان ٢٣٧، ٢٣٨.

سمرة بن جندب ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦.

سويد بن صامت ٥٦٦.

سهل وسهيل ٦٢٢.

سهيل (كوكب) ٥٢.

(658)

سيد قطب ١٨٢، ١٨٤.

(ش)

شنفرة ٦٥.

شهر بزاز (أخ سلمان) ١١١.

شيبه بن ربيعة ١٥٢، ٣٧٦، ٥٥٧، ٥٥٨.

شيث (النبي) ٣٧١.

شيرويه ١١١، ١١٨.

(ص)

الصدى (طائر خرافي) ٥٦.

صدر الدين الشيرازي (الفيلسوف) ١٧٦.

صعصعة بن ناجية ٤٦.

الصلت بن أبي يهاب ٢٦٥.

(ط)

طارق بن شهاب الاحمس ٣٧٠.

طالب ٥١.

الطاهر (بن النبي) ٢٧٨.

الطفيل بن عمرو الدوسي ٥٤٢.

الطيب (بن النبي) ٢٧٨.

(٤٤)

العاص بن وائل السهمي ٢٤٩، ٣٧٦، ٤١١، ٤١٢، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٣٢، ٤٣٣، ٤٤٨، ٤٥٤، ٥٠٧.

عامر بن فهيرة ٦٠٢.

عبادة بن الصامت ٥٦٩.

عباس بن عبدالمطلب (عم النبي) ٢٦٢، ٢٨٥، ٢٨٦، ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٠، ٤٢١، ٤٢٠، ٤٧١.

عبدالحليم (الشيخ محمود) ٦١٤.

عبدالدار ١٤٧، ١٤٨.

(659)

عبدالرحمان بن حنبل الجمحي ٣٧٤.

عبدالرحمان بن عثمان ٢٥٠.

عبدالرحمان بن عوف ٣٨٧.

عبدالرحمان بن محمّد الحضرمي المالكي (القاضي) = ابن خلدون.

عبدالرحمان بن ملجم ٥٩٥.

عبدالرزاق ٣٥٧.

عبد شمس ١٤٨، ١٥٠، ١٤٩، ٤٦٨.

عبدالله (بن النبي) ٢٧٨.

عبدالله (والد النبي) ١٤٦، ١٤٧، ١٥٧، ١٥٨، ١٨٩، ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤، ١٩٦، ١٩٧، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٥٨، ٢٦٠، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٩١، ٣٥٧، ٢٩٢، ٣٨٨، ٥٧٤.

عبدالله بن أبي بكر ٦٠٢.

عبدالله بن أبي بن سلول ٦٢٣.

عبدالله بن أبي خزرج ٥٦٨.

عبدالله بن أبي سفيان ٣٧١.

عبدالله بن أبي شيبه ٣٦١.

عبدالله بن أبي رافع ٤٧٠.

عبدالله بن انيس ٦١١.

عبدالله البجلي ٣٧٤.

عبدالله بن برير ٣٧١.

عبدالله بن الحارث ٥٥٤.

عبدالله بن حجر ٣٧٠.

عبدالله (بن حلیمه) ٢١٥.

عبدالله بن جحش ٢٨٢.

عبدالله بن جدعان ٢٤٩، ٤٥٩.

عبدالله بن خبابه ٣٧٠، ٣٧١.

عبدالله بن ربيعة ٤٥٦، ٤٥٩.

عبدالله بن الزبير ٢٥٠.

عبدالله بن عمرو بن مخزوم ١٨٦.

عبدالله بن مسعود ٣٦٩، ٤١٧، ٤١٨.

عبدالله بن مطعون ٣٨٨.

عبدالكريم الخطيب ٦٠٠.

عبدالمك بن عمير ٥٣٠، ٥٣١.

عبدالمطلب (جد النبي) ٥١، ١١٩، ١٤٦، ١٥٢، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٩، ١٩٠،

١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٧، ٢١١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٤٩، ٢٥٧، ٢٨٦، ٢٨٧،

٢٩٢، ٢٨٩، ٢٩٩، ٣٥٣، ٣٧٢، ٤٠٤، ٤٠٩، ٤٢٠، ٤٢٥، ٥٠٤، ٥١٣، ٥٥٥، ٥٦٣، ٥٧١.

عبد مناف ١٤٧، ١٤٦، ١٤٩، ١٤٨، ١٥٢، ٢٨٩، ١٩٠، ٤٤١، ٥١٣.

عبدالعزیز بن محمد الدراوردي ٥٣٠، ٥٣١.

عبيدة بن الحارث ٣٨٨.

عبد الوهاب النجار ١٩٠، ١٩٤.

عتبة بن ربيعة ٥٠، ٤٣٠، ٤٣٢، ٥٥٧، ٥٥٨.

عتيق بن عائذ ٢٤٧.

عثمان بن حويرث ٢٨٢.

عثمان بن عفان ٢٥٢، ٣٨٢، ٣٨٨.

عثمان بن مطعون ٣٨٨، ٤٦٢.

عداس ٥٥٨، ٥٥٩،

عدنان ١٤٦.

عدي بن حاتم ٣٧٠.

عروة الرجال ٢٤٧.

العزى (صنم) ٥٤، ٥٥، ٢٧٩، ٩٠، ٢٩٣، ٤١٥، ٤٨٨، ٤٩٣.

(661)

عطارد ٥٢.

عفيف الكندي ٢٥٩، ٣٥٧.

عقبة بن أبي معيط ٢٥٨، ٢٦٥، ٤١٣، ٤٢٣، ٤٦٢، ٥٠٤، ٥٢٢.

عكرمة ١٧٠، ٢٦٢.

علي بن ابي طالب ٩١، ١٤٩، ١٩٥، ٢٠٥، ٢١٧، ٢١٨، ٢٤٣، ٢٤٤، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٩٤،
٣١٦، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٤، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٧،
٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٧، ٣٩٤، ٣٩٥، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٢٥، ٤٨٠، ٥٠٦، ٥١٣، ٥١٤، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٦، ٥٢٩، ٥٣٥،
٥٤٢، ٥٨٣، ٥٨٧، ٥٨٨، ٥٩٠، ٥٩٣، ٥٩٤، ٥٩٥، ٥٩٦، ٥٩٧، ٥٩٨، ٥٩٩، ٦٠٠، ٦٠١، ٦٠٢، ٦٠٣، ٦٠٩، ٦١١، ٦١٣، ٦١٠،
٦١٨، ٦١٩.

علي بن الحسين السجاد (الإمام) ٥٥.

علي بن موسى الرضا (الإمام) ٣٠٠.

علي بن إبراهيم (المفسر) ٥٨٨.

عمادالدين ابن كثير ٢٤٨.

عمار بن ياسر

عمارة بن الوليد بن المغيرة ٤٠٦.

عمر بن الخطاب ٣٦٠، ٣٦٨، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢٤، ٤٢٦.

عمر رضا كحالة ٤٢٧.

عمرو بن اسد ٢٧٣.

عمرو بن الجموح ٦٢٠، ٦٢١.

عمرو بن الحمق ٣٧١.

عمرو بن عاص ٤٢٣، ٤٥٦، ٤٥٩.

عمرو بن لحي ٥٣، ٩٠.

عمرو الخزرجي ١٥١.

عمرو العلاء ١٤٨.

(662)

عميانس (صنم) ٩٠، ١٦١.

عياض (القاضي) ٦١٠.

عيسى بن مريم ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٩٥، ٣٤٢، ٣٥٨، ٤٥٩، ٤٩٨، ٥٢١، ٥٧١، ٦٠٥.

غ(

غالب ١٤٦.

الغرانيق ٤٧٨، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٤.

غسان ٤٠، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠.

غوستاف لويون ٤١ .

(ف)

فضل بن أبي لهب ٣٧٣ .

فضل بن الحارث ٢٤٨ .

فضل بن فضالة ٢٤٨ .

فضل بن وداعة ٢٤٨ .

فضيل بن جندب ١٦٢ .

فلاماريون ١٠٠ .

فريد وجدي (محمد) ٥٤٤ .

فهر (جد النبي) ١٤٦ .

(ق)

القاسم (بن رسول الله) ٢٦٣ ، ٢٧٨ .

القاصعة (الخطبة) ٣٥٦ .

قدامة بن مطعون ٣٨٨ .

القراريط ٢٥٢ .

قصي بن كلاب (جد النبي) ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٥٥ .

القمر ٥٤٦ ، ٥٥١ .

قيس بن زهير ٦٥ .

(663)

قيس بن عاصم ٥٩.

قيصر ١٦١، ٣٥٧، ٤٢٣.

قتاد بن دعامة ٣٧٥.

(ك)

كعب (جد النبي) ١٤٦.

كعب بن زهير ٣٧٢.

كعب الاحبار ٤٧٧.

كعب بن مالك ٢١٤.

كلاب بن مرة (جد النبي) ١٤٦.

كنانة (جد النبي) ١٤٦.

كلثوم بن هرم ٦١٧.

(ل)

اللات (صنم) ٥٤، ٥٥، ٩٠، ٢٧٩، ٢٩٣، ٤١٥، ٤٨٨، ٤٩٣.

لوي ١٤٦.

لبيد (الشاعر) ٤٦١، ٤٦٢.

لقمان ٥٦٦.

اللوح المحفوظ ٣٤٥.

(م)

مارسدن جونسن ٦١١.

مالك (جد النبي) ١٤٦.

مالك بن الحارث الاشتهر ٣٦٩.

مالك بن عباد ٣٧٣.

المأمون ٣٧٨.

ماني ١١٣.

ماه بنداذ (اخو سلمان) ٦٠٩.

مجاهد (المفسر) ٢٠٧.

(664)

محمد بن أبي بكر ٣٧١.

محمد بن أحمد الذهبي ٥٣١.

محمد بن اسحاق (المؤرخ) ٢٦٦، ٥٥٦.

محمد بن جرير الطبري ٣٩٦.

محمد بن حنيفة ٣٧٠.

محمد بن سلمة ٦١١.

محمد بن مسلم ٣٧٥.

محمد حسين هيكل ١٨٢، ٢٧٨، ٢٨٠، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٩٧.

محمد حميد الله (مؤلف) ٦٠٩.

محمَّد عبدة ١٦٨، ١٨٢، ١٨٣، ٣٠٠.

محمَّد عزت نصر الله، ٢١٤.

محمَّد المكندر المدني ٣٧١.

محمود الألوسي ٧١.

محمود بن عبدالحليم ٦١٤.

مخرمة بن نوفل الزهري ٢٥٠.

مدركة (جدّ النبي) ١٤٦.

مرّة (جدّ النبي) ١٤٦.

المريخ (كوكب) ٥٤٦، ٥٥١.

مزدك ١١٣، ١١٤.

المسورة بن مخرمة

المسيح ٥٤، ١١٧، ١٦٧، ١٨١، ١٩٥، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٥٩، ٢٧١، ٢٩٦، ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٣٦، ٦١٢.

المشتري (كوكب) ٥٢.

مصعب بن عمير ٥٧٠، ٥٧٨، ٥٧٩.

مضاض بن عمرو الجرهمي ١٥٥.

مضر بن نزار (جدّ النبي) ١٤٦.

المطلب ١٤٨، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣.

معاذ بن جبل ٧١، ٢٦٠، ٣٦٠.

معاذ بن عمرو ٦٢٠.

معاوية ٢٦٩، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٧٠، ٣٧١، ٥٦٦، ٥٩٤.

معد (جد النبي) ١٤٦.

المغيرة (جد النبي) ١٤٧.

المقداد بن عمرو ٣٦٨.

المقداد السيوري ١٩٦.

الملاعلي القاري ٦١٠.

مناة (صنم) ٥٤، ٩٠، ٤٨٨، ٤٩٣.

مناف (صنم) ٥٤، ٩١.

منذر بن عمر ٥٧٧.

منصور بن عكرمة ٥٠١.

ميسرة (غلام خديجة) ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٧٠.

ميكائيل ٦٠٠.

موسى بن جعفر (الإمام) ٢٦٢، ٥٥٣.

موسى (النبي) ١٢١، ١٢٢، ١٥٨، ١٦٧، ١٨١، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٣٩، ٢٦٢، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٦٩، ٤٧٥، ٤٩٧.

٥٢١، ٥٢٥، ٥٧٣، ٦٠٥.

نائلة (صنم) ٩٠.

ناصرح (غلام خديجة) ٢٥٦.

نزار (جد النبي) ١٤٦.

نصير الدين الطوسي ١٩٦.

النضر (جد النبي) ١٤٦.

(666)

النضر بن الحارث ٤٣٢، ٤٦٣، ٤٧٣، ٤٧٤.

النعمان بن المنذر ٥٩، ٨٨.

نعيم بن عبدالله ٤٢٥.

نفيل بن حبيب الخثعمي ١٦٢.

النمرود بن كنعان ١٢١، ١٢٢، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٠.

نوح النبي ١٤٥، ٢٥١، ٤٩٨.

نوفل بن عبد مناف ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠.

(هـ)

هارون (النبي) ٣٤١، ٣٦٩.

هاشم بن عبد مناف (جد النبي) ١٤٦، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٥٢، ٢٩٠، ٣٦٩، ٣٧٢.

هاشم بن عتبة ٣٦٩.

هامة ٨٢.

هيل (صنم) ٩٠، ٥٤.

هبيرة بن وهب المخزومي ٢٨٥.

هرودتس ١٢٠، ٤٠، ٤١.

هرقل ١١٨.

هشام بن عمرو ٥٠٤.

هند بن أبي هالة ٥٩٩، ٦٠٢.

و(

ورقة بن نوفل ١٨٩، ١٩٢، ٢١٤، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٢، ٢٣٨، ٣٤٠، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٩٠، ٣٩١، ٤١٥.

الوليد بن عتبة ٢٥٠، ٣٧٣، ٤٨١، ٤٨٩.

الوليد بن المغيرة ٢٨٣، ٤٢٣، ٤٢٨، ٤٣٩، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٨٠، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٢، ٥٠٣.

وهب بن عبد مناف ١٩٠.

(667)

ويليام موبير (السير) ٤٩٣.

ي(

ياسر ٤١٦، ٤١٧.

يحيى بن زكريا (النبي) ٢٥٩، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٧٧.

يزدجرد ٦٢٢، ٦٢٤.

يعرب بن قحطان ٣٦.

يعقوب (النبى) ٢٣٨، ٢٥٦.

يوسف ٢٣٩.

يونس بن عبدالرحمان ٥٥٣.

يونس بن متى (النبى) ٥٥٨، ٥٥٩.

النساء:

آسية بنت مزاحم ٢٦٢، ٢٦٣.

أمنة بنت وهب ١٩٠، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٣١، ٢٩١، ٤٥٤، ٥١٨.

أسماء بنت عميس ٢٦٠.

أنيسة (بنت حليلة السعدية) ٢١٥.

بلقيس ٣٣.

ثويبة ٢١٥.

حليلة السعدية ٧٠، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧، ٢٧٧، ٢٩٣.

خديجة بنت خويلد ١٩١، ٢١٥، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧،

٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٨، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٩٣، ٣٢٢، ٣٣٨، ٣٣٩، ٣٥٠، ٣٥٣،

٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٧، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٨٠، ٣٨١، ٣٨٣، ٣٨٤، ٣٨٧، ٥٠٣، ٥٠٧، ٥٥٥، ٥٥٦، ٥٩٩، ٦٠١.

خولة ٣٨٢.

دلالة ١٩٠.

رقية (بنت رسول الله) ٢٦٣، ٢٧٨.

زينب (بنت رسول الله) ٢٦٣، ٢٧٨.

سارة (زوجة الخليل (ع)) ١٠٨، ١٤١، ١٤٥، ٢٣٩، ٢٤٠.

سلمى (زوجة هاشم) ١٥١، ١٥٢، ٢٦٣.

سمية (زوجة ياسر) ٤١٦، ٤١٧.

الشيما (بنت حليلة السعدية) ٢١٥، ٢١٦.

عائشة بنت أبي بكر ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٥٣.

عاتكة (بنت عبدالمطلب) ٢١٥.

فاطمة بنت الخطاب ٤٢٤، ٤٢٥، ٤٢٦.

فاطمة الخثعمية ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، ١٩٤.

فاطمة الزهراء (ع) (بنت رسول الله (ص)) ٩٥، ٢٦٥، ٢٦٩، ٢٧٨، ٣٥٩، ٣٦٠، ٦٠٢، ٦١٨.

فاطمة (أم قصي بن كلاب) ١٤٧.

فاطمة بنت أسد (أم علي بن أبي طالب) ٥٢٩، ٦٠٢.

فاطمة بنت الزبير ٦٠٢، ٦١٨.

الفواطم ٦٠٢.

مريم بنت عمران (أم السيد المسيح (ع)) ٥٤، ١٠١، ٢٠١، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٩٥، ٤٥٨، ٤٥٩، ٥٢١، ٥٢٥، ٥٧١.

هاجر (زوجة الخليل (ع)) ٣٧، ١٤١، ١٤٢.

هندة ١٤٣، ١٤٤.

مارية القبطية ٢٧٨.

معاذة بنت عبدالله العدوية ٣٦٣.

نفيسة بنت عليّة ٢٧٢.

(669)

(5)

(فهرس القبائل والأمم)

آل الرسول ٥٧.

آل سعود ٥١٢.

آل ياسر ٤١٦.

اسلم (قبيلة) ٢٨٣.

أصحاب الاخدود ١٦١.

أصحاب الكهف ٢٨٢.

الانصار ٦١٩.

الأوس والخزرج ٣٠، ٥٠، ٩٠، ٩١، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٧١، ٥٧٤، ٥٧٥، ٥٧٦، ٦٢٠، ٦٢٢، ٦٢٣.

بنو اسرائيل ٢٩٥، ٤٩٨، ٥٧٣.

بنو إسماعيل ٥٧٣.

بنو اقم ١٦٢.

بنو امية ٥٤، ١٤٩، ٤٨١.

بنو بكر ٤٢١.

بنو تميم ٥٢، ٥٩.

بنو جمح ٣٧٤، ٤١٥.

بنو سالم بن عوف ٦٢٤.

بنو سعد ٢١٦، ٢١٧، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٧.

(670)

بنو سلامان ٦٥، ٨٨.

بنو سلمة ٦٢٠، ٦٢١.

بنو عامر ٢٤٦، ٥٦٣، ٥٦٤.

بنو عبدالاشهل ٥٦٧، ٥٦٨، ٥٦٩.

بنو عبدالدار ٢٨٤.

بنو عبد مناف ٥٠٥، ٥١٣.

بنو عبس ٦٥.

بنو عدي ٢٨٤، ٢٩١، ٤١١.

بنو عمرو بن عوف ٦١٧، ٦٢٢.

بنو قريظة ٥٦٥.

بنو قينقاع ٥١، ٥٦٥.

بنو كنانة ٩٠، ١٤٦، ٢٤٥.

بنو مخزوم ٤٠٩.

بنوالمطلب ٥٠١، ٥٢٢، ٥٦٣، ٥٨٥.

بنو مليح ٥٢.

بنوالنضير ٥٦٥.

بنو هاشم ٣٧، ٥١، ١٥٣، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٥٥، ٢٧٣، ٢٩٠، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٩٤، ٤٠٨، ٤١٢، ٤١٣، ٤٤٠، ٤٥٠، ٥٠١،

٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٨، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٣٧، ٥٨٤، ٥٨٥، ٥٩٠، ٦٠١، ٦٠٢.

تباعة ٣٢.

ثقيف (قبيلة) ٥٥٧.

ثمود (قوم) ٣٦، ٢٣٣.

جرهم (قبيلة) ٣٧، ١٥٤، ١٥٥.

حمير (قبيلة) ٥٢.

خزاعة ٩٠، ١٥٤، ١٥٥، ٥٦٠، ٥٨٤.

دوس (قبيلة) ١٦١.

(671)

الروم ٤٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٥، ١٠٦، ١١٦، ١١٧، ١١٨، ١٦٠.

الساسانيون ٨٨، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠، ١١١، ١١٢، ١١٥.

سعد بن بكر (قبيلة) ٢١٥.

عاد (قوم) ٣٦، ٢٣٣.

العذنانيون ١١٣، ١١٤، ١١٥.

العرب البائدة ٣٦، ٣٧، ٣٨.

العمالقة ٣٠.

الغساسنة ٤٠، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠، ١٨٧.

القحطانيون ٣٦، ٥٦٥.

قريش ٣٧، ٤٣، ٤٥، ٩١، ٩٦، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٣، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠، ١٨٦،
١٨٩، ١٩٠، ٢٠٧، ٢١١، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٦،
٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٦٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٢، ٢٧٣، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤،
٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٧، ٢٩٠، ٢٩٥، ٣٠٢، ٣١٩، ٣٢١، ٣٥٤، ٣٥٥، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧٠، ٣٨٨، ٣٩١، ٣٩٠، ٤٠٢، ٤٠٣، ٤٠٤،
٤٠٥، ٤٠٦، ٤٠٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١١، ٤١٢، ٤١٣، ٤١٧، ٤١٨، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٩، ٤٣٠،
٤٣٢، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٤٧، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧،
٤٦٩، ٤٧٠، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨٠، ٤٨٣، ٤٨٤، ٤٨٥، ٤٨٨، ٤٩٠، ٤٩٢، ٤٩٣، ٥٠٠، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤،
٥٠٥، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٨، ٥١١، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٦، ٥٣٩، ٥٤١، ٥٤٢، ٥٤٣، ٥٤٤،
٥٥٥، ٥٥٦، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٣، ٥٦٧، ٥٧٥، ٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٤، ٥٨٥.

(672)

587، 588، 589، 591، 592، 601، 604، 615، 616.

كنانة (قبيلة) ٢٤٥، ٢٤٦.

منحج (قبيلة) ٢٤٣.

المناذرة ٦١٧.

اللمخيون ٨٨، ٨٩.

(673)

(6)

الكنى و الألقاب

«الكنى»

الرجال

أبو أحيدة ٥٤.

أبو الاسود الدؤلي ٣٧٣.

أبو امامة (ابن النقاش) ٢٦٧.

أبو أمية (ابن مغيرة المخزومي) ٢٨٤.

أبو أيوب (الانصاري) ٣٦٠، ٣٦٩، ٦٢٢.

أبو اليخترى ٤٣٢، ٥٠٤، ٥٨٤.

أبو بصير = اعشى بن قيس ٤٨٥، ٥٠٥.

أبو بكر (ابن أبي قحافة) ٣٥٤، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٧٠، ٣٧١، ٣٧٣، ٣٧٨، ٣٨٨، ٤١٠، ٤١١، ٤١٨، ٤٢٥، ٤٨٣، ٥٩٠،

٥٩٢ . 602

ابو تراب (علي بن أبي طالب) ٣٧٦، ٣٧٧.

أبو تمام (الشاعر) ٥٧.

أبو جعفر الاسكافي ٣٩٧.

أبو جهل ٢٥٨، ٢٦٥، ٢٦٧، ٣٠٢، ٣٥٨، ٤٠٩، ٤١٠، ٤١٢، ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٢، ٤٢٣، ٤٢٩، ٤٣٠، ٤٣٢، ٤٣٩، ٤٦٢،

٤٦٣، ٤٨٣، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٢٢، ٥٨٤، ٥٨٥.

أبو حاتم ٥٣١، ٥٣٢.

أبو حازم ٣٧٥.

أبو الحسن البكري ٢٧٠.

أبو عثمان ٣٧٦.

أبو عمر (بشير بن محض) ٣٧٠.

أبو عمرو (مؤلف) ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٦٨.

(675)

أبو عمرو (عامر الشعبي الكوفي) ٣٧٤.

أبو عمرو (ابن قتيبة) ٣٦١.

أبو فرج الاصفهاني ٢٨٥.

أبو مرازم ٣٦٩.

أبولهب ٥٤، ٢١٥، ٢٧٢، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤١٣، ٤٢٢، ٥٠٢، ٥٦٣، ٥٩٠، ٥٩١.

أبو مسعود (عمرو بن عمير الثقفي) ٤٣٩.

أبو مكرز ٥٩٢.

أبو نضر (محمّد بن السائب الكلبّي) ٣٧٦.

أبو نعيم (مؤلف) ٢٩١.

أبو هالة التميمي ٢٧٤.

أبو هريرة ٢٦٠، ٥٣٣.

أبو هفان العبدي ٥١٦.

أبو الهيثم بن النّيهان ٥٧١، ٥٧٢.

أبو الوليد = عتبة بن ربيعة ٤٣١.

أبو اليقظان = عمران بن عبد الله ٢٦٣.

النساء

أم أيمن ١٧١، ١٩٧، ١٩١، ٢٢٧، ٢٦٠، ٢٨٩، ٢٩١، ٣٦٠.

أم أيوب (الانصارية) ٦٢٢.

أم جميل بنت حرب ٤١٣، ٤١٤.

أم سلمة ٤٥٤، ٦١١.

أم كلثوم (بنت رسول الله) ٢٦١، ٢٧٨.

أم معبد ٦١٦.

أم هاني (أخت علي بن أبي طالب) ٥٣٥، ٥٣٦، ٥٣٨.

(676)

«الألقاب»

الاصمعي ٦٠٩.

الاميني (العلامة) ٣٥٨، ٣٥٩، ٥٣٠، ٥٨٤.

البلاذري ٦٠٩.

البلاغي ٢٤١.

البيهقي ٥٤١.

الترمذي ٣٦٤.

الجاحظ ٥٩٦.

الجنابذي ٢٥٦.

الحاكم النيسابوري ٦١٢.

الحلبي ٦٠٣.

الخوارزمي ٣٦٠، ٣٦٩.

الديار بكري ٢١٠.

ذوالقرنين ٣٨٢، ٤٦٤.

الزرقاني ٢٩٢، ٢٤٦، ٣٦٦.

السيوطي (جلال الدين) ٣٦٩، ٣٧٢.

الشيراوي (صاحب الاتحاف) ٢٩٢.

الشهرستاني ٢٨٨.

الشهيد الثاني ٢٠٥، ٢٠٧.

الطباطبائي ٣٠٧، ٣١١، ٣٤٦.

الطبرسي ٣٠٧، ٣٣٩، ٤٨١، ٥٤٠، ٥٤١.

الطبري ٣٤٠، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦١، ٣٦٢، ٣٧٩، ٣٨٠، ٣٨٣، ٣٩٦، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٨٨، ٥٩٨، ٥٩٩.

الطريحي (المؤلف) ٢٠٥.

الطوسي (الشيخ) ٥٩٩، ٦٠١، ٦٠٣، ٦١٨.

الفخر الرازي ٣٠٧، ٣٤٨، ٥٠٩.

الفرزدق ٤٦، ٤٩.

الفردوسي (الشاعر) ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨.

فرعون ١٢١، ١٨٩، ٢٠٠، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٦٢.

القسطلاني ٣٦٧، ٣٧٥.

القوشجي ١٩٦.

كسرى ١٠٣، ١١٠، ٢٠٢، ٣٥٧.

الكلبي ٥٢.

المجلسي (العلامة) ٢٩٦، ٣٤١، ٤١٣، ٦١٦، ٦٢٤.

المسعودي (المؤرخ) ٤١.

المقرئزي ٢٠٤، ٥٩٨.

النفيسي (سعيد) ١٠٤.

اليقوبي ٢٨٨، ٣٨٥.

النجاشي ٩٦، ١٦١، ٣٧٤، ٣٧٥، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٥٨، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٩٣.

(678)

(7)

فهرس الوقائع والأيام

أحد (معركة) ٤٨٦.

الأحزاب (معركة) ٤١٦، ٤٦١، ٤٧١، ٤٨٠، ٤٨٨.

بدر (معركة) ٤١٦، ٤٨٠، ٤٨٦، ٥٦١.

بعثت (يوم) ٦٧، ٥٧٤.

بيعة العقبة ٥٧٥.

بيعة النساء ٥٧٠.

حادثة الفيل ١٥٩، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥، ٢٠٣، ٥٥٢، ٦٠٥.

حجة الوداع ٦٤.

حلف الفضول ٢٤٨، ٢٤٩.

الخنديق (معركة) ٤٨٠، ٤٨٦.

داحس والغبراء (حرب) ٦٥.

صفين (وقعة) ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٢.

الفجار (حروب) ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٧٣.

القرطاء (غزوة) ٦١١.

ليلة المبيت ٥٩٥، ٥٩٦.

المباهلة ٥٣٧، ٥٤١، ٥٤٢.

المعراج ٥٤٤، ٥٤٥.

فهرس الأماكن والبلدان

آسيا ٢٧، ١١٦.

الابواء ٢٢٨.

الاتحاد السوفيتي ١٥٩، ٥٥١.

الاحساء ٢٨.

الاحقاف ٢٨.

الاردن ٥٣٦.

أرمينية ٩٨.

الازهر ٣٤٦، ٦١٤.

افريقية ٢٨.

امريكا ٨٥.

الاندلس ١٠٠.

انطاكية ٢٧، ٨٧، ٨٩، ٩٨.

أوربة ٤٠، ١٠٠، ٢٣٧.

اورشليم ٧، ١١١.

ايران ٢٧، ٨٧، ٨٩، ٩٨.

ايطاليا ٢٧.

بايل ١٢٠، ١٢٢، ١٢٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١.

بادية سماوة ٢٧.

البحر الاحمر ٢٧، ٢٩، ٣١، ٣٢.

(680)

بحيرة ساوة ٢٠٢.

البصرة ٣٠٣، ٣٦٧.

بصرى ٢٣٢، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٣٥.

بيت الله الحرام ٢٨٩.

بيت المقدس ٥٣٦، ٥٣٧، ٦١١.

بيروت ٥١١.

تهامة (سوق) ٢٥٦.

ثنية الوداع ٦٢٦.

جبل أبو قيس ٢٨٧.

جدة ٢٩، ٢٨٤، ٤٥٣.

الجزيرة العربية ٢٧، ٣٢، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ٥٢، ٥٤، ٥٥، ٦٦، ٧١، ٨٧، ٨٥، ٨٨، ٨٩، ٩٧، ٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٨٠، ٢٨٢،

٣٠٦، ٤١٥، ٥٢٠، ٥٧٦، ٥٨٠.

الجنة والنار ٥٣٦.

الحبشة ٨٧، ٩٦، ١٥٠، ١٦١، ٢٢٤، ٢٨٢، ٢٩١، ٤١٥، ٤٢٤، ٤٥٠، ٤٥١، ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٥٧، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٦٥، ٤٦٩،

٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠١، ٥٠٨.

الحجاز ٢٧، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٤٠، ٤١، ٥٠، ٥٢، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ٩١، ١٣٢، ١٤٢، ١٤١، ١٥٢، ١٥٥، ١٩٩، ٢٢٤، ٢٨٢،
٢٨٣، ٥١١، ٥١٢، ٥٩٥.

حجر اسماعيل ١٤٤.

الحجر الاسود ٢٨٤، ٤١٢.

الحديدة (ميناء) ٣٢.

حراء (جبل / غار) ٢٨٤، ٣١٩، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢، ٣٥٤، ٣٨٢، ٣٨٣.

الحيرة ٢٧، ٥٢، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ١٥٠، ٤٥٢.

الخليج ٢٧، ٢٨.

(681)

خليج عمان ٢٧.

الخورنق ٨٨.

خيبر ٢١٥.

دار الندوة ١٤٧، ١٤٨، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٨٦، ٥٠١، ٥٨١، ٥٨٣.

دار الخيزران ٣٨٩.

دجلة ٢٧.

دمشق ٨٩، ٣٧٦، ٦١٠.

الدهناء ٢٨، ٢٣١.

ديار ثمود ٢٣١.

ذوالمجاز (سوق) ٢٤٥.

ذى طوى ٦١٨.

الربع الخالي ٢٨.

زمزم ٣٧، ٩٠، ١٤٤، ١٥٤، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٧، ٣٦٣، ٣٦٦.

سبأ ٣٣.

سدرة المنتهى ٥٣٦.

سويسرا ٢٧.

الشام ٢٧، ٨٦، ٨٩، ٩٠، ١١٧، ١٤١، ١٤٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٦٩، ١٨٧، ١٩١، ١٩٦، ٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٣،
٢٣٤، ٢٥٦، ٢٥٨، ٢٧٠، ٢٧٩، ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٦٦، ٤٤١، ٤٥٢، ٥١٧، ٥٣٧، ٥٢٧، ٥٦٥، ٥٩٤.

شعب أبي طالب ٥١٢.

صحراء الشام ٢٧.

صحراء العرب ٢٧، ٣١.

صحراء النفوذ ٢٥٨.

صنعاء ٣٢، ٣٣.

ضجنان ٦١٨.

(682)

الظهران ٢٨.

الطائف ٢٩، ٥٤، ٩٠، ٢٤٧.

العدن ٣١.

العراق ٨٧، ١٤٩، ٣٦٥، ٢٦١، ٣٦٨، ٣٧٣، ٥٥٧، ٥٥٩، ٥٩٥.

العربية السعودية ٤١، ٥١٢.

العرم

عسفان

العقبة ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧١، ٥٧٥، ٥٧٦.

عكاظ (سوق) ٢٤٥، ٢٤٧، ٢٤٦.

غار ثور ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠١، ٦٠٣، ٦١٩.

غزة ١٤٩.

الفرات ٢٧، ٨٧، ١٢٠، ٣٧١.

فرنسا ٢٧

فلسطين ٢٧، ٢٩، ٣٧، ١١٧، ١٤١، ٥٣٦

القاهرة ٣٧٩.

قبا ٦١٧.

القسطنطينية ٨٩.

القطيف ٥١١.

قم ٥١٢.

الكعبة المعظمة ٢٩، ٣٠، ٥٤، ١٣٣، ١٤٥، ١٥٥، ١٥٧، ١٥٩، ١٦٢، ١٦٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ٢٠٢، ٢٠٧، ٢٤٩، ٢٦٥،

٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٧، ٢٨٨، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٥٧، ٣٦٧، ٤٠٤، ٤٣٢، ٤٤١، ٤٨٨، ٥٠١، ٦١١.

الكوفة ٨٨.

مازندران ١٠٦.

مجنة (سوق) ٢٤٥.

المحيط الهندي ٢٧.

مدين ٢٣١.

المدينة المنورة ٢٩، ٣٠، ٣٦، ٥١، ٥٤، ٨٧، ٨٨، ٨٩، ٩١، ٩٧، ١٠١، ١٢٠، ١٢٢، ١٢٤، ١٣٥، ١٦٠، ٢١٩، ٢٩١، ٣٨٢،

٤٤٢، ٥١٢، ٥٦١، ٥٦٥، ٥٧٨، ٥٨١، ٥٨٢، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٩١، ٥٩٢، ٦٠٤، ٦٠٩، ٦١٢، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦٢٢،

٦٢٣، ٦٢٤.

مراكش ٥٩٦.

مروة (جبل) ١٤٣، ٢٣٥.

المسجد الاقصى ٥٣٦، ٥٣٨، ٥٣٩.

المسجد الحرام ٢٨٤، ٤١٨، ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٦٠.

مصر ١٢١، ١٤١، ٢٤٣.

المغمس ١٦٢.

مكة المكرمة ٢٩، ٣٠، ٣٧، ٥٠، ٥١، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ٩٠، ٩١، ٩٦، ١٠١، ١٤١، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٠،

١٥١، ١٥٢، ١٥٤، ١٥٥، ١٦٢، ١٦٣، ١٦٤، ١٨٥، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٧، ٢١٦، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٧،

٢٣٠، ٢٣١، ٢٣٤، ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩٠،

٣٠٣، ٣٠٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٨٨، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩١، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٩، ٤٢٠، ٤٢١، ٤٥١،

٤٥٢، ٤٥٣، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤٨١، ٤٨٢، ٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠١،

٥٠٢، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥١٥، ٥٢٢، ٥١٩، ٥٣٦، ٥٣٧، ٥٣٩، ٥٦٠، ٥٦١، ٥٦٢، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٧، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٧٥،

٧٥٦، ٥٧٧، ٥٨٠، ٥٨١، ٥٨٣، ٥٨٦، ٥٨٧، ٥٩١، ٥٩٢، ٥٩٣، ٥٩٧، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦١٥، ٦١٦، ٦١٧، ٦١٨.

نجد ٣١، ٤١.

نجران ٨٩، ١٦٠، ٦١٠.

نينوى ١١٨، ٥٥٨.

الهند ٨٥، ١١٥، ٢٦٥.

وادي القرى ٢٣١، ٥٦٥.

يثرب ٣٠، ١٥٢، ١٥٨، ١٦٠، ١٩٧، ٢٧٧، ٣٠٣، ٥٦٥، ٥٦٦، ٥٦٩، ٥٧٠، ٥٧٣، ٥٨٣، ٦٠٢، ٦٠٤، ٦٠٨، ٦٢٢، ٦٢٤.

اليمن ٢٧، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤١، ٨٦، ٨٩، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٠، ١٦١، ١٦٢، ١٦٥، ١٨٧، ٢٣٣، ٢٩٣، ٤٥٢،

٥٦٥، ٥٩٥.

اليمامة ٤٨٦.

اليونان ٣١.

(9)

المذاهب والأديان ونظم الحكم

الآشورية ٤٠.

الأحناف ٢٨٣.

الاستشراق والمستشرقون ٢١٩، ٢٣٢، ٢٣٥.

الاشكنازي ٨٧.

الرياضة والمرتاؤون ١٨٢، ١٨٤.

الزردشنية ١١٢، ١١٤، ١١٥.

الشاهنشاهية ٨٦، ٦١٤، ٦١٥.

العثمانية ٣٦٧.

الكهانة ١٥٨.

الاهوتية ١٠٠.

المانوية ١١٢.

المجوسية والمجوس ١١٢، ١١٣، ١١٧.

المزدكية ١١٣، ١١٤.

المدرسية (الفلسفة) اسكولاستيك ١٠٠.

النصرانية والنصارى ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٥٩، ٤٦٣، ٤٧٩.

اليعقوبية ٩٩.

الوهابية والوهابيون ٥٩٦.

اليهود واليهودية ١٥٩، ٢٩١، ٣٨٢، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٥٢، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٧١، ٤٧٥، ٤٨٧، ٥٦٥، ٥٦٨، ٥٦٩، ٥٧٣، ٥٧٤.

(686)

(10)

فهرس الموضوعات العلمية المبحوثة ضمناً

-[بحث علمي حول المعجزة

2-طهارة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من دنس الآباء وعهر الأمّات

3-الاحتفال بذكرى المولد النبويّ ليس شركاً

4-خطأ المستشرقين في اسم النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم -

«5-أحمد» كان من أسماء النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - المشهورة

6- نظرة الإسلام في تأثير الرضاع

7- بحث قرآني وتاريخيّ حول كرامات فترة الطفولة عندالنبي

8- مقايسة عابرة بين القرآن والعهدين

9- خديجة في احاديث الرسول واهل بيته - عليهم السلام -

10-بحث حول دين النبي قبل البعثة

11-دور الانبياءالاساسي في اصلاح المجتمع

12-بحث حول الوحي في نظر الماديين والالهييين

13-مناقشة الاساطير المدسوسة في قصة بدء نزول الوحي

14-خاتمية رسول الاسلام

15-النبوة والامامة توأمان

16- أسرار النزول التدريجيّ للقرآن

17- دراسة لأيات من سورة الحج حول إلقاء الشيطان

18- دراسة علمية لحديث الضحاح

19- المعراج والقوانين العلميّة الحديثة

20- لماذا اتخذ العام الهجري ميّداً للتاريخ الإسلامي

165

165

208

212

213

217

219

236

258

292

316

322

340

353

442

444

494

530

548

605

(687)

فهرس المواضيع

- [شبه الجزيرة العربيّة

أو مهد الحضارة الإسلامية

27- 33

مكة المعظمة

تاريخ مكة

المدينة المنورة

29

29

30

-2العرب قبل الإسلام

35- 96

أخلاق العرب و تقاليدهم

هل كان للعرب حضارة؟

ملاحح المجتمع الجاهلي العربي من منظور القرآن

1- الشرك في العبادة

2- إنكار المعاد

3- هيمنة الخرافات

4- الفساد الاخلاقي

5- وأد البنات وإقبارهنّ

6- تصوّراتهم الخرافية حول الملائكة

7- كيفية الانتفاع من الانعام

8- الإستقسام بالأزلام

9- النسيء

10- الربا

37

39

42

43

43

44

45

46

47

47

48

48

49

(688)

صور من الوضع الجاهلي

العقيدة والدين في الجزيرة العربية

عقيدة العرب حول حالة الإنسان بعد الموت

الأداب مرآة أخلاق الشعوب ونفسياتها

مكانة المرأة عند العرب الجاهليين

المرأة ومكانتها الاجتماعية عند العرب

العرب والرّوح القتالية

الأخلاق العامّة في المجتمع العربي الجاهليّ

النزوع إلى الخرافة والاساطير في المجتمع العربي الجاهليّ

الخرافات عند العرب الجاهليين

نماذج من الخرافات في المجتمع العربي الجاهليّ

- 1- الاستسقاء باشعال النيران
- 2- ضرب الثور إذا عافت البقر الماء
- 3- كى صحيح الابل ليبراً السقيم
- 4- حبس ناقة عند القبر إذا مات
- 5- عقر الإبل على القبور
- 6- نهيق الرجل إذا أراد دخول القرية
- 7- تصفيق الضالّ في الصحراء ليهتدي
- 8- الرثم
- 9- وطى المرأة القتل الشريف لبقاء ولدها
- 10- طرح السنّ نحو الشمس إذا سقطت
- 11- تعليق النجاسة على الرجل وقاية من الجنون
- 12- دم الرئيس يشفي
- 13- شق البرقع والرداء يوجب الحب المتقابل
- 14- معالجة المرضى بالأمر العجيبة

50

52

56

57

58

60

64

66

67

70

72

72

72

73

73

74

74

75

75

75

76

76

(689)

15- خرافات في مجال الغائب

16- عقائدهم العجيبة في الجن وتأثيره

17- تشاؤمهم بالحيوانات والطيور والاشياء

مكافحة الإسلام لهذه الخرافات

أوضاع العرب الإجتماعية قبيل ظهور الإسلام

الدين في أرض الحجاز

العلم والثقافة في الحجاز

الإمام عليّ - عليه السلام - يصف العهد الجاهلي

فاطمة الزهراء - عليها السلام - تصف الوضع العربي الجاهلي

جعفر بن أبي طالب يصف الوضع العربي الجاهلي

83

89

91

92

95

96

3-إمبراطوريتنا الروم وإيران

إبان عهد الرّسالة

97- ١١٨

أوضاع الروم إبان عهد الرّسالة

ظاهرة الجدل العقيم في المجتمع الرومى

أوضاع ايران إبان عهد الرّسالة

البيذخ والترف في البلاط الساساني

الوضع الإجماعي في إيران

حق التعلّم خاصّ بالطبقات الممتازة

صفحة سوداء من جرائم خسروبرويز

حكم التاريخ في عهد الملوك الساسانيين

الفوضى في الحكومة الساسانية

الفوضى الدينية في ايران الساسانيين

الحروب الإيرانية الرومية

98

99

101

102

104

105

109

110

111

112

165

(690)

-4أسلاف رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم -

119- 198

-1بطل التوحيد: إبراهيم الخليل - عليه السلام -

النبي إبراهيم ومكافحته للوثنية

حوار الخليل مع عبّاد الكواكب

طريقة الانبياء في الحوار والجدال

هل كان أزر والد إبراهيم

القرآن ينفي أبوة أزر لإبراهيم

إبراهيم محطّم الاصنام

العبر القيّمة في هذه القصة

هجرة الخليل - عليه السلام -

عين زمزم كيف ظهرت؟

2-قصي بن كلاب (الجّد الثاني لرسول الله)

3-عبد مناف (الجّد الثالث)

4-هاشم (الجّد الثاني)

أميّة يحسد هاشماً!

هاشم يتزوّج

5-عبدالمطلب (الجّد الأول)

التفاني في سبيل الوفاء بالعهد والنذر

حادثة عام الفيل

ما هي عوامل هذه الحادثة؟

عبدالمطلب يذهب إلى معسكر أبرهة

كلمة حول المعجزة

نقاط تقتضي التأمل في تفسير حادث الفيل بالجدري

119

123

125

29

130

132

133

137

141

143

146

147

148

150

151

153

157

159

160

163

165

169

(691)

بحث علمي حول المعجزة في نقاط خمس:

1- [بحث ما هي المعجزة وما هو تعريفها؟]

2- هل الإعجاز يهدم القوانين العقلية المسلمة

أنواع العلل والاسباب:

(أ) العلة الطبيعية العادية

(ب) العلة الطبيعية غير العادية وغير المعروفة

(ج) تأثير النفوس والأرواح

(د) العلل المجردة عن المادة

3- هل المعجزة تصدر عن علل مادية غير معروفة فقط؟

4- كيف تدل المعجزة على صحة ادعاء النبوة؟

5- بماذا نميز المعجز عن غيرها من الخوارق؟

أوهام قريش تتفاقم

عبدالله والد النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

دور الأيادي المشبوهة في تاريخ الإسلام

قصة فاطمة الخثعمية

علائم الاختلاق في هذه القصة

طهارة النبي من دنس الآباء وعهر الأمهات

وفاة عبدالله (والد النبي) في يثرب

172

173

175

176

176

176

176

177

178

179

180

187

189

191

192

193

195

196

-5مولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

199 - ٢٢٤

فترة الطفولة في حياة العظماء

في أي يوم ولد رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

أي هذين القولين هو الصحيح؟

فترة الحمل

199

203

204

205

نظرية في يوم المولد النبوي ومواخزات عليه

الاحتفال بذكرى المولد النبوي ليس شركاً

مراسم تسمية النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

خطأ المستشرقين في اسم النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

أحمد كان من أسماء النبي المشهورة

فترة الرضاع في حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

نظرة الإسلام في تأثير الرضاع

207

208

211

212

213

215

217

-فترة الطفولة في حياة النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

الماديون وبعض المستشرقين وكرامات عهد الطفولة

خمسة اعوام في ربوع الصحراء

219

7-العودة إلى احضان العائلة

225- ٢٤٢

سفرة إلى يثرب

وفاة عبدالمطلب

كفالة أبي طالب للنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

سفرة إلى الشام مع أبي طالب

اكذوبة المستشرقين في قصة بحيرى

مقارنة بين القرآن والتوراة والانجيل

1-النبي داود - عليه السلام -

2-النبي سليمان - عليه السلام -

3-النبي يعقوب - عليه السلام -

4-النبي إبراهيم - عليه السلام -

5-النبي نوح - عليه السلام -

227

229

229

230

232

236

237

237

238

239

240

(693)

-فترة الشَّبَاب

في حياة النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

243 - ٢٥٠

رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم - وقدرته الروحية

حروب الفجار

الفجار الأول

الفجار الثاني

الفجار الثالث

الفجار الرابع

جلفُ الفضول

244

244

245

246

246

246

248

-9من فترة الشباب إلى مزاولة التجارة

251 - ٢٧٤

رعي النبي للغنم وأسباب ذلك

إقتراح أبي طالب بالتجارة لخديجة

هل عمل النبي اجيراً لخديجة؟

خديجة زوجة الرسول الأولى

خديجة في أحاديث الرسول الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

العلل الظاهرية والحقيقية وراء زواج خديجة بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

كيف تمت خطبة خديجة؟

عمر خديجة عند زواجها بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

253

254

255

258

260

270

272

274

10- من الزواج إلى البعثة

275- ٣١٢

فترة الشباب في حياة رسول الإسلام - صلى الله عليه وآله وسلم -

276

(694)

أحاسيسه ومشاعره الانسانية في فترة الشباب

أولاد خديجة

حدس لا أساس له من الواقع في شأن خديجة

دعى رسول الله: زيد بن حارثة

بداية الخلاف في صفوف الوثنيين

أعمدة الوثنية تهتز

نموذج آخر من ضعف قریش

أمین قریش یکفل علیاً

إیمان النبىّ وأبائه وكفلائه قبل الإسلام

إیمان جدّه عبدالمطلب

إیمان كفيله وعمه أبی طالب

إیمان والدي النبىّ الأكرم

إیمان النبىّ بالله وتوحيده قبل البعثة

مناقشة الآيات التي استدلت بها النافون لإیمان النبىّ

الآية الأولى: الهداية بعد الضلال

الآية الثانية: الأمر بهجر الرجز

الآية الثالثة: عدم علمه بالكتاب والإیمان

تفسير هذه الآية بأخرى

الآية الرابعة: عدم رجائه القاء الكتاب إليه

الآية الخامسة: قوله تعالى: «لو لم يشأ ما تلوته»

277

278

278

279

280

281

283

285

286

286

290

291

292

292

297

300

302

306

308

310

11- بدء الوحي

313-342

دور الأنبياء الأساسي في إصلاح المجتمع

مثل واضح في المقام

317

317

(695)

أمين قريش في غار حراء

بدء الوحي

ظاهرة القضايا الغيبية في منظار الماديين

الروح المجردة

ظاهرة الوحي عند الماديين

أبرز التحليلات المادية لظاهرة الدين

ظاهرة الوحي في منظار العقل والدين

قنوات المعرفة الثلاثة: التجربة، العقل، الإلهام

انواع الوحي من المنظور القرآني

اساطير مختلفة حول حال النبي عند نزول الوحي

بقية قصة نزول الوحي الأول

خديجة تذهب إلى ورقة بن نوفل

بطلان هذه المزاعم والاساطير

319

321

322

324

325

325

333

334

336

336

337

338

340

12- متى نزل الوحي أولاً؟

343-352

الرأي المشهور بين علماء السنة واستدلّاهم

ردود الشيعة على هذا الرأي

الجواب الأول (التفريق بين النزول الدفعي والتدريجي)

الجواب الثاني (نزول حقيقة القرآن في رمضان على قلب النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -)

الجواب الثالث (التفكيك بين مبدأ نزول القرآن و البعثة)

الانبياء والتبشير برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

محمد خاتم الانبياء

343

344

346

346

346

* * *

(696)

13- ماسبقني أحد

353- 386

من هو أول من آمن بالنبي - صلى الله عليه وآله وسلم - من الرجال والنساء؟

من النساء: خديجة

أقدم الرجال إسلاماً: علي بن أبي طالب

الدلائل التاريخية والنصوص الدالة على اسبقية الإمام علي

علي تربى في حجر النبي الأكرم - صلى الله عليه وآله وسلم -

علي وخديجة يقيمان الصلاة مع النبيّ

«أنا الصديق الأكبر»

«أولكم إسلاماً عليّ»

النصوص النبويّة الأخرى

كلمات أمير المؤمنين - عليه السلام -

كلمات الإمام السبط الحسن - عليه السلام -

رأي الصحابة والتابعين في أول من أسلم

مناظرة بين المأمون وإسحاق في إسلام عليّ

قضية انقطاع الوحي

اسطورة وليس تاريخاً

اختلاف المؤرخين في مسألة إنقطاع الوحي

353

353

354

354

355

357

357

358

359

361

364

364

378

379

380

381

14- الدعوة السريّة، دعوة الأقرّبين

387- ٤٠٠

دعوة الأقرّبين

كيفية دعوة الأقرّبين

خيانة تاريخية وجناية أدبيّة

389

394

395

15-الدعوة العامة

401- ٤٢٨

الثبات والاستقامة على طريق الهدف

ثبات النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - **وصبره**

قريش تمشي إلى أبي طالب للمرة الثالثة

قريش تحاول تطميع النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

نماذج من إيذاء قريش وتعذيبها للمسلمين

أبوجهل يكمن لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

أبولهب يؤذي رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

صبر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - **وإستقامته**

بعض من أوذوا بأشد الأذى:

1-بلال الحبشي

2-آل ياسر رمز الصمود والمقاومة

3-عبدالله بن مسعود

4-أبوذر أول المهاجرين بالإسلام

قبيلة غفار تعتنق الإسلام

أعداء النبي الألداء

عمر بن الخطاب يعنتق الإسلام

402

403

406

407

408

412

413

414

414

415

416

417

418

421

422

424

16- رأي قريش في القرآن

428- ٤٤٩

حكيم الوليد بن المغيرة في شأن القرآن

نموذج آخر من حكم البلغاء في شأن القرآن

428

430

(698)

تحجّجات قريش العجيبة

الدوافع وراء معاداة قريش و عنادهم:

1- حسدهم لرسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

2- معارضة الدعوة الإسلامية لشهواتهم

3- الخوف من العقاب الأخرى

4- الخوف من ردّ فعل القبائل العربية المشركة

طائفة من اعتراضات المشركين

القرآن الكريم والنزول التدريجي

الأسرار المنطقية للنزول التدريجي للقرآن الكريم

أسرار أخرى لنزول القرآن تدريجاً

432

438

440

440

440

441

441

442

444

447

17- الهجرة إلى الحبشة

450- ٤٦٥

الهجرة الأولى إلى الحبشة

الهجرة الثانية إلى الحبشة

قريش توفد رجالا لاسترداد المسلمين

العودة من الحبشة

وفد مسيحي يدخل مكة لتقصي الحقائق

قريش توفد إلى يهود يثرب للتحقيق في أمر النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

450

454

455

460

462

463

18- الاسلحة الصديئة

والاساليب الفاشلة

466. ٤٨٦

1-الإتهامات الباطلة

الإصرار في نسبة الجنون إلى رسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

466

469

(699)

2-القرآن يردّ على جميع الاتهامات

فكرة معارضة القرآن

تحجّجات صيدانية وجاهلية

مقترحات عجيبة ومطالب غريبة

صمود النبيّ وصبره

معاجز النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم - لم تقتصر على القرآن

بعض معاجز النبيّ غير القرآن

1-شقّ القمر

2-المعراج

3-مباهلة أهل الباطل

4-الإخبار بالمغيبات

حرص النبيّ على هداية قريش

3-قرار تحريم الاستماع للقرآن

واضعوا القرار ينقضون قرارهم

منع الأشخاص من الإيمان برسول الله - صلى الله عليه وآله وسلم -

1-الأعشى

2-الطفيل بن عمرو الدوسي

471

473

474

476

477

478

478

478

478

479

479

480

481

483

483

484

485

19- أسطورة الغرائيق

487- ٤٩٨

ماهي أسطورة الغرائيق؟

محاسبة بسيطة لهذه الأسطورة تفنّدها

رأي العقل في هذه القصّة الاسطورة

تفنيد القصّة من طريق آخر

دليلٌ لغوئٌ على تفنيد هذه الأسطورة

دراسة آيات من سورة الحج حول القاء الشيطان

488

489

490

492

493

494

(700)

ما هو المقصود من تمنّي الأنبياء والرّسل؟

ما هو المقصود من تدخّل الشيطان والقائه؟

ما هو المقصود من محو آثار التدخّل والإلقاء

495

495

497

20- الحصار الاقتصادي والاجتماعي

499 . ٥١٠

قريش تحاصر النبيّ والمسلمين اجتماعياً وإقتصادياً

قريش والصحيفة القاطعة

وضع بني هاشم المأساوي في شعب أبي طالب

500

503

-21 وفاة أبي طالب وخديجة الكبرى

511- ٥٣٣

نماذج من مشاعر أبي طالب تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

التعبير في برنامج السفر

الدفاع عن حوزة العقيدة والإيمان

تصوّر باطل عن مشاعر أبي طالب تجاه النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

الدافع الحقيقي لأبي طالب

لمحات من تضحيات أبي طالب

قضية ذات بواعث سياسية

طرق ثلاث لإثبات إيمان أبي طالب

-1 آثار أبي طالب العلمية والأدبية

-2 مواقف من النبي والرسالة الإسلامية

وصية أبي طالب عند وفاته

-3 شهادات اقرباء أبي طالب (من أهل البيت)

رأي علماء الشيعة في أبي طالب

نظرة إلى رواية الضحاح

ضعف أسناد هذه الرواية

514

517

518

520

520

521

523

524

525

526

528

529

530

530

531

الف: سفيان بن سعيد الثوري

باء: عبد الملك بن عمير

جيم: عبدالعزيز بن محمد الدراوردي

نص حديث الضحاح يخالف الكتاب والسنة

1- القرآن الكريم: لامغفرة للكافر

2- السنة النبوية: لا شفاعة للمشارك

531

531

532

532

533

533

22- المعراج في القرآن والسنة والتاريخ

535- 554

هل للمعراج جذور قرآنية؟

أحاديث المعراج

متى وقعت هذه الحادثة؟

هل كان المعراج جسمانياً؟

ما هو المراد من المعراج الروحاني

نغمة شاذة

المعراج وقوانين العلم الحديث

الهدف من المعراج

537

540

541

543

544

547

548

553

23- سفرة إلى الطائف

555- ٥٦٤

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يعود إلى مكة

نقطه هامة

الدعوة في أسواق العرب

دعوة رؤساء القبائل في مواسم الحج

559

561

562

563

-24بيعة العقبة

565- ٥٨٢

وقعة بُعَاث

تفصيل الحادثة

567

568

(702)

بيعة العقبة الاولى

بيعة العقبة الثانية

أوضاع المسلمين بعد بيعة العقبة

ردود فعل قريش تجاه بيعة العقبة

تأثير الإسلام ونفوذه المعنوي

مخاوف قريش المتزايدة

569

570

573

575

577

580

25- قصّة الهجرة النبويّة

حوادث السنة الاولى من الهجرة الشريفة

583- 624

الإمدادات الغيبية والعنايات الربانية

ملاك الوحي يخبر رسول الله بمؤامرة قريش

إقحام الاعداء لبيت الوحي والرسالة

النبيّ في غار ثور

قريش تفتش عن النبيّ - صلى الله عليه وآله وسلم -

التفاني في سبيل الحق

كلام من ابن تيمية في مبيت علىّ - عليه السلام -

الجواب التفصيلي على هذا الكلام

الخطيب وقضية المبيت

بقية قصة الهجرة النبوية

الخروج من الغار

صفحة التاريخ الاسلامي الأولى

لماذا أصبح عام الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي

الهجرة النبوية مبدأ لتاريخ المسلمين كافة

من أذني جعل الهجرة مبدأ للتاريخ الاسلامي

نماذج من رسائل النبي المؤرخة بالعام الهجري

585

587

590

591

592

593

596

598

600

601

603

604

605

606

608

609

(703)

التذكير بنقطتين

مؤامرة الطاغوت

برنامج الرحلة في حادث الهجرة

النزول في قرية قباء

المدينة تهب لاستقبال النبي - صلى الله عليه وآله وسلم -

النبي - صلى الله عليه وآله وسلم - يدخل المدينة

أصل النفاق ومنشأه

613

614

615

617

619

621

